

# قصة الحضارة ول ديورانت

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مقدمة

الكتاب الثاني

فرنسا

1723-1756

الفصل السابع

الشعب والدولة

كان عدد سكان فرنسا التي عاد إليها فولتير 1727، نحو تسعة عشر مليوناً من الأنفس، مقسمة إلى ثلاث طبقات: رجال الدين والنبلاء، ثم الطبقة الثالثة التي تضم بقية الشعب. وإذا أردنا أن نفهم الثورة الفرنسية فلا بد لنا من أن ندرس كل طبقة منها دراسة دقيقة.

صفحة رقم : 11958

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> النبلاء

## 1- النبلاء

أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استمدوا ألقابهم من الأرض التي امتلكوها (وهي ربع أرض فرنسا تقريباً) على أنفسهم اسم "نبلاء السيف". وكانت مهمتهم الرئيسية أن ينظموا ويتولوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن إقليمهم وعن وطنهم وعن ملكيهم. وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر ترأس هؤلاء النبلاء نحو ثمانين ألف أسرة ضم نحو أربعمئة ألف من الأنفس (1). وكانوا شيعاً أو طبقات متحاسدة، أعلاها طبقة ذرية الملك الذي يتربع في دست الحكم وأولاد أخوته وأخواته. وبلي هؤلاء في منزلة أدنى، طبقة أشرف فرنسا: وتضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين، ثم سبعة أساقفة وخمسين دوقاً. ويأتي بعد ذلك الأذواق الأقل شأنًا، ثم الحاصلون على لقب مركيز، ثم لقب كونت، ثم لقب فيكونت، ولقب بارون وشيفالييه (نبيل من الدرجة الدنيا). وكانت ثمة امتيازات رسمية تميز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض. ومن هنا كان نزاع حاد فاجع حول حق السير تحت المظلة في مواكب عيد القربان أو حق الجلوس في حضرة الملك.

ومن بين نبلاء السيف هؤلاء، تعقبت أقلية منهم أصول ألقابها وممتلكاتها عبر عدة أجيال، واختصت نفسها باسم "النبلاء ذوي المحنت الكريم"،

صفحة رقم : 11959

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> النبلاء

ونظروا فيها بعين الازدراء إلى النبلاء الذين حصلوا على لقب النبالة عن طريق أسلاف حديثي العهد، أو حصلوا عليه هم أنفسهم في عهد لويس الثالث أو لويس الرابع عشر. كما أن بعض هذه الألقاب كانت تمنح لقاء خدمات للدولة في الحرب أو في الإدارة أو في التمويل، كما أن بعضها كان يبيعه الملك المعظم المعوز الراحل، مقابل ستة آلاف جنيه، وبهذه الطريقة، كما قال فولتير، "حصل عدد كبير من المواطنين-رجال المصارف والجرأون والتجار والكتبة وخدم الأمراء-على براءة النبالة(2)" وثمة مناصب حكومية معينة، مثل منصب المستشار أو كبير القضاة، كانت تضي على شاغلبها لقب النبالة تلقائياً. وفي عهد لويس الخامس عشر كان في مقدور أي رجل عادي أن يحصل على النبالة بشراء حق تعيينه وزيراً مقابل مائة وعشرين ألف جنيه. وفي عهد لويس السادس عشر ربما كان هناك نحو تسعمائة وزير وهمي أو صوري من هذا الطراز. كما أنه كان في الإمكان شراء اللقب بشراء ضيعة أحد النبلاء. ويحتمل أنه في 1789، كان نحو 59%، من مجموع النبلاء ينحدرون في الأصل من الطبقة الوسطى(3).

ووصلت غالبية هؤلاء إلى درجة كبيرة من الأهمية ورفعة الشأن عن طريق دراسة القانون، ومن ثم حصلوا على مناصب القضاء والإدارة. ومن بينهم كان أعضاء البرلمانات الثلاثة عشر التي كانت بمثابة دور قضاء في كبريات المدن في فرنسا، ولما كان يجوز للقاضي أو الحاكم ترك منصبه لابنه، فقد تشكلت أرستقراطية وراثية-هم نبلاء

الرداء (الروب). وكان الرداء بالنسبة لرجل القضاء، كما هو بالنسبة لرجل الدين، يمثل نصف السلطة أو السيادة. وكان أعضاء البرلمان وهم يرفلون في أروبتهم القرمزية، وعباءاتهم الثقيلة والأكوام ذات الأهداب والشعور المستعارة المضمخة والقبعات ذات الريش، يجيئون في مرتبة أدنى من الأساقفة ونبلاء الأرض. ولكن حيث أن بعض الحكام والقضاة أصبحوا، عن طريق الرسوم القانونية التي كانوا يتقاضونها، أكثر ثراء من معظم ملاك الأرض.

صفحة رقم : 11960

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> النبلاء

نوي الحسب والنسب، فقد تحطمت الحواجز بين نبلاء السلاح ونبلاء الرداء وما وافى عام 1789 حتى كان ثمة اندماج كامل تقريباً بين الطبقتين. وبلغت الطبقة التي تكونت عندئذ من وفرة العدد والقوة مبلغاً لم يستطع الملك معه أن يقف في وجهها أو يقاومها، وزعماء الثورة وهدمهم هم الذين استطاعوا أن يقضوا على هذه الامتيازات الباهظة التكاليف.

وانتاب الفقر كثيراً من النبلاء القدامى بسبب الإهمال في إدارة ممتلكاتهم أو تخييبهم عنها، أو بسبب أتباعهم أساليب متخلفة في زراعتها، أو إنهاك التربة، أو خفض قيمة العملة التي كانوا يتقاضون بها إيجار الأرض أو الرسوم الإقطاعية. ولما كان المفروض ألا يشتغل النبلاء بالتجارة أو الصناعة، فإن نمو هذه وتلك خلق اقتصاداً قائماً على المال، قد يمتلك المرء في ظله أرضاً شاسعة ولكنه يظل فقيراً. وكان هناك في بعض أقاليم فرنسا مئات من النبلاء يعانون من الفقر مثلما يعاني الفلاحون(4). ولكن أقلية كبيرة من النبلاء تمتعت بثروات ضخمة وبذروا تديراً. فكان الدخل السنوي لمركز دي فيبيت 150 ألف جنيه، ولدوق دي شفرينز 400 ألف جنيه، ولدوق دي بويون 500 ألف جنيه. وأعفى معظم النبلاء من الضرائب المباشرة، إلا في حالة الطوارئ، حتى تصبح الحياة لديهم أكثر احتمالاً ويسراً. وخشي الملوك أن يفرضوا عليهم الضريبة حتى لا يطالبوا بدعوة مجلس الطبقات، فقد تفرض الطبقات الثلاث في مثل هذا الاجتماع بعض الرقابة على الملك ثمناً للموافقة على الاعتمادات أو الإعانات. قال توكفيل "كان عدم المساواة في الضرائب يعمل على التفرقة بين الطبقات في كل عام حيث أعفى الأغنياء وأثقل كاهل الفقراء(5)". وفي عام 1749 فرضت على النبلاء ضريبة دخل قدرها 5% ولكنهم كانوا يفاخرون بالتهرب منها. وقبل القرن السابع عشر كان نبلاء الأرض يقومون بمهام الاقتصاد والإدارة والحرب، وأياً كانت طريقة إحرار الممتلكات، فإن هؤلاء السادة نظموا تقسيم الأرض وفلاحتها، إما عن طريق الرقيق أو عن طريق عقود الإيجار، وسهروا على القانون، وقاموا بإجراءات المحاكمة وأصدروا

صفحة رقم : 11961

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> النبلاء

الأحكام، ونفذوا العقوبات، وتعهدوا المدارس والمستشفيات المحلية، ووزعوا الصدقات. وفي مئات من مناطق السيادة والنفوذ مارس السيد الإقطاعي هذه الوظائف والمهام، بالقدر الذي سمحت به الأنانية الطبيعية في الإنسان. وقد اعترف الفلاحون بانتقاعهم منه، ومن ثم فإنهم أطاعوه واحترموا وفي بعض الأحيان أحبوهم. وأدى عاملان أساسيان إلى تبديل هذه العلاقة الإقطاعية: تعيين الحكام أو المحافظين على عهد الكاردينال ريشيليو وما بعده، وتحويل لويس الرابع عشر لكبار السادة الإقطاعيين إلى رجال حاشية. وكان هؤلاء المحافظون موظفين بيروقراطيين من الطبقة الوسطى، يبعث بهم الملك ليحكموا الأقسام الاثني والثلاثين التي انقسمت إليها فرنسا من الناحية الإدارية. وكانوا عادة ذوي كفاية ومقدرة ونيات حسنة، ولو لم يكونوا جميعاً من أمثال ترجو. وقاموا بتحسين الأحوال الصحية والإضاءة وتزيين المدن، وأعادوا تنظيم الشؤون المالية، وبنوا السدود والخزانات على الأنهار من أجل الري، أو أقاموا الحواجز لخطر الفيضانات، وزودوا فرنسا في هذا القرن بشبكة هائلة من الطرق لم يكن لها مثيل في سائر أنحاء العالم. وشرعوا في أن يغررسوا على جوانبها الأشجار التي تظلها اليوم وتزينها (6). وسرعان ما زحزح تفوقهم في الدأب على العمل والمقدرة والكفاية السادة الإقطاعيين المحليين عن حكم الأقاليم، ورغبة في التعجيل بهذه الزحزحة التي تركز الحكم في أيدي هؤلاء المحافظين، وعمد لويس الرابع عشر إلى دعوة السادة الإقطاعيين للانتظام في بلاطه الملكي. وهناك عينهم في وظائف بسيطة ذات ألقاب رفيعة وأوشحة مخدرة. وفتدوا الاتصال بالشؤون المحلية على حين ظلوا يحصلون من مزارعهم على الموارد اللازمة للإنفاق على قصورهم وبياناتهم في باريس أو فرساي. ونشبتوا بحقوقهم الإقطاعية بعد أن تخلوا عن واجباتهم الإقطاعية. إن ضياع المهام الإدارية التي كانوا يقومون بها في مجال الاقتصاد والحكومة جعلهم عرضة للاتهام بأنهم كانوا طفيليات غير ضرورية عالية على فرنسا.

صفحة رقم : 11962

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> رجال الدين

2- رجال الدين

كانت الكنيسة الكاثوليكية قوة أساسية ذات وجود بارز في كل ركن في الحكومة. وقدر رجال الدين الكاثوليك في فرنسا بنحو 260 ألفاً في 1667 (7)، و420 ألفاً في 1715 (8). و194 ألفاً في 1762 (9). وهذه الأرقام كلها من قبيل التخمين، ولكن قد نفترض انخفاض هذا العدد بنسبة 30% في القرن الثامن عشر، على الرغم من تزايد عدد السكان، وحسب لاكروا أن فرنسا كان فيها عام 1763، 18 رئيس أساقفة، 109 أساقفة، و40 ألف قسيس، و50 ألف مساعد قسيس، و27 ألف كاهن، و20 ألف كاتب (من رجال الدين)، ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية (10)، ومن بين 740 ديراً كان هناك 625 ديراً يتولى شئونها مساعدا رؤساء أديار، لمصلحة رؤساء أديار متعيبين عنها وكانوا يتمتعون باللقب وبنصف أو ثلثي دخل الدير، دون أن يكون مطلوباً منهم أن يحيوا حياة كنسية. وكان رجال الدين الأعلى مرتبة يشكلون من الوجهة العملية فرعاً من النبلاء، وكان الملك يعين كل الأساقفة، عادة، بناء على ترشيح السادة الإقطاعيين المحليين، على شرط موافقة البابا. ورغبة من الأسرات ذوات الألقاب في عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث، كفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار، حتى أنه في 1789 لم يكن من بين المائة والثلاثين أسقفاً في فرنسا إلا واحداً فقط من الأفراد العاديين غير ذوي الألقاب (11). وأدخل أبناء الأسرات العريقة هؤلاء معهم إلى الكنيسة عاداتهم التي درجوا عليها في التمتع بترف الدنيا وزخرفها. ومن ذلك أن الأمير الكاردينال إدوارد دي روهان كان في القديس برندي ثوباً كهوتياً له حواش من المخمرات المعقودة، قدرت

قيمته بمائة ألف جنيه، وكانت أدوات مطبخه من الفضة الخالصة (12). وفسر رئيس الأساقفة ديللون دي نابون للويس السادس عشر، السبب في أنه أي رئيس الأساقفة، استمر

صفحة رقم : 11963

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> رجال الدين

في ممارسة الصيد بعد أن حرمه على رجال الدين في أسقفيته، بقوله "مولاي إن رذائل رجالي من عند أنفسهم، ولكني ورثت رذائلي أنا عن أسلافي (13) لقد انقضى العصر الزاهر لرجال الكنيسة من أمثال بوسويه وفيلون وبوردلو- وأفسح المرح الأبيقوري الصاحب في عهد الوصاية المجال أمام رجال مثل ديبو أوتنسان للترقي في مناصب الكنيسة على الرغم من انغماسهم في ملذات الصيد بنوعيه، اقتناص الحيوان واصطياد النساء. وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم في فرساي أو باريس، مشاركين البلاط الملكي بهجته ومسراته ومبازله، فاحتفظوا بقدم في الآخرة وقدم في الدنيا، ولم ينسوا نصيبهم من متاعها.

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم، حتى إلى حد تقديم ثور لخدمة أبقار فلاحهم (14). وكانت ممتلكاتهم الشاسعة، التي كانت تضم أحياناً مدن بأسرها، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية. وكان جزء كبير من مدينة فرن ومعظم الأرض المحيطة بها ملكاً للأديار (15)، وفي بعض الكوميونات (وحدات التقسيم الإداري)، عين الأسقف كل القضاة والموظفين، وهكذا عين رئيس أساقفة كمبري الذي كان السيد الأعلى على منطقة تضم 75 ألفاً من السكان كل رجال الإدارة في كاتوكمبرسيس، ونصفهم في كمبراي (16). وعمر نظام الرقيق لأطول فترة في ضياع الأديار (17) وكان للكهنه في سان كلود في جبال جورا اثنا عشر ألفاً من الرقيق، وقاوموا بشدة الانتقال من الخدمات الإقطاعية (18). وارتبطت حصانات الكنيسة وامتيازاتها بالنظام الاجتماعي القائم، كما جعلت لهيئة الكنيسة أقوى تأثير محافظ على القديم يناهض أي تغيير في فرنسا.

وجمعت الكنيسة سنوياً، مع شيء من الاعتدال ومراعاة الظروف، العشور من نتاج كل مالك أرض وماثية، ولكن هذا نادراً ما كان العشر في الواقع، بل كان في الكثير الغالب جزءاً من اثني عشر، وأحياناً جزءاً من عشرين (19). وبهذه العشور، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث، وبدخل العقارات الثابتة، احتفظت الكنيسة بكهنة أبرشياتها فقرأ معوزين

صفحة رقم : 11964

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> رجال الدين

على حين عاش الأساقفة مترفين منعمين. وأغاثت الكنيسة المحتاجين المعدمين وعلمت الصغار ولقنتهم مبادئها. وفي المقام التالي بعد الملك وجيشه، كانت الكنيسة أقوى وأغنى سلطة في فرنسا. وكانت تمتلك، طبقاً لمختلف التقديرات،

ما بين 6% و 20% من الأرض (20)، وثالث الثروة (21). وكان دخل أسقف سنس السنوي 70 ألف جنيه، وأسقف بوفيه 90 ألفاً، ورئيس أساقفة روان 100 ألف، ورئيس أساقفة ناريون 190 ألفاً، ورئيس أساقفة باريس 200 ألف، أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوي على المليون من الجنيهات (22). وكان رأس مال كنيسة بريمونترية بالقرب من لاؤون 45 مليوناً من الجنيهات. أما الاخوة الدومنيكان البالغ عددهم 236 في تولوز فقد بلغت مقتنياتهم من الأملاك الفرنسية والمزارع في المستعمرات ومن الرقيق الأسود ما قدرت قيمته بعدة ملايين من الجنيهات أما رهبان سانت مور فقد بلغت قيمة ممتلكاتهم 24 مليوناً من الجنيهات ندر ثمانية ملايين في العام. ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شيء من ممتلكاتها أو دخلها، ولكن كبار رجال الدين كانوا يقررون بصفة دورية في المجامع الوطنية إعانة اختيارية للدولة. وفي 1773 بلغت هذه الإعانة ستة عشر مليوناً من الجنيهات لمدة خمس سنوات. وقد اعتبرها فولتير نسبة عادلة من دخل الكنيسة (23). وفي 1749 اقترح ماشول دي انوفيل المراقب العام المالي أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها 5% من مجموع الدخل تفرض على الكنيسة وعلى عامة الناس وخشي رجال الدين أن تكون هذه خطوة أولى نحو سلب أموال الكنيسة بغية إنقاذ الدولة، فقاوموا الفكرة في "غضب شديد وإصرار (24)". كذلك اقترح ماشول تحريم التوريث بالوصية للكنيسة دون موافقة الدولة، وإلغاء المؤسسات الدينية التي قامت منذ 1636 دون ترخيص من الملك، ومطالبة شاغلي الرتب الكنسية ذات الدخل بتقديم تقرير عن مواردهم إلى الحكومة. وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات، وقالوا: "الن موافق إطلاقاً على أن يصبح ما كان حتى الآن ثمرة حينا وإجلالنا ضريبة على طاعتنا"، وأمر لويس الخامس عشر

صفحة رقم : 11965

#### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> رجال الدين

بفض الاجتماع، كما أصدر المجلس الملكي أوامره إلى المحافظين بجمع ضريبة أولية مقدارها سبعة ملايين ونصف مليون جنيه على أملاك الكنيسة. وحاول فولتير تشجيع ماشول والملك فأصدر كتيباً عنوانه "صوت الحكمة وصوت الشعب" حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزارة ضد كل قوى الخرافة (25). ولكن لويس الخامس عشر لم ير سبباً يدعو إلى الاعتقاد بأن الفلاسفة في مقدورها أن تكسب الجولة في الحرب مع الكنيسة. وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحة الزيت المقدس وتتويجه بأيدي رجال الكنيسة، ليصبح بعد ذلك في نظر الجماهير التي ليس في مقدورها أن تدنوا منه إلى حد تستطيع معه إحصاء عدد محظياته نائب الله الذي يتحدث بمقتضى التقويض الإلهي. أن الإرهاب الروحي الذي يبثه رجال الدين في النفوس وتعززه قوى التقاليد والعادات والاحتفالات الدينية والملابس الكهنوتية والهيبة، نقول إن هذا الإرهاب قام مقام ألف من القوانين ومائة ألف من رجال الشرطة في المحافظة على النظام الاجتماعي، والإبقاء على طاعة الجماهير وامتثالها للحكومة والملك. وهل في مقدور أية حكومة، دون دعم من الرجاء والخوف الخارقين للطبيعة، أن تسيطر على ما فطر عليه الناس من نزعة التمرد على القانون أو عدم الخضوع له؟ وعقد الملك عزمه على الاستسلام للأساقفة، ونقل ماشول إلى منصب آخر، وصادر كتاب فولتير، ووافق على منحة اختيارية بدلاً من الضريبة على أملاك الكنيسة. إن قوة الكنيسة كانت تعتمد أساساً على نجاح كاهن الأبرشية، وإذا كان الناس يخشون رجال الدين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم (الأساقفة مثلاً)، فانهم أحبوا الراعي المحلي الذي شاركهم فقرهم وعوزهم، وأحياناً كدحهم وكدهم في فلاح الأرض. انهم تدمروا من جمع العشور، ولكنهم كانوا على يقين من أن رؤساء الراعي هم الذين أرغموه على جمعها،

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الشعب والدولة -&gt; رجال الدين

وأن تُلثي هذه العصور ذهب إلى الأسقف أو إلى أحد ذوي المناصب الكنسية الغائبين عنها، على أن كنيسة الأبرشية. صنائها ما كانت تعاني من خلل وحاجة إلى ترميم، مما تنن منه التقوى نفسها. إن هذه الكنيسة الحبيبة كانت دار بلديتهم، يعقدون فيها اجتماعاتهم القروية تحت رئاسة الكاهن. وفي سجل الأبرشية، وهو شاهد بقائهم صابرين متجلدين عبر الأجيال، كانت تدون مواليدهم وزيجاتهم ووفياتهم. وكان صوت أجراس هذه الكنيسة أنبل موسيقى ترن في آذانهم، والاحتفالات هي المسرحية التي تشد انتباههم وتبعث فيهم النشاط، وقصص القديسين ذخائر الأدب عندهم، كانت أعياد تقويم الكنيسة هي العطلات المحببة إلى نفوسهم. ولم ينظر الناس إلى عظات راعي الأبرشية ونصائحه وتحذيراته أو إلى تعليمه وتربيته لأبنائهم، على أنها تلقين مبادئ أسطورية لتدعيم لسلطان الكنيسة، بل نظروا إليها على أنها عون لا غنى عنه للنظام الأبوي والانضباط الخلقي، وعلى أنه إحياء بنظام إلهي يتجلى فيه معنى الخلود الذي خفف من أسلوب حياتهم الممل الجاف في هذه الدنيا. فكانت العقيدة ثمينة أثيرة لديهم إلى حد الاستثارة إلى الفتك بمن يحاول انتزاعها منهم. ورحب الوالدان الفلاحان بالدين جزءاً من الواجبات اليومية في البيت، ونقلوا إلى أولادهما الأساطير الدينية، وواظب الجميع على صلوات المساء والوالدان على رأسهم. وكان راعي الأبرشية يحب الناس كما أحبه، فانضم إليهم في الثورة.

وتناقص عدد الرهبان والراهبات وأخوة الطوائف الدينية، ولكن نمت فيهم روح الفضيلة (26) كما نمت ثروتهم. ونادراً ما كانوا الآن يتسولون أو يعيشون على الصدقات لأنهم وجدوا من الحكمة ومن الخير لهم أن ينتزعوا الوصية بالتوريث من الذين يدنو أجلهم ثمناً بدلاً من أن يستجدوا بعض البنسات من القرية، وفاضت بعض ثرواتهم على أعمال البر والإحسان، فأنفق كثير من الأديار على المستشفيات والملاجئ، ووزعت الطعام على الفقراء يومياً (27). وفي 1789 ألحقت جماعات كثيرة على حكومة الثورة ألا تقضي على الأديار المحلية لأنها كانت المنظمات البارة المحسنة الوحيدة في

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الشعب والدولة -&gt; رجال الدين

نطاق أراضيها. (28) وأدت أديار الراهبات مهام كثيرة تؤدي الآن بطرق أخرى، فكانت توفر مأوى للأرامل، وللنساء اللاتي افتقرن عن أزواجهن، ولل سيدات المراهقات مثل مدام دي ديفان التي رغبت في أن تتأى بنفسها عن صخب الدنيا. ولم تنكر الديار متاع الحياة الدنيا وزينتها إنكاراً تاماً، فقد استخدمها الأثرياء مأوى لما زاد عن الحد من بناتهم، وإلا فإن زواجهن إذا لم يلجان إلى الأديار يتطلب مهوراً تنقص من ميراث الأبناء، ولم يكن هؤلاء العذارى المنبذات ميالات دائماً إلى التقشف. وكان للأم أوريني (رئيسة دير للراهبات) عربية تجرها أربعة جياد، فكانت

تستقبل في جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين. وكانت الراهبات في ألكس يرتدين التتورات ذوات الأطواق الموسعة والأردية الحريرية المبطنة بالفرو، وكن في أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة (29) وواضح أن هذه كانت ضرورياً من التسلية البريئة غير الأثمة، فإن كثيراً من الأفاضل التي رويت عن الفساد الخلقي في الأديار في القرن الثامن عشر كانت مبالغت شنيعة مثيرة استخدمت في حرب الدعاية بين المذاهب المتباذرة، وكانت الحالات التي لزم فيها البنات الدير على غير إرادتهن نادرة (30). وكان اليسوعيون قد ضعف سلطانهم ومكانتهم. إنهم ظلوا حتى 1792 يسيطرون على التعليم، وكانوا يزودون الملك والملكة بكهنة اعتراف ذوي تأثير قوي، ولكنهم عانوا من فصاحة بسكال، ومن تشكك أوصياء العرش غير الأتقياء، وكانوا يخسرون معركتهم الطويلة المريرة مع الجانسينيين فإن هؤلاء الكاثوليك المتعصبين لعقيدتهم عمروا بعد الاضطهادات الملكية والمراسيم البابوية، وكان عددهم كبير في مجال الأعمال والمهن والاشتغال بالقانون، وكانوا يقتربون من الهيمنة على برلمان باريس وغيره من البرلمانات. وبعد موت زعيمهم اللاهوتي المتكشف فرانسوا دي باريس (1727) حج الجانسينيون المتحمسون المغشي عليهم إلى جدته في مقبرة سان ميدارد، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط، حتى أصاب بعضهم نوبات من

صفحة رقم : 11968

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> رجال الدين

التشنج، ومن سموا "بالمتمشجين" وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمن عليهم بالشفاء، وأدعى كثير منهم أنهم برئوا بمعجزة. وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر، وكما قال فولتير: حرم على الله بأمر من الملك أن يأتي بمعجزات هناك، وانقطعت التشنجات، ولكن الباريسيين السريعي التأثر مالوا إلى تصديق المعجزات، وفي 1733 ذكر أحد الصحفيين في مبالغة ظاهرة أن مدينة باريس الطبية جانسنية قلباً وقالياً (31). وتحديداً للمرسوم الملكي الصادر في 1720 رفض صغار رجال الدين الامتثال للأمر البابوي الصادر في 1713 الذي استنكر فيه البابا إنوسنت الثالث عشر مائة مسألة ومسألة زعموا أن الجانسينيين أثاروها. وقضى رئيس أساقفة باريس بأن السر المقدس الأخير لا يجوز أن يقدم لأي فرد لم يكن قد أعترف لقسيس كان قد ارتضى الأمر البابوي. وأسهم هذا النزاع في إضعاف مركز الكنيسة المنقسمة أمام هجمات الفلاسفة.

وكان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين لا يزالون يعتبرون خارجين عن القانون، ولكن مجموعات صغيرة منهم كانت تجتمع سرا. واعتبر القانون أن زوجة البروتستانت عاهرة وأن أبناءها غير شرعيين، ليس لهم أن يرثوا أية أملاك. وفي عهد لويس الخامس عشر شنت عدة حملات للاضطهاد والتعذيب. وفي 1717 قبض على أربعة وسبعين فرنسياً يقيمون الشعائر البروتستانتية، وأرسلوا للتجديف في القواديس أو المراكب الشراعية وزج بزوجاتهم في السجن، وقضى مرسوم صدر في 1724 بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت، مع إرسال الرجال للتجديف في السفن الشراعية. وحلق شعور النساء واعتقالهن مدى الحياة (32) وفي عهد الكاردينال فليري حدث شيء من التراخي في تنفيذ هذا المرسوم. ولكن بعث من جديد بعد موته، بناء على طلب الأساقفة الكاثوليك في جنوب فرنسا (33). وفي 1749 أمر برلمان بوردو بالتفريق بين 46 زوجاً وزوجة وفق الطقوس البروتستانتية.

صفحة رقم : 11969



## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> رجال الدين

وكان من الجائز انتزاع الأطفال الذين يشتبه في أن آباءهم من البروتستانت؛ لتربيتهم وتنشئتهم في بيوت كاثوليكية. وإنا نسمع عن رجل ثري من الهيجونوت أنفق 200 ألف جنيه رشوة للموظفين الرسميين حتى يسمحوا له بالاحتفاظ بأبنائه. (34) وفيما بين عامي 1744 و1753 سجن نحو 600 بروتستانت، وحكم على 800 آخرين بعقوبات مختلفة (35). وفي 1752 شنق في مونبلييه الواعظ البروتستانت بينز-البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً. وفي نفس العام، أمر لويس الخامس عشر، تحت تأثير مدام دي بمبادور، بوضع حد لهذه الاضطهادات. (36) وبعد ذلك استطاع البروتستانت في باريس أو قريباً منها، أن يتفادوا العقوبات، على شرط حضور الصلوات الكاثوليكية مرة في العام (37).

وعلى الرغم من تعصب زعماء الكنيسة وانشغالهم بأمور الدنيا ورغبتهم في السلطة والنفوذ، فقد كان بين رجال الدين الفرنسيين مئات ممن امتازوا بالعلم الغزير والحياة النقية النقية. وبالإضافة إلى أولئك الأساقفة الذين بددوا في باريس العشور التي جمعوها من الفلاحين، كان هناك أساقفة آخرون إنسموا بالطهر والتقى قدر ما سمحت به المهام الإدارية. فكان الكاردينال لويس أنطوان دي نواي رئيس أساقفة باريس رجلاً ذكياً نبيلاً. وكان الناس يحبون جان بابتيست ماسيون أسقف كلير مونت على الرغم من عظاته الزاخرة بألوان العلم والمعرفة، والتي كان فولتير يحب أن يستمع إليها وقت تناول الطعام، لجمال أسلوبها على الأقل. أما جيراريل دي كابلوس أسقف أوكسير فقد وهب كل ثروته للفقراء، وباع طبقه الفضي ليطعم الجياع؛ ثم اعتذر لمن التمسوا بعد ذلك بقوله "يا أبنائي، لم يبق لدي شيء أعطيك إياه" (38). ولم يبرح الأسقف فونسوا دي بلزونس مكانه وسط الطاعون الرهيب الذي اجتاح مرسييا 1720، حين هلك ثلث سكان المدينة، وفر منها معظم الأطباء ورجال الحكم والقضاء. وفي هذا كتب ليمونتي: "انظروا إلى بلزونس: وأنه أنفق كل ما يملك. لقد هلك كل الذين كانوا في خدمته بسبب العدوى، فسار على قدميه فقيراً بائساً في الصباح إلى مواطن

صفحة رقم : 11970

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> رجال الدين

التعاسة والشقاء؛ كما كان يرى مساء وسط الأماكن التي اكتظ بها ولوؤها أولئك الذين يعانون سكرات الموت، ليطفئ ظمأهم، ويواسيهم وكأنه صديق لهم... وفي ساحة الموت هذه يأخذ بيد الأنفس التي لا معين لها. إن مثل هذا المثل الذي ضربه هذا الأسقف الذي يبدو أنه محصن ضد أي أذى كان كفيلاً بأن يدفع.... كهنة الأبرشيات والقساوسة والطوائف الدينية إلى محاكاته في شجاعته وبسالته، فلا يتخلى أحد عن موقعه، ولا يبالي أحد بما يلقي من عناء وتعب ولو ضحى بحياته. وهكذا أودى الوباء بستة وعشرين راهباً، وبثمانية عشر من بين ستة وعشرين يسوعياً. واستدعى الكيوشيون أخوتهم من الأقاليم الأخرى، فسارع هؤلاء إلى الاستشهاد في خفة المسيحيين الأولين وابتهاجهم بمثل هذا العمل. وقضى الطاعون على ثلاثة وأربعين من بين خمسة وخمسين منهم. أما سلوك الرهبان الأورatoriiين (طائفة كاثوليكية) فكان أروع من هذا. فقد بذلوا غاية جهدهم (39).

ولنذكر، ونحن نسجل الصراع المرير بين الدين والفلسفة، ونشارك الفلاسفة مقتهم للرقابة الخائقة والخرافة الشائنة، أنه كان هناك بين رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم الورع والتقوى كما كان هناك الغنى والثراء، بقدر سواء. كما كان هناك الإخلاص مع الفقر بين كهنة القرى، أما الناس فقد تغلغل فيهم حب راسخ يتعذر المساس به أو النيل منه، لعقيدة هيأت للزهو الهوى شيئاً من الانضباط المنقذ من الضلال، كما هيأت للأيام العصبية الشاقة رؤياً وجد الناس فيها شيئاً من السلوى والعزاء.

صفحة رقم : 11971

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

3- الطبقة الثالثة

أ - الفلاحون

تساءل "الاقتصاد السياسي" الذي وصمه كارليل بأنه "العلم الكئيب" هل الفقراء فقراء، لأنهم جهلة، أم أنهم جهلة لأنهم فقراء. ويمكن أن نجيب على هذا السؤال، بالموازنة بين الاستقلال البهيج الذي يفاخر به الفلاح الفرنسي اليوم، وحالته في النصف الأول من القرن الثامن عشر.

صفحة رقم : 11972

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

وفي 1723 كانت حال الفلاح أخذة في التحسن بالمقارنة بالمستوى المنحط الذي هيبت به إليه حروب لويس الرابع عشر وابتزازاته. فإنه خضع للرسوم الإقطاعية ولعشور الكنيسة، إلى جانب إنه امتلك نسبة متزايدة من أرض فرنسا، كانت تتراوح بين 20% في نورماندي وبريتاني و 50% في لنجدوك وليموزين (40). ولكن متوسط حصة هؤلاء الملاك الصغار كان ضئيلاً من ثلاثة إلى خمسة أفدنة- إلى حد اضطروا معه إلى الاشتغال بأجر في المزارع الأخرى ليعولوا أسرهم. فإن معظم الأرض كانت ملكاً للنبلاء أو رجال الدين أو الملك، وكانوا يفلحها مستأجرون أو

مزارعون نظير جزء من المحصول، أو عمال مياومة تحت إشراف قهرمان أو وكيل مسئول. وكان المالك يتقاضى من المستأجر مالا وغلة وخدمات أما المزارعون فكانوا يعطون المالك نصف المحصول في مقابل الأرض والآلات الزراعة والبذور.

وعلى الرغم من تزايد ملكية الفلاح ظلت هناك بقايا إقطاعية كثيرة، فإن أقلية ضئيلة من الملاك قد لا يتجاوز 2% هي التي وضعت يدها على أراض معفاة من الرسوم الإقطاعية. وكل الفلاحين باستثناء مالكي هذه الأرض المعفاة، كان مطلوباً منهم أن يعملوا للسيد الإقطاعي المحلي لعدة أيام في السنة تكفي لحرث أرضه وبذرهما، وحصاد محصولها وتخزينه. وكانوا يدفعون له رسوماً مقابل صيد السمك في البحيرات أو الجداول المائية ومقابل رعي ماشيتهم في الحقول، مما يقع في زمام أرضه. (في فرائش كومتيه، وأوفرن، وبريتاني، حتى قيام الثورة كانوا يدفعون له مبلغاً من المال مقابل الأذن لهم بالزواج (41)). وكان لزاماً عليهم أن يستخدموا طاحونته ومخبزه ومعصرة النبيذ أو الزيت التابعة له، وليس غيرها. وأن يدفعوا له مالا في كل مرة يستخدمون فيها شيئاً من هذه. كما نفذوه مالا عن كل مستوفد أقاموه وكل بئر حفره وكل جسر عبروه في نطاق أرضه (إن أمثال هذه الضرائب موجود بيننا الآن في أشكال متغيرة، وتدفع للدولة). وكانت القوانين تحرم على السيد ورفاقه الإضرار بمزروعات الفلاح

صفحة رقم : 11973

#### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

أو حيواناته عند الصيد، ولكن هذه القوانين أغفلت إغفالاً شديداً، وكان محظور على الفلاح أن يطلق النار على حمام السيد، وهي تأكل محصوله (42) وبناء على تقدير يتسم بالتحفظ بلغت الرسوم الإقطاعية جملتها نحو 14% من إنتاج الفلاح أو دخله، وهناك تقديرات ترفع من هذه النسبة (43).

وفي بعض الأماكن بقي الرق بمعناه الحقيقي، وقدر مؤرخ اقتصادي مشهور أن عدد الرقيق في فرنسا في القرن الثامن عشر لم يجاوز المليون (44)، ونقص عددهم، ولكن في 1789 كان لا يزال في فرنسا نحو 300 ألف من الأرقاء (45) ومثل هؤلاء الفلاحين كانوا مرابطين بالأرض ولم يكونوا يستطيعون قانوناً أن يهجروا أرضهم أو يبيعوها أو ينقلوها أو يغيروا محال إقامتهم دون موافقة سيدهم. فإذا ماتوا دون أبناء كانوا يعيشون معهم، وعلى استعداد للنهوض بشئون المزرعة، آلت المزرعة بكل معداتها إلى السيد.

وكان على الفلاح، بعد دفع الرسوم الإقطاعية وعشور الكنيسة، أن يجد مالا أو يبيع شيئاً من نتاجه أو ممتلكاته ليوافق الضرائب التي تفرضها عليه الدولة. ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضي، وبالإضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح، و5% من الدخل ضريبة الرأس عن كل فرد في البيت. وبهذا كان يدفع في الجملة ثلث دخل للمالك والكنيسة والدولة. (46) وكان من سلطة جباة الضرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كوخه، ليفتشوا عن المدخرات المخبأة، ويستولوا على الأثاث تسديداً لمبلغ الضريبة المفروضة على الأسرة. وكما كان الفلاح ملزماً بالعمل ودفع الرسوم لسيد، فإنه بعد 1733 كان ملزماً بأن يعمل للدولة بدون أجر من 12 إلى 15 يوماً في السنة، في إقامة الجسور وبناء الطرق أو إصلاحها (أعمال السخرة). وكان يعاقب بالسجن إذا قاوم أو تواني.

ومذ تصاعدت الضرائب بازدياد الدخل والتحسينات، فإنه لم يكن ثمة ما يحفز الفلاحين على الابتكار والعمل والمغامرة. وظلت أساليب الزراعة

صفحة رقم : 11974

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

بدائية في فرنسا، إذا قورنت بالأساليب في إنجلترا المعاصرة. وكانت فرنسا تتبع نظام إراحة الأرض الذي يقضي بترك كل قطعة دون زراعة سنة في كل ثلاث سنين، على حين أدخلت إنجلترا نظام الدورة الزراعية. وكانت الزراعة المكثفة غير معروفة تقريباً، والمحاريث الحديدية نادرة الوجود. وكانت الحيوانات قليلة العدد في المزرعة، كما كان السماد قليلاً. وكان متوسط الأرض المملوكة ضئيلاً إلى حد لا يسمح باستخدام الآلات بشكل مجز. وروع السائحون الإنجليز في ذلك العصر لفقر الفلاح الفرنسي. ففي 1718 كتبت السيدة ماري مونتاجو: "في كل محطة كنا نقف فيها لتبديل خيول البريد كان أهل البلدة جميعاً يخرجون إلينا يسألوننا إحساناً، في وجوه أعضائها البؤس والجوع وملابس رثة ممزقة، وما كانوا بعد ذلك في حاجة إلى دليل أبلغ من ذلك لإقناعنا بتعاسة أحوالهم(47). ولم يرسم المراقبون الفرنسيون صورة أكثر إشراقاً من هذه إلا في وقت متأخر من هذا القرن. وقال سان سيمون: "في 1825 كان الناس في نورماندي يعيشون على حشائش الحقول. إن أول ملك في أوروبا عظيم لمجرد كونه ملك الشحاذين. وتحويله مملكته إلى مستشفى فسيح الأرجاء يقيم فيه أناس يعانون سكرات الموت، انتزع منهم كل شيء دون أن يبداوا شيئاً من التذمر(48)". وفي 1740 حسب المركيز رينيه لويس دي أرجنسون، أن عدد الفرنسيين الذين ماتوا بسبب الفقر والعوز في العامين الأخيرين أكبر من عدد من قتلوا في حروب لويس الرابع عشر كلها(49)". وقال بسنارد: "كانت ملابس الفقراء من الفلاحين وكانوا كلهم تقريباً فقراء تدعو إلى الإشفاق والرثاء، حيث لم يكن لدى الفرد منهم إلا ثوب واحد للصيف والشتاء معاً... أما الحذاء الوحيد (المربع الواهي المثبت بالمسامير) الذي اقتناه عند زواجه، فكان لزاماً أن يستخدمه بقية أيام حياته، أو على الأقل طيلة بقاء الحذاء(50)". وقدر فولتير أن مليوني فلاح فرنسي كانوا يستخدمون نعالاً خشبية في الشتاء، وكانوا يسبرون حفاة الأقدام في الصيف، لأن

صفحة رقم : 11975

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

الضرائب الباهظة المفروضة على الجلود جعلت الأحذية ضرباً من الترف(51) أما مسكن الفلاح يبني من الطين مع سقف من القش، وكان عادة يتكون من غرفة واحدة، منخفضة لا سقف لها في بعض الأجزاء في شمال فرنسا، على أن الأكواخ كانت تبني أقوى حتى تحتل البرد والرياح في الشتاء". وكان طعام الفلاح يتألف من الحساء والبيض ومنتجات الألبان وخبز الشعير أو الشوفان. أما اللحم وخبز القمح فكان أكلهما إسرافاً طائفاً(53). ففي فرنسا، كما هو الحال في أي مكان آخر، كان أولئك الذين يطعمون الأمة لا يملكون من الغذاء إلا أقله. ووجد الفلاح بعض العزاء والسلوى من هذه الحياة الشاقة في الخمر والدين. وكانت الحانات كثيرة وصنع الجعة في الدار مشجعاً. وكانت الأخلاق خشنة جافة، طابعها الوحشية. وكثيراً ما تفجرت أعمال العنف بين الأفراد والأسرات والقرى. ولكن سادت الأسرة عاطفة حب قوية، ولو أنها صامتة، وكان الأبناء كثيرين، ولكن اختلطت يد المنون معظمهم قبل أن يبلغوا رشدهم. وكاد ألا يكون هناك زيادة في سكان فرنسا فيما بين عامي 1715 و1740. فقد أحدثت الحرب والمرض والقحط أثرها بانتظام وفق ما جاء في نظرية مالتس.

## ب - البروليتاريا (العمال الكادحون)

وكان خدم المنازل أدنى مكانة من الفلاحين في السلم الاجتماعي، وكانوا فقراء إلى حد لم يهيئ إلا لقليل منهم أن يتزوجوا. وكانت طبقة البروليتاريا في المدن أعلى قليلاً من الفلاحين، وكانت تشكل الحرفيين في الحوانيت والمصانع وحمالي البضائع ومتعهدي الخدمات وعمال البناء أو الترميم. وكان معظم الصناعة لا يزال منزلياً أو محلياً يقوم في أكواخ ريفية أو في الدور في المدن الصغيرة. وكان التجار يقدمون المواد الخام، ويجمعون الإنتاج، ويستولون على كل الربح تقريباً. وكانت الصناعة في المدن إلى حد كبير في الطور النقابي (نظام نقابات العمال وطوائفهم في العصور الوسطى)، فكان هناك المعلمون والغلمان الذين يتدربون، وعمال المياومة المهرة،

صفحة رقم : 11976

### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

يعملون جميعاً وفقاً للقواعد القديمة التي حددت النقابة والحكومة بمقتضاها ساعات العمل وشروطه، وطرز الإنتاج ونوعيته وسعره والمنطقة المحدودة المسموح فيها بالبيع. إن هذه التنظيمات والقواعد جعلت من التحسينات أمراً عسيراً، واستبعدت حافز المنافسة الخارجية، وأسهمت مع رسوم التجارة الداخلية في تعويق التنمية الصناعية. وكانت النقابات قد أصبحت أرستقراطية عمالية، وارتفعت الرسوم على القبول في سلك المعلمين الصناعيين إلى ألفي جنيه، واتجهت هذه المهنة إلى أن تكون وراثية. (53) وكان العمل في الحوانيت يبدأ مبكراً وينتهي متأخراً. وكان عامل المياومة حول فرساي يبدأ عمله في الرابعة صباحاً وينتهي منه في الثامنة مساءً. (54) ولكن العمل كان أقل إجهاداً منه في المصانع اليوم، كما أن أعياد الكنيسة هيأت أيام عطلة كثيرة. وكانت الصناعة في معظمها "صغيرة" تستخدم ثلاثاً أو أربعاً من "الأيدي العاملة" من خارج الأسرة. بل أن المدابغ ومصانع الزجاج والمصابغ كانت مؤسسات صغيرة. وكان عدد العمال في بوردو لا يتجاوز أربعة أمثال أصحاب العمل. واحتفظت الحكومة على أية حال ببعض مصانع كبيرة-مصانع الصابون، ومصانع نسيج الجوبلان (المزدان بالرسوم) ومصانع الخزف الصيني في سيفر. وأخذت عملية التعدين في التوسع بعد أن حل الفحم محل الخشب في الوقود. وثار الاحتجاجات على دخان الفحم الذي يلوث الهواء، ولكن الصناعة آنذاك، كما هو الحال اليوم، مضت تشق طريقها، وتعرضت صحة الناس في باريس، وفي لندن على حد سواء، للخطر نتيجة لتنفس هذا الهواء الملوث. وكانت هناك مصانع للصلب في دوفيني، ومصانع للورق في أنجوموا. وتوسعت مصانع النسيج توسعاً ملحوظاً في الشمال، فاستخدم فان روبيه 1500 عامل في مصنع واحد في أبفيل واستخدم فان دركروسن ثلاثة آلاف رجل في ليل (55). وشجع ازدياد العمال هذا على تقسيم العمل والتخصص فيه، وحفز على اختراع الآلات للعمليات المكررة على نسق واحد (الروتينية) وتضمنت دائرة

صفحة رقم : 11977

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

معارف ديدرو (1751 وما بعدها) أوصافاً ورسوماً مذهشة لآلات متنوعة معقدة أدخلت بالفعل في الصناعة في فرنسا، يندر أن تكون قد نالت استحساناً أو ترحيباً من البروليتاريا. وحين أقيم نول جاكار (لحياكة الأقمشة المصورة) في ليون، عمد عمال نسيج الحرير إلى تهشيمه، خشية أن يلقي بهم في عرض الطريق بلا عمل (56). ورغبة في تشجيع الصناعات الجديدة فإن حكومة فرنسا كما فعلت حكومة إنجلترا في عصر اليزابث منحت عدة اختراعات، مثال ذلك أنها منحت أسرة فإن روبية اختراع إنتاج الأقمشة الهولندية الرفيعة، كما ساعدت مشروعات أخرى بمعونات وقروض دون فوائد. وفرضت الحكومة على كل الصناعة تنظيماً صارماً موروثاً عن كولبير. وأثار هذا الأسلوب اعتراضاً متزايداً من جانب أصحاب المصانع والتجار الذين دفعوا بأن الاقتصاد ينمو ويزدهر إذا تحرر من تدخل الحكومة، وترديداً لهذا المطلب، قال فنسنت دي جورناي (حوالي 1755) عبارته التاريخية اتركه وحده "اتركه يعمل" التي عبرت في الجيل التالي، على لسان فرانسوا كني وترجو، عن المذهب الفيزيوقراطي الذي نادى بحرية العمل والتجارة.

واستاء الحرفيون أيضاً من هذه القواعد والتعليمات التي وقفت حجر عثرة في سبيل تنظيمهم من أجل ظروف عمل وأجور أفضل. ولكن أهم ما هاج حفيظتهم هو أن عمال الريف والمصانع كانوا ينتزعون السوق من أيدي النقابات. فما وافى عام 1756 حتى كان أصحاب المصانع قد هبطوا بالحرفيين في المدن الكبرى حتى بالمعلمين النقابيين إلى مستوى الإجراء الذين يعتمدون في عملهم على المقاولين أو الملتزمين. (57) وفي نطاق النقابات أجرى المعلمون -تخفيضاً في أجور عمال المياومة الذين عمدوا إلى الإضراب على نحو دوري. وكان الفقر في القرى شديداً مثلما هو في المدن تقريباً. ووصل نقص المحاصيل بالطبقة الكادحة، البروليتاريا، في المدن إلى حد المجاعة والشغب كل بضع سنين، كما حدثت في تولوز 1747، وفي باريس

صفحة رقم : 11978

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

1751، وفي تولوز 1752 (58) وكان القسيس الملحد جان مزلييه قد اقترح بالفعل، حوالي 1749 استبدال شيوعية قائمة على الحرية بالنظام القائم (59). وفي أواسط القرن كانت باريس وروان وليل وليون وبوردو ومرسيليا تعج بالبروليتاريا. وتوقت ليون بوصفها مركزاً صناعياً لبعض الوقت على باريس. وقد وصفها الشاعر الإنجليزي توماس جراي في 1739 بأنها "ثانية مدن المملكة من حيث الاتساع والمكانة. وشوارعها بالغة الضيق والقذارة، ودورها بالغة الارتفاع والاتساع (تتكون الدار من خمسة طوابق في كل طابق 25 غرفة)، مكتظة بالسكان". (60) وكانت باريس خلية هانجة، يقطنها 800 ألف منهم 100 ألف خادم، و20 ألف متسول، وفيها الأكواخ الكئيبة والقصور الفخمة، والأزقة والحارات المظلمة والشوارع القذرة وراء المتنزعات الأنيقة، وفيها الفن إلى جانب الإملاق والفقر المدقع. وسارت فيها المركبات الكبيرة والمركبات العامة ذات الجواد الواحد والمحفات يصطدم بعضها ببعض مع تبادل السباب والشتم، واختناق شديد في حركة المرور. وكانت بعض الشوارع قد صفت منذ 1690 وعام 1742 رصف ترسايكيه الطرق بأحجار ملساء، ولكن معظم الشوارع كانت قذرة تماماً، مملوءة بالحصى الكبير الذي يصلح لإقامة المتاريس في أثناء الثورات. وبدأت مصابيح الشوارع تحل محل الفوانيس في 1745 ولكنها لم تكن تضاء إلا إذا لم يكن القمر بدرأ. وظهرت لافتات

أسماء الشوارع في 1728. ولكن لم توضع للبيوت أرقام قبل الثورة. وكان للأغنياء وحدهم صنابير ماء في بيوتهم، أما سائر الناس فكان يزودهم بالماء عشرون ألف سقاء يحمل الواحد منهم دلوين بهما أحياناً سبع مجموعات من درجات السلم. أما المراحيض في المنازل والحمامات المزودة بالماء الجاري الساخن والبارد، فكانت امتياز لكبار الأثرياء. وظلت آلاف الحوانيت، المشهورة بشعاراتها الرائعة المثيرة، على حالتها من الفوضى في الموازين والمقاييس المتضاربة والمشتبه فيها، إلى أن وضعت الثورة النظام المترى (العشري). وكان هناك أصحاب حوانيت أمعاء في "متاجر الثقة"، ولكن الغالبية

صفحة رقم : 11979

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

اشتهرت بالتطريف في المقاييس والتلاعب في الأسعار ورداءة أنواع السلع. (61) وكان بعض الحوانيت ينتحل عظمة زائفة خداعة لأن أصحابها كانوا يستقلون العربات. وكان الفقراء من الناس يعتمدون في شراء حاجياتهم أساساً على الباعة المتجولين الذين حملوا بضاعتهم جاهدين في دلاء أو سلال على ظهورهم، والذين أسهموا في موسيقى الشوارع بصيحاتهم ونداءاتهم التقليدية غير المفهومة التي يدعون بها الناس إلى الشراء، من "البطاطس المطبوخة" إلى الموت للفئران "فقد نازعت الفئران الناس على تيسيرات السكنى في المدينة، وزاحم الرجال النساء والأطفال الفئران في مسابقة الحصول على الطعام. قال رجل فارسي كان في زيارة مونتسكيو: "البيوت مرتفعة إلى حد يظن معه أنه لا يقطنها إلا منجمون. ولك أن تتخيل مدينة بنيت في الهواء، فيها أقيمت سنة أو سبعة منازل الواحد منها فوق الآخر وهي مزدحمة بالسكان، حتى إذا نزلوا جميعاً إلى الشارع، رأيت هناك حشداً رائعاً. لقد بقيت هنا شهراً، لم يقع نظري فيه على شخص واحد يسير بخطى وثيدة. وليس في العالم كله مثل الرجل الفرنسي وهو يجتاز الطريق، إنه يعدو أو يطير (62). أضف إلى ذلك المتسولين والمتشردين والنشالين والمغنين في الشوارع والنافخين في الأرغن والدجالين بانعي الأدوية المزيفة. وجملة القول أنهم شعب تشبع فيه مائة من أخطار البشر، لا يوثق به إطلاقاً، مثلثف على الكسب، مسرف في الدنس والتجديف بكل معنى الكلمة. ولكنه إذا أوتي اليسير من الطعام أو النبيذ فهو ألطف شعوب العالم وأكرمها وأكثرها مرحاً وابتهاجاً.

ج - البرجوازية

وفيما بين الطبقتين الدنيا والعليا قامت الطبقة الوسطى، تضم لها أو لاهما البغض والكراهية، وتزديها الثانية، وكانت تضم الأطباء والأساتذة ورجال الإدارة وأصحاب المصانع والتجار ورجال المال، وهي طبقة شقت طريقها إلى الثروة والنفوذ والسلطة في حذق ومهارة وصبر وجلد.

صفحة رقم : 11980

### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

وقام أرباب المصانع بمغامرات اقتصادية وتطلبوا من أجلها عائداً وفاقاً. وشكوا من انهم يتعرضون لمائة من المضايقات التي تسببها لهم تعليمات الحكومة ورقابة النقابات على السوق والعمال المهرة، واغتاظ التجار الذين يوزعون المنتجات من فرض ألف من المكوس والرسوم التي تعوق حركة البضائع، ذلك أنه عند كل نهر أو قناة أو مفترق طرق كان هناك وكيل عن النبيل أو رجل الكنيسة مالك الأرض، لينتقاضى رسماً على الترخيص بمرور البضائع. وأوضح السيد المالك أن هذه المكوس غنما هي تعويض معقول له عما ينفق في صيانة الطرق والجسور والمعابر وإصلاحها لتبقى صالحة للاستعمال. وألغى مرسوم ملكي صادر في عام 1724 ألفاً ومائتين من هذه المكوس، ولكن بقيت بعد ذلك منها مئات لعبت دوراً في كسب البورجوازية إلى جانب الثورة وتأييدها لها. أما التجارة الفرنسية التي كانت معوقة في الداخل فقد انتشرت واتسعت فيما وراء البحار. وسيطرت مرسيليا، وكانت ميناء حرة، على تجارة أوروبا مع تركيا والشرق. ومدت شركة الهند التي أعيد تأسيسها 1743، أسواقها ونفوذها السياسي في البحر الكاريبي ووادي الميسيسيبي وأجزاء من الهند. ورفعت بوردو، وهي، المنفذ السياسي لتجارة الأطلنطي، تجارتها البحرية من أربعين مليوناً من الجنيهات في عام 1724 إلى 250 مليوناً في 1748. وأبحر أكثر من 300 سفينة سنوياً من بوردو ونانت إلى أميركا، يحمل معظمها العبيد ليعملوا في مزارع قصب السكر في جزر الأنتيل ولويزيانا (63). وفاقته نسبة المبيعات من السكر المنتج من أمريكا الفرنسية مثيلتها من السكر الإنجليزي المنتج في جمايكا وباربادوس في الأسواق الأوروبية، (64) وربما كان هذا من أسباب حرب السنين السبع، وارتفعت جملة تجارة فرنسا الخارجية من 215 مليوناً من الجنيهات في 1715 إلى 600 مليون في 1750. (65) وقدّر فولتير أن عدد السفن التجارية التي استخدمتها فرنسا زاد من 300 سفينة في 1715 إلى 800 في 1738. (66) وكانت الأرباح المتزايدة من التجارة البحرية الدافع الأساسي لغزو

صفحة رقم : 11981

### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

المستعمرات. وكانت حماسة التجار والمبشرين الفرنسيين قد كسبت لفرنسا معظم كندا وحوضي الميسيسيبي وبعض الجزر في البحر الكاريبي. وتحدثت إنجلترا هذه الممتلكات الفرنسية على اعتبار أنها تضيق الخناق على مستعمراتها في أمريكا وتعرضها للخطر. والحرب هي التي يمكن أن تحسم هذه القضية، ودب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا في الهند بسبب منافسة مماثلة. وكان الفرنسيون في 1683 قد وطدوا مركزهم على الساحل الشرقي جنوبي مدراس، وفي 1688 حصلوا من إمبراطور المغول على حق السيطرة الكاملة على شاندرناجور شمالي كلكتا. وفي ظل القيادة النشيطة اليقظة لجوزيف دوبليكس، استولى هذان الثغران على كثير من التجارة والثروة إلى حد أحست معه شركة الهند الشرقية الإنجليزية، التي كانت قد أقامت لها مراكز في مدراس (1639) وبمباي (1668) وكلكتا (1686) -أنها مضطرة إلى خوض الحرب مع الفرنسيين من أجل مملكة المغول التي تتمزق أوصالها. ولما رأت إنجلترا وفرنسا أنهما على طرفي نقيض في حرب الوراثة النمساوية (1744) فان ماهي دي لابور دونيه- الذي كان قد ضرب رقماً قياسياً في الإقدام والمغامرة في إدارة جزر موريشيوس وبوربون الفرنسية في المحيط الهندي- عرض على حكومة فرساي خطة "للقضاء على التجارة وعلى المستعمرات الإنجليزية في الهند". (67) وهاجم مدراس بأسطول فرنسي، بموافقة دوبليكس الحسود، وسرعان ما أرغم المدينة على الاستسلام (1746) وتحت



مسئوليته الخاصة وقع مع السلطات الإنجليزية اتفاقية تقضي بإعادة مدراس إليهم لقاء تعويض قدره 420 ألف جنيه. ورفض دويليه التصديق على الاتفاقية، ولكن لابوردونيه أصر في عناد، وأبحر على سفينة هولندية إلى أوربا: وأسرت سفينة إنجليزية، وأطلق سراحه تحت وعد شرف، ودخل باريس فرج به في الباستيل بتهمة التمرد والخيانة، وطلب المحاكمة، وبعد عامين قضاها في السجن حوكم وقضى له بالبراءة (1751) وتوفي 1753. وفي تلك الأثناء حاصر أسطول إنجليزي قوى بوندشيري (أغسطس

صفحة رقم : 11982

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

(1748) فدافع عنها دويليكس دفاعاً مجيداً حتى رفع الحصار عنها (أكتوبر). وبعد ذلك بسبعة أيام وصلت الأنباء إلى الهند بأن معاهدة إكس لاشابل أعادت مدراس إلى إنجلترا. ذلك أن الحكومة الفرنسية أدركت أنه مقضي عليها بالهزيمة في الهند بسبب ضعف قواتها البحرية، فرفضت أن تدعم مشروعات دويليكس في الغزو والفتح، وأرسلت إليه قوات واعتمادات هزيلة، وأخيراً استدعته إلى فرنسا (1754). وامتد به الأجل حتى رأى الإنجليز يوقعون بالفرنسيين هزيمة منكرة في الطور الهندي من حرب السنين السبع. وكان "رجال المال" في قمة الطبقة الثالثة وكانوا من مقرضي النقود على نطاق ضيق، من الطراز العتيق المحافظ، أو من أصحاب المصارف بكل معنى الكلمة، الذين يتعاملون في الودائع والقروض والاستثمارات، أو من "ملتزمي الضرائب" الذين يعملون للدولة باعتبارهم "وكلاء الدخل". وكانت القيود التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على تقاضي فوائد الأموال قد ضعف أثرها أو أصبحت غير ذات موضوع تقريباً، في تلك الأيام. ورأى جون لو أن نصف فرنسا متلفه على الاتجار في الأسهم والسندات، وافتتحت باريس سوق الأوراق المالية (البورصة) فيها سنة 1724. وكان بعض (رجال المال) أغنى من معظم النبلاء. فكان باريس مونتمارنل يمتلك مائة مليون جنيه، ولينورمان دي تورنهم عشرين مليوناً، وصمويل برنارد 33 مليوناً (68). وزوج برنارد بناته من أزواج أرستقراطيين حيث دفع لكل منهن مهرأ قدره 800 ألف جنيه (69). وكان سيداً مهذباً محباً لوطنه. وفي 1715 حدد بنفسه الضرائب المستحقة على ممتلكاته بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات، ومن ثم كشف ثروته كان يمكن أن يخفيها جزئياً (70). وعندما قضى نحبه (1739)، أماط فحص حساباته اللثام عن المدى الواسع لصدقاته الخفية (71). أما الاخوة الأربعة الذين حملوا لقب "باريس" فقد طوروا مؤسستهم المصرفية إلى سلطة سياسية. وتعلم منهم فولتير كثيراً من براعته المالية، فأذهل أوربا لكونه فيلسوفاً و "مليونيراً" في الوقت معاً.

صفحة رقم : 11983

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الطبقة الثالثة

وكان "الملتزمون العامون" أبغض رجال المال في فرنسا في القرن الثامن عشر. وكان النظام "الملتزم العام" قد أدخل في 1697 لجمع الضرائب غير المباشرة-أساساً الضرائب على الإعانات والتسجيلات والطلبات والملح والتبغ-ولكي تتفق الحكومة هذه الإيرادات قبل جمعها ألزمت بها شخصاً يدفع لها المبلغ المتعاقد عليه، مقابل حق جبايتها على مدى ست سنوات. وانعكس ازدياد الضرائب والثروة والتضخم في ارتفاع ثمن هذا العقد الراجح: 80 مليوناً 1726، 92 مليوناً 1744، 152 مليوناً 1774. ولم تقع أية حكومة يوماً في حيرة جرياً وراء الطرق التي تتفق بها أموال شعبها وفوضت للمتعاقد مهمة جمع الضرائب بالتعاقد إلى أربعين "ملتزماً عاماً" أو أكثر، دفع كل منهم كلوناً من الجنيهات أو أكثر ضماناً مقدماً، ولحق أصابعه كلما مرت بها الإيرادات، وهكذا، فيما بين عامي 1726-1730 جاوزت أرباح الملتزمين العامين الأربعين 156 مليوناً من الجنيهات(73). وابتاع كثير من أمثال هؤلاء الجباة الضياع والألقاب وشادوا القصور الفخمة وعاشوا حياة غاية في البذخ والترف، مما أثار حنق الأرستقراطية ورجال الكنيسة. وجمع بعضهم روائع الفن وأحاطوا أنفسهم بالفنانين والشعراء والخيليات، وفتحوا أبواب بيوتهم مأوى أو منتدى للصفوة من أهل الفكر وكان "الطف الفلاسفة، هلفشيوس، واحداً من أكرم "الملتزمين العاميين". وقضى روسو فترة طويلة في ضيافة مدام دي ابيناي زوجة أحد الملتزمين. واستمتع رامو وفانلو بكرم الضيافة لدى الإسكندر دي لا بولنيير الذي اشتهر من بين رجال المال بأنه يمثل ميسيناس (رجل الدولة الروماني من رعاة الدب صديق هوراس وفرجيل في القرن الأول ق.م) وثار كبار أفراد البورجوازية المتلهفون على الاعتراف بمكانتهم الاجتماعية، لأنفسهم من استهجان الكنيسة واحتقار النبلاء لهم، بمناصرة الفلاسفة ضد الكنيسة، ثم ضد النبلاء فيما بعد، وربما كان رجال المال هم الذين أمدوا الثورة بالمال.

صفحة رقم : 11984

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الحكومة

4- الحكومة

كانت الطبقة الوسطى آنذاك أكثر فعالية وقوة في الدولة، لأنها شغلت كل المناصب، فيما عدا مناصب الوزارة التي كانت تتطلب عبير شجرة الأسرة أو عراقة الحسب والنسب، وكان أفرادها يشكلون البيروقراطية وصقلت مواهبهم بالانقضاء الطبيعي في ميدان الاقتصاد، وأنبتوا أنهم أمهر وأقدر من النبلاء سليلي الأسرات الواهين الخاملين الذين ليس لهم ما يحفزهم على الجد والعمل. وفي الحق أن نبلاء الرداء في البرلمانات والحكام كانوا ينتسبون إلى البرجوازية من حيث الأصل والخلق. وتولت الطبقة الوسطى شئون الكوميونات والأربعين مقاطعة، وإدارات الحرب والتموين والمواصلات والمناجم والطرق والشوارع والجسور والأنهار والقنوات والثغور. وكان قواد الجيش من النبلاء، ولكنهم قاموا بحملات خططها لهم في باريس رجال من الطبقة الوسطى، بارعون في تخطيط الحرب(73). إن نمط البرجوازية الفرنسية في القرن التاسع عشر كان قد سبق تشكيله في القرن الثامن عشر. وكان المعترف به بصفة عامة أن الإدارة في فرنسا كانت أحسن إدارة في أوروبا، ولكن كانت تشوبها عيوب قاتلة: كانت مركزية متغلغلة، مفصلة إلى حد إنها عوقت الابتكار والمبادرة والحيوية المحلية، وضيعت كثيراً من الوقت في نقل الأوامر والتقارير. وبالمقارنة بإنجلترا كانت فرنسا استبدادية مطلقة خانقة. فلم يكن مسموحاً بالاجتماعات العامة، ولم يؤخذ بالاقتراع الشعبي إلا في المسائل المحلية النافهة، ولم يقف أي برلمان في وجه الملك. وحسن لويس الخامس عشر الحكومة بإهمالها، ولكنه فوض إلى وزرائه سلطات ملكية مثل إصدار أوامر القبض أو الرسائل المختومة، وغالباً ما أسيء استخدام هذه السلطة. حقاً إن مثل هذه "الرسائل السرية"، أفلحت أحياناً في تسيير شئون الحكومة

بسرعة عن طريق تجنب التفاصيل الفنية في الإجراءات الإدارية "الروتين الحكومي". وبإحدى هذه الرسائل أسس لويس الرابع عشر "الكوميدي فرانسيز" في عام 1680. وأنقذت بعض الرسائل سمعة إحدى الأسرات، بالزج بوغد لثيم في السجن دون

صفحة رقم : 11985

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الحكومة

بطاء ودون محاكمة علنية ربما كانت تكشف عن كوارث خاصة. كما أن بعض هذه الرسائل؛ كما حدث عند انتقال فولتير وسجنه للمرة الثانية، حال بين أحد الحمقى الذين يمكن الصفح عنهم، وبين إتمام حماقته. وفي حالات كثيرة صدرت الرسائل بناء على طلب والد يانس (مثل ميرابو الأكبر) من تقويم اعوجاج ابن جامح. وفي مثل هذه الحالات كان السجن خفيفاً قصير الأمد. ولكن كانت هناك حالات كثيرة من القسوة الصارخة، ومن أمثلتها احتجاز الشاعر ديفورج لمدة ست سنوات (1750-1756) في حجرة من الحديد لأنه استنكر تصرف الحكومة في نفي شارل إدوارد ستيوارت حفيد جيمس الثاني من فرنسا (وكانوا يسمونه المطالب الصغير بالعرش). (74) وإذا كان لنا أن نصدق رواية الكاتب الألماني ولهم جريم، وهو دقيق بصفة عامة، فإن الحكومة قدرت أعظم التقدير انتصارات موريس دي ساكس في المعارك إلى حد أنها أرسلت إلى الشاعر شارل فافار أمراً سرياً ليضم زوجته إلى قائمة خليات دي ساكس. (75) إن أية إساءة إلى أحد النبلاء من رجل عادي، أو أي نقد شديد يوجه إلى الحكومة، كان من شأنه أن يؤدي إلى صدور رسالة سرية مختومة تتضمن أمراً بالقبض والزج في السجن دون محاكمة أو قضية مبينة. ومثل هذه الأوامر التعسفية أثارت استياء متزايداً على مر السنين في هذا القرن الثامن عشر. وعوق القانون الفرنسي مع تقدم الإدارة الفرنسية، وكان يختلف من مقاطعة إلى مقاطعة مما أعاد إلى الأذهان انفراد المقاطعات بعضها عن بعض باستقلالها الذاتي، في سالف الأيام. وكان في مختلف أقاليم فرنسا 350 هيئة قانونية متباينة. وكان كولبير قد قام بمحاولة غير موفقة في تنظيم القانون الفرنسي وتحديده في "قانون العقوبات" الذي صدر في 1670 ولكن قانونه خلط بشكل مضطرب بين تشريع العصور الوسطى والحديثة، والتشريع الألماني والروماني، والتشريع الكنسي والمدني. وكان الملك يسن القوانين الجديدة وفقاً لمتطلبات الساعة، وعادة بناء على إلحاح وزرائه مع التسرع في التحقق من انسياقها مع القوانين القائمة. وكان من العسير على المواطن أن يتبين أي القوانين ساري المفعول في محل إقامته أو في قضيته.

صفحة رقم : 11986

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الحكومة

وتولت "الشرطة الراكبة" تنفيذ قانون العقوبات في الأقاليم، أما في المدن الكبيرة فكان يتولاها "شرطة البلدية"، التي نظمتها ودرّبها أحسن تدريب وتنظيم في باريس، مارك رينيه دي فوايه دي أرجنسون، الذي لم ينجب أبناء لامعين فحسب، بل أنه كذلك بوصفه قائد الشرطة من 1679 إلى 1718، اكتسب لقب "اللعين"، لأنه كان يبدو وكأنه شيطان، وأنه كان على أية حال مصدر رعب وفزع لمجرمي باريس، لأنه كان يعرف أوكارهم وأساليبهم، ومع ذلك كان (كما يؤكد لنا سان سيمون) "يتسم بالروح الإنسانية" (76)-عطوفاً على البؤساء.

وكان الشخص المقبوض عليه يسجن قبل المحاكمة، ويعامل معاملة لا تكاد تختلف عن معاملته وهو مذنب محكوم عليه بالعقوبة. وقد يقضي مثل جين كالاس-شهوراً في السلاسل والأغلال والتعذيب العقلي، معرضاً للمرض في كل يوم بين الأقدار. وإذا حاول الهرب تصادر ممتلكاته، وإذا اتهم بجريمة كبرى لا يسمح له بالاتصال بمحام. ولم يكن هناك حق التحقيق في قانونية أمر الاعتقال (هابياس كوربس)، أو حق المحاكمة عن طريق المحلفين. وكان الشهود يسألون سراً، كل على حدة. وإذا اعتقد القاضي بأن المتهم مذنب، ولكن ليس هناك أدلة كافية لإدانته، كان له سلطة تعذيبه لينتزع منه اعترافاً. وقل حدوث مثل هذا التعذيب القضائي وخفت حدته على عهد لويس الخامس عشر، ولكنه ظل جزءاً من الإجراءات القانونية في فرنسا حتى 1780.

وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى تمزيق الوصال. وكانت المشهورة مفضلة في عقاب عدم الأمانة في العمل. وكان اللصوص وصغار المجرمين يجلدون بالسياط، وهم يجرون مربوطين في ذيل عربة في الشوارع. وكان يمكن أن يكون الإعدام عقوبة الخدم إذا اقترفوا السرقة، ولكن مخدوميهم نادراً ما تمسكوا بتنفيذ هذا القانون. وفي 1748 أبطل بصفة رسمية الحكم بالتجديف في السفن الشراعية الكبيرة. وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لمجموعة كبيرة متباينة من الجرائم منها السحر والشعوذة والتجديف على الله

صفحة رقم : 11987

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الحكومة

وسفاح ذوي القربى والواط والعلاقة الجنسية بين إنسان وحيوان. ولم يعودوا يلجئون إلى قطع العنق أو شد المجرم إلى الخازوق لإحراقه. ولكن كان يمكن أن يزيدوا من روعة تنفيذ الحكم "بسحب المحكوم عليه وتمزيق أوصاله إلى أربعة أجزاء" أو تحطيم أطرافه بقضيب حديدي وهو مربوط إلى "دولاب" التعذيب. وروي "أن الناس، وبخاصة في باريس، كانوا دائماً يتطلعون في ابتهاج وسرور إلى تنفيذ حكم الإعدام (77)".

وكان النظام القضائي معقداً مثل القانون تقريباً. وكان في الريف آلاف المحاكم الإقطاعية التي تطبق القانون المحلي، ويرأسها قضاة يعينهم السادة الملاك، وكان يمكن لهذه المحاكم أن تنتظر في القضايا الصغيرة فقط، وليس لها أن تفرض من العقوبات إلا الغرامة البسيطة، وكانت أحكامها عرضة للاستئناف، ولكن الفلاح وجد أن من العسير عليه، ومما يكلفه نفقة باهظة أن يكسب قضية ضد السيد المالك. وعلاوة على محاكم السادة الملاك هذه كانت هناك محاكم محلية، وكان في كثير من المدن محاكم خاصة بالكوميونات وفوق كل هذه المحاكم الدنيا كانت هناك المحاكم الإقليمية التي تطبق القانون الملكي، وللملك أن يعين محاكم خاصة لأغراض خاصة. وكانت الكنيسة تحاكم رجالها بمقتضى قانونها الكنسي الخاص بها في محاكم كنسية. وكان المحامون يحتشدون في مختلف المحاكم وفيما حولها، مستفيدين من ولع الفرنسيين بالتقاضى. وكان في المدن الكبرى الثلاث عشرة برلمانات تتألف من قضاة يعملون على هيئة محاكم عليا لهذه المدن وما حولها، وعلى الأساس كان برلمان باريس يخدم ثلث فرنسا تقريباً. وطالب كل برلمان بأن أي مرسوم ملكي أو حكومي لا يصبح قانوناً إلا إذا عرض على البرلمان ووافق عليه وسجله. ولم يسلم المجلس الملكي للدولة بهذا الطلب قط، ولكنه في الغالب سمح للبرلمان بحق الاعتراض. ودارت أشد حقب التاريخ الفرنسي كآبة حول هذه المطالب المتعارضة والمتنازع عليها بين الملك والبرلمانات.

وبين برلمان باريس والملك قام الوزراء والبلاط. وشكل كل الوزراء معاً "مجلس الدولة" وكان البلاط يتألف من الوزراء علاوة على النبلاء

صفحة رقم : 11988

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الحكومة

أو رجال الدين أو أعيان العامة الذين كانوا قد قدموا إلى الملك، بالإضافة إلى معاوني رجال البلاط وخدمهم. وكانت هناك مراسم صارمة (بروتوكول) تحدد وضع كل رجل في البلاط ومسوغاته وأسبقيته وامتيازاته واجباته، كما انه كانت هناك قواعد تشريعات معقدة مدروسة مفصلة تيسر الاحتكاك بين عدة مئات من الأفراد المزهوبين الذين تملأ الغيرة والحدق قلوبهم، كما تتقل كواهلهم. كما أن المراسم والتشريعات الباذخة المسرفة لطفت من رتابة نظام الحاشية. وهيات جو الغموض الذي لا غنى عنه للحكومة الملكية. وكانت ضروب التسلية الأثيرة لدى أفراد الحاشية هي الانهماك في القيل والقال والكل، والميسر والصيد والقنص والزنى. وقال سفير نابلي "إن تسعة أعشار الناس في فرنسا يموتون جوعاً، والعشر يموت من عسر الهضم (78) وكانت مبالغ الخسارة والمكسب على موائد القمار جسيمة. ولكي يسدد رجال الحاشية ديونهم كانوا يبيعون نفوذهم لمن يدفع مبلغاً محترماً لأحد أفراد الحاشية، وكان لكل زوج في البلاط، تقريباً، عشيقه، ولكل زوجة تقريباً عشيق. ولم ينكر أحد على الملك خليلاته، وكل ما شكاه منه النبلاء أن الملك صحب معه إلى فراشه مدام دي بمبادور وهي سيدة من عامة الشعب على حين انهم ربما أحسوا أنه قد يشرفهم أن يفترع جلالته بناتهم البكارى.

وعلى الرغم من أن لويس الخامس عشر كان قد بلغ سن الرشد رسمياً في 1723، فإنه كان آنذاك في سن الثالثة عشرة، وعهد بالإدارة إلى لويس هنري، الدوق دي بوربون. وكان التفكير قد اتجه لشغل هذا المنصب إلى كونت دي تولوز، وهو أحد أبناء لويس الرابع عشر الذين أضيفت عليهم صفة الشرعية، ولكنه استبعد "لأنه لفرط أمانته لا يصلح أن يكون وزيراً (79)" وكان السيد الدوق دي تولوز "نفسه رجلاً طيب الشعور، بذل كل ما في وسعه للتخفيف من فقر الشعب، وفكر في تحقيق هذا الغرض عن طريق وضع نظام يحدد الأسعار والأجور بصفة رسمية، ولكن قانون العرض والطلب جيب أماله. وتجاسر على فرض ضريبة دخل قدرها 2% على كل الطبقات فاحتج رجال الدين وتأمروا على سقوطه (80)

صفحة رقم : 11989

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الحكومة

وأباح لعشيقته المركزية دي بري من النفوذ والسلطان أكثر مما ينبغي، وكانت ذكية، ولكن ذكاءها كان دون جمالها، فاحتالت على زواج لويس الخامس عشر من ماري ليزكنسكا، أملاً في أن تستبقي الملكة الشابة تحت تأثيرها. ومهما

يكن من أمر فإن ماري سرعان ما فقدت نفوذها وعطفت مدام دي براي على فولتير، وأقصت رجال الدين ودفعت الدوق إلى مهاجمة الأسقف الذي يتولى تعليم الملك، والذي كان قد أوصى الملك باختيار الدوق ليكون وزيره الأول. ولكن الملك كان يعجب بمعلمه ويثق فيه أكثر من أي رجل آخر في الدولة. وكان أندريه هركيل دي فليري قد عين أسقفاً في فريجيس 1698 ثم مؤدباً للملك 1715. وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبي. وكان الأسقف فارغ الطول وسيماً مرناً لبقاً، كسولاً بعض الشيء لا يتعجل الحظ والثراء أبداً، ولو أنه وصل إلى ما يصبوا إليه. واعتقد ميشيليه وسانت بيف أن فليري، باعتباره معلماً، كان قد أضعف شخصية الملك الصغير بإطلاق العنان لرغباته وشهواته في ابتهاج خال من الهموم والتفكير، ورباه على مساندة اليسوعيين والعطف عليهم (81). ولكن فولتير، الذي لم يكن صديقاً لرجال الدين، أعجب بفلييري، وقدره أعظم تقدير، معلماً ووزيراً، على حد سواء وأخذ فليري على عاتقه أن يشكل ذهن تلميذه ويدربه على العمل والتكتم والاستقامة والأمانة، وعلى أن يصون نفسه وسط تعجل الحاشية وهياجها وصخبها، طيلة الفترة التي لم يبلغ فيها الملك سن الرشد، والتي نعم فيها بحسن تأثير الوصي وتقدير الشعب. ولم يمن فليري قط بقيمة خدماته، ولم يشكك قط من الآخرين، ولم يغمس يده في مكائد الحاشية ودسائسهم قط. وحاول سراً أن يتعرف على شؤون المملكة في الداخل ومصالحها في الخارج. وصفوة القول إن سلوكه الواعي الحذر ومزاجه اللطيف جعل كل فرنسا تود أن تراه على رأس الإدارة فيها (82). ولما علم فليري بأن تأثيره المستمر في تقرير السياسة استفز الدوق دي بوربون ليوصي بطرده من البلاط، ولم يبذل أي محاولة للاحتفاظ بمركزه

صفحة رقم : 11990

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الحكومة

بل انسحب في هدوء إلى دير السليبيانر في Issy، إحدى ضواحي باريس (18 ديسمبر 1725). وأمر الملك الدوق أن يطلب إلى فليري أن يعود، وعاد بالفعل، وفي 11 يونيو، استجابة لما وضح من رغبة الحاشية ورجال الدين والجمهور، (83) أمر لويس الخامس عشر، بشكل مفاجئ، بوربون "أن يأوي إلى شانتييلي ويبقى هناك لحين صدور أوامر أخرى". وأبعدت مدام دي بري إلى قصرها في نورماندي، حيث تولاهما الضجر والسأم إلى أبعد الحدود، فتناولت السم وفارقت الحياة (1727). وظل فليري يخطو إلى الأمام بفضل تراجعه، ولم يحظ بأي منصب رسمي، بل إنه على العكس، حث الملك على أن يعلن أنه سيتولى الحكم بنفسه منذ الآن. ولكن لويس أثر الصيد أو لعب القمار، وأصبح فليري الوزير الأول في كل الشئون إلا اللقب (11 يونيو 1726). وكان آنذاك في الثالثة والسبعين من العمر، وكم من نفس طموحة تطلعت إلى أن يعاجله الموت، ولكنه حكم فرنسا سبعة عشر عاماً. ولم ينس فليري أنه قسيس، فألغى ضريبة الـ 2% فيما يتعلق برجال الكنيسة، فكان جوابهم على هذا أنهم قدموا للدولة منحة اختيارية قدرها خمسة ملايين جنيه، وطلب فليري أن يسانده في تنصيبه كاردينالاً، وكان في حاجة إلى اللقب ليكون له حق الصدارة والأسبقية على الأذواق في مجلس الدولة، فكان له ما أراد (5 نوفمبر)، ولم يحاول منذ تلك اللحظة أن يخفي الحقيقة، تلك هي أنه كان يحكم فرنسا. ولشد ما كانت دهشة الحاشية حين رأوه متواضعاً وهو في أوج السلطة مثلما كان متواضعاً وهو يمهد لها. وعاش في بساطة تكاد تتسم بالتقتير، قانعاً بالحقيقة الواقعة دون امتيازات السلطة ومقتضياتها. وكتب فولتير "إن ارتفاع مكانته لم يغير من عاداته وسلوكه، ودهش الجميع ليجدوا في شخص رئيس وزارة، أعظم رجال الحاشية جاذبية وفي نفس الوقت أعظمهم نزاهة وتجرداً" (84) وقال هنري مارتن "كان أول وزير عاش بعيداً عن الترف والبدخ ومات فقيراً" (85) وكان أميناً غاية الأمانة،

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الشعب والدولة -&gt; الحكومة

ولم يسيئ استغلال منصب قط. (86) وكان إلى أبعد الحدود أكثر تسامحاً ممن يحيطون به" (87) وعامل فولتير معاملة ودية لطيفة وتغاضى عن ممارسة الطقوس البروتستانتية سرّاً، ولكنه لم يتسامح قط مع الجانسينيين. ولم يعكف، بطريقته المتروية المتأنية، على تقرير السياسة فحسب، بل على إدارة الحكومة كذلك. وأختار معاونيه بعد حكم فاصل مدقق، وساسهم في حزم وكياسة. وفي عهده تابع هنري فرانسوا دي أجوسو مهمته الطويلة المدى (1728-1751) في إصلاح القوانين وتنسيقها، وأعاد فيلبيرت أورى النظام والاستقرار إلى مالية الدولة. وتجنب فليري الحرب حتى أكره عليها بسبب الأطماع الأسرية في الأسرة الحاكمة، ومن ثم هياً لفرنسا فترات سلام وهدوء طويلة، سمحت لها باستعادة الانتعاش الاقتصادي. وبدأ أن نجاحه برر مقدماً الحجج التي ردها الفيزيوقراطيين "أن نحكم حكماً يسيراً معناه أن نحكم حكماً مطلقاً" (حرية التجارة والصناعة وعدم تدخل الحكومة فيهما). وواعد بوقف التضخم، وأوفى بوعد. واتسعت التجارة الداخلية والخارجية، وزاد الدخل. وحيث أنفق الإيرادات في قصد أكيد بعيد عن التبذير، وحد من نفقات مهرجانات الحاشية الملكية، فإنه استطاع أن يلغي ضريبة الـ 2% على الدخل بالنسبة لكل الطبقات، وأن يخفف ضريبة الأملاك التي أبهظت كاهل الفلاحين. وأعاد إلى المدن الكبيرة والصغيرة الحق في انتخاب موظفيها الرسميين. وإقتداء بالمثل الذي ضربه فليري في الاستقامة تحسنت أخلاق رجال البلاط على كره منهم.

وفي مقابل هذه المفاز والمزايا تطل بعض المآخذ الجسيمة برؤوسها. إنه أرخص للملتزمين العاميين في الاستمرار في جمع الضرائب دون تدخل من جانب الوزارة. وتعزيزاً من للمشروع الضخم الذي وضعه المحافظون، أقر نظام السخرة الذي فرض على الفلاحين والعمل دون مقابل اللهم إلا الطعام. وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأرستقراطية، ولكنه قبض يده بشكل مخل غير حكيم بإهماله إصلاح البحرية والتوسع فيها، وسرعان ما باتت تجارة

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الشعب والدولة -&gt; الحكومة

فرنسا ومستعمراتها تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية. إنه وثق ثقة عمياء في قدرته على المحافظة على السلام بينه وبين إنجلترا.

وطيلة حكم روبرت وولبول في إنجلترا نجحت سياسة السلام التي انتهجها الكاردينال. فإن الرجلين، ولو أنهما كانا على طرفي نقيض في الخلق والطباع، اتفقا على أن السلام أمر مرغوب فيه. على أنه في 1733، حضه مستشاروه في الشؤون الخارجية على القيام بمحاولة فائرة لاجلاس ستاناسلاس لركزنسكي، وهو حمو الملك، على عرش بولندا، ولكن ستاناسلاس اقترح إصلاح دستور بولندا وتشكيل حكومة قوية، وأثرت كل من روسيا والنمسا أن تكون بولندا

عاجزة مهيبضة الجناح، فرضت هذا الاقتراح. وفي حرب الوراثة البولندية (1733-1738) طردت لوكزنسكي من ارسو ثم من دانزج. ولما كان فلييري يعارض أي صراع خطير، فإنه نصح ستانيسلاس بأن يلجأ إلى نانسي ولونفيل حاملاً لقب "ملك اللورين". ولم تقع الكارثة، فإن لوكزنسكي والدول اتفقوا على أنه عند وفاته تعود إلى فرنسا اللورين التي كانت فرنسية إلى أبعد حد، وهذا ما حدث في 1766.

وجاهد فلييري الذي كان في الثامنة والثمانين قدر طاقته المتضائلة، أن يناهض بفرنسا عن حرب الوراثة النمساوية (1740)، ولكن امرأة فرضت سلطانها عليه. ذلك أن فليسييتيه دي نسل مركيزة فننيميل، التي كانت آنذاك تشارك الملك فراشه أصغت في بهجة وفرح إلى شارل أوجست فوكيه، كونت دي بل أيل، حفيد المختلس البارح نيقولا فوكيه الذي كان لويس الرابع عشر قد أحسن صنعا بعزله. إن بل أيل هذا أبلغ المركيزة أن فلييري رجل هرم أحمق، وأنه في مهاجمة فرديريك الثاني ملك بروسيا للملكة الشابة ماريا تريزا ملكة النمسا، فرصة ذهبية لتمزيق إمبراطوريتها، وأن فرنسا ينبغي أن تنضم إلى فرديريك، وتقتسم الغنائم. وصبت العشيق الفاتنة هذه الكلمات في آذان الملك الولهان. وأقنعه بأن ينتزع زمام الأمور من بين يدي الكاردينال اللتين ترتعدان خوفاً وجبناً، ويستعيد مجد فرنسا.

صفحة رقم : 11993

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> الحكومة

وناشد فلييري بأن الشرف والمصلحة تحولان دون المضي في مشروع بل أيل. فإن إنجلترا لن تسمح بتدمير النمسا لتصبح فرنسا عظيمة إلى حد يندب بالخطر. وأن على فرنسا أن تدخل في حرب مع إنجلترا أيضاً، وأن فرنسا في خير حال في السلم! وفي 7 يونيو 1741 أعلن لويس الحرب على النمسا. وفي 25 نوفمبر استولى بل أيل على براج، واتفقت معه كل فرنسا تقريباً على أن فلييري عجوز أحمق.

وبعد عام في الحرب تخلى فرديريك المراوغ عن فرنسا وعقد سراً هدنة مع النمسا، وإذ تحررت الجيوش النمساوية على هذا النحو، تقدمت إلى بوهيميا، وشرعت في تطويق براج. ولم تكن إلا مسألة وقت، ليضطر إلى التسليم بل أيل وجيشه المؤلف من عشرين ألف رجل، أفضى مضاجعهم وأزعجهم الأهالي الذين أضمرُوا لهم العدا. وفي 11 يونيو 1742 أرسل فلييري إلى القائد النمساوي كونت فون كونجرج نداء مذللاً يناشده فيه شروطاً معتدلة للحامية الفرنسية، وقال فيه "يعلم كثير من الناس كم كنت أرض القرارات التي اتخذناها، وإنني أرغمت بطريقة ما على الموافقة عليهما" (88) فأرسل كونجرج الخطاب إلى ماريا تريزا التي نشرته على العالم. وأرسل جيش فرنسي لإنقاذ بل أيل، ولكنه لم يصل إليه قط. وفي ديسمبر ترك بل أيل وراءه ستة آلاف من المرضى والجرحى، وغادر بقواته الأصلية براج إلى الحدود عند إيجو، ولكن عملية الفرار هذه حدثت في قلب الشتاء عبر مائة ميل جبال ومستنقعات مغطاة بالجليد أو الثلوج، ولم تنقطع غارات العدو عليهم طيلة انسحابهم، وهلك من الأربعة عشر ألف رجل الذين بدعوا هذه المسيرة اثني عشر ألفاً في الطريق، وامتدحت فرنسا هذا الإنقاذ الرائع بالارتداد المذهل. وتخلي فلييري عن الوزارة، وأوى إلى الدبر في أسى حيث فارق الحياة (29 يناير 1743) وهو في سن التسعين. وأعلن الملك أنه سيتولى رئاسة الوزارة بنفسه منذ الآن.

صفحة رقم : 11994



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

5- لويس الخامس عشر

عجبا: ماذا يكون شعور الإنسان عندما يكون ملكاً وهو في سن الخامسة؟ أن الصبي الذي قدر له أن يحكم فرنسا تسعة وخمسين عاماً، كان لا يكاد يسترعي الانتباه أو الملاحظة في طفولته المبكرة، كان ضعيفاً هزئياً، يتوقعون أن يعاجله الموت بين آونة وأخرى. وفجأة في 1712 توفي والداه دوق ودوقة برجندي بالجردي، وأصبح الصبي وريث العرش، وبعد ثلاث سنوات كان هو الملك.

واتخذت كل الاحتياطات لجعله غير صالح للحكم. وقلقت مربيته مدام دي فنتادور أشد الفلق على صحته، وعملت على وقايتها من قسوة الجو، وخرس فيه كاهن اعتراف يسوعي احتراماً رهيباً للكنيسة. وكان فلييري، معلمه ومؤدبه، كيساً متسامحاً، ويبدو أنه فكر في أنه من الخير لفرنسا أن يكون ملكها كسولاً بليداً. أما معلمه الخاص ماريشال دي فيلرورا فقد دبر سماً عكسياً، حيث قاده إلى نافذة في قصر التويليري ليرى الجماهير التي احتشدت لتصفق وتهلل وتهتف له، وهو يقول "انظر يا مولاي، هذا الجمع وهؤلاء الناس كلهم لك تابعون لك. أنت ملكهم وسيدهم. (89) واقتربت القدرة على كل شيء بالعجز وعدم الأهلية لأي شيء.

لقد افسد لويس هالة القداسة التي أضفوها عليه، وكان أنانياً في سلطته بليداً عنيداً، ومن ثم نشأ شاباً ضجراً صموتاً، مع التجاوز عن تجنبه مراقبة حراسه وفيما بعد تجنبه مراسم حاشيته وخنوعها ليجد متنفساً في الحفر على الخشب وشغل الإبرة وحلب البقر واللعب مع الكلاب. (90) إن عناصر القسوة التي تكمن فينا جميعاً تمكنت عنده من أن تظهر إلى السطح من خلال جنبه. ويروى أنه كان في صباه يجد لذة في صيد الحيوانات بل قتلها. (91) وفي سني نضجه هذب من هذه القسوة إلى مجرد الصيد، وربما برزت في سوء معاملته، وسرعة نبذه للبنات اللاتي شاركنه فراشه بعد تدريبهن على ذلك في "متنزه الأطباء" على أن معاملته

صفحة رقم : 11995

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

لأصدقائه تميزت بقدر من الحساسية المقرونة بالحذر والخجل ومراعاة شعورهم وحقوقهم. وكان له ذهن سليم، كان من الممكن أن يتفوق لو أن الأخلاق ساندته ودعمته. وأدهش الجميع بقوة ذاكرته وسرعة بديهته. وكان بطبيعته يؤثر الألعاب على الدرس. ولكنه استوعب بعض التعليم الصحيح في اللاتينية والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والفنون العسكرية. وشب فارغ الطول نحيل القوام، ولكن عريض المنكبين، مع بشرة جميلة وشعر ذهبي متجدد. وقال عنه ماريشال دي ريشيليو أنه "أكثر الصبية وسامة وملاحة في مملكته" (92) يحتفظ متحف فرساي بصورة رسمها له فانلر، وهو في الثالثة عشرة بالسيف والدرع، مما يكاد يتلاءم مع الوجه الصبياني. وقارنه رينيه لوس دي أرجنسون بإله الحب عند اليونان "إيروس" (كيوبيد عند الرومان). ووقعت النساء في غرامه لأول نظرة. وحين مرض في 1722 صلت كل فرنسا من أجله، وعندما أبل من مرضه بكت كل فرنسا فرحاً وابتهاجاً. إن

هذا الشعب الذي كثيراً ما عانى وقاسى من ملوكه طرب وابتهج لما رواده من أمل في أن الشاب سرعان ما يتزوج وينجب ابناً يحفظ العرش في الأسرة الكريمة العريقة.  
والحق إنه كان قد خطب (1721) وهو في سن الحادية عشرة، ماريانا فكتوريا، وعمرها عامان، ابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا. وكانت قد انتقلت إلى باريس، وكانت الآن تنتظر أن تبلغ سن الزواج. ولكن مدام دي بري رأته أنها قد تستطيع الاحتفاظ بنفوذها المتزايد بفسخ هذا القران المرتقب، وتزوج لويس من ماري ليزنسكي ابنة ملك بولندا المخلوع. وشرعت في تنفيذ خطتها، وأعيدت الأميرة إلى أسبانيا (1725) وتلك إهانة لم يغتفرها البلاط الأسباني قط. وكان ستانسلاس في مأواه في ويزميرج في الألزاس حين تلقى طلب ملك فرنسا يد ابنته، فدخل إلى الحجرة التي كانت أبنته وأمها تعملان فيها وقال "فلنسجد شكراً لله". فتعجبت ماري فرحة مبتهجة وقالت "أبي العزيز، هل دعيت ثانية لارتقاء

صفحة رقم : 11996

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

عرش بولندا؟ "فأجاب ستانسلاس" بل إن الله من علينا بنعمة مذهلة أكثر. لقد أصبحت ملكة فرنسا" (93) إن ماري لم تكن تحلم قط بارتقاء أعظم عرش في أوروبا. وكانت قد رأت صور لويس الخامس عشر، شاباً يكمله المجد والرفعة، وسيماً قوياً، إلى أبعد حد. وأرسلت إليها الخزانة الفرنسية الأردية والثياب والملابس الداخلية والأحذية والقفازات والمجوهرات، وودعتها بمائتين وخمسين ألف جنيه لدى وصولها إلى فرساي، وبراتن سنوي قدره عشرون ألف كراون ذهباً مدى الحياة. وتلقت ماري هذا كله في ذهول وهي لا تكاد تصدق، واتجهت إلى الله بالشكر على حظها السعيد. وفي 15 أغسطس 1725 عقد قرانها على الملك بتوكيل في ستراسبورج، وسارت فرحة إلى باريس عبر طرق تجتاحها العواطف لعدة أيام قاسية. وزفت إلى الملك في فوننتيلو في 5 سبتمبر. وكان هو في الخامسة عشرة، وكانت هي في الثالثة والعشرين من العمر، ولم تكن جميلة، بل طيبة فقط.

أما لويس الذي قد أبدى بعد ولعاً بالنساء، فإنه أفاق عندما مس عروسه المتواضعة، وعانقها في حرارة أدهشت حاشيته، وكانت حياتهما لبعض الوقت مثلاً للحب والسعادة، وحظيت باحترام الناس وولائهم، ولكنها لم تكن يوماً ذات شعبية أو محبوبة. وكانت لطيفة ودودة رقيقة حساسة، لا تعودها الدعابة المرحة، ومع ذلك افتقدت فرساي فيها الذهن المتوقع والحديث المرح المفعم بالحويبة، مما أصبح لزاماً أن تتحلى به سيدات البلاط. وصعقت ماري لأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية، ولكن نقدها لها لم يجاوز أنها ضربت مثلاً للزوجة الأمينة المخلصة الحريصة على إسعاد زوجها وعلى إنجاب وريث له. وعلى مدى اثني عشر عاماً وضعت عشرة أطفال، وفي سنوات أخرى عانت كثيراً من الإجهاد. وكان إشباع شهوة الملك معضلة واجهت الملكة. أنها توسلت إليه أن يتعفف ويستعصم، على الأقل أيام الاحتفال بأعياد كبار القديسين، وأصيبت في غمرة جهودها وواجباتها "بناسور" خبيث، والتمست "الحرارة" التي تضطرم بين جنبي

صفحة رقم : 11997

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

الملك منافذ أخرى. وكان عرفانها بحسن صنيع مدام دي بري والدوق دي بوربون محنة ابتليت بها وأصغت في صبر ناقد حين هاجم الدوق بوربون فليري في حضرة الملك. وعندما تولى زمام السلطة أرسل بناتها إلى دير ناء بحجة الاقتصاد في النفقات. ورجح نفوذه المتزايد من كفة أعدائها. ولما زاد فتور الملك نحوها أوت إلى حلقة محدودة من أصدقائها، ولعبت الورق ونسجت البسط، وحاولت الرسم، ووجدت بعض السلوى والعزاء في التقوى وأعمال البر. "وعاشت حياة الدير والرهبنة وسط انفعالات الحاشية وعبثها" (94).

وكان ينبغي للملك أن يلهو ويتسلى، ولكن مدام دي بري كانت قد اختارت له زوجة غير مسلية. على أنه لم يتخذ خليفة إلا بعد سبعة أعوام من زواجه، وعند ذلك اتخذ أربعاً على التعاقب، مع قدر محدود من الإخلاص، لأنهن كن أخوات. ولم يكن رائعات الجمال، ولكن كن جميعاً نشيطات مسليات مفعمات بالحيوية، وكن جميعاً ما عدا واحدة ذوات خبرة بأساليب الغنج والدلال والعبث. وواضح أنه كان للويزا دي نسل كونتيسة دي مللي الشرف في أن تكون سبابة إلى إغراء الملك وإغوائه (1732). إنها، مثل لويزا دي لافالير، أخلصت في حبها لعشيقها الملكي، ولم تكن تسعى للثراء أو السلطة، وكل ما سعت إليه هو أن تسعده. فلما زاحمتها أختها فليسينتيه، وكانت لتوها قد غادرت الدير، على مخدع الملك، فإن لويزا شاركتها في لويس (1739) في قران رباعي مهرطق-لأنه ظل يتردد على الملكة. وأزعج هذا التعقيد ضمير الملك، وتجنب تناول القربان المقدس، ولفترة من الوقت، بعد أن سمع قصصاً رهيبية مفزعة عن أناس كانوا قد تناولوا القربان في فم أم خاطئ. (95) إن هذه المرأة المغوية الخطرة (السيرانه: عند الإغريق كائن أسطوري له رأس امرأة وجسم طائر، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك)-كما تزوي إحدى أخواتها "كان لها شكل الغرناد (سمك بحري) وعنق الغرنوق (طائر ذو عنق طويل) ورائحة القرد" (96). ومع ذلك احتالت

صفحة رقم : 11998

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

التحمل. وحفاظاً على ماء الوجه وأداب المجتمع أوجد لها لويس زوجاً، وعينها مركيزة فنتميل. وفي 1740 أوت مدام دي ميللي إلى أحد الأديار، ولكنها غادرت بعد عام واحد لترعى منافستها المنتصرة التي كانت تعاني سكرات الموت أثناء الولادة (1741). وبكى الملك وبكت مدام دي ميللي معه. ووجد بعض العزاء بين ذراعيها، وعادت عشيقه له من جديد.

وثمة أخت ثالثة، أدليد نسل، البدينة الدميمة، وكانت بارعة ذكية، عملت على تسلية الملك بحركاتها الجسدية وسرعة بديتها وأجوبتها السريعة. واستمتع الملك بها، ووجد لها زوجاً، وظل على علاقة بها. أما الأخت الرابعة، مدام دي فلافاكور، فإنها صدت الملك وصادقت الملكة. ولكن الأخت الخامسة، أقدرهن جميعاً، هي ماري آن دمي نسل دي لاتورنل، أفنعت مدام دي ميللي بأن تقدمها للملك. ولم تغز ماري قلب الملك فحسب، بل أنها أصرت كذلك على أن تكون المحظية الوحيدة، وأقصبت ميللي فقيرة معدمة، وهوت بين عشية وضحاها من أهبه الملكية إلى كآبة الدير. وهكذا أزاحت كل من الأخوات من بنات نسل أختاً لها. وبعد ذلك بقليل كانت ماري تشق طريقها لتصل إلى مقعدها في كنيسة نوتردام، فكان في هذا إزعاجاً لجماعة من المصلين، وتدمر أحدهم قائلاً: "كل هذه الضجة من اجل بغي فاجرة" فقالت هي: "سيدي، مادمت عرفنتي جيداً فأرجو أن تمن علي بالصلاة لله من اجلي". (97) "ولا بد من أن الله سبحانه وجد من اليسير أن يغفر لها.

وكانت السيدة نسل الجديدة أجمل الأخوات. إن الصورة التي رسمها لها ناثييه-وجه وسيم، صدر بارز منتفخ، قوام رشيق، في ثوب من حرير مهفوف متموج يكشف عن قدمين صغيرتين رقيقتين-لتفسر شدة اندفاع الملك نحوها وميله إليها. وإلى هذا كله كانت تجمع ذكاء متقدماً قدر بريق عينيها. وعلى النقيض من دي ميللي كانت ماري تتلهف على الثروة والسلطان. وقدرت أن نفقاتها تستحق أن يكون لها دوقية شاتورو

صفحة رقم : 11999

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

التي تدر 85 ألف فرنك في العام، فحصلت عليها وعلى لقب دوقة (1743). ودخلت التاريخ لمدة عام. وتحيز لها وساندها حزب قوي في البلاط، كان يأمل في استخدام نفوذها في كسب الملك إلى جانب سياسة عسكرية فعالة، تعود فيها سلطة الحكومة من البيروقراطية البرجوازية إلى النبالة العسكرية (نبلاء السيف) وكان لويس في بعض الأحيان، شعوراً منه بالواجب، ينهمك في العمل مع وزرائه، ولكنه على الأغلب كان يفوض إليهم سلطاته وواجباته. ونادراً ما اجتمع بهم، أو عارضهم، وأحياناً وقع مراسيم اقترحها أو عرضها عليه أعوان متنافسون. وهرب من قواعد التشرifiات في البلاط إلى كلابه وجياده وإلى الصيد والقنص. فإذا لم يخرج يوماً للصيد قال رجال الحاشية "أن الملك لا يفعل شيئاً اليوم". وعلى الرغم من انه لم تعوزه الشجاعة، فإنه لم يكن يميل إلى الحرب، وكان يؤثر الفراش على الخندق.

وفي المخدع وفي حجرة الجلوس حرضت الدولة الشهوانية اللعوب-مستعيدة ذكرى أجنيس سوريل-الملك على القيام بدور فعال في الحرب ضد إنجلترا والنمسا. وصورت له لويس الرابع عشر يقود جيشه إلى المجد والعظمة في مونزونامور، ونساءلت: لماذا لا يتألق لويس الخامس عشر الوسيم الشجاع في درعه وسيفه وعلى رأس جيشه، مثلما كان يفعل جده العظيم. ونجحت الخطة، وماتت الدوقة منتصرة. وأفاق الملك الكسول لحظة من سباته. وربما كان نتيجة لاستحاثاتها وتحريضها، إنه عندما حانت منية فليري المسالم، أعلن لويس أنه سيحكم ويملك معاً. وفي 26 أبريل 1744 استأنفت فرنسا الحرب الفعلية ضد النمسا، وفي 22 مايو تجدد التحالف مع فردريك ملك بروسيا الذي بعث بشكره وامتنانه إلى مدام شاتوره. وتقدم لويس إلى الجبهة في أبهته الملكية وتبعه بعد يوم واحد خليلاته وسائر سيدات البلاط، تحيط بهن كل كظاهر البذخ والترف المألوفة، وكسبت القوات الفرنسية الرئيسية التي يقودها الملك، ولكن يخطط عملياتها

صفحة رقم : 12000

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

أدريان موريس دي نواي وموريس دي ساكس، انتصارات يسيرة في كورتراي ومان وأبيرس وفورنيس. وبدا وكان لويس الرابع عشر والقرن العظيم ولدا من جديد.

ووسط المهرجانات والإبتهاجات ترامت الأنبياء بأن قوة فرنسية تخلي عن مسانبتها إلى حد كاف حلفاءها البافاريون، كانت قد هيات الفرصة لجيش نمساوي مجري أن يحتل أجزاء من الألزاس واللورين، مما اضطر معه ستانسلاس الذي لم يفارقه سوء الطالع، إلى الهرب من لوفيل. وترك لويس فلاندرز وأسرع إلى منز أملأ في استنارة همم الجيش المنهزم بوجوده. ولكنه، هناك، نتيجة المشاغل المتنوعة وسوء الهضم وحرارة أواسط الصيف، انتابه مرض شديد، وازدادت الحالة سوءاً بسرعة إلى حد أنه في 11 أغسطس ظن أن في خطر من أن يهلك، وكانت خليلته قد لحقت به، وهي الآن تسهر على العناية به ورفض أسقف سواسون أن يناوله الأسرار المقدمة الأخيرة إلا إذا طردت الدوقة. واستسلم لويس، وأقصاها إلى نحو 150 ميلاً بعيداً عن الحاشية (14 أغسطس 1744) وشيعها الأهالي بصيحات الاحتقار والاستنكار وهي تغادر المدينة.

وفي الوقت نفسه كانت ماري لوكزنسكي قد عجلت بالسفر عبر فرنسا لتكون إلى جانب زوجها وهو طريح الفراش. وعلى الطريق التقى ركبها بعربة شاتور ويطانتها. وعانق الملك الملكة قائلاً "لقد سببت لك ما لا تستحقين من الحزن والأسى، وأرجو أن تغتفري لي هذا كله". فكان جوابه "ألا تعرف أنك لست في حاجة أبداً إلى الصفح من جانبي. إن الخطأ في حق الله وحده". وعندما بدأ الملك يسترد صحته كتبت الملكة إلى مدام دي موريا بأنها "أسعد مخلوقة على وجه الأرض". واعتبطت فرنسا كلها أيما اعتباط بشفاء الملك وندمه على ما فات، وعانق المواطنون بعضهم بعضاً في الشوارع، وعانق بعضهم جواد الرسول الذي حمل هذه الأنبياء السارة. وأطلق بعضهم على الملك "لويس المحبوب جداً" ورددت الأمة هذه العبارة. وعندما سمع بها لويس تعجب قائلاً "ماذا فعلت لأجعلهم يحبونني إلى هذا الحد؟" (98) إنه كان رمز الوالد لشعبه.

صفحة رقم : 12001

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

وأنقذ فردريك الألزاس بغزو بوهيميا، فإن الجيش النمساوي المجري ترك الألزاس لإنقاذ براج. وأنضم لويس، وهو لا يزال ضعيفاً إلى جيشه المتقدم نحو ألمانيا، وراه يستولي على فريبورج-أم بريسجو. وفي نوفمبر عاد الملك إلى فرساي، وأعاد مدام دي شاتورو إلى سابق حظوتها ومكانتها، ونفي أسقف سواسون. ولكن في 8 ديسمبر، وبعد أن عانت من الحمى والهديان لعد أيام، قضت الخليفة نحبها. ودفنت في ظلام الليل، تقادياً لامتحان الجمهور لرفاتها. واستاء الملك من رجال الدين فامتنع عن تناول الأسرار المقدسة في عيد الميلاد، وظل يترقب غراماً جديداً.

ونسيت الأمة لبعض الوقت خطايا "المحبوب جداً" وسط انتصارات جيشه، وكان قائد ألماني بروتستانتني هو بطل فرنسا. ذلك أن موريس دي ساكس كان ابن أوغسطس القوي ناخب مكسونيا وملك بولنדה. وكانت أمه هي الكونتيس ماريا أورورا فون كونجز مارك التي اشتهرت بين محظيات الملك بالجمال والذكاء إلى حد أطلق معه فولتير عليها "أنها أشهر امرأة على مدى قرنين من الزمان" (99). وفي سن الثانية عشرة تزوج موريس من جرهانا فكتوريا، كونتيس فون لوين، وكانت سيئة الخلق مثل أبيه. وبدد ثروتها واستنكر دعارتها وفجورها وطلقها (1721). وبعد أن أظهر شجاعته في حملات كثيرة قصد باريس لدراسة الرياضيات. وفي 1720 حصل على منصب في الجيش الفرنسي. وبعد أن نجا من كل محاولات زوجته لقتله بالسم، عثر على خليلته مخلصاً في شخص أدريين لكوفرير التي برزت مكانتها في الكوميدي فرانسيز آنذاك (1721). وفي 1725 غادر فرنسا ليؤسس له مملكة في كورلند (جزء من لتقيا الحالية). أما الممثلة العظيمة، فإنها على الرغم من حزنها الشديد على فقد حبيبها، منحتة، عوناً على تنفيذ

مشروع، كل ما لديها من فضة وحلي ومصوغات، قيمتها أربعون ألف جنيه. وبهذا المبلغ، بالإضافة إلى سبعة آلاف طالير (عملة فضية ألمانية قديمة) من والدته، قصد إلى كورلند، وانتخب لعرش الدوقية (1726). ولكن كاترين

صفحة رقم : 12002

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

الأولى قيصر روسيا وأياه ساندا مجلس الديت البولندي في مناهضة ارتقائه العرش، وطردت القوات البولندية من كورلند، الجندي الذي لم يكن ليقهر لولا هذه المقاومة، ولما عاد إلى باريس (1728) وجد أن الممثلة الكبيرة كانت تنتظره مخلصاً له، ولكنه كان قد ورث عن أبيه خلقه وتقلبه، ورضى بها صاحبة الخطوة الأولى بين عشيقاته. ومع هذا الانحلال الخلقي الجدير بالازدراء وتقلبه بين أحضان النساء الواحدة بعد الأخرى دون أن يبادلهن إخلاصهن، أصبح موريس في ميدان القتال عبقرياً لا يجارى في استراتيجيات الحرب، جريئاً في تفكيره، يقظاً لأي خطر يتهدده، وأية فرصة تسنح له. وقال عنه فردريك الأكبر منافسه الوحيد في ذلك العصر إنه "قادر على تلقين الدروس لأي قائد في أوروبا" (100) وفي ربيع 1745 عين قائداً عاماً للجيش الفرنسي، وصدرت إليه الأوامر بالانطلاق نحو الجبهة. وكان على شفا الموت آنذاك في باريس، حيث أنهكه إفراطه في الشراب والام داء الاستسقاء المبرحة، وسأله فولتير كيف يذهب إلى ميدان القتال في مثل هذه الحالة، فأجابه موريس "ليس المهم أن أعيش ولكن المهم أن أبدأ" (101). وفي 11 مايو التحم بجيشه البالغ 52 ألف رجل مع قوات الإنجليز والهولنديين البالغ عددهم 46 ألفاً من الرجال الأشداء، في فونتوي. وكان لويس والدوفين يتابعان سير المعركة الشهيرة على ربوة قريبة، أما موريس الذي ألقاه الاستسقاء عن ركوب الخيل، فكان يديرها وهو على كرسي من الأغصان المجذولة. وبروي لنا فولتير، فيما كان يمكن أن يتطور إلى أسطورة وطنية، (102) أنه عندما أصبح مشاة العداء وجهاً لوجه على مرمى البنادق، صاح لورد تشارلز هاي قائد الحرس الإنجليزي "أيها الفرنسيون أطلقوا النار" فأجابه كونت دي أنتروخ عن الفرنسيين "أيها الرجال، نحن لن نبدأ بإطلاق النار، فهل تدعون أنتم" (103) وأياً كان الأمر كياسة أو خدعة حربية، فإن الثمن كان غالياً، حيث قتل بالطلقات الأولى تسعة ضباط و434 من المشاة، وجرح 35 ضابطاً و430 جندياً. (104) واضطرب المشاة الفرنسيون وتفرقوا وولوا الأدبار. وأرسل موريس إلى الملك يعرض عليه الانسحاب، فأبى لويس، حتى حين وصل

صفحة رقم : 12003

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

إلى مكانه الجنود العائدون، وربما أحجلهم تصميمه. فما كان من موريس إلا أن امتطى صهوة جواده، وأصدر أوامره إلى قوته من جديد وأعاد تنظيمها، وأطلق القوات الملكية الخاصة على العدو. وقد رأى الفرنسيون مليكهم في خطر

الأسر أو الهلاك، وحيث شجعهم وجود ماريشال دي ساكس المتهور تحيط به طلقات النار من كل مكان في أية لحظة، فإنهم جددوا القتال، وأبدى النبلاء والعامّة بطولة عظيمة مشربة بروح الانتقام في ساحة المجد. وأخيراً هزم الإنجليز واختلت صفوفهم، وأرسل موريس إلى الملك يبشّره بالفوز في هذا الالتحام المرير. وفقد الإنجليز والهولنديون 7500 رجل، والفرنسيون 7200. وحنى لويس رأسه خجلاً حين حياه الجنود الباقون على قيد الحياة. والتقت إلى الدوفين ولي العهد قائلاً "انظر يا بني كم يكلف النصر، احرص على أن تكون ضنيناً بدماء رعاياك" (105). وبينما عاد الملك ومرافقه إلى فرساي، تقدم موريس للاستيلاء على غنت وبروجز وأودينارد وأوستند وبروكسل. ودانت الفلاندرز كلها فترة من الزمن.

وضيع فرديريك نناج فونتوي بتوقيعه صلحاً منفرداً مع النمسا (ديسمبر 1745) وتركت فرنسا تقاثل وحدها على ست جبهات من الفلاندرز إلى إيطاليا. وبمقتضى معاهدة إكس لاشبال (1748) تخلت عن الفلاندرز، وكان عليها أن تقنع بالحصول على دوقيات بارما وبياشنزا وجوستللا لصهر لويس الجديد (زوج ابنته) الأمير دون فيليب الأسباني. وعاش موريس أوف سكسونيا حتى عام 1750، غنياً معزراً مكرماً، ومثقلاً بالأمراض. وكان يجد فسحة من الوقت، بين الغواني، ليدون بعض نظرات فلسفية حاملة: "ماذا نرى اليوم في الأمم! نفر من الناس يعيشون في فراغ وسرور وجدة على حساب الجماهير التي لا تعيش إلا على توفير ملذات جديدة دوماً لهذه القلة من الناس. إن هذه المجموعة من الظالمين والمظلومين تشكل ما نسميه مجتمعاً" (106).

صفحة رقم : 12004

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

وتجاسر رجل آخر من القلة المرموقة المنعمة على أن يحلم بنظام أرحم وأكرم. ذلك أن ريننيه لويس دي فواييه، مركزيز أرجنسون الذي تولى منصب وزير الخارجية لمدة ثلاث سنوات (1744-1747)، كتب في 1739 "تأملات في حكومة فرنسا"، ولم يجرؤ على نشره إلا في 1765. وجاء فيه أن هؤلاء الذين يفلحون الأرض هم أعظم قطاع من السكان قيمة، وينبغي أن يتحرروا من كل الرسوم والالتزامات الإقطاعية، والحق أنه يجدر بالحكومة، أن تقرض صغار الفلاحين أموالاً لتساعدهم على الإنفاق على زراعتهم (107). والتجارة حيوية لازدهار الأمة ويجب تحريرها من المكوس والرسوم الداخلية، بل من رسوم التصدير والاستيراد كلما أمكن ذلك. والنبلاء هم أقل العناصر قيمة في الدولة، أثبتوا عجزهم في الإدارة، وهم عالية على المجتمع". وإذا قال أحد بأن هذه المبادئ تتفق مع الديمقراطية، وتميل إلى القضاء على طبقة النبلاء فلن يكون مخطئاً". وإنه ليجدر بالتشريع أن يهدف إلى أكبر قدر ممكن من المساواة. وينبغي أن يحكم الكوميونات موظفون ينتخبون محلياً، على أن تبقى السلطة المطلقة الرئيسية في يد الملك، لأن الملكية المطلقة وحدها هي القادرة على حماية الناس من ظلم (108). واستبق دي أرجنسون الفلاسفة في التطلع إلى الإصلاح على يد ملك مستنير، وقص على النبلاء ما لم يعترفوا به إلا في 4 أغسطس 1789 حين تنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية، ومن ثم كان مرحلة في طريق فرنسا إلى روسو وإلى الثورة.

وفي 1747 استسلم لويس لتحرير نواي ومورياس وبمبادور وعزل دي أرجنسون. وفقد المركز ثقته في الملوك. وفي 1753 تتبأ بما حدث في عام 1789: "إن المساواة والشرور الناجمة عن الحكومة الملكية الاستبدادية لتقع كل فرنسا وكل أوربا بأنها أسوأ الحكومات.... وإن هذه الفكرة لتبرز وتنتشر وتزداد قوة، وقد تؤدي إلى ثورة وطنية... وكل شيء يمهد الطريق إلى حرب أهلية.. وأذهان الناس مهياة للتمرد

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> لويس الخامس عشر

والعصيان، ويبدو أن كل شيء يتجه إلى ثورة كبرى في الدين والحكومة معاً(109)".  
أو كما قالت خليعة الملك الجديدة "من بعدي الطوفان".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

6- مدام دي بمبادور

هي من أشهر النساء في التاريخ، وأوتيت من الرشاقة والجمال ما أعمى أبصار معظم الرجال عن آثامها وخطاياها، ومع ذلك وهبت من قوة الذهن ما مكنها لمدة عقد زاهر من السنين، من أن تحكم فرنسا وتحمي فولتير وتنفذ موسوعة ديدرو، مما أدى بالفلاسفة إلى القول بأنها تنتسب إليهم. ومن العسير أن ننظر إليها في الصورة التي رسمها لها بوشيه دون أن نفقد نزاهة المؤرخ في الافتتان بالإنسان. فهل كانت دي بمبادور إحدى روائع الطبيعة، أو إحدى روائع بوشيه فحسب؟

وكانت قد بلغت الثامنة والثلاثين حين رسمها، وكانت صحتها الهزيلة تتدهور، ولم يحط من قدرها بالحسية أو الشهوانية السطحية في صوره العارية المشرقة. وبدلاً من ذلك أبرز تقاطيع وجهها الرائعة، ورشاقة قوامها، والذوق في ملابسها. والرقّة الناعمة في يديها، "وتسريحة" شعرها الخفيف الأسمر عالياً فوق الجبين. وربما زاد من قيمة هذه المفاتن بخياله ومهارته، ولكنه مع ذلك لم ينقل ضحكاتها المرحة المستهترّة، ولا ريحها الوديعة، بل لم ينقل نكاهها الحاد الماكر ولا قوة شخصيتها الهادئة، ولا صلابة إرادتها التي لا تلين ولا ترحم أحياناً. وكانت جميلة منذ ولادتها تقريباً. ولكنها لم تحسن اختيار والديها، فكان عليها أن تتناضل طوال حياتها ضد ازدياد الأرسنقراطية للطبقة الوسطى التي نبتت فيها. وكان والدها سماناً (بقالاً)، وهو فرنسوا بواسون الذي لم يستطع يوماً أن يتخلى من اسمه (بواسون بالفرنسية معناها سمك). واتهم بالاختلاس فحكم عليه بالإعدام شنقاً، ولكنه هرب إلى همبرج، وتحايل للحصول على العفو عن جريمته، وعاد إلى باريس



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

(1741). أما والدتها فكانت ابنة "متعهد لتموين العجزة". وشغلت بالارتقاء في أحضان الرجال، بينما كان زوجها يستدر العطف في همبرج. واستمتعت بعلاقة غرامية طويلة بملنزم ثري، هو شارل فرانسوا لينورمانت دي تورنهم، الذي تولى الإنفاق على تعليم البنت الجميلة التي وضعتها مدام بواسون في 1721. وأتيح لهذه الابنة، جين أنطوانيت بواسون. أحسن ما يمكن أن يتاح من المعلمين، جليوت، الجهير العظيم، للغناء، وكريبيون الأب لفن الإلقاء، حتى باتت في الوقت المناسب تنافس نجوم المسرح في الغناء والرقص والتمثيل. وكان صوتها في حد ذاته إغواء". (110) وتعلمت الرسم والحفر، وعزفت على البيان القيثاري إلى حد تحمست له مدام دي ميللي في استحسان عزفها. ولما كانت جين في التاسعة من عمرها تنبأت لها سيدة عجوز (كافأتها فيما بعد على نبوءتها) بأنها ستصبح يوماً ما "عشيقة الملك" (111) ولما بلغت الخامسة عشرة دعا جمالها وأعمالها البارعة أمها إلى القول بأنها "طبق شهى للملك"، ولو أنه من المؤسف أنها لن تكون ملكة. (112) ولكن "الطعام الشهي الملكي" كانت قد بدأت تسعل دماً.

وفي سن العشرين أغراها مسيو دي تورنهم بأن تتزوج ابن أخيه شارل غليوم لينورمانت دي اتوال، ابن أمين صندوق دار سك النقود. وهام الزوج يحب زوجته، وقدمها إلى المنتديات مفاخراً مزهو بها. والتقت في منتدى مدام دي تنسان بمونتسكيو وفونتيل وديكلو وماريفو، وأضافت فن الحديث إلى مفاتها الأخرى. وسرعان ما استضافت هي نفسها، مع فونتيل، مونتسكيو وفولتير في بيتها. وكانت سعيدة. وأنجبت طفلين وأقسمت "أنه لن يحملها أحد في العالم، إلا الملك، على أن تخون زوجها أو تكون غير مخلصه له" (113) أية بصيرة نافذة هذه! وفكرت الوالدة في أن هذا الاستثناء من المستطاع تدبيره. ورأت أنه يمكن أن تقصد جين مستقلة مركبة فاخرة إلى غابات سينار حيث يذهب لويس للصيد. وكثيراً ما رأى الملك وجهها الذي لا يمكن نسيانه. وقدمت

صفحة رقم : 12008

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

الرشاوي إلى غلمان الملك ليظروا جمالها لديه. وفي 28 فبراير 1745 شهدت حفلة رقص تنكرية أقيمت في أو تيل دي فيل بمناسبة زواج الدوفين، وتحدثت إلى الملك، وطلب منها أن تخلع القناع لحظة، ففعلت، ثم انصرفت وهي ترقص، وفي إبريل رآها في مسرحية هزلية تمثلها إيطالية في فرساي. وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إليها دعوة لتناول العشاء. ونصحتها أمها "بأن تسلي الملك وتدخل السرور على قلبه" وفعلت جين، واستسلمت للملك. وعرض عليها جناحاً في فرساي فقبلت. وحث مسيو تورنهم الزوج على أن يأخذ المسألة بروح فلسفية: "لا تعرض نفسك للسخرية بالاسترسال في الغضب مثل أي برجوازي، أو بخلق مشكلة (114) وعين الملك مسيو دي أتوال ملتزماً عاماً، وكيف الرجل نفسه ليكون جامع ضرائب، وابتهجت الأم بارتفاع مكانة ابنتها، وقضت تحبها. وفي سبتمبر حصلت جين على ثروة عريضة، وأصبحت المركيزة دي بمبادور، وقدمت بهذه الصفة إلى الحاشية وإلى الملكة التي هدأت من روعها ولاطفتها في ارتباك طفيف. إن الملكة غفرت لها باعتبارها شراً لا بد منه، ودعتها للعشاء. أما الدوفين فإنه، على أية حال، أطلق عليها "مدام هور" (السيدة البغي) واستاعت الحاشية لاقتحام سيدة برجوازية مخدع الملك واستيلائها على أمواله، وما فاتها أن يلاحظوا انزلاقها من حين إلى حين إلى النقوه بألفاظ الطبقة الوسطى أو انتهاج أساليبهم. وتمتعت

باريس بالمقطوعات الساخرة والهجاء اللاذع "الخادمة الملك الشابة". وعانت في صمت و جلد بغض الناس لها، حتى باتت قادرة على تثبيت انتصارها وفرض سلطانها. وإذا رأيت لويس وقد بلغ به السأم والضجر ذروته، وهو الذي يملك كل شيء، ولكن كل شيء كان قد فقد عنده كل نكهته وطلاوته، فإنه تفننت وأظهرت عبقريتها في تسليته والترفيه عنه. فألهته بحلقات الرقص والمسرحيات الهزلية والحفلات الموسيقية وروايات الأوبرا، وحفلات العشاء والنزهات والصيد والقنص، وفيما بين هذا وذلك أدخلت على قلبه البهجة والسرور بمرحها وحيويتها وحديثها البارع وذكاؤها. وأقامت في فرساي

صفحة رقم : 12009

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

"مسرح البيت الصغير"، وأقنعت الحاشية بالقيام بأدوار على المسرح، كما كان الحال في أيام لويس الرابع عشر، ومثلت هي نفسها في مسرحيات موليير الهزلية، وقامت بدورها على خير وجه، إلى حد أن الملك قال عنها "أشد النساء فتنة في فرنسا" (115). وتنافس النبلاء على تمثيل الأدوار وقام الدوفين الصارم نفسه بدور أمام "السيدة البغي". وتفضل بأن يكون دمثاً معها في دنيا النفاق. وأصاب الملك بعض نوبات دينية، فهدأت من روعه بالموسيقى الدينية التي عزفتها بشكل يأسر ليه، حتى نسي خوفه من الجحيم. وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد لولعه بالحياة وتعلقه بها، فأكل معها، ولعب ورقص وقاد عربته واصطاد معها، وقضى معها كل ليلة تقريباً. وما هي إلا بضعة سنين حتى خارت قواها وتدهورت صحتها.

وشكا البلاط من أن مدام دي بمبادور صرفت الملك عن مهامه بوصفه حاكماً، وأنها كانت عبناً ثقيلاً على خزانة الدولة، فقد ازدانت بأعلى الثياب والجواهر، وتألقت غرفة ملابسها بأنيق الزينة المصنوعة من البلور والفضة والذهب. وازدانت حجرتها بالأثاث المطلي باللك أو الخشب الأطلساني أو المطعم بالصدف والعاج والمعادن، وأروع أنية الخزف المصنوعة في درسدن وسيفر والصين واليابان، وكانت تضاء بثريات فخمة من الفضة والزجاج، تتعكس أنوارها على مرايا ضخمة على الجدران، أما سقوفها فكانت مغطاة بالصور التي بوشية وفانلو لإلهات الحب التي تبهج الحواس وتثيرها. ولما أحست بأنها سجيننة وسط هذا الترف والبخ، سحبت مبالغ من المال من الملك أو من الخزانة لتشييد أو توثق قصوراً وبررت تجهيزاتها المسرفة وحدائقها الشاسعة بأنها لازمة لاستضافة صاحب الجلالة. وكان لها الضيعة والقصر في كريسي في دري، وشادت قصر "المنظر الجميل" الفخم على ضفاف السين بين سيفر ومودون. وأقامت صوامع أو أدياراً صغيرة في غابات فرساي وفونتنبلو وكومبيين واتخذت من "أوتيل دي بونتشارتران مقراً لإقامتها في باريس، ثم انتقلت إلى قصر كونت دي افري في شارع فوبورج سانت أونوريه، ويبدو أن السيدة

صفحة رقم : 12010

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

الفاتنة أنفقت ما يبلغ في جملته 36.327.268 جنيهاً (116)، كان جزء منه فناً بقي في حوزة فرنسا. وبلغت نفقاتها الخاصة 33 ألف جنيه سنوياً (117). واتهمتها فرنسا بأنها كانت تكلفها أكثر مما تكلفها الحرب. وجمعت دي بمبادور من السلطة والنفوذ قدر ما جمعت من الثروة وأصبحت المجرى الرئيسي الذي يفيض بالتعيينات والرواتب وأوامر العفو وغيرها من النعم والعطايا من الملك.. وحصلت لذوي قرباها على المنح والهبات والألقاب والوظائف ذات العمل البسيط والدخل الكبير. ولم تهين لابنتها الصغيرة ألكسزيرين التي كانت تسميها "فانفان" شيئاً يذكر، ولكنها كانت تحلم بتزويجها لأحد أبناء لويس الخامس عشر من مدام دي فنتميل، ولكن فانفان ماتت في سن التاسعة، وحطمت قلب أمها. أما أخوها أبل-الوسيم الدمت فإنه بنفسه كسب عطف الملك الذي كان يدعو "بالأخ الصغير"، وكثيراً ما كان يدعو على العشاء. ونصبته بمبادور مركز دي ماريني وعينه مديراً عاماً للمباني، فقام بوظيفته في جد وكفاية، إلى حد رضي معه وسر به الجميع تقريباً. وعرضت بمبادور عليه أن ترقى به إلى مرتبة الدوق فرفض.

وانتشر أثرها على الفن الفرنسي بل الأوربي، ويرجع هذا إلى حد ما إلى الملك، ولكن أكبر الفضل فيه يرجع إلى شخصها هي. وأخفقت محاولاتها في أن تكون هي بنفسها فنانة، ولكنها أحبت الفن من كل قلبها، وما لمست شيئاً إلا وصار جميلاً. وازدهرت الفنون الصغيرة بشكل يبهر الألباب بفضل تشجيعها. وأقنعت لويس الخامس عشر بأن فرنسا تستطيع صنع الخزف اللازم لها، بدلاً من استيراده من الصين ودرسدن، مما يكلفها 500 ألف جنيه سنوياً. وثابت على ذلك حتى تعهدت الحكومة بتمويل مصانع الخزف في سيفر، واكتسب الأثاث وأدوات الأكل وساعات الحائط والمرآح والمركبات وأواني الزهر والزجاجات والصناديق والنقوش على الأحجار الكريمة والمرايا، واكتسب كل أولئك فتنة دقيقة سريعة الزوال حتى يتفق مع ذوقها الرفيع الذي يتطلب مهارة فائقة،

صفحة رقم : 12011

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

وأصبحت "ملكة الروكوكو" (118). (فن الزخرفة المعقدة). وكان قدر كبير من إسرارها في النفقة يرجع إلى الرعاية التي أسبغتها على الرسامين والمثاليين والنقاشين على الخشب والمعادن ونجاري الأثاث الفاخر والمعماريين. وأغدقت على بوشية وأودري ولاتور ومائة غيرهم من الفنانين. وأوحت إلى فانلو وشاردان أن يصورا مشاهد الحياة العامة، فأنهت بذلك التكرار المبتذل لموضوعات من تاريخ العصور القديمة والوسطى وأساطيرها، واحتملت في تسامح باسم تدمير لاتور ووقاحته، حين كان يرسم لها صورة. وأطلق اسمها على المراوح وتسريحات الشعر والثياب والأطباق والأرائك والكراسي والأشرطة، وعلى "وردة بمبادور" المصنوعة من الخزف المفضل لديها، وفي هذه الحقبة، لافي عهد لويس الرابع عشر، على الأرجح، بلغ تأثير فرنسا على المدينة الأوربية ذروته.

وربما كانت بمبادور أكثر نساء زمانها ثقافة. وكان لها مكتبة تضم 3500 مجلد منها 738 في التاريخ، و315 في الفلسفة، ومجلدات كثيرة في الفن، وبعض مجلدات في السياسة أو القانون، إلى جانب عدة قصص في الحب. وواضح أنها إلى جانب تسلية الملك ومكافحة أعدائها والمساعدة على حكم فرنسا، كانت تجد فسحة من الوقت لقراءة الكتب القيمة، لأنها هي نفسها كتبت لغة فرنسية رائعة، في رسائل زاخرة بالمادة ساحرة البيان. وكم توسلت إلى حبيبها أن يباري جده في رعايته للأدب، ولكن ورعه وبخله قعدا به عن ذلك. وعندما حاولت أن تخجله وتحرجه بقولها: بأن فرديريك الأكبر أجرى على دالمبرت راتباً قدره ألف ومائتا جنيه، أجاب بقوله "هنا أفضأ أكثر مما في بروسيا. وقد أكون مضطراً إلى إقامة مأدبة عشاء كبيرة لأجمعهم كلهم". وبدأ يعدهم على أصابعه "مويرتيوس، فوننتيل، لاموت، فولتير، فيرون، بيرون، ديتوش، مونتسكيو، كاردينال دي بولينك". وأضاف من كانوا حوله، "دالميرت، كليرو،

كريبيون الابن، بريفوست". .. وعندئذ تنهد الملك قائلاً "حسناً معنى هذا أن كل هؤلاء كان يمكن أن يتناولوا الغداء أو العشاء معي طوال خمسة وعشرين عاماً(119)".

صفحة رقم : 12012

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

وعلى ذلك احتلت بمبادور مكان الملك في رعاية الأدب. فأنتت بفولتير إلى البلاط، وأغدقت عليه، وحاولت أن تحميه من سوء تصرفاته، وساعدت منتسكيو، ومارمونتيل، وديكلوس، وبيفون وروسو، ويسرت انضمام فولتير وديكلوس إلى الأكاديمية الفرنسية. ولما سمعت بما يعاني كريبيون الأب من الفقر أجرت عليه راتباً، وخصصت له جناحاً في اللوفر، وعاونت على إحياء مسرحيته "كاتيلينا"، وأصدرت تعليماتها إلى إدارة المطبعة الملكية بإصدار طبعة أنيقة من روايات الكاتب العجوز. واختارت فرانسوا كيزني طبيباً خاصاً لها وهو من أنصار المذهب الفزيوقراطي وخصصت له جناحاً تحت جناحها مباشرة في فرساي، وكانت تستقبل هناك ديرو ودالمبرت وديكلوس وهلفيشيوس وترجو، وغيرهم، مما كان يمكن أن تكون أفكارهم مصدر إزعاج الملك، وبيروي مارمونتيل: "ولما لم تكن تستطيع أن تدعو هذه المجموعة من الفلاسفة إلى "صالونها" فإنها كانت تنزل لهم لتجتمع بهم على المائدة وتتجاذب معهم أطراف الحديث(120)".

وكان طبيعياً أن ينظر رجال الدين وجماعة الأتقياء في الحاشية وعلى رأسهم الدوفين، بعين الرعب والفرع إلى تدليل هؤلاء الكفار. وفوق ذلك، كان معروفاً أن بمبادور كانت تؤيد فكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة، بل حتى تجريدتها من الصفة الدينية أو انتزاعها من يد الكنيسة، إذا كان هذا هو المهرب الوحيد من إفلاس الدولة(121). وأشار اليسوعيون على كاهن اعتراف الملك أن يتمتع عن مناولته الأسرار ما دام يحتفظ بعلاقته بهذه العشيقة الخطرة(122). ودافع أبناء الملك عن رجال الدين، واستخدمت ابنته الكبرى هنريت التي يؤثرها بحبه، نفوذها في التفريق بينه وبين بمبادور. وكان عيد الفصح كم كل عام مثار أزمة بين العاشقين. ففي 1751 أظهر لويس تلهفاً شديداً على تناول القربان المقدس. وفي محاولة منها لتهدئته واسترضاء كاهن الاعتراف، الأب بيروسو، واطببت على إقامة الشعائر الدينية وحضور القداس يومياً والصلوات بشكل يلفت الأنظار، كما أكدت للكاهن أن علاقتها الآن بالملك علاقة

صفحة رقم : 12013

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

أفلاطونية بريئة تماماً. ولما لم يقتنع الكاهن بهذا، فإنه طلب إليها، أن تغادر البلاط، شرطاً مسبقاً للسماح للملك بتناول الأسرار المقدسة. ومات بيروسو، ولكن خلفه ديمارتس وكان متشدداً مثله. وثبتت بمبادور في مكانها، ولكنها داومت

على ورعها الظاهري. ولم تغتفر قط لليسوعيين أنهم لم يأخذوا "تحولها" مأخذ الجد، وربما كان لاستيائها منهم دور صغير في طردهم من فرنسا في 1762.

وربما كان قولها الحق في أنه لم يعد لها اتصال جنسي بالملك لويس. وقد أكد دارجنسون أحد أعدائها هذه الحقيقة (123). وكانت بالفعل قد أفضت إلى بعض خلصائها بأنها تجد مشقة متزايدة في الاستجابة للنيران المتقدة بين جنبه (124)، واعترفت بأن عدم تحمسها لمضاجعته ذات مرة أو هن ما اشتد من قوته، وأصابه عجز جنسي وتملكه الغضب (125). وتناولت "عقاير الحب" (126) دون نتيجة تذكر، اللهم إلا الإضرار بصحتها. وأدرك أعداؤها في البلاط هذا الوضع فجددوا مؤامرتهم لاقتلاعها من مركزها. وفي 1753 دبر دارجنسون خطة تنفذ بها مدام دي شوازيل رومانت إلى أحضان الملك، ولكنها طالبت بثمن باهظ ظن أنه لا يتكافأ مع تضحياتها وسرعان ما تمكنت بمبادور من طردها. وهنا أن الأوان أن تأوي المحظية الأولى المنهوكه إلى "منتزه الأطباء" البغيض.

وفي "منتزه الأطباء" في طرف ناء من فرساي جهز مسكن لإقامة شابة أو شابنتين مع خدمهما ومرافقيهما حتى يحين الوقت ليستقبلهما لويس في جناحه الخاص، أو يقصد إليهما في مسكنهما متكرراً في زي كونت بولندي عادة. وتناثرت الشائعات بأن هؤلاء البنات كن كثيرات، وأضافت الأساطير أن سن بعضهن لم تزد على تسع سنوات أو عشر.

والظاهر أنه لم يكن يوجد منهن في وقت واحد أكثر من اثنتين (127)، وكان يؤتى بمجموعات منهن على التعاقب، ليتدربن على أن يقدمن للملك "حق السيادة" فإذا حملت إحداهن أعطيت مبلغاً من المال يتراوح بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه، يساعدها على العثور على زوج لها في الأقاليم، وكان الأطفال

صفحة رقم : 12014

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

الذين يولدون عن هذا الطريق يمنحون راتباً سنوياً قدره أحد عشر ألف جنيه. وعلمت مدام دي بمبادور بأمر هذا "الحريم" الذي لا يصدق، فلزمت الصمت. ورغبة منها في ألا تحتل مكانها عشيقه من النيبيلات ستعمل من غير شك على إبعادها عن البلاط، بل ربما عن باريس، أثرت أن تترك للشابات الوضعيات أن يشبعن أذواق الملك الفاسدة، وانهارت حالتها المعنوية إلى الحضيض وقالت لمدام دي هوست "كل ما أظن به هو قلبه، وكل هؤلاء الفتيات غير المتعلمات لن يسلبنني إياه (128)".

ولم تنزع الحاشية انزعاجاً ملموساً لهذه الترتيبات الجديدة لأن كثيراً من رجالها احتفظوا هم أنفسهم بأكواخ في "مندی الأطباء" هذا لخليلاتهم (129). ولكن أعداء بمبادور افترضوا أن سلطانهم قد أذن بزوال. ولكن خاب فالهم، فإن الملك ظل صديقها المخلص لفترة طويلة بعد أن انقطعت عن أن تكون "خليلته". وكان في 1752 قد خلع عليها رسمياً لقب دوقة. وفي 1756، وعلى الرغم من احتجاجات الملكة منحها المنصب الرفيع "مديرة قصر الملكة" (كبير وظيفات الملكة). فلزمت الملكة، وحضرت معها العشاء ورافقتها إلى القديس. ولما كانت وظيفتها الجديدة تقتضي الإقامة في البلاط فإن اليسوعيين تنازلوا عن طلبهم إبعادها وألغى "الحرم من الكنيسة" الذي ظل مفروضاً عليها لفترة طويلة، وأجيز لها تناول الأسرار المقدسة. أما بنات الملك اللاتي ناصبها العدا من زمن طويل فكن يقصدن إلى زيارتها في "شوازي".

وقضى لويس معها مدة ساعات في كل يوم تقريباً، حيث ظل يجد لذة في طلاوة حديثها ورقتها الفاتنة التي لا تنضب معينها. واستمر يحترم، وغالباً ما يتبع، مشورتها في التعيينات، وفي المسائل الداخلية، بل حتى في السياسة الخارجية. وأصدرت الأوامر إلى الوزراء، واستقبلت السفراء واختارت القواد، وتحدثت أحياناً باسم الملك وباسمها، وكأنها تشترك في الحكم، فكانت تقول "نحن" سننظر (في الأمر). وكان طلاب الوظائف يزحمون حجرة انتظارها، فكانت تحسن استقبالهم وتلاطفهم. وسلم أعداؤها بسعة إطلاعها المدهشة في الشؤون السياسية، ولباقتها في الأحاديث الدبلوماسية،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الشعب والدولة -> مدام دي بمبادور

ونظراتها التي كثيراً ما كانت ثاقبة(130). وكانت قد أشارت منذ زمن بعيد إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكري. وفي 1750، اقترحت على لويس أن ينشئ مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم في خدمة الدولة. ووافق الملك ولكنه أبطأ في توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع. فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام، ووفرت له أموالاً إضافية عن طريق "يانصيب"، وضريبة على لعب الورق، وأخيراً فتحت المدرسة 1758 ملحقة "بقصر الانفاليد".

والآن نصح هذا الوزير الساحر بلا وزارة بمراجعة جريئة لسياسة فرنسا الخارجية وإعادة تقييمها. وربما جاءت المبادرة بهذا "النقض المشنوم للأحلاف" من كونت فون كونتز سفير النمسا في باريس. وقد عززها التنازل الكاره من جانب الإمبراطورة النقية ماريا تريزا التي خاطبت بمبادور "بصديقتي العزيزة"، و "ابنة عمي"، كما عززها فردريك الأكبر بإشارته المهنية إلى المركيزة دي بمبادور "بحكم المرأة" في البلاط الفرنسي. وكانت مدام دي شاتور ودارجنسون قد وجهتا السياسة الخارجية نحو الصداقة مع بروسيا، وأوضح كونتز وبمبادور أن بروسيا الحديثة-التي قويت بالانتصار في حرب الوراثة النمساوية، والتي لديها جيش قوامه ألف جندي أحسن تدريبهم تحت إمرة قائد قدير طموح لا يبالي بأية مبادئ خلقية، وملك غدر بفرنسا مرتين بتوقيعه صلحاً منفرداً-إن بروسيا هذه لا بد أنها سرعان ما تشكل خطراً أشد من خطر النمسا التي كانت قد فقدت آنذاك سيليزيا، ولم تعد تتوقع أي عون أو تأييد من أسبانيا في ظل حكم آل بوربون، وقد انقضت تطويق النمسا لفرنسا. وقويت هذه الحجة حين عقدت بروسيا في 16 يناير 1754 تحالفاً مع إنجلترا-عدوة فرنسا التقليدية ورد مجلس الدولة الفرنسي على هذا بإبرام تحالف مع النمسا (أول مايو). وهنا نجد أن المركيزة دي بمبادور التي عادت الآن تبصق دماً، وكانت في الخامسة والثلاثين، ولم يبق لها من العمر إلا ثمان سنوات، نجد أنها قد لعبت دورها في التمهيد لإشعال حرب السنين السبع.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> التعليم

## 1- التعليم

كان بين الصراعات الكثيرة الأساسية التي شهدتها فرنسا في القرن الثامن عشر، محاولة الكنيسة الاحتفاظ بسيطرتها على التعليم، إلى جانب محاولة الفلاسفة وغيرهم إنهاء هذه السيطرة والقضاء عليها. وبلغ الصراع ذروته بطرد اليسوعيين من فرنسا في 1762، وتأميم المدارس الفرنسية، وغلبة التعليم العلماني في الثورة الفرنسية. وكان خلاف قد بدأ يبرز في النصف الأول من القرن الثامن عشر فقط.

ولم تكن الغالبية العظمى من الفلاحين تعرف القراءة. وفي كثير من المجتمعات الريفية، كانت الهيئات البلدية، حتى إلى عام 1789، "لا تكاد تعرف الكتابة" (1). وكان في معظم الأبرشيات على أية حال "مدرسة صغيرة" يقوم فيها الكاهن بنفسه، أو من يعينه هو، بتعليم القراءة والكتابة والدين المسيحي على صورة سؤال وجواب، للأولاد الذكور أساساً، في مقابل رسم زهيد يدفعه الآباء عن كل تلميذ (2)، أما الأولاد الذين يعجز أبائهم عن الدفع فكانوا يتعلمون بالمجان إذا طلبوا ذلك. وكان للحاق بهذه المدرسة مطلوباً قانوناً بمقتضى مراسيم 1694 و 1724، ولكن هذه المراسيم لم تتفد (3)، وامتنع كثير من الآباء الفلاحين عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة، لحاجتهم إليهم في المزرعة من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنهم رأوا أن التعليم أمر مزعج لا ضرورة له لمن قدر عليهم أن يشتغلوا في الأرض. فالتعليم لم يكن يكفل أي ارتفاع في المركز الاجتماعي لأن الحواجز الطبقيّة كانت عقبة لا يمكن التغلب عليها تقريباً في النصف الأول من القرن. وفي القرى والمدن الصغيرة نادراً ما كان الذين تعلموا القراءة يقرنون شيئاً غير ما تعلق بعلمهم اليومي. وكان كل إنسان يعرف قواعد الدين، وفي المدن الكبيرة وحدها كان هناك شيء من المعرفة بالأدب والعلوم والتاريخ.

صفحة رقم : 12017

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الأخلاق والتعليم -&gt; التعليم

وفي الطبقات المتوسطة والعليا كان معظم التعليم على أيدي المربيّات والمؤدبين، أو المعلمين الخاصين، وأخيراً على أيدي معلمي الرقص، وهؤلاء الأخيرين كان مفروضاً فيهم أن يعلموا الجنسين كليهما الفنون الشاقة، وهي فنون الجلوس والوقوف والمشى والحديث والإيماء، في كياسة ورقة. وتلقت بعض الفتيات دروساً خاصة في اللاتينية، وفوق هذا كله تقريباً، تعلم الفقراء الغناء والعزف على البيان القيثاري. وقام التعليم العالي للبنات في الأديار، حيث ارتقين في الدين والتطريز والموسيقى والرقص وقواعد السلوك القويم الذي يجدر بالشابة أو الزوجة أن تتحلى به. وكان كل التعليم الثانوي للذكور تقريباً في يد اليسوعيين، ولو أن الرهبان الأوراتوريين والبنديكتيين أسهموا فيه. وكان المتشككون من أمثال فولتير وهلفيشيوس من بين الخريجين العديدين المرموقين في كلية اليسوعيين "الويس الأكبر" حيث كان الأب شارل بوريه يقوم بتدريس "البلاغة" (أي اللغة والأدب وعلم الكلام) وترك في تلاميذه ذكريات طيبة. وما كاد المنهج في المدارس اليسوعية ليتغير طوال قرنين من الزمان. وعلى الرغم من تركيز هذا المنهج على الدين والأخلاق، فإن مادته كانت كلاسيكية إلى حد بعيد، فكان التلاميذ يدرسون مؤلفات روما القديمة في نصوصها

الأصلية، فأكب التلاميذ الصغار على دراسة الفكر الوثني لمدة خمس أو ست سنوات، فلا عجب أن ساورتهم بعض الريبة في عقيدتهم المسيحية. وأكثر من هذا فإن اليسوعيين "لم يدخروا وسعاً في تنمية ذكاء تلاميذهم وغيرتهم" (4). فكانوا يشجعون على المناقشة والتحدث علانية وعلى تمثيل الروايات، وكانوا يتعلمون قواعد لترتيب أفكارهم والتعبير عنها، ومن ثم كان جزء من وضوح الأدب الفرنسي وصفاته من غرس المدارس اليسوعية، وأخيراً تلقى الطالب مناهج فاسية في المنطق والميتافيزيقا وعلم الأخلاق عن أرسطو من ناحية وفلاسفة العصور الوسطى السكولاسيين (المدرسيين) من ناحية أخرى. وهنا مرة أخرى، نجد أن النتائج كانت تقليدية، إلا أن عادة التفكير والاستنتاج والتعليل بقيت - وأصبحت بالفعل - علامة مميزة لهذا العصر

صفحة رقم : 12018

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> التعليم

"عصر العقل" بوجه خاص. وكان الجدل بالسياس أيضاً جزءاً من المنهج، حتى لطلاب الفلسفة، ودون تمييز في المرتبة أو المكانة الاجتماعية، فقد جلد من أصبح فيما بعد مركز دارجنسون ودوق بوفلرز، أمام أقرانهما في الفصل، لأنهما قذفا أساتذتهما الأجلء بحبات البازلاء (5). وعلت الشكوى بالفعل من أن المنهج لم يول عناية تذكر بما وصلت إليه المعرفة من تقدم وازدهار، وأن التعليم كان نظرياً إلى حد كبير، ولا يعد للحياة العملية، وإن الإلحاح الشديد على التعليم الديني قد أفسد الأذهان أو أغلقها. وفي "رسالة عن التعليم" كانت يوماً مشهورة (1726-1728) دافع شارل رولان رئيس جامعة باريس عن المنهج الكلاسيكي (القديم التقليدي) وعن التركيز على الدين. وكان من رأيه أن الهدف الأسمى من التعليم هو خلق أناس أفضل. وأفضل المعلمين "لا يعنون كثيراً بالعلوم، حيث لا تساعد هذه العلوم على التمسك بأهداب الفضيلة. ولم يكونوا يابهون كثيراً بالتزود بألوان المعرفة، إذا لم تقترن بالاستقامة وحسن الخلق. وكانوا يؤثرون الرجل الأمين على الرجل العالم الواسع الإطلاع (6). وقال رولان إنه من الصعب أن تشكل الخلق القويم دون تأسيسه على عقيد دينية. ومن ثم "ينبغي أن يكون الهدف من جدودنا، والغرض من تعليمنا هو الدين" (7) وسرعان ما يثير الفلاسفة الجدل حول هذا الموضوع، ويستمر الجدل حول ضرورة الدين للأخلاق طوال القرن الثامن عشر، والقرن الذي يليه. وهو جدل حي في أيامنا هذه.

صفحة رقم : 12019

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الأخلاق



ويبدو أن حجة رولان كانت تؤيدها الفروق الطبقة في المبادئ الأخلاقية. وإن الفلاحين الذين تمسكوا بدينهم عاشوا حياة أخلاقية نسبياً، وربما كان هذا، على أية حال راجعاً إلى حقيقة أن الأسرة كانت وحدة الإنتاج الزراعي، وأن الأب كان أيضاً المستخدم أي صاحب العمل، وكان نظام الأسرة يركز في جذوره على نظام اقتصادي يفرضه تعاقب الفصول ومتطلبات الأرض. واستمسكت الطبقات الوسطى بقدر كبير من العقيدة

صفحة رقم : 12020

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الأخلاق

الدينية، مما عزز سلطة الأبوين أساساً للنظام الاجتماعي. أما مفهوم الأمة باعتبارها رابطة من الأسرات عبر الأجيال، فقد هيا لأخلاقيات الطبقة الوسطى قوة التماسك والتقاليد. وكانت الزوجة البرجوازية نموذجاً للجد والتقوى والأمومة. وكانت تتحمل آلام الوضع في صبر وجلد، وسرعان ما كانت تعود إلى عملها. وكانت قانعة ببيتها وعلاقتها مع جيرانها، وقليلاً ما انزلت إلى زخرف الدنيا الخداع التي يسخر الناس فيها من الإخلاص على أنه شيء عتيق بال. ونادراً ما نسمع عن حوادث الزنى عند زوجات الطبقة الوسطى. وضرب كل من الأب والأم معاً مثلاً رائعاً في العادات القويمية والتمسك بالدين والحب المتبادل. وتلك هي الحياة التي خلد شاردان ذكرها معتزلاً بها، في لوحته مثل "البركة".

ومارست كل الطبقات أعمال البر والإحسان وكرم الضيافة. وكانت الكنيسة تجمع الصدقات وتوزعها. ودعا الفلاسفة المعادون للدين إلى عمل الخير، وبنوا دعوتهم على أن هذا الحب للإنسانية لا حب لله، ومن ثم كانت "الإنسانية" الحديثة نتاجاً للدين والفلسفة معاً. وأمدت الأديار الجياح بالطعام، وعنيت الراهبات بالمرضى، وقامت المستشفيات وملاجئ الفقراء والأيتام والعجزة على الموال التي تدفعها الدولة للكنيسة والنقابات. وكان بعض الأساقفة مبدرين منصرفين إلى متاع الدنيا. ولكن نفرأ آخر منهم مثل أساقفة أوكسير وميربوا وبولون ومرسيليا-وهوا ثرواتهم وحياتهم لأعمال البر والإحسان. ولم يكن موظفو الدولة مجرد طالبي مناصب أو نفعيين طفيليين، فإن موظفي بلدية باريس كانوا يوزعون الطعام وحطب الوقود والنقود على الفقراء" وفي ريمس خصص أحد أعضاء البلدية 500 ألف جنيه للصدقات. وكان بالملك لويس الخامس عشر نزعات إلى الشفقة والعطف والحنان المشوب بالجبن. وعندما خصص مبلغ 600 ألف جنيه للألعاب النارية احتفالاً بمولود دوق برجندي الجديد (1751)، ألغى الملك العرض وأمر بتوزيع المبلغ مهوراً لستمانه من أفقر بنات باريس، وحذت مدن أخرى حذوه. وعاشت الملكة عيشة مقتصدة غير مسرفة وأنفقت معظم

صفحة رقم : 12021

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الأخلاق

دخلها في الأعمال الخيرية. وكذلك أنفق دوق أورليان ابن الوصي المشاغب الخليل ثروته في أعمال البر والإحسان. ويبدو الجانب غير المشرق في هذا الموضوع في الفساد والإهمال اللذين شوها إدارة المؤسسات الخيرية. فهناك عدة أمثلة لمديري مستشفيات استولوا لأنفسهم على الأموال التي كانت تصلهم من أجل العناية بالمرضى والفقراء. وعكست الأخلاقيات الاجتماعية طبيعة الإنسان-أناني وكريم، وحشي ولطيف، يخلط بين قواعد اللياقة وسفك الدماء في المعركة. ولعب رجال الطبقات العليا والدنيا ونساؤها الميسر في تهور بالغ، دون إحساس بالمسئولية وبدوا ثروات أسراتهم، وكان الغش في اللعب سائداً إلى حد كبير(8). وفي فرنسا، كما كان الحال في إنجلترا، أفادت الحكومة من حب الناس للمقامرة بإنشاء "يانصيب" وطني. أما أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية وأكثرها مجافاة للأخلاق فهو أرستقراطية الحاشية البالغ الخالي من الرحمة، تلك الأرستقراطية التي كانت تعيش على الدخول التي كانت تبتزها من الفلاحين الفقراء. فإن ملاءات سرير الدوقة دي لافري كانت مشغولة بالمخمرات الغالية الثمن، وتكلفت 40 ألف كراون، وكانت لألئ ومجوهرات مدام اجمونت تساوي 400 ألف كراون(9)، وكانت الخيانة والخداع أمرين عاديين مألوفين من أعمال الموظفين، واستمر بيع الوظائف والمناصب، وكان مشترونها يستغلونها في الإثراء غير المشروع تعويضاً لهم عما دفعوا فيها ولم يكن قدر كبير مما يجبي من الضرائب يصل إلى خزانة الدولة. وفي غمرة هذا الفساد نمت روح الوطنية، ولم يكف الرجل الفرنسي عن حب فرنسا، ولك يطق الرجل الباريسي أن يعيش طويلاً بعيداً عن باريس. وامتاز كل فرنسي تقريباً بالبسالة. وفي حصار ماهون، ورغبة من المارشال دي ريشيليو في منع جنوده من تعاطي المسكرات، أصدر هذا القائد قراراً يقول فيه "أن أي فرد منكم يوجد ثملاً في المستقبل لن يكون له شرف الاشتراك في الهجوم" فتوقف شرب الخمر تقريباً(10)، واستمرت المباراة على الرغم من كثرة قرارات تحريمها. وقال لورد تشستر فيلد "إن المرء ليلحقه الخزي والعار إذا لم يثر للإهانة، وإنه ليلقى حتفه إذا استاء لها(11)".

صفحة رقم : 12022

#### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الأخلاق

وكان عقاب اللواط الإعدام حرقاً. ولكن هذا القانون كان ينفذ في الفقراء وحدهم، كما حدث مع أحد رعاة البغال 1724. وفي 1725 أُلقي القبض على الراهب ديفونتين، الذي كان قد اشتغل بالتدريس في إحدى الكليات اليسوعية لمدة خمسة عشر عاماً، واتهم بمنزل هذه الفعلة، فأهاب بفولتير لمساعدته، فنهض من فراش مرضه قاصداً إلى فونتينلو، واستحث فليري ومدام دي بري لاستصدار عفو عنه(12)، وطيلة العشرين عاماً اللاحقة كان ديفونتين من ألد أعداء فولتير. وكان بعض خدم الملك منحرفين جنسياً. ويبدو أن أحدهم، وهو تريمو ويل، اتخذ من الملك ذي الستة عشر ربيعاً غلاماً له(13).

وانتشر البغاء بين الفقراء والأغنياء. وفي المدن الصغيرة كان أصحاب الأعمال ينقدون مستخدماتهم الإناث مبالغ لا تفي بنفقاتهن الضرورية، وأجازوا لهن أن يكملن أجورهن اليومية بالاستجداء وممارسة الدعارة ليلاً(14). وقدر كاتب معاصر عدد البغايا في باريس بأربعين ألفاً. وهناك تقدير آخر بأنهن ستون ألفاً(15) وكان الرأي العام فيما عدا الطبقة الوسطى متسامحاً مترفقاً بأمثال هؤلاء النسوة، حيث أدرك أن كثيراً من النبلاء ورجال الدين ووجوه المجتمع ساعدوا على خلق هذا الطلب الذي أدى إلى هذا العرض، وتذرع الرأي العام بشيء من اللياقة، فأدان الفقيرات اللاتي يبعن أعراضهن أقل مما أدان الذين يشترون المتعة، أي أن مسئولية هؤلاء عن هذا العمل الشائن أكبر. وكانت نظرة رجال الشرطة إلى هذا الأمر تختلف عن ذلك اللهم إلا إذا قدمت شكوى خاصة أو عامة ضد هؤلاء "البينات" وهنا يتم الاعتقال بالجملة، تيرئة لساحة الحكومة، وعندئذ يساق النساء للمثول أمام أحد القضاة، وقد يحكم القاضي بإيداعهن

السجن أو المستشفى، حيث تحلق رءوسهن بالموس ويعاقبن ويوضعن تحت المراقبة ثم يطلق سراحهن، وتتمو شعورهن من جديد. وإذا خلقن متاعب جمة لأحد ذوي النفوذ والسلطان أو أسأن إليه، فيمكن إرسالهن إلى لوزيانا. وعرضت محظيات الحاشية أو المومسات اللاتي يتردد عليهن

صفحة رقم : 12023

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الأخلاق

الأغنياء، مركباتهن وحليهن ومجوهراتهن في طريق "كور-لا-رين" في باريس، أو في متنزه "لونجشامب" (16). وإذا حصلن على عضوية الكوميدي فرانسيز أو الأوبرا، حتى لتمثيل الأدوار القصيرة، اكتسبن الحصانة ضد الاعتقال بتهمة بيع مفاتهن أو أعراضهن. وارتفع بعضهن ليكن نماذج للفنانين (لرسم الصور العارية)، أو يتخذهن النبلاء ورجال المال أهداناً لهم خاصة. واقتنص بعضهن أزواجاً، وحصلن على ألقاب وثرورات، وأصبحت واحدة منهن بارونة سانت شاموند.

وكانت الزيجات القائمة على الحب، دون موافقة الأبوين، تزداد في عددها وفي الإنتاج الأدبي. وكان من الممكن الاعتراف بشرعيتها إذا عقدت أمام كاتب العدل أو الموثق. ولكن في معظم الأحوال، حتى بين الفلاحين ظل الآباء هم الذين يرتبون أمر الزواج باعتباره اتحاداً بين الممتلكات والأسرات، لا مجرد اتحاد الأفراد. فالأسرة، لا الفرد، هي وحدة المجتمع، ومن ثم كانوا يرون أن بقاء الأسرة وممتلكاتها أهم من الملذات العابرة أو العواطف السريعة الوهن عند الشباب المتهور. وفوق هذا قال فلاح لابنته "الحظ أقل عمى من الحب" (17). وكانت السن القانونية للزواج هي الرابعة عشرة للذكور والثالثة عشر للإناث. ولكن كان يمكن قانوناً أن تتم الخطبة في سن السابعة، وهي التي حددها فلاسفة العصور الوسطى مبدأ "سن العقل" وكانت الشهوة الجامحة عند الشباب تدفع بهم إلى مطاردة الأنسات مطاردة عنيفة، إلى حد أن الآباء زوجن بناتهن حالما كان ممكناً ميسوراً تقادياً لإنفصاض البكارة قبل الأوان، وهكذا كانت المركيزة دي سوفيف أرملة في الثالثة عشرة من عمرها. ولزمت بنات الطبقتين الوسطى والعليا الدير حتى يتم اختيار الأزواج لهن، وعندئذ يعجل بهن من حياة الدير إلى حياة الزوجية، وكان لزاماً تشديد الحراسة عليهن في الطريق. وبهذا النظام القاسي المنافي للأخلاق السيئ، كان كل النساء تقريباً عذارى عند الزواج.

وإذ احتقرت الأرستقراطية الفرنسية التجارة والصناعة، ونادراً ما

صفحة رقم : 12024

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الأخلاق

غطت الدخول الإقطاعية نفقات الإقامة في البلاط وما تقتضيه من مظاهر، فإنها وطنت النفس على تزويج أبنائها للذين توافرت لهم الأرض ولم يتوافر لديهم المال، من بنات الطبقة البرجوازية العليا اللاتي لا يملكون أرضاً، ولكن يملكن كالأول. ولما اعترض ابن دوقه شولن على زواجه من ابنة التاجر بونيه ذات الصداق الكبير، أوضحت له أمه "أن زواج المنفعة ممن هي دونك مرتبة، هو مجرد حصولي على الروث لتسميد الأرض" (18). وفي مثل هذه الزيجات عادة، كان الزوج النبيل أو ذو اللقب، وهو يستغل أموال زوجته، يذكرها من حين لآخر بأصلها الوضيع، وسرعان ما يتخذ خليقة، وفي هذا خير شاهد على احتقاره لزوجته. ولم يغب هذا أيضاً عن ذاكرة الطبقة الوسطى حين ساعدت الثورة. ولم يوصم الزنى بأية وصمة عار اجتماعي، في البيئة الأرستقراطية، بل كان أمراً مقبولاً باعتباره بديلاً ساراً عن الطلاق الذي حرمة الديانة الوطنية. وقد يتخذ الزوج الذي يخدم في الجيش أو في الأقاليم له خليقة، دون أن يبدي لزوجته سبباً مقبولاً للشكوى. وقد يفترقان الواحد منهما عن الآخر، بالخدمة في الحاشية أو في الضيعة، وهنا أيضاً قد يتخذ خليقة ومذ كان عقد الزواج يتم دون الزعم بأن العاطفة يمكن أن تتجاوز عن الثراء فإن كثيراً من الزوجين من النبلاء عاشوا فترة طويلة من حياتهما منفصلين، وأباح كل منهما للآخر زلاته، شريطة أن تكون هذه الزلات مستورة بلباقة، كما تكون في حالة المرأة مقصورة على رجل واحد في نفس الوقت وأجرى مونتسكيو على لسان سائحه الفارسي قوله: "إن الرجل الذي يريد أن يستحوذ على زوجته له هو وحده يعتبر معكراً لصفو السعادة العامة، غيباً يريد أن يستأثر بالاستمتاع بضوء الشمس، ويحجبها عن سائر الناس" (19). وسئل يوماً دوق دي لوزون الذي لم يكن رأى زوجته طيلة عشر سنين، ماذا يقول لو أن زوجته أرسلت إليه تبتئنه بأنها حامل، فأجاب، مثل أي سيد ماجد في القرن الثامن عشر: "أكتب إليها لأقول إنني مبتهج فرح لأن الله بارك زواجنا، اعتن بصحتك، سأحضر لأقدم لك إحتراماتي هذا المساء" (20) فالغيرة كانت أمراً مردولاً.

صفحة رقم : 12025

#### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الأخلاق

وكان بطل الزنى وفتى العصر ونموذج الأناقة في ذلك الزمان هو لويس فرانسوا دي فينيرو دي بلسيس، دوق ريشيليو حفيد أخي الكاردينال الصارم المتكشّف. وقد انزلت إلى مخدعه عدة سيدات نيبيلات من ذوات الألقاب، الواحدة تلو الأخرى، تجرهن إليه مكانته وثروته وشهرته. ولما وبخ ابنه وهو في العاشرة من عمره على بطء تقدمه في دراسته اللاتينية، أجاب في سرعة مفحمة: "أن أبي لا يعرف اللاتينية، ولكنه مع ذلك يحظى بأجمل نساء فرنسا" (21). وهذا لم يمنع اختياره للأكاديمية الفرنسية قبل فولتير، صديقه ودائمه، بثلاث وعشرين سنة، وكان فولتير يكبره بعامين. ومهما يكن من أمر فإن الرأي العام استهجن سلوك هذا الدوق لأنه كان يجلب إلى الملك النساء لهذا الغرض الدنيء. ومنعته جيوفران من التردد على ندوتها لأنه يجمع بين عديد من أمهات الكبائر (22). وعمر حتى بلغ الثامنة بعد التسعين، ومات قبل قيام الثورة بعام واحد.

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين على هذا النحو، فإننا نستطيع أن نتصور مصير أبنائهما. وكان النبلاء يعتبرون صراحة أن أبنائهم عوانق في طريقهم، ويدفعون بهم عند ولادتهم إلى المروضات، ويتولى تنشئتهم مربيات ومعلمون خاصون، حيث يرون والديهم بين الحين والحين. وروى تاليران أنه لم يتم قط تحت السقف الذي نام تحته أبوه وأمه. وكان من رأي الأبوين أنه من الحكمة أن يباعوا بينهم وبين أبنائهم، فكانت العلاقة الحميمة أمراً شاذاً، وكانت الألفة أمراً غير معروف. فخطب الابن أباه بقوله "سيدي" وقبيلت البنات يد أمها. وإذ كبر الأبناء أرسلوا إلى الجيش أو الكنيسة أو الدير. وكانت كل الممتلكات تؤول إلى الابن الأكبر، كما كان الحال في إنجلترا.

واستمر أسلوب الحياة هذا سائداً في نبلاء الحاشية، حتى ارتقاء لويس السادس عشر عرش فرنسا في 1774. وكشف هذا الأسلوب، من جهة أخرى، عن فقدان الأيمان بالدين عند الطبقات العليا. وتخلّى الناس تماماً عن مفهوم الزواج في المسيحية، مثله في ذلك مثل مفهوم الفروسية في

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الأخلاق والتعليم -&gt; الأخلاق

العصور الوسطى. وأصبح الجري وراء اللذة والمتعة "وثنياً" بشكل أشد سفوراً منه في أي وقت منذ عصر روما الإمبراطورية المضمحلة. ونشرت كتب كثيرة في "الأخلاقيات في فرنسا في القرن الثامن عشر"، ولكن كانت هناك أيضاً كتب كثيرة تعالج البذاءة والفحش بطريقة مدروسة متعمدة، وكانت أوسع انتشاراً ورواجاً ولو كانت سرية. وكتب فرديريك الأكبر يقول: إن الفرنسيين ولا سيما سكان باريس، أصبحوا الآن مترفين منغمسين في الملذات، أو هنتهم المتعة والدعة" (23) وحوالي 1749 رأى مركز دارجنسون في انحطاط الوعي الخلفي نذيراً آخر بكارثة وطنية: "القلب قوة نسلب أنفسنا إياها كل يوم لأننا لا نروضه ولا ندربه أبداً. على حين أننا نشحذ الذهن ونصقله باستمرار، فنصبح عقلانيين-لا عاطفيين-أكثر فأكثر... وإني لأتنبأ بأن هذه المملكة لا بد هالكة، نتيجة لإخماد القوى التي تتبع من القلب، إننا لا نكسب أصدقاء، ولم نعد نحب عشيقاتنا، فكيف نحب بلادنا؟... إن الناس يفقدون يوماً بعد يوم تلك الخلقة الحميدة التي نسميها رقة الشعور. ويختفي الحب والحاجة إلى الحب... وحسابات المصلحة تشغلنا وتستنزفنا دائماً. وكل شيء سبيل إلى الدسيسة والمكيدة... وتتطفئ جذوة النار الداخلية (العواطف) لأننا لا نغذيها، ومن ثم يزحف الشلل إلى القلب(24)".

وهذا هو صوت بسكال يردد مذهب طائفة بورت رويال (مذهب الجانسنيين) وصوت روسو، قبل ظهور جان جاك بجيل واحد، أو صوت الأرواح المرهفة الحس في أي عصر من عصور القلق الفكري والتحرير، ولسوف يطرق أسماعنا ثانية.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الأخلاق والتعليم -&gt; العادات

## 3- العادات

لم ير التاريخ قط أخلاقيات طائشة مثل هذه، مزخرقة مموهة بتهذيب ورقة في السلوك وأناقاة في الملابس والحديث، وتتنوع في المتع والملذات، وفتنة في النساء، وكياسة متأقفة في المراسلات، وإشراق في الفكر والذكاء.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الأخلاق والتعليم -&gt; العادات

"ولم يوجد قط في فرنسا من قبل، أو في أوروبا المعاصرة... بل ولا في العالم منذ وجد العالم، مجتمع مهذب ذكي مبهج، مثل المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر" (25) قال هيوم في 1741 إن الفرنسيين "أثقفوا بدرجة كبيرة ذلك الفن، وهو انفع الفنون وأليقها ألا وهو فن الحياة، فن المجتمع، فن الحديث" (26). ولم تستخدم كلمة "مدنية" إلا في أخريات هذه الحقبة، فلم تظهر في قاموس جونسون 1755، ولا في "المعجم الكبير" الذي صدر في 30 مجلداً في باريس في 1768.

وأحس الفرنسيون بالمدنية بوجه خاص في ملابسهم، ونافس الرجال النساء منافسة كبيرة في العناية بالثياب. واقتضى الزماني العصري السائد أن يلبس أفراد الطبقة العليا قبعات كبرى نوات ثلاث زوايا، مزدانة بالريش والأشرطة الذهبية، ولما كانت هذه القبعات تفسد ترتيب شعورهم المستعارة، فإنهم وضعوا القبعات عادة تحت أذرعهم. وكانت الشعور المستعارة آنذاك أصغر مما كانت عليه أيام الملك العظيم (لويس الرابع عشر)، وكانت أكثر شيوعاً حتى بين الحرفيين. وكان في باريس ألف ومائتا حانوت للشعور المستعارة، يعمل فيها ستة آلاف عامل. وكان الشعر الطبيعي والمستعار يدهن بالمساحيق. وكان شعر الذكور طويلاً عادة، ويلم بشريط أو في كيس وراء الرقبة. وكانوا يرتدون سترة طويلة زاهية اللون من المخمل عادة فوق البذلة الداخلة التي تكشف عن صدره مفتوحة عند الحلق، وعن قميص حريري رقيق، ورباط عنق عريض، وأكمام تنتهي إلى "كشكشات" مزخرفة عند المعصم. وكانت "بنطلونات" الركوب القصيرة ملونة، والجوارب من الحرير الأبيض. وكانت الأحذية تشد بمشابك من فضة. ولبس أفراد الحاشية أحذية ذات كعوب حمراء، علامة مميزة لهم، واستخدم بعضهم عظام فك الحوت ليحتفظوا بأذيال ستراتهم ممتدة على نحو صحيح. وتزين بعضهم بالماس في عري ستراتهم. وكان الجميع يحملون سيوفاً. وحمل بعضهم العصي. وكان حمل السيف محرماً على الخدم وغللمان الحرفيين والموسيقيين (27). وكانت ملابس أفراد الطبقة البرجوازية

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الأخلاق والتعليم -&gt; العادات

بسيطة: سترة و "بنطلون" قصير من قماش عادي قائم، وجوارب صوفية سوداء أو رمادية، وأحذية ذات نعال سميكة وكعوب وطبئة. وارتدى الحرفيون وخدم المنازل الأردية التي كان الأغنياء يبنونها. وتذمر ميرابو الأكبر من انه لا يستطيع التمييز بين الحداد واللورد!

وظلت السيدات تتمتعن بحرية أرجلهن داخل الرحاب الفسيح لتتورتهن ذات الأطواق الموسعة. وشجب رجال الدين النساء اللاتي ارتدين مثل هذه التتورات "بأنهن إناث قرودة أو أعوان الشيطان" ولكن النساء أحببنها لأنها تضيء عليهن جلالاً حتى ولو كن حبالى. وتروي مدام دي كريكى "أنها لم تستطع أن تهمس أذن مدام دي اجمونت لأن التتورة ذات الأطواق الموسعة حالت دون اقتراب الواحدة منهما من الأخرى" (28) أما حذاء السيدة ميلادي "ذو الكعب العالي

المصنوع من جلد ملون والمرصع بتطريزات من الذهب والفضة فقد أضفى على قدميها فتنة تسلب الأبواب إذا لم يراها أحد. وارتقى صانع حذائها إلى مصاف البرجوازية العليا بسبب إبداعه في فنه، وكم من قصة حب كتبت عن قدم جميلة، وهي عادة حذاء جميل وكان مثيراً إلى مثل هذا الحد تقريباً، ذلك "الخف" المزين برسوم الأزهار، الذي لا نعل له، والذي كانت تلبسه ميلادي في البيت. وكانت مقيدة أيضاً الأهداب والحواشي والمراوح والملابس التحتية المزخرفة التي كانت تجذب عين الرجل الزانغة أو تخفي جسم المرأة الحائرة في كل ناحية. وكان مشد الخصر والردفين (الكورسيه) المصنوع من عظام فك الحوت يساعد على تشكيل هذا الجسم في القوام الأنيق الذي يقتضيه العصر ويلائم المكانة الاجتماعية. وبرز جزء معقول من الصدر ليشهد بالامتلاء المناسب المريح. وكان الحلاقون وضيعين بسطاء. ولم تظهر تسريحة الشعر العالية إلا في 1763. وعالجت مستحضرات التجميل والتطرية للبيدين والذراعين والوجه والشعر. وتخلف الرجال قليلاً عن النساء في استخدام العطور. وكان وجه السيدة ينقش ويطلّى بالمساحيق، وتوضع عليه بطريقة بارعة لصوق تجميلية أو شامات من الحرير الأسود مقطعة على شكل قلوب

صفحة رقم : 12030

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> العادات

أو قطرات من الدموع أو أقمار أو نيازك أو نجوم، ويمكن أن يكون للسيدة العظيمة سبع أو ثمان من هذه اللصوق على جبهتها، وصدغيها وقرب عينيها وعلى جوانب الفم. وكانت تحمل صندوقاً للصوصق فيه شامات إضافية تعوض بها ما قد يتساقط منها. وكانت المائدة في حجرة ملابس السيدة الغنية تتألق بالأدوات والمواد اللازمة لها صناديق من الذهب والفضة أو الحجر اللازوردي، مخصصة لحفظ أدوات الزينة. وتلألأت الجواهر الثمينة على الذراعين والرقبة والأذنين والشعر. وكان يسمح للرجال ذوي الحظوة بالدخول إلى حجرة ملابس السيدة ميلادي ليحاذبوا أطراف الحديث، بما كانت وصيفاتها تقمن بإعدادها لبرنامج اليوم. وكان الرجال في الطبقة الأرستقراطية عبيداً للنساء كما استعبدوا للزني السائد للنساء، أما الزني فيحدده مصمم ملابس النساء. وبعد 1704 أعرضت فرنسا عن محاولات تحديد الزني أو الملابس، عن طريق قوانين ضبط الإنفاق. واتبعت أوروبا الغربية بصفة عامة أزياء فرنسا، ولكن كانت هناك أيضاً موجة معاكسة فإن زواج لويس الخامس عشر من ماري لوكزنسكا أتى بطرز بولندية وأدخلت الحرب ضد النمسا والمجر أزياء مجرية، وعمل زواج الدوفين من الأميرة الإسبانية ماريا تريزا رافاييلا على انتشار "الطرحه" في فرنسا من جديد.

ولم تكن وجبات الطعام منمقة مزخرفة مثل الشباب، ولكنها تطلبت علماً دقيقاً متنوعاً، كما تطلبت فناً رقيقاً. وكان المطبخ بالفعل النموذج الذي يحتذى في العالم المسيحي ومكمن الخطر فيه. وفي 1749 حذر فولتير قومه من أن وجبات الطعام الثقيلة التي يتناولونها "قد تصيب آخر الأمر أذهانهم بالتبلد" (29). وضرب مثلاً طيباً للغذاء البسيط وسلامة العقل والفطنة. وكلما ارتقت الطبقة، ازداد ما تتناول من طعام. وعلى هذا كانت وجبة العشاء على مائدة لويس الخامس عشر تتكون من حساء، وشواء من لحم تتكون من حساء، وشاء من لحم البقر، وطبق من لحم العجل، وبعض الدجاج، والحجل والحمام، ثم الفاكهة الطازجة والفاكهة المحفوظة (30) ويقول فولتير "كان نفر قليل من الفلاحين يذوقون طعم اللحم لأكثر من مرة واحدة في الشهر" (31).

صفحة رقم : 12031

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> العادات

وكانت الخضراوات ضرباً من الترف في المدينة حيث كان يصعب الاحتفاظ بها طازجة. وانتشر أكل السمك "الأنقليس". وكان بعض السادة الكبار ينفقون 500 ألف جنيه سنوياً على المطبخ، وأنفق أحدهم 72 ألف جنيه على مأدبة عشاء أعدها للملك والحاشية. وكان رئيس الخدم في البيوتات الكبيرة شخصية مهيبه تثير الإعجاب، يلبس ثياباً فاخرة ثمينة، ويحمل سيفاً، ويتألق في إصبعه خاتم من الناس. وكانت النساء الطباخات موضع ازدراء واحتقار، وكم طمع الطباخون وجهودوا في ابتداع أطباق جديدة ليخلدوا أسماء سادتهم، فأكلت فرنسا طبق شرائح لحم العجل المنظر الجميل (بل في) قصر مدام دي بمبادور المفضل لديها- "دجاج فيلروا" وصلصة الميونيز، تخليداً لذكرى انتصار ريشيليو في "ماهون" (32). وكانوا يتناولون الأكلة الرئيسية في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، والعشاء في التاسعة أو العاشرة ليلاً.

وكانت القهوة آنذاك تنافس النبيذ شراباً. ولا بد أن ميشليه (المؤرخ الفرنسي 1798-1874) أحب القهوة كثيراً، حيث رأى أن تزايد تدفق البن من شبه الجزيرة العربية والهند وجزيرة البوريون والبحر الكاريبي أسهم في انتعاش الروح الذي ميز عصر الاستنارة (33). وكانت كل صيدلية تباع البن حبوباً أو القهوة المعدة للشرب على المنضدة الطويلة بداخلها. وفي 1715 كان في باريس 300 مقهى، وفي 1750 زادت إلى 600، كما وجد منها عدد مناسب في كل مدينة في الأقاليم وفي مقهى "بروكوب" وكان يسمى أيضاً "كاف الكهف لأنه كان دائماً مظلماً" كان ديرو ينشر أفكاره، كما كان فولتير يقصد إليه متكرراً ليسمع التعليقات على أحدث رواياته. وكان مثل هذا المقهى منتدى العامة حيث يلعبون الشطرنج أو "الضامة" أو "الدومينو"، وفوق هذا وذلك يتجادبون أطراف الحديث لأن الناس ازداد شعورهم بالوحدة والوحشة بازدياد السكان في المدن.

وكانت الأندية عبارة عن مقاه خاصة، عضويتها مقيدة، وتغلب عليها رعاية مصالح من نوع محدد. وحوالي 1721 أسس الراهب ألاري نادي

صفحة رقم : 12032

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> العادات

"دي لا نترسول" (عبارة عن طابق مسروق بين الطابق الأرضي والطابق الذي فوقه، في دار الراهب، حيث كان يجتمع نحو عشرين من رجال السياسة والقضاء والحكم والأدب ليتدارسوا شئون الساعة، دينية أو سياسية وكان بولنجبروك هو الذي جاء بهذا الاسم فأدخل لفظة CLUB إلى اللغة الفرنسية، وهناك شرح الراهب دي سانت بيير برامجه للإصلاح الاجتماعي والسلام الدائم، مما أزعج الكاردينال فليري فأمر بفض النادي في 1731. وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس أيضاً أنصار جيمس الثاني اللاجئون من إنجلترا في باريس أول دار فرنسية للبنانيين الأحرار (الماسونيين)، كانت ملجأً للربوبيين، ووكراً للدراسات السياسية، وأصبحت منفذاً للإنفوذ الإنجليزي ومهدت الطريق للفلسفة.

إن الرجال والنساء، وقد أصابهم الضجر والسأم من الكدح والنصب في أعمالهم اليومية كانوا يقصدون زرافات ووجداناً إلى المتنزهات وقاعات الرقص والمسارح وفرق الموسيقى والأوبرا، وأولع الأثرياء بالصيد والقتص



و البرجوازيون بالنزهات الخلوية. وكانت غابة بولونيا والشانزلزيه وحدائق التويرلري وحدائق لكسمبرج وحديقة النباتات أو حديقة الملك، كما كانوا يسمونها آنذاك-أماكن مفضلة للتنزه في المركبات أو مشياً على الأقدام، ولقاء العشاق وعروض عيد الفصح. أما إذا لزم الناس بيوتهم فإنهم كانوا يتسلون بالألعاب المنزلية والرقص والموسيقى والتمثيلات الخاصة. وكان كل إنسان يرقص. وكان "البالية" قد أصبح فناً ملكياً معقداً. ظفر الملك فيه بنصيب من حين إلى حين. وكان راقص البالية مثل كامارحو أو لاجوسان معبود الجماهير في المدينة ومشتهى أصحاب الملايين.

صفحة رقم : 12033

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الموسيقى

4- الموسيقى

كانت الموسيقى في فرنسا قد انحطت منذ تفوق للي على موليير في تسلية الملك الأعظم فلم يكن هنا في فرنسا هذا الجنون أو الولوج الشديد بالموسيقى الذي أدى بايطاليا إلى نسيان إذلالها أو خضوعها السياسي، ولا التفاني الشديد في أساليب التلحين، الذي أوجد القداسات الضخمة والأحان الموسيقية

صفحة رقم : 12034

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الموسيقى

المطولة المبنية على رواية الإنجيل لآلام المسيح في ألمانيا على عهد باخ. وكانت الموسيقى الفرنسية في عصر انتقال من الشكل التقليدي إلى زخرفة الباروك، إلى رقة الروكوكو، ومن الطباق المعقد ذي الألفاظ المشوهة للحن، إلى ألحان سلسلة مندفة وأفكار رئيسية رقيقة تتلاءم مع الطبيعة الفرنسية. واستمر مؤلفو الموسيقى يخرجون أغاني الغزل أو الهجاء أو أغاني حزينة تتحدى الفتيات، وتتحدى الملوك، وتستتكر العزوبة والتواني. وامتدت رعاية الموسيقى من الملوك الذين يتطلبون العظمة والجلال إلى رجال المال الذين يدافعون عن حظوظهم مع الفرق الموسيقية والمسرحيات والشعر مما يستأثر به القلة من ذوي الجاه والنفوذ. وأخرجت أوبرا روسو "الموزيات الأنبيات" (إلهات تسع تحمين الشعر والغناء في الأساطير اليونانية) Les Muses Galantes في بيت الملترم العام بولنبيير. وكان لبعض الأغنياء فرق موسيقية خاصة بهم. وكانت العروض أو الحفلات المفتوحة للجمهور مقابل رسم دخول، تقدمها بانتظام في باريس "فرق الموسيقى الروحية" التي أنشئت 1725 وتبعثها في ذلك سائر المدن. وقدمت الأوبرا في باليه رويال" في وقت متأخر بعد الظهر عادة، حتى إذا انتهت في الثامنة والنصف

مساء، قصد المتفرجون للتنزه في حدائق التويلري، وأطربهم المغنون والعازفون في الهواء الطلق. وكان هذا واحداً من المظاهر الفاتنة في الحياة في باريس. وإنا لنذكر من مطالعة كتاب ديرو "ابن أخي رامو" كم من الملحنين والموسيقيين البارعين أقبل الناس عليهم إقبالاً شديداً في هاتيك الأيام، على حين جر عليهم النسيان اليوم ذبوله. وثمة ملحن فرنسي واحد من تلك الحقبة خلف لنا أعمالاً لا تزال تنتسب بالحياة. إن جين فيليب رامو أولع أياً ولع بالموسيقى. وكان أبوه عازف الأرغن في كنيسة سانت اتيين في ديجون. ويؤكد لنا كتاب السير المتحمسون أن جين استطاع في سن السابعة أن يقرأ أية موسيقى توضع أمامه بمجرد زقزق نظره عليها. وفي الكلية استغرق كل جهده في الموسيقى إلى حد أن الآباء اليسوعيين فصلوه، وبعد ذلك

صفحة رقم : 12035

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الموسيقى

كاد جين لا يفتح كتاباً إلا في الموسيقى أو عن الموسيقى. وسرعان ما أصبح بارعاً في العزف على الأرغن والبيان القيثاري والكمان مما لم يكن بعده زيادة لمستزيد في ديجون. ولما وقع الشاب في شرك الغرام، ورأى الوالد أن في هذا مضیعة لمواهبه أرسله إلى إيطاليا ليدرس أسرار الألحان فيها (1701). ولما عاد جان إلى فرنسا، عمل عازفاً على الأرغن في كليرمونت فراند وخلف أباه في ديجون (1709-1714)، ثم رجع أدراجه إلى كليرمونت عازفاً على الأرغن، في الكاتدرائية (1716)، ثم استقر به المقام في باريس 1721. وهناك في 1722 وهو في التاسعة والثلاثين كتب مؤلفه الرائع عن النظرية الموسيقية في فرنسا في القرن الثامن عشر "رسالة عن علم الإيقاع موجزاً في أسسه الطبيعية". وحاول رامو أن يبرهن أنه يوجد دائماً في التأليف الموسيقي السليم، سواء كان موزعاً أو غير موزع - "قاعدة أساسية" يمكن أن تستمد منها كل الأنغام التي فوقها، وأن كل النغمات المتألفة يمكن أن تستخرج من سلسلة إيقاعات النغمات الجزئية، وأن كل هذه الأنغام يمكن أن تقلب دون أن تفقد هويتها. إن رامو كتب بأسلوب لا يفهمه إلا أكثر الموسيقيين تبحراً ومعرفة بالموسيقى، ولكن أفكاره سرت دالمبرت الرياضي، الذي شرحها بشكل أوفى 1752 وإنك لتجد أن قوانين الترابط الوتري التي صاغها رامو، مقبولة في عصرنا هذا أساساً نظرياً للتأليف الموسيقي (34). وشن النقاد هجومهم على رامو، فرد عليهم هو بتأليف وتقاسير، حتى حظي بالتقدير والإجلال بما أخضع له الموسيقى من قوانين، كما فعل نيوتن بالنسبة للنجوم (35). وفي 1726 - وهو في سن الثالثة والأربعين تزوج من ماري ماجنو، إذ ذاك في الثامنة عشرة. وفي 1727 وضع موسيقى مسرحية فولتير الغنائية "سمسون" ولكنهم حظروا إخراجها على أساس أن قصص الكتاب القدس لا يجوز تحويلها إلى أوبرا. وكان على رامو أن يكسب قوته بالعمل عازفاً للأرغن في كنيسة "سانت كروادي لا بروتيري". وبلغ الخمسين من العمر قبل أن يغزو مسرح الأوبرا.

صفحة رقم : 12036

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الموسيقى

وفي 1733 قدم له الراهب بلجرين أوبرا "هوليريت وأريسيمي" المبنية على رواية راسين "فدر" ولكن الراهب حصل من رامو على صك بمبلغ خمسمائة جنيه ضماناً في حالة سقوط الأوبرا. ولما مثلت على سبيل التجربة ابتهج الراهب بموسيقاها أيما ابتهاج، إلى حد أنه مزق الصك في نهاية الفصل الأول. ولما مثلت أمام الجمهور في أكاديمية الموسيقى أدهشت المتفرجين بخروجها الجريء عن الأنماط التي كانت قد أصبحت تقاليد مقدسة منذ عهد للي. واعترض النقاد على ما أتى به رامو من إيقاعات جديدة غريبة، وتغييرات مبتدعة في طبقة الصوت وتعقيدات في التوزيع الموسيقي بل أن الفرقة الموسيقية نفسها كرهت الموسيقى. وفكر رامو لبعض الوقت في التخلي عن محاولاته في مجال الأوبرا ولكن محاولاته الثانية (1735 Les Indes Galantes) حظيت بإعجاب المتفرجين بتدفق ألحانها المنسقة، أما أوبرا 1737 Castor Et Pollux فكانت من أروع الانتصارات في تاريخ الأوبرا الفرنسية. وأفسده النجاح، وتفاخر بأنه في مقدوره أن يحول أي نص إلى أوبرا جيدة وأن ينقل صحيفة أي جريدة إلى موسيقى. وأنتج (36) سلسلة طويلة من الأوبرات غير الهامة. ولما ضاق مدير أكاديمية الموسيقى ذرعاً به انصرف إلى تأليف قطع للبيان القيثاري والكمان والفلوت. وأخذ لويس الخامس عشر -أو بالأحرى مدام بمبادور بيده، باستخدامه في كتابة موسيقى رواية فولتير "أميرة نافار"، التي لقيت في فرساي نجاحاً أعاد له مكانته (1745) ونال رضا الأكاديمية من جديد، وكتب مزيداً من روايات الأوبرا. ومد ألفت باريس أسلوبه فإنها نسيت للي، ونادت برامو ملكاً على دنيا الموسيقى بلا منازع.

وفي 1752 وجد نفسه يواجه تحدياً جديداً. ذلك أن بعض الفنانين العازفين والملحنين كانوا قد قدموا من إيطاليا. ومن ثم بدأت حرب صاخبة بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الإيطالية التي بلغت ذروتها في السبعينات بالموسيقار بنتشيني ينافس جلك Gluck. وفي دار الأوبرا في باريس قدمت

صفحة رقم : 12037

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الموسيقى

فرقة إيطالية مع أوبرا برجوليزي "La Serva Randona" فاصلاً موسيقياً وهي من روائع الأوبرا الهزلية ورد أنصار الموسيقى الفرنسية على ذلك بالنشرات ويقطع رامو. وانقسمت الحاشية إلى معسكرين وناصرت مدام بمبادور الموسيقى الفرنسية على حين دافعت الملكة عن الموسيقى الإيطالية، وهاجم جريم الأوبرا الفرنسية بأسرها (1752) وأعلن روسو أن الموسيقى الفرنسية بغیضة لا تطاق. والعبارة الأخيرة في مؤلفه "رسالة في الموسيقى الفرنسية" (1753) تدل أبغ دلالة على خلله العاطفي قال: "وفي اعتقادي أنني قد أوضحت أن الموسيقى الفرنسية مجردة من الوزن والتناغم معاً، لأن اللغة لا توفرها لها هذا أو ذلك. والغناء الفرنسي مجرد نباح وشكوى متصلتين ولا تطيقه الأذن غير المنحيزة، وأن إيقاعها غير مستساغ وأنها لا تعبر عن شيء ولا تشعر إلا بما تلقت عن معلمها، وأن النغم الفرنسي ليس نغمًا، وأن المقاطع الصوتية الفرنسية ليست مقاطع صوتية. ومن ثم انتهيت إلى أن الفرنسيين ليس لديهم موسيقى، ولن يكون لهم شيء منها قدر لهم أن يكون لديهم شيء من الموسيقى فستكون وبالاً عليهم". وانتقم أنصار الموسيقى الفرنسية بخمس وعشرين نشرة أصدرها ضد روسو، وأحرقوا تمثالاً على باب دار الأوبرا (37) واستخدم رامو، على كره منه، عنصرًا رئيسياً في حرب المهرجين، فلما هدأت المعركة وأعلن انتصاره فيها اعترف هو نفسه بأن الموسيقى الفرنسية لا تزال في حاجة إلى أن تتعلم الشيء الكثير عن الموسيقى الإيطالية، وقال إنه لو لم تكن سنه قد كبرت إلى هذا الحد، لعاد إلى إيطاليا ليدرس طرق برجوليزي وغيره من الأساتذة الإيطاليين.

وكان رامو آنذاك في قمة شعبيته، ولكن كان له أعداء كثيرون قدامى وجدد. وأضاف إليهم بنشرة أصدرها يعرض فيها أخطاءه التي وردت في المقالات التي ظهرت عن الموسيقى في دائرة المعارف. فما كان من روسو، وهو كاتب معظم هذه المقالات إلا أن انقلب عليه وازداد مقتاً له. أما ديديرو أبو دائرة المعارف فإنه كان السبب للملحن العجوز في لباقة تبعث

صفحة رقم : 12038

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الموسيقى

على الاحترام في "ابن أخي رامو" التي لم ينشرها تفضلاً منه وكرماً، قال: إنه الموسيقار الشهير الذي خلصنا من موسيقى للي المتعددة الأصوات التي ترنمنا بها لأكثر من قرن من الزمان، والذي كتب كلاماً كثيراً خيالياً غير مفهوم وحقائق غامضة عن نظرية الموسيقى وهي كتابات لم يفهمها هو، ولا أحد غيره قط. إنه أخرج لنا عدداً من الأوبرات التي يجد فيها المرء أنغاماً متألفة وشبيهاً من الغناء، والأفكار غير المترابطة والثرثرة في سرعة وجلبية، والحركات السريعة ومواكب النصر والحراب والمثل العليا وألحان الرقص... مما سيبقى إلى الأبد(38).

وحيث ظهر رامو في إحدى المقصورات 1760-وهو في سن السابعة والسبعين لمناسبة إعادة أوبرا "داردانوس" وهي من إخراج، لقي احتفاء وترحيباً حماسياً كاد يفوق ما قوبل به فولتير بعد ذلك بثمانية عشر عاماً. ومنح الملك براءة النبالة. وأعتقه هو وأسرته ديجون الفخورة بابنها من الضرائب البلدية مدى الحياة. وانتابته وهو في قمة مجده حمى التيفويد، وذبل بسرعة وقضى نحبه في 12 ديسمبر 1764 وشيعته باريس باحتفال مهيب حيث ووري التراب في كنيسة سانت أوسناش. وأقامت مدن كثيرة في فرنسا الصلوات تكريماً له.

صفحة رقم : 12039

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الصالونات

5- الصالونات

كانت باريس العاصمة الثقافية للعالم، أكثر منها فرنسا. قال ديكلوس "إن هؤلاء الذين يعيشون على مسافة مائة فرسخ من العاصمة إنما يبعدون عنها بمائة عام من حيث أساليب السلوك والتفكير(39) وربما لم توجد عبر التاريخ قط مدينة تعج بحياة متنوعة الألوان. فالمجتمع المهذب المصقول وفنون الأدب الرفيع انتلفا في رباط وثيق مذهل. وكان الخوف من الجحيم قد زال عن الباريسيين المتعلمين وتركهم في حالة المرح والابتهاج لم يسبق لها مثيل، لا يلقون بالأل في

وثوقهم الجديد بأنه ليس هناك عملاق رهيب قدير في السموات، يسترق السمع إلى خطاياهم ويحصيها عليهم. ومن تحرير الذهن على هذا النحو لم تتجم بعد آثار كنيبية من عالم مجرد من القداسة

صفحة رقم : 12040

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الصالونات

والهدف الخلقى، عالم يرتجف في زمهريير التفاهة والحقارة، وكان الحديث شائناً تتخلله الدعابة والمرح. وغالباً ما انتقل إلى هزل ظاهري، وهنا كان التفكير ينحصر في ظواهر الأمور خشية عدم العثور على شيء في أعماقها. وكان القيل والقال والفضائح تنتشر بسرعة من ناد إلى ناد ومن بيت إلى بيت، وكثيراً ما تطرق الحديث إلى آفاق خطيرة في السياسة والدين والفلسفة، مما قد ينيسر الخوض فيه اليوم إلا نادراً. وكان المجتمع متألقاً، لأن السيدات كن مبعث الحياة فيه، وكن المعبودات التي قدسها هذا المجتمع، وهن اللاتي تولين توجيهه، وبطريقة ما وبرغم العرف والعوائق أتيح لبعضهن قدر من التعليم يكفي لتبادل الحديث في فطنة وذكاء مع أئمة الفكر الذين أحبين أن يستضيفوهم. ونافسن الرجال في الاستماع إلى محاضرات رجال العلم(40). إذ عاش الرجال قليلاً في المعسكرات وطالت إقامتهم في العاصمة وفي الحاشية فقد تزايد إحساسهم بالمفاتن غير الملموسة في النساء-رشاقة الحركة، عذوبة الصوت حيوية الروح ومرحها، بريق العينين، رهافة الذوق، الجزع المشوب بالحنان والحب، النفس المشربة بالرحمة والشفقة. إن تلك الصفات جعلت المرأة محبوبة في كل مدينة ولكننا ربما لا نجد في أية ثقافة أخرى أن الطبيعة والتعليم والملابس والحلي وأدوات التجميل والزينة قد جعلت من المرأة مخلوقاً يسحر الألباب بقدر مل كانت عليه في فرنسا القرن الثامن عشر. وكل هذا المفاتن والمغريات لا تستطيع على أية حال أن تفسر سلطان المرأة وقوتها. إن الذكاء في معالجة الرجال وسياستهم أمر ضروري. وبارى ذكاء النساء عقل الرجال وفي بعض الأحيان تفوق عليه. وعرف النساء الرجال أفضل مما عرف الرجال النساء. والرجال يندفعون في تهور بالغ إلى أفكار لتتضح حتى تفهم، على حين إن التراجع المحتشم المطلوب حتى من السيدة المتفتحة، هياً لهل فسحة من الوقت للملاحظة والتجريب وتخطيط حملتها أو هجومها. وكلما ازدادت حساسية الرجل اتساعاً وعمقاً، نما تأثير المرأة ونفوذها. وفتشت البسالة في ميدان الحب عن جزاء وفاق لها في الصالون وفي مخدع

صفحة رقم : 12041

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الصالونات

المرأة وفي الحاشية على حد سواء. وكم اهتز الشعراء طرباً حين وجدوا آذاناً صاغية من الجنس الرقيق. وكم رفع من شأن الفلاسفة تفضل السيدات ذوات التهذيب الرفيع والمكانة العالية بالاستماع إليهم، بل إن أغزر العلماء علماً

وأوسعهم إطلاعاً وجدوا في الصدور الناعمة وفي حفيف الرقص مثاراً للفكر والعقل. وهكذا مارست المرأة قبل "تحريرها" سيادة طبعت العصر بطابعها المتميز. وتذكرت مدام فيجي لبرون فيما بعد "كانت المرأة تحكم آنذاك، ثم تلت الثورة عرشها" (41). إن النساء لم يعلمن الرجال آداب السلوك والعادات فحسب، بل إنهن كذلك رفرن أو خفضن من درجاتهم في الحياة السياسية، بل حتى في الحياة العلمية. من ذلك أن مدام دي تنسان هيأت اختيار ماريغو بدلاً من فولتير، لعضوية مجمع الخالدين "الأكاديمي فرانسيز" في 1742. وكان شعار "فتش عن المرأة" وسيلة النجاح، فإنك إذا عثرت على المرأة التي يحبها الرجل، كشفت عن المنفذ الذي تصل منه إلى الرجل الذي تريد.

كانت كلودين الكسندرين دي تنسان بعد بمبادور-هي السيدة الأكثر إمتاعاً وتشويقاً بين النساء اللاتي سيطرن على فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. وقد عرفنا كيف هربت من أحد الأديار، وأنجبت دالمبرت، واتخذت لها مسكناً في باريس في شارع سانت أونوريه حيث استقبلت مجموعة متعاقبة من العشاق، بينهم بولنجبروك، ريشيليو، فونتيل (صموت) ولكنه نشيط قوي في سن السبعين) وعدداً من الرهبان ومدير الشرطة في باريس.

وأضافت الشائعات أخاها بيير إلى قائمة المترددين عليها، ولكن ربما أحبته لمجرد أنها أخت حنون مصممة على تنصيه كاردينالاً، إن لم يكن رئيساً للوزراء. وعن طريقه وعن طريق غيره دبرت أن تكون ركناً قوياً في حياة فرنسا.

إنها جمعت المال أولاً: واستثمرته على طريقة دكتور لو، ولكنها باعت الأسهم في الوقت المناسب. وقبلت الحراسة على ثروة شارل جوزيف دي لا فرزني، ثم أبت إعادتها إليه، فانتحر في دارها، تاركاً وصية

صفحة رقم : 12042

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الصالونات

يتهمها فيها بالسرقة (1726)، وأرسلت إلى الباستيل ولكن أصدقائها دبروا أمر الإفراج عنها، واحتفظت بمعظم الثروة. وتحدث ثروة المدينة والحاشية، وخرجت منها سالمة.

وحوالي 1728 أفاضت مدام دي تنسان إلى مخدعها صالوناً اتخذته سماً ترقى به إلى السلطة والقوة، واستقبلت فيه مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع، على مائدة العشاء عدداً من الرجال البارزين، أطلقت عليهم "معرض الوحوش" منهم موننتيل، مونتكيو، ماريغو، بريفوست، هلفشيوس، استروك، مارمونت، هينولت، ديكلوس، مابلي، كوندريسيه، وأحياناً تشستر فيلد. وكانت المجموعة كلها من الرجال عادة لأن تنسان لم تكن تطيق على مائدتها أية منافسات. ولكنها أطلقت "الوحوشها" العنان، ولم تغضب قط لرافضهم السافر للمسيحية. وتساوي كل الناس من كل الطبقات هناك، فكان الكونت النبيل في مستوى الرجل من العامة، وقد تروى التقاليد فيما بعد أنه هنا كانت تجري أكثر المناقشات تألقاً ودقة طوال هذا القرن، قرن الحديث الذي لا حدود له (42).

وعن طريق ضيوفها وعشاقها وكهنة اعترافها استخدمت نفوذها لتحقيق أهدافها بطريقة سرية فيما بين فرنسا وروما. ولم يكن أخوها طموحاً، بل كان يتوق إلى البساطة في الحياة والهدوء في الأقاليم، ولكنها وسعت حتى عين رئيس أساقفة ثم كاردينالاً، وأخيراً وزيراً في مجلس الدولة. وعاونت على أن تجعل من مدام شاتورو خلية للملك، واستحنتها على حث الملك ليقود جيشه في الحرب. إنها رأت في بلاده لويس وتكاسله مصدرراً للاضمحلال السياسي ونذيراً بهذا الاضمحلال. وربما كانت على صواب فيما فكرت فيه من أنها لو تولت رئاسة الوزارة للقيت الحكومة نجاحاً أكبر، وأظهرت نشاطاً وحيوية أكثر. وناقش رواد صالونها في جرأة انحلال الملك واحتمال قيام الثورة.

وفي شيخوختها نسيت خطاياها، وانضمت إلى اليسوعيين وشنت الحملات على الجانسينيين، وتبادلت رسائل المودة مع البابا بندكت الرابع عشر الذي

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الأخلاق والتعليم -&gt; الصالونات

أرسل إليها صورته اعترافاً منه بخدمتها للكنيسة. إن رقة الفؤاد التي ازدانت بها أخطاؤها، وجدت لها منافذ كثيرة. ولما قابل الجمهور في بداية الأمر كتاب مونتسكيو "روح القانون" (1748) بعدم الاكتراث اشترت تنسان كل نسخ الطبعة الأولى تقريباً، ووزعتها مجاناً على أصدقائها الكثيرين. وتولت رعاية مارمونتيل الشاب وأسدت إليه النصح أن يعقد فوق كل شيء، أوامر الصداقة مع النساء، لا الرجال، وسيلة للارتقاء والصعود في هذا العالم (43). وأصبحت هي نفسها، في سني شيخوختها وضعفها الأخيرة، كاتبة ومؤلفة، وسترت الطيش والحماسة بإغفال ذكر اسمها على ما ألفت. وقرن أصدقائها النقاد قصتها بقصة مدام دي لافاييت (برنسيس دي كليف Princesse De Cleves). وفارقت مدام تنسان الحياة في 1749 وهي في الثامنة والستين. وعندئذ تسأل فونتينيل العجوز "أين أتناول العشاء مساء يوم الثلاثاء الآن؟" ولكنه أجاب لنفسه في ابتهاج على الفور "حسناً"، عند مدام جيوفرين (44). وربما التقينا به هناك.

كان صالون مدام دي دفاند قديماً قدم صالون تنسان، كما عمر مثل ما عمر صالون جيوفرين تقريباً. إن ماري دي فيشي شامروند بانتت يتيمة وهي في سن السابعة فوضعت في دير اشتهر بالتعليم، فبدأت تدرس وتتأمل في سن مبكرة الألوان، وكانت تلقي أسئلة تتسم بالتشكك إلى حد مزعج، وإذ وقعت الراهبة في حيرة من أمر الصبية وأسئلتها فإنها أحالتها إلى الواعظ المتفقه ماسيون، الذي عجز عن تفسير المسائل الغامضة، فتخلت عنها يأساً من إنقاذها من الضلال. وفي سن الحادية والعشرين أصبحت مركزية دي ديفان بزواج تم عن تراض بين الطرفين، ولكنها سرعان ما تبينت أن زوجها شخص مبتذل ممل إلى حد لا يحتمل، فافترقا بعد اتفاق وفر لها ثروة لا بأس بها. وفي باريس وفرساي انصرفت إلى لعب الميسر في اندفاع شديد "لم أفكر في شيء إلا القمار" ولكن بعد ثلاثة أشهر منيت فيها بخسائر فادحة، "تولاني جزع شديد، وحرزنت على ما أنا فيه، ونأيت بنفسي

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; الأخلاق والتعليم -&gt; الصالونات

عن هذه الحماسة". وقضيت فترة قصيرة خلية للوصي (45). ثم تحنت عنه إلى عدوته الدوقة دي مين. وفي مسكو التقت بشارل هنولت رئيس مجلس التحقيق العسكري، الذي أصبح عشيقاً لها، ثم صديقاً مدى الحياة. وبعد أن أقامت لبعض الوقت مع أخيها انتقلت إلى نفس الدار في شارع دي بون، التي قضى فيها فولتير نحبه. وإذ اشتهرت بجمالها وعينها البراقبتين وذكائها الحاد، فإنها جذبت إلى مائدتها (حوالي 1739) نفرأ من مشاهير الرجال الذين جاءوا ليؤلفوا صالوناً يذيع صيته كما ذاع صيت صالون تنسان تقريباً: هنولت، مونتسكيو، فولتير، مدام دي شانيليه، ديدرو، دالميرث، مارمونتيل، مدام دي ستال دي لونييه..... وفي 1747، وقد بلغت آنذاك الخمسين، وخفضت من غلوائها بعض الشيء، استأجرت شقة جميلة في دير سان جوزيف في شارع سان دومنيك. وكان من عادة الأديار

تأجير غرف للعرائس والأرامل والنساء اللاتي افترقن عن أزواجهن، وكانت هذه المساكن عادة في أبنية خارج المبنى الأساسي الخاص بالراهبات. ولكن في حالة هذه المتشككة الثرية، كان المسكن داخل جدران الدير، والحق إنه المسكن الذي كان قد أوى تحت سقفه مؤسسة هذا الدير الأثمة، مدام دي مونتسبان. وتبع صالون المركزية شخصها إلى مقرها الجديد. ولكن ربما أزعجت البيئة المحيطة به الفلاسفة، فلم يعد ديدرو يحضر ونادراً ما كان يجيء مارمونتيل، وكان جريم يتردد بين الحين والحين، وسرعان ما أنقطع دالمبرث. ومعظم المجموعة الجديدة في سان جوزيف كانوا من سلالة الأرستقراطية القديمة: مارشال لكسمبورج ومارشال ميربوا وعقيلتاها، دوقا ودوقتا دي بوفلوز ودي شوازيل ودوقات اجوبون وجرامونت وفليروا وصديق مدام دي ديفاند من أيام طفولتها ولمدى الحياة، وهو بونت دي فيل. وكانوا يلتقون في السادسة، ويتناولون العشاء في التاسعة ثم يلعبون الورق والميسر؛ ويتناولون بالتحليل والتفصيل الأحداث الجارية في عالم السياسة والأدب والفن، ثم يفترقون. في نحو الساعة الثامنة صباحاً. وكان الأجانب البارزون، والوافدون على باريس يحتالون للحصول على

صفحة رقم : 12045

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الصالونات

دعوة إلى "مأوى النبلاء" هذا. وروى لورد باث في 1751 "إني لأذكر أمسية دار الحديث فيها عن تاريخ إنجلترا، وكم دهشت وارتبكت حين وجدت أن هؤلاء القوم عرفوا من تاريخ بلادنا خيراً مما عرفنا نحن عنه! (46). وتفردت دي ديفاند بأصفي ذهن وأسوأ خلق بين صاحبات الصالونات فكانت مغرورة متغترسة عيابة شكافة، أنانية أكثر مما يليق بالمرء أن يكون. ولما عالج كتاب هلفشيوس "الروح" ما ذهب إليه لاروشفوكول من أن كل الدوافع الإنسانية أنانية، علفت هي بقولها في ازدراء "إنه إنما كشف عن سر كل إنسان" (47) وكانت تجيد الهجاء المشوب بالحقد والضحينة كما فعلت في وصفها مدام دي شاتيليه. ولم تر في الحياة الفرنسية إلا الجوانب التافهة الضعيفة. وذهبت إلى أن الفقراء اشتروا، بقدر ما سمحت به ظروفهم في رذائل الأغنياء ومساوئهم. ولم تضيف شيئاً إلى التطلعات المثالية للفلاسفة سوى ما جاءت به العقيدة العتيقة من أساطير مغرية مريحة للنفس. وتجنّب الاستنتاجات وآثرت العادات القويمة. واحتقرت ديدرو ونعته بأنه جلف ساذج. وأحبت دالمبرث ثم عادت فكرهته. وأعجبت بفولتير لأنه سيئ السلوك حاد الذهن. والتقت به في 1721 وعندما هرب من باريس، ثم شرعت في 1736 تبادلته الرسائل التي تعد من الروائع في الأدب الفرنسي ولم تقل رسائلها عن رسائله. رقة وعمقاً وصفاء وروعة ولكنها لم تبلغ ما بلغه في رسائله من لطف وسهولة وبعد عن التكلف والكياسة. وفي سن الخامسة والخمسين بدأت تفقد بصرها، واستشارت كل متخصص في طب العيون، ثم بجأت إلى كل دجال ومشعوذ. وبعد ثلاث سنوات من الكفاح والعناء ذهب بصرها تماماً (1754)، ويومذاك أنذرت أصدقاءها بأنهم إذا استمروا في شهود أمسياتها فإنه يجدر بهم أن يحتملوا السيدة العجوز الضريرة. وعلى الرغم من هذا قصدوا إليها. وأكد لها فولتير من جنيف أن ذكاءها وفطنتها باتا أكثر تألقاً مما كانت حتى وهي بصيرة، وشجعها على المضي في الحياة لمجرد أن تثير غضب من يدفعون لها

صفحة رقم : 12046



## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> الأخلاق والتعليم -> الصالونات

رواتها السنوية. ووجدت في جولي دي لسبيناس شابة لطيفة نشيطة فاتنة تعاونها على أن تستقبل وتستضيف الأصدقاء. وكانت هي آنذاك تنصدر المائدة وكأنها هو مر الأعمى يتصدر مائدة مستديرة وحوله الحكماء وشعراء الملاحم البطولية، وكانت تنتقل هنا وهناك وقورة شامخة متحدية لمدة ستة وعشرين عاماً آخر. وإنا لنأمل أن نلتقي بها هي أيضاً مرة أخرى.

ولقد كان عصرًا مشرقاً زاهياً، لأن النساء تألقن فيه، وجمعن فيه بين الذكاء والجمال، مما لم يسبق له مثيل. وبفضلهن ألهم الكتاب الفرنسيون الفكر بالعاطفة، وزينوا الفلسفة بالظرف وخفة الروح. وكيف كان يتسنى لفولتير أن يكون فولتير بغير وجودهن؟ حتى ديدرو الفظ الغامض اعترف بقوله "إن النساء عودتنا أن نناقش أشد الموضوعات جفافاً وتعقيداً، بشكل ساحر واضح، إننا نحدثهم حديثاً متواصلًا، ونريد منهن الإصغاء إلينا، ونخشى أن يتولاهن التعب أو الضجر. ومن ثم كنا نستخدم طريقة معينة في إيضاح آرائنا لهن في يسر وسهولة. وكانت هذه الطريقة تنتقل من مجرد الكلام إلى أسلوب" (48) وبفضل النساء أصبح النثر الفرنسي أكثر إشراقاً ووضاءة من الشعر واكتسب اللغة الفرنسية سحرًا رقيقاً، ورشاقة في العبارة ولباقة في الحديث مما جعلها بهيجة ذات مكانة رفيعة. وبفضل النساء انتقل الفن الفرنسي من طراز الباروك الغريب الشاذ إلى الشكل المهذب المصقول والذوق الرفيع، مما ازدانت به كل مظاهر الحياة في فرنسا.

صفحة رقم : 12047

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> انتصار الروكوكو

### الفصل التاسع

### عبادة الجمال

#### 1- انتصار الروكوكو

في هذا العصر، فيما بين الوصايا وحرب السنين السبع-عصر طراز لويس الخامس عشر-كانت النساء تتحدى الآلهة: أي الفريقيين أحق بالعبادة، وكان السعي وراء الجمال ينافس الانصراف إلى التبتل والورع، والاندفاع إلى الحرب.

وفي الفن والموسيقى، كما في العلوم والفلسفة، تراجع كل ما هو فوق الطبيعة أمام كل ما هو طبيعي. إن هيمنة المرأة على ملك حساس شهواني، هيأت اعتباراً جديداً أو مكانة جديدة للرهادة ورقة الوجدان. كما أن الاتجاه إلى مذهب اللذة والمتعة في الحياة الذي كان قد بدأ على عهد فيليب دي أورليان، بلغ ذروته في أيام بمبادور. وأصبح الجمال أكثر من أي وقت مضى، أمراً ذا "قيم ملموسة" فكان شيئاً يسر المرء أن يلمسه بيده أو تقع عليه عيناه، ابتداء من خزف سيفر إلى لوحات بوشيه العارية. وتخلّى المهيب الفخم عن مكانه للبهيج السار والجليل الوقور للرشيح الرقيق، وكبر الحجم لفتنة الرشاقة، وكان الروكوكو فن أقلية أبيقورية غنية متلهفة على الاستمتاع بكل لذة قبل انقضاء دنياها السريعة الزوال، وفي غمرة طوفان من التغيير تتعجل حدوثه. وفي هذا الطراز الدنيوي الصريح طفرت الخطوط فرحاً، ورقت الألوان، وخلت الأزهار من الأشواك، وتجنبت الموضوعات الفاجعة لتؤكد الإمكانات الباسمة المشرقة في الحياة، وكان الروكوكو آخر مرحلة في الباروك من تمرد الخيال على الحقيقة والواقع، ومن ثورة الحرية والانطلاق على النظام والقواعد. ومع ذلك لم تكن حرية مخلة، بل ظل إنتاجها يحتفظ بالمنطق والتركيب، ويعطي المغزى شكلاً ولكنها كرهت الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة، ونفرت من التماثيل، وآلمها أن تترك أية قطعة أثاث دون نقوش. وعلى

صفحة رقم : 12048

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> انتصار الروكوكو

الرغم من أناقة الروكوكو الجذابة، فإنه أنتج آلافاً من الأشياء التي لا يفوقها شيء في رشاقته وزخرفتها. ولمدة نصف قرن من الزمان جعل الروكوكو من الفنون الصغيرة أسمى فن في فرنسا. وعلى قدر علمنا لم يوجد قط مثل هذا النشاط من قبل، وقليلاً ما كان مثل هذا التفوق والامتنياز، في مجالات الأعمال الجمالية، تلك المجالات التي كانت يوماً أقل شأناً. وفي تلك الحقبة صار الفنان والحرفي مرة أخرى شخصاً واحداً كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى، وكان هؤلاء القادرون على تجميل الجوانب الخصوصية في الحياة موضع تكريم مع الرسامين والمثالين والمعماريين في هذا العصر. ولم يبلغ الأثاث قط من قبل هذه الدرجة من الروعة والإتقان. ولم يعد أثاث طراز "لويس الخامس عشر ضخماً مثل ما كان في عهد الملك العظيم، وقد كان تصميمه مقصوداً للراحة، ولا للعظمة والوقار، وكان أكثر ملاءمة لجسم المرأة وملابسها، منه للجلال والتباهي، واتخذت الأرائك أشكالاً شتى، لتتناسب مع الأوضاع الجسمية والأمزجة. وكتب فولتير "إن السلوك الاجتماعي أيسر اليوم منه في الماضي، ويمكن أن ترى السيدات يقرأن على الأرائك أو أسرة النهار (سرير ضيق يحول في النهار إلى أريكة) دون أن يسببن أي إزعاج أو مضايقة لأصدقانهن ومعارفهن(1). وكان السرير يتوج بظلة رقيقة جميلة وتزين ألواحه بالصور والرسوم أو تتجدد، وتتفش قوائمه نقشاً جميلاً. وطورت أنماط جديدة من الأثاث لتواجه حاجات جيل أتر فينوس على مارس (أثر آلهة الجمال على إله الحرب) وأخذ الكرسي المنجد ذو الذراعين والوسادة الوثيرة (البرجير) والأريكة المكسوة بنسيج مزدان بالصور والرسوم، والكرسي الطويل (شيزلنج) ومائدة الكتابة والقراءة (ما يوضع عليه الكتاب عند القراءة) ومنضدة الحوض في حجرة النوم والمائدة المثبتة إلى الحائط تحت مرآة (الكونسول)، ومسند القدمين، والخزنة العالية ذات الأدراج، وصان السفرة-كل هذه الأشياء أخذت آنذاك أشكالها، وفي الغالب أسماءها التي احتفظت في الواقع

صفحة رقم : 12049

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> انتصار الركوكو

بها إلى يومنا هذا. وأسرفوا في النقش وغيره من ألوان الزخرفة والتزيين إلى حد أثار رد فعل في النصف الثاني من القرن، وتطعيم خشب الأثاث بالصدف أو المعادن الذي أدخله أندريه شارل بولليه في عهد لويس الرابع عشر، وأهمله أبناؤه من بعده، حيث كانوا نجاري الأثاث لدى لويس الخامس عشر وغطت تشكيلة كبيرة من التطعيم سطح الخشب الملون أو المكسو بقشرة رقيقة أو المدهون بورنيش الك "وضع فولتير" أشغال الك "في فرنسا القرن الثامن عشر، في مرتبة سواء مع ما كان يرد منها من الصين أو اليابان. أما الحرفيون من أمثال كرسنت، أو بورد اوين، كافيري، وميسونيه فقد بلغوا من التفوق والتبريز في تصميم الأثاث وزخرفته درجة حدت بنجاري الأثاث الأجانب إلى القدوم إلى فرنسا لدراسة أساليبهم، ثم نشروا الطراز الفرنسية من لندن إلى بطرسبرج. وجمع جوست أوريل ميسونيه بين عشرة فنون أو تزييد، فبنى البيوت، وزخرف أجزاءها الداخلية، وصنع الأثاث على أحدث طراز، وصنع "الشمعدانات" والأنية الفضية للمائدة وصمم علب السعوط وأغطية الساعات، ونظم المشاهد الفاخرة، وألف عدة كتب دون فيها مهاراته وفنونه. وكاد أن يكون الرجل العالمي في زمانه.

وقد حلت الألفة والعلاقات الحميمة في الحياة على عهد لويس الخامس عشر محل التمسك بالرسميات الذي ساد القرن السابع عشر، فإن الزخرفة الداخلية انتقلت من الفخامة والأبهة إلى الرقة. وفي هذا أيضاً بلغ العصر الذروة، فالأثاث والبسط والسجاد والتنجيد والقطع الفنية، وساعات الحائط والمرابيا، والإطارات والأنسجة المزدانة بالصور والرسوم والستائر واللوحات والسقوف والشمعدانات، حتى خزائن الكتب صنعت كلها في تناسق في الألوان والطراز يسر الناظرين. وقد يساورنا الظن بأن الكتب كانت تشتري للون جلدتها والمادة المصنوعة منها قدر ما تشتري من أجل محتوياتها، ولكننا يمكن أن ندرك هذه اللذة أيضاً. وإنا لننظر بعين الحسد إلى المكتبات الشخصية الخاصة المرصوفة وراء الزجاج في خزائن جميلة

صفحة رقم : 12050

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> انتصار الركوكو

مرتكزة على الحائط: وكانت حجرات الطعام نادرة في فرنسا قبل 1750، أما موائد الطعام فكانت تصنع بحيث يمكن بسهولة تمديدها لمضاعفة عدد الجالسين إليها وإزالتها، لأن ضيوف العشاء قد يبلغون عدد كبيراً لا يمكن التنبؤ به. ولم تعد المدافئ من ذلك الطراز الضخم الذي كان قد انحدر من العصور الوسطى إلى لويس الرابع عشر، ولكنها ازدانت بزخرفة مترفة، وفي بعض الأحيان (وهذا مثال نادر للذوق السقيم في هذه الحقبة) كانت تماثيل للمرأة تستخدم بمثابة أعمدة تحمل رفوف المدفأة، وكانت كل التدفئة تقريباً عن طريق مدافئ مفتوحة تسترّها حواجز مزخرفة، ولكننا كنا نجد هنا وهناك في فرنسا، كما كان في ألمانيا، موقداً مكسواً بالخزف المزخرف. وكانت الإضاءة بالشموع التي تثبت بمائة طريقة مختلفة، تبلغ أقصى روعتها في الشمعدان الضخم المتألق، المصنوع من البلور أو الزجاج أو البرونز. وإنا لنعجب من كثرة القراءة على ضوء الشموع، ولكن ربما قللت المشاق من إنتاج الهراء واستهلاكه.

ومع تقدم القرن، حلت اللوحات الحائطية الزاهية الألوان والمزخرفة زخرفة رقيقة محل النسيج المزدان بالصور والرسوم، وفي هذه الفترة كانت قمة ازدهار فن هذا النسيج. وفي كل أنواع النسيج تقريباً من الدمقسي والمطرزات

والمقصبات إلى البسط والسجاجيد والستائر الممتازة تحددت فرنسا في تلك الأيام أفخر منسوجات الشرق. وتخصصت أميان في المخمل المنقوش واشتهرت ليون وتور ونيم بالحرير المزركش. وفي ليون ابتدع جان بيلمونت وجان بابتست هويه وغيرهما سجاجيد تعلق على الجدران ممهورة ومخبطة بموضوعات ومناظر صينية أو تركية أسرت لب بمبادور. وكان هذا النسيج يصنع في مصانع المؤممة في باريس وبوفيه، وفي الحوانيت الخاصة في أوبيسون وليل. وكانت هذه المنسوجات إذ ذاك قد فقدت وظيفتها في الانتفاع بها للحماية من الرطوبة والتيارات الهوائية، وأصبحت للتزين فقط وغالبا ما صغر حجمها لتلتئم مع النزعة إلى تصغير الحجرات. وسار النساجون في مصانع الجوبلان وبوفيه وفق التصميمات والرسوم

صفحة رقم : 12051

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> انتصار الروكو

التي وضعها، والألوان التي تصح باستخدامها أئمة الرسم في ذلك العصر، وكانت جميلة بصفة خاصة تلك القطع الخمس عشرة التي نسجتها مصانع جوبلان (1717) وفق الرسوم التي أعدها شارل أنطوان كوبييل لتصوير قصة "دون كيشوت". أما نساجو بوفيه فإنهم، كما سنرى أنتجوا قطعاً رائعة من النسيج، صمم رسوماها الفنان بوشيه. وفي 1712 أعيد تنظيم مصانع "سافونيري" وكانت في الأصل لصنع الصابون وأطلق عليها المصنع الملكي لصناعة السجاد على طراز فارس والشرق الأدنى وسرعان ما أنتج سجاجيد ضخمة امتازت برسوم دقيقة وألوان متنوعة ووبر ناعم مخملي، وهذه أجمل سجاجيد ذات وبر في فرنسا القرن الثامن عشر. وكانت مصانع النسيج المزدان بالصور والرسوم هي التي تقوم بالنتجيد الذي يتطلب المثابرة وبذل أقصى الجهد لكراسي الأثرياء، ولا بد أن كثيراً من الأصابع المتواضعة الذليلة قد تعبت وتصلبت لتوفر لهؤلاء الأثرياء مقاعد وثيرة تقيهم عناء الجلوس. وأقبل الخزافون الفرنسيون على عصر من المغامرة. وهيأت لهم حروب لويس الرابع عشر الفرصة. ذلك أن الملك العجوز صهر ما لديه من فضة لتمويل جيوشه وأحل الخزف مكان الفضة، وأمر رعاياه بأن يحذو حذوه. وسرعان ما لبث مصانع الخزف في روان وليل وسكو وستراسبورج وموسستير سانت ماري ومرسيليا هذا المطلب الجديد. وبعد موت لويس الرابع عشر شجع الميل إلى الأطباق وغيرها من الأشياء المصنوعة من الخزف-شجع الخزافين إلى إنتاج أجمل ما عرف منها في تاريخ أوربا. ورسم مشاهير الفنانين من أمثال بوشيه وفلكونيه وباجو المناظر على الخزف الفرنسي وابتدعوا أشكالاً كثيرة منه.

وفي نفس الوقت كانت فرنسا تنجيه إلى إنتاج الخزف الصيني. وكانت أنواع متعددة من العجينة الملساء تصنع في أوربا منذ مدة طويلة ترجع إلى 1582 في فلورنسه و1673 في روان، وكانت كلها على أية حال تقليداً للنماذج الصينية. ولم تكن مصنوعة من العجينة الصلبة المأخوذة

صفحة رقم : 12052

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> انتصار الروكو

من مادة الكاوين أي الصلصال الصيني، أو حجر الطفل الصيني الذي يذاب في درجة حرارة عالية في الشرق الأقصى. وإنما كانت من صلصال أقل صلابة يسخن في درجة حرارة منخفضة ثم يغطى "بالغربتة" وهي مادة متكلسة أو شبه منصهرة ومصقولة. وحتى هذا الخزف الصيني المصنوع من العجينة الطرية وبخاصة في شانغهاي، وفنسن ومنسي-فيلروا (بالقرب من باريس) كان جميلاً جداً، واستمر استيراد الخزف المصنوع من الصلصال الصلب من الصين أو درسدن. وفي 1740 انتزعت مدام دي بمبادور مائة ألف جنيه من لويس الخامس عشر، و250 ألفاً من مصادر خاصة للتوسع في إنتاج الخزف من العجينة الطرية في فنسن. وفي 1756 نقلت عمال فنسن المائة إلى مبنى أوسع وأوفى بالغرض في سيفر (بين باريس وفرساي) وهناك في 1769 بدأت فرنسا إنتاج الخزف الصيني الحقيقي من الصلصال الصلب.

وأفاد صائغو الذهب والفضة من أن ملك فرنسا استخدم من منتجاتهم رصيماً احتياطياً قومياً، محولاً السبائك إلى أشكال مسرفة في الجمال، ولكن يمكن في الحال صهرها إذا دعت الضرورة. وفي عهد لويس الخامس عشر ازداد طلب الطبقات المتوسطة على المشغولات الفضية بوصفها أدوات ناعمة أو وسائل للزينة. وتكاد كل أنماط السكاكين التي نستخدمها اليوم تكون قد اتخذت شكلها الراهن في فرنسا القرن الثامن عشر: شوكات المحار، ملاعق المثلجات، ملاعق السكر، أطقم الصيد، طقم الرحلات، سكاكين وشوكات الأكل، أضف إلى ذلك مملحة المائدة، وفناجين الشاي والأباريق والأواني وأدوات التجميل والشمعدانات، وكلها مزدانة بنقوش بديعة أو مصنوعة ف أشكال جميلة.. "وكان أحسنها في هذا المجال طراز لويس الخامس عشر من بين كل الطرز الفرنسية(2) وصنع صائغوا الذهب والفضة صناديق أو علبة صغيرة حملها الرجال والنساء على السواء، لحفظ السعوط أو الأقراص أو المساحيق أو الحلوى، كما صنعوا مائة صنف من الأواني والأوعية والصناديق لمنضدة الزينة وحجرة النوم والملابس، وكان في حوزة

صفحة رقم : 12053

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> انتصار الروكو

الأمير دي كونتي مجموعة من ثمانمائة صندوق من مختلف الأشكال، من المعادن النفيسة، وكلها رائعة متقنة الصنع. واستخدمت مواد أخرى كثيرة لتمثل هذه الأغراض: العقيق، عرق اللؤلؤ، اللازورد.... وكان قطع الجواهر وتركيبها الامتياز الذي تقدر به 350 من مهرة الحرفيين الذين ضمتهم نقابة الصائغين. وحملت أشغال المعادن سمعة العصر في رقة القوالب والأشكال والصقل والإتقان. واتخذت مناصب أو مساند الحطب المشتعل أشكالاً خرافية من التصميمات أو الرسوم المعقدة من الحيوانات الخيالية عادة. واستخدم البرونز الذهبي اللون لصنع أو زخرفة هذه المناصب والمشاعل والشمعدانات ذوات الشعب أو تحليتها بالزخارف، أو لتركيبة ساعة الحائط أو البارومتر أو حجر الشب أو الخزف الصيني. فبلغ البرونز الحديث ذروه استخدامه في القرن الثامن عشر، فكان من الممكن أن تكون ساعات الحائط في أشكال ضخمة غريبة وساعات الجيب أو اليد صلبة جميلة من البرونز أو المينا أو الفضة أو الذهب، ومزدانة بنقوش غاية في الجمال والإتقان. وكانت المشاعل في بعض الأحيان تحفاً رائعة في فن النحت، مثل تلك التي أبدعها فالكونيه لقصر فرساي. وكانت المنمنمات والرسوم الفاخرة من روائع هذا العصر. وأنتجت أسرة واحدة هي أسرة رومتيير، خمسة أشكال من الرصائع (الميداليات) المحفورة على مدى قرن من الزمان، تميزت كلها بدقة الصنع إلى أن الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة رحبت بانضمامها إليها، في عداد كبار الرسامين والمثالين. إن القرن الثامن عشر عرض في الأشياء الصغيرة في الحياة أعظم ثروته خلواً من الهوموم، كما عرض أكثر فنونه دقة وإتقاناً. وقال تليلران "إن أولئك الذين لم يعيشوا قبل 1789 لن يدركوا أبداً إلى حد يمكن أن الحياة حلوة"(3)، إذا تسنى للمرء أن يختار الطبقة التي ينتمي إليها ويتقاضي المقصلة.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> فن العمارة

## 2- فن العمارة

وتجاهل فن العمارة الروكوكو تقريباً. وتتغير الطرز ببطء في البناء أكثر منها في الزخرفة لأن مقتضيات الرسوخ والثبات أقل مرونة من تقلبات الذوق. وكانت الأكاديمية الملكية لفن العمارة التي نظمها كولبير في 1681 يتولى توجيهها الآن ورثة تقاليد لويس الرابع عشر. وواصل روبرت دي كوت عمل جول هردوين مانسار الذي كان قد أكمل قصر فرساي. وكان جرمين بوفران تلميذاً لمانسار، وكان جاك جول جيراييل وابنه جاك أنج خلفين غير مباشرين لمانسار، ومن ثم حصر تيار هذه التقاليد مجراه في قوة وصلابة، واحتفظ هؤلاء الرجال بطراز الباروك، بل بالطراز نصف الكلاسيكي، بالمظاهر الخارجية التي سادت في القرن العظيم، مثل الأعمدة وتيجانها والعتبات، ولكنهم سمحوا بمسحة من الروكوكو فيما شادوا من مبان.

وخفف ضعف الإيمان من حدة التحمس لبناء كنائس جديدة، ولكن جددت على أية حال واجهتا كنيسةين قديمتين. ذلك أنه في 1736 أقام روبرت دي كوت لكنيسة سانت روش أعمدة وقوصرة (مثلت أعلى الواجهة) كلاسيكية. وفيما بين 1743-1745 زود جان نيقولا سرفاندوني كنيسة سانت سولبيس برواق ضخم ذي طابقين في مدخلها، قائم على أعمدة دورية وأيوبية من طراز بلاديو الروماني الكنيبي، ولكن العمارة المدنية هي التي عبرت عن روح العصر وتحولت فيما بعد عدة قصور بنيت في تلك الفترة إلى وزارات وطنية أو دور للسفارات الأجنبية. من ذلك قصر ماتتيون 1721 الذي أصبح سفارة النمسا، ثم داراً لرئيس الوزراء، وقصر البوربون (1722-1750) الذي أدمج جزء منه في مجلس النواب، وقصر سوبيز (الذي عدل بناؤه 1742) والذي أصبح داراً للمحفوظات الوطنية.

وفي عهد المركيز دي ماريني، مدير المباني، ازدهرت أحوال عدد

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> فن العمارة

كبير من المهندسين المعماريين والمثاليين والرسامين ومهندسي الزخرفة، ووجد مساكن وأعمالاً لهم ورأى أنهم يؤجرون أجراً حسناً. وكان المهندس المعماري الأثير لديه هو جاك أنج جيراييل الذي ارتضى التقليد الكلاسيكي عن طبيب خاطر. وبعد صلح اكس لاشابل (1748) انهمك إدم بوشاردون في إقامة تمثال فارس للملك لويس الخامس

عشر، وعهد إلى جبريل بتصميم المكان الذي يحيط بالتمثال. فوضع حول مساحة مكشوفة بين حدائق التويلري والشانزليزليه، دائرة من "الدرابزينات" والحدائق الغائرة، وشاد في الطرف الشمالي قصر كحريون الحالي ووزارة البحرية الحالية، وكلاهما على طراز كلاسيكي بحت، وعمد إلى تزيين الميدان بإقامة أربعة تماثيل أسطورية سرعان ما أطلق عليها الباريسيون أسماء خليلات الملك-ميللي، شاتورو، بمبادور. وأطلق على الميدان اسم لويس الخامس عشر، ونسماه اليوم ميدان الكونكورد. وقد يسرنا أن نعلم أنه كان هناك ازدحام في حركة المرور منذ مانتني عام. وجيمس انجل جبرائيل هذا هو نفسه الذي شاد في 1752 المدرسة الحربية المتناسقة الأجزاء إلى حد بالغ والتي تضاهي رشاقة أعمدتها مثلتها في أية ساحة رومانية قديمة.

ولم تكن باريس هي وحدها التي جددت مبانيها وغبرت وجهها في هذا العصر ففي شانتيللي عهد دوق بوربون إلى جان أوبيرت بإقامة أسطبلات لحياده وكلابه، بلغت من الفخامة حداً يدعو إلى المقابلة بينها وبين أكوخ الفلاحين. وفي اللورين جعل ستانسلاس لوكزنسكي من نانسي واحدة من أجمل مدن فرنسا، وهناك أكمل بوفران بناء الكاتدرائية التي كان قد بدأها أستاذه جول هاردوين "انسار" وفيما بين عامي 1750-1757 أقام أمانويل هيري دي كورني "المدينة الجديدة" في نانسي: دار البلدية من طراز الروكوكو، وميدان ستانسلاس الذي يؤدي عبر حديقة عامة وقوس النصر إلى ميدان دي لاكاربير ودار الحكومة، وأحاط جان لامور ميدان ستانسلاس بحواجز من قضبان حديدية متصالية (1751-1755) هي أجمل ما صنع من نوعها في الفن الحديث. وأقامت ليون آنذاك ميدان

صفحة رقم : 12056

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> فن العمارة

كويس الأكبر وافتتحت كل من نانت وروان وريمس وبوردو ميدان الملك. وشادت تولوز مبنى فخماً للبرلمان، وأقامت روان نافورات جميلة وزينت الجسور الفخمة مدينة سنس. وعمت المنتزهات الواسعة نانت وبلوا ومونيلبيه. وفيما بين عامي 1730-1760 حول جان جاك جبرائيل بوردو إلى مدينة حديثة ذات ميادين شاسعة وشوارع واسعة ومنتزهات طرفة الهواء وواجهة جميلة تطل على المياه، وشيدت فيها المباني العامة على طراز عصر النهضة الرائع. وأخيراً تخطت العمارة الفرنسية الحدود، فعهد إلى رجال العمارة الفرنسيين بإقامة المباني في سويسرا وألمانيا والدنمرك وروسيا وإيطاليا وإسبانيا. وفي أواسط القرن وحين ضعفت قوة فرنسا العسكرية ومكانتها السياسية نجد أنها بلغت ذروة النفوذ والتأثير في مجال العادات والفن.

صفحة رقم : 12057

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> النحت

خاض النحت في تلك الحقبة معركة مريرة في محاولة للاعتراف به فناً هاماً كبيراً. وكانت مهمته قد اقتضت لعهد طويل على أن تكون زخرفية أو تزيينية. وفي عهد لويس الرابع عشر أقيمت التماثيل لتضفي زينة وبهاء على القصور الفخمة والحدائق الشاسعة. أما الآن فقد قل الاهتمام بالنحت لأن الولع بالبناء قد استنفد أغراضه كما استنزف فرنسا، وقبع الأغنياء في مبان أصغر حجماً، ولم تجد التماثيل الضخمة لها مكاناً في قاعات الاستقبال أو النوم. وشكا المثالون من أن الأكاديمية الملكية للرسم والنحت منحت معظم جوائزها للرسامين. واقترح بيجال أن يكون هناك مثال ملكي على غرار الرسام أو المصور الملكي، وأيد بشخصه حملة طائفة سان ميشيل لكسر التقليد الذي جرى عليه العمل وهو تكريم الرسامين وحدهم بمثل هذه المهمة. وانصرف المثالون على كره منهم إلى زخرفة البيوت بقطع صغيرة وبالزهرينات والنقوش البارزة، وسعوا إلى منافسة رسامي الأشخاص بأن يشكلوا الجسم الفاني في صورة خداعة من البرونز أو الحجر الذي لا يبلى، ما داموا يتقاضون الأجر. ولما تهياً لبعض هؤلاء المثالين مزيد

صفحة رقم : 12058

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> النحت

من الفرص للعمل اختاروا طراز الروكوكو الرشيق الطبيعي للعب المرح على حين ظلوا يحبذون وقار الخطوط الكلاسيكية.

وكما هو الحال مع الرسامين والحرفيين مال فن النحت إلى أن ينمو في أسرات بعينها. وساعد نيقولا كوستو أستاذه أنطوان كويسيفوكس في تزيين القصور الملكية في مارلي وفرساي، وضم الشخصيات العظيمة، رامزاً إلى أنهار فرنسا، وهي الآن في البلدية دار البلدية في ليون. ولا يزال تمثاله "النزول من الصليب" في كنيسة نوتردام دي باريس، و"الراعي الصياد" واحداً من اثنا عشر تمثالاً رائعاً تغالب الزمن والجو في حدائق التويليري. ونحت غليوم كوستو الأول الأخ الأصغر لنقولا، تمثالاً من المرمر لماري ليزك نسكا، مثل تمثال جونو (4) (زوجة جوبيتر في الأساطير الرومانية) كما نحت تمثال "جيا مارلي" القوية (1740-1745) لذلك القصر أساساً، ولكنها الآن متفرقة على اللجام في المدخلين الغربي والشرقي لقصر الكونكورد. أما ابنه غليوم كوستو الثاني، فقد حفر للدوفين مقبرة في كاتدرائية سنس.

وأنجبت مدينة نانسي أسرة أخرى من الفنانين فورث جاكوب سجسبرت آدم أبناءه الثلاثة النحت والعمارة، وقضى لميرت سجسبرت آدم عشر سنوات في درس والتحصيل في روما، عاد بعدها إلى باريس، حيث تعاون مع أخيه الأصغر نقولا سباستيان في إقامة نافورة "نبتيون وامفترت" (إله وإلهة البحر) ف يحائق فرساي ثم قصد إلى بوتسدام حيث حفر لفردريك الأكبر-هدية من لويس الخامس عشر-مجموعتين من الرخام صيد الحيوان وصيد السمك-لقصر سان سوسي. ثم رجع نقولا سباستيان إلى نانسي وشاد مقبرة كثيرين أو بالنسكا في كنيسة نوتردام دي بون سيكور، وثمة أخ ثالث، وهو فرانسوا بلتازار جسبار، أسهم في تزيين عاصمة ستانسلاس.

وهناك أسرة ثالثة من النحاتين بدأت بالمثال فيليبوكافيري الذي غادر لإيطاليا في 1660 ليعمل مع ابنه فرانسوا شارل في خدمة لويس الرابع عشر.



## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; عبادة الجمال -&gt; النحت

وثمة ابن آخر هو جاك كافيري الذي بلغ بعقريه الأسرة إلى الذروة متفوقاً على كل معاصريه في أشغال البرونز. وتنافست القصور الملكية كلها تقريباً في الإفادة من فنه في زمانه. وفي قصر فرساي اشترك مع ابنه فيليب في المدفأة في جناح الدوفين وفي صنع قاعدة برونزية من طراز الروكوكو لساعة الملك الفلكية المشهورة الآن. وتعد التركيبات والسنادات البرونزية التي صنعها للأثاث أثمن وأعلى قيمة من الأثاث نفسه(5).

وارتضى آدم بوشاردون-الذي أسماه فولتير "فيداس" فرنسا(6) (نحات أغريقي في القرن الخامس ق.م)-ارتضى تماماً كل القواعد الكلاسيكية التي نادى بها راعيه كونت دي كايوس. وجد لعدة سنين مناناً لتمثال بيجال خيل لهذا الأخير أنه غلب على أمره. وأورد ديبرو ذكر بوشاردون في قوله "لم أدخل قط إلى مرسم (ستوديو) إلا خرجت منه بشعور من القنوط سيطر على لعدة أسابيع"(7) ورأى ديبرو أن تمثال "الحب كيويبيد"(8) الذي صنعه بوشاردون مكتوب له الخلود، ولكنه لا يكاد يتلظى بنار الحب، وخير منه النافورة التي أقامها الممثل نفسه في شارع جرينل في باريس، وهي تحفة رائعة في جلالها الكلاسيكي وعظمتها وفي 1749 عهدت إليه المدينة بصنع تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر، وأكب على العمل فيه لمدة تسع سنين، وصبه في 1758، ولكن لم يمهله القدر ليراه قائماً وطلب إلى السلطات البلدية، وهو على فراش الموت 1762، أن تكل إلى بيجال إكمال المشروع، وهكذا اختتمت المنافسة التي طال أمدها بين هذين المثالين، فيما يبنى عن الإعجاب والتقية بينهما، ونصب التمثال في ميدان لويس الخامس عشر، ثم جاءت الثورة الفرنسية فحطمته 1792 باعتباره رمزاً بغيضاً.

ونبذ جان بابتيست ليموبين كل القيود والقواعد الكلاسيكية، لأنها تحكم على النحت بالفناء. لماذا لا يعبر الرخام أو البرونز مثل صور الألوان المائية أو الزيتية عن الحركة والوجدان والضحك والفرح أو الحزن مما تجرأت التماثيل الهلينية على أن تعبر عنه؟ وبهذه الروح صمم ليموبين

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; عبادة الجمال -&gt; النحت

مقبرتي كاردينال فليري والرسام بيير مينارد لكنيسة سان روش، وكذلك في تمثال مونتسكيو الذي نحته لمدينة بوردو، أبرز الممثل المؤلف "روح للقوانين" ساخراً مكتئباً شكاكاً، وسطاً بين سناتور روماني وفيلسوف إقليمى يسخر من أساليب الباريسين في حياتهم. وأصبحت تلك البسمة العابرة هي العلامة المميزة للعديد من التماثيل النصفية التي صنعها ليموبين بأمر من الملك لكثير من رجال فرنسا البارزين. وانتصر هذا الأسلوب التعبيري الممتع على كلاسيكية بوشاردون، وانتقل إلى بيجال وباجو وهودون وفالكونيه في عصر من اعظم عصور النحت في فرنسا.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

4- الرسم

كان الرسامون هم أصحاب اليد الطولى بين الفنانين آنذاك. وعكست سيطرة بوشيه مرة أخرى نفوذ النساء وتأثيرهن على الفنون، وأحست مركيزة بمبادور أن الرسامين قد أضاعوا كثيراً من الوقت مع أبطال الرومان وقديسي المسيحية وآلهة الإغريق، وقد أن الألوان لينظروا إلى فتنة الأحياء من النساء في أبهى حللهن وتورد خدودهن، ويبرزوا بالخطوط والألوان رشاقة العصر التي لم يسبق لها مثيل في تقاطيع الوجوه، وفي الثياب وفي العادات وفي كل الكماليات في حياة الأقلية الثرية. وكانت المرأة يوماً خطيئة، وهي تعلن أنها لا تزال خطيئة، لكن لا شيء إلا أن تكون أكثر إغراء وفتنة. إنها تأرت لنفسها من تلك القرون المرعبة التي أدلتها فيها الكنيسة ودمغتها بأنها أس البلاء، ومصدر اللعنة. وسمح لها بدخول جنة لا يغشأها إلا الخصيان بفضل عذرية أم الإله فقط. وليس ثمة شيء ينم في جراءة أكبر على اضمحلال الديانة في فرنسا من زحزة السيدة العذراء عن الفن الفرنسي.

وحل الملك والأرستقراطية ورجال المال محل الكنيسة في رعاية الفن. وفي باريس أصبحت أكاديمية سان لوك للرسامين منافساً ومستحقاً للأكاديمية الملكية للفنون الجميلة المحافظة المتمسكة بالقديم. وفي الأقاليم نشأت أكاديميات إضافية في ليون ونانسي ومنتز ومرسيليا وتولوز وبور وكلمبرنت

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

فراند وبو وديجون وريمس. وفضلاً عن جائزة روما السنوية وضعت اثنتا عشرة مسابقة وجائزة، بعثت في دنيا الفن حركة دائبة واهتياجاً شديداً، وفي بعض الأحيان كان الملك أو غيره من رعاة الفن، يواسون من لم يفوزوا في هذه المسابقات بشراء بعض لوحاتهم أو منحهم بعض المال الذي يكفل لهم الإقامة لبعض الوقت في إيطاليا.

وعرض الرسامون لوحاتهم في الشوارع، وفي بعض الأعياد الدينية كانوا يثبتونها في الستائر التي تتدلى من نوافذ الأتقياء في الطرق التي يمر بها الموكب الديني. ورغبة في تعويق ما بدا للفنانين المعترف بهم أنه نهج غير ملائم، استأنفت الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة في 1737 وبعد انقطاع ثلاث وثلاثين سنة، إقامة المعرض العام للرسم والنحت المعاصرين في "القاعة المربعة" في متحف اللوفر. وهذا المعرض السنوي أو الذي كان يقام كل عامين بعد 1751 أصبح في أواخر أغسطس وطوال سبتمبر حدثاً مثيراً في الحياة الفنية والاجتماعية في باريس، وفي دنيا الأدب، وجعل الصراع بين المحافظين في الأكاديمية والمتمردين داخلها أو خارجها، من الفن معركة تنافس معارك الحديث عن الجنس بل معارك الحرب الحقيقية في أحاديث الناس في العاصمة. واحتقر أنصار الخطوط البسيطة المحتشمة غير المبالغ في زخرفتها، والتهديب الذي يعاون على الإصلاح كما كانوا هم أنفسهم موضع احتقار -أنصار

اللون والتجريب والابتكار والحرية. وأصبح النقد الفني عملاً ناجحاً. وكانت "تأملات في فن الرسم" للكونت دي كابوس تقرأ في إسهاب على الملأ في الأكاديمية. وروى جريم أنباء المعارض لقراء رسائله. وتخلّى ديدرون عن هجومه على المسيحية ليصبح واحداً من أشد الفنانين معارضة في ذلك العصر. وأثار الحفرون على الخشب والمعادن مثل جاك لي بلون ولورنت كارز الهياج بنشر نسخ مطبوعة من الأعمال المشهورة وتزيين الكتب بالصور، وإنتاج روائع من عملهم هم أنفسهم. وكان لي بلون أول من بدأ الحفر بالألوان في 1720. ولم يكسب الفنانون قط من قبل، اللهم إلا في مجال الفنون الدينية،

صفحة رقم : 12063

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

مثل هذا الجمهور المتحمس، أو مثل هذه الرعاية على نطاق واسع. ويأت الرسام الآن يوجه نشاطه إلى العالم بأسره.

أ - في حجرة الانتظار

ارتفع عدد كبير من الرسامين إلى قمة المجد في تلك الحقبة، حتى أنه ليشق علينا هنا مجرد ذكرهم، ولسوف نعرض في تفصيل أكثر لبوشيه وشاردان ولاتور، ولكن هناك من قد يزعجهم إغفالنا ذكرهم. فهناك الرسام المبرز جان فرنسوا دي تروبي، ولكنه كانت تعوزه الحيوية، وكان رسمياً إلى درجة لا يصلح معها أن يكون عظيماً. وأحبه الجميع، ووافق إلى حد مبير على أن يستخدم ملامح وجهه وكأنها ملامح وجه السيد المسيح "الأم المسيح في البستان(9)" ووجد في إغراء السيدات لذة أكثر منها في رسمهن، وترك وراءه كثيراً من القلوب الكسيرة المحطمة والأعمال المشوهة، وزخرف فرنسوا ليموبين (ويجب ألا تخلط بينه وبين المثال جان بابتيست) عقد قاعة هركيول في قصر فرساي بنحو 142 شكلاً ضخماً، ونقل إلى تلميذه بوشيه فن إحلال اللون الوردي الذي تؤثره مدام دي بمبادور محل اللون الأسمر المائل للحمرة في لوحات رامبرانت واستبق شارل أنطوان كوبيل، وهو ابن وحفيد لرسامين، شاردان في رسم مشاهد الحياة اليومية وأحداثها، وقد التقينا به رساماً للوصي، وفي 1747 أصبح الرسام الأول للملك لويس الخامس عشر.

وقد سر فرديريك الأكبر باقتناء لوحته "سيدة أمام المرأة" لقصر سان سوسي، ولا يزال اللوفر يعرض لوحته "الحب والأميرة فانتة الجمال التي أحبها كيوبيد" من نسيج الجوبلان المنقوش، وهي تركيب نفيس من طبيعة بشرية وقماش. وحظي جان مارك ناتيبير بشعبية ورواج في رسم الأشخاص لأنه عرف، عن طريق الوضعة (كيف يكون وضع المرء أمام الرسام) واللون وحركة الضوء، كيف يخلص الجالسين أمامه من العيوب أو التشويهات التي أصابتهن بفعل الوراثة أو أحداث الحياة، حتى أن كل السيدات اللاتي

صفحة رقم : 12064

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

رسمهن، فيما عدا واحدة، سررن حين وجدن أنفسهن في لوحاته، فانتات مغريات كما اعتقدن دائماً في أنفسهن. ولوحته "مدام دي بمبادور" معلقة في فرساي، بشعرها الجميل الملون بلون خفيف، وعينيها الوديعتين اللتين لا تكادان تكشفان عن لهفتها على السلطان والسيطرة وتنافس الملوك والملكات على الظفر بالفنان ناتيير. فقد رسم ماري لركزنسكا سيده برجوازية تشرع في القيام بنزعة في الريف (10) وأنصف كل الإنصاف جمال أدليد (11) ابنة الملكة. وعندما زار بطرس الأكبر باريس رسم ناتيير لوحته له ولزوجته القيصر، ودعاه بطرس للانتقال إلى روسيا فأبى، فما كان من القيصر إلا أن حمل اللوحتين دون أن ينقده أجراً. وأحضر جاك أندريه أفيد المولود في الفلاندرز بعض لوحات فلمنكية واقعية تصور الناس كما هم، ولا بد أن ميرابو الأكبر جزع عندما رأى نفسه كما رآه أفيد فسوره (12). ولكنها على أية حال من أعظم لوحات هذا القرن.

وعلى كل هؤلاء السادة الجالسين في حجرة الانتظار حتى على بوشيه وشاردان نجد جريم وديدرو يؤثران كارل فانلو، وهو سليل أسرة كبيرة من الرسامين تحمل اسم فانلو، نعرف منهم تسعة بأسمائهم. ولد في نيس 1705. واصطحبه معه رفيقه الرسام جان بابنتست إلى روما حيث درس بالأزميل والفرشاة معاً. وفي باريس فاز بجائزة روما 1724، ثم قضى في إيطاليا فصلاً دراسياً آخر، عاد بعده إلى فرنسا وأراضي الأكاديمية وأغضب بوشيه، بأتباعه كل القواعد الأكاديمية. وحيث أنه أفزع كل جهده وقضى كل وقته في الاشتغال بفنه، ولم يدخر منه شيئاً ليتعلم القراءة والكتابة والعادات القويمة والحديث المهذب، فإن مدام بمبادور نفرت منه ف شيء من الاشمئزاز (13) بأنه "وحش مزعج" ومع ذلك عهدت إليه برسم (مناقشة إسبانية). ولفترة وجيزة ارتضى مزاج العصر، ورسم سيدات متشحات بأردية ملتصقة بأجسامهن، ولكنه سرعان ما ركن إلى الرزانة والهدوء في حياة أسرية نموذجية، فخوراً بزوجه البارعة المصقولة ولوعاً بابنته كارولين. وفي 1753 اشترك مع بوشيه في زخرفة قاعة المجلس

صفحة رقم : 12065

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

الرائعة في قصر فوننتبلو، وبلغ درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أنه عندما اتخذ مقعده في الكوميدي فرانسيز، بعد مرض عضال كاد يودي بحياته، نهض الحاضرون وحيوه وصفقوا له مظهرين بهذه العلاقة الوثيقة بين الفن والأدب في هذا العصر الذي تميز بتقافة عالية. وسجل جان بابنتست أودري رحلات الصيد الملكية في أعمال النقش والرسم على القماش. واختارته الملكة معلماً لها. وكانت تتولاها الدهشة والعجب حين تراقبه وهو يعمل. وزودت بعض قطعه المنقوشة نساجي القماش بتوجيهات ونماذج ممتازة يهتدون بها في عملهم، وسرعان ما عين أودري مديراً للمصنع الملكي في بوفيه، فلم يجد هناك إلا الفوضى والتدهور، فأعاد تنظيم العمل في حزم وشدة، وأثار هم العمال بحماسة؛ وصمم لهم سلسلة من قطع النسيج المزدان بالرسوم، موضعاً بصور الحيوانات المبهجة قصص لافونتين الخرافية. وهناك أيضاً وضع الرسم التمهيدي للمجموعة الأخاذة من النساء والوحوش المعلقة في اللوفر، في "ديانا دي بورتير". وتملكت النساجين في الجوبلان الغيرة من النجاح الذي أصابه مصنع بوفيه، فاقنعوا الملك بنقل أودري إلى المصنع القديم، وهناك أفنى نفسه في صراع مرير لحمل النساجين على قبول الألوان التي وضعها. وفي الوقت نفسه أسهم في كل من بوفيه وباريس في

تدريب المواهب والقدرات المتشعبة لدى أكثر فناني منتصف القرن في فرنسا امتيازاً وتألقاً، وأكثر من نال منهم تعنيفاً قاسياً.

ب - بوشيه

1770 - 1703

استمع إلى دييرو وهو يتأمل في لوحات بوشيه العارية: أية ألوان، وأية تشكيلة، وأية وفرة في المواد والفكار! إن هذا الرجل توفر لديه كل شيء إلا يصدق. إن انحطاط الذوق واللون، وأسلوب التركيب، والشخصية والتعبير، كل هذا تبع خطوة بخطوة انحلال الخلق.... وماذا عسى هذا الرجل أن يرسم إلا ما تصوره في خياله؟ وماذا يمكن أن يتخيل رجل يقضي حياته برفقة نساء المدينة؟..... إن هذا الرجل

صفحة رقم : 12066

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

لا يمس بفرشاته إلا ليبرز الأرداف والصدور. إنه لا يدرك ما هو الجمال.... فإن الكياسة والأمانة والبراءة والبساطة أصبحت كلها غريبة عليه. إنه لم ير الطبيعة لحظة واحدة قط، وعلى الأقل الطبيعة التي تدخل البهجة على نفسي، وعلى نفسك، مثل طفل كريم المولد، أو امرأة ذات وجدان حي. إنه مجرد من الذوق.... والواقع إنه في تلك اللحظة بعينها، عين الرسام الأول للملك (1765)(14)". ويحتمل ألا يكون بوشيه قد اطلع على هذا النقد قط لأنه كان موجهاً إلى قراء جريم الأجنبي. فلنلق نحن نظرة على الفنان دون نية مبيتة للحقد عليه أو الإساءة إليه.

كان بوشيه ابناً صميماً من أبناء باريس. وكان أبوه يشتغل بوضع التصاميم، يملك محلاً بالقرب من اللوفر، ولقن ابنه فرنسوا مبادئ الرسم والنحت، وإذ أظهر الفتى استعداداً وموهبة فقد تتلمذ على النقاش لورنت كارز ثم على الرسام فرنسوا اليمويين. وحيث اشتغل برسم المشاهد للأوبرا، فإنه اجتمع هناك بنفر من الممثلات وبنات الفرقة الموسيقية. وانغمس في مبادئ عهد الوصاية، بقدر ما أتاحت له إمكاناته(15) ويروي لنا إنه وقع مرة في حب رومانتيكي مع بائعة فاكهة جميلة اسمها روزيت، وبدا له أنه قد تجسدت فيها البساطة والطهارة معاً، فاتخذ منها نموذجاً للوحة لمريم العذراء، أفرغ فيها كل ما تبقى له من تقوى طفولته وصباه. ولكنه، وهو لم يكمل بعد هذه اللوحة انزلق إلى اتصال جنسي غير شرعي، وحين حاول أن يكملها أفلت من الوحي والإلهام، كما أفلتت من روزيت. ولم يسترجع قط لحظات هذا الخيال الرقيق اللطيف(16).

وتطورت مهارته وتمت بسرعة تحت إرشاد ليمونيين. وفي هذا المرسم تعلم شيئاً من نزعة كوريجيو إلى الأشكال النسوية ذات النقاط الكلاسيكية والرقّة الناعمة. وفي قصر لكسمبرج درس اللوحات الزيتية المتألقة على القماش التي كان روبنز قد حول فيها الحياة لماري مديتشي إلى ملحمة من اللون "وعظمة الشباب". وفي 1723، وهو في سن العشرين فاز بجائزة رومه

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; عبادة الجمال -&gt; الرسم

التي أهلتها للإقامة الكاملة في باريس لمدة ثلاث سنوات، مع راتب قدره 300 جنيه، ثم أربع سنوات في روما. وأنا لنحصل على صورة حياة الطالب في عهد الوصاية إذا علمنا أن رفاق الفائز بهذه الجائزة حملوه على الأكتاف وطافوا به حول ميدان اللوفر.

وفي 1727 رافق كارل فانلو إلى إيطاليا. ويقول مدير الأكاديمية الملكية الفرنسية في روما وجد "للشباب الصغير المدعو بوشيه... جحراً صغيراً في غرفة، وأسكنه فيه، وأخشى ألا يزيد حقيقة عن جحر، ولكنه على الأقل سيقوم تحت سقف (17). ولكن لم يكن لزاماً على الشباب المتواضع، كما وصفه المدير، دوماً أن ينام في هذا الجحر، لأنه وجد كثيراً من المضاجع ترحب به في روما. وإنه لمن علائم تغير الذوق إنه لم يبد ولعاً بأعمال رافاييل أو ميكل أنجيلو، ولكنه عقد أواصر الصداقة مع تيبولو (رسام فينيسي 1696-1770).

ولما عاد إلى باريس (1731) استمر يوقد الشمعة من طرفيها (بمسك بالعصا من وسطها)، ونادراً ما كان يقنع بشيء إلا المعرفة المباشرة بنماذجه، ومع ذلك وجد فسحة من الوقت ليرسم بعض لوحات رائعة مثل "اغتصاب يوروبيا" في الأساطير اليونانية (أميرة فينيقية أحبها زيوس واختطفها) وهي من بين عروضه التي لا تحصى لشكل المرأة. وخيل إليه في 1733 أنه وقع على فينوس نفسها في نموذجه جين بوزو، وعلى الرغم من أنه أحس "بأن الزواج لا يلتئم معه" (18) فإنه اتخذ منها زوجة، ولم يرع عهد الزوجية إلا قليلاً. وكالت له هي بنفس الكيل. ومن المحتمل أنها جلست أمامه ليرسم لوحة "رينوو أرميد (19)" التي كسبت له العضوية الكاملة في أكاديمية الفنون الجميلة (1734). وحينذاك عهد إليه لويس الخامس عشر برسم مناظر سارة في حجرة نوم الملكة التي كانت لا تزال تتمتع بحبه، وعند إعادة افتتاح المعرض 1737 اتسعت شهرة الفنان وكثر رعايته. ولم يذق بعد ذلك طعم الفاقة، ولم يعد له منافس. وتخصص بوشيه في رسم "العاريات" وحتى زواجه لم يكن قد تربيث

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; عبادة الجمال -&gt; الرسم

طويلاً إلا نادراً مع امرأة واحدة ليكشف شيئاً أكثر من بشرتها. ولكنه كان قد وجد أن ذلك المظهر الخارجي ممتع بلا حدود، وبدا أنه عقد العزم على رسمه من كل الأركان والزوايا، وفي كل الأشكال والأوضاع، من الشعر الأشقر الحريري الناعم إلى الأقدام العارية التي لم تنتعل قط. وكان بوشيه هو الروكوكو قلباً وقالباً. ولكنه كان أكثر من ذلك. وعلى الرغم من أن النقاد المتأخرين عابوا عمله من الناحية الفنية، فإنه كان بالفعل فناناً حاذقاً في التأليف واللون والخط، على أنه ف بعض الأحيان تعجل في العمل، ولم يعط الفن حقه رغبة في سرعة

الحصول على الأجر، وهلل كثير من المعاصرين إعجاباً بروح التأثيرية الثورية في لوحاته وخصوبة خياله والرشاقة البسيطة في خطوطه. وقال دييرو الذي ناصبه العداء، "لم يعرف أحد قدر ما عرف بوشيه، فن الضوء والظل (20) وكاد أي فرع من الرسم والتصوير ألا يروغ من مهارته. إن هؤلاء الذين لا يعرفون منا إلا بعض لوحاته الزيتية وقطعه المصورة على القماش ليدهشون إذ يعلمون أن "شعبية بوشيه ترجع إلى رسوماته قدر ما ترجع إلى لوحاته الزيتية (21). وكانت رسوماته مادة ثمينة طيلة حياته، وتنافس في الحصول عليها مشاهير جامعي الرسومات. وكانت تشتري لتستخدم مساند أو حوامل، وتعلق في حجرات النوم والجلوس على الجدران، وكانت من عجائب الاقتصاد-نقرة في الخد تعبر عنها نقطة أو بقعة صغيرة وبسمة يطبعها خط، وكل بريق وحفيف التتورات الحريرية ينبثق في إعجاز من قطعة من الطباشير. ومن المحقق أنه ليس من أجل الثروة وحدها، ولكن بفضل العبقريّة والخيال المتفجرين فيه، يضيئان عينيّه ويقودان يديه، أكب بوشيه على العمل عشر ساعات يومياً في رسمه، تاركاً بصماته على كل شيء يلمسه تقريباً. فضلاً عن ألف لوحة، رسم بوشيه المراوح وبيض النعام والخرف والرصانع والستائر والأثاث والمركبات ومناظر المسرح وجدران وسقوف المسارح. وقصدت كل باريس النشيطة لترى الزخرفة التي أعدها خلفية (لباليه نوفير " الأعياد

صفحة رقم : 12069

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

الصينية" 1754. ولم يكن به ميل شديد إلى المناظر الطبيعية، لأنه كان سفير أفروديت إلهة الحب والجمال إلى اللوفر، ومع ذلك احتفظ بشخصياته البشرية في الغابات والحقول، بجوار المياه الفوارّة والأطلال الظليلة وتحت السحب البيضاء في السماء الزرقاء، وشمس دافئة تغري بحرارة الدم وتطريها. وربما ظن المرء أن مشاهد الحياة اليومية لا تلائمه، ومع ذلك رسم لوحة "منظر أسرة" وأبرز وكأنما أراد أن يحرر نفسه من عبودية الجمال-فناء المزرعة وحظيرة الماشية وبرج الحمام، وعربية اليد، والأنقاض في الفناء الخلفي، والحمير تروح تحت أحمال من الأوعية والأنية التي تحدث قعقة. واستكمالاً لذخيرته أصبح أعظم مصمم لرسوم النسيج في هذا القرن. وفي 1736 دعاه أودري إلى مدينة بوفيه ليضع تصميمات للنساجين هناك حيث بدأ بأربعة عشر رسماً لمناظر قروية إيطالية (22). وقد لاقت هذه الرسوم نجاحاً كبيراً إلى حد أنها نسجت اثنتا عشرة مرة على الأقل قبل وفاته. ثم انتقل إلى موضوع أكثر نموذجية "قصة الأميرة الفاتنة" خمس استار تعلق على الجدران، شكلتها مدام بوشيه، وهي من التحف الرائعة في فن القرن الثامن عشر. وتوج أعماله بست قطع من النسيج المزديان بالرسوم والنقش أطلق عليها "الحياة الريفية الكريمة" (23) إحداهما وهي "صائد الطير" تمثل حبيبين فانتين من أروع ما أخرج من حريير والصوف. وشكا النقاد من أنه بسبب أودري وبوشيه أصبح النسيج المزديان بالنقوش أقرب شياً باللوجات الزيتية، وأنه فقد خصائصه المميزة. ولم يأبه لويس الخامس عشر بهذا كثيراً، لأنه عندما توفي أودري (1755) رقى بوشيه إلى رئيس مصانع الجوبلان.

وفي الوقت نفسه حظي الفنان المنتصر الظافر برعاية بمبادور المتقدة حماسة وغيره. فزخرف لها قصر "المنظر الجميل" وصمم أثاثه. وللمسرح الذي سعت به إلى الترفيه والتسرية عن الملك رسم المناظر وابتكر الملابس ورسم لها عدة لوحات آية في الجمال الأخاذ والرقّة يحار الناظرون إليها في الحكم عليها. وإن الاتهام بأن بوشيه لم يصل قط إلى ما وراء الجسد قد

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; عبادة الجمال -&gt; الرسم

سقط الآن وأخرس، فإنه لم يهيئ لنا إن نرى كثيراً من مفاتن جسد العشيقة قدر ما هيأ لنا أن نلمس مناقب الذكاء والرفقة التي حببتها إلى الملك، والاهتمام بالثقافة الذي جعل منها معبودة الفلاسفة، والذوق الفني النسوي الرفيع في الثياب الذي أضفى في كل يوم فتنة جديدة على مفاتن الجسد العانية. ويفضل هذه اللوحات ولوحة الرحلة-لاتور "استطاعت بمبادور تذكير الملك في هدوء بالجمال الذي ولى والفتنة الأرق التي بقيت. وربما استخدمت بمبادور كذلك لوحات بوشيه الحسية الشهوانية في إرضاء رغبة الملك الجنسية القوية. ولا عجب إذن في أنها جعلت من بوشيه صديقاً أثيراً لديها، ووفرت له جناحاً في اللوفر، وتلقت عنه درساً في النقش، وبحثت معه مشروعاته في زخرفة قصورها، والارتقاء بالفنون. ورسم لها (1753) لوحتين من أعظم لوحاته الشروق والغروب "(24) وفي كلتا اللوحتين، بطبيعة الحال، كانت الأشكال البشرية تفوق الشمس بهاء ويريحاً.

وعمر بوشيه بعد بمبادور، وبعد الحرب الفاجعة مع إنجلترا وفردريك الأكبر، وظلت أحواله في ازدهار إلى سن السابعة والستين حيث وافته المنية. وتكاثر عليه التكليف بعمل اللوحات، وأصبح ثرياً، ولكن لم تقل حماسته وغيرته في العمل عن ذي قبل، وطهر ثروته بالبذل والسخاء. وكان عربيداً محسناً خيراً، لا يكل ولا يمل من الفسق والدعارة ولكنه دائماً أبداً مرح ودود، "الطيب كريم غير متحيز، يناهى بنفسه عن الأحقاد الدنيئة.... به مناعة ضد التلطف الحقيق على كسب المال"(25) وكان متعجلاً في عمله إلى حد لم يبلغ معه قمة الامتياز. وأطلق لخياله عنان الحرية إلى درجة لم يلمس معها جوانب الحقيقة والواقع. وأبلغ رينولدز أنه ليس في حاجة إلى نماذج، وأنه يؤثر الرسم من الذاكرة، ولكن ذاكرته جاءت بأشكال مثالية. ولما لم يصب له الواقع ذاكرته، فإنه بات مهملاً في رسمه مبالغاً في ألوانه. واتهمه جريم وديرو وأخرون بأنه أخطأ فحسب الظرف واللفظ جمالاً، وأنه هبط بجلال الفن إلى مجرد

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; عبادة الجمال -&gt; الرسم

زخرفة سطحية ذات مظهر خداع، وبأنه افسد أخلاق العصر بإعلاء قيمة مفاتن الجسد. وعاب عليه ديرو واستنكر ابتسامته المتكلفة وتصنعه... وشامات الجمال، واللون الأحمر على الخدود... ونساءه العابثات، ورجاله الفاسقين الشهوانيين وأولاد باخوس وسليينوس غير الشرعيين (إلها الخمر والعريضة في الأساطير اليونانية)(26) ومات بوشيه وهو يعمل في رسمه تاركاً على الحامل لوحة لم يكملها "تزين فينوس" وكأنما يتحدى بها ديرو. وعندما سمع ديرو بموت الفنان أحس بالندم وقال "لقد أسأت إلى بوشيه كثيراً بكلامي عنه، وإني لأكف الآن عن الحديث عنه.(27) ولنكتف نحن بهذا القدر.



كم اختلف عالم بوشيه عن دنيا شاردان-أي تباين بينهما في مفاهيم الجمال وفي الخلق والذكاء! كانت هنا تقريباً حرب طبقية، ثورة الطبقة المتوسطة ضد الأبيقورية المسرفة المبذرة عند رجال المال والأرستقراطية والحاشية. ولد جان مابنتست سيمفون شاردان برجوازيًا، وظل برجوازيًا قانعاً، وصور الحياة البرجوازية في إخلاص بالغ. وكان أبوه معلم نجارة ذا مكانة عالية في نقابته، يمتلك داراً في شارع السين على الضفة اليسرى من النهر، ولما كان يظن أن ابنه جان سيخلفه في مهنته، فإنه لم يعن بتعليمه في المدرسة قدر عنايته بتدريبه على الأعمال اليدوية. وأسف شاردان على ما فاتته من تعليم وعلى ضآلة ما حصل منه، ولكن هذا منعه من ارتياد مجالات الفن القديمة، فولى وجهه وفرشاته شطر الأشياء التي حوله في المصنع والبيت. وسرعان ما أحب الرسم وتلّفه على التصوير، وسمح له والده بالالتحاق بمدرسة بيير جاك كيز، ثم بتسجيل اسمه رساماً في البلاط الملكي.

ولم يكن الشاب سعيداً هناك، فإن النماذج التقليدية التي طلب إليه أن ينسخ عنها بدت بعيدة بشكل مخيف عن الحياة التي عرفها وألفها. وعندما طلب إليه جراح صديق لوالده أن يعد له لافتة تعلن عن مهنة الحلاق الجراح، وتبرز أدواتها، فإن جان-وربما تذكر عند ذلك شعار الرسام

صفحة رقم : 12072

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

اتو لجرسانت-رسم لافتة ضخمة تمثل رجلاً جرح في مبارزة، يقوم على العناية به جراح ومساعدته، ومن حسن التدبير أضاف إلى هذا سقاء وشرطياً وبعضاً من حرس الليل، ومركبة، وامرأة تحديق النظر من نافذتها، وحشداً من المتفرجين يحملون من فوق الرؤوس كل أولئك في منظر رائع عن الصخب والإيماءات والإثارة. وغضب الجراح ورأى أن يلقي باللافتة عرض الحائط، ولمنها جذبت انتباه المارة ونالت استحسانهم إلى حد كبير إلى درجة أن الجراح استبقاها على بابيه، ولم نسمع بعد ذلك شيئاً عن شاردان، حتى كان عام 1728، حين حظيت بإطراء خاص، لوحته "السمكة" ولوحته "الخوان" (البوفيه)-طبق فضي فيه فاكهة-في معرض في الهواء الطلق في ميدان الدوفين. ودعا بعض أعضاء الأكاديمية ليطلب الانضمام إلى عضويتها. ودبر أن يعرض بعض من لوحاته هناك غفلاً من اسمه، فأعلن من رأوها أنها تحف رائعة، ونسبوا إلى فلمنج، ثم اعترف شاردان بأنه صاحبها، فاستكروا هذه الخدعة، ولكنه على أية حال فاز بعضوية الأكاديمية (1728).

وفي 1731 خطب مرجريت سنكتار التي وعده أبواها بصدق كبير، ولكن في فترة الخطوبة مني الوالدان بخسائر جسيمة وفارقا الحياة، تاركين مرجريت لا تملك شروى نقير، وتزوجها شاردان على الرغم من ذلك، وهياً لهما أبوه مسكناً في الطابق الثالث من منزل كان قد اشتراه حديثاً على ناصية شارع دي فور وشارع البرنسيس. وهناك أقام الفنان مرسمه الذي كان أيضاً مطبخه، فقد اختار الآن بصفة نهائية أن يرسم الحياة الهادئة ومشاهد الحياة اليومية. وأصبحت الخضر والفاكهة والسّمك والخبز واللحم كل الأشياء التي تبعثرت في أنحاء الغرفة، نماذج لفرشاته تارة، وصنوف قائمة طعامه تارة أخرى.

وافتنن شاردان بالأشكال والألوان المتغيرة في الأشياء العادية، ورأى فيها خصائص في البيئة والتركيب والضوء قلما تحفظها العين الغافلة. فإن جانبي التفاحة أو خديها كانا بالنسبة له يحملان طابعاً رومانتيكياً مثل تورد

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; عبادة الجمال -&gt; الرسم

وجنتي العذراء، وبريق السكين فوق مفرش المائدة الأخضر تحدها أن يمسك به في حركته السريعة، ويحاول تثبيته في فنه. وأبرز هذه الأشياء الصغيرة البسيطة في أمانة وتبصر، وبراعة فنية في اللون والمناسيب والضوء والظل، مما لم يتيسر إلا لقلّة من الفنانين أن يبلغوه. وإنما ننظر إلى هذه الأشياء الطبيعية المينة، ونحس بأنها حية وإنما لم نرها رؤية صادقة قط من قبل، وإنما لم نتحقق قط من تعقيد أشكالها وتقردها، ومن الفروق الدقيقة بين ظلال ألوانها، ولم يجد الشعر فقط في إناء من الأزهار أو عنقود من العنب، بل في رجل قديم محطم، وفي جوزة، وفي قشرة برتقالة، وفي فتات كسرة من الخبز. ففي هذه كلها شعر دائماً كما كان الفلمنكيون والهولنديون قد عرفوا من قبل، ولكن من في فرنسا بوشيه وبمبادور خامره يوماً شعور بوجود هذا الشعر. وكان جمال هذه الأشياء بطبيعة الحال في عين الرائي أو المشاهد أو بالأحرى في نفسه. إن شعور شاردان القوي وبصيرته النافذة وفقره كل أولئك هو الذي جعل من مخزن حفظ الأطعمة قصيدة غنائية، ومن قائمة الطعام ملحمة شعرية.

وكل إنسان يعرف هذه القصة-أو الأسطورة؟-كيف انساق شاردان إلى رسم الأشكال البشرية. إنه سمع ذات يوم صديقه أفيد يرفض 400 جنيه أجراً لرسم لوحة لأحد الأشخاص، فعجب شاردان أشد العجب، وهو معتاد على الجور الضئيلة، لهذا الرفض. فما كان جواب أفيد إلا أن قال "هل تظن أن رسم إنسان سهل مثل رسم مرق التوابل (الصلصة). (28). وكانت سخرية لاذعة، ولكن مفيدة. إن شاردان كان قد ضيق مجال موضوعاته تضيقاً شديداً، وسرعان ما كان يمكنه أن يشبع رغبات زبائنه وعملائه في الأطباق وألوان الطعام، وعقد العزم على رسم الأشخاص، وكشف في نفسه عن عبقرية في رسم الأشخاص في رقة وتعاطف، وكان هو الذي هيا لهذه العبقرية أن تخدم. وقبل التحدي من فورهِ. ورسم لوحة لصديقة أفيد نفسه، "المتأخر" (29). وأتبعها بلوحة أحسن منها "دار لعب الورق". ولكن هنا أيضاً كان التفوق والامتياز

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; عبادة الجمال -&gt; الرسم

في الملابس لا في الوجوه. وفي لوحة "الطفل والخدوف (النحلة)" خطأ شاردان خطوته الثانية: اليقان بشعتان بعض الشيء، ولكن الوجه ينبئ عن عقل سليم. ووجد هذا الاعتناق الرقيق منفذاً في رسمه للبنات، كما هو الحال في التحفتين الرائعتين اللتين تضمهما مجموعة روتشيلد: "بنت تلعب تنس الريشة"، وأخرى "تتسلى بتناول غذائها". إن شاردان لم ير في النساء الأجراء الياسم الذي أثار بوشيه، بل رأى فضائل وخصائص الزوجية والأمومة التي هي عماد الدولة، وهي التي تقودها إلى طريق الخلاص. ومع شاردان دخلت سيدات الطبقة المتوسطة مجال الفن

الفرنسي، وحصلت على حقها فيه. إن هذا الفنان عرفها وأحبها في كل ما تقوم به من خدمات جليلة أسرة: إحضار الطعام من السوق، سحب الماء، تقشير السلجم، لف الصوف، العناية بالمريض، تحذير التلميذ من إهمال واجبه أو التهرب منه، أو كما أبرز شاردان في أشهر لوحاته "الخير والبركة" (30) الإمساك عن الطعام حتى تكف صغرى البنات، ويدها الصغيرتان مضمومتان، عن الصراخ والبكاء ويشيع في وجهها ابتسام الرضا، ورأى المرأة دائماً في ملابس البيت، غير متبرجة، في حركة دائبة، تخدم زوجها وأولادها من الفجر وصلاة الصباح إلى أن يأووا جميعاً في أمان إلى فراشهم ويندثروا. وإننا لنرى من خلال لوحات شاردان باريس وهي أكثر حكمة وأكبر عقلاً من الحاشية، لا تزال متعلقة بالأخلاق القديمة والعقيدة الدينية التي وفرت لها عوناً روحياً. وهذا هو أعظم فن نفعاً وصحة في كل تاريخ الفن.

إن هذه الصور التي يهمل لها العالم الآن لم تلق إلا رواجاً محدوداً جداً آنذاك، ولم تأت للفنان إلا بفرنكات معدودة تقيم أوده في بساطة قانعة. ولم يساوم مع عملاءه، وباع اللوحات بأي ثمن عرضوه عليه تقريباً، ولما كان يعمل في بطء وكد وجد، فإنه أنهك نفسه في فقر نسبي، على حين أن بوشيه استنفد جهده في يسر ورخاء. ولما توفيت زوجته الأولى بعد أربعة أعوام فقط من الزواج، آل مسكنه إلى حالة شديدة من الفوضى وسوء

صفحة رقم : 12075

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

النظام. وكأنه مسكن طالب، ألح عليه أصدقاؤه أن يتزوج ثانية، ولو ليحظى بيد امرأة رشيقة وسيدة تعيد النظام إلى بيته. وتردد تسع سنين ثم تزوج الأرملة مرجريت بوجيه. وهو في بساطة زواج مصلحة. وجاءت له مرجريت بصداق متوسط، يشمل بيتاً تملكه (13 شارع البرنيسيس)، فانتقل إليه. حيث وضعت خاتمة لفقره وعوزة، وكانت سيدة فاضلة وزوجة شديدة التدقيق. وتعلم هو أن يحبها شاكراً ممتناً.

وزيادة في معونته من الناحية المالية خصص له الملك (1752) راتباً قدره 500 جنيه، وعينته الأكاديمية (1754) أميناً للصندوق فيها، وسرعان ما عهدت إليه بترتيب اللوحات المقدمة إليها في قاعات العرض فيها، ولكنه لم يصلح لهذه المهمة مطلقاً، ولكن زوجته ساعدته فيها. وفي 1756 أفتع صديق نقاش-هو شارل نيقولا كوشان الثاني-ماريني بأن يخصص لشاردان غرفة مريحة في اللوفر. وهذا هو كوشان نفسه الذي كان تواقاً إلى إبعاد شاردان عن تكرار صور المطبخ، فحصل له على تكليف برسم ثلاث لوحات، لتوضع (فوق الباب) لقصر ماريني. فأخرج شاردان في جد واجتهاد (1765) "خصائص الفن" وخصائص الموسيقى (32) ثم حصل على تكليف آخر برسم لوحتين شبيهتين لقصر مدام دي بمبادور "المنظر الجميل". ولسوء الحظ لم يدفع المبلغ الموعد للوحات الخمس حتى عام 1771. وفي نفس الوقت كان الفنان تتقدم سنه ويفقد مهارته. ففي 1767 نرى ديدرو الذي كان قد رحب بعمله وأثنى عليه بوصفه "روح الطبيعة والحقيقة" يقول في أسى وأسف "إن شاردان رسام ممتاز لمشاهد الحياة اليومية، ولكنه يذوي ويذبل (33)". وكانت لوحات لاتور المرسومة "بالبستل" تأخذ بمجامع الألباب في باريس. وفي غمرة المنافسة أخذ شاردان نفسه الطباشير والورق وأدهش لاتور حين أبدع لوحتين بالبستل لشخصه. وهما من أعظم الإنتاج وروعة واتقاناً وكمالاً في اللوفر. إحداهما تمثله في قلنسوة قديمة ضيقة مزدوجة العقد على رأسه، والعوينات

صفحة رقم : 12076

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

(النظارة) في أعلى أنفه، ورباط عنق مربوط بإحكام حول عنقه. وأبرزت الأخرى نفس الزي ونفس الوجه مملوءاً بالدهشة والشخصية، بالإضافة إلى قناع يظل عينيه اللتين يشكو فيهما ألماً. وأشهر من هاتين، لوحة البستل التي أبدعها لزوجته الثانية، وهي آنذاك في الثامنة والستين: وجه كريم جميل، أخرجه بمهارة متممة بالحب. وتلك هي اللوحة التي يقع عليها اختيارنا لتكون تحفة شاردان ورائعته. وكانت خاتمة مظفرة لحياة فذة شريفة كريمة. ولسنا في حاجة إلى تصوير شاردان رجلاً بريئاً من زلات البشر، فالحق أنه هو نفسه أيضاً، وقد وخزته أشواك الحياة وأساعت إليه الأحقاد، كان في مقدوره أن يقاوم بالانفجار في الغضب وفي قارص الكلام، ولكنه لما فارق الحياة في 1779، فإن أحداً في دنيا الفن الباريسي الحاسدة الحاقدة المفترية، لم يجد كلمة سوء عداوية يقولها فيه. بل إن نظام الحكم المنهار نفسه بدا أنه تحقق من أن شاردان قد كشف بأسلوب فني لم يبه فيه أحد في زمانه، عن فرنسا، التي هي فرنسا الحقيقية التي لا تزال سليمة بارئة من السقام، تلك الدنيا المستترة، دنيا الكد الخالص والولاء للأسرة، مما يمكن أن يبقى ويعمر ويساعد فرنسا على البقاء بعد قرن من الفوضى والثورة. وكما قال دييرو "كان شاردان أعظم ساحر لدينا" (33).

د - لاتور

1788 - 1704

إن نزعات الذوق المتقلبة لا تقدم اليوم إكليل الغار في فن الرسم الفرنسي في القرن الثامن عشر، إلى بوشيه أو إلى شاردان، بل تقدمه إلى موريس كانتان دي لاتور. وهو أكثر الشخصيات الثلاث إمتاعاً وتشويقاً، لأنه مزج رذائله وفضائله باستهتار شيطاني، وساق العالم المرتعد بأسره إلى زاوية، وطلب كما فعل ديوجنيس، إلى ملك أن يبتعد عن طريقه. وكان نزاعاً إلى جمع المال في جشع شديد، مغروراً وقحاً متعطرساً، عدواً لدوداً وصديقاً متقلباً عميقاً مزهواً مثل رجل عجوز يخفى سني عمره أو يفاخر بها، وكان أميناً

صفحة رقم : 12077

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

صريحاً، بخيلاً، ومحسناً مسرفاً وساذجاً أنيساً، وطنياً ملتهباً حماسية وغيره، يحتقر الألقاب، ومن ثم رفض لقب النبالة الذي عرضه عليه الملك. ولكن هذا كله لا يتصل بالموضوع، فإنه كان أعظم رسام في عصره، وأعظم مصور باليستل في تاريخ فرنسا.

وجلس لويس الخامس عشر يوماً إلى لاتور ليرسمه، فاستاء الملك وجرحت كبرياؤه لكثرة ما ردد الفنان من عبارات المديح والثناء على الجانب، وقال له "ظننت أنك فرنسي". فأجاب لاتور "لا يا مولاي، أنا من سانت كانتان في بيكاردي(34)" (مقاطعة في شمال فرنسا كانت يوماً جزءاً من الفلاندرز). انه ولد هناك لأب موسيقار موسر، أراد له أن يكون مهندساً، ولكن الوالد أصر أن يكون رساماً، فأنيب الوالد على ذلك، وهرب موريس وهو في الخامسة عشرة إلى باريس ثم ريمس ثم كمبراي، يرسم اللوحات هنا وهناك، وفي كمبراي دعاه أحد الدبلوماسيين الإنجليز إلى لندن ضيفاً عليه فيها. وذهب إليها موريس، وهنا جمع مالا وقضى وقتاً سعيداً مستمتعاً بالحياة، وعاد إلى باريس وتظاهر بأنه رسام إنجليزي. وكانت روزاليا كارييرا في باريس في عام 1721 وكان وجهاء القوم، ابتداء من الموصى إلى أحداث محدثي الثراء، يفتشون عن لوحاتها المرسومة باليستل. ووجد لاتور أن مثل هذه الرسوم بالأقلام الملونة تلتئم مع مزاجه الفلق، أكثر من الزيت الذي يحتاج إلى جهد وجلد. وقضى عدة سنين يحاول ويجرب ويخطئ، حتى تعلم أن يحقق وينجز بالطباشير ظللاً ودقة في اللون والتعبير مما لم يتيسر لأحد من رسامي الأشخاص في زمانه أن يباريه فيها.

وعندما عرض بعض لوحاته في معرض 1737 بدأ رسامو الزيت يوجسون خفية من منافسة أقلام البيستل لهم. وكانت لوحته الثلاث المرسومة باليستل حديث معرض 1740. وكانت لوحته رئيس مدينة ريو في رداء الحاكم الأسود وعباءته الحمراء "هي التي فازت بالجائزة في معرض 1741. أما لوحته التي رسمها للسفير التركي فقد تكاثرت عليها الجمهور المعجب في

صفحة رقم : 12078

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

1742. وسرعان ما طالبت دنيا الأناقة التي تهفو دوماً إلى كل ما هو مستحدث، بالتحول إلى طباشير، وأصبح صدام لاتور مع الملك حدثاً تاريخياً. ذلك أن الفنان بدأ بالاعتراض على الحجرة إلى اختيرت ليجلس الملك فيها أمامه ليرسمه، لأن الضوء كان ينفذ إليها من كل جانب، فأنلأ "ماذا تتوقع من أن أفعل في هذه المشكلة؟" فأجاب الملك "لقد اخترت هذه الحجرة المنعزلة خصيصاً، حتى لا يعكر صفواناً أحد". فرد عليه لاتور بقوله "لم أكن يا سيدي أعلم أنك لست سيدياً في دارك". وفي مناسبة أخرى عبر الفنان عن أسفه لأن فرنسا لا تملك أسطولا ضخماً، فاعترض الملك في خبث "فما بال فرنيه الذي صور مناظر البحر يعج بالسفن(35)" ولما علم لاتور أن الدوفين أبلغ أبناء مضللة كاذبة عن مسألة معينة، ابتدره في رفق "وهكذا ترى كيف أنه من السهل على أناس أمثالكم أن يقعوا في حبال المخادعين المختالين"(36).

وعلى الرغم من صراحته اللاذعة المزعجة، منحته الأكاديمية عضويتها الكاملة 1746- التي هي بمثابة شهادة امتياز وتفوق. ولكن في 1749، نتيجة سعي حثيث من الرسامين بالزيت، قررت الأكاديمية ألا تقبل مزيداً من رسوم البيستل. وفي 1753 شكى أحد مصوري اللوحات الزيتية "من أن دي لاتور ارتقى برسم البيستل إلى درجة قد تثير النفور من اللوحات الزيتية" ورد لاتور كيد الشاكي في نحره بالحوافز والروائع.

وكان له منافس في البيستل، وهو جان بابنتست برونو الذي كان يؤثره ليمونيين وأودري وغيرهما من الأكاديميين على دي لاتور، فطلب هذا إلى برونو أن يرسمه (لاتور شخصياً) فقبل برونو وأخرج له تحفة رائعة، وأجزل العطاء له دي لاتور الأجر، ولكنه رسم بعد ذلك نفسه في لوحة من أعظم اللوحات الذاتية المعروفة روعة وإبرازاً للشخصية والذات ودير مع شاردان أن تعرض اللوحتان كلتاها جنباً إلى جنب في معرض 1751. وأجمع كل الذين شاهدوها أن

اللوحه الذاتيه تقضل لوحه برونو، ولا تزال اللوحه الذاتيه التي رسمها لاتور لنفسه تبتسم ابتسامه النصر في متحف اللوفر.

صفحة رقم : 12079

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

وهناك أيضاً اللوحه التي تحدى بها بوشيه وهي لوحه البستل الوحيدة التي عرضها 1755. وأفلتت الفرصة منه تقريباً. فحين وجهت إليه الدعوة ليرسم أشهر سيدة في المملكة أجاب "أرجو أن تتفضلوا بإبلاغ مدام دي بمبادور أنني لا أخرج لأرسم". وكانت تلك طريقته في جلب الحظ والمال، مثل إيقاع الفريسة في الشرك، بالتراجع، وتوسل إليه أصدقائه أن يقبل، فأرسل كتاباً ينبئ بأنه سيحضر، ولكن شريطة ألا يقطع عليه أحد سير العمل. ولما وصل نزع وقاء حذائه، وخلع الحذاء، ونزع شعره المستعار عن رأسه ورقبته (ياقته) وغطى رأسه بقلنسوة حريرية، ثم بدأ يرسم. وفجأة فتح الباب ودخل الملك. فاحتج لاتور قائلاً: لقد وعدتني يا سيدي أن يظل الباب مغلقاً "فضحك الملك ورجاه أن يستأنف عمله، ولكنه رفض" يستحيل علي أن أطيع جلالكم. سأعود عندما تكون السيدة وحدها... لا أحب أن يقاطعني أحد. فانسحب الملك، وأكمل الفنان الجلسة، ومن أشهر صورتين لمدام دي بمبادور، نجد أن اللوحه التي رسمها لاتور أعمق من تلك التي أنتجها بوشيه، وأقل إشراقاً في اللون، واتقاناً في اللمسات الخيرة والتفاصيل، ولكنها أكثر نضجاً من حيث التعبير وإبراز الشخصية. ولا ريب أن لاتور رسم المركيزه، بإيحاء منها، باعتبارها راعية للفن والموسيقى والأدب والفلسفة، وعلى أريكة قريبة منها قيثارة، وفي يدها بعض صفحات موسيقية، وعلى المنضدة كرة أرضية، وحقبيبة أوراق من نقش يديها، وقصة فولتير "هنرياد" وكتاب موننتسكيو "روح القوانين" والمجلد الرابع من موسوعة ديدرو.

وعندما فرغ لاتور من اللوحه طلب عليها أجراً قدره 48 ألفاً من الجنيهات. وعلى الرغم من تذبذبها وإسرافها فإنها رأت أن المبلغ المطلوب مبالغ فيه بعض الشيء، وأرسلت إليه 24 ألف جنيه ذهباً. وفكر لاتور في رد المبلغ. فسأله شاردان إذا كان يعرف ثمن اللوحات الموجودة في نوتردام، بما فيها روائع برون ولي سير، فأجاب لاتور سليماً، وقدر شاردان جملة تكاليفها بمبلغ 12 ألف جنيه. وأعاد لاتور النظر في تقديره

صفحة رقم : 12080

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

وقبل المبلغ الذي أرسلته بمبادور (24 ألفاً). أليه، بصفة عامة كان يطالب بالجر تبعاً لثروة الجالسين أمامه، فإذا اعترضوا ردهم خائبين، وربما كان هناك بعض استثناءات لفولتير وروسو ودالميرت، حيث أعجب بالفلاسفة من كل قلبه، وأقر صراحة بتجرده من الإيمان الديني.

وربما كانت أجوره المرتفعة سبباً في اشتداد الطلب عليه من جميع الأنحاء. وعن طريقه عرفنا الشخصيات القيادية في عصره، وأصبح قمة ف الرسم بالبستل، فأبدع لوحات جميلة رائعة للملكة ولولي العهد الصغير، والدوفين المتظاهر بالرزانة والاحتشام(38)، ولاكامارجو راقصة الباليه الأولى، وحاول أن يرسم لروسو لوحة يبدو فيها لطيفاً عاقلاً حكيماً(39)، وفي أحد أعماله البالغة الروعة رسم موريس دي ساكس القائد الوسيم المنتصر على الجيوش والسيدات(40)، وأبرز في لوحة رسمها لصديقه الرسام جان رستوت شعلة النشاط ونضارة الحياة في عينيه(41). وليس الخز والمخرمات والشعر المستعار استعداداً لصورة ذاتية معلقة الآن في أميان. وعلى الرغم من عادته الخشنة ونزواته غير المشروعة، وحالاته النفسية المتقلبة التي لا ضابط لها، فقد كان موضع الترحيب في قصور الأرسنقراطية، في ندوة مسيو دي لابولنبيير في باسي، وفي صالون مدام جيوفرين. وكان يرتبط بأواصر الصداقة بمشاهير كتاب عصره، بل حتى الرسامين والمثاليين الذين نظروا إلى نجاحه بعيون حاسدة-فانلو، شاردان، جريز، بيجال، باجو. ومنحه الملك معاشاً إضافياً ومسكناً في اللوفر. ولا بد أن الرجل كان، فوق كل شيء، محبوباً. ولم يتزوج لاتور قط. ولكنه لم ينتقل كثيراً بين أحضان السيدات كما فعل بوشيه وكان له عشيقه، هي الأنسة فل Mile Fel التي ساعد غناؤها على نجاح أوبرا روسو "عراف القرية". وتضايق منها جريم لأنها لم تبادل له الحب، ولكنها أقبلت على لاتور من كل قلبها. وذكر هو لها بالعرفان والشكر كل ما وفرت له من أسباب الراحة والتسلية حتى إنه ظل يشرب نخبها وهو في الثمانين من عمره. وكان إخلاصها له شيء من العزاء

صفحة رقم : 12081

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> عبادة الجمال -> الرسم

والسلوى حين تقدمت به السن فتصلبت أصابعه وغشى بصره. ودفع ثمن الرخاء والرغد الذي نعم به وهو في ذروة مجده، بما لقي من إذلال طال أمده في سني شيخوخته واضمحلال صحته، إنه عمر بعد أن تلاشت عبقريته، وسمع النقاد يتحدثون عنها، وكأنما أدركها الفناء. وعندما قارب الثمانين ترك مسكنه في اللوفر، ليعيش في الهواء الطلق في أوتي Auteuil. وأخيراً عاد إلى مسقط رأسه. واستقبلت سانت كانتان ابنتها السخي المبذر بطلقات المدافع ودق النواقيس والتهافتات الشعبية. وعمر في هذه البلدة الهادئة أربع سنوات أخرى وذبل عقله النشيط إلى مس خفيف غير مؤذ من الجنون، فأصبح يتمم بشيء من فلسفة وحدة الوجود (الله والطبيعة شيء واحد، والكون المادي الإنسان مظاهر للذات الإلهية)، ويعبد الله والشمس معاً، ويحلم بالثورة مؤملاً في قيامها. وفارق الحياة قبل قيامها بعام واحد. وقبل أيدي خدمه وهو في النزاع الأخير.

صفحة رقم : 12082

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> صناعة الكلام

1- صناعة الكلام

الآن أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الثانية لكل متعلم ومثقف في أوروبا، وواسطة الاتصال والتفاهم المعترف بها في الدبلوماسية والعالمية، وكان فرديريك الأكبر يستخدمها بانتظام، اللهم إلا في التحدث إلى قواته. وألف جيبون أول كتاب له باللغة الفرنسية، واتجه تفكيره لبعض الوقت إلى أن يكتب بها مؤلفه المعروف "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها". وفي 1784 أعلنت الأكاديمية الألمانية عن مسابقة ذات جائزة لمن يكتب أحسن موضوع يوضح أسباب التفوق والتبريز، ونشرت مطبوعاتها بالفرنسية. وكانت الأسباب الرئيسية لهذا التفوق هو المنزلة السياسية السامية لفرنسا في عهد لويس الرابع عشر ونشر القوات الفرنسية للغتهم في الأراضي الوطيفة وألمانيا والنمسا وأسبانيا، وعلو مكانة الأدب الفرنسي في القارة، بشكل لا نزاع فيه (وقد يكون لإنجلترا تحفظات على هذا)، وشعبية المجتمع الباريسي بوصفه مدرسة للدراسات الثقافية والنشاط الاجتماعي، تنهل منها النخبة الممتازة في أوروبا، ثم الرغبة في إحلال لغة أحدث وأكثر مرونة محل اللغة اللاتينية في علاقات الأمم بعضها ببعض، وقيام الأكاديمية الفرنسية بتتقية اللغة وتقسيمها عن طريق قاموسها، ولم تصل قط لغة وطنية أخرى ما بلغته الفرنسية من دقة وتنوع، ومن قوة وسحر في العبارة، ورشاقة ووضوح في الأسلوب. وكان ثمة بعض الخسارة في هذا الانتصار: ذلك أن النثر الفرنسي ضحي بالصرامة البريئة عند مونتاني والحيوية الدافقة القاسية الصادرة عن القلب عند رابليه. وأصاب الشعر الفرنسي الوهن والضعف في سجن القواعد التي وضعها بوالو،

صفحة رقم : 12083

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> صناعة الكلام

وانزلت الأكاديمية نفسها حتى أيقضها ديكلوس بعد انتخابه 1746- إلى تشكيلات غامضة وضالة مبعثها الجبن والحذر. وكانت حرية الفكر والكلام النسبية في عهد الوصاية الخطير قد شجعت على مضاعفة عدد المؤلفين والناشرين والمكتبات. واندس من يطبعون وينشرون ويبيعون الكتب في كل مكان، حتى على الرغم من أنه يتقدم القرن، أصبحت هذه التجارة خاسرة، وكان في باريس وحدها منهم كلهم تقريباً فقراء معدومون. وانتشرت المكتبات في كثير من المدن، وكان في بعضها حجرات للمطالعة مفتوحة للجماهير، نظير رسم دخول ضئيل (40 سو) وقل أن كان التأليف مهنة كافية لكسب القوت، ولذلك كانت تكمل عادة بعمل آخر، فكان كريبيون الأكبر كاتباً لدى موثوق عقود، وكان روسو ينسخ الموسيقى. واستطاع نفر قليل من مشاهير الكتاب أن يبيعوا إنتاجهم لقاء ثمن عال. ولما أعسر موريفو بسبب



انهيار نظام لو، استطاع أن يصلح ماليته ويسترد ثروته برواياته ومسرحيته "ماريان"، وقبض روسو، وهو عادة فقير، خمسة آلاف جنيه عن كتابه "اميل". وكان حق الطبع القانوني الوحيد هو الترخيص الملكي بالنشر وكان في هذا حماية للمؤلف من السطو على كتابه في فرنسا، ولكن ليس من السطو وطبعه خارجها، وكان هذا الترخيص يمنح لمن يكفل المراقبون الرسميون خلو كتابه مما يسيء إلى الكنيسة أو الدولة. وكان يمكن للأفكار الجديدة أن تتخطى هذه العقبة بإخفاء مادة الكتاب أو الهرطقة في أسلوب مقنع. فإذا لم تتجح هذه الخدعة، فقد يعتمد المؤلفين إلى إرسال المخطوط إلى أمستردام أو جنيف، أو أية مدينة أجنبية أخرى، ليُطبع هناك بالفرنسية ويوزع في الخارج، ويتداول سرا في فرنسا. وأدى اتساع الطبقة الوسطى وانتشار التعليم وتجمع المفكرين في باريس إلى خلق جمهور متلهف على الكتب، ونهضت مجموعة كبيرة من المؤلفين لتلبية هذا المطلب وإشباع هذه الرغبة. وأثار ضعف الدولة في عهد لويس

صفحة رقم : 12084

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> صناعة الكلام

الخامس عشر وانهيار الإيمان الديني، المناقشات الشفوية والخطبة في المسائل السياسية والفلسفية. وإذ كرهت الأرستقراطية تلك الملكية التي حدثت من سلطتها، كما كرهت الكنيسة التي كانت تساند الملكية، فإنها استمعت بأذان صاغية ذات مصلحة إلى نقد الحكومة والعقيدة كلتيهما، وانضمت الطبقة المتوسطة العليا إلى الأرستقراطية في إصغائها لهذا النقد، أملاً في تغيير يحقق لها المساواة الاجتماعية مع طبقة النبلاء. وفي هذا الجو الجديد حقق المؤلفون والكتاب مكانة قلما تيسرت لهم قبل القرن الثامن عشر أو بعده. وقبولوا بالترحيب في الصالونات حيث تحدثوا وأيدوا آراءهم بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان. واستقبلوا في قصور ذوي الألقاب ما داموا لم يجرحوا كبرياءهم أو يسيئوا إليهم. وكان أصحاب المال يستضيفونهم ويكرمون وفادتهم، وفي بعض الأحيان يسكنونهم في قصورهم، مثل ما فعل بوبلينبير، وأصبحوا برغم فقرهم قوة في الدولة. قال ديكلوس في 1751 "إن إمبراطورية رجال الفكر، من بين كل الإمبراطوريات، أوسعها امتداداً، دون أن تكون مرئية. إن أصحاب السلطة يأمرؤن، ولكن رجال الفكر يحكمون. وعلى المدى البعيد... إن عاجلاً أو آجلاً، سيتغلب الرأي العام أي شكل من أشكال الاستبداد والحكم المطلق أو يغلبه" (1) (وفي 1751 لم يكن قد تم التوصل بعد إلى الأسلوب الذي يتحقق به تشكيل الرأي العام تشكيلاً محكماً بالمال أو عن طريق الحكومة).

وإذا رحب جمهور متزايد بالكتاب الفرنسيين، وحفزهم مئات المتنافسين البيقظين، وحررهم ضعف العقيدة، واستحثهم زهو الطباعة وخيلاؤهم، فإنهم دفعوا إلى المطبعة بسيل من الرسائل والنشرات والأبحاث والنقد اللاذع والمقالات والمذكرات، و التاريخ والقصص والمسرحيات والقصائد والأبحاث الدينية والفلسفية، والكتابات الإباحية الداعرة والأدب المكشوف، مما حطم كل أغلال الرقابة وقيودها، واكتسح كل مقاومة، وغير عقل فرنسا وعقيدتها

صفحة رقم : 12085

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> صناعة الكلام

وحكومتها بل إلى حد ما عقل العالم وعقيدته وحكوماته. ولم يحدث قط أن وجد في الأدب من قبل مثل هذا الذكاء الحاد أو المزاج الرقيق أو هذا التهريج الماجن أو هذا السخف المهلك، وتصدعت كل القواعد التقليدية في الكنيسة والدولة تحت ضغط الهجمات التي شنتها تلك الأقلام الحادة، المسمومة أحياناً، المغمورة أو المجهولة عادة. إن الرسائل الخاصة نفسها أصبحت قناعاً شائعاً. فما من سيدة أو رجل إلا نقح رسائله وأعاد كتابتها وصلفها وتأنق فيها أملاً في أن يطالعها أكثر من شخص الذي أرسلت إليه فتتألق أمام العيون وتكون متعة لقارئها، كذلك نجحوا أحياناً في أن تكون رسائلهم "كتابات ممتازة" أي قطعاً من الأدب. وبسبب حبهم للحديث والمناقشة فإنهم تحدثوا على الورق إلى الأصدقاء أو الأعداء الغائبين عنهم، بشكل طبيعي وكأنما يخاطبونهم وجهاً لوجه، وبكل الحماسة والحيوية اللتين تدور بهما أحاديثهم حول المائدة في الصالونات. ولم تكن تلك الرسائل تتضمن مجرد توافه الأخبار الشخصية، بل كانت في معظم الأحوال نقاشاً في السياسة والأدب والفن، وكانت في بعض الأحيان نثر اللغة المجتمع يزر باللسج الذي كثيراً ما يأتي عفواً في الفرنسية، مع أكبر الأمل في إطراء القارئ لها، وهكذا كان فولتير يدخل السرور على قلوب أصدقائه بسلسلة القصائد التي يبعث بها إليهم، مما كانت تفيض به قريحتهم الوفاة وفنه الرشيق. وأذن عصر الخطابة بزوال، لأن فرنسا القرن الثامن عشر خشيت أن يتولاها السأم والضجر حتى لو استمعت إلى بوسويه آخر (أسقف وخطيب واعظ في القرن السابع عشر). ولكن الخطابة ستعود مع قيام الثورة. وكانت كتابة "المذكرات" لا تزال سائدة، لأنها باعتبارها رسائل إلى الأقباب والأجيال القادمة. احتفظت بشيء من سحر المكاتبات وفتنتها. وفي نهاية الحقبة، وفي 1755 وصلت إلى المطبعة مذكرات البارونة مدام دي ستال لوني قد فارقت الحياة 1750، وقد أعادت هذه المذكرات إلى الأذهان ذكريات عهد الوصاية وأمسيات دي سكو. وهنا كما يقول جريم، كانت سيدة نافست فولتير نفسه بامتيازها وبراعتها في النثر (2).

صفحة رقم : 12086

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> المسرح

2- المسرح

تفوقت المسارح على الصالونات من حيث المكانة التي احتلتها في باريس، وما حظيت به من حب وإقبال بين الباريسيين. ويقول فولتير لمارمونتيل: "إن المسرح أعظم مهنة سحراً وفتنة، ففيه يكسب المرء بين عشية وضحاها جاهاً ومالاً، وإن رواية واحدة تأتي لصاحبها بالثروة والشهرة" (3). وكانت هناك في الأقاليم مسارح لا بأس بها، وكان ثمة تمثيل مسرحي خاص في بيوت الأغنياء، بعض المسرحيات أمام الملك والحاشية في فرساي. ولكن التحمس للروايات في باريس بلغ حد الجنون والحمى والجدل والشجار أو الابتهاج والسرور. واحتفظت "الكوميدي فرنسيز" في "المسرح الفرنسي" بأعلى الدرجات في الموضوع والأداء، ولكن الجماهير الغفيرة كانت تقصد إلى "مسرح الإيطاليين" ومسرح "الأوبرا كوميك". وتألفت كل هذه المسارح، ودار الأوبرا في "الباليه رويال" من قطاعات فسيحة بها عدة صفوف من المقصورات والمقاعد للفقلة التي يفوح منها شذا العطر، أما جمهور المشاهدين الأقل تبرجاً وثراء فكانوا يقفون تحت الشرفات الداخلية، (على الأرض) التي نسميها خطأً "الأوركسترا" ولم توضع فيها مقاعد حتى جاءت الثورة. وكان نحو 150 من المتحمسين المتأنقين الذين يدفعون أجراً أكبر، ويجلسون على خشبة المسرح، يحيطون بالممثلين من ثلاثة جوانب.

وقد استنكر فولتير هذه العادة، لأن هذا كان يعوق الممثلين ويفسد المنظر. "لما كانت معظم رواياتنا لا تعدو أن تكون حواراً طويلاً، فإن التمثيل المسرحي لا يكون له وجود، أو إذ وجد بدأ سخيلاً(4) وتساءل كيف يتسنى لممثل مسرحي أن يمثل على مثل هذا المسرح مشهد بروتس ثم أنطوني وهما يخطبان في أهل روما بعد قتل قيصر؟ وكيف يمكن "للروح" المسكين في هملت أن يسترق النظر من خلال هذه الهياكل العظيمة المتمتعة بامتياز الجلوس على خشبة المسرح؟ إنه ليكاد يكون من المتعذر تمثيل أي من روايات شكسبير في مثل هذه الظروف(5) وكان لاعتراضات فولتير القوية، التي أيده فيها دييرو وغيره، أثرها فما وافى عام 1759 حتى كانت خشبة المسرح في فرنسا قد أخلت من المتفرجين.

صفحة رقم : 12087

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> المسرح

ولقي فولتير نجاحاً أقل في حملاته لتحسين الوضع الديني للممثلين. وكانت مكانتهم الاجتماعية قد تحسنت، فكانوا يترددون على دور الأرسقراطية، وفي كثير من الأحيان كانوا يمثلون بناء على طلب الملك. ولكن الكنيسة استمرت في اتهامها للمسرح بأنه مدرسة للفساد والفضائح والعمال المخزية، وذهبت إلى أن كل الممثلين بطبيعة الحال محرومون من الكنيسة، وحرمت دفنهم في الأرض المخصصة للمؤمنين -وهي تشمل كل المقابر في باريس وأشار فولتير إلى هذا التناقض:

إن الممثلين يتقاضون أجوراً من الملك، في الوقت الذي تحرمهم فيه الكنيسة. ويصدر إليهم أمر الملك بالتمثيل كل مساء، بينما تحظر عليهم الديانة أن يمثلوا إطلافاً، وإذا امتنعوا عن التمثيل زج بهم في السجن (كما حدث عندما أضرب ممثلو جلالتهم عن العمل) فإذا مثلوا ألقى بهم (عند موتهم) في البالوعات. إننا نبتهج ونسر بهم، ونعترض على دفنهم معنا، ونرحب بهم على موائدنا بينما نغلق أبواب مقابرنا دونهم(6).

وكانت أدريين ليكوفيرير أعظم الممثلات الفرنسيات في زمانها مثلاً واضحاً لهذه المتناقضات في حياتها ومماتها. إنها ولدت في 1692 قرب ريمس وجاءت إلى باريس في العاشرة من عمرها، وأقامت قرب "المسرح الفرنسي" وكثيراً ما شقت طريقها إليه، ثم قلدت في البيت الممثلات اللاتي أعجبت بهن وهي واقفة على أرض المسرح تحت الشرفات. وفي سن الرابعة عشرة نظمت فرقة من الهواة قاموا بالتمثيل على مسارح خاصة. وأعطاه الممثل "لي جراند" دروساً، وهياً لها مكاناً في فرقة تمثل في ستراسبورج. وقامت بالتمثيل في الأقاليم لعدة سنوات، كما فعل موليير، وانتقلت من دور إلى دور، ومن قصة غرام إلى أخرى دون ريب. وهفت نفسها إلى الحب، فلم تصادف إلا الداعرين الفجرة، وتركها اثنان منها على التعاقب حاملاً، ورفضاً الزواج منها. وفي سن

صفحة رقم : 12088

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> المسرح

الثامنة عشرة وضعت بنتاً. وفي الرابعة والعشرين وضعت بنتاً أخرى. وفي 1715 عادت إلى باريس، والتقى بها هناك فولتير الشاب، وكان لها لبعض الوقت أكثر من صديق (7). وفي 1717 أصبحت السيدة الأولى في "المسرح الفرنسي" الذي كان مأواها ومبعث إلهامها في شبابها. ولم تكن مثل معظم الممثلات الشهيرات بارعة الجمال، بل كانت بدينة، وكانت قسماً وجهها غير متناسقة، ولكنها تميزت برفقة تفوق الوصف في جلستها ووقفاتها وحركتها وعاداتها، وموسيقى مغربية في صوتها، وبريق من الشرر والاحساس في عينيها السمراوين، وتعبير متحرك كريم في وجهها. وكان كل تصرف منها يعبر عن شخصيتها. ورفضت أن تتبع الأسلوب الخطابي الذي كان قد أصبح تقليداً سائداً في التمثيل في فرنسا في المسرح الطويل المستطيل الشكل في المسارح القديمة. وعقدت العزم على أن تمثل دورها وتتعلق بعباراتها على خشبة المسرح كما تحدثت في الحياة الواقعية، اللهم إلا في إخراج الحروف من مخارجها والإبانة في اللفظ، ورفع درجة الصوت، مما هو لنقل كلماتها إلى أبعد مكان يوجد فيه الجمهور. إنها في فترة عملها القصيرة حققت ثورة أو انقلاباً في فن التمثيل المسرحي. وتحقق هذا أيضاً في عمق شعورها، وقدرتها على نقل انفعالات الحب أو رفته، وكل العطف أو الرعب في أي مشهد مأساوي. وتفوقت في الفن الشاق، فن الإصغاء المعبر اليقظ حين يتكلم الآخرون. وامتدحها الشيب، أما الشبان فقد وقعوا في غرامها. وهام بحبها الشاب شارل أوجسطين دي قريول كونت أرجنتال الذي كان مقدراً أن يصبح "ممولاً ومدعماً بنقوده" لفولتير ووكيلاً له، وجزعت والدة شارل لهذا خشية أن يعرض على أدريين الزواج فقيل، فأقسمت الأم أن تبعث بولدها إلى المستعمرات، وعندما سمعت الممثلة بهذا أرسلت إلى مدام دي قريول (22 مارس 1721) وتؤكد لها أنها لن تشجع الشاب على الاتصال بها أو تبادل الرسائل معها: "سأكتب إليه بأي شيء يرضيك. ولن أراه بعد الآن إذا كنت ترغيبين في ذلك. ولكن لا تهدديه بإرساله".

صفحة رقم : 12089

#### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> المسرح

إلى أقصى الأرض. وسيعمل كل ما يبعث في قلبك الرضا والارتياح، ويضفي عليك الشهرة والمجد، وما عليك إلا أن توجهي مواهبه وقدراته وتنمي فضائله لتؤتي ثمارها (8). وكانت أدريين على حق، فإن دارجنتال فاز بعضوية برلمان باريس، وفي سن الخامسة والثمانين، حين كان يقلب النظر في الأوراق التي تركتها والدته، عثر على هذه الرسالة التي لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل. واستمتعت أدريين بدورها بنشوة الحب كما عانت من الهجران والصدود. وكان الأمير الشاب موريس السكسوني كثيراً ما يتردد على المسرح الذي تعمل فيه، ولم يكن بعد قد انفتحت أوداجه زهواً بانتصاراته، ولكنه كان وسيماً عاطفياً خيالياً حتى أنه عندما أقسم على الإخلاص والولاء لها مدى حياته ظننته فارس أحلامها الذي طال انتظارها له، وإذا وصل الأمر بالرجال إلى وعد بالإخلاص مدى الحياة، فإنهم بحيون ويموتون عدة مرات مثل القطط (يسبع أرواح). ورضيت به عشيقاً (1721)، وعاشا لفترة من الزمن يرشقان كؤوس المحبة والإخلاص إلى حد أن باريس قارنتهما بقمرات لافونتين الحبيبات. ولكن الجندي الشاب الذي أصبح لتوه "قائد معسكر" راوده الحلم بأن يكون ملكاً، وقد رأيناه يسارع إلى كورلند (جزء من تلقيا الحالية) طمعاً في الحصول على التاج فيها، وكان نصف الأموال التي حملها معه من مدخرات أدريين. فتسلت عن فراقه بتأسيس "صالون" في بيتها. ولم يكن غير ذي عائد فكري لها إنها كانت قد تعلمت رشاقة راسين وأفكار موليير، حتى أصبحت من خيرة سيدات فرنسا ثقافة وعلماً، ولم يكن أصدقائها من المعجبين العابرين، ولكنهم رجال ونساء أحبوا عقلها. فقصد فونتيل وفولتير ودارجنتال والكونت دي كايوس بانتظام إلى دارها لتناول العشاء، ووجد بعض السيدات الأنبيات من ذوات الألقاب والأحساب متعة في الانضمام إلى هذه الجماعة المتألقة.

وفي 1728 عاد الجندي الذي لم يواته الحظ ولم يتحقق أمله إلى باريس.

صفحة رقم : 12090

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> المسرح

وكان البعاد قد خفف من لوعة حبه. وتبين أن أدريين كانت تكبره آنذاك بأربعة أعوام حيث كانت في السادسة والثلاثين وعرض كثير من السيدات الثريات أن يشاركه مضجعه، وكان الدم الملكي يجري في عروق إحداهن مثله تقريباً، وهي لويز دي لورين دوقه بويون حفيده بطل بولندة النبيل جان سوبيسكي، وكانت تختال في جراءة أمام موريس في مقصورتها في المسرح الفرنسي، إلى حد أن أدريين ولت وجهها شطر هذه المقصورة، حين كانت تلقي في شيء من التوكيد بعض أبيات غاضبة من رواية راسين "Phedre" "الست واحدة من هؤلاء السيدات الوقحات اللاتي تعلمن، وهن يلقيين ظلالاً من الجريمة على مظهر الونام الهادئ الوداع، إن يكن صفيقات إلى حد لا يستشعرن معه الخجل من سوء تصرفهن" (9).

وفي يولية 1729 أبلغ سيمون بوريه، القسيس رسام المنمنمات الأنسة ليكفرير أن رسولين مقتعين من إحدى سيدات البلاط عرضا عليه أن يعطي الممثلة بعض أقراص السم لقاء 6600 جنيه إذا قام بالمهمة. فأخطرت أدريين الشرطة بذلك فقبضوا على القسيس وأجروا معه تحقيقاً دقيقاً. ولكنه صمم على أقواله. وكتبت أدريين إلى مدير الشرطة رسالة رائعة تطلب منه إطلاق سراح القسيس: "إني تحدثت إليه، وجعلته يتحدث إلي كثيراً لوقت طويل، وأجاب دائماً إجابات محكمة ذكية، ليس لأني أرغب في أن يكون ما قال صحيحاً. فإن لدي مزيداً من الأسباب التي تحملني على أن أتمنى أن يكون مخبولاً. أه: أليس إلى الله وحده أتوسل أن يغفر له؟ ولكن إذا كان بريئاً فأرجو أن تفكر يا سيدي إلى أي حد يجدر بي أن أهتم بمصيره. لا تلق بالاً إلى مهنتي أو مولدي وأصلي، ولكن حاول متفضلاً أن تستشف حقيقة نفسي التي بين جنبي، وكم هي صادقة مخلصه، وقد كشفت لك عن سريرتها. بجلاء ووضوح في كتابي هذا (10). وأصر الدوق دي بويون على أية حال، على احتجاز القسيس، ثم أفرج عنه بعد بضعة شهور، وظل مصرأ على أقواله. ولسنا ندري حتى يومنا هذا مبلغ صدق روايته.

صفحة رقم : 12091

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> المسرح

وفي فبراير 1730 بدأت الأنسة ليكوفريير تعاني من إسهال يزداد سوء يوماً بعد يوم. وظلت تمثل أدوارها على المسرح، ولكن في أوائل مارس حملوها من المسرح مغمى عليها. وفي 15 مارس مثلت، وهي تلتقط آخر أنفاسها "جوكاست" في رواية فولتير "أوديت" وفي يوم 17 مارس لزمت الفراش، وصارت تنزف نزيفاً مميتاً من أمعائها،

ولم يعد الماريشال يزورها، ولكن فولتير ودارجنثال فقط هما اللذان سهرتا على العناية بها في هذه الخاتمة الفاجعة المذلة، وفاضت روحها في 20 مارس بين ذراعي فولتير. وحيث كانت آدريين قد رفضت الشعائر الأخيرة للكنيسة (11). فإن القانون الكنسي حرم دفنها في الأرض المخصصة للمؤمنين، واستأجر أحد الأصدقاء اثنين من حملة المشاعل ليحملا جثمانها في عربة أجرة لدفنه سراً على ضفاف السين، فيما أصبح فيما بعد شارع بوجون. (في نفس العام 1730 دفنت الممثلة الإنجليزية آن أولدفيلد باحتفال عام في كنيسة وستمنستر.) وفي 1730 نظم فولتير قصيدة (موت الأنسة ليكوفريير يستنكر فيها المعاملة المهينة في دفنها بهذه الطريقة: "تأثرت كل القلوب، مثل قلبي، بالأسى والفجيعة. وإني لأسمع كل الفنون الذاهلة تولول من حولي، وهي تذرف الدمع. أن مليونين (ربة المأساة) قضت نحبها، ماذا عساكم تقولون أيها الأعمى رجال الغد إذا علمتم بهذا الأذى الأليم المدمر الذي ألحقه أناس قساة بلا قلوب بهذه البائسة التي تخلى عنها أصدقاؤها؟ لقد حرموا من الدفن من إذا كانت في اليونان القديمة لأقاموا لها مذبحة في الهيكل. لقد رأيتهم يقدسونها ويزدحمون حولها. إنها لا تكاد تموت متى تصبح محرمة، لقد سحرت الباب العالم، ثم ها أنتم تعاقبونها، كلا، لن تكون هذه الضفاف بعد الآن دنسة، إنها تضم رفاتك، وستكون هذه المقبرة الحزينة معبداً جديداً لنا، نمجده في ترائيمنا، وتضفي عليه ظلالك قدسية".

صفحة رقم : 12092

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> المسرح

وكان أعظم كاتب مسرحي في ذلك العصر، بطبيعة الحال، فولتير. وكان له منافسون كثيرون، من بينهم بروسبو جولتون دي كريبون، وهو معمر عجوز كان ينبغي له أن يفارق الحياة منذ أمد طويل. وكان كريبون قد أنتج فيما بين عامي 1705 و1711 روايات ناجحة ثم اقتنع بالفشل المحتمل لروايته "اجزرسييس" 1714، وهنا كانت نهايته، وكان قد انقطع عن التأليف، وبات يعاني الفقر، ويجد بعض السلوى في مسكن على السطح مع مجموعة لطيفة من عشر كلاب وخمسة عشر قطاً وبعض الغرابيب السود. وفي 1745 أنقذته مدام دي بمبادور بمعاش ووظيفة عاطلة (يقبض راتباً ولا يؤدي عملاً)، واتخذت التدابير الطبع مجموعة أعماله في مطبعة الحكومة. وقصد إلى فرساي ليقيم لها الشكر. ولما كانت هي مريضة، فقد استقبلته وهي ملازمة الفراش، فلما انحنى ليقبل يدها دخل لويس الخامس عشر، فصاح ابن السبعين "مولاتي، لقد وقعت الكارثة، إن الملك فاجأنا معاً" (12). وسر الملك بومضة الذكاء وسرعة البديهة وانضم إلى بمبادور في حثه على إكمال روايته "كاتيلين وكان قد أهملها وشهدتها مدام بمبادور والحاشية، ونال العرض الأول الاستحسان (1748). واهتز كريبون طرباً من جديد لما أصاب من شهرة ومال. وفي 1745 وهو في الثمانين أخرج آخر رواياته. وعمر بعد ذلك ثمان سنين، سعيداً بحيواناته.

ولم يطب فولتير نفساً بظهور منافس له من بين القبور، ولكن كان عليه أيضاً أن يواجه في الملهاة منافسه ماريغو المتعدد الجوانب الشديد الانفعال إن بيير كارل دي شمبلين دي ماريغو أصبح هجاءً حين رأى بمحض الصدفة، حبيبته ذات السبعة عشر ربيعاً تطبق عملياً مفاتنها المغرية أمام المرأة. ودق قلبه مؤقتاً فقط، لأن والده كان المدير الثري لدار سك النقود في ريوم، وكم من شابهه أو عادة تآقت نفسها لتكون زوجة بيير. وتزوج من أجل الحب، وأدهش باريس حين عاش حياة جنسية طابعها الرصانة والاعتدال. وانضم إلى صالون مدام دي نتسان، وربما تعلم فيه الدعابة المرحة، والعبارة الرشيقة الإحساس الرقيق، وانتقل كل أولئك إلى رواياته، وتميزت به مسرحياته.

صفحة رقم : 12093

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> المسرح

وأول نجاح أصابه ماريغو هو رواية "أرليكان يصقله الحب" التي عرضت لمدة اثنتا عشرة ليلة متوالية على "مسرح الإيطاليين" 1720. ويقدر ما كان يحصل عليه من أجور، فقد معظم أمواله عند انهيار بنك لو. ويروي إنه استرد ثروته بقلمه (13)، حيث كتب سلسلة من رواياته الملهمة (الكوميديا) أمتعت باريس بمرحها اللطيف وحبكتها البارعة، وأشهرها "العبه الحب والحظ". وقد هاجمت اعترام زوجين (أربعة أشخاص، رجلان وامرأتان) اعتزاماً متزامناً، ولكن غير متفق عليه، أن يختبرا إخلاص الخطيب الذي لم تقع عليه العين بعد، عن طريق تبادل الزي والشكل بين سيد وخدام وسيدة وخدامة، في سلسلة من المصادفات السخيفة المضحكة، مثل منديل ديزدمونة (في رواية عطيل). وسر نساء باريس أكثر مما سر رجالها بالمآزق التي يتورط فيها الحب في هذه الرواية وبما فيها من عاطفة رقيقة. وهنا أيضاً كما هو الحال في قصر فرساي، وفي الصالونات، وعند واتو وبوشيه، تحكمت المرأة، وكان لها القول الفصل، وحل تحليل المشاعر محل مشاكل السياسة وبطولات الحرب، وتخلت الملهمة الرجولية عند مولير عن مكانها أمام الملهمة الأنثوية التي سيطرت على المسرح الفرنسي (معرضة الطريق) إلى أيام سكارايب وديماس الابن وساردو.

صفحة رقم : 12094

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> القصة الفرنسية

### 3- القصة الفرنسية

إن ماريغو هذا هو نفسه الذي أضفى على القصة في فرنسا شكلاً جديداً. وفي 1731 أصدر الجزء الأول من "حياة ماريان". وتقبلها القراء قبولاً حسناً. واستمر يقدم أجزاء أخرى عام 1741، حتى بلغت أحد عشر جزءاً، ولم يكملها (ولو أنه عمر حتى عام 1763)، لأن هدفه لم يكن أن يقص حكاية بقدر ما كان أن يحلل شخصية، وبالذات شخصية المرأة، وبصفة خاصة في الحب. ولم يكن ثمة شيء رائع أخاذ أكثر من المشهد الافتتاحي، عصابة من اللصوص تنسطو على مركبة للبريد والمسافرين، وتقتل كل من فيها، باستثناء ماريان التي عاشت لتقص القصة في شيخوختها.

صفحة رقم : 12095

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> القصة الفرنسية

وتحتفظ البطلة والمفروض أنها مؤلفة القصة، بعدم ذكر اسمها، وهذا عمل كيدي، إلى النهاية. وتحمل المخطوطة إلى صديق لها مع تحذيره "لا تنس أنك وعدتني ألا تبوح باسمي أبداً" أنا أود ألا يعرفني أحد إلا أنت" (14). ولما كان أبوها من بين الضحايا، فقد تولى تربيتها رجل برجوازي محسن كريم، حتى أصبحت بائعة في محل لبيع ملابس النساء. وازدادت فتنة وجمالاً إلى حد أثار مسيو دي كليمال. وصار يقدم لها هدايا صغيرة ثم هدايا ثمينة، وأخيراً طلب يدها جزاء ما قدم. ولكنها رفضته، وأعدت إليه هداياه بعد ترددات يصفها ماريغو في ذكاء لطيف. وكان جديراً بنا أن نقول إنها في نفس الوقت كانت قد التقت بابن أخي كليمال، وهو مسيو دي فالغيل، الذي كان أقل من عمه مالا وأصغر منه سناً. ومهما يكن من أمر فإن فالغيل يتك ماريان معلقة، لما يقرب من ألف صفحة، وينصرف إلى سيده أخرى. وهنا ختام قصة ماريغو.

تلك هي القصة النفيسة في فرنسا القرن الثامن عشر، التي لم تنافسها إلا قصة "اتصالات خطيرة" التي كتبها كودرلوس دي لاكلوس (1782). إنها أعادت إلى الأذهان قصة مدام دي لا فاييت "الأميرة دي كليف (1678)، ولو إنها تكاد لا تعادلها في رقة الشعور وجمال الأسلوب، ولكن بزتها في تحليل الدافع والعاطفة، وهنا نجد امرأة، مثل بامبلا عند ريتشاردسن، تحتفظ بشرفها لأهميته في سوق الزواج، إنها تدرك أنه ليس لدى المرأة إلا قيمة هزلية فانية، لتقدمها تاييداً لأحادية الزواج للرجل الذي يتجه إلى تعدد الزوجات. وتلك صورة أكثر تهديباً من الصورة التي أخرجها ريتشاردسن، الذي بدأ قصة بامبلا بعد تسع سنين من ماريان وربما تأثر بها. وفي مقابل ذلك نجد أن قصة ريتشاردسن "كلاريسا (1747)" ساعدت روسو في "هلواز الجديدة".

وعكس ماريغو خلق الطبقة المتوسطة القوي الحذر، على حين أولع كريبون الابن بفسق الأرستقراطية وفجورها الطائش. وكانوا يطلقون

صفحة رقم : 12096

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> القصة الفرنسية

عليه "كريبون المرح" تمييزاً له عن أبيه "كريبون المكتئب" (الذي قال عن ابنه إنه أسوأ إنتاجه الكبير). نشأ كلود بروسير جولبوت دي كريبون في باريس في عصر الوصاية الذي رجحت أخلاقه التعليم الجزويتي الذي تلقاه كلود، ولعدة سنين شارك أباه سكنه فوق السطح وغربانه وكلايه وقططه. وفي 1734 وهو في سن السابعة والعشرين اشتهرت قصته "المنزلق على السطح". ومن الجائز أن يكون هذا لقب كل أبطاله وعنوان كل كتبه، لأن الحب فيها- كما قال شامفورت- هو مجرد "ملاسة سطحين" (15). ووقعت أحداث القصة في اليابان، ولكنها كانت نقداً لاذعاً أو هجاءً صريحاً للكنيسة والدولة في فرنسا، وللدوقه دي مين الصغيرة (الفتاة الجميلة)، إلى حد أن الكاردينال فلييري أبعد الكاتب كلود كريبون-عن باريس لمدة خمس سنوات.

ولما عاد المؤلف أصدر في 1740 أسوأ رواياته سمعة "الأريكة"، وقد أبعد من أجلها ولكن لمدة أقصر. ووقعت الأحداث في "أجرا" ولكن الأخلاقيات كانت باريسية. إن السلطان تولاه الضجر والسأم، ويريد قصصاً يسري عنه. ويتفضل رجل الحاشية الشاب أمانزي، فيرى كيف أنه تجسد فيما مضى من الزمان على هيئة أريكة، ويعود بذاكرته إلى بعض الخطايا التي ابتلى بها زنيك الأريكة. وتعاقبت أحداث الزنى في تفصيل متزايد. ووجد كريبون متعة بالغة في قصته (Almohid and Mochles) وهما بعد أن أطنيا في التفاخر بعفتها وطهارتهما، يعترفان بأن أفكارهما



غير عفيفة مثل سلوك سائر البشر، ويخلصان إلى أنه لا يمكن أن يكون في الفعل إثم أكبر منه في التفكير، ومن ثم فإنهما يوثقان بين الفعل والقول. وتلك، على أية حال، استثنائية. فان نساء كربيون يتطلبون عادة جزاء (عملاً) مالياً عن أقوالهن، ومن ثم أحصت "أمينا" بعناية ما حصلت عليه من مال، ولم تستجب لرغبة حبيبته إلا بعد أن تأكدت كل التأكد إنه لم يخطئ في العملية الحسابية. (11)

ولقي الكاتب ما كان مقدرًا له من نجاح. ووجد قراء في عدة لغات

صفحة رقم : 12097

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> القصة الفرنسية

أسرفت كلها في تصرفات شاذة. واعترف لورنس ستيرن بأنه تأثر بقصص كربيون. وفضلها هوراس وولبول على قصص فليدنج. وكان مفهوم الرجل الفاضل العفيف توماس جراي عن الجنة والنعيم "أن يقرأ إلى الأبد قصصاً جديدة من تأليف ماتريفو وكربيون" (17). وجاءت من إنجلترا على عجل السيدة هنريتا ستافورد، وأصبحت خليلية كربيون، وأم ولده، ثم زوجته وبيرون أنه جعل من نفسه زوجاً مثالياً لها (18). وفي 1752 انضم إلى الكسيس بيرون زشارل كوللي في تأسيس "الكاف-الكهف، وهو ناد للموهوبين المرحين الذين اشتهروا بالبعد في الوفاق والمزاج. وفي 1759 عين "بدليل الخلف" رقيباً ملكياً على الأدب. ولما توفي والده في 1762، بعد أن أبطأ به الموت إلى حد مثير، ورث ابنه معاشه. "والأمور بخواتيمها".

وفقدت كتب كربيون شعبيتها قبل وفاته بزمان طويل. ولكن في الوقت نفسه كان أحد رجال الدين العلماء المثقفين قد كتب قصة لا تزال حية مؤثرة إلى يومنا هذا. وكانت حياة أنطوان فرنسوا بريفوست دي أجزيل، المعروف باسم الراهب بريفوست، متعددة الألوان مرهقة مثل سير الحياة التي أبدعها قلمه. إنه ولد في أرتوا في 1697، وتعلم في مدارس اليسوعيين، ثم أصبح راهباً مبتدئاً في طائفة اليسوعيين (1713)، وتركهم ليلتحق بالجيش، وارتقى إلى رتبة ضابط، ووقع في شرك الحب، وخاب فيه أمله وتحطم قلبه، وأصبح راهباً بندكتياً (1719)، ثم قسيساً 1726، وقد بعث على الدهشة والعجب أن نقول إنه منذ ذلك الوقت اعتمد في حياته كل الاعتماد على قلمه. وكان بريفوست، حتى قبل أن يهجر حياة الدير، قد كتب قصة رومانسية "مذكرات ومغامرات رجل ذي حيثية"، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منها 1728 في باريس، وبعد عام قضاه في إنجلترا قصد إلى هولندا، وفي 1730 بدأ ينشر قصة ثانية "الفيلسوف الإنجليزي، أو تاريخ مستر كليفلند، الابن الطبيعي لكروامول" وهي من أوائل القصص التاريخية،

صفحة رقم : 12098

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> القصة الفرنسية

وكتبها في ثمانية مجلدات في السنوات التسع التالية. وفي 1731 نشر المجلدات الخامس والسادس والسابع من "المذكرات" سألقة الذكر ونشر المجلد السابع على حدة في باريس 1731 تحت اسم "مغامرات الفارس دي جرييه ودي مانون ليسكو" (تأليف مسبود). وحظرت الحكومة الفرنسية تداوله، ومن ثم أقيمت عليه الناس إقبالا شديداً متزايداً. ويقال "إنه في باريس لقي رواجاً كبيراً، وتهافت الناس عليه كما يندفعون إلى النار" (19)

وقصة مانون موضوعة في قالب فيبيح غير مصقول من التظاهر والإدعاء، فتمتة اثنتا عشرة بغياً في مركبة في طريقهم إلى ميناء الهافر لترحيلهم إلى أمريكا. والمركز-الرجل ذو الحيثية المجهول، والمفروض أنه يدون المجلدات السبع من المذكرات، يأسر قلبه جمال إحدى الفتيات التي وصف وجهها فيما بعد "بأنه يمكن أن يعيد العالم إلى الوثنية" (20). ويرى كذلك فارس دي جرييه البائس الوحيد الذوق يحدق النظر باكياً في خليلته السابقة، مانون، ويستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس ولا يستطيع أن يتبعها إلى منفاها، وتتحرك مشاعر المركز ويتأثر متأثراً مزدوجاً فيعطي دي جرييه أربعة جنبيات ذهبياً؛ مكنت الفارس من مصاحبة مانون إلى لوزيلنا. ويبراه المركز في كاليه بعد ذلك بعامين، ويأخذه إلى داره. أما بقية المجلد الصغير فهي رواية دي جرييه لقصة حبه.

وكان شاباً نموذجياً كريم المحدث، مبرزاً في كل شيء في الكلية في اميان، وكان في عزم أبويه أن يلحقه بطائفة الفرسان في مالطة. وفي غمرة آمالهم العريضة "جعلاني أضع الصليب" (21). ولكن مانون مرت أمامي ودخلت حياتي، وتغير كل شيء. وكانت آنذاك في الخامسة عشرة وهو في السابعة عشرة، "ولم تكن قد تنبتهت بعد إلى الفرق بين الجنسين". وعجل وهو هذا التطور المكبوت على الفرار. وتبلغه مانون أنها أرسلت إلى اميان ضد رغبتها لتندمج في سلك الراهبات، فيعرض عليها أن يخلصها من هذا، ويهربان إلى باريس، وبدا أن إعجابهما المتبادل كان عقداً وميثاقاً كافياً، وتحللنا من مراسم الكنيسة، ووجدنا أننا أصبحنا رجلاً

صفحة رقم : 12099

قصة الحضارة - عصر فولتير - فرنسا - نشاط الذهن - القصة الفرنسية

وزوجة، دون أن نفكر في هذا أو نتنبه له، ويكشف أخوه أمره ويقبض عليه ويعيده إلى والده الذي يخبره بأن مانون أصبحت بالفعل خليلته للسيد "ب" أحد رجال المصارف. ويرى دي جرييه أن يذهب ليقول السيد "ب" فيحبس الوالد ابنه، ويأتي أحد الأصدقاء تبيرج، ويؤكد الزعم بأن مانون خليلته السيد "ب" ويحث دي جرييه على الانتظام في سلك الكهنوت، ويلتحق الشاب بمعهد سان سلبيس اللاهوتي، ويصبح راهباً. "وظننت أنني تطهرت تماماً من دنس الحب، ويذهب بعد عامين لحضور امتحان عام ومناظرة في السوربون، فيفاجأ بمانون بين الحاضرين، وتشق عي طريقها إليه، وتعترف بخيانتها، ولكنها تقسم إنها لم تقترف الخطيئة مع السيد "ب" إلا لتوفر المال لدي جرييه. ويهربان من جديد.

ويتخذ الحبيبان مسكناً في ضاحية شيو، ويعيشان حياة باذخة على مبلغ الستين ألف فرنك الذي حصلت عليه مانون من السيد "ب". ويأمل دي جرييه بعد فصله من سلك الرهبنة وعودته إلى الفروسية، أن يحصل من أبيه على الصنف والمال أو أن يرث مال أبيه بعد موته. ويسطو عليهما أحد اللصوص فيسلبهما مالهما. ويجدان أنهما أصبحا معدمين بين عشية وضحاها. وأدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال دون أن يكون بخيلاً. لقد عرفت مانون.... ومهما كانت مخلصه وفيه مغرمة بي في وقت الرخاء، فلا يمكن الاعتماد عليها في وقت الشدة. إنها اهتمت كثيراً بالمتعة والثروة لتضحى بهما من أجلي" (22). وهو يحبها أكثر من حبه للشرف. ويسمح لاختوتها أن يعلموه الغش في لعب الورق فيكسب بعض المال، ولكنه يتعرض للسرقة مرة أخرى. وتهجره مانون إلى رجل فاجر عجوز ثري، وتركت له رسالة تقول فيها "إنني أعمل لأجعل فارس غنياً سعيداً". وينضم إليها في مؤامرة لابتزاز المال من هذا الرجل العجوز، وينجحان ويختفيان ثم يقبض عليها، وتوضع هي في الملجأ العام باعتبارها بغياً، ويرسل هو إلى الدير. ولكنه

يهرب منه بإطلاق النار على حارس البوابة: ويقترض نقوداً ويرشو القائمين على الأمر في الملجأ ليسهلوا لمانون سبيل الهرب، وتقطع على نفسها عهداً بحبه إلى الأبد.

صفحة رقم : 12100

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> القصة الفرنسية

ولما نفذ رصيدهما من المال، أجازت لوريت غني أن يتخذها خليفة، ويقبض عليها ثانية، ويقنع والد جرييه السلطات الرسمية بترحيلهما ويحاول دي جرييه إنقاذهما في الطريق، فلما عجز عن ذلك أبحر معها إلى نيو أورليانز، وهناك تعلمت أن تحتل مرارة الفقر، وأن تكون مخلصه كل الإخلاص لدي جرييه، ويعودان إلى ممارسة الشعائر الدينية، ولكن ابن حاكم المستعمرة يهيم بحبها. ولما كان مانون ودي جرييه قد أهملوا أن يعقدا عقداً شرعياً بالزواج، فإن الحاكم مارس حقه في أن يزوجهما من أي فرد في المستعمرة، ومن ثم أمرها أن تقبل ابنه زوجاً لها. وأردى دي جرييه لابن قتيلاً في مبارزة، ويهرب الحبيبان إلى الفياقي والفقار سيراً على الأقدام. وبعد مسيرة عدة أميال مرهقة، تسقط مغشياً عليها وتفارق الحياة، "وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفتاي وجه عزيزتي مانون ويديها". وحفر بيديه جثتها لها ويواربها التراب، ويرقد على القبر ليقضي نحبه هو الآخر. ولكن صديقه الطيب تيرج، الذي قدم في نفس الوقت من فرنسا، يعثر عليه، ويصعبه ثانية إلى كاليه، إلى المركز ليروي حكايته. وأصبحت "مانون ليسكو" معيماً لا ينضب لقصص حب مبللة بالدموع. فإن أية امرأة، ولو لم تكن "محطمة القلب" تذرف الدمع على موت مانون وحزن دي جرييه، مغتفرة لها حبها المالية، وله جرائمه الخسيسة. وضرب بريفوست على نعمة جديدة حين نسب إلى بطله وبطلته أخطاء كثيرة إلى هذا الحد، وجعلها أخطاء حقيقية، حين كشف عن حب مانون الطاعي للذة والمتعة، وقدرة حبيبها على التطفل والغش والسرقة والقتل. وهي طراز عتيق للبطل، وهو بالتأكيد مثال جديد للبطل. وربما بلغ الكتاب قدراً أكبر من القوة لو أن دي جرييه ترك ليموت على قبر مانون. وربما روى بريفوست القصة بمثل هذا الإحساس والعاطفة لأنه هو نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا في دي جرييه. ومن ثم كانت

صفحة رقم : 12101

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> القصة الفرنسية

القصة سيرة حياته قبل أن تكون حادثاً. ولم يكن تافهاً متطفلاً، ترجم إلى الفرنسية روايات ريتشاردسن الثلاث الضخمة، وزادت تلك الترجمات من تهافت فرنسا على ريتشاردسن، وهو تهافت كان له مظهر مختلف عند روسو وديدرو. وترجم كتاب مدلتون "حياة شيشرون"، وكتاب هيوم "تاريخ إنجلترا"، وكتب عدة قصص أقل شأنًا، وعدة مجلدات عن "التاريخ العام للرحلات". وفي أمستردام في 1733، وقع في غرام عشيقه رجل آخر. ولما نمت إليه أن

البندكتيين استصدروا أمراً بسجنه، هرب إلى إنجلترا مصطحباً هذه السيدة معه. وفي لندن كسب عيشه بإعطاء دروس خاصة. وفي 15 ديسمبر قبض عليه بتهمة قدمها ضده أحد تلاميذه بأنه زيف ورق نقدية من ذات الخمسين جنبها وهي جريمة عقوبتها القانونية الإعدام. وسرعان ما أطلق سراحه لأسباب مجهولة. وعاد إلى فرنسا (1734) وانضم من جديد إلى طائفة البندكت. وفي 1753 عين في دير سان جورج-دي جين. وأدى موته بعد عشر سنين من ذلك إلى أسطورة ترويها حفيدته بيغ لسانت بيغ وكأنهما حقيقة، تلك هي أنه أصيب بالسكتة أثناء سيره في غابات شانتيللي، وأن طبيباً ظن أنه مات فقام بنشرحه ليقف على سبب الوفاة، وأن بريفوست كان لا يزال حياً، ولكن فحص الجثة هو الذي أودى بحياته (23). هذه القصة مرفوضة اليوم بصفة عامة (24). وكان تأثير بريفوست كبيراً. إنه أسهم في تشكيل رواية روسو "هلواز الجديدة"، وحرك ديدرو الحاد الذهن الرقيق القلب ليكتب مسرحيات باكية عاطفية. كما اتخذ هذا التأثير مثالياً في قصة "بول وفرجينى" للكاتب برناردين دي سانت بيير. وبرز التأثير من جديد في "غادة الكاميليا" لديماس الابن. ولعبت دوراً في الحركة الرومانسية، إلى أن قدم فلوبرت "مدام بوفاري" (1857). ولا تزال مانون تحيا وتموت في الأوبرا.

صفحة رقم : 12102

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> حكماء أقل شأناً

4- حكماء أقل شأناً

ونعود إلى الكلام عن راهب آخر، وينبغي علينا في هذه المرة أن نوفيه حقه. فقد رأينا كيف أن شارل إيريني كاستل راهب سان بيير، روع الدبلوماسيين في أوترخت بكتابه "مذكرة في حفظ السلام على الدوام". (1712). وهي التي أسرت لب روسو وكان كلاهما كما رأينا، بعرض على نادي "أنترسول" خليطاً من أفكار وإصلاحات تقدمية إلى حد أن الكاردينال فليري أحس بأنه مضطر إلى إغلاق النادي إنقاذاً للدولة (1731). فماذا كانت هذه الأفكار؟ إن شارل هذا، على غرار كثير من الثائرين المتمردين، قد اكتسب ذهنه حدة ومضاء بفضل التعليم اليسوعي. إنه لم يطل به الوقت لي طرح العقيدة السائدة جانباً، وعلى الرغم من إنه ظل يعلن اعتناقه الكتلثة، فإنه ألحق بها أذى مكرراً في "مقالة ضد الإسلام"، حيث أن ما أورد فيها من حجج مثل فولتير في كتابه "محمد" يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية. وواضح أن "تفسيره المادي" للمعجزات المزعومة التي قال بها البروتستانت والمنشقون والمسلمون "قصد به المثل التشكك في المعجزات الكاثوليكية". وفي 1717 ثم في 1729 أعاد نشر "مشروع السلام الدائم" بعد التوسع فيه. وناشد ملوك أوربا، ومن بينهم سلطان تركيا، أن يعقدوا ميثاقاً مقدساً يمكن أن يكفل بالتبادل ممتلكاتهم الحالية، وأن تنبذ الحرب وسيلة لتسوية الخلافات الدولية، وأن يخضع هذه الخلافات لاتحاد أوربي تكون له قوة فرض قبول القرارات التي يصدرها. وصاغ نموذجاً لدستور لهذا الاتحاد، مع القواعد التي يمكن اتباعها في إجراءات اجتماعات هذا الاتحاد. وحدد الأنصبة المالية التي تخصصها كل من الدول الأعضاء للاتحاد، ولم يكن أحد ليتوقع تنبؤه بأن مؤتمر فيينا 1715، سيشكل، على هذه الأسس "حلفاً مقدساً" للإبقاء دوماً على النظم الملكية والإقطاعية، وإخماد الحركات الثورية.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; نشاط الذهن -&gt; حكماء أقل شأناً

ولم يكن ثمة صعوبات يمكن أن ترزع ثقة الراهب المرن السريع التكيف، فأقر، في عبارة دينية الإيمان بالتقدم، وفي كتابه "ملاحظات على التقدم المستمر في العقل العالمي" (1737) أعلن، قبل كوندورسيه بزمان طويل، إمكان بلوغ الجنس البشري مرتبة الكمال غير المحدود بفضل قوة العقل في رجال العلم والحكومات. إنه فوق كل شيء قال وهو مستغرق في التفكير والتأمل، بأن الجنس البشري وفقاً لمراجع موثوقة، لا يزيد عمره على سبعة أو ثمانية آلاف سنة، ومن ثم فإنه لا يعدوا أن يكون في مرحلة "طفولة العقل"، فما الذي لا نتوقعه منه في شبابه النشيط بعد ستة آلاف سنة، وفي الازدهار الرائع في مرحلة نضج الجنس البشري بعد مائة ألف عام من الآن؟ (25).

إن سان بيير بمشاكلنا الحديثة: تلك هي أنه بينما خطلت العلوم والمعرفة خطوات واسعة في طريق التقدم، لم يحدث في مجال الأخلاق أو السياسة تقدم متكافئ مع تلك الخطوات، إن المعرفة تزود الرذيلة بالوسائل والأدوات بقدر ما تهذب الأخلاق وتعمل على تنويرها. وكيف ننمو المعرفة نحو تقويم أخلاق الأفراد والأمم؟ وفي رسالته "مشروع لتحسين أوضاع حكومات الدول والبلوغ بها إلى درجة الكمال" (1737) اقترح سان بيير تأسيس "أكاديمية سياسية" تتألف من اعظم الرجال عقلاً وحكمة في البلاد، وتكون بمثابة هيئة استشارية للوزراء في الدولة في كل ما يتعلق بالإصلاح الاجتماعي والخلقي. وقدم عدة اقتراحات محددة: تعليم عام تحت إشراف الحكومة (لا الكنيسة)، تسامح ديني، زواج رجال الدين، توحيد القوانين الفرنسية، قيام الدولة برعاية الصالح العام والنظام الاجتماعي، وأخيراً زيادة الإيرادات القومية عن طريق الضرائب التصاعديّة على الدخول والتركات (26). وفي 1725 أضاف الراهب إلى اللغة الفرنسية لفظة "الإحسان أو عمل الخير" ليميز الروح الإنسانية التي أثرها على الصدقات التي تقترن بفكرة التنازل والتلطف في النظام القديم. ووضع قبل هلفشيوس وبنتم بزمان طويل مبدأ المنفعة: ذلك "أن قيمة أي كتاب

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; نشاط الذهن -&gt; حكماء أقل شأناً

أو قاعدة أو نظام أو عمل تقاس بعدد وعظمة الملذات والمتع الفعلية التي تحققها، وما ينتظر أن تحققها في المستقبل، لأكبر عدد من الناس (27). وبدا معظم الأفكار الأساسية عند الفلاسفة استهلالاً أو مقدمة لسان بيير، بل للأمل في ملك مستنير، كعامل من عوامل الإصلاح. وكان سان بيير بكل بساطته وسذاجته وأطنابه، أحد الأذهان التي حملت بذور عصر الاستنارة.

ولا بد أن شارل بينو ديكلوس قد ازدرى الراهب سالف الذكر لأنه خيالي واهم لا يتفق مع ذهن واقعي. ولد في دينان بمقاطعة بريتانى، واحتفظ حتى النهاية بالشخصية الجادة الحذرة العنيدة التي تميز بها البريتون. وكان ابناً لوالد برجوازي ميسور ماتت في السنة الأولى بعد المائة، فاستطاع أن يقضي شبابه الطائش في باريس في عهد الوصاية. وتلقى تعليمه العالي عند اليسوعيين وبنات الهوى، وانغمس في حماقات الشباب أيما انغماس. وزاد من حدة ذكائه في المقاهي، ومكنت له شهرته بسرعة البديهية من ارتياد المجتمع والصالونات، وزاد من شهرته بقصة "تاريخ البارونة دي لوز" (1741) التي كادت أن تكون اتهاماً لله. إن البارونة تصد كل هجوم على أمانتها الزوجية، ولكنها تستسلم

لحاكم فاسق فاسد، لتتخذ حياة زوجها المتورط في مؤامرة ضد الملك. وتغتصب البارونة مرتين. وفي سورة غضب جنوني تصرخ "أيها الرب القاسي، كيف استحق كراهيتك لي هل لأن الفضيلة كريهة لديك؟(28)". وعلى الرغم من مغزى هذا الكتاب وما تضمنه من إثارة جنسية انتخب ديكلوس للأكاديمية (1746) بفضل نفوذ مدام دي بمبادور. واشترك بحيوية ونشاط في أعمالها، وأعاد تنظيمها، وربط بينها وبين أدب العصر وفلسفته ربطاً يعث فيها الحياة. وفي 1751 خلف فولتير في وظيفة مؤرخ لملك وفي 1754 سعى لانتخاب دالمبرت لعضوية الأكاديمية، وفي 1755 انتخب سكرتيراً دائماً لها، وظل الروح المسيطرة عليها حتى وفاته. وكسب الأكاديمية إلى جانب الأفكار المتحررة. ولكنه رثى وأسف لتهور دي هولباخ

صفحة رقم : 12105

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> حكماء أقل شأناً

وهلفشيوس وديدرو "إن هذه العصبية من الملحنين الصغار سوف تنتهي باقتيادي إلى كرسي الاعتراف". وإنا لنذكره بصفة خاصة من أجل كتابه "نظرات في الخير والشر في هذا القرن" (1750) وهو يتضمن تحليلاً هادئاً دقيقاً مفصلاً عن الأخلاقيات والشخصية الفرنسية. وكتبه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين، واستهله بوقار حكيم خرف "لقد عشت، وأود أن أعيش لأكون ذا نفع لمن سيعيشون". ويأسف "لأن أعظم الشعوب حضارة ومدنية ليست كذلك أكثرها تمسكاً بالفضيلة": إن أسعد الفترات هي تلك التي لا تعتبر فيها الفضيلة حسنة أو ميزة، وإذا بدأ اعتبارها كذلك، فإن العادات بالفعل تتغير. وإذا أصبحت هدفاً للسخرية فتلك هي آخر مراحل الفساد(29). وفي رأيه أن "أكبر نقيصة في الرجل الفرنسي أن له على الدوام شخصية شبابية، ومن ثم فهو في الغالب أنيس لطيف، وقلماً يكون راسخاً متزناً، ويكاد لا يمر بسن النضج، بل ينتقل من الشباب إلى عجز الشيخوخة..... فالرجل الفرنسي هو طفل أوربا(30) -مثلما أن باريس هي ملعبها. ولا يتعاطف ديكلوس كل التعاطف مع عصر العقل الذي يحس أنه دوامة تعصف حوله" "لست متأكداً من إنني أحسن الظن كثيراً بهذا القرن، ولكن يبدو لي أن تخمراً معيناً في العقل يتجه نحو التطور والنمو في كل مكان(31)". إننا في هذه الأيام ننتقد كثيراً في عنف بالغ التحيز والتحامل وربما قضينا عليهما إلى حد كبير. إن التحيز ضرب من القانون العام السائد بين البشر... وفيما يتعلق بهذا الموضوع. لا أملك إلا أن أنحي باللائحة على الكتاب الذين يريدون مهاجمة الخرافة (وقد يكون من البواعث النافعة الجديرة بالثناء إذا تمت المناقشة على أساس

صفحة رقم : 12106

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> حكماء أقل شأناً

فلسفي). فيقرضون أسس الأخلاق ويضعفون روابط المجتمع... والنتيجة المؤسفة لهذا على قرائهم، هي أن يصبح الشباب مواطنين سيئين ومجرمين مخزّين، وأن ينتاب الشقاء الذين يتقدم بهم العمر (32). وكان جريم المراسل الباريسي للشخصيات الأجنبية وواحداً من كثير ممن استاءوا من هذا التشهير الرقيق بالفلسفة، الصادر من رجل نهل من منابع كثيرة "إذا كان المرء مجرداً من الشعور فاسد الذوق، فليس له أن يتحدث عن الأخلاق ولا عن الفنون (33). ولكن جريم كان يزاحم ديكلوس في الظفر بالحظوة لدى مدام دي ابيناى، وإن مذكرات هذه السيدة الرقيقة لنصور ديكلوس فظاً مستبداً إذا تمكن، شديد التهور إذا غلب على أمره. ولكن جريم هو الذي أعد هذه المذكرات للنشر. وإذا كان لنا أن نصدق هذه الصفحات العتيقة الباكية فإن مدام ابيناى طردت من بيتها هذا العريبيد الخائن. وهام رجل الأكاديمية العلامة على وجهه بحثاً عن مضاجع وأراض أخرى، وأخيراً رحل عن هذا العالم وهو في السابعة والستين.

وكان لوك دي كلابيير مركز دي فوفينارج أجدر بالحب. وفي سن الثامنة عشرة التحق بالجيش ثملاً يحب بلوتارك وبالطموح إلى ارتقاء مدارج المجد في خدمة الملك. واشترك في مغامرة الماريشال دي بل أيل المنكوبة في حملة بوهيما 1741-1743. وفي الانسحاب المهلك من براغ تجمدت رجلاه، وحارب في دنتجن 1743. ولكن اعتلت صحته إلى حد إنه ترك الجيش بعدها. وسعى إلى الحصول على منصب دبلوماسي، وكاد أن يظفر ببيغيته بفضل مساعدة فولتير لولا أن مرض الجدري شوّه وجهه. وبدأ بعده يضعف، وانتابه سعال مزمن قتال أفعده عن ممارسة أي عمل.

وأصبحت الكتب عزاءه، وشغله الشاغل. وكان يقول "فوق كل شيء، إن أحسن الأشياء هي أكثرها شيوعاً، فإنك تستطيع أن تشتري ذهن فولتير مقابل كراون واحد" (34) وحذر من الحكم على الكتب بثقل وزنها، فإن خير المؤلفين قد يتحدثون أكثر مما ينبغي وكثير منهم غامضون

صفحة رقم : 12107

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> حكماء أقل شأنًا

إلى حد بيعت السأم والضجر. والوضوح يزين التفكير العميق" (35). وكان مؤلفه الذي دفع به إلى المطبعة 1746 يقع في خمس وسبعين صفحة مقدمة في التعرف على الروح الإنسانية"، وأعقبه "607 من التأملات والحكم" في 115 صفحة. وبعد ذلك بعام واحد، وفي فندق حقير في باريس، قضى نحبه، وهو في الثانية والثلاثين، وهو يمثل موزار وكينس في الفلسفة الفرنسية.

وقال فوفينارج "إن للفلسفة أنماطها وأشكالها، مثل الملابس والموسيقى والعمارة (36)" وقبل بضع سنين قليلة من إضفاء روسو المثالية على الطبيعة والمساواة، صور فوفينارج "الطبيعة بأنها صراع وحشي من أجل الغلبة والسيطرة"، و "المساواة" على أنها وهم وخداع: السائد بين الملوك، وبين الشعوب، وبين الأفراد، أن الأقوى يرتب لنفسه حقوقاً على الأضعف، ونفس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية، وهكذا يجري كل شيء في الكون بالعنف. وهذا النظام الذي نعييه بشيء من شبهة العدل، هو أعم وأثبت وأهم قانون في الطبيعة (37).

إن كل الناس غير أحرار وغير متساوين:  
ليس حقاً أن المساواة قانون من قوانين الطبيعة. إن الطبيعة لم تجعل الأشياء متساوية. وإن قانونها الأساسي هو الإخضاع والتعبية... ومن ولد ليطيع، فسوف يطيع حتى وهو متربع على العرش (38).  
أما بالنسبة للإرادة الحرة، فهي أيضاً أسطورة أو خرافة "فليست الإرادة هي العلة الأولى لأي تصرف أو عمل، بل إنها المنبع الأخير". وإذا أوردنا المثل التقليدي على الإرادة الحرة، وهو أنك تستطيع أن تختار هذا أو ذلك أو ب "بمحض إرادتك" فإن فوفينارج يرد "إني إذا اخترت ب فإن هذا بسبب أن الحاجة إلى الاختيار تقفز إلى تفكيري في

اللحظة التي تجول بـ بخاطري فيها(39). والإيمان بالله أمر لا مفر منه ولا غنى عنه، على أية حال. وأحس فوفينارج بأنه عن طريق هذا الإيمان وحده يمكن أن يكون للحياة وللتاريخ معنى غير الصراع الدائم والهزيمة في النهاية(40).

صفحة رقم : 12108

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> حكماء أقل شأنًا

وأبرز معالم فلسفة فوفينارج دفاعه عن العواطف، ولا ينبغي القضاء عليها لأنها أصل الشخصية والعبقرية وكل قوة التفكير ونشاطه. "الذهن عين النفس المبصرة، ولكن ليس قوتها، لأن قوتها تكمن في القلب أي في العواطف. إن أكثر العقول استنارة لا يمدنا بالقوة على العمل والإرادة(41)... والأفكار العظيمة تتبع من القلب... وربما كنا مدينين للعواطف بأعظم منجزات العقل(42).. إن العقل والوجدان يستشير كل منهما الآخر ويكمله بالتناوب، وهذا الذي يستشير أحدهما ويغفل الآخر، إنما يحرم نفسه في حمق وغباء من بعض الموارد التي منحنا إياها من أجل سلوكنا(43).

وأقر فوفينارج أن حب الذات عام بين الناس، ولكنه رفض اعتباره رذيلة، حيث أنه الضرورة الأولى من ضرورات قانون الطبيعة الأول: حفظ الذات. كما أن الطموح ليس رذيلة، بل أنه حافز "إن حب المجد والعظمة هو الذي يصنع ما تحرزه الأمم من تقدم ونجاح(44). ويضيف أن المرء غير أهل للمجد والعظمة إذا لم يع قيمة الوقت(45). ومهما يكن من أمر فإن هناك رذائل يجب أن تكبح جماحها القوانين والمبادئ الأخلاقية وإن فن الحكومة ليكمن في توجيه الرذائل إلى الخير العام(46). وهناك أيضاً فضائل حقيقية "إن أولى أيام الربيع أقل روعة وفتنة من نمو الفضيحة في الشباب(47).

وعلى الرغم من تسليم فوفينارج بأراء هوبز ولاروشفوكو، ومن تجربته للشر في حياته، فإنه احتفظ بإيمانه بالجنس البشري. قال صديقه مارمونتل: "إنه عرف الحياة ولم يحتقرها. إنه، وقد كان صديقاً للناس، اعتبر الرذيلة محنة وسوء حظ، يبغض الناس بهما لا جريمة. وحلت الشفقة في قلبه محل الاحتقار والبغض... إنه لم يذل إنساناً قط... إن هدوءاً لم يتبدل أخفى آلامه عن أعين أصدقائه. وما كنا في حاجة لاحتمال المحنة، إلا أن تكون لنا فيه أسوة حسنة، فإننا ونحن نرى رباطة جأشه، ما كنا لنجرؤ على إظهاره حزنناً وشقائنا أمامه(48).

صفحة رقم : 12109

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> حكماء أقل شأنًا

ووصفه فولتير بأنه "أتعس الناس حظاً وأكثرهم هدوءاً(49). إن من أكرم مظاهر الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر. ذلك العطف السابغ والعون الودي اللذين حبا بهما فولتير "نبي العقل" فوفينارج نصير بسكال و "القلب". إن الفيلسوف الشاب أعلن عن إعجابه "برجل يشرف قرننا، رجل لا



يقول عظمة وشهرة عن أسلافه "(50). وكتب إليه الرجل العجوز الأكبر منه سناً في لحظة من لحظات التواضع: "لو أنك كنت قد رأيت التور قبل مولدك ببضع سنين، فلربما اكتسبت كتاباتي قيمة أكبر (51) إن أفصح قطعة في مجلدات فولتير المائة هي ما قال في تأبين فوفينارج عند تشييع جنازته(52).

صفحة رقم : 12110

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

5- مونتسكيو

1689 - 1755

أ - الرسائل الفارسية

وجد فولتير أنه من العسير عليه أن يحب مونتسكيو لأن مؤلفه "روح القوانين" (1748) اعتبر بصفة عامة أعظم إنتاج عقلي في هذا العصر. وظهر كتاب حين بلغ صاحبه التاسعة والخمسين، وكان ثمرة خمسين عاماً من التجربة والخبرة، وأربعين عاماً من الدرس والبحث وعشرين عاماً قضاها في تأليفه.

ولد شارل لويس دي سيكوندا بارون دي لايريد ودي مونتسكيو، في لايريد بالقرب من بوردو وفي مقاطعة مونتاني، في 18 يناير 1689. وكان يفاخر مبهتجاً بأنه من سلالة هؤلاء القوط، وهم الذين بعد أن غزوا الإمبراطورية الرومانية، "أسسوا الملكيات وأقاموا صرح الحرية هنا وهناك في كل مكان" (53) إنه انتسب على أية حال إلى "نبلاء السلاح ونبلاء الرداء" كان أبوه كبير القضاة في جوين، وكان الصداق التي قدمته أمه قصر لايريد وأرضها. وفي ساعة مولده تقدم إلى بوابة القصر سائل مسكين، فأدخلوه وأطعموه وجعلوا منه عراباً للطفل (أي أباه في العماد)، زعماً منهم بأن شارل لن ينسى الفقراء أبداً(54). وتربى طوال السنوات الثلاث الأولى من عمره بين فلاحي القرية، وأرسل في سن الحادية عشرة

صفحة رقم : 12111

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

إلى مدرسة طائفة الأوتوربيين في جوبلي على بعد عشرين ميلاً من باريس.. ثم عاد إلى بوردو في سن السادسة عشرة ليدرس القانون. وفي سن التاسعة عشرة حصل على درجته العلمية في القانون. وفي 1713 مات أبوه، وكان شارل آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره، تاركاً له ممتلكات واسعة وثروة متوسطة. وكان يتحدث بصراحة عما "يملك من أرض وعن اتباعه" وسوف تراه تمسك بشدة بالنظام الإقطاعي. وبعد ذلك بسنة دخل برلمان بوردو عضواً وقاضياً. وفي 1716 أوصى له عمه-الذي كان قد اشترى رئاسة البرلمان-بثروته ومنصبه، وقد دافع مونتسكيو فيما بعد عن "بيع المناصب" باعتباره "عملاً حسناً في الدول الملكية، لأنه يجعل من واجب أبناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التي قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع النزيهة غير المغرضة وحدها (56). وبينما كان يتولى رئاسة البرلمان قضى معظم وقته في الدرس والبحث، فأجرى تجارب وقدم أبحاثاً في الفيزياء والفسيولوجيا إلى أكاديمية بوردو، وخطط "تاريخاً جيولوجياً للأرض" لم يكتبه قط ولكن المادة التي جمعها له شقت طريقها إلى كتابه "روح القوانين".

وكان في الثانية والثلاثين حين ملأ أبصار وأسماع باريس في عهد الوصاية بأروع كتبه. إنه أغفل ذكر اسمه على كتابه "الرسائل الفارسية" (1721) لأنه ضم بين دفتيه قطعاً لا يليق صدورها عن قاض. وربما أخذ فكرته عن كتاب جيوفاني مارانا "جاسوس السيد الكبير" (1684) الذي نقل فيه جاسوس تركي وهمي للسلطان، في بذاءة تلفت النظر، عقائد المسيحيين الفاسدة وسلوكهم في أوروبا، والمفارقات المضحكة أو القاتلة بين ما يعلنون وما يفعلون، وثمة أسلوب شبيه في تصوير الحضارة الغربية كما يراها الشرقيون، استخدمه أديسون في سيكتاتور"، وكان شارل دفرسنى "تسلييات جادة وهائلة" قد تصور تعليقات أحد أبناء سيام في باريس، كما أن نيقولا جيوددقيل كان قد أبرز العادات الفرنسية كما يراها أحد هنود أمريكا، وكانت ترجمة جالاند لكتاب "ألف ليلة وليلة" (1704)-

صفحة رقم : 12112

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

(1717) قد زادت من شغف الفرنسيين بالحياة الإسلامية، كذلك فعلت المحاضرات المصورة عن رحلات سير جون شاردان وجان تافرنيه. كما أنه من مارس إلى يولييه 1721 لفت السفير التركي أنظار باريس بفتنة زيه وأساليبه الغربية. من أجل ذلك كله كانت فرنسا مستعدة لتلقي "الرسائل الفارسية". وبيع من هذا الكتاب ثمان طبعات على مدى عام واحد.

وقدم مونتسكيو "الرسائل" على أنها مكتوبة بقلم ريكا وأوزبك، وهما سائحان فارسيان في فرنسا. ومراسليهما في أصفهان. إن هذه الرسائل لن تعرض فقط نقاط الضعف والأهواء والتحيز عند الفرنسيين، ولكنها كشفت أيضاً عن حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية من خلال الكتاب أنفسهم. وحين يسخر القارئ من هذه العيوب والأخطاء، فليس أمامه إلا أن يتقبل عن طيب خاطر السخرية من عيوبه وأخطائه هو. وقد مست هذه العيوب والأخطاء مساً رقيقاً. ومن ذا الذي يغضب لهذه الأفكار الساخرة غير المقصودة، أو الطعنات بسيف مغلف بطريقة مهذبة؟ وفوق ذلك تضمنت بعض الرسائل أسراراً أو رسائل شخصية سارة من حريم أوزبك في أصفهان. من ذلك أن زاكي أي محظيته تكتب لتبلغه بما تعاني من آلام مبرحة لغيابه عنها. كما أن ريكا

تصف مفهوم سيده مسلمة عن الجنة بأنها مكان يكون فيه لكل سيده فاضلة مجموعة من الرجال الواسمين المكتملي الرجولة، وهنا يطلق مونتسكيو لقلمه العنان في سرد التفاصيل في أسلوب الطيش الذي اشتهر به عهد الوصاية. وكان من غير المستطاع، اللهم في فترة خلو العرش هذه، أن تتقادي الهرطقات السياسية والدينية في الرسائل عين الرقيب والمؤاخذة الرسمية. لقد قضى الملك القديم نحبه، والملك الجديد ما زال صبيهاً، والوصي رجل متسامح مرح مبنهج. وعند ذلك استطاع مونتسكيو أن يجعل الفارسيين الذين أوردتهم في رسائله يسخرون من حاكم "ساحر" جعل الناس يعتقدون أن الورق نقود (كان نظام لو قد انهار). (57) كما استطاع أن يفضح فساد

صفحة رقم : 12113

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

الحاشية، وخمول النبلاء المبذرين وسوء إدارة أموال الدولة، وأن يمتدح جمهوريات اليونان وروما القديمة، والجمهوريات الحديثة في هولندا وسويسرا. يقول أوزبك "إن الملكية نظام شاذ غير سوي، ينزلق إلى حكم استبدادي مطلق" (58) (انظر فيما بعد رأياً مخالفاً). وفي الرسائل من 11-14 يوضح أوزبك طبيعة الإنسان ومشكلة الحكم بالتحدث عن سكان الكهوف (التروجلوديون) الذين يتخيلهم عرباً انحدروا من التروجلوديين الذين وصفهم هيرودوت (59) وأرسطو (60) بأنهم قبائل همجية عاشت في أفريقية (قبل التاريخ). وكان تروجلوديو أوزبك يكرهون كل تدخل حكومي. ومن ثم قتلوا كل حاكم مفكر، وعاشوا في جنة من الحرية التامة "اتركه ليعمل" واستغل كل بائع حاجة المستهلك ورفع سعر منتجاته. وإذا اغتصب رجل قوي زوجة رجل ضعيف، فليس ثمة قانون أو حاكم يلجأ إليه. وأقلت القتل والاعتصاب والسلب والنهب دون عقاب، اللهم إلا الإقتصاص الخاص بالعنف، وإذا عانى سكان النجاد من الجفاف تركهم سكان الوهاد يموتون جوعاً، وإذا عانى هؤلاء من الفيضان تركهم سكان النجاد يهلكون. ومن ثم فنيت القبيلة، وبقي على قيد الحياة أسرتان بفضل الهجرة، وتبادلنا العون، ونشأتا أطفالهما على التمسك بالدين والفضيلة واعتبرتتا أنهما أسرة واحدة، واختلطت قطعانها دائماً تقريباً. (61) ولما زاد عددهم وجدوا أن أعرافهم غير كافية لحكمهم فاختاروا ملكاً وخضعوا للقوانين. وانتهى أوزبك إلى أن الحكومة ضرورية ولكنها تعجز عن تأدية مهمتها إذا لم تكن قائمة على الفضيلة في الحاكم والمحكومين.. وكانت الهرطقات الدينية في الرسائل أكثر ترويعاً وتنفيراً من الهرطقات السياسية. ويرى أوزبك أن الزنوج يتصورون أن الإله أسود وأن الشيطان أبيض. ويوحى (مثل زينوفاون) بأنه إذا كانت المثلثات تتحدث عن

صفحة رقم : 12114

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

اللاهوت، فلا بد أن للإله ثلاث أضلاع وثلاث نقاط حادة. ويعجب أوزبك من ساحر آخر يسمى البابا، يحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزاً وأن الخمر ليس خمرًا، وألف شيء من هذا الطراز. (62) ويسخر من الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين. وأفرغته محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال، حيث "يتسبب الدومنيكان في إحراق الناس كما يحرق القش". (63) ويسخر من المسايح وثياب الرهبان الفضفاضة. وهو يتساءل كم تعمر البلاد الكاثوليكية في منافسة مع الشعوب البروتستانتية، لأنه يرى أن تحريم الطلاق وعزوبة الراهبات والرهبان سوف يعوقان ازدياد السكان في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا (قارن إيرلندا في القرن العشرين) ويقدر أوزبك، على هذا المعدل، أن الكاثوليكية في أوروبا لن تعمر أكثر من 500 سنة أخرى (64). أضف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان الخاملين الذين يزعمون أنهم مستعصمون زاهدون يستولون على كل ثروة الدولة تقريباً. إنهم عصابة من البخلاء يأخذون دائماً ولا يعطون أبداً. إنهم باستمرار يكتزون دخولهم لتكون مصدر قوة. وتصاب هذه الثروة بالشلل، فلا تتداول ولا تستغل في التجارة أو الصناعة أو المصانع" (66) ويطلق أوزبك التفكير في أن كفار أوروبا الجهلة الذين يعبدون المسيح بدلاً من عبادة الله والإيمان بحمده سيكون مصيرهم النار، ولكن يراوده بعض الأمل في أنهم في النهاية سيعتقون الإسلام ويُقننون (67). وفي تخيل رمزي جليل يتأمل أوزبك في الإلغاء (1685) مرسوم هنري الرابع للتسامح المعروف بمرسوم ناننت. أنت تعلم ياميرزا كيف أن بعض وزراء الشاه سليمان (لويس الرابع عشر) دبوا خطة لإرغام الأرمن في فارس (الهبجونات) على مغادرة المملكة أو الدخول في الإسلام (الكثلكة)، اعتقاداً منهم بأن إمبراطوريتنا

صفحة رقم : 12115

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

ستظل ملوثة ما دامت تحتضن هؤلاء الكفار... إن اضطهاد مسلمينا الغيورين لهؤلاء الكفار عبدة النار اضطهرهم إلى الفرار زرافات إلى الهند الشرقية، وبذلك حرم فارس من هذا الشعب الجاد النشط. ولم يبق أمام هذا التعصب الأعمى إلا شيء واحد هو تدمير الصناعة، حتى تنهار الإمبراطورية (فرنسا 1713)، حاملة معها تلك الديانة التي أرادوا لها النهوض والتقدم.

وإذا كان الحوار النزيه غير المتحيز ممكناً يا ميرزا، فلست متأكداً من أنه من الخير للدولة أن تكون بها عدة ديانات مختلفة... والتاريخ زاخر بالحروب الدينية، ولكن... ليس تعدد الديانات هو الذي أدى إلى الحروب، بل روح التعصب الذي يشجع الديانة التي تعتقد أنها في صعود (68).

إن الأفكار التي تضمنتها الرسائل الفارسية تبدو لنا الآن مبتذلة عتيقة. ولكنها كانت للمؤلف حين عبر عنها، مسألة حياة أو موت، وعلى الأقل مسألة سجن أو نفي. إنها الآن عتيقة لأننا كسبنا معركة الحرية في التعبير عن الآراء. إن الرسائل الفارسية فتحت الطريق، لهذا استطاع فولتير بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أن يصدر "رسائل عن الإنجليز" ويلقي ضوءاً إنجليزياً على حطام فرنسا. وأعلن هذان الكتابان عن عصر الاستنارة. وعمر مونتسكيو وحريته بعد كتابه، لأنه كان من طبقة النبلاء، ولأن الوصي على العرش كان متسامحاً، كما ارتفعت بعض أصوات الاستنارة وسط التهليل والإعجاب، ومع ذلك لم يجرؤ على الإفصاح عن اسمه وهو المؤلف. وذهب دارجنسون الذي انتقد هو نفسه الحكومة فيما بعد إلى أن "هذه التأملات وأفكار لا يستطيع أن يأتي بها رجل ذكي بسهولة، ولكن ينبغي على الرجل الحصيف الحذر ألا يسمح بطبيعتها". وأضاف ماريو الحريص "يجدر أن يضمن الإنسان بمجهوده في مثل هذه الموضوعات" وقال مونتسكيو "عندما حظيت إلى حد ما بتقدير الجمهور فقدت تقدير الطبقات الرسمية، وواجهت ألفاً من ألوان الاستخفاف والاستهزاء" (69).

وعلى الرغم من كل شيء قصد مونتسكيو إلى باريس ليرشف كؤوس

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

الشهرة في المجتمع وفي الصالونات. وفتحت له الأبواب مدام دي تنسان ومركيزة لمبرت ومركيزة ديناند. ولما كان قد ترك زوجته وراءه في لايريد فلم يكن من العسير أن يقع في شرك الغرام مع سيدات باريس. وتطلع إلى آفاق بعيدة، فتاقت نفسه إلى ماري آن دي يوربون أخت الدوق دي يوربون الذي أصبح رئيساً للوزارة في 1723. ويروي من أنه ألف من أجلها شعراً منثوراً "معبد الحب" (1725) عامراً بنشوة الوجد والهيام، وخفف من وطأة خلاعة هذا الشعر بادعائه أن القصيدة مترجمة عن اليونانية، ومن ثم حصل على ترخيص ملكي بطبعها. وبذل المساعي وبخاصة عن طريق مدام دي ري، لينضم إلى الأكاديمية، فاعترض الملك بأنه غير مقيم في باريس. فأسرع إلى بوردو وتخلّى عن رياسته لبرلمانها، وانضم إلى مجمع الأربعين الخالدين (1728).

وفي أبريل قام برحلة استغرقت ثلاثة أعوام زار فيها بعض أجزاء إيطاليا والنمسا والمجر وسويسرا وأراضي الراين وهولندا، وإنجلترا. التي قضى فيها ثمانية عشر شهراً (نوفمبر 1729-أغسطس 1731) وهناك عقد أوامر الصداقة مع تشستر فيلد وغيرهم من وجوه القوم، واختير عضواً في الجمعية الملكية في لندن، وانضم إلى البنائين الأحرار (الماسونية)، واستقبله الملك جورج الثاني والملكة كارولين، وحضر جلسات البرلمان، وأولع بما ظنه الدستور البريطاني. وعاد أدراجه إلى فرنسا شديد الإعجاب مثل فولتير بالحرية، ولكن ما لمس من مشاكل الحكومة زاد من رصانته واتزانه. وأوى إلى لايريد، وحول متنزهه إلى حديقة إنجليزية، وتفرغ فيما عدا زيارات طارئة إلى باريس- لأبحاثه وكتاباتة التي شغلت بقية أيام حياته.

ب- لماذا سقطت روما

في 1734 أصدر مونتسكيو، دون توقيح، ولكن معترف به عند الجمهور، "نظرات في أسباب عظمة الرومان وسقوطهم". وكان قد دفع بالمخطوطة إلى عالم يسوعي، ووافق على حذف ما يمكن أن يثير ريب الكنيسة. ولكن الكتاب لم يجد، وما كان له أن يجد النجاح الذي صادفته

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

"الرسائل الفارسية" لأنه لم يتضمن أية بذاءات أو أية أشياء تجافي الاحتشام، بل كان يعالج موضوعاً قديماً معقداً وكان محافظاً نسبياً في سياسته ولاهوته. ولم يستغ المتطرفون (الراديكاليون) التوكيد على أن يكون الانحطاط

الخلقي سبباً للاضمحلال القومي، ولم يكونوا مستعدين ليقدروا عمق التقدير والحكمة الرائعة في عبارات مثل "أن الذين لم يعودوا يرهبون القوة في مقدورهم أن يظلوا على احترامهم للسلطة". (70) وتعتبر هذه الرسالة الصغيرة الآن محاولة رائدة في فلسفة التاريخ، ورائعة من روائع النثر الفرنسي تعيد إلى الأذهان ذكرى بوسويه ولكنها تضيف الروعة إلى الوقار.

إن الموضوع جذب نظر المؤرخ الفيلسوف لأنه انتظم السلسلة الكاملة لحضارة عظيمة من الميلاد إلى الفناء، وعرض في نظرة شاملة وتفصيل رائع إحدى عمليات التاريخ الأساسية وهي عملية الفناء أو الانحلال الذي يبدو أنه قدر محتوم أن يعقب كمال التطور في الأفراد والديانات والدول. وكان ثمة اشتباه في أن فرنسا بعد انقضاء القرن العظيم، قد دخلت في فترة طويلة من الاضمحلال في الإمبراطورية والأخلاق والأدب والفن. إن الثالث المدنس: فولتير وديدرو وروسولم يكن قد بدأ بعد إنهم يتحدثون التقوق الفكري والعقلي في القرن السابع عشر. ولكن جراءة العصر الجديد المتزايدة برزت في حقيقة أن مونتسكيو، وفي إيضاحه وشرحه لمجرى التاريخ لم يدرس إلا الأسباب الأرضية، وطرح جانباً في هدوء اللهم إلا لمحات من الإجلال الطارئ، العناية الإلهية التي نجدها في كتاب بوسويه "بحث في تاريخ العالم" قد اتجهت بكل الأحداث إلى نتائج محتومة بقضاء هذه العناية الإلهية. ورأى مونتسكيو أن يفتش عن قوانين التاريخ، مثلما كان نيوتن يبحث عنها في الفضاء: "ليس الحظ هو الذي يحكم العالم، كما نرى من تاريخ الرومان... فثمة أسباب عامة معنوية أو مادية، تعمل عملها في كل مملكة، ترفعها أو تحافظ عليها أو تطيح بها، وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب. وإذا كان ثمة سبب خاص يعينه، مثل النتيجة الطارئة لمعركة ما هو الذي قضى على دولة ما، فهناك

صفحة رقم : 12118

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

سبب هام جعل سقوط هذه الدولة ينتج عن معركة واحدة. وصفوه القول إن الحركة العامة نجر معها كل الأحداث الخاصة غير المتوقعة (71).

وبناء على هذا اختزل مونتسكيو وهبط بدور الفرد في التاريخ. فالفرد مهما عظمت عبقريته لا يعدو أن يكون أداة "الحركة العامة". ولا ترجع أهميته إلى قدرته الفائقة بقدر ما ترجع إلى التقائه مصادفة مع ما أسماه هيجل "روح العصر" فلو أن قيصر وبومبي فكرا مثل ما فكر كاتو (سعباً في الإبقاء على سلطة السناتور الروماني) فربما انتهى آخرون غيرهما إلى نفس أفكارهما. وعند ذلك كانت الجمهورية التي كان مقدراً عليها الفناء لأسباب داخلية، تنساق إلى الانهيار على أيدي أخرى" (72).

ولكن القدر ليس توجيهاً روحياً أو باطنياً، وليس قوة ميتافيزيقية. إنه مجموعة معقدة من عوامل تنتج "الحركة الرئيسية". والمهمة الأساسية للمؤرخين الفلاسفة، في رأي مونتسكيو، هي الكشف عن كل عامل من هذه العوامل وتحليله وتبيان فعاليته وعلاقته. ومن ثم كان سقوط روما (في نظره) يرجع أولاً إلى التحول من جمهورية توفر لها توزيع السلطات وتوازنها، إلى إمبراطورية تصلح أكثر ما تصلح لحكم بلاد تابعة لها، ولكنها تركز كل الحكم في مدينة واحدة في يد رجل واحد، مما يدمر حرية ونشاط المواطنين والأقاليم. ويمرر الزمن انضمت أسباب أخرى إلى هذا السبب الرئيسي: انتشار الخنوع والخنوع بين الجماهير، رغبة الفقراء في أن تعولهم الدولة، ضعف الأخلاق بسبب الثروة والترف والفسق والفجور، تدفق الغرباء الذين تشكلهم التقاليد الرومانية والذين كانوا مستعدين لبيع أصواتهم لمن يدفع أكبر ثمن، فساد رجال الإدارة المركزيين والمحليين، خفض قيمة العملة، فداحة الضرائب، هجر المزارع، استنزاف الحيوية العسكرية بسبب الديانات الجديدة وطول أمد السلم، وفشل النظام العسكري وسيطرة الجيش على الحكومة المدنية، إثارة الجيش لتنصيب الأباطرة أو خلعه عن حماية الحدود من هجمات المتبربرين.... ومن الجائز أن مونتسكيو -على عكس تأكيد بوسويه

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

على العوامل الخارقة للطبيعة لم يتم وزن كبير لتغيير الديانات، الذي أكده جيبون سبباً أساسياً لانهيار الإمبراطورية. ولكن مونتسكيو كان دوماً يعود إلى ما اعتبره العامل الرئيسي في اضمحلال روما-وهو التحول من الجمهورية إلى الملكية، ذلك أن الرومان غزوا بفضل مبادئهم الجمهورية، كثيراً من الشعوب، ولكن في الوقت الذي حققوا فيه هذا، لم تقو الجمهورية على الصمود، وتسببت في الاضمحلال لمبادئ الحكم الجديد وهي مخالفة لمبادئ الجمهورية (73). ومهما يكن من شيء فأنا عدنا إلى الفصل السادس لنتفحص المبادئ الأساسية أو الوسائل التي قهرت بها الجمهورية الرومانية "كل الشعوب" نجد مجموعة متنوعة غريبة: الخداع، نقض المعاهدات، العنف والقوة، العقوبات الصارمة، بذور الشقاق بين العدو ليسهل قهره تدريجياً، (فرق تسد)، نقل السكان من مكان إلى مكان بالقوة، تعكير جو الحكومات المناهضة ومحاولة القضاء عليها بتقديم المساعدات للثورات الداخلية ورشوة القائمين بها. وغير ذلك من الإجراءات المألوفة لدى رجال الدولة. واستخدم الرومان حلفاءهم في القضاء على أعدائهم، وسرعان ما استداروا ليديمروا هؤلاء الحلفاء (74) وواضح-أن مونتسكيو-ناسباً هذا الوصف للمبادئ الجمهورية أو مزردا ميكافيللي في جرة واحدة-اعتبر في الفصل الثامن عشر، الجمهورية مثلاً أعلى للعظمة، ورثى الإمبراطورية منزلقاً بهيجاً للانحلال. ومع ذلك اعترف بفساد السياسة في الجمهورية وبالعظمة السياسية للإمبراطورية في ظل "حكمة نرفاء، ومجد تراجان، وبسالة هادريان وفضائل الاثنى الاثنيونيين" (75) وهنا وجه مونتسكيو كلاً من جيبون وريبان إلى تسمية هذه الحقبة "أكرم وأسعد حقبة في تاريخ الحكومة". ولدى هؤلاء الملوك الفلاسفة وجد مونتسكيو أيضاً أخلاق الرواقين التي فضلها بصرحة ووضوح على الأخلاق المسيحية، وانتقل إعجاب مونتسكيو بالرومان في عهد الجمهورية إلى الفرنسيين المتحمسين للثورة، وأسهم في تغيير الحكومة الفرنسية، والنظم العسكرية والفنون في فرنسا.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

ووقع في الكتاب بعض أخطاء في عمل علمي عجل به ضغط الوقت والرغبة في إنجاز مهمة أضخم. فلم يكن مونتسكيو في بعض الأحيان مدققاً في استخدام النصوص القديمة. من ذلك، على سبيل المثال أنه أخذ الفصول التي كتبها ليفي عن "نشأة روما" على أنها تاريخ، على حين أن فاللا وجلارونوس وفيكو رفضوا هذه الرواية على أنها أسطورة. ويخس مونتسكيو من قيمة العوامل الاقتصادية وراء سياسة جراتشي وقيصر، ولكن في نقابل مواطن

الضعف هذه، فإن نظرة أوسع لا بد أن تحيط ببلاغة الكتاب وقوته وتركيز أسلوبه، ويعمق التفكير وأصالته، ومحاولة المؤلف الجريئة في أن يرسم في صورة واحدة ارتفاع وسقوط حضارة كاملة، ويرتفع بالتاريخ من مجرد سجل للتفاصيل إلى تحليل النظم ومنطق الأحداث. وهنا كان ثمة تحد للمؤرخين، كان على فولتير وجيبون أن يسعيا لمواجهته، كما كان هنا تلهف على فلسفة للتاريخ قد يحاول مونتسكيو نفسه، بعد جيل من الكد والجد أن يتبعه بكتاب "روح القوانين".

ج- روح القوانين

مضت أربعة عشر عاماً بين ظهور كتاب "النظرات" وكتاب "روح القوانين" بدأ مونتسكيو أروع أعماله هذا حوالي 1729، وهو في سن الأربعين. وكان موضوع روما حصيلة جانبية أو ثانوية إعتراضية. وفي 1747 حين بلغ السادسة والخمسين لقي من العمل نصيباً وكان به ميلاً إلى تركه، "كثيراً ما شرعت في هذا الكتاب، وكثيراً ما طرحت جنباً. وقذغت بالأوراق التي كتبتها ألف مرة." (76) وأهاب بالموزيات ربات الفنون والعلوم أن يرعينه ويساعدنه: "إن الدرب طويل، ولقد أضناني الأسى والإرهاق، أدخلن على قلبي البهجة والفتنة اللتين تدفعان بي إلى السير في الطريق، لقد عرفتهما يوماً، ولكنهما الآن تخلتا عني أنتن لستن مقدسات مطلقاً، إلا حين تتولين قيادنا، عن طريق اللذة والسرور، إلى الحكمة والحق" (77). ولا بد أن هؤلاء الرببات استجبن لندائه، لأنه واصل العمل. ولما انتهت المهمة في خاتمة المطاف اعترف بتردده واعتداده بنفسه

صفحة رقم : 12121

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

وز هو: لقد سلكت طريقي نحو الهدف دون إعداد خطة. ولم أعرف أية قاعدة ولا شواذ وما عثرت على الحقيقة إلا لافتقادها ثانية. ولكن عندما وقعت على الأصول والمبادئ ذات مرة وأتاني كل ما كنت أفتش عنه، وفي غضون عشرين عاماً، وجدت أن العمل قد بدأ وخطا خطوات ثم أشرف على الاكتمال، حتى أنجز... وإذا صادف هذا العمل نجاحاً، فأني سأكون مديناً به لعظمة الموضوع وجلاله. ومهما يكن من أمر، فلست أظن أنني كنت مفتقراً إلى العبقرية كل الافتقار، ولما رأيت كم من عظماء الرجال في فرنسا وألمانيا طرخوا هذا الموضوع قبلي، تملكنتي الحيرة إعجاباً بهم، ولكن لم أفقد شجاعتي ولم يزلني الإقدام، وقلت مع كوريجيو "وأنا أيضاً رسام" (78). وعرض المخطوطة على هلفشيوس وهينولت وفونتييل، ورأى هذا الأخير أن البحث يفتقر إلى طلاوة الأسلوب الفرنسي. (79) وتوسل هلفشيوس إلى المؤلف ألا يسيء سمعته الطيبة بوصفه متحرراً بنشر كتاب يتساهل إلى هذا الحد مع كثير من المعتقدات المحافظة المتمسكة بالقديم (80). وقرر مونتسكيو أن هذه التحذيرات غير ذات موضوع، وتقدم للطبع. ولما كان يخشى الرقابة الفرنسية فانه أرسل المخطوطة إلى جنيف، وهناك صدر الكتاب 1748 في مجلدين، دون ذكر اسمه. وحين كشف رجال الدين الفرنسيون عن هرطقاته شجبهه وصدر أمر الحكومة بمنع تداوله في فرنسا. وفي 1750 تولى مالشرب-منقذ دائرة المعارف فيما بعد-شئون الرقابة، رفع الحظر عن الكتاب، وسرعان ما شق طريقه وصدرت منه وعشرون طبعة في عامين، وسرعان ما ترجم إلى لغات أوروبا المسيحية. وكانت العنونات على أيام مونتسكيو توضيحية حقاً، دقيقة غالباً. ولذا سمي كتابه "في روح القانون" أو "في العلاقات التي يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة، والعادات والمناخ والديانة والتجارة، وغيرها". وكان بحثاً في العلاقات بين القوى المادية والأنماط الاجتماعية، وفي



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة. وحاول أن يضع الأساس لما يمكن أن نسميه الآن علم الاجتماع العلمي": أي-على غرار البحث في العلوم الطبيعية-التمكن من الوصول إلى نتائج محققة يمكن إثباتها، تلقى الضوء على المجتمع الحاضر، إلى تنبؤات مشروطة للمستقبل، وكان عسيراً بطبيعة الحال، على رجل واحد أن يتمه مع قصر العمر، والأوضاع الحالية للأنتولوجيا (علم الأعراق البشرية) والتشريع والتاريخ. وبمعنى أدق، كانت فكرة مونتسكيو أن روح القوانين "-أي أصلها وطبيعته ونزعتها-إنما يحددها أولاً مناخ البلاد وتربته، ثم فسيولوجية الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته. وبدأ بتعريف عريض: إن القوانين بأوسع معانيها وأكثرها تعميماً هي العلاقات الضرورية التي تنشأ عن طبيعة الأشياء وواضح أنه أراد أن يأتي "بالقوانين الطبيعية" في العالم المادي، والاطرادات القياسية في التاريخ، تحت مفهوم عام واحد. وعلى غرار جروشيوس وبوفندروف وغيرهما ممن سبقوه، ميز مونتسكيو بين عدة أنواع من القوانين: 1-القانون الطبيعي، الذي عرفه بأنه "عقل إنساني، بقدر ما يحكم شعوب الأرض بأسرها"(81) أي "الحقوق الطبيعية" لكل الناس بوصفهم كائنات وهبت عقلاً. 2-قانون الأمم في علاقاتها بعضها ببعض. 3-قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الفرد والدولة. 4-القانون المدني علاقات الأفراد بعضهم ببعض.

وذهب مونتسكيو إلى أنه في الأطوار الأولى للمجتمع البشري كان العامل الحاسم في القوانين هو التضاريس الأرضية: أي غابة أم صحراء أم أرض منزرعة؟ أي أرض داخلية أم ساحلية؟ أي جبال أم سهول؟ وما هو نوع التربة وطبيعة الغذاء الذي تنتجه؟ وصفوة القول أن المناخ أول العوامل وبالدرجة الأولى أقوى العوامل في تحديد اقتصاد الشعب وقوانينه (وشخصيته القومية). (إن بودين في القرن السادس عشر سبق مونتسكيو إلى هذا التوكيد الأولى كما تنعنه فيه بكل في القرن التاسع عشر). تأمل على سبيل المثال الفوارق المناخية، ونتيجة لها الفوارق البشرية، بين الشمال والجنوب:

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

إن الناس أكثر نشاطاً وحيوية في الأجواء الباردة... وهذا التفوق في القوة لا بد أن ينتج آثاراً مختلفة: وعلى سبيل المثال جرأة أكبر، أي مزيداً من الشجاعة، وشعوراً أكبر بالتفوق، أي رغبة أقل في الانتقام، وشعوراً أكبر بالأمن أي مزيداً من الصراحة وقدر أقل من الارتياح ومن الدهاء السياسي والمكر. لقد شهدت الأوبرا في إنجلترا وفي إيطاليا حيث رأيت نفس الروايات ونفس الممثلين، ومع ذلك فإن نفس الموسيقى حدثت آثاراً متباينة في كل من الأمتين،

فإحدهما فاترة رابطة الجأش، والثانية نشيطة منتعشة مبتهجة... وإذا نحن سافرنا إلى الشمال لالتقينا بأناس قلت رذائلهم وكثرت فضائلهم... وإذا نحن اقتربنا من الجنوب لتخيلنا أننا نبتعد كل الابتعاد عن حدود الأخلاق، حيث تؤدي أقوى الانفعالات والأهواء إلى شتى أنواع الجرائم، حيث يبذل كل إنسان أقصى الجهد، إذا وافته الظروف، أن يحقق رغباته الجامحة...".

وفي البلاد الحارة نجد الماء الموجود في الدم يضيع إلى حد كبير بسبب العرق، ومن ثم يجب تعويضه بوسائل مماثل، وللماء هناك فوائد جمة، وقد تعمل المشروبات القوية على تخثير كريات الدم الذي يتبقى بعد تبخر الرطوبة المائية. أما في البلاد الباردة فالماء المختلط بالدم قليلاً ما يفقد بالعرق، ومن ثم يجدر أن يستفيدوا من المشروبات الروحية التي بدونها قد يتخثر الدم... ومن ثم نجد أن تحريم الشريعة الإسلامية للخمر يلائم بلاد العرب. والقانون الذي حرم على القرطاجيين شرب الخمر قانون مناخي. ومثل هذا القانون لا يصلح للبلاد الباردة حيث يبدو أن المناخ يفرض عليهم لونا من الإدمان على المسكرات بشكل عام... وينتشر شرب الخمر على قدر البرودة والرطوبة في الجو (82). أو تأمل العلاقة بين المناخ والزواج: إن الإناث في البلاد الحارة يكن صالحات للزواج في سن الثامنة أو التاسعة أو العاشرة... ويهرمن في سن العشرين، ومن ثم فإن عقلمن لا يقترن بجمالهن. وإذا تطلب الجمال السيطرة والتسلط أفسد العقل هذا المطلب. وإذا تحلين بالعقل تجردن من الجمال... ومن ثم ينبغي أن تكون

صفحة رقم : 12124

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

هؤلاء السيدات في حالة من التبعية، لأن العقل في الشيخوخة لا يمكن أن يوفر السيطرة التي لم يستطع حتى الشباب والجمال أن يحققها. ولهذا كان طبيعياً إلى أبعد الحدود في هذه البلاد، إذا لم يكن ثمة قانون يمنع، أن يترك الرجل زوجة ليتزوج بأخرى وأن يباح تعدد الزوجات. وفي المناخ المعتدل. حيث تحتفظ النساء بمفاتنهن على أكمل وجه، وحيث يتأخر بلوغهن سن النضج، وينجن في مرحلة متقدمة من الحياة، نجد أن الشيخوخة أزواجهن تتبع شيخوختهن إلى حد ما، وحيث أنهن كن يتمتعن بقدر أكبر من العقل والمعرفة عند الزواج (أكبر من مثيلتهن في الأقاليم شبه المدارية)، فإن هذا يستوجب وجود نوع من المساواة بين الجنسين، وقانون الاقتصار على زوجة واحدة تبعاً لذلك. وهذا هو السبب في أن الإسلام (مع نظام تعدد الزوجات) دخل بسهولة واستقر في آسيا بقدر ما امتد بصعوبة إلى أوروبا، وأن المسيحية استقرت في أوروبا وتحطمت في آسيا. وقصارى القول، هذا هو السبب في أن الإسلام أحرز مثل هذا التقدم في الصين، على حين لم تتقدم المسيحية إلا قليلاً (83).

وعند هذه النقطة يتبين مونتسكيو أنه أحل المناخ محل العناية الإلهية عند بوسويه، ويسارع فيضيف إكراماً للرب، احتراماً منقداً: إن عقول البشر على أية حال خاضعة للعلة الأسمى، الله، الذي يفعل ما يشاء، ويخضع كل شيء لإرادته. ووطن بعض اليسوعيين أن مونتسكيو قد عراه الخجل. وسرعان ما تابع تعميماته الطائشة. ففي "الشرق"، (تركيا وإيران والهند والصين واليابان) يرغم المناخ على حجاب النساء وعزلتهن لأن (الهواء الحار يثير الشهوات) وقد يعرض تعدد الزوجات وأحاد به الزواج على حد سواء للخطر إذا أطلق اختلاط الجنسين كما هو الحال في (بلادنا في الشمال حيث عادات النساء فاضلة بطبيعتها وحيث العواطف هادئة، وحيث يتسلط الحب على القلب تسلطاً وديعاً سويماً إلى حد أن أقل قدر من الحزم والحكمة يكفي لتوجيهه وقيادته) (84). إنها لمتعة أية متعة أن تعيش في مثل هذه

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

الأجواء التي تتيح الحديث وحيث الجنس اللطيف البالغ للفتنة يبدو أنه يزين المجتمع، وحيث الزوجات اللاتي تقتصر الواحدة منهن نفسها على إسعاد رجل واحد، ويسهمن في إدخال السرور والبهجة على الجميع(85)). والعادات والأعراف نتائج مباشرة للمناخ أكثر من القوانين، لأن القوانين ينبغي أن تحاول في بعض الأحيان مقاومة آثار المناخ. وذلك أنه بتقدم الحضارة تتحكم الضوابط الأخلاقية أو القانونية وينبغي لها أن تتحكم في العوامل المناخية، مثال ذلك عزل المرأة وحجابها في الشرق. ويهدف أحكم المشرعين إلى موازنة (الأسباب الطبيعية). والعادات والأعراف وظيفية الزمان والمكان، وليس ثمة عادة أو عرف خطأ أو صواب أو أنه الأفضل في حد ذاته. والعرف، في الجملة خير قانون، لأنه تكيف طبيعي بين الشخصية والموقف، ويجدر بنا أن نتأني ونسير بخطى وثيدة في تغيير العادة والعرف. وتأبي العادة أن تتبدل بالقانون عادة(86).

وحيث أن المواطن يحدد العادة التي تحدد بدورها الخلق القومي فإن شكل الحكومة لا بد أن يختلف من كان إلى مكان تبعاً لهذا المركب الثلاثي. وهي تتوقف بصفة عامة على مدى سعة الرقعة الحكومية: فالجمهورية تنسجم مع رقعة صغيرة من الأرض، يستطيع زعماء المواطنين فيها أن يجتمعوا للتشاور وللتداول أو العمل، فإذا اتسعت الرقعة تطلبت مزيداً من الحروب، وخضعت للحكم الملكي. وتتحول الملكية إلى استبدادية إذا حكمت رقعة شاسعة أكثر مما ينبغي لأن السلطة الاستبدادية وحدها هي التي تستطيع المحافظة على خضوع حكام المقاطعات لسلطانها(87). ويجدر أن نركز الملكية على (الشرف)، أعني أنه يجب تصنيف سكانها في مراتب، كما يجب أن يكون مواطنوها متحمسين غاية التحمس لألقاب الشرف والأوسمة وتفضيلهم أو إثارة هم بالحظوة. أما الجمهورية فيجدر أن تقوم على نشر (الفضيلة) على أوسع نطاق، ويعرف مونتسكيو الفضيلة على طريقته الخاصة بأنها (حب الإنسان لبلده-أعني حب المساواة(88)).

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

وقد تكون الجمهورية أرستقراطية أو ديموقراطية تبعاً لطريقة حكمها: هل يتولاها قسم من المواطنين أو كلهم. ويعجب مونتسكيو بفنيسيا (البندقية) كجمهورية أرستقراطية. وبمدن الدول القديمة على أنها ديموقراطية وهو يعلم ولكن يتجاهل أن المواطنين المحررين ليسوا إلا أقلية. ويمتدح الحكم الذي أقامه وليم بن في أمريكا. ويمتدح في حماسة أكبر إنشاء المناطق الشيعية الدينية التي أسسها اليسوعيون في باراجواي(89). والحق يقال على أية حال إن الديموقراطية الأمينة الحققة لا بد أن تحقق المساواة الاقتصادية والسياسية معاً، وأن تنظم الموارث والمهور، وتعمل على فرض الضريبة التصاعدية على الثروات(90). أن خير تلك الديموقراطيات هي التي يعترف فيها مواطنوها بعجزهم عن تحديد السياسة التي تنتهجها بلدهم، ومن ثم يقرون السياسة التي يحددها ممثلوهم الذين انتخبوهم. وينبغي على الدولة الديموقراطية أن تهدف إلى المساواة ولكن يمكن أن تدمرها روح المساواة المتطرفة، حين يسعد كل

مواطن أن يكون في مستوى أولئك الذين اختارهم ليأتمر بأمرهم... وإذا كان هذا هو الوضع فلن تقوم للفضيلة قائمة في الجمهورية. فهنا يكون المواطنون راغبين كل الرغبة في ممارسة مهام الحكام الذين لا يعود أي توفير أو احترام. وهنا يكون الاستخفاف بمداولات السناتو، ومن ثم لا يكون هناك احترام لأعضائه، ولا احترام لكبر السن، وإذا انعدم التقدير والاحترام لكبر السن انعدم تبعاً لذلك الإذعان للوالدين أو الأزواج والامتثال للرؤساء. وسرعان ما تنفشي هذه الظاهرة. إن الناس إذ يصابون بهذا البلاء محاولين التستر على فسادهم، يسعون إلى إفساد من وضعوا ثقتهم فيهم... وعندئذ يقتسمون الأموال العامة فيما بينهم، فإذا استنثاروا بإدارة الأمور بالإضافة إلى تكاسلهم وتراخيهم، انصرفوا إلى مزج فقرهم بشيء من لهُو الترف (91). وهكذا يقول البارون، مردداً قول أفلاطون عبر ألفين من السنين: تنقلب الديمقراطية إلى فوضى. ثم إلى دكتاتورية، ثم تنهار.

صفحة رقم : 12127

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

وهناك في مونتسكيو أجزاء كثيرة تحبذ الجمهورية الأرستقراطية، ولكنه خشي الاستبدادية التي ذهب إلى إمكان قيامها في الديمقراطية إلى حد أنه كان يريد الصبر عليها أو تحملها إذا كانت هذه الجمهورية تحكم وفقاً لقوانين راسخة. ويعالج أقصر فصول كتابه الحكم المطلق الاستبدادي وهو يتألف من ثلاث مقالات قصيرة: "إذا أراد متوحشوا لوزيانا ثماراً قطعوا الشجرة من جذورها ليجمعوا الثمار، وهذا رمز للحكومة الاستبدادية (92)" أي أن الحاكم المستبد يستأصل أعظم الأسرار كفاية ومقدرة ليحامي قوته وسلطانه. وكانت الأمثلة التي أوردها لهذا شرعية بشكل يطمئن إليه، ولكن كان من الواضح أنه يخشى نزوع ملكية البوربون إلى الاستبداد، حيث كان الكاردينال ريشيليو ولويس الرابع عشر قد دمرا قوة الأرستقراطية السياسية. وتحدث عن ريشيليو وكأنه "مأخوذ بحب السلطة المطلقة (93)". أنه كره أشد الكراهية بوصف كونه نبيلاً فرنسياً، أن يهبطوا بمكانة طبقته إلى مجرد أفراد في الحاشية الملكية، واعتقد أن بعض القوى المتوسطة الخاضعة التابعة، ضرورة لحكومة صحيحة وكان يعني بهذه القوى النبلاء مالكي الأرض والحكام الوراثةيين، وكان ينتسب إلى كليهما. ومن ثم دافع النظام الإقطاعي بتفصيل شديد (1753 صفحة)، مضحياً بوحدة كتابه وتناسقه. إن مونتسكيو هو الوحيد من بين فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر الذي امتدح نظام العصور الوسطى، واتخذ من لفظة "قوطي"، تعبيراً عن النثناء والإطراء. وفي الصراع الذي استمر طوال حكم لويس الخامس عشر بين الملكية والبرلمانات اتخذ الحكام الذين يعدون للمعركة مصنعاً للحجج والأسانيد في "روح القوانين". إن نفور مونتسكيو من الحكومة المطلقة مطية للحكم المطلق أدى به إلى تحبيذه حكومة مختلطة: فيها ملكية وأرستقراطية وديموقراطية معاً ملك ونبلاء وجمعية عامة. ومن هنا كان أشهر آرائه، نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في الحكومة (94). فالسلطة التشريعية تسن

صفحة رقم : 12128

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

القوانين لكن لا تتولى تنفيذها، وتتولى السلطة التنفيذية القيام على تنفيذها ولكن لا تسنها. وتقتصر السلطة القضائية على تفسيرها. "وتضم السلطة التشريعية مجلسين، مجلس يمثل الطبقات العليا، وآخر يمثل العامة. وهنا يتحدث البارون ثانياً.

في مثل هذه الدولة يوجد دائماً أناس يتميزون بحكم مولدهم وثوراتهم وأقابهم، فإذا تساوا وخلطوا بعامة الشعب، فلا يكون لهم إلا صوت واحد مثل الباقين، فإن الحرية العامة تكون بمثابة استرقاق لهم، ومن ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم، وتكون معظم القرارات الشعبية في غير مصلحتهم. ويجدر أن يتناسب نصيبهم مع سائر امتيازاتهم في الدولة، وهذا يحدث فقط حين يشكلون هيئة في الدولة يكون لها الحق في مقاومة إساءة استعمال الشعب للسلطة في الدولة، كما يكون للشعب الحق في مقاومة أي اعتداء على حرية الشعب. ومن هنا تكون السلطة التشريعية في أيدي النبلاء وأيدي الذين ينتخبهم الشعب، على أن يكون لكل هيئة اجتماعية ومداواتها منفصلة عن الأخرى، ولكل صلاحياتها وأراؤها(95)".

وتكون كل من الهيئات الثلاث وكل من المجلسين رقيباً بعضهم على بعض، وبهذه الطريقة المعقدة تلتئم حريات المواطن مع حكمة الحكومة وعدالتها ونشاطها.

وكانت هذه الأفكار عن الحكومة المختلطة قد انحدرت إلى مونتسكيو من دراسته لهارنجتون وألجروني وسيدني ولوك، ومن الخبرة التي اكتسبها في إنجلترا. إنه ذهب إلى أنه وجد هناك مثله الأعلى مهما كان منقوصاً، في ملكية تكبح جماحها ديموقراطية في مجلس العموم، كما يكبح جماح مجلس العموم الأرستقراطية في مجلس اللوردات. وظن أن المحاكم في إنجلترا هي بمثابة كايح مستقل لجماح البرلمان والملك وامتدح ما كان قد رأى في إنجلترا رقابة نشئت فيلد وغيره من النبلاء ولكنه مثل فولتير استخدم هذا الشكل المثالي حافظاً لفرنسا. ولا بد أنه عرف أن المحاكم الإنجليزية ليست مستقلة تمام الاستقلال عن البرلمان، ولكنه ذهب إلى أنه من الخير لفرنسا أن

صفحة رقم : 12129

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

تفكر في الأخذ بحق المتهمين في إنجلترا تحقيق عاجل، أو إطلاق سراحهم بكفالة، ومحاكمتهم أمام محلفين من طبقتهم، مع تحدي الاتهام، وإعفائهم من التعذيب، ولكنه رأى كذلك "ألا يدعى النبلاء للمثول أمام المحاكم العادية بل أمام قضاة من نفس طبقتهم في هيئتهم. "إنهم كذلك لهم الحق في محاكمتهم أمام نظرائهم(96)". إن مونتسكيو أصبح محافظاً أكثر فأكثر مع تقدمه في السن. إن روح المحافظة على القديم رسالة والتزم في الشيخوخة، كما أن الراديكالية، (التطرف) رسالة نافعة في الشباب، والاعتدال هبة وخدمة في أواسط العمر، ومن ثم كان لنا دستور في ذهن أمة، بما فيه من سلطات ذات وقيود وضوابط متبادلة وعرف مونتسكيو الحرية مع كل تمجيد لها بوصفها الهدف الصحيح للحكومة، بأنها "حق كل إنسان في عمل ما تجيزه القوانين فإذا أتى مواطن شيئاً تحرمه القوانين، فإنه لا يعود يتمتع بالحرية. لأن سائر المواطنين يمكن أن يكون لهم نفس الصلاحية(97)". واتفق مع زميليه جاسكون ومنتاني، على استنكار الثورات. "إذا ثبت شكل الحكومة واستقر منذ أمد بعيد، وبلغت الأمور حداً معيناً من الثبات والاستقرار، فإنه من الحكمة تقريباً أن تترك الأمور كما هي، لأن الأسباب-هي غالباً معقود أو غير معروفة- التي هيأت لها الصمود والثبات، سوف تستمر في الإبقاء عليها (أي على هذه الحكومة(98)).

ورفض فكرة المساواة في الملكية أو السلطة ولكنه فكر، مثل جرانسي في تركيز ملكية الأرض: "من الأرض التي تكفي لتغذية أمة... لا تكاد تحصل عامة الشعب على ما يقوت أسرهم... فإن رجال الدين والأمير والمدن وعظام

الرجال وبعض البارزين من المواطنين يصبحون دون أن يحسوا ملاكاً لكل الأرض التي تبقى غير منزرعة. وتهجر الأسرات التي دمرت مزارعها، والرجل الكادح معدم فقير. وفي هذا الوضع يجدر بالهيئة الحاكمة أن توزع الأرض بين الأسرات المحتاجة وتوفر لها المواد والأدوات اللازمة لإصلاحها وزراعتها، وينبغي أن يستمر التوزيع ما دام هناك من يتسلمها(99).

صفحة رقم : 12130

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

واستنكر زراعة الأرض من أجل جباة الضرائب لحساب رجال المال الخصوصيين، واستنكر الرق بشدة في حماسة أخلاقية وتهكم لاذع(100). واعترف بالضرورة الطارئة للحرب، وامتد بمفهوم الدفاع إلى إجازة-المسارعة إلى الاستيلاء على الأراضي: إن حق الدفاع الطبيعي قد ينطوي أحياناً بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم، كما يرى بعضهم على سبيل المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام، وعندئذ يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير السلام(101).

ولكنه استنكر سباق التسلح: ولقد ساد الاضطراب من جديد كل أوروبا، فأصاب أمراءها وأغراهم بحشد قوات هائلة، ولهذا مضاعفاته، ويصبح بالضرورة معدياً، فإنه إذا شرع ملك في زيادة قواته، فإن الباقيين بطبيعة الحال يحذون حذوه. ومن ثم لا نجني من هذا ألا الدمار الشامل(102).

وعلى الرغم من أنه قدر الروح الوطنية أكبر تقدير إلى حد أنه سوى بينها وبين الفضيلة، إلا أنه راوده في بعض الأحيان حلم مبادئ أخلاقية أرحب أفقاً: "إذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي ولكنه يضر بأسرتي، فينبغي علي ألا أقدم عليه، وإذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي، ولكنه يضر بأسرتي، وليس لوطني، فيجدر بي أن أحاول أن أنساه، وإذا رأيت أن شيئاً ذا فائدة لوطني، ولكنه يضر بمصلحة أوروبا والجنس البشري فلا بد أن أعتبره جريمة رسمية(103)".

إن غاية ما يصبو إليه من مبادئ أخلاقية وديانة خفية هو مذهب الرواقيين القدامى: "لم توجد قط مبادئ أكثر منها التتماماً مع الطبيعة البشرية ولا أقوم منها لبناء المواطن الصالح... وإذا استطعت أن أتخلى عن المسيحية لحظة لوصفت القضاء على مذهب زينون مؤسس مذهب الرواقيين محنة من بين المحن التي ابتلى بها الجنس البشري... إن هذا المذهب وحده هو الذي صنع المواطنين، وهو وحده الذي صنع عظماء الرجال وهو وحده الذي صنع الأباطرة. وإذا نحننا جانباً الحفائق التي

صفحة رقم : 12131

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

كشفت عنها لحظة، وفتشنا في الطبيعة كلها فإننا لن نجد شيئاً أسمى من الانطوائيين، حتى ولا جوليان نفسه (وهو إطرأ انتزع مني أرجو ألا يجعلني شريكاً في جريمة الردة). كلا، لم يوجد قط منذ عهده أمير أجدر بحكم الجنس البشري (104). وواضح أن مونتسكيو حرص في "روح القوانين" على مسالمة المسيحية. إنه اعترف بوجود الله فأبيح حق أفضح من قضاء وقدر أعمى خلق كائنات ذكية (105). ولكنه تصور هذا العقل الأسمى كما عبرت عنه قوانين الطبيعة، وهو لا يتدخل فيها مطلقاً. قال فاجيه "إن الله بالنسبة لمونتسكيو هو روح القوانين (106)"، وقبل المعتقدات الخارقة للطبيعة دعامة ضرورية لقانون أخلاقي لا يلتزم مع طبيعة الإنسان. "ومن الخير أن يكون هناك بعض كتب مقدسة لتكون شريعة مثل القرآن عند المسلمين، وكتب زرادشت عند الفرس، والفيدا عند الهنود، والكتب القديمة عند الصينيين. وإن الشرائع الدينية تكمل القوانين المدنية، وتحدد مدى السيطرة الاستبدادية (107)". وينبغي أن تكون الدولة والكنيسة رقيبتي كل منهما على الأخرى، كما ينبغي أن تظل كل منهما منفصلة عن الأخرى. وهذا التفريق الكبير بينهما هو أساس هدوء الأمم (108). ودافع مونتسكيو عن الدين ضد بيل (109). ولكنه أخضعه، مثل أي شيء آخر لتأثير المناخ والخلق القومي: "إن حكومة معتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي، والحكومة المستبدة أصلح للعالم الإسلامي. وإذا اختيرت ديانة تلائم مناخ بلد ما، تتعارض مع مناخ بلد آخر فإن هذه الديانة لن تقوم في هذا البلد الثاني، وإذا أدخلت كان مآلها النبذ والرفض (110).... والمذهب الكاثوليكي أكثر ما يكون توافقاً مع الملكية، والبروتستانتية مع الجمهورية.... وإذا انقسمت المسيحية لسوء الحظ إلى كتلكة وبروتستانتية، فإن أهل الشمال يعتقدون البروتستانتية، على حين يظل أهل الجنوب متمسكين بالكاثوليكية. والسبب واضح. فإن أهل الشمال يتمسكون، وسيظلون يتمسكون إلى الأبد بروح الحرية والاستقلال، وهذا ما لا يتمتع به أهل الجنوب. فإن الديانة التي لا يكون لها رئيس بارز هي أكثر ملائمة لهم (111).

صفحة رقم : 12132

قصة الحضارة - عصر فولتير - فرنسا - نشاط الذهن - مونتسكيو

وعلى حين سلم مونتسكيو بمزايا الدين إجمالاً فإننا نراه يسهب في نقده، واستنكر شراء رجال الدين في فرنسا (112). ودون "أفطح احتجاج على محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، لوقف إحراق المهرطقين، وحذرهم من أنه "إذا تجرأ أحد في الأجيال القادمة أن يثبت أن الناس في أوربا في عصرنا كانوا متحضرين، فإنه لا بد أن يمثل أمام القضاء ليثبت أنهم كانوا متبربرين (113)" وسخر بوصفه قوطياً محباً لوطنه، من عصمة البابا من الخطأ وألح في أن تكون الكنيسة خاضعة للسلطة المدنية، واتخذ بالنسبة للتسامح الديني موقفاً وسطاً: "إذا كان للدولة مطلق الحرية في اعتناق أو نبذ أي دين جديد، فينبغي أن ترفضه، فإذا اعتنقته وجب عليها أن تتسامح معه (114). ومع كل احترامه للرقب ظل مونتسكيو عقلاً نياً "فالعقل هو أكمل وأكرم وأجمل ملكتنا (115)". وماذا يقدم عصر العقل شعاراً أفضل من هذا؟.

د - النتيجة

ما أسرع ما اعترف الناس "بروح القوانين" حدثاً ضخماً في الأدب الفرنسي، ولكن النقاد تلقوه عن اليمين وعن الشمال. فالجانسونيون واليسوعيون، وهم على طرفي نقيض عادة، اتفقوا على مهاجمته على أنه رفض ماكر خبيث للمسيحية. وقالت جريدة "أخبار الكنيسة" وهي لسان حال أتباع جانسن: "إن الجمل المعترضة التي يضعها المؤلف ليقول لنا أنه مسيحي تؤكد لنا توكيداً هزلياً أنه كاثوليكي، وإن المؤلف ليسخر من سذاجتنا إذا حسبناه على غير ما هو عليه". وختم المحرر حديثه ببناء وجهه إلى السلطات المدنية باتخاذ إجراء ضد الكتاب (116). واتهم اليسوعيون

مونتسكيو باتباعه فلسفة سبينوزا وهوبز، بافتراضه وجود قوانين في التاريخ مثلما هي في العلوم الطبيعية، ولم يترك مجالاً لحرية الإرادة. ودافع الأب برتنيه في صحيفة "تريفو" اليسوعية عن أن الحق والعدل مطلقان، وليساً نسبيين تبعاً للمكان والزمان، وإن القوانين يجب أن تركز على مبادئ عامة من الله، لا على تنوعات المناخ والتربة والعرف والخلق القومي(117)

صفحة رقم : 12133

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

ورأى مونتسكيو أنه من الحكمة أن يصدر في 1750 "دفاعاً عن روح القوانين"، تتصل فيه من الحاد والمادية والجبرية، وأكد من جديد مسيحيتته. ولكن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين. وكان الفلاسفة الناشئون في ذات الوقت مستائين، حيث اعتبروا روح القوانين كتيباً في المحافظة على القديم، واستاءوا من روعه العارض واعتدال إصلاحاته المقترحة، ومفهومه الهزيل الفاتر على التسامح الديني(118). وكتب هلفشيوس إلى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعي والمصاعب التي تعترضه(119). أما فولتير الذي كان يعد كتابه عن الفلسفة التاريخ في البحث "في الأعراف"، فإنه لم يكن متحمساً لعمل مونتسكيو. ولم يكن قد نسي معارضة السيد الرئيس لانضمامه إلى الأكاديمية بقوله: عار على الأكاديمية أن يكون فولتير عضواً فيها، وسيكون العار عليه يوماً ما ألا يكون عضواً فيها(120)". وتوقف نقد فولتير تحت ضغط الظروف، وتحول إلى إطراء غير متحمس واعتراض بأن مونتسكيو كان مبالغاً في تأثير المناخ. ولاحظ أن المسيحية نشأت في أرض اليهود الحارة، وأنها لا تزال مزدهرة في النرويج القارصة البرد، ورأى أنه من الأرجح أن إنجلترا تحولت إلى البروتستانتية لأن أن بولين كانت جميلة، لا لأن هنري الثامن كان فاتراً(121). وإذا كانت روح الحرية نشأت كما ذهب إليه مونتسكيو، في الأقاليم الجبلية، فكيف تفسر قيام الجمهورية الهولندية القوية، أو "حق اعتراض"، اللوردات البولنديين (وفي القاموس الفلسفي) دون صفحات كثيرة تتضمن أمثلة تدل على أن للمناخ بعض الأثر، ولكن للحكومة أثراً كبيراً منه مائة مرة ولكن للديانة والحكومة معاً، أثراً أكبر من هذا بكثير(122). إننا لنسأل الذين يؤمنون بأن المناخ يفعل كل شيء (لم يزعم مونتسكيو هذا) لماذا يقول الإمبراطور جوليان في رسائله إن الذي سره في الباريسييين هو خلقهم القور وعاداتهم الصارمة، ولماذا نرى الباريسييين الآن، دون أدنى تغيير في المناخ، أطفالاً لعوبيين هازلين، وهو أمر تعاقبهم عليه الحكومة وتسخر

صفحة رقم : 12134

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو



منهم من أجله، وفي نفس الوقت، كما أنهم هم أنفسهم يسخرون، في لحظة تالية من سادتهم ويهجونهم هجاء لاذعاً(123).

ووجد فولتير الجواب:

إنه الانقباض أو الاكتئاب، وهو عكس ما يرددونه في كثير من الإستشهادات والحكم والمثال، ولكنه دائماً الحقيقة تقريباً... "فالناس في المناطق الحارة جبناء مثل العجائز، أما في المناخ البارد فهم شجعان مثل الشبان". "إننا يجدر بنا أن نكون على حذر من أن بعض القضايا العامة. تفلت منا، وما كان في مقدور أحد أن يجعل من سكان لابلند أو الأسكيمو محاربين على حين أن العرب فتحوا في ثمانين عاماً من الأقاليم ما فاق فتوحات الإمبراطورية الرومانية بأسرها(124).

ثم يمتدح فولتير "روح القوانين" فيقول: "بعد أن أفتننا أنفسنا على هذا النحو بأن الأخطاء كثيرة في، "روح القوانين"... وأن هذا العمل ينقصه النهج، كما تعوزه خطة العمل والنظام، فقد يليق بنا أن نتساءل ما الذي أضاف عليه هذه القيمة الكبيرة، وأدى إلى شهرته العظيمة. إنه في المقام الأول مكتوب بذكاء عظيم، على حين أن ألفوا في هذا الموضوع كانت كتاباتهم مملة تبعث على السأم والضجر. وعلى هذا الأساس رأت إحدى السيدات (مادم دي ديفان) وهي تتمتع بذكاء مثل ذكاء مونتسكيو أن الكتاب هو "الذكاء في القوانين"، وهو أصح تعريف له. وثمة سبب أقوى وهو أن الكتاب يعرض وجهات نظر أو آراء عظيمة ويهاجم الطغيان والخرافة والضرائب الفادحة... إن مونتسكيو كاد أن يكون على خلاف مع العلماء لأنه ليس عالماً، ولكنه كان دائماً على حق تقريباً ضد المتعصبين ومتعهدي الرقيق. أن أوربا مدينة له بالشكر والامتنان على الدوام(125).

وأضاف في موضع آخر: "إن الإنسانية كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة (من أجل الحرية) واستردها مونتسكيو(126).

واتفق النقد المتأخر مع فولتير إلى حد كبير على حين اعترض على

صفحة رقم : 12135

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

مبالغاته(127). حقاً إن أسلوب الكتاب كان ضعيفاً، مع قليل من المنطق في ترتيب الكتاب وتسلسل موضوعاته ونسيان للفكرة الأساسية التي تحكم الربط بين أجزائه. وفي تمس مونتسكيو ليكون عالماً، يجمع الحقائق ويفسرها، لم يعد فنانياً. أنه ضيع الكل في الأجزاء، بدلاً من تنسيق الأجزاء في كل منسق. وكان قد قضى في جمع مادة الكتاب أكثر من نصف عمره، وكتبه في نحو عشرين عاماً، وأساء التأليف المتقطع إلى وحدة الكتاب، وتسرع في الوصول إلى أحكام عامة من أمثلة قليلة ولم يفتش عن أمثلة تنقضها مثال ذلك أيرلندة الكاثوليكية في الشمال البارد ومن ثم يجب أن تكون بروتستانتية وتخلي من منهجه حين قال: "لقد وضعت المبادئ الأولى ووجدت أن الحالات الخاصة لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة بشكل طبيعي، وأن تاريخ كل الأمم ليس إلا نتائج لهذه المبادئ" فهذا هو خطر تناول التاريخ بفلسفة يثبتها عن طريق هذا التاريخ وعند جمع مادة الكتاب قبل مونتسكيو كل بيانات السانحين دون تحقيق ولا تدقيق، وفي بعض الأحيان أخذ الخرافات والأساطير على إنها تاريخ، بل أن ملاحظاته المباشرة كان يمكن أن تكون خاطئة، ومن ذلك أنه رأى "فصلاً بين السلطات" وفي حكومة إنجلترا على حين أنه كان من الواضح أن السلطة التشريعية هناك كانت تعطي على السلطة التنفيذية.

وإلى جانب هذه الأخطاء لا بد أنه كان للكتاب مزايا أدت إلى الترحيب به وتأثيره. إن فولتير حدد أسلوبه بحق، على أن الأسلوب أيضاً عانى من شظايا المعلومات لا المعلومات الكاملة المستوفاة. وأولع مونتسكيو بالفصول القصيرة وربما كان هذا وسيلة للتركيز، مثال ذلك الفصل الذي كتبه عن الحكم الاستبدادي المطلق، مما أدى إلى التقطع وعدم الترابط مما عوق تدفق الفكرة. وربما كان جزء من عدم استيفاء البحث راجعاً إلى تقادم بصره مما اضطره

إلى الإملاء بدلاً من الكتابة. وعندما كان يتمتع بكامل قوته وحيويته حقق في عبارات قوية واضحة بعضاً من الإشراف والروعة في الرسائل الفارسية. ويروي فولتير أن في "روح القوانين من العبارات الساخرة أكثر مما يليق بكتاب في القانون. يقول

صفحة رقم : 12136

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

مونتسكيو "إن الناس فينيسيا مقترحون غاية التقدير إلى حد أنه من أجل المومسات وحدهن يستطيع الرجال أن يغادروا البيت ومعهم نقود(128)". وهذا، على الرغم من كل شيء، أسلوب و قدر معتدل هادئ وهو في بعض الأحيان غامض ولكنه يعوض عن حل الألغاز.

وكان مونتسكيو متواضعاً كما كان مصيباً في أنه أرجع جزءاً من قيمة الكتاب إلى موضوعه وهدفه. أنك لكي تعثر على قوانين في القوانين، وعلى نظام في تنوعها تبعاً للمكان والزمان، ولكي تعمل علة تنوير الحكام والمصلحين عن طريق دراسة مصادر التشريع وحدوده بالنسبة لطبيعة ومكان الدول والناس فهذا عمل جليل ضخم تقتضي ضخامته وجلاله الصفح عن الزلات. وأخفق هربرت سبنسر في نفس هذا العمل بعد ذلك بمائة وثمانية وأربعين عاماً، وعلى الرغم من عدد كبير من معاونين في البحث، وبسبب نفس الرغبة في استخلاص أحكام عامة، ولكن كلنا المحاولين كأننا زيادة في الحكمة. ولكن كتاب مونتسكيو كان أفضل وهناك الناس سبقوه ولم يكن هو البادئ بالتأليف في هذا الموضوع، ولكنه عجل بوضع المنهج التاريخي بقوة للدراسة المقارنة للنظم. ولقد سبق فولتير في وضع فلسفة للتاريخ مستقلة عن الأسباب الخارقة للطبيعة وبلغ أفاقاً واسعة ونزاهة في الرأي لم يبلغها فولتير. إن بيرك أطلق على مونتسكيو "أعظم عبقرية نورت هذا العصر (130) واعتبره بين تين أعقل وأحكم وأكثر الرجال اتزاناً في هذا العصر (131) ورأى هوراس ورليبول أن روح القوانين أحسن كتاب ظهر على الإطلاق (132) وقد لا يكون هذا صحيحاً ولكنه أحسن كتاب ظهر في هذا الجيل.

لقد أنهك هذا الكتاب مؤلفه. وكتب إلى أحد الأصدقاء: أعتزف لك أن هذا الكتاب قتلتني. سأخذ إلى الراحة ولن أعمل شيئاً بعد الآن (133)

صفحة رقم : 12137

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث. وكان يقول "الدراسة بالنسبة لي هي خير علاج لكل خيبة أمل في الحياة. ولم أجد ضيقاً إلا فرج من كرتة ساعة قضيتها في القراءة (134).

وزار باريس من حين لآخر وسعد بشهرته هناك التي كانت تضارع شهرة فولتير آنذاك (1748). ويقول رينال لقد جذب كتاب روح القوانين انتباه كل الشعب الفرنسي. إننا نجده في مكتبات علماءنا ودارسينا وعلى منضدة زينة سيداتنا وعند كل شبابنا المتأنق (135) ورحبوا بالمؤلف من جديد في الصالونات واستقبلوه في البلاط الملكي، ولكنه قضى معظم الوقت في لايرد حيث قنع بأن يكون سيداً عظيماً. وسر الإنجليز بالكتاب أيما سرور حتى أنهم طلبوا من أعداداً وفيرة. وفي سنيه الأخيرة كاد أن يصاب بالعمى، وكان يقول "يبدو لي أن الأثير الخفيف من البصر الذي بقي لي ليس إلا فجر اليوم الذي تغلق فيه عياني إلى الأبد (136) وفي 1754 قصد إلى باريس لإنهاء إيجار بيته هناك، ولكنه أثناء تلك الزيارة أصيب بالتهاب رئوي وقضى نحبه في 10 فبراير 1755 وهو في السادسة والستين وتناول الأسرار المقدسة الكاثوليكية. وكان الأديب الوحيد الذي شيع جنازته هو ديرو وهو من أتباع مذهب اللأدرية (137) وذاع صيته وامتد أثره على مر القرون. وكتب جيبون: "على مدى أربعين عاماً منذ صدور روح القوانين لم يقبل الناس على قراءة كتاب أو نقده أكثر منه. وليست روح البحث والتحقيق التي أثارها أقل مآثر الكاتب علينا (138)" وكان جيبون وبلاكستون وبيرك من بين من أفادوا من روح القوانين وعظمة الرومان واضمحلالهم وعده فودريك الأكبر أحسن كتاب بعد كتاب الأمير، ورأت كثيرين الكبرى أنه ينبغي أن يكون كتاب الصلوات اليومية لدى الملوك (139) واقتبست فقرات منه للرجال الذين عينتهم لمرجعة القوانين الروسية. ولم ينقل واضعوا مسودة الدستور الأمريكي عن مونتسكيو نظرية فصل السلطات فحسب بل استبعاد أعضاء الوزارة من الكونجرس كذلك

صفحة رقم : 12138

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> نشاط الذهن -> مونتسكيو

وتضمنت كتاباتهم كثيراً من الاقتباسات من الكتاب. وأصبح روح القوانين الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين في الثورة الفرنسية تقريباً ونشأ عن كتاب عظمة الرومان واضمحلالهم بعض إعجابهم بالجمهورية عند الرومان. ويقول فاجيه أن كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسكيو (141) وعلى مدى جيل من الزمان كان مونتسكيو، لا فولتير، هو صوت العقل وبطله في فرنسا.

صفحة رقم : 12139

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> في باريس

الفصل الحادي عشر

لدى عودة فولتير من إنجلترا في أواخر عام 1728 أو أوائل عام 1729 اتخذ مسكناً مغموراً في حي سان جرمان-ان-لي-على بعد 11 ميلاً إلى الشمال الغربي من باريس، وحشد أصدقاءه لينشروا أنباء غير رسمية عن إلغاء قرار نفيه من فرنسا ثم من العاصمة، ونجحوا في هذا، بل في استعادة معاشه الملكي كذلك. وما حل شهر أبريل حتى ظهر فجأة، وأخذ يجول خلال العاصمة. وفي أحد الاجتماعات سمع أن العالم الرياضي كوندوا مين حسب أن من يشتري كل أوراق "البيانصيب" التي تصدرها باريس لا بد أن يحقق ثراء، فأسرع فولتير واقتراض نفوداً من رجال المصارف من أصدقائه. واشترى كل الأوراق، فكان ما تتبأ به العالم الرياضي، ولكن المراقب العام للحسابات رفض الدفع، فرفع فولتير دعوى أمام القضاة وكسب القضية وتسلم المبلغ (1) وفي أخريات عام 1729 قطع 150 ميلاً في ليلتين ونهار واحد من باريس إلى نانسي ليشتري أسهماً في مشروع دوق اللورين، وعادت عليه هذه المغامرة بأرباح طائلة. وهكذا أعان فولتير مدير الأعمال المالية فولتير الشاعر الفيلسوف.

نراه في 1730 مرة أخرى في باريس مفتوناً إلى حد الجنون بالمغامرات والمشروعات، وكان لديه عادة عدة أعمال أدبية قيد الإنجاز في وقت واحد، ينتقل من واحد إلى الآخر، ولذة الهوى في التنقل، دون أن يضيع وقتاً. وكان آنذاك يكتب رسائل عن الإنجليز وتاريخ شارل الثاني عشر "موت الأنسة ليكوفريير"، والصفحات الأولى في الغادة العذراء. وذات يوم 1730 اقترح عليه زوار الدوق دي ريشيليو وهم

يتحدثون عن جان دارك أن يكتب لها تاريخاً، ولم يكونوا بعد في فرنسا قد اعترفوا بها قديسة حامية لفرنسا. وبدا للمفكر الحر فولتير أن العناصر الخارقة للطبيعة في أسطورة جان دارك تشد انتباهه إلى معالجة تاريخها معالجة فكاوية. فتحداه ريشيليو أن يحاول ذلك، وكتب فولتير المقدمة في تلك الليلة، ولم تكن مرثيته في ليكوفريير قد نشرت بعد، ولكن صديقه الأخرق نيقولا ثيوريو كان قد قرأها على الملأ على أوسع نطاق. وأستأنفت الأصوات اللاهوتية البغيضة طنينها المزعج حول رأس فولتير.

وفي 11 ديسمبر وكأنا كان فولتير ظمناً إلى كسب الأعداء، أخرج قصته لوسيو جينيوس بروتوس الذي أطاح طبقاً لرواية ليفي بعرش الملك تاركينيوس وأسهم في إقامة الجمهورية الرومانية، وأنكرت المسرحية على الملوك قدسيهم وعدم جواز انتهاك حرمانهم، ونادت بحق الشعب في تغيير حكامه. وشكا الممثلون من أن الرواية خالية من فكرة الحب ووافقت باريس على أنها بدعة خرقاء سخيفة. وسميت المسرحية بعد عرضها 16 مرة. وبعد اثنتين وستين عاماً أعيد تمثيلها من جديد، لأن باريس كانت آنذاك تواقفة إلى مشاهدة مقصلة لويس السادس عشر. وفي نفس الوقت كان فولتير قد حصل على ترخيص ملكي بنشر "تاريخ شارل الثاني عشر ملك السويد". وهنا كان الموضوع لا يكاد يسيء إلى لويس الخامس عشر أو الكنيسة، كما يسر الملكة، لأن الرواية تناولت موقف أبيها ستانسلاس بشكل لائق كريم. وظهرت طبعة من 2600 نسخة في الوقت الذي ألغى فيه الترخيص الملكي دون سابق إنذار، وصدورت كل النسخ فيما عدا واحدة احتفظ بها فولتير. واحتج فولتير لدى حامل الأختام فأبلغ أنه قد حدث تغيير في السياسة الخارجية مما كان لزاماً معه إرضاء غريم شارل الثاني عشر وضحيتها، وهو أوغسطس "القوي" الذي ما زال ملكاً على بولندا. وقرر فولتير أن يتجاهل أمر الحظر وانتقل متكرراً إلى روان وباشر طبع تاريخه سراً. وفي أكتوبر 1731 تداوله الناس في حرية مطلقة وأقبلوا على قراءته وكأنه قصص.

صفحة رقم : 12141

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> في باريس

وذهب بعض النقاد إلى انه محشو بالخيال، واسماه بعض المؤرخين الواسعي الاطلاع رومانسية "في أسلوب مشرق بارع في السرد القصصي، ولكنه غير دقيق في التفاصيل(2)ولكن فولتير كان قد أعد الكتاب على طريقة الباحث المدقق إنه لم يطلع على وثائق الدولة فحسب بل إنه كذلك توقف ليستقي المعلومات من مصادرها الأصلية: الملك السابق ستانسلاس، ماريشال دي ساكس دوقه مالبرو، بولنجيرونك، أكسل سبار (الذي اشترك في معركة نارفا) فونسيكا (طبيب برتغالي كان يعمل في تركيا أثناء وجود شارل هناك) والبارون فايريس (سكرتير شارل سابقاً). وأكثر من هذا فإن فولتير كان قد أقام فترة مع البارون فون جورتر وزير شارل ذي الحظوة لديه. وربما حول إعدام البارون 1719 نظر فولتير إلى دراسة أسد الشمال "وفي 1740 أشار جوران برج الذي كان قسيس شارل إلى الأخطاء التي وقع فيها فولتير، وقام فولتير بتصويب هذه الأخطاء في الطبعة اللاحقة. وكانت هناك أخطاء أخرى وبخاصة في الوصف التفصيلي للمعارك. وجادل النقاد المتأخرون(3)في أن فولتير بالغ في تقدير شارل على "إنه الرجل الأكثر استثناء وخرقاً للعادة الذي ظهر على الأرض" وجمع في شخصيته بين أعظم مناقب أسلافه. ولا عيب فيه ولا ينغص عليه حياته إلا أنه جمع بين هذه المناقب في إفراط زائد(4)وربما تخفف الكلمة الأخيرة من حدة النقد، فقد أوضح فولتير أن شارل جاوز الحد وافرط في التحلي بهذه المناقب البطولية حتى أصبحت عيوباً وعددها، ومنها التنبير والتهور والقسوة وعدم القدرة على المغفرة والصفح. كما أوضح كيف أن أخطاء الملك قد أضرت بالسويد. وانتهى إلى أن شارل "كان رجلاً شاذاً استثنائياً لا رجل عظيم(5)"وعلى أية حال لم يكن الكتاب عملاً ثقافياً فحسب، بل عملاً فنياً كذلك من حيث التركيب والشكل والحيوية والأسلوب وسرعان ما أقبل كل المتعلمين في أوروبا على قراءة شارل الثاني ملك السويد وذاعت شهرة فولتير إلى حد لم يسبق له مثيل. وأصبح فولتير بعد عودته من روان (5 أغسطس 1731) ضيفاً مقيماً

صفحة رقم : 12142

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> في باريس

على الكونتيس دي فونتين مارتل في قصرها بالقرب من "الباليه رويال"، وقد وجدت في رفقته سعادة بالغة حتى ظلت تؤويه وتطعمه حتى مايو 1733 وترأس في حيوية شديدة ولأتم العشاء الأدبية التي كانت تقيمها، ومثل المسرحيات وبخاصة مسرحياته هو على مسرحها الخاص. وفي أثناء إقامته هناك كتب نص "أوبرا شمشون" لرامو وهو ملحن فرنسي في القرن الثامن عشر (1732)-ومن المحتمل أنه شهد من مقصورة الكونتيس في "المسرح الفرنسي" سقوط روايته "اريفيل" (1732) كما شهد النجاح الباهر الذي لقيته مأساة زائير (13 أغسطس 1732) فكتب إلى صديق له: "ما مثلت رواية بمثل الروعة التي مثلت بها زائير في عرضها الرابع. وكم دددت لو أنك كنت معي لتشهد أن الجمهور لم يسخط على صديقك، وظهرت في المقصورة، واتجهت كل الأيدي بالتصفيق لي، فأستحييت وخبأت نفسي. ولكني أكون مرانياً إذا لم اعترف لك بأنني قد اهتزت مشاعري وتأثرت كثيراً(6). وظلت هذه المسرحية أحب مسرحياته إليه حتى النهاية. إنها كلها ليس لها وجود الآن، قضى عليها تغير الأذواق والأمزجة والأسلوب، ولكننا بجدد بنا أن نبعث إحداها على الأقل من قبرها، لأنها لعبت جميعاً دوراً مثيراً كبيراً في حياته. وزائير طفلة مسيحية أسرها المسلمون في صباها في الحروب الصليبية، وأنشئوها على العقيدة الإسلامية، وهي لا تعرف إلا القليل عن فرنسا اللهم إلا أنها مسقط رأسها، وهي الآن غادة فاتنة في حريم السلطان أروزمان في بيت المقدس. وهام السلطان وهامت هي به حباً. وفي مستهل الرواية كانت على وشك أن تصبح زوجة له. وتؤنبها أسيرة مسيحية أخرى اسمها فاتيما على نسيانها أنها كانت مسيحية. وفي رد زائير توضيح لأثر الجغرافيا في تحديد العقيدة الدينية: "إن أفكارنا وعاداتنا وعقيدتنا الدينية إنما الأعراف والتقاليد والنزعة القومية السائدة في أيامنا الأولى. فإذا رأيت النور على ضفاف نهر الكنج لعبدت أوثان الهند، وإذا ولدت في باريس لكن مسيحية. وأنا الآن مسلمة سعيدة. إننا لا نعرف إلا ما تلقناه إن أبدى الأبوين اللذين يتوليان تربيته"

صفحة رقم : 12143

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> في باريس

وتعليمنا هي التي تنقش على قلوبنا الغضة تلك الأحرف التي ينقحها الزمن ويصقلها. وتعمل القدرة على تثبيتها عميقة في عقولنا، ولا يقدر على محوها إلا الله(7). ويصور فولتير أروزمان رجلاً يتحلى بكل الفضائل بشكل واضح إلا الصبر. إن المسيحيين ليصعقون ويذهلون إذ يرون مسلماً وقوراً مهذباً مثل المسيحيين. وتتولى السلطان الدهشة إذ يرى مسيحية فاضلة، ويرفض أن يحتفظ بحريم، ويعد بالاقصص على زوجة واحدة. ولكن فولتير كان منصفاً لشخصياته المسيحية كذلك، فهو ينظم أبياتاً عامرة في جمال الحياة المسيحية الحقّة. وهناك أسير مسيحي آخر هو نير ستام، وقع في الأسر في طفولته كذلك، ونشأ مع زائير، وفك أسارىه حين تعهد بالرجوع ليفتدي بالمال عشرة من الأسرى، ويذهب ثم يعود ليدفع مبلغ الفدية المطلوب من ماله الخاص. ويكافئه أروزمان بإطلاق سراح مائة لا عشرة فقط من المسيحيين. ولكن نير ستام بحزن لأن زائير ولوسنيان لم يكونا من بين من أطلق سراحهم، ومكان هذا الملك بيت المقدس (1186-1187). وتتأشد زائير السلطان أروزمان أن يطلق سراح لوسنيان، فيجيبها إلى طلبها. إن الملك العجوز يعتبر زائير في منزلة ابنته ونير ستام في

منزلة ابنه. إنها الآن موزعة بين حبها للسلطان الكريم وولائها لأبيها وأخيها وعقيدتهما المسيحية. ويهيب بها لوسنيان أن تتخلى عن السلطان والإسلام معاً: "أواه يا ابنتي، فكري في الدم الزكي الذي يجري في عروقك، دم عشرين ملكاً كلهم مسيحيون مثلي، دم الأبطال، دم المدافعين عن العقيدة، دم الشهداء والقديسين. إنك لا تعرفين مصير أمك، إنك لا تعرفين أنه في نفس اللحظة التي ولدت فيها ذبحها أولئك المتبررون الذي تعتنقين دينهم البغيض على مرأى مني. إن أخوتك والشهداء الأعزاء يمدون إليك أيديهم من السماء، يريدون أن يحتضنوا أختاً لهم. آه يا ابنتي! تذكرهم! إن الرب الذي خنت عهده، لفظ النفس الخير من أجلنا ومن أجل البشر جميعاً. انظري إلى الجبل المقدس الذي قتل عليه مخلصنا، والمقبرة التي نهض منها ظافراً منتصراً. في كل طريق تمشين فيه ستريين خطوات الرب، هل

صفحة رقم : 12144

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> في باريس

تتكرين خالك؟ زائير: ... يا إلهي العظيم... تكلم يا أبتاه ماذا أفعل؟ لوسنيان: ... أذهبي عني العار والحزن بكلمة منك، وقولي أنني مسيحية. زائير: إذن يا إلهي، أنا مسيحية.....  
لوسنيان: أقسمي بأنك ستحفظين هذا السر الخطير.

زائير: أقسم لك على ذلك(8).

ولما علم نير ستام بإصرارها على الزواج من أورو زمان، راوده التفكير في قتلها، ولكن رق قلبه، وألح في قبولها التعميد فوافقت، وبعث إليها برسالة يحدد فيها مكان وزمان الاحتفال بتعميدها، وحسب أورو زمان الذي لم يكن يدري أن نير ستام أخواها، إنها رسالة حب وگرام، ويفاجئ زائير في الموعد المضروب، ويطعنها. ثم يكتشف أن العشيقيين المزعومين ليسا إلا أختاً وأختاً، فينتحر.

إن حبكة الرواية موضوعة ببراعة، مبسطة بطريقة مسرحية متماسكة وهي تمثل في شعر سلس موسيقي. وإنما لندرك من خلال القطع العاطفية التي تبدو الآن ثقيلة مبالغاً فيها، والسبب في أن باريس أغرمت بزائير وأورو زمان، وفي أن الملكة الصالحة الحزينة ذرفت الدمع عند تمثيل المسرحية للحاشية في فونتنبلو. وترجمت المسرحية إلى الإنجليزية ومثلت بسرعة في إنجلترا وإيطاليا وألمانيا. ونودي آنذاك بفولتير أعظم شاعر على قيد الحياة في فرنسا، وخلفاً صالحاً لطورني وراسين. ولكن هذا لم يرق في عيني جان بابنتست روسو، وهو شاعر فرنسي مقيم في المنفى في بروكسل، فحكم على زائير بأنها "مسرحية تافهة فاترة... مزيج كريه من التدين والفجور". فرد عليه فولتير شعراً في معبد الذوق "يشهر فيه بروسو ويمجد موليير.

وبلغ فولتير ذروة المجد وعانق النجوم، ولكنه لم يكف عن العمل. ففي شتاء 1732-1733 درس الرياضيات كما درس نيوتن، مع ضحيته مستقبلاً موبرتوي Moupertuis، وأعاد كتابة "إيريفيل Eriphile" ونقح زائير وشارل الثاني عشر، وجمع مادة كتابه "قرن لويس الرابع

صفحة رقم : 12145

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> في باريس

عشر" ووضع اللمسات الأخيرة على كتابه "رسائل عن الإنجليز" وأخرج مسرحية أخرى (أليد) كما كتب أشياء صغيرة لا تحصى: رسائل، قصائد مدح، اقتراحات، بعض الحكم الساخرة، بعض أغاني الحب وكلها تنسم بالظرف في نظم رقيق مصقول. وعندما ماتت مضيفته السخية، مدام دي فونتين مارتل، انتقل إلى داره في شارع (لونج بزبان) واشتغل بتصدير القمح. ومذ جمع بين التجارة والقصص، فإنه التقى (1732) بالسيدة جبريل اميلي لي تونلييه دي برتيل مركيزة دي شاتيليه، وارتبطت حياته بحياة السيدة الفذة المغامرة حتى وافاه الأجل المحتوم. وكانت آنذاك في السادسة والعشرين (وهو في الثامنة والثلاثين)، وكانت حياته بالفعل حافلة متعددة الجوانب فهي ابنة البارون دي برتيليه، ولذلك تلقت تعليماً غير عادي. حتى أنها في سن الثانية عشر تعلمت اللاتينية والإيطالية وغنت غناء رخيماً، وعزفت على البيان الصغير، وبدأت في سن الخامسة عشرة تترجم الإلياذة إلى الفرنسية شعراً، وأضافت إلى هذا اللغة الإنجليزية ودرست الرياضيات على يدي موبرتوي. وفي التاسعة عشرة تزوجت المركز فلورنت كلود دي شاتيليه لومونت، وكان في الثلاثين من العمر. وأنجبت له ثلاثة أطفال. ولكن فيما بعد هذا لم يكن للواحد مبهماً يرى الآخر إلا لماماً، حيث كان هو عادة مشغولاً مع فرقته، أما هي فبقيت قريبة من الحاشية وقامرت بمبالغ طائلة، وجربت الحب. فلما هجرها عشيقها الأول تناولت سماً، وأقذوها على كره منها بواسطة عقار مقيء، واحتملت في رباطة جأش جربتها من قبل، هجران عشيق ثان هو الدوق دي ريشيليو، لأن كل فرنسا عرفت قصة قلبه بين النساء. والتقى فولتير بالمركيزة على مائدة العشاء فلم ينزعج، بل سرته قدرتها على التحدث في الرياضيات والفلك والشعر اللاتيني. ولم تكن مفاتها طاغية لا سبيل إلى مقاومة إغرائها، ولكن سيدات أخريات أسرفن، في وصفها. استمع إلى مدام دي فان وهي تقول: (امرأة ضخمة متحفظة لا أورك لها، صدرها هزيل؛... ذات ذراعين ضخمين ورجلين

صفحة رقم : 12146

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> في باريس

كبيرين، وقدمين ضخمتين، ورأس صغير جداً، وقسمات حادة، وأنف محدد وعينية صغيرتين خضراوين تميلان إلى الزرقة. سمراء البشرة أسنانها رديئة(9)" واتفقت معها المركيزة دي كريكلي فقالت "إنها عملاقة-ماردة، ذات قوة جبارة، وكانت فضلاً عن ذلك آية في القبح والبشاعة، وكان جلدها في لون مبشرة جوزة الطيب الداكنة، إنها تشبه في جملتها جندياً طويلاً القامة قبيح الصورة. ومع ذلك تحدث فولتير عن جمالها(10)". أن سانت لامبرت الوسيم أحبها سرّاً عندما كانت في الثانية والأربعين. وليس لنا أن نثق في رأي السيدات بعضهن في البعض الآخر. وقد تبين من صورها الشخصية أن اميلي كانت طويلة القامة مسترجلة، ذات جبهة مديدة ونظرة متعجرفة، ولم تكن قسمات وجهها غير جذابة، وقد نشعر بشيء من الاطمئنان إذا علمنا أن (لها صدراً شهوانياً ولكنه راسخ(11)). ويمكن أن تكون أميلي قد كان فيها ما يكفي من الرجل ليكمل المرأة في فولتير. ومهما يكن من أمر فإنها لجأت إلى كل الحيل والوسائل الأنثوية لتصلح ما أفسد الدهر من جمالها-مستحضرات التجميل والعطور والمجوهرات والحلي والمخرمات. وسخر فولتير من ولعها بالترزين. ولكنه أعجب بتحمسها للعلوم والفلسفة. فهنا سيدة استطاعت حتى في غمرة الصخب والضوضاء في باريس وفرساي أن تتسحب من مائدة القمار، لتدرس نيوتن ولوك، إنها لم تقرأ نيوتن فحسب بل أنها استوعبته كذلك زهي التي ترجمت قوانين نيوتن إلى الفرنسية، ووجد فولتير أنه من اللائق أن يتخذ من نفس المرأة رفيقة دراسة وعشيقة في وقت معاً. وفي 1734 اعتبر بنفسه بالفعل الرجل الذي ترتضيه عشيقاً لها: (يا إلهي! آية لذة وممتعة أجدها بين ذراعيك كم أنا سعيد بالإعجاب بالمرأة التي أحبها(12)!



صفحة رقم : 12147

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رسائل عن الإنجليز

2- رسائل عن الإنجليز

في عامي 1733 و1734 نشر فولتير بعد عناء شديد أول إسهامه في عصر الاستنارة، وكان عبارة عن 24 رسالة موجهة من إنجلترا إلى تيبيريو

صفحة رقم : 12148

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رسائل عن الإنجليز

وترجمت إلى الإنجليزية وصدرت في لندن (1733) رسائل متعلقة بالأمة الإنجليزية. ولكن كان في طبع الأصول في فرنسا مغامرة بحرية المؤلف وصاحب المطبعة كليهما. وخفف فولتير من بعض الأجزاء، وحاول أن يحصل على إذن من الحكومة بطبع البقية، فرفضوا منحه الترخيص، وهنا لجأ ثانية إلى نشرها سراً في روان. وحذر الناشر جور من تسرب أية نسخة للتداول لبعض الوقت على الأقل، ولكن في أوائل 1734، وصلت عدة نسخ إلى باريس تحت عنوان "رسائل فلسفية". وحصل أحد القراصنة الناشرين على نسخة، وأصدر منها طبعة كبيرة العدد دون على فولتير. وفي نفس الوقت كان فولتير ومدام دي شاتيليه قد قصدا إلى قصر مونتحي بالقرب من أوتون على مسافة 190 ميلاً من باريس ليحضرا حفل زفاف ريشيليو.

وبدأ الكتاب بأربع رسائل عن جماعة الكويكرز الإنجليزية، وأوضح فولتير أن هؤلاء الكويكرز ليس لهم تنظيم كنسي ولا قساوسة ولا أسرار ولا قرابين مقدسة، مع ذلك مارسوا الشعائر المسيحية في إخلاص وإيمان أكثر من أي مسيحيين عرفهم. ووصف أو تخيل زيارة قام بها لواحد منهم وقال: "سألت واحداً منهم: سيدي العزيز، هل عمدوك؟ فأجاب "لا لم أعمد لا أنا ولا أخوتي". وصحت في وجهه: عجباً كيف يكون هذا إذن أنتم لستم مسيحيين! فأجاب في صوت هادئ خفيض يا بني، لا تقسم، نحن مسيحيون" "ونحن نحاول أن نكون مسيحيين صالحين، ولكننا لا نرى أن المسيحية مجرد ماء بارد مع قليل من الملح على الرأس وعارضته. (يا إلهي! لا تتحدث بهذا الضلال! هل نسيت أن يوحنا عمد المسيح؟) فرد قائلاً: يا صاحبي، لا تقسم بعد ذلك، إن يوحنا عمد المسيح ولكن المسيح لم يعمد أحداً... ونحن أتباع المسيح لا أتباع يوحنا فقلت له: (وا حسرتاه أيها المسكين جزاؤك الحريق في بلاد محاكم التفتيش وسألني (هل أجروا لك عملية ختان؟). فأجبت (لم يكن لي شرف الختان).

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رسائل عن الإنجليز

فقال: (حسناً، أنت مسيحي دون ختان، وأنا مسيحي دون تعميم) وقال الكويكرز إن التعميد مثل الختان من العادات السابقة على المسيحية وقد أبطلها إنجيل السيد المسيح الجديد. ثم استطرد فولتير يتحدث عن الحرب (لن نذهب أبداً إلى الحرب، لا لأننا نخشى الموت، بل لأننا لسنا ذئاباً ولا نموراً، ولا كلاباً نحن رجال مسيحيون. أن إلهنا الذي أمرنا نحن أعداءنا بقينا لا يريد منا أن نغير البحر لنقتل أخوة لنا، لمجرد أن السفاحين الذين يرتدون ثياباً في لون الدم وقبعات عالية ترتفع إلى قدمين يجندون المواطنين بينما يحدثون جلبة باثنتين من العصي ممدتين على جسم حمار. وبعد النصر تتألق لندن كلها في الأضواء وتلتهب سماؤها بالألعاب النارية وطلقات المدافع، على حين نرثي في صمت للمذبحة التي أدت إلى مثل هذا الابتهاج العام(13). لقد أوديت فرنسا أيما إيذاء، وكادت أن تدمر نفسها لمحاولتها فرض عقيدة واحدة على جميع الفرنسيين. وأسهب فولتير في وصف التسامح بالنسبة للخلافات الدينية في إنجلترا. "هذه بلد الطوائف. والرجل الإنجليزي، باعتباره حراً يسلك إلى السماء الطريق الذي يختاره.(14) ووازن فولتير بين أخلاق رجال الدين الإنجليزي وأقرانهم الفرنسيين. وهنا الإنجليز بأنهم ليس لديهم رهبان. إن الإنجليز ليحمدون الله ويشكرونه على أنهم بروتستانت حين يعلمون أن الشبان الفرنسيين المعروفين بفسقهم وفجورهم يرقون إلى مناصب الأساقفة والمطارنة بفعل الدسائس، ويؤلفون الأغاني الرقيقة ويقومون ولائم العشاء الباذخة كل يوم تقريباً، ويطلقون على أنفسهم أنهم خلفاء الرسل.(15) وفي الرسالة الثامنة أدار فولتير الخنجر إلى صدر الحكومة في فرنسا: "إن الأمة الإنجليزية وحدها هي التي عرفت كيف تحدد سلطة الملوك بوقوفها في وجههم... وأخيراً أقامت هذه الحكومة الرشيدة، وفيها يتمتع الملك بكل القوة والسلطة في أن يفعل الخير، على حين تغل يدها عن الإتيان بأي شر أو سوء. (وهنا يردد فولتير عبارة مشهورة مأثورة عن رواية فنليون "تليماك". إن إقرار الحرية في إنجلترا تطلب ثمناً غالباً

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رسائل عن الإنجليز

ولا ريب، فقد أغرق صنم الحكم الاستبدادي المطلق في بحر من الدماء، ولكن الإنجليز لا يرون أنهم اشتروا القوانين العادلة الصالحة بثمن باهظ، فهناك أمم أخرى مرت بمحن وأوقات عصيبة لا تقل عما عاناه الإنجليز، ولكن الدماء التي أريقته دفاعاً عن قضية الحرية لم تكن إلا تضييماً لعبوديتها(21). إن حق التحقيق في قانونية حبس التهم في إنجلترا يحرم السجن دون قضية محددة، ويتطلب محاكمة علنية، بواسطة المحلفين، أما في فرنسا فهناك "الأوامر السرية المختومة". وقبل مونتسكيو بأربعة عشر عاماً، رأى فولتير "فصل

السلطات في الحكومة الإنجليزية وامتدحه وبالغ فيه، كما رأى تنسيق العمل بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العموم. وأشار فولتير إلى أنه لا يمكن فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان " وأنه لا يعفي أحد من ضرائب معينة... لأنه نبيل أو كاهن." (17) وفي إنجلترا يشتغل صغار أبناء النبلاء بالتجارة وبمختلف المهن، أما في فرنسا فإن التاجر غالباً ما يسمعون يتحدثون عن مهنته في ازراء واحتقار، حتى يبلغ به الحمق إلى حد الشعور بالخزي والعار من الاشتغال بالتجارة. ولست أدري أيهما أنفع للدولة نبيل نتأنق يعرف بالضبط متى يصحو الملك من نومه أو يأوى إلى فراشه، ويستشعر العظمة حين يقوم بدور العبد الرقيق... أو رجل أعمال (مثل فوكنر مضيف فولتير في لندن، يثري وطنه ويصدر الأوامر من مكتبه إلى سوررات والقاهرة، ويسهم في إسعاد العالم بأسره (18) وأخيراً في قطعة تضمنت برنامجاً لفرنسا ذهب فولتير إلى: أن الدستور الإنجليزي بلغ قمة التفوق وكان من نتيجة ذلك أن كل الناس استعادوا حقوقهم الطبيعية، على حين أنهم محرمون منها في سائر الملكيات تقريباً. وهذه الحقوق هي الحرية الكاملة في أشخاصهم وفي ممتلكاتهم: حرية الصحافة حق المحاكمة بناء على نص صريح في القانون، وحق كل إنسان في اعتناق العقيدة التي يرضيها دون إزعاج. (19)

ولا بد أن فولتير عرف أن فريقاً من الناس فقط هم الذين تمتعوا بهذه الحقوق الطبيعية " وأن الحرية الشخصية لم تتحرر من خطر الرقابة الصحفية،

صفحة رقم : 12151

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رسائل عن الإنجليز

وأنة كانت هناك حدود وقيود على حرية الكلام في الدين وفي السياسة، وأن المنشقين والكاثوليك كانوا مستبعدين من الوظائف العامة. وأنه كان من الميسورة في إنجلترا رشوة القضاة ليتجاهلوا القانون. إن فولتير لم يدون وصفاً نزيهاً لواقع إنجلترا، أنه كان يستخدم إنجلترا سوطاً يحرك به الثورة في فرنسا ضد ظلم الدولة أو الكنيسة. أن كون كل هذه الحقوق تقريباً أصبحت الآن قضية مسلماً بها في البلدان المتحضرة يضيف على ما أنجزه القرن الثامن عشر روعة وجلالاً.

ولا يقل عن هذا أهمية في أثره على الفكر الحديث امتداح فولتير لبيكون ولوك ونيوتن. إنه قال عن بيكون الذي اتهموه وجرحوه ما حكم به بولنجيزوك على مالبرو "إنه رجل بلغ من العظمة حداً لا أستطيع معه أن أتذكر هل كان له أخطاء أم لا" (20) ثم أردف يقول " إن هذا الرجل العظيم بيكون هو أبو الفلسفة التجريبية لا من أجل التجارب التي قام بها، بل بما وجه من نداءات قوية للنهوض بالبحث العلمي. وتلك هي الفكرة التي حدثت بديدرو ودالمبرت إلى القول بأن بيكون هو أول من أوحى إليهم بدائر المعارف التي وضعوها.

وخصص فولتير لجون لوك كل الفصل الثالث عشر تقريباً. إنه لم يجد فيه مجرد علم العقل بدلاً من أسطورة النفس، بل وجد فلسفة كامنة كاملة حتى أنه بارجاعه كل المعرفة إلى الشعور، حول الفكر الأوربي عن الإلهام الإلهي إلى الخبرة الإنسانية، باعتبارها المصدر الوحيد للحقيقة وأساسها. ورحب برأي لوك في أنه يمكن تصور إن المادة يمكن تمكينها من التفكير وغصت بهذه العبارة بالذات حلوق رجال الرقابة الفرنسية، وكان لها أثراً كبير في الحكم على الكتاب وإدانته. ويبدو أنهم تتبثوا فيها بمادية لامتري وديدرو. ورفض فولتير أن يسلم نفسه إلى المادية، ولكنه عدل عبارة ديكارت "أنا أفكر إذن أنا موجود" إلى "أنا جسم وأنا أفكر ولا شيء غير هذا".

وأشارت الرسالة الرابعة عشرة على الفرنسيين أن يتخلصوا من ديكارت

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; رسائل عن الإنجليز

وينصرفوا إلى دراسة نيوتن. إن حكم الرأي العام في إنجلترا على هذين المفكرين هو إن أولهما كان حالماً والثاني حكيماً. وقد فولتير أعظم تقدير إضافات ديكارت إلى الهندسة، ولكنه لم يستغ الدوامات الكونية عند ديكارت. إنه أقر بأن ثمة شيئاً وهمياً غامضاً، أو على الأقل مخدراً في مقالات نيوتن عن الكرونولوجيا القديمة (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تاريخ الأحداث) وسفر الرؤيا، وأوحى فولتير بشكل لطيف بأن نيوتن كتب هذه المقالات ليعزي البشرية عن تفوقه البالغ عليها (21) إنه وجد أن نيوتن ما زال عويصاً يصعب فهمه، ولكن اجتماع الرجال البارزين في الحكومة وفي ميدان العلوم لتشجيع جنازته ترك في نفسه أثراً عقد معه العزم على دراسة قوانين نيوتن، وعلى أن يكون رسول نيوتن إلى فرنسا، وهنا أيضاً غرس فولتير بذور دائرة المعارف وعصر التنوير.

وأخيراً صدم فولتير الفكر الديني في فرنسا بنقد لاذع وجهه إلى آراء بسكال. إنه لم يقصد تضمين هذا في رسائله، فليس لهذا علاقة بإنجلترا، ولكنه كان قد أرسله من إنجلترا إلى تيبير 1728، فألحقه الناشر اللص بالرسائل باسم رقم 25، وكانت النتيجة أن الجانسينيين-الذين قدسوا بسكال إلى حد العبادة، وسيطروا على برلمان باريس-، فاقوا الآن اليسوعيين (الذين لم يحبوا بسكال قط) في استنكار فولتير وشجبه وكان فولتير غير قابل أساساً للاتفاق مع بسكال حيث كان في هذه المرحلة (اللهم إلا في رواياته) عقلانياً متشدداً لم يكن قد وجد بعد مجالاً للوجدان في فلسفته. وكان لا يزال شاباً ممتلئاً حيوية ونشاطاً ينعم بالحياة وسط محنة البطولية، ومن ثم عارض التشاؤم الجزع الكئيب عند بسكال "ولسوف أتجاسر فأقوم بدور الجنس البشري ضد هذا المبعوض للشر المهيب" (22) ورفض "رهان" بسكال (أي أنه من الأحكم أن نراهن على وجود الله لا العكس) باعتباره عملاً صبيانياً يجافي الحشمة والوقار... إن اهتمامي بالاعتقاد بشيء ليس برهاناً على أن هذا الشيء موجود" (23) ولم يعرض بسكال الرهان (على أنه برهان) وسلم بأنه ليس في مقدورنا أن نفسر الكون أو نعرف قدر

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; رسائل عن الإنجليز

الإنسان، ولكنه أرتاب في أننا نستطيع من هذا الجهل أن نستنتج صدق قانون الإيمان المسيحي الذي جاء به الرسل. كما أنه لم يحس في هذا العصر المرح المفعم بالحيوية بأي تعاطف مع تطلع بسكال إلى الراحة والدعة، حيث نادى بأن الإنسان "خلق ليعمل... فعدم العمل وعدم الوجود سيان بالنسبة للإنسان" (24).

وليست "ملاحظات على أفكار بسكال" أفضل ما كان يمكن أن تجود به قريحة فولتير. أنه لم يكن قد أعدها للنشر، ولم يكن لديه الفرصة لمراجعتها وتنقيحها. وقضت الأحداث اللاحقة مثل زلازل لشبونة-على نضارة نقاؤه الفتى. وعلى الرغم من هذا الملحق غير المدروس وغير الجدير بالاعتبار، فإن "الرسائل الفلسفية" كانت أحد المعالم البارزة في الأدب الفرنسي والفكر الفرنسي. فهنا لأول مرة ظهرت الجمل الموجزة الدقيقة والوضوح المبين والذكاء المرح والتهكم اللاذع، وأصبح كل هذا منذ الآن طابعاً أدبياً مميزاً يتجاوز ويتجاهل الحرص على إنكار اسم المؤلف. إن هذا الكتاب، وكتاب الرسائل الفارسية حددا أسلوب النثر الفرنسي من عهد الوصاية إلى عصر الثورة. وفوق هذا فإنها

أحكمت حلقة من أقوى الحلقات في الربط بين المفكرين الفرنسيين والإنجليز، وهي كما قدر بكل "أهم حقيقة إلى حد بعيد في تاريخ القرن الثامن عشر" (25) إنها كانت بمثابة إعلان حرب ومخطط شن حملة. وقال روسو عن هذه الرسائل إنها قامت بدور كبير في إيقاظ عقله. ولا بد أن آلافاً من شباب فرنسا دانوا لها بمثل هذا الفضل. وقال عنها لافاييت أنها صبرته جمهورياً وهو في التاسعة من عمره. ورأى هين "إنه لم يكن لزاماً على رقيب المطبوعات أن يصادر هذا الكتاب حيث كان لا بد من قراءته بغير هذا الإجراء" (26). وأحست الكنيسة والدولة والملك والبرلمان أنهم لم يعودوا يطبقون صبراً على مثل هذه الجراح الكثيرة في صمت، فأرسل صاحب المطبعة إلى سجن الباستيل، وصدر أمر سري مختوم بالقبض على فولتير أينما وجد. وفي 11 مايو ظهر أحد رجال الشرطة يحمل أمراً بالقبض عليه. ولكن من

صفحة رقم : 12154

قصة الحضارة - عصر فولتير - فرنسا - فولتير في فرنسا - رسائل عن الإنجليز

المحتمل أن موبرتوي ودار جنثال كانا قد حذرا فولتير فغادر فرنسا قبل ذلك بخمسة أيام. وبناء على أمر البرلمان في 10 يونيو أحرق كل ما وجد من نسخ الكتاب بيد مأمور التنفيذ العام في فناء قصر العدل باعتباره عملاً شائناً ينافي الدين والخلاق القومية ويتعارض مع احترام الواجب للسلطات العامة. وقبل معرفة المركزية دي شاتيليه بوصول فولتير سالماً إلى اللورين كتبت إلى صديق لها: "أنا لا أطيق صبراً على مجرد علمي بأنه في السجن وهو في مثل هذه الصحة والعافية وقوة الخيال. وأنا لا أحب ذلك مطلقاً". وأجمعت هذه السيدة والدوقة دي بشيليو وغيرهما من السيدات ذوات المكانة الرفيعة أمرهن على العمل معاً للحصول على عفو عنه. ووافق حامل الأختام على إلغاء أمر القبض إذا أنكر فولتير تأليفه للكتاب. لكن تلك كانت خدعة لأنه كان على علم اليقين أن فولتير هو المؤلف. وكان حامل الأختام هذا أحد موظفي الحكومة الذين لطفوا من حدة الرقابة من آخر بالأعضاء عما في الكتاب من مأخذ. ووافق فولتير فوراً على إنكار أنه المؤلف. وهذه كذبة بيضاء من الممكن الصفح عنها بسهولة. فضلاً عن أن الكتاب الذي برئ من تأليفه وزع دون موافقته. وكتب فولتير إلى الدوقة دي ايجوبون: يقولون إنه يجب أن أراجع... بكل سرور.. سأعلن أن بسكال على حق دائماً وأن القساوسة مهذبون وديعون منزهون عن الغرض "وإن الرهبان ليسوا متعطرسين ولا منصرفون إلى تدبير الدسائس، ولا حقراء وأن محاكم التفتيش المقدسة هي انتصار الإنسانية والتسامح" (27). والغبي أمر القبض على شرط أن يبقى فولتير بعيداً عن باريس. فتنقل من قصر إلى قصر قرب حدود المدينة ورحب النبلاء الذين لم يتمسكوا كثيراً بأهداف الدين، كما لم يميلوا مطلقاً إلى الحكومة الملكية المركزية المستبدة وتلقى الدعوة بالإقامة في بلاط هولشتاين مع معاش قدرة عشرة آلاف فرنك سنوياً ولكنه رفض (28) وفي يولييه أوى إلى قصر مدام دي شاتيليه في سيري

صفحة رقم : 12155

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رسائل عن الإنجليز

في شمانيا. وهناك وهو الضيف الذي يتحمل نفقات عشيقته وزوجها بدأ أسعد سني حياته.

صفحة رقم : 12156

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرري

3- أنشودة الحب في سيرري

1744-1734

سيرري الآن قرية عدد سكانها 250 شخصاً في مقاطعة المارن الأعلى في شمال شرقي فرنسا على بعد بضعة أميال من اللورين، وصفتها مدام دنيس ابنة أخي فولتير 1738 بأنها منعزلة موحشة على بعد أربعة فراسخ من العمران في منطقة لا يرى المرء فيها شيئاً غير الجبال والأراضي غير المنزرعة (29) وربما أحبها فولتير لأنها بقعة هادئة حيث يستطيع أن يتفرغ فيها لدراسة العلوم وكتابة التاريخ والفلسفة، وتتساه الحكومة الفرنسية، أما إذا لاحقته فإنه يستطيع الانطلاق منها هرباً إلى اللورين في ظرف ساعة واحدة.

وكان القصر طلالاً منهتماً من مخلفات القرن الثالث عشر. قلما أقام فيه آل شاتيليه ولم يكن يصلح للسكنى منذ أمد بعيد، ولم يهتم المركز بإصلاحه، أو لم يكن لديه المال لهذا الغرض، فأقرضه فولتير 40 ألف فرنك بفائدة قدرها 5% للقيام بالإصلاحات اللازمة ولم يطالب المركز قط بسداد هذا القرض. وأعدت بعض غرف شغلها فولتير، وأمر ببناء جناح جديد، وأشرف على ترميم بقية القصر. وفي نوفمبر وصلت المركيزة ومعها مائتا حقيبة من الأمتعة، وعدلت من إصلاحات فولتير بما يتناسب مع ذوقها الخاص، وأقامت هناك سوهي التي كانت قضت معظم سني شبابها بين الحاشية الملكية أو قريباً منها منصرفاً إلى الدراسة مع زوجها وعشيقتها في وقف معاً. وأقام المركز اللطيف نعيمها مع فولتير بين الحين والحين حتى 1740، محتفظاً لنفسه في لباقة بشقة خاصة به وبمواعيد خاصة لتناول الطعام وحده. وبعد ذلك قضى معظم وقته مع كتيبته. وكانت دهشة فرنسا وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها بإخلاص العشيقين.

وفي ديسمبر عادت مدام شاتليه إلى باريس وزارت الدوقة رويشيليو في معتقلها، وأفنتت الحكومة بإلغاء الأمر بإقصاء فولتير عن العاصمة (2 مارس 1735) فقصد إلى باريس وأقام فيها عدة أسابيع مع خليلته،

صفحة رقم : 12157

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرى

ولكن ماضيه لاحق، فإن أجزاء من شعره الفاجر كان يتناقله الناس. ولم يتمالك هو نفسه قراءة بعض قطعه القوية على أصدقائه. كما نشر أحد الناشرين اللصوص "رسالة إلى أورانيا"، وكان فولتير قد كتبها قبل ذلك بخمس عشر سنة، وقد هاجم فيهمس المسيحية، فأنكر أنه مؤلفها بطبيعة الحال ولكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره. ولم يصدق إنكاره أنه المؤلف، فهرب ثانية إلى اللورين، ومنها في حيلة وحذر إلى سيرى. وتلقى من الحكومة تأكيدات عن طريق غير مباشرة بأنه إذا ظل هناك دون أن يرتكب أية مخالفة أخرى فلن يعكر صفوه أحد. ولحقت به مدام دي شاتيليه مع ابنتها وابنها ومعلمهما، وكان طفلها الثالث قد مات. وهنا أخيراً بدأ شهر عسل فلسفي. وكان لكل من الفيلسوفين مجموعة غرف خاصة به على جانبي القصر. وكانت شقة فولتير تتكون من حجرة انتظار ومكتب ومكتبة وحجرة نوم وكسيت وجدران بنسيج من المخمل الأحمر المنقوش، وازدانت باللوحات التي اقتنى منها فولتير مجموعة ثمينة منها لوحة من رسم تيشيان وعدة لوحات من رسم تيبير، كما كان هناك تماثيل فينوس وكيوبيد وهركيوليز، ولوحة كبيرة لصديقها الجديد الأمير فرديريك ولي عهد بروسيا. وعلى حد تعبير مدام جرافيني، كانت النظافة التامة في هذه الحجرات إلى حد "يمكن معه تقبيل الأرض" (30) أما جناح المركزية فكان مختلفاً عن هذا ذوقاً: اللون أصفر الفاتح واللون الأزرق الباهت مع لوحات من رسم فيرونيز وواتو، وصورة السقف وأرضيته من الرخام، ومائة من الصناديق والزجاجات الصغيرة والخواتم والمجوهرات وأدوات الزينة متناثرة هنا وهناك في حجرة ملابسها الصغيرة. وبين مجموعتي الغرف كانت هناك قاعة كبيرة أعدت لتكون معماً للفيزياء والكيمياء، فيها مضخات هواء ومقاييس حرارة وأفران وبوتقات ومنظار مقرب (تلسكوب) ومجهر (ميكروسكوب) ومنشورات وبوصلات وموازين. وكان هناك عدة غرف للزوار، لم تكن مؤنثة تأثيثاً جيداً. وعلى الرغم من الفماش المنقوش على الجدران كانت رياح الغابات

صفحة رقم : 12158

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرى

تتسلل إلى القصر من خلال الشقوق والنوافذ والأبواب. وكان لزاماً لتدفئة هذا القصر إلى حد مقبول وجود 36 مدفأة تستهلك في اليوم الواحد ستة (كوردات) من الخشب (الكورد=28 قدماً مكعباً من الخشب). ويمكن أن نتخيل عدد الخدم اللازمين له، أضف إلى ذلك مسرحاً لأن فولتير كان يحب أن يمثل وبخاصة في رواياته هو أنه ليؤكد لنا أن المركزية كانت ممثلة بارعة، وكان الضيوف والمعلم والخدم يحيطون بشخصيات الرواية، ويغنون بالأوبرا، أحياناً لأن المركزية (كما يؤكد فولتير مرة أخرى) كان صوتها ملائكياً. كما كان هناك عروض لمسرح العرائس وعروض بالفانوس السحري، قرنها فولتير بتعليقات أغرقت الحاضرين في الضحك. ولكن اللهو كان طارئاً أما العمل فكان نظاماً يومياً. وكان العاشقان عادة، يعملان منفصلين كل في نطاقه، ولو أنهم تعاونوا أحياناً في العمل، وقلماً كان الواحد منهما يرى الآخر في أثناء النهار إلا في وجبة الطعام الرئيسية عند الظهر تقريباً. وكان المركز يترك المائدة قبل أن يبدأ الحديث. وغالباً ما أنسل فولتير أيضاً إلى مكتبه تاركاً الآخرين يتسامرون. وكان له هناك أدوات مائدته الخاصة به لأنه يتناول طعامه وحده أحياناً. وإنا لنرى قلبه بحق محدثاً ممتعاً ممتلئاً بالحيوية، ويمكن أن يكون محط الأنظار ومبعث الحياة في أي اجتماع يشهده، ولكنه كان يكره الحديث التافه.

وكان يقول "هذا الوقت الذي نقضيه في الحديث يزعني كثيراً ويجدر بنا ألا نضيع دقيقة واحدة، إن أكثر ما نضيع هو الوقت(31) وكان يخرج أحياناً لصيد الغزال حياً في الرياضة. وجدير بنا أن لا نصور الرفيقين الفيلسوفين على انهما ملاكان، فيمكن أن تكون السيدة الجافة مستبدة بل قاسية بخيلة بعض الشيء عنيفة مقتررة مع خدمها وكانت تحتج إذا نقدهم فولتير أجراً أكبر، ولم يكن بها استحياء من شيء في جسمها، فلم تكن تأبه كثيراً لخلع ملابسها جميعاً أمام سكرتيرها لونجشامب، أو تكليفه بصب الماء الساخن عليها وهي في الحمام. وكانت

صفحة رقم : 12159

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرى

تطلع خفية على الرسائل التي يكتبها ضيوفها أو ترد إليهم، وليس لدينا دليل على هذا إلا شهادة سيدة أخرى(33) أما فولتير فكان له مئات الأخطاء التي سنكتشف في الوقت المناسب. كان شاعراً مزهواً وكان سريع الغضب والتجهم كأنه طفل، وكثيراً ما هاجم عشيقته وتشاجر معها، وما كان هذا الشجار على أية حال إلا سحب صيف تؤكد سادة أيامهما، وسرعان ما كان فولتير يعود إلى هدوئه وابتسامته وابتهاجه. وما كان يمل الحديث عن سعادته وعن حبه لرفيقته بطريقته الهادئة. ونظم لها مائة قصيدة حب قصيرة كل منها تصوير بارع في فن محكم. وكانت إحدى هذه الدرر الأدبية مع خاتم من حجر كريم نقشت عليه صورته: "بنقش يبرز هذه القسامات ليقع عليها بصرك. أنظري إليها لتقري عيناً بها. أما صورتك فهي منقوشة في أعماق قلبي بيد صناع أكثر حذقاً وبراعة.(34)". أما هي فقالت لا أطيق فراقه لمدة ساعتين دون أن يمزقني الألم(35).

ومن بين العشيقين الفيلسوفين كانت هي أكثر انصرافاً إلى العلم وانكباباً عليه منه. ونفذت قانون سيادة المرأة غير المسطور في إخفاء مخطوطة كتاب فولتير "قرن لويس الرابع عشر" الذي لم يكمل بعد، ووجهته بشدة إلى دراسة العلوم بوصفها الدراسة الحقة لرجل العصر الحديث. ووصفتها مدام دي جراني، وكانت ضيفاً عليها في 1738، بأنها أكثر مثابرة على أبحاثها العلمية من فولتير، حيث كانت تقضي معظم النهار وجزءاً كبيراً من الليل في مكتبها. وفي بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة أو السابعة صباحاً.(36) وكان موبرتوي يأتي من حين إلى حين ليتابع دروسه لها في الرياضيات والفيزياء. وربما كانت هذه الزيارات بالإضافة إلى إعجاب المركيزة السافر بسعة علم موبرتوي، هي التي أثارت الغيرة في قلب فولتير الشديد الحساسية، فأدت إلى الملاكمة والشجار بينهما في برلين. وهل كانت دي شاتيليه عالمة باحثة حقاً، أم أنها اتخذت من العلم سبباً للأناقة ومجاراتة مقتضيات العصر. ورأت مدام دي ديفان وبعض سيدات أخريات أن دراستها وأبحاثها كانت مجرد مظهر كاذب، وزعمت المركيزة

صفحة رقم : 12160

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرى



دي كريكي: أن الجبر والهندسة اقتربا بها من حافة الجنون، على حين أن تحذلقها وكلفها الشديد بموضوع دراستها جعلها لا تحتمل. والواقع أن ذهنها تشوش بكل ما تعلمته أو عرفته (37) ولكن استمع إلى مدام دي جرافيني وهي تصف لنا جلسة في سير ي.

"في هذا الصباح قرأت علينا ربة البيت عملية هندسية لمؤلف إنجليزي حالم... وكان الكتاب باللغة اللاتينية؛ وقرأته علينا بالفرنسية، وترددت لحظة عند كل عبارة، وكأني بها تتفهم العمليات الهندسية، ولكن لا، إنها ترجمت بسهولة المصطلحات الهندسية والأرقام والألفاظ الغريبة، ولم تتوقف في شيء. ألا يثير هذا الدهشة حقاً؟ (38).

وأكد فولتير لتيرييو أن مدام دي شاتيليه كانت تعرف الإنجليزية جيداً، وأنها عرفت كل المؤلفات شيشرون الفلسفية، وكانت مولعة جداً بالرياضيات والميتافيزيقا (39). وذات مرة بزت العالم الفيزيائي وعضو الأكاديمية دي ميران في مناقشة عن الطاقة الحركية (40) وقرأت شيشرون وفرجيل في الأصل اللاتيني وأريستو وتاسو بالإيطالية، ونيوتن بالإنجليزية، وعندما زار الجاروتي سير ي تحدثت معه بالإيطالية. وكتبت ولكن لم تنشر كتاباً من ستة مجلدات عن دراسة "سفر التكوين"، مبنية على أعمال الربوبيين الإنجليز عرضت فيه للمتناقضات والأشياء البعيدة الاحتمال والأعمال غير الأخلاقية والأفعال الظالمة في الكتاب المقدس. وكانت رسالتها عن السعادة بحثاً أصيلاً عن أسس السعادة، حيث رأت أن هذه الأسس هي الصحة والحب والفضيلة والانغماس الذاتي العقلاني، ثم طلب العلم والمعرفة. وترجمت قوانين نيوتن من اللاتينية إلى الفرنسية، وأشرف على طبعها كليرو، ونشرت بعد وفاتها بست سنوات (1756). وألقت عرضاً موجزاً لنظام العالم نشر في 1759 وأعلن فولتير ربما من قبيل الشهامة والود، أنه يفوق كتابه "مبادئ فلسفة نيوتن" (1738) (41) وعندما أعلنت أكاديمية العلوم (1738) عن جائزة لأحسن بحث عن طبيعة النار وانتشارها، ودخل فولتير المسابقة ككتب هي سرّاً البحث وقدمته دون ذكر اسمها، وكتبت في الليل لتخفيه عن فولتير (حيث أتى في بحثي عارضت كل آرائه تقريباً (42)) ولم يفز أي منهما بالجائزة التي حصل

صفحة رقم : 12161

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سير ي

أولر. ولكن الأكاديمية طبعت مقالتهما، وامتدح كل منهما مقال الآخر في نشوة الحب العقلي.

ومن أجل موضوعه هو، قام بعدة تجارب بعضها في معمله وبعضها في مسبك في شومون المجاورة (43) ودرس فولتير التلكس وكان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف الأوكسجين (44). ونراه في مايو 1737 يكتب إلى الراهب موسينو في باريس يطلب إليه كيميائياً للحضور إلى سير ي لقاء مائة جنيه سنوياً مع الإقامة الكاملة. ولكن كان على هذا الكيميائي أيضاً أن يتلو القداس في أيام الأحاد والعطلات في كنيسة القصر (45). أنه من جانبه أمن الآن بالعلم وحده. وكتب في 1741 ينبغي أن نعتقد في صحة ما تكشف عنه لنا عيوننا وما تكشف عنه الرياضيات. أما فيما عدا هذا فيجدر أن نكتفي بالقول بأننا لا نعرف (46). فالفلسفة كانت تعني عنده آنذاك خلاصة العلم:

وبهذا المعنى استخدم فولتير الإصلاح في مؤلفه "مبادئ فلسفة نيوتن أملا في الترخيص الملكي بنشره، ولكنه لم يجب إلى طلبه، وظهرت منه طبعة في أمستردام (1738) دون موافقته. وصدرت طبعته هو هناك في عام 1741، وكانت عبارة عن مجلد ضخم يضم 440 صفحة، نموذجاً رائعاً لما يسميه الفرنسيون "دون تعمد الانتقاض من قدره" تبسيطاً، أي محاولة فهم العويص الصعب منه إلى أكبر حد ممكن. وأضاف المشرف على الطبع عنواناً فرعياً وضع ليكون في متناول الجميع. وغير الراهب ديفنتون هذا العنوان الفرعي في نقد غير ودي إلى "عويص على كل الناس" وعلى النقيض من ذلك امتدح الجميع الكتاب بل أن اليسوعيين قبلوه بقبول حسن في صحيفة تريفو (47). وهنا طردت الجاذبية الكونية التي كشفها نيوتن دوامات ديكارت من أذهان الفرنسيين. وشمل كتاب فولتير عرضاً لبصريات نيوتن،

وتحقق من التجارب في معمله الخاص، وحاول إجراء تجارب أخرى من عندياته، وحاد عن طريقه قليلاً، ليؤكد اتساق فلسفة

صفحة رقم : 12162

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرري

نيوتن مع الإيمان بالله. وفي نفس الوقت أكد شمولية القانون في العالم المادي. وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يكن فولتير روح رجل العلم ولا تحدياته وقيل أنه أخفق في أن يكون رجل علم. وينبغي بنا أن نرجح القول بأنه كان شخصاً ثرياً متعدد الجوانب إلى حد لا يستطيع معه أن ينصرف إلى العلم كل الانصراف بصفة نهائية. أنه استخدم العلم وسيلة لتحرير العقل، حتى إذا تم له ما أراد انصرف إلى الشعر والمسرحية والفلسفة بأوسع معانيها، والإنهكاكات الإنسانية في الشؤون الأساسية في عصره "يجب أن نهى الطريق في حياتنا لكل أساليب المعرفة والوجدان وفتح أمامها الأبواب لتتدفق إلى نفوسنا، فإذا لم تتبدد هذه شذر مذر فإن هناك مكاناً فسيحاً لكل شيء(48)" وهكذا كتب في ذلك الوقت (1734) بحث في الإنسان ردد فيه إلى حد كبير آراء بوب في نفس الموضوع، حتى إلى درجة إجازة فكرة غير فولتيرية "كل شيء صواب(49)". ونظم في هذه السنوات معظم غادة أورليان (جان دارك). وربما كان هذا انتجاعاً لبعض الراحة من عناء نيوتن. وشرح فلسفته في رسالة في الميتافيزيقا، وقد رأى من الحكمة أن يحجم عن نشرها. وكانت رسالة فذة مثل سائر إنتاجه، وبدأها بأن تخيل نفسه زائراً وافداً من كوكب المشتري إلى كوكب المريخ، ومن ثم رأى أنه لا يتوقع منه أن يوفق بين آرائه وبين ما جاء به الكتاب المقدس. وحط رجاله بين كفار جنوب أفريقية. وينتهي إلى أن الإنسان حيوان أسود الجلد شعره شبيه بالصوف، ثم ينتقل إلى الهند ليجد أناساً صفر اللون ذوي شعر سبط غير مجعد، فيستنتج أن الإنسان جنس يتألف من عدة أنواع متميزة لا تنحدر كلها من أصل أو سلف واحد(50) ويحكم من مظاهر النظام في العالم ومن التركيب الهادف ذي المعنى في أعضاء الحيوان بأن هناك رباً ذكياً يصمم أو يركب صور الجميع. ولا يرى دليلاً على وجود نفس خالدة غير فانية

صفحة رقم : 12163

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرري

في الإنسان، ولكنه يشعر بأن إرادته حرة. وقبل هيوم و آدم سميث يزمن طويل نرى فولتير يستمد روح الأخلاق من التعاطف بين الناس بعضهم مع بعض، وقبل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل أيضاً نرى فولتير يحدد الفضيلة والرذيلة بما هو مفيد وغير ضار بالمجتمع(51) وسنعود إلى هذه الرسالة فيما بعد.

وكم اختلفت هذه الرسالة عن الشعر المرح الذي نظمته فولتير في تاريخ جان دارك وأنا إذا فتحنا الملحمة الساخرة اليوم فلا بد لنا أن يقفز إلى ذاكرتنا أن الكلام الفرنسي والأدب الفرنسي كانا أكثر تحرراً آنذاك منهما في النصف الأول من القرن العشرين. ولقد رأينا نموذجاً في الرسائل الفارسية للحاكم مونتسكيو، بل أن ديديرو كان أكثر حرية لا في الجواهر المنظومة فحسب، بل في جاك المؤمن بالقضاء والقدر كذلك. فإذا قرنت جان دارك بهذين الكتابين كما نشرها أخيراً فولتير 1756، لوجدناها معتدلة بشكل محمود. ومن المحتمل أن الأصل الذي جرى تداوله سرّاً كان أقرب إلى أسلوب رابليه، ودافع كوندراسيه الوقور الرزين عن القصيصة وروى أن مالشرب وهو أحد كبار موظفي الحكومة الفرنسية حفظها عن ظهر قلب (52)، ووجد في القسم الحادي والعشرين من القصيصة بعد بحث مجهد، بعض أبيات معتدلة في فسقها وشهوانيتها يمكن التجاوز عنها مثل الصور الشبيهة بها عند أريوستو، وقد عوض عنها بقطع كثيرة تقدم وصفاً رائعاً وسرداً بارعاً، وكان فولتير مثل كثير من الفرنسيين في زمانه يرى في جان دارك بنتاً فلاحاً بريئة ساذجة، وربما كانت ابنة غير شرعية استسلمت للخرافات واعتادت سماع (الأصوات)، وارتاب في أن فرنسا كان لا بد أن تنقذ من الغزو الإنجليزي حتى ولو لم تولد هي قط. وفيما عدا هذا ومع التسامح في بعض الأخطاء التاريخية، فإنه روى القصة بأمانة مع تمليحها ببعض الدعابة ومال الملك برأسه نحو جان الباسلة التي لا تهاب شيئاً، وقال في صوت مهيب يرهبه الجميع إلا هي وحدها، أنصتي إلى يا جان، إذا كنت عنراء حقاً فأقسمي اليمين، فأجابت: مولاي العظيم،

صفحة رقم : 12164

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرى

أصدر أوامرك الآن إلى الأطباء الحكماء الخبيرين بأسرار النساء ونظاراتهم على أنوفهم، ورجال الدين والصيدالة وكبيرات الممرضات الخبيرات ليجتمعوا على الفور للفصل في الأمر، فليدققوا النظر ويروا ومن هذا الجواب الحكيم عرف شارل أنها ملهمة تُلقت وحياءً، وأنها تتمتع بنعمة العذرية المقدسة المباركة، ثم قال الملك حسناً يا ابنة السماء، ما دامت تعرفين كل شيء فأخبريني ماذا حدث بيني وبين زوجتي في الفراش في الليلة الماضية؟ أتوسل إليك تحدثني بصراحة، فقالت جان لا لم يحدث شيء، فدهش الملك وركع وصاح بصوت عالٍ: أنها معجزة، ثم رسم علامة الصليب وانحنى احتراماً وإجلالاً (53).

وقرأ فولتير على ضيوفه مقطعاً أو مقطعين من جان دارك رغبة في تسليتهم، وليبعث الدفء في أمسيات الشتاء الباردة. وكانت مدام دي شاتيليه تحتفظ بالمخطوطة الضخمة في حزر أمين، وسمح فولتير في استخفاف وإهمال بتداول بعض الأجزاء بين أصدقائه ونسخ بعضها وتناقلها المجتمع غير المهذب على نطاق أوسع مما كان من الحكمة أن يكون. وكان الخوف من أن تقاضيه الحكومة الفرنسية -لا بسبب فحش القصيصة بل بسبب الهجاء اللاذع في بعض أجزائها للرهبان واليسوعيين والأساقفة والبابوات ومحاكم التفتيش -من بواعث القلق والهموم التي أفضت مضجعه وعكرت عليه صفة حياته.

وكان فولتير أكثر جدية ووقاراً في الزير Alzler "التي بدئ بعرضها بشكل يدعو إلى المساعدة والابتهاج على المسح الفرنسي في 27 يناير 1736. وحققت التاريخ المسرحي بارتداء الثياب التي كانت سائدة في الزمان والمكان المحددين لأحداث الرواية -الغزو الأسباني لدولة بيرو وسلبها ونهبها. ويتوسل الفاريت الحاكم الأسباني للبلد المغلوب على أمره إلى المنتصرين أن يضعوا حداً لقسوتهم فيقول "نحن سوط العذاب الذي نصب على هذه الدنيا الجديدة، نحن عابثون جشعون ظالمون... نحن المتبررون ونحن هنا أنا المتوحشون السذج البسطاء، ولو أنهم عنيون

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; أنشودة الحب في سيرري

بطبيعتهم، فإنهم شجعان بوسائل مثلنا، ولكنهم يفوقونا في الميل إلى الخير وطيبة النفس(54). وصفقت باريس لهذه الرواية لمدة عشرين ليلة متوالية ودفعت 53.640 جنيهاً، وتنازل فولتير عن نصيبه من دخل الرواية للممثلين. وفي 8 أغسطس 1736 تلقى فولتير أول رسالة من فرديريك ملك بروسيا، ومن هنا بدأت مراسلات مشهورة وصداقة فاجعة. وفي نفس العام نشر قصيدة "الرجل الدنيوي" وكأنما كانت رداً مسبقاً على رسالة روسو "بحث في الفنون والعلوم" (1751) أن فولتير ضاق ذرعاً بالحالمين الواهمين الذين يصفون المثالية على الإنسان البدائي غير المتمدن الودود الصاعد "أو يحبذون الرجوع إلى الطبيعة" هرباً من الانفعال وتوتر الأعصاب والنفاق والخداع في الحياة الحديثة. إنه هو نفسه كان مستريحاً وسط ما يعاني من بلايا ومحن، ورأى أنه كان عليه لزاماً عليه أن يقول كلمة طيبة في المدنية إنصافاً لها. إنه لم يجد أية فضيلة أو ميزة في الفقر، أو أي انسجام بين الجراثيم والحب وربما كان البدائيون شيوعيين، وهذا فقط لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً. وإذا إتسموا بالاعتدال والقصد والرزانة فما ذاك إلا لأنهم لم يكن لديهم خمور "وأنا من جانبي أحمد للطبيعة الحكيمة أنها من أجل سعادتي أنجبتني في هذا العصر الذي يحط من قدره نقادنا الذين تعروهم الكآبة والانقباض. إن هذا الزمن الدنس ملائم كل الملائمة لحياتي فأنا أحب الترف والبدخ بل الحياة الناعمة وكل الملذات والفنون على اختلاف أنواعها، والنظافة والذوق والزينة والزخرفة وبدا له كل هذا مفضلاً لديه بشكل واضح على جنات عدن "أبي العزيز آدم، اعترف أنك ومدام حواء كانت لكما أظفار طويلة سوداء بما فيها من أقدار، وإن شعره كما كان أشعث أغبر إلى حد ما.... وعبثاً حاول العلماء أن يعينوا مكان جنة عدن... إن جنة الأرض هي التي أعيش فيها أنا الآن.

ولم ترق في أعين رجال الدين الصورة التي رسمها فولتير لأدم وحواء، وأصرروا على أن سفر التكوين تاريخ صحيح، ولم يقرأ فولتير على ما جاء

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; أنشودة الحب في سيرري

به عن أظافر آدم وشعر حواء، وتعالق الأصوات مطالبة بالقبض على شيطان سيرري الكافر. وحذره الأصدقاء مرة ثانية، فاعتزم الرحيل. وفي 21 ديسمبر 1736 غادر سيرري واميلي، قاصداً بروكسل متكرراً في زي التاجر ريفول. وسخر المعجبون به هناك من تنكره ومثلوا مسرحية الزير تكريماً له. وحذر جان بابتيست أهل بروكسل من أن فولتير جاء إليهم ليبشر بالإلحاد، فانتقل إلى ليدن حيث احتشدت الجماهير لرؤيته، ثم إلى أمستردام حيث أشرف على طبع كتابه عن نيوتن، وساور المركزية آنذاك الخوف من أنه لن يعود إليها مطلقاً، فكتبت إلى دار جنتال: "منذ أسبوعين فقط كنت أتعذب لعدم رؤيته لمدة ساعتين اثنتين، وكنت أكتب إليه من غرفتي إلى غرفته، ومضى الآن أسبوعان لا أعرف أين هو ولا أعرف ماذا يفعل... أنا في حالة يرثى لها(55) وأخيراً عاد (مارس 1737) وهو يقسم أنه لولا حبه لها لما أقام في فرنسا التي تلاحقه وتطارده على هذا النحو.

وفي مايو 1739 عاد العشيقان إلى بروكسل حيث استخدم فولتير كل مواهبه القانونية وغيرها في قضية تتعلق بملكات المركزية. ثم قصد هو وزوجها إلى باريس حيث قدم فولتير روايتي محمد وميروب إلى مسرح الكوميدي فرانسيز، وحيث رأت السيد شاتيليه في المطبعة مجلداتها الثلاثة عن "قوانين الفيزياء" وفي هذه الدروس "تهربت من فولتير ونيوتن كليهما مؤثرة عناصر الوجود الأولية في فلسفة ليبنتز. وفي سبتمبر عادوا إلى سيري، ثم قصدوا بعدها إلى بروكسل لإقامة طويلة، ومنها في سبتمبر 1740 أسرع فولتير إلى كليف Cleves لأول لقاء له مع فردريك، وكان قد أصبح ملكاً، ورفض أن يدعو أميلي معه. وفي نوفمبر قطع مسافة 150 ميلاً مرهقة قاصداً برلين ليقوم بمهمة دبلوماسية للكاردينال فليري، وسنعود إلى تفصيل هذه المهمة فيما بعد. وذهبت أميلي في نفس الوقت إلى فوننتبلو حيث بذلت جهداً كبيراً في الحصول على إذن لفولتير بالإقامة في باريس، أن سيري أصبحت عبئاً لا يطاق. وفي 23 نوفمبر

صفحة رقم : 12167

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيري

كثبت إلى دار جنرال: لقد لقيت جزءاً سنمار على كل ما فعلت في فوننتبلو، لقد نلت كل العقبات، وحصلت لفولتير على حق العودة إلى بلده دون قيد أو شرط، ووفقت بينه وبين الوزارة، ومهدت الطريق لقبوله في الأكاديمية، وصفوة القول أي في ثلاثة أسابيع أستطعت أن أعيد إليه كل ما فقدته في ستة أعوام. فهل تعلم كيف كافاني على مثل هذا الإخلاص والغيرة؟ أنه أبلغني في رسالة جافة أنه قصد إلى برلين، وهو يعلم علم اليقين أنه يحطم قلبي ويعذبني عذاباً لا يوصف... لقد انتاباني الحمى... وأمل أن أفارق الحياة وشيكاً... وهل تصدق أن الفكرة التي تستبد بعقلي حين أحس بأن الحزن سيقتلني، هي فكرة الأسي العميق الذي ينتاب فولتير لموتى؟... أني لا أطيق أن أفكر في أن ذكراي سوف تسبب له يوماً الشقاء والألم، ويجدر بكل اللذين أحبوه أن يكفوا عن لومه. وانتزع فولتير نفسه من جو النفاق الملكي ليلحق بعشيقته، وفي طريق عودته بعث إلى فردريك برسالة يوضح فيها وجهة نظره في الموضوع:

" إنني أترك ملكاً عظيماً يكرم ويشجع فناً أعجب به إلى حد التأليه، لألحق بسيدة لا تقرأ إلا ميتافيزيقا وولف المسيحي (شارح ليبنتز). أني أنتزع نفسي من أعظم حاشية إمتاعاً وإيناساً في أوروبا من أجل قضية قانونية. أني لم أترك حاشيتك الفاتنة الجديرة بالحب لأتهد وأتأوه مثل أحقق معنوه بين يدي امرأة، ولكن هذه المرأة يا مولاي هجرت من أجلي كل شيء، مما يتخلى سائر النساء عن أصدقائهن من أجله. أنني أسير فضلها في كل شيء أن الحب غالباً ما يكون سخيفاً مضحكاً، ولكن الصداقة الخالصة والود الصافي لهما حقوق يرتبط المرء أكثر مما يرتبط بأوامر الملك(56).

والتقى ثانياً بأميلي في بروكسل التي أصبحت بلدهما الثاني بسبب طول الإجراءات في قضيتها. وفي مايو 1741 شهدا العرض الأول لرواية محمد في ليل، ولقيا ترحيباً حماسياً. و عادا إلى بروكسل مزهوين مبتهجين، ولكن عكر صفوهما شعور بأن جنوة الغرام قد بدأت تنطفئ. وكان حبها

صفحة رقم : 12168

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرري

لا يزال قوياً. ولو أن جوهر هذا الحب كان الرغبة في السيطرة والتسلط. ولكن شعلة الحب عند فولتير بدأت تتحول إلى قلمه. وفي يولية 1741 اعتذر لها عن غيرته التي أخذت تنوي وتذبل: "إذا وددت أن أستمر على الحب فعليك أن تعيدي إلى مسافات من زمان الحبيبين، أعيدي إلى إذا كان في مقدورك، فجر الحياة، وهي في غسق المساء، نحن نموت مرتين، وأنا الحظ هذا جيداً. إنه موت لا يطاق أن نتوقف عن الحب ونحن جديران به، أما توقف الحياة نفسها فهو أمر تافه لا قيمة له".

وفي أغسطس 1742 قصدا إلى باريس ليشهدا العرض الأول لرواية "محمد" في المسرح الفرنسي. وكان فولتير قد سعى للحصول على إذن رسمي من الكاردينال فليري بتمثيلها، فأجابه إلى طلبه. وكان هذا العرض الأول (19 أغسطس) الحدث الأدبي لذاك العام، وشهده كثير من الحكام ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذي اكتظ به المكان. وبدا أن الجميع راضون على المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا "هجوماً عنيفاً على المسيحية" وانضم فريرون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى. وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس بأن هؤلاء النقاد يسيئون إلى قضيتهم، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية، وتم هذا بعد العرض الرابع من إقبال شديد على الرواية. وعاد فولتير وأميلي أدرجهما إلى بروكسل، وقد استبد بهما الغضب لخيبة أملهما.

وهل كانت رواية "محمد" هجوماً على المسيحية؟ ليس الأمر إلى هذا الحد. أنها كانت تهاجم التعصب العمى والتزمت ولكنها صورت الرسول في صورة غير ودية ربما أتلفت صدور المسيحيين الأبرياء من التاريخ ومن سوء النية فيه. أنه صور الرسول مخادعاً تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل أيمانهم في استئثارهم مهمهم في القتال، ويغزو مكة، بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذي يقاوم هذا الغزو وعندما يتردد سعيد يؤنبه محمد في عبارات بدت

صفحة رقم : 12169

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرري

لبعض المستمعين وكأنها تعريض رجال الدين المسيحيين، فهو يقول: "وأنت أيضاً تتردد؟ أيها الشباب الجريء، إنه لما يتنافى مع الدين أن تتردد. إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الإيمان. بمحمد، إن عليك أن تمتثل. إن إرادة الله تقضي بذلك. ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا، وهو الذي امتثل لصوت الله وأخمد صيحات الطبيعة بين جنبيه، وتخلّى عن ولده العزيز!! أن الله العلي القدير نفسه هو الذي يطلب إليكم أن تضحوا، ويهيب بكم أن تتفروا إلى القتال، ومن ذا الذي يتجرأ فيتردد في تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال؟ فاضربوا إذن فوق الأعناق. أن دم الشيخ زبير يخولكم النعيم المقيم في الدار الآخرة(58).

ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذي يتبين وهو بلفظ أنفاسه الخيرة أن القاتل ابنه. وهذا بطبيعة الحال هجوم من فولتير على استخدام الدين ذريعة لسفك الدماء وإشعال نار الحرب. وهذا ما قصد إليه فولتير. وفي رسالة إلى فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت باسم الدين، منها قتل وليم أورانج وهنري الثالث وهنري الرابع ملكي فرنسا. ولكنه أنكر أن المسرحية هجوم على الدين. بل أنها دعوة إلى استمساك المسيحيين بمبادئ المسيحية الحقّة.

وفي سبتمبر 1742 واساه الكاردينال فليري بإفاده إلى فردريك ليحاول توجيه سياسته إلى الصداقة مع فرنسا. وقصد فولتير مزهواً بدبلوماسيته لزيارة الملك في آخن. وتبين الملك أهدافه ومراميه، فرد على حديثه السياسي شعراً، وأعاد فولتير إلى باريس مع عشيقته أميلي والمسرحية. وفي 20 فبراير 1743 أخرجت على الكوميدي فرانسيز أعظم رواياته ميروب حيث لاقت نجاحاً أحرس السنة أعدائه بعض الوقت.

صفحة رقم : 12170

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيري

وكانت عدة مسرحيات قد كتبت بالفعل في نفس الموضوع، منها مسرحية يوربيديس التي لم يبق منها إلا شذرات قليلة وفي خطاب تمهيدي أقر فولتير بالفضل والعرفان لمركز فرانشسكو سبيون دي مافي (وهو من فيرونا) الذي كان قد أخرج ميروب في 1713. وكانت هذه المسرحيات تتميز بتحول الاهتمام فيها إلى حب الوالدين لا إلى الحب الجنسي ويروون أن معظم الحاضرين سالت دموعهم في المشهد الأخير. ولأول مرة في تاريخ المسرح الفرنسي تعالت الأصوات تنادي بظهور المؤلف على خشبة المسرح، وقيل أنه وافق وبذلك أوجد سابقة أسف لها لسنج أشد الأسف. وطبقاً لبعض المصادر الأخرى يقال أن فولتير رفض الظهور على المسرح على الرغم من حث الدوقتين اللتين جلس في مقصورتها، وكل ما فعله أنه نهض وافقاً في مكانه لحظة رداً على التحية (59)، وحكم فردريك بأن هذه المأساة من احسن ما كتب من مسرحيات (60). وذهب جيبون إلى ان الفصل الأخير يضارع أي فصل في مسرحيات راسين (61).

وقل من قيمة نجاح "ميروب" إخفاق فولتير في الفوز بمقعد في الأكاديمية الفرنسية. إنه سعى له سعياً متواصل إلى حد أنه أعلن نفسه كاثوليكياً حقاً ومؤلف أبحاث أقرتها الكنيسة (62). وأيده لويس الخامس عشر في بداية المر ولكن وقف في طريقه وزيره الجديد مورياس الذي احتج بأنه لا يليق أن تشغل نفس شريرة دنسة المقعد الذي خلا بوفاة الكاردينال فليري. وشغل المقعد أسقف ميربوا. واستحث فردريك فولتير أن يترك البلد الذي لا يلقي فيه عبارته سوى هذا القدر الضئيل من التكريم، ويحضر ليقم معه في بوتسدام. فاعترضت مدام شاتيليه وأشارت عليه الحكومة الفرنسية بقبول الدعوى لبعض الوقت والقيام بعملية التجسس في برلين. وهفت نفسه إلى الاشتغال بالسياسة، فقبل الدعوى وقام ثانية بالرحلة المرهقة ركباً عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا، وقضى في هذه المغامرة ستة أسابيع (30) أغسطس-12 أكتوبر 1743) ومرة أخرى سخر فردريك من سياسته وأمتدح شعره، وعاد فولتير إلى أميلي

صفحة رقم : 12171

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيري

في بروكسل. وفي أبريل 1744 استأنفا مقامهما في سيري محاولين بعث غرامهما الميت إلى الحياة من جديد.

وفي "رسالة السعادة" كانت المركيزة ترى أن الرغبة في المعرفة هي إحدى الرغبات التي تسهم أكبر إسهام في سعادة الإنسان لأنها تجعلنا أقل اعتماداً بعضنا على بعض ومع ذلك تقول عن الحب: "إنه أعظم الأشياء الطبيعية التي هي في متناول أيدينا، وهي الشيء الوحيد الذي نضحى من أجله بلذة الدرس والتحصيل. والمثل الأعلى في هذا المجال شخصان يفتتن الواحد منهما بالآخر إلى حد لا تفتقر معه عواطفهما ولا تصاب بالتخمة أبداً، ولكن لا يمكن لإنسان أن يأمل في مثل هذا التآلف والانسجام بين شخصين، لأن هذا الشيء يفوق حد الكمال. فالقلب الأهل لمثل هذا الحب والنفس الوقية بالمحبة إلى هذا الحد يجوز أن تخلق مرة واحدة كل قرن من الزمان(63).

وفي رسالة مؤثرة لخصت تخيلها عن هذا الأمل:  
"قضيت عشرة أعوام سعدت فيها بحب الرجل الذي غزا قلبي. وقضيت هذه الأعوام العشرة في ارتباط وثيق به... وعندما انتقص امتداد العمر والمرض من تعلقه بي لم ألاحظ هذا إلا بعد مرور فترة طويلة. إني أحببته لسببين، قضيت حياتي كلها معه واستمتع قلبي الوثائق بنشوة الحب، بالإضافة إلى توهمي أنني أيضاً جديرة بالحب، وأفلت من يدي هذا الظرف السعيد(64).

وماذا حول فولتير من الهيام إلى هذا الوفاء المنقطع؟ ويبدو أنه كان صادقاً في التذرع باعتلال صحته. ولكننا سنجد في بحر عام واحد يتأوه ويتهدد كالمعتوه بين يدي امرأة" والحق أنه كان قد استنزف جانباً من حياته واهتمامه- مدام دي شاتيليه والعلم. إن العزلة في سيرري ربما أورثت السأم والملل بسرعة ذهنياً يافعاً. ولم تكن نعمة وبركة إلا عند ملاحقة الشرطة له، وعندما كان يدعو العلم إلى التفرغ له، ولكنه كلن آنذاك قد تذوق ثمانية ملذات باريس ومباهجها، واستمتع بمشاهدة افتتاح

صفحة رقم : 12172

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> أنشودة الحب في سيرري

مسرحياته، بل كان يلعب دوراً في السياسة القومية، وأحس بسحر الحاشية ولو من بعيد، وأصبح صديقه المركيز دار جنسون الوزير الأول، كما أصبح صديقه ومدينه الدوق دي ريشيليو الأمين الأول للملك. وكان لويس قد رق له ولأن جانبه. وفي 1745 كان الدوفين على وشك أن يتزوج من الأميرة الأسبانية ماريا تيريزا رافاييلا، ولا بد أن تقام احتفالات ضخمة لهذا الغرض، فكلف ريشيليو فولتير بكتابة مسرحية لهذه المناسبة. وكان على رامو أن يكتب الموسيقى، فيتعاون الملحن والشاعر في العمل معاً، وكان لزاماً أن يحضر فولتير إلى باريس، وفي سبتمبر 1744 ودع العاشقان سيرري وانتقلا إلى العاصمة.

صفحة رقم : 12173

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رجل البلاط



بلغ فولتير آنذاك سن الخمسين. وكان لوقت غير قصير يحتضر في كل عام مرة. وكتب إلى تييريو في 1735 "من المؤكد أنه ليس أمامي إلا سنوات قليلة أعيشها (65). وكان قد بلغ آنذاك الحادية والأربعين، وكان أمامه ثلاث وأربعين سنة أخرى، فكيف تسنى له هذا؟ عندما انتابته علة خطيرة في شالون في أعالي المارن (1748)، ووصف له أحد الأطباء بعض الأدوية، قال فولتير، كما يروي سكرتيره، إنه لن يتبع شيئاً من هذه التعليمات، لأنه يعرف كيف يعالج نفسه في أيام الصحة والمرض على حد سواء، وسيظل طبيب نفسه كما كان دائماً. وفي مثل هذه الأوقات كان فولتير يصوم لبعض الوقت، ثم يأكل قليلاً من الحساء الرقيق والخبز المحمص والشاي الخفيف والشعير والماء. ويستطرد سكرتيره لونجشامب فيقول: "تلك هي الطريقة التي عالج بها فولتير نفسه فبرئ من سقمه الذي ربما أدى به إلى نتائج خطيرة لو أنه أسلم نفسه إلى أطباء شالون. كان مبدؤه أن صححتنا نتوقف علينا نحن، وركانزها الثلاث هي القصد في الطعام والشراب وضبط النفس والاعتدال في كل شيء، والتمرينات الرياضية البسيطة، ففي كل الأمراض التي لا تكون نتيجة لأحداث خطيرة أو تكون خلل أساسي في أعضاء الجسم الداخلية، يكفي أن تساعد الطبيعة التي

صفحة رقم : 12174

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رجل البلاط

تسعى جاهدة في شفاننا، وأن نلتزم في الغذاء بنظام دقيق لفترة طويلة إلى حد ما، فنتغذى على السوائل المناسبة والأغذية الخفيفة الأخرى. ورأيت دائماً يلتزم بهذه القاعدة طيلة وجودي معه (66). وكان بارعاً مثل رجال المصارف في إدارة أمواله واستثمارها. وكان مستوراً وشاعراً ومقاولاً وكاتباً مسرحياً ورأسالياً وفيلسوفاً ومقرضاً للنقود وصاحب معاش ووارثاً. وساعده صديقه دار جنسون على جمع ثروة من تموين الجيش (67)، وكان قد ورث جزءاً من ثروة أبيه وترك له موت أخيه أرمان (1745) دخل بقية أملاك أبيه. وأقرض الدوق ريشيليو ودوق دي فلبار والأمير دي جيز وغيرهم مبالغ كبيرة، ووجد عناء كبيراً في استرداد الديون، ولكنه عوض عنها بالأرباح (68). وفي 1735 كان ريشيليو مديناً له بمبلغ 46.417 من الجنيهات دفع عنه الدوق أرباحاً سنوية قدرها 4000 (69) جنيه "وفي حالة مسيو دي بريزي غير الموثوق به كان فولتير يطلب فائدة قدرها 10%، واستثمر فولتير أكثر أمواله في سندات مدينة باريس التي تدر ربحاً قدره 5% أو 6%، وكثيراً ما أعطى تعليماته إلى وكيله للإلحاح على مدينيه بالسداد: "أنه من الضروري يا صديقي أن تطالب مرة ومرتين وتلح وتراقب وتلح في الطلب ولكن لا تعذب المدينين من أجل إيرادي السنوي ومتأخراتي (70) وفي 1979 قدر سكرتير فولتير أن دخله السنوي بلغ 80 ألف جنيه (71). ولم يكن فولتير ينبش الأرض بحثاً عن المال، ولم يكن بخيلاً مقترراً، وكثيراً ما منح الأموال وقدم سائر المساعدات لشباب الطلبة ومد يد المعونة قولاً أو فعلاً إلى فوفينارج ومارمونت ولا هارب. وقد رأيناه يتنازل عن العائدات رواياته للممثلين، وعند ما ضاع عليه أربعون ألف جنيه بسبب إفلاس ملتزم عام كان قد

أقرضه المبلغ واجه الأمر في هدوء، ولم يثر أو يغضب. وذكر العبارات التي تعلمها في صغره "أعطانا الله، وأخذ الله فليقدس اسم الله".  
ولو أن فولتير أوتي مالا أقل ليستغله ويعنى به، وكان أكثر بدانة أو اكتنز لحماً أكثر فوق عظامه، فلربما كان أقل حساسية وعصبية وأقل نزقاً

صفحة رقم : 12175

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رجل البلاط

وانفعالاً. وكان كريماً حذراً حريصاً على مشاعر الناس وحقوقهم. وكان عادة مرحاً ودوداً طلق المحيا مفعماً بالحيوية والنشاط، وكان أهلاً للصدقة الحميمة الوثيقة. وما أسرع ما كان يغتفر أية إساءة لا تجرح كبرياءه، ولكنه لم يكن يحتمل في صبر أي نقد أو عمل عدائي (وكان يقول أني أحسد الحيوانات على شينين، جهلها مما قد ينتابها من مصائب بما يقال عنها(72)) وأثار ذكاؤه الحاد حفيظة كثير من الأعداء، فحمل عليه فريرون وبيرون وديفونتين وهاجموا آراءه في عنف أشد من عنف رجال الدين في مهاجمته. ولسوف نسمع منهم شيئاً فشيئاً. ورد عليهم فولتير الضربات بمثلها على الرغم من نصح مدام شاتيليه له بالترام الصمت، ووجه إليهم أقذع السباب والشتم، وجند أصدقاءه لشن الحملات عليهم. وكم وجدت المركزية مشقة في منعه من الذهاب إلى باريس ليعنف ديفونتين أو يتحداه، بل أنه فكر في مناشدة الرقابة أن يحظر نشر ما يكتبه ألد أعدائه. لقد كان في فولتير كل شوائب مناقبة ومزيد من الشوائب.

ووجد فولتير في رامو (الموسيقار) شخصاً نزقاً مزهواً سريع الغضب مثله. وكان تعاونهما في العمل امتحاناً قاسياً لكل منهما. ولكن أخيراً اكتمل نص الأوبرا والموسيقى وقام الممثلون والموسيقيين بعمل تجربة للرواية. وفي 23 فبراير 1735 عُرِضت "أميرة نافار" -ولقيت ما كان مقدراً لها من نجاح. وبعد ذلك بشهر خصصت لفولتير حجرة في فرساي تقارب ما وصفه في رسائله الخاصة بأنها "أقذر حجرة في فرساي" وتبوأَت مركزاً شاتيليه من جديد في الحاشية مكانها الذي كانت قد ضحت به من أجل فولتير. وحصلت آنذاك على الامتياز المذهل وهو الجلوس في حضرة الملكة. وكان في صعود نجم مدام دي بمبادور تدعيم لمركز فولتير فقد تعرف عليها حين كانت مدام دنوال، وزارها في دارها، وكتب في مديحها شعراً تافهاً، وبناء على إلحاح منها عينه الملك (أول أبريل) مؤرخ الملك براتب قدره ألفي جنيه في العام.  
وسرعان ما اقتضت الظروف أن يثبت جدارته ووجوده، ذلك أنه في 11 مايو 1745 هزم الفرنسيون الإنجليز في فونتوي فطلب دار جنسون قصيدة

صفحة رقم : 12176

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رجل البلاط

غنائية تخلد هذا الانتصار. ونظم فولتير 350 بيتاً من الشعر في ثلاثة أيام طبعت خمس طبعات على مدى أسبوعين. وأحب الملك فولتير لفترة وجيزة، وأصبح فولتير شاعر حرب. وزيادة في تخليد ذكرى النصر كلف فولتير ورامو بإعداد أوبرا المهرجان. وأبرزت أوبرا "معبد المجد العظيم" أي تراجان-أي لويس الخامس عشر-عائداً من المعركة ظافراً منتصراً، وخصص لفولتير في تلك الأمسية مكان على مائدة الملك، وأكلاً معاً طعاماً شهياً، ولكن فولتير سأل ريشليو في لهفة: هل تراجان راضٍ؟ ولكن الملك سمعه مصادفة ورأى أنه وقح جرى بعض الشيء فلم ينبس إليه ببنت شفه.

وشمل فولتير بمزيج من الشهرة والانتساب إلى الحاشية الملكية، فبدأ حملة جديدة للانضمام إلى مجمع الخالدين (الأكاديمية الفرنسية) ولم يأل أي مجهود في تحقيق مأربه. وفي 17 أغسطس 1745 أرسل نسخة من رواية "محمد" إلى البابا بندكت الرابع عشر، يسأله أن يهديها إليه. وفي 19 سبتمبر رد البابا اللطيف: سعدت الليلة الماضية بروايتك "محمد" التي قرأتها بشغف وسرور عظيم. وإني لأقدر مواهبك أكبر تقدير، وهذا أمر يعترف به الجميع... وأني لأكبر كل الإكبار بنلك وإخلاصك... وإني هنا أمنحك بركتي الرسولية (73)".

واعتبط فولتير بهذا الوسام أيما اعتباط حتى أنه كتب إلى البابا تقديرًا حاراً ختمه بقوله: بكل إجلال وتقدير واحترام أقبل قدميك المقدستين (74) وأعلن إلى باريس تمسكه بالمذهب الكاثوليكي وإعجابه باليسوعيين، وأطنب في مدائحه لمدام بمبادور والملك. وتوسلت بمبادور إلى الملك وقبل الملك رجاءها. وأخيراً في 9 مايو 1746 وافقت الأكاديمية على الانضمام أمير الشعراء في هذا العصر والكتاب المسرحيين فيه إليها. وزيادة في تكريمه وتدعيم مركزه عين في 22 ديسمبر موظفاً في الحاشية الملكية مخصصاً للقيام على شئون الملك.

صفحة رقم : 12177

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> رجل البلاط

وربما تسنى له في أيام النجاح والعيش الرغيد هذه أن يكتب رواية "بابوك أو الدنيا كما هي" وبابوك رجل من سكيزيا (إقليم قديم في جنوب شرقي أوروبا وجنوب غربي آسيا) يجول ليرى الدنيا، وبخاصة كيف تسير الأمور في فارس (أي فرنسا) وأصابه الذهول والفرح لما رأى من الحروب والفساد السياسي وشراء الوظائف وجباية الضرائب وثراء رجال الدين. ولكن ترحب به سيدة (مدام دي بمبادور) استماله جمالها وثقافتها وكياستها إلى "المدينة" ويرى بابوك هنا وهناك بعض مظاهر الكرم ونماذج للأمانة. ثم يزور رئيس الوزراء (تذكير بالكاردينال فليري) ويجده يعمل جاهداً لإنقاذ فارس من الفوضى والهزائم، ويخلص إلى أن الأمور تسير سيراً حسناً بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة للطبيعة البشرية للتعليم، وأن الدنيا بوضعها الحاضر لا تستحق التدمير بعد، وأن الإصلاح خير من الثورة، أما بالنسبة لشخصه هو على أية حال فإنه سيقاد الحكماء الحقيقيين الذين سيعيشون بينهم وبين أنفسهم في عزلة وهدوء (75). فهل شعر بالوحشة والشوق إلى سيرى فعلاً؟

إنه على أية حال لم يكن لانقاً ليعمل في البلاط. فإنه بطريقة تعوزها اللباقة إلى حد لا يصدق احتقل بانتصار الفرنسيين في برجن أوب زوم بقصيدة صور فيها الملك لويس الخامس عشر طائراً من ميدان المعركة إلى أحضان بمبادور، وعهد إليهما معاً بمهمة الاحتفاظ بالفتوحات واستئبد الغضب بالملكة وأبنائها، وأستنكر نصف أفراد البلاط وقاحة الشاعر، وفي الوقت عينه كانت دي شاتيليه قد انغمست في لعب الميسر، وفي ليلة واحدة خسرت 84 ألف فرنك، وأنذرها فولتير بالإنجليزية وهو واقف إلى جوارها بأنها تغش في اللعب. وفهم بعض اللاعبين ذلك واحتجوا وترامت أنباء هذه الصراحة المخزية إلى أفراد الحاشية، فلم تترك للشاعر صديقاً في فرساي أو فوننتبلو، وهرب فولتير وأميلي إلى سكو (1747) ليقبلا لدى الدوقة دي مين التي ما زالت على قيد الحياة، وهناك بقي لمدة شهرين في جناح منفرد (منزل) بعيد عن أنظار الناس، وهناك حاول أن ينسى ورطته

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; رجل البلاط

ومحتنه بالانصراف إلى كتابة بعض القصص الرومانسية المرححة التي ساعدت على ان تجعل منه أعظم المؤلفين شعبية في الأدب الفرنسي. وواضح أنه قرأها ذات يوم على الضيوف المقربين الذين تألفت منهم حاشية الدوقة الخاصة. ومن هنا كان إيجاز هذه القصص وما فيها من هجاء مرح وسخرية لطيفة.

وأطول هذه القصص التي كتبت فيما بين عامي 1746، 1750 هي "زاديج أو سر القدر" وزاديج شاب بابلي لطيف غني تلقى أحسن تعليم، عاقل قدر ما يمكن أن يكون الإنسان عاقلاً واسع الإطلاع على علوم قدامى الكلدانيين، فهم أصول ومبادئ الفلسفة الطبيعية، وعرف من الميثاقيريقا ما يمكن أن يعرف في أي عصر، أي القليل منها أو لا شيء على الإطلاق (76). وكان على وشك أن يتزوج من سمينا الجميلة حين هاجمه بعض قطاع الطرق، وأصابوه بجرح تحول إلى خراج في عينه اليسرى، واستدعى هرمز الطبيب المشهور من ممفيس وفحص الجرح، ثم أعلن أن زاديج لا بد أن يفقد عينه، ولو أنه في العين اليمنى لأمكن علاجه بسهولة، ولكن الجروح في العين اليسرى غير قابلة للشفاء. وأعلنت سمينا أنها تنفر نفوراً لا سبيل إلى مقاومته من الرجال ذوي العين الواحدة، ومن ثم هجرت زاديج وتزوجت من غريمه. وفي ظرف يومين التأم الجرح من تلقاء نفسه وشفيت العين تماماً، ويؤلف الطبيب هرمز كتاباً يثبت فيه أن هذا مستحيل، ويدخل زاديج السرور على قلب الملك مبادر بنصائحه الغالية، وعلى قلب الملكة استارت بنظراته الحانية فتقع في شرك غرامه، ويهرب زاديج إلى مدينة نائية. وفي الطريق يرى رجلاً يضرب امرأة، ويستجيب في شجاعة لصرخاتها طلباً للمساعدة، فيتدخل بينهما ويهاجمه الرجل بعنف ولكنه يرد به قتيلاً. وتسبه المرأة بألفاظ جارحة لأنه قتل عشيقها. وبمضي زاديج في طريقه ويؤخذ ويبيع بيع الرقيق. عندئذ تصور زاديج "الناس كما هم في حقيقة أمرهم..... حشرات يفتك بعضها ببعض من أجل قطرة من طين".

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; رجل البلاط

وقص "ممنون الفيلسوف" حكاية رجل اعتنق يوماً الفكرة الجنونية بأنه متعقل كل التعقل ولكنه وجد نفسه قاصراً قسوراً بانساً عاجزاً يواجه منات الكوارث، فيقرر أن الأرض مستشفى كبير للأمراض العقلية تقوم الكواكب الأخرى بترحيل المجانين فيها إليه (77).

أما رحلات سكارمنتادو فهي تطوف بشاب من كريت من بلد إلى بلد حيث يكتشف له في كل يوم مشاهد جديدة من التعصب أو الخداع أو القسوة أو الجهل. ففي فرنسا تجتاح الحروب الدينية المقاطعات، وفي إنجلترا تحرق الملكة ماري خمسمائة من البروتستانت، وفي أسبانيا ينشق الشعب في لذة رائحة المهترطين الذين ألقى بهم في النار، وفي

تركيا ينجو سكارماتادو من الختان بأعجوبة، وفي فارس يتورط في الصراع بين طائفتي السنة والشيعة من المسلمين، وفي الصين يتهمه اليسوعيون بأنه شخصية بارزة من طائفة الدومنيكان، وأخيراً يعود إلى كريت "ومذ رأيت الآن كل ما هو نادر أو خير أو جميل على الأرض، فقد وطدت العزم على ألا أرى في المستقبل شيئاً غير بلدي، وتزوجت وسرعان ما أدخلني الشك في خيانة زوجتي، ولكنني على الرغم من هذا الشك وجدت أن هذه هي لأسعد ظروف الحياة(78).

وتوسع ميكروميجاس في أفكار النسبية التي استخدمها سويفت في رحلات جليليفر. والسيد ميكروميجاس رجل يصلح للإقامة في نجم الشعري اليمانية، وطوله 120 ألف قدم وعرض صدره خمسون ألفاً، وطول أنفه 6.333 قدماً. عندما بلغ 670 عاماً من العمر ذهب ليستريد من التعليم.

وبينما هو يحوم في الفضاء هبط على كوكب الزحل فسخر من الأقزام هناك، حيث بلغ طول الناس هناك ستة آلاف قد أم نحوها، وتعجب كيف يتسنى لسكان زحل المعدمين هؤلاء الذين ليس لهم إلا 72 حاسة فقط أن يعرفوا الحقيقة وسأل أحد السكان إلى أي حد من العمر تعيشون؟ فصاح ساكن زحل واحسرتاه! قليل جداً منا يعيشون لأكثر من 500 دورة حول الشمس (وهي بحسابنا نحن تصل إلى نحو 15 ألف سنة) وهكذا ترى أننا بشكل ما نموت في اللحظة التي نولد فيها.... وما أقل ما نتعلمه

صفحة رقم : 12180

قصة الحضارة -> عصر فولنتير -> فرنسا -> فولنتير في فرنسا -> رجل البلاط

حين ينزل بنا الموت قبل أن نستفيد من خبرتنا(79). ويدعو ساكن الشعري اليمانية ساكن زحل إلى مصاحبته لزيارة كواكب أخرى، فتتعثر أقدامهما على كوكب الأرض، وتنبئل قدما ساكن الشعري، ويكاد ساكن زحل يغرق وهما يسيران فوق البحر المتوسط. فلما وصلا إلى البر رأيا حشوداً من الأهالي صغار الأجسام يتمركزون هنا وهناك في احتياج شديد، وعندما يتضح لسكان الشعري اليمانية أن مائة ألف من سكان الأرض هؤلاء يلبسون القبعات وعدداً مساوياً يضعون العمائم، يقتلون ويطيح بعضهم برؤوس بعض في صراع (الحروب الصليبية) حول ركام من التراب (فلسطين) لا يكاد يعلو على عقبيه يصيح ساخطاً. مستاءً: أيها الكفار الأوغاد... قلبي يحدثني أن أتقدم خطوتين أو ثلاثاً لأسحق تحت قدمي وكر السفاحين الحمقى بأسره(80).

وكل هذا كان عاماً ساراً بهيجاً، وكان يمكن أن يمر دون أن يحرك أحد ساكناً. ولكن فولنتير في 1748 عكر صفو باريس بنشرة صغيرة "صوت الحكماء وصوت الشعب" هاجم فيها كنيسة فرنسا في نقطة حساسة، تلك هي "أملاك الكنيسة في فرنسا"، حيث ينمو العقل ويتطور يوماً بعد يوم، فإن العقل يعلمنا أنه يجدر بالكنيسة أن تسهم في نفقات الأمة بنسبة مواردها، وأن الهيئة التي نصبت نفسها لتلقي مبادئ العدالة يجدر بها أن تبدأ بنفسها لتكون قدوة للعدالة ونموذجاً لها ورغم أن الأديار تضيع أقوات الشعب وموارد الأرض في خمول عقيم، واتهم "الخرافة" بقتل الحكام وإراقة بحور من الدماء في الاضطهادات والحروب، وذكر الملوك بأن أحداً من الفلاسفة لن تمتد يده على ملكه، وإذا اتحد الملوك مع العقل وجردوا أنفسهم من الخرافة فكم يكون الناس أسعد وأهنأ بالاً. وقل أن أثارت رسالة موجزة مثل هذه العاصفة الهوجاء. ونشرت خمس عشرة رسالة مضادة للرد على رسالة "صوت الحكماء وصوت الشعب" التي لم يذكر اسم مؤلفها.

وأثناء إقامة فولنتير في فصل الشتاء في سكو سددت مدام دي شاتيليه

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; رجل البلاط

ديون القمار، وهدأت من روع الرابحين، وخفتت من استيائهم لما نعتهم به فولتير، وأعادته إلى باريس حيث أشرف على نشر قصصه الصغيرة، ووجد من الحكمة على الرغم من المشقة والتعب أن يلبي دعوة ستانسلاس لركننسكي لزيارة بلاطه في لوفيل-على بعد نحو 18 ميلاً من نانسي عاصمة اللورين. وبعد رحلة مرهقة وصل الحبيب إلى لوفيل (1748) ولكن بعد أسبوعين وصل كتاب من دارجنثال يبيئ به فولتير بأن ممثلي الكوميدي فرانسيز على استعداد لتجربة روايته سمير اميس، وإنهم في حاجة إليه لمعاونتهم في تفسير أبياتها. وكانت هذه الرواية تعني الشيء الكثير لديه، وكانت بمبادور من طيبة نفسها الأثمة قد أعادت إلى المسرح كربيون (الأب) الفقير المعدم وهيأت له سبيل النجاح. وكان ماريغو قد نجا سر فاعتبر مسرحيات الشيخ الهرم أعلى مرتبة من مسرحيات فولتير. وكان الشاعر النحيل الجسم قد اعتزم أن يثبت تفوقه بكتابة روايات في نفس الموضوعات التي كان كربيون قد طرقتها. ومن ثم أسرع فولتير إلى باريس تاركاً أميلي في حرية مهلكة في لوفيل. وفي 29 أغسطس 1748 عرضت سمير اميس لأول مرة عرضاً ناجحاً. وبعد العرض الثاني أسرع متكرراً إلى مقهى بركوب واستمع إلى تعليقات من شهدوا المسرحية. وكانت ثمة تعليقات امتدحت الرواية وأطرتها، تقبلها فولتير على أنها من حقه، وثمة آراء أخرى انتقصت من قدرها وهاجمتها. وقد ألمته هذه أيما إيلا، حيث كان عليه أن يحتملها صامتاً، ولكنه استفاد مما وجه إلى المسرحية من نقد، ففحتها واستمر عرضها طويلاً، وهي تعد الآن من أحسن مسرحياته.

وأسرع ثانية في جو سبتمبر العاصف عبر فرنسا إلى لوفيل، وكاد يموت في الطريق عند شالون، ولما استحثه فرديريك الأكبر على المضي إلى بوتسدام اعتذر بأن المرض أفقده نصف سمعه وعدة أسنان من أسنانه، إلى حد أنه لن يكون إلا مجرد هيكل في برلين. فأجاب "تعال بلا أسنان وبلا أذنين، إذا لم يكن بد من الحضور على هذه الصورة، ما دام أن هذا الشيء الذي بتعذر تعريفه، والذي يمكنك من التفكير، والذي يوحى بكل ما جميل، سيحضر معك" (82) ولكن فولتير أثر المقام مع أميلي.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; موت حبيبة

## 5- موت الحبيبة

أحب الملك الصالح ستانسلاس الأدب، وكان قد قرأ فولتير وأصابته عدوى عصر الإستتارة، وفي 1749 كان الملك بصدد نشر بيانه "الفيلسوف المسيحي" الذي كانت ابنته ملكة فرنسا قد قرأته في استيلاء حزين. وحذرت من أن آراءه يشتم منها أنها نابغة من آراء فولتير إلى حد كبير. ولكن الشيخ الهرم استساغ آراء فولتير كما أعجب بذكائه. وكما أنه

كان له أيضاً محظية (هي المركيزة دي بوفلرز) فإنه لم يجد تناقضاً في أن يتخذ من الشاعر محظياً له في بلاطه. كما عين، فوق ذلك، زوج أميلي المتحرر الواسع الأفق كبير مديري قصره براتب قدره ألفا كراون سنوياً. وكان ثمة موظف آخر في بلاط ستانسلاس، هو المركيز جان فرانسوا دي سانت لامبرت، قائد الحرس. وكانت مدام دي شاتيليه قد التقت به لأول مرة في 1747، وكان هو في الحادية والثلاثين وهي "في الحادية والأربعين. وكانت تلك سن خطيرة لامرأة لم يعد عشيقها إلا مجرد صديق حميم. وفي ربيع 1748 بدأت تكتب للضابط الوسيم رسائل غرام تكاد تتسم بحماسة البنات الصغيرات وخلاعتهن: "تعال إلي بمجرد أن ترتدي ملابسك" سأطير إليك بعد أن أتناول العشاء. "واستجاب سانت لامبرت مغازلاً متودداً. وذات مرة في أكتوبر فاجأهما فولتير في خلوة مظلمة يتبادلان أحاديث الحب والهيام. إن أعظم الفلاسفة هو وحده الذي يتقبل هذه الفعلة النكراء، الخيانة، في هدوء وتسامح. ولم يثر فولتير لهذا الوضع على الفور، وأنبهما في شيء من الهذر والمزاج، ولكنه أوى إلى غرفته حين عرض سانت لامبرت تسوية الأمر معه- أي يقتله عند الفجر. وقصدت أميلي إلى فولتير في الثانية صباحاً، وأكدت له حبها الخالد، ولكنها ذكرته في رفق "بأنك لزم من طويل شكوت... من قواك أن تنهار... فهل يسيء إليك أن يحل أحد أصدقائك محلك؟" وعانقته ولاطفته ودلته بأسماء الدلال التي كانت تتاديه بها، فحفت سورة غضبه وقال "آه أنت على حق دائماً يا سيدتي. ولكن طالما كان لزاماً أن تجري المور على هذا النحو فلا

صفحة رقم : 12183

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> موت حبيبة

أقل من ألا تجري تحت سمعي وبصري" وفي الليلة التالية قصد سانت لامبرت إلى فولتير واعتذر له على تحديه. وعانقه فولتير وقال له "أي بني، لقد نسيت كل شيء. إني أنا المخطئ، أنت في زهرة عمر الشباب والحب والمتعة، فاستمتع بهذه اللحظات، لأنها قصيرة. إن هذا العاجز المريض مثلي لا يصلح لهذه الملذات" وفي الليلة التالية تناول ثلاثتهم العشاء معاً (83). واستمر هذا الثلاثي "حتى ديسمبر حين اعتزمت السيدة دي شاتيليه الذهاب إلى سيرى لتدبير شؤونها المالية. وصحبها فولتير، وجدد فرديريك دعوته. وكان فولتير يميل الآن إلى تلبيتها. ولكن المركيزة فور وصولها إلى سيرى أسرت إليه بأنها حامل، وأنها في مثل هذا السن وكانت آنذاك في الثالثة والأربعين، لا تتوقع أن تعيش بعد الولادة. وكتب فولتير إلى الملك فرديريك ألا ينتظر قدومه. كما طلب إلى سانت لامبرت أن يحضر إلى سيرى. وهناك اتفق العشاق الثلاثة على خطة لتأمين شرعية الطفل. واستحثت السيدة زوجها على القدوم إلى سيرى للتعجيل بإنجاز بعض المهام. ولم ينزعج الزوج لوجود عاشقين آخرين إلى جانب زوجته يكملان شخصه، بل سعد كل السعادة حين استقبلوه بالترحيب وأكرموا وفادته. وازدانت المركيزة بأبهى زينة وأزهى حلة، ولاطفته أعظم ملاطفة، وشرب وثل حتى كان ما كان (مما لست أذكره) وبعد بضعة أسابيع أبلغته أنها قد ظهرت عليها أعراض الحمل. واحتضنها في زهو وفرح. وأعلن عن الحادث السعيد المرتقب إلى كل الناس، وتقدم إليه الجميع بالتهنئة. ولكن فولتير وسانت لامبرت اتفقا على "أن يعد الطفل من بين أعمال مدام شاتيليه المتنوعة" (84) وعاد المركيز (الزوج) وسانت لامبرت إلى عملهما. وفي فبراير 1749 عادت أميلي وفولتير إلى باريس وانصرفت هي إلى ترجمة قوانين نيوتن بمعاونة كليرو. وثمة رسالتان إلى سانت لامبرت (18، 20 مايو) تكشفان عن شخصيتها: "كلا: إنه ليس في مقدوري أن أعبر عن تقديسي وحبي لك حب عبادة. لا تلمني على نيوتن، ويكفيني

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; موت حبيبة

عذابي بسببه. وما ضحيت قط بشيء قدر تضحيتي للعقل ببقائي هنا لإنجازه.. أنا أستيقظ في التاسعة، وأحياناً في الثامنة صباحاً. وأتناول القهوة، واستأنف العمل في الرابعة، وأتوقف عنه في العاشرة... وأتجاذب أطراف الحديث مع فولتير حتى منتصف الليل وهو يتناول معي العشاء. وفي منتصف الليل أعود إلى العمل في نيوتن واستمر حتى الخامسة صباحاً. إني أنجز هذا الكتاب من أجل العقل والشرف ولكني أحبك أنت وحدك" (85).

وفي 10 يونيو جدد فردريك بسرعة دعوة فولتير إلى الحضور إلى بوتسدام ظناً من الملك أن سانت لامبرت قد أعفى فولتير من أية مسؤوليات أخرى يلتزم بها تجاه دي شاتيليه، فأجاب فولتير "حتى فردريك الأكبر نفسه لا يستطيع أن يحول بيني وبين القيام بالواجب لا يمكن أن يحلني منه أي شيء... لن أتخلي عن سيده قد تعجلها المنية في سبتمبر. والأرجح أن عملية الوضع ستكون خطيرة جداً عليها، ولكن إذا كتبت لها النجاة، فأني أعدك يا مولاي أن أحضر في أكتوبر وأقدم ولائي لجلالكم(86)".

وفي يولييه صحبها إلى لوفيل لتكون تحت رعاية طبية خاصة. إن خوف الموت أزعجها كل الإزعاج يختطفها الموت في الوقت الذي وجدت فيه الحب من جديد، وفي الوقت الذي كانت فيه سني دراستها وبحثها على وشك أن تتوج بنشر كتابها. وفي 10 سبتمبر أنجبت طفلة. وفي اليوم العاشر من سبتمبر فارقت الحياة بعد أن عانت كثيراً. واستبد الحزن والأسى بفولتير فزلت قدمه وهو يغادر غرفتها وسقط على الأرض، وظل فاقد الوعي فترة من الوقت. وساعده سانت لامبرت على الأفاقه من غشيته. وقال فولتير عندئذ: "أه يا صديقي أنت الذي قتلتها... يا إلهي! ما الذي أغراك بأن تصل بها إلى هذه الحالة؟! وبعد ذلك بثلاثة أيام طلب فولتير من لونجشامب الخاتم الذي خلعوه من يد السيدة المتوفاة. وكانت صورته منقوشة عليه يوماً ما وجده السكرتير في يد لامبرت، وتعجب فولتير قائلاً: "هكذا النساء. لقد خلعت صورة ريشيليو من هذا الخاتم، ثم جاء سانت لامبرت فطردني... هذا هو نظام الطبيعة.. شخص ينتزع مكان آخر.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; فرنسا -&gt; فولتير في فرنسا -&gt; موت حبيبة

وهكذا تسير الأمور في هذه الدنيا(87)". ووريت مدام دي شاتيليه التراب في لوفيل في أروع مظاهر المهابة والجلال في بلاط ستانسلاس، وسرعان ما تبعتها طفلتها.

وعاد المركيز وفولتير إلى سيري ومن هناك رد على بعض رسائل التعزية التي تلقاها من باريس: "أنتم عزائي، يا ملائكة الرحمة أنتم تجعلونني أحب بقية أيامي التعسة. إني أعترف لكم أن البيت الذي أظلمها على الرغم مما يثير في نفسي من أشجان، ليس كريهاً عندي... أنا لا أهرب من أي شيء يحدثني عنها ويذكرني بها. إني أحب سيري... والأماكن التي زانتها عزيمة على أنا لم أفقد سيده، بل فقدت نصف نفسي. فقدت نفساً خلقت لها نفسي، فقدت صديقة عشرين عاماً، عرفتها في طفولتها. إن أكثر الأباء عطفاً وحناناً لا يحب ابنته الوحيدة إلا كما أحببت أنا هذه السيدة. وبودي أن أجد في كل مكان ما يذكرني بها. وأحب أن أتحدث مع زوجها ومع ابنها(88).



ومع ذلك أدرك فولتير أنه سيذبل ويذوي إذا بقي مترملاً سيرى الموحشة المنعزلة. وأرسل كتبه وأجهزته العلمية ومجموعته الفنية إلى باريس، وسافر في أثرها في 25 سبتمبر 1749. وفي 12 أكتوبر استقر به المقام في العاصمة، في قصر واسع الأرجاء في شارع ترافرسبير.

صفحة رقم : 12186

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> مدام دنييس

6- مدام دنييس

كان من اليسير على فولتير أن يقنع ابنة أخته بالحضور لتكون ربة البيت حيث كانت لفترة من الوقت خليلته. ولدت ماري لويز مجنو ( 1712Mignot) وهي ابنة كاترين أخت فولتير. وعندما توفيت كاترين (1726) تكفل فولتير برعاية أولادها. وفي 1737، عندما بلغت ماري السادسة والعشرين، دفع لها خالها صداقاً محترماً حيث تزوجت من الكابتن نقولا شارل دنييس، وكان موظفاً صغيراً في الحكومة.

صفحة رقم : 12187

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> مدام دنييس

وتوفي الزوج بعد ست سنوات من زواجه، وفي نفس الوقت الذي انتقل فيه فولتير والمركيزة دي شاتيليه إلى باريس. والتمست الأرملة بعض السلوى والعزاء بين ذراعي فولتير، ووجد هو بعض الحرارة والدفء بين ذراعيها. وواضح أن حب الخال سرعان ما تحول إلى شيء غير مشروع. وفي رسالة مؤرخة في 23 مارس 1745 خاطب فولتير ابنة أخته بقوله "محبوبتي، عزيزتي" (89) وقد تكون هذه العبارة حب بري ولكن في ديسمبر، أي قبل عامين من لقاء المركيزة بسانت لامبرت كتب فولتير إلى الأرملة الطروب رسالة يجدر اقتباسها حرفياً حتى يمكن تصديقها: "أقبلك ألف قبلة. روجي تقبل روحك، إن قلبي مفتون بك. أقبل كل شيء فيك" (90). وحذفت مدام دنييس بعض الألفاظ تواضعاً وخجلاً، ولكن المفروض أنها أجابت برسالة غرامية، لأن فولتير كتب لها من فرساي في 27 ديسمبر 1745: "عزيزتي، تقولين إن كتابي إليك بعث السرور والنشوة حتى في حواسك كلها. وأنا مثلك تماماً. فلم أكد أقرأ العبارات الممتعة التي جاءت في كتابك حتى التهبت مشاعري من الأعماق. وأوليت كتابك كل الإجلال الذي أحب أن أوليه لشخصك كله، سأحبك حتى الممات" (92). وفي ثلاث رسائل بعث بها إليها في

1746 "إني أقبلك ألف قبلة" (93). بودي أن أعيش عند قدميك وأموت بين ذراعيك.. (94) "متى يكون في مقدوري أن أعيش إلى جوارك وبنساني العالم بأسره؟" (95) وفي 27

صفحة رقم : 12188

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> مدام دنيس

يوليه 1748 كتب يقول: "سأحضر إلى باريس من أجلك أنت إذا سمحت ظروف سيئة. وسألني بنفسني عند قدميك. وأقبل كل مفاتنك. وفي نفس الوقت أطبع ألف قبلة على كل موضع في جسمك الذي غمرني بفيض من اللذة والبهجة" (97).

في عمر الرجال، مثلما هو في عمر النساء، فترة خطيرة، وهي عندهم أطول، ويرتكبون فيها حماقات لا تصدق. وكان فولتير ألمع شخصية في القرن الذي عاش فيه، ولكن لا يجدر بنا أن نعدده من بين الفضلاء الحكماء، فكثيراً ما اقتترف هذه السخافات والعمال الطائشة وتردى في هذه التصرفات المتطرفة ونوبات الغضب الصيانية، مما سر أعداءه وأزعج أصدقائه. إنه وضع نفسه تحت رحمة ابنة أخته التي كان واضحاً أنها مغرمة به، ولكنها أحببت نقوده حباً متزايداً. إننا نجدها تستغل سيطرتها عليه لتزيد من ثروتها، حتى يوم وفاته. إنها لم تكن امرأة رديئة بمقاييس العصر. ولكنها ربما تجاوزت حدود عمرها باتخاذها سلسلة من العشاق جاكولار دارنو، مارمونتيل، مركيز دي اكسيمين لتستكمل رعاية خالها. (98) ووصفها مارمونتيل مادحاً في 1747 "إن هذه السيدة مقبولة بكل ما فيها من قبح. إن شخصيتها البسيطة غير المتكلفة تشرتبت مسحة من شخصية خالها. وكان فيها كثير من ذوقه ومن مرحة وأدبه الجم، ومن هنا كان السعي إلى الاجتماع بها والتودد إليها" (99).

وفي يوم وفاة مدام شاتيليه كتب فولتير إلى ابنة أخته: "ابنتي العزيزة، فقدت اليوم صديقة عشرين عاماً. ولوقت غير قصير كما تعرفين. لم أكن أنظر إلى مدام دي شاتيليه على أنها امرأة (هكذا). أنا واثق أنك ستشاطريني الحزن الشديد عليها. إنه من المؤسف حقاً أن أراها تفارق الحياة في مثل هذه الظروف ولمثل هذا السبب، وأنا لا أتخلى عن المركيزة دي شاتيليه في هذه المحنة المتبادلة.... سأحضر من سيرري إلى باريس لأحتضنك بين ذراعي، والتمس فيك عزائي وأملتي الوحيد في الحياة (100).

صفحة رقم : 12189

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> فرنسا -> فولتير في فرنسا -> مدام دنيس

وطوال الشهور الثمانية التي قضاها في العاصمة، تلقى فولتير من فردريك الأكبر رسائل كثيرة يستحثه فيها على الحضور، وكان هو يميل إلى قبول الدعوة. وعرض عليه فردريك أن يشغل وظيفة كبيرة في البلاط، مع دار خاصة بالمجان براتب قدره 5000 تالر في العام. (101) ولكن فولتير الذي كان من رجال مثلما كان فيلسوفاً، طلب إلى ملك

بروسيا أن يفرضه بعض المال لتسديد نفقات الرحلة. ووافق الملك في تانيب ماكر ، حيث شبه الشاعر بهوراس الذي رأى من الحكمة أن يمزج النافع بالمقبول(102). وطلب إلى فولتير الأذن بالرحيل من ملك فرنسا، ووافق لويس على الفور، قائلاً لخلصائه المقربين: "هذا سيزيد من جنون رجل مجنون في بلاط بروسيا وسيخفف من جنون رجل في فرساي(103). وفي 10 يونية 1750 غادر فولتير باريس إلى برلين.

صفحة رقم : 12190

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> المشهد الألماني

الكتاب الثالث

أوروبا الوسطى

1713- 1756

الفصل الثاني عشر

ألمانية باخ

1715 - 1756

لم يكن منتظراً من فولتير وهو يخترق ألمانيا أن يستطيع ترويض ذهنه الباريسي الهوائي على تقدير ما للألمان من أجسام وملامح وأداب وحديث، وعلى تذوق الأدب والموسيقى والفنون القوطية. وأغلب الظن أنه لم يكن قد سمع قط بيوهان سبستيان باخ، الذي مات في 18 يوليو 1750، وبعد وصول فولتير إلى برلين بثمانية عشر يوماً. ولعله لم يكن قد رأى تلك العبارة التي وصف بها هيوم ألمانيا 1748، وهي أنها "بلد بديع، زاهر بقوم أمناء مجدين، ولو قيضت له الوحدة لكان أعظم قوة... في الأرض" (1).

وكان من حسن طالع فرنسا وإنجلترا أن هذا الشعب القوي النشط، البالغ عدده آنذاك زهاء عشرين مليوناً من الأنفس، كان لا يزال منقسماً إلى نيف وثلاثمائة دولة مستقلة من الناحية العملية، لكل منها أميرها المتمتع بالسيادة، وبلاطها، وسياستها، وجيشها، وعملتها، ومذهبها الديني، وزيها الخاص، وكلها في مختلف مراحل التطور الاقتصادي والثقافي، لا تجمعها غير رابطة اللغة، والموسيقى، والفن. وثلاث وستون من إماراتها بما فيها كولونيا، وهلسهايم، ومينز، وترير، وشيبير، وفورتنسبورج - يحكمها رؤساء أساقفة أو أساقفة، أو رؤساء ديورة. وكانت إحدى وخمسون مدينة - أهمها هامبورج، وبريمن،

صفحة رقم : 12191

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> المشهد الألماني

ومجدبورج، وأوجربورج، وفورمبورج، وأولم، وفرانكفورت - على المين - مدناً "حرة"، بمعنى أنها، كالأمرء، تخضع لرأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة خضوعاً طليقاً من القيود الثقيلة. وكان أكثر الأراضي الألمانية، باستثناء سكسونيا وبافاريا، يزرقه الأقنان أو رقيق الأرض المرتبطون بها، ويخضع لكل الفروض الإقطاعية القديمة تقريباً. وكان هناك 4.500 قن من بين 8.000 فلاح في أسقفية هلسهايم حتى عام 1750 (2) وكانت الفوارق الطبقيّة حادة، ولكن طول العهد بها ثبتها تثبيتها جعل طبقة العامة تتقبلها في غير تدمر شديد، وقد خفف منها بقاء أطول واحترام أعظم لالتزامات السادة الإقطاعيين بحماية الفلاح في الكوارث، ورعايته في المرض والشيوخ، والعناية بالأرامل واليتامى، وحفظ النظام والسلام (3)، واشتهر الإقطاعيون "اليونكو" في بروسيا بإدارتهم أملاكهم بكفاية، وبتطبيقهم السريع للطرائق الزراعية المحسنة. وأخذت الصناعة والتجارة تنتعشان بعد أن أنفقت ألمانيا سبعة وستين عاماً في الأفاقة من حرب الثلاثين سنة. وكانت سوق ليبزج أحفل أسواق أوروبا بروادها، ففاقت سوق فرانكفورت حتى بيع في الكتب. وبلغت فرانكفورت وهمبورج في هذا القرن في نشاطهما التجاري شأواً لم تبلغه سوى باريس، ومرسليا، ولندن، وجنوه، والبندقية، والأستانة. ولم يستعمل أمرء التجارة الهمبورجيين ثراءهم في الترف والمظاهر فحسب بل في الرعاية المتحمسة للأوبرا، والشعر والدراما، ففي همبورج حقق هاندل انتصاراته الأولى، ووجد كلوبستوك المأوى، وكتب لسنج مقالاته عن المسرح الهمبورجي. وكانت المدن الألمانية كشأنها اليوم، خير المدن إدارة في أوروبا (4). وبينما أفلح الملك في فرنسا وإنجلترا في إخضاع النبلاء للحكومة المركزي، نرى أن الناخبين أو الأمرء، أو الأدواق، أو الكونتات، أو الأساقفة، أو رؤساء الديورة والذين حكموا الدويلات الألمانية،

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; أوروبا الوسطى -&gt; ألمانية باخ -&gt; المشهد الألماني

سلبوا الإمبراطور كل السلطان حقيقي على أملاكهم، وأتو بصغار النبلاء أتباعا في بلاط الأمير. وكانت هذه البلاطات (Residenzen)، فضلا عن المدن الحرة، مراكز للحياة الثقافية كما كانت مراكز للحياة السياسية في ألمانيا. وانجذبت إليها ثروات ملاك الأراضي، وأنفقت على القصور الضخمة ومظاهر البذخ والثياب الفاخرة التي كانت في كثير الأحيان نصف الرجل ومعظم سلطانه. وهكذا نجد إيبير هارت لودفج، دوق فررتمبرج، يكل إلى ي.ف.نتى ودوناتو فريسنوني أن يشيدا له (1704-33) في لودفجزبورج (قرب شتوتجارت) قصرا بديلا بلغ في فخامته تصميمه وزخرفته، وفي كثرة ما حوى من أثاث أنيق وتحف فنية بديعة، مبلغا لا بد قد كلف رعاياه الكثير من المال والعرق. وفي 1751 ألحق بالقلعة الكبرى (Schloss) في هيدلبرج، التي بدء بناؤها في القرن الثالث عشر، راقود في كهف الخمور (وهو وعاء ضخم للتخمير) يتسع لتخمير 49,000 جالون من الجعة في المرة. وفي مانهايم اتفق الدوق شارل تيودور خلال حكمه الطويل ناخبا لللياليتين (1733-99)، 35 مليون فلورين على المؤسسات الفنية والعلمية، والمتاحف، والمكتبات، وعلى إعانة المعماريين، والمثاليين، والمصورين والممثلين والموسيقيين. ولم تكن هانوفر بالبلد الفسيح ولا الفخم، ولكن كان يحوي دارا للأوبرا اجتذبت إليها هاندل. وكانت ألمانيا مجنونة بالموسيقى جنون إيطاليا الأم ذاتها.

وكانت كان لميونخ دار كبرى للأوبرا مولتها ضريبة فرضت على لعب الورق. غير أن بافاريا الناخبين أشهروا عاصمتهم بشيء آخر أيضا هو العمارة. وكان مكسليان إيمانويل قد لجأ إلى باريس وفرساي حين اجتاحت النمساويون في حرب الوراثة الإسبانية، فلما عاد إلى ميونخ (1714) جلب معه ولعا بالفن وطراز الركوك. وصحبه معماري فرنسي شاب يدعى فرنسوا دكوفلييه، شيد للناخب التالي، شارل ألبرت في حديقة نمفنبورج، أية من آيات الركوك الألماني، هي قصر صغير يسمى امالينبورج (1734-39)، ظاهره بسيط، وباطنه يعج

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; أوروبا الوسطى -&gt; ألمانية باخ -&gt; المشهد الألماني

بالزخرف: فيه قاعة مرايا (شبيجلزال)، مقببة تبهر الأنظار، ذات زخارف من الجص بأشعار شعرية وعربية الطراز، وحجرة صفراء (جليس تسيمر) تحير زخارفها الجصية المذهبة العين التي تحاول تتبع تصميمها المعقد. وبهذا الطراز الطاغى نفسه بدأ يوزف افنر، وأتم كوفلييه، الحجرات الإمبراطورية في قصر الدوق بميونخ. وكان كوفلييه قد غادر فرنسا في العشرين من عمره قبل أن يتعلم الخضوع الكامل للذوق الفرنسي. ومن عكف الفنانون الألمان، دون أن يلقوا منه معارضة، على تطوير الزخارف الجصية بتحرر الهواة وحماستهم، فحققوا الكمال في الجزينات مع الإسراف في الكليات. وقد تحطمت الحجرات الإمبراطورية في الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن فرديريك أوغسطس الأول "القوي"، ناخب سكسونيا (حكم 1694-1733) ليرضى بان يبزه أي دوق ميونخي. ومع أنه انتقل إلى وارسو (1697) ملكاً على بولندا باسم أوغسطس الثاني، فقد وجد الوقت ليفرض على السكسونيين من الضرائب ما يكفي لجعل درسدن "فلورنسة نهر الألب". فتقدمت بذلك جميع المدن الألمانية في الإنفاق على الفن، كتبت الليدي ماري مونتاجير في 1716 تقول: "إن المدينة أكثر ما رأيت من مدن في ألمانيا نظافة وأناقة، وأكثر بيوتها حديثة البناء وقصر الناخب أية في الجمال" (6). وجمع أوغسطس الصور في نهم كنهمة في جمع الخيليات، أما ابنه الماخب فرديريك أوغسطس الثاني (حكم 1733-63) فقد أغدق المال على الخيل والصور، و "جلب فنون إلى ألمانيا" (7) كما قال ونكلمان. وفي 1743 أوفد أوغسطس الأصغر هذا لجاوتي إلى إيطاليا حاملاً الدوقاتيات لشراء الصور، ولم يلبث الناخب أن دفع 100 و000 سيكوين (50 و000 دولار؟) ثمناً لمجموعة الدوق فرانتيسكو الثالث أمير مودينا، وفي 1754 اشترى لوحة رفائيل "سستيني مادونا" (عذراء كنيسة السستين) بعشرين ألف دوقاتية، وهو ثمن لم يسبق له نظير. وهكذا تكونت قاعة صور درسدن العظمى. وقامت في درسدن دار جميلة للأوبرا في 1718، ولا بد أن فرقتها

صفحة رقم : 12194

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> المشهد الألماني

كانت متفوقة، لأن هاندل أغار عليها ليزود منها مشروعاته الإنجليزية الجريئة في 1719، وكان أوركستراها بقيادة يوهان هاستي من خيرة الأوركسترات في أوربا (8). وفي درسدن ولد الخزف الميسيني- ولكن يجب أن تتفرد لهذا قصة مستقلة. وأما في عمارة العاصمة السكسونية فإن ألمع الأسماء كان متاوس دانييل بوبلمان، الذي شاد لأغسطس القوي في 1711-22 قصر تسفنجر الشهير مركزاً لمهرجانات البلاط. وهو مجمع باروكي رائع من أعمدة وعقود ونوافذ

جميلة ذات عمد وشرفات وقبة تتوج هذا كله. وقد دمرت القنابل القصر في 1945، ولكن البوابة الفخمة أعيد بناؤها وفق التصميم الأصلي. ولهذا الناخب الذي لا يتعب ولا يكل أقام المعماري الروماني جيتانو كيافيرى بطراز الباروك كنيسة البلاط (1738-51)، وهذه أيضاً دمرت إلى حد كبير ثم رمت بنجاح. إن التاريخ سباق بين الفن والحرب، والفن يلعب في هذا السباق دور سسيفوس (ملك كورنثة الذي قضى عليه بان يدحرج حجراً ثقيلاً صاعداً الجبل، فلا يلبث الحجر أن يتدحرج إلى أسفل).

صفحة رقم : 12195

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الحياة الألمانية

كانت ألمانيا الآن تنصدر أوروبا في ميدان التعليم الأولى. ففي 1717 جعل فردريك وليم الأول ملك بروسيا التعليم الابتدائي إلزامياً في مملكته، وأسس في العشرين سنة التالية 1700 مدرسة لتعليم الصغار وتلقينهم ما يريد. وكان يقوم بالتدريس عادة في هذه المدارس مدرسون علمانيون وأخذ دور الدين في التعليم يتضاءل. وتركز الاهتمام على تعويد التلاميذ الطاعة والاجتهاد، وكان الجلد عقاباً لا غنى عنه. وقد حسب معلم أنه خلال إحدى وخمسين سنة مارس فيها التعليم جلد تلاميذه 124.000 جلدة بالسوط، وصفعهم بيده 136.715 صفعة، وضربهم بالعصا 911.527 ضربة، ولكمهم على آذانهم 1.115.800 لكمة. وفي 1747 أسس يوليوس هيكر، القسيس البروتستنتي في برلين أول "مدرسة واقعية Realschule"، وقد سميت كذلك لأنها أضافت الرياضيات والدراسات

صفحة رقم : 12196

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الحياة الألمانية

الصناعية إلى اللاتينية والألمانية والفرنسية، وسرعان ما أنشأت معظم المدن الألمانية معاهد على غرارها. أما في الجامعات فإن دراسة اليونانية ارتفعت إلى مكان مرموق جديد فأرسلت بذلك الأسس لتفوق ألمانيا اللاحق في الدراسات اليونانية وقامت جامعات إضافية في جونتن (1737) وإرلانجن (1747). وإذا كان ناخب هانوفر (الذي أصبح ملكاً على إنجلترا) يمول جامعة جونتجن، فإنها حذت حذو جامعة هاللي في إطلاق يد الأساتذة في التعليم، والتوسع في تدريس العلوم الطبيعية والدراسات الاجتماعية، والقانون. وخلع الطلاب الآن الرداء الجامعي، وارتداء العباءة، وتقلدوا السيف والمهراز، والتحموا في المبارزات، وتلقوا الدروس من سيدات المدينة الأكثر تحللاً. وكانت الألمانية لغة التعليم إلا في الفلسفة واللاهوت.

على أن الألمانية كانت قد انحدرت سمعتها الآن، لأن الطبقة الأرستقراطية أخذت تستعمل الفرنسية. كتب فولتير من برلين (24 نوفمبر 1750) يقول "أنني أجد نفسي هنا في فرنسا، فما من إنسان يتكلم غير الفرنسية. أما الألمانية فلجند والخيل، ولا يحتاج إليها المرء إلا على الطرق" (9). وقدم المسرح الألماني الهزليات بالألمانية، والمآسي بالفرنسية - وكانت عادة تختار من ذخيرة المآسي الفرنسية. وكانت ألمانيا آنذاك أقل الدول الأوروبية نزعة قومية، لأنها لم تكن بعد دولة.

وعانى الأدب الألماني من هذا الانقار إلى الوعي القومي. وكان أكثر مؤلفي العصر الألمان أثراً، وهو يوهان كريستوف جوتشيد، الذي جمع من حوله لفيفا من الأدباء أحال لبيزج إلى "باريس صغرى"، يستعمل الألمانية في كتاباته، ولكنه استورد مبادئه من بوالو، وندد بالفن الباروكي لأنه ضرب من الفوضى البراقة، ودعا إلى الرجوع للقواعد الكلاسيكية في الكتابة والفن كما مارسها الفرنسيون على عهد لويس الرابع عشر. وهاجم ناقدان سويسران -هما بودمير وبريتنجر- إعجاب

صفحة رقم : 12197

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الحياة الألمانية

جوتشيد بالنظام والقواعد، وأحسا أن الشعر يستمد قوته من قوى الوجدان والعاطفة الأعمق من العقل، وحتى في راسين يتفجر عالم من الانفعال والعنف خلال الشكل الكلاسيكي. وأكد بودمير أن "أفضل الكتابات ليس ثمرة القواعد... فالقواعد تشتق من الكتابات" (10).

أما كرستيان جيليرت، الذي فاق جميع الكتاب الألمان شعبية، فقد وافق بودمير، وبويتنجر، ويسكال، على أن الوجدان هو لب الفكر وروح الشعر. وكان جديرا باسم المسيحي (كرستيان) إذ بلغ من احترام الناس له لنقاء حياته ورقة سلوكه أن الملوك والأمراء كانوا يختلفون إلى محاضراته في الفلسفة والأخلاق بجامعة ليبزج، وأن النساء كن يأتين ليلثم يديه. وكان رجلا ذا عاطفة لا يخجل من الجهر بها، ناح على القتلى في معركة روسباخ بدلا من أن يحتفل بانتصار فردريك فيها، ومع ذلك فإن فردريك، أعظم رجل واقعي في ذلك العصر، وصفه بأنه "أكثر العلماء الألمان معقولة" (11). على أن فردريك أثر عليه في أغلب الظن إيفالد مرسيان فون كلايست، الشاعر الشاب الفحل الذي بذل حياته لأجله في معركة كونرسدورف (1759) وكان رأى الملك في الأدب الألماني قاسيا ولكنه مشوب بالأمل: "ليس لدينا كتاب مجيدون على الإطلاق، ولعلمهم يظهرون حين أكون سائرا في فراديس النعيم... ستسخر مني لاهتمامي بتوصيل بعض المفاهيم عن الذوق وبعض "الملح" الكلاسيكي لأمة لم تعرف إلى الآن شيئا غير الطعام والشراب والقتال (12) وكان كانت، وكلويسنوك، وفيلاند، ولستنج، وهردر، وشيلر، وجيته- كان هؤلاء جميعا قد ولدوا في هذه الأثناء.

وثمة ألماني من أهل ذلك العهد كسب تعاطف فردريك الفعال وهو كرستيان فون فولف، وكان ابن دباغ ارتقى إلى منصب الأستاذية في جامعة هاللي. وقد اتخذ المعركة كلها موضوعا لتخصصه، فحاول أن يصنفها على أساس فلسفة ليبنتس. ومع أن مدام دشاتليه وصفته بأنه "ثرثار كبير"، فإنه التزم بأن يسترشد بالعقل، وبطريقته المتعثرة بدأ التتوير

صفحة رقم : 12198

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الحياة الألمانية

الألماني (Aufklärung) وحطم السوابق بتدريس العلوم والفلسفة بالألمانية. ومجرد إيراد قائمة بكتبه السبعة والسنتين كفيل بأن يعطل مسيرنا. وقد بدأ برسالة من أربعة مجلدات عن "جميع العلوم الرياضية" (1710)، ثم ترجم هذه المجلدات إلى اللاتينية (1713) وأضاف إليها قاموسا رياضيا (1716) يبسر الانتقال إلى الألمانية. وواصل التأليف بسبعة كتب (1712-25) في المنطق، والميتافزيقيا، والأخلاق، والسياسة، والفيزياء، والغائية، والأحياء، وكل عنوان منها تتصدره في جرة هاتان الكلمتان "أفكار معقولة" وكأنه يرفع راية العقل فوق صارية. وإذا كان يهفو إلى جمهور قراء أوربي، فإنه غطى هذه المنطقة كلها بثماني رسائل لاتينية، كان أكثرها تأثيرا "علم النفس التجريبي" (1732)، و"علم النفس العقلاني" (1734) و"اللاهوت الطبيعي" (1736). وبعد أن خرج حيا من كل هذه المآزق ارتاد فلسفة القانون (1740-49)، ولكي يتوج هذا الصرح كتب ترجمة لحياته.

وسير أسلوبه المدرسي المنتظم يجعل من الصعب قراءته في عصرنا المحموم. ولكنه كان بين الحين والحين يلمس مناطق حية. من ذلك أنه رفض ما ذهب إليه لوك من اشتقاق المعرفة كلها من الإحساس، وكانت نظرياته معبرا بين ليبنتس وكانت لأنه أصر على الدور النشط الذي يؤديه العقل في تكوين الأفكار. فالجسم والعقل، والحركة والفكرة، عمليتان متوازيتان، لا تؤثر إحداهما في الأخرى. والعالم الخارجي يعمل آليا، وهو يبدي دلائل كثيرة على الخطة ذات



القصد، ولكن ليس فيه معجزات وحتى عمليات العقل خاضعة لحتمية العلة والمعلول. أما الأخلاق فينبغي أن تلتزم ناموساً خلقياً مستقلاً عن العقيدة الدينية، وعليها ألا تعتمد على الله لتخويف البشر حتى يلتزموا الفضيلة. وأما وظيفة الدولة فليست السيطرة على الفرد بل توسيع الفرص لنموه (13). وهو يطري الأخلاق عند كونفوشيوس بوجه خاص، لأنها لم تقم الفضيلة على الوحي فوق الطبيعي بل على العقل البشري (14). "إن قدامى أباطرة الصين وملوكها كانوا قوما ذوي ميل فلسفي وبفضل عنايتهم أصبح نظام حكومتهم خير النظم جميعاً" (15).

صفحة رقم : 12199

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الحياة الألمانية

وذهب كثير من الألمان إلى فلسفة فولف مهرطقة إلى حد خطر، رغم اعترافاته الجادة بالعقيدة المسيحية. وأندرس أعضاء في هيئة التدريس فردريك وليام الأول بأنه لو قبلت حتمية فولف فلن يكون في الإمكان عقاب أي جندي هارب، وسينهار صرح الدولة كله (16). فأمر الملك المرتاع الفيلسوف بأن يغادر بروسيا خلال ثمان وأربعين ساعة وإلا "كان عقابه الموت الفوري" فهرب إلى مجدبورج وجامعتها، حيث رحب به الطلاب رسولا وشهيداً للعقل. وقد نشر أكثر من مائتي كتاب أو كتيب خلال ستة عشر عاماً (1721-37) تهاجمه أو تدافع عنه. وكان من أول أعمال فردريك الأكبر الرسمية عقب اعتلاء العرش (1740) إنه وجه دعوة حارة للفيلسوف المنفي يطلب إليه الرجوع إلى بروسيا وهاللي. وجاء فولف وفي 1743 عين مديراً للجامعة. وازداد اتباعه للابن التقليدي مع الزمن، ومات (1754) في كل ورع المسيحي السني.

ولقد كان تأثيره أعظم كثيراً مما قد نحكم به من شهرته الضعيفة في العصر الحاضر، وجعلته فرنسا عضواً شرف في أكاديمية علومها، وعينه أكاديمية سانت بطرسبورج الإمبراطورية أستاذاً فخرياً بها، وترجم الإنجليز والإيطاليون مؤلفاته في مثابة، وفرض ملك نابلي النسق الفولفي في جامعاته. وأطلق عليه الجبل الأصغر من الألمان لقب الحكيم، وشعر بأنه علم ألمانيا أن تفكر. وازمحت طرائق التعليم المدرسية القديمة، وزادت الحرية الأكاديمية. ونقل مارتن كنوتسن الفلسفة الفولفية إلى جامعة كونزبرج، حيث كان يدرس إيمانويل كانت.

وضعف تأثير الدين في الحياة الألمانية بسبب تطور العلم والفلسفة، ونتائج البحث في الكتاب المقدس التي أزلت الأوهام، فضلاً عن قوى العلمنة الشديدة. وانتشرت بين الطبقات العليا الأفكار الربوبية التي وصلت من إنجلترا بفضل الترجمات واتصال إنجلترا بها نوفر، ولكن أثر هذه الأفكار كان تافهاً إذا قيس بنتيجة إخضاع الكنيسة-الكاثوليكية والبروتستنتية على السواء للدولة. لقد قوت حركة الإصلاح البروتستنتي العقيدة الدينية حيناً، ثم جاءت حرب الثلاثين فأضرت بهذه العقيدة، والآن كان خضوع

صفحة رقم : 12200

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الحياة الألمانية

الأكليروس للأمرء الحاكمين سبباً في زوال هالة التقى والورع التي خلعت القدسية من قبل سلطانهم. وأصبحت التعيينات في الوظائف الكنسية يملئها الأمير أو السيد الإقطاعي المحلي. أما النبلاء فتظاهروا بالدين، كما فعل نطراؤهم في إنجلترا، باعتباره مسألة منفعة سياسية و عرف اجتماعي. وفقد الأكليروس اللوثري والكلفني مقامهما، واستردت الكاثوليكية سلطانهم في بطنى. في هذه الفترة انتقلت ولايات سكسونيا، وفورتمبرج، وهسي، وكلها بروتستنتية، إلى حكام كاثوليك، واضطر فرديريك اللادري إلى استرضاء سيليزيا الكاثوليكية. ولم تترك غير حركة دينية واحدة في المناطق البروتستنتية وهي حركة الإخوان المتحدين، أو الإخوان الموارفين. ففي عام 1722 هاجر نفر من أعضائها الذين اضطهروا في مورافيا إلى سكسونيا، ووجد الملجأ في ضيعة الكونت نيكلاوس لودفج فون تسنسدورف. وقد رأى هذا الكونت الشاب، الذي كان هو نفسه ابن العماد لفيليب ياكوب سبينر في هولاء اللاجنين فرصة لإحياء روح المذهب النقي. فبنى لهم على أرضه قرية هرنهوت (أي جبل الرب)، وأنفق ثروته كلها تقريباً على طبع الأسفار المقدسة وكتب تعليم العقيدة المسيحية، وكتب التراثيل وغيرها من المؤلفات لينتفعوا بها. وقد أعانت رحلاته في أمريكا (1741-42) وإنجلترا (1750) وغيرهما على إنشاء مستعمرات لهؤلاء الإخوان في كل قارة، والواقع أن الإخوان الموارفين هم الذين بدعوا نشاط البعوث الحديث في الكنائس البروتستنتية (17) فقد جلب بيتر بولر تأثيراً قوياً للإخوان في الحركة الميثودية حين التقى بجون وسلي في 1735. وفي أمريكا استقر بهم المقام قرب بيت لحم في بنسلفانيا، وفي سليم بكارولينا الشمالية. واحتفظوا بإيمانهم ونظامهم سليمين لم تكد تمسهما رياح العقيدة وأزياء اللباس، وربما كان الثمن شيئاً من قسوة الروح في علاقاتهم العائلية، ولكن لا مناص للشاك من أن يحترم قوة إيمانهم وإخلاصه، وانسجامه الغريب مع حباتهم الخلفية. وكانت أخلاق العصر بصفة عامة أسلم وأصح في ألمانيا منها في فرنسا،

صفحة رقم : 12201

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الحياة الألمانية

إلا حيث سرت بدعة محاكاة فرنسا من اللغة إلى الفسق. في الطبقات الوسطى خضعت الحياة العائلية لضبط أشرف على التعصب والغلو، فقد درج الآباء على أن يسوطوا بناتهم، وزوجاتهم أحياناً (18)، وفرض فرديريك ولیم الأول على بلاط برلين نظاماً تسوده الرهبة، ولكن ابنته وصفت البلاط السكسوني في درسناً بأنه بلغ في زناه بلغ بلاط لويس الخامس عشر. ويؤكد لنا مصدر غير وبق أنه كان لأوغسطس القوي 354 طفلاً "طبيعياً" (أي غير شرعي) نسى بعضهم أبوتهم المشتركة في فراش سفاح المحارم. بل قيل إن أوغسطس نفسه اتخذ له خليفة من ابنته غير الشرعية الكونتيسة أوركنتسيلسكا (19)، التي علمت فرديريك الأكبر فيما بعد فنون الغرام. وقد أصدرت كلية الحقوق بجامعة هاللي في بواكير القرن الثامن عشر إعلاناً دافعت فيه عن التسري بين الملوك والأمراء (20). وكانت الآداب السلوك صارمة، ولكنها لم تدع لنفسها ما تميت به الآداب الفرنسية من رشاقة الحركة أو سحر الحديث. وأدفاً النبلاء أنفسهم بالحلل والألقاب بعد أن انتزعت منهم السلطة السياسية. كتب اللورد تشستر فيلد في 1748 يقول: "أعلم أن الكثير من الخطابات رد دون أن يفتح لأنه أغفل كتابة لقب من بين عشرين في عنوانه" (21). وكان حكم أولفر جولدمست قسوة المتعصب لوطنه إذ قال: " فلنوف الألمان حقهم، إنهم وإن كانوا أغبياء فليس هناك أمة حية تتكلف زناة محمودة أكثر منهم، أو تفوقهم في فهم آداب الغباء" (22) وقد وافقه فرديريك الأكبر (23) وظل الأكل وسيلة محببة لإنفاق اليوم. واقتبس الأثاث طرز النقش والتطعيم المزدهرة أنذ في فرنسا، ولكن لم يكن في فرنسا ولا في إنجلترا شئ يداني في بهجته موافد الطهو الملونة بألوان تشرح الصدر، والتي أثار حسد الليدي ماري مونتاجيو (24). وكانت الحدائق الألمانية مطلية، ولكن البيوت الألمانية، بما حوت من واجهات نصفها من الخشب،

ونوافذ ذات أعمدة، وأفاريز واقية، خلعت على المدن الألمانية فتنة مشرقة تتم على حس جمالي مرهف وإن لم يكن قد تشكل.

صفحة رقم : 12202

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الحياة الألمانية

والواقع أن الذي أرسى الاستعمال الحديث لفظ Aesthetic (جمالي) في كتابه بهذا العنوان (1750)، وأذاع نظرية في الجمال والفن بوصفها قسما من أقسام الفلسفة مشكلة من مشاكلها، كان ألمانيا يدعى ألكسندر باومجارتن.

صفحة رقم : 12203

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الفن الألماني

### 3- الفن الألماني

كانت صناعة الخزف هنا فناً كبيراً، لأن الألمان علموا أوروبا في هذه الفترة كيف تصنع الصيني، فلقد استأجر أوغسطس القوي يوهان فرديرش بوتجر لتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، وأخفق بوتجر، ولكنه انشأ بمساعدة صديق قديم لسبببوزا يدعى فلتر فون تشير نهاوس مصنعاً للقاشاني في درسدن، وأجرى تجارب وفقت آخر الأمر في إنتاج أول خزف صيني صلب العجينة. وفي 1710 نقل هذه الصناعة إلى مايسين، على أربعة عشر ميلاً من درسدن، وهناك واصل تحسين طرائقه وصقل منتجاته حتى وفاته (1719). وكان خزف مايسين يرسم بالأوان غنية على أرضية بيضاء برسوم رقيقة للزهر والطير ومشاهد الحياة اليومية والمناظر الطبيعية ومناظر البحر واللقطات الغربية من الثياب والحياة الشرقيتين. وزاد يوهان يواكيم كيندلر العملية تحسناً، فأضيف النحت في الصيني إلى الرسم تحت السطح المصقول؛ وخلدت التماثيل الصغيرة الغربية وأشخاص الفولكلور والكوميديا الألمانين، ودلت روائع خصبه الخيال مثل رائعة "خدمة البجع" لكيندلر وإيرلاين على أن في استطاعة الفن أن ينافس ما حوته خزائن النساء المنوعة بهاء ونعومة. وسرعان ما راحت كل مجتمعات أوروبا الأرستقراطية، حتى في فرنسا، تزين حجراتها بتماثيل من صيني مايسين فيها تهكم مضحك. واحتفظت المدينة بتفوقها في الفن إلى سنة 1758، حين اجتاحتها الجيش البروسي في حرب السنوات السبع. ومن أوجزبورج، ونومبرج، وبايرويت، وغيرها من المراكز، سكب الخزافون الألمان في البيوت الألمانية فيضاً باروكياً من المنتجات

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الفن الألماني

الحرارية، من أبداع القاشاني والصيني إلى الأباريق البهيجة التي جعلت حتى فن شرب الجعة تجربة جمالية. وتزعمت ألمانيا أوروبا طوال أكثر من القرن الثامن عشر في صناعة الزجاج لا الصيني فحسب (25). كذلك لم يبرز صناع الأشغال الحديدية الألمان أحد في هذا العصر، ففي أوجزبورج وإيزاخ، وغيرهما صنعوا بوابات من الحديد المشغول تلك التي كان يقيمها جان لامور في نانسي. أما الصاغة الألمان فلم يفقههم غير أبرع زملاءهم في باريس. وحفر الحفارون الألمان (كنوبلز دورف، وجلومي، وروجناس، وريدنجر، وجيورج كيليان، وجيورج شميت) أو نقشوا بالحرق سوماً بديعة في الأطباق النحاسية (26).

أما المصورون الألمان في هذه الفترة فلم يظفروا بالشهرة الدولية التي ما زال يجزى بها فاتوا، وبوشيه، ولاتور، وشاردان. وإنه لمن ضيق أفقنا الفكري- ذلك الضيق الذي لا مهرب منه- جهل غير الألمان بصور مصورين ألمان مثل كوزساس آرام، وبلتازار دينر، ويوهان فيدلر، ويوهان تيلى، ويوهان تسيزنيس، وجيورج دماريه، فحسبنا أن نتلو أسماءهم على الأقل ونحن أكثر إحاطة بمصور فرنسي استوطن ألمانيا يدعى أنطوان بين، وقد أصبح مصور البلاط لفرديريك وليام الأول ثم لفرديريك الأكبر. وتصور رائعتة فرديريك وهو بعد غلام برئ في الثالثة ومعه أخته فلهيني ذات الستة أعوام (27)، ولو أن هذه اللوحة رسمت في باريس لسمعت بها الدنيا كلها. واكتسبت أسرة صينياً زائغاً في ثلاثة ميادين-التصوير والنحت والعمارة. فقد رسم كوزماس دميان آرام، في كنيسة القديس إمبرام بريجنزبورج، صعود القديس بندكت إلى الفردوس، وأعانه على ذلك بمنصة إطلاق. واشترك كوزماس مع أخيه إيجد في رسم داخل كنيسة القديس نيبوموك بميونخ-عمارة يغشاها النحت بأكثر ضروب الباروك إسرافاً. وحفر إيجد بالجص "صعود مريم" لكنيسة دير في رور ببافاريا. وبدت اليد الإيطالية الرقيقة في نافورة نبتون الرائعة التي أقامها لورنتسو

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الفن الألماني

ماتيللي في درسدن، وكانت النافورة ن المعالم الشهيرة في بهاء العاصمة السكسونية. أما بلتازار برموزر فقد أفسد تمثاله "تمجيد الأمير أوجين (28)" بخليط مهوش من التماثيل الرمزية، وقد زين بمثل هذا الإسراف جناح قصر تسفنجر بدرسدن، ولكنه حقق درجة من الجلال والقوة تكاد تقربه من ميكل أنجيلو في تمثال "الرسول" المتجمعين حول منبر كنيسة البلاط بدرسدن، وتمثاله "القديس أمبروز" المصنوع من خشب الزيزفون في تلك الكنيسة يستشرف قمة النحت الأوربي في النصف الأول من القرن الثامن عشر. وقد تصور جيورج ايبيست الجمال الألماني الممشوق في

تمثاله البديع "باخوس واريادنى" الذي نحتته لبيستان سانسوني. وحفلت البساتين والحدائق الألمانية بالمنحوتات، وقدر خبير في الباروك أن "في ألمانيا من تماثيل الحدائق الجيدة نسبة تفوق كل ما في سائر أوروبا من تماثيل مجتمعة(29)".

على أن المعمار هو الميدان الذي لفت فيه الفنانون الألمان أنظار الفنانين الأوربيين في هذا العصر. فقد ترك يوهان بلتازار نويمان بصمته على أكثر من عشرة مبان. وكانت رائعته قصر أمير فورتنسبورج الأسقف، وقد تعاون آخرون معه في التصميم والتنفيذ(1719-44)، ولكن يده كانت اليد الهادية. وقد تحطمت في الحرب العالمية الثانية القاعة الفينيتسية وقاعة المرابا، المتألفتان بزخارفها، ولكن بقيت أربع قاعات لتشهد بهاء الداخل، أما بيت السلم الفخم الذي اشتهر في دنيا الفن كلها بصورة سقفة الجصية التي رسمها تيبولو؛ فكان واحد من عدة مبان شبيهة به أعانت على دفع نويمان إلى مكان مرموق بين معماريي زمانه. وبيت السلم الذي بناه للقصر الأسقي في بروشزال يختلف عن هذا كل الاختلاف، ولكنه يكاد يعدله روعة وهو ضحية أخرى من ضحايا الانتحار القومي. وربما فاق كليهما جمالا بيت السلم المزدوج الذي بناه لأوجستوسبورج في برول بقرب كولونيا. وكان بناء بيوت السلم غرامة، فأغدق من فنه على بيت آخر في دير بمدينة ايبراخ. وزين مصاعده بالباروك المزخرف كنيسة

صفحة رقم : 12206

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الفن الألماني

القديس بولس في تريير وكنيسة كرويتسبيرج قرب بون، وأضاف إلى كتدراثة فورتنسبورج مصلى بلغ ظاهره أكمل ما يمكن أن يبلغه طراز الباروك. وتخصصت العمارة الكنسية الآن في بناء الديورة الضخمة. فقام إنريكو تسوكالي في 1781 بترميم "كلوستر أتال"، وهو دير بندكتي بناه الإمبراطور لويس البافاري عام 1330 في واد جميل على مقربة من أوبراميرجا وحدد بناؤه إنريكو تسوكالي، وتوجه بقبة رشيقة. وقد دمرت النار كنيسة الدير في 1744، فأعاد بناءها يوزف شموتسر في 1752، وقد حلّى داخلها تحلية دقيقة بطراز الروكوك المذهب الأبيض، بصور جصية بريشة يوهان تسايبلر ومارتن كنوللر، وأضيف مذابح جانبية فاخرة في 1757، وأرغن اشتهر بغطائه الجميل. وأروع هذه الآثار التقوية هي الكلوستر كرش، أو كنيسة الدير البندكتي، الغنية غنى لا يصدق، والواقعة في اوتوبورين جنوب شرقي ميمنجن. هنا نظم يوهان ميكائيل فيشر المجموعة، وقام يوهان كريستيان بالنقوش المذهبة، وصنع مارتن هورمان مقاعد المرتلين. وهي مفخرة الحفر الألماني في الخشب في القرن. وقد عكف فيشر على هذا العمل في فترات متقطعة من 1737، حتى وفاته في 1766.

وكرهت الطبقات الحاكمة - كما كره الرهبان - أن تنتظر جنة بعد القبر. فشدت بعض القاعات الفخمة للمدن، مثل قاعتي لونبورج وباميرج ولكن أعظم جهود العمارة العلمانية خصص للقلاع والقصور. فكان في كل كارلزروهي قصر لحاكم بادن دورلاخ، هو قلعة فريدة في بابها، بنيت على شكل مروحة تنتشعب أضلاعها من حديقة لها شكل مقبض منجهة إلى شوارع المدينة. وقد دمر هذا القصر كما دمر كثير مما احتوته المدينة في الحرب العالمية الثانية، وحافت هذه المأساة أيضاً بقصر برلين العظيم الذي شيده أندرياز شلوتر وخلفاؤه(1699-1720)، ثم ضحية أخرى هي قصر مونيجو، القريب من بوابة شبانداو ببرلين، أما قلعة برول التي صممت لرئيس أساقفة كولونيا فقد دمر بعضها، وأما قلعة

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; أوروبا الوسطى -&gt; ألمانية باخ -&gt; الفن الألماني

بروشزال فقد دمرت برمتها. وفي ميونخ بنى يوزف افنر قصر بريبنج وفي تريير بنى يوهان زايتس لرئيس الأساقفة الحاكم "قصر الناخب"- وهو نموذج للجمال الوديع. وأما الأسقف ناخب مينز، فقد بنى له مكسليان فون فيلش ويوهان دينتسينهوفر بقرب بومر زفيلدن قلعة كبرى ثانية، تدعى قلعة فيسنشتين، أقام فيها يوهان لوكاس فون هيلديرانت بيت سلم مزدوجاً يستطيع كبار القوم أن يصعدوا ويهبطوا عليه دون أن يصدّم بعضهم بعضاً. وتوج فردريك الأكبر المعمار الألماني العلماني في القرن الثامن عشر بتكليفه جيورج فون كنوبلز دورف وآخرين بأن يبنوا في بوستدام (خارج برلين بستة عشر ميلاً)، وفق تصميم صنعه الملك نفسه، ثلاثة قصور كانت في مجموعها ضريباً لفرساي: قصر الدولة "شتاتشولوس"، (1745-51)، والقصر الجديد "نوييس" (1755)، ومنتج فردريك الصيفي، لذي سماه شلوس "قلعة سانسوسي". فكان طريق مشجر من درج هين، يبدأ من نهر هافل، يفضى بعد خمس مراحل تخترق بستاناً مدرجاً إلى هذه "القلعة الخلية البال" التي اتخذت نوافذها ذات الأعمدة وقبتها الوسطى بعض وحيتها من قصر تسفنجر بدرسدن. واحتوى جناح من أجنحتها على قاعة للفنون، وتحت القبة دائرة من الأعمدة الكورنثية الجميلة، مكتبة زينت بزخارف ملولبة روكوكية، وتألفت بالكتب التي احتوتها خزانات زجاجية، وأتاحت للملك ملاذاً من السياسة والقواد الحربيين. وفي سانسوسي على الأخص كان فولتير يلتقي بقريته في الملك الفيلسوف الذي استطاع أن يحكم دولة، ويتحدى الكنيسة، ويصمم بناء، ويرسم لوحة شخصية، وينظم شعراً لا بأس به، ويكتب تاريخاً ممتازاً، وينتصر في حرب على نصف أوروبا، ويلحن موسيقى، ويقود أوركسترا، ويعزف على الفلوت.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; أوروبا الوسطى -&gt; ألمانية باخ -&gt; الموسيقى الألمانية

## 4- الموسيقى الألمانية

احتلت الموسيقى الألمانية مكان الصدارة من مولد هاندل وباخ في 1685 حتى موت برامز 1897. ففي أي وقت من هذه السنين التي بلغت 212

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الموسيقى الألمانية

كان أعظم الملحنين الأحياء، باستثناء الأوبرا (30). وقد بلغ شكلان موسيقيان، هما الأوراتوريو والفوجه، غاية تطورهما في إنتاج الألمان في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وقد يضيف البعض أن القديس الكاثوليكي الروماني تلقى تعبيره النهائي على يد بروستنتي ألماني. لقد انتهى عصر القصور، وبدأ عصر الموسيقى. كانت الموسيقى جزءاً من الدين، كما كان الدين جزءاً كبيراً جداً من الموسيقى في كل بيت ألماني. فما من أسرة، اللهم إلا في أوفر الطبقات إلا استطاعت أن تترنم بالترانيم المشتركة، وما من فرد إلا استطاع أن يعزف على آلة أو أكثر. ورتلت منات من جماعات الهواة المسماة Liebhaber الكنتاتات التي يعتبرها المرثلون المحترفون اليوم عسيرة إلى حد مثبط (31). وظفرت كتيبات الموسيقى بشعبية الكتاب المقدس. ودرست الموسيقى مع القراءة والكتابة في المدارس العامة. وكان النقد الموسيقي أرقى من نظيره في أي بلد باستثناء إيطاليا، وكان أعظم نقاد الموسيقى في ذلك القرن ألمانيا.

وأغلب الظن أن يوهان ماتيزون كان أشهر من أي موسيقي ألماني بين الموسيقيين الألمان وأقلهم ظفراً بحبهم. فقد حجب غروره جلائل أعماله. عرف اللغات الأدبية القديمة والحديثة، وألف في القانون والسياسة، وأجاد العزف على الأرغن والبيان القيثاري إجابة أتاحت له أن يرفض أكثر من عشر دعوات إلى شغل وظائف مرموقة، وكان راقصاً رشيقياً، ورجل ديناً عريض الثقافة، وكان مثاقفاً خبيراً كاد يقتل هاندل في مبارزة معه. وغنى بنجاح في أوبرا همبورج، وألف الأوبرات، والكانتاتات، وتراتيل أسبوع الألام، والموشحات الدينية، والسوناتات والسويتات. وطور شكل الكانتاتات قبل باخ. وظل تسع سنين قائد فرقة المرثلين للذوق هولستين، فلما أصيب بالصمم قنع بأن يؤلف. وأصدر ثمانية وثمانين كتاباً، ثمانية منها في الموسيقى، وأضاف إليها رسالة عن التبغ. وأنشأ واشرف على صحيفة "النقد الموسيقي" (1722-25)، وهي أقدم ما عرفنا من نقاش نقدي

صفحة رقم : 12210

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الموسيقى الألمانية

للمؤلفات الموسيقية القديمة والجديدة، وصنف قاموس تراجم للموسيقيين المعاصرين، ومات في الثالثة والثمانين (1764)، بعد أن حفز عالم الموسيقى حفزاً قوياً. أما الآلات الموسيقية فكانت في تطور وتغير دائمين، ولكن الأرغن ظل سيدها من غير مناع. وكان له عادة ثلاث لوحات مفاتيح أو أربع، مضافاً إليها دواسة لجوابين ونصف، وضوابط مختلفة تستطيع محاكاة أي آلة أخرى تقريباً. ولم تصنع إلى الآن أي أرغن أبدع من تلك التي صنعها اندرياس زليرمان الاستراسبورجي، وحوثريد زليرمان الفرايرجي ولكن الآلات الوترية كانت تزداد رواجاً فاستعملت "موترة المفاتيح" clarichord (أي المفتاح والوتر) لوحة مفاتيح لتشغيل روافع مزودة بمماسات صغيرة من النحاس لتضرب الأوتار. وكان عمر هذه الآلة ثلاثة قرون وربما أكثر أما البيان القيثاري harpischord (الذي سماه الفرنسيون clavecin والايطاليون clavi أو gravicembalo) فكانت أوتاره ينقرها لسان من ريشة أو جلد ملصق بروافع تحركها (عادة) لوحة مفاتيح مزدوجة، بمساعدة دواستين وثلاثة ضوابط أو أربعة. وكان لفظ clavier يستعمل للدلالة على أي آلة موسيقية لوحة مفاتيح-الموترة، أو البيان القيثاري، أو البيان-وعلى لوحات مفاتيح الأرغن. وكان البيان القيثاري في أساسه قيثاراً تنقر فيه

الأصابع الأوتار بواسطة مفاتيح، الريشة وروافع، وكانت تتبع منه أصوات لها رقيق، ولكن لما كانت الريشة وريش تردد بمجرد ضربها الوتر، فإن هذه الآلة لم يتح لها أن تطيل نغمة أو تنوع حداثها. ولكي تعزف درجتين من درجات الصوت كان لا بد لها من اللجوء إلى لوحة مفاتيح مزدوجة - العليا لك "بيانو" (خافته) والسفلى لك "فورتى" (عالية) وقد انبعث "البيانو فورت" من الجهود التي بذلت للتغلب على هذه العيوب. وفي عام 1709 أو قبله صنع بارتولوميو كريستوفوري في فلورنسة أربعة "بيانات فيثارية بالخافت والعالي". وفيها حلت محل الريشة مطرقة جلدية صغيرة كان في الإمكان إطالة اتصالها بالوتر بمواصلة خفض المفتاح،

صفحة رقم : 12211

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الموسيقى الألمانية

في حين أمكن التحكم في علو النغمة بالقوة التي يضرب بها الأصبع المفتاح. وفي عام 1711 وصف سكيوتى دي ما في الآلة الجديدة في مجلته "جورنالي ديي ليزراتي دياليا"، وفي عام 1725 ظهر هذا المقال بدرسدن في ترجمة ألمانية، وفي 1726 صنع جوتفريد زلبرمان، بوحى من التجمة (32)، بيانين على هدى من مبادئ كريستوفوري. وحوالي عرض نموذجا محسنا على يوهان سبستيان باخ، الذي صرح بأنه الضعف في القدرة الصوتية العليا، وأنه يتطلب لمسا شديدا. وسلم زلبرمان بهذه العيوب واجتهد في تلافيها. وبلغ من توفيقه في هذا أن فردريك في 1747، فأعجبه، ولكنه رأى أنه بلغ من الشيخوخة حدا لا يسمح الآلة الجديدة وظل في السنوات الثلاث الباقية في عمره يؤثر الأرغن والبيان القيثاري.

أما الأوركسترا فكان يستخدم أساسا في خدمة الأوبرا أو الكورس، وقل أن وضعت الموسيقى له وحده، ألا أن تكون مقدمات. وكانت الأوبرا والباصون أكثر عددا منها في أوركسترا هذه الأيام، وطغت آلات النفخ على الآلات الوترية. أما الحفلات الموسيقية العامة فكانت إلى ذلك العهد نادرة في ألمانيا، وكادت الموسيقى تنحصر برمتها في الكنيسة، والأوبرا، والبيت، والشوارع. وأحييت حفلات لموسيقى الحجرة في لبيزج من 1743 في بيوت أغنياء التجار، ثم قبل بها جماعات أكبر فأكبر من المستمعين، وزيد العازفون إلى ستة عشر، وفي 1476 أعلن دليل صادر في لبيزج أنه "في أيام الخميس تحيا حفلة موسيقية بأشراف شركة التجار النقية، وأشخاص آخرين، من الساعة الخامسة إلى الثامنة في نزل البجعيات الثلاث وأضاف الإعلان أن هذه الحفلات يرتادها أفراد المجتمع العصري وتلقى الإعجاب والاهتمام الشديد (33). ومن هذه الجماعة الموسيقية Collegium Musieum تطور في 1781 الكونشرتو الكبير في قاعة تجار الأجواخ. Gewandhaus بليزج وهو أقدم سلسلة موجودة من الكونشرتو. ولم تخص الآلات وحدها إلا بأقل القليل من المؤلفات الموسيقية، ولكن بعض هذه المؤلفات شارك بنصيب في تطوير السمفونية. وفي مانهايم قامت

صفحة رقم : 12212

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الموسيقى الألمانية



مدرسة من الملحنين والعازفين-كثير منهم من النمسا أو إيطاليا أو بوهيميا-بدور قيادي في هذا التطوير. فهناك جمع شارل تيودور أمير بالاتين الناخب (حكم 1733-99)، وراعى الفنون جميعا، أوكسترا اشتهر عموما بأنه خير الأوكسترات قاطبة في أوربا. وقد لحن يوهان شتاميتز، عازف الكمان الماهر، لهذا الأوركسترا سيمفونيات بالمعنى الصحيح، أي مؤلفات أوركسترالية مقسمة إلى ثلاث حركات أو أكثر، كانت أولاها تنهج نهج السوناتا-أعنى عرض مواضيع متقابلة، والتوسع فيها دون قيود، ثم تخليصها. وجريا على طريقة الملحنين النابوليين، اتخذ الشكل الجديد عادة تعاقب هذه الحركات: السريع، والبطيء، فالسريع (الأليجرو، والأندانتى، والأليجرو). وأضاف أحيانا من الرقص "منيوتا". وهكذا انتقل عصر الموسيقى البوليفونية (أي المتعددة الأصوات)، المبنية على فكرة رئيسية واحدة، والبالغة قمتها في ي.س. باخ، إلى عصر الموسيقى السيمفونية - عصر هايدن، وموتسارت، وبيتهوفن. وظل الصوت البشري أعظم الآلات الموسيقية سحراً. فلحن كارل فليب إيمانويل باخ، وكارل هاينريش جراون وغيرهما قصائد الغرام المشبوب التي نظمها يوهان كرستيان جونثر، ووجد يوهان إرنست باخ الفيماي الوحي للعديد من الأغاني الألمانية (الليدر)، الجميلة في شعر كرستيان جليليرت. وازدهرت الأوبرا في ألمانيا الآن، ولكن غلب عليها الطابع الإيطالي، إذا استوردت ألقانها ومغنيها من إيطاليا. وكان لكل بلاط كبير قاعة أوبرا، التي لا تقتح عادة إلا للصفوة. أما همبورج التي هيمن عليها تجارها فكانت استثناء للقاعدة، فقدمت الأوبرا الألمانية، وأباحت حضور حفلاتها للجمهور الذي يدفع، وجندت مغنياتهن من السوق. وفي همبورج تربع راينهاردت كازر على عرش مسرح جينزيماركت (سوق الأوز) أربعين عاماً. وخلال حكمه هذا لحن 116 أوبرا، معظمها إيطالي نصاً وأسلوباً، ولكن بعضها ألماني. ذلك أن كتاب ماتيزون "الموسيقى الوصي"، المنشور في 1728 أشهر صيحة الحرب على الغزاة

صفحة رقم : 12213

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الموسيقى الألمانية

الإيطاليين: "أخرجوا أيها البرابرة! [Fouri barbari] ليمنع من الاشتغال بالأوبرا الأجنب الذين يحاصروننا من الشرق إلى الغرب! (34)، ولكن سحر الأصوات والألحان الإيطالية لم يكن سبيل إلى مقاومة. وحتى في همبورج خنق الولع بالأوبرات النابولية المؤلفات الوطنية. فاستسلم كايزر وشده رحاله إلى كوبنهاجن، وأغلق مسرح همبورج أبوابه في 1739 بعد حياة امتدت سنتين عاماً، ولما أعيد افتتاحه في 1741 خصص صراحة للأوبرا الإيطالية. وحين أعاد فرديريك الأوبرا إلى برلين (1742)، اختار ملحنين ألماناً ومغنيين إيطاليين. وقال في دهشة "مغن ألماني! أني لأوتر أن أسمع حصاني يصهل (35). وأنجبت ألمانيا في هذا العصر مؤلفاً واحداً للأوبرا من الطراز الأول هو يوهان أدولف هاسي، ولكنه هو أيضاً خطب ود إيطاليا. فقد درس فيها عشر سنوات على أليساندرو سكارلاتي ونيكولو بوربورا، وتزوج المغنية الإيطالية فاوستينا بوردورني (1730)، ولحن الموسيقى لنصوص إيطالية وضعها أبوستولوزينو وميتاسناسيو، وغيرهما. واستقبلت أوبراته الأول في نابلي والبندقية استقبالا بلغ من حماسه أن إيطاليا لقبته "il caro Sassone" أي السكسوني المحبوب. فلما عاد إلى ألمانيا دافع بغيرة عن الأوبرا الإيطالية، ووافق معظم الألمان، وكرموا أكثر من هاندل الغائب، وأكثر كثيراً من باخ المجهول، وشبهه بيرني، هو وجلوك، برفانيل وميكل أنجيلو الموسيقي في بلاد الألمانية (36). ولم يبلغ أحد حتى الإيطاليون، ما بلغته أوبراته المائة من غنى في الابتكار اللحني أو الدرامي. وفي 1731 تلقى هو وزوجته، أعظم مغنيات الأوبرا في ذلك العصر، دعوة إلى درسدن من أوغسطس القوي. وأسرت فاوستينا العاصمة بصوتها وسحرها هاسي بألقانه. وفي 1760، فقد أكثر ممتلكاته، ومن بينها مخطوطاته المجموعة،

نتيجة قصف فردريك الأكبر لدرسدن بالقنابل. وكلفت المدينة المدمرة عن عرض أوبراته، فرحل هاسي وزوجته إلى فيينا حيث راح وهو في الرابعة والسبعين ينافس جلوك. وفي 1771، في زواج

صفحة رقم : 12214

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الموسيقى الألمانية

الأرشيدوق فرديناند بميلان، تقاسم البرنامج الموسيقي مع الصبي موتسارت البالغ الرابعة عشر من عمره. ويروي أنه قال "إن هذا الصبي سوف يحجبنا كلنا(37)!". وعقب ذلك ذهب هو وفارستينا لينفقا ما بقي لهما من عمر في البندقية. وهناك مات كلاهما عام 1783، هو في الرابعة والثمانين، وهي في التسعين. وقد فاق تألف حياتهما انساق أغانيهما. وبينما كانت لموسيقى الإيطالية تنتصر في دور الأوبرا الألمانية، ازدهرت الموسيقى الكنسية رغم سخريه فردريك منها لأنها "عتيقة"، و"منحطة" (38) وسنرى الموسيقى الكاثوليكية تزكو في فيينا، وفي الشمال ألهمت الحماسة البروتستنتية الباقية على قيد الحياة أيضاً من الكنتاتات، والكورالات، وترانيم أسبوع الآلام، وكان مائة ملحن كانوا يمهدون لباخ الطريق ويعدون له الأشكال والصيغ الموسيقية. وغلبت موسيقى الأرغن، ولكن الكثير من الأوركسترات كان يحوي الكمان والفيولنتشيللو. ولم يقتصر ظهور تأثير الأوبرا على التوسع في الأوركسترات وفرق الترتيل الكنسية، بل كذلك في لطابع الدرامي المتزايد للألحان الكنسية. أما أشهر مؤلفي الموسيقى الدينية في ألمانية باخ فكان جيورج فليب تيليمان الذي ولد قبل باخ بأربع سنوات (1681) ومات بعده بسبعة عشر عاماً (1767). وقد عده ماتيزون أعظم معاصريه الألمان قاطبة في التأليف الموسيقي، ولعل باخ كان يوافق على هذا الرأي باستثناء واحد لأنه نسخ كآنتاتات كاملة ألفها منافسه. وكان تيليمان طفلاً عبقرياً، تعلم اللاتينية واليونانية والكمان والفلوت في طفولته، وحين بلغ الحادية عشرة بدأ يلحن، وفي الثانية عشرة ألف أوبرا مثلت على المسرح وقام هو بالغناء في أحد أدوارها. كذلك لحن كنتاتا وهو الثانية عشرة، وقادها وهو واقف فوق مقعد ليستطيع العازفون رؤيته. ثم شب تيوتونيا قوياً بشوشاً مرحاً وألحاناً. وفي 1701 بينما كان يمر بهاللي التقى بهاندل الذي كان في السادسة عشرة من عمره فأحبه من أول نظرة. ومضى إلى لبيزج ليدرر القانون، ولكنه ارتد

صفحة رقم : 12215

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الموسيقى الألمانية

إلى الموسيقى وأصبح عازف أرغن الكنسية الجديدة (1704). وبعد عام قبل وظيفة الكنسية في زوراو، ثم مضى إلى أيزيناخ، حيث التقى بباخ، وفي 1714 قام بدور العذاب لكارل فليب إيمانويل، ابن يوهان سبستيان. وفي 1711 قام ماتت زوجته الشابة وأخذت معها قلبه كما قال، ولكنه تزوج ثانية بعد ثلاث سنين. وفي 1721 مضى إلى همبورج،

حيث كان عازفاً في ست كنائس، وأشرف على تعليم الموسيقى في الجمنازيوم، وإضطلع بشئون أوبرا همبورج، وحرر مجلة للموسيقى، ونظم سلسلة من الحفلات الموسيقية العامة استمرت إلى يومنا هذا. وقد حالف الحظ تيليمان في كل شيء، إلا في إيثار زوجته للضباط السويديين بحبها. وكانت قدراته على الإنتاج تضارع أي رجل في ذلك عصر، عصر عمالقة الموسيقى. فقد لحن لجميع الأحاد والأعياد في سعة وثلاثين عاماً ألواناً من الموسيقى الدينية- تراتيل لأسبوع الآلام، وكنتاتات، واورتوريات، وأنشيد، وموتيتات، وأضاف إلى ذلك كله الأوبرات والأوبرات الفكاهية، والكونشرتات، والثلاثيات، والسريناتات، وقال هاندل إن في استطاعة تيليمان أن يلحن موتيتاً ذا ثمانية أقسام بالسرعة التي يكتب بها المرء خطاباً(39). وقد أخذ أسلوبه عن فرنسا، كما أخذ هاسي أسلوبه عن إيطاليا، ولكنه أضاف إليه حيويته الخاصة. وفي 1765، حين كان في الرابعة والثمانين، فألف كنتاتا تسمى "إينو" عدها رومان رولان معادلة لنظائرها من تأليف هاندل، وجلوك، وبيتهوفن. ولكن تيليمان كان ضحية خصوبته. فقد لحن بأسرع مما يمكنه من الإلتقان، ولم يكن له صبر على تنقيح الثمرات الناقصة لعقريته أو شجاعة على تحطيمها. وقد اتهمه ناقد بـ"الإسراف الذي لا يصدق(40) واليوم يكون نسبياً منسياً ولكنه بين الحين والحين يجيننا روحاً متحررة من الجسد في الهواء، فنجد كل ألحانه المنبعثة من مراقدها رائعة الجمال(41). ولم ينفرد فردريك بتفضيله كارل هاينريش جراون على تيليمان وباخ. وقد ذاع صيت كارل أول ما ذاع بفضل صوته السوبرانو، فلما قصر هذا الصوت تحول صاحبه إلى التلحين، فألف في الخامسة عشرة كنتاتا

صفحة رقم : 12216

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> الموسيقى الألمانية

كبيرة لأسبوع الآلام (1716) رتل في كرويتشسولي بدرسدن. وبعد أن مضى فترة يعمل عازفاً للكنيسة في برنزويك استخدمه فردريك (1735) ليشراف على الموسيقى في راينزبرج. وظل يخدم البلاط البروسي طوال الأعوام الأربعة عشرة الباقية من عمره، لأن موسيقاه، حتى الدينية منها، كانت تبهج الملك الشاك. وظفر لحن الآلام المسمى "موت يسوع"، الذي رتل أولاً في كنترائية برلين سنة 1755، بشهرة في ألمانيا لم تضارعها غير شهرة "المسيا" في إنجلترا وإيرلندة، وظل يعاد سنوياً في أسبوع الآلام حتى يومنا هذا. وشاركت ألمانيا البروتستنتية كلها فردريك في الحزن على موت جراون قبل أوانه.

وخلال ذلك كان خمسون "باخاً" قد ألقوا البذرة وأعدوا المسرح لظهور أشهر وريث لهم. وقد رسم يوهان سبستيان باخ بنفسه شجرة أسرته في كتابه "أصل أسرة باخ الموسيقية" الذي وصل إلى المطبعة في 1917، وقد أفرد الناقد الموسيقي المدقق "شبيتا" 180 صفحة لرسم ذلك النهر الأورفي. وانتشر في مدن ثوربنجيا أفراد من آل باخ يمكن رد نسبهم إلى عام 1509. وكان أقدم موسيقي من الأسرة بدأ به يوهان سبستيان قائمته هو جد جده المدعو فايت باخ (توفي 1619). ومنه انحدرت أربع بطون من الباخيين الذين برز العديد منهم في الموسيقى، وقد بلغوا من الكثرة مبلغاً جعلهم يؤلفون ضرباً من النقابة المهنية التي الفت أن تجتمع دورياً لتبادل الرأي. وتلقى أحدهم، وهو يوهان أمبروزيوس باخ عن أبيه فن عزف الكمان الذي ورثه لأبنائه. وفي 1671، قد تزوج اليزابيث خلف ابن عمه موسيقياً للبلات في أيزناخ. وكان في 1668، قد تزوج اليزابيث لاميرهيرت، ابنة تاجر فراء أصبح عضواً في مجلس المدينة. فأنجب مها بنتين وستة أبناء. وارتقى أكبر الأبناء، وهو يوهان كريستوف باخ، إلى وظيفة عازف الأرغن في أوردورف. والتحق ابن آخر؛ هو يوهان باكوب باخ، بالجيش السويدي عازفاً للأوبرا. وكان أصغر الأبناء هو يوهان سبستيان باخ.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

5- يوهان سبستيان باخ

1750-1685

أ - مراحل حياته

ولد في 21 مارس 1685 بأيزيناخ في دوقية ساكسيفايما. وفي "الكوتهاوس" المشرف على ميدان لوثر كان المصلح الديني العظيم قد عاش صباه، وعلى تل مشرف على المدينة فارتبورج، القلعة التي اختبأ فيها من شارل الخامس (1521) وترجم العهد الجديد، إن أعمال باخ أشبه بالإصلاح البروتستنتي ملحنًا. وانت أمه وهو في التاسعة، ومات أبوه بعد ثمانية أشهر، وضم يوهان سبستيان وشقيقه يوهان باكوب إلى أسرة أخيها يوهان كريستوف. وفي "الجمنازيوم" بأريزيناخ تلقى سبستيان الكثير من تعاليم المسيحية وبعض اللاتينية، وفي "الليسية" بمدينة أوردروف القريبة درس اللاتينية، واليونانية، والتاريخ، والموسيقى. وكان متقدماً في فرقته، فرقي بسرعة وكان أبوه قد علمه الكمان، وعلمه أخوه كريستوفر البيان القيثاري. وعكف بشغف على هذه الدراسات الموسيقية، وكان الموسيقى تجرى في عروقه. ونسخ عدداً كبيراً من المؤلفات الموسيقية التي لم تكن ميسرة له بانتظام نسخاً كاملاً، وهكذا بدأ الأذى الذي لحق ببصره فيما يظن البعض.

فلما ناهز سبستيان الخامسة عشرة انطلق ليكسب قوته تخفيفاً عن أسرة يوهان كريستوف المتزايدة. فوجد وظيفة مغن سوبرانو في مدرسة ديرر القديس ميخائيل بلونبيرج، فلما تغير صوته احتفظت به المدرسة عازفاً للكمان في الأوركسترا. ومن لونبيرج زار همبورج، التي تبعد عنها ثمانية وعشرين ميلاً، ربما للذهاب إلى الأوبرا، ولكن بالتأكيد للاستماع إلى عزف يوهان ادم راينكن، عازف أرغن كنسية القديسة كاترين البالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً. ولم تجتذبه الأوبرا، ولكن فن الأرغن استهوى روحه القوية النشيطة، ففن تلك الآلة الشامخة استشر تحدياً

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

لكل طاقته ومهارته. فما وافت سنة 1703 حتى كان قد بلغ من البراعة في العزف عليها مبلغاً حمل الكنيسة الجديدة بأرنشبات (القريبة من أرفورت) على استخدامه ليعزف ثلاث مرات كل أسبوع على الأرغن الكبير الذي ركب في الكنيسة مؤخرًا، والذي ظل مستعملًا حتى 1863. أما وقد أطلق يده في استعمال هذه الآلة لدراساته. فإنه بدأ الآن تلحين أول أعماله الهامة.

وقد أبواه الطموح دائم التحفيز للنهوض بفنه. ونمى إليه أن أشهر عازف على الأرغن في ألمانيا، ديتريش بوكسنيهودي، سيعزف في مدينة لوبيك على بعد خمسين ميلاً منه، سلسلة من الألحان فيما بين عيد القديس مارتن وعيد الميلاد في كنيسة مريم. فطلب إلى مجلس كنيسته إجازة شهر، فمنح الإجازة، وأتاب ابن عمه يوهان ارنست في أداء عمله وصرف راتبه ثم انطلق راجلاً إلى لوبيك (أكتوبر 1705). وقد رأينا هاندل وماتيزون يقومان بمثل رحلة الحج هذه. ولم يغر باخ بزواج ابنه بوكسنيهودي لقاء وراثة وظيفه، إنما كان يريد أن يدرس أسلوب الأستاذ في العزف على الأرغن. ولا بد أن هذا أو شيئاً غيره قد استهواه، لأنه لم يعد إلى أرنشبات حتى منتصف فبراير. وفي 21 فبراير 1706 وبخه مجلس الكنيسة على مده إجازته، وعلى إدخال "تنويجات غريبة" في إستهلالات ترانيمه الجماعية. وفي 11 نوفمبر أُنذر لتقصيره في تدريب فرقة الترتيل تدريباً كافياً، ولسماحه سراً "العذراء غريبة بالترتيل في الكنيسة"، (ولم يكن يسمح للنساء بعد بالترتيل في الكنيسة). أما الفتاة الغريبة فكانت ماريا برباره باخ، ابنة عمه. وقدم من الاعتذارات ما استطاع تقديمه، ولكنه استقال في يونيو 1707، وقبل وظيفة عازف الأرغن لكنيسة القديس بلازيوس بمولهاوزن. وتقرر أن يكون راتبه السنوي خمسة وثمانين جولدينا، وثلاثة عشر بوشلا من القمح، وكرددين من الخشب، وست حزم من الحطب، وثلاثة أرطال من السمك - وهو راتب يعد حسناً جداً بالنسبة للزمان والمكان (42) وفي 17 أكتوبر تزوج ماريا برباره.

ولكن تبين له أن مولها متعبة كأرنشبات. ذلك أن جزءاً من المدينة

صفحة رقم : 12219

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

كان قد احترق، ولم يكن أهلها المرهقون في حال يتقبلون معها هذه التنويجات الغريبة، وكان شعب الكنيسة ممزقاً بين اللوتريين السنيين المولعين بالترتيل، والتقويين الذين يعتقدون أن الموسيقى أقرب الأشياء إلى الكفر. وكانت فرقة المرتلين تشكو الفوضى، وباخ يستطيع إحالة الفوضى نظاماً في الأنغام لا في الرجال. فلما تلقى دعوة ليصبح عازف أرغن ومديراً للأوركسترا في بلاط فلهم إرنست دوق ساكسيفيمار، توسل إلى رؤسائه أن يخلو سبيله (43). وفي يونيو 1708 انتقل إلى وظيفته الجديدة.

وكان يتلقى راتباً طيباً في فيمار -156 جولدينا في العام، رفعت إلى 225 في 1713، واستطاع الآن أن يطعم الأفرار التي كانت ماريا برباره تقفها. ولم يقنع بحاله تماماً، لأنه كان خاضعاً لرئيس المرتلين في الكنيسة يوهان دريزي، ولكنه أفاد من صداقة يوهان جوتفريد فالتر، عازف الأرغن في كنيسة المدينة، ومؤلف أول قاموس موسيقي ألماني (1732)، وملحن كورالات لا تقل جودة عن كورالات باخ. وبما اضطلع في دراسة الموسيقى الفرنسية والإيطالية باهتمام الآن بفضل فالتر المثقف. وقد أحب فريسكوبالدي وكوريللي، ولكنه افتتن جداً بكونشترات الكمان التي وضعها فيفالدي، ونقل تسعة منها لآلات أخرى. وكان أحياناً يدخل شذرات مما نقل في أحيائه. ونستطيع أن نحس أثر فيفالدي في كونشترات برندنبورج ولكننا نحس فيها أيضاً روحاً أعمق وفتناً أغنى.

أما أهم واجباته في فيمار فعزف الأرغن في كنيسة القلعة (شلوسكيرشي). وهناك كان في متناوله أرغن صغير ولكنه مجهز تجهيزاً كاملاً. وألف لهذه الآلة الكثير من أعظم قطعه الأثرية: الباسا كاليا والفوج في مقام C الصغير، وأفضل التوكاتات، ومعظم الاستهلالات والفوجات الكبيرة. وكتاب الأرغن الصغير (أورجلبوخلين). وكانت شهرته إلى الآن عازف أرغن لا ملحناً. وقد تعجب المشاهدون، ومنهم ماتزون الناقد، لخفة حركته في استعمال المفاتيح، والدوسات، والضوابط، وصرح أحدهم بأن قدمي باخ "تطيران على لوحة الدوسة كأنما كان لهما جناحان" (44)

صفحة رقم : 12220

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

ودعي ليعزف في هاللي، وكاسل، وغيرهما من المدن. وفي كاسل (1714) أعجب به ملك السويد القادم فردريك الأول إعجاباً حمله على أن يخلع من أصبعه خاتماً ماسياً ويعطيه لباخ. وفي 1717، التقى باخ في درس دن بجان لوى مارشان الذي ذاع صيته في الأرض عازف أرغن للويس الخامس عشر. واقترح بعضهم مباراة بين العازفين، واتفقا على اللقاء في البيت الكونت فون فلمنج، وكان على كل منهما أن يعزف بمجرد النظر أي لحن أرغني يوضع أمامه. وحضر باخ في الساعة المحددة، ولكن مارشان رحل عن درس دن قبله لأسباب مجهولة الآن، فأتاح لباخ نصراً غيائياً لم يشرح صدره.

على أن القوم تخطوه في الترقية، رغم اجتهاده وشهرته المتزايدة، حين مات رئيس عازفي فيمار، وأعطيت الوظيفة لابن الميت. وكان باخ في حالة استعداد نفسي لتجربة بلاط جديد. وعرض عليه ليوبولد أمير أنهالتكوتن ووظيفة رئيس عازفيه. ولكن دوق ساكسيفيمار الجديد، قلهم أوغسطس، رفض أن يخلي سبيل عازف أرغنه. وألح باخ عليه، فسجنه (6 أبريل 1717)، وثابر باخ على اصراره، فأطلقه الدوق (2 ديسمبر)، وهرول باخ بأسرته إلى كوتن. ولما كان الأمير ليوبولد كلفنيا لا يوافق على موسيقى الكنيسة، فقد كانت وظيفة باخ أن يدير أوركسترا البلاط، الذي كان الأمير نفسه يعزف فيه الفيولا دا جامبا (فيولا الساق). وعليه ففي هذه الفترة (1717-23) ألف باخ الكثير من موسيقى الحجر، بما فيها السويتات الإنجليزية والفرنسية. وفي 1721 أرسل إلى كرستيان لودفيج حاكم براندنبورج الكونشرتات التي تحمل ذلك الاسم.

تلك كانت في أكثرها سنوات سعيدة، لأن الأمير ليوبولد أحبه، واصطحبه في رحلات شتى، وأظهر في فخر موهبة باخ، وظل صديقاً له يوم فرق التاريخ بين طريقيهما. ولكن حدث في يوليو 1720 أن ماتت ماريا برباره بعد أن ولدت لباخ سبعة أطفال ظل أربعة منهم على قيد الحياة. وبكائها سبعة عشر شهراً، ثم اتخذ له زوجة ثانية تسمى أنا مجدلينا فولكن، ابنة نافخ بوق في أوركستراه. وكان الآن في السادسة والثلاثين، وهي

صفحة رقم : 12221

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

لا تتجاوز العشرين، مع ذلك قامت خبير قيام بما ناطها به من واجب وهو أن تكون أما وفيه لأطفاله. أضف إلى ذلك أنها كانت تعرف الموسيقى، فساعدته في تلحينه، ونسخت مخطوطاته، وغنت له بصوت وصفه بأنه "سوبرانو شديد الصفاء" (45). وقد أنجبت له ثلاثة عشر طفلاً، مات سبعة منهم قبل أن يبلغوا الخامسة. لقد نزلت بتلك الأسرة العجيبة فواجه كثيرة. وقد أزعجت باخ مشكلة تعليم أطفاله بازياج عددهم. وكان لوثرياً متحمساً، كره الكلفنية الكنيسة التي تعلم العقيدة الكلفنية. ثم أن أميره المحبوب تزوج (1721) أميرة شابهة قللت مطالبها من ليوبولد من اهتمامه بالموسيقى. ومرة أخرى رأى باخ أن قد أن أوان التغيير. لقد كان روحاً قلقة، ولكن القلق صنعه، ولو أنه ظل في كوتن لما سمعنا به قط.

وحدث في يونيو 1722 أن مات يوهان كوناو، بعد أن شغل عشرين عاماً وظيفة قائد فرقة الترتيل في مدرسة توماس بليزج. وكانت مدرسة خاصة ذات سبعة صفوف وثمانية مديسين، تهتم بتدريس اللاتينية والموسيقى واللاهوت اللوثري. وكان على الطلاب والخريجين، بإشراف قائد فرقة الترتيل، أن يقدموا الموسيقى للكنائس المدنية. وكان القائد خاضعاً لمدير المدرسة والمجلس البلدي الذي يدفع الرواتب. وطلب المجلس إلى تيليمان أن يشغل الوظيفة الشاغرة، لأنه حبذ الأسلوب الإيطالي الذي اتسمت به ألحان تيليمان، ولكنه رفض. فعرضها على كريستوفر جرابنر قائد فرقة المرثلين في دارمشتات، ولكن رئيس جرابنر أبى أن يحل من عقده. وفي 7 فبراير تقدم باخ للمجلس طالباً الوظيفة، وارتضى شتى الاختبارات التي أجريت عليه للتأكد من كفايته. ولم يشك أحد في مهارته عازفاً للأرغن، ولكن بض أعضاء المجلس رأوا أن أسلوب ألحانه يتسم بروح محافظة شديدة (46). وكان اقترح أحدهم رجلاً متوسط الكفاية (47). واستخدم باخ (22 أبريل 1723) بشرط أن يقوم بتدريس اللاتينية فضلاً عن الموسيقى

صفحة رقم : 12222

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

وأن يحيا حياة التواضع والهدوء، وأن يوقع بقبوله العقيدة اللوثرية، وأن يبدي للمجلس "كل الاحترام والطاعة الواجبين" وألا يغادر المدينة قط بغير إذن من العمدة. وفي 30 مايو أسكن هو وأسرته في جناح المدرسة السكني، وبدأ واجباته الرسمية. وظل يشغل هذه الوظيفة الثقيلة الأعباء حتى مماته. وأخذ منذ الآن يلحن مؤلفاته الموسيقية، فيما عدا القديس بقم "ب" الصغير، لاستخدامها في كنيسة ليبيزج الرئيسية - كنيسة القديس توماس وكنيسة القديس نيقولا. وكانت خدمات الكنيسة يوم الأحد تبدأ في الساعة السابعة صباحاً بمقدمة على الأرغن، ثم يرتل القسيس الصلاة الافتتاحية، وترتل فرقة المرثلين كيريا (مطلع صلاة كيريا ليسون-أي يا رب ارحمنا)، ويرتل القسيس والفرقة - وأحياناً المصلون- ترتيلة "جلوريا" (أي المجد لله في الأعالي) بالألمانية، ثم يرتل المصلون ترتيله. ويرتل القسيس الإنجيل وقانون الإيمان، ويعزف عازف الأرغن مقدمة، وترتل الفرقة كنتاتا، والمصلون ترتيلة "نؤمن كلنا بالله واحد"، يلي ذلك عظة للقسيس تمتد ساعة، يعقبها الصلاة ثم البركة. وبعد ذلك يأتي تناول القربان المقدس، ثم ترنيم أخرى. وتنتهي هذه الخدمة في الساعة العاشرة شتاءً والحادية عشرة صيفاً. وفي الحادية عشرة يتناول الطلاب والمدرسون الغداء في المدرسة. وفي الواحدة والرابع بعد الظهر تعود الفرقة إلى الكنيسة لصلاة المساء، ومزيد من الصلوات، والترانيم، والعظة، وتسبحة "تعظم نفسي الرب Magnificat" في صيغتها الألمانية. وفي الجمعة الكبيرة ترتل الفرقة لحن الأم المسيح. ولكي يؤدي باخ الموسيقى لهذه الخدمات كلها درب فرقتين، كل منهما من نحو اثني عشر عضواً، وأوركسترا يعزف على نحو ثمانين عشرة آلة. وكان المغنون المنفردون جزءاً من الفرقة، يرتلون معها قبل ألحانهم ومقاطعهم الملحونة وبعدها.

ولقاء هذه الخدمات المعقدة التي أداها باخ في ليبزج كان يتقاضى راتباً في المتوسط سبعمائة طالر في السنة، يدخل فيه نصيبه من صروفات التلاميذ المدرسية، وأتاعبه نظير تقديم الموسيقى في الأفراح والمآتم.

صفحة رقم : 12223

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

وكانت سنة 1729، التي جاءت بـ "لحن آلام المسيح كما رواها القديس متي"، في حساب باخ سنة سيئة، لأن الجو اعتدل جداً حتى عز الموتى (48). وكان بين الحين والحين يكسب بعض المال الإضافي من قيادة الحفلات الموسيقية العامة للجماعة الموسيقية. وحاول أن يزيد من دخله بالمطالبة بالإشراف على الموسيقى في كنيسة القديس بولس الملحقة بجامعة ليبزج، وعارضه بعض منافسيه عليها، فظل سنتين في خلاف مع السلطات الجامعية وانتهى إلى حل وسط غير مرض لكل الأطراف المعنية.

ثم خاض معركة طويلة أخرى مع المجلس البلدي الذي يختار الطلبة لمدرسة توماس، ذلك أن أعضاء المجلس نزعوا إلى أن يرسلوا له طلاباً اختيروا بفضل نفوذ سياسي الكفاية موسيقية فيهم، فلم يستطيع باخ أن يصنع من هؤلاء الوافدين الجدد مرتلين لا للسوبراو ولا للمجهز، وفي 23 أغسطس 1730 أودع المجلس احتجاجاً رسمياً، وكان رد المجلس أن رماه بأنه معلم غير كفء وضابط للنظام ضعيف، وبأنه كان يفقد أعصابه وهو يوبخ التلاميذ، وبأن الفوضى تنتشر في فرق الترتيل وفي مدرسة (49) وكتب باخ إلى صديق بلوينبرج يطلب إليه أن يساعده في العثور على وظيفة أخرى. فلما لم يفتح في وجهه باب التمس (27 يوليو 1733) من أوغسطس الثالث، ملك بولندا الجديد، أن يعطيه في بلاطه منصباً ولقباً يحميانه مما يلقاه من "إهانات لا يستحقها" وأبطأ أوغسطس في الاستجابة ثلاث سنوات، وأخيراً (19 نوفمبر 1836) خلع على باخ لقب "ملحن البلاط الملكي". وكان المدير الجديد لمدرسة توماس خلال ذلك ينازع باخ حقه في تعيين عرفاء لفرقة وتأديبهم وجلدهم. وطال النزاع شهوراً، وطرده باخ مرتين العريف الذي عينه إرنستي من منصبه الأرغن، وأخيراً ثبت الملك سلطة باخ.

لم تكن حياته قائداً للمرتلين في ليبزج إذن بالحياة السعيدة. فلقد سكب روحه وطاقته في ألحانه وفي أدائها، فلم يبق بعد ذلك شيء كثير لممارسة التربية أو الدبلوماسية. وقد وجد بعض العزاء في صيته الذائع ملحناً وعازف أرغن. وقبل الدعوات للعزف في فيمار، وكاسل، وناومبورج، ودرسدن، ونقد أجراً على هذه الحفلات العارضة وعلى اختياره للأرغن. وفي 1740

صفحة رقم : 12224

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ



عين ابنة كارل فليب ايمانويل صنجاناً في أوركسترا كنيسة فرديريك الأكبر. وفي 1741 زار باخ برلين، وفي 1747 دعاه فرديريك للحضور وتجربة البيانات التي اشتراها مؤخراً من جوتفريد زلبرمان. وأدهشت الملك ارتجالاً "باخ العجوز"، وتحداه أن يرتجل فوجه في ستة أقسام، فأبهجته استجابة باخ. ولما عاد باخ إلى ليبزج لحن ثلاثية الفلوت، والكمان، والبيان القيثاري، وأرسلها هي وقطعاً أخرى "هدية موسيقية" للملك عازف الفلوت، بوصفه "ملكاً هو محط الإعجاب في الموسيقى كما في جميع فنون الحرب والسلام الأخرى" (50). وفيما خلا هذه الفواصل المثيرة، كرس باخ نفسه بإخلاص مضمّن لو اجباته قائداً للمرتلين، ولحبه لزوجته وأبنائه، وللتعبير عن فنه وروحه في أعماله.

ب- مؤلفاته الموسيقية

(أ)- الآلية

كيف نعتذر لاجترائنا على هذا العرض لضخامة إنتاج باخ وتنوعه دون أن تتوفر لنا كفاية المحترفين للقيام بهذه المهمة؟ ليس في وسعنا أن نفعل شيئاً هنا، اللهم إلا أن نقدم للقراء قائمة تجملها المحبة لباخ. فلنبدأ إذن بمؤلفاته للأرغن، فالأرغن ظل غرامه المقيم، لم يضارعه فيه أحد غير هاندل الذي فقد وراء البحار. كان باخ يحب أحياناً أن يفك كل ضوابطه لمجرد اختبار رثائه وجس قوته. وكان يلهو به لهوه بألة دانت لسيطرته تماماً، وخضعت لكل شطحاته. ولكنه في استبداده هذا وضع حداً لأهواء العازفين بتحديد الأوتار التي يجب استعمالها بعلامات الجهير (الباص) المدونة، وذلك بأرقام في أسفلها، وهذا هو الجهير "المرقم" أو الكامل الذي يعين السلسلة المتصلة التي ينبغي أن يصاحب بها الأرغن أو البيان القيثاري الآلات الأخرى أو الصوت. وخلال مقام باخ في فيمار أعد لابنه الأكبر ولغيره من الطلاب "كتيباً للأرغن" من خمسة وأربعين استهلالاً كورالياً، وأهداه إلى "الإله العلي وحده

صفحة رقم : 12225

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

تمجيداً له، وإلى جاري لكي يعلم به نفسه". وكانت وظيفة الاستهلال الكورالي أن يكون مقدمة بالآلات لترنيمة جماعية، ليرسم موضوعها ويحدد طابعها. ورتبت هذه الاستهلالات لتؤلف منتاليات ملائمة لعيد الميلاد، وأسبوع الآلام، وعيد القيامة، وظلت وقائع السنة الكنيسية هذه إلى النهاية "Alle Menschen müssen sterben" (كل البشر مصيرهم الموت)، تلتقي بموضوع من موضوعات باخ التي يعود إليها المرة بعد المرة، ويخفف منه على الدوام عزمه على مواجهة الموت بالإيمان بقيامة المسيح بشيراً بقيامتنا. وسنسمع هذه النغمة ذاتها بعد سنوات في لكورال الحزين "Komm, susser tod" (تعال أيها الموت الحلو). ويرافق هذه النقوى الغامرة في هذه الاستهلالات، وفي ألحان باخ الآلية بوجه عام، مرح صحي، فتراه يطفر أحياناً فوق المفاتيح في فرحة تنويغات تذكرنا بشكاوى مجلس كنيسة أرنشات منه.

وبلغت جملة ما خلفه باخ من المقدمات الكورالية 143، يعدها دارسو الموسيقى أول أعماله وأكملها منم الناحية التقنية. فهي قصائده الغنائية كما أن القداسات وألحان الألام ملاحمه. وقد طوف بسلم الأشكال الموسيقية كلها، ولم يسقط منه غير الأوبرا لأنها غريبة على وظيفته ومزاجه، ومفهومه عن الموسيقى قرباناً لله قبل كل شيء. ولكي يفسح لفنه مجالاً أرحب أضاف فوجة للمقدمة، فجعل فكرة الجهير تتابع نفس الفكرة الرئيسية في الندى، أو العكس، في لعبة متشابهة أبهجت نفسه الولوعة بالطباق الموسيقى. فترى لحن المقدمة والفوجة بمقام E الصغير يبدأ ببساطة مغرية، ثم يحلق في أجواء معقدة من الغنى والقوة تكاد تلقى الرعب في أذن السامع. أما لحن المقدمة والفوجة بمقام D الصغير فهو باخ على أروعه بناءً، وصنعة فنية، وتطويراً للفكرة الرئيسية، وخصوبة تصويرية، وقوة عارمة. وربما كان أروع من هذا إلياس كاليا والفوجة بمقام C الصغير. وقد أطلق الأسبان اسم Pasacalle على اللحن الذي يعزفه موسيقى "عابر بالطريق"؛ وأصبح في إيطاليا لوناً من الرقص، أما في باخ فهو فيض جليل من النغم، يجمع بين البساطة والتأمل والعمق.

صفحة رقم : 12226

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

وألف باخ للأرغن أو موتره المفاتيح اثنتي عشرة توكاتات tocattas أي قطعاً تستطيع أن تمرن "المس" العازف. وكانت تحتوي على ضربات سريعة على لوحة المفاتيح ونغمات عالية جريئة، وأخرى خافتة رقيقة، وفوجه من النغمات يدوس بعضها أعقاب بعض في دعابة وعبث. وقد ظفرت التوكاتا والفوجه في مقام D الصغير، في هذه المجموعة، بأكبر عدد من المستمعين، وبعض، الفضل في هذا راجع لألحان أو كسترالية مكيفة كانت أنسب من الأرغن للأذن العصرية غير الكنسية. ومن بين التوكاتات السبع الموضوعه لموتره المفاتيح أو البيان القيثاري، يتبدى باخ هنا أيضاً في التوكاتا بمقام C الصغير وقد ملك ناحية صنعته في ثقة كاملة - فهي فرحة من مزج الألحان تعقبها حركة بطيئة كلها عذوبة صافية مهيبة.

وليس من السهل نحن الذين حرمانا الأنامل الماهرة والأذان المرهفة أن نقدر اللذة التي استشعرها باخ ومنحها سامعيه في مؤلفاته التي وضعها لموتره المفاتيح- التي كانت بالنسبة له تعنى البيان القيثاري عادة. فعلياً أولاً أن نفهم مبادئ البناء التي اتبعتها في تطوير بضع نغمات فكرة رئيسية إلى بناء مفصل معقد ولكنه منظم - أشبه بقطعة فنية من الطراز العربي في سجادة فارسية أو محراب جامع، تسرح بعيداً عن قاعدتها وكأنها تحررت من كل القيود، ولكنها تفعل دائماً في منطق بضيف الإشباع العقلي إلى لذة الشكل الحسية. ثم علينا أن نستعير سحر يدي باخ، لأنه ابتكر في العزف فناً يتطلب الاستخدام الكامل لأصابع اليدين كلها (بما فيها الإبهام)، في حين قل أن تطلب من سبقوه أكثر من الأصابع الثلاث الوسطى في مؤلفاتهم لموتره المفاتيح. ولقد أحدث ثورة حتى في وضع اليد. فقد نحا العازفون قبله إلى الاحتفاظ بيدهم مبسوطة أثناء ضربهم المفاتيح، ولكن باخ علم تلاميذه أن يحنوا اليد حتى تضرب جميع الأنامل المفاتيح في نفس المستوى. وبغير هذه الطريقة كان يستحيل ظهور عازف مثل ليست.

وأخيراً، حين اقتبس باخ نظاماً اقترحه أندرياس فركمايستر في 1691، طالب بضبط الأوتار في الآلات ضبطاً متوسطاً متكافئاً، بحيث يقسم

صفحة رقم : 12227

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

"الجواب" إلى اثني عشر نصف نغمة متساوية تماماً، فلا يحدث أي تنافر عند الانتقال من مقام إلى مقام. وكان في حالات كثيرة يصر على أن يضبط بنفسه البيان القيثاري الذي سيعزف عليه (51). لذلك وضع كتابه "البيان القيثاري الصحيح الضبط" (الجزء الأول، 1722 والجزء الثاني، 1744): ثمان وأربعون مقدمة وفوجة. اثنتان لكل مقام كبير وصغير - "لاستعمال وتمرين شباب الموسيقيين الراغبين في التعليم، ولمن حدقوا هذه الدراسة أيضاً على سبيل التسلية" كما نص عليه العنوان الأصلي للكتاب. والقطع ذات أهمية كبرى للموسيقين، ولكن الكثير منها أيضاً يستطيع أن يبعث فينا فرحة باخ أو شعوره المتأمل، وهكذا نرى جونو يقتبس المقدمة بمقام C الكبير، في شكل محور، لتكون لحناً مصاحباً على آلة منفردة (أولجاتو) للحنه "السلام يا مريم". وقد وجدت بعض النفوس العميقة، مثل ألبرت شفايتسر، في هذه المقدمات والفوجات "عالمًا من السلام" وسط ضجيج الصراع البشري (52). ثم أصدر باخ، الذي لم يكن لخصوبته نهاية، في 1731 الجزء الأول من كتابه "كلافير وبونج" (أي تمرينات على موترة المفاتيح) وقد وصفه بهذه العبارة "تمرينات من مقدمات، وموسيقى للرقصات الألمانية (المائدة) والكورانت، والسراباند، والجيج، والمنويت، وغيرها من اللطائف، مؤلفة على سبيل الترويح الذهني عن محبي الفن". (53) وأضاف إلى هذين الجزأين أجزاء ثلاثة في سنوات لاحقة، حتى أصبح الكتاب في النهاية متضمناً لأشهر مؤلفاته: "مبتكرات" و "بارتيتات"، و "سفنونية"، و "ألحان جولدبرج المحورة" و "الكونشرتو الإيطالي"، وبعض المقدمات الكورالية الجديدة للأرغن. وذكر المخطوط أنه يقدم "المبتكرات مرشداً أميناً يهدي محبي إلى طريق واضح.. لا لاكتساب الأفكار الجيدة (المبتكرات) فحسب، بل لوضعها بأنفسهم... ولاكتساب أسلوب غنائي في العزف، و... ميل قوي إلى التلحين" (54). وبهذه الأمثلة كان في استطاعة الطالب أن يرى كيف يمكن تطوير الفكرة الرئيسية، متى وجدت بالمزج بين الألحان عادة، تطويراً منطقياً لتبلغ خاتمة موحدة. وقد لعب

صفحة رقم : 12228

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

باخ بفكراته كأنه حاو مرح، فهو يقذف بها في الهواء، ويقلبها بطناً لظهر، ويقلبها رأساً على عقب، ثم يقيّمها على قدميها سالمة من غير سوء. إن الأنغام "والتيّمات" لم تكن طعامه وشرابه والهواء الذي يتنفسه فحسب، بل كانت إلى ذلك تسلية وراحته.

وكانت البارتيئات تسلييات شبيهة بما ذكرنا. وقد أطلق الإيطاليون لفظ "بارتييتا Partita على اللحن الراقص ذي الأقسام المختلفة. فالبارتييتات بمقام D الصغير و B الكبير اتخذت خمسة أشكال راقصة: "الألماند" أو الرقصة الألمانية، والكورانت الفرنسية، والسراباند، والمنويت، والجيج. ويظهر هنا تأثير العازفين الإيطاليين، الذي شمل حتى مصالبة اليدين، التي كانت حيلة محببة لدومنيكو سكارلاتي وهذه القطع تبدو لنا اليوم تافهة القيمة، ولكن يجب أن نتذكر أنها لم تؤلف للبيانو فورت الجبار، بل لموترة المفاتيح الهشة، وفي وسعها-إذا لم نشط فيما تطلبه منها- أن تمنحنا بهجة فريدة في بابها.

وأعسر من هذه هضماً "ألحان جولدبرج المنوعة". ويوهان تيوفيلوس جولدبرج هذا كان عازف موترة مفاتيح للكونت هرمان كايزرلنج، السفير الروسي لدى بلاط درسدن. فلما زار الكونت لبيزج اصطحب معه جولدبرج ليهدئ أعصابه

بالموسيقى التماساً للنوم. وفي هذه المناسبات تعرف جولدبرج إلى باخ وهو مشوق إلى تعلم طريقته الفنية في العزف على لوحة المفاتيح. وأعرب كليرلنج عن رغبته في أن يؤلف باخ قطعاً للموترة من نوع "يدخل عليه شيئاً من البهجة في لياليه المؤرقة" (55). وتفضل باخ بتأليف "الحن ذي ثلاثين تنويماً" أثبت أنه علاج للأرق. وكافاه كايزرلنج بقدر ذهني يحوي مائة جنينه من الذهب. ولعله هو الذي حصل لباخ على تعيينه ملحناً لبلاط الملك- النخب السكسوني. على أن فن باخ لا قلبه هو الذي كان في هذه التنويجات. فتراه يهدي الموترة بشعور ولذة أعظم، سبعة توكاتات، وسوناتات كثيرة، و"فتازيا وفجه ملونة" بمقام D الصغير، و"كنشرتو إيطالية" حاول فيها بحبوية وروح مذهلتين، أن ينقل إلى لوحة المفاتيح تأثيرات الأوركسترا الصغير.

صفحة رقم : 12229

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

وثمة شكل موسيقي وجد سبيله إلى جميع مؤلفاته الأوركسترالية تقريباً- وهو الفوج. وقد وفدت كمعظم الأشكال الموسيقية من إيطاليا، ولاحقها الألمان في مطاردة مشبوبة طغت على موسيقاهم حتى مجيئ هایدن. وأجرى عليها باخ تجاربه في "فن الفوجة"، فأخذ فكرة واحدة وبنى منها أربع عشرة فوجة وأربعة انتباعات في مناهة فن مزج الألحان تبين كل ضرب من التقنية الفوجية. وقد خلف المخطوطة ناقصة عند موته، فنشرها ابنه كارل فليب إيمانويل (1752) ولم يبع منها غير ثلاثين نسخة. ولا عجب فعصر البوليفوني (تعدد النغمات)، والفوجة كان في طريقه إلى الزوال بزوال أعظم أساتذته، وأخذ فن مزج الألحان يخلى السبيل للهارموني.

ولم يكن ولو عاً بالكمان ولعه بالأرغن وموترة المفاتيح. لقد بدأ حياته عازف كمان أحياناً يعزف على الفيولا في المجموعات الموسيقية التي يفودها في نفس الوقت، ولكن بما أن أحداً من معاصريه أو أبنائه لم يذكر شيئاً عن عزمه على الكمان، فلنا أن نفترض أنه لم يكن يتجلى في تلك الآلة. على أنه لا بد كان قديراً في العزف عليها، لأنه ألف للكمان والفيولا موسيقى غاية في الصعوبة، يغلب على الظن أنه كان على استعداد لعزفها بنفسه. وتعرف دنيا الموسيقى الغربية كلها "الشاسون" التي اختتم بها بارتيتا بمقام D الصغير الكمان المفرد، فهي آية في الأسلوب الفني ألف كل عازف كمان أن يهفو إليها هدفاً أعظم له. وقد يرى فيها بعضنا استعراضاً كريهاً من الحواية والشعوذة- أشبه بحصان يعذب قطة على مراحل عديدة. أما عند باخ فقد كانت محاولة جريئة ليحقق على الكمان عمق الأرغن وقوته البوليفونيين. فلما نقل بوزوني اللحن إلى البيانو، أصبحت البوليفونية أكثر طبيعية، وكانت النتيجة باهرة. (وعليها ألا نتعالى على هذه المنقولات وإلا وجب أن ندين باخ ذاته).

فإذا وصلنا إلى مؤلفات باخ التي أعدها لأوركستراه الرقيق، وجدت فيها حتى الأذن في المحترفة الكثير مما يشبه القصائد التي تتغنى للفرح والبهجة. ولا بد أن الهدية الموسيقية التي أهداها لفرديريك الأكبر قد أبهجت بالحنها المتألقة وهزته بأنغامها المتألقة نصف الشرقية. وقد كتب باخ بالإضافة

صفحة رقم : 12230

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

إلى البارتيئات أو المتتابعات في "تمرينات الموترة" خمس عشرة متتابعة لرقصات. وسميت ستة منها بالمتتابعات الإنجليزية لأسباب نجلها الآن، وستة بالمتتابعات الفرنسية، وهذه التسمية أوضح لأنها نسجت على منوال النماذج الفرنسية واستعملت ألفاظاً فرنسية بما فيها كلمة Suite (أي المتتابعة) ذاتها. وفي بعضها تطغى مهارة الصنعة، فتسمع حتى الآلات الوترية تبعث أنغاماً يغلب عليها النفخ. ومع ذلك فإن أبسط الناس يستطيع أن يحس ذلك لجمال المهيبة الذي يفيض به لحنه الشهير "أريوزو" أو "الحن لوتر المقام G" الذي يؤلف الحركة الثانية للمتابعة رقم 3. وقد نسيت هذه المؤلفات أو كادت بعد موت باخ، حتى عزف مندلسون أجزاء منها لجيبته في 1830، وأقنع أوركسترا قاعة تجار الأجوخ بلييزج ببعثها سنة 1838.

واقتبس باخ شكل الكونشرتو كما مارسه فيفالدي، واستخدمه في شتى أنواع التشكيلات الآلية. والحركة البطيئة بطناً مهيبة، عند موسيقى ولد بمزاج معتدل البطء، تجعل كونشرتو الكمان بمقام D الصغير مبهجاً جداً، كذلك فإن الحركة البطيئة في كونشرتو الكمان رقم 2 بمقام E هي التي تؤثر فينا بعمقها الحزين ورقتها المتألقة. وربما كان أعذب هذه القطع الموسيقية هو الكونشرتو بمقام D الصغير لكمانين، والنشيط vivace منهما تصوير خالص دون لون، كأنه شجرة دردار شتوية، ولكن الأريث Largo لقطة أثرية من الجمال الصافي- الجمال المعتمد على ذاته، دون "برنامج" أو أي شائبة فكرية تشوبه.

ولكونشترات براندنبودج تاريخها الخاص. ففي 23 مارس 1721 بعث بها باخ إلى أمير، نسيه الناس إلا في هذا الأمر، مشفوعة بهذه الرسالة بالفرنسية، التي صاغها كاتبها بأسلوب عصره. قال:  
إلى صاحب السمو الملكي الأمير كرستيان لودفيج، حاكم براندنبورج: مولاي:  
بما أنني تشرفت بالعزف أمام سموكم قبل عامين، ولاحظت أنكم استشعرتم شيئاً من السرور بالموهبة المتواضعة التي حبتني بها السماء في الموسيقى، وحين انصرفتم سموكم الملكي شرفتموني بأمر لي بأن أبعث إليكم ببعض قطع

صفحة رقم : 12231

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

من تألفي، فإني الآن عملاً بأوامركم الكريمة أبيع لنفسي أن أقدم لسموكم الملكي إحتراماتي المقرونة بالتواضع الشديد، مع الكونشترات المرافقة... متوسلاً إليكم في تواضع ألا تحكموا على نقصها بدقة ذلك الذوق الموسيقي المرفه الرفيق الذي يعرف الجميع أنكم تملكونه، بل أن تتبينوا في كرم ولطف ذلك الاحترام العميق والطاعة الشديدة المتواضعة للذين قصدت بهذه القطع أن تشهد عليهما. وفيما عدا ذلك يا مولاي، فإنني بكل تواضع أطلب إلى سموكم الملكي أن تجودوا بمواصلة أفضالكم علي، وبأن تثقوا بأنه ما من شيء أتوق إليه كرجبتي في استخدامي في شئون أجدر بكم وبخدمتكم، لأنني يا مولاي، بغيرة لا تعدلها غيرة، خادمكم المتواضع جداً  
جان سبستيان باخ(56).

ولا علم لنا هل شكر الحاكم لباخ هديته أو أثابه عليها، ولعله فعل، لأنه كان شغوفاً بالموسيقى، يحتفظ بأوركسترا ممتاز. وعند موته (1734) أدرجت الكونشترات الستة، بخط باخ الشديد العناية والتأنق ضمن 127 كونشرتو في قائمة جرد وجدها شبيبتا في المحفوظات الملكية ببرلين. وفي هذه القائمة قدرت قيمة كل من هذه الكونشترات بأربعة جروشينات (1.60 دولار).

وتتبع كونشترات براندنبورج شكل الكونشرتو الكبير الإيطالي-ألحان في عدة حركات، تعزف على مجموعة صغيرة من آلات غالية (الكونشترينو) بصاحبها أوركسترا وترى (الريبينو أو التوني). وقد استعمل هاندل والإيطاليون كمانين

وفيلوننتشيللو للكونشرتينو، أما باخ فقد نوع هذا بجرأته المعهودة، وقدم كماناً، وأوبوا، وبوقاً، وفلوتاً آلات مقصدرة في الكونشرتو الثاني، وكماناً وفلوتين في الكونشرتو الرابع، وموترة مفاتيح، وكماناً، وفلوتاً في الخامس، وطور البنيان إلى تفاعل معقد بين الكونشرتينو والريبيينو في حوار حي - من الانفصال والتعارض، والتداخل، والاتحاد - لا يفهم فنه ومنطقه ويستمتع بهما غير الراسخين في الموسيقى. أما من عداهم فقد يجدون بعض الفقرات مكررة تكراراً مملاً، نذكرهم بأوركسترا ريفي يقيس الوقت لرقصة، ولكن حتى نحن نستطيع أن نحس بسحر

صفحة رقم : 12232

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

الحوار ورقته، وأن نجد في الحركات البطيئة سلاماً مهدئاً أنسب للقلوب المسنة والأرجل المتلكئة مما نجده في دوامة الحركات العجلاء، ومع ذلك فإن الكونشرتو الثاني يستهل بأعجل (الليجرو) خلاب، والرابع يضي عليه البهجة فلوت لعوب، أما الخامس فهو باخ في أوجه.

(ب-) الصوتية

لم يستطع باخ وهو يلحن للصوت أن يلقي جانباً كل ما طوره من حيل وخفة يد على لوحة المفاتيح، ولا الجهود الجبارة المعذبة التي طالب بها أوركستراه، فقد كتب للأصوات كأنها آلات لا يكاد يكون لحذقها ومداهها حدود، وكان ضئيلاً في الاستجابة لرغبة المرتل أو المغني في أن يتنفس. ونهج نهج عصره في تمديد المقطع الواحد ليشمل ستة أنغام ("كيريب- يلب- ي- ي- ي- بيسون")، ومثل ذلك الاستكثار من الأنغام لم يعد أسلوب العصر، ولكن بفضل مؤلفاته للصوت حقق باخ شهرته الراهنة بوصفه أعظم ملحن في التاريخ. وقد حياه إيمانه الوطيد بالعقيدة اللوثرية إلهاماً حاراً يعدل أي إلهام وجده باليستريينا في القداس الكاثوليكي. فكتب نحو أربع وعشرين ترنيمة وست موتينات وفي الاستماع إلى إحدى هذه الست Singet dem Herrn (رنمو للرب) "شعر موتسارت أول ما شعر بعمق باخ. وكتب لجماهير المصلين ولكورسه كورالات قوية كانت كفيلاً بأن تبهج قلب لوثر الشبيه بقلبه": عند أنهار بابل" و "حين تشند الحاجة"، و"تجملي أيتها النفس المباركة" وقد أثر هذا الكورال الأخير في مندلسون تأثيراً عميقاً حتى قال لشومان "لو أن الحياة سلبتني الرجاء والإيمان لردهما إليّ هذا الكورال وحده" (57). ولحن باخ لأعياد الميلاد، والقيامة، والصعود، أوراتوريات-كانت تراتيل ضخمة للكوارس، أو المرتلين المنفردين، أو الأرغن، أو الأوركسترا. وقد رتل أوراتوريو Weinachts Oratorium الميلاد، كما يسمى الأورتوريو الأول، في كنيسة توماس في ستة أقسام على ستة أيام بين عيد الميلاد وعيد

صفحة رقم : 12233

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

الظهور (الغطاس) 1734-45. وأخذ من أعماله المبكرة نحو سبعة عشر لحناً أو كورساً، مستعملاً حقه فيما يملك، ونسج منها قصة عن ميلاد المسيح استغرقت ساعتين. وكاد بعض ألقانه هذه التي سطا عليها لا ينسجم مع النص الجديد، ولكن كان في استطاعة السامع أن يغفر الكثير من الأخطاء في لحن يقدم، في مطلعته تقريباً، الكورس الذي يبدأ بهذه الكلمات "كيف أفاك اللقاء الجدير بك؟".

كانت الأوراتوريات في صميمها تجميعات لكنناتات. وكانت الكنناتات ذاتها كورالا تتخلله الألقان. ولما كانت الخدمة اللوثرية كثيراً ما تطلب الكنناتات، فقد ألف باخ ثلاثمائة منها، بقي منها إلى اليوم نحو مائتين. وقد حدث صلتها الوثيقة بالطوقس اللوثرية من عدد المستمعين لها في زماننا هذا، ولكن كثيراً من الألقان التي تضمنتها فيه جمال يسمو على أي لاهوت. وفي فيمار، في سنته السادسة والعشرين (1711) كتب باخ أول كنناتاته الرائعة "Actus tragieus" التي تبكي مأساة الموت ولكنها تفرح برجاء القيامة. وفي 1714-17 خلد تقسيمات السنة الكنسية بطائفة من أروع كنناتاته: فالأحد الأول من الأحاد الأربعة السابقة للميلاد Advent كتب "تعال الآن، يا مخلص الوثنيين". ولعيد القيامة 1715 كتب "السموات تضحك، والأرض تبتهج" التي استعمل فيها ثلاثة أبواق، ونقارية، وثلاث أبواب وكمانيين، وفيولنتشيللوين، وباصونا، وسلسلة أنغام على لوحة المفاتيح لتعين الكورس، وتحمل جمهور المصلين، على أن يهتروا طرباً بانتصار المسيح؛ وكتب للأحد الرابع من الأحاد السابقة للميلاد في 1715، "القلب والفم والعقل والحياة" مع الكورال الجدل المألوف "و"أويلجاتو" الأوبرا، "يسوع، يا بهجة أشواق الإنسان". وكتب للأحد السادس عشر بعد عيد الثالوث الأقدس 1715، "تعال يا ساعة الموت الحلوة". وفي ليزج لحن تسبحة أخرى لقيامة المسيح "رقد المسيح في سجن الموت المظلم". وفي الذكرى المئوية الثانية لـ "إعلان العقيدة الأذربورجي" لحن ترنيمة لوثر التي مطلعها "إلهنا حصن حصين" في صورة كنناتات تعد

صفحة رقم : 12234

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

الترنيمة في قوتها، ولكن ربما كانت أعنف من أن تكون تعبيراً مناسباً عن الإيمان. وكان في باخ إحساس صحي بمباهج الدنيا رغم تدينه وصلته الوثيقة بالتقوى بحكم واجباته، وكان في وسعه أن يضحك، كما يبكي، من كل قلبه. وتسلفت عناصر علمانية إلى مؤلفاته الدينية، وقد اكتشف بعض أنغام من أوبرات عصره في القديس بمقام B الصغير (58). ولم يتردد في أن يعقد موارد فنه على كنناتات علمانية خالصة، بقي منها الآن إحدى وعشرون. فألف "كنناتنا الصيد" و"كنناتنا القهوة" و"كنناتنا الزفاف" وسبع كنناتات لاحتفالات مدينة. وفي 1725 كتب كنناتات كاملة بمناسبة عيد ميلاد أوجست مولر الأستاذ بجامعة ليزج "أيولوس المغتبط" احتقالاً بتحرير الرياح، وربما بمجاز خبيث. وفي 1742 خلع موسيقاه على "كنناتنا الفلاحين الساخرة سخرية كاريكاتورية صريحة، بما فيها عن رقص القرويين الصاحب وشربهم وغزلهم. وبعد عام 1740 لم تعد الموسيقى الكنسية الغالية في ليزج، وقدمت الحفلات الموسيقية العامة بازدياد ألقاناً علمانية..

وقبل ن تدخل الموسيقى الدينية عصر اضمحلالها خلق بها باخ في أجواء لم تبلغها من قبل البلاد البروتستنتية. وكان من مخلفات القديس الكاثوليكي في الخدمة الكنسية اللوثرية ترتيل تسبحة "تعظم نفسي الرب" في عيد زيارة العذراء (2 يوليو). وكان هذا إحياء لزيارة مريم لابنة خالتها ألبصابات، حين فاهت العذراء كما ورد في إنجيل البشير لوقا

(الإصحاح الأول 46-55) بترنيمه شكرها التي لا شبيهه لها: Magnificat anima meadominam "تعظم نفسي الرب وتبتهج روجي بالله مخلصي لأنه نظر إلى إتضاع أمته. فهو ذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني." ولحن باخ هذه السطور وما يليها مرتين، ولعله لحنها في صورتها لخدمة الميلاد بليبزج عام 1723. هنا يسمو الدين، والشعر، والموسيقى كلها إلى نفس الذروة في وحدة رائعة. وبعد ست سنوات بلغ تلك الذرى غير مرة في "ألحان أسبوع الآلام

صفحة رقم : 12235

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

كما ورد في إنجيل متى". ولقد كان تلحين قصة آلام المسيح وموته القرون الطوال جزءاً من الطقس الكاثوليكي. واقتبس كثير من الملحنين البروتستنت صيغة الكنتاتا لهذا الغرض، واستخدم أثنان منهم قبل باخ إنجيل القديس متى نصاً لهما (59). وكتب باخ على الأقل ثلاثة من ألحان الآلام، متبعاً فيها على التوالي روايات يوحنا (1723)، ومتى (1729)، ومرقص (1731). ولم يتخلف من اللحن الثالث غير قطع متناثرة. ولحن الآلام على رواية يوحنا يشوبه تعاقب غير منطقي للمناظر وخط بين الأحداث، ونزوع تيوتوني إلى الخطب الراحدة، ولكن الأجزاء الأخيرة منه تخف إلى رقة ورهافة في الشعور، وعمق حزين في التأمل، بلغ غاية ما تبلغه الموسيقى تأثيراً في النفس.. ولحن Es ist vollbracht (قد أكمل) ترجمة عميقة لأخطر حدث في قصة المسيح، وما من امتحان للملحن أو المصور أعسر من هذا.

وفي عصر يوم الجمعة الكبيرة، 15 أبريل 1729، في كنيسة توماس بليبزج، أخرج باخ أعظم ألحانه قاطبة. وقد أتيح له في هذا اللحن "لحن الآلام على رواية متى، نص ألماني جيد، بنى على رواية متى الكاملة نسبياً، ورتبة أديب محلي يدعى كرسنتيان فرديريك هنريكي، الملقب "بيكاندر". ويبدو أن باخ نفسه كتب النص لعدة كوارس وقد ظنها البعض قطعاً لا مبرر له لقصة الإنجيل، ولكنها كالكورس في المسرحية اليونانية تثيري الدراما بالتعقيب والشرح، وإيقاعاتها الحزينة تعبر عن عواطفنا وتطهرها- وهما وظيفتان للفن الاسمي. وإذا كان الكثير جداً من موسيقى باخ إعلاناً للبراعة أو القوة، فإن لحن الآلام على رواية متى كله تقريباً هو صوت الأسي، أو العرفان، أو المحبة-في قرار الكورال المتكرر، الحزين، الرقيق، وفي رفاهة الألحان، وفي أنغام الفلوت الملازمة ترنم كأنها آتية من عالم آخر، وفي الضبط الوقور للأدوار المصاحبة التي تلتف حول الكلمات ووسط الأحداث كأنها زخارف مفضضة في كتاب قداس من العصر الوسيط. هنا يفتح لنا باخ أعماقاً من الوجدان والمغزى لا تتكشف في مكان آخر إلا في الرواية الأصلية ذاتها، فهذه المأساة مازالت

صفحة رقم : 12236

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ



بالنسبة لنا نحن أبناء الحضارة الغربية أشد المأسى تأثيراً في نفوسنا، لأنها لا تقتصر على تمثيل صلب شخص مثالي نبيل بأيدي أختنا من بني البشر، بل تجاوز هذا إلى الرمز لصلبه يومياً في العالم المسيحي، ولذلك الموت البطيء، في كثير منا، موت الإيمان الذي أحبه هذا الشخص إليها له.

وكاد باخ أن يوفق في أن يبلغ مرة أخرى، في القداس بمقام B الصغير، ذرى الانفعال والصنعة التي بلغها في لحن الألام المذكور. ولكنه لم يستطع أن يشعر بالانسجام الكامل مع مغامرته الجديدة كما شعر في لحنه ذلك. فلقد كان إنجيل الألام أساس العقيدة البروتستنتية ومرتكزها، وكان باخ مستغرقاً في تلك القصيدة استغراقاً لا سبيل إلى رده عنه. على أن القداس على أي حال كان تطويراً كاثوليكياً، وقانون الإيمان ذاته يعبر عن التزام لا شك فيه بـ "كنيسة واحدة مقدسة، جامعة (كاثوليكية) catholicam، رسولية". ومع أن الشعائر اللوثرية احتفظت بالكثير من القداس الكاثوليكي، فإن هذا الكثير كان أثراً قلعاً تخلص فعلاً من لحن "يا حمل الله Agnus Dei" قبل باخ. وكان القداس في عصر باخ وفي الكنائس أيامه يغير قطعة قطعة بالكنائس. ويقاياه اللاتينية تقصى شيئاً فشيئاً عن الطقوس. وقد رثت أحياناً الألام لباخ بالألمانية، وكان قد درس أربع ترانيم ألمانية بين الأبيات اللاتينية للحنه "تعظم نفسي الرب". ولكن القداس كان لاتينياً خالصاً بحكم التقاليد بحيث كانت أي اقحامات ألمانية فيه تغامر بأن يؤخذ عليها عيب التنازل. وكان قد غامر بهذا التحدي بكتابه أربعة قداسات جزئية يمثل هذه الملاحق الألمانية، ولم تكن النتيجة مرضية. فدرس بعناية تلك القداسات الكاثوليكية التي لحنها بالسترينا وغيره من الإيطاليين. وأرحت علاقته ببلاط درس أنه قد يسر الملك-الناخب الكاثوليكي إذا لحن قداساً كاثوليكياً. وحين بعث لأوغسطس الثالث (1733) ملتمساً بطلب وظيفة ولقب في البلاط أرفق معه لحنه "كيرباليسون" و "المجد لله Gloria" أصبحا فيما بعد جزأين من القداس بمقام B الصغير. ويلوح أن الملك لم يهتم بهما. وأداهما باخ في كنائس ليبزج، فاستقبلا استقبالا طيباً، وواصل هو هذا العمل (1733-38) فأضاف إليهما أجزاء أخرى، قانون الإيمان Credo،

صفحة رقم : 12237

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

ولحن "قدوس قدوس قدوس Sanetus" ولحن "أوصنا Osanna، ولحن "مبارك الرب Benedictus" ولحن "يا حمل الله" ولحن "هنا سلاماً" Dona nobis pacem. فلما اكتمل هذا كله أصبح قداساً في صورته الكاثوليكية. ولعل باخ قد راوده الأمل في أن يأمر أوغسطس الثالث بترتيله في بولندا، ولكن القدر لم يحقق أمنيته، لأنه لم يترنل قط في كنيسة كاثوليكية. وقد قدمه باخ قطعة قطعة في مناسبات شتى، في كنيسة توماس أو كنيسة نيفولا يليبزج. والآن، هل نسوق التحفظات المترددة التي تخالط إعجابنا بهذا القداس الضخم بمقام B الصغير؟ أن قوة باخ تطغي مراراً على ذلك التواضع الذي ينبغي أن يشرب خطاب موجه إليه تعالى، وقد يبدو أحياناً أنه لا بد قد ظن أن الله أصم أذنيه، لأنه قد أمسك طويلاً عن الكلام في لغات كثيرة. فلحن "كيرباليسون" يجر ضخامته الراعدة المختلطة جراً طويلاً مملاً حتى لنصبح نحن أيضاً في النهاية "إليسون- أي ارحمنا!" أما لحن "المجد لله" فهو في أكثره متقن من حيث مصاحباته الأوركسترا، وهو ينتقل إلى لحن جميل، لحن "الجالس عن يمين الأب". ولكنه يببب أجش خشناً بصوت الأبواق في لحن "لأنك وحدك قدوس" ثم يتناول لحن "مع روحك القدوس" برعد من المقاطع الموسيقية لا بد جعل الروح القدس يرتعد مخافة أن يقتحم هذا التوتوني الجبار أبواب السماء عنوة. ومن عجب أن قانون لأيمان-بتفاصيله ودقائقه العقائدية التي أحدثت الانقسام في العالم المسيحي، والتي لا تلائم طبيعتها الموسيقية-ينتج أسمى لحظات القداس بمقام B الصغير، إلا وهما لحن "وتجسد" ولحن "الصلب"، حيث يظفر باخ ثانية بذلك الجلال الهادئ الذي بلغه في لحن الألام على رواية متى. ثم يأتي لحن "وقام من بين الأموات" فيطلق كل الأنغام الصارخة، التي نفذ

صبرها، أنغام الأبواق والطبول، لتصبح وترعد تهللاً بانتصار المسيح على الموت. ويهدئنا لحن "مبارك الرب" بنغمة الصادح (التينور) الرقيق وكمانه المنفرد السماوي. والمصاحبة الأوركسترا لية للحن "يا حمل الله" جميلة

صفحة رقم : 12238

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

في عمق، ولكن لحن "هنا سلاماً" دليل على القوة لا على هبة السلام. تلك ردود فعل صريحة ليس لها كبير قيمة. ولن يندوق القداس بمقام B الصغير تذوقاً كاملاً غير أولئك الذين توافر لهم شئ آخر فضلاً عن التربية المسيحية التي لم تفقد نغماتها التوافقية العاطفية، وهو القدرة الفنية على أن يميزوا ويستمتعوا بما في اللحن من بناء، ونغمات، وصنعة، وبما استعمله الملحن فيه من موارد متنوعة، وبما في تأليف الأوركسترا من تعقيد، وبتيكليف الأفكار الرئيسية في الموسيقى وفي أفكار النص.

وقد انتقد بعض الموسيقيين المحترفين باخ أثناء حياته. ففي 1737 نشر يواهان أدولف شايببي (الذي أصبح فيما بعد قائد الأوركسترا لملك الدنمرك) خطاباً غفلاً من من التوقيع امتدح فيه باخ عازفاً على الأرغن، وأشار إلى أن "هذا الرجل العظيم يكون محط إعجاب الأمم كلها لو كان أسلس من هذا، ولو لم تكن ألحانه مفتعلة لما فيها من ضجيج واختلاط، ولو لم يحجب جمالها الأسراف في الصنعة (60). وبعد عام جدد شايببي هجومه فقال "إن ألحان باخ الكنسية تزداد افتعالاً وبطناً، وهي تقصر عن ألحان تليمان وجراون في الامتلاء بالافتتاح المؤثر أو التأمل الفكري (61). وكان شايببي قد حاول الحصول على منصب عازف الأرغن في ليبزج وعلق باخ على عزفه الذي أداه على سبيل الاختبار تعليفاً في غير مصلحته، وهجاه في إحدى كنتاجاته؛ ولعل نقد شايببي لم يخل من غل. ولكن شببينا، أشد المعجبي بباخ حماسة، ينبئنا أن الكثيرين من معاصري شايببي شاطروه آراءه (62). وربما كان بعض نقاده يمثلون انتفاض الجيل الجديد في ألمانيا على الموسيقى الطباقيية التي بلغت عند باخ من التفوق ما لم يترك بعده مجالاً لشيء غير التقليد، وقد شهد القرن العشرين انتفاضاً كهذا على السمفونية.

ولعل شايببي كان مؤثراً هاندل على باخ، ولكن هاندل كان قد خسرت ألمانيا وكسبته إنجلترا، فشق على ألمانيا بالطبع أن تقارن بينه وبين باخ. فإذا عقدت هذه المقارنة كان هدفها دائماً تفضيل هاندل (63). وقد أعرب بيتهوفن عن الرأي الألماني حين قال، "إن هاندل أعظمنا جميعاً" (64).

صفحة رقم : 12239

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

ولكن هذا كان قبل أن يبعث باخ تماماً من زوايا النسيان. ومع الأسف أن هذين العملاقين - وهما أعظم مفاخر الموسيقى وألمانيا في النصف الأول من القرن الثامن عشر - لم يلتقيا قط، ولو قد فعلا لآثر الواحد منهما في صاحبه

تأثيراً طيباً. وقد انطلق كلا الرجلين من الأرغن، واعترف الناس لهما بأنهما أعظم عازفيه في زمانهما، ثم واصل باخ إيثاره تلك الآلة بحبه، في حين جعل هاندل الصدارة للصوت، وهو الذي راح ينتقل بين مغنيات الأوبرا وخصيان المغنين، وزواج هاندل بين الميلوديا الإيطالية والطباق الموسيقي الألماني، وفتح طريقاً إلى المستقبل، أما باخ فكان التمام والكمال للماضي البوليفوني، الفوجي، الطباق. وأحس الناس، حتى أبناؤه، أنه لم يبق من سبيل للتحرك على ذلك الخط.

ومع ذلك كان في تلك الموسيقى القديمة شئى صحي، سيسعيده في تشوف وحنين رجال مثل مندلسون؛ ذلك أنها كانت لا تزال مشربة بالإيمان الراسخ، الذي لم تزعه بعد تلك الشكوك التي ستنفذ إلى صميم العقيدة المعزية. ولقد كانت صوت حضارة مكتملة التشكل، بوصفها الملاك والذروة لفن ولتقليد موروث. ولقد عكست التتميق الزخرفي للبارك، ولأرستقراطية لم يعد يتصدى لها الآن متصد. ولم تكن ألمانيا قد ولجت بعد عصر تنويرها "الأوفكويرنج"، ولا سمعت صياح أي من ديوك الثورة. فليسج مازال صغيراً، وكل ألماني تقريباً يؤمن بالعقيدة النيقوية قضية لا نقاش فيها، ولم يشذ بنقض فولتير غير الأمير فرديك البروسي. واما قليل سيتزعزع صرح المعتقدات والطرانق الموروثة أفخم زعزعة تكاد تهدمه هدماً من جراء دعوات العقول المبتدعة، وستطوى صفحات ذلك السلام المنظم القديم، وذلك الاستقرار الطبقي، وذلك الإيمان العجيب الذي لا يساوره شك ولا تساؤل كل هذا كتب موسيقى باخ، وستتغير كل الأشياء، حتى الموسيقى، باستثناء الإنسان دائماً.

ج- ختام

لقد أتاحت عزلته وترويضه في لبيزج أن يرث الماضي دون غضاضة أو تمرد. وكان إيمانه الديني، بعد موسيقاه راحته وملأه. كان يفتنى

صفحة رقم : 12240

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

في مكتبته ثلاث وثمانين مجلداً في اللاهوت، أو التفسير، أو الوعظ والإرشاد. وقد أضاف إلى عقيدته اللوثرية، المستقيمة، الرجولية، مسحة من الغيبة، ربما أخذها عن الحركة النقوية في زمانه مع أنه عارض النقوية لعدانها لأي موسيقى كنسية غير التراتيل. وكان أكثر موسيقاه ضرباً من العبادة. وقد ألف أن يبدأ التلحين بصلاة يقول فيها "أعني يا يسوع" وكان يستهل كل مؤلفاته تقريباً ويختمها بإهدائها لجلال الله ومجده. وعرف الموسيقى بأنها "تناغم لطيف لمجد الله وبهجة الروح المباحة" (65).

وفي الصور التي خلفها لنا في أخريات عمره نرى فيه الرجل الألماني النموذجي، عريض المنكبين، بديناً، ممتلئ الوجه أحمره، عظيم الأنف، له إلى ذلك كله حاجبان مقوسان أضفياً عليه نظرة متسلطة يشوبها بعض الغيظ والتحدي. وكان طبعه حاداً وقد حارب ببأس شديد دفاعاً عن منصبه وأرائه، أما فيما عدا ذلك فقد كان أشبه بدب دمث لطيف يستطيع أن يطأطئ وقاره مازحاً إذا توقفت المعارضة. ولم يشارك بنصيب في حياة لبيزج الاجتماعية، ولكنه لم يكن ضئيلاً باستضافة الأصدقاء، ومن بينهم منافسون كثيرون من أمثال هاسي وجراون. وكان متعلقاً بأسرته، يستغرقه عمله وبيته. وقد درب جميع أطفاله العشرة الأحياء على الموسيقى، وزودهم بالآلات، واحتوى بيته خمس موترات مفاتيح، وعوداً، وفيولا للساق، وعد كمانات، وفيولات، وفيولنتشات. كتب إلى صديق في تاريخ مبكر (1730) يقول

"أستطيع الآن أن أحي حفلة موسيقية، صوتية وآلية، من أفراد أسرتي" (67). وقد يتاح لنا في موضع لاحق أن نرى كيف واصل أبناؤه وفاقوه شهرة.  
ثم وهن بصره في أخريات عمره. وفي 1749 ارتضى أن تجرى له جراحة على يد نفس الطبيب الذي عالج هاندل بنجاح في الظاهر، ولكن الجراحة أخفقت هذه المرة وتركته مكفوف البصر تماماً. وعاش بعدها في حجرة معتمة لأن النور الذي لم يستطع رؤيته كان يؤذي عينيه. على أنه واصل التلحين رغم بلواه، شأنه في ذلك شأن بيتهوفن الأصم، وراح الآن

صفحة رقم : 12241

قصة الحضارة - < عصر فولتير - < أوروبا الوسطى - < ألمانية باخ - < يوهان سبستيان باخ

يملي صهيراً له الافتتاحية الكورالية "حين تشتد بنا الحاجة". وكان قد أعد نفسه للموت منذ أمد بعيد، ووطن نفسه على تقبله، إذا حان حينه، عطية من الآلهة؛ ومن ثم ألف لحنه المؤثر "تعال أيها الموت الحلو".

تعال أيها الموت الرحيم، أيها الراحة المباركة،

تعال لأن حياتي مقفرة،

وقد تعبت من الدنيا.

تعال لأتني في انتظارك،

تعال سريعاً وهدئ روحي،

وأسبل عيبي في رفق؛

تعال، أيها الراحة المباركة(68).

وفي 18 يوليو 1750 بدا أن بصره قد رد إليه بصورة معجزة، وتجمعت أسرته من حوله في فرح وابتهاج ولكن فجأة، في 28 يوليو، قضت عليه إصابة بالفالج و "رقد إلى الرب هادئاً مباركاً"(69) كما تقول لغة ذلك العهد المفعمة بالرجاء. وكاد يصبح نسياً منسياً بعد موته. وبعض هذا النسيان مرجعة انزواء باخ في ليبزج، وبعضه عسر ألقانه الصوتية، وبعضه اضمحلال الميل إلى الموسيقى الدينية والأشكال الطباقيية. وحاول يوهان هيلر، الذي شغل في 1789 وظيفة باخ قائداً لفرقة المرتلين في مدرسة توماس، أن "يبث في التلاميذ استهجان فجاجات باخ"(70). وكان اسم باخ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر يعني كارل فليب إيمانويل، الذي كان يأسف على طابع موسيقى أبيه العتيق(71). وما حلت سنة 1800 حتى بدا أن كل ذكر ليوهان سبستيان باخ قد طوى. ولم يذكر عمله غير أبنائه. وقد وصفه أثنان منهما ليوهان نيكولاوس فوركل، مدير الموسيقى بجامعة جوتنجن. ودرس فوركل العديد من ألقانه فتحمس له، ونشر في 1802 ترجمة لحياته في تسع وثمانين صفحة صرح فيها بأن:

صفحة رقم : 12242

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> ألمانية باخ -> يوهان سبستيان باخ

"الأعمال التي خلفها لنا يوهان سبستيان باخ هي تراث قومي لا يقوم بثمن ولا يملكه أي شعب آخر... وتخليد ذكرى هذا الرجل العظيم ليس واجب الفن وحده بل واجب الأمة... فهذا الرجل، الذي هو أعظم من عاش ولعله أعظم من سيعيش من شعراء الموسيقى ومنظريها، كان ألمانيا... فته به فخرأ يا وطني"(72). وفتح هذا النداء المستنفر للوطنية قبر باخ. فاشترى كارل تسلتر، مدير أكاديمية الغناء ببرلين، مخطوطة لحن الألام، واستطاع فيلكس مندلسون، تلميذ تسلتر، أن يقنعه بأن يسمح له بأن يقود في الأكاديمية أول أداء لهذا اللحن يؤدي في مكان غير الكنيسة (11 مارس 1829). ولاحظ صديق لمندلسون أن لحن الألام هذا قد بعث إلى النور بعد تقديمه أول مرة بمائة عام تقريباً، وأن يهودياً في الحادية والعشرين من عمره هو صاحب الفضل في بعثته من مرقد(73). وأدى جميع المشاركين في اللحن أدوارهم دون أن ينقضوا أجراً. وزاد مندلسون على هذا الإحياء بتضمين معزوفاته ألقاناً أخرى لباخ. وفي 1830 نزل فترة ضيفاً على جوته، فشغله جوته بطلبه عزف ألحان باخ. ووافق هذا الأحياء ظهور الحركة الرومانسية، وتجديد الإيمان الديني بعد حروب نابليون، وزال سلطان الواقعية؛ فقد ارتبطت الثورة (الفرنسية) المجرمة، وبـ "ابن الثورة"، ذلك الرجل الرهيب الذي طالما أذل ألمانيا في ساحات القتال. وكانت ألمانيا الآن ظافرة، فشارك حتى هيجل في الإشادة ببياخ بطلاً للأمة. وفي 1837 دعا روبرت شومان إلى نشر أعمال باخ نشراً كاملاً، وفي 1850 تألفت "جماعة باخ"، وجمعت مخطوطات باخ من كل مصدر، وفي 1851 صدر أول مجلد، وفي 1900 صدر المجلد السادس والأربعون والأخير. وقال برامز أن أعظم حدثين في التاريخ الألماني

وقعا في عهده تأسيس الإمبراطورية الألمانية، ونشر ألحان باخ الكاملة (74). وهذه الألحان تؤدي اليوم أكثر من ألحان أي ملحن آخر، ويتقبل العالم الغربي كله تقدير باخ بأنه "أعظم شاعر موسيقي عاش إلى اليوم".

صفحة رقم : 12243

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

الفصل الثالث عشر

فردريك الأكبر وماريا تريزا

1- استهلال إمبراطوري

1740-1711

يبدو أن فولتير كان أول من لقب فردريك بـ "الأكبر" منذ عام 1742 (1) Frederiv Le Grand وكانت العبارة جزءاً من ميثاق الإعجاب المتبادل دام عشرة سنين بعد ذلك التاريخ. ولكن إذا جاز التاريخ أن ينحو نحو الشاعر هويتمان في التهليل للمهزومين بنفخ الأبواق، حق له أيضاً أن يلقب ماريا تريزا بالكبيرة، لأنها كانت واحدة من عدة ملكات ففن في العصور الحديثة معظم الملوك وأزريين بهم.

ولنبداً حديثنا عنها من خلال خليفاتها. فقبل أن تولد بست سنوات ارتقى أبوها الهابسبورجي (1711) عرش "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" وتسمى شارل السادس. وكان رأي فولتير في هذه الدولة أنها لا تملك واحدة من هذه الصفات الثلاث، ولكنها لا تزال إمبراطورية، تكسوها مهابة تسعة قرون. وضمت هذه الدولة التي حكمت من فيينا حكماً واهناً النمسا، والمجر، وبوهيميا (تشكسلوفاكيا) واستراليا، وكارنثيا، وكارنيولا، والتيرول؛ وفي 1715 بسطت سلطانها على الأراضي المنبسطة الإسبانية السابقة، التي نعرفها الآن باسم بلجيكا، ولم تكن الدويلات الألمانية فيها خاضعة للإمبراطور إلا بالاسم، أما المدن الحرة الألمانية فقد اعترفت بسلطته في شؤونها الخارجية، وكانت بوهيميا الآن في اضمحلال، فقد أشاع فيها الفوضى التعصب الديني واستغلال الملوك الغائبون عن أرضها وأكثرهم يتكلمون لغة أجنبية، أما المجر فكانت قد عانت من كونها أهم منطقة للصراع بين المسيحيين والعثمانيين، عبرها أكثر من عشرة جيوش واستهلكوها؛ وتقلص عدد سكانها، واستشرت الفوضى في حكومتها. ورفضت طبقة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

من النبلاء كبيرة العدد حربية النزعة، لم تعد مجرية الجنس إلا في قسم منها، أن تدفع الضرائب الإمبراطورية، وكرهت الحكم النمساوي. ولم يكن يملك أرضاً في المجر سوى النبلاء والكنيسة، فقسماها ضياعاً شاسعة يفلحها الأبقان، وجنبا منها الدخول التي بنيا بها كبار الأديار والقلاع والقصور، ورعا الموسيقى والفن. وكان بعض النبلاء يمتلك خمسين ألف فدان للواحد، وكانت أسرة استرهازي تملك سبعة ملايين فدان(2). أما النمسا نفسها، اكبر المستقيدين في الإمبراطورية، فكانت تنعم بالرخاء. فبينما لم يزد سكان المجر على مليونين، بلغ سكان النمسا زهاء 6.100.000 في 1754 زادوا إلى 8.500.000 في 1800. وفيها هي أيضاً كانت الأرض ملكاً للنبلاء أو الأكليروس يفلحها الأبقان؛ وقد عمرت القنية في النمسا حتى 1848. وكان شأن الضياع فيها شأنها في إنجلترا يحتفظ بها ملوكها كاملة بحق البكورة، الذي يقضي بأن تورث الأرض كلها للابن البكر، أما الأبناء الأصغر منه فيعوضون بوظائف في الجيش، أو الكنيسة، أو الإدارة؛ وهكذا بلغت حاشية الإمبراطور شارل السادس أربعين ألفاً، ولم يكن في النمسا طبقة وسطى غنية تتحدى سلطان الأرسقراطية الطاعي أو تخفف من دمها الأزرق. وكانت الزيجات مسألة بروتوكول. وأبيحت الخليلات والعشاق بقانون غير مكتوب، على ألا يجاوز هذا نطاق الطبقة. وقد كتبت الليدي ماري مونتايجو من فيينا في 1716، ربما بما يعهد في الرحالة من مبالغات، فقالت:

"من العادات الراسخة أن يكون لكل سيدة نبيلة زوجان، إحداهما حامل الاسم والآخر القائم بالواجبات، وهذه الارتباطات معروفة جداً حتى أن القوم يعدونها إهانة صريحة تشجب علناً أن تدعو امرأة من علية القوم إلى الغداء دون أن تدعو في الوقت ذاته تابعيها هذين... العشيق والزوج اللذين تجلس هي بينهما رسمياً في وقار شديد... والمرأة تتطلع إلى عشيق حالما تتزوج باعتباره جزءاً من حاشيتها(3)."

وكانت الطبقة الأرسقراطية، في جميع أرجاء هذه الدولة التي كانت تتحول

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

الآن إلى إمبراطورية نمساوية-مجرية تعمل ويدها في يد الكنيسة. ولعل النبلاء تقبلوا اللاهوت الكاثوليكي في شئ من التحفظ والارتياب، وكان العديد منهم ماسونا(4). ولكنهم سخوا شاكرين على دين أعان بمثل هذه السماحة أبقانهم وبناتهم المجرديات من المهور على الرضى بنصبيهم في هذه الدنيا تعلقاً بالآخرة. وكان تنوع العقائد كفيلاً بتشويش هذه العملية لو أبيض لأنه مفض إلى الجدل والشك، أما التسامح الديني فهو ولا ريب من خطل السياسة. وقد جعل فيرميان رئيس أساقفة سالزبورج الحياة في رئاسة أسقفيته عسيرة على البروتستنتت عسراً حمل ثلاثين ألفاً منهم على

الهجرة، فنزح معظمهم إلى بروسيا (1722-23) (5) حيث شدوا من أزر عدو النمسا الصاعد. كذلك أسهمت هجرات أو حركات طرد مماثلة من بوهيميا في الاضمحلال الاقتصادي لتلك الدولة التي كانت يوماً ما تعزز باستقلالها، وعملت على تقدم ألمانيا البروتستنتية.

وشارك الأغنياء والفقراء في تمويل عمارة العصر الكنيسة. ففي براغ أكمل كيليان اجناز دينتسنهوفر أعظم المعماريين التشيكيين، في عمارة ضخمة فخمة، كنيسة القديس نيقولا التي بدأها كريستوف دينتسنهوفر. وترك يوهان برنارد فيشر فون إرلاخ، أعظم المعماريين النمساويين، بصمته على سالزبورج، وباغ، وروما، وشيد هو وابنه يوزف إيمانويل رائعة من الباروك في كنيسة القديس شارل بفينا. وأبرزت الأديار الفخمة مجد الله ورفاهيات العزوية. فكان هناك مثلاً الدير البندكتي في ملك على الدانوب حيث نشر ياكوب برانتاوير ومساعدوه (6) مجمعاً يشتمل على مبان، وأبراج، وقبة، وفي داخله القصور الفخمة والأعمدة الرائعة، والزخرفة الفاخرة. وهناك دير القساوسة الأوغسطينيين القديم في دورنشتين الذي أعاد بناءه (7) بالباروكة الأنيق يوزف مونجناشت، ويلاحظ أن أهم مفاخره -البوابة الرئيسية والبرج الغربي- من إنتاج متياس شتايندل، وهو مثال اتجه إلى العمارة وهو في الثامنة والسبعين. وهناك كنيسة الدير البندكتي وكتبته في آلتنبورج (وبانيهما هو مونجناشت أيضاً) وهما مشهورتان بالزخارف المترفة. وهناك دير الرهبان البندكتيين في تسفيتل،

صفحة رقم : 12246

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

وهو من آثار القرن الثاني عشر، وقد أقام فيه مونجناشت وشتايندل واجهة جديدة وبرجاً ومكتبة (9). أما الخورس الرابع فكان من صنع مايستريوهان في 1343-48؛ هنا أظهر الطراز القوطي القديم تفوقه على الباروك الجديد. ثم هناك دير ستامز في التيرول الذي أعاد بناءه (10) جيورج جومب، والذي تميزه المصبغات الحديدية والزخارف الجصية في بيت سلم "الأحبار"؛ وهنا كان يدفن أمراء الهابسبورج. وهناك كنيسة الدير في هوتسوجنبورج، وهي الرائعة التي أبدعها فرانتس بن يوزف مونجناشت، في حياته القصيرة (1724-48). وهناك كنيسة الدير في فيلبيرنج، التي قيل فيها أنها "أبدع بناء بطراز الروكوك في النمسا" (11). ونلاحظ في مرورنا هنا الأرغن الرائعة في هذه الكنائس كالتي في هوتسوجنبورج وفيلبيرنج، والمكتبات الجميلة؛ ومن نماذجها مكتبة الدير البندكتي في آدمونت، المحتوية على 94.000 مجلد، 1.100 مخطوطة في هيكل من الزخرف الباروكي. لقد كان رهبان النمسا في قمة مجدهم في عصر الإيمان المتداعي الذي نحن بصدد.

وقد جارهم النبلاء بنفس الخطو. ففي النمسا والمجر، كما في ألمانيا، كان كل أمير يتوق إلى ضريب لفرساي؛ ومع أنه عجز عن منافسة ذلك البهاء المفرط فإنه جمع من الأسلاب ما أتاح له بناء "قصر" palais (كما كان يسميه) يعكس كل جانب ومظهر فيه سمو مكانته. فشاد أوجين أمير سافوي قصراً صيفياً على مستويين في ضيعته خارج فيينا "بلفدير واطى" (وهو الآن متحف الباروك) و "بلفدير عالي" وضع تصميمهما الجميل يوهان لوكاس فون هلدبرانت. وصمم يوهان برنارد فيشر فون إرلاخ قصر الأمير الشنوي (وتشغله الآن وزارة المالية) كذلك وضع تصميمات لقصر شونبرون وحدائقه لينافس بهما فرساي، ولكن البناء الفعلي الذي بدأ في 1696 أغفل هذه التصميمات أو خفف منها أثناء تنفيذه. وصمم فيشر فون إرلاخ وابنه يوزف إيمانويل المكتبة الإمبراطورية-وهي المكتبة القومية الآن-التي يرى أخصائي في فن الباروك أن بها أبداع بناء داخلي لأي مكتبة في العالم (12). وفي 1726 فتح شارل السادس هذا الكنز للجمهور وفي 1737



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

اشترى لها مجموعة المخطوطات والكتب الهائلة التي كان يمتلكها أوجين أمير سافوي. لقد كانت فيينا، إلى حد كبير، أجمل مدينة في دولة الجerman. وقد جعل أكثر العمارة النمساوية بالنحت. ونذكر هنا بجهل خجول تمثال "المسيح المصلوب" الخشبي الذي صنعه أندريه تاماش في دير شتامز، وتمثال الإمبراطور فرانسيس الأول الرخامي الذي تحته بلقازا مول والمعروض في متحف الباروك بفيينا؛ وفي وسعنا أن نستشعر على البعد تقاني يوزف شتامل في فنه، إذ أنفق معظم حياته في تجميل دير آدمونت بالتماثيل. ولكن كيف يغتفر لنا كل هذا الإبطاء في التنويه بجيورج رافائيل دونير مثالا لا يفوقه بين مثالي العصر غير برنتيتي؟ فقد ولد في اسلنجن بمنخفضات النمسا (1693) وتلقى فنه على يد جولياني؛ وبفضل هذه الوصاية الإيطالية اكتسب الميل الكلاسيكي الذي أتاح له تنقية ما في الباروك النمساوي من إسراف. على أن تمثاله الرخامي "تمجيد شارل السادس" (13) ما زال يعاني من غرابة الباروك وشططه-ففيه يرى الإمبراطور وقد رفعه إلى السماء ملاك له ساقان خميلتان وثديان متألقان؛ ومع ذلك فنحن شاكرون للفن أن أعاد للصاروفيم (الملاك) شيئا ملموسا-هو الذي خالته الفلسفة مجرداً من الجسد. ومن آيات دونير الجديرة بعصر النهضة تمثاله "القديس مارتن والشحاذ" في كاتدرائية برسبورج (براتيسلافا)، ولمنحوتته الرخامية البارزة "هاجر في البرية" (14) جمال كلاسيكي ناعم. وقد بلغ أوجه في التماثيل التي صبها من الرصاص لنافورتن كبرنتين في فيينا: نافورة "العناية الإلهية" في السوق الجديدة، التي تمثل أنهار النمسا، ونافورة أندروميذا التي تتنافس نافورة روما. وقبل أن يموت في 1741 بعام بالضبط صب لكاتدرائية جورك مجموعة تمثل بكاء مريم على جسد المسيح؛ وهي مجموعة كانت خليفة بأن تشيع البهجة في صدر رافائيل لأن دونير اتخذ اسمه.

ولم ينتج المصورون ولا الشعراء في هذا العصر في النمسا أو ممتلكاتها أي آثار تنثير اهتمام العالم الخارجي، وربما يستنتى من هذه القاعدة الصور الجصية التي صورها دانيل جران داخل قبة المكتبة الكبرى في فيينا. أما في الموسيقى فقد كانت فيينا المركز المعترف به للعالم الغربي. وكان شارل

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

السادس يعشق الموسيقى عشقاً لا يعلو عليه سوى حبه لبناته وعرشه. وقد لحن هو نفسه أوبرا، وصاحب فارينيللي عازفاً على البيان القيثاري، وقاد البروفات. وجلب لفيينا خيرة المغنين، والعازفين، والممثلين، ورسامي المناظر المسرحية، دون أن يعبا بالتكاليف. وفي إحدى المناسبات أنفق فيما قدرت الليدي ماري- ثلاثين ألف جنيه ليخرج أوبرا واحدة (15). وبلغ عدد المرتلين والعازفين في فرقة كنيسة 135. وأصبحت الموسيقى "إمبراطورية"، أو على الأقل أرسنقراطية. وفي بعض الأوبرات كان جميع المشاركين-ساء العازفين المفردين، أو الكورس، أو الباليه، أو

الأوركسترا - أفراداً من الطبقة الأرستقراطية. وفي إحدى هذه الحفلات كانت تقوم بالغناء في الدور الرئيسي الأرشيدوقة ماريا تريزا (16).  
وقيل أعظم كتاب نصوص الأوبرا في ذلك العهد الدعوة إلى فيينا. فأقبل أبوستولو زينو من البندقية في 1718، وعمل شاعراً لبلاط شارل السادس، وفي 1730 اعتزل في لطف مخلياً مكانه لبييترو تراباسي، النابولي الذي كان قد تسمى من جديد، "ميتاستاسيو". وفي السنوات العشر التالية كتب ميتاستاسيو بالإيطالية دائماً مسرحيات شعرية بلغ من قدرتها على إثارة العواطف أن كبار ملحنى أوبرا الغربية أسعدهم أن يلحنوها. ولم يضارعه أحد في تكييف الشعر وفق مطالب الأوبرا - أي في ملاءمة موضع نصه، وحرركته، ومشاعره، لمقتضيات المغنين المنفردين، والثنائيين، والمقاطع الملحونة، والكوارس، والباليهات، والمناظر المسرحية؛ ولكنه فرض لقاء ذلك على الملحنين التوافق الإيقاعي بين موسيقاهم ومسرحيته. وعظم نجاحه حتى خشي فولتير أن تطرد الأوبرا الدراما من المسرح، وقال "إن هذا الوحش الجميل يخنق مليونين (ربة التراجيديا)" (17).

وتربع شارل السادس على عرش كل هذه الموسيقى، والفن، والبلاط المتعدد اللغات، والإمبراطورية، بيد مبسوطه، وقلب رحيم، وحزن رجل الحرب. ذلك أن قواده لم يستطيعوا أن يتبعوا عصا قيادته، وحين طالبهم بأغاني الفرح لم يعطوه غير المآسي. لقد جرت ريح الحرب مع النمسا رخاء ما دام أوجين أمير سافوي محتفظاً بقوة ذهنه وسلطانه، وهو الذي

صفحة رقم : 12249

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

شارك مليونه صد جيوش لويس الرابع عشر؛ فانتزعت بلغراد من العثمانيين، وسردانيا من سافوي، وميلان ونابلي والأراضي المنخفضة الإسبانية من أسبانيا. وورقي أوجين لا قائداً عاماً لجميع الجيوش النمساوية فحسب، بل وزيراً أول ومديراً للدبلوماسية. والواقع أنه بسط سلطانه على كل شئ إلا الأوبرا، ولكنه - وقد أذعن للناموس الذي يبلي أجساد البشر - أصاب الوهن عقله لا جسمه فحسب. وفي حرب الوراثة البولندية (1733-35) انزلت النمسا إلى صراع مع فرنسا، وإسبانيا، وسافوي (التي كانت تعرف آنئذ بمملكة سردانيا الصغيرة) وخسرت اللورين، ونابلي، وصقلية (1735-38)، وأسفر تحالفها مع روسيا عن حرب أخرى مع تركيا؛ وضاعت منها البوسنة، والصرب، والأفلاق، وعادت بلغراد تركية من جديد (1739). ولم يؤت الإمبراطور من المواهب ما يعوض به المواهب التي افتقدتها معاونوه. وإليك رأى فردريك الأكبر فيه:

"أخذ شارل السادس من الطبيعة الصفات التي تصنع المواطن الصالح، ولكنه لم يأخذ صفة من تلك التي تصنع الرجل العظيم. كان سمحاً دون تمييز، له روح محدودة دون بصيرة ثاقبة؛ وكان قادراً على الانكباب على العمل، ولكن دون عبقرية، يجهد نفسه دون أن ينجز الكثير، ويجيد معرفة القانون الألماني، وعدة لغات، وقد نبغ في اللاتينية على الأخص. وكان أباً صالحاً وزوجاً صالحاً، ولكن شاباً ما شاب جميع أمراء البيت المالكة النمساوي من تعصب وميل للخرافة" (18).

وكان عزاءه وفخره في كبرى بناته ماريا تريزا، التي وطد العزم على توريثها عرشه؛ ولكن أباه ليوبولد الأول كان قد أيرم (1703) "ميثاقاً متبادلاً للوراثة" تقرر فيه أن يحكم الوراثة مبدأ حق الابن البكر؛ فإذا لم يوجد وريث ذكر انتقل التاج إلى بنات ابنه جوزيف (المولود في 1678) ثم إلى بنات ابنه شارل (المولود في 1685). وترك موت جوزيف الأول في 1711 دون وريث ذكر (ولكن بابنتين على قيد الحياة) التاج لشارل. وفي 1714 بمقتضى "أمر عال" أصدره شارل لمجلسه الخاص، أعلن مشيئته بأن ينتقل عرشه وأملكه الشخصية بعد وفاته إلى أكبر أبنائه الحي،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

فإذا لم يكن هناك ابن على قيد الحياة فإلى كبرى بناته. وقد ولد ابنه الوحيد ومات عام 1726. وبعد أن انتظر شارل عبثاً إنجاب آخر، ناشد الدولة الأوربية أن تتفادى نشوب حرب وراثية بقبولها وضمانها الجماعي لنظام الوراثة الذي وضعه. وفي الأعوام الثمانية التالية قبلت أمره العالي أسبانيا، وروسيا، وبروسيا، وإنجلترا، وهولندا، والدنمرك، وإسكندناوه وفرنسا.

ولكن مصاعب نشبت فصنعت كثيراً من التاريخ. ذلك أن سكسونيا وبافاريا كان على قيد عرشيهما أميران متزوجان من ابنتي جوزيف أخي شارل، فطالبوا الآن بوراثة عرش الإمبراطورية عملاً بميثاق ليوبولد الأول، أما فردريك وليام الأول ملك بروسيا فوافق على أساس تأييد شارل له في مطالبته بجزء من دوقيتي يولش وبرج ويبدو أن شارل وافق على هذا الشرط ولكن سرعان ما بذل لمنافسي فردريك ليم وعوداً عكس هذا الوعد. وعليه انضم ملك بروسيا إلى أعداء الإمبراطور (19).

وفي 1736 تزوجت ماريا تريزا من فرانسيس ستيفن، دوق اللورين، وغاندوق توسكانيا فيما بعد (1737)، وهي في الثامنة عشرة من عمرها. وفي 20 أكتوبر 1740 مات شارل السادس، مختتماً بموته فرع الذكور في بيت هابسبورج. واعتلت ماريا تريزا العرش بوصفها أرشيدوقة النمسا وملكة بوهيميا والمجر. وأصبح زوجها شريكاً لها في الحكم، إذ لم يبد كبير اكتراث بشئون الدولة أو كفاءة تذكر للقيام عليها فقد وقع عبء الحكم كله على عاتق الملكة الشابة. وكانت في عام 1740 تملك كل مغانن الأنوثة والملك؛ قسمات بديعة، وعيون زرق متألقة، وشعر أشقر غزير، ورقة في السلوك، وخفة في الحركة، ومتعة العافية، وحبوية الشباب (20). وكان نكاؤها وخلقها يفوقان هذه المغانن كلها قسراً عن التصدي للمشكلات التي أهدقت بها من كل جانب. وكانت الآن حاملاً في شهرها الرابع بالطفل الذي سوف يخلفها باسم جوزيف الثاني "المستبد المستنير". ونازعها حقها في العرش كل من شارل ألبرت ناخب بافاريا، وفردريك أوغسطس الثاني ناخب سكسونيا، وناصر حزب قوى فيينا القضية البافارية، ولم يكن هناك تأكيد بأن المجر ستعترف بها ملكة عليها، ولم تتوج بهذا الوصف حتى 24

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال إمبراطوري

يونيو 1741. أما خزنة الإمبراطورية فخاوية إلا من 100.000 فلورين، زعمت الإمبراطورة أرملة شارل السادس أنها ملك لها. وكان الجيش مختل النظام، وقواده تعوزهم الكفاية. وكان مجلس الدولة مؤلفاً من أعضاء مسنين فقدوا القدرة على التنظيم أو القيادة. وانتشرت الشائعات بأن العثمانيين سيزحفون مرة أخرى على فيينا بعد قليل (21). وطالب فليب الخامس ملك أسبانيا بالمجر وبوهيميا، وملك سرداينا بلمبارديا ثمناً لاعتراضهما بها (22). أما فردريك

الثاني الذي أصبح ملكاً على بروسيا قبل تولي ماريا تريزا العرش بخمسة شهور فقط، فقد بعث إليها يعرض الاعترافات بها والدفاع عنه ودعم انتخاب زوجها إمبراطوراً، شريطة أن تنزل له عن الشطر الأكبر من سيليزيا، فرفضت العرض، ذاكراً ما كان أبوها يرجوه من بقاء المملكة سليمة لا تجزأ ولا يمسه سؤ. وفي 23 ديسمبر 1740 غزا فردريك سيليزيا، ووجدت المملكة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً نفسها تخوض حرباً مع أقوى دولة في ألمانيا، ومع الرجل الذي قدر له أن يكون أعظم قائد في عصره.

صفحة رقم : 12252

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

2- استهلال بروسي

1713 - 1740

أ- فردريك وليم الأول

كانت أسرة هوهنتسلرن قد نجحت في رفع إمارة برندنبورج الناخبة إلى مملكة بروسيا في 1701، وأصبح أميرها الناخب ملكاً باسم فردريك الأول. وقد أوصى بأن يرث ملكه بعد موته ابنه فردريك وليم الأول (حكم 1713-40). وكان الملك الجديد، عن طريق زوجته صوفيا دورتيا، صهرراً لجورج الأول الذي ارتقى عرش إنجلترا في 1714. وكانت أملاك بروسيا تشمل بروسيا الشرقية، وبومرانيا السفلى، وإقليم الحدود المسمى برندنبورج (والمحيط برلين) وإقليم كليفز في غربي ألمانيا، وكونتية مارك، ومدينة رافنبرج في وستفاليا: وكلها أخلاط مفككة من البلاد تمتد امتداداً متقطعاً من الفستولا إلى الألب، ولا تربط بينها غير قوات الملك. وبلغ سكان "بروسيا" هذه في 1740 نحو 3.300.000 زادوا إلى 5.800.000 في نهاية القرن، أما بنيانها الاجتماعي فكان إقطاعياً

صفحة رقم : 12253

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

في أساسه: فلاحون يدفعون الضرائب والفروض الإقطاعية، وطبقة وسطى ضعيفة، وطبقة نبلاء تطالب بإعفائها من الضرائب ثمناً لتزويد الملك بالعون الحزبي. وكانت رغبة فردريك وليم الأول في التحرر من الاعتماد على هؤلاء النبلاء بعض ما دعاه إلى تنظيم جيش دائم سيقدر التاريخ السياسي لأوروبا الوسطى طوال نصف قرن. كان فردريك وليم حاكماً شاذاً شذوذ ابنه الأشهر منه، الذي يرجع معظم الفضل في انتصاراته لجيش أبيه. ولم يوهب الوالد ولا الولد شخصية جذابة ساحرة، ولم يسترضي إحداهما العالم بجمال طلعتة أو لطف ابتسامته، بل واجهه كلاهما بسحنة أمرة صارمة تسوس الجيوش: كان الأب قصيراً بديناً، له وجه متورد تحت قبة مثلثة، وعينان تنفذان إلى صميم كل زيف وصوت يعلن عن إرادة صاحبه، وكان على استعداد لطحن كل مقاومة. وإذا كان شهية طيبة دون أن يكون ذواق للطعام، فقد طرد طاهيه الفرنسي، واكل طعام الفلاحين؛ وكان يستهلك الكثير في وقت قصير دون احتقال يذكر لأنه كان في شغل عن هذا بعمله. ورأى نفسه سيد الدولة وخدامها، فعكف على تصريف شؤون الحكم في أمانة وسخط، لأنه وجد فيها الكثير المعوج المنحرف، فأقسم أن يقومه بالقوة. واختصر إلى النصف عدد كبار الموظفين المغرورين الذين عطلت سلطاتهم المتضاربة عمل الحكومة، وباع ما ورثه من مجوهرات، وخيول، وأثاث فاخر، واختزل مظاهر بيت الملك إلى بساطة بيت المواطن من أهل المدن، وجمع الضرائب أينما أمكن تنميتها، وخلف لفردريك الثاني خزانة مملوءة إلى حد مغر.

وأراد من كل إنسان أن يكذب ويكذب مثله، فأمر موظفي البلديات بأن يراقبوا أخلاق السكان، ويبشروا بالجد والاقتصاد، وأن يودبوا المتشردين بالأشغال الشاقة وبسط إشراف الدولة على التجارة والصناعة، ولكنهما وجدنا التشجيع في تحسن حال القنوات والطرق. وفي 1722 أصدر الملك البيقظ أمراً يقرر التعليم الإلزامي ففرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة، فما وقت سنة 1750 حتى كانت بروسي تنتصر أوروبا كلها في التعليمين الابتدائي والثانوي (23). وألقيت البذرة لعصر كانت وجيته.

صفحة رقم : 12254

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

وحيث تبين فردريك وليم أن الأتقياء من الناس يعملون بأثبت مما يعمل الشكاك، أيد الحركة التقوية. وتسامح مع الكاثوليك على مضمض وأخبر الكلفنيين بأن يكفوا عن التبشير بكأية مذهبهم الجبري، وأمر اللوثرين بأن يستعملوا الألمانية بدل اللاتينية في طقوسهم، وأن يقلعوا عن ارتداء المدرعات "والبطرشيات" وعن رفع القربان أمام المصلين، باعتبار هذه كلها من مخلفات البابوية. ولما أكره رئيس أساقفة سالزبورج خمسة عشر ألف بروتستنتي على الهجرة، رحب بهم فردريك وليم وأقرضهم المال رحلتهم التي قطعوا فيها خمسمائة ميل، وأجر لهم الأراضي (ولم تكن من خيرة أرضه) إلى أن توتى أرضهم غلاتها. واستقدم خمسة عشر ألف مهاجر آخرين من سويسرا والدويلات الألمانية. وهكذا ردت بروسي إلى الحياة الاقتصادية بعد أن دمرتها حرب الثلاثين.

كانت الرغبة العارمة التي دفعت الملك إلى هذا النشاط هي تأمين الأمة في عالم لا يكف عن الحرب. فحين تقلد فردريك وليم السلطة كانت الحرب الشالية الكبرى ما تزال مستقرة، تشنك فيها السويد، وروسيا وبولندا، والدنمرك، وسكسونيا، وبعد قليل إنجلترا، وكانت العبرة الواضحة من هذه الحرب أنه لا غنى عن جيش قوي للسلم، وسط عالم يسوده السطو المؤمم. وكان ملك بروسي تواقاً إلى الحصول على سنتن ثغراً لتجارة برلين، فاشترها بمبلغ 400.000 طالر من الدول التي انتزعتها من شارل الثاني عشر. ولكن شارل رفض عقب عودته من تركيا أن يعترف بهذا البيع

لبضاعة مسروقة، فعرض فردريك وليم أن يردها للسويد نظير الـ 400.000 طالر التي دفعها، ولم يكن شارل يملك المال، ولكنه أصر على استرداد سنتن، فأعلنت بروسيا الحرب عليه (1715) وانضمت إلى أعوانه في حصار شتر الزوند. وفر شارل إلى السويد ونصف العالم ضده، وأدركه الموت هناك. وعاد فردريك وليم إلى برلين وسنتن في جيبه، وبريق الانتصار في عينيه. بعد هذا أصبح الجيش شغله الإداري الشاغل. ولم يكن بالرجل العسكري النزعة تماماً، ولا كان مقاتلاً قط، ولم يخض حرباً بعد ذلك بتاتا، ولكنه

صفحة رقم : 12255

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

عقد العزم على ألا يخوض أحد حرباً ضده وهو في مأمن. فلقد كان هذا الرجل الذي بنى أشهر جيش في ذلك القرن "من أعظم الملوك حياً للسلام" (24) وهو القائل "أن مبدئي ألا أؤدي أحداً، على ألا أسمح بأن يستهين بي أحد" (25) ومن ثم راح يجمع الجند، ويطلب أطول من يجد منهم قامة في ولع شديد؛ وكان يكفي للظفر بمودته أن يرسل له إنسان رجلاً طوله ستة أقدام على الأقل وكان الملك يسخو في دافع ثمنهم ويبتهج قلبه لقوامهم الفارع. ولم يكن أكثر جنوناً بالجيوش من زملائه الملوك، إلا فيما يتصل بطول الجندي. فقد كان لفرنسا مثلاً في 1713 من الجند النظاميين 160.000، ولروسيا 130.000، وللنمسا 90.000 (26). ولكي يرفع فردريك وليم عدة جيشه إلى 80.000 في بلد لا يزيد سكانه على ثلاثة ملايين، جند الجند من الخارج وفرض التجنيد الإجباري في أرض الوطن، وقام الفلاحون وسكان المدن الإكراه على الخدمة العسكرية، فكانوا يؤخذون بالحيلة أو القوة؛ وحدث مرة أن اقتحم ضابط من فرق التجنيد كنيسة وساق أطول الرجال وأقواهم رغم توسلاتهم (27). (ولنذكر أننا نحن أيضاً نفرض التجنيد الإجباري) وكان الرجال إذا انخرطوا في سلك الجندية يجدون الرعاية الطيبة، ولكنهم أخضعوا لنظام قاس وتدريب شاق؛ وكان الجلد هو العقاب حتى لصغار الذنوب. وطبق التجنيد الإجباري على النبلاء أيضاً، ففرض على كل نبيل سليم البدن أن يخدم في الجيش ضابطاً ما دام يطبق الخدمة العسكرية. وكان هؤلاء الضباط يدرّبون تدريباً خاصاً، ويخصهم الملك بالتكريم. فأصبحوا طبقة حاكمة يحتقرون التجار، والمعلمين، ورجال الدين، والطبقات الوسطى عامة، وينظرون إليهم نظرتهم إلى طبقات دنيا مستضعفة، وكثيراً ما كانوا يعاملونهم بوقاحة وتقاهر، أو بوحشية وضراوة. ولكنهم درّبوا المشاة والمدفعية والفرسان في تشكيلات دقيقة وحركات طيبة لم يعرفها قط أي جيش حديث آخر في أغلب الظن. وشارك الملك ذاته في هذه المناورات العسكرية، وأشرف على تدريب جنوده في تدقيق وحب؛ فلما ولى فردريك الثاني العرش

صفحة رقم : 12256

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

وجد تحت إمرته قوة الرجال مهيأة للخدع الحربية والغنائم، متجاهلة في لحظة كل دروس السلام التي تعلمها الأمير من الفلسفة.

ب- فرتر الصغير

كان "جاويش تدريب الأمة البروسية العظيم" (كما وصف كارليل فردريك وليم الأول)(28)، أباً لعشرة أطفال أكبرهم فلهمينا. والمذكرات التي خلفتها عند وفاتها (1758) هي أكثر مصادرنا مباشرة ووثوقاً عن تاريخ أخيها الباكر. وربما أسهبت بتركيز انتقائي في ذكر قسوة مربيتها، وأنانية أمها الجافية، ووحشية أبيها، وأوامره الاستبدادية في أمر زواجها، ومعاملته الصارمة للفتى فرتر الذي أحبته مفعرة وعزاء لحياتها(29). قالت "لم يوجد حب نظير حبنا الواحد للآخر لقد أحببت أخي حباً جماً وحاولت على الدوام أن أدخل السرور على قلبه"(30). وكان فردريك، المولود في 24 يناير 1712، يصغرها بثلاثة أعوام. ولم يرضى عنه أبوه ولا أمه. قد جهدا ليصنعا منه قائداً وملكاً، أما هو فأبدى كل إمارة على أنه سيصبح شاعراً وموسيقياً. وبين أيدينا التعليمات التي أعطاها فردريك وليم لمعلمي ولده. قال:

"اغرسوا في ولدي ما يجب من محبة الله وخشيته باعتبارهما الأساس والركن الركين لخيرنا الزمني والأبدي. فلا تذكروا على مسمعه أبداً أي أديان زائفة أو مذاهب إلحادية، أو أريوسية، أو سوسينية، أو ما شاكل ذلك من أسماء لهذه السموم التي تستطيع إفساد العقل الحدث بسهولة كبيرة (وقد أصبح فردريك كل هؤلاء). ومن ناحية أخرى يجب أن يعلم ما يجب من استنكار للبابوية وبصر بما تقتقر إليه من أساس وما فيها من سخف... وليتعلم الأمير الفرنسية والألمانية... دون اللاتينية... وعلومه الحساب، والرياضة، والمدفعية، والاقتصاد، بتعمق... والتاريخ على الأخص... وكلما شب زيدوه علماً بالتحصينات، وتشكيل المعسكر، وغير ذلك من علوم الحرب، ولكي يدرّب الأمير منذ صباه على أن يعمل ضابطاً وقائداً... اغرسوا في ولدي الحب الصادق لمهنة الجندي. وأقنعوه

صفحة رقم : 12257

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تيريزا -> استهلال بروسي

بأنه لما كان السيف هو الشيء الوحيد الذي يكسب الأمير الشهرة والشرف، فإنه سيكون محتقراً من جميع الناس إذا لم يحبه ويلتمس فيه فخره الوحيد"(31). ولو أفسح للأب في أجله بما يكفي لتاه فخرأ بولده جندياً وقائداً، ولكن كل شيء بدا وكأنه يسير في طريق خطأ خلال سنوات التلمذة تلك. فقد كان الغلام ذكياً، ولكنه لم يهتم قط بالهجاء. احتقر اللغة الألمانية وأحب لغة فرنسا وأدبها موسيقاها وفنها. وأحب أن ينظم الشعر الفرنسي، وواصل هويته تلك إلى آخر عمره. وكان الملك الشيخ يستشيط غيظاً إذا رأى ولده ويده كتب فرنسية، ويزداد غضبه حين يجده يعزف على الفلوت. وجاء يوهان كوانتش، عازف الفلوت في بلاط سكسونيا، إلى برلين ليعلم الصبي خفية بناء على طلب أمه. وكان كوانتش إذا سمع الملك يدنو يخنثي في خزانة، ويقلب فردريك روجه الفرنسي إلى ستره حربية، ولكن الأب كان يثور لمرأى الكتب الفرنسية ملقاة هنا وهناك، فأمر الخدم أن يرسلوها إلى بائع كتب، فبيعها خير من حرقها. ولكن الخدم لم يفعلوا هذا ولا ذاك، بل خبأوا الكتب، وبعد قليل أعادوها للأمير.

وبذل الشيخ قسارى جهده الذي اختلطت فيه محبة الأب بغضبه ليجعل الصبي مقاتلاً فاصطحبه في رحلات صيده، وخشنه بحياة الخلاء، وعوده الخطر والركوب والوعر، وألزمه العيش على الطعام الزهيد، والنوم القليل، ووكّل إليه أمور فوج في جيشه، وعلمه أن يدرب جنده، وأن يرقى بطارية مدفعية، وأن يطلق المدافع. وتعلم فردريك هذا كله، وأبدى قدراً كافياً من الشجاعة، ولكن الأب تبين بغضب متزايد أن الفتى، الذي بلغ الآن السادسة عشرة راح يكون صداقة حميمة مريبة مع ضابطين شابين هما الكابتن فون كاتي والملازم كابت. وكان كاتي واسع الاطلاع كثير الرحلات، ورغم ما تركه الجدري على وجهه من ندوب، فإن "تهذيب عقله وسلوكه" كما قالت فلهمينا "جعله رقيقاً لطيفاً جداً... وكان يفخر بأنه حر الفكر. وتأثير كاتي هو الذي دمر كل إيمان ديني في صدر أخي" (32). ولم يستطيع فردريك وليم أن يستجيب لهذه التطورات المنحرفة في ابنه

صفحة رقم : 12258

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

البكر إلا بالغضب والعنف. وكان ديدنه استعمال العصا مع خدمه، فهدد باستعمالها لتأديب ولده. وكانت فلهمينا خلال ذلك تقاوم خططه لتزويجها لحليف سياسي قوي؛ وبدا أن الولد والبنات أرسلهما القدر ليخيبا كل أماله. "لقد بلغت ثورة أبي على أخي وعليّ مبلغاً جعله يقصينا عن حضرته فيما عدا ساعات الطعام. وحدث ذات مرة أن الملك قذف رأس أخي بطبقه، وكان يمكن أن يصيبه لولا أنه حاد عنه، وفي مرة أخرى قذف الطبق عليّ وقد نجوت منه أنا أيضاً لحسن حظي، ثم انهال عليّ بوابل من السب والشتم... وإذ مررت أنا وأخي على مقربة لتبرح الحجرة دفع نحونا عكازه ليضربنا. ولم يكن يرى أخي قط دون أن يهدده بعصاه. وكثيراً ما قال لي فرتز إنه قد يحتمل كل معاملة سيئة إلا أن يضرب، فإذا بلغ الأمر حد الضرب فإنه سيهرب" (33).

وفي وسعنا أن نفهم بعض أسباب الغضب الذي استشعره الملك المسن. ذلك أنه كان قد تطلع إلى ترك ملكه هذا الذي أعاد تنظيمه لولد يواصل رعايته للجيش، ويقصد في النفقات، ويبني الصناعات، ويصرف شئون الدولة بأمانة واجتهاد، ولم يكن ممكناً أن نتوقع منه التنبؤ بأن ابنه هذا سيفعل هذا كله وأكثر منه. فهو لم يجد في "فريدريش" غير فتى وقح مخنث، يجعد شعره كالفرنسيين بدلا من أن يقصه كالجنود البروسيين (34)، وبمقت الجنود والصيد، ويهزأ بالدين، وينظم الشعر الفرنسي، ويعزف على الفلوت. فأني مستقبلي يمكن أن يكون لبروسيا إذا حكمها هذا الفتى الضعيف؟ وحتى التماساته للعفو بين الحين والحين يمكن أن يفسرها أبوه بأنها جبن منه. وذات مرة قال الملك لمن حوله بعد أن لكم أذني ولده إنه لو لقي هذه المعاملة من أبيه لضرب نفسه بالرصاص؛ ولكن فريدريش لا يملك الإحساس بالشرف وإنه على استعداد لاحتمال أي شيء (35).

وحاول الملك -إذا صدقنا الخبر الذي أنهاه فردريك إلى فلهمينا- أن يقتله في بوتسدام في ربيع 1730. قال: أرسل في طلبي ذات صباح. فما إن دخلت الحجرة حتى أمسك بناصيتي وطرحني أرضاً. وبعد أن ضربني بقبضته جرنني إلى النافذة وربط حبل

صفحة رقم : 12259



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

الستارة حول عنقي- وأتيح لي لحسن الحظ وقت للنهوض والإمساك بيديه، ولكنه جذب الحبل بكل قوته حول عنقي فشعرت بأنني أختنق وصحت مستغيثاً. وجرى تابع ليسعفني، واضطر إلى استعمال القوة لينقذني(36). وأسر فريدرش- الذي بلغ الثامنة عشرة- إلى فلهلمينا أنه ينوي الهروب إلى إنجلترا مع كاتي وكايت. فتوسلت إليه ألا يفعل، ولكنه أصر وكتمت سره في خوف، ولكن الملك الذي أحاط ولده بالجواسيس علم بأمر المؤامرة، وقبض على ابنه وابنته، وعلى كاتي وكايت (أغسطس 1730). وأطلق سراح فلهلمينا بعد حين وفر كايت إلى إنجلترا، ولكن فريدرش وكاتي حوكما أمام مجلس عسكري وحكم عليهما بالإعدام (30 أكتوبر). وأعدم كاتي في فناء قلعة كوسترين (وهي الآن كوسترزين في بولندا) وأكره فريدرش بأمر أبيه على أن يشهد منظر الإعدام من نوافذ زنزانته (6 نوفمبر). وفكر الملك في قطع رأس ولده، وفي جعل من يليه من أبنائه ولياً للعهد، ولكنه خشي الأصدقاء الدولية لهذه الفعلة، فراض نفسه على الإبقاء على حياة فريدرش. ومن نوفمبر 1730 إلى فبراير 1732 ظل الأمير يلزم كوسترن، في سجن محكم أول الأمر، ثم في حدود المدينة لا يبرحها، تحت رقابة مشددة طوال الوقت، ولكن "برلين كلها أرسلت إليه المؤونة لا بل أفخر الطعام والشراب"(37). في رواية فلهلمينا. وفي 15 أغسطس 1731، بعد عام من الفراق، جاء الملك ليرى ابنه، وقرعه ما شاء له التقريع، وقال له إن مؤامرة الهروب لو نجحت "لألقيت إلى الأبد في مكان لا ترى فيه الشمس أو القمر ثانية(38). جئنا فريدرش على ركبتيه والتمس الصفح من أبيه، وانهار الشيخ، وبكى، وعانقه؛ وقبل فريدرش قدمي أبيه(39). فأطلق سراحه، وبعث به في جولة بالأقاليم البروسية ليدرس اقتصادها وإدارتها. لقد غيرت سنوات صراعه مع أبيه تلك من خلقه وقسته.

أما فلهلمينا التي أهبها أن تترك سقف أبيها فقد قبلت يد هنري ولي عهد بايرويت. وبعد أن تزوجا في برلين(30 نوفمبر 1731) ذهبت إلى الجنوب لتصبح (1734) أميرة بايرويت، ولتجعل بلاطها يزخر بالثقافة.

صفحة رقم : 12260

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

وفي فترة سلطانها هناك تحول المسكن الأميري، وهو قلعة إيرميناج، إلى قصر ريفي (شانتو) من أجمل القصور الريفية في ألمانيا. وكان على فريدرش هو أيضاً أن يتزوج، رضى أم كره. وقد ساءه هذا الإلزام، وهدد قائلاً "لو أصر الملك على هذا فسأزوج طاعة له، ثم أدفع بزوجتي إلى ركن من الأركان وأحيا كما أشتي"(40). وعليه فقد قاد إلى مذبح الكنيسة (12 يونيو سنة 1733) إليزابيث كرسيتينا "أميرة برنزويك- بيفرن الجليلة" وكان يومها في الحادية والعشرين وهي في الثامنة عشرة، "جميلة جداً" كما قالت أم فريدرش لفلهلمينا ولكنها "بليدة كحزمة من القش-ولست أدري كيف ينسجم أخوك مع هذه الإوزة"(41). ومع أن فردريك تعلم في سنوات لاحقة أن يقدرها تقديراً كبيراً، إلا أنه في هذه الفترة تركها أكثر الوقت وحيدة تلتمس لنفسها السلوى. وذهبا ليسكننا في راينزيرج، على أميال شمال برلين. هناك بنى الزوج الأعزب لنفسه حصناً يلود به، وأجرى التجارب في الفيزياء والكيمياء، وجمع العلماء، والأدباء، والموسيقيين، من حوله، وتبادل الرسائل مع فولف، وفونتيل، وموبيرتيوي، وفولتير.

ورسائله مع فولتير من أعظم وثائق ذلك العهد كشفاً وإنارة: فهي تعبير أدبي رائع لشخصيتين بارزتين يتضاءل فيه فن أكبرهما سناً أمام واقعية الفتى المتفتح. كان فولتير الآن في عامه الثاني والأربعين، وفردريك في الرابعة والعشرين. وكان فولتير زعيم الأدباء الفرنسيين غير منازع، ولكن كاد يدير رأسه أن يتسلم من ولي عهد سيرتقي العرش بعد حين الخطاب التالي الذي كتبه من برلين في أغسطس 1736 وأرسله مع رسول خاص إلى الشاعر في سيريه: سيدي: مع أنه لم يتح لي سرور التعرف إليك شخصياً فإن ذلك لا يقلل من معرفتي بك من خلال أثارك. فهي كنوز عقلية إذا جاز القول، وهي تكشف

صفحة رقم : 12261

قصة الحضارة - < عصر فولتير - > أوروبا الوسطى - < فردريك الأكبر وماريا تريزا - > استهلال بروسي

للقارئ عن مواطن للجمال عند كل قراءة جديدة لها... ولو بعث الخلاف حول فضائل المحدثين والقدامى من جديد، لدان عظماء المحدثين لك، ولك وحدك، بالفضل في رجحان كفتهم... فلم يحدث قط أن نظم شاعر مسائل الميتافيزيقا في إيقاع منغم، وقد حفظ لك أنت شرف السبق في هذا المضمار. " وواضح أن فردريك لم يكن قد قرأ لوكرتيوس بعد، ربما لضالة إلمامه باللاتينية، ولكنه قرأ فولف، وأرسل إلى فولتير: "صورة من اتهام ودفاع السيد فولف، أشهر فلاسفة زماننا، الذي يتهم اتهاماً قاسياً بالمروق عن الدين والإلحاد لأنه حمل النور إلى أحلك أركان الميتافيزيقا... وقد طلبت ترجمة لكتاب فولف" رسالة عن الله، والنفس، والعالم... وسأؤفيك بها".

هذا وإن ما تقدمه من عطف ومعونة لجميع من يكرسون أنفسهم للأداب والعلوم يجعلني أمل أن تسلكني فيمن تراهم جديرين بإرشاداتك...."

والظاهر أن فردريك كان قد سمع بعض ما شاع عن قصيدة فولتير "لابوسيل": (عذراء اللورين). سيدي؛ لست أشتهي شيئاً لاقتناء جميع كتاباتك.... وإذا كان بين مخطوطاتك ما تود ستره عن أعين الجماهير فإني أتعهد بالاحتفاظ به سراً مكتوباً...

إن الطبيعة إذا شاءت كونت نفساً عظيمة ذات قدرات تدفع الآداب والعلوم قدماً، وواجب الأمراء أن يكافئوا الجهد النبيل الذي يبذله صاحب هذه النفس وليت "المجد" يستخدمني لأكلل نجاحك....

وإذا أبى حظي أن يسعدني بالقدرة على الاستيلاء عليك، فعساني على الأقل أرى يوماً ما ذلك الرجل الذي طالما أعجبت به من بعيد، وأؤكد لك، بلساني، أنني مع كل التقدير والاعتبار الواجبين للذين يكرسون جهودهم للجماهير مهتدين في ذلك بمشعل الحق- يا سيدي صديقك المخلص،

فردريك ولي عهد بروسيا

وفي وسعنا أن نتصور شعور الاغتباط الذي قرأ به فولتير هذا الخطاب،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

وهو الذي لم يكبر قط على الغرور، فراح يرشف رحيقه أمام المركزية الغيور. وبادر بعد تسلمه بالرد عليه في 26 أغسطس 1736:

مولاي :

لا بد أن يكون إنساناً مجرداً من كل عاطفة ذلك الذي لا يتأثر متأثراً بالغاً بالخطاب الذي شئتم سموكم الملكي تشريفي به. فمحبتي لذاتي تزهو به زهواً شديداً؛ ولكن محبتي للبشر، التي غذوتها دائماً في قلبي، والتي أجرؤ على القول بأنها أساس خلقي، منحنتي سروراً أعظم نقاء وصفاء- لأنني أرى أن في الدنيا الآن أميراً يفكر كإنسان، أميراً فيلسوفاً، سوف يسعد الناس.

واسمح لي بأن أقول أنه ليس على وجه الأرض إنسان لا يدين لك بالشكر على العناية التي تبذلها لكي تهذب بالفلسفة السلمية نفساً ولدت لتأمر وتتهي. إذ لم يوجد بين الملوك صالح إلا أولئك الذين بدعوا بمحاولة تعليم أنفسهم، وبتبين خيار الناس من أشرارهم، وبحب ما هو حق، ويمقت الاضطهاد والخرافة. وإن أميراً يتأثر على هذه الأفكار قد يعيد العصر الذهبي إلى بلده! ترى لم لا يسعى إلى هذا المجد إلا قلة قليلة من الأمراء؟.... لأنهم يفكرون في ملكهم أكثر مما يفكرون في النوع الإنساني. أما حالك فنقيض هذا بالضبط؛ (وما لم يغير ضجيج العمل ولؤم البشر يوماً ما من هذا الخلق الإلهي) فإن شعبك سيعبدك، والعالم كله سيحبك، والفلاسفة الجديرين بهذا الاسم سيؤمنون دولتك، والمفكرين سينتزعون حول عرشك.... لقد تركت الملكة كرسيتينا الشهيرة ملكها طلباً للأدب والفنون، فاملك إذن يا مولاي، وستقبل الأدب والفنون ساعية إليك...

ولست أجد من الشكر لسموكم المعاني ما يكفي على إهدائي ذلك الكتيب عن السيد فولف. وإنني أحترم الأفكار المبتدئية، فهي أشعة من نور تتخلل الليل الدامس. وفي رأيي أننا يجب ألا ننتظر من المبتدئين أكثر من هذا. ولا يبدو أن من المحتمل الكشف إطلاقاً عن الأصول الأولى للأشياء. فالفران التي فرض عليها البقاء في ثوب صغيرة من بناء هائل لا تدري هل

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

البناء خالد أم غير خالد، أو من بناه، أو لم بناه. وما أشبهنا بهذه الفران. والبناء الإلهي الذي بنى الكون لم يبنئ أحداً منا قط يسره المكنون فيما أعلم..

سأصدع بأمرك وأبعث إليك بتلك الكتابات التي لم تنتشر. وستكون أنت يا مولاي جمهور قرائي، وسيكون نقدك مكافأتي، فهذا ثمن لا يقدر على دفعه من الملوك والأمراء إلا الأقلون. وأنا واثق من كتمانك سرها... وإني في حق أراها سعادة غالبية أن أتى لأقدم احترامي لسموكم الملكي... لولا أن الصداقة التي تبقيني في هذه الخلوة لا تسمح لي بمغادرتها، ولا شك أنكم توافقون جوليان، ذلك الرجل العظيم المفترى عليه كثيراً، على قوله "ينبغي أن يفضل الأصدقاء دائماً على الملوك".

وثق يا مولاي أنه أياً كان ركن الأرض الذي سأختتم فيه حياتي، فإن تمنياتي ستكون دائماً لك-أي لسعادة شعب بأكمله. وسيعد قلبي نفسه واحداً من رعاباك، وسيكون مجدك دائماً عزيزاً علي. وسأتمنى أن تكون دائماً كما أنت، وأن يكون الملوك الآخرون مثلك-وإنني مع عميق الاحترام خادم سموكم الملكي المتواضع جداً.

فولتير(43)

واتصلت الرسائل بين أعظم ملوك زمانه وأعظم أدبائه طوال اثنتين وأربعين عاماً، مع انقطاعات أليمة تخللتها. وتكاد كل كلمة في هذه الرسائل تجزى قراءتها، لأنه لا يتاح لنا كثيراً امتياز الاستماع إلى رجلين كهذين يتحدثان هذا الحديث لحميم المدروس. نحن نصد أنفسنا بصعوبة عن إغراء نقل ما في هذه الرسائل من الأحكام المنيرة، ومن آيات الذكاء؛ ولكن بعض فقراتها تعيننا على تصور هذين العملاقين المتنافسين، رب السيف ورب القلم .

صفحة رقم : 12264

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

فهما بادئ ذي بدء يتفقان في إعجاب الواحد منهما بصاحبه. ففردريك يعرب عن دهشته لأن فرنسا لم تتبين "الكنز المخبوء في قلبها"، ولأنها تترك فولتير "يعيش وحيداً في صحاري شامبين... ومنذ الآن ستصبح سيريه (معبدي) دلفي، ورسائلك وحي المقدس" (44). "اترك وطنك الجاحد، وتعال إلى بلد يعبدك فيه أهله" (45). ويرد فولتير باقات الزهر بأجمل منها، فيقول "إنك تفكر كتراجان، وتكتب كبليني، وتستعمل الفرنسية كأحسن كتابنا... ستكون برلين بفضل رعيتك أثينة ألمانيا، بل ربما أوربا" (46). وهما متفقان على الربوبية، يؤكدان الإيمان بالله ويعترفان بأنهما لا يعرفان عنه تعالى قط وهما يمقتان رجال الدين الذين يقيمون سلطانهم على ما يزعمون من قرب الله (47). ولكن فردريك مادي صريح "الشيء المؤكد هو أنني، مادة، وأنني أفكر" (48) وجبري خالص؛ أما فولتير فليس مستعداً بعد للتخلي عن الفكرة حرية الإرادة (49). وينصح فردريك "بالصمت العميق إزاء القصص الخرافية المسيحية، التي قدسها قدمها وحرارة الناس السخفاء والتافهين" (50) ولا يترك فولتير فرصة يلقن فيها تلميذه الأمير حب الإنسانية وكراهية الخرافة، والتعصب، والحرب أما فردريك فلا يأخذ الإنسانية مأخذ الجد الشديد: "إن الطبيعة تنجب بطبيعتها اللصوص، والحساد، والمزورين، والقتلة؛ فهم يغطون وجه البسيطة، ولولا القوانين التي تقمع الرذيلة لاستسلم كل فرد لغرائزه الفطرية ولما فكر إلا في نفسه" (51)... والبشر بطبيعتهم ميالون إلى الشر، وهم ليسوا أخياراً إلا بقدر ما تهذب التربية والتجربة من عنفهم وطيشهم (52).

وقد تميزت السنوات الأخيرة في تلمذة فردريك بحدثين. ففي 1738 انضم إلى جماعة الماسون (53). وفي 1739، وهو في نشوة من تأثير فولتير فيما يبدو، ألف كتاباً سماه "الرد على كتاب الأمير لميكاغالي" حاسب فيه الفيلسوف الإيطالي حساباً عسيراً على ما بدا في كتابه من تبرير لأي ذريعة يراها الحاكم ضرورية لصيانة دولته أو دعمها.

وقال الأمير الجديد، لا، فالمبدأ الحق الوحيد للحكم هو ولاء الملك وعدله وشرفه. وقد أعرب الفيلسوف الأمير عن احتقاره للملوك الذين يؤثرون "مجد الفاتحين المهلك على المجد

صفحة رقم : 12265

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

الذي يكسب بالعطف والرحمة"، وتساءل ما الذي يغري إنساناً بأن يطلب عظمته الشخصية باشفاء غيره من الناس وتدميرهم" (54). ومضى فردريك يقول:  
إن مكيافلي لم يفهم طبيعة الملك الحقّة... فهو ليس السيد المطلق المتصرف فيمن يدينون لحكمه، إنما هو أول خدامهم، وينبغي أن يكون الأداة لرفاهيتهم كما أنهم الأداة لمجده (55).  
ثم أطرى فردريك الدستور الإنجليزي مقتدياً بفولتير على الأرجح:  
يبدو لي أننا لو شئنا الإشادة بشكل من أشكال الحكم على أنه القدوة لجيلنا لكان هو الحكم الإنجليزي. فالبرلمان هناك هو القاضي الأعلى للشعب والملك على السواء، وللملك كامل القدرة على فعل الخير، ولا قدرة على فعل الشر (56).  
ولسنا نجد في هذه الآراء أي علامة من علامات عدم الإخلاص، فهي تتكرر المرة بعد المرة في رسائل فردريك التي تنتمي لهذه الفترة. وقد بعث بمخطوطة كتابه إلى فولتير (يناير سنة 1740)، الذي طلب الإذن له بأن ينشرها. ووافق المؤلف الفخور على استحياءه، وكتب فولتير مقدمة للكتاب، وأخذ المخطوطة إلى لاهالي، وأشرف على طبعها، وصحح تجاربهها. وفي أواخر سبتمبر طلع الكتاب على الناس فجأة غفلاً من اسم المؤلف بعنوان "المعارض لمكيافلي". وسرعان ما كشف مؤلفه، وشارك القراء فولتير في الترحيب بمقدم ملك- فيلسوف.  
أما فردريك وليم الأول فقد ظل إلى النهاية تقريباً على ما كان عليه طويلاً، كأنه سنديانة كثيرة العقد، يوبخ، ويندد، ويشرع القانون بطريقته العجيبة. ويأنه يسالم العالم على مضض إلا حين أنبأه واعظ البلاط بدنو أجله، ويأنه يحب أن يغفر لأعدائه إن أراد أن يغفر الله له. وأرسل في لحظاته الأخيرة في طلب فردريك، وعانقه وبكى، فلعل هذا الفتى العنيد، رغم هذا كله، أن يحوي بين جنبه مقومات ملك؟ وسأل القادة المحيطين بسريره "ألسنت محظوظاً لأن لي ولداً أستخلفه؟" (57) ولعل

صفحة رقم : 12266

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> استهلال بروسي

الابن فهم الآن أكثر من ذي قبل إحساس أبيه الشيخ بأن الملك يجب أن يكون له بعض الحديد في دمه.  
وفي 31 مايو 1740 أسلم فردريك وليم الأول روحه وعرشه وقد أبلاه النضال ولما يجاوز الحادية والخمسين، وآل الملك لمعارض مكيافلي.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> مكيافلي الجديد

### 3- مكيافلي الجديد

كان فردريك الثاني في الثانية عشرة منى عمره حين ولى العرش. وكان لا يزال - كما رسمه أنطوان بين قبل ذلك بعام - الموسيقى والفيلسوف رغم دروعه البراقة: قسمات حلوة رقيقة، وعينان واسعتان تختلط فيهما الزرقاة بالشهية، وجبين عال؛ "له أسلوب في السلوك طبيعي جذاب، وصوت خافت سار" (58). على حد قول السفير الفرنسي. وكان إلى ذلك الحق تلميذه فولتير، وقد كتب له بعد ستة أيام من تقلده الحكم:

لقد تبدل حظي، وشهدت اللحظات الأخيرة لملك، ومعاناته، وموته. لم يكن بي حاجة وأنا أرتقي العرش إلى ذلك الدرس لكي أشمئز من خيلاء العظمة البشرية... وأرجو ألا ترى في إلا مواطناً غيوراً، وفيلسوفاً تغلب عليه نزعة الشك، وصديقاً صدوقاً. واني أستحلفك بالله أن تكتب لي كتابتك لإنسان عادي، وأن تحتقر مثلي الألقاب والأسماء وكل مظاهر الزهو والغرور (59).

وعاد يكتب إلى فولتير بعد ثلاثة أسابيع:

"إن ضخامة العمل الذي ألقاه القدر على عاتقي لا يكاد يترك وقتاً لحزني الحقيقي. وإبني أشعر أنني بعد فقدي أبي مدين بجملتي لبلدي. وبهذا الهدف أعمل بكل طاقتي لاتخاذ أسرع التدابير وأصلحها للخير العام" (60). وقد صدق. ففي غداة توليه العرش، حين حكم من برد الربيع بأن المحصول سيكون متأخراً وهزياً، أمر بأن تفتح مخازن الغلال العامة، وأن يباع القمح للفقراء بأسعار معقولة. وفي اليوم الثالث ألغى في جميع أرجاء بروسيا اللجوء إلى التعذيب في محاكمة المجرمين قبل أن يصدر باكاريا

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> مكيافلي الجديد

رسالته الخطرة بأربعة وعشرين عاماً، وينبغي أن نضيف أن التعذيب في المحاكمات وإن إجازة القانون إلا أنه من الناحية العملية تقدم في عهد فردريك وليم الأول، وأن فردريك انتكس لحظة إلى استعماله في حالة واحدة عام 1752 (61). وفي 1757 وكل إلى صموئيل فون كوكبي، كبير القضاة البروسيين، أن يشرف على إصلاح القانون البروسي إصلاحاً شاملاً.

وظهر تأثير الفلسفة في أعمال أخرى قام بها هذا الشهر الأول. ففي 22 يونيو أصدر فردريك أمراً بسيطاً جاء فيه "يجب التسامح مع جميع الأديان، وعلى الحكومة أن تتحقق من أن أحداً منها لا يجوز على غيره، لأن على كل إنسان في هذا الوطن أن يصل إلى السماء بطريقته الخاصة" (62). ولم يصدر أمراً رسمياً عن حركة المطبوعات، ولكنه أباحها عملياً، فقال لوزرائه "إن الطباعة حرة" واحتمل في صمته ملؤه الاحتقار مئات الانتقادات العنيفة التي نشرت ضده (63). ومرة أخرى هجوماً ساخراً معلقاً في أحد الشوارع، فأمر بأن ينقل إلى مكان يسهل فراءته فيه. وقال "لقد انتهيت أنا وشعبي إلى اتفاق يرضينا جميعاً: يقولون ما يشتهون، وأفعل ما أشتهي" (64). ولكن هذه الحرية لم تكن كاملة قط؛ فكلما ارتقى فردريك الأكبر في مدارج العظمة حذر النقد العلني لتدابيره الحربية أو مراسيمه الضرائبية. وظل ملكاً مطلق السلطة وإن حاول أن يجعل تدابيرَه متنسقة مع القوانين. ولم يبذل أي محاولة لتغيير هيكل المجتمع أو الحكومة البروسيين. فظلت المجالس والهيئات كما كانت، إلا أن فردريك شدد الرقابة عليها وشارك بهمة أكبر في أعمالها؛ وقد أصبح عضواً في جهازه البيروقراطي. قال السفير الفرنسي "إنه يبدأ حكمه بطريقة مرضية جداً: فحيثما تلفت وجدت آثار بره برعيته وعطفه عليها" (65). ولكن هذا لم يمتد إلى التخفيف من وطأة القنية؛ فظل الفلاح البروسي أسوأ حالاً من الفرنسي، واحتفظ النبلاء بامتيازاتهم.

صفحة رقم : 12269

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> مكيافلي الجديد

وتضافر تأثير فولتير مع تقليد ليبنتس في إحياء أكاديمية برلين للعلوم إحياء قوياً. فبعد أن أسسها فردريك الأول (1701) أهملها فردريك وليم الأول. أما فردريك الثاني فقد جعلها الآن أبرز الأكاديميات في أوروبا. وقد سلف القول بأنه رد فولف من منفاه. وأراد فولف أن يرأس الأكاديمية ولكنه كان طاعناً في السن، ضعيف الساقين، فيه شيء من الخضوع للعقائد التقليدية. أما فردريك فأراد فردريك رئيساً لها من أصحاب "العقول القوية" (أحرار الفكر)، رجلاً مواكباً لأخر تطورات العلم، لا يعوقه معوق من اللاهوت. عملاً باقتراح من فولتير (أسف عليه فيما بعد) دعا (يونيو 1740) بيير لوى مورو دموبير توي، الذي كان الآن في منتصف عمره، عائداً لتوّه من بعثة شهيرة إلى لايلاند لقياس درجة من درجات العرض. وحضر موبيرتوي وأغدق عليه فردريك العون والتأييد، فبنى مختبراً عظيماً وأجرى تجارب أحياناً في حضرة الملك والحاشية. وقد ذهب جولدسمث، الذي لا بد قد خبر جمعية لندن الملكية، إلى أن أكاديمية علوم برلين "تفوق أي أكاديمية غيرها في الوجود" (66). وأبهج هذا كله فولتير. فلما أتت لفردريك فرصة زيارة كليفز دعا الفيلسوف للقائه. وكان فولتير يومها في بروكسل، فانترع نفسه من مركزته الفكرة، وسافر 150 ميلاً إلى "شلوس موبلاند". هناك رأى أفلاطون الجديد ديونيسيوسه أول مرة، وأنفق ثلاثة أيام (11-14 سبتمبر 1740) في نشوة غامرة لم يفسدها غير وجود الجاروتي دموبيرتوي. وفي خطاب للسيدة سيدفيل كتبه في 18 أكتوبر أبدى رأيه في فردريك فقال: في ذلك المكان رأيت رجلاً من أطف الرجال في الدنيا، هو زينة المجتمع، ولو لم يكن ملكاً لسعى إليه الناس في كل بلد، فيلسوف مبراً من التزمت، كله حلاوة، وكياسة، وسلوك كريم؛ ينسى أنه ملك حين يلقي أصدقاءه. لقد احتجت إلى جهد من ذاكرتي لأتذكر أن الجالس عند أسفل سريري ملك له جيش عدته 100.000 مقاتل (67). ولم يكن فردريك أقل إغتيافاً. فقد كتب إلى مساعده جوردان في 24 سبتمبر يقول:

صفحة رقم : 12270

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> مكيافلي الجديد

رأيت فولتير الذي كن تواقاً إلى معرفته، ولكني رأيته وحمى الربيع تهدني، وعقلي وجسدي متوتر الأعصاب... إن له فصاحة سيثرون، ولطف بيبي، وحكمة أجريبا، فهو باختصار يجمع خير ما يجني من الفضائل والمواهب من ثلاثة من أعظم القدماء. وعقله لايني عن التفكير، وكل قطرة مداد هي رحيق ذكاء يقطر من قلمه... إن لاشاتليه محظوظة بعيشة معها، فإن في وسع إنسان لم يؤت من المواهب غير ذاكرة قوية أن يؤلف كتاباً رائعاً من الأقوال الحكيمة التي ينثرها كيفما اتفق" (68).

فلما رجع فردريك إلى برلين لاحظ أن لديه جيشاً عدته 100.000 مقاتل، وفي 20 أكتوبر مات شارل السادس وارتقت عرش إمبراطورية النمسا والمجر شابة لها جيش من الدرجة الثانية. في ذلك اليوم ذاته أرسل فردريك إلى فولتير خطاباً نديراً بالشر، جاء فيه "أن موت الإمبراطور يغير كل أفكار السليمة، وأظن أن الأمور ستتحو في شهر يونيو نحو المدافع والبارود، والجنود والخناق، بدلاً من الممثلة والمراقص والمسارح؛ بحيث أراني مضطراً إلى إلغاء الاتفاق الذي كنا على وشك إبرامه" (69).

وأحس فولتير في قلبه وجعاً. أترى تلميذه هذا تاجر حرب كأى ملك آخر؟ وانتهد دعوة فردريك إياه لزيارته في برلين فقرر أن يرى ما هو مستطيع صنعه في سبيل السلام وقد يستطيع في الوقت ذاته أن يصلح ما فسد بينه وبين فرساي لأن الكردينال فلوري، الذي ظل قابضاً على دفة الحكم في فرنسا كان هو أيضاً ينشد السلام. وعليه ففي 2 نوفمبر كتب إلى الكردينال يعرض خدماته عميلاً سرياً لفرنسا، في محاولة لرد فردريك إلى حظيرة الفلسفة. وقبل العنيفة على الدين "لقد كنت حدثاً، وربما طالت حدثتك بعض الشيء" (70). وفي خطاب آخر بنفس التاريخ (14 نوفمبر) كتب الكردينال اللطيف ينبي بتسليمه كتاب "المعارض لميكافلي من مدام دشاتليه وأطراه وهو يحسد بحكمة هوية مؤلفة: أياً كان مؤلف هذا الكتاب، فهو جدير بأن يكون أميراً إن لم يكنه. والقليل الذي قرأته منه يفيض حكمة ومعقولة وفيه تعبير عن مبادئ جديرة

صفحة رقم : 12271

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> مكيافلي الجديد

بالإعجاب الشديد، مما يؤهل مؤلفه لقيادة غيره من الناس، شريطة أن يؤتى من الشجاعة ما يجعله يطبق مبادئه. فإذا كان قد ولد أميراً فقد دخل في ميثاق جليل جداً مع الشعب؛ وما كان الإمبراطور أنطونيوس مكتسباً المجد الخالد الذي يحفظ به جيلاً بعد جيل لو لم يعدم بعدالة حكمه تلك الفضيلة السامية التي بسطها لجميع الملوك في مثل هذه الدروس المنيرة... وسوف أتأثر تأثراً لا حد له إذا استطاع صاحب الجلالة البروسي أن يجد في مسلكي بعض التطابق مع مبادئه، ولكني أؤكد لك على الأقل أنني أعتبر مخططة مخططاً لأكمل وأمجد حكومة (71).

وبعد أن رتب فولتير أداء فردريك لجميع نفقات رحلته عبر ألمانيا لأول مرة، وأنفق زهاء أسبوعين مع الملك في راينزبرج وبوتسدام وبرلين (20 نوفمبر إلى ديسمبر) وارتكب خطأ بإطلاع فردريك على خطاب الكردينال عن كتابه "المعارض لميكافلي" وتبين فردريك فوراً أن فولتير يلعب دور الدبلوماسي، ففسر مديح فلوري الجميل على أنه دعوة للتعاون مع فرنسا، وضابقه أن يرى نفسه معوقاً بمقال كتبه في الفلسفة. وتبادل الشعر والأجوبة البارعة مع



فولتير، ورفه عنه بعزفه على الفلوت، وصرفه دون شيء محدد أكثر من شكره على الكينين الذي لطف به الشاعر برداء الملك، وفي 28 نوفمبر كتب فردريك إلى جوردان وهو يعنى فولتير دون أن يذكر اسمه صراحة". إن صاحبك البخيل سيعب ما شاء ليروى ظمأه الذي لا يطفأ للغنى، فسيقبض ثلاثة آلاف طالر، وهو ثمن غال يدفع لمهرج؛ فما من مهرج بلاط نقد مثل هذا الأجر من قبل" (72). ويبدو أن هذا المبلغ شمل نفقات رحلة فولتير-التي تطوع فردريك على الأراج بدفعها-وتكاليف نشر كتابه "المعارض لميكافيللي" التي كان فولتير قد قدمها من جيبه الخاص. وهكذا إذا دخل المال من الباب خرج الحب من الشباك، كما يقولون، إن فردريك لم يستطع دفع نفقات عميل فرنسي ولا تكاليف كتاب كان يسره أن يرشو العالم ليناله.

وغلث تأثير فردريك وليم الآن تعاليم الفيلسوف. وكلما حلت فرص

صفحة رقم : 12272

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> مكيافيللي الجديد

السلطة وتبعات الحكم محل موسيقى صباه وشعره وهو بعد أمير، ازداد فردريك بروداً وقسوة، لا بل إن المعاملة السيئة التي كان أبوه يصبها عليه أغلظت جلده ومزاجه. وكان في كل يوم يرى أولئك العمالقة الـ 100.000 الذين خلفهم له أبوه، وفي كل يوم كان عليه أن يطعمهم. فأى معنى لتركهم يصدأون ويبلون في السلم؟ أما من ظلم يستطيع هؤلاء العمالقة رفعه؛ أجل، هناك سيليزيا، التي تفصلها بوهيميا عن النمسا، والأقرب إلى برلين منها إلى فيينا؛ وكان نهر الأدور العظيم يجرى هابطاً من بروسيا إلى برزلا وعاصمة سيليزيا التي لا تبعد عن برلين غير 183 ميلاً إلى الجنوب الشرقي. فماذا يفعل النمساويون هناك؟ إن لبيت برندنبورج مطالب في سيليزيا في الإمارات السابقة- وهي بيجرندورف، وراتيبور، وأوبيلن، وليجننس، وبريبج، وفولار؛ هذه كلها أخذتها النمسا أو تم التنازل لها عنها بمقتضى ترتيبات لم تكن قط مرضية لبروسيا. إذن فالآن، والوراثة النمساوية محل نزاع، وماريا تريزا صغيرة ضعيفة، وعلى العرش الروسي قيصر طفل هو إيقاع السادس-الآن هو الوقت الملائم للإلحاح على تلك المطالب القديمة، ولتصحيح تلك الأخطاء القديمة-ولإعطاء بروسيا وحدة وأساساً جغرافياً أعظم من ذي قبل.

وفي أول نوفمبر قال ليوديفيلز أحد مستشاريه: "حل لي هذه المسألة: إذا أتيت لإنسان ميزة فهل ينتفع بها أو لا ينتفع؟ إنني مستعد بجيشي وبكل شيء آخر. فإذا لم أستعمله الآن كنت أملك في يدي أداة عديمة الجدوى رغم قوتها. وإذا استعملت جيشي قبل إنني أوتيت مهارة استغلال التفوق المتاح لي على جارتني". ورأى بوديفيلز أن هذا العمل سيعتبر عملاً غير أخلاقي. فرد فردريك: ومتى كانت الفضيلة معوقاً للملوك؟ (73) وهل في وسعه أن يمارس الوصايا العشر في عرين الذئاب ذلك الذي يسمى الدول العظمى؟ ولكن ألم يتعهد فردريك وليم بتأييد "الأمر العالي" الذي ضمن لماريا تريزا تلك الممتلكات التي خلفها لها أبوها؟ إن هذا التعهد على أية حال كان مشروطاً بتأييد الإمبراطور لمطالب بروسيا في بوليش وبريج، وهذا التأييد لم يأت، بل على العكس بذل لمنافسي بروسيا فالآن يمكن الثأر لهذه الإهانة المؤلمة.

صفحة رقم : 12273

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> مكيافلي الجديد

وعليه ففي ديسمبر أرسل فردريك مبعوثاً إلى ماريا تريزا يعرض عليها حمايته إذا أقرت مطالبه في شطر من سيليزيا. وإذ توقع رفضها لهذا الغرض، فإنه أمر شطراً من جيشه يبلغ ثلاثين ألف مقاتل بالزحف. فعبر الحدود إلى سيليزيا في 23 ديسمبر قبل وصول مبعوث فردريك إلى فيينا بيومين. وهكذا بدأت الحرب السيليزية الأولى (1740-42)، وهي أولى مراحل حرب الوراثة النمساوية.

صفحة رقم : 12274

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

4-حرب الوراثة النمساوية

1748-1740

لن نتبع فردريك في كل تحركاته العسكرية، لأن هذا الكتاب تاريخ للحضارة. ولكن يهنا طبيعة الإنسان وسياسة الدول كما تكشف عنهما أقوال فردريك وأفعاله، والسياسات المتقلبة للدول. ولعل حقائق سياسة القوة لم تقرر في أي حرب مدونة بأوضح مما تعرت في هذه الحرب.

اخترق الجيش البروسي سيليزيا دون أن يلقي مقاومة تذكر. فأما النصف البروتستنتي من السكان، وهم الذين عانوا بعض الاضطهاد في ظل الحكم النمساوي، فقد رحبوا بفردريك محرراً لهم؛ (74) وأما الكاثوليك فقد تعهد لهم -وَأَوْفى بعهد-بكمال الحرية في ممارسة دينهم. وفي 3 يناير 1741 استولى على برزلاو في هدوء. وهو يؤكد لنا أنه "لم ينهب بيت، ولم يهن مواطن، وقد أشرق النظام البروسي بكل بهانه" (75)؛ وكان هذا أرق وأرق استيلاء على مدينة. وأمرت ماريا تريزا المرشال نايبيرج بأن يجمع جيشاً في مورافيا ويعبر إلى سيليزيا؛ وفي 10 أبريل اشتبك هذا الجيش بقوة فردريك السيليزية الرئيسية في مولفتش، على عشرين ميلاً جنوبي برزلاو. وكانت عدة جيش نايبيرج 8.600 فارس، و 11.400 راجل، و 18 مدفعاً، وعدة فردريك 4.000 فارس و 16.000 راجل، وستين مدفعاً، وقد قررت هذه الفروق مراحل المعركة ونتائجها. فغلب الفرسان النمساويون الفرسان البروسيين الذين لاذوا بالفرار. وأقنع المرشال شفرين فردريك بأن يفر مع الفارين مخافة أن يؤسر ولا يفرج عنه إلا بقدية مدمرة. ولكن بعد أن ذهب الملك وفرسانه، صمد المشاة البروسيون لجميع الهجمات

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

سواء من الفرسان أو المشاة، أما المدفعية البروسية فقد أعادت تعبئة مدافعها بمدكات حديدية وألحقت من الأذى البالغ بالنمساويين ما حمل نابيير ج على إصدار أمره بالنهقر. فلما استدعى فردريك ثانية إلى ساحة القتال أبهجه وأخجله أن يجد أن جيشه كسب المعركة. وأحس أنه أذنب لا بالجبن فحسب بل بالاستراتيجية الناقصة؛ فلقد بعثر رجاله الثلاثين ألفاً في سيليزيا قبل أن يدعم غزوه، ولم ينقذ الموقف غير شجاعة مشاته وحسن تدريبهم. وجاء في مذكراته أنه "فكر كثيراً في الأخطاء التي ارتكبتها، وحاول إصلاحها فيما تلا ذلك" (76). ولم يكن في بسالته قصور مرة أخرى بعد هذا، وندر أن أخطأ في التكتيك أو الاستراتيجية.

ونمى نبأ هزيمة الجيش النمساوي إلى ماريا تريزا وهي تستجم عقب ولادة طفلها. وبدا أن أملها الوحيد - في حالة الضعف الذي أصاب قوتها وماليتها - معقود على معونة من الخارج. فلجأت إلى الدول الكثيرة التي تعهدت من قبل بتأييدها للأمر العالي الخاص بحكمها. واستجابت إنجلترا بحذر؛ فهي في حاجة إلى نمسا قوية تثبت لفرنسا. ولكن جورج الثاني خاف على إمارته الهانوفرية إن خاض الحرب ضد جارته بروسيا. وأقر البرلمان البريطاني إعانة قدرها 300.000 جنيه لماريا تريزا، ولكن المبعوثين البريطانيين حثوا على أن تنتزل عن سيليزيا السفلى (الشمالية) لفردريك ثمناً للسلام. وكان فردريك راضياً بهذا الحل، ولكن الملكة رفضته. أما بولندا، وسافوي، والجمهورية الهولندية، فقد وعدت كلها بالمعونة، ولكنها أبطأت في إرسالها إبطاء أفقدها أثرها في النتيجة. وكل ائتلاف يلد نقيضاً له. فما إن رأت فرنسا ذلك التقارب بين عدويها القديمين إنجلترا والنمسا حتى بادرت بالتحالف مع بافاريا، وبروسيا، وأسبانيا البوربورنية. وقد رأينا أن فرنسا كان لديها مكيافلها، وهو بيل - إيل، الذي اقترح هذه الآية من آيات اللصوصية السياسية. فعلى فرنسا التي تعهدت بتأييد الأمر العالي أن تسرع بالإفادة من مصيبة ماريا تريزا، وذلك بتأييد شارل ألبرت البافاري في مطالبته بالعرش الإمبراطوري عن طريق زوجته. وعلى فرنسا أن تقدم له المال والجند للمشاركة في الهجوم على النمسا،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

فإذا أفلحت الخطة قصر حكم ماريا تريزا على المجر، والنمسا السفلى، والأراضي المنخفضة النمساوية، وأصبح شارل إمبراطوراً يحكم بافاريا، والنمسا العليا، والتيرول، وبوهيميا، وجزءاً من سوابيا؛ أما الابن الثاني لملك إسبانيا فيأخذ ميلان، عارض فلوري الخطة، وتغلب بيل-إيل، وأرسل ليظفر بتأييد فردريك للمؤامرة. ووقعت فرنسا وبافاريا على تحالفهما في نمبورج في 18 مايو 1741. وأحجم فردريك عن الانضمام فلم يكن في وسعه أن يسمح لفرنسا بأن تقوى شوكتها إلى هذا الحد، ولم يفقد الأمل في الوصول إلى تفاهم مع ماريا تريزا، ولكن لما لم تعرض عليه سوى تنازلات تافهة، فقد وقع ببرزلاو في 5 يونيو حلفاً مع فرنسا، وبافاريا، وأسبانيا؛ وأراد أن يشارك في الغنيمة بنصيب إن قسمت المملكات النمساوية. وتعهد كل طرف من الأطراف الموقعة على الحلف ألا تعقد حكومته صلحاً منفرداً

سرياً. وضمنت فرنسا استيلاء فردريك على برزلاو وسيليزيا السفلى، ووعدت بأن تحت السويد على تعليق روسيا في حرب تشغلها، ووافقت على إرسال جيش فرنسي لمنع قوات إنجلترا الهانوفرية من المشاركة في اللعبة. أما وقد تركت ماريا تريزا بغير حليف تقريباً، فإنها صممت على الاستنجاد بنبلاء المجر العسكريين. وكان هؤلاء النبلاء، أو أسلافهم، قد عانوا الأمرين من حكم النمسا؛ فقد حرّمهم ليوبولد الأول دستورهم القديم وحقوقهم الموروثة، فلم يكن لديهم إذن كبير مبرر لإغاثة حفيده. ولكن حين ظهرت أمامهم في مجلسهم النيابي (الديت) في برسبورج (11 سبتمبر 1741) أثر فيهم جمالها ودموعها. وخطبت فيهم باللاتينية، واعترفت بأن حلفاءها تخلوا عنها، وأعلنت أن شرفها وعرشها يعتمدان الآن على بسالة وشهامة الفرسان المجريين والأسلحة المجرية وما يروي من أن النبلاء هتقوا باللاتينية "لنمت فداء مليكنا" (فهكذا سموا الملكة) إنما هو قصة جميلة هبطت الآن إلى مرتبة الأسطورة (78). فقد ساوموا كثيراً، واستلوا منها العديد من التنازلات السياسية؛ ولكن حين جاءهم زوجها فرانسيس ستيفن في 21 سبتمبر ومعه مريض ترفع لهم بين يديها الطفل جوزيف ذا الشهور الستة، استجابوا للنداء بشهامة، وهتف كثيرون منهم

صفحة رقم : 12277

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

بأن حياتهم ودماءهم فداء للملكة (76) وأقر المجلس التجنيد العفوي العام. ودعوة جميع الرجال للسلاح، وبعد تعطيل طويل ركبت قوة مجرية صوب الغرب للدفاع عن الملكة. ولو أن شارل ألبرت واصل زحفه على فيينا لكان الوقت قد فات لتخليص هذه العاصمة. ولكن الذي حدث أثناء ذلك (19 سبتمبر) أن سكسونيا انضمت إلى الحلف المعادي للنمسا؛ فخشي شارل ألبرت أن يستولي أوغسطس الثالث على بوهميا. ونصح فلوري الأمير البافاري بأن يستولي على بوهميا قبل أن يستطيع السكسوني الوصول إليها. وحث فردريك شارل على مواصلة الزحف على فيينا. أما شارل الذي كانت فرنسا تموله فقد أطاع فرنسا. وخشي فردريك أن تصبح فرنسا بعد غلبة نفوذها في بافاريا وبوهميا قوة خطيرة على أمن بروسيا، فوقع هدنة سرية مع النمسا (9 أكتوبر 1741) وزلت له ماريا تريزا مؤقتاً عن سيليزيا السفلى لحرصها على إنقاذ بوهميا. وأحدثت ثلاثة جيوش الآن ببراغ: أحدها بقيادة ألبرت، والثاني جيش فرنسي بقيادة بيل-ايل، ثم عشرون ألف سكسوني. وسقطت العاصمة البوهيمية ذات الحامية الضعيفة بعد الهجمة الأولى (25 نوفمبر) ولكن النصر كان كارثة على شارل. ذلك أنه وقد استغرقته الحملة على بوهميا ترك إمارته البافارية دون أن يدعمها بأسباب دفاع تذكر، ولم يدر بخلده قط أن تستطيع ماريا تريزا الهجوم عليها وهي مهددة بأخطار من هذه الجوانب الكثيرة، ولكن الملكة أبدت من مرونة الحركة وسهولة التكيف ما أوقع الفزع في قلوب أعدائها. فقد استدعت عشرة آلاف جندي نمساوي من إيطاليا، وأخذت الفرق المجرية تصل إلى فيينا، فأمرت على هذين الجيشين الكونت لودفيج فون كينفهورلر، الذي تعلم فنون الحرب على يد أوجين أمير سافوي. أما وقد توفرت للجيشين القيادة القادرة، فقد فتحا بافاريا واجتاحها دون مقاومة تذكر؛ وفي 12 فبراير 1742 استولى على ميونخ عاصمتها. وفي هذا اليوم نفسه في فرانكفورت-أم-مين،

صفحة رقم : 12278

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

توج شارل ألبرت إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم شارل السابع. أما فردريك، الذي كان يتحول مع كل ريح من رياح القوة، فقد دخل الحرب من جديد خلال ذلك. لقد جعل الهدنة مشروطة بكتمان أمرها، ولكن ماريا تريزا كشفت أمرها لفرنسا، ووصلت إلى أذان فردريك هذه الهمسات الدبلوماسية، فبادر بالانضمام إلى حلفائه من جديد (ديسمبر 1741). واتفق معهم على خطة يقود بمقتضاها جيشاً يخترق مورافيا إلى النمسا السفلى، وهناك تلتقي به القوات السكسونية والفرنسية البافارية، وبزحف الجميع معاً إلى فيينا. ولكنه كان يقود الآن عملياته وسط سكان معادين له عداً نشيطاً، وكان الفرسان المجرىون يغيرون على خطوط مواصلاته مع سيليزيا. فارتد ثانية ودخل بوهيميا. هناك، على مقربة من شوتوستز، هجم على مؤخرته جيش نمساوي بقيادة الأمير اللوريني شارل الكسندر (17 مايو 1742). وكان هذا الأمير، زوج أخت ماريا تريزا، شاباً في الثلاثين وواحداً من ألمع وأشجع أمراء أسرته، ولكنه لم يكن قريباً لفردريك في تكتيكات المعركة. وكان لكل منهما جيش عدته نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل. وعادت طلائع فردريك إلى ساحة القتال في الوقت المناسب تماماً، فوجه قوتها الكاملة ضد جناح مكشوف للنمساويين، فتراجعوا في تفهق منتظم. ولحقت بالجيش خسائر فادحة، ولكن النتيجة أفضت ماريا تريزا بأنه ليس في استطاعتها أن تقاوم كل أعدائها في وقت واحد. فقبلت نصيحة المبعوثين الإنجليز الذين أشاروا عليها بإبرام صلح واضح محدد مع فردريك، وفي هذه المرة، وبمقتضى معاهدة برلين (28 يونيو 1742) نزلت له عن سيليزيا كلها تقريباً. وهكذا وضعت الحرب السليزية الأولى أوزارها. أما الجيشان النمساويان اللذان يقودهما كيفنهولر والأمير شارل الكسندر فقد زحفا الآن داخل بوهيميا. وواجهت الحامية الفرنسية في براغ التطويق والتجويع. ورغبة في تحاشي "قياس الخلف" هذا لأحلام بيل-إيل، أمرت فرنسا المرشال ماييوا بأن يقود إلى بوهيميا ذلك الجيش الذي كان يشاغل

صفحة رقم : 12279

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

قوات جورج الثاني في هانوفر. وإذ تحررت إنجلترا على هذا النحو، فإنها دخلت الحرب بنشاط، وأقرضت ماريا تريزا 500,000 جنيه، وأرسلت ستة عشر ألف جندي إلى فلاندر النمساوية؛ ودفعت الأقاليم المتحدة 840.000 فلورين مساهمة منها في نفقات الحرب. وأحالت الملكة المال جيوشاً. وسد أحد هذه الجيوش ماييوا في زحفه على بوهيميا. وتجمعت القوات النمساوية، التي ازداد عددها، غير مرة حول براغ. وفر بيل-إيل ومعظم جنوده إلى يجير بعد أن كلفهم هذا ثمناً عالياً. وأقبلت ماريا تريزا من فيينا إلى براغ، وهناك توجت أخيراً (12 مايو 1743) ملكة على بوهيميا.

وبدت الآن منتصرة في كل مكان. وفي شهر مايو هذا وافقت الأقاليم المتحدة على أن تعينها بعشرين ألف مقاتل. وبعد شهر هزم حلفاؤها الإنجليز أعداءها الفرنسيين في ديتجن. وكان لسيطرة البحرية الإنجليزية على البحر المتوسط أثر في دعم قضيتها في إيطاليا، ففي 13 سبتمبر انضم ملك سردانيا شارل إيمانويل الأول إلى حلف من النمسا وإنجلترا، ونال شريحة من لمباردية من النمسا وتعهداً من إنجلترا بأن تدفع له 200.000 جنيه كل عام نظير 45.000 جندي؛ وهكذا اشترى الجند بالجملة، والملوك بالتجزئة. وداعت الآن ماريا تريزا الأحلام، لا باسترداد سيليزيا فحسب، بل بضم بافاريا، والإلزاس، واللورين، إلى إمبراطوريتها، إذ كانت عنيدة وقت الانتصار بقدر ما كانت باسلة وقت الشدة.

أما فردريك فقد داعب السلام برهة. ففتح دار أوبرا جديدة في برلين، وقرض الشعر، وعبثت أنامله بالفلوت. وجدد دعواته لفولتير، ورد فولتير بأنه ما زال وفيًا لإميلي. ولكن حدث عند المنعطف أن الوزارة الفرنسية-التي راعها أن تجد فرنسا في حرب مع إنجلترا، والنمسا، والجمهورية الهولندية، وسافوي-سردانية-تذكرت أن عبقرية فردريك وعمالقته سيكونون عوناً مرحباً به؛ وأن انتهاكاته لمعاهداته التي أبرمها مع فرنسا يمكن اغتقارها إذا انتهك معاهدته مع النمسا؛ وأنه قد يمكن إقناعه بأن يرى في سطوة النمسا المنبعثة من جديد خطراً يهدد سلطانه على سيليزيا

صفحة رقم : 12280

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

بل على بروسيا. فمن يستطيع أن يوضح له هذا على أحسن وجه؟ لم لا يجرب فولتير، الذي بيده الآن دعوة من فردريك، والذي يتوق دائماً لأن يلعب دوراً في السياسة؟ وهكذا عاد فولتير داعية السلام يخترق ألمانيا في مركبة ينثب داخلها ويتأرجح، وأنفق هناك ستة أسابيع (من 30 أغسطس لى 12 أكتوبر 1743) وهو يحاول إقناع فردريك بخوض الحرب. ولم يستطع الملك أن يلتزم بوعده، فصرف الفيلسوف خاوي الوفاض إلا من التحيات. ولكن تقدم حملات عام 1744 أدخل في قلبه الخوف على سلامته وعلى دوام مكاسبه. ففي 15 أغسطس بدأ الحرب السيليزية الثانية. وأراد أن يفتح بوهيميا. ولما كانت سكسونيا تقع بين برلين وبراغ، فقد سير جنوده مخترقاً درسدن، فأسخط بذلك أوغسطس الثالث الغائب عن وطنه. وما وافى الثاني من سبتمبر حتى كان رجاله الثمانون ألفاً يدقون أبواب براغ، وفي 16 سبتمبر استسلمت الحامية النمساوية. وبعد أن ترك فردريك خمسة آلاف جندي لاحتلال العاصمة البوهيمية، زحف جنوباً وهدد فيينا من جديد. وردت ماريا تريزا بتحدي هذا الخطر، فركبت على عجل إلى برسبورج وطلبت من الديت المجري تجريدة أخرى من الجند، فجمع لها 44,000، وبعد قليل زادهم 30,000 آخرين. وأمرت الأمير شارل بالكف عن مهاجمة الألزاس وقيادة الجيش النمساوي الرئيسي شرقاً لاعتراض زحف البروسيين. وتوقع فردريك أن الفرنسيين سيطاردون النمساويين، ولكنهم لم يفعلوا. فحاول أن يكره شارل على القتال، غير أن الأمير تجنبه، ولكنه دعم جهود المغيرين لقطع خطوط اتصال البروسيين بسيليزيا وبرلين. وأعاد التاريخ نفسه؛ فقد وجد فردريك جيشه معزولاً وسط سكان من الكاثوليك المتحمسين لمذهبهم المعادين له عداً فيه دهاء وبراعة. وكانت الجنود المجرية في طريقها للانضمام إلى الأمير شارل. ونمى إلى فردريك أن سكسونيا دخلت صراحة في صف النمسا. وخاف فردريك أن يعزل عن عاصمته وعن مصادر تموينه، وأمر الحامية البروسية بالتخلي عن براغ؛ وفي 13 ديسمبر قفل راجعاً إلى برلين، دون زهو الماضي، بعد أن تعلم أن الخادع قد يخدع.

صفحة رقم : 12281

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

وجرى تيار الحرب أشد ما يكون معاكسة له. ففي 8 يناير 1745 وقعت إنجلترا، والأقاليم المتحدة، وبولندا-سكسونيا، في وارسو ميثاقاً مع النمسا وعد جميع موقعيه بأن يرد لكل منهم كل ما كان يملكه في 1739- ومعنى هذا أن تعاد سليزيا لماريا تريزا. ووعد أوغسطس الثالث بأن يقدم 30.000 مقاتل نظير 150.000 جنيه من إنجلترا وهولندا، بواقع خمسة جنيهات لكل نفس. وفي 20 يناير مات شارل السابع بعد أن تقلد عرش الإمبراطورية برهة قصيرة جداً، وكان يبلغ الثامنة والأربعين، وقد أعب حين حضره المنية عن أسفه لما ألحقه بوطنه م خراب من جراء تطلعه لعرشي الإمبراطورية وبوهيميا، وطلب إلى مكسمليان جوزيف أن يقلد عن هذه الدعاوي ويسالم البيت المالئ النمساوي، وامتلئ الناخب الجديد للنصيحة رغم اعتراضات فرنسا؛ ففي 22 أبريل تخلى عن كل دعاوي في عرش الإمبراطورية، ووافق على تأييد الدوق فرنسيس ستيفن في مطالبته بالتاج الإمبراطوري. وسحبت الجنود النمساوية من بافاريا.

وفكرت الملكة الآن لا في استرداد سليزيا فحسب، بل في تقطيع أوصال بروسيا ضمناً لها من أطماع فردريك (80). وقد أفلقها مؤقتاً انتصار الفرنسيين على حلفائها الإنجليز في فومنتوا (11 مايو 1745)، ولكنها في ذلك الشهر أرسلت جيشها الرئيسي إلى سليزيا وأصدرت إليه الأمر بالدخول في المعركة. والتقى النمساويون الذين عززتهم فرقة سكسونية بفردريك في هونفريدبيرج (4 يونيو 1745). هنا أتقذته براعته التكتيكية، فقد نشر خياله ليستولوا على تل استطاعت مدفعيته أن تقصف منه مشاة العدو. وبعد ساعات من التقتيل انسحب النمساويون والسكسون تاركين وراءهم أربعة آلاف أسير وكانت تلك المعركة الفاصلة في الحروب السليزية.

وعادت إنجلترا تطوع دبلوماسيتها لمقتضيات السلام. فقد أكرهتها غزوة 1745 الإستيوارتية على سحب خيرة جندها من فلاندر، واستولى المرشال دساكس على المدينة تلو المدينة لفرنسا، وحتى على القاعدة الإنجليزية الكبرى في أوستند، وخشى جورج الثاني أن يصل الفرنسيون

صفحة رقم : 12282

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

المنتصرون إلى إمارته المحبوبة هانوفر. أما البرلمان البريطاني الذي خلع وليول لحبه السلام فقد مل الآن حرباً كلفت الملايين من الدنانير الغالية، فضلاً عن آلاف الرجال الذين يمكن تعويضهم، وناشد المبعوثون الإنجليز ماريا تريزا أن تصل إلى تفاهم مع فردريك تمكيناً للقوات النمساوية والإنجليزية من التركيز على فرنسا التي نفخ فيها العافية قائد كادت انتصاراته تعدل غرامياته. ولكن الملكة أبت، فهددت إنجلترا بسحب كل معونة وإنهاء كل دعم مالي، ولكنها أصرت على الرفض. فدعت إنجلترا فردريك إلى مؤتمر في هانوفر، وهناك وقعت مع ممثليه صلحاً منفرداً (26 أغسطس 1745)، وقبلت إنجلترا بمقتضى هذا الصلح شروط معاهدة برلين، التي أكدت ملكية بروسيا لسليزيا، ووافق فردريك على تأييد انتخاب الدوق فرانسيس ستيفن إمبراطوراً. وفي 4 أكتوبر، في فرانكفورت، توج فرانسيس إمبراطور، وأصبحت ماريا تريزا إمبراطورة.

وأمرت قوادها بأن يواصلوا الحرب. فقاتلوا البروسيين في زور بيوهيميا (30 سبتمبر) وفي هينير زدورف (24 نوفمبر)، وهزم النمساويون مرتين رغم تفوقهم العددي. وتقدم خلال ذلك جيش بروسي يقوده ليوبولد أمير أنهالت-دساو في سكسونيا، وعند كيسلدورف (15 ديسمبر) سحق القوات التي تحمي درسدن. ودخل فردريك درسدن قادماً إليها بعد النصر. دون مقاومة وفي شهامة وسماحة؛ فحظر أعمال النهب والسلب، وطمان أبناء أوغسطس الثالث الذين فروا إلى براغ. وعرض الانسحاب من سكسونيا إذا انضم الملك الناخب إلى إنجلترا في الاعتراف بتملك لسليزيا وكف عن مساعدته لماريا تريزا، ووافق أوغسطس. ووجدت ماريا تريزا نفسها وحيدة بعد أن تخلت عنها إنجلترا

وسكسونيا، فأبرمت معاهدة درسدن (25 ديسمبر 1745) التي نزلت فيها عن سيليزيا ومقاطعة جلاتز لبروسيا. وهكذا وضعت الحرب السيليزية الثانية أوزارها. وفقدت حرب الوراثة النمساوية الآن معناها، ولكنها استمرت؛ فحاربت فرنسا والنمسا وإنجلترا على السلطة في فلاندر؛ وحاربت فرنسا

صفحة رقم : 12283

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> حرب الوراثة النمساوية

وأسبانيا والنمسا وسردينيا على السلطة في إيطاليا. وكان لانتصارات النمساويين في إيطاليا ما يقابلها من انتصارات للفرنسيين في الأراضي المنخفضة. وأخيراً أكره الإعياء المالي، لا أي نفور من المذابح، المتخاصمين على الصلح. وانتهت حرب الوراثة النمساوية بنهاية مؤسفة بمقتضى معاهدة إكس لاشابل، بعد مفاوضات طالت من إبريل إلى نوفمبر 1748، وثبت بها استيلاء فردريك على سيليزيا، وكان هذا الكسب القيم الوحيد الذي استطاعت أي دولة من دول الظفر به لقاء ثمانية أعوام من التنافس في التدمير. فردت فرنسا الأراضي المنخفضة الجنوبية إلى النمسا رغم انتصارات ساكس؛ واعترفت بالأسرة الهانوفرية المالكة في إنجلترا، ووافقت على طرد المطالب الشاب بالعرش من الأراضي الفرنسية. واستراحت الدول ثمانية أعوام حتى يستطيع مخاض النساء أن يعوض النقص في الجيوش لجولة جديدة في لعبة الملوك.

صفحة رقم : 12284

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فردريك في أرض الوطن

5- فردريك في أرض الوطن

1750-1745



قفل الملك الظافر الذي أدركه التعب إلى برلين (28 ديسمبر 1745) وأقسم أن "سيكون منذ اليوم سلام إلى آخر حياتي!" (81) ونددت به كل أوروبا خارج بروسيا (ونددت به بعض الناس داخلها) لصاً غادراً، وأعجبت به لصاً ناجحاً. واستنكر فولير مذابحه ولقبه "الأكبر" (82) (أو العظيم). وكان فردريك قد رد في 1741 على احتجاجات الشاعر فقال:

تسألني كم من الزمن اتفق زملائي على أن يدمروا العالم فيه. وجوابي أنه ليس لي أدنى علم به، ولكن القتال أصبح فاشية هذا العصر، وفي ظني أن أمده سيطول. وقد أرسل لي الأبييه دسان-بيير، الذي يخصني بشرف مكاتبتني، كتاباً جميلاً في طريقه رد السلام إلى ربوع أوروبا والحفاظ عليه إلى الأبد..  
وكل ما ينقص الخطة لكي تتجح هو موافقة أوروبا وبضعة توافه مماثلة (83).  
وقد قدم لأوروبا دفاعه في كتابه الذي نشر بعد موته باسم "تاريخ

صفحة رقم : 12285

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فردريك في أرض الوطن

جيلي"، واعتق فيه مبدأ مكيافلي الذي غلب فيه مصلحة الدولة على مبادئ فضيلة الفرد.  
ربما رأت الأجيال القادمة دهشة في هذه المذكرات روايات عن معاهدات أبرمت ثم نقضت. ومع أن لهذه التصرفات سوابق كثيرة، فإنها ما كانت تشفع للمؤلف لو لم يكن لديه ميررات أفضل يعتذر بها عن سلوكه. إن مصلحة الدولة يجب أن تقوم قانوناً للملوك. ويجوز نقض المحالفات لأي من هذه الأسباب:

- 1- حين لا يوفى حليف ما بتعهداته؛
- 2- حين يببب حليف خداعك، وحين لا يكون أمامك سبيل إلا أن تسبقه إلى خداعه؛
- 3- حين تفرض عليك قوة قاهرة تضطرك إلى نقض اتفاقاتك،
- 4- حين تعوزك الوسائل لمواصلة الحرب.... ويبدو لي واضحاً جلياً أن الفرد الذي يتولى منصباً عاماً يجب عليه أن يوفي بوعده بكل أمانة... فإذا خدع استطاع أن يطلب حماية القوانين له.. ولكن إلى أي محكمة يلجأ الملك إذا انتهك ملك آخر الموائيق التي بذلها له؟ إن كلمة فرد ما تنطوي على كارثة لرجل واحد فقط، ولكن كلمة ملك قد تجر كارثة شاملة على أمم برمتها. وهذا كله يمكن اختزاله إلى سؤال واحد هو: هل من الخير أن يهلك الشعب أم أن يخرق الملك معاهدة؟؟ وأي أبله متردد في الجواب القاطع عن هذا السؤال؟ (84)

وقد وافق فردريك اللاهوت المسيحي على أن الإنسان بطبيعته شرير. فلما أعرب مفتش تعليم يدعى زولتسر عن الرأي بأن "ميل البشر الفطري يتجه إلى الخير أكثر من الشر" رد الملك عليه قائلاً "أواه يا عزيزي زولتسر، إنك لا تعرف هذا النوع الإنساني للعين" (85). ولم يقتصر فردريك على مجرد تقبل تحليل لاروشفوكو طبيعة البشر على أنها أنانية خالصة، بل آمن بأن الإنسان لن يقر بأن قيد على الجري وراء مصلحته إن لم يكبحه الخوف من الشرطة فما دامت الدولة هي الفرد مضروباً في أعداد كثيرة، وليس هناك شرطة دولية يردعها عن أنانيته الجماعية، فلا سبيل إذن إلى كبح جماحها إلا أن تخاف سطوة غيرها من الدول. ومن ثم كان أول واجبات "خادم الدولة الأول" (كما سمي فردريك نفسه) أن ينظم قوة الأمة على الدفاع،

صفحة رقم : 12286

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فردريك في أرض الوطن

وهي تتضمن السبق بالهجوم - أي أن تفعل بالآخرين ما يبيتون أن يفعلوه بك. وهكذا كان الجيش في رأى فردريك، كما كان في رأى أبيه، أساس الدولة. لقد أرسى دعائم اقتصاد تشرف عليه الحكومة وتخططه بعناية، ورعى الصناعة والتجارة، وبعث عملاءه إلى جميع أرجاء أوروبا ليجلبوا مهرة الصناعات، والمخترعين، والصناعات، ولكنه أحس أن هذا كله لا غناء فيه آخر الأمر إن لم يصنع من جنوده أفضل جيوش أوروبا تدريباً، وأضببطها نظاماً، وأجدرها بالثقة والاطمئنان.

أما وقد ملك هذا الجيش، ومعه بوليس حسن التنظيم، فإنه لم ير به حاجة إلى الدين معوناً على النظام الاجتماعي. فلما سأله وليم برنزويك ألا يرى أن الدين دعامة من أفضل دعائم سلطة الحاكم، أجاب "إنني أجد الكفاية في النظام والقوانين..... لقد كانت الدول تحكم حكماً جديراً بالإعجاب حين لم يكن لدينك وجود" (86) ولكنه قبل أي عون استطاع الدين بذله في غرس المشاعر الفاضلة التي تعين على "النظام". وحمى جميع الأديان في مملكته، ولكنه أصر على تعيين الأساقفة الكاثوليك لا سيما في سيليزيا. (كذلك أصر الملوك الكاثوليك على تعيين الأساقفة الكاثوليك، وعين الملوك الإنجليز الأساقفة الأنجليكان). وقرر أن يكون لكل إنسان الحرية في أن يعبد كما يشاء، أو لا يعبد على الإطلاق. وشمل هذا الروم الكاثوليك، والمسلمين، والتوحيديين، والملحدين. على أنه كان هناك قيد واحد على هذه الحرية، فحين كان الجدل الديني ينقلب إلى السب أو العنف الشديدين، كان فردريك يخدمه كما أي خطر يهدد السلام الداخلي. وفي سنواته الأخيرة كان أقل تسامحاً مع الهجمات على حكومته منه على الهجمات على الله. فأبي رجل كان، مرهب أوروبا هذا ومعبود الفلاسفة؟ لم يزد طوله على خمسة أقدام وست بوصات، وليست هذه بالقامة الشامخة. وقد غلبت عليه السمنة في شبابه، ولكنه غدا الآن بعد عشر سنين من الحكم والحرب نجحاً، عصبياً، مشدوداً، وكأنه سلك من الحساسية والنشاط الكهربيين، له عينان حادثان فيهما ذكاء متشكك، وله قدرة على الفكاكة، ونكته الذكية لا تقل حدة عن نكت فولتير. كان في وسعه، كإنسان لا يعارضه

صفحة رقم : 12287

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فردريك في أرض الوطن

أحد، أن يكون غاية في اللطف، ولكنه كملكاً كان صارماً، ونذر أن يخفف العدل بالرحمة، فكان يستطيع أن يناقش الفلسفة مع مساعديه وهو يرقب في هدوء جنوده وهم يعانون الجلد وكان لكلبيه لسان لاذع يجرح أصدقاءه أحياناً. وهو شديد الشح عادة، كريم بين الحين والحين. وإذ ألف أن يطاع، فقد أصبح مستبد الطبع، لا يكاد يطبق اعتراضاً، ونذر أن يلتمس النصيحة، ولا يعمل بها إطلاقاً. فيه وفاء لأخصائه، ولكنه يحتقر النوع الإنساني. نادر الحديث مع زوجته، يضيق عليها في النفقة، ومزق في وجهها الكشف الذي دونت فيه احتياجاتها في مسكنة (87). وكان عادة ودوداً لشقيقته فلهمينا، ولكنها هي أيضاً وجدته أحياناً متحفظاً فاتر العاطفة (88). أما غيرهن من النساء، باستثناء الأميرات من زواره، فقد باعد ما بينهن وبينه؛ ولم يكن به ميل للطائف الأنثى ومفانيتها، سواء الجسدية أو الخلقية، وقد أبغض ثثرة الصالونات. وأثر الفلاسفة والشبان ملاح الوجوه، وكثيراً ما صاحب هؤلاء إلا مسكنته بعد العشاء (89). وربما كان حبه للكلاب أكثر حتى من حبه لهؤلاء. وكان أحب رفاقه إليه في أخريات عمره كلابه السلوقية التي كانت تنام في فراشه؛ وقد أمر بإقامة أنصاب على قبورها، وبأن يدفن بجوارها (90). لقد وجد أن من العسير عليه أن يكون قائداً ناجحاً محبوباً في وقت واحد.

وفي 1747 أصيب بنوبة قلبية فالح وظل فاقد الوعي نصف ساعة(91). بعد هذا قاوم ضعف صحته بالعادات الثابتة والحمية، ينام على حشية رقيقة فوق سرير بسيط قابل للطي، ويستجلب النوم بالقراءة. وكان يقنع في منتصف عمره هذا بالنوم خمس ساعات أو ستاً في اليوم، فيستيقظ في الثالثة، أو الرابعة، أو الخامسة صيفاً، وبعد ذلك شتاء. لا يقوم على خدمته غير خادم واحد - أهم واجباته أن يوقد له ناره ويحلق له لحيته؛ وكان يحتقر الملوك الذين لا يستغنون عن مساعدين يلبسونهم. ولم يعرف عنه نظافة الشخص أو أناقة الملابس، فكان ينفق نصف يومه وهو في روبه، ونصفه وهو في سترة الحارس. يبدأ فطوره بعدة أكواب من الماء، ثم عدة أقذاح من القهوة، ثم يتناول بعض الكعك، ثم كثيراً من الفاكهة. وبعد الفطور يعزف على الفلوت، متأملاً شئون السياسة والفلسفة وهو ينفخ البتة.

صفحة رقم : 12288

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فردريك في أرض الوطن

وفي نحو الحادية عشرة من كل صباح يحضر تدريب جنده وعرضهم. وكانت وجبة الظهر الرئيسية تختلط عادة بالمداولات. ثم ينقلب بعد الظهر مؤلفاً، فينفق ساعة أو ساعتين في كتابة الشعر أو التاريخ؛ وسنجد مؤرخاً ممتازاً لأسرته ولجيله. فإذا فرغ ساعات للإدارة روح عن نفسه بالحديث مع العلماء، والفنانين، والشعراء، والموسيقيين. وفي السابعة مساءً قد يشارك في حفلة موسيقية عازفاً على الفلوت. وفي الثامنة والنصف يحل موعد حفلات عشاء المشهورة في سانسوسي عادة (بعد مايو 1747)، يدعو إليها أخص أخصائه، وكبار زواره، وأقطاب أكاديمية برلين. وكان يطلب إليهم أن يكونوا على سجيبتهم، وينسوا أنه ملك، ويتحدثوا دون خوف، وهو ما فعلوه في كل موضوع إلا السياسة. وكان فردريك نفسه يتكلم في إسهاب، وعلم، وذكاء. يقول أمير لين "كان حديثه موسوعياً، فالفنون الجميلة، والحرب، والطب، والأدب، والدين، والفلسفة، والأخلاق، والتاريخ، والتشريع، تعرض على بساط البحث كل في دوره"(92). ولم ينقص الحفل غير مفخرة واحد حتى يصبح مأدبة للفكر. وقد أقبل في 10 يوليو 1750.

صفحة رقم : 12289

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

6- فولتير في ألمانيا

لقد رضى حتى هو عن استقباله. فقد اصطنع فرديريك العادات الغالية في الترحيب به. كتب فولتير لريشليو يقول "تناول يدي ليقبلها، وقبلت أنا يده، وقلت إنني عبده" (93). وأفرد له مسكن أنيق في قصر سانسوسي، فوق الجناح الملكي مباشرة. ووضعت خيول الملكة ومركباته، وحوذيوه، ومطبخه، تحت تصرفه. وأحاط به أكثر من عشرة خدم يغالون في العناية به، وخطب وده عشرات الأمراء، والأميرات، والنبلاء، والملكة ذاتها. وقد عينه الملك كبيراً لأمنائه براتب قدره عشرون ألف فرنك في السنة، ولكن أهم واجباته كان تصحيح الفرنسية في شعر فرديريك وكلامه. ولم يتقدمه في حفلات العشاء غير الملك. وذهب زائر ألماني إلى "أن مطارحاتها أطرف ألف مرة من أي كتاب" (94).

صفحة رقم : 12290

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فرديريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

وقد قال فولتير بعد ذلك مستحضرًا هذه الأحاديث "لم يحظ مكان آخر في الدنيا بحرية أكبر في الحديث عن خرافات الإنسان" (95). وقد انتشى طرباً بهذا كله. فكتب إلى دارجنتال (سبتمبر 1750) يقول: إنني أجد مرفأً ألياً إليه بعد ثلاثين عاماً من العواصف. أجد حماية ملك، وحديث فيلسوف، وخلالاً لطيفة لإنسان محبوب، كلها مجتمعة في رجل ظل ستة عشر عاماً يتوق إلى تعزيتي عن عثرات حظي وتأميني من أعدائي... هنا أطمئن إلى مصير هادئ إلى النهاية. وإذا جاز للإنسان أن يطمئن إلى أي شيء، فهو خلق ملك بروسيا (96). وكتب إلى مدام دنييس يطلب إليها أن تحضر وتعيش معه في فردوسه. على أنها بحكمة أثرت بارييس والعشاق الأصغر، فحذرت من إطالة المكث في بلين. وقالت في خطابها إن صحبة السلطان لا يؤمن جانبها، فهو يغير رأيه ويبدل محاسبيته، وعلى المرء أن يكون على حذر دائماً من أن يعارض مزاجه أو إرادته، وسيجد فولتير نفسه إن عاجلاً أو آجلاً خادماً وسجيناً أكثر منه صديقاً (97). وأرسل الفيلسوف الأحق الخطاب إلى فرديريك فكتب له هذا الرد (23 أغسطس) وهو كاره أن يفقد الغنيمة التي تريد الظفر بها:

قرأت الخطاب الذي كتبه ابن أختك من بارييس. وإني لأقدر لها الود الذي تكنه لك. ولو كنت مكان مدام دنييس لفكرت كما تفكر، أما وأنا ما أنا، فإني أفكر بطريقة أخرى. وإنه ليحزنني أن أكون سبباً في تعاسة عدو، فكيف إذن أبغي بلية رجل أقدره، وأحبه، يضحى من أجلي ببلده وكل ما هو عزيز على الإنسانية، لا يا عزيزي فولتير، لو أنني تبينت أن انتقال إلى هنا سيحلق بك أقل أذى لكنت أول من يثنيك عنه. وإني لأؤثر سعادتك على سروري المفرط بتملكك. ولكنك فيلسوف، وكذلك أنا، فأى شيء إذن أكثر طبيعية، وبساطة، وتمشياً مع نظام الأشياء، من أن يمنح فلاسفة خلقوا ليعيشوا معاً، تربطهم دراسات واحدة، وميول واحدة،

صفحة رقم : 12291

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

وطريقة تفكير مشابهة، يمنح بعضهم بعضاً هذا الإشباع لرغباتهم؟... إنني موقن بأنك ستكون سعيداً جداً هنا، وأنك ستعد أياً للدب ولأصحاب الذوق، وأنك واجد في كل التعزيات التي يمكن أن يتوقعها رجل له كفايتك من رجل يقدره. مساء الخير(98).

ولم يقتضي تدمير هذا الفردوس من أكبر الفيلسوفين سناً أكثر من أربعة أشهر. لقد كان فولتير مليونيراً، ولكنه، لم يطق أن يفوت عليه فرصة قد تضخم ثروته. ذلك أن بنك سكسونيا كان قد أصدر أوراقاً سميت "شهادات إيراد"، هبطت إلى نصف قيمتها الأصلية. وقد اشترط فردريك في معاهدة درسدن دفع ثمن الأوراق التي اشتراها البروسيون، عند استحقاقها بقيمتها الاسمية ذهباً، واشترى بعض البروسيين الخبثاء بعض هذه الأوراق بثمن بخس في هولندا ثم صرفوا ثمنها كاملاً في بروسيا. وفي مايو 1748 حضر فردريك هذا الاستيراد إنصافاً لسكسونيا. وفي 23 نوفمبر 1748 استدعى فولتير في بونستادام مصرفياً يهودياً يدعى أبراهام هيرشي. وفي رواية هيرش أن فولتير طلب إليه أن يذهب إلى درسدن وبيتاع له بمبلغ 18,430 أيكوسا أوراقاً بسعر خمسة وثلاثين في المائة من قيمتها الاسمية. وزعم هيرش أنه نبه فولتير إلى أن هذه الأوراق المالية لا يمكن جلبها قانوناً إلى بروسيا، وأن فولتير وعده بأن يحميه، وأعطاه خطابات تحويل على باريس وليبزج. وضمناً لهذه المبالغ أودع هيرش لدى فولتير ماسات من قبل بمبلغ 18,430 أيكوسا. ولكن فولتير ندم على هذه الاتفاقات بعد رحيل عميله، وقرر هيرش بعد وصوله إلى درسدن ألا يمضي في تنفيذ العملية. وأوقف فولتير الدفع على خطابات التحويل، وعاد المصرفي إلى برلين. ويقول هيرش إن فولتير حاول أن يرشوه ليسكت، بشراء ماسات قيمتها ثلاثة آلاف أيكوس. وتنازعا على تقدير القيمة وأمسك فولتير برقية هيرش وصرعه(99)؛ فلما لم يتلق ترضية أكثر من هذا جعل السلطات تقيض عليه، وعرض النزاع على المحكمة علناً (30 ديسمبر). وفضح هيرش خطة فولتير لشراء الأوراق السكسونية، فأنكرها فولتير زاعماً أنه أرسل هيرش إلى درسدن لشراء فراء، ولكن أحداً لم يصدقه.

صفحة رقم : 12292

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

فلما سمع فردريك بهذه الورطة بعث برسالة غاضبة من بونستادام إلى فولتير في برلين (24 فبراير 1751): لقد سرني أن أستقبلك في بيتي؛ وقدرت عبقرتك، ومواهبك، وعلمك، وكان لي ما يبهر اعتقادي بأن رجلاً في مثل سنك أعياء النضال مع الكتاب والتعرض للعاطفة يجئ إلى هذا المكان ليحتمي به احتماؤه بمرافاً أمن. ولكنك حين وصلت انتزعت مني بصورة غريبة بعض الشيء أمراً بالأكلف فريرون بكتابة الأبناء من باريس، وكان من الضعف... ما جعلني أمنحك سؤالك، مع أنه ليس من حقك أن تقرر أي الأشخاص يجب أن أستخدم. وقد شعرت بأن باكولار دارنو (شاعر فرنسي في بلاط فردريك) أساء إليك، والرجل الكريم السمع كان يعفو عنه، أما المنتقم فيطارد أولئك الذين يطيب له أن يبعضهم... ومع أن دارنو لم يسئ إلي بشئ، فإني طردته بسببك... ثم كانت لك مع يهودي خصومة هي أفزر الخصومات في الدنيا، وقد أثارت فضيحة رهيبه في طول المدينة وعرضها. ومساءلة شهادات الإيراد تلك معروفة جيداً في سكسونيا حتى لقد شكوا لي شكواي مرة.

وإنني من جهتي كنت محافظاً على الهدوء والسلام في بيتي حتى وصلت؛ وإني أندررت بأنك إن كنت مولعاً بالدس والتأمر فقد أخطأت اختيار من يعينك عليه. فإني أحب الناس المسالمين الهادئين الذين لا يشيعون في سلوكهم انفعالات

الدراما المأساوية. فإن اعتزمت العيش عيشة الفلاسفة، فسيسرني أن ألقاك، أما إن أسلمت نفسك لكل سوررات غضبك وانفعالك ودخلت في مشاجرات مع كل الناس، فإنك لن تحسن إلي بمجيبك هنا، وخير لك أن تبق في برلين. وحكمت المحكمة لصالح فولتير. وأرسل إلى الملك اعتذارات ذليلة وعفا عنه فردريك، ولكنه نصحه بأن "يكف عن الشجار، سواء مع العهد القديم أو الجديد" (100). وبعدها أنزل فولتير بيتاً ريفياً لطيفاً

صفحة رقم : 12293

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

يسمى "بيت المريكز" ويقع قرب سانسوسي. وأرسل له الملك تأكيدات باحترامه المجدد، ولكن حماقة فولتير لم تذهب به إلى حد الثقة بها. وبعث له الملك الشاعر قصائد يطلب إليه تهذيب فرنسيتها، وأضنى فولتير نفسه فيها كثيراً وأغضب كاتبها بإدخال تغييرات حادة عليها. ونظم فولتير الآن قصيدته المسماة "في القانون الطبيعي"، وقد حاولت أن تجد الله في الطبيعة، مقتدية في ذلك بطريقة الكسندر بوب على الأخص. وأهم من هذه القصيدة مضموناً قصيدة "عصر لويس الرابع عشر" التي أكملها وصقلها خلال تلك الأشهر ثم نشرها في برلين (1751). وكان حريصاً على الفراغ من طبعها قبل أن يضطر لسبب ما إلى الرحيل عن ألمانيا لأنها لن تكون بمأمن من الرقابة على المطبوعات إلا في رعاية فردريك. كتب إلى ريشليو في 31 أغسطس "تعلم جيداً أنه ليس هناك (في باريس) رقيب صغير واحد للكتب لا يعتبر تشويه عملي أو مصادره حسنة أو واجباً" (101). وحظر بيع الكتاب في فرنسا، وأصدر تجار الكتب في هولندا وإنجلترا طبعات مسروقة لم ينقذوا عليها شيئاً؛ فإذا عرفنا هذا فهمنا حبه للمال فهماً أفضل. لقد كان عليه أن يحارب "تجار الكتب الأوغاد" (102) لا رجال الدين والحكومات فحسب. و"عصر لويس الرابع عشر" أكثر أعمال فولتير وأمانة في الإعداد فقد خطط له في 1732، وبدأت في 1734، ونحاه جانباً في 1738، ثم عاد إليه في 1750. وقد قرأ له مائتي مجلد، وتللا من المذكرات غير المنشورة، واستشار عشرات الناس ممن بقوا على قيد الحياة بعد العصر العظيم، ودروس الأوراق الأصلية التي كتبها أبطال العصر أمثال لوفوا وكولبير، وحصل من الدوق دنواي على مخطوطات التي خلفها لويس الرابع عشر، ووجد وثائق هامة لم تستخدم إلى ذلك الحين في دار محفوظات اللوفر (103). ووازن بين الأدلة المتضاربة بحكمة وعناية، وحقق مرتبة عالية من الدقة. لقد حاول مع مادم دشاتليه أن يكون عالماً ففشل، والآن اتجه إلى كتابة التاريخ وكان نجاحه في ذلك ثورة.

صفحة رقم : 12294

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

وقد أعرب قبل ذلك بزمن طويل عن هدفه في خطاب تاريخه 18 يناير 1739: "أن هدفي الأهم ليس التاريخ السياسي والحربي، بل تاريخ الآداب والفنون، تاريخ التجارة، تاريخ الحضارة - وبعبارة موجزة، تاريخ العقل الإنساني. "وأعرب عنه إعراباً أفضل حتى من هذا خطاب كتبه لتييري في 1736. يقول:

حين طلبت حكايات ونوادير عن عصر لويس الرابع عشر لم أكن أقصد الملك ذاته بقدر ما أقصد الآداب والفنون التي ازدهرت في عهده. وإني لأؤثر تفاصيل عن راسين وبوالو، وكينو ولولى، ومولير، ولوبرون، وبوسويه، وبوسان، وديكارت، وغيرهم، لأعن معركة سنتكري. لم يبق من أولئك الذين قادوا الجيوش والأساطيل إلا اسمهم، ولا ثمر بجنه النوع الإنساني من مائة معركة كسبت، أما الرجال العظماء الذين ذكرتهم فقد جهزوا مباحج صافية باقية لأجيال لم تولد. فقناة تربط بين بحرين، أو لوحة بريشة بوسان، أو مأساة رائعة، أو حقيقة يماط عنها اللثام، هذه كلها أشياء أثنى ألف مرة من جميع حوليات البلاط، وكل قصص الحرب. وأنت تعلم أن العظماء من الرجال هم الأوائل في نظري، أما "الأبطال" فهم الأواخر. والعظماء عندي هم كل الذين بزوا غيرهم في النافع المبهج. أما الذين يخرجون الأقطار فليسوا أكثر من أبطال (104).

وربما رفع فولتير الأبطال العسكريين من مكانهم في المؤخرة إذا أنقذت انتصاراتهم الحضارة من الهمجية؛ ولكن كان من الطبيعي أن يجد الفيلسوف الذي لم يعرف سلاحاً غير الألفاظ متعة في رفع اضرابه إلى مكان مرموق، واسمه خير بيان لنظريته لأنه لم يزل بعد قرنين من الزمان أبرز الأسماء في ذكرنا لعصره. وكانت نيته في الأصل أن يخصص الكتاب برمته التاريخ الثقافي. ثم أشارت عليه مدام دشاتليه بكتابة "تاريخ عام" للأمم؛ وعليه فقد ألف فصولاً في السياسة، والحرب، والبلاط، ليجعل المجلد تنمة متجانسة لكتاب أكبر عنوانه "مقال في التاريخ العام" كان يتخلف تحت قلمه. ولعل هذا هو السبب في أن التاريخ الثقافي غير مندمج في بقية المجلد، فالنصف الأول من الكتاب مخصص للتاريخ السياسي والحربي، ثم تأتي أقسام

صفحة رقم : 12295

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

عن العادات "خصائص ونوادير"، والحكومة، والتجارة، والعلوم، والآداب، والفن، والدين. وتطلع الكاتب المطارد خلفه في إعجاب إلى العهد كان الملك فيه يكرم الشعراء (إذا لم يحيدوا عن الجادة)؛ وربما كان تشديده على دعم لويس الرابع عشر للآداب والفنون هجوماً جانبياً على عدم اكتراث لويس الخامس عشر بمثل هذه الرعاية. أما وقد برزت الآن عظمة العصر الماضي في هذه الذكرى الممومة "وأغفل ذكر استبداده وغارات خياليه على البيوت، فإن فولتير راح يضيف شيئاً من الكمال على الملك الشمس وبطرب لانتصارات القواد الفرنسيين - وإن وسم بالعار تدمير البلاطيات. ولكن النقد يخفي رأسه أمام هذه المحاولة الحديثة الأولى لكتابه التاريخ المتكامل. وقد أدرك المعاصرون الفطنون أن هذه بداية جديدة- فهي التاريخ يترجم للحضارة، التاريخ الذي حوله الفن والنظرة الصحيحة أدباً وفلسفة. فما انقضى عام على نشره حتى كتب إيرل تشستر فيلد لولده يقول:

لقد أرسل من فولتير إلى برلين كتابه "تاريخ عصر لويس الرابع عشر" وقد جاءني في أوانه، ذلك أن اللورد بولتيروك علمني مؤخراً كيف ينبغي أن يقرأ التاريخ. وها هو ذا فولتير يريني كيف أن يكتب... إنه تاريخ الفهم الإنساني، بقلم عبقري لينتفع به الأذكاء من الناس... وقد تحرر مؤلفه من الأهواء الدينية والفلسفية والسياسية والقومية أكثر من أي مؤرخ صادفته إطلاقاً، ومن ثم فهو يروي هذه الأمور كلها بصدق ونزاهة على قدر ما تسمح له بعض الاعتبارات التي لا مفر دائماً من مراعاتها (105).

وكان فولتير خلال جهوده الأدبية يرما بوضعه القلق في بلاط فردريك. ذلك أن لامتري، الرجل المادي النزعة المرح الطبع الذي كان كثيراً ما يقرأ للملك، نقل في أغسطس 1751 إلى فولتير ملاحظة أباها مضيفهما: "سأحتاج إليه (أي فولتير) سنة أخرى على الأكثر (مهذباً لفرنسية الملك)؛ إن الناس يعترضون البرتقالة ثم يلقون قشرتها" (106).

ويتشكك البعض في صحة نسبة هذه الملاحظة إلى فردريك، إذ لم يكن في طبعه أن يفضي بسرّه لأحد على هذا النحو، ولم يكن مستحيلاً على لامتري أن يتمنى إقصاء فولتير

صفحة رقم : 12296

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

عن حظوته. كتب فولتير إلى مدام دنيس في 2 سبتمبر يقول "بذلت قصارى جهدي لكيلا أصدق لامتري، ولكني ما زلت حائراً". ثم كتب إليها في 29 أكتوبر يقول "مازلت أحلم بقشرة البرتقالة تلك... وما أشبهني بذلك الرجل الذي كان يسقط من برج فلما وجد نفسه مرتاحاً في الهواء قال لا بأس بهذا الوضع لو دام" (107). وكان في ألمانيا رجل آخر شارك في المهزلة. وقال فردريك إنه لا بد من زوال واحد من رجلين فرنسيين في بلاط واحد (108) ذلك أن موبرتوي عميد أكاديمية برلين، كان لا يتقدم عليه مقاماً بين ضيوف الملك في سانسوسي غير فولتير؛ وكان كلا الرجلين ضيفاً بهذا الجوار؛ ولعل فولتير لم ينس أن مدام دشاتليه كانت يوماً ما مغرمة بموبرتوي. وفي أبريل 1751 أقام فولتير وليمة دعا إليها موبرتوي فلبى الدعوة. وقال له فولتير إن كتابك "عن السعادة" أمتعني كثيراً، باستثناء بضعة غوامض سنناقشها معاً ذات مساء. "وعبس موبرتوي وقال "غوامض"؟ قد يكون هناك غوامض بالنسبة لك يا سيدي. "ووضع فولتير يده على كتف العالم وقال "سيدي العميد، إنني أفدرك، فأنت رجل شجاع، تريد الحرب. فلتخوضها إذن، ولكن دعنا الآن نأكل شواء الملك" (109). وكتب إلى دارجنتال (4 مايو) يقول "الم يؤت موبرتوي من آداب السلوك ما يفتن كثيراً. إنه يقيس أبعادي بربعيته في خشونة؛ ويقولون أن معلوماته يخالطها الحسد... إنه رجل فيه بعض الفظاظ، وليس اجتماعياً جداً". ثم كتب إلى ابنة أخته دنيس في 24 يوليو يقول "لقد أشاع موبرتوي بدهاء أنني وجدت "أعمال" الملك رديئة جداً، وأنني قلت لبعضهم وأنا أتسلم بعض أشعار الملك (ألا يتعب إرسال غسيله القذر إلى لأغسله"؟ (110) وليس من المؤكد أن موبرتوي حمل هذه الشائعة إلى فردريك، ولكن فولتير ظنه مؤكداً، فعقد النية على الحرب. وكان من إسهامات موبرتوي في العلم "مبدأ الحركة الدنيا" \_ أي أن كل التماثيل في عالم الحركة تتجز بأقل قوة تكفي لأحداث النتيجة. وقد تعثر صموئيل كوينيج، الذي دان لموبرتوي بعضيته في أكاديمية برلين، على

صفحة رقم : 12297

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

وثيقة قيل إنها نسخة من خطاب غير منشور كتبه ليبنتز، وسبق فيه إلى وضع هذا المبدأ. وكتب كوينيج مقالا عن هذا الكشف، ولكنه عرضه على موبرتوي قبل أن ينشره، وأبدى استعدادة للعدول عن النشر إذا اعترض عليه العميد. غير أن موبرتوي وافق على نشره، ربما بعد أن اطلع عليه على عجل. وطبع مقال كوينيج في عدد مارس 1751 من مجلة



"أكتا إيروديتورم" التي تصدر في ليبزج، فأثار نشره ضجة. وطلب موبرتوي إلى كوينيج أن يقدم خطاب لبينتز إلى الأكاديمية، ورد كوينيج بأنه لم ير غير نسخة منه بين أوراق صديقه هنتسي الذي شنق في 1749، وأنه نقل نسخة عن هذه النسخة، وهو مرسلها الآن إلى موبرتوي، ولكن هذا عاد فطالب بالأصل. واعترف كوينيج بأن الأصل لا يمكن العثور عليه الآن لأن أوراق هنتسي تبذرت بعد موته. وعرض موبرتوي الأمر على الأكاديمية (7 أكتوبر 1751)، فأرسل سكرتيرها إلى كوينيج أمراً نهائياً أصل الخطاب، فلم يستطع. وعليه ففي 13 أبريل 1752 حكمت الأكاديمية بأن خطاب لبينتز المزعم مزيف. ولم يحضر موبرتوي هذه الجلسة لأنه شكاً نزفاً سببته إصابة بالسل (111). وأرسل كوينيج استقالته من الأكاديمية، وأصدر "نداء إلى الشعب" (سبتمبر 1752). وكان كوينيج قد أنفق مرة عامين في سيريه ضيفاً على فولتير ومدام دشاتليه. وقرر أن ييضرب ضربة دفاعاً عن صديقه القديم ضد عدوه الحالي. ففي عدد 18 سبتمبر من مجلة "المكتبة العقلانية" ظهر مقال بعنوان "رد عضو في أكاديمية برلين على عضو في أكاديمية باريس" دافع من جديد عن كوينيج وخلص إلى أن: "السيد موبرتوي مذنب أمام الدوائر العلمية الأوروبية لا بالانتحال والخطأ فحسب، بل باستغلال منصبه لمصادرة النقاش الحر، واضطهاد رجل شريف... وقد احتج عدة أعضاء من أكاديمتنا على هذا الإجراء الفاضح، ولولا خشيتهم من إغضاب الملك لتركوا الأكاديمية" (112). وكان المقال غفلاً من الإمضاء، ولكن فردريك عرف لمسة فولتير

صفحة رقم : 12298

قصة الحضارة - < عصر فولتير - < أوروبا الوسطى - < فردريك الأكبر وماريا تريزا - < فولتير في ألمانيا

الغادرة. وبدلاً أن يقذفه بصاعقة ملكية، كتب رداً وصف فيه الرد المذكور بأنه "خبيث، جبان، دنى" ووسم كاتبه بأنه "دجال لا يستحي"، "ولص قبيح" و "ملفق للطعون الغبية" (113). وكان هذا الرد أيضاً غفلاً من التوقيع، ولكن صفحة الغلاف تحمل الأسلحة البروسية ومعها النسر، والصولجان، والتاج. وأحس فولتير أن كبرياءه قد جرح، ولم يكن في طاقته قط أن يترك لعدو الكلمة الأخيرة، ولعله وطن النفس على أن يختصم الملك. وكتب لمدام دينس (18 أكتوبر 1752) يقول "لست أملك صولجاناً، ولكني أملك قلماً." ثم استغل غاية الاستغلال نشر موبرتوي مؤخراً (درسدن، 1752) لسلسلة من "الرسائل" اقترح فيها حفر ثقب في الكرة الأرضية، إلى مركزها إن أمكن، لدراسة تركيبها، ونسف هرم من أهرام مصر للكشف عن أسرار هدفها وتصميمها، وبناء مدينة لا يتكلم الناس فيها غير اللاتينية حتى يقضي الطلاب فيها عاماً أو عامين ويتعلموا تلك اللغة كما تعلموا القومية، وألا ينقد الطبيب أجره إلا بعد شفاء المريض، وأن جرعة كافية من الأفيون قد تمكن متعاطيها من التنبؤ بالمستقبل، وأن العناية الصحيحة بالجسم قد تتيح لنا إطالة العمر إلى ما لا نهاية (114). وانقض فولتير على هذه الرسائل انقضاضه على فريسة سهلة، مغفلاً بعناية أي فقرة فيها إدراك سليم أو أي لمحات من الفكاهة ثم قذف بالباقي في مرح على قرون دعايته الذكية. وهكذا كتب في نوفمبر 1752 "خطاب الدكتور أكاكيا، طبيب البابا المقيم." وكامة (Diatribes) (ومعناها الآن هجاء) كانت تعنى يومها خطاباً، أما akakia فكلمة يونانية معناها "غرارة أو غفلة". وقد بدأ الطبيب المزعم في براءة ظاهرة بتشككه في أن يكون رجل عظيم كعميد أكاديمية برلين مؤلفاً لكتاب بهذا السخف. وعلى أي حال "ليس في عصرنا هذا ما هو أشيع وأعم من أن يزيّف مؤلفون صغار جهل على العالم، تحت أسماء مشهورة، كتباً غير جديرة بالمؤلفين المزعومين. فلا بد أن هذه الرسائل هي من هذا الضرب من التزييف، لأنه مجال أن يكون العميد العلامة قد

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

كتب هذا الهراء. وخص الدكتور أكايا بالاحتجاج على ذلك الاقتراح بعدم نقد الطبيب أجره إلا بعد شفاء المريض- وهو اقتراح ربما كان يمس وتراً متعاطفاً في صدر فولتير الموجه، ولكن "أينكر الموكل على محاميه أتعبه التي يستحقها لأنه خسر قضيته؟ إن الطبيب يعد مريضه بأن يعينه لا بأن يشفه. وهو يبذل ما في وسعه وينقد أجره على هذا الأساس"، وكيف يكون شعور عضو الأكاديمية إذا اقتطع قدر معين من الدوقاتيات من راتبه السنوي نظير كل غلطة ارتكبها، أو كل قول سخيف فاه به، خلال العام؟ وراح الطبيب يفصل ما اعتبره فولتير أغلاطاً أو سخافات في أعمال موبرتوي(115).

ولم يكن هجاؤه هذا بالبيرة التي يخالها الناس عموماً، فكثير منه معاد وبعض ما فيه من نبش عن الأخطاء تافه غير كريم؛ ونحن نخفي حقدنا في أيامنا هذه بأدب أكثر. ولكن فولتير سر بتمثيله هذه سروراً لم يستطع معه أن يقاوم بهجة رؤيتها مطبوعة. فأرسل مخطوطة منها إلى ناشر في لاهاي، وأرى الملك في الوقت نفسه مخطوطة أخرى. واستمتع فردريك بقراءة الهجاء (أو هكذا قيل) وكان بينه وبين نفسه يوافق على أن موبرتوي فيه أحياناً غرور لا يطاق، ولكنه نهى فولتير عن نشره، ووضح أنه وجد في لنشر مساساً بكرامة أكاديمية برلين وسمعتها. وسمح له فولتير بأن يحتفظ بالمخطوطة، ولكن الهجاء نشر رغم ذلك في هولندا. وسرعان ما انبثت ثلاثون ألف نسخة منه في أرجاء باريس، وبروكسل، ولاهاي، وبرلين. ووصلت نسخة منها ليد فردريك، فأعرب عن غضبه بعبارات جعلت فولتير يفر إلى مسكن خاص في العاصمة. وفي 24 ديسمبر 1752 رأى من نافذته جلال الدولة الرسمي يحرق كتابه على الملأ. وفي أول يناير 1753 رد لفردريك مفتاحه الذهبي بوصفه أميناً للقصر، وصليب الاستحقاق الذي خلعه عليه. وكان الآن مريضاً حقاً، تلهب الحمرة جبينه، وترهق الدوزنتاريا أمعاءه، وتبرى الحمى جسده. فلزم فراشه في 2 فبراير ولم يبرحه طوال

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

أسبوعين، وبدا عليه كما قال زائر عاده في مرضه "كل مظهر الهيكل العظمى" (116). ورق له قلب فردريك، فأوفد طبيبه الخاص ليرعى الشاعر. فلما تحسنت صحته كتب إلى الملك يستأذنه في زيارة بلومبيير، فلعل مياهها تشفى حمرة. وأمر فردريك سكرتيره بأن يرد عليه (16 مايو) "بأن في استطاعته أن يترك هذه الخدمة حين يشاء، وأنه لا حاجة به للاعتذار بمياه بلومبيير، ولكن عليه أن يتكرم قبل رحيله بأن يرد إلى ... مجلد القصائد الذي عهدت به إليه" (117). وفي الثامن عشر من الشهر دعا الملك فولتير للعودة إلى مسكنه القديم في سانسوسي. وأتى فولتير، ومكث ثمانية أيام، وبدا أنه أصلح ما بينه وبين الملك. ولكنه احتفظ بقصائد الملك. وفي 26 مارس ودع فردريك، وتظاهر كلاهما بأن الفراق إلى حين. وقال الملك "اعتن بصحتك قبل كل شيء، ولا تنس أنني أنتظر عودتك بعد استشفائك بالمياه... رحلة طبية!" (118) ولم يلتقيا بعدها قط.

وهكذا انتهت هذه الصداقة التاريخية، ولكن العداوات السخيفة استمرت. فقد انطلق فولتير مع سكرتيره ومناعه يتأرجح في مركبته إلى الأمان في ليبزج السكسونية. هناك تلكاً ثلاثة أسابيع بحجة ضعف صحته، وأضاف مزيداً إلى "الخطاب". وفي 6 أبريل تلقى رسالة من موبرتوي يقول فيها:  
تقول الجرائد إنك تخلفت في ليبزج لمرضك، ولكن معلوماتي الخاصة تؤكد لي أنك لا تمكث هناك إلا لطبع مزيد من القذف في.. إنني لم أسئ إليك قط، وما كتبت ضدك ولا قلت شيئاً قط. لقد كنت على الدوام أراه أمراً لا يليق بي أن أراذ على السفاهات التي رحت تذيعها عني... ولكن إذا صح أن في نيتك العودة إلى مهاجمتي في مسائل شخصية،... فإنني أندرك بأن في من العافية ما يمكنني من العثور عليك أنى كنت، وأصب جام غضبي وانتقامي عليك(119).  
ورغم ذلك طبع فولتير "الخطاب" المنقح، وطبع معه رسالة موبرتوي. وأصبح الكتيب، الذي تضخم الآن حتى بلغ خمسين صفحة، حديث القصور والبلاطات في ألمانيا وفرنسا. وكتبت فلهمينا من بايرويت إلى فردريك

صفحة رقم : 12301

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

(24 أبريل 1753) تعترف بأنها لم تملك نفسها من الضحك على الخطاب. أما موبرتوي فلم ينفذ تهديده، كذلك لم يمت غيضاً وكمداً كما ظن البعض؛ فلقد عمر ست سنوات بعد الدكتور أكاكيا، ومات بالسل في بازل عام 1759. وفي 19 أبريل رحل فولتير إلى جوتا، ونزل فندقاً عاماً بها، ولكن سرعان ما أقنعه دوق ودوقة ساكس-جوتا بالنزول ضيفاً عليهما قصرهما. ولما كان بلاطهما الصغير يهتم بالثقافة، فقد جمعت الدوقة الأعيان والأدباء، وقرأ لهم فولتير شيئاً من أعماله، حتى من قصيدة "لا بوسيل المرحلة". ثم مضى إلى فرانكفورت -أم على ميين، وهناك أدركته إلهة الانتقام.

ذلك أن فردريك حين تبين أن فولتير يواصل الحرب التي شنها على موبرتوي، خامرته الظنون في أن الشاعر المستهتر قد يذيع على الناس القصائد التي كتبها الملك، والتي لم تزل نسخة منها طبعت سراً. في حوزة فولتير وهي قصائد في بعضها خروج عن اللياقة، وبعضها يتهم بالمسيحية، وبعضها يتحدث عن الأحياء من الملوك حديثاً فيه من الدعاية أكثر مما فيه من الاحترام، فمن شأنها أن تنفر منه قوى نافعة. وعليه فقد أرسل إلى فربتاج، المقيم البروسي في فرانكفورت، يأمره بحبس فولتير حتى يسلم "ذلك الهيكل العظمى، الشيطاني" قصائد الملك وشتى الأوسمة التي خلعها عليه إبان "شهر العسل". وكانت فرانكفورت "مدينة حرة"، ولكنها تعتمد على رضى فردريك اعتماداً لم تجرؤ معه على التدخل في هذه الأوامر؛ أضف إلى ذلك أن فولتير كان من الناحية الرسمية لا يزال في خدمة ملك بروسيا وفي إجازة ممنوحة منه. ومن ثم قصد فربتاج في أول يونيو فندق الأسد الذهبي الذي وصل إليه فولتير البارحة، وطلب إليه في أدب أن يسلمه الأوسمة والقصائد. وسمح فولتير للمقيم بأن يفتش مناعه ويأخذ الأوسمة الملكية، أما قصائد الملك فقال إنها على الأرجح في صندوق أرسله إلى همبورج. وأمر فربتاج بوضعه تحت الحراسة حتى يعاد الصندوق من همبورج. وفي 9 يونيو تعزى الفيلسوف المغيظ بوصول مدام دنيس،

صفحة رقم : 12302

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

التي أعانته على التنفس عن غيظه. وقد راعها هزاله "كنت على يقين من أن هذا الرجل (فردريك) قاتلك!" وفي 18 يونيو وصل الصندوق، وعثر فيه على المجلد المحتوي على القصاصد، وسلم للمقيم، ولكن في يوم ذاته وصل توجيه جديد من بوتسدام يأمر فريتاج بالاحتفاظ "بالوضع الراهن" لحين وصول أوامر أخرى. فحاول فولتير الهروب بعد أن عبل صبره، وفي 20 يونيو ترك حقائبه مع ابنة أخته وفر هو وسكرتيره خلسة من فرانكفورت. ولكن فريتاج لحق بهما قبل أن يجتازا الحدود الإدارية للمدينة، وعاد بهما إليهما وأودعهما سجينين في فندق العنزة، لأن "صاحب فندق الأسد أبى أن يستبقي فولتير أطول مما بقي عنده بسبب شحه الذي لا يصدق" (120) (في رواية فريتاج). واستولى أسرو فولتير على نقوده كلها، وعلى ساعته، وبعض جواهره التي يتحلى بها، وصندوق نشوقه. الذي رد إليه سريعاً بناء على توسله لأنه قال إنه لا غنى لحياته عنه. وفي 21 يونيو وصل خطاب من فردريك يأمر بالإفراج عن فولتير، ولكن فريتاج رأى أن الأمانة في أداء الواجب تقتضيه أن يبنى الملك بمحاولة فولتير الهروب، فهل يطلق سراحه رغم ذلك؟ وفي 5 يونيو وافق فردريك على الإفراج عنه، وأطلق سراحه بعد اعتقاله خمسة وثلاثين يوماً. وفي 7 يونيو غادر فرانكفورت إلى ميوز، وعادت مدام دنييس إلى باريس، بأمل الحصول على إذن لفولتير بدخول فرنسا.

وكان نبأ اعتقاله قد ذاع، فاحتفل به القوم وأشادوا به حيثما ذهب، لأن فردريك لم يحبه أحد غير أخته فلهلمينا، أما فولتير فهو رغم شيطنته كلها كان أعظم الأحياء من الشعراء، والمسرحيين، والمؤرخين. وبعد أن قضى ثلاثة أسابيع في ميوز رحل في بطانة كبطانات الأمراء إلى مانهايم وستراسبورج (15 أغسطس إلى 2 أكتوبر) حيث أمتع روحه بفكرة وجوده على أرض فرنسية. ثم مضى إلى كولمار (2 أكتوبر) حيث زارته فلهلمينا في طريقها إلى مونيليه وطيبت خاطره "بالأنعامات" واسترد من عافيته ما أوحى إليه ببعض رسائل ظريفة لمدام دنييس التي كانت تشكو ورماً في فخذها:

صفحة رقم : 12303

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

بالله يا طفلي العزيزة ما الذي تريد ساقاك وساقاي أن تقول؟ لو أنها كانت معاً لما شكت مرضاً... إن فخذك لم يخلقا للألم. فهذان الفخذان اللذان سيقلان بعد قليل يلقيان الآن معاملة مخزية (121).

وكتب في لهجة أكثر تواضعاً إلى مدام بمبادور يتوسل بنفوذها على لويس الخامس عشر ليسمح له بالعودة إلى باريس. ولكن ناشراً لاصاً في لاهاي كان قد نشر طبعة مشوهة سماها "موجز التاريخ العام" اختصر منها كتاب "مقال التاريخ العام" أو "مقال في العزف" الذي لم يتمه فولتير، وقد احتوى نقداً جارحاً للمسيحية. وبيع الموجز بسرعة في باريس، قال لويس الخامس عشر لبومبادور "لست أريد أن يأتي فولتير إلى باريس" (122) وطالب اليسوعيون في كولمار بطرده من تلك المدينة، فحاول أن يسترضى أعداءه الكنسيين بتناوله القربان في عيد القيامة. وكانت النتيجة الوحيدة لهذا العمل أن انضم أصدقاؤه لليسوعيين في رميه بالنفاق. وكان تعقيب موننتسكيو "انظروا إلى فولتير الذي لا يعرف أين يضع رأسه" ثم أضاف "أن النفس الصالحة أعلى ثمناً من النفس الجميلة" (123).

وفكر الفيلسوف المشرد، بعد أن سدت في وجهه المسالك، في الرحيل عن أوروبا والإقامة في فيلادلفيا. وكان معجباً بروح بن وجهود فرانكلن الذي وحد مؤخرأ بين البرق والكهرباء "لولا أن البحر يسبب لي دواراً لا يطلق لقضيت بقية عمري بين كويري بنسلفانيا" (124). وفي 8 يونيو 1754 غادر كولمار ووجد ملجأ في دير سنون البندكتي

بالورين. هناك علم أن دوم أوجستن كالميه رئيس للدير، وأن بمكتبة الدير اثنا عشر ألف مجلد؛ ووجد فولتير السلام وسط الرهبان ثلاثة أسابيع. وفي 2 يوليو رحل إلى بلومبيير، وشرب من مياهها في خاتمة المطاف. ولحقت به مدام دنيس هناك. وظلت منذ ذلك الحين سيدة (Mistress خليفة) بيته على الأقل. واستأنف تجواله، وعاد إلى كولمار، ولم يجد فيها راحته، فانطلق إلى ديجون ومكث فيها ليلة، ثم إلى ليون التي أقام فيها شهراً (11 نوفمبر إلى 10 ديسمبر). ونزل أسبوعاً ضيقاً على صديقه ومدينه القديم لدوق ريشليو، ثم انتقل إلى فندق الباليه رويال، ربما خوفاً من أن يؤذى سمعته. وذهب إلى أكاديمية

صفحة رقم : 12304

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> فردريك الأكبر وماريا تريزا -> فولتير في ألمانيا

ليون وتلقى كل ما خلعتة عليه من تكريم. وأخرجت بعض تمثيلياته على المسرح المحلي، ورفع تصفيق الاستحسان معنوياته. وفكر في الإقامة في ليون، ولكن رئيس الأساقفة تنسان اعترض، فرحل فولتير عنها. وأيقن أنه قد يقبض عليه في أية لحظة لو مكث في فرنسا. وعليه ففي ختام عام 1754، أو مطلع عام 1755، عبر جبال الجورا وألقى عصا التنسيار في سويسرا.

صفحة رقم : 12305

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> فيللا المباحج ليدليس

الفصل الرابع عشر

سويسرا وفولتير

1715-1758

## 1- فيللا المباهج (ليديس)

على طريق لبون، خارج أبواب جنيف مباشرة ولكن في حدودها الإدارية، وجد فولتير في خاتمة المطاف مكاناً يستطيع أن يرق فيه أمناً مطمئناً، هو فيللا فسيحة تسمى سان-جان، ذات حدائق مدرجة تهبط إلى نهر الرون. ولما كانت قوانين الجمهورية تحرم بيع الأرض إلا للبروتستانت السويسريين، فقد قدم 87.000 فرنك لشراء الملك (فبراير 1755) بواسطة وكالة لآبا دجرانكور وجان روبير ترونشان هو الآن (1965) متحف للفن، يضم مخلفات صغيرة لفولتير. @ جان روبير، المصرفي والمدير العام لجنيف، (2) باكوب، عضو المجلس، (3) فراسوا، المؤلف والمصور (4) تيودور، الطبيب. و"ترونشان" هنا يقصد به تيودور، ما لم ينص على غير هذا. ما زال البيت موجوداً (1965)، وقد نقصت مساحته كثيراً، ولكن مدينة جنيف تحتفظ به معهداً ومتحفاً لفولتير. @. وبكل حماسة أهل المدن اشترى دجاجات وبقرة، وزرع حديقة خضر، وغرس الأشجار. لقد أنفق من عمره ستين عاماً حتى تعلم أننا "يجب أن نزرع حديقة". وخطر له أن في وسعه الآن أن ينسى فرديريك، ولويس الخامس عشر، وبرلمان باريس، والأساقفة، واليسوعيين، ولم يبق إلا مغصه ونوبات صداعه. وبلغ ابتهاجه بيته الجديد مبلغاً جعله يسميه "ليديس" أي المباهج وكتب إلى تيريو يقول: "إن بي من السعادة ما يخجلني" (1). ولما كانت استثماراته الذكية تأتيه بدخل مترف، فإنه أشبع رغبته في العيش المترف. فاحتفظ بستة جياد وأربع مركبات، وسائق، وجودي يمتطي أحد جياد العربية، وتابعين، و خادم خاص، وطاه فرنسي، وسكرتير، ونسناس- كان يحب أن يقارن بينه وبين الإنسان. وتربعت على عرش المؤسسة مدام دنيس، التي وصفها مدام دينيه حين زارت البيت في 1757 بهذه العبارات:

صفحة رقم : 12306

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> فيللا المباهج ليدليس

"امرأة قصيرة سمينه، مدورة كالكرة، تناهز الخمسين، ... قبيحة، طيبة، كذابة دون قصد ودون خبث، ليس فيها ذكاء ومع ذلك تبدو وكأن لها نصيباً منه... تكتب الشعر وتناقش في منطق وفي غير منطق... دون كثير ادعاء أو غرور، وأهم من ذلك كله دون أن تسيء إلى أحد.. تعبد خالها، بوصفه خالاً وبوصفه إنساناً، وفولتير يحبها، ويضحك عليها، ويعبدها. إن هذا البيت، باختصار يجمع بين النقائص، ومشهد بمتع المتفرجين (2)(1).

ووصف زائر آخر هو الشاعر مارنتيل، المالك الجديد فقال "كان في فراشه حين وصلنا. فمد ذراعيه وعانقني وبكى فرحاً... ثم قال "هاأنت تجدني مشرفاً على الموت، فتعال وردني إلى الحياة، أو تلق آخر أنفاسي"... وبعد لحظة قال "سأنهض وأتناول الغداء معك"(3).

وكان في فيللا المباهج هذه عيب واحد- وهو برودتها في الشتاء، وفولتير يحتاج إلى الحرارة لشدة هزاله. وعليه فقد وجد لوزان خلوة صغيرة تدعى مونريون يقيها موقعها من ربح الشمال، فاشترىها، وأنفق فيها بعض شهور الشتاء خلال 1755- 57. وفي لوزان ذاتها اشترى (يونيو 1757) على نهر جران شين "بيتاً لو كان في إيطاليا لسمي قصرأ" له خمس عشرة نافذة تطل على البحيرة. "هناك ودون أي معارضة من رجال الدين أخرج تمثيلات أكثرها من تأليفه. وكتب يقول "إن الهدوء شئ جميل. ولكن الملل ينتمي أرد عني هذا القريب القبيح أقتت مسرحاً(4). هكذا، في غدوه وراحه، بين جنيف ولوزان عرف سويسرا.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> المقاطعات السويسرية

## 2- المقاطعات السويسرية (الكانتونات)

في 1742 تساءل صموئيل جونسن "بأي سياسة عجيبة، أو بأي توافق سعيد بين المصالح، أمكن تجنب الفتن العنيفة في دولة تتألف من شتى

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> المقاطعات السويسرية

المجتمعات ومختلف الأديان، رغم أن في أهلها من الولع بالحرب ما يجعل من تقرير جيش ومن حشده شيئاً واحداً؟(5).

هذا المركب الغريب من ثلاثة شعوب، وأربع لغات، ومذهبين، ظل في سلام مع العالم الخارجي منذ 1515. فبمقتضى ضرب من الميثاق المبرم بين اللصوص أمسكت الدول عن مهاجمته، ولقد كان مطمئناً غاية في الصغر (بلغ 227 ميلاً في أقصى طوله، و137 في أقصى عرضه) فقيراً جداً في موارده الطبيعية، شديد الوعورة في أرضه، اتصف أهله بشجاعة تثبط همة المعتدى. واستمر السويسرون ينجبون خيرة الجنود في أوروبا، ولكن الاحتفاظ بهم كان غالي الكلفة، لذلك كانوا يؤجرون لشتى الحكومات بسعر للجندي. وفي 1748 كان هناك ستون ألفاً من هؤلاء الجنود "الجوالين" في خدمة الدول الأجنبية. وقد أصبحوا في بعضها جزءاً دائماً من المؤسسة العسكرية؛ وكانوا أحب الحرس للبابوات والملوك الفرنسيين وأحوزهم لثقتهم؛ والعالم كله يعرف كيف قضى الحرس السويسري لآخر رجل منهم دفاعاً عن لويس السادس عشر في 10 أغسطس 1792.

وفي 1715 كانت ثلاثة عشرة مقاطعة تؤلف الاتحاد السويسري: أبنتسيل، وبازل، وجاروز، وشافهاوزن، وزبورخ-وكانت في أغلبها ألمانية وبروتستنتية؛ ثم لوسرن، وشفيتس، وزولوتورن، وأونترفالدين، وأورى، وبتسوج-كلها ألمانية وكاثوليكية، ثم برن، وكانت ألمانية وفرنسية، وبروتستنتية وكاثوليكية؛ ثم فريبورج، وكانت فرنسية وكاثوليكية. وفي 1803 ضم الاتحاد إليه مقاطعات أراجاو، وسانت جالين، وتورجاو (ألمانية بروتستنتية)، ونيشينو (إيطالية وكاثوليكية)، وفو (فرنسية وبروتستنتية). وفي 1815 أضيفت ثلاث مقاطعات جديدة هي جنيف (فرنسية وبروتستنتية

تقلب الآن كاثوليكية بسرعة)، وفاليه (فرنسية، وألمانية، وكاثوليكية) والأقاليم المعروف للفرنسيين باسم جزيرون وللألمان باسم جرابونندن تغلب عليه البروتستنتية، ويتكلم الألمانية أو الرومانش، وهي لاتينية أثرية.

صفحة رقم : 12309

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> المقاطعات السويسرية

وكانت سويسرا جمهورية النظام، ولكنها لم تكن ديمقراطية بمعناها المعروف، ففي كل مقاطعة تنتخب أقلية من السكان الذكور البالغين، الذين ينتمون عادة للأسر العريقة، مجلساً صغيراً يتألف من أربعة وعشرين إلى أربعة وستين عضواً. وكان المجلس الصغير يعين مجلساً خاصاً أصغر منه وعمدته وهو أكبر موظفي المقاطعة. ولم يكن هناك فصل للسلطات، فالمجلس الصغير هو أيضاً المحكمة العليا. وقصرت المقاطعات الريفية (وهي أوري، وشفيتس، وأونتالدن، وجلاروز، وتسوج وأينتسيل) حق الانتخاب على الأسر الوطنية، أما غيرها من المقيمين بها، مهما طال مقامهم، فيحكمون بوصفهم طبقة تابعة (6). ومثل هذه الأولجركيات كانت شائعة في سويسرا. فلوسرن مثلاً قصرت صلاحية التعيين في الوظائف الحكومية على تسع وعشرين أسرة، ولم تسمح لأسرة جديدة بدخول هذه الدائرة إلا إذا انقرضت إحدى الأسر القديمة (7). وفي برن كانت 243 أسرة صالحة للتعيين في الوظائف، ولكن نحو ثمان وستين منها فقط هي التي تقلدت المناصب بصفة دائمة. وفي 1789 لاحظ المؤرخ الروسي نيكولاي كارامزين أن مواطني زيورخ "يفخرون بلقبهم فخر ملك بتاجه" لأن "أحدًا من الأجانب لم يحصل على حق المواطنة منذ نيف و150 سنة." (8) (وعلينا أن نذكر أنفسنا بأن كل الديمقراطيات تقريباً أو الأولجركيات، لأن الأقليات يمكن تنظيمها للحركة والسلطة، أما الأغليات فلا).

وكان في حكومة المقاطعة نزوع إلى النظام الأبوي الذي يتطلب الطاعة لأولي الأمر. مثال ذلك أن المجالس في زيورخ أصدرت القوانين المنظمة للأكل، والشرب، والتدخين. وقيادة العربات، وحفلات الزفاف، واللباس، والتزين، وقص الشعر، وأجر العمل، ونوعية المنتجات، وأسعار الضروريات، وكانت هذه الأوامر من مخلفات القوانين البيئية أو النقابية القديمة، والواقع أن "معلمي" النقابات الحرفية الأثنى عشرة في زيورخ كانوا يكتسبون عضوية المجلس الصغير تلقائياً، بمعنى أن هذه المقاطعة كانت إلى حد كبير دولة نقابية. وقد كتب جوته في أخريات القرن

صفحة رقم : 12310

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> المقاطعات السويسرية

أن شواطئ بحيرة زيورخ تعطي "فكرة جذابة مثالية عن أروع وأسمى حضارة" (9). أما "مدينة وجمهورية" برن فكانت أكبر وأقوى المقاطعات. فهي تضم ثلث سويسرا، وتتمتع بأغنى اقتصاد، وحكومتها محط الإعجاب عموماً لما تتميز به من تدبير وطفاية؛ وقد شبهها مونتسكيو بروما في أزهى عصور



الجمهورية. أما وليم كوكس، وهو قسيس بريطاني ومؤرخ عالم، فقد وصف المدينة كما رآها في 16 سبتمبر 1779 بهذه العبارات:

حين دخلت برن أدهشني ما تميزت به من نظافة وجمال. شوارعها الرئيسية عريضة طويلة، ليست مستقيمة، بل منعطفة انعطافاً هيناً، وتكاد بيوتها تكون متماثلة، وهي مبنية بحجر تغلب عليه الشبهة ومن تحتها البواكي. ويجري وسط الشوارع نهر نشيط، ماؤه شديد الصفاء، في مجرى صخري، وهناك نافورات عديدة تضيء على المدينة جمالاً يعدل نفعها لأهلها. ويكاد نهر آر يحيط بالمدينة، إذ يلتف مجراه فوق قاع صخري أوطاً كثيراً من مستوى الشوارع. والريف المجاور غني بالزرع، فيه تنوع لطيف من تلال ومروج وغابات ومياه... وترسم على الأفق البعيد سلسلة شديدة الانحدار من جبال الألب الوعرة المكلفة بالتلوج(10)".

أما الخطأ الفادح الذي ارتكبه نبلاء برن ففي معاملتهم لمقاطعة فور. فهذا الفردوس الأرضي كان يمتد بحذاء الضفة السويسرية لبحيرة جنيف من أرباض مدينة جنيف حتى لوزان (العاصمة) ويصل شمالاً إلى بحيرة نيوشاتل. على هذه الضفاف الجميلة والتلال الزاخرة بالكروم استمتع فولتير وجييون بحياة غاية في التحضر، وشب روسو وتعذب، واختار بيت جولي الفاضل (في كلارنس، قرب فيفي). وقد خضع الإقليم لسيادة برن في 1536، ففقد مواطنوه حقهم في تقلد المناصب الحكومية، واشتد تبرمهم بالحكم البعيد عنهم، وتكررت ثوراتهم دون جدوى. وكانت المقاطعات شديدة الحرص على استقلالها الذاتي. كل منها تعتبر نفسها دولة ذات سيادة، لها الحرية في خوض الحرب أو إبرام الصلح

صفحة رقم : 12311

قصة الحضارة - < عصر فولتير - > أوروبا الوسطى - < سويسرة وفولتير - > المقاطعات السويسرية

أو الدخول في أحلاف أجنبية، مثال ذلك أن المقاطعات الكاثوليكية ارتبطت بفرنسا طوال حكم لويس الخامس عشر. ورغبة في التخفيف من الصراع بين المقاطعات كانت كل منها ترسل مندوبين عنها إلى مجلس سويسري (ديت) ينعقد في زيورخ. ولكن هذا المجلس الاتحادي (الكونجرس) كانت سلطاته محدودة جداً، فهو لا يستطيع فرض قراراته على أي مقاطعة ترفضها. ويجب أن توافق جميع المقاطعات على هذه القرارات لكي تكون قانونية. وكانت حرية التجارة مقبولة من حيث المبدأ، ولكن حروب المكوس بين المقاطعات انتهكت هذا المبدأ. ولم تكن هناك عملة مشتركة، ولا إدارة مشتركة للطرق التي تربط المقاطعات.

على أن الحياة الاقتصادية زكت رغم العوائق الطبيعية والحواجز التشريعية. وكان رق الأرض قد زال في بعض مناطق على الحدود الألمانية أو النمساوية، فملك الفلاحون كلهم تقريباً الأرض التي يزرعونها. وكان الفلاحون فقراء في "مقاطعات الغابات" (وهي أوري، وشفايتس، وأونترفالدن، ولوسرن) وذلك لظروف جغرافية؛ أما حول زيورخ فازدهرت أحوالهم، وفي برن جمع العديد من الفلاحين ثروات بالفلاحة التي اتسمت بالعناية والمثابرة. وقد اضطر كثير من السويسريين إلى الجمع بين الزراعة والصناعة لطول الشتاء وصعوبة النقل؛ فالأسرة التي تغزل القطن أو تصنع الساعات تزرع الحدائق أو تعرس الكروم. واشتهرت فريبورج بجبها الجروبير (جرافير)، وزيورخ بدنتلنتها، وسانت جالين بقطنها، وجنيف بالساعات، ونيوشاتل بالدنتيللا، وسويسرا كلها بالأنبذة. وكانت المالية السويسرية حتى في ذلك الحين مثار حسد أوروبا، والتجار السويسريون نشيطين في كل بلد. وأثرت بازل من الاتجار مع فرنسا وألمانيا، وزيورخ من الاتجار مع ألمانيا والنمسا. وناقست بازل وجنيف ولوزان، أمستردام ولاهاي مراكز للنشر. وبعد أن أشاد هاليلير وروسو بجمال البحيرات السويسرية المتألق وجبال الألب السويسرية المهيب، أمدت السياحة الاقتصاد الاتحادي بدعم متزايد.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> المقاطعات السويسرية

أما مستوى الأخلاق فلعله كان في سويسرا أرقى منه في أي بلد آخر باستثناء إسكندناوة، حيث أنتجت الظروف المماثلة نتائج مماثلة. فكانت أسرة الفلاح مثالا للجد، والعفة، والوحدة، والتدبير. وكان في المدن بعض الفساد في السياسة وبيع المناصب، ولكن حتى في هذه الأماكن أعانت الخشونة التي ولدها المناخ القاسي، والإقليم الجبلي، والآداب البروتستنتية، على الاستقرار الخلقي. وكان اللباس محتشما سواء عند الأغنياء أو الفقراء. وظلت قوانين الإنفاق صارمة مرعية الجانب في سويسرا(11).

أما الدين فكان نصف الحكم ونصف الصراع. فالحضور إلى الكنيسة إجباري، والمدن من الصغر بحيث يستحيل على الخوارج المتمردون أن يجدوا ملاذا في زحمة الجماهير. ويوم الأحد يوم تعبد لا هوادة فيه، ويروى إن الحانات في زيورخ كانت تهتز بالمزامير ترتل فيها في يوم الرب(12). ولكن المذهبين المتنافسين - الكلفني والكاثوليكي - ضربا أسوأ أمثلة السلوك، لأنهما أطلقا العنان للحقد والكراهية وقيدا العقل بالأغلال. وحظرت بعض المقاطعات الكاثوليكية كل عبارة إلا الكاثوليكية، وبعض المقاطعات البروتستنتية كل عبادة إلا البروتستنتية(13). وحرّم القانون الخروج على الكنيسة الرسمية وتأليف مذاهب مستقلة. وفي لوسرن عذب ياكوب شمملن في 1747 ثم شنق لمحاولته تنظيم حركة "تقوية" مستقلة عن الكنيسة. وكان حلف يمين الالتزام بالكلفنية شرطا لشغل المناصب السياسية أو الكنسية أو التعليمية في مقاطعات البروتستنتية(14). وفرضت الكنيسة والدولة رقابة شديدة على المطبوعات. وفي مقاطعات الغابات تضافر فقر الفلاحين، والعواصف، وإنزلاقات الأرض، وانهيارات الثلوج، وأفات الزرع، والفيضانات، والرهبة من الجبال المحيطة بالسكان - كلها اجتمعت تولد فيهم خوفاً خرافياً من الأرواح الشريرة الساكنة في القمم المحملة والرياح المدومة، ولكي يقهر الفلاحون المكروبون أعداءهم الخارقين للطبيعة كانوا يتوسلون إلى قساوستهم أن يخرجوا الأرواح النجسة ويمنحوا قطعانهم البركة في مراسم دينية. وقد انتهى حرق المتهمين بالسحر في جنيف عام 1652،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> المقاطعات السويسرية

وفي برن عام 1680، وفي زيورخ عام 1701، وفي المقاطعات الكاثوليكية عام 1752، ولكن امرأة في جلاروز قطع رأسها عام 1782 وكانت تهتمها أنها سحرت طفلاً(15).

وانتبق لنور وسط هذه الظلمة بفضل المدارس الحكومية والمكتبات العامة. وكانت جامعة بازل تعاني اضمحلالا من جراء التعصب الديني، فلم تكدر منجزات يوهان وياكوب ودانييل برنويللي، وأكرهت ليونارد أويلر على الهروب إلى قاعات أكثر سماحة لضيوفها. ولكن سويسرا رغم هذا أنجبت الأدباء والشعراء والعلماء في تناسب كامل مع عدد سكانها. وقد ذكرنا من قبل العالمين الزيورخيين يوهان ياكوب بودمير ويوهان ياكوب برايتنجر، وقد كان لهما أثر

دائم على الأدب الألماني لأنهما عارضا إعجاب جوتشيد المفرد ببولو والأشكال الكلاسيكية؛ ودافعا عن حقوق الوجدان، والعناصر الغيبية، بل اللامعقولة، في الأدب والحياة؛ وأشادوا بالشعر الإنجليزي وفضلا على الفرنسي، وقدما شكسبير وملتن لقرء الألمانية، وبعثا الأغاني القديمة (1751) وشعراء العصر الوسيط الغنائيين الألمان minnesungers وانتقل مذهبهم إلى ليسنج، وكلوبشتوك، وشيلر، والشاب جوته، وفتح الطريق للحركة الرومانسية في ألمانيا وإحياء الاهتمام بالعصور الوسطى. وسار على هذا الدرب شاعر زيورخي يدعى سالومون جسسر، وأصدر قصائد "رعوية" (1756) فيها من فتنة الريف ما جعل أوروبا بأسرها تترجمها، وشعراء مثل فيلاند وجوته يحجون إلى بيته.

وأنبه سويسريي القرن الثامن عشر ذكراً بعد جان جاك روسو هو البريشت فون هالزر البرني، أعظم الشعراء والعلماء في بلده وعصره. درس في برن، وتوبنجن، وليندن، ولندن، وباريس، وبازل، القانون والطب والفسولوجيا والنبات والرياضة. فلما عاد إلى برن اكتشف جبال الألب. وأحس بجمالها وجلال خطوطها، فتدفق شعراً. وأصدر وهو بعد في الحادية والعشرين (1729) مجلداً من الشعر الغنائي سماه "الألب" ذهب كوكس المتحمس له إلى أنه شامخ خالد كالجبال التي يتغنى بها (16). وكان الكتاب

صفحة رقم : 12314

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> المقاطعات السويسرية

سبقاً لروسو في كل شيء تقريباً. دعا العالم للإعجاب بجبال الألب لما فيها من علو شاهق ملهم وشهادة بعظمة الله؛ وأزرى بالمدن لأنها أوكار للترف والكفر تقضي انحلال الجسم والخلق، وأشاد بالفلاحين وأهل الجبال لصلابة عودهم ومثانة أيمانهم واعتدال عاداتهم. وأهاب بالرجال والنساء والأطفال أن يتركوا المدن ليعيشوا في الخلاء عيشة أبسط وأقفل وأصح.

ولكن علم هالزر هو الذي أذاع شهرته في أوروبا. ففي 1736 عرض عليه جورج الثاني أستاذية النبات والطب والجراحة في جامعة جوتنجن. وهناك ظل يدرس سبعة عشر عاماً، بكفاية حملت أكسفورد وهاللي على دعوته، وأراد فريدريك الأكبر أن يخلف موبرتوي عميداً لأكاديمية برلين، وحاولت كاترين الثانية إغراءه بالذهاب إلى سانت بطرسبورج وأرادت جوتنجن أن تعينه عميداً لها. ولكنه بدلا من هذا كله قفل إلى برن واشتغل طبيبياً، واقتصادياً، ورئيساً لمقاطعته، وعكف في مثابرة على رائعة من روائع القرن العلمية هو كتابه "الأصول الفسيولوجية لجسم الإنسان" الذي سنلتي به ثانية في مكان لاحق.

وظل طوال هذه السنين، وطوال اشتغاله بهذه العلوم، محتفظاً بنقاء صادق في عقيدته الدينية ونزاهة صارمة في أخلاقه. فلما قدم فولتير ليعيش في سويسرا خيل لهالزر أن الشيطان رفع رايته فوق جنيف ولوزان. وقد زار كانوفا كلا من هالزر وفولتير في 1760، وكان ينافس هالزر في تذوقه للجمال. فلنستمع مرة أخرى برواية كانوفا لمغامرته المزدوجة:

كان هالزر رجلاً كبير الجسم والعقل، طوله ستة أقدام، عريضاً في أبعاده فهو عملاق في الجسم والعقل. وقد هس للقائي كثيراً، وفتح لي عقله، وأجاب عن كل أسئلتي في دقة وتواضع. فلما أخبرته أنني أتطلع إلى لقاء المسيو فولتير، قال إنني محق تماماً في تطلعي هذا، وأضاف دون مرارة "أن المسيو فولتير رجل يستحق أن يعرفه المرء، رغم أن كثيراً من الناس وجدوه أعظم عن بعد، وهذا يناقض قوانين الفيزياء".

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> المقاطعات السويسرية

وبعد بضعة أيام زار كازانوفا فولتير في فيلته المباهج". قلت له: مسيو فولتير، هذا اليوم مفخرة حياتي الكبرى. لقد كنت تلميذك طوال عشرين عاماً، وإن قلبي ليطرب لروية معلمي.

وسألني من أين جئت.

قلت "من روش. إنني لم أزد أن أبرح سويسرة دون أن أرى هالزر.. ولقد احتفظت بك كأنك النقل أختم به طعامي."

"هل سررت من هالزر؟"

"لقد أنفقت معه ثلاثة من أسعد أيام حياتي."

"إني أهنئك"

"يسرني أنك تتصفه. ويؤسفني أنه لا ينصفك إنصافك إياه."

"أها! ربما كان كلانا مخطئاً"(17).

وفي 1775، نشر هالزر آخر كتبه وكأنه يذيع على العالم كلمته الأخيرة، واسم الكتاب "وسائل تتناول عدة محاولات أخيرة للفكر الحر.. ضد الوحي"، وهو محاولة جادة لمعارضة كتاب فولتير "أسئلة في الموسوعة". وكتب رسالة مؤثرة للزندان الرهيب، دعاه (وهو في الحادية والثمانين) إلى أن يستعيد "تلك السكينة التي تهرب حين تدنو العبقرية"، ولكنها تقبل على الإيمان الوائق؛ "عندها سيكون أشهر رجل في أوروبا أسعدهم كذلك" (18). على أن هالزر نفسه لم يظفر بهذه السكينة قط. فقد كان برما في المرض لفرط إحساسه بالألم "كان في سنواته الأخيرة يدمن تعاطي الأفيون الذي لم يكن له من أثر إلا زيادة ضجره الفطري لأنه لم يكن سوى ملطف وقتي لألمه" (19). وكان يعاني من خوف الجحيم، ويلوم نفسه على فرط ما بذل "النباتاتي وغيرها من الحماقات" (20). وقد أدرك السكينة في 12 ديسمبر 1777.

صفحة رقم : 12316

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> جنيف

3- جنيف

لم تكن جنيف في هذا القرن مقاطعة داخلية في الاتحاد، بل جمهورية قائمة بذاتها- المدينة وما وراء البحيرة - تتكلم الفرنسية وتدين بالمذهب

صفحة رقم : 12317

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> جنيف

الكلفني. وقد وصفها دالامبير في مقاله عنها في "الموسوعة" وصف معجب بها كما رآها في 1756: من العجيب أن مدينة لا يزيد سكانها على 24.000 نسمة وتشمل رقعته أقل من ثلاثين قرية، قد حافظت على استقلالها، وهي من أكثر المجتمعات ازدهاراً في أوروبا. وهي في غناها بحريتها وتجارها ترى كل ما حولها يشعل دون أن يمسه من ذلك أذى. فالأزمات التي تضطرب بها أوروبا ليست بالنسبة لها غير مشهد تنفجر عليه دون أن تشارك فيه. وهي مع ارتباطها بفرنسا برباط الحرية والتجارة، وبتجارتها برباط التجارة والمذهب الديني، تبدي رأيها بإنصاف في الحروب التي تخوضها هاتان الأمتان الواحدة ضد الأخرى، ولكنها أحكم من أن تتحاز لإحدهما. وهي تصدر حكمها على جميع ملوك أوروبا دون تملق، أو إساءة، أو خشية (21).

وكانت هجرة الهيجونوت من فرنسا نعمة على جنيف، لأنهم جلبوا إليها مدخراتهم ومهاراتهم، وجعلوا المدينة عاصمة صناعة الساعات في العالم بأسره. وقد قدرت مدام ديبنيه عدد المشتغلين بتجارة المجوهرات بستة آلاف (22). فأصبح جاك نكير وزيراً لمالية لويس السادس عشر، وألبير جالاتان وزيراً لخزانة الولايات المتحدة الأمريكية في عهد الرئيس جفرسن.

وكان الحكم في جنيف امتيازاً طبقياً شأنه في كل المقاطعات، فلا يقبل في الوظائف العامة غير السكان الذكور الذين ولدوا في جنيف لأباً وأجداد مواطنين. وتلي طبقة الأشراف هذه طبقة البورجوازية من أرباب الصناعات، والتجار، وأصحاب الحوانيت ومعلمي الحرف، وأعضاء المهن. وكان الأشراف والبورجوازيون، الذين قل أن جاوز عددهم ألفاً وخمسمائة (23)، يجتمعون كل سنة في كاتدرائية القديس بطرس لينتخبوا "مجلساً كبيراً" من مائتي عضو "ومجلساً صغيراً" من خمسة وعشرين عضواً. ويختار المجلسان أربعة مأمورين، كل منهم لعام واحد، رؤساء تنفيذيين للدولة. وهناك طبقة ثالثة مجردة من حق الانتخاب، هم "المستوطنون" المنحدرون من آباء أجنبي، وطبقة رابعة هم "الأهالي" المولودون في جنيف لجنيفيين

صفحة رقم : 12318

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> جنيف

غير وطنيين هؤلاء "الأهالي" الذين ألفوا ثلاثة أرباع السكان لم يكن لهم من الحقوق المدنية غير دفع الضرائب، فهم لا يستطيعون الاشتغال بالأعمال التجارية أو المهن ولا بوظائف الجيش أو برأسه حرفة في نقاب. ولقد دار التاريخ السياسي لهذه الجمهورية حول الصراع البورجوازيين للحصول على حق شغل وظائف الدولة، وصراع الطبقتين الدينيتين للحصول على حق التصويت. وفي 1737 امتشق مواطنو المدينة الحسام ليقاوتوا طبقة الأشراف، وأكروهوا على قبول دستور جديد يقضي لجميع الناخبين بالحق في أن ينتخبوا أعضاء في المجلس الكبير، ولهذا المجلس حق إصدار القرارات النهائية في مسائل الحرب والسلام، والأحلاف والضرائب، وإن كان التشريع لا يقدم إلا من المجلس الصغير، أما "الأهالي" فقد سمح لهم بالاشتغال ببعض المهن مع بقائهم محرومين من التصويت. وظلت الحكومة أوليجاركية، ولكنها كانت تدار بكفاية، ومحصنة نسبياً ضد الفساد.

وكان يلي طبقة الأشراف في النفوذ مجمع القساوسة الكلفينيين. فقد نظم هذا المجمع شؤون التعليم، والأخلاق، والزواج، ولم يسمح بأي تدخل في سلطته من السلطة العلمانية. ولم يكن هنا أساقفة ولا رهبان. وقد أشاد الفيلسوف دالامبير بفضائل الأكليروس الجنيفي ووصف المدينة بأنها أشبه بجزيرة من الأدب والعفة، رآها النقيض للفوضى الخلقية التي فشت بين فرنسي الطبقة العليا. أما مدام ديبنيه فبعد أن مارست العديد من العلاقات الغرامية، امتدحت "العادات الصارمة... لشعب حر، هو عدو للترف" (24).

ولكن رجال الدين زعموا أن شباب جنيف يفسد في لكباريات، وأن الصلوات العائلية تنقلص، وأن الناس يثرثرون في الكنيسة، وأن بعض المصلين المتواجدين في المؤخرة يأخذون أنفاساً من "بيباتهم" ليستعينوا بها على ابتلاع العظة (25). وشكا الوعاظ من عجزهم عن توقيح العقوبات إلا الروحي منها، ومن إغفال تحذيراتهم وإنذاراتهم إغفالاً متزايداً.

وقد أبهج فولتير أن يجد العديد من رجال الدين الجنيبيين متقدمين نوعاً ما في لاهوتهم. فقد أتوا ليستمعوا بضيافته في فيللا المباحج، واعترفوا له سراً

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> جنيف

بأنهم لا يحتفظون من عقيدة كلن القائمة إلا بالقليل. وقد أشار أحدهم، وهو جاك فيرن، في كتابه "التعليم المسيحي" (1754) بأن يبني الدين على العقل حين يخاطب الكبار، أما "عامة الناس... فمن المفيد أن تشرح لهم هذه الحقائق ببعض الطرق الشعبية براهين تصلح... لإحداث أثر أكبر في عقول الجماهير" (26). وكتب فولتير إلى سيدفيل (12 أبريل 1756) يقول: "لم تعد جنيف هي جنيف كلن-بل على العكس، فهي بلد يحفل بالفلسفة. و"المسيحية المعقولة" التي نادى منها لوك هي دين كلن القساوسة تقريباً، وعبادة كائن أعلى عبادة مقترنة بنسق أخلاقي، هي دين كلن القضاة الآتية: في "مقال الأعراف" (1756).  
"يبدو أن ترضية تقدم اليوم لرماد سرفيتوس، فإن رعاة الكنائس البروتستنتية المثقفين. قد اعتنقوا آراءه (التوحيدية)" (28).

أما دالامبير، فبعد أن زار جنيف وبيت فولتير (1756)، وبعد أن تحدث إلى بعض القساوسة، وتبادل الرأي مع فولتير، كتب للمجلد السابع (1757) من الموسوعة مقالاً عن جنيف أتى فيه على تحرر إكليروسها فقال:  
"إن العديدين منهم لا يؤمنون بلاهوت المسيح الذي كان زعيمهم كلن شديد الغيرة في الدفاع عنه والذي أمر بسببه بحرق سرفيتوس.. وجهنم التي هي أحد أركان إيماننا لم تعد كذلك عند الكثيرين من قساوسة جنيف. فهم يقولون أن من الإهانة لله أن نتصور أن هذا الكائن الذي يفيض طيبة وعدلاً في طاقته أن يعاقب أخطاءنا بألوان من العذاب الأبدية... وهم يعتقدون أم هناك عقوبات في حياة أخرى، ولكنها مؤقتة. فالمظهر الذي كان من أهم أسباب انفصال البروتستنت عن كنيسة روما، هو اليوم العقاب الوحيد الذي يسلم به كثير منهم للخاطئ بعد موته، وهذه لمسة جديدة تضاف إلى تاريخ تناقضات البشر.  
والخلاصة أن الكثير من رعاة جنيف لا يدينون بغير السوسنيانية الخالصة، ويرفضون كل ما يسمى أسراراً، ويتصورون أن أول مبدأ للدين الحق هو

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> جنيف

الأي يطلب إلى الناس الإيمان بشيء يناقض العقل... وهكذا نرى من الناحية العلمية أن الدين اختزل إلى عبادة إله واحد، على الأقل بين جميع الذين لا ينتمون إلى طبقات العوام" (29).  
فلما قرأ رجال الدين الجنيفيون هذا المقال انزعجوا كلهم- المحافظون منهم لوجود أمثال هؤلاء المهرطقين على المناير الكلفنية، والمتحررون لفضح هرطقاتهم الخاصة على هذا النحو. وقامت لجنة بفحص الرعاة المشبهين فأنكروا بشدة مزاعم دالامبير، وأصدرت اللجنة تأكيداً رسمياً جديداً للسنية الكلفنية (30).  
على أن كلن نفسه كان من بواعث هذه الاستنارة الشائعة التي أطراها دالامبير، لأن الأكاديمية التي أسسها أصبحت الآن من أروع المؤسسات التعليمية في أوروبا. لقد علمت طلابها المذهب الكلفني، ولكنها لم تغل في تعليمه، وزودتهم

بدراسات ممتازة في الأدب الكلاسيكي، وأعدت معلمين أكفاء لمدارس جنيف وتحملت الدولة جميع النفقات. وأعارت مكتبة تضم 25.000 مجلد الكتب للجماهير، وقد وجد دالامبير "الشعب أفضل تعليماً منه في أي بلد آخر" (31). وأدهش كوكس أن يسمع تجاراً يناقشون الأدب والسياسة بذكاء. وفي هذا القرن أسهمت جنيف في العلوم بمنجزات شارل بونيه في الفسيولوجيا وعلم النفس، ومنجزات أوراس دسوسير في الأرصاد الجوية والجيولوجيا. أما في الفن أعطت العالم فنانها جان إتين ليونار، بكل ما في كلمة العطاء من معنى. ذهب إلى روما بعد أن درس في جنيف وباريس، فصور هناك البابا كلمنت الثاني عشر وكرادلة كثيرين، ثم إلى الأستانة حيث عاش وعمل خمس سنوات، ثم إلى فيينا، وباريس، وإنجلترا، وهولندا، حيث كسب قوته من صنع اللوحات الشخصية، والصور بالباستل، وبالمينا، وبالمحفورات والصور على الزجاج. وقد رسم صورة أمينة غاية الأمانة لنفسه في شيخوخته (32) ظهر فيها أقرب من فولتير إلى القردة العليا.

صفحة رقم : 12321

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> جنيف

أما في ميدان الأدب فلم توفق جنيف توفيقاً يذكر. ذلك أن الرقابة اليقظة على المطبوعات ففتت الطموح والأصالة الأدبيين. فحظرت الدراما باعتبارها مباءة للفضائح. وحين أخرج فولتير مسرحيته "زائير" أول مرة في 1755 في قاعة الاستقبال بفيللا دليس، تدمر رجال الدين، ولكنهم تسامحوا في الجريمة باعتبارها عيباً خاصاً في ضيف كبير. ولكن حين نظم فولتير فرقة من الممثلين من شباب جنيف، وعرض سلسلة من التمثيليات، طالب المجمع الكنسي (31 يوليو 1752) المجلس الكبير بتطبيق مراسيم 1732 و1739 التي تحظر كل عروض للمسرحيات عامة كانت أو خاصة، وأمر الرعاة بمنع رعاياهم من "تمثيل أدوار في المآسي ببيت السيد فولتير". وأعلن فولتير توبته، ولكنه أخرج المسرحيات في بيته الشتوي بلوزان. ولعله هو الذي أوعز لدالامبير بأن يضمن المقال المذكور الذي كتبه عن جنيف نداء لرفع الحظر:

ليس السبب استهجان جنيف للمسرحيات في ذاتها، بل لأنها (كما يقولون) تخشى الميل إلى التبرج، والانحلال، والإباحية التي تنتشرها الفرق المسرحية بين الشباب، ومع ذلك، أليس في الإمكان علاج هذه المساوئ بقوانين صارمة مرعية للتنفيذ؟... إن الأدب في هذه الحالة ينهض دون أن يزيد الرذيلة وستجمع جنيف بين حكمة إسبرطة وثقافة أثينا. ولم يستجيب المجمع الكنسي لهذا النداء، ولكن جان جاك روسو رد عليه (كما سنرى) في خطابه المشهور "خطاب إلى مسيو دالامبير عن المسرحيات" (1758). وبعد أن اشترى فولتير إقطاعية فيرنيه تخطى الحظر ببناء مسرح في شاتلين، على أرض فرنسية ولكن بجوار حدود جنيف. هناك أخرج التمثيليات، واستقدم لحفلة الافتتاح أكبر ممثلي باريس، هنري لوي لوكان. وحظر رعاة جنيف حضور التمثيليات، ولكن الحفلات وجدت إقبالا شديداً من الجماهير حتى أن قاع المسرح كان يغص بالنظارة قبل بدء البرنامج بساعات في هذه المناسبات، حين يكون مقرر أن يظهر لوكان على المسرح. وكسب المقاتل العجوز آخر الأمر معركة، ففي 1766 أنهى المجلس الكبير حظر جنيف لتمثيليات.

صفحة رقم : 12322



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

#### 4- التاريخ الجديد

وصف شاهد عيان أداء لوكان دوره في مسرحية فولتير "سميراميس" ظهور لمؤلف في المسرح فقال: كان فولتير جزءاً لا يستهان به في العرض، وهو جالس في صدر بنوار أول، في مواجهة جميع النظارة، يصفق كمن به مس، مبدئياً استحسانه تارة بعصاه وتارة بعبارات الإعجاب "ليس في الإمكان أبدع مما كان! أه، رباه، ما كان أروع تمثيل هذا الجزء!"... وبلغ من عجزه عن السيطرة على حماسه أنه ما أن ترك لوكان خشبة المسرح... حتى جرى خلفه... ولا يمكن تصور مفارقة أدعى للضحك من هذه، فقد أشبه فولتير واحداً من شيوخ الكوميديا جواربه المطوية على ركبتيه، والزي الذي يرتديه-زي "أيام زمان الحلوة" وهو لا يتماسك فوق ساقيه المرتعشتين إلا بالتوكؤ على عصاه، وكل أمارات الشيخوخة مرتسمة على محياه، فخداه غائران متعضنان، وأنفه مستطيل، وعينه أوشكتا أن ينطفئ بريقهما"(33).

وبين المسرحيات والسياسة، والزوار، وفلاحة حديقته، وجد متنسماً من الوقت ليكمل في فيلته "دليس" عمليتين كبيرين وينشرهما. وقد ساءت سمعة الأول لما قيل عن خروجه عن اللياقة، أما الثاني فقد فتح عهداً جديداً في كتابة التاريخ. كان يحتفظ بقصيدته "لابوسيل" منذ 1730 باعتبارها ترفيهاً أدبياً: ويبدو أنه لم يكن في نيته أن ينشرها، لأنها لم تكف بالتهمك بعذراء أورليان (جان دارك) البطلة، بل هاجمت عقيدة الكنيسة الكاثوليكية، وجرانها، وشعائرها، وأخبارها. وأضاف الأصدقاء والأعداء إلى مخطوطاتها المتداولة بينهم نقفاً فيها من البذاءة والمرح ما كان حتى فولتير ليكتبه. والآن، في 1755، بعد أن وجد الهدوء والسلام في جنيف، ظهرت في بازل طبعة مسروقة من القصيدة. فحرمها البابا، وأحرقها برلمان باريس، وصادرتها شرطة جنيف، وزج بناشر باريسي في سفينة الأسرى والعبيد لأنه أعاد إصدارها في 1757. وقد أنكر فولتير أنه كاتبها، وأرسل إلى ريشليو، ومدام بومبادور، وبعض موظفي الحكومة، نسخاً من نص مهذب نسبياً، وفي 1762 نشر هذا النص،

صفحة رقم : 12323

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

فلم يناكده أحد بسببه. وحاول أن يكفر عن إساءته لجان دارك بتصويرها صورة أكثر إنصافاً وجرأ في كتابه "مقال عن الأعراف"(34).

وقد قصد بهذا المقال أن يكون رائحته الكبرى، وكان أيضاً-بمعنى من المعاني-أثراً يخلد العشيق التي استعاد ذكرها. ذلك أنه تقبل الاحتقار الذي صبته مدام دشاتليه على من عرفت من مؤرخين محدثين على أنه تحد له: قالت "ماذا يهمني، أنا المرأة الفرنسية التي تسكن ضيعتها هذه أن أعرف أن إيجل خلف هاكون على عرش السويد، وأن عثمان كان ابن أرطغرل؟ إنني قرأت بلذة تاريخ اليونان والرومان، ولقد قدموا لي صوراً رائعة اجتذبتني، ولكنني لم أستطع إلى الآن أن أكمل قراءة أي تاريخ مطول لأمننا الحديثة. ولا أكاد أرى في هذه التواريخ شيئاً غير الخلط والتشويش:

فهي حشد من الأحداث الصغيرة التي لا ترابط بينها ولا تسلسل، وألف معركة لم تحسم شيئاً. لقد زهدت في دراسة تغرق العقل دون أن تتبره (35). ووافقها فولتير على هذا الرأي، ولنه كان يعرف أن هذا ليس إلا التاريخ "كما يكتب". ولقد أسف على مسخ الأهواء الحاضرة للماضي، ففي هذا المعنى "ليس التاريخ إلا مجموعة حيل ندخلها على الموتى (36) ومع ذلك فإن إغفال التاريخ معناه أن نكرر إلي مالا نهاية أخطاءه، ومذابحه، وجرائمه. وهناك ثلاثة مسالك تقضي إلى هذا المنظور الفسح السمع الذي يسمى الفلسفة: أولها دراسة البشر في الحياة عن طريق التجربة، الثاني دراسة الأشياء في المكان عن طريق العلم، الثالث دراسة الأحداث في الزمان عن طريق التاريخ. وحاول فولتير أن يسلك المسلك الثاني بدراسة نيوتن؛ ثم اتجه الآن إلى الثالث. ومنذ عام 1738 وضع هذا المبدأ الجديد "يجب أن يكتب المرء التاريخ مفلساً (38). وعليه فقد عرض على المركيزة ما يلي:

لو أنك تخيرت من بين هذا القدر الوافر من المادة الغفل التي لم تتشكل ما تبين به صرحاً لاستعمالك الخاص، ولو أنك رغم إسقاطك كل تفاصيل الحروب... وكل المفاوضات النافهة التي لم تكن سوى ألوان من الخبث

صفحة رقم : 12324

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

واللوم لا غناء فيها... ولو أنك رغم احتفاظك بتلك التفاصيل التي تصور العادات، استطعت أن تولفي من تلك الفوضى صورة عامة واضحة المعالم؛ ولو أنك اكتشفت في الأحداث "تاريخ العقل البشري" أفنعتدين عندها أنك ضيقت وقتك هباء؟" (39).

وظل عاكفاً على مشروعه هذا على مراحل متقطعة مدى عشرين عاماً يقرأ بنهم، ويسجل المراجع، ويجمع الملاحظات، حتى إذا جاء عام 1739، وضع لمدام شاتليه "مجملاً للتاريخ العام"؛ وفي 1745-46 طبعت أجزاء منه في صحيفة "لامركير دفرانس". وفي 1750 أصدر "تاريخ الحروب الصليبية"؛ وفي 1753، في لاهاي، ظهر "المجمل" في مجلدين، وفي 1754 في ثلاثة، وأخيراً نشر النص الكامل بجنييف في 1756 في سبعة مجلدات بعنوان "مقال في التاريخ العام"، وكان يشمل "عصر لويس الرابع عشر" وبعض فصول تمهيدية عن الحضارات الشرقية. وفي 1762 أضاف "خلاصة لعصر لويس الرابع عشر" وثبتت طبعة 1796 العنوان النهائي للكتاب كالاتي: "مقال في أعراف الأمم وروحها منذ شرلمان حتى أيامنا هذه" وكلمة الأعراف moeurs لم تكن العادات والأخلاق فحسب، بل التقاليد والأفكار والمعتقدات والقوانين. ولم يغط فولتير دائماً كل هذه المواضيع، ولا دون تاريخ الثقافة، أو العلم، أو الفلسفة، أو الفن؛ ولكن كتابه كان مجموعة تناولا جزيئاً لتاريخ الحضارة من أقدم العصور حتى زمانه. والأجزاء التي عالجت تاريخ المشرق مقدمات موجزة، أما القصة الأكمل فتبدأ بشرلمان، حيث توقف كتاب بوسويه "حديث في التاريخ العالمي" (1679). كتب فولتير يقول "أريد أن أعرف ما هي الخطوات التي انتقل بها البشر من الهمجية إلى المدينة" -وهو يعنى الانتقال من العصور الوسطى إلى الأزمنة الحديثة" (40).

وقد أتى على بوسويه لمحاولته كتابة "تاريخ عالمي". ولكنه اعترض على تصور هذا التاريخ تاريخاً لليهود والمسيحيين، ولليونان والرومان

صفحة رقم : 12325

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

في علاقاتهم بالمسيحية على الأخص. وهاجم إهمال الأسقف بوسويه للصين والهند، وفكرته عن العرب، أنهم مجرد زنادقة همج. وأقر بالجهد الفلسفي الذي بذله سلفه في البحث عن موضوع موحد أو عملية رابطة في التاريخ، ولكنه لم يستطيع موافقته على أن التاريخ يمكن تفسيره تدبيراً تسيره العناية الإلهية، أو برؤية يد الله في كل حدث كبير. فلقد رأى التاريخ بدلاً من هذا- المسيرة البطيئة المترددة التي خطا بها الإنسان، بفضل الأسباب الطبيعية والجهد البشري، من الجهل إلى المعرفة، ومن المعجزات إلى العلم، ومن الخرافة إلى العقل. ولم يستطيع رؤية أي خطة إلهية في دوامة الأحداث. وقد جعل من الدين المنظم شخصية "الشرير" في قصته، ربما انتقاصاً على بوسويه لأنه بدا له على العموم حليفاً للظلامية، ميالاً إلى الطغيان، مثيراً للحرب. وهكذا دفع فولتير حرصه على استنكار التعصب والاضطهاد إلى الغلو في تحميل قصته من جانب، غلو بوسويه في تحميلها من الجانب الآخر.

وفي منظوره العالمي الجديد الذي أتاحه له تقدم الجغرافيا بفضل تقارير الرواد، والمبعوثين الدينيين، والتجار، والرحالة، اتخذت أوروبا مكاناً أكثر تواضعاً في لوحة التاريخ الواسعة. فقد أعجب فولتير بتلك "المجموعة من المشاهدات الفلكية التي جمعت خلال ألف وتسعمائة سنة متعاقبة في بابل، والتي نقلها الاسكندر إلى اليونان" (41) وخلص إلى أنه لا بد أن دجلة والفرات قد غنيا بحضارة راقية، لا تظفر عادة بأكثر من جملة أو جملتين في تواريخ كتاريخ بروسويه. وتأثر أكثر بعراق الحضارة في الصين وانتشارها وتقوقها؛ ومع ذلك فإن هذه الأمة وأمة الهند، أقدم الدول الحية... اللتين اخترعتا كل الآداب والفنون تقريباً قبل أن نعرف واحداً منها، كان نصيبها الإغفال حتى يومنا هذا في تواريخنا التي نزع منها عالمية." (42) وقد طاب لهذا المقاتل عدو المسيحية أن يجد ويقدم للقراء الكثير من الحضارات العظيمة التي سبقت المسيحية بزمن طويل، والتي لم يكن لها أي علم بالكتاب المقدس، ومع ذلك أنجبت الفنانين، والشعراء، والحكماء، والقديسين،

صفحة رقم : 12326

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

قبل مولد المسيح بأجيال كثيرة. وقد أبهج عدو السامية المرابي، الحائق، أن يختزل كثيراً ذلك الذي قامت به يهوذا في التاريخ.

على أنه بذل بعض الجهود لينصف المسيحيين. فليس كل البابوات في صفحاته أشراً، ولا كل الرهبان طفيليين. ولم يرض على رجل كالبابا إسكندر الثالث بكلمة طيبة، فقد "ألغى العبودية الإقطاعية... ورد حقوق الشعب، وعاقب لؤم الرؤوس المتوجة" (43). وأعجب بالشجاعة الهائلة "التي اتصف بها بولنيوس الثاني، وعظمة أرائه" (44) وتعاطف مع الجهود البابوية لإقامة سلطة أخلاقية تكبح حروب الدول ومظالم الملوك. واعترف بأن أساقفة الكنيسة، بعد سقوط الدول الرومانية الغربية، كانوا أكفأ الحكام في ذلك العصر الذي كان يضم أوصاله بعدما أصابها من تفكك. ثم:

"في تلك العصور الهمجية، والناس غية في البؤس، كان من التعزيات الكبرى أن يجد المرء في الديورة ملاذاً آمناً من الظلم والطغيان (45).... ولا نكران في أن الدير كان يضم فضائل عظيمة، فلم يكذب يوجد دير لم يحو أفراداً جديرين بالإعجاب يشرفون الطبيعة البشرية. وقد طاب للكثيرين جداً من الكتاب أن ينبشوا عن المفاصد والردائل التي لوثت أحياناً بيوت التقوى والصلاح هذه" (46).

ولكن فولتير، الذي تورط مع الموسوعيين المتحفزين للمعركة في حرب مع الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، أكد بوجه عام على أخطاء المسيحية في التاريخ، وهون من اضطهاد روما للمسيحيين، وسبق جيبون إلى اعتبار هذا الاضطهاد أقل تكراراً من اضطهاد الكنيسة للمهرطقين. ثم سبق جيبون أيضاً إلى القول بأن الدين الجديد أضعف الدولة الرومانية. وذهب إلى أن القساوسة اغتصبوا السلطان ببت التعاليم السخيفة بين الجهال والسذج، وباستعمال قوة الطقوس المنومة لإماتة العقل وتقوية هذه الأوهام. ورمى البابوات بأنهم بسطوا نفوذهم وجمعوا الثروات باستعمال وثائق مثل "هبة قسطنطين" التي يسلم الناس عموماً الآن بأنها زائفة وصرح بأن محكمة التفتيش الإسبانية، ومذبحة الأليجنس المهرطقين، هما أخط ما وعى التاريخ من أحداث.

صفحة رقم : 12327

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

وبدت له العصور الوسطى في العلم المسيحي فاصلاً مقفراً بين جوليان ورايبله، ولكنه كان من أول من اعترفوا بدين الفكر الأوربي لعلم العرب وطبهم وفلسفتهم. وأشاد بلويس التاسع مثلاً أعلى للملك المسيحي، ولكنه لم ير نبلاً في شرلمان، ولا فهماً في الفلسفة المدرسة (الكلامية)، ولا عظمة في الكاتدرانيات القوطية التي أنكرها لأنها "خليط غريب من الجلافة والتخريم" ولم يكن متوقفاً من روحه المطاردة أن تقدر دور العقيدة والكهانة المسيحيين في تشكيل الخلق والفضائل وحفظ النظام والسلام في المجتمعات، وتشجيع كل الآداب والفنون تقريباً، وإلهام الموسيقى الرائعة، وتجميل حياة الفقراء بالمراسيم والأعياد والتراويل والأمل. ولا عجب، فلقد كان إنساناً يخوض حرباً، ولا يستطيع إنسان أن يقاتل ما لم يتعلم الكراهية. والغالب وحده هو الذي يستطيع تقدير عدوه حق قدره. كان مصيباً في وقائعه؟ عموماً، ولكنه ارتكب أخطاء بالطبع، وقد نشر الأبويه نونوت مجلدين بعنوان "أغلاط فولتير"، وأضاف بعضاً من أغلاطه هو (47). ولكن روبرتسن، وهو مؤرخ كبير، أعجب بدقة فولتير عموماً في هذا الميدان التاسع (48). ولما كان فولتير يغطي هذه المواضيع الكثيرة في هذه الأقطار الكثيرة خلال قرون كثيرة، فهو لم يدع أنه تقيد بالوثائق الأصلية أو المصادر المعاصرة، ولكنه استعمل مراجعه الثانوية بتمييز ووزن حكيم للشواهد. ورسوم لنفسه قاعدة هي التشكك في أي شهادة تناقص "الحسن المشترك" أو الخبرة العامة للنوع الإنساني. ولا ريب في أنه كان معترفاً في أيامنا هذه بأن غرائب عصر ما قد تقبل في العصر الذي يليه على أنها أمور عادية، ولكنه وضع هذا المبدأ الهادي، وهو "أن عدم التصديق هو الأساس لكل أنواع المعرفة" (49). وهكذا سبق بارتولد نيبور في رفضه الفصول الأولى لليفي لأنها من قبيل الأساطير، وسخر من قصة رومولوس، وريموس، والذئبة التي كانت لهما الأم الرؤم، وسخف مزاعم ليفي، واتهم تاسيتوس بالمبالغات الانتقامية في وصفه لردائل طيباريوس، وكلوديوس، ونبيرون، وكاليجولا؛ وارتاب في هيروdot وسوتنيوس لأنهما مروجان للشائعات والأقاويل، وذهب إلى أن في بلوتارخ من الولع بالواد ما لا يجعله موضع الثقة الكاملة، ولكنه قبل تيوسبيديس، وزينوفون،

صفحة رقم : 12328

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

ويوليبيوس، مؤرخين جديرين بالثقة. وتشكك في الأخبار التي كتبها الرهبان، ولكنه أثنى على دوكانج ونللمون "المدقق" ومابيون "العميق" ورفض أن يواصل التقليد القديم، تقليد الخطب الخيالية، أو التقليد الحديث، تقليد "اللوحات" التاريخية. وأنزل مكان الفرد في المجرى العام للأفكار والأحداث، وكان الأبطال الوحيدون الذين عبدهم هم أبطال العقل.

وقد ألمع فولتير في "المقال" وفي غيره إلى فلسفته في التاريخ دون أن يصوغها. وكتب "فلسفة للتاريخ" وقدم بها لطبعة من "المقال" في 1765. وكان ينفر من "مذاهب" الفكر، ومن كل المحاولات لاخترال الكون في صيغة أو قانون، ويعرف أن الحقائق أقسمت أن تكون خصماً أدياً للتعليمات. ولعله أحس أن أي فلسفة للتاريخ ينبغي أن تلي سرد الأحداث وتتبع منه، لا أن تسبقه وتقرره. على أن استنتاجات عريضة انبعثت من روايته للتاريخ: فالحضارة سبقت "آدم" و"الخليقة" بألاف السنين؛ والطبقة البشرية في جوهرها واحد في كل زمان ومكان، ولكن شتى العادات والتقاليد عدلتها تعديلاً منوعاً، وأن المناخ والحكومة، والذين، هي العوامل الأساسية التي تقرر هذه الاختلافات، وأن دولة العادات والتقاليد أوسع كثيراً من دولة الطبيعة" (50) والاتفاق والمصادفة (في نطاق السلطات الشامل للقوانين لطبيعة) يلعبان دوراً هاماً في توليد الأحداث، والتاريخ لا تصنعه عبقرية الأفراد بقدر ما تصنعه الأفعال الغريزية التي تؤثر بها الجماهير البشرية في بيئتها؛ وهكذا تنتج، جزءاً فجزءاً، العادات، والأخلاق، والاقتصاديات، والقوانين، والعلوم، والفنون والآداب التي تصنع حضارة وتبعث روح العصر. "إن هدفي الرئيسي هو دائماً ملاحظة روح العصر، لأنه هو الذي يوجه أحداث العالم الكبرى" (51).

والتاريخ في جملته، كما فولتير في "تلخيصه"، قصة مرة محزنة (كما يكتب عموماً).  
"لقد اجتزت الآن المشهد الضخم للثورات التي عرفها العالم منذ عهد شارلمان؛ فالام كان اتجاهها؟ إلى الخراب، وخسارة ملايين الأنفس! فكل حدث كبير كان نكبة كبرى. ولم يحفظ لنا التاريخ وصفاً لعصور السلم

صفحة رقم : 12329

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

والطمأنينة؛ فهو لا يروي غير الغارات المدمرة والكوارث... والتاريخ كله بإجاز، ليس إلا سلسلة طويلة من أعمال القسوة العقيمة... مجموعة من الجرائم، والحقاقت، والنكبات، والتقينا وسطها بين الحين والحين ببعض الفضائل، وبعض الأوقات السعيدة، أننا حين نرى أحياناً أكوخاً مبعثرة في صحراء مقفرة... وبما أن الطبيعة ألفت في قلب الإنسان الأنانية والكبرياء وجميع الأهواء، فلا عجب إذن... أن نلتقي بسلسلة من الجرائم والكوارث لا تكاد تنقطع" (52).

وهذه صورة مقبضة جداً وكان صاحبها رسمها فيما بين أيامه النكدة في برلين، أو وسط ضروب الإهانة والقهر التي لقيها فرنكفورت. ولعل الصورة كانت تصبح أكثر إشراقاً لو أن فولتير أنفق صفحات أكثر على رواية تاريخ الأدب، والعلم، والفلسفة، والفن. أما الصورة قائمة إلى هذا الحد، فإننا نتساءل: ما باله قد جشم نفسه كل هذه المشقة ليرسمها بهذا الإسهاب الشديد؟ ولعله كان يجيب: لكي يصدم القارئ حتى يتنبه ضميره وفكره، ويهز الحكومات حتى تعيد صياغة التعليم والتشريع لتكون ناساً أفضل. صحيح أننا لا نستطيع أن نغير الطبيعة البشرية، ولكننا نستطيع أن نعدل تصرفاتها بقبائل وعادات أصح وشرائع أحكم. وإذا كانت الأفكار قد غيرت العالم، فلم لا تصنع الأفكار الأفضل عالماً أفضل؟ وهكذا خفف فولتير في النهاية من نشأومه بالأمل في نشر العقل عاملاً صابراً من عوامل النهوض بالبشر.

وسرعان ما نقد الناقدون ما في "مقال الأعراف"؛ من عيوب فلم يقتصر الأمر على نونوت، بل إن لارشير، وجينيه، وكثيرين غيرهم نددوا بأخطاء الحقائق التي وردت فيه، ولم يعسر على اليسوعيين كشف التحامل لذي شوهه. واتفق معهم مونتسكيو في الناحية فقال "إن فولتير يشبه الرهبان الذين لا يكتبون من أجل الموضوع الذي يعالجونه، بل لمجد طائفتهم؛ إنه يكتب من أجل ديره." (53) ورد فولتير على نقاده بأنه أكد على أخطاء المسيحية لأن غيره ما زالوا يدافعون عنها؛ ثم استشهد

صفحة رقم : 12330

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

بأقوال مؤلفين معاصرين امتدحوا الحروب التي شنت على الالبيجنس، وإعدام هس، بل مذبحه القديس برتلميو، فالعالم يحتاج ولا ريب إلى التاريخ يدمغ هذه الأفعال بالإجرام ضد الإنسانية والفضيلة (54). -وربما أخطأ فولتير في فهم وظيفة المؤرخ رغم كل فكرته المنيرة عن الكيفية التي ينبغي أن يكتب بها التاريخ، فلقد جلس في مجلس القضاء يحاكم كل شخص وكل حادث، ويصدر الأحكام كأنه "الجنة أمن عام" التزمت بحماية الثورة الفكرية ودفعها قدماً. وقد حكم الناس لا بلغة زمانهم الفاسد ومعرفتهم المحدودة، بل في ضوء المعرفة الأوسع التي توافرت منذ أن ماتوا. وقد ألف فولتير "المقال" في أوقات متفرقة على مدى عشرين عاماً، وسط الكثير من المغامرات والشدائد التي شنتت انتباهه، لذلك افنقر هذا الكتاب إلى اتصال الرواية ووحدة الشكل، ولم يدمج أجزاءه تماماً في كل متماسك. ولكن محاسن الكتاب لا تحصى. فرقعة معرفته هائلة، وهي شهادة ما بذله فيه مؤلفه من البحث الجاد المثابر. وأسلوبه المشرق، الذي أثقلته الفلسفة وخففته الفكاهة، رفعه إلى مرتبة دونها مرتبة أكثر كتب التاريخ فيما بين كاسيتوس وجيبون. وقد لطف روح الهامة من تحيزه، وما زال الكتاب ينبض بمحبة الحرية، والتسامح، والعدالة، والعقل. في هذا أيضاً أصبحت كتابة التاريخ فناً، بعد الكثير جداً من كتب الأخبار التي اتسمت بالغفلة وافتقرت إلى الحياة. وفي جيل واحد أحال ثلاثة كتب تاريخ آخر أحداث الماضي أدياً وفلسفة: "تاريخ إنجلترا" لهيوم، و"تاريخ حكم الإمبراطور شارل الخامس" لروبرتسن، و"اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" لجيبون وكلها مدينة لروح فولتير، ومن بعض الوجوه للمثال الذي ضربه. وقد نوه ميشليه بالكتاب فقال في عرفان بالجميل أنه "التاريخ" الذي صنع فن كتابة التاريخ كله، والذي أنجبنا كلنا، نقاداً ورواة على السواء (55). وليت شعري ما الذي نفعله نحن هنا إلا السير على درب فولتير؟

عندما وضعت حرب السنين السبع فرنسا في صف أعداء فردريك، انبعث حب فولتير الكامل لوطنه من جديد، ربما ممزوجاً بذكريات قديمة

صفحة رقم : 12331

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> أوروبا الوسطى -> سويسرة وفولتير -> التاريخ الجديد

فرانكفورت وارتياح جديد في جنيف. فبعد دالامبير، وتراجع أكليروس جنيف عن الآراء الجريئة التي ربطهم بها المقال، أحس فولتير بأن الخطر عليه في سويسرا لا يقل عنه في فرنسا. فمتى يستطيع العودة إلى وطنه؟ وحالفه الحظ هذه المرة. ذلك أن الدوق دشوازيل الذي أمتعته قراءة كتب هذا الطريد المنفي عن بلده تقلد وزارة الخارجية في 1758، وبلغت مدام ديومبادور ذروة نفوذها رغم اضمحلال جسدها، وكانت قد عفت عن حماقات فولتير؛ واستطاعت الحكومة الفرنسية الآن، والملك يلهو وسط حريمه، أن تغض عن عودة الزنديق الرهيب إلى فرنسا. ففي أكتوبر 1758، انتقل ثلاث أميال ونصفاً خارج سويسرة، وأصبح سيد فيرنيه. وكان في الرابعة والستين، لم يزل قريباً من الموت كما قال من قبل، ولكنه اختصم أقوى دوله في أوربا في أخطر صراعات القرن.

صفحة رقم : 12332

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

الكتاب الرابع

تقدم العلم

79-1751

الفصل الخامس عشر

الأدباء

تعطل نمو المعرفة نتيجة للجمود، والخرافة، والاضطهاد، والرقابة، وهيمنة الكنيسة على التعليم. حقيقة أن هذه المعوقات ضعفت عن ذي قبل، ولكنها ظلت أقوى كثيراً منها في حضارة صناعية يضطر فيها الناس، بسبب تنافس الأفراد، والجماعات، والأمم، إلى البحث عن أفكار وأساليب جديدة، عن وسائل جديدة لغايات قديمة. وكان أكثر الناس في القرن الثامن عشر يتحركون في بيئة بطيئة التغير، تكفي الاستجابات والأفكار التقليدية عادة لسد حاجات الحياة فيها. فإذا لم تسمح المواقف والأحداث الجديدة بالتفسيرات الطبيعية دون عناء، عزتها عقول العوام لأسباب خارقة ثم أخلدت إلى الراحة.

وبقيت مئات الخرافات جنباً إلى جنب مع الاستنارة المطردة. مثال ذلك أن نساء الطبقة العليا كن يرتعن إذا كانت طوالهن نحوساً؟، أو يؤمن بأن في الإمكان إحياء طفل غريق إذا أضاءت امرأة فقيرة شمعة وعمتها في فنجان لتشتعل النار في كوبري على السين. وقد وعدت أميرة كونتي الأبيه لورو بجاشية فخمة إذا عثر لها على حجر القلاسة. واحتفظت جولي دلبسيناس بإيمانها بالأيام السعيدة والمشئومة رغم أنها عاشرت العالم الشاب دالامبير عدة سنين.

صفحة رقم : 12333

#### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

وكان قارئوا البخت يعيشون على صيت شفافيتهم؛ من ذلك أن مدام دبو مبادور، والابيه دبيرانيس، والدوق دشوازيل كانوا يستشيرون خفية مدام بونتان، التي تقرأ لهم البخت في تفل القهوة(1). ويقول مونتسكيو أن باريس تعج بالسرعة وغيرهم من الدجالين الذين يكفلون للناس التوفيق في دنياهم أو التمتع بشباب دائم. وقد أفنع الكونت سان جرمان لويس الخامس عشر أن في الإمكان إصلاح ماليات فرنسا التي فسدت بوسائل خفية لصنع الماس والذهب(2) وكان الدوق دريشليو يتسلى بالسحر والشعوذة-مستعيناً بالشيطان. أما أمير انهالت دساو العجوز، الذي كسب معارك كثيرة لبروسيا، وكفر بالله، فكان إذا التقى بثلاث عجائز في طريقة إلى الصيد قفل إلى بيته، لأن "اليوم نحس"(3). وكان آلاف الناس يحملون التمانم أو الطلاسم اتقاء الشرور. واستعملت مئات الوصفات السحرية علاجات طبية شعبية. واعتقد الناس أن في قدرة المخلفات الدينية أن تشفي كل عليل تقريباً، وكانوا يجدون مخلفات أو ذخائر القديسين في أي مكان-فقطعه من ثوبه في تربيته، وعباءته في تورين ولاون، ومسمار من مسامير الصليب الحقيقي في دير سان-دنيس. وقد تدعمت قضية المطالبين الإستيواريين بالعرش في إنجلترا بفضل فكرة أمن بها أكثر الناس، وهي أن في استطاعتهم شفاء الداء الخنازيري بلمسة منهم - وهي قوة حرم منها الملوك الهانوفريون لأنهم "غاصيون" لم يتباركوا بحق الملوك الإلهي. وكان أكثر الفلاحين على يقين من أنهم سعوا العفاريث أو الجنيات في الغابات. ومع أن الاعتقاد بوجود العفاريث كان في اضمحلال، فإن دوم أوجستن كالميه، البندكتي المتقف، كتب تاريخاً لمصاصي الدماء Vampires- وهي جنث تترك قبورها في الليل لتمتص دم الأحياء؛ وقد نشر هذا الكتاب بموافقة السوربون(4). واختفت في هذا القرن شر الخرافات قاطبة، وهي الإيمان بالسحر، اللهم إلا بعض بقايا المحلية. ففي 1736 اتخذ "أحبار الكنائس المسيحية المتحدة" الاسكتلندية قراراً يؤكد من جديد إيمانهم بالسحر(5)، وفي 1765 (وهو تاريخ متأخر) كتب أشهر الفقهاء الإنجليز، السر ولیم



## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; الأدباء -&gt; البيئة الفكرية

بلاكستون في "تعليقاته" يقول: "إن إنكار إمكان السحر والمعرفة، لا بل وجودهما الفعلي، إنما هو تكذيب صريح لكلمة الله، فالشيء ذاته حقيقة شهادتها كل أمة في العالم بدورها". ولكن القانون الإنجليزي الذي جعل من السحر جنابة كبرى ألغى في 1736 رغم بلاكستون والكتاب المقدس. ولم يرد ذكر لأي حكم بالإعدام عقاباً على تهمة السحر لا في فرنسا بعد 1718، ولا في إسكتلندا بعد 1722؛ وحكم الإعدام الذي نفذ في سويسرا عام 1782 هو آخر ما ورد من أحكام إعدام في القارة الأوروبية(6). وكان لازدياد الثروة، وتكاثر المدن، وانتشار التعليم، وتجارب العلماء، ونداءات الأدباء والفلاسفة - كان لهذا أثره في الحد شيئاً فشيئاً من دور الشياطين والعفاريت في حياة الناس وتفكيرهم، ورفض القضاة الاستماع إلى تهم العرافة، متحدين في ذلك التعصب الجماهيري. وبدأت أوروبا تنسى أنها ضحت بمائة ألف رجل، وامرأة، وفتاة، على مذبح خرافة واحدة فقط من خرافاتها الكثيرة(7).

وظل اضطهاد الكنيسة والدولة، والكاثوليك والبروتستانت، للمنشقين والخوارج يرهب الناس بأهواله ليحجب عن عقولهم أي أفكار قد تمس لمعتقدات الراسخة أو تزعج السلطات المقررة. وقد زعمت الكنيسة الكاثوليكية أن مؤسسها هو ابن الله، فهي إذن مستودع الحق الإلهي، والمفسر لشرعي الوحيد له، ولها إذن حق قمع الهرطقة. وقد انتهت إلى أنه لا خلاص لإنسان من الهلاك الأبدي خارج الكنيسة. ألم يقل المسيح "من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدين"؟(8) ومن ثم فإن مجمع اللاتران المسكوني الرابع، المنعقد في 1215، جعل النص الآتي جزءاً من العقيدة النهائية التي يلزم بها كل كاثوليكي "هناك كنيسة جامعة واحدة للمؤمنين، لا خلاص خارجها لأحد على الإطلاق"

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; الأدباء -&gt; البيئة الفكرية

وقد قبل لويس الخامس عشر هذه العقيدة باعتبارها منطقياً مستقاة من نصوص الكتاب المقدس، نافعة في تشكيل عقل قومي موحد. وفي 1732 كانت ممارسة العبادة البروتستنتية علانية في فرنسا محرمة، وإلا كان التعذيب، أو التشغيل في مراكب الأسرى، أو الموت، عقاباً للمخالفين(9). على أن الأهالي الكاثوليك كانوا أكثر تسامحاً من قادتهم، فأنكروا هذه العقوبات الوحشية، واشتد التراخي في تطبيق المرسوم حتى جرؤ هيجونوت فرنسا في 1744 على عقد مجمع قومي لهم على أن السوربون، كلية اللاهوت في جامعة باريس، أكدت من جديد في 1767 الدعوى القديمة، "أن الملك تلقى السيف الزمني ليقمع به مذاهب المادية، والإلحاد، والربوبية، تمزق روابط المجتمع وتعرض على لجريمة؛ وليسحق أيضاً كل تعليم يهدد بزعة أسس الإيمان الكاثوليكي."(10) وقد طبقت هذه السياسة بصرامة في أسبانيا والبرتغال؛ وفي إيطاليا طبقت تطبيقاً أكثر ليناً، وفي روسيا اشترطت الكنيسة الأرثوذكسية إجماعاً مماثلاً. ووافق الكثير من الدول البروتستنتية الكاثوليك على ضرورة الاضطراد. ففي الدنمرك والسويد طالبت القوانين بالالتزام المذهب اللوثيري، ولكن غير اللوثيريين من البروتستنت، بل الكاثوليك أيضاً، كانوا من الناحية العلمية في مأمن من

الاضطهاد، وإن ظلوا محرومين من حق شغل مناصب الدولة. وفي سويسرا كانت كل مقاطعة حرة في اختيار مذهبها وفرضه على أهلها. وفي ألمانيا كانت القاعدة التي تقضي بأن يتبع الناس دين أميرهم تغفل باطراد.

صفحة رقم : 12336

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

وفي الأقاليم المتحدة رفض رجال الدين البروتستنت التسامح باعتباره محرصاً على اللامبالاة الدينية، ولكن العلمانيين رفضوا الاقتداء برجال الدين في هذا الأمر، فأصبحت هولندا بفضل تحريرها النسبي من الاضطهاد ملاذاً للأفكار والمطبوعات غير التقليدية. وفي إنجلترا سمحت القوانين بالانشقاق الديني، ولكنها تعقبت المنشقين بالقيود الاجتماعية والسياسية. وقد صرح صموئيل جونسن في 1763 بأن "التعليم الباطل ينبغي قمعته بمجرد ظهوره؛ وينبغي أن تتكالف السلطة المدنية مع الكنيسة في عقاب من يجرؤن على مهاجمة الدين المقرر" (11). وأحرقت الحكومة الإنجليزية بين الحين والحين الكتب، أو وضعت في المشهرة مؤلفيها الذين تشككوا في أسس الإيمان المسيحي؛ مثال ذلك أن وولستن غرم وحبس في 1730، وفي 1762 حكم على بيتر أرنت بوضعه في المشهرة، ثم بالسجن سنة مع الأشغال الشاقة، بسبب تهجمه على المسيحية. وكانت القوانين التي شرعت ضد الكاثوليك تطبق في إنجلترا تطبيقاً غير دقيق، ولكنها نفذت بصرامة في إيرلندا، إلى أن رفض اللورد تشستر فيلد تطبيقها حين تولى حكم الإقليم في 1745؛ وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ألغي بعض اللوائح الصارمة. ويمكن القول بصفة عامة أن نظرية الاضطهاد كان يؤمن بها رجال الدين الكاثوليك والبروتستنت حتى سنة 1789، إلا حيث كان الكاثوليك أو البروتستنت أقلية، ولكن ممارسة الاضطهاد تضاءلت بظهور رأى عام جديد مع تطور الارتياح الديني. وانتقلت غريزة الاضطهاد من الدين إلى السياسة بحلول الدولة محل الكنيسة حارساً على الإجماع والنظام وهدفاً للانشقاق المبتدع. أما الرقابة على الكلام والمطبوعات فكانت في الدول البروتستنتية بصفة عامة منها في الدول الكاثوليكية، وكانت أهون ما تكون في هولندا وإنجلترا. وكانت صارمة في أكثر المقاطعات السويسرية. وقد أحرقت آباء المدينة في جنيف بعض الكتب الخارجة على السنة، ولكن ندر أن اتخذوا إجراء ضد مؤلفيها. وفي ألمانيا تعطلت الرقابة لتعدد الولايات التي كان لكل منها عقيدته الرسمية الخاصة؛ وكان في استطاعة الكاتب أن ينتقل عبر الحدود

صفحة رقم : 12337

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

من بيئة معادية إلى بيئة صديقة أو محايدة. وفي بروسيا ألغى فرديريك الأكبر الرقابة عملياً، ولكن خلفه أعادها في 1786. أما الدنمرك فإنها احتفظت بالرقابة على الكتب حتى عام 1749 باستثناء فاصل قصير في عهد شتروينزي.

وأما السويد فقد حظرت نشر المواد التي انتقدت اللوثرية أو الحكومة، وفي 1764 أصدرت جامعة أوبسالا قائمة بالكتب المحرمة؛ ولكن في 1766 قررت السويد الحرية الكاملة للمطبوعات. كانت الرقابة في فرنسا قد اتسعت من سابقة إلى سابقة منذ عهد فرنسوا الأول، ثم جددت بمسوم صدر في 1723 ينص على "ألا يطبع ناشرون أو غيرهم، أو يعيدوا طبع، أي كتب في أي مكان في المملكة، دون الحصول سلفاً على إذن بخطابات مختومة بالخاتم الكبير". وكان هناك ستة وسبعون رقيباً سميماً في 1741، بطلب إلى الرقيب منهم قبل أن يمنح الكتاب "إذن الملك وامتيازته" أن يشهد بأن الكتاب لا يحوي شيئاً ضد الدين، أو النظام العام، أو الخلق القويم. ويجوز لبرلمان باريس أو السوربون أن يشجبا الكتاب حتى بعد نشره بإذن الطبع الملكي. وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر لم تطبق الرقابة الملكية إلا تطبيقاً هيناً، فظهرت آلاف الكتب دون إذن ودون أن يمسه سؤ، وفي كثير من الحالات لا سيما حين مالزيرب رئاسة الرقابة (1750-63) كان المؤلف يحصل على "إذن ضمنى" - وهو تعهد غير رسمي بأن الكتاب المراد نشره يصرح بطبعه دون خوف من محاكمة. فإذا صدر كتاب لم تصرح الحكومة بنشره جاز أن يحرقه جلاد الدولة بينما يظل المؤلف حراً طليقاً، فإذا زج به في الباستيل لم يسجن غير سجن قصير كريم(12).

على أن هذه الحقبة من التسامح النسبي انتهت بمحاولة داميان اغتيال لويس الخامس عشر (5 يناير 1757). ففي أبريل قضي مرسوم وحشي بالموت على "جميع من يدانون بكتابة أو طبع أي مؤلفات قصد بها التهجم على الدين أو العدوان على السلطة الملكية أو تكدير نظام المملكة وهذونها". وفي 1764 حرم مرسوم آخر نشر الكتب التي تتناول مالية الدولة. وأخضعت الكتب، والنشرات، وحتى مقدمات المسرحيات، لأكثر ضروب الفحص

صفحة رقم : 12338

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

والإشراف تفصيلاً. وفرضت أحكام تتفاوت بين الوضع في المشهورة والجلد، وبين التشغيل تسع سنين في سفن الأسرى والعبيد عقاباً على شراء أو بيع نسخ من قصيدة فولتير "لابوسيل" أو "قاموسه الفلسفي". وفي 1762 كتب دالامبير إلى فولتير يقول: "إنك لا تتصور مبلغ الهياج الذي بلغته محكمة التفتيش (في فرنسا). فإن مفتشي الفكر... يحذفون من جميع الكتب ألفاظاً مثل "الخرافة" و"التسامح" و"الاضطهاد" (13). واشتدت الكراهية في طرفي الصراع بين الدين والفلسفة؛ وما بدأ حملة على الخرافة تصاعد حتى أصبح حرباً على المسيحية. وقد نشبت الثورة في فرنسا، لا في إنجلترا القرن الثامن عشر، من بعض الوجوه لأن رقابة الدولة أو الكنيسة، التي كانت معتدلة في إنجلترا، اشتدت في فرنسا إلى حد استحالة معه على العقل الحبيب أن ينطلق إلا بتحطيم أغلاله تحطيماً عنيفاً. واحتج "الفلاسفة" (وهو اصطلاح يراد به الفلاسفة الفرنسيون الذين شاركوا في الهجوم على المسيحية) على الرقابة لأنها تحكم على الفكر الفرنسي بالعمق. ولكنهم هم أنفسهم كانوا أحياناً يطلبون إلى الرقيب أن يكبح جماح خصومهم. مثال ذلك أن دالامبير رجا مالزيرب أن يصادر مجلة فيرون المسماة "عدو الفيلسوف"، و"العام الأدبي". ولكن مالزيرب أبى رغم ميله للفلاسفة (14). وطلب فولتير إلى الملكة أن تحظر تمثيل تقليد ساخر لمسرحيته "سميراميس"، فلم تشأ حظرها، ولكن بومبادور حظرها (15).

واحتال الفلاسفة أثناء ذلك بشتى الطرق لتفادي الرقابة فأرسلوا مخطوطاتهم إلى الناشرين الأجانب، عادة إلى أمستردام، أو لاهاي، أو جنيف؛ ومن هناك كانت كتبهم بالفرنسية تستورد بالجملة إلى فرنسا، فتصل كل يوم تقريباً بالمراتب إلى بوردو أو غيرها من الموانئ على الساحل أو الحدود الفرنسية. وكان الباعة يطوفون بها من شاع إلى شارع، ومن بلد إلى بلد، متخفية وراء عناوين بريئة. وسمح بعض النبلاء الذين لم يكونوا شديدي الإخلاص للحكومة الممركزة ببيع هذه الكتب في أرضهم (16). ونجت رسائل فولتير، التي وحدت الحملة الفلسفية من كثير من الرقابة

لأن صديقه داميلافيل شغل حيناً منصباً في إدارة المالية، فاستطاع أن يصدق بختم الرقيب العام على رسائل فولتير وشركائه وطرودهم(17). وقرأ

صفحة رقم : 12339

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

الكثير من موظفي الحكومة، وبعض رجال الدين، بلذة تلك الكتب التي شجبتها الحكومة أو الأكليروس. وندر أن وضع مؤلفو الكتب الفرنسيون المنشورة خارج فرنسا أسماءهم على الغلاف، فإذا اتهموا بتأليفها كذبوا بضمير جري، وكان هذا جزءاً من اللعبة باركتها قوانين الحرب. ولم يكتف فولتير بإنكار تأليف العديد من كتبه، به أنه أحياناً نسب تأليفها إلى الموتى. وضلل الرقيب بنشره مقالات ينقد فيها كتبه أو يندد بها. واشتملت اللعبة على حيل في الصياغة أو التعبير أعانت على تشكيل ما في النثر الفرنسي من رقة ورهافة في تورياته، وحواراته، ورمزياته، وقصصه، ومفارقاته، ومبالغاته الشفافة، وفي ما يتسم به في مجموعة من ذكاء وظرف بلغا مبلغاً لم يضارعه فيها أدب قط. وقد عرف الأبيه جالياني البلاغة بأنها فن قول الشيء دون أن يزعج بقائله في الباستيل.

وثمة عقبة أخرى في طريق التفكير الحر لم تقفها غير عقبة الرقابة، وهي هيمنة رجال الدين على التعليم. فقد كان القساوسة المحليون في فرنسا يعلمون أو يشرفون على التعليم في مدارس الأبرشيات. وكان التعليم الثانوي في قبضة اليسوعيين معلمين للغات والأدب الكلاسيكية، ولكنهم كانوا أقل عوناً في ميدان العلوم. وقد شحذ التعليم اليسوعي أذهان عدد كبير من "الفلاسفة". وكانت جامعة باريس تخضع لقساوسة أشد محافظة من اليسوعيين أما جامعة أورليان المشهورة بالفنون، وجامعة مونبلييه المشهورة بالطب، فكانتا علمانيتين نسبياً. ومما له دلالة أنه لا مونتسكيو، ولا فولتير، ولا ديدورو، ولا مويرتوي، ولا هلفيتيوس، ولا بوفون، درسوا في جامعة فقد ازدهر العقل الفرنسي المناضل للتححر من سلطان اللاهوتيين، لا في الجامعات، بل في الأكاديميات والصالونات.

وكانت الأكاديميات العلمية قد ظهرت في هذا القرن في برلين (1701) وأوبسالا (1710) وسانت بطرسبورج (1724) وكوبنهاجن (1743). وفي 1739 ألف لينوس وخمسة أدباء سويديين آخرين "الكوليجيوم كوريزوم"، وفي 1741 تأسست من هذه الهيئة أكاديمية "كونجليجا زفنسكا فيتنسكابس"، التي أصبحت الأكاديمية الملكية السويدية. وكان في فرنسا

صفحة رقم : 12340

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

أكاديميات أقليلية في أورليان، وبوردو، وتولوز، وأوجير، ومتر، وبيزانسون، وديجون، ولبون، وكان، وروان، ومونتوبان، وأنجير، ونانسي، وأكس-أن-بروفانس. وتجنبنا الأكاديميات الهرطقة، ولكنها شجعت العلم والتجربة،

وتسامحت في النقاش وشجعت، ومسابقات الجوائز التي قدمتها أكاديمية ديجون في 1749 و1754 هي التي أطلقت روسو على الدرب إلى الثورة الفرنسية. وفي باريس أيقظ انتخاب دوكلو (1746) ودالامبير (1754) أكاديمية الخالدين المحتضرين الفرنسية من غفواتها الدجماطيقية؛ وكان ارتقاء دوكلو إلى منصب استراتيجي في الأكاديمية، هو منصب "السكرتير الدائم" (1755) إيداناً بسيطرة الفلاسفة على الأكاديمية. وأضافت المجالات العلمية مزيداً من الحفز للحركة الفكرية. وكان من خيرة هذه المجالات "مذكرات لانتفاع بها في تاريخ العلوم والفنون الجميلة" التي رأس تحريرها اليسوعيون من 1701 إلى 1762، وتعرف بمجلة "تريفو" نسبة إلى دار النشر في تريفو، قرب ليون، وكانت أكثر المطبوعات الدينية تفقهاً وتحرراً. وكان في باريس وحدها ثلاث وسبعون مجلة وعلى رأسها "المركز دفرانس" و"مجلة العلماء". ورأس اثنان من أقوى خصوم فولتير وأشدهم لدوداً تحرير مجلتين واسعتي النفوذ: فأسس ديفونتين "أخبار الأدب" في 1721، ونشر فريرون "العام الأدبي" من 1754 إلى 1774. ونسجت ألمانيا على هذا المنوال، فأصدرت "رسائل في الأدب الجديد" التي كان ليسنج وموسى مندلسون من بين من زودوها بمقالاتهم الكثيرة. وفي إيطاليا تناولت "مجلة الأدباء" المواضيع العلمية والأدبية والفنية، أما مجلة "كافية" فكانت صحيفة رأى على طريقة "الاسبكتاتور الإنجليزية" وفي السويد جعل أولوف فون دالين من صحيفة "سفنسكا أرجوس" رسولاً للتوير. ولما كانت كل هذه الدوريات تقريباً اللغات القومية ولا تخضع لإشراف كنسي، فقد كانت بمثابة خميرة طالعة في حركة عصرها المضطربة.

صفحة رقم : 12341

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

ومن سمات القرن الثامن عشر، كما أنه من سمات الحاضر، ذلك التشوف المنتشر إلى المعرفة - وهو بالضبط تلك الشهوة الفكرية التي أنكرتها العصور الوسطى باعتبارها خطيئة الغرور الأحمق. وقد استجاب الكتاب بحماسة ليجعلوا أوسع منالاً وفهماً. فكثرت "الخلاصات"، وحاولت كتب مثل "الرياضة الميسرة" و"آراء بيل الأساسية" و"عقل مونتيني" و"عقل فونتيل" أن تضع العلم، والأدب، والفلسفة في متناول جميع الناس، وازداد باطراد عدد الأساتذة الذين يحاضرون باللغات الوطنية، ووصلت بذلك محاضراتهم إلى جماهير لا قبل لها بتعليم اللاتينية. وأخذت المكتبات والمتاحف تتسع وتفتح كنوزها للطلاب. ففي 1753 أوصى السير هانز سلون للأمة البريطانية بمجموعة البالغة خمسين ألف كتاب، وعدة آلاف من المخطوطات، وعدد كبيراً من الصور، والعملات، والتحف الأثرية. وقرر البرلمان تعويض ورثته بعشرين ألف جنيه، وأصبحت المجموعة نواة للمتحف البريطاني، وأضيف إليها مجموعتا مخطوطات هارلي وكوطن، والمكتبات التي جمعها إنجلترا؛ وفي 1759 فتح المتحف العظيم للجمهور. وكان يفتني في 1928 نحو 3.200.000 مجلد مطبوع و 56.000 مخطوط، تملأ أرففه البالغ طولها خمسة وخمسين ميلاً. وأخيراً ظهرت الموسوعات لتجمع، وترتب، وتوصل للقراء ذخائر العلم الجديد لكل قادر على القراءة والتفكير. وقد عرفت العصور الوسطى موسوعات كتلك التي وضعها إبيدور أسقف إشبيلية (حولي 600-626)، وفانسان البوفي (حوالي 1190-1264)؛ وفي القرن السابع عشر كان هناك موسوعة يوهان هنريش ألسنتيد (1630) و"القاموس التاريخي الكبير" لمورتيري (1674). وكان "القاموس النقدي" لبيل (1697) أقرب إلى تجميع لحقائق مقلقة، ونظريات موحية، منه إلى الموسوعة، ولكن تأثيره على فكر أوروبا المثقفة فاق تأثير أي مؤلف مماثل آخر قبل ديور. وفي لندن نشر أفرام تشيمبرز عام 1728، في مجلدين "موسوعة أو قاموساً عاماً للأدب والعلوم". وقد أسقط منه التاريخ، والتراجم، والجغرافيا، ولكنه بفضل نظام الإحالات أو الاسنادات

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> البيئة الفكرية

الترافيه الذي ابتكره، وبغير ذلك من الوسائل، فتح الطريق الذي سلكته "موسوعة" ديرو ودالامبير الخطيرة (1751 وما بعدها). وفي 1771 ظهرت في ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى من "الموسوعة البريطانية"، أو قاموس الآداب والعلوم- من وضع بعض السادة في اسكتلنده، ومطبوعة في أدنبره وبلغت طبعة ثانية منها (1778) عشرة مجلدات، وتقدمت على سابقتها باحتوائها التاريخ والتراجم. وهكذا اطرده نموها من طبعة لأخرى خلال مائتي عام. وما أكثر الذين تزودوا منا من هذا المحصول، وسطوا على تلك الذخيرة، غير مرة كل يوم". وما وافى عام 1789 حتى كانت الطبقات الوسطى في أوربا الغربية لا تقل ثقافة عن طبقتي الأشراف والأكليروس. لقد شقت الطباعة طريقها، تلك كانت الثورة الأساسية رغم كل ما يقال.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

## 2- إلهام الدراسات الكلاسيكية

كانت الدراسات الكلاسيكية تهبط في رفق من مكان القمة الذي تربعت عليه أيام جولبوس وجوزف سكاليجر، وكازوبون، وسالماسيوس، وبنطلي؛ ولكن نيكولا فريري واصل ما نهجوا عليه من تقان جدير بالعلماء، وما حققوه من نتائج بعيدة المدى. فقد قبل عضواً في الأكاديمية الفرنسية الملكية للمأثورات والآداب البحتة وهو في السادسة والعشرين، وقرأ لها في ذلك العام (1714) بحثاً "في أصل الفرنجة" قلب الأسطورة الفخور التي زعمت أن الفرنجة رجال "أحرار" قدموا من اليونان أو طروادة، فقال إن الأصح أنهم كانوا همجاً من ألمان الجنوبيين. وأبلغ عنه الأبية فرتو الحكومة لأنه قذف في الملكية. فزج بالعالم الشاب في الباستيل فترة قصيرة، وبعدها قصر أبحاثه على بلاد غير فرنسا. ورسم 1,375 خريطة توضح الجغرافيا القديمة. وجمع البيانات المثيرة عن تاريخ العلوم والآداب الكلاسيكية، وعن أصول الأساطير اليونانية. وقد صححت مجلداته الثمانية عن التأريخ القديم (الكرونولوجيا) كتاب جوزف يوسطس سكاليجر الخطير، وأرسى التاريخ الصيني على أسس مقبولة في يومنا هذا، فكان هذا

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

واحداً من مئات الوخزات العلمية التي أحدثت تقوياً في مفهوم الكتاب المقدس للتاريخ: ووجهت ضربة مماتلة للخرافات الكلاسيكية حين قرأ بوبي على الأكاديمية (1722) بحثاً يتشكك في رواية ليفي للتاريخ الروماني القديم. وكان لورنتسو فاللا قد ألمع إلى هذه الشكوك عن هذه النقطة حوالي عام 1440، وقد طورها فيكو عام 1721، ولكن بحث بوبي المستفيض سخر بشكل قاطع قصص رومولوس وريموس، والهوراشين، والكورياتيين، باعتبارها مجرد أساطير؛ ومهد الطريق لعمل بارتولد نيبور في القرن التاسع عشر. ولا تدخل الكتب التالية تماماً في النطاق الزمني لهذا الفصل، مع انتمائها إلى القرن الثامن عشر، وهي كتاب "ملاحظات تمهيدية عن هومر" (1795) الذي فكك فيه فريدرش فولف الشاعر هومر إلى مدرسة وأسرة كاملة من المنشدين؛ وطبعات رتشارد بورسن المدققة لأسخيلوس ويوربيديس، وكتاب يوزف ايكيل "نظرية المسكوكات" (1792-98) الذي أسس علم المسكوكات والمعادن.

ولم يشعر عالم الدراسات الكلاسيكية ثانياً بنشوة إلهام كذلك الإلهام الذي جاءه من إنساني النهضة، إلا حين اكتشفت مدينة هر كولانيوم. ففي 1738 كان عمال يضعون أساس بيت للصيد يبني لشارل الرابع ملك نابلي، فكتشفوا بطريق الصدفة عن أطلال هر كولانيوم، وفي 1748 أظهر فحص مبدئي بعض الأبنية المذهلة لمدينة يومبي التي طمرها هي أيضاً ثوران فيزوف في 79 م. وفي 1752 استنفذت المعابد الفخمة التي بناها المستعمرون اليونان في بيستوم في غياهب القرون المظلمة. وقد رسم الحفار الكبير بيراني في معابد يومبي وقصورها وتمائيلها التي أخرجتها الحفائر على محفورات وجدت النسخ المنقولة عنها إقبالاً من المشتريين في كل أنحاء أوروبا. وأسفرت هذه الكشوف عن إحياء حار لاهتمام القوم بالفن القديم، ودافع قوى للحركة الكلاسيكية الجديدة التي تزعمها فنكلمان، وإضافة هائلة للمعرفة الجديدة بأساليب الحياة القديمة.

ويجب أن نقف هنا هنيئاً للإقرار بدين العلم للرهبان الذين استخدموا

صفحة رقم : 12345

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

مكتباتهم ومجموعات مخطوطاتهم للقيام بأبحاث وتصنيف سجلات كانت معينة جداً للفكر الحديث. من ذلك أن رهبان القديس مور البندكتيين وصلوا عكوفهم القديم على الدراسات التاريخية. وأنشأ دوم برنار ديمونفوكون علم الجغرافيا (الكتابات القديمة) بكتابه "الجغرافيا اليونانية" (1708)، ووضح التاريخ القديم بالفن القديم في كتابه "العلم القديم مشروحاً وممثلاً بالصور" (عشرة مجلدات، 1719-24) ووجه دراساته المدققة لوطنه في خمسة مجلدات من القطع الكبير "آثار المملكة الفرنسية" (1729-33). وبدأ دوم أنطوان ريفيه دلاجرانج في 1733 التاريخ البندكتي المسمى "التاريخ الأدبي لفرنسا" الذي أصبح السلف والمعين الذي استمدت منه جميع التواريخ اللاحقة للأدب الفرنسي القديم. وكان أعظم علماء القرن الثامن عشر البندكتيين هؤلاء هو دوم أوجستن كالميه، الذي التجأ فولتير إلى دبره نصية على جميع أسفار العهدين القديم والجديد" (1707-16)، بل سطا عليه أحياناً. ورغم ما في هذه المجلدات الأربعة والعشرين من مأخذ (18) فقد امتدحها القراء باعتبارها أثراً شامخاً للتفقه في العلم. وقد ألف كالميه عدة كتب

أخرى في تفسير الكتاب المقدس، وحذا حذو بوسويه في تصنيف "تاريخ للعالم" (1735)، وأنفق كل ساعات يقظته تقريباً في الدرس والصلاة. ومرة سأل فولتير في جهل سعيد "من تكون مدام دبومبادور هذه؟" (19) ورفض منصب الأسقفية، وكتب قيريته التي قال فيها باللاتينية "هنا يرقد إنسان قرأ كثيراً، وكتب كثيراً، وصلى كثيراً فله أحسن عملاً أمين" (20).

وشارك بعض العلمانيين الأجرياء في نقد الكتاب المقدس مثال ذلك الطبيب جان أستروك، الذي درس الأسفار الخمسة، التي افترض أن موسى كاتبها، في كتابه "استقراءات حول السجلات الأصلية التي يبدو أن موسى افتتح بها في كتابة سفر التكوين" (1753)؛ هنا ذكر لأول مرة أن استعمال اسمين مختلفين لله، وهما يهوه وأيلوهيم، يشير إلى قصتين أصليتين للخليفة، ربط بينهما في سفر التكوين ربطاً واهياً متكرراً. وحاول آخرون من دارسي الكتاب المقدس أن يحبسوا تاريخ الخليفة من واقع

صفحة رقم : 12346

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

الأسفار الموسوية الخمسة، فخلصوا إلى مانتي نتيجة مختلفة. وأزعج المستشرقون المؤمنين المحافظين بذكرهم التاريخ المصري (الكرونولوجيا) الذي زعم أنه يرجع إلى ثلاث عشر ألف سنة، والحسابات الصينية التي قدرت الذين يعتقدون أن العالم عمر 326,669 عصراً، يحتوي كل منها على قرون كثيرة (21). أما أجراً وأخطر إسهام في دراسات الكتاب المقدس Biblical Studies في القرن الثامن عشر فصاحبه أستاذ ألماني للغات الشرقية في أكاديمية هبورج، هو هرمان رايماروس. وقد ترك عند موته في 1768 مخطوطاً من أربعة آلاف صفحة عكف عليه عشرين عاماً، وعنوانه "دفاع عن عباد الله العقلانية". ولم يجرؤ أحد على نشره إلى أن نشر وعنوانه "دفاع عن عباد الله العقلانيين". ولم يجرؤ على نشره إلى أن نشر ليسنج (1774-78) سبع قطع مه وصفها بأنها "كسر من كتاب مجهول المؤلف وجد في فولفتوتل" (حيث كان ليسنج أميناً للمكتبة). وهبت كل ألمانيا المثقفة تقريباً محتجة إلا فردريك الأكبر. لا بل أن يوهان زملر، العالم المتحرر، رمى ليسنج بالجنون لأنه احتضن مثل هذا النقد المدمر للمعتقدات السنية. ذلك أن رايماروس لم يكتف في الكسرة السابعة التي تناولت "هدف المسيح وتلاميذه" برفض معجزات المسيح وقيامته، بل صوره يهودياً شاباً، جاداً، لطيفاً مخدوعاً، ظل وفياً لليهودية إلى النهاية، وقيل معتقد بعض اليهود بأن العالم مشرف على الزوال، وأرسي مبادئه الأخلاقية على هذه المقدمة إعداداً للحدث. وذهب رايماروس إلى أن المسيح فسر عبارة "ملكوت السموات" بالمعنى المتعارف عليه بين قومه، وهو ملك أت لليهود المحررين من روما (22). وزعم أن صرخته اليانسة على الصليب "إلهي إلهي لماذا تركتني" كانت اعترافاً بناسوته وبهزيمته. وبهذا المعنى لم يكن مفتتح المسيحية هو المسيح بل الرسل. ويقول ألبرت شفايتسر، المفسر العلامة لكتاب رايماروس، "ربما كان كتابه أروع إنجاز في كل مسار البحث التاريخي في حياة المسيح، لأنه أول

صفحة رقم : 12347



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

من أدرك أن حياة الفكر التي تحرك المسيح كانت في صميمها أخروية (eschatatological) - أي مبنية على نظرية نهاية وشيكة للعلم" (23).  
ومن دراسة الآثار اليهودية انتقل العلماء في حذر إلى شعوب الشرق التي رفضت المسيح أو لم تسمح باسمه قط.  
فترجمة جالان الفرنسية لألف ليلة بورنييه "تاريخ الفلسفة الوثنية" (1724)، وكتاب بولانفلييه "حياة محمد" (1730)، وترجمة سيل الإنجليزية للقرآن- هذه كلها أظهرت الإسلام، لا عالماً من الهمجية، بل ساحة لعقيدة منافسة قوية، ولنظام خلقي بدا موفقاً رغم تسامحه مع فطرة تعدد الزوجات في جنس الرجال. وفتح إبراهيم هياسنت أنكتيل-دوبرون ميداناً  
ى خر بترجمته أسفار البرت المقدسة. وقد جذبته إليها قراءته مختارات من الزند أفسنا في مكتبة بباريس، فعدل عن تحضيره للقوسوسية، واعتزم أن يرتاد كتب الشرق المقدسة في أصولها. ولما كان أفقر من أن يدفع نفقات الرحلة، فقد انخرط وهو في الثالثة والعشرين (1754) في سلك الحملة الفرنسية إلى الهند. وما أن وصل إلى بوندتشييري حتى تعلم قراءة الفارسية الحديثة، وفي شاندرناجور درس السنسكريتية، وفي صورات أفتع كاهناً برتيا بأن يعلمه البهلوية والزندية. وفي 1762 عاد إلى باريس ومعه 180 مخطوطاً شرقياً عكف على ترجمتها؛ وكان خلال ذلك يعيش على الخبز والجبن والماء، ويتجنب الزواج لأنه ترف لا طاقة له به. وفي 1771 نشر ترجمته الفرنسية للزند-أفسنا، وشذرات من كتب أخرى للبرت، وفي 1804 أصدر "الأوبانيشادات". وقد شارك الوعي بالديانات والنواميس الأخلاقية غير المسيحية، ببطى، في تقويض دجماتيقية العقائد الأوربية.  
وكان أبعد هذه الإلهامات العرقية أثراً إماطة المرسلين والرحالة والعلماء الأوربيين اللثام عن تاريخ الصين وفلسفتها. وكانت البداية هي عودة ماركو بولو إلى البندقية في 1295؛ وعززتها الترجمات الفرنسية والإنجليزية (1588) لكتاب الأب اليسوعي خوانداليس دي مندوزا "تاريخ الصين" (لشبوننة 1584)، وترجمة هاكلويت الإنجليزية، في كتابه

صفحة رقم : 12348

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

"رحلات" (1589-1600)، لمقال لاتيني "عن مملكة الصين" (مكاو، 1590). وظهر الأثر الجديد في مقال  
مونتيني "في التجربة (1591) حيث يقول "الصين، التي تقضل حكومتها وأدابها وفنونها نظائرها عندنا في كثير من مواطن التفوق، دون أي علم منها بنظمنا." (24) وفي 1615 نشر الأب اليسوعي نيكولاس تريجوت وصفه للبعثة  
المسيحية إلى الصين، وسرعان ما ترجم إلى الفرنسية، وإلى الإنجليزية في "حجاج برنتشاش" (1625). وقد امتدح  
تريجوت وغيره النظام الصيني الذي قضى باشتراط التعليم المتخصص المفصل لتولي المناصب العامة، وبالسماح  
لجميع الطبقات من السكان الذكور بالامتحان للوظائف، وبإخضاع كل الهيئات الحكومية للتفتيش الدوري. ونشر  
يسوعي آخر هو أنثاسيوس كيرشر، العلامة المدهش المتعدد المعارف، في عام 1670، موسوعة بمعنى الكلمة اسمها  
"الصين المصورة" امتدح فيها الحكومة الصينية لأن على رأسها ملوكاً فلاسفة (25).  
وأثنى اليسوعيون ثناء مستطاباً على ديانة الصين وفلسفتها. فقال تريجوت إن الصينيين المتعلمين يتصورون الله روح  
العالم، والعالم جسده؛ وكان في وسع سبينوزا، الذي قال بمثل هذا الرأي، أن يقرأ هذه الفكرة في كتاب نشر بأمر  
في 1649، يفتتبه في مكتبته فرانز فان دن إندن، الأستاذ الذي علمه اللاتينية (26)؛ وفي 1622 نشر اليسوعيون  
ترجمة لاتينية لكونفوشيوس "حكمة الصين" وفي خلاصة أخرى سموها "الفيلسوف الصيني كونفوشيوس" (1687)  
وصفوا النظام الأخلاقي الكونفوشي بأنه "أرقى فضيلة علمت للناس، فضيلة يجوز القول بأنها منبثقة من مدرسة

المسيح" (27). وقد كتب الأب اليسوعي لوي لكونت في "مذكراته عن الصين" (1696) أن الشعب الصيني "حفظ معرفة الإله الحق مدى ألفي عام" وأنه "مارس أنقى ناموس للفضيلة في الوقت الذي كانت فيه أوروبا لا تزال متردية في حماة الخطيئة والفساد" (28) وقد شجبت السوربون هذا الكتاب. وفي 1697 نشر ليبنتز الحذر سياسياً، المتيقظ لكل هبة نسيم في جو الفكر، كتابه "آخر الأنباء من الصين". وقد قدم فيه أوروبا على الصين في العلوم والفلسفة، ولكن:

صفحة رقم : 12349

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

"من كان يعتقد هناك شعباً يبرزنا فيما يتبعه من مبادئ الحياة المدنية؟ فهذا الذي نراه في حالة الصينيين... في الخلاق والسياسة. فمحال أن نصف الجمال الذي وجهت به كل الأشياء في قوانين الصينيين لتحقيق الطمأنينة والسلام أكثر من توجيهها في قوانين الشعوب الأخرى... ويخيل إلى أن الوضع في شئوننا قد بلغ من السوء بسبب انتشار الفساد بيننا بغير حدود-مبلغاً يكاد يكون فيه من الضروري أن يبعث إلينا مرسلون صينيون ليعلمونا فائدة الدين الطبيعي وممارسته، تماماً كما نبعث إليهم بالمرسلين ليعلموهم الدين السماوي. لذلك أعتقد أنه لو اختير حكيم ليصدر حكمه... في فوق الشعوب، لأعطى قصب السبق للشعب الصيني -اللهم إلا في تمايزنا عليه بشيء سام واحد ولكه فوق الطبيعة البشرية، وأعني به العطية إلهية التي وهناها، وهي الدين المسيحي." (29)

وحت ليبنتز أكديمات أوروبا على جمع المعلومات عن الصين، وساعد في إقناع الحكومة الفرنسية بإرسال العلماء اليسوعيين الأكفاء للانضمام إلى البعثة في الصين وتقديم التقارير الواقعية. وفي 1732 لخص جان باتيست دو هالد هذه التقارير من المعلومات في كتابه "وصف... إمبراطورية الصين"، وبعد عام ترجم الكتاب إلى الإنجليزية، فكان له في فرنسا وإنجلترا تأثير بعيد المدى. وكان دو هالد أول من أذاع شهرة الفيلسوف الصيني مينسيوس في أوروبا. وما انتصف القرن الثامن عشر حتى كان كتاب بوسويه في "تاريخ العالم" قد غص من قدرة ذلك الكشف عن حضارات قديمة، واسعة، مستنيرة، كاد تاريخه "العالمي" يغفلها تماماً، وأصبح الطريق ممهداً لمنظور فولتير الأوسع عن قصة الحضارة.

وظهرت نتاج هذه المبالغات الحماسية في التقاليد والفنون والعادات والآداب والفلسفة الأوروبية. ففي 1739 نشر المركيز دارجنس سلسلة من "الرسائل الصينية" بقلم صيني وهمي، انتقد فيها النظم والعادات الأوروبية، وفي 1757 أضحك هوراس ولبول إنجلترا بكتابه "رسالة من الفيلسوف الصيني كسوهو"، وفي 1760 لجأ جولدمث إلى نفس الحيلة في كتابه "مواطن العالم". وحين كان الإمبراطور جوزيف الثاني يحرق بنفسه قطعة

صفحة رقم : 12350

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

أرض كان يقلد عادة اتباعها الأباطرة الصينيون (30). وحين كانت سيدات باريس الرقيقات يفتحن شماسيهن اتقاء الشمس، كن يعرضن بدعة جميلة أدخلها اليسوعيون إلى فرنسا من الصين (31)، وفي أخريات القرن الثامن عشر تطورت الشمسية pavasol إلى المطرية umbrella. وكان الخزف الصيني والأكية الياباني قد أصبح في القرن السابع عشر مقتنيات غالية من البيوت الأوربية، واستهوى خيال الإنجليز حوالي عام 1700 ورق الجدران الصيني الذي تؤلف وحداته الصغيرة الموضوعه في مكانها الصحيح رسماً كبيراً واحداً. ودخل الأثاث الصيني البيوت الإنجليزية حوالي عام 1750. وطوال القرن الثامن عشر كان الولع بالصينيات Chinoises وهي الأدوات الصينية الصنع أو الطراز - يميز الزخرفة الإنجليزية والفرنسية، وسرى إلى إيطاليا وألمانيا، واختلط بحلية الروكوكو، واستبدت بدعته بالناس استبداداً حمل الكثير من النقاد على أن يهبوا لتحدى طغيانه. وأصبح الحرير الصيني رمزاً لعلو المكانة الاجتماعية، وانتشرت الحدائق الصينية في غرب أوروبا، وأحرقت الألعاب النارية الصينية أباهم الأوربيين (32). وكانت "توراندوت" التي ألفها جوزي "فتنازيا" صينية. وظهر نيف وعشر مسرحيات بخلفية صينية على المسرح الإنجليزي، وطور فولتير مسرحيته "بتييم صيني" من دراما صينية في المجلد الثالث من كتاب دو هالد (33).

وكان التأثير الصيني في الفكر الغربي على أشده في فرنسا، حيث تلقفه أحرار الفكر سلاحاً آخر يشهرونه على المسيحية. وأبهجم أن يجدوا أن كونفوشوس كان رجلاً حر التفكير لا يسوعياً مرحل عن وطنه. وصرحوا بأن نظام كونفوشوس الخلقي أثبت أن الناموس الخلقي الذي لا يعتمد على دين سماوي شئ ممكن عملياً (34). لاحظ بيل (1685) أن إمبراطوراً صينياً كان يمنح المرسلين الكاثوليك حرية العمل في الوقت الذي يفرض فيه لويس الرابع عشر، بعد إلغائه مرسوم نانث المتسامح الذي أصدره هنري الرابع، الامتنال لمذهب الدولة، مستعينا على ذلك بالعنف الهجمي الذي استعملته خيالاته في احتلالها بيوت الهيجونوت. وقد أخطأ بيل في تفسير عقيدة الكونفوشوسين فحسبهم ملحدين، ومن ثم استشهد بهم لدحض الحجة المستمدة من الإجماع العالمي على وجود الله (35). أما مونتسكيو

صفحة رقم : 12351

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

فلم يستسلم للمد الشرقي، ووصف الأباطرة الصينيين بأنهم حكام مستبدون، وندد بالتجار الصينيين غير الأمان، وفضح فقر الجماهير الصينية، وتنبأ بما سيسفر عنه تكاثر السكان في الصين من عواقب وخيمة (36). وحاول كزنييه الرد على مونتسكيو في كتابه "حكم الصين الاستبدادي" (1767)، فأثنى على هذا الحكم لأنه "استبداد مستنير" واستشهد بنماذج صينية على إصلاحات لازمة في الاقتصاد والحكم الفرنسي. أما طرجو، المرتاب في مثالية الصين، فقد كلف كاهنين كاثوليكين صينيين في فرنسا بأن يذهبا إلى الصين ويحاول الحصول على إجابات حقيقية عن اثنين وخمسين سؤالاً، وقد شجع تقديرهما على تقييم أكثر واقعية لما في الحياة الصينية من خير وشر (37). وقد قرأ فولتير عن الصين في إفاضة وشغف. وخص لحضارة الصينية بالفصول الثلاثة الأولى في "المقالة عن العرف"، ووصف الصين في قاموسه الفلسفي بأنها "أروع ممالك الأرض، وأقدمها، وأوسعها، وأحفلها بالسكان، وأحسنها تنظيماً" (38).

وقد أسهم إعجابه بالحكومة الصينية في ميله إلى الاعتقاد بأن خير أمل في الإصلاح الاجتماعي معقود على "الاستبداد المستنير"، الذي عنى به الملكية المستنيرة. وكان كالعديد من الفرنسيين، وكالفيلسوف الألماني فولف، على استعداد لسلك كونفوشوس في زمرة القديسين، لأنه "علم الشعب مبادئ الفضيلة قبل تأسيس المسيحية بخمسمائة سنة" (39). وذهب فولتير، وهو الذي عرف عنه أدب السلوك، إلى أن ما تحلى به الصينيون من ذوق وضبط للنفس، ومسالمة هادئة، مثال ينبغي أن يقتدي به مواطنوه السريعوا الانفعال (40)، وربما أن يقتدي به هو نفسه. فلما ترجمت إلى

الفرنسية قصيدتان من نظم تشين لونج (حكم 1736-96) إمبراطور الصين في تلك الفترة، استجاب فولتير لهما شعراً. فأهداه الإمبراطور زهرية من الخزف الصيني. وكان علم الأوربيين بالأديان والأنظمة الأجنبية عاملاً قوياً في إضعاف اللاهوت المسيحي. وأفضت الأنبياء الواردة من فارس، والهند، ومصر، والصين، وأمريكا، إلى سلسلة لا آخر لها من الأسئلة المربكة. فتساءل

صفحة رقم : 12352

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الأدباء -> إلهام الدراسات الكلاسيكية

مونتسكيو مثلاً كيف يتأتى للمرء أن يختار الدين الحق من بين ألفي دين مختلفة (41)؟ وتساءل عشرات غيره كيف أمكن خلق العالم سنة 4004 ق.م، في حين أن الصين كان لها حضارة راقية سنة 4000 ق.م؟ ولم تحتفظ الصين بسجل أو تقليد متوارث لطوفان نوح الذي تقول التوراة- إنه أغرق الأرض كلها؟ ولم خص الله بوحيه الكتابي أمة صغيرة في غرب آسيا إن كان قد قصد به البشرية كلها؟ وكيف يستطيع إنسان أن يصدق بأنه لا خلاص بعيداً عن الكنيسة؟- فهل كل تلك الملايين التي عاشت في الهند، والصين، واليابان، تصلى الآن نار جهنم؟ وطافح اللاهوتيون للإجابة عن هذه الأسئلة وأشباهها بتلال شروخ يوماً بعد اليوم، في الغالب نتيجة لتقارير البعثات الدينية، ولاح أحياناً أن اليسوعيين في الصين قد اعتنقوا الكونفوشيوسية بدلاً من أن يهدوا الصينيين إلى المسيح. وألم يكن العلم الذي جاء به هؤلاء اليسوعيون المتقفون، لا اللاهوت الذي علموه، هو صاحب الفضل في كسبهم الكثير جداً من الأصدقاء من بين الصينيين؟

صفحة رقم : 12353

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> البحث المتسع

الفصل السادس عشر

التقدم العلمي

## 1- البحث المتسع

كان العلم أيضاً يزود الناس بالهام جديد. ونمو العلم - نمو طلبه، وطرائقه، وكشوفه، وتنبؤاته، وثمراته الناجحة، وسلطانه، ومكانته- هذا النمو هو الجانب الإيجابي لذلك التطور الحديث الأساسي الذي كان جانبه السلبي هو اضمحلال الإيمان بالخوراق. ونشب الصراع بين كهانيتين: الأولى كرسست نفسها لتشكيل الخلق بطريق الدين، والثانية لتربية العقل بطريق العلم. والكهانة الأولى هي الغالبة في عصور الفقر أو الكوارث، حين يكون الناس شاكرين لفضل العزاء الروحي والنظام الخلقى، والثانية هي الغالبة في عصور الثروة المتصاعدة، حين يميل الناس إلى قصر آمالهم على هذه الدنيا.

ومن المؤلف اعتبار القرن الثامن عشر دون السابع عشر في إنجازاته العلمية، لاشك أنه يخلو من الفحول الشوامخ أمثال جاليلو أو نيوتن، ومن المآثر التي يمكن أن تقاس باتساع العالم المعروف، أو الامتداد الكوني للجاذبية، أو صياغة حساب التفاضل والتكامل، أو كشف الدورة الدموية. ومع ذلك فأى كوكبة من النجوم يتألق بها المشهد العلمي في القرن الثامن عشر! -أويلر ولاجرانج في الرياضيات، وهرشل ولابلاس في الفلك، ودالامبير وفرانكلن وجلفاني وفولتا في الفيزياء، وبريستلي ولافوازييه في الكيمياء، ولانابوس في النبات، وبوفون ولاماركفي الأحياء، وهالر في الفسيولوجيا، وجون هنتر في التشريح، وكوندياك في علم النفس، وجنر بوبرها في الطب-

صفحة رقم : 12354

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; البحث المتسع

وقد خصصت الأكاديميات المتكاثرة المزيد من وقتها ومالها للبحث العلمي. وأدخلت الجامعات العلوم بازدياد في برامجها، فأنشأت كمبريدج بين عامي 1702 و1750 كراسي في التشريح، والفلك، والنبات، والكيمياء، والجيولوجيا، و"الفلسفة التجريبية"-أي الفيزياء. وأصبحت الطريقة العلمية تجريبية بصورة أدق.. وهبطت الخصومة الوطنية، التي لوثت دولية الفكر بالجدل المحتدم بين نيوتن وليبنيز، وتكاثفت الكهانة الجديدة عبر الحدود، والحقائد اللاهوتية، والحروب، لترتاد المجهول المتعاطم. وجاء طلاب البحث من كل طبقة، من بريستلي الرقيق الحال ودالامبير اللقيط، إلى بوفون حامل لقب الشرف ولافوزييه المليونير. ودخل الملوك والأمراء ساحة البحث: فاشتغل جورج الثالث بالنبات، وجون الخامس بالفلك، ولويس السادس عشر بالفيزياء. وعكف الهواة أمثال مونتنسكيو وفولتير، والنساء أمثال مدام دشاتليه والممثلة الأنسة كليرون، على العمل بجد في المختبرات أو تلهوا بها، وحاول العلماء اليسوعيون أمثال بوسكوفش الجمع بين الإيمانين القديم والجديد.

ولم يتمتع العلم بمثل هذه الشعبية وهذا التشريف حتى جاء عصرنا الحاضر المتفجر. فقد رفع دوي كشوف نيوتن في الرياضيات والميكانيكا والفلك هامات العلماء في كل بلد في أوربا. صحيح إنهم لم يستطيعوا الارتقاء حتى يصل أحدهم - كما وصل نيوتن- إلى منصب مدير دار المسكوكات، ولكنهم في القارة، بعد عام 1750، وجدوا الترحيب في المجتمع

المعطر وغشوا المحافل جنباً إلى جنب مع اللوردات والأدواق. وفي باريس غصت قاعات المحاضرات العلمية بالمستمعين من الجنسين ومن جميع المراتب. كتب جولدميث الذي زار باريس في 1755 يقول: "رأيت في المحاضرات رويل في الكيمياء من نجوم الجمال المتألقة ما هو خليق بأن يزين بلاط الملك في فرساي". (1) وكانت نساء المجتمع العصريات يحتفظن بكتب العلوم على خزانات زينتهن، وترسم لهن الصور كما صورت مدام بومبادور - عند أقدامهن، المربعات والتلسكوبات. وفقد الناس الاهتمام باللاهوت، ورفضوا عنهم العالم الآخر مع حرصهم على خرافاتهم. وغدا العلم الأسلوب والمزاج لعصر يتحرك في نهر معقد من التغيير المحموم إلى نهايته الوييلة.

صفحة رقم : 12355

قصة الحضارة - < عصر فولتير - < تقدم العلم - < التقدم العلمي - < الرياضة

2- الرياضة

أ - أويلر

كان التغيير في الرياضة الآن أبطأ لأن الكثير جداً قد أنجز في ذلك الميدان طوال خمسة آلاف عام، بحيث بدا أن نيوتن لم يترك زيادة لمستزيد. وبعد موته (1727) حدث رد فعل، بعض الوقت، ضد فروض حساب التفاضل وابهاماته. فهاجمها الأسقف باركلي، في مقال نقدي قوي (المحلل، 1734)، لأنها تعادل تماماً غوامض الميتافيزيقا واللاهوت، ورمى أتباع العلم بـ"الخشوع للسلطان، وقبول الأشياء بالتسليم، والإيمان بنقاط لا يمكن تصورها" وهي بالضبط التهم التي اتهم بها من قبل أتباع الدين. وقد لقي الرياضيون وما زالوا يلقون من العنف في الرد في هذه النقطة ما يلقاه الماديون في تقنيته مثاليته.

على أن الرياضة بنت لها جسوراً، واستمر لبحث في الأرقام. فطور أبراهام ديموافر، ونيكولاس سوندرس، وبروك تيلر في إنجلترا، وكولن مكلورن في إسكتلندا، الشكل النيوتوني للتفاضل. ودفع ديموافر قدماً رياضيات الصدفة ومعايشات مدى الحياة. وإذ كان فرنسي المولد، إنجليزي الموطن، فقد اختارته جمعية لندن الملكية (1712) حكماً في دعاوي نيوتن وليبنيز المتنافسة على أيهما سبق صاحبه إلى اختراع حساب التفاضل النهائي الصغر. أما سوندرس فقد كف بصره في عامه الأول، فتعلم حل المسائل الحسابية الطويلة العويصة عقلياً، وعين أستاذاً للرياضة في كمبردج في عامه الحادي والعشرين (1711)، وألف كتاباً في "الجبر" حاز الاستحسان الدولي. وسنرى كيف استهوت سيرته ديدرو. وترك تلور اسمه على النظريات الأساسية في حساب التفاضل، وأثبت مكلورن أن الكتلة السائلة التي تدور حول محورها تتخذ شكل القطع الناقص.

وفي بازل واصلت أسرة بونوللي إنباب العلماء المبرزين طوال أجيال ثلاثة. وكانت هذه الأسرة البروتستنتية المذهب قد فرت من أنتورب (1583) انقاء فطائع دوق ألفا. وينتمي اثنان من الرياضيين البرنوليين السبعة لعصر لويس الرابع عشر، وكان الثالث وهو يوهان الأول (1667-

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الرياضة

1748 (مخضراً أدرك حكم ملكين) لويس 14 و15) وأصبح دانيال (1700-82) أستاذاً للرياضة في سانت بطرسبورج وهو في الخامسة والعشرين، ولكنه عاد بعد ثمانية أعوام ليدرس التشريح، والنبات والفيزياء، وأخيراً الفلسفة، في جامعة بازل وترك مؤلفات في حساب التفاضل والتكامل، والصوتيات، والفلك، وأسس الفيزياء الرياضية تقريباً. وعلم أخوه يوهان الثاني (1710-90) البلاغة والرياضة، وترك بصمته على نظرية الحرارة والضوء. وقد نال دانيال جوائز من أكاديمية العلوم عشر مرات، ويوهان ثلاث مرات. وأصبح أحد أبناء يوهان، وهو يوهان الثالث (1744-1807)، فلكي الملك في أكاديمية برلين، وعلم ياكوب الثاني (1758-89) الفيزياء في بازل، والرياضة في سانت بطرسبورج. لقد امتدت هذه الأسرة العجيبة عبر المنهج، والقرن، والقارة الأوروبية.

ويتميز ليونارد أويلر، تلميذ يوهان بونللي الأول والمنافس الصديق لدانيال، إماماً لرياضي عصره من حيث تعدد القدرات وغزارة الإنتاج. ولد في بازل عام 1707 ومات في بطرسبورج عام 1783، وبرز في الرياضة، والميكانيكا، والبصريات، والسمعيات، والديناميكا المائية، والفلك، والكيمياء، والطب، وحفظ نصف الأنيادة عن ظهر قلب، فكان بهذا كله خير بيان لفوائد التنوع ومدى قدرات العقل البشري. وفي ثلاث رسائل كبرى في التفاضل والتكامل حرر هذا العلم الجديد من العقد الهندسية التي ولد بها، وأرسى أسسه بوضعه تفاضلاً جبرياً - "تحليلاً". وأضاف إلى هذه الرسائل الكبرى. مؤلفات في الجبر، والميكانيكا، والفلك، والموسيقى؛ على أن مقاله عن "نظرية جديدة في الموسيقى" (1719) "احتوى من الهندسة فوق بيسيغه الموسيقيين، ومن الموسيقى فوق ما يسيغه الهندسيون". (2) وقد احتفظ رغم تبحره في العلم بإيمانه الديني إلى النهاية.

وحين انتقل دانيال برنوللي إلى سانت بطرسبورج وعد ليونارد بأن يحصل له على وظيفة في أكاديميتها. وذهب الشاب إليها وهو في العشرين، ولما غادر دانيال روسيا (1733) خلفه أويلر رئيساً لقسم الرياضة. وأدهش زملاءه الأكاديميين بأن حسب في ثلاثة أيام جداول فلكية قدر أنها تحتاج إلى عدة شهور وعكف على هذا العمل وغيره عكوفاً شديداً ليل نهار

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الرياضة

على ضوء ضعيف، حتى فقد بصر عينه اليمنى في 1735. ثم تزوج، وشرع على الفور يجمع ويضرب، بينما الموت يطرح، فقد مات ثمانية من أبنائه الثلاثة عشر أطفالاً. ولم يأمن على حياته في عاصمة أنهكتها الدسائس والاغتيالات السياسية. وفي 1741 قبل دعوة من فردريك الأكبر للانضمام إلى أكاديمية برلين، وهناك، فيسنة 1759، خلف موبرتوي في الاضطلاع بالرياضة. وأحبته أم فردريك، ولكنها وجدته صموتاً بشكل غريب. وسألته "لم لا تتحدث

إلي؟" فأجاب "سيدتي، إنني قادم من بلد يشنق المرء فيه إن تكلم(3)". على أن الروس كانوا قادرين على السلوك المهذب. فقد وصلوا صرف راتبه له بعد رحيله بزم من طويل، وحين نهب جيش روسي مزرعة أويلر أثناء غزوه برندنبورج سخا القائد الروسي في تعويضه عن خسارته، وأضافت الإمبراطورة إليزابيث بتروفنا إلى التعويض مبلغاً من عندها.

وتاريخ العلم يكرم أويلر أولاً لما أنتجه في حساب التفاضل، لاسيما لتناوله النظامي لتفاضل التغيرات. وقد دفع الهندسة وحساب المثلثات إلى الأمام باعتبارهما فرعين من فروع التحليل. وكان أول من تصور في وضوح فكرة الوظيفة الرياضية التي هي الآن قلب الرياضة. وفي الميكانيكا صاغ المعادلات العامة التي ما زالت تحمل اسمه. وفي البصريات كان أول من طبق حساب التفاضل على ذبذبات الضوء وصاغ منحني التذبذبات باعتباره متوقفاً على المرونة والكثافة. واستنبط قوانين الانكسار تحليلاً وقام بدراسات في انتشار الضوء مهدت لصناعة العدسات الأروماتية. وشارك في مشروع دولي هدفه إيجاد خط الطول في البحر برسم موقع الكواكب وأوجه القمر، وأعان حله التقريبي جون هاريسون على وضع جداول قمرية موفقه للبحرية البريطانية. وفي 1766 طلبت كاترين الكبرى إلى أويلر أن يعود إلى سانت بطرسبورج. وقد عاد إليها، فاحتفظ به حفاوة بالغة. ولم يثبت بعد وصوله أن كف بصره تماماً، ولكن ذاكرته بلغت من الدقة، وسرعة حسابه بلغت من

صفحة رقم : 12358

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الرياضة

العظمة مبلغاً أتاح له أن يواصل الإنتاج بنشاط يقرب من نشاطه السابق. وأملى الآن كتابه "مقدمة كاملة للجبر" على خياط شاب لم يكن حين بدأ عمله هذا يعرف شيئاً عن الرياضة أكثر من الحساب البسيط؛ وقد أضفى هذا الكتاب على الجبر الشكل الذي احتفظ به إلى يومنا هذا. وفي 1771 دمرت نار بيت أويلر، وأنقذ مواطن سويسري من بازل يدعى بيتر جريم الرياضي الأعمى من النيران إذ حمله على كتفيه بعيداً عن الخطر. ومات أويلر عام 1783 وقد بلغ السادسة والسبعين بنوبه فالج أصابته وهو يلعب مع أحد حفدته.

ب- لجرانج

ولم يفقه غير رجل واحد في قرنه وعلمه، وهو الفتى الذي بسط عليه رعايته-جوزف لوي لجرانج. وكان واحداً من أحد عشر طفلاً ولدوا لزوجين فرنسيين يقيمان في تورين، ولم يتجاوز الطفولة من هؤلاء كلهم غيره. وقد تحول عن الدراسات الكلاسيكية إلى العلم عند قراءته مذكرة وجهها هالي إلى جمعية لندن الملكية، فكرس نفسه للتو لدراسة الرياضة، وسرعان ما برز في تبريزا أوصله في سن الثامنة عشرة إلى منصب أستاذ الهندسة في أكاديمية المدفعية بتورين. وقد ألف من تلاميذه، وكلهم تقريباً أكبر منه سناً، جماعة بحث نمت حتى غدت أكاديمية تورين للعلوم. وفي التاسعة عشرة أرسل إلى أويلر طريقة جديدة لتناول حساب تفاضل التغيرات. ورد أويلر بأن الطريقة تدلل صعوبات لم يستطع هو نفسه تذليلها. وأجل السويسري الكريم إذاعة النتائج التي وصل إليها، حتى لا أحرمك من أي قسط من المجد الذي تستحقه. "وأذاع لجرانج طريقته في المجلد الأول الذي أصدرته أكاديمية ورين (1759) وشهد أويلر في مذكرته عن حساب تفاضل التغيرات بكل الفضل للفتى. وفي ذلك العام (1759) انتخب بنفوذه عضواً أجنبياً بأكاديمية برلين وهو لا يعدو الثالثة والعشرين ولما غادر أولر بروسيا زكى لجرانج خلفاً له في الأكاديمية، وأيد دالامبير هذا الاقتراح بحرارة، وفي 1766 انتقل لجرانج إلى برلين. وقد حيا



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الرياضة

فردريك الأكبر باعتباره "أعظم ملك في أوربا"، ورحب به فردريك "أعظم الرياضيين في أوربا" (5) وكان هذا سابقاً لأوانه، ولكنه صدق بعد قليل. والعلاقات الودية التي ربطت أئمة رياضي القرن الثامن عشر - أويلر، ولجرانج، وكليرو، ودالامبير، ولجاندر - تُولف فصلاً مبهماً في تاريخ العلم. وخلال العشرين السنة التي أقام فيها لجرانج ببرلين ألف تدريجياً أجزاء رائعته الكبرى "الميكانيكا التحليلية". وعلى هامش هذا المشروع الأساسي نقب في الفلك، وقدم نظرية عن توابع المشتري وتعليلاً لترجحات القمر، أي التغيرات في الأجزاء المنظورة منه. وفي 1786 مات فردريك الأكبر، وخلفه فردريك وليم الثاني، الذي لك يكن يعبأ كثيراً بالعلم. فقبل لجرانج دعوة من لويس السادس عشر للانضمام إلى أكاديمية العلوم الباريسية وأعطى سكناً مريحاً في اللوفر، وأصبح أثيراً لدى ماري أنطوانيت التي بذلت ما وسعها لتخفف عنه نوبات الاكتئاب التي كثيراً ما انتابته وجلب معه مخطوط "الميكانيكا التحليلية"، ولكنه لم يستطع العثور على ناشر يتصدى لمثل هذه المشكلة الطباعية العسيرة في مدينة تغلى مراجها بالثورة. وأخيراً أفتع صديقه أدريان لجاندر وألابيه ماري طابعاً بالاضطلاع بهذه المهمة، ولكنه لم يقتنع إلا بعد أن وعده ألابيه بأن يشتري جميع النسخ غير المباعة بعد تاريخ محدد. فلما وضع الكتاب الذي لخص جهد حياة لجرانج بين يديه (1788) لم يكثرث بالنظر إليه، فقد كان في إحدى نوبات اكتنابه الدورية التي أفقدته كل اهتمام بالرياضة، بل بالحياة. وظل الكتاب مقفلاً على مكتبه عامين كاملين. وهناك إجماع على وضع "الميكانيكا التحليلية" في قمة رياضة القرن الثامن عشر. فهذا الكتاب الذي لم يفقه غير "الأصول" في الميدان الذي تناوله الكتابان، تقدم على كتاب نيوتن هذا باستعماله "التحليل" -التفاضل الجبري- بدلا من الهندسة في إيجاد الحلول وعرضها، وقد جاء في المقدمة "ليس في هذا الكتاب رسوم بيانية" وبهذه أن تستخلص منها معادلات نوعية

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الرياضة

لكل مسألة بعينها، وما زالت هذه المعادلات العامة تسود الميكانيكا وتحمل اسمه. ووصفها إرنست ماخ بأنها من أعظم الإسهامات في الاقتصاد في الفكر (6) وقد رفعت ألفرد نورث هو ايتهايد إلى ذرى النشوة الدينية فقال "إن في هذه المعادلات من الجمال، ومن البساطة التي تكاد تبلغ القداسة، ما يجعل هذه الصيغ جديرة بأن تضارع تلك الرموز الغامضة التي آمن الناس في القديم بأنها تدل مباشرة على الكائن الأعلى الذي يكمن وراء كل الأشياء (7).

فلما نشبت الثورة بسقوط الباستيل (14 يوليو 1789) نصح لجرانج، المقرب إلى الملكية، بأن يعود إلى برلين، ولكنه أبى. فلقد كان على الدوام متعاطفاً مع المظلومين، ولكنه لم يؤمن بقدرة الثورة على النجاة ن نتائج عدم المساواة الطبيعي بين البشر. وهالته مذابح سبتمبر 1792، وإعدام صديقه لافوازييه، ولكن صمته المكتئب أنقذ رأسه من الجيولتين. فلما فتحت مدرسة المعلمين (1795) نيط لجرانج بقسم الرياضة فيها، وحين أفلتت وأسست مدرسة الفنون والصناعات (1797) كان أول أساتذتها، والأساس والاتجاه الرياضيات الفرنسي هما بعض تأثير لجرانج الطويل الأمد. وفي 1791 عينت لجنة لوضع نظام جديد للموازين والمقاييس. وكان لجرانج، ولافوازييه، ولابلاس، من أوائل أعضائها. وبعد ثلاثة أشهر "طهر" ابنتان من هذا الثالوث، وأصبح لجرانج العقل القائد في وضع النظام المتري. واختارت اللجنة أساساً للطول ربع الكرة الأرضية - ربع الدائرة العظمى التي تمر حول الأرض على مستوى البحر بطريق القطبين، وأخذ جزء على عشرة ملايين منه وحدة جديدة للطول وسمى متراً. واختارت لجنة فرعية الجرام وحدة جديدة للموازين: وهو وزن الماء المقطر في درجة الصفر المئوية، ويشغل مكعباً كل ضلع فيه سنتيمتر واحد - أي جزء على مائة من المتر. وبهذه الطريقة بنيت جميع الأطوال والأوزان على ثابت فيزيائي واحد، وعلى العدد عشرة. وظل هناك مدافعون عن النظام الأثنى عشري، الذي اتخذ العدد عشر أساساً له، كما هو متبع في إنجلترا، وبوجه عام في تقديرنا للزمن. ولكن لجرانج أصر على النظام العشري، وكان له ما أراد. فقررت الحكومة الفرنسية هذا النظام في 25 نوفمبر 1792،

صفحة رقم : 12361

قصة الحضارة - < عصر فولتير - < تقدم العلم - < التقدم العلمي - < الرياضة

وما زال، مع بعض التعديلات باقياً إلى يومنا هذا، ولعله أبقى نتائج الثورة الفرنسية. وأضاعت تجربة رومانسية كهولة لجرانج. ذلك انه حين بلغ السادسة والخمسين أصرت فتاة في السابعة عشرة، كانت ابنة صديقه الفلكي لمونييه، على الزواج منه وتكريس نفسها للتخفيف من أوهامه ووساوسه. وأذعن لجرانج، وبلغ من عرفانه بصنيع حبها أنه يصحبها إلى المراقص والحفلات الموسيقية. وكان قد تعلم أن يحب الموسيقى - التي هي لعبة تحتال بها الرياضة على الأذن - لأنها "تعزليني. إنني أسمع الموازين الموسيقية الثلاثة الأولى، وفي الرابعة لا أعود أعي شيئاً، فأستسلم لأفكاري، ولا شيء يقطعها علي، وبهذه الطريقة أحل من مسألة عويصة" (8). فلما هبطت حمى الثورة، هنأت فرنسا لأنها أعفت إمام رياضي العصر من الجيولتين. وفي 1796 أوفد تاليران إلى تورين ليزور بصفة رسمية والد لجرانج ويقول له "إن ابنك الذي تقخر بيدمونت بأنها أنجبته، وتقخر فرنسا بأنه مواطن فيها، وقد شرف البشر أجمعين بعبقريته" (9). وكان نابليون يحب فيما بين حملاته أن يتحدث إلى الرياضي الذي تحول إلى الفلسفة. واستعاد الشيخ اهتمامه بالرياضة حين نفخ ووسع "الميكانيكا التحليلية" (1810-13) لإعداد طبعة ثانية من الكتاب. ولكنه أسرف في الجهد والسرعة كعادته؛ وأضعفته نوبات من الدوار، ومرة وجدته زوجته فاقد الوعي على أرض الحجر، وقد نزع رأسه من قطع سببه سقوطه على حرف المائدة. وأدرك أن قواه البدنية أخذت في النضوب، ولكنه تقبل هذا التحلل البطيء على أنه طبيعي ومعقول. وقال لمونج ولغيره من عواده: "كنت مريضاً جداً أمس أيها الأصدقاء، وأحسست أنني ساموت وأصاب الضعف بدني شيئاً فشيئاً، وانطفأت قواي العقلية والبدنية دون وعي مني. ولاحظت "متواليه" تناقض عافيتي، الحسنه التدرج، ووصلت إلى النهاية دون أسف، أو حسرات، وفي هبوط غاية في الرفق. يجب

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الرياضة

ألا تخشى الموت، وحين يأتي دون ألم، فإنه يكون وظيفة أخيرة ليست بالكريهة... إن الموت هو الراحة الكبرى للجسد(10).  
ومات في 10 أبريل 1813 وقد بلغ الخامسة والسبعين غير باك على شئ إلا اضطراره لترك زوجته الوفية عرضه لمخاطر ذلك العهد، حين بدا أن العالم كله قد امتشق الحسام لقتال فرنسا.  
وحمل صديقه جيسبار مونج، وأدريان لجاندر، إلى القرن التاسع عشر تلك الأبحاث الرياضية التي كانت الأسس للتقدم الصناعي. وينتمي إنتاج لجاندر (1752-1833) إلى عصر ما بعد الثورة، وحسبنا أن نقرئه التحية في طريقنا. أما مونج فكان بابن بائع متجول وسان سكاكين. ونحن نراجع فكرتنا عن الفقر الفرنسي حين نرى هذا العامل البسيط يوفر لثلاثة من أبنائه التعليم في الكلية. ونال جيسبار كل ما أتيج من جوائز في المدرسة. وفي الرابعة عشرة صنع آلة لإطفاء الحريق، وفي السادسة عشرة رفض دعوة معلميه اليسوعيين إياه ينضم إلى طريقتهم، وبدلاً من هذا أصبح أستاذ الفيزياء والرياضة في المدرسة الحرة بميزيير. وهناك صاغ أصول هندسته الوصفية- وهي طريقة لعرض شكل ثلاثي الأبعاد على مستوى وصفي واحد. وتبين عظم فائدة هذه الطريقة في تصميم الحصون وغيرها من المباني، حتى أن الجيش الفرنسي ظل خمسة عشر عاماً يحظر عليه البوح بسرّها علناً، ثم سمح له (1794) بتدريسها في مدرسة المعلمين بباريس. وقد أخذ لجرانج العجب وهو يستمع إلى محاضراته فيها، شأن جوردان في مسرحية فولتير "قبل أن أستمع إلى مونج لم أعرف أنني أعرف الهندسة الوصفية"(11). وقد أبلى مونج بلاءً حسناً في خدمة الجمهورية التي تعد نفسها للمعركة. وارتقى إلى منصب وزير البحرية. وعهد إليه نابليون بالكثير من المهام السرية. وبعد عودة البوربون إلى الملك عانى مونج من الفاقة والتعرض للخطر. فلما مات (1818) منع تلاميذه في مدرسة الفنون والصنائع من السير في مأتمه. وفي الغد ساروا إلى المدفن بينتهم لكاملة، ووضعوا على قبره أكليلاً من الزهر.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

نمت الرياضة لأنها كانت الأساس والإدارة التي لا غنى عنها للعلوم كلها، إذ اختزلت الخبرة والتجربة إلى قوانين كمية أتاحت التنبؤ الدقيق والضبط العملي. وكانت الخطوة الأولى هي تطبيقها على المادة عموماً: يكشف الإطرادات ووضع "القوانين" للطاقة، والحركة، والصوت، والضوء، والمغناطيسية، والكهرباء، وهنا كمن ما يكفي من الأسرار التي تتطلب الكشف عن خوافيها.

وقد ضحى ببيير لوي مورو دموبرتوي بمستقبله في الجيش الفرنسي ليكرس نفسه للعلم. وسبق فولتير في تعريف فرنسا بنيوتن، وفي تقدير مفااتن مدام دوشاتليه وتعليمها. وفي 1736، كما سنرى، رأس بعثة إلى لايلاند لقياس درجة طولية. وفي 1740 قبل دعوة لزيارة فرديريك الثاني، وتبع فرديريك إلى معركة مولفتر (1741)، وأسره النمساويون، ثم أطلقوا سراحه بعد قليل. وفي 1745 انضم إلى أكاديمية برلين للعلوم، وبعد عام أصبح عميداً لها. وشرح المبدأ الذي توصل إليه لأكاديمية باريس للعلوم في 1744، ولأكاديمية برلين في 1746، وهو المبدأ القائل بأقل حركة: "حين يحدث أي تغيير في الطبيعة فإن كمية الحركة المستخدمة لهذا التغيير هي دائماً أقل ما يمكن." وذهب إلى أن هذا يثبت وجود نظام منطقي في الطبيعة، وإذن وجود اله منطقي (12). وطور أويلر ولجرائج هذا المبدأ، وفي زماننا هذا لعب دوراً في نظرية الكم. وفي "مقال في علم الكون" (1750) أحيا موبرتوي بدعة لا يمكن القضاء عليها: فهو مع تنبيه قصداً في الطبيعة، إلا أنه اعترف بأنه يرى فيها أيضاً علامات الغباء أو الشر، وكان شيطاناً يناقش إليها خيراً في تعريف شتون الكون (13). ولعل موبرتوي كان يوافق خصمه اللدود فولتير على أن القديس أوغسطين كان ينبغي أن يظل مانوياً.

وقد سبقت الإشارة إلى مولد دالامبير، ثمرة غير مقصودة لصلة عابرة بين ضابط مدفعية وراهبة سابقة. عثرت عليه شرطة باريس على سلم كنيسة

صفحة رقم : 12364

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

سان جان لورون ولما تمض على مولده ساعات (1717)، فعمدوه باسم جان بانيسيت لورون، وأرسلوه إلى مرضع في الريف. وطالب به أبوه، الشفالييه ديتوش، وسماه دارامبير (لأسباب نجهلها)، ودفع أجراً لمدام روسو، وهي زوجة صانع زجاج، لتتبنى الطفل. وتبين أنها رابة مثالية، وأن جان غلام نابغة. فلما بلغ السابعة أراه أبوه في فخر لأمه، مدام دتانسان، ولكنها قررت أن مستقبلها خلية وصاحبة صالون سيضار بقبول الطفل، ولم تسهم بشيء في إعالته على قدر علمنا، أما الشفالييه فقد ترك له قبل موته في 1726 معاشاً سنوياً قدره ألف ومائتا جنيه.

وتلقى جان تعليمه في الكوليج دكاتر ناسيون (كلية الأمم الأربع)، ثم في جامعة باريس، حيث نال درجة القانون. وهناك، حوالي عام 1738، غير اسمه من دارامبير إلى دالامبير. ثم اتجه إلى دراسة الطب بعد أن مل القانون، ولكن ميلاً عارضاً إلى الرياضة انقلب فيه غراماً مشبوباً. قال "كانت الرياضة لي أشبه بالخليلة للرجل" (14). وواصل السكنى مع مدام روسو حتى بلغ الثامنة والأربعين وهو يعتبرها في عرفانه بصنيعها أمه الوحيدة. وكان من رأيها أن مما يشين الرجل أن يسلم نفسه إلى حياة الدرس ولا يبدي أي شهوة للمال. فكانت تقول له في أسى "إنك لن تغدو أن تكون فيلسوفاً. وما الفيلسوف؟ مجنون يعذب نفسه طوال حياته ليتحدث الناس عنه بعد موته" (15).

ولعل دواقعه الملهمة لم تكن الرغبة في الشهرة بعد الموت، بل المنافسة الأبية مع العلماء الراسخين، وتلك الغريزة الشبيهة بغريزة الفندس، التي تبتهج بالبناء، ويخلق النظام من فوضى المواد والأفكار. على أية حال فإنه في الثامنة والعشرين بدأ يقدم أبحاثاً لأكاديمية العلوم: أحدها في حساب التكامل (1739)، وآخر في انكسار الضوء (1741)؛ وفي بحث الضوء هذا أقدم تعليل لانحناء أشعة الضوء وهي تنتقل من سائل إلى آخر أكبر كثافة، ومكافاة له على البحث

قبلته الأكاديمية عضواً "ملحقاً"، وبعد عامين نشر أهم آثاره العلمية "رسالة في الديناميكا"، وقد حاول فيها أن يختزل كل مسائل المادة المتحركة إلى معادلات رياضية، وسبقت الرسالة رسالة

صفحة رقم : 12365

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

لجرائح الأفضل منها "الميكانيكا التحليلية" باثنتين وأربعين سنة، وهي تحتفظ بأهميتها التاريخية لأنها صاغت النظرية الأساسية المعروفة الآن باسم "مبدأ دالامبير"، وهي أعسر تخصصاً مما يحتمله هضمنا العام، ولكنها عون كبير على الحسابات الميكانيكية. وقد طبقها في "رسالة في توازن السوائل وحركتها" (1744)، وظفرت من الأكاديمية بإعجاب حملها على مكافأتها بمعاش من خمسمائة جنيه، لا بد أنه هدأ من نائرة مدام روسو. ومن مبدئه هذا من ناحية، ومن معادلة مبتكرة في حساب التفاضل، توصل دالامبير إلى صيغة لحركة الرياح. وأهدى كتابه "تأملات في السبب العام للرياح" (1747) إلى فردريك الأكبر، الذي استجاب بدعوته للإقامة في برلين، ولكن دالامبير رفض، فأبدى بذلك من الحكمة وهو في الثلاثين أكثر مما سيديده فولتير وهو في السادسة والخمسين. وفي "مقال عن نظرية جديدة في المقاومة السوائل" (1752): حاول أن يجد صيغاً ميكانيكية لمقاومة الماء لجسم يتحرك فوقه، فأخفق؛ ولكن في 1775، وبتكليف من طورجو، أجرى هو وكوندورسيه والإبيه بوسو تجارب أعانت على تقرير قوانين مقاومة السوائل للأجسام المتحركة على سطوحها. وفي أخريات عمره درس حركة الأوتار المتذبذبة، وأصدر (1779) "مبادئ الموسيقى النظرية والعلمية" متبعاً ومعدلاً طريقة رامو؛ وقد ظفر هذا الكتاب بثناء عالم الموسيقى الشهير تشارلز بيرني. ويمكن القول أن دالامبير أوتي في مجموعة عقلا من أذكي وأرهب العقول في هذا القرن.

وعرض فردريك الأكبر وظيفة عميد أكاديمية برلين على دالامبير حين استقال موبرتبوس. وكان الرياضي-الفيزيائي-الفلكي-الموسوعي رجلاً رقيق الحال ولكنه رفض المنصب في أدب، ذلك أنه كان يعتز بحريته، وبأصدقائه، وبباريس. واحترم فردريك بواعثه، وأرسل إليه معاشاً متواضعاً من ألف ومائتي جنيه بعد استئذان لويس الخامس عشر. وفي 1762 دعت كاترين الكبرى إلى روسيا وأكاديمية سانت بطرسبورج، فرفض الدعوة، لأنه كان الآن عاشقاً. وأصرت كاترين، ربما بعد علمها بهذا وطلبت إليه أن يحضر "ومعك كل أصدقائك"، وعرضت عليه راتباً

صفحة رقم : 12366

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

من 100,000 فرنك في العام. وقبلت اعتذاراته في سماحة، وواصلت مراسلته، وناقشت معه أسلوب حكمها ومشاكله. وفي 1763 ناشده فردريك أن يزور بوتسدام على الأقل، فذهب دالامبير، وكان يتناول الطعام مع الملك شهرين. ورفض مرة أخرى عمادة أكاديمية برلين، وبدلاً من ذلك اقتنع فردريك بأن يرفع راتب أويلر رب الأسرة الكبيرة (16). ونرجو أن نلتقي بدالامبير مرة أخرى.

وكان لآل برنولي المدهشين مساهمات عارضة في الميكانيكا. فصاغ يوهان الأول (1717) مبدأ السرعات الافتراضية: "في كل توازن للقوى أياً كانت، وعلى أي صورة استخدمت، وفي أي اتجاهات يؤثر بعضها في بعض، بطريق مباشر أو غير مباشر، يكون مجموع الطاقات الموجبة معادلاً لمجموع الطاقات السالبة إيجابياً". وأعلن يوهان وابنه دانيال (1735) أن مجموع "القوة الحية" في العالم ثابت دائماً؛ وقد أعيدت صياغة هذا المبدأ في القرن التاسع عشر باسم عدم فناء الطاقة. وطبق دانيال الفكرة تطبيقاً مثمراً في كتابه "الديناميكا المانية" (1738) وهو من عيوب الكتب الحديثة في ميدان بالغ الصعوبة. وفي ذلك المجلد أرسى أساس النظرية الحركية للغازات، فالغاز يتألف من ذرات ضئيلة تتحرك بسرعة كبيرة، وتحدث ضغطاً على الإناء بالصدمات المتكررة، والحرارة تزيد من سرعة الذرات، ومن ثم ضغط الغاز، ونقص الحجم (كما أثبت بويل من قبل) يزيد الضغط بنسبة النقص. أما في فيزياء الحرارة فإن ألمع الأسماء في القرن الثامن عشر هو اسم جوزيف بلاك. ولد في بورجو لأب اسكتلندي مولود في بلفاست، ودرس الكيمياء في جامعة جلاسجو، وفي السادسة والعشرين (1754) أجرى تجارب فيما نسميه الآن التأكسد أو التآكل. وقد بينت هذه التجارب مفعول غاز ميزه عن الهواء العادي، وكشف عن هذا الغاز في الميزان، وسماه "الهواء الثابت" (ونسماه الآن ثاني أكسيد الكربون)، وكان قد أوشك على الكشف عن الأوكسجين قبل ذلك. وفي 1756، حين كان محاضراً في الكيمياء، والتشريح، والطب في الجامعة، وبدأ ملاحظات هدته إلى نظريته

صفحة رقم : 12367

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

في "الحرارة الكامنة": فحين تكون مادة ما بسبيلها إلى التغير من الحالة الجامدة إلى حالة السيولة أو من السيولة إلى الغازية، فإن المادة المتغيرة تمتص من الهواء كمية من الحرارة لا يمكن ملاحظتها كتغيير في درجة الحرارة، وهذه الحرارة الكامنة ترد إلى الهواء حين يتحول غاز إلى سائل أو سائل إلى جامد. وقد طبق جيمس وات هذه النظرية في تحسينه للآلة البخارية. وكان رأي بلاك في الحرارة كراي جميع أسلاف بريستلي، إنها مادة تزداد أو تتناقص دفناً، وظلت هذه الفكرة سائدة حتى أثبت بنيامين طومسن، كونت رمفورد، في 1798، أن الحرارة ليست مادة بل شكلاً من أشكال الحركة، يفهم الآن على أنه حركة مكتسبة للأجزاء المكونة للجسم.

وفي هذه الأثناء توصل يوهان كارل فيلكي الإستوكهولمي إلى نظرية مماثلة في الحرارة الكامنة (1772) مستقلاً عن بلاك. وفي سلسلة من التجارب رواها هذا العالم السويدي في 1777 أدخل اصطلاح "الحرارة المشعة" -أي الحرارة غير المنظورة التي تنبعث من المواد الساخنة، وقد ميز بينها وبين الضوء، ووصف خطوط حركتها وانعكاسها وتركيزها بواسطة المرايا، ومهد للربط الذي ربطه فيما بعد بين الحرارة والضوء باعتبارهما شكليين متشابهين من أشكال الإشعاع. وحدد فيلكي، وبلاك، ولافوازييه، ولابلاس، وغيرهم من الباحثين، القيمة التقريبية للصفير المطلق (وهو أدنى درجة حرارة ممكنة من حيث المبدأ). أما البريطانيون فكانت وحدة الحرارة التي اتخذوها هي الكمية التي ترفع درجة حرارة رطل من الماء درجة فهرنهايتية، أما الفرنسيون، وشعوب القارة عموماً، فقد فضلوا استعمال كمية الحرارة التي ترفع درجة حرارة كيلو جرام من الماء درجة مئوية واحدة.

أما نظرية الضوء فإن ما أحرزه القرن الثامن عشر من تقدم فيها كان ضئيلاً، لأن جميع الفيزيائيين تقريباً قبلوا "فرض الجسيمات" الذي قال به نيوتن وهو أن الضوء انبعاث كريات من الجسم إلى العين. وكان أويلر يتزعم أقلية

تدافع عن نظرية الموجات. فافتراض كما افترض هويجنز- أن الفضاء "الخالي" بين الأجرام السماوية. وبين الأجسام المنظورة الأخرى،

صفحة رقم : 12368

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

يملؤه "الأثير"، وهو مادة أرق من أن تدركها حواسنا أو آلاتنا، ولكن تلمع إليه الماعاً شديداً ظواهر الجاذبية، والمغناطيسية، والكهرباء. والضوء في رأي أويلر تموج في الأثير، كما أن الصوت تموج في الهواء. وقد ميز بين الألوان على أنها ترجع إلى فترات مختلفة من تذبذب في أمواج الضوء، وكان سباقاً إلى نظريتنا التي تنسب اللون الأزرق إلى أقصر فترة تذبذب، واللون الأحمر إلى أطوالها. وقد أثبت بيير بوجيه بالتجربة ما سبق أن توصل إليه كليبر نظرياً، وهو أن شدة الضوء تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع بعده عن مصدره. وتوصل يوهان لاميرت إلى طرق لقياس شدة الضوء، وقرر أن ضياء الشمس يبلغ 277,000 ضعف ضياء القمر، وأن علينا أن نتقبل هذا بالإيمان كما تقبلنا اللاهوت الذي ألقى إلينا في طفولتنا.

ب- الكهرباء

حققت فيزياء القرن الثامن عشر أروع تقدم لها في ميدان الكهرباء. لقد عرف الناس كهرباء الاحتكاك منذ زمن طويل. وكان طالبيس المليطي (600 ق.م) على علم بما للعنبر (الكهرمان)، والكهرمان الأسود، وغيرهما من المواد إذا حكّت من قدرة على جذب الأجسام الخفيفة كالريش أو القش. وقد سمي وليم جلبرت، طبيب الملكة إليزابيث، هذه القوة الجاذبة "الكثرون" (من كلمة Electron اليونانية بمعنى الكهرمان) وباللاتينية *vis electrica*. وكانت الخطوة التالية هي إيجاد وسيلة لتوصيل هذه الكهرباء الساكنة واستخدامها. وقد بحث جويريكي وهاوكسي عن مثل هذه الوسيلة في القرن السابع عشر، وبقي أن يظل الكشف الحاسم عليها سراً حتى يتم على يد ستيفن جراي (1729). وكان جراي رجلاً متقاعداً حاد الطبع، نزيل ملجأ من ملاجئ لندن. وحين "كهرب" أنبوبة زجاجية، مسدودة بفلينتين عند طرفها، بدعكها وجد أن الفلينتين وكذلك الأنبوبة تجذب ريشة طائر. فأدخل أحد طرفي قضيب خشبي في إحدى الفلينتين، والطرف الآخر في كرة من العاج، فلما دعك الأنبوبة، جذبت الكرة الريشة كما جذبتها الأنبوبة والفلينتان، وهكذا أمكن توصيل الكهرباء على طول القضيب. واستطاع باستعمال

صفحة رقم : 12369

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

الدوارة أو خيط القنب المتين بدلا من القضيب أن يوصل الكهرباء لمسافة 765 قدماً. فلما استخدم الشعر، أو الحرير، أو الراتنج، أو الزجاج، في الربط انعدام التوصيل؛ وهكذا لاحظ جراي الفرق بين الأجسام الموصلة وغير الموصلة، واكتشف أن الأجسام غير الموصلة يمكن استعمالها لحفظ الشحنات الكهربائية أو تخزينها. فلما علق 666 قدماً من الدوارة الموصلة من سلسلة طويلة من الأعمدة المائلة، وأرسل "القوة أو الفضيلة" الكهربائية (كما سماها) خلال تلك المسافة، كان في الواقع سباقاً إلى ابتكار التلغراف.

وتبنت فرنسا البحث، فواصل جان ديزاجوليه (1736) تجارب جراي، وقسم المواد إلى موصلة وغير موصلة (سماها "كهربات قائمة بذاتها") ووجد أن هذه يمكن تغييرها إلى موصلات ببلها بالماء. وأجرى شارل روفيه أبحاثاً أنهاها إلى أكاديمية العلوم في 1733-37. وفي رسالة متواضعة إلى جمعية لندن الملكية (1734) صاغ أهم استنتاجاته على النحو الآتي:

"لقد ألفت الصدفة في طريقي بمبدأ آخر... وهو أن هناك كهربائين متميزين، تختلفان الواحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً، أسمى إحداهما "الكهرباء الزجاجية" والأخرى "الكهرباء الراتنجية" والأولى هي كهرباء الزجاج، والبلور الصخري، والأحجار الكريمة، وشعر الحيوان والصوف، وأجسام كثيرة أخرى. والثانية كهرباء العنبر، والكوبال، والجملكة، والحرير، والخيط، والورق، وعدد هائل من المواد الأخرى. وطبيعة هاتين الكهربائين هي أن جسماً من نوع الكهرباء الزجاجية... يصد كل الأجسام التي من هذا النوع من الكهرباء، وبالعكس يجذب كل الأجسام التي من نوع الكهرباء الراتنجية"(17).

إذن فإن جسمين مكهربين بالتماس مع نفس الجسم المكهرب يصد إحداهما الآخر وهو ما اكتشفه دوفيه، ويستطيع كل تلميذ أن يتذكر دهشته حين رأى كرسي بلسان معلقين بواسطة مادتين غير موصلتين من نفس النقطة وموضوعتين بحيث تمس الواحدة منهما الأخرى، تنتقصان فجأة مبتعدتين الواحدة عن الأخرى حين يلمسها نفس القضيب الزجاجي المكهرب. وأظهرت تجارب لاحقة أن الأجسام "الزجاجية" قد تكتسب كهرباء راتنجية"، وأن الأجسام "الراتنجية" قد تكتسب كهرباء "زجاجية"

صفحة رقم : 12370

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

ومن ثم غير فرانكلن مصطلحات دوفيه إلى "موجبة وسالبة". وروح دوفيه عن معاصريه بتعليقه رجلاً بحبال غير موصلة، وشحنه بالكهرباء بتلامسه مع جسم مكهرب، ثم بعث الشرر من جسم الرجل المعلق دون أن يصيبه أذى. وانتقل المشهد إلى ألمانيا. فسبق جورج بوزيه في ناحية فرانكلن بالماعة إلى أن ظاهرة الفجر الكاذب مصدرها كهربائي. وفي 1744 أثبت كرستيان لودولف في أكاديمية برلين أن في استطاعة الشرارة كهربية أن تشعل سائلاً قابلاً للالتهاب. وفجر بونيه البارود بهذه الطريقة، فأفتتح بذلك عصر استعمال الكهرباء في التجبير، وإطلاق المدفع، وعشرات الأغراض الأخرى. وفي نفس العام بدأ جوتليب كراتسنشتين استعمال الكهرباء في علاج الأمراض. وفي أكتوبر 1745 اكتشف قسيس بومراني يدعى أ.ج. كلايست أن في الإمكان تخزين شحنة كهربية في أنبوبة زجاجية بملئها بسائل أدخل فيه مسماراً متصلاً بألة تحدث كهرباء احتكاكية، فلما قطعت الوصلة احتفظ السائل بشحنته عدة ساعات. وبعد بضعة شهور توصل إلى هذا الكشف ذاته أستاذ بجامعة ليدن بييتير فان موسشينييريك، دون أن يعلم شيئاً عن تجارب كلايست، وتلقى من طاس مشحونة غير مفصولة صدمة بدا لحظة أنها قاضية عليه، ولم يفق منها إلا بعد يومين. وأثبت المزيد من التجارب في ليدن أن في الإمكان تخزين شحنة أثقل في قارورة فارغة إذا غلف سطحها



السفليان، الداخلي والخارجي، بورقة قصدير. وخطرت لدانيال جرات فكرة ربط عدة "جرار ليدينية" معاً، ووجد أن إفراغ شحنتها الكهربائية يقتل صغار الحيوان.

صفحة رقم : 12371

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

وعرض لوى جيوم في باريس عام 1746، ووليم واطسن في لندن عام 1747، ما بدأ واطسن بتسمية "دائرة". فقد مد واطسن سلكاً طوله نحو ألف ومائتي قدم عبر كوبري وستمنستر، وعلى إحدى ضفتي التيمز أمسك رجل بطرف السلك ولمس الماء؛ وعلى الضفة الأخرى أمسك آخر بالسلك وبجرة من الجرار الليدينية، فلما لمس ثالث الجرة بيد وقبض بالأخرى على سلك امتد داخل الماء أقفلت "الدائرة" وأصيب الرجال الثلاثة بصدمة. خلال فراغ جزئي، فينشأ عن ذلك ضوء غير قليل.

ويوصلنا هذا العام -عام 1747 إلى بنيامين فرانكلن، الذي بدأ آنذ تجاربه الكهربائية التي جعلت اسمه وصيته يتدببان بين العلم والسياسة. هنا ذهن وقلب من أعظم ما وعى التاريخ، اتسعت رقعة فضوله الخلاق وتفاوتت من مقترحات كالتوقيت الموفر لنور النهار، والكراسي الهزازة، والنظارات المزودة بالبؤرة إلى مانعات الصواعق ونظرية السائل الواحد الكهربائية. وقد اعترف عالم من أئمة علماء قرننا هذا، هو السير جوزيف طومسن، بأنه "دهش للتشابه بين بعض الآراء التي تهدينا إليها نتائج أحدث الأبحاث، والآراء التي قال بها فرانكلن في طفولة الموضوع (19). كان من أول كشوف فرانكلن تأثير الأجسام المدببة في "جذب وقذف النار الكهربائية" (20). فقد وجد أن إبرة طويلة رقيقة تستطيع جذب تيار من الكهرباء من كرة مكهربة على بعد ست بوصات أو ثمان، في حين أن جسماً غير حاد اقتضى إحداث هذا الأثر فيه تقريبه إلى مسافة بوصة من الكرة. وكان فرانكلن يتحدث عن الكهرباء باعتبارها ناراً، ولكنه ذهب إلى النار نتيجة خلل بين توازن السائلين الناريين "الموجب والسالب"، اللذين ظن أنهما الكهرباء. فكل الأجسام عنده تحوي هذا السائل الكهربائي: فالجسم "الزائد" المحتوي على أكثر من كميته العادية، يكهرب إيجابياً ويميل إلى إفراغ فائضه في جسم يحوي كمية عادية أو أقل من العادية؛ والجسم "الناقص" المحتوي على أقل من كميته العادية، يكهرب سلبياً، ويجتذب

صفحة رقم : 12372

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

الكهرباء من جسم يحوي كمية عادية أو أكثر. وعلى هذا الأساس طور فرانكلن بطارية مكونة من إحدى عشرة لوحة زجاجية كبيرة برقائق من الرصاص كهربت إلى درجة عالية؛ فلما قرب هذا الجهاز ليلمس أجساماً أخف شحنة، أطلق جانباً من شحنته بقوة عنها فرانكلن "أنها لا تعرف حدوداً" تفوق أحياناً "أشد ما نعرف من آثار البرق العادي" (21).

وكان العديد من الباحثين-وول، ونيوتن، وهوكسي، وجراي، وغيرهم- قد لاحظوا الشبه بين الشرر الكهربى والبرق؛ فأثبت فرانكلن أنهما واحد. وفي 1750 أرسل إلى جمعية لندن الملكية رسالة جاء فيها:

"ألا يجوز أن يفيدنا علمنا بقوة الأطراف المدببة هذه في وقاية البيوت والكنائس والسفن الخ. من الصواعق، وذلك بإرشادنا إلى أن نثبت فوق قمم المباني قضباناً مستقيمة من الحديد، يسن القضيب منها كالأبرة ويغشى بالذهب منعاً لصدئه، ومن أسفل هذه القضبان يمد سلك من خارج البناء هابطاً إلى الأرض، أو حول أحد حبال صاري المركب إلى جنبها حتى يصل إلى الماء؟ ألا يحتمل أن تجذب هذه القضبان المدببة النار الكهربائية في هدوء من السحابة قبل أن تقترب قريباً يتيح لها أن تصعق البناء، وبهذا نأمن ذلك الشرر الفجائي المستطير؟" (22):

ثم وصف تجربة يمكن ان تختبر بها هذه النظرية. أما الجمعية الملكية فقد رفضت الاقتراح لانه من قبيل الخيال، ورفضت أن تنشر رسالة فرانكلن. ولكن عالمين فرنسيين هما دلوور وداليار، وضعا نظرية فرانكلن موضع الاختبار، فأقاما في حديقة بماري (1752) قضيباً حديدياً مدبباً طوله خمسون قدماً، ونبها على حارس بأن يلمس القضيب بسلك نحاسي معزول إن مرت غابهما سحب رعدية فوق رأسه. وجاءت السحب، ولمس الحارس القضيب لا بالسلك فقط بل بيده كذلك؟ وتطاير الشرر وطقق، وصدمة الحارس صدمة عنيفة. وأيد دلوور وداليار رواية الحارس بمزيد من الاختبارات، وأبلغا أكاديمية العلوم الباريسية أن "فكرة فرانكلن لم تعد حدى بل حقيقة".

أما فرانكلن فلم يقنع بهذا، فقد أراد أن يوضح وحدة البرق والكهرباء في جلاء، وذلك بأن "يستخلص البرق بشيء يرسل صعداً إلى السحابة

صفحة رقم : 12373

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفيزياء

المبرقة ذاتها. ففي يونيو 1752 حين بدأت عاصفة رعدية، طير على خيط قنب متين طيارة من الحرير (لأنه أصلح من الورق لحمل الريح والرطوبة، دون أن يتمزق)؛ وبرز سلك شديد التدبب على نحو اثنتي عشرة بوصة من قمة الطيارة، وعلى طرف الخيط الذي ينتهي عند المشاهد ربط مفتاح بشريط حريري؛ وبين فرانكلن نتائج التجربة في رسالة إلى إنجلترا (19 أكتوبر) ضمنها توجيهات لتكرارها:

"إذا بلل المطر خيط الطيارة بحيث يستطيع توصيل النار الكهربائية دون معوق، ستجد أنها تنطلق بوفرة من المفتاح بمجرد أن تدنى منه مفصل اصبعك، وبهذا المفتاح يمكن شحن قنينة (أو جرة ليدينية)، ومن النار الكهربائية التي يحصل عليها بهذه الطريقة يمكن إشعال المواد الكحولية وإجراء جميع التجارب الكهربائية الأخرى التي تجري عادة بالاستعانة بكرة أو أنبوبة زجاجية محكوكة، وهكذا يتضح تماماً أن المادة الكهربائية هي البرق شئ واحد" (23).

وكررت التجربة في فرنسا (1753) بطيارة أكبر وحبل طوله 780 قدماً ملفوف حول سلك حديدي، ينتهي عند المشاهد بأنبوبة معدنية كانت في التجربة تبعث شرراً طوله ثمانى بوصات. وقد قتلت الصدمة الكهربائية ج.و. وتثمان الأستاذ بجامعة سانت بطرسبورج وهو يجري تجربة مماثلة. فلما أرسلت مؤلفات فرانكلن إلى إنجلترا في 1751-54 أكسبته الانتخاب عضواً في الجمعية الملكية، ومدالية كوبلي. وجاءته ترجمتها إلى الفرنسية بخطاب تهنئة من لويس الخامس عشر، وتشاء حار من ديرو، الذي وصفها بأنها نماذج في تحرير التقارير العلمية. وقد مهدت هذه الترجمات للاستقبال الودى الذي لقيه فرانكلن حين قدم إلى فرنسا ملتسماً العون للمستعمرات الأمريكية إبان ثورتها فلما نجحت الثورة بمعونة فرنسا لخص دالامبير (أوطورجو) إنجاز فرانكلن في بيت محكم خليق بقيرحل أو لوكريتيوس:

"نه خطف البرق من السماء، والصولجان من الطغاة".

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الفيزياء

وعجت أوروبا كلها بالنظريات والتجارب الكهربائية بعد عام 1750. ففتح جون كانتون (1753) وفيلكي العالم المتعدد القدرات (1757) الطريق لدراسة التوصيل الكهربائي الاستاتيكي، الذي يتكهرب بواسطته موصل غير مشحون إذا وضع بقرب جسم مشحون. وبرهن فيلبي على أن في إمكان شحن معظم المواد بالكهرباء الموجبة (أو السالبة) إذا حكك بجسم مشحون بشحنة أقل منها (أو أزيد). وأثبت أيبينوس (فرانتز أولريش هوخ) الذي كان يعمل مع فيلبي في برلين أن لوحين معدنيين لا يفصلهما إلا طبقة من الهواء تعملان عمل الجرة الليدينية. وحاول جوزف بريستلي قياس قوة الشحنة الكهربائية وأقصى اتساع تمر عبره شرارة شحنه معينة. وقد قرر أنه حين عبرت شرارة فجوة لا تتجاوز حتى بوصتين بين قضيبين معدنيين في فراغ ظهر في الفجوة "ضوء أزرق أو أرجواني خفيف". على أن أروع إسهام أسهم به بريستلي في النظرية الكهربائية هو إلماعه إلى أن قوانين الكهرباء قد تكون شبيهة بقوانين الجاذبية ولأن القوة التي تؤثرها الواحدة على الأخرى بواسطة شحنات كهربية منفصلة تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بين مصدريهما. وقد جرب هنري كافندش (الذي يذكر كما يذكر بريستلي بفضل منجزاته في الكيمياء على الأخص) اقتراح بريستلي في سلسلة من التجارب الصابرة، وتوصل إلى تعديل طفيف ولكنه هام، زاده جيمس كلارك ماكسويل صقلاً في 1878، والقانون يقبل اليوم بوضعه هذا. وبعد أن قام شارل أوجستن وكولومب بأعمال قيمة في ميدان توتر العوارض ومقاومة المعادن للالتواء، قدم لأكاديمية العلوم الباريسية تقارير عن تجارب (1785-86) استخدمت الميزان الالتهوائي (إبرة تعتمد على شعرة رقيقة) في تقدير التأثيرات المغنطيسية والشحنات الكهربائية، وفي كلتا الحالتين أثبت مادياً قانون المربعات العكسية.

وقد ترك إيطاليان، كما ترك كولومب، على اسميهما مصطلحات الكهرباء. فلم يقتصر لويجي جلفاني أستاذ التشريح في بولونيا على كشفه إمكان إحداث التقلصات العضلية في الحيوان الميت بالتماس الكهربائي المباشر (وكان هذا معروفاً قبل ذلك بزمان طويل) بل زاد بأن هذه التقلصات تحدث إذا قربت ساق ضفدع ميت موصلة بالأرض من آلة تبعث شرارة كهربية. وأحدثت

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الفيزياء

تقلصات مماثلة في سيقان الضفادع-الموصلة كذلك بالأرض والمربوطة بأسلاك حديدية طويلة- حين ومض البرق في الحجرة. وأدهش جلفاني أن يكتشف أن في إمكانه أن يقلص ساق ضفدع دون أي استعمال أو وجود لجهاز كهربائي

بمجرد تقريب عصب الضفدع وعضلته ليمسا معدنين مختلفين. وخلص من ذلك إلى أن في جسم الحيوان كهرباء طبيعية.

وكرر هذه التجارب أليساندرو فولتا، أستاذ الفيزياء في بافيا، ووافق أول الأمر على نظرية مواطنه في الكهرباء الحيوانية، ولكن المزيد من أبحاثه عدل آراءه. فبعد أن أعاد فولتا تجربة رواها ي. ج. زولتسر حوالي عام 1750 وجد أنه إذا وضع قطعة من القصدير على طرف لسانه، وقطعة من الفضة على ظهر لسانه شعر بطعم شديد الحموضة كلما وصل المعدنين بسلك. فلما وصل جبينه وسقف حلقه بهذين المعدنين المختلفين حصل على إحساس بالضوء. وفي 1792 أذاع النتيجة التي خلص إليها، وهي أن المعدنين، لا النسيج الحيواني، أحدثا الكهرباء بمجرد تفاعل الواحد مع الآخر ولمسهما مادة رطبة يحسن أن تكون محلول ملح. وأثبت المزيد من التجارب أن تماس معدنين مختلفين يحدث بهما شحنة كهربية-الواحد إيجاباً والآخر سلباً-دون تدخل من أي مادة رطبة، حيوانية كانت أو غير حيوانية. ولكن هذا التماس المباشر يحدث تفاعلاً في الشحنات فقط، لا تدفقاً في التيار. ولكي يحدث فولتا تياراً صنع "رصيفاً كهربائياً" (فولطياً) بوضع عدة طبقات بعضها فوق بعض، يتألف كل منها من صفيحتين موصولتين من معدن مختلف، وصفيحة من الورق أو الخشب المبلل. وهكذا كونت في آخر سنة في القرن لثمان عشر أول بطارية ذات تيار كهربية. وفتح الطريق أمام الكهرباء لتعيد صنع وجه الأرض وليها.

صفحة رقم : 12376

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

4- الكيمياء

أ - البحث عن الأوكسجين

كتب إدوارد جيبون في 1761 يقول "إن الفيزياء والرياضة تتربعان الآن على العرش، تريان أخواتهما ملقيات على الأرض أمامهما، مغلولات إلى عربتهما، أو على الأكثر يزين موكب انتصارهما. ولعل الزمن لن

صفحة رقم : 12377

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

يمهلهما كثيراً حتى يسقطها عن عرشهما" (24). وكانت تلك نبوءة مشئومة فالفيزياء الآن ملكة العلوم، والرياضة معيبتها، ولكن ما من أحد يستطيع التنبؤ بما قد يسفر عنه اتحادهما. ومع ذلك، ففي وسط جميع انتصارات رياضة القرن السابع عشر وفيزيائه وفلكه، كان علم صغير قد انبعث من أقمطة الكيمياء. وأوشك خطأ مؤسف أن يخنقه وهو بعد في المهد. ذلك أن جورج شتال أستاذ الطب والكيمياء في هاللي، عملاً بنظرية اقترحها بوهان بيشر في 1669، علل الاختراق بأنه إطلاق "الفلوجستون" (اللاهوب) من المادة المحترقة إلى الهواء وكلمة Phlogiston هي المقابل اليوناني لكلمة inflammable أي قابل للاحتراق؛ وكلمة phlox هي المقابل اليوناني لكلمة flame أي اللهب، وتعني اليوم نباتاً تتلون أزهاره أحياناً باللون الأحمر المشتعل). وما وافى عام 1750 حتى قبل معظم الكيميائيين في غرب أوروبا هذه النظرية التي تزعم أن الحرارة أو النار مادة منفصلة عن المادة المشتعلة. ولكن أهدأ لم يستطع أن يفسر، إذا كان الأمر كذلك فما السر في أن المعادن تزن بعد احتراقها أكثر منها قبله.

وقد مهد لتعليلنا الراهن للاحتراق العمل الذي قام به هيلز، وبلاك، وشيليه في كيمياء الهواء. أما ستيفن هيلز فقد عبد الطريق باختراعه "الحوض الغازي" وهو وعاء هوائي يمكن أن تجمع فيه الغازات في إناء مقفل فوق الماء. وقرر أن الغازات (وقد سماها "الأهوية") تحتويها جوامد كثيرة، ووصف الهواء بأنه "سائل مطاط رقيق" له جزيئات ذات طبيعة مختلفة جداً تطفو فيه" (25).

وقد أنهى تحليل الهواء والماء إلى مواد متنوعة الفكرة القديمة عن الهواء، والماء، والنار، والتراب، باعتبارها العناصر الرئيسية الأربعة. وفي الجيل التالي أثبتت تجارب جوزف بلاك (1756) أن من مكونات الهواء ما سماه اقتداء بهيلز - "الهواء الثابت" أي الهواء المحتوي في المواد الجامدة أو السائلة والقابل للإزالة منها، ونحن نسميه الآن ثاني أكسيد الكربون أو غاز حامض الكربونيك". وزاد بلاك بتمهيد الطريق للكشف عن الأوكسجين بإثباته

صفحة رقم : 12378

قصة الحضارة - عصر فولتير - تقدم العلم - التقدم العلمي - الكيمياء

بالتجربة أن هذا الغاز يحتويه زفير الإنسان. ولكنه ظل يؤمن بالفلوجستون، وظل الأوكسجين والهيدروجين والأزوت (الننروجين) أسراراً غامضة. وقد أسهمت السويد بعطاء سخي في كيمياء القرن الثامن عشر فتوربيرن أولوف بيرجمان، الذي سنلتقي به ثانية رانداً في الجغرافيا الطبيعية، كان أولاً وقبل كل شيء كيميائياً، عرفه الناس وأحبوه أستاذاً لذلك العلم في جامعة أوبسالا. وهو أول من حصل على النيكل في حالة نقاء، وأول من أثبت أهمية الكربون في تحديد الخواص الطبيعية للمركبات الكربونية الحديدية. وقد درس في حياته القصيرة نسبياً والتي لم تتجاوز تسعة وأربعين عاماً - الانتلافات الكيميائية لتسع وخمسين مادة، بعد أن أجرى عليها نيفاً وثلاثين ألف تجربة، ونشر كشوفه في كتابه "الإجتادات الانتخابية" (1775) ومات قبل أن يكمل هذا العمل، ولكنه كان خلال ذلك قد أورت شيليه تقانيه في البحوث الكيميائية. ويسلم مؤرخو العلم الإنجليزي الآن في شهامة بأن كيميائياً سويدياً - هو كارل فلهلم شيليه سبق (1772) كشف بريستلي (1774) لما سماه لافورزييه (1779) لأول مرة بالأكسجين. وقد قضى شيليه أكثر عمره الذي لم يتجاوز الثلاثة والأربعين عاماً فقيراً معدماً. بدأ صبياً لصيدلي في جوتبورج، ولم يرق إلى أكثر من صيدلي في مدينة كوبنغ المتواضعة. وقد حصل له معلمه توربيرن بيرجمان - على معاش صغير من أكاديمية أستوكهولم للعلوم، فكان شيليه ينفق ثمانين في المائة منه على التجارب الكيميائية، يجرى أكثرها ليلاً بعد الفراغ من عمل نهاره مستعيناً بأبسط الأجهزة العملية. ومن هنا موته المبكر. ومع ذلك فقد غطى ميدان هذا العلم الجديد كله تقريباً، وعرفه ببساطته

المعروفة فقال "إن هدف الكيمياء ومهمتها الرئيسية هي أن تفصل المواد بمهارة، وتردها إلى مكوناتها، وأن تكشف خواصها، وأن تركيبها بطرق مختلفة" (26). وفي 1775 أرسل إلى لمطبوعة مخطوطة عنوانها "رسالة كيميائية في الهواء والنار"؛ وتأخر نشرها حتى 1777، ولكن كل التجارب التي وصفها تقريباً كانت قد أجريت قبل 1773. ومع أن شيليه ظل حتى مماته متمسكاً

صفحة رقم : 12379

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

بايمانه باللاهوب، فإنه أرسى قضية أساسية هي أن الهواء غير الملوث يتألف من غازين، سمي أحدهما "هواء النار" وهو الأكسجين لأنه أهم عماد للنار وسمى الثاني "الهواء التالف" وهو الأزوت لأنه هواء فقد "هواء النار". وقد حضر الأكسجين بطرق عديدة، مزج في إحدهما حامض الكبريتيك المركز بالمنغنيز المطحون طحناً دقيقاً، وسخن المزيج في إنبيق، وجمع الغاز الناتج في كيس ضغط حتى خلا من الهواء تقريباً. ووجد أن الغاز الذي أنتج على هذا النحو إذا مرر على شمعة مشتعلة "بدأت تشتعل بلهب أكبر، وبعثت نوراً ساطعاً يبهل العين" (27). وخلص إلى أن "هواء النار" هو الغاز الذي تعتمد عليه النار. ولا شك أنه استخرج هذا الغاز قبل أن يستخرجه بريستلي بسنتين (28). ولم يكن هذا سوى قسط يسير من منجزات شيليه. ولعل سجله مكتشفاً لمواد جديدة لا ضريب له بين المكتشفين (29) فهو أول من عزل الكلورين، والباريوم، والمنغنيز، ومركبات جديدة مثل النشادر، والجلسرين، وأحماض الهيدروفلوريك، والتانيك، والبنزويك، والأوكساليك، والماليك، والطرطريك. وقد انتفع برتوليه في فرنسا، وجيمس وات في إنجلترا، انتفاعاً تجارياً بكشفه لتبييض الكلورين للثياب، والخضر، والزهر. وفي أبحاث أخرى اكتشف شيليه حمض البولييك بتحليل حمض الميثان (1776). وفي 1777 حضر الهيدروجين المكبر، وفي 1778 حمض المولديك. وفي 1780 أثبت أن حموضة اللبن الحامض سببها حمض اللبنيك؛ وفي 1781 حصل على حمض التنجستيك من تنجستات الكلسيوم (ويعرف الآن بالشيلي). وفي 1783 اكتشف حمض البروسيك (الهيدروسينيك) دون أن يدرك ما له من طبيعة سامة. كذلك استخرج غاز الأرسين (وهو مركب قتال من الزرنيخ) وصبغة الزرنيخ المعروفة الآن بأخضر شيليه (30). وقد أعان على تيسير التصوير الفوتوغرافي بإثباته أن ضوء الشمس الأبيض لها تأثيرات على أملاح الفضة. وقد تبين أن الجهد الذي أنفق في هذا العمر القصير، وهو جهد مثمر إلى حد لا يصدق، ذو أهمية بالغة في التتميات الصناعية في القرن التاسع عشر.

صفحة رقم : 12380

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

ظل الفضل في اكتشاف الأكسجين ينسب طويلاً إلى جوزيف بريستلي لا إلى شيليه، لأنه اكتشفه مستقلاً عن شيليه، وأذاع اكتشافه هذا في 1775 قبل عامين من نشر شيليه المتأخر لكشفه. ومع ذلك فنحن نكرمه لأن أبحاثه أتاحت للافوازييه أن يضيفي على الكيمياء شكلها الحديث، ولأنه كان من الرواد في الدراسة العلمية للكهرباء، ولأنه أسهم بشجاعة في الفكر البريطاني عن الدين والحكومة حتى أن جماعة متعصبة من الغوغاء أحرقت بيته في برمنجهام وحملته على الالتجاء إلى أمريكا. وقد لمس تاريخ الحضارة في نقط كثيرة، وهو واحد من أعظم شخصياته إلهاماً. ولد في يوركشير في 1733، لمشاط من المنشقين على الكنيسة الرسمية. وأكب بنهم على دراسة العلم، والفلسفة، واللاهوت، واللغات؛ فتعلم اللاتينية، واليونانية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والعربية، وحتى طرفاً من السريانية والكلدية. واشتغل أول الأمر واعظاً منقشاً في سافوك، ولكن عقده في لسانه انتقصت من تأثير بلاغته في السامعين. فلما بلغ الخامسة والعشرين نظم مدرسة خاصة بعث الحياة في منهاجها بتجارب في الفيزياء والكيمياء. وفي الثامنة والعشرين أصبح معلماً في أكاديمية للمنشقين في وارنجتن، وهناك علم خمس لغات، ووجد رغم ذلك الوقت ليجري أبحاثاً أكسبته زمالة في الجمعية الملكية (1776). في تلك السنة التقى بفرانكلن في لندن فشجعتة على تأليف كتابه "تاريخ الكهرباء ووضعها الراهن" (1776) وهو مسح جدير بإعجاب للموضوع بأسره حتى جيله. وفي 1767 عين راعياً لكنيسة مل هل بليدز. وقد تذكر في تاريخ لاحق من حياته، إنه "نتيجة لسكنائي حيناً بقرب مصنع عمومي للجنة أغريت بإجراء تجارب على الهواء الثابت (31). لأن عجيب مصنع الجعة انبعث منه غاز ثاني أكسيد الكربون. وقد أذابه في الماء، وأعجبته نكهته الفوارة؛ وكان هذا أول "ماء صودا". وفي 1772 ألقى من هموم الرزق بتعيينه أمين مكتبة للورد شلبيرن. وفي البيت الذي جهز له بكون له أجرى التجارب التي أكسبته شهرة دولية.

صفحة رقم : 12381

قصة الحضارة - عصر فولتير - تقدم العلم - التقدم العلمي - الكيمياء

وقد حسن "وعاء هيلز الغازي" بأن جمع فوق الزئبق، بدلا من الماء، الغازات التي ولدها بأنواع مختلفة من المزج. ففي 1772 عزل أكسيد النتريك، وأكسيد النتري (الغاز الضحاك) وكلوريد الهيدروجين؛ وفي 1773 النشادر (مستقلاً عن شيليه)؛ وفي 1774 ثاني أكسيد الكبريت؛ وفي 1776 بيروكسيد الأوزون. وفي 15 مارس 1775 أرسل إلى جمعية الملكية خطاباً أذاع فيه كشفه للأكسجين. وقد وصف طريقته في المجلد الثاني من كتابه تجارب ومشاهدات في مختلف أنواع الهواء (1775) فقال أنه باستعمال عدسة حارقة قوية: "شرعت... بالاستعانة بها في أن أفحص نوع الهواء الذي تطلقه أنواع كثيرة جداً من المواد) حين تسخن بهذه الطريقة (بوضعها في... أو أن... مملوءة بالزئبق ومقلوبة في حوض الزئبق... وبهذا الجهاز...، في أول أغسطس 1774، حاولت استخراج الهواء من الزئبق المكلس وحده (أكسيد الزئبق) وسرعان ما وجدت أن الهواء يطرد منه بسرعة باستعمال هذه العدسة... والذي أدهشني دهشة لا يمكنني التعبير عنها أن شمعة اشتعلت في هذا الهواء يلهب قوى جداً (32).

فلما لاحظ كما لاحظ شيليه- أن في استطاعة فأر أن يعيش أطول في هذا الهواء المنزوع اللاهوب أو الفلوجستون (كما سمي الأكسجين) مما يعيش في الهواء العادي، خطر له أن يجرب بنفسه الهواء الجديد.

"لن يعجب القارئ لأنني بعد أن أكد لي عظم صلاحية الهواء المنزوع اللاهوب من حياة الفئران فيه، وبغير ذلك من التجارب التي سبق ذكرها، تطلعت إلى تذوقه بنفسي. فأشبعت فضولي باستنشاقه وسحبه من زجاجة سيفون؛ وبهذه

الطريقة أحلت أبريقاً كبيراً مملوئاً به إلى مستوى الهواء العادي. ولم يكن إحساس رنتي به يختلف اختلافاً محسوساً عن إحساسهما بالهواء العادي. ولكن خيل إلي أن صدري ظل بعض الوقت بعدها يحس بأنه خفيف إلى درجة غريبة. ومن يدري، فلعل هذا الهواء النقي سيصبح يوماً ما أداة عصرية من أدوات الترف؟ أما إلى اليوم فإن أحداً لم يستمتع باستنشاقه سواي أنا وفارين(33)...

صفحة رقم : 12382

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

وقد تتبأ ببعض صور هذا الترف المستقبل:

لنا أن نحزر من قوة لهيب الشمعة المضاءة في هذا الهواء النقي وسطوعها الزائد-أنه قد يكون أصلح جداً للرتنين في حالات مرضية معينة، حين لا يكفي الهواء العادي إزالة الزفر الفلوجستي الفاسد (ثاني أكسيد الكربون) بالسرعة الكافية. ولكن ربما استنتجنا أيضاً من هذه التجارب أنه وإن كان الهواء المنزوع اللاهوب (الأكسجين) مفيداً جداً كدواء ، فإنه قد لا يكون يمثل هذه الصلاحية لنا في حالة الصحة العادية للبدن، لأن الشمعة تشتعل في الهواء المنزوع اللاهوب بأسرع مما تشتعل في الهواء العادي، ومن ثم فقد نفني حياتنا بأسرع مما ينبغي وتستهلك فينا القوة الحيوانية على عجل في هذا النوع النقي من الهواء(34).

وقد تألفت تجارب بريستلي بالفروض المثمرة والإدراكات اليقظة، ولكن تفسيراته النظرية كان أكثرها تقليداً. فقد ظن كما ظن شتال وشيليه أنه في الاحتراق يخرج الجسم المشتعل مادة هي الفلوجستون (اللاهوب) وذهب إلى أن هذه المادة تتحد مع أحد مكونات الهواء ليكونا "الهواء التالف" أو "الهواء ذات اللاهوب" (وهو الأزوت) أما المكون الآخر فسماه "الهواء المنزوع اللاهوب" وهو ما سيطلق عليه لافوازييه اسم الأكسجين. وبينما كان لافوازييه يقول بأن الجسم في عملية الاحتراق يمتص الأكسجين من الهواء بدلاً من أن يطرد الفلوجستون فيه، ظل بريستلي إلى آخر حياته متمسكاً بالمفهوم القديم.

وفي 1774 سافر مع اللورد شلبيرن إلى القارة، وأخبره بتجارب الأكسجين. وفي 1780 أحاله شلبيرن إلى التقاعد بمعاش سنوي قدره 150 جنيهًا. واستقر بريستلي في برمنجهام قسيساً أصغر لجماعة كبيرة من المنشقين تدعى "المحفل الجديد". وانضم إلى جيمس وات، وجوسيا ودجوود، وارزمس داروين، ومائثبولتن، وغيرهم في "جمعية قمرية" تناقش أحدث الأفكار في العلم، والتكنولوجيا، والفلسفة. وكان محبوباً من جميع الطبقات تقريباً وموضع الإعجاب لوجهه البشوش، وتواضعه، وسماحته، وطهارة حياته التي لا تشوبها شائبة(35). ولكن بعض جيرانه

صفحة رقم : 12383

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء



ارتابوا في مسيحيتيه. وفي كتابه "مقالات في المادة والروح" (1777) رد كل الأشياء، حتى النفس، إلى المادة وأصر على أن هذا الرأي شئ لا غبار عليه.

"معلوم جيداً لأهل العلم... إن ما عناه القدماء بالكائن اللامادي إنما هو نوع مهذب مما ينبغي أن نسميه الآن مادة، شئ كالهواء أو النفس، زود الناس لأول مرة باسم للنفس... ومن ثم لم يستعبد القدماء من العقل خاصية "الامتداد" والضغط المحلي. فقد كان لهم في رأيهم بعض الخواص المشتركة بينه وبين المادة، وكان في استطاعته أن يتحد معها، وأن يؤثر فيها ويتأثر بها... وعليه فقد روي أن... قوة الحس أو التفكير... يمكن أن تنتقل لأغلب ضروب المادة... وأن "النفس" والجسم لا بد أن يموتا معاً لأنهما في الواقع مادة واحدة (36).

وفي كتاب آخر نشره في نفس العام اسمه "شرح عقيدة الضرورية الفلسفية"، أنكر بريستلي بحماسة حرية الإرادة أسوة بهارتلي وهيوم. وفي كتابه "تاريخ تحريفات المسيحية" (1782) رفض المعجزات وسقوط آدم، وكفارة المسيح، وعقيد الثالوث. وذهب إلى أن هذه العقائد كلها تحريفات أدخلت أثناء تطور المسيحية؛ إذ لا وجود لها في تعاليم المسيح والرسل الأثني عشر. ولم يبق من المسيحية في بريستلي غير الإيمان بالله المبني على شهادة للقصد الإلهي. ولم يكن راضياً تمام الرضى عن فكرة الخلود، فألمع إلى أن الله في يوم الحشر سيعيد خلق الأموات جميعاً. على أن رجاء الحقيقي لم يكن معقوداً على سماء في الآخرة بل على "بوتوبيا" تبنى على هذه الأرض بانتصار العلم على الخرافة والجهل. وندر أن عبر إنسان بحرارة كما عبر بريستلي عن دين القرن الثامن عشر، وعن التقدم، إذ يقول: كل المعرفة ستقسم فروعاً وتوسع، ولما كانت المعرفة قوة كما لاحظ اللورد بيكون، فإن قوى البشر ستزداد في الواقع، فالطبيعة مواردها وقوانينها- ستكون في متناول أكثر من ذي قبل، وسيجعل الناس وضعهم في هذا العالم أشد يسراً وراحة، وأغلب الظن أنهم سيطيرون وجودهم فوقه، وسيصبحون كل يوم أسعد حالاً، كل سعيد في ذاته، وأقدر

صفحة رقم : 12384

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

(وأكثر ميلاً في ظني) على توصيل السعادة لغيره. ومن ثم، فأياً كانت بداية هذا العالم، فإن نهايته ستكون أمجد وأسعد مما يستطيع خيالنا الآن أن يتصوره... (37) وطوبى للذين يسهمون في نشر النور النقي لهذا الإنجيل الخالد (38). وفي رؤيا بريستلي أن بعض هذا التقدم المجيد سيكون سياسياً، وسيبنى على مبدأ إنساني بسيط "فتحقيق الخير والسعادة... لأغلبية الناس في أي دولة، هو المعيار الذي يجب أن يقرر به نهائياً كل شئ يمت إلى تلك الدولة (39). ويقول بنتام أنه وجد هنا مصدراً من مصادر فلسفة المنفعة التي بشر بها. وعند بريستلي أن الحكومة العادلة الوحيدة هي التي تستهدف إسعاد مواطنيها. ومما يتفق تماماً مع المسيحية أن يطيح الشعب بالحكومة التي يتضح له ظلمها. وقد أجاب عن تحذير القديس بولس الذي قال فيه "إن السلاطين الكائنة هي مرتبة من الله." بقوله "للسبب نفسه ستكون سلاطين المستقبل مرتبة من الله أيضاً (40).

وكان طبيعياً أن يتعاطف ثائر كهذا مع المستعمرات في احتجاجها على فرض الضرائب عليها دون أن يكون لها ممثلون في البرلمان البريطاني. وقد صفق للثورة الفرنسية بحرارة أشد حتى من حرارة تعاطفه مع المستعمرات. ولما ندد بها بيريك دافع عنها بريستلي فدمغه بيريك في البرلمان بالهرطقة. وكان بعض أصدقاء بريستلي يشاركونه آراءه المتطرفة. وفي 14 يوليو 1791 اجتمعت "جمعية برمنجهام الدستورية" في الفندق الملكي للاحتفال بالذكرى السنوية لسقوط الباستيل. ولم يحضر بريستلي الاحتفال. واحتشد جمع أمام الفندق واستمعوا إلى اتهامات زعمائهم للمهرطقين والخونة، ثم قذفوا نوافذ الفندق بالحجارة، وفر أصحاب المأدبة، وانطلق الجمع إلى بيت بريستلي فأحرقوه مبهجين وأتوا على مختبره وأدواته ومكتبته ومخطوطاته. ثم ظلوا ثلاثة أيام يجوبون أنحاء برمنجهام وهم يقسمون أن يقتلوا جميع "الفلاسفة"؛ وراح المواطنون المروعون يخطون على زجاج نوافذهم عبارة "لا يوجد هنا فلاسفة". وفر بريستلي إلى ددلي، ثم لى لندن. ومنها وجه رسالة في 19 يوليو إلى أهل برمنجهام قال فيها:

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

مواطني وجيراني الأسبقون.  
بعد أن عشت معكم أحد عشر عاماً، خبرتم كلكم على السواء خلالها ذلك المسلك المسالم الذي كنت أسلكه في العكوف على الواجبات الهادئة لمهنتي وللأسفة، لم أتوقع قط تلك الأضرار التي أوقعتوها مؤخراً بي وبأصدقائي... وعقول الإنجليز لحسن الحظ تستبشع "القتل"، ومن ثم لم تفكروا فيه (وهو ما أرجوه). ولكن ما قيمة الحياة إذا ارتكب كل شيء لجعلها شقية تعسة؟..

لقد دمرتم أئمن وانفع جهاز حقاً من الأجهزة الأدوات الفلسفية... لقد دمرتم مكتبة... لا يمكن لمال أن يشتريها من جديد إلا بعد زمن طويل ولكن ما يحز في نفسي أكثر من هذا أنكم دمرتم مخطوطات هي ثمرة الدرس الكادح في سنوات كثيرة، ولن أستطع أبداً إعادة تأليفها من جديد؛ وقد فعلتم هذا بإنسان لم يؤذكم ولم يخطر له قط أن يؤذيك. وتخطئون إذا ظننتم أن مسلككم هذا قد يخدم قضيتكم أو يضر قضيتنا... فلو أنكم قضيتكم على بيتي، ومكتبي، وأجهزتي، فإن عشرة أشخاص آخرين لهم من الجراءة والكفاية ما يعادل مالي أو يفوقه سيظهرون على الفور. ولو قضى على هؤلاء العشرة لظهر بدلهم مائة... نحن في هذا الأمر أشبه بالحمالان وأنتم بالذئاب. وسنتمسك بخلقنا، ونرجو أن تغيروا خلقكم. وأياً كان الأمر، فإننا نرد على لعناتكم بالبركات، ونرجو أن تنوبوا سريعاً إلى ما أمتاز به أهل برمنجهام فيما مضى من جد واجتهاد وعادات رزينة.

وإنني المتمني لخيركم، المخلص،

ج. بريستلي(41)

ولكنه قاضى المدينة مطالباً بتعويض، وقدر خسارته بمبلغ 4,500 جنيه. وأعان قضيته تشارلز جيمس فوكس، ومنحته برمنجهام 2,502 جنيهاً. فحاول أن يستقر في مواطن جديد في إنجلترا ولكن رجال الكنيسة، وأنصار الملكية، وزملاءه في الجمعية لملكية، تجنبوا صحبته(42).

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

وعرضت عليه الأكاديمية الفرنسية للعلوم عن طريق سكرتيرها كوندورسيه بيتاً ومختبراً في فرنسا. وفي 8 أبريل 1794 هاجر إلى أمريكا، وكان يومها في الحادية والستين، واختار بيته الجديد في مدينة نورثمبرلاند، في بنسلفانيا وطن فرانكلن، على ضفاف نهر سسكويهانا الجميل الذي سيحلج به بعد قليل كولردج وسوذي. ثم استأنف تجاربه

واكتشف تركيب أول أكسيد الكربون. وقد احتقت به الجماعات العلمية وعرض عليه كرسي الكيمياء في جامعة بنسلفانيا. وفي 1796 ألقى على الجامعيين في فيلادلفيا سلسلة من الأحاديث عن "الشواهد على المسيحية" وكان من بين جمهور المستمعين جون آدمز نائب رئيس الجمهورية وكثيرون من أعضاء الكونجرس. ومن هذه الاجتماعات انبثقت جمعية للموحدين. وبعد عامين اقترح تيموثي بيكرنج، الوزير في حكومة الرئيس آدمز، ترحيل بريستلي بوصفه أجنبياً غير مرغوب فيه. ووضع انتخاب جفرسن (1800) نهاية لقلق بريستلي، فأتيح له أربعة أعوام من السلام. وفي 1803 كتب آخر أبحاثه العلمية التي ظل يدافع فيها عن الفلوجستون ومات في نورثمبرلاند في 6 فبراير 1804. وفي 1943 قررت الهيئة التشريعية البنسلفانية أن يكون بيته بيتاً تذكاريًا قومياً. وبينما اضطلع توماس بين بحملة بريستلي بوصفه مسيحياً متمرداً، واصل هنري كافندش أبحاثه في كيمياء الغازات. وكان كافندش ابن لورد، وابن أخي دوق، وقد ورث في الأربعين ثروة من أعظم الثروات في إنجلترا. كان خجولاً متردداً في حديثه، مهملاً في لباسه، فعاش عيشة النساك في مختبره بكلابهم كومن بلندن، ولم يسع إلى الشهرة. وتميزت أبحاثه بالتدقيق الشديد في قياس جميع الموارد ووزنها قبل التجربة وبعدها، وقد أعانت هذه المعايير لافوازييه على أن يصوغ مبدأه القائل بأن كمية المادة تظل ثابتة في التغيرات الكيميائية. وفي 1766 أنهى كافندش إلى الجمعية الملكية تجاربه على "الهواء الصناعي" أي الغاز المشتق من الجوامد. فقد توصل بإذابة الزنك أو القصدير في أحماض إلى استخراج ما سماه "الهواء القابل للاحتراق"؛ وقال أن هذا

صفحة رقم : 12387

#### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

والفلوجستون شيء واحد، ونحن نسميه الآن الهيدروجين. وكان كافندش أول من أدرك أنه عنصر متميز، وعين وزنه النوعي. وفي 1783، وجدوه يتابع تجربة أجراها بريستلي - أنه إذا مررت شرارة كهربية في مزيج من الهواء العادي "والهواء القابل للاحتراق" تكاثف جزء من المزيج وتحول إلى ندى. واستنتج من هذا التحليل الكهربائي أن الماء مركب من 2.014 حجماً من "الهواء القابل للاحتراق" إلى حجم واحد من هواء بريستلي المنزوع الفلوجستون، أو كما نقول الآن (يد 2 أ). وكان هذا أول برهان قاطع على أن الماء مركب لا عنصر (وقد ألمع جيمس وات، مستقلاً، إلى نفس التركيب للماء في نفس السنة 1783). وبعد أن مرر كافندش ثانية شرارة كهربية في مزيج من الهيدروجين والهواء العادي حصل على حمض النتريك، واستنتج أن الهواء النقي مركب من الأوكسجين والنتروجين (الأزوت). (وكان دانيال رذرفورد الأدنبري قد اكتشف النتروجين بوصفه عنصراً متميزاً في 1772). واعترف كافندش بوجود بقية صغيرة لم يستطع تحليلها، ولكنه قدرها فبلغت 0,83 من كمية الأصلية. وقد ظل هذا سراً غامضاً حتى 1894، حين عزل رايلي ورامزي هذا الجزء الذي نسميه الآن الأرجون، بوصفه عنصراً قائماً بذاته، ووجد أن وزنه 0.94 من الهواء العادي. وهكذا أثبتت دقة موازين كافندش.

ج - لافوازييه

في هذه الأثناء أتاحت مجموعة من الباحثين المتحمسين، عبر القنال الإنجليزي، لفرنسا مكان الريادة في هذا العلم الجديد، وأعطت الكيمياء الشكل الذي تبدو عليه اليوم في جوهرها. وقام في مكان المنبع منهم جيوم رويل، الذي تميز بجهوده في كيمياء الأملاح، لكنه اشتهر بدورات محاضراته التي علم الكيمياء فيها للأغنياء والفقراء، ولذيدرو وروسو، ولأعظم كيميائي فهم أجمعين.

وقد كان لأنطوان لافوازييه ميزة أو معوق، هي أنه ولد غنياً (1743). أتاح أبوه-وكان محامياً في برلمان باريس- للصبي كل ما توفر من تعليم

صفحة رقم : 12388

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

في ذلك الحين، وورثه 300.000 جنيه وهو بعد في الثالثة والعشرين. وثروة كهذه كان يمكن أن تجهض مستقبلاً في مهنة الأدب، ولكنها كانت عوناً لعلم تطلب أجهزة غالية وسنوات طويلة من الإعداد. وقد فر أنطوان من مدرسة الحقوق التي أرسل إليها، مؤثراً عليها دراسة الرياضيات والفلك، وحضر محاضرات روييل في قاعة الجاردان دروا. ومع ذلك أتم دراساته القانونية، ثم رافق جان جنتار في القيام برحلات ورسم خرائط تعدينية لفرنسا. وفي 1768 انتخب عضواً في أكاديمية العلوم، وكانت يومها تضم بوفون، وكزنييه، وطورجو، وكوندورسييه. وبعد عام انضم إلى هيئة الملتزمين العامة في عملية بغيضة هي جمع ضرائب الإنتاج لاستعاضة ما أنفقوه في إقراض الحكومة. فدفعت 520.000 جنيه ثمناً لثلث نصيب في أحد الأسهم الستين لهيئة الالتزام العامة، وفي 1770 رفعه إلى نصيب كامل. وفي 1771 تزوج ماري بولز، ابنة ملتزم عام غني، وأنفق الآن بعض وقته في رحلات للأقاليم، وفي تحصيل إيراداته، وجميع بيانات الضرائب، والعينات الجيولوجية. وقد مولت ثروته مختبراً عظيماً وتجارب غالية التكاليف، ولكنها قادت إلى الجيلوتين.

ثم شارك بدور إيجابي في الشؤون العامة. فلما عين (1775) مأموراً للبارود، زاد إنتاج تلك المادة المتفجرة وحسن نوعها، فيسر بذلك تصديرها على نطاق واسع إلى المستعمرات الأمريكية، وانتصارات جيوش الثورة الفرنسية. وقال لافوازييه "لقد أصبح البارود الفرنسي خير بارود في أوروبا... ويجوز لنا أن نقول أن أمريكا الشمالية تدين له بحريتها." (43) وقد خدم في مختلف المجالس الرسمية، وقومية وبلدية، وعالج بذكائه المتعدد النواحي شتى مشكلات نظام الضرائب، والعملة، والمصارف، والزراعة العلمية،

صفحة رقم : 12389

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

وأعمال البر العام. وحين كان عضواً في الجمعية الإقليمية بأورليان (1787) جاهد في سبيل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الأقاليم. وخلال نقص الطعام الخطير في 1788 أقرض ماله لكثير من المدن لتشتري به قمحاً. لقد كان رجلاً أحب خير المجتمع، وثابر على جمع المال. على أنه في هذه الأنشطة كلها لم يكف عن الاشتغال بالعلم. فعدا مختبره أعقد وأوسع المختبرات السابقة للقرن التاسع عشر: قوامه 250 آلة، وثلاثة عشر ألف مخبر، وآلاف المستحضرات الكيميائية، وثلاثة موازين دقيقة أعانت فيما

بعد على تقدير الجرام وحدة الموازين في النظام المترى. وكان الوزن والمعايرة نصف السر في كشف لافوازييه، وبفضلهما غير الكيمياء من نظرية كيفية إلى علم كمي. وبالوزن الدقيق برهن على أن "فلوجستون" شتال ليس إلا خرافة مريكة افترضت وجود مادة غامضة تترك الجسم المشتعل في عملية الاحتراق وتدخل الهواء. ففي أول نوفمبر 1772 قدم لافوازييه إلى أكاديمية العلوم مذكرة هذا نصيها:

قبل ثمانية أيام اكتشفت أن الكبريت في احتراقه لا يفقد الوزن بل يكسبه، أي أننا قد نحصل من رطل الكبريت على أكثر من رطل من الحمض الكبريتي، مع أخذ رطوبة الهواء في حسابنا. وهذا ما يحدث أيضاً في الفوسفور. وزيادة الوزن تأتي من كمية الهواء الكبيرة التي تثبت (أي تمتصها المادة المحترقة) أثناء الاحتراق وتتحد مع الأبخرة (الكبريتية). وقد أقتنعني هذا الكشف، الذي أثبتته بتجارب أراها حاسمة، أن ما يلاحظ في احتراق الكبريت والفوسفور قد يحدث في جميع الأجسام التي تكتسب وزناً عند الاحتراق أو التكلس (44). فالجسم المحترق لا يعطي الهواء شيئاً بل يأخذ منه شيئاً. فما هذا الشيء؟

في خريف 1774 نشر لافوازييه وصفاً لمزيد من التجارب. فقد وضع كمية موزونة من القصدير في قنينة موزونة تتسع لقدر كبير من الهواء. ثم ختم القنينة، وسخن الكل حتى تأكسد القصدير تأكسداً جيداً. وبعد أن أتاح للجهاز وقتاً ليبرد، وجد أن وزنه ظل دون تغيير. ولكنه حين كسر الختم

صفحة رقم : 12390

قصة الحضارة - عصر فولتير - تقدم العلم - التقدم العلمي - الكيمياء

اندفع الهواء إلى القنينة، مما دل على أن فراغاً جزئياً قد حدث في القنينة.. فكيف حدث؟ لم يجد لافوازييه تعليلاً إلا أن القصدير المحترق قد امتص جزءاً من هواء.. فما هذا الجزء؟ وفي أكتوبر 1774 التقى لافوازييه ببريستلي في لندن. وأخبره بريستلي بالتجارب التي أجراها في أغسطس، والتي ظل يفسرها بأنها دليل على أن الفلوجستون ينطلق من الجسم المحترق إلى الهواء. وفي 26 أبريل 1775 قرأ لافوازييه على الأكاديمية مذكرة روي فيها التجارب التي هدته إلى اعتبار الاحتراق امتصاص جسم محترق لعنصر غامض من الهواء، أطلق عليه مؤقتاً اسم "الهواء الشديد النقاء". لقد اكتشف الأكسجين كما اكتشفه بريستلي، ولكنه اختلف عنه لأنه نبذ خرافة الفلوجستون. ولم ينحت لفظ "الأكسجين" للدلالة على العنصر القابل للاشتعال في الهواء إلا عام 1779، وقد اشتقه من كلمتين يونانيتين معناهما "مولد الحمض" لأنه ظن خطأ أن الأكسجين مكون لا غنى عنه في جميع الأحماض.

ولاحظ لافوازييه كما لاحظ بريستلي أن نوع الهواء الذي تمتصه المعادن في الاحتراق هو نفس النوع الذي يدعم الحياة الحيوانية. ففي 3 مايو 1777 قدم للأكاديمية بحثاً في "تنفس الحيوان" قال فيه "إن خمسة أسداس الهواء الذي نستنشقه عاجزة عن دعم تنفس الحيوان، أو الاشتعال والاحتراق،... فخمس حجم الهواء فقط هو الصالح للتنفس". ثم أضاف "هناك شبه كبير بين الهواء الذي استعمل لدعم هذه الوظيفة الحيوية وقتاً ما، والهواء الذي تكلست (تأكسدت) فيه المعادن، والعلم بـ (عملية) واحدة يمكن بالطبع أن يطبق على الأخرى". وعليه فقد أسس لافوازييه التحليل العضوي، بوصف التنفس بأنه اتحاد الأكسجين بالمادة العضوية. وفي هذه العملية لاحظ انطلاق حرارة، كما تنطلق في الاحتراق؛ ثم زاد تأكيد الشبه بين التنفس والاحتراق، بإثباته أن ثاني أكسيد الكربون والماء ينطلقان (كما في التنفس) من احتراق مواد عضوية مثل السكر والزيت والشمع. وحدثت الآن ثورة في علم الفسيولوجيا بفضل التفسير المترابطة للعمليات العضوية بلغة فيزيوكيميائية.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الكيمياء

واقترضى تكاثر التجارب، ونمو المعرفة الكيميائية، ونبذ نظرية الفلوجستون، صياغة جديدة، ووضع مصطلحات جديدة، لهذا العلم المتفتح. وعينت أكاديمية العلوم لافوازييه، وجيتون دمورفو، وفوركروا، وبرتولليه، لمحاولة إنجاز هذه المهمة. وفي 1787 نشروا "طريقة لوضع المصطلحات الكيميائية". فنبذت أسماء عتيقة مثل "مسحوق الألباروت"، و"زبد الزرنيخ" و"أزهار الزنك"؛ وسمى الهواء المجرد من الفلوجستون "أوكسجيناً" والهواء المحتوي على الفلوجستون "أزوتاً"، ثم نتروجيناً، والغاز القابل للاشتعال هيدروجيناً، والهواء الثابت غاز حامض الكربون، والتكلس تأكسداً، واشتقت أسماء المركبات من مكوناتها. وعدد جدول للمواد البسيطة اثنين وثلاثين عنصراً معروفاً للافوازييه، ويعد الكيمائيون اليوم من هذه العناصر ثمانية وتسعين. ومعظم الأسماء التي تقرر في كتاب "الطريقة" المذكور قياسية في علم المصطلحات الكيميائية في يومنا هذا. وقدم لافوازييه للمصطلحات الجديدة ولخص العلم الجديد، في "رسالة تمهيدية في الكيمياء" ظهرت عام 1789، وكانت علامة ثورة أخرى-هي نهاية فلوجستون شتال وعناصر أرسطو.

وكان لافوازييه نفسه ضحايا الثورة الفرنسية. فلقد شارك في الجهود المبذولة لتفاديها، وفي الشهور التي أفضت إليها. وفي العهد الذي هباً للثورة عمل بهمة في لجان تدرس عيوب السجون والمستشفيات وتصلحها. وقدم إلى لوران ديفيلدوي المراقب العام (1787) مذكرة عدد فيها تسعة عوامل مسنولة عن استغلال طبقة الفلاحين. وكان في كلامه ما يشرفه تشريفاً خاصاً، لأنه صادر من مالك أرض من أصحاب الملايين. قال :

"فليكن لنا من الشجاعة ما يحملنا على أن نقرر أنه... إلى أن ارتقى لويس السادس عشر العرش لم يكن للشعب أي وزن في فرنسا، ولم يكن هناك اعتبار لغير قوة الدولة، وسلطانها، وثرواتها، أما سعادة الشعب، وأما حرية الفرد ورفاهيته، فتلك الكلمات لم تفرع قط أذان حكامنا الأسبقين، الذين لم يدركوا أن الهدف الحقيقي من الحكومة يجب أن يكون الاستكثار من أسباب الاستمتاع، والسعادة، والرفاهية، لكل رعاياها. إن المزارع

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الكيمياء

المنكود الحظ ين في كوخه، لا يمثله أحد ولا يدافع عنه أحد، ولا تعباً بمصالحه أي إدارة من الإدارات الكبرى في الحكومة القومية(45)".

وقد اختير لافوازييه لتمثيل الطبقة الثالثة العامة في المجلس الإقليمي الذي اجتمع بأورليان في 1787. وهناك تقدم بقانون لإلغاء السخرة ولصيانة الطرق، لا بتشغيل الفلاحين إلزامياً بل بصرائب تفرض على جميع الطبقات، ولكن النبلاء والأكليروس هزموا هذا الاقتراح. ثم أوصى بنظام للتأمين الاجتماعي يساهم فيه من يريد من الفرنسيين تأمين شيخوختهم، فهزم هذا أيضاً. وفي مذكرة وجهها إلى الحكومة عام 1785 وضع المبدأ القائل بأن مجلس طبقات الأمة القادم يجب أن يحول إلى سلطة تشريعية كاملة، فيكون الملك عامله المنفذ فقط، وأنه يجب دعوته للانعقاد بانتظام، وأن

الضرائب يجب أن تفرض على الجميع، وأن تطلق حرية الصحافة والطباعة(46). لقد كان لافوازييه من أكثر أفراد البورجوازية الفرنسية استتارة ما في ذلك شك، ولعل اقتراحاته عبرت عن جزء من استراتيجيتها السياسية. كذلك كان من كبار الأعضاء في هيئة الملتمزين العموميين، التي كانت هدفاً للسطخ من الجميع تقريباً، وبين عامي 1786 و 1786 بلغ متوسط أرباحه من عملية الائتزام هذه 666.667 جنيهاً في العام، وهو ما يساوي نسبة مئوية قدرها 8.28% في السنة، وربما كان محقاً في اعتباره هذا العائد معقولاً نظراً لما تتطلبه العملية من جهد ومخاطر. وعملاً باقتراح منه بنى كبير الوزراء كولون، في 1783-87، سوراً حول باريس لمنع المهربين الذين ينهبون من أداء المكوس، وقد كلف السور والجمارج والبوابات الجديدة ثلاثين مليوناً من الجنيهات، وأثار المشروع سخطاً عاماً، وصرح الدوق دنيفرنوا بأن صاحب فكرته يجب أن يشنق. وأيد لافوازييه الثورة في 1789 وهي ما تزال تحت سيطرة الطبقات الوسطى. وبعد عام شعر بأنها تنزع إلى التطرف، والعنف، والحرب، فناشد القائمين بها الاعتدال وضبط النفس. وفي نوفمبر نشر بعض موظفي الائتزام العام نبذة اتهموا فيها الهيئة باختلاس صندوق معاشاتهم، وقالوا فيها

صفحة رقم : 12393

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الكيمياء

"ارتعدوا يا من مصصتم دم النساء"(47). وفي 1791 بدأ مارا حملة شخصية ضد لافوازييه. فقد كان "صديق الشعب" قد نشر في 1780 "أبحاثاً فيزيائية في النار" زعم فيها أنه أظهر للعيان العنصر الخفي في النار، وأبى لافوازييه أن يأخذ هذا الزعم مأخذ الجد. ولم ينس مارا له فعلته هذه. ففي عدد 27 يناير 1791 من مجلته "صديق الشعب" اتهم مارا الكيميائي -المالي بأنه دجال ضخم الموارد، رجل "سنده الوحيد في المطالبة بتقدير الشعب له أنه حبس باريس بمنعه الهواء النقي عنها بسور كلف الفقراء 33 مليون جنيه. فليته شنق على عمود المصباح"(48). وفي 20 مارس 1791 ألغت الجمعية التأسيسية هيئة الائتزام العام. وجاء دور الهجوم الآن على أكاديمية العلوم، لأن جميع المؤسسات التي تخلفت عن النظام القديم اشتبه في تعاطفها مع أعداء الثورة. ودافع لافوازييه عن الأكاديمية، فأصبح الهدف الأكبر للهجوم. وفي 8 أغسطس صدر الأمر بأن تحل الأكاديمية نفسها. وفي اجتماع لها وقع جدول الورديات فيمن وقع لاجرانج، ولافوازييه، ولالاند، ولامارك، وبرتوليه، ومونج. وانصرف كل منهم إلى حال سبيله مؤملاً ألا تعثر عليه الجيولتين. في هذا الشهر قدم لافوازييه إلى المؤتمر مشروع نظام قومي للمدارس أوحث به إليه أفكار كوندورسيه، ويقضي بأن يكون التعليم الابتدائي مجاناً للجنسين "لأن هذا واجب مفروض على المجتمع نحو الطفل". أما التعليم الثانوي، المباح أيضاً للجنسين، فيوسع بتأسيس الكليات الصناعية في جميع أرجاء فرنسا. وبعد شهر فتش عمال الحكومة مسكنه، وكان بين الخطابات التي وجدت به من أصدقاء لافوازييه خطابات نددت بالثورة، وتحدثت في أمل عن الجيوش الأجنبية التي ستطرح بها سريعاً، وأظهرت خطابات أخرى أن لافوازييه وزوجته يخططان للهروب إلى إسكتلنده(49). وفي 24 نوفمبر 1793 قبض على اثنين وثلاثين من الملتمزين العموميين السابقين، ومن بينهم لافوازييه. وقد حركت زوجته كل نفوذ ليفرج عنه، ففشلت، ولكن سمح لها بزيارته. وفي السجن واصل عمله في شرحه للكيمياء الجديدة. واتهم المليون بأنهم تفاوضوا رباً فاحشاً وغشوا التبغ بالماء، وابتزوا 130 مليون جنيه في أرباح غير مشروعة.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الكيمياء

وفي 5 مايو 1794 استدعوا للمثول أمام محكمة الثورة. وبرئ ثمانية منهم، وحكم على أربعة وعشرين بالإعدام، ومنهم لافوازييه. فلما طلب إلى القاضي الذي رأس المحكمة أن يخفف الحكم على أساس أن لافوازييه وبعض الآخرين علماء ذوو قيمة للدولة، كان رده فيما روى "ليس بالجمهورية حاجة إلى علماء" ولكن الرواية لا تستند إلى دليل مقنع (50). وأعدم لافوازييه بالجلوتين في اليوم الذي صدر فيه الحكم، 8 مايو 1794، في المكان الذي يقوم فيه اليوم ميدان الكونكورد. ويقال أن لاجرانج علق على إعدامه بهذه العبارة "إن قطع رأسه لم يستغرق أكثر من لحظة، وقد لا تكفي مائة عام لنوّه رأساً نظيره" (51).

وصودرت كل أموال لافوازييه وأرملته لتساعد في الوفاء للجمهورية بمبلغ 130 مليوناً من الجنيهات ادعى أن الملتزمين العموميين مدينون به للدولة. أما مدام لافوازييه، المملقة، فقد عالها خادم قديم للأسرة. وفي 1795 استتكرت الحكومة الفرنسية إدانة لافوازييه، وردت إلى أرملته ثروتها، وقد عمرت حتى عام 1836. وفي أكتوبر 1795 أقامت ليسيه الآداب والفنون جنازاً لذكرى لافوازييه، وألقى فيه لاجرانج تائبيناً. وأزيح الستار عن تمثال نصفي يحمل هذه العبارة: "إن ضحية الطغيان، وصديق الآداب والفنون المجل، لم يمت، ولم يزل يخدم الإنسانية بعبقريته" (52).

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الفلك

## 5- الفلك

## أ - مقدمة في الأدوات الفلكية

إلى أي حد أثارت كشوف الرياضيات والفيزياء والكيمياء قبة السماء؟ إن أجرأ ما اقتحم العلم من مغامرات محاولته أن يقذف بأدوات قياسية حول النجوم ويتجسس بالليل على أولئك الحسان المتألقات في كبد السماء، ويحلل مكوناتهن عبر بليون من الأميال، ويحدد حركاتهن بمنطق البشر وقوانينهم. إن العقل والسموات هما قطبا دهشتنا ودراستنا، والعجب العجائب أن يشرع العقل القوانين للقبة الزرقاء.

كانت الأدوات المقربة للأبعاد قد اخترعت، والاكتشافات الكبرى قد تمت؛ فاضطلع القرن الثامن عشر بتحسين هذه الأدوات (جراهام، وهادلي، ودولاند)، وبالتوسع في تلك الكشوف (برادلي وهرشل)



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

وبتطبيق أحدث الرياضيات على النجوم (دالامبير وكليرو)، وبترتيب النتائج في نسق جديد من الديناميكا الكونية (لابلاس).

وقد حسن التلسكوب وزيد حجمه. وصنعت "التلسكوبات الاستوائية" التي تدور حول محورين -أحدهما مواز لمستوى محور الأرض، والآخر عمودي عليه، واختيار هذين العمودين مكن الراصد من أن يبقي الجرم السماوي تحت بصره زمناً يكفي للدراسة المفصلة والقياس المكر ومترى. وقد ثنى نيوتن عن استعمال التلسكوب الإنكساري اعتقاده بأن الضوء إذ تكسره العدسات لا بد أن يتحلل ألواناً فيثوش الرصد، وينس من مشكلة إيجاد انكسار خال من الألوان، واتجه إلى التلسكوب العاكس. وفي 1733 قام هاو يدعى السيد تشستر مور هول بحل المشكلة، إذ جمع عدسات ذات وسائط عاكسة مختلفة تبطل تنوع اللون. ولم ينشر كشفه، وكان على جون دوبلاند أن يتوصل بجهد الخاص إلى مبادئ التلسكوب الأكرماتي وتركيبه، وقد أعلن عن كشفه هذا في "الأعمال الفلسفية لجمعية لندن الملكية" في 1758.

وفي 1725 صنع جورج جراهام، الساعاتي الكويكري، لدموند هالي في مرصد جرينتش آلة ربع جدارية - هي عبارة عن ربع دائرة ميكانيكي مقسم إلى درجات ودقائق ومثبت على جدار ليلنقط مرور نجم عبر الزوال. وصنع جراهام لهالي، وجيمس برادلي، وبيير لمونيه، أدوات التسجيل هذا المرور تجمع بين التلسكوب، والمحور، والساعة، والكرونوجراف، لتسجيل هذا المرور بدقة أعظم من ذي قبل. وفي 1730، وصف توماس جودفري، عضو جماعة فرانكلن الفكرية في فيلادولفيا، لأصدقائه آلة لقياس الزوايا والارتفاعات بالانعكاس المزدوج خلال مرآيا متقابلة ترى في تلسكوب، ولكنه لم ينشر عن هذه الآلة حتى عام 1734. وفي 1730 صنع جون هادلي آلة مشابهة لها، وهي آلة الثمن - أي قوس مدرج من ثمن دائرة. وفي 1757 وسعت إلى السدس. وقد أتاحت "آلة السدس" هذه التي صنعها قياساً أضبط للزاوية التي تفصل بين جسمين، لأنها مكنت الملاح من أن يرى في وقت واحد، في التلسكوب

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

العاكس، كلا من الأفق والشمس (أو النجم). ويفضل هذه الآلة، مضافاً إليها كرونومتر هاريسون البحري، أصبحت الملاحه علماً أقرب ما يكون إلى العلوم الدقيقة.

وكان على الملاح أن يحدد خط الطول والعرض إن أراد تحديد موقع سفينته في البحر. ولكي يعين خط الطول كان عليه أن يعين زمنه في المكان واللحظة بالرصد الفلكي، ويقارن بين هذا الزمن المحلي وبين ساعة ضبطت لتحتفظ بزمن قياسي (جرينيتش) أينما كانت الساعة. وكانت المشكلة هي صنع كرونومتر لا يتأثر بتغيرات درجة الحرارة أو

حركات السفينة. وفي 1714 أعلنت الحكومة البريطانية عن جائزة قدرها عشرون ألف جنيه لمن يبتكر طريقة لإيجاد خط الطول في حدود نصف درجة. وعرض ساعاتي من يوركشير يدعى جون هاريسون على جورج جراهام (1728) تصميمات لكرنومتر بحري، وأقرضه جراهام المال لصنعه، وقد اكتمل صنعه في 1735، واستعمل ميزانين ضخمين متقابلين بدلاً من البندول، وعادلت حركة السفينة أربعة زنبركات موازين، تتحرك ضد بعضها البعض؛ وأمكن إبطال مفعول التغيرات في درجة الحرارة بعدة قضبان مصنوعة من النحاس والصلب، تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة، وموصلة بالزنبركات. وأوفد "مجلس خطوط الطول" هاريسون بكرنومتره في رحلة إلى لشبونة لاختباره، وشجعت النتائج المجلس على توفير المال لتحسين ثان، وثالث، ورابع. وقد جرب هذا الكرونومتر الرابع، الذي لم يزد عرضه على خمس بوصات، في رحلة إلى جزر الهند الغربية (1759)؛ ولم تؤخر الساعة في تلك الرحلة أكثر من خمس ثوان بالإضافة إلى تأخيرها العادي المحسوب سلفاً (حين تكون ثابتة على البر) ومقداره ثمانون ثانية في كل ثلاثين يوماً. وبعد نزاعات حصل هاريسون على جائزة العشرين ألف جنيه كاملة. وبفضل هذه الآلة وغيرها من الآلات البحرية تهيأت البحرية البريطانية الآن (في ذروة حرب السنين السبع 1756-63) للسيطرة على البحار.

## ب - النظرية الفلكية

تبارى البريطانيون والفرنسيون مباراة حامية في دراسة الفلك، ولم يكن

صفحة رقم : 12398

## قصة الحضارة - < عصر فولتير - < تقدم العلم - < التقدم العلمي - < الفلك

الفلك بالعلم البعيد أو "البحث" بالنسبة لهم، فقد دخل في الصراع على سيادة البحار، ومن ثم على كل عالم المستعمرات والتجارة. وأسهمت في المباراة ألمانيا وروسيا بفضل أويلر، وإيطاليا بفضل بوسكوفش دون أن تحظيا بنصيب في المغامر.

وأعان أويلر، وكليرو، ودالامبير، الملاحة بدراساتهم للقمر، وجدولوا تغيرات موقعه وأوجهه بالنسبة للشمس والأرض، وتأثيره على المد والجزر. ومن سجلات أويلر وضع يوهان طوبياس ماير في جامعة جوتنجن جداول قمرية أتته بمنحة من مجلس خطوط الطول البريطاني. وفي 1738 أعلنت أكاديمية باريس للعلوم عن جائزة لمن يتوصل إلى نظرية في المد والجزر. ومنحت جوائز لأربعة مؤلفين: دانيال برتوللي، وأويلر، وكولن ماكلورن، وأ. كافاليري. وقد بنوا جميعهم -إلا الأخير- تعليقاتهم على تحليل نيوتن، وأضافوا دوران الأرض إلى جاذبية الشمس والقمر عاملاً في إحداث المد والجزر. ودعت الأكاديمية في مناسبات عديدة المؤلفين لتقديم مقالات عن حركات الكواكب -عن انحرافات الحقيقية ومقال أويلر في 1756.

وشرف روجييرو جوزيبي بوسكوفش طائفته اليسوعية بكشوف منيرة في الفلك والفيزياء. وقد ولد في راجوزا، وتتلّمذ للرهينة بروما وهو في الرابعة عشرة، وأدهش معلميه في "الكلية الرومانية" بنوعه المبكر في العلم، وعين أستاذاً لكرسي الرياضة هناك في التاسعة والعشرين. ومن ذلك التاريخ أصدر ستة وستين مؤلفاً، وشارك في تحديد المدار العام للمذنبات وقدم أول حل هندسي لإيجاد مدار الكوكب وأستوائه. وفي رسالة عن "انقسام المادة" (1748) شرح رأيه في المادة، وهو أنها مكونة من نقط أو مجالات قوة، كل منها مركز يتبادل عليه الصد والجذب - وهي نظرية

تذكرنا بمونادات لينتز وتسبق إلى تصوير نظريات عصرنا الذرية. ونظم اليسوعي المتعدد المواهب مشروعات عملية-كمسح الولايات البابوية وعمل خرائط لها، وبناء سدود على البحيرات التي هددت بإغراق لوكا، ووضع

صفحة رقم : 12399

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

خطط لصرف المستنقعات البوننية، والمساعدة في تصميم مرصد بريرا في ميلان. وبفضل إلحاحه ألغي البابا بندكت الرابع عشر في 1757 الأمر الذي أصدرته لجنة الفهرس (للتحريمات) على النظام الكوبرنيقي. وقد أختير عضواً في أكاديمية باريس للعلوم وجمعية لندن الملكية. وفي 1761-62 استقبل بمظاهر التكريم في فرنسا، وإنجلترا، وبولندا، وتركيا. وفي 1772 قبل وظيفة مدير البصريات في البحرية الفرنسية التي عينه فيها لويس الخامس عشر. ثم عاد إلى إيطاليا في 1783، ومات بميلان في 1787 وهو في السادسة والسبعين، وخلف عدة مجلدات من الشعر. أما ألمع نجم بين الفلكيين البريطانيين في النصف الأول من القرن الثامن عشر فهو جيمس برادلي. وكان خاله، جيمس باوند، القسيس بوانستد في إسكس، فلكياً هاوياً يمتلك مرصداً خاصاً، تعلم فيه الصبي أن للنجوم علماً كما أن لها فلسفة جمالية. وبعد أن نال بادلي درجة الأستاذية من أكسفورد عجل بالعودة إلى وانستد، وقام بأرصاد مبتكرة، وأبلغها إلى الجمعية الملكية، وانتخب عضواً بها وهو في السادسة والعشرين (1718). وبعد ثلاث سنوات أصبح أستاذاً "سافيليا" للفلك في أكسفورد. فلما مات هالي العظيم في 1742، عين برادلي خلفاً له في جرينتش فلكياً للملك. وظل يشغل هذه الوظيفة حتى مماته (1762).

وكان أول مشروعاته الكبرى تحديد "اختلاف المرأى" السنوي للنجم -أي الفرق في اتجاهه الظاهري كما يرى (1) من نقطة على سطح الأرض، (2) من نقطة وهمية في مركز الشمس. فإذا كانت الأرض تدور في فلكها حول الشمس كما افترض كوبرينق، فلا بد من وجود هذا الفرق، ولكن أحداً لم يبرهن على وجود أي فرق، فلو أمكن البرهنة عليه لعزز ذلك نظرية كوبرينق. وكان روبرت هوك، المغامر في كل ميدان، قد حاول (1669) أن يبين هذا الاختلاف في مرأى النجم جما دراكونيس، ولكنه أخفق. وأستأنف المحاولة هاو ثري يدعى صموئيل مولينو عام 1725 في كيو، وانضم إليه برادلي هناك، وأسفرت النتائج التي تمخضت عنها محاولتهما عن تأييد جزئي فقط لنظرية كوبرينق. وعاد برادلي إلى وانستد،

صفحة رقم : 12400

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

وكلف جورج جراهام بأن يصنع له تلسكوب "قطاع أوج" يمكنه من رصد مائتي نجم، لا نجم واحد، في عبورها الزوال. وبعد أن أنفق برادلي ثلاثة عشر شهراً في الرصد والحساب، تمكن من أن يبرهن على دورة سنوية من

الانحرافات المتجهة بالتناوب للجنوب والشمال في المواقع الظاهري للنجم، وفسر هذا التناوب بأنه راجع إلى حركة الأرض في مدارها. وفسر كشف "انحراف الضوء" (1729) مئات من المشاهدين والانحرافات التي كانت محيرة إلى ذلك الحين، وقد فرقت تقريباً ثورياً الموقع المرصود والموقع "الحقيقي" أو المحسوب لأي نجم، واتفقت اتفاقاً حسناً مع كوبرنيق، لأنها اعتمدت على دوران الأرض حول الشمس. وبلغ من تأثيرها المنير على الفلك أن فلكياً- مؤرخاً فرنسياً يدعى جوزف دلامير، اقترح أن يسلك برادلي في صف كيلر، لا بل في صف هيبارخوس ذاته (53). وانتقل برادلي إلى كشفه الكبير الثاني-وهو ميل mutation ومعناها الحرفي إيماء-محور دوران الأرض كتذبذب النحلة المحوري. فالنجوم التي وصفت حركاتها الظاهرية بأنها تقوم بدورة سنوية نظراً إلى دوران الأرض حول الشمس، لا تعود- في مشاهدات برادلي- بعد سنة إلى نفس المواقع الظاهرية السابقة. وخطر له أن الفرق ربما نشأ عن ميل محور الأرض بسبب تغيرات دورية في العلاقة بين مدار القمر حول الأرض ومدار الأرض حول الشمس. فدرس هذه التغيرات طوال تسعة عشر عاماً (1728-47)، وفي نهاية العام التاسع عشر وجد أن النجوم عادت بالضبط إلى نفس المواقع الظاهرية التي كانت لها عند بدء العام الأول "وتأكد الآن أن ميل محور الأرض ناشئ عن الحركة الفلكية للقمر، وتأثيره على الأجزاء الاستوائية من الأرض. وكان تقريره عن هذه الكشوف حدثاً مثيراً في أعمال الجمعية الملكية لعام 1748. أن للصبر كما للحرب- أبطاله. وخلال اشتعال برادلي فلكياً للملك، استسلمت بريطانيا لجراحة مؤلمة: فبعد 170 عاماً من المقاومة قبلت التقويم الجريجوري، ولكنها سمته في عناد التقويم المصلح وأمر قانون برلماني (1750)، بأن تحذف الأحد عشر

صفحة رقم : 12401

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

يوماً التالية لليوم التالي من سبتمبر 1752 من "نظام التقويم الجديد" وأن يسمى يوم 3 سبتمبر يوم 14 سبتمبر، وألا تبدأ السنة القضائية بعد ذلك في 25 مارس بل في أول يناير. وقد سبب هذا تعقيدات في المعاملات التجارية والعطلات الكنسية، وأثار هذا احتجاجات كثيرة، وتصايح البريطانيون الغاضبون قائلين "ردوا إلينا أيامنا الأحد عشر!" (54) - ولكن العلم انتصر في النهاية على مسك الدفاتر وعلى اللاهوت.

ج- هرشل

بلغ الفلك الإنجليزي قمته حين أضاف وليم هرشل الكوكب أورانوس إلى قائمة الكواكب وهجر عمله موسيقياً. وكان أبوه موسيقياً في الجيش الهانوفري، واتخذ الصبي المولود في 1738، والذي سمي فريدرش فلهم، مهنة أبيه، وعمل موسيقياً في أول حملة في حرب السنين السبع، ولكن صحته كانت رقيقة فسرحه الجيش (ومع ذلك عمر إلى الرابعة والثمانين). وفي 1757 أرسل إلى إنجلترا ليلتمس رزقه في الموسيقى. وفي باث التي نافست آنذاك لندن مركزاً للمجتمع الراقي، ارتقى من عازف على الأوبرا، إلى قائد فرقة، إلى عازف على الأرغن في "الكنيسة الثمينة". وكان يؤلف الموسيقى، ويعلمها، ويعطي أحياناً خمسة وثلاثين درساً في الأسبوع. وفي الليل يروح عن نفسه بدراسة حساب التفاضل، ومنه انتقل إلى البصريات، وأخيراً إلى الفلك. واستقدم من ألمانيا أخاه ياكوب، وفي 1772 أخته كارولين، التي أدارت بيتهما، وتعلمت أن تمسك السجلات الفلكية، وأخيراً أصبحت فلكية بجهدها هي دون اعتماد على أحد.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الفلك

وكان هرشل يضطرم شوقاً إلى وضع الخرائط للسماء، فصنع تلسكوبه الخاص بمعاونة أخيه. وشحذ العدسات وصقلها بنفسه، وذات مرة واصل هذه العملية بلا انقطاع ست عشرة ساعة، وكارولين تطعمه وهو يشتغل، أو تخفف من سأمه بأن تقرأ له من سرفانتس، أو فيلدنج، أو ستيرن. وكان هذا الأول في عدة تلسكوبات صنعها هرشل بيده أو تحت إشرافه. وفي 1774، حين بلغ السادسة والثلاثين، أجرى أول أرصاده، ولكنه ظل سنين كثيرة لا يستطيع أن يعطي الفلك من وقته إلا يسمح به عمله موسيقياً. وقد درس كل جزء من أجزاء السماء أربع مرات. وفي الجولة الثانية من هذه الجولات، في 14 مارس 1781، كشف كشفه الخطير الذي بخس قدره بخساً شديداً. قال:

رأيت وأنا أفحص النجوم الصغيرة القريبة من هـ. جمينورم أنجما ظهر بوضوح أنه أكبر من غيره. وإذا أدهشني مظهره غير العادي، فقد قارنت بينه وبين هـ. جمينورم والنجم الصغير الذي في الزاوية القائمة بين أوريجا وجميني، وإذا وجدته أكبر كثيراً من كل منهما، فقد اشتبهت في كونه مذنباً" (55).

ولم يكن النجم مذنباً؛ وقد ظهر الفحص المتصل أنه يدور حول الشمس في فلك يكاد يكون دائرياً، يكبر تسع عشرة مرة عن فلك الأرض، ومرتين عن فلك زحل، لقد كان كوكباً جديداً، وأول الكواكب التي ميزت على هذا النحو في سجلات الفلك المدونة. وهلل العالم المثقف بأسره للكشف الذي ضاعف قطر المجموعة الشمسية عما عرف من قبل. وكافأت الجمعية الملكية هرشل بزمالتها وبمدالية كويلي، وأقنعه جورج الثالث بأن يترك عمله موسيقياً ويصبح فلكياً للملك. وأطلق هرشل على الكوكب الجديد اسم جورجيوم سيدس (نجم الجورجيين)، ولكن الفلكيين اتفقوا بعد ذلك على تسمية "أورانوس"، فانتزعه بذلك من الملوك الهانوفرين وأسلموه لآلهة الوثنيين كما فعلوا بكل أخوته تقريباً.

وفي 1781 انتقل وليم كارولين إلى سلاو، وهي مدينة لطيفة على الطريق من لندن إلى وندسور. ولم يكف راتبه المتواضع البالغ مائتي جنيه

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الفلك

في السنة حاجاته هو وأخته وأدواته، فأكملة بصنع التلسكوبات وبيعهها. وزاد من حجم ما صنعه منها لنفسه، حتى بلغ طول أحدها الذي صنعه في 1785 أربعين قدماً، بمرأة قطرهما أربعة أقدام وقد كتبت في بيرني، ابنة الموسيقي المؤرخ التي نقلها عنها كثيراً، في يوميتها بتاريخ 30 ديسمبر 1786:

هذا الصباح حملني أبي (بمعنى أركبها عربته، فقد كانت إذ ذاك في السادسة والثلاثين) إلى الدكتور هرشل واستقبلنا هذا الرجل العظيم الغريب الأطوار جداً بحفاوة بالغة... وبدعوة من المستر هرشل قمت بجولة داخل تلسكوبه! وقد احتواني هذا التلسكوب مستقيمة العود دون أدنى مضايقة؛ وكذلك كان يحتويني لو كنت ألبس ريشتي وطوقي - فمحيطه كبير إلى هذا الحد(56).

وفي 1787 اكتشف هرشل قمرين لأورانوس سماهما أوبرون وتيتانيا؛ وفي 1789 وجد قمر زحل (ساتورن) السادس والسابع. وفي 1788 تزوج بأرملة غنية؛ فلم يعد هناك ما يقلقه من جهة المال، ولكنه واصل أبحاثه بحماسة لم تقتر، وألف أن يعمل طوال الليالي التي تطلع فيها النجوم ولا يحجب ضوءها قمر زاه. وكان يجري أكثر أرصاده في الهواء الطلق من رصيف يصل إليه بسلم متنقل ارتفاعه خمسون قدماً. وكان البرد يشتد أحياناً حتى يتجمد الحبر في الزجاج التي تأخذها كارولين معها لتسجل كشوفه.

وبعد أن واصل هرشل بأسلوب أكثر نظاماً وتيلسكوبات أفضل صنعاً عمل شارل مسييه ونيكولا دلاسي في تحديد مواقع السدم وعناقيد النجوم وعمل قوائم لها، قدم إلى الجمعية الملكية (1782-1802) قوائم حوت 2.500 سديم وعنقود، و848 نجماً مزدوجاً. ومن هذه النجوم الأخيرة كان هو نفسه قد اكتشف 227 نجماً. وألمع إلى أنها قد تكون ازدوجت في جذب ودوران متبادلين- وهذا تطبيق منير لنظرية نيوتن على العلاقات بين النجوم. وفي كثير من الحالات تبين أن ما بدا كأنه نجم واحد إنما هو في الحقيقة عنقود من نجوم منفردة، وتبين أن بعض هذه العناقيد- حين رؤيت في التلسكوبات الكبيرة- هي نجوم قائمة بذاتها على مسافات من

صفحة رقم : 12404

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

الأرض مختلفة أشد الاختلاف. وتحول "درب التبانة" في التكبير الجديد من سحابة من المادة المتأججة، إلى تجمع وتتابع هائلين من نجوم نيرة مفردة. وتبددت السماء الآن مكتظة بالنجوم قطرات الماء في المطر، بعد أن كانت تبيدو مرصعة بها فقط، وبينما لم تر العين المجردة غلا نجوماً من الدرجة الأولى إلى السادسة في كبر الحجم، كشفت تلسكوبات هرشل عن مزيد من النجوم أضعف ضوءاً 1,342 مرة من ألمعها. لقد بسط هرشل كما بسط جاليليو من قبل رقعة الكون المعروفة بسطاً هائلاً. وإذا كان بسكال قد غشيت الرعدة أمام "الانهائية" السماوات المعروفة في زمانه، فماذا يكون شعوره أمام أعماق وراء أعماق لا آخر لها من نجوم لا تحصى، قدر هرشل بعد بعضها عن الأرض بنحو 11.750.000.000.000.000.000 ميل؟ (75) وكان كثير من النجوم شمساً لها كواكب تدور حولها. أما شمسنا وما يدور حولها من كواكب وأقمار، فقد هبطت بجملتها إلى مقام الذرة في عالم من الضوء.

وكان من أذكي إلماعات هرشل ما اتصل بحركة مجموعتنا الشمسية في الفضاء، فقد دلت المشاهدات السابقة على أن بعض النجوم المتصلة قد زادت أو نقصت، في الزمن المدون، من تباعدها عن بعضها البعض. فتساءل هرشل: ألا يجوز أن يكون مرجع هذا الاختلاف تحرك المجموعة الشمسية بعيداً عن النجوم الملتقية - أو صوب النجوم المفترقة، كما يبدو مصباحان على جنبيين متقابلين من الطريق ملتقيين أو مفترقين حين نبتعد أو تقترب منهما؟ وقد خلص إلى المجموعة الشمسية، بجملتها، تتحرك مبتعدة عن بعض النجوم، مقتربة من نجم في برج هرقل. ونشر فرضه هذا في 1783، ويعد شهر أذاع بيير بريفوست نظرية مشابهة. وكان فريقاً الفلكيين الإنجليز والفرنسيين يعملان في تنافس غير واثق وثيق.

وصف معاصر هرشل في عامه الثاني والثمانين فقال "شيخ جليل، بسيط، طيب، وبساطته، ولطفه، ونوادره، واستعداده لشرح مفاهيمه الرفيعة للكون، كلها جذابة إلى حد لا يوصف (58). وفي جهوده كلها شاركت كارولين في إخلاص رائع في أي رواية خيالية. فلم نكتف

صفحة رقم : 12405

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

بتسجيل أرصاده بدقة وإجراء الحسابات الرياضية المعقدة لترشده، بل اكتشفت بنفسها ثلاثة سدم وثمانية مذنبات. وبعد موت وليم (1822) عادت لتعيش مع أقرانها في هانوفر؛ وهناك وصلت دراساتها وأعدت مزيداً من القوائم بكشوف أخيها. وفي 1828 نالت الميدالية الذهبية للجمعية الفلكية، وفي 1846 نالت ميدالية من ملك بروسيا. وماتت عام 1848 وقد بلغت الثامنة والتسعين.

## د - بعض الفلكيين الفرنسيين

تجمعت حول مرصد باريس (الذي اكتمل بناؤه عام 1671) كوكبه من الراصدين، ألفت فيهم أسرة كاسيني، خلال أجيال أربعة، برجاً من الأنجم التي يتلو بعضها بعضاً. فكان جوفاني دومنيكو كاسيني مديراً للمرصد من 1671 إلى 1712. وبعد موته خلفه في إدارة المرصد ابنه جاك، الذي خلفه (1756) ابنه سيزار فرنسوا كاسيني دتوري، الذي خلفه هو الآخر (1784) ابنه جاك دومنيك، الذي مات بلقب كونت كاسيني في 1845 بعد أن عمر إلى السابعة والثمانين. هنا أسرة جديرة بأن يقرن اسمها باسمي أسرتي برنوللي وباخ.

أما جان لورون دالامبير فكان بغير أسرة، لا قبل مولده ولا بعده، ولكنه جمع العلوم من حوله كما يجمع الإنسان أطفاله. وقد طبق رياضته على الفلك، ففطن نظرية نيوتن في "استقبال" الاعتدالين، وفرض برادلي في الميل المحوري للأرض: يقول لابلاس "إن اكتشاف هذه النتائج كان في زمن نيوتن ممتعاً على التحليل والميكانيكا... وقد أرجئ شرف القيام بهذه المهمة دالامبير. فيعد عام ونصف من المؤلف الذي قدم فيه برادلي كشفه، قدم لدالامبير رسالته "أبحاث في استقبال الاعتدالين (1749)، وهي عمل رائع في تاريخ ميكانيكا ودنياميكا الأجرام السماوية، روعة عمل برادلي في حوليات الفلك (59)".

وقد لوئت سجل دالامبير لطفة، هي أنه لم يغتبط بما أدركه منافسوه من نجاح-ومن منا قد سما به خلقه إلى الابتهاج المقدس؟ واشتدت

صفحة رقم : 12406

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

حماسته في نقد عمل ألكسيس كليرو. وألكسيس هذا عرف حساب التفاضل المتناهي الصغر. وهو يعد في العاشرة؛ وحين بلغ الثانية عشرة قدم أول أبحاثه لأكاديمية العلوم: وفي الثامنة عشرة نشر كتاباً حوى الإضافات الهامة للهندسة ما حمل الأكاديمية على اختياره عضواً ملحقاً بها (1731) في سن يصغر ست سنوات عما يبلغه دالامبير عند نيله هذا الشرف ذاته عام 1741. وكان كليرو واحداً من العلماء الذين اختيروا لمراقبة موبرتوي في البعثة الموفدة إلى لابلاند (1736) لقياس قوس من أقواس الزوال. فلما عاد قدم إلى الأكاديمية مذكرات في الهندسة، والجبر، والقطاعات

المخروطية، وحساب التفاضل. وفي 1743 نشر نظرية في شكل الأرض حسبتم بمقتضى "نظرية كليرو"، وبأدق مما حسب نيوتن وماكلورن، ذلك الشكل الذي يتخذه ميكانيكاً جسم دائر على محوره من الجاذبية الطبيعية لجرائه. وقد اتصل بمدام "دشاتليه بفضل اهتمامه بنيوتن، فأعاناها على ترجمتها لأصول نيوتن، وشارك فولتير شرف تحويل العلماء الفرنسيين من دوامات ديكرات إلى جاذبية نيوتن.

وفي 1736-49 عكف أويلر، وكليرو، ودالامبير، مستقلين بعضهم عن بعض على إيجاد أوج القمر، أي أقصى حد في البعد بينه وبين الأرض بطرق التفاضل الجديدة-نشر أويلر وكليرو نفس النتائج تقريباً، وتلاههما دالامبير بحساب أدق حتى من حسابهما. وفاز كليرو بجائزة قدمتها أكاديمية سانت بطرسبورج لتصوير حركة القمر، وكان قد نشر النتائج التي خلص إليها في كتابه "نظرية القمر" (1752) ثم طبق رياضته على حركات الأرض الناشئة عن الزهرة والقمر؛ ومن هذه الاختلافات قدر أن كتلة الزهرة 66.7% وكتلة القمر 1.49% من كتلة الأرض، وتقدير اتنا الحالية هي 81.5% و1.82%.

وفي 1757 بدأ فلكيو أوربا في ترقب عودة المذنب التي تتبأ بها هالي ولكي يرشد كليرو اضطلع بحساب الانقلابات التي كانت تطرأ على المذنب في مروره بزحل والمشتري. فحسب أن هذه الانقلابات وغيرها عطلته 618 يوماً، وأشار على أكاديمية العلوم بأن المذنب سيكون في الحضيض

صفحة رقم : 12407

قصة الحضارة - عصر فولتير - تقدم العلم - التقدم العلمي - الفلك

(أقرب نقطة للشمس) حوالي 13 أبريل 1759. وتبينه راصد هاو في عيد الميلاد 1758، ومر بالحضيض في 12 مارس 1759، قبل الموعد الذي حسبه كليرو بثلاثين وثلاثين يوماً. ولكن حتى مع هذا الفارق فإن الحدث كان انتصاراً للعلم ولطمة عابرة للخرافة وقدم كليرو دراسته عن موضوع في "نظرية حركة المذنبات" (1760) وقد جعلته انتصاراته وعظم جاذبيته الشخصية، مطمئناً تتنافس عليه الصالونات. وكان كثير الاختلافات إليها، ومات في الثانية والخمسين (1765) "ولم يستحق عالم فرنسي في هذا العهد صيئاً أبعد من صيئته" (60).

وكان غير هؤلاء كثيرون ممن يجدر بالتاريخ أن يخلدهم، وإن كان سردهم جميعاً يفسد قصتنا. نذكر منهم جوزف دليل، الذي درس بقع الشمس وهالتها، وأنشأ مرصد سانت بطرسبورج؛... ونيكولا دوسيل، الذي ذهب إلى رأس الرجاء الصالح موفداً من أكاديمية العلوم، وأنفق عشر سنين (1750-60) يرسم الخرائط للأجواء الجنوبية، وقد مات في التاسعة والأربعين، وبيير لمونيه، الذي صاحب مويرتوي إلى لاباند وهو في الحادية والعشرين، وأجرى دراسات على القمر طوال خمسين عاماً، وحل حركات المشتري وزحل، ورصد وسجل أورانوس (1768-69) قبل أن يكشف هرشل أنه كوكب بسنين طويلة (1781)، وجوزف دلانند، الذي مسح كتابه "رسالة في الفلك" كل فرع من فروع هذا العلم، والذي قام بتدريسه في الكوليج دفرانس ستة وأربعين عاماً، وأنشأ في 1802 جائزة لالاند، التي ما زالت تمنح سنوياً لأفضل بحث في الفلك، وجان باتيست دلامير، الذي عين مدار أورانوس، وخلف لالاند في "الكوليج"، وأضاف عرض لالاند العالمي تاريخاً للفلك في ست مجلدات بذل فيها كل جهد وعناية (1817-27).

هـ - لابلاس

ولد (1749) باسم بيير سيمون لابلاس، لأسرة من الطبقة الوسطى في نورمانديا، ثم أصبح المركز بيير سيمون لابلاس، وحقق أول فوز له



## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الفلك

بمقالته اللاهوتية الورعة في المدرسة، وغدا أشد الملحدون إمعاناً في إحادهم في فرنسا النابوليونية. أوفد إلى باريس في الثامنة عشرة من عمره ومعه خطاب تعريف إلى دلامبير. ورفض دلامبير لقاءه، فقد كان يلتقي الكثير من أمثال هذا الخطاب ولا يعاب بما حوت من مديح، ولكن لابلاس الذي لم تقل عزيمته أرسل إليه خطاباً في المبادئ العامة للميكانيكا. ورد عليه دلامبير قائلاً "سيدي، أنت ترى أنني لم أعبأ كثيراً بالتوصيات. ولكنه لا حاجة لك بتوصية. فقد عرفتنى بنفسك تعريفاً أفضل، هذا يكفيني. ومن حقك أن أساعدك" (61). وما لبث لابلاس، بفضل نفوذ دلامبير، أن عين مدرساً للرياضة في المدرسة الحربية. وقد حلل حبه المشبوب للرياضة في خطاب وجهه بعد ذلك إلى دلامبير، قال:

"لقد عكفت على الرياضة مدفوعاً دائماً بميلتي لا بالرغبة في شهرة باطلة. وأعظم تسليية لي أن أدرس موكب المخترعين، وأرى عبقريتهم تصارع العقبات التي صادفوها وذلكلها. ثم أضع نفسي مكانهم وأسلها كيف كنت فاعلاً للتغلب على هذه العقبات ذاتها؛ ومع أن هذا البذل كان في الكثير الأغلب من الحالات مذلاً لأنانيتي، فإن لذة الابتهاج بنجاحهم عوضتني عوضاً وافراً عن هذا الإذلال القليل. وإذا أتيت لي من الحظ ما أضيف به شيئاً لأعمامهم، فإنني أعزو الفضل لجهودهم الأولى" (62).

ونحن نلمس شيئاً من الكبرياء في هذا التواضع الواعي. على أية حال كان طموح لابلاس أبعد الأشياء عن التواضع، لأنه اضطلع باختزال الكون كله إلى نسق رياضي واحد، بتطبيق نظرية الجاذبية النيوتينية على جميع الأجرام والظواهر السماوية. لقد ترك نيوتن الكون في وضع قلق؛ فظن أنه عرضة لشذوذات تتصاعد أحياناً، بحيث يلزم أن يتدخل الله من حين إلى حين ليقومه من جديد. ولم يقتنع كثير من العلماء مثل أويلر بأن العالم جهاز آلي، ولكن لابلاس أراد أن يثبت هذا ميكانيكياً.

وبدأ (1773) بمقال بين أن الاختلافات في متوسط أبعاد كل كوكب من الشمس تخضع لصياغة رياضية مضبوطة، تقريباً، فهي إذن دورية

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; الفلك

وميكانيكية، واختارته أكاديمية العلوم بفضل هذا المقال عضواً ملحقاً بها وهو بعد في الرابعة والعشرين. ومن ذلك التاريخ كرس لابلاس حياته، بوحدة وتوجيه وإصرار في الهدف، لاختزال عمليات الكون واحدة تلو الأخرى إلى معادلات رياضية. كتب يقول "إن كل تأثيرات الطبيعة ليست سوى نتائج رياضية لعدد قليل من القوانين الثابتة" (63). ومع أن أعماله الكبرى لم تنتشر إلا بعد الثورة، فإن إعدادها لها بدأ قبل ذلك بكثير. وكان كتابه "عرض لنظام العالم" (1796) مقدمة مبسطة غير ميكانيكية لأرائه، تتسم بأسلوبها الصافي المتدفق، وتجسد نظريته الشهيرة (التي سبقه إليها كانت في 1755) عن أصل المجموعة الشمسية. وكان هدف لابلاس أن يفسر دوران الكواكب حول محاورها وحول الشمس، ودوران أقمارها، بافتراض وجود سديم أزلي من الغازات الحارة، أو غيرها من الذرات الدقيقة، يغلف

الشمس ويمتد إلى آخر أطراف المجموعة الشمسية. وقد برد هذا السديم الدائر مع الشمس شيئاً فشيئاً، وانكمش مكوناً حلقات ربما كانت شبيهة بالحلقات التي ترى الآن حول زحل. فلما ازدادت البرودة والانكماش تكاثفت هذه الحلقات فكونت كواكب، وبمثل هذه الطريقة كونت الكواكب أقمارها؛ ولعل تكاثفاً شبيهاً بهذا السدم كون النجوم. وافترض لابلاس أن جميع الكواكب والأقمار تدور في نفس الاتجاه، وفي نفس المستوى عملياً، ولم يعرف وقتها أن أقمار أورانوس تتحرك في اتجاه مضاد. وهذه "النظرية السديمية" مرفوضة الآن كتفسير للمجموعة الشمسية، ولكنها مقبولة على نطاق واسع كتفسير لتكاثف النجوم من السدم. على أن لابلاس لم يعرضها إلا في كتابه الشعبي هذا، ولم يغل في أخذها مأخذ الجد: "هذه التكهّنات حول تكون النجوم والمجموعة الشمسية... أعرضها بكل التشكك الذي يجب أن توحى به جميع الأشياء التي ليست تنتج للمشاهدة أو للحساب" (64).  
وقد لخص لابلاس مشاهداته، ومعادلاته، ونظرياته-وتقريباً كل علم الفلك المعروف في زمانه-في الأسفار الخمسة الجليلية التي يتألف منها كتابه "ميكانيكا الأجرام السماوية (1799-1825)، والذي سماه جان باتيست

صفحة رقم : 12410

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

فورييه "مجسطي" الفلك الحديث. وقد ذكر هدفه فيه ببساطة رائعة فقال "بناء على أجرام المجموعة الشمسية الثمانية عشر المعروفة، وعلى مواقعها وحركاتها في أي وقت، أريد استنباط مواقعها وحركاتها في أي وقت آخر، من جاذبيها المتبادلة... بالحساب الرياضي، والبرهنة على أن هذه تتفق مع تلك التي شوهدت فعلاً." وتحققاً لهذه الخطة كان على لابلاس أن يدرس التقلبات التي تحدثها التأثيرات المتعارضة لأعضاء المجموعة -الشمس، والكواكب، والأقمار- ويختزلها إلى انتظام دوري يمكن التنبؤ به. وقد آمن بأن هذه التقلبات كلها يمكن أن تفسر برياضيات الجاذبية. وفي هذه المحاولة لإثبات ما تتمتع به المجموعة الشمسية وسائر الكون من ثبات واكتفاء ذاتي، اتخذ لابلاس رأياً يدين بالميكانيكية البحتة، وعبر عن الفلسفة الحتمية تعبيراً مشهوراً فقال:  
"ينبغي أن ننظر إلى حالة الكون الراهنة على أنها نتيجة لحالته الماضية، وسبب لحالته المستقبلية. وإن ذكاء يحيط بجميع القوى العاملة في الطبيعة في لحظة معلومة، كما يحيط بالموقع الوقتية لجميع الأشياء في الكون، في استطاعته أن يدرك في صيغة واحدة حركات أكبر الأجرام وأخف الذرات في الكون، شريطة أن يكون عقله من القوة بحيث يخضع جميع المعطيات للتحليل، فلا شيء يغم على فهمه، وسيبصر المستقبل كما يبصر الماضي، (قارن مفهوم الفلاسفة السكولاستيين عن الله). والكمال الذي استطاع العقل البشري أن يوصل إليه علم الفلك يعطينا صورة عامة ضعيفة لهذا الذكاء. وقد أتاحت كشوف الميكانيكا والهندسة، مشفوعة بكشوف الجاذبية الكونية، للعقل أن يدرك في نفس الصيغ التحليلية الحالة الماضية والمستقبلية لنظام الكون. وكل جهود العقل بحثاً عن الحقيقة تنحو إلى القرب من الذكاء الذي تصورناه، وإن بقي إلى الأبد بعيداً عن هذا الذكاء بعداً سحيقاً" (65).  
حين سأل نابليون لابلاس لم يرد ذكر الله في كتابه "ميكانيكا الأجرام السماوية" قيل إنه أجاب "لم يكن بي حاجة إلى ذلك الفوضى" (66) على أن

صفحة رقم : 12411

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

لابلاس كانت له لحظاته المتواضعة. ففي كتابه "نظرية تحليلية للاحتمالات"، (1812)- وهي الأساس لكل ما جد بعد ذلك من عمل في هذا الميدان- جرد العلم من كل يقينيه فقال:  
إذا توخينا الدقة في التعبير قلنا إن معرفتنا كلها تقريباً غير يقينية؛ وفي الأشياء التي نستطيع معرفتها يقيناً، حتى في العلوم الرياضية ذاتها، يقوم الاستنباط والقياس على الاحتمالات، وهما أهم السبل للكشف عن الحقيقة (67) وكان لابلاس إسهامات نوعية، بالإضافة إلى صياغته الخطيرة الأثر للكشوف والفروض الفلكية المعروفة إلى وقته. فقد أثار كل فرع تقريباً من فروع الفيزياء بـ "معادلات لابلاس" عن "الجهد" التي يسرت التأكد من شدة الطاقة، أو سرعة الحركة، في أي نقطة في ميدان خطوط القوة. وحسب البيضية الديناميكية للأرض من تقلبات القمر التي كانت تعزي لشكل الكرة المفرطح، ووضع نظرية تحليلية للمد والجزر، واستنبط كتلة القمر من ظواهرهما. وابتكر طريقة محسنة لتحديد مدار المذنبات؛ واكتشف العلاقات العددية بين حركات أقمار المشتري. وحسب بدقته المعهودة السرعة "القرنية" المتوسطة حركة القمر. وأرست دراساته للقمر الأساس للجداول المحسنة لحركات القمر، التي وضعها تلميذه جان شارل بوركهارت عام 1812. وأخيراً ارتفع من العلم إلى الفلسفة- من المعرفة إلى الحكمة- في فيض من البلاغة جدير ببوفون:  
"إن الفلك بحكم جلال موضوعه وكمال نظرياته، هو أبداع صرح من صروح الروح البشرية، وأنبأ شهادة على الذكاء البشري. فالإنسان الذي أضلته أنانيته وأوهام حواسه ظل طويلاً يعتبر نفسه المركز في حركات النجوم، وقد لقي غروره الكاذب عقاباً من الأهوال التي أوحى بها هذه النجوم.

صفحة رقم : 12412

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> الفلك

ثم ألقى بنفسه فوق كوكب لا يكاد يدرك حجمه في المجموعة الشمسية، وامتداده الشاسع ليس إلا نقطة تافهة في اتساع الفضاء. والنتائج السامية التي قاده إليها هذا الكشف خليقة بأن تعزبه عن المرتبة التي وضعت فيها الأرض، لأنها تبصره بعظمته في كل ضلالة القاعدة التي يقيس منها النجوم. فعليه أن يصون بعناية نتائج هذه العلوم السامية التي هي بهجة للكائنات المفكرة، وأن يوسع رقعتها. وقد أدت تلك العلوم خدمات جليلة للملاحة والجغرافيا، ولكن بركتها الكبرى هي تبيد المخاوف التي سببتها الظاهر الفلكية والقضاء على الأخطاء المنبعثة من الجهل بعلاقتنا الصحيحة بالطبيعة- وتلك أخطاء ومخاوف ستنبعث من جديد إذا قدر لمشعل العلم يوماً ما أن ينطفئ" (68).  
وقد وجد لابلاس أن تكييف حياته وفق اضطرابات السياسة الفرنسية أيسر له من تكييف رياضياته لشذوذات النجوم. فلما أقبلت الثورة قوى عليها بكونه أعظم قيمة حياً منه ميتاً، فاستخدمته مع لاجرانج لصنع ملح البارود للبارود، وحساب مسارات قذائف المدافع. وعين عضواً في لجنة الموازين والمقاييس التي وضعت النظام المتري. وفي 1785 كان قد امتحن وأجاز طالباً متقدماً لسلاح المدفعية، هو بونابرت الذي كان في السادسة عشرة من عمره؛ وفي 1798 أخذ الجنرال بونابرت إلى مصر ليدرس النجوم من الأهرام. وفي 1799 عينه القنصل الأول وزيراً للداخلية وبعد سبعة أسابيع عزله لأن "لابلاس يبحث عن الرقائق والدقائق في كل مكان.. وينقل إلى الإدارة روح اللانهاية الصغر" (69). ولكي يطيب بونابرت خاطره عينه في مجلس الشيوخ الجديد، وخلق عليه لقب الكونت. ورسم له ألان جاك أندريه نيجون صورة في ذهب رتبته الجديدة وزينتها: "وجه مليح شريف، وعينان محزونتان كأنهما شاعرتان

بأن الموت يهزأ بكل عظمة وجلال، وبأن الفلك ما هو إلا تحسس في الظلام، وأن العلم ليس إلا نقطة ضوء في بحر من الليل البهيم. وعندما حضرته المنية (1827) أما الذي نجعله فلا حدود له" (70).

صفحة رقم : 12413

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

6- في الأرض

درست أربعة علوم الأرض: فعلم الظواهر الجوية (المتيورولوجيا) ارتاد غلافها الجوي، وعلم المساحة التطبيقية (الجيوديسيا) قدر حجمها، وشكلها، وكثافتها، والمسافات التي تشمل انحناء سطحها؛ والجيولوجيا نقتبت في تكوينها، وأعماقها، وتاريخها، والجغرافيا رسمت الخرائط ليابسها ومائها.

أ - الميتورولوجيا

استعمل علم الجو أربع آلات للقياس بالإضافة إلى المقياس البسيط للمطر: الترمومتر لدرجة الحرارة، والبارومتر للضغط الجوي، والأنيمومتر للرياح، والهيجرومتر لرطوبة الهواء. في عام 1721 أو قبله، وفق جابرييل دانييل فارنهايت، وهو صانع آلات ألماني في أمستردام، في تطوير الترمومتر الذي كان جاليليو قد اخترعه في 1603، واستعمل فارنهايت الزئبق بدلا من الماء سائلا متمدداً منكمشاً، وقسم المقياس إلى درجات مبنية على نقطة تجمد الماء (32°) ودرجة حرارة الفم لجسم الإنسان العادي (98.6°). وفي 1730 أنهى رينيه دريامور إلى أكاديمية العلوم "قواعد لبناء الترمومترات بتدرجات قابلة للمقارنة"، واتخذ درجة تجمد الماء صفراً، ودرجة غليانه 80°، ودرج المقياس بحيث يجعل الدرجات تتفق والزيادات المعادلة في صعود أو هبوط السائل الترمومتر الذي استعمل له الكحول. وحوالي عام 1742 أدخل أندريس ملسيوس الأوبسالي تحسينات على ترمومتر دريامور بالعودة إلى استعمال الزئبق وتقسيم المقياس إلى مائة درجة "سنتجرادية أي مئوية" بين نقطتي تجمد الماء وغليانه. واستطاع جان أندريه دلوك الجنيفي في 1772 أن يعطى الترمومترين المتنافسين شكلهما الحالي: الشكل الفهرنهايتي للشعوب الناطقة بالانجليزية، والشكل المئوي لغيرها من الشعوب. أما البارومتر فكان قد اخترعه تورينثيلي في 1743، ولكن قراءته للضغط الجوي كانت تتأثر دقتها بعوامل لم يحسب لها حساب، كنعوية الزئبق،

صفحة رقم : 12414

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

واتساع الأنبوبية، ودرجة حرارة الهواء. على أن شتى الأبحاث التي بلغت ذروتها في تجارب دلوك وحساباته (1717-1817) عالجت هذه العيوب) وأوصلت البارومتر الزئبقي إلى شكله الراهن. وصنعت أنيمومترات بدائية متنوعة في القرن السابع عشر. من ذلك أن بيبير أوييه أسقف أفرانش العالم، ترك عند موته في 1721 تصميمًا لأنيمومتر (والكلمة من ابتكاره فيما يبدو) يقيس قوة الريح بتمريره في أنبوبة يرفع ضغطه فيها عموداً من الزئبق. ودخل على هذا الأنيمومتر تحسين بـ"مقياس الريح" (1775) الذي ابتكره الطبيب الإسكتلندي جيمس لند. وابتكر جون سميثن (حولي 1750) جهازاً لقياس سرعة الريح. وأفضل آلات قياس الرطوبة في القرن الثامن عشر هي هيجرومتر وراس دسوسير (1783) الجنيفي المتعدد القدرات، وقد بناه على تمديد وانكماش شعرة إنسان بفعل التغيرات في الرطوبة. وأرسى وليم كولن الأساس لنوع آخر من الهيجرومتر بملاحظة ما للسوائل من تأثير مبرد على البخار.

بهذه الأدوات وغيرها، كالإبرة المغنطيسية، حاول العلم أن يكشف عن الإنتظامات في تقلبات الجو. وكان أول ما يستلزمه هذا الكشف وجود السجلات الموثوق بها، وقد احتفظت ببعض هذه السجلات لفرنسا أكاديمية العلوم منذ 1788. ومن 1717 إلى 1727 احتفظ طبيب برزلاوي بسجلات يومية للتقارير الجوية التي كان يطلبها من أنحاء كثيرة في ألمانيا؛ وفي 1724 بدأت جمعية لندن الملكية في جمع التقارير المتيورولوجية، لا من بريطانيا وحدها بل من القارة الأوروبية، والهند، وأمريكا الشمالية. ثم نظم ج.ج. هيمر في مانهايم، عام 1780، تنسيقاً أوسع وأنظم من هذا كله للتقارير اليومية تحت رعاية شارل تيودور أمير بالاتين الناخب، ولكنه توقف (1792) خلال حروب الثورة الفرنسية.

ومن الظواهر المتيورولوجية التي أطلقت الكثير من التكهانات ظاهرة الفجر الكاذب. وقد درس آدموند هالي بعناية تفجرات هذه "الأضواء الشمالية" في 16-17 مارس 1716، وعزاها إلى تأثيرات

صفحة رقم : 12415

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

مغنطيسية منبعثة من الأرض. وفي 1741 لاحظ هيوثر وغيره من المشاهدين الإسكتلنديين أن اختلافات غير منتظمة في إبرة البوصلة تحدث في وقت ظهور الأضواء. وفي 1793 قرر جون دولتين الكيميائي أن السنة الضوء موازية لإبرة الانحراف المغنطيسي، وأن سمتها، أو نقطة التقائها، تقع في الزوال المغنطيسي. إذن فقد أدرك القرن الثامن عشر الطبعة الكهربائية سببه التآين الناشئ عن جزيئات تطلق من الشمس.

وبدأت مؤلفات القرن الثامن عشر في المتيورولوجيا بكتاب كرستيان فولف في "مقاييس الجو الأساسية" (1709)، الذي لخص المعلومات المعروفة إلى عهده واقترح أدوات جديدة. وقد حاول دالامبير وضع صيغة رياضية لحركات الرياح في كتابه "تأملات في السبب العام للرياح" الذي نال جائزة قدمتها أكاديمية برلين في 1747. أما أبرز بحث في هذه الفترة فهو كتاب ضخم يسمى "رسالة في المتيورولوجيا" (1774) بقلم لوى كوت، أحد قساوسة مونمورنسي. وقد جمع كوت نتائج مشاهداته وغيرها وجدولها، ووصف الآلات، وطبق كشوفه على الزراعة، وعين وقت الأزهار والنضج لمختلف المحاصيل، والتواريخ التي تقد فيها عصفير الجنة وترحل، ومتى يتوقع أن يشدو الليل بغناؤه، واعتبر الرياح أهم أسباب التغيرات في الجو، وأخيراً اقترح صيغاً اجتهدية للتنبؤات الجوية، أما كتاب جان دلوك

"أبحاث في تغيرات الجو" (1772) فقد سع تجارب بسكال (1648) وهالي (1686) في العلاقات بين الارتفاع والضغط الجوي، ووضع صيغة القانون الذي ينص على أنه "في درجة حرارة معينة تعطى الفروق بين لوغاريتمات ارتفاعات الزئبق (في البارومتر) فوراً، في أجزاء من القامة - الفرق في ارتفاعات الأماكن التي رصد فيها البارومتر" (71). واستطاع دلوك بإلحاق ميزان ماء ببارومتره، أن يقدر بارومترياً ارتفاع مختلف الشواخص، فقدر أن "المون بلان" يعلو 14,346 قدماً عن السطح البحر. أما أوراس دسوسير، فبعد أن ارتقى الجبل وسجل قراءات عند قمته (1787)، خلص من قياسه إلى أنه يعلو 15,700 قدم.

صفحة رقم : 12416

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

ب - الجيوديسيا

كان المعنى الحرفي للجيوديسيا هو "تقسيم الأرض". وللقيام بهذه المهمة بدقة كان من الضروري معرفة شكل الكرة الأرضية. وكان هناك اتفاق عام في 1700 على أن الأرض ليست تامة التكور بل لها شكل القطع الناقص فتهي مفرطحة بعض الشيء في نهايتها. وذهب نيوتن إلى أنها مفرطحة عند القطبين، أما العلماء من آل كاسيني فذهبوا إلى أنها مفرطحة عند خط الاستواء. وللفضل في هذا الخلاف الدولي أوفدت أكاديمية علوم باريس بعثتين، ذهبت الأولى في 1735 وعلى رأسها شارل دلاكوندامين، وبيريوجيه، ولوى جودان، إلى ما كان بيرو يومها (وهو الآن أكوادور) لقياس درجة عرض فلكية على منحنى من الزوال قرب الاستواء. وقد وجدوا أن البعد بين درجة عرض فلكية والدرجة التي تليها، على الزوال المار فوق مكان رصدهما، هو 362,800 قدم. وفي 1736 أوفدت بعثة كهذه إلى لابلاند وعلى رأسها نوبرنياس وكليرو، لقياس درجة عرض فلكية على منحنى من الزوال عند مكان أقرب ما أمكن للدائرة القطبية. وقد قررت أن طول الدرجة هناك 376.100 قدم - أي أكثر قليلاً من تسعة وستين ميلاً. ودلت هذه الكشوف على أن طول درجة العرض الفلكية، يزداد زيادة طفيفة كلما تحرك الراصد من الاستواء إلى القطب؛ وقد فسرت الزيادة بأنها راجعة لتفرطح الأرض عند القطبين. وسلمت أكاديمية العلوم بأن نيوتن كان على حق. واتخذت المقاييس التي حصلت عليها البعثتان بعد ذلك أساساً لتحديد المتر، والنظام المترى، والزمن الفكي المضبوط لمختلف الأماكن على سطح الأرض.

وقد عزا بوجيه انحرافات ميزان الاستقامة التي لاحظها في أرصاد بعثة بيرو إلى القوة الجاذبية لجبل شيمبورازو القريب. وبقياس الانحراف قدر كثافة الجبل، وعلى هذا الأساس حاول حساب كثافة الأرض. وواصل

صفحة رقم : 12417

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

هذا البحث نفيل ماسكلين، فلكي الملك وجورج الثالث (1774-178)، بإسقاطه ميزان الاستقامة تارة على جانب جبل جرانيتي في إسكتلندا وتارة على الجانب الآخر. وفي كلتا الحالتين انحرف الميزان نحو اثنتي عشرة ثانية زاوية نحو الجبل. واستنتج ماسكلين أن نسبة كثافة الأرض إلى كثافة الجبل هي نفس النسبة بين قوة جاذبية الأرض وانحراف الأثنتي عشرة ثانية، وعلى هذا الأساس قدر تشارلز هتن أن كثافة الأرض تقرب من 4,5 مرة من كثافة الماء - وهو رقم مقبول الآن عموماً، وقد توصل إليه نيوتن بما عهد فيه من حدس ذكي قبل قرن من الزمان.

ج - الجيولوجيا

ظلت ضروب التحريم اللاهوتية تعرقل دراسة أصل الأرض، وعمرها، وتركيبها، والبحث في قشرتها وما دونها، وفي زلازلها، وبراكينها، وفوهاتها، وأحافيرها. وكانت الأحافير تفسر عموماً بأنها مخلفات كائنات بحرية تركتها على الأرض مياه انحسرت عقب طوفان نوح، الذي كان الاعتقاد أنه غطى الكرة الأرضية. وفي 1721 قرر أنطونيو فاللز نييري في كتابه عن الأجسام البحرية.... أن فيضاً مؤقتاً لا يمكن أن يعلل رسباً من التكوينات البحرية بهذا الانتشار الواسع. ورأى أنطون مورو في كتابه "البندقية" (1740) أن الأحافير قذفت بها ثورات بركانية من البحر. فالأرض كانت في الأصل مغطاة بالماء، فدفعت النيران الباطنية اليابس الذي تحت الماء إلى فوق البحر الهابط، وكونت الجبال والقارات.

وقد خلف بنوا دماييه عند موته (1738) مخطوطة طبعت عام 1748 باسم "تياميد، أو لقاءات بين فيلسوف هندي ومراسل فرنسي" وقد ساق آراءه على لسان حكيم هندي، ولكن سرعان ما تبين أن "تياميد" ليس إلا "دمامية" مقلوباً، ولعل الزوبعة التي أثارها الكتاب قد صالحت بين مؤلفه وبين موته الذي أدركه في أوانه. ونظريته تزعم أن الأرض والجبال والأحافير لم تكونها الثورات البركانية. بل الانحسار التدريجي للمياه التي غطت وجه الأرض فيما مضى من الزمان، وألمح ماييه إلى أن كل

صفحة رقم : 12418

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

النباتات والحيوانات تطورت من كائنات بحرية مقابلة، لا بل الرجال والنساء تطورا من أناسي البحر وعرائسه الذين فقدوا ذبولهم كما فقد الضفدع ذيله. وقد نشأ انحسار الماء عن البحر الذي هبط بمستوى البحر نحو ثلاثين قدماً كل ألف عام. وأندر ماييه بأن المحيطات ستجف تماماً في النهاية، وستصعد النيران الباطنية إلى السطح وتفتني كل شيء حي. ولعد "تياميد" بعام أصدر جورج لوى ديفون أول مجلديه الرئيسيين اللذين أسهم بهما في علم وليد لم يزل مقمطاً في تكهنات لا سبيل إلى التنبؤ من صحتها. وقد ألف "نظرية الأرض" (1749) وهو في الثانية والأربعين، "وحقب الطبيعة" (1779) وهو في الحادية والسبعين. وبدأ باحتياط على طريقة ديكرت، فسلم بدفعة أولى دفع الله بها العالم، وبعدها قدمت "النظرية" تفسيراً طبيعياً خالصاً للأحداث الكونية. وقد استبق آخر نظريات تكوين العالم بقرنين، إذ ذهب إلى أن الكواكب نشأت كشظايا انفصلت عن الشمس إثر مذنب قوي أو بفعل جذبها، فكل الكواكب إذن كانت في

- البداية كتلا منصهرة كالشمس الآن، ولكنها بالتدريج بردت وأظلمت في برد الفضاء. أما "الأيام" التي استغرقتها الخليقة في سفر التكوين فلا بد من تفسيرها على أنها حقبة، قد ننتبين منها سبعة:
- 1- اتخذت الأرض شكلها الكروي نتيجة لدورانها، ثم برد سطحها ببطء (3.000 سنة).
  - 2- تجمدت الأرض فأصبحت جسماً جامداً (32.000 سنة).
  - 3- تكاثفت الأبخرة التي غلفتها وكونت محيطاً عالمياً (25.000 سنة).
  - 4- هبطت مياه هذا المحيط باختفائها في شقوق في قشرة الأرض، تاركة نباتاً على السطح، وأحافير على ارتفاعات شتى على اليابس (10.000 سنة).
  - 5- ظهرت الحيوانات البرية (5.000 سنة).
  - 6- فصل هبوط المحيط نصف الكرة الغربي عن نصفها الشرقي، وجرينلاند عن أوربا، ونيوفونلاند عن أسبانيا، وترك الكثير من الجزر تبدو كأنها طالعة من البحر (5.000 سنة).

صفحة رقم : 12419

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

- 7- تطور الإنسان (5000 سنة)
- ولاحظ بوفون بجمع هذه الحقبة معاً أن حاصلها 58.000 سنة. ولعله كان يعجب لخيال الجيولوجيين الفائق في يومنا هذا، فهم يمدون عمر الأرض إلى أربعة بلايين سنة.
- وقد أسس بوفون علم الأحافير (البليونتولوجي) بدراسته العظام المتحفزة واستنباطه الحقب المتعاقبة للحياة العضوية منها. وينتبهن منظوره وأسلوبه من الأسطر الأولى التي استهل بها "حقب الطبيعة" إذ يقول:
- "كما أننا في التاريخ المدني نرجع إلى ألقاب الناس، وندرس العملات والمداليات، ونفك رموز الكتابات القديمة، لنحدد عصور الثورات الإنسانية وتواريخ الأحداث في تاريخ المجتمع، فكذلك يجب علينا في التاريخ الطبيعي أن ننقب في محفوظات الدنيا، ونخرج من أحشاء الأرض الآثار القديمة، ونجمع بقاياها، ونحشد في مجموعة من الأدلة كل الإشارات على التغيرات الفيزيائية التي تتيح لنا الرجوع إلى مختلف عصور الطبيعة. وهذا سبيلنا الأوحى إلى تحديد بعض النقط في الفضاء الشاسع، ووضع عدد من الشواخص على الطريق الأبدي للزمن. وما أشبه الماضي بالمسافات فيبصرنا به كان يتناقص بل يتلاشى لولا أن التاريخ والترتيب وضعا المعالم والمشاعل في أشد نقطه ظلاماً" (72).
- ثم لأنه لم يتوصل إلى علم الأحافير إلا في شيخوخته كتب يقول:
- "إنني أترك أسفاً هذه الأشياء الخلابة، هذه الآثار الثمينة التي خلفتها لنا الطبيعة القديمة، والتي لا تمهلي شيخوختي لفحصها فحصاً يكفي لأن أستخلص منها النتائج التي أتصورها، والتي ينبغي ألا تجد لها مكاناً في الكتاب لأنها لا تقوم إلا على الافتراض، في حين أنني جريت فيه على سنة، هي ألا أعرض فيه غير الحقائق المبنية على الواقع. وسيأتي من بعدي آخرون (73).
- وكتابه "حقب الطبيعة" كان من أهم كتب القرن الثامن عشر. وقد أعاد عليه بوفون كل ما يملك من صنعة في الأسلوب، حتى أنه كتب بعض أجزاءه

صفحة رقم : 12420



## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

من جديد سبع عشرة مرة (إذا صدقناه) (74). وسكب فيه كل قوة خياله حتى لقد بدا أنه يصف، عبر فجوة من سنتين ألف عام، تصورات فكره وكأنها أحداث تنبسط أمام عينيه. وقد أشاد جريم بالكتاب لأنه "من أروع القصائد التي جرّوت الفلسفة على أن توحى بها" وقال كوفيه في حكمه عليه إنه "أذيع أعمال بوفون قاطبة، مكتوب بأسلوب رفيع حقاً" (76).

وفي هذه الأثناء حاول نفر من الدارسين أكثر تواضعاً أن يرسموا خرائط لتوزيع المعادن في التربة. وقد ظفر جان جتار ببناء أكاديمية باريس للعلوم على كتابه "مذكرة وخريطة في علم المعادن" (1746) وبينما كان يبذل هذه المحاولة الأولى للقيام بمسح جيولوجي، اكتشف براكين خامدة في فرنسا، وعلل الرواسب المحيطة بها بأنها حمم متجمدة، والينابيع الحارة بأنها آخر مراحل هذه القوى البركانية. وحفز زلزال لشبونة جون منتشل إلى إعداد "مقال في أسباب الزلازل وظواهرها" (1760)، وقد ذهب إلى أنها راجعة إلى الالتحام الفجائي بين النار والماء الباطنيين، مما أحدث بخرًا متمدداً، وقد وجد هذا البخر منفذاً خلال البراكين والفوهات، ولكن إذا تعذرت هذه المخارج أحدثت اهتزازات في سطح الأرض. وهذه الأمواج الأرضية يمكن في رأي منتشل رسمها لإيجاد بؤرة الزلزال. وهكذا تمخض علم الجيولوجيا الذي كان حدثاً بعد علم الزلازل. كذلك أصبح علم طبقات الأرض فرعاً متخصصاً. فقد حار الناس في أصل طبقات القشرة الأرضية وتركيبها وتعاقبها. وأتاحت مناجم الفحم مفتاحاً لهذه الدراسات؛ ومن ثم قدم جون ستراتشي للجمعية الملكية (1709) "وصفاً غريباً للطبقات الأرضية لوحظ في مناجم فحم منديب بسمرسنشير". وفي 1762 أصدر جيورج كرسنتيان فوشزل أول خريطة جيولوجية مفصلة، ووصف "التكوينات" التسعة في تربة تورنجيا، وأرسى مفهوم "التكوين" باعتباره تعاقباً لطبقات تمثل في مجموعها حقبة جيولوجية.

صفحة رقم : 12421

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

وتنازعت النظريات المتنافسة على أسباب هذه التكوينات. من ذلك أن أبراهام فرنر، الذي ظل اثنين وأربعين عاماً (1775-1817) يعلم في مدرسة المناجم بفرايبورج، جعل كرسي أستاذه المقر الشعبي للرأي "النبتيوني"، وهو القائل بأن القارات، والجبال، والصخور، والطبقات قد نشأت كلها من فعل المياه، من هبوط محيط كان يوماً يغطي العالم وهو هبوط بطيء أحياناً، مباغت أحياناً أخرى؛ فالصخور هي ترسب معادن تركها البحر جافة، والطبقات هي فترات هذا الانحسار ورواسبه.

وزاد هنن نار الجدل اشتعالاً بتعليقه تغيرات الأرض وتقلباتها. وقد أصبح هذا الرجل الذي ولد بأدنبرة في 1726، واحداً من ذلك الفريق الممتاز الذي ألف حركة التنوير الاسكتلندي-هيوم، وجون هوم، واللورد كيمس، وأدم سمت، وروبرتسن، وهنتسن، وماسكلين، ومكلورين، وجون بلايفير، وجوزف بلاك. تنقل من الطب إلى الكيمياء إلى الجيولوجيا، وما لبث أن تخلص إلى تاريخ كرتنا الأرضية استغرق أضعاف الآلاف السنة التي قال بها اللاهوتيون. ولاحظ أن الريح والمياه ينحران الجبال في بطيء ويرسبانهما على السهول، وأن آلاف النهيرات تحمل إلى الأنهار، التي تحملها بعد ذلك إلى البحر، ولو استمرت هذه العملية إلى ما شاء الله لابتعلت المحيطات النهمة الناترة قارات برمتها.

ولعل جميع التكوينات الجيولوجيا نجمت عن هذه العمليات الطبيعية البطيئة كما نشهد اليوم في أي مزرعة تتعري تربتها أو أي بحر يجور على اليابس، أو أي نهر قاعه في إصرار، تاركاً سجل مستوياته الهابطة على طبقات الصخور والتربة. وقد ذهب هتن إلى أن هذه التغيرات التدريجية هي الأسباب الأساسية لما يطرأ على أرضنا من تحول. وعنده أننا "في تفسيرنا للطبيعة، يجب ألا نستخدم قوي ليست من طبيعة الكرة الأرضية، وإلا نسلم بأي عمل إلا الأعمال التي نعرف مبدأها، وألا ندعى أي أحداث خارقة لنعطل بها ظاهرة شائعة" (77). ولكن إذا سلمنا بأن هذا التحات ظل آلاف الآلاف من السنين، فلم لا تزال هناك على ظهر الأرض؛ ويرد هتن بأن السبب هو أن

صفحة رقم : 12422

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

المواد التي أزالها التحات وتجمعت في قاع البحر تتعرض للضغط والحرارة، فهي تتصهر، وتتجمع، وتتمدد وتتصاعد، وتطلع من المياه لتكون الجزر والجبال، والقارات. إما أن هناك حرارة باطنية فالدليل عليه ثوران البراكين. فالتاريخ الجيولوجي إذن عملية دائرية، انقباض وانسساط شاسعان لا يفتآن يصبان القارات في البحار ويرفعان القارات الجديدة في قلب تلك البحار. وقد أطلق الدارسون الذين جاءوا بعد هتن على نظريته اسم "الفلكانية"، (نسبة لفلكان إله النار) لقيامها على تأثيرات الحرارة، أو "البلوتونية" نسبة إلى بلوتو الإله القديم للعالم السفلي. وقد تردد هتن نفسه في نشر آرائه لأنه عرف أنها ستلقي المعارضة لا من المؤمنين بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس فحسب، بل من "النبتيونيين" على نحو لا يقل حدة. وقد وجد هؤلاء مدافعاً متحمساً في روبرت جيمسن أستاذ الفلسفة الطبيعية في جامعة أدنبرة. وقد اقتصر هتن أول الأمر على شرح نظريته لنفر من أصدقائه، فلما ألحوا عليه قرأ بحثين في موضوعها على جمعية أدنبرة الملكية، الحديثة التشكيل، في 1785. وكان النقد الذي وجه إليها مهذباً حتى عام 1793، حين هاجمه عالم معادن دبلني يعبارات أثارت حنقه، فرد بنشره كتاباً من عيون الجيولوجيا عنوانه "نظرية الأرض" (1795). ومات بعد ذلك بسنتين. وبفضل كتاب جون بلايفير الواضح الأسلوب "إيضاحات لنظرية هتن" (1802)، انتقل مفهوم التغيرات العظمى الناجمة عن العمليات البطيئة إلى علوم أخرى غير الجيولوجيا، وأعد أوربا لتطبيق داروين لهذا المفهوم على أصل الأنواع وتسلسل الإنسان.

د - الجغرافيا

ولكن وجه الأرض أكثر استواء للدارسين من أحشائها. ولقد كان العرض المتصاعد لاختلافات البشر في العرق، والأنظمة، والأخلاق، والعقائد، عاملاً قوياً في توسيع آفاق ذهن الحديث. ومضى ارتياد المجهولة برغبة في الاستطلاع وحب للتملك أكثر من أي عهد سبق،

صفحة رقم : 12423

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

لا حبا في سواد عيون العلم، بل سعياً إلى المواد الخام، والذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، والطعام، والأسواق، والمستعمرات، وإلى رسم خرائط للبحار تضمن مزيداً من السلامة للملاحة في السلم والحرب. لا بل أن رحلة السفينة المتمردة "باونتي" (1789) كان هدفها الأصلي شتل شجرة فاكهة الخبز من بحار الجنوب إلى جزر الهند الغربية واشتد التنافس في هذه اللعبة بين الفرنسيين والهولنديين والإنجليز، وهم يعلمون أن السيادة على العالم رهن بنتيجة هذا التنافس.

وقد انبعتت من ذهن بطرس الأكبر رحلة من أجراً رحلات الارتياح، إذ أنه قبل موته في 1725 كلف فينوس بيرنج، وكان قبطاناً دنمركياً في البحرية الروسية، بارتياح الساحل الشمالي لسيبيريا. وعينت أكاديمية سانت بطرسبورج فلكياً وطبيعياً ومؤرخاً لمراقبة البعثة وبعد أن سافر بيرنج إلى كمشاسكا براً، أبحر (1728) إلى خط عرض 67 (شمالاً، واكتشف المضيق الذي يحمل اسمه، ثم عاد إلى سانت بطرسبورج. وفي رحلة ثانية بنى أسطولا في أوخوتسك وأبحر شرقاً حتى لمح أمريكا الشمالية (1741)؛ وهكذا اكتشف دنمركي تلك القارة من الغرب كما اكتشفها لايف إريكسن الإسكندنافي من الشرق. وفي رحلة العودة ضلت سفينة بيرنج طريقها وسط ضباب كثيف، وأنفق الملاحون ستة أشهر على جزيرة لم يسبق أن سكنها أحد قرب كمشاسكا. وعلى هذه الجزيرة، التي تحمل هي أيضاً اسمه، مات الدنمركي العظيم من الأسقربوط (1741) وهو في الستين. واكتشف سفينته أخرى من سفن البعثة جزائر الوشيان. واستولت روسيا على ألسكا، وبعث المرسلون لتعريف الأسكيمو باللاهوت المسيحي..

وحفز تقدم روسيا داخل أمريكا أمماً أخرى لارتياح المحيط الهادي فجردت إنجلترا في حربها مع أسبانيا (1740) أسطولا تحت إمرة جورج أنسن ليضيق الخناق على المستوطنات الإسبانية في أمريكا الجنوبية. وقد اهلك الأسقربوط أكثر ملاحيه، وحطمت الزوابع بعض مراكبه، ولكنه شق طريقه إلى المحيط الهادي الجنوبي، ووقف عند جزائر خوان فرنانديز،

صفحة رقم : 12424

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

ووجد الدليل على أن ألكسندر سكرك (وهو روبنسن كروزو في رواية ديفو) كان هناك من قبل (1704-9). ثم عبر المحيط الهادي واستولى على غليون أسباني قرب الفلبين، وأخذ كنز الذهب والفضة الذي يحمله (1.500.000 دولار) وعبر المحيط الهندي ودار حول رأس الرجاء الصالح، وافلتت من الأسطوليين الأسباني والفرنسي اللذين حاولا اعتراضه. ثم وصل إلى إنجلترا في 15 يونيو 1744 بعد رحلة ثلاثة سنوات وتسعة أشهر. ونقلت غنيمة السبائك من سبتهد إلى لندن في اثنتين وثلاثين عربية تصاحبها الموسيقى العسكرية. وصفتت إنجلترا كلها لأنسن ونفدت أربع طبعات من قصته في سنة واحدة.

وفي 1763 أوفدت الحكومة الفرنسية بعثة مماثلة على رأسها لوي أنطوان دوجانفيل، تحمل تعليمات بإقامة مستوطنة فرنسية في جزر فوكلند؛ وقد أتاح لها موقعها على ثلاثمائة ميل شرقي مضيق مجلان قيمة حربية، لأنها تشرف على المعبر من الأطلنطي إلى الهادي. وقد أنجز مهمته وعاد إلى فرنسا. وفي 1765 أبحر ثانية، وعبر المضيق إلى المحيط الهادي ووصل إلى تاهيتي (1768). التي كان صموئيل واليس قد اكتشفها قبل ذلك بسنة واستولى عليها

لفرنسا، واكتشف مجموعة جزر ساموا وهيريد الجديدة، ودار حول رأس الرجاء الصالح، ووصل إلى فرنسا في 1769، وجلب معه من أقاليم الباسفيك المدارية نبات البوجانفليا المتعرش (الجهنمية). وقد ركزت روايته لرحلته على مناخ تاهيتي اللطيف، وما يتمتع به الأهالي من صحة سابعة، وطبيعة خيرة، وخلق أنيس: وسنلتقي بديدرو معقبا في حسد على هذا التقرير في كتابه "ملحق لرحلة بوجانفيل".

وفي 1764 كلفت الحكومة البريطانية الكابتن جون بايرون أن يضع يده على أرض تقيدها في البحار الجنوبية. فرسا على فورت إجمونت في جزر فوكلند، واستولى على الجزر الإنجليزية وهو لا يدري أن الفرنسيين كانوا هناك فعلا. وادعت أسبانيا أن لها حقا أسبق في تملك الجزر، فأدعت لها فرنسا، ثم أدعت إسبانيا لإنجلترا (1771) وتطالب بها الأرجنتين اليوم.

صفحة رقم : 12425

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

وواصل بايرون رحلته حول الكرة الأرضية، ولكنه لم يترك على التاريخ أكثر من هذه البصمة. وكان في رحلة سابقة، أثناء عمله ضابط صف تحت إمرة أنسن قد تحطمت فيه السفينة على ساحل شيلي (1741)، وقد استخدم حفيده اللورد بايرون روايته لهذا الحادث في قصيدته "دون جوان"

أما أبرز رائد في رواد القرن الثامن عشر في نظر الشعوب الناطقة بالإنجليزية فهو الكابتن جيمس كوك. كان ابن فلاح في مزرعة، ألحق وهو في الثانية عشر ببائع خردات، فلما لم يجد في بيع الملابس الداخلية ما يشبع شوقه للمغامرة التحق بالبحرية، وعمل "ملاحظا بحريا" على طول سواحل نيوزيلند، وذاعت شهرته رياضياً، وفلكياً، وملاحاً، وفي 1768، حين بلغ الخمسين، اختير لرأسه بعثة تسجل مرور كوكب الزهرة، وتقوم بأبحاث جغرافية في المحيط الهادي الجنوبي. فأبحر في 25 أغسطس على السفينة "إندفر" بصحبة عدة علماء، جهز أحدهم وهو السر جوزف بانكس السفينة من ماله الخاص. وشوهد مرور الزهرة في تاهيتي في 3 يونيو 1769. ومنها أبحر كوك باحثاً عن قارة كبرى (تيرا أوسترياليس) زعم بعض الجغرافيين أنها تختبئ في بحار الجنوب. فلم يجد شيئاً، ولكنه ارتاد جزر سوسايتي وسواحل نيوزيلند، ورسم لها خرائط بعناية: ثم واصل رحلته إلى استراليا (التي عرفت يومها بهولندا الجديدة)، واستولى على ساحلها الشرقي لبريطانيا العظمى، وأبحر حول أفريقيا، ووصل إلى إنجلترا في 12 يونيو 1771.

وفي 13 يوليو 1772، ركب البحر من جديد، ومعه السفينتان رزوليوس وإندفر، بحثاً عن القارة الجنوبية المزعومة. وقد حرث البحر شرقاً وجنوباً بين رأس الرجاء الصالح ونيوزيلند، وعبر الدائرة القطبية الجنوبية إلى خط الطافية على العودة، وزار جزيرة إيستر وكتب وصفاً

صفحة رقم : 12426

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

لتماثلها العملاقة. ورسم خرائط لجزر ماركيزا وتونجا، وسمى هذه "فرنديلي" أي الجزيرة الصديقة لما خبر في أهلها من لطف ودماثة الخلق. واكتشف كلدونيا الجديدة، وجزيرة نورفوك، وجزيرة باينز (كوني). وعبر المحيط الهادي الجنوبي شرقاً إلى رأس هورن، وواصل الرحلة عبر الأطلنطي الجنوبي إلى رأس الرجاء الصالح، ثم أبحر شمالاً إلى إنجلترا، فرسا على برها في 25 يوليو 1775 بعد رحلة قطع فيها نيفاً وستين ألف ميل و 1.107 يوماً. أما بعثته الثالثة فقد التمتت طريقاً مائياً من ألسكا عبر أمريكا الشمالية إلى الأطلنطي. وقد أفلح من بليموث في 12 يوليو، ومعه السفينتان رزوايوشن وسكفري، وطاف حول رأس الرجاء الصالح، ووصل بر تاهيتي ثانية، ومضى شمالاً بشرق، ووقع على أعظم كشوفه، هي جزر هاواي (فبراير 1778) التي كان الملاح الإسباني خوان جيتانو قد رآها في 1555، ولكن أوروباً نسيته أكثر من قرنين. وبعد أن واصل كوك الرحلة إلى الشمال الشرقي وصل إلى ما نسميه الآن بولاية أوريجون، ومسح ساحل أمريكا الشمالية إلى مضيق بيرنج ووراءه حتى الحدود الشمالية لألسكا. وعند عرض 70.41 شمالاً عاق تقدمه جدار من الجليد يرتفع اثني عشر قدماً فوق البحر ويمتد إلى آخر ما يصل إليه بصر الرقيب. وعاد كوك إلى هاواي بعد أن أخفق في بحثه عن ممر شمالي شرقي عبر أمريكا. وهناك لقي مصرعه حيث لقي من قبل ترحيباً ودياً. ذلك أن الأهالي كانوا لطفاء ولكنهم يميلون إلى السرقة، فسرقوا قارباً من قوارب السفينة "دسكفري"، وقاد كوك نفرأ من رجاله ليسترده، فنجحوا في استرداد القارب، ولكن الأهالي الحانقين أحاطوا بكوك الذي أصر على أن يكون آخر من بيرج الساحل. فأوسعوه ضرباً حتى مات (14 فبراير 1779)، وكان في الحادية والخمسين من عمره. وتكرمه إنجلترا بوصفه أعظم روادها البحريين وأنبههم، وباعتباره عالماً مهذباً، وقبطاناً شجاعاً محبوباً من جميع ملاحيه. ولا تكاد تقل عن هذه البعثات بسالة تلك البعثة التي قادها جان فرانسوا دجالوب، وكونت لايبروز، الذي كلفته الحكومات الفرنسية بأن يتابع

صفحة رقم : 12427

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

كشف كوك. فأبحر في 1785 حول أمريكا الجنوبية ثم مصعداً إلى ألسكا وعبر إلى آسيا، وكان أول أوروبي يمر بالمضيق (الذي كان يحمل اسمه على عهد قريب) الواقع بين سخالين الروسية وهوكايدو اليابانية. ثم اتجه إلى الجنوب وارتاد ساحل استراليا وبلغ جزر سانتا كروز. ويبدو أن سفينته تحطمت هناك (1788) لأن أحداً لم يسمع بخبره قط. وكان ارتياد اليابس هو أيضاً تحدياً لشهوة المغامرة والكسب. ففي 1716 وصل مراسل يسوعي إلى لحاسا-مدينة التبت "المحرمة" وارتاد كاستن بيبور ووصف جزيرة العرب، وفلسطين، وسوريا، وآسيا الصغرى، وفارس (1761). وجاب جيمس بروس شرق أفريقيا واكتشف من جديد منبع النيل الأزرق (1768). وفي أمريكا الشمالية أسس الرواد الفرنسيون نيو أورليان (1718) وتحركوا شمالاً على طول المسيسيبي إلى المسوري. وفي كندا كافحوا ليصلوا إلى المحيط الهادي، ولكن جبال روكي كانت عقبة كؤوداً. وفي هذه الأثناء تقدم المستعمرون الإنجليز في الداخل إلى نهر أوهايو، وفتح الرهبان الأسبان الطريق لمن بعدهم من المكسيك عبر كاليفورنيا الشمالية أن تصبح إحدى المغامرات التي يصطرح عليها المقاتلون في حرب السنين السبع. وفي أمريكا الجنوبية قاد لاكوندامين من منابع الأمازون قرب كيتو إلى مصبه عند الأطلنطي، على بعد أربعة آلاف ميل بعد أن قاس درجة عرضية عند خط الاستواء.

وعجز رسامو الخرائط الجغرافية عن اللحاق بالرواد. فخلال نصف قرن (1744-93) أصدر سبزار فرنسوا كاسيني وابنه هاك دومنيك في 184 فرخ متوال خريطة لفرنسا طولها 36 قدماً وعرضها 36 قدماً، تبين في تفصيل لم يسبق

له نظير، جميع الطرق، والأنهار، والأديار، والمزارع، والمصانع، وحتى ما وضع على جانب الطرق من صلبان ومشانق. وفي 1766 نشر توربيرن أوف بيرجمان، الذي لم يقنع واحداً من أعظم كيميائي القرن الثامن عشر، "وصفاً للعالم" لخص فيه الميتورولوجيا، والجيولوجيا، والجغرافيا الطبيعية في عصره. وذهب إلى أن كثيراً من الجزر هي قمم

صفحة رقم : 12428

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> في الأرض

لسلاسل جبلية عمر أكثرها في الماء، فجزر الهند الغربية قد تكون مخلفات سلسلة ربطت يوماً ما فلوريدا بأمريكا الجنوبية. أما أوراس دوسسير، فبعد أن قضى أربعة وعشرين عاماً أستاذاً للفلسفة في جامعة جنيف، ارتقى جبل مور بلان (1787) وجبل كلاين ماترهورن (1792) ارتقائين مشهورين، وكتب دراسات ضخمة لجبال سويسرا من حيث أحوالها الجوية، وتكويناتها، وطبقاتها، وأحافيرها، ونباتاتها، فجمع بذلك جمعاً رائعاً بين الميتورولوجيا، والجيولوجيا، والجغرافيا، والنبات. لنتذكر حين يقال لنا أن التاريخ هو "تقويم نيوجيت" للأمم، أنه كذلك سجل لمئات من ضروب البطولة والشرف.

صفحة رقم : 12429

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

8- النبات

أ- لينبوس

وهكذا نصل في قصتنا إلى الحياة! فبعد أن طور المكرسكوب المركب أصبح في الإمكان فحص تكوين النباتات فحصاً أدق، يصل إلى خفايا جنسها. وشب علم النبات عن الطوق فلم يعد تابعاً للطب، ورسم لينبوس عالم الحياة المكتظ بعناية راهب العلم وتقانيه.

وكان أبوه نيلز لينيه، راعياً لشعب لوثيري في شنتبر وهولت بالسويد. ومن العسير جداً على قسيس أن يحتفظ بتقواه، ولكن كارل استطاع ذلك، ووجد في عالم النبات على الأخص أسباباً لا حصر لها تدعوه لشكر الخالق. والحق إن هناك لحظات تبدو فيها الحياة رائعة الجمال بحيث لا يمكن أن يكفر بالآلهة غير إنسان جحود. وكان نيلز بستانياً متحمساً، أحب اقتناء الأشجار المنتقاة والأزهار النادرة وغرسها في التربة من حول مسكنه كأنها تسيبحة حية. وكانت هذه لعب كارل وأصفيائه في صباه، فشب (كما يروي لنا) وفي قلبه "حب للنبات لا يرتوي" (78). وما أكثر ما "زوج" من المدرسة ليجمع عينات في الغابات والحقول. وكان أبوه تواقاً ولده قسيساً، لأن الصبي كان

صفحة رقم : 12430

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

آية في الطب، وقد تعلم بالقوة خيراً مما يعلم بالعقيدة، ولكن كارل مال إلى الطب لأنه رأى فيه المهنة الوحيدة التي يستطيع فيها الجمع بين الاشتغال بالنبات وكسب قوته. وعليه ففي 1727، حين كان في العشرين من عمره، قيد طالب طب في جامعة لوند. وبعد عام أرسل إلى أوبسالا حاملاً توصيات حارة من معلميه. ولم يستطع أن يتلقى الكثير من العون المادي من أبويه لأنه كان واحداً من خمسة أبناء لهما. وإذ أعجزه الفقر عن ترقيع حدائه فقد فرشه بالورق ليغطي تقويه ويتقي بعض البرد. أما وقد تهيأت له حوافز الدرس فإنه تقدم حثيثاً في دراسة النبات والطب. وفي 1731 عين محاضراً مساعداً في النبات ومدرساً خاصاً في بيت الأستاذ رودبيك، الذي كان أباً لأربعة وعشرين طفلاً، فكتب يقول "إنني الآن بفضل الله أملك دخلاً" (79).

فلما قررت جمعية أوبسالا العلمية إيفاد بعثة لدراسة نباتات لابلاند، أختير لينبوس لرأسيتها. وبدأ هو ومساعدوه الشبان الرحلة في 12 مايو 1732. وقد وصف رحيلهم بأسلوبه الزاهي بطبيعته فقال: كان الجو مشرقاً لطيفاً، وأضفى نسيم عليل هب من الغرب على الهواء برودة منعشة... وكانت براعم أشجار البتولا قد بدأت تتفتح، والأوراق على معظم الشجر متوافرة، ولم يبق عارياً غير الدردار والبلوط. وكانت القبرة تصدح في العلا. وبعد أن قطعنا ميلاً أو نحوه جننا إلى مدخل غابة، وهناك فارقتنا القبرة، ولكن على قمة شجرة الصنوبر راح الشحرور يتدفق بأغنية حبه" (80).

وهذا الوصف ينبئ بطبع لينبوس؛ فقد كان يقظاً أبداً بكل جوارحه لمشاهد الطبيعة، وأصواتها، وعبيرها؛ ولم يسلم قط بأي فرق بين علم النبات والشعر. وقد قاد جماعته فوق 1,440 ميلاً من لابلاند، خلال عشرات المخاطر والمشاق، ثم عاد بهم سالمين إلى أوبسالا في 10 سبتمبر.

وإذ كان لا يزال رقيق الحال، فقد حاول أن يكسب قوته بالتدريس في الجامعة، ولكن غريماً له أفلح في حظر محاضراته بدعى أن لينبوس لم يكمل بعد دراسته الطبية أو ينال درجته الجامعية. وكان كارل في هذه

صفحة رقم : 12431

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

الأثناء قد وقع في غرام "ليزا" -وهي سارة إليزابيث مورايا، ابنة طبيب محلي. فقدمت له مدخراتها، وأضاف إليها مدخراته، وإذ تهيأ له المال على هذا النحو فقد انطلق ميمماً هولندا (1735). وفي جامعة هارديريك فاز في امتحاناته ونال درجته الطبية. وبعد عام التقى في لندن بيورهاي في العظيم، وكاد ينسى ليزا. وأصدر لينبيوس كتاباً من أمهات كتب النبات بإلهام وعون من ذلك النبيل العالم، وهو "نظام الطبيعة". وقد طبع اثنتي عشرة مرة في حياته، وكان يتألف في الطبعة الأولى من أربعة عشر فرخاً فقط من القطع الكبير، أما في الطبعة الثانية عشرة فقد أزداد إلى 2.300 صفحة، في ثلاث مجلدات من قطع الثمن، وعلى مقربة من أمستردام تزود بما نقصه من مال بإعادة تنظيم المجموعة النباتية التي يملكها جورج كليفورت وعمل قوائم بها، وكان كليفورت هذا مديراً لشركة الهند الشرقية. فأخرج في 1736، بهمة فعساء، "مكتبة النبات". وفي 1737 "أجناس النبات". وفي 1738 قصد باريس ليدرس الجاردان دووا. وهناك، دون أن يقدم نفسه، انضم إلى مجموعة من الطلاب كان برنار دجوسيو يحاضرهم باللاتينية في نباتات دخيلة: وقد حير الأستاذ نبات منها، واجترأ لينبيوس على إبداء رأى فقال أن لهذا النبات مظهر أ أمريكياً: ونظر إليه دجوسيو، وقال وهو يحزر هويته "أنت لينبيوس"؛ واعترف كارل، وبأخوه العلم الرائعة رحب به دجوسيو ترحيباً حاراً (81). وعرض على لينبيوس منصب الأستاذية في باريس، ولندن، وجوتنجن، ولكنه رأى أن قد أن الأوان ليعود إلى ليزا (1739). ولم تكن مثل هذه الخطبات الطويلة بالأمر الشاذ في تلك الأيام ولعلها عاونت في كثير من الحالات على استقرار الخلق ونضج الشخصية. وتزوجا، واستقر كارل في أستوكهولم طبيياً. وظل حيناً يترقب عبثاً مجيء المرضى كما يفعل أي طبيب ناشئ. وذات يوم سمع وهو في حانة شاباً يشكو من أن أحداً لم يستطع شفاؤه من السيلان. وشفاه لينبيوس، ومالبت غيره من الشبان اشند بهم الشوق لإثبات رجولتهم أن جاءوه ملتمسين الشفاء. وامتدت خبرة الطبيب إلى أمراض الرئتين وتعرف إليه الكونت كارل جوستاف تسين، رئيس مجلس النبلاء

صفحة رقم : 12432

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

في الركز داج، وحصل له على وظيفة طبيب للبحرية (1739). في ذلك العام ساعد لينبيوس في إنشاء أكاديمية العلوم الملكية، وأصبح أول عميد لها. وفي خريف 1741 اخنير أستاذاً للتشريح في أوبسالا. وسرعان ما استبدل بكرسيه كرسي النبات، والمواد الطبية، والتاريخ الطبيعي (الجيولوجيا والأحياء)، وهكذا وضع الرجل المناسب في المكان المناسب أخيراً. وقد بث في تلاميذه تحمسه للنبات، وكان يعمل معهم في صداقة لا تكلف فيها، وأسعد أوقاته حين يأخذهم في جولة من جولات التاريخ الطبيعي. يقول: كنا نقوم برحلات كثيرة بحثاً عن النباتات، والحشرات، والطيور، ففي الأربعماء والسبت من كل أسبوع نجتمع الأعشاب من الفجر إلى العشيّة ثم يعود التلاميذ إلى الميدان واضعين الأزهار على قبعاتهم، ويصبحون أستاذهم إلى حديقته، يتقدمهم موسيقيون بسطاء. ذلك منتهى الروعة في علمنا اللذيذ" (82). وقد أوفد بعض طلابه إلى شتى بقاع الأرض ليأتوه بالنباتات الغريبة، وحصل لهؤلاء الرواد الصغار (الذين ضحي بعضهم بحياته في بحثهم هذا) على الإعفاء من أجرة الرحلة على سفن شركة الهند الشرقية الهولندية. وحفرهم بالأمل في إضافة أسمائهم للنباتات في نظام التسمية الكبير الذي كان بصدد إعداده. وقد لاحظوا أنه أطلق اسم "كاميليا" على الشجيرة المزهرة التي عثر عليها اليسوعي جورج كاميل في الفلبين.



وقد أقام بجهده المتصل تصنيفه الضخم للنبات في كتبه "نظام الطبيعة" و"أجناس النبات" و"زيت النبات" (1738)، و"فلسفة النبات" (1751) و"أنواع النبات" (1753) وقد سبقه نفر من علماء النبات إلى هذه المهمة، نخص بالذكر منهم بوهن وتورنفور، وكان ريفينوس قد اقترح (1690) طريقة ثنائية لتسمية النباتات. ولكن رغم هذه الجهود وجد لينيوس مجموعات عصره في حالة من الخلل عطلت الدراسة العلمية للنباتات تعطيلاً خطراً. فقد اكتشفت مئات الأنواع الجديدة التي

صفحة رقم : 12433

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

أطلق عليها علماء النبات أسماء متضاربة. وأخذ لينيوس على عاتقه تصنيف جميع النباتات المعروفة أو لا حسب طائفتها، وفي طائفتها حسب رتبته، وفي رتبته حسب جنسها، وفي جنسها حسب نوعها؛ وهكذا توصل إلى اسم لاتيني مقبول دولياً. واتخذ أساساً لتصنيفه وجود وطبيعة الأعضاء التناسلية الواضحة أو عدم وجودها، فقسم النباتات إلى "نباتات زهرية" وهي التي لها أعضاء تناسل ظاهرة (أزهارها) و"نباتات لا زهرية" ليس لها أزهار تخرج بروزاً وهيكلها التناسلية مخفاة أو غير واضحة (كما في الطحلب والسرخس). وقد اعترضت بعض النفوس الخجولة على هذا التركيز على الجنس لأنه سيؤثر تأثيراً خطراً على خيال الشباب (83). ولكن نقاداً أصلب وأجراً بينوا خلال الأعوام المائة التالية عيوباً أهم في تصنيف لينيوس، فقالوا إنه غلا في الاهتمام بإيجاد أركان وأسماء للنباتات غلواً جعله يحول علم النبات حيناً عن دراسة وظائف النباتات وأشكالها. ولما كان تغير الأنواع سيشوش النظام الذي وضعه، فضلاً عن تناقضه مع سفر التكوين، لذلك وضع مبدأ مؤداه أن جميع الأنواع خلقها الله مباشرة وظلت دون تغيير طوال تاريخها. وقد عدل من هذا الموقف التقليدي في تاريخ لاحق (1762) بإلماعه إلى أن أنواعاً جديدة قد تظهر نتيجة لتجهين الأنواع المتقاربة. ومع أنه تناول الإنسان (الذي سماه في ثقة واطمئنان "هومو سابينز" أي الإنسان العاقل) بوصفه جزءاً من مملكة الحيوان، وصنّفه نوعاً في رتبة الحيوانات العليا، جنباً إلى جنب مع القرود، فإن نظامه عطل نمو الأفكار التطورية. وقد انتقد بوفون تصنيف لينيوس، على أساس أن الأجناس والأنواع ليست أشياء موضوعية، إنما هي مجرد أسماء لتقسيمات عقلية مريحة لواقع معقد، تذوب فيه جميع الرتب، عند أطرافها، بعضها في البعض، فلا شيء يوجد خارج الذهن، إلا الأفراد؛ هنا نجد جدل العصور الوسطى القديم بين الواقعية والاسمية. أما لينيوس فرد (مثيراً أنه بشر) بأن بلاغة بوفون يجب ألا يسمح لها بأن تخدع العالم، ورفض أن يأكل في قاعة علقت فيها صورة بوفون مع صورته (85). على أنه سلم في لحظة أكثر سماحة أن

صفحة رقم : 12434

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

ترتيبه ناقص، وأن تصنيف النباتات حسب الجهاز التناسلي ترك أطرافاً كثيرة غير محكمة؛ وفي كتابه "فلسفة علم النبات" اقترح نظاماً طبيعياً مبنياً على شكل أعضاء النبات وتطورها. وقد تبين أن نظام التسمية الذي وضعه لا التصنيف، مريح جداً، سواء في علمي النبات والحيوان، وما زال سائداً مع تعديلات أدخلت عليه. وكرمت أوربا كلها لينبوس في شيخوخته أميراً لعلماء النبات. ففي 1761 خلع عليه الملك لقب الفروسية، فأصبح اسمه كارل فون لينيه. وبعد عشر سنوات تلقى خطاب حب من ثاني أشهر مؤلف في القرن وهو جان جاك روسو، الذي ترجم "فلسفة علم النبات"، ووجد في الاشتغال بالنبات دواء للفلسفة. قال "تقبل أيها السيد الكريم ولاء تلميذ من تلاميذك، جاهل جداً، متحمس جداً، يدين ديناً كبيراً للتأمل في كتاباتك في السكينة التي ينعم بها... إنني أكرمك، وأحبك من كل قلبي(86).

ومات لينبوس، كروسو وفولتير، عام 1778. وباعت أرملته مكتبته ومجموعاته إلى جيمس إدوارد سميث، الذي اشترك مع آخرين (1788) في تأسيس "جمعية لينبوس اللندنية" للعناية بتراث لينبوس ومن ذلك المركز أذاعت سلسلة طويلة من المطبوعات جهود عالم النبات في جميع أرجاء أوروبا وأمريكا وقد قرر جوته أن أعظم التأثيرات في حياته العقلية كان الفضل فيها لشكسبير، وسينوزا ولينبوس(87).

ب - في الكرمة

واصل مئات من الدارسين المخلصين البحث في علم النبات. ففي فرنسا مثلاً نجد أسرة من أسر الفحول التي يربط أعضاؤها تكريس مشترك للحياة عبر القرون. وقد ارتقى رب هذه الأسرة، إنطوان دجوسيو، الذي وفد على باريس من ليون، ليصبح مدير للجاردان دوروا في 1708. وكان أخوه الأصغر برنار محاضراً و"معيداً" هناك؛ وقد رأيناه يرحب بلينبوس. وذهب أخ آخر يدعى جوزف إلى أمريكا الجنوبية في صحبة لاكوندامين، وأرسل نوعاً من عباد الشمس يسمى *Heliotropium peruvianum*

صفحة رقم : 12435

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

شنته في أوربا. وفي 1789 نشر ابن أخ له يدعى أنطوان لوران دي جوسيو كتاباً بدأ محل النظام وضعه لينبوس واسمه *Genera plantarum secundum ordines naturales disposita* وقد صنفت النباتات مورفولوجياً (أي حسب أشكالها) بناء على وجود أوراق البزار أو عدم وجودها، أو عددها؛ فما ليس له أوراق عديم الفلقة، وما له ورقة واحدة سماه "وحيد الفلقة" وما له ورقتان "ثنائي الفلقة". وواصل ابنه أدريان عملهم في القرن التاسع عشر. وفي 1824 وضع أوجستن وكاندول خطوط التصنيف الذي يتقبله علماء النبات اليوم بعد أن أقامه على جهود أسرة جوسيو.

وقد اكتشف نحما جرو جنسانية النباتات عام 1682 أو قبل ذلك، وأيد كاميراريوس هذا الكشف في 1691. وأنهى كوطن ماذر من بوسطن إلى جمعية لندن الملكية (1716) تجربة تهجين بطريق التلقيح بالريح. زرع جاري خطأً من الكومات في حقل ذرة، وكان لون الحب أحمر وأزرق، أما باقي الحقل فزرعه ذرة من اللون الأعم وهو الأصفر. فعدى هذا الصف في الجانب الذي يواجه الريح أكثر من غيره، أربعة من الصفوف المجاورة...

ليلونها بلونيه (الأحمر والأزرق) اللذين ظهرا عليه. أما على الجانب المتجه مع الريح، فقد تلون بهذين اللونين مالا يقل عن سبعة خطوط أو ثمانية، وتأثرت الخطوط الأبعد تأثيراً أقل" (88). وفي 1717 برهن ريتشارد برادلي على ضرورة الإخصاب بتجربة أجراها على أزهار الطوليب (الحزامي). فقد نزع كل اللقاح من اثنتي عشرة زهرة منها "مكتملة الصحة"؛ فلم تحمل هذه أي برز طوال الصيف... في حين أن كل زهرة من الأربعمئة التي تركها وشأنها أخرجت برزاً" (89) وقد درس التلقيح المختلط وتنبأ بنتائج خلافة له "فقد نستطيع بهذه المعرفة أن نغير خاصية أي فاكهة بلقاح أخرى من نفس الرتبة ولكن من نوع مختلف". يضاف إلى هذا أنه في قدرة شخص محب للاستطلاع أن يستعين بهذه المعرفة على إنتاج أنواع نادرة من النبات لم يسمع

صفحة رقم : 12436

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

بها إلى الآن. وروى كيف أن توماس فيرنشايلد أنبت نوعاً جديداً "من حبة لقحت زهرة القرنفل الملتحي Sweet William وقد وجد أن هذه المجنات من الأنواع عقيمة، وشبهها بالبالغ. وفي 1721 روى فليب ملر أول وصف معروف لتلقيح النحل للنبات. فقد نزع "قمم" بعض الأزهار قبل أن تستطيع أن "تنفض غبارها"، ومع ذلك فإن برزة هذه الأزهار العنينة في الظاهر نضجت نضجاً سوياً. وقد تشكك الأصدقاء في روايته فكرر التجربة بمزيد من العناية، فحصل على النتيجة ذاتها. قال: بعد يومين، وبينما كنت جالساً في حديقتي، شاهدت في حوض طوليب قريب مني بعض النحل تنشط نشاطاً شديداً وسط الأزهار؛ ورأيتها وأنا ألحظها تخرج وأرجلها وبطنها محملة بالغبار، وطار ذكر فيها إلى طوليبية كنت قد خصبتها، وعلى الفور تناولت مجهري وفحصت الطوليبية التي طار إليها، فوجدت أنه ترك من الغبار ما يكفي لتلقيح الطوليبية. فلما أخبرت أصدقائي بما حدث... عادوا للاطمئنان إلى روايتي... فما لم يتخذ احتياطات لمنع الحشرات من الدخول إلى النباتات، فإن هذه النباتات تقبل التلقيح من حشرات أصغر كثيراً من النحل" (90). وقد أجرى كولرويتز، أستاذ التاريخ الطبيعي في كارلسروه، دراسة خاصة (1760 وما بعدها) للإخصاب المختلط وفيزيوكيميائية التلقيح، كان لتجاربه الخمس والستين أثر هائل على الزراعة في عدة قارات. فقد انتهى إلى أن التهجين لا يثمر إلا في النباتات الوثيقة التقارب؛ ولكنه إذا نجح نمت المهجنات بسرعة أكبر، وأزهت أسرع، وعاشت أطول، وأخرجت براعم صغيرة أوفر من الأنواع الأصلية، ولا يضعفها إنباء الحب. وأثبت كونراند شرنجل (1793) أن الإخصاب المختلط - بواسطة الحشرات عادة، وأقل من ذلك بواسطة الريح يعم داخل النوع، وزعم في اقتناع غائي حار أن شكل الأجزاء في كثير من الأزهار وترتيب هذه الأجزاء مقصود به الإخصاب الذاتي. وفتح يوهان هدفج ميداناً جديداً للبحث

صفحة رقم : 12437

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

بدراسة عملية الإنسان في النباتات اللازهرية (1782) وفيما بين عامي 1788، 1791 أصدر يوزف جيرتزر الأستاذ بجامعة فورتمبرج، على دفتين، مسحه الموسوعي لفاكهة النباتات وبارها، وقد أصبح هذا المسح أساساً لعلم النبات في القرن التاسع عشر.

وفي 1759 أعلن كسبار فريدرش فولف في كتابه "نظرية الأجيال" نظرية في تطور النبات تعزى عادة إلى جوته. "عندما أنظر إلى النبات بجملة، الذي نعجب لأجزائه لأنها تبدو لأول وهلة شديدة التنوع، لا أرى فيه وأميز نهائياً غير الأوراق والساق، لأن الجذر يمكن اعتباره ساقاً... وكما أجزاء النبات، باستثناء الساق، أوراق معدلة" (91).

وخلال ذلك ارتاد خفايا تغذية النبات أحد أساطين العلم في القرن الثامن عشر، وهو ستيفن هيلز. وكان واحداً من أولئك القساوسة الإنجليكان الكثيرين الذين لم يجدوا في لاهوتهم الطبع ما يعوقهم عن الاشتغال بالعلم أو الدراسات القديمة. ومع أنه تقبل عقيدة القصد الإلهي، فإنه لم يستخدمها في تحقيقاته العلمية وفي 1727 نشر النتائج التي خلص إليها في كتاب من أمهات كتب النبات "استاتيكا النبات... نحو تاريخ طبيعي للنبات". وقد شرحت المقدمة هدفه: "قبل عشرين عاماً أجريت عدة تجارب شريانية على الكلاب، وبعد ستة أعوام كررت التجارب ذاتها على الخيل وغيرها من الحيوانات لكي أجد قوة الدم في الشرايين (وهو ما نعرفه بضغط الدم الانقباضي (... وتمنيت وقتها لو استطعت إجراء تجارب لاكتشاف قوة العصارة في الخضراوات، ولكني بئست من إمكان إجرائها إطلاقاً، إلى أن وقعت عليها مصادفة قبل سبع سنوات بينما كنت أحاول بشتى الطرق أن أقف نرف ساق كرمة قديمة (92)".

وكان كشف هارفي للدورة الدموية في الحيوان قد أدى بعلماء النبات إلى افتراض حركة مماثلة للسوائل في النبات. وقد نقض هيلز هذا الفرض

صفحة رقم : 12438

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

بتجارب بينت شجرة تمتص الماء في أطراف أغصانها ما تمتصه بجذورها؛ وقد تحرك الماء إلى الداخل من الأغصان إلى الجذع كما تحرك من الجذع إلى الأغصان؛ واستطاع قياس الامتصاص. على أن العصارة تحركت إلى أعلى من الجذور إلى الأوراق بفضل ضغط العصارة المنتشرة في الجذور. وامتصت الأوراق غذاءها من الهواء. عند هذه النقطة أثار بريستلي الذكي المشكلة يكشف من ألمع كشوف القرن- هو تمثيل أكسيد الكربون الذي تخرجه الحيوانات في زفيرها، تمثيلاً غذائياً، بواسطة كلور فيل النباتات في ضوء الشمس. وقد وصف هذا الشطر من عمله في المجلد الأول (1774) من كتابه "تجارب ومشاهدات" قال:

"أخذت كمية من الهواء فسدت فساداً تاماً نتيجة لتنفس الفئران وموتها فيها، وقسمتها قسمين، وضعت أحدهما في قنينة مغمورة في الماء، ووضعت في الآخر فرعاً من النعناع، وكان هذا القسم محتوى "في أبريق زجاجي قائم في الماء. كان هذا في بواكير أغسطس 1771، وبعد مضي ثمانية أيام أو تسعة وجدت أن فرعاً يحيا في تمام الصحة في قسم الهواء الذي نما فيه فرع النعناع، ولكنه مات لحظة أن وضعت في القسم الآخر من نفس كمية الهواء الأصلية، والذي حفظته في نفس الوضع المكشوف ولكن دون أن ينمو فيه أي نبات".

وبعد عدة تجارب مشابهة خلص بريستلي إلى أن:

"الضرر الذي يلحق بالهواء باستمرار تنفس هذا العدد الكبير من الحيوانات، وتعفن هذه الكتل الكبيرة من المادة النباتية والحيوانية، تصلحه جزئياً على الأقل- الكائنات النباتية. ورغم ضخامة كمية الهواء الذي يفسد يومياً من جراء الأسباب السالفة الذكر، فإننا إذا أخذنا في حسابنا المقدار الهائل من النباتات النامية على وجه الأرض.... لم يخامرنا شك في أنه هذا موازن كاف لذلك، وأن الدواء شاف من الداء" (93).

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> النبات

وفي 1764 تعرف بان إنجنهوز إلى بريستلي، وكان عالم أحياء هولندياً يسكن لندن. وقد أعجبه نظرية تنقية النباتات للهواء بتمثيلها ثاني أكسيد الكربون الذي تخرجه الحيوانات وترعرعها عليه. ولكن إنجنهوز وجد أن النباتات لا تؤدي هذه الوظيفة في الظلام. وقد بين في كتابه "تجارب على النبات" (1779) أن النباتات كالحوانات تخرج ثاني أكسيد الكربون، وأن أوراقها وبراعمها الخضراء تمتص هذا الغاز، وتخرج الأكسجين في راحة النهار فقط. ولهذا السبب تخرج الأزهار من غرف المستشفيات ليلاً.

"إن ضوء الشمس، لا الدفء، هو السبب الأهم، إن لم يكن السبب الأوحده، الذي يجعل النباتات تخرج هواءها المجرد من الفلوجستين (أي الأكسجين) ... فالنبات ... الذي لا يستطيع ... البحث عن طعامه يجب أن يجد داخل ... الحيز الذي يشغله كل شيء يلزمه ... والأشجار تنشر في الهواء تلك المراوح الكثيرة وتوزعها ... بطريقة تقلل قدر الإمكان من تراحمها على أن تمتص من الهواء المحيط بها كل ما تستطيع امتصاصه وأن تقدم ... هذه المادة ... إلى أشعة الشمس المباشرة، لكي تنال الخير الذي يستطيع هذا النجم العظيم أن يهبها إياه" (94).

ولم يكن هذا بالطبع إلا صورة جزئية لتغذية النبات. وقد أوضح راعي كنيسة في جنيف يدعى جان سنيبيه (1800) أن الأجزاء الخضراء فقط من النباتات هي التي تستطيع تحليل ثاني أكسيد الكربون الذي في الهواء إلى كربون وأكسجين. وفي 1804 درس نيكولا تيورور دسوسور، ابن الرائد الألبني، الدور الذي تسهم به التربة، والماء والأملاح، في تغذية النبات. وكان لهذه الدراسات جميعها نتائج حيوية في التطوير الخطير لخصوبة التربة والإنتاج الزراعي في القرنين التاسع عشر والعشرين. هنا أثرت بصيرة العلماء وصبرهم مائدة كل أسرة تقريباً في العالم المسيحي.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

ولد أعظم عالم طبيعي من علماء القرن الثامن عشر بمونبار في برجنديه (1707) لمستشار في برلمان ديجون. وكانت ديجون آنذاك مركزاً مستقلاً

صفحة رقم : 12441

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

من مراكز الثقافة الفرنسية. والذي فتح منفذاً لثورة روسو على الحضارة وفولتير هو مسابقة اقترحتها أكاديمية ديجون. وقد درس جورج لوى لكليرك ديفون في الكلية اليسوعية بديجون، وهناك تعلق بشاب إنجليزي يدعى اللورد كنجزتن، سافر معه عقب التخرج في رحلة إلى إيطاليا وإنجلترا. وفي 1832 ورث تركة كبيرة أتته بدخل سنوي قدره 300,000 جنيه، فأصبح الآن حراً في هجر القانون كان أبوه يعده للاشتغال به، وإشباع غرامه بالعلم، وبنى على تل في نهاية حديقته بمونبار، وعلى مانتى ياردة من منزله، حجرة للدراسة في برج قديم يسمى برج القديس بولس، هنا كان يعتكف من الساعة السادسة صباح كل يوم، وهنا ألف معظم كتبه. وقد انفعل بقصة أرخميدس الذي أحرق أسطول الأعداء في ميناء سيراكوز بسلسلة من المرايا الحارقة، فأجرى ثمانى تجارب، جمعت في النهاية 154 مرآة، أشعل بها النار في ألواح من الخشب على بعد 150 قدماً (95). وتردد حيناً بين التاريخ الطبيعي والفلك؛ وفي 1735 ترجم كتاب هيلز "استاتيكا النبات" وأسس نفسه في علم النبات؛ ولكن في 1740 ترجم كتاب نيوتن في "التدفقات" وأحس بإغراء الرياضة وانضم بذلك إقليدس إلى أرخميدس في مجمع أربابه. وفي 1739 عين مديراً (ناظراً) للجاردان دورا، فانتقل إلى باريس. عندها فقط جعل علم الأحياء شغله الشاغل. فتحت إشرافه أغنت مئات النباتات الجديدة المطلوبة من كل أصقاع الدنيا هذه الحديقة النباتية الملكية. وسمح بوفون لجميع الدارسين المهتمين بالنبات بدخول الحديقة فجعل منها مدرسة للنبات. وبعد حين عاد إلى مونبار وبرج القديس لويس بعد أن ترك الحديقة في أيد أمينه، وشرع في تنظيم مشاهداته ليؤلف منها أشهر كتب القرن العلمية. ونشرت المجلدات الثلاثة الأولى من كتابه هذا "التاريخ الطبيعي، العام والخاص" في 1749. وكانت باريس في مزاج يهيئها لدراسة العلم،

صفحة رقم : 12442

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

وإذ وجدت الآن الجيولوجيا والبيولوجيا مقدمتين لها في نثر صاف رصين، موضحتين بلوحات مغرية، فقد أقبلت على هذه المجلدات إقبالاً يقرب من إقبالها على كتاب مونتسكيو "روح القوانين" الذي صدر قبل ذلك بعام فقط. ومضى بوفون -بمساعدة الأخوين أنطوان وبرنار دجوسيو له في النبات، ولوى دوينتون وجينو دمونيليار وغيرهما له في الحيوان، يضيف المجلد تلو المجلد إلى رائعته الكبرى، فصدر اثنا عشر مجلداً جديداً قبيل 1767، وتسعة مجلدات أخرى عن الطيور في 1770-83؛ وخمسة عن المعادن في 1783-88، وسبعة عن موضوعات أخرى في 1774-89. وبعد موته (1788) أشرف إثنين دلاسيبيد على نشر مخطوطاته التي لم تنشر وأصدرها في ثمانية مجلدات (1788-1804). وبلغت جملة المجلدات الصادرة من كتاب "التاريخ الطبيعي" في النهاية أربعة وأربعين مجلداً استهلك إعدادها أكثر من حياة، واستغرق نشرها أكثر من نصف قرن. ودأب بوفون على أن، يستيقظ مبكراً ويمضي إلى برجه، ويقترّب من هدفه خطوة فخطوة. ويبدو أنه بعد أن أجتاز بسلام بعض الفلتات الجنسية في شبابه أقصى النساء عن حياته حتى عام 1752 حين تزوج ماري دسان- بيلون وهو في الخامسة والأربعين. ورغم أنه لم يدع الوفاء لرباط الزوجية (96)؛ فقد تعلم أن يحب زوجته، كما يفعل الكثير من الفرنسيين بعد حياة الزنا، وقد أظلم موتها في 1769 سني عمره الباقية.

وقد أخذ "التاريخ الطبيعي" على عاتقه وصف السماوات، والأرض، وكل المعروف من عالم النبات والحيوان، بما فيه الإنسان. وحاول بوفون أن يرد كل هذه المتاهة من الحقائق إلى نظام وقانون عن طريق أفكار الاستمرارية شطايا تحطمت عن الشمس إثر اصطدامها بمذنب، ونظريته في "حقب الطبيعة" التي رآها مراحل في تطور الكرة الأرضية. أما في عالم النبات فقد رفض تصنيف لينبوس للنباتات حسب أعضائها الجنسية لأنه شديد التعسف والنقص والصلابة. وقد قبل طريقة لينبوس في المصطلحات على مضض، واشترط أن توضع الأسماء على جنب في أسفل البطاقات الملحقة

صفحة رقم : 12443

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

بالنباتات في حديقة الجاردان (97). وكان تصنيفه للحيوانات غير معقول، ولكنه اعترف بأنه مؤقت؛ فقد رتبها حسب نفعها للإنسان، ومن ثم بدأ بالحصان. وفي تاريخ لاحق، وبعد إلحاح من دوينتون، وضع تصنيفاً جديداً لها حسب خصائصها المميزة. وضحك نقاده المتخصصون على تصنيفاته وتشككوا في تعميماته، ولكن قرأه طربوا لأوصافه الحية ولا تتسع نظراته العظيم.

وقد ساعد على إرساء دعائم الأنثروبولوجيا (علم الجنس البشرية) بدراسة اختلافات النوع الإنساني تحت تأثير المناخ، والتربة، والأنظمة، والمعتقدات؛ ورأى أن هذه القوى قد نوعت لون الأجناس وملامحها، وولدت خلافاً في العادات، والأذواق، والأفكار. ومن أجراً فروضه قوله بأنه ليس في الطبيعة أنواع ثابتة لا تقبل التغيير، وأن النوع منها يذوب في النوع التالي، وأن في استطاعة العلم إذا نضج أن يصعد خطوة فخطوة من المعادن المفروض أنها ميتة، إلى الإنسان نفسه. ولم ير إلا فرقاً في الدرجة بين غير العضوي والعضوي.

وقد لاحظ أن صوراً جديدة من الحيوان تكونت بالانتخاب الطبيعي، وزعم أن في الإمكان إحداث نتائج مماثلة في الطبيعة بالهجرة والعزل الجغرافيين. وسبق ماثوس بملاحظته أن خصوبة أنواع النبات الحيوان التي لا رابط لها تلقي باستمرار عيباً باهظاً على خصوبة التربة، مما قد يؤدي بالكثير من الأفراد والأنواع في الصراع على البقاء: "لقد اختفت، أو ستختفي، أنواع أقل كما لا، وأضعف، وأثقل، وأقل نشاطاً، وأردأ تسليحاً" (98). ..وهذه أنواع كثيرة، أو انحطت، نتيجة لتغيرات كبيرة في اليابس أو الماء، ولرضى أو سخطها عليها، وللطعام، ولتأثيرات المناخ الطويلة الأمد، والمعاكسة أو الموازية... فلم تعد اليوم كما كانت بالأمس" (99).

ومع أنه سلم بوجود نفس للإنسان، فقد تبين في جسم الإنسان أعضاء الحس والأعصاب، والعضلات، والعظام، ذاتها التي في الحيوانات العليا.

صفحة رقم : 12444

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

ومن ثم فقد رد "الحب الرومانسي" إلى ذات الأساس الفسيولوجي الذي في جاذبية الحيوان الجنسية. لا بل أنه احتفظ بشعر الحب لأوصافه البليغة لتزاوج الطيور ورعايتها لصغارها. وتساءل "لم يسعد الحب جميع الكائنات الأخرى ويشقى الإنسان هذا الشقاء الكثير؟ لأن الجزء البدني من هذه العاطفة هو وحده الحسن، أما العناصر الأخلاقية فيها فلا قيمة لها" (100). وقد وبخته مدام دبومبادور على هذه الفقرة ولكن في لطف كثير (101) وخلص بوفون إلى أن الإنسان حيوان في كل نقطة "مادية" (102).

"ومتى سلمنا بأن هناك عائلات من النبات والحيوان، أي أن الحمار قد ينتمي لعائلة الحصان، وأن الواحد منها لا يختلف عن الآخر إلا في تسلسله المنحط من نفس الجد... فقد نضطر إلى التسليم بأن القرد ينتمي لعائلة الإنسان، وأنه ليس إلا إنساناً منحطاً، وأنه هو والإنسان كان لهما جد واحد. وإذا تبين أنه كان بين الحيوانات والنباتات... ولو نوع واحد أنتج خلال التسلسل المباشر من نوع آخر... إذن فليس هناك حدود يمكن أن تقيد قوة الطبيعة، ولن نخطئ إن افترضنا أنه لو ترك لها الوقت الكافي لاستطاعت أن تطور جميع الأشكال العضوية الأخرى من نوع أصلي واحد". ثم أضاف بوفون هذه العبارة بعد أن تذكر فجأة سفر التكوين وجامعة السوربون "ولكن لا. فالثابت من الوحي الإلهي أن جميع الحيوانات قد وهبت بالتساوي نعمة خلقها خلقاً مباشراً، وأن أول زوج من كل نوع خرج مكتمل الصورة من يدي الخالق" (103).

ولكن مدير السوربون، أو كلية اللاهوت في جامعة باريس، نيه بوفون رغم ذلك (15 يونيو 1751) إلى أن أجزاء من "تاريخه الطبيعي" تناقض تعاليم الدين، ويجب أن تسحب-لا سيما آرائه عن عمر الأرض الطويل، وانبعث الكواكب من الشمس، وتأكيده بأن الحقيقة لا تستقى إلا من العلم. واعتذر المؤلف مبتسماً:  
"أقرر أنه لم يكن أي نية في مناقضة نص الكتاب المقدس، وإنني أومن أوطد الإيمان بكل ما حواه الكتاب خاصة بالخليقة، سواء من حيث ترتيب الزمن أو الحقائق المتضمنة. وإنني أعدل عن كل ما ورد في

صفحة رقم : 12445

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

كتابي عن تكوين الأرض، وبصفة عامة عن كل ما قد يناقض رواية موسى" (104).



ولعل بوفون، الرجل الأرسقراطي، أحس أن من سوء الأدب أن يختلف جهراً مع إيمان الشعب، وأن "سوربونا" لم تهدأ تأثيراتها قد تقسد عليه خطته الكبرى؛ وعلى أية حال؛ فإن كتابه إذا اكتمل سيكون تعقيباً منبراً على اعتذاره. وقد تبينت الطبقات المتعلمة الابتسامة فيسحب آراءه، ولاحظت أن مجلدات الكتاب التالية واصلت هزطقاته. ولكن بوفون أبى أن ينضم إلى فولتير وديدور في هجومهما على المسيحية. وقد رفض دعوى لامترى وغيره من الماديين باختزال الحياة والفكر إلى مادة في حركة ميكانيكية. أن النظام، والحياة، والنفس، هي وجودنا الحقيقي الصحيح؛ وما المادة إلا غلاف غريب لا نعرف صلته بالنفس، ووجوده عقبة (105).

ومع ذلك رحب به "الفلاسفة" حليفاً قوياً. ولاحظوا أن حماسه ونداءاته موجهة إلى طبيعة لا شخصية، خلافة، خصبة، لا إلى إله شخصي. فانه عند بوفون كما هو عند فولتير بذور الحياة ثم ترك للأسباب الطبيعية القيام بالباقي كله. وقد رفض بوفون فكرة القصد في الطبيعة، ومال إلى وحدة وجود اسبينوزية ورأى الحقيقة الواقعة كما رآها تورجنيف، مختبراً كونياً شاسعاً تتناول فيه الطبيعة بالتجربة، على مدى دهور طويلة، الشكل أو العضو أو النوع، الواحد تلو الآخر، وفي هذه الرؤية انتهى إلى نتيجة تبدو متناقضة مع نقده للينبوس: فالفرد هو الذي بدأ الآن غير حقيقي، والنوع هو الحقيقة الباقية نسبياً. ولكن التناقض يمكن حله: فالنوع والجنس والعائلة والرتبة، لم تنزل أفكاراً لا غير، يركبها الذهن ليعطي نظاماً ميسراً لخبرتنا بالوفرة المحيرة في الكائنات العضوية، والأفراد هم الحقائق الحية الوحيدة، ولكن أجلهم قصير قصراً يجعل الفيلسوف لا يرى فيهم غير بصمات عابرة بتركها شكل أكبر وأطول بقاء. وبهذا المعنى كان أفلاطون محقاً: فالإنسان "حقيقي"، أما "الناس" فلحظات عابرة في خيال ظل الحياة. واستمتع قراء بوفون بهذه الرؤى التي تدير الرأس، ولكن نقاده

صفحة رقم : 12446

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

أخذوا عليه إنه ضيع نفسه بتهور شديد في التعميمات، مضحياً أحياناً بدقة التفاصيل. وضحك فولتير على تقبله فكرة التوالد الذاتي، واحتقر لينبوس مؤلفه في النباتات، ولم يحترم ريامور دراسته للنحل، واستخف علماء الحيوان بتصنيفه الحيوانات نفعها للإنسان. ولكن الناس جميعاً صفقوا لأسلوبه. ذلك أن بوفون ينتمي للأدب كما ينتمي للعلم، ولا يستطيع إنصافه إلا التاريخ المتكامل. فندر من العلماء من أفصح عن نفسه بمثل هذه البلاغة الرائعة. وقد قال فيه روسو، وهو أحد أساتذة الأساليب، "إنني لا أعرف له ضريباً في عالم الكتابة. فقلمه أول قلم في قرنه" (106). وفي هذا اتفق جريم الحكيم مع روسو رغم عدائه له. "يحق للمرء أن يدهش لقراءة أحاديث قد يبلغ الحديث منها مائة صفحة، كتبت دائماً من أول سطر إلى آخره، بأسلوب رفيع وحرارة مضطردة واحدة، وزينت بأروع تلوّن وأكثره طبيعية" (107). لقد كتب بوفون كما يكتب رجل تحرر من أغلال العوز ووهب متسعاً من الوقت، فلم يكن في إنتاجه ما كتب على عجل كما نجد ذلك كثيراً في فولتير، وكان بألفاظه عنايته بعيناته. وغذ تبين في الأشياء قانون استمرارية لاينتنسيا، فقد أرسى نظرية في الأسلوب، فصقل كل الانتقالات، ورتب كل الأفكار في تسلسل جعل لغته تتدفق كأنها نهر عريض عميق. وبينما كل السر في أسلوب فولتير هو التعبير السريع الواضح عن الفكر الناقد، كانت طريقة بوفون هي الترتيب المتأنى لأفكار عريضة تتبض بالوجدان فلقد أحس بجلال الطبيعة وجعل من علمه أنشودة تسبيح. وكان على وعي تام بنزعة الأدبية، يهجه أن يقرأ لزواره فقرات عذبة من كتبه؛ وحين انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية لم يتخذ موضوعاً له يوم استقبله (25 أغسطس 1753) عجيبة من أعجيب العلم، بل تحليلاً للأسلوب. وحوى هذا الخطاب المشهور، كما قال كوفيه، "المبدأ والمثال جميعاً" (108)، لأنه هو نفسه كان درة من درر الأسلوب. وهو مخفي عن عين جميع الناس -إلا الفرنسيين- تحت أكداس مؤلفاته، ولم نكد نعرف منه غير حكمه الشهير، الجامع، الخفي المغزي، "الأسلوب هو الإنسان".

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; علم الحيوان

فلنبسطة هنا إذن، ونأمل على مهل. والترجمة تذهب ببعض روائه، ولكنه مع ذلك، ورغم ما تضطرننا إليه العجلة القبيحة من بتر لبعضه، فإنه خليق بأن الصحائف أياً كانت". قال بعد أن قدم لخطابه بتحية لجمهور ضم الكثيرين من أصحاب الأساليب:

"إن الناس لم يتقنوا الكتابة والحديث إلا في العصور المستتيرة. فالبلاغة الصادقة... تختلف تماماً عن سهولة الحديث الطبيعية... التي وهبت لكل صاحب عاطفة قوية... وخيال سريع... أما القلة من الناس الذين وهبوا الفكر الممتزن، والذوق الرفيع، والحس المرفه -الذين لا يعبأون كثيراً، شأنكم أيها السادة، بنبر الكلمات، وإيماءاتها، ورنينها الأجوف- هؤلاء يتطلبون المضمون، والفكر، والتميز، يتطلبون فن تقديم كل أولئك وتحديدها، وترتيبها، فلا يكفي قرع الأذان واسترعاء العيون، فلا بد للمرء أن يؤثر في النفس ويلمس القلب وهو يتحدث إلى الذهن... وكلما ازدادت المادة والقوة اللتان نضفيهما على فكرنا بالتأمل، سهل بلوغهما في التعبير.

كل هذا ليس الأسلوب بعد، بل أساسه، أنه يدعم الأسلوب ويوجهه، وينظم حركته، ويخضعه للقوانين. فيدونه بضل خير الكتاب، ويتوه قلمه دون مرشد، ويقذف كيفما اتفق بالخطوط المبهمة والأشكال المتنافرة. ومهما كان بريق الألوان التي يستعملها، وأياً كانت المحسنات التي ينثرها في التفاضيل، فسيختنق بكثرة أفكاره، ولن يبعث فينا وجداناً، ولن يكون لكتابه هيكل أو بنيان... ومن ثم يسئ الكتابة من يكتبون كما يتحدثون، مهما أجادوا الحديث، والذين يستسلمون لأول الهام حار من خيالهم يتخذون نيرة لا يستطيعون الإبقاء عليها... ما السر في كمال أعمال الطبيعة؟ هو أن أي عمل من هذه الأعمال كل متكامل: لأن الطبيعة تعمل وفق خطة سرمدية لا تنساها أبداً، فهي تعد في صمت بذور إنتاجها، وترسم بخطة فرشاة واحدة الشكل البدائي لكل شيء حي، ثم تطوره وتصله بحركة متصلة وفي زمن مقرر... وذهن الإنسان لا يستطيع أن يخلق شيئاً، أو ينتج شيئاً، إلا بعد أن تنريه التجربة

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; علم الحيوان

والتأمل، وتجاربه هي بذار منتجاته. ولكن لو أن الإنسان حاكي الطبيعة في طريقته وفي جهوده، ولو أنه ارتقى بالتأمل إلى أسمى الحقائق، ولو أنه وحد بينها من جديد وربط بينها في سلسلة، وألف منها كلا واحداً، ونسقاً محسوباً، لو أنه فعل هذا كله لأقام على أسس راسخة صروحاً خالدة على الزمن.

وبسبب افتقار الكاتب إلى مخطط، معدم تفكيره في هدفه تفكيراً كافياً، يجد نفسه حائراً حتى إذا كان من رجال الفكر- لا يعرف من أين يبدأ الكتابة؛ فهو يرى في وقت واحد عدداً كبيراً من الأفكار، ولأنه لم يوازن بينها، ولم يرتبها

منظماً، فما من شئ يدعو لتفضيل بعضها على بعض، ومن ثم يظل في حيرته. أما إذا وضع له مخططاً، وإذا جمع ورتب جميع الأفكار الأساسية في موضوعه، فسيرى للتو، وفي يسر، في أي نقطة يجدر به أن يتناول قلمه، وسيحسن بأفكاره تنضج في ذهنه، وسيبادر إلى إخراجها للنور، وسيستشعر لذة في الكتابة، وستتلو أفكاره بعضها بعضاً في غير عناء، وسيكون أسلوبه طبيعياً وسهلاً، وسينبعث من هذه اللذة ضرب من الدفء ينبسط على عمله، ويضفي الحرارة على عبارته؛ وسيزداد النبض في كتابته ويعلو النبر، وتتخذ الأشياء لها لونها، ويزداد الشعور وينتشر بعد التحامه بالنور، وينتقل من ذلك الذي نقوله إلى ذلك الذي نوشك أن نقوله؛ وسيصبح ممتعاً مشرقاً... ولن تنحدر إلى الأجيال القادمة غير الأعمال التي أجيدت كتابتها. ولن يكون ما حوت من غزارة في المعرفة، أو غرابة في الوقائع، أو حتى طرافة في الكشوف، ضماناً أكيداً للخلود. فلو أن الأعمال التي تحوي هذا كله اهتمت بموضوعات تافهة، أو كتبت دون تمييز أو سمو... لكان مآلها إلى الزوال، ذلك أن المعرفة، والوقائع والكشوف، يسهل نقلها وسلبها، بل إنها تكون أوفر حظاً لو وضعت في أيدٍ أقدر وأكفأ. فتلك الأشياء خارجة عن الإنسان، أما الأسلوب فهو الإنسان ذاته Le style est l'homme meme، إن الأسلوب لا يمكن سرقة، ولا حمله، ولا تغييره وتبديله، وإذا كان أسلوباً رفيعاً، نبيلاً، سامياً، كان صاحبه موضع الإعجاب في جميع العصور على السواء؛ ذلك أن الحقيقة وحدها هي الباقية الخالدة" (109).

صفحة رقم : 12449

قصة الحضارة - عصر فولتير - تقدم العلم - التقدم العلمي - علم الحيوان

يقول فيلمان "أن هذا الخطاب الذي أثار الإعجاب الشديد في ذلك الحين يبدو أسمى من كل ما خطر على الأفكار قبله في هذا الموضوع، ونحن نستشهد به حتى في يومنا هذا بوصفه قاعدة عامة جامعة". وربما وجبت بعض الاستثناءات من هذا الحكم. فوصف بوفون هذا يصدق على النثر خيراً مما يصدق على الشعر، وهو ينصف الأسلوب "الكلاسيكي" أكثر مما ينصف الأسلوب "الرومانسي"، وهو يتبع تقليد بوالو، ويرفع بحق من شأن العقل؛ ولكنه لا يترك متسعاً يذكر لفحول النثر الفرنسي من أمثال روسو، وشاتوبريان، وهوجو، ولا لفوضى رابليه ومونتينيني اللذيذة، ولا لبساطة العهد الجديد المؤثرة البريئة من التكلف. ومن العسير عليه أن يدلنا على السر في أن "اعترافات" روسو، الشديدة الفقر في الفكر، الوافرة الغني في الوجدان، ما زالت من أروع كتب القرن الثامن عشر. فالحقيقة قد تكون واقع وجدان كما تكون ببيان فكر أو كمال صورة.

ولقد كان أسلوب بوفون هو الرجل، رداءً وقوراً لنفس أرسنقراطية. فهو لم ينس أنه إقطاعي كما كان عالماً وكتائباً إلا في دراساته. ولم تغير خطوه أسباب التشريف المتكاثرة التي توجت شيخوخته. فقد خلع عليه لويس الخامس عشر لقب الكونت ديبوفون في 1771 ودعاه إلى فونتنبلو. ومنحته أكاديميات أوربا وأمريكا العلمية عضويتها الشرفية. وقد تفرس في هدوء واطمئنان في التمثال الذي أقامه له ابنه في الجاردان دورا وغدا يرجه في مونبار أبان حياته قبلة يحج إليها الزائرون كما يحجون إلى بيت فولتير في فرنيه، وقد عليه روسو، وركع على عتبته، وقبل الأرض (111). وزاره هنري أمير بروسيا، ومع أن كاترين الكبرى لم تسطع زيارته، إلا أنها أرسلت له كلمة تقول إنها تضعه في أعلى المراتب بعد نيوتن.

ولقد كان مهيب المظهر مليح الصورة في شيخوخته - "له جسم رياضي" كما قال فولتير "روح حكيم" (112) وكان في رأي هيوم لا يبدو رجل أدب بل قائداً من قواد فرنسا الحربيين (113). أما أهل مونبار فكانوا يعبدونه. وكان بوفون على وعي تام بهذا كله، يفخر بلباقتة البدنية وبمظهره، ويرجل له شعره ويبدد مرتين في اليوم (114). وقد نعم

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; علم الحيوان

بصحة سابعة حتى بلغ الثانية والسبعين. ثم بدأ يشكو الحصى، ولكنه واصل العمل، وأبى أن تجرى له جراحة. وأفسح له في الأجل تسع سنين آخر، ومات في 1788. ومشى في جنازته عشرون ألفاً. ولكن لم تكد تمضي سنة على موته حتى نبشت رفاته وذريت في الريح، وسوى تمثاله بالتراب، بأيدي الثوار الذين لم يستطيعوا أن يغفروا له أنه كان نبيلاً، أما ابنه فقد أعدم بالجلوتين(115).

## ب- نحو التطور

بدأ علم الأحياء الذي تزعمه هذا الأستاذ الفذ في نظرته، وصبره، ونثره، في إغراء المزيد من الطلاب وتحويلهم عن الرياضة والفيزياء اللتين استأثرتا بمعظم العلماء في القرن السابع عشر. وقد أحسن ديرو ببعض هذا التغيير، وهو الذي تأثر بجميع تيارات عصره، فكتب في 1754 يقول "في هذه اللحظة نصل إلى ثورة كبرى في العلوم. وأنى إذ ألاحظ الميل الذي تستشعره أفضل العقول لدراسة الفلسفة الأخلاقية، والأدب، والتاريخ الطبيعي، والفيزياء التجريبية، أجرؤ على التنبؤ بأنه قبل أن تنقضي مائة سنة أخرى لن يكون لدينا ثلاثة رياضيين كبار في أوروبا"(116). وقد شهد عام 1759 ذروة البيولوجيا الحديثة.

وقد فت في عضد هذا العلم الجديد (الأحياء) معضلته الأولى -وهي أصل الحياة. وبذلت المحاولات الكثيرة لإثبات إمكان توليد الحياة ذاتياً من المادة غير الحية. ودبت الحياة من جديد في نظرية التولد الطبيعي أو الذاتي abiogenesis القديمة نظراً إلى كثرة ما وجد بالمجهر من كائنات دقيقة في قطرة ماء، وذلك برغم ما وضح من تفنيد ريدي لهذه النظرية في 1668. ففي 1748 أحيا النظرية جون نيدام، وكان قسيساً كاثوليكياً إنجليزياً يسكن القارة، بإعادته تجارب ريدي وحصوله على نتائج مختلفة عن نتائجه. فقد إلى بعض مرق الضأن في قوارير سدها فوراً بفلين وختم عليها. فلما فتح القوارير بعد أيام وجدها تعج بالكائنات الحية. ولما كان الغلي- في رأي نيدام- كفيلاً بقتل أي جرثيم حية في المرق، ولما كانت القوارير قد أحكم ختمها بالصمغ، فقد استنتج أن كائنات جديدة تولدت

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; علم الحيوان

تلقائياً في السائل. وأعجبت الحجة بوفون، ولكن في 1765 كرر أستاذ في جامعة مودينا يدعى سبالانزاني تجارب نيدام وخرج منها بنتيجة عكسية. فقد وجد أن غلي شراب دقيقتين لم يقضي على كل الجرثيم، أما غليه خمساً وخمسين

دقيقة قد قضى عليها، وفي هذه الحالة لم تظهر أي كائنات حية. ومضى الجدل حتى بدا أن شفان وباستير قد أنهياه في القرن التاسع عشر.

كذلك أحاطت بعمليات التناسل أسرار لا تقل عن هذا السر إثارة للحيرة. فقد حار جيمس لوجان، وشارل بونيه، وكاسبار فولف، في دوري عنصري الذكر والأنثى في التناسل، وتساءلوا كيف يمكن أن يحتوي العنصران المتحدان في ذاتيهما كما يبدو أنهما يفعلان- التحديد المحتوم لجميع الأجزاء والهيكل في الكائن الناضج. واقترح بونيه نظرية مغرقة في الخيال سماها emboitement (التكيس)، فالأنثى تحوي جراثيم أطفالها جميعاً، وهذه الجراثيم تحوي جراثيم الحفدة، وهكذا دواليك حتى يتمرد الخيال. ولا عجب فالعلم هو أيضاً يستطيع الانحراف إلى الخرافة. أما فولف، الذي يزين اسمه الفنون الفولفية، فقد دافع عن نظرية هارفي في التوالد الخارجي epigenesis: فكل جنين يخلق من جديد بواسطة العناصر الأبوية. وسبق فولف نظرية تكوين الأعضاء التي قال بها فون باير في واضع الجراثيم، بكتابة "في تكوين الأحشاء". (1768)، الذي وصفه فون باير بأنه "أعظم ما نملك من روائع الملاحظة العملية" (117).

وهل تجدد النسيج نوع من التناسل؟ لقد أدهش العالم الجيني إبراهيم ترميلي العلمي في 1744 بتجارب كشفت عن إصرار "كثير الأرجل Polyp" الذي يعيش في الماء العذب على التجدد، فقد قطع واحداً منها إلى شطائر طولية أربعة، نما كل منها إلى كائن سوى كامل. وتردد هل يسمى كثير الأرجل هذا نباتاً أم حيواناً؟ فقد بدا له جذوراً كالنبات، ولكنه ينهش الطعام ويهضمه كما يفعل الحيوان؛ وهلل المتكهنون له باعتباره همزة الوصل بين عالمي النبات والحيوان في "سلسلة الوجود العظمى" (118) أما ترميلي فقد انتهى إلى أنه حيوان، وهو رأى البيولوجيين فيه اليوم. وقد أطلق عليه ريامور لفظ "Polyp" أو كثير الأرجل بسبب قرون

صفحة رقم : 12452

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

استشعاره المترعصة المتحسنة. ونحن نعرفه أيضاً باسم الهيدرا hydra نسبة إلى الوحش الخرافي (الافعوان) ذي الرؤوس التسعة (الذي كلما قطع هرقل رأساً منها نبت اثنان في مكانه. وقد استعمل "الهيدرا" في دنيا الأدب تشبيهاً له مائة ألف حياة.

ورينيه أنطوان دريامور هذا كان علماً لا يميزه في بيولوجيا العصر الذي نحن بصدده غير بوفون، وكان يفوق بوفون كثيراً في دقة الملاحظة. هياً لمهنة الطب، ولكنه هجرها حالما تحقق له الاستقلال المالي، وكرس نفسه للبحث العلمي. خبر إثنى عشر ميدان. ففي 1710 كلف بأن يمسح ويصف صناعات فرنسا وفنونها الصناعية، فقام بالمهمة بما عهد فيه من إتقان وقدم توصيات أفضل إلى إنشاء صناعات جديدة وإحياء أخرى أصابها الاضمحلال وابتكر طريقة لتصفية الحديد ما زالت مستعملة. وبحث في الفروق الكيميائية بين الحديد والصلب. وأنته هذه الإسهامات وغيرها في علم المعادن بمعايش قدره اثنا عشر ألف جنيه من الحكومة، فأعطى المال لأكاديمية العلوم. وقد مر بنا بحثه في الترمومتر.

وفي غضون هذا راح يثري البيولوجيا. ففي 1712 أثبت أن في استطاعة جراد البحر (اللوبستر) أن يجدد طرفاً مبتوراً من أطرافه. وفي 1715 وصف الصدمة الكهربائية التي يحدثها السمك الرعادوصفاً صحيحاً. وفيما بين عامي 1734 و1742 نشر رائته "مذكرات ينتفع بها في تاريخ الحشرات" -وهي ستة مجلدات موضحة برسوم دقيقة، ومكتوبة بأسلوب ساحر ينبض بالحياة، جعل الحشرات قريبة في طرافتها من العشاق في روايات كريبيون (الابن) الغرامية. ولقد استهواه كما استهوى قابر في أيامنا هذه:

"كل ما يمت إلى أخلاق الكثير من الحيوانات الصغيرة -إن جاز هذا التعبير- وعاداتها ومعيشتها. فلقد لاحظت طرق عيشتها المختلفة، وكيف تحصل على قوتها، والحيل التي يصطنعها بعضها للقبض على فريسته، وأسباب الحيلة التي

يتخذها غيرها اتقاء للأعداء... وانتقاء الأماكن التي تضع فيه بيضها حتى تجد صغارها حين تقفس طعاماً صالحاً لها لحظة خروجها للحياة" (119).

صفحة رقم : 12453

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

وقد وافق ريامور فولتير على أن في الإمكان تفسير سلوك الكائنات الحية وبنياتها دون افتراض قوة في الطبيعة، وكانت مجلداته ذخيرة استعان بها أولئك الذين قاوموا التيار الإلحاد الذي تدفق بعد حين في فرنسا. واحتقره ديدرو لإنفاقه الوقت الكثير على دراسة البق (120)، ولكن أمثال هذا العمل المدقق هي التي أرسى الأسس الواقعية للبيولوجيا الحديثة.

ترى ماذا قال ديدرو بالضرورة حين سمع أن شارل بونيه، صديق ريامور، قد برهن على الولادة العذرية parthenogenesis في مملكة الحيوان؟ فلقد وجد بعزل من الأحاديث من حديث الولادة aphids (وهو قمل الشجر الذي يعيش أشجار البرتقال) إن أنثى هذا النوع تستطيع إنسال ذرية مخصبة دون أن تضطر إلى تلقي العنصر الذكر المطلوب في الأخصاب عادة؟ إذن فهدف الجنس فيما يبدو ليس مجرد التناسل، بل إثراء الذرية بشتى الصفات التي يسهم بها أبوان مختلفا المواهب. وقد وصفت هذه التجارب التي أبلغت لأكاديمية العلوم في 1740 في كتاب بونيه "رسالة في علم الحشرات" (1745) وأشار بونيه في كتابه "أبحاث... في النباتات" (1754) إلى أن لبعض النباتات قوى للحس، بل للتمييز والانتقاء، وإن ففقدرة على الحكم - وهذا سر الذكاء.

وبونيه هذا - الذي ولد بجنيف- أول من طبق اصطلاح "التطور envalution على البيولوجيا فيما يبدو (121)، وعنى به سلسلة الكائنات من الذرات إلى الإنسان. وفكرة التطور، بمعنى النمو الطبيعي لأنواع جديدة من أخرى قديمة، ظهرت مراراً في علم القرن الثامن عشر وفلسفته. ومن ذلك أن بنوا دمايه ألمع في كتابه "تياميد" الذي صدر بعد موته (1748) إلى أن جميع الحيوانات البرية تطورت من كائنات بحرية قريبة منها بطريق تغير النوع بتغير البيئة؛ وهكذا تولدت الطيور من السمك الطائر، والسباع من سباع البحر، والإنسان من أناسي البحر. وبعد ثلاث سنوات لم يكتف كتاب موبرتوي "نظام الطبيعة" بتصنيف القرود مع البشر نوعين متقاربين (122)، بل سبق في خطوط عريضة- نظرية داروين في تطور الأنواع

صفحة رقم : 12454

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

الجديدة بطريق الانتقاء البيئي لأشكال عارضة صالحة للبقاء. قال العالم المنكود الحظ الذي كتب عليه أن يقع بعد قليل فوق قلم فولتير السليط:

"أن كل جزئ من الجزئيات البدائية التي تولف الجنين مشتق من البيان الأبوي المقابل له، ويحتفظ بضرب من الذكرى لشكله الأسبق. ومن ثم نستطيع أن نعلل في غير عناء تكون الأنواع الجديدة... إذا افترضنا أن الجزئيات البدائية قد لا تحتفظ دائماً بالترتيب الذي تكون عليه في الأبوين، بل تولد بالصدفة فوفاً تسفر بتكاثرها وتراكمها عن الأنواع التي لا حصر لها، والتي نشهدها اليوم" (123).

وهكذا يستطيع نموذج أصلي واحد إذا ترك له الوقت الكافي، أن يولد جميع الأنواع الحية (في رأي موبرتوي) -وهي قضية قبلها بوفون من قبيل الاجتهاد، ولقيت الاستحسان الحار من ديدرو.

وعاد جان باتيست روبينييه، في كتابه "عن الطبيعة" (1761) إلى فكرة أقدم عن التطور تقول بأنه "سلم من الكائنات" :فالطبيعة كلها سلسلة من المحاولات لإنتاج كائنات أكثر وأكثر رقياً، وكل الكائنات- طبقاً لقانون لايبنتس في الاستمرارية (الذي لم يعترف بأي انفصام بين أحط الكائنات وأرقاها)، حتى الأحجار، ما هي إلا تجارب تشق بها الطبيعة طريقها صعداً خلال المعادن، والنباتات، والحيوانات، إلى الإنسان. وما الإنسان إلا مرحلة في هذه المغامرة الكبرى، سوف تحل محله يوماً ما كائنات أرقى منه" (124).

أما القاضي الاسكتلندي جيمس بيرنت، لورد مونبودو، فقد كان داروينياً قبل داروين بزهاء قرن. ففي كتابه "أصل اللغة وتقدمها" (1773-92) صور إنسان ما قبل التاريخ كأنه بغير لغة وبغير نظام اجتماعي، لا يتميز إطلاقاً عن القرود من حيث مدركاته العقلية أو طرقه المعيشية. فالإنسان والأورانجوتان (كما قال إدوارد تايزن في 1699) ينتميان لجنس واحد، والأورانجوتان (يقصد به مونبودو الغوريلا أو الشمبانزي) إنسان فشل في أن يتطور. ولم يتطور إنسان ما قبل التاريخ ليصبح الإنسان البدائي

صفحة رقم : 12455

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

إلا بفضل اللغة والنظام الاجتماعي. فتاريخ البشر ليس هبوطاً من حالة الكمال الأصلية، كما جاء في سفر التكوين، بل صعود بطيء أليم(125)"

وقد لمس الشاعر جيبته تاريخ العلم في نقاط عديدة. ففي 1786 اكتشف العظم البينفكي، وفي 1790 ألمع إلى أن الججمة مؤلفة من قفاز معدلة. وتوصل دون اعتماد على كاسبار فولف- إلى النظرية القائلة بأن جميع أجزاء النبات تعديلات في الأوراق، وذهب إلى أن جميع النباتات انحدرت بالتطور العام من مثال أصلي واحد سماه Urfpanze. وآخر العلماء في شجرة دارويني اقرن الثامن عشر هو جد داروين العظيم. وأرزمس داروين هذا شخصية طريفة طرافة تشارلز حفيده. ولد في 1731، وتلقى علومه في مكبردج وأدنبرة، وشرع في ممارسة الطب في توتنجهام، ثم في لتشفيلد، ثم في داربي، حيث توفي عام 1802. وكان يركب بانتظام من لتشفيلد إلى برمنجهام (خمسة عشر ميلاً) ليحضر حفلات عشاء "الجمعية القمرية" التي كان روحها المحرك، التي أصبح بريستلي أشهر أعضائها. ومن الرسالة التالية التي بعث بها داروين الجد إلى ماثيو بولتن معترداً عن غيابه عن اجتماع للجمعية تشرق شخصية ألمعية محببة للنفس. قال:

"يؤسفني أن منعنتي الشياطين التي تصيب البشر بالأمراض... من مشاهدة جميع رجالكم العظام في سو هو (برمنجهام) اليوم. ليت شعري أي إبداعات، وأي ذكاء، وأي بلاغة- مينا فيزيقية، وميكانيكية، وصاروخية- ستلحق في جو اجتماعكم، يتقاذفها كالمكوك ليفي فلاسفتكم؟- بينما يقضى على أنا المسكين، حبيبس مركبة البريد، بأن تخضني هذه المركبة، وترجني، وتهزني، وترضني، على طريق الملك، لكي أخوض حرباً مع وجع في معدة إنسان، أو حمى في جسده(126)".

ووسط هذه الحياة الحافلة بالشواغل كتب كتاباً قيماً سماه زونوميا (فسيولوجيا الحيوان) (1794-96) مزج فيه الطب بالفلسفة، وعدة مجلدات من شعر العلم: "الحديقة النباتية" (1788)، و"غراميات

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

النباتات" (1788) و"هيكل الطبيعة" (1802). وقد أعرب هذا الكتاب الأخير عن أفكاره التطورية. فبدأ بتأكيده أن التوالد الذاتي هو أكثر النظريات احتمالاً في أصل الحياة. قال شعراً:  
 "إذن بغير أبوين، وبالتوالد التلقائي، ظهرت أول ذرات الأرض النابضة بالحياة... وولدت الحياة العضوية تحت الأمواج الطاغية وعذبت في كهوف المحيط اللؤلؤية؛ أولاً تتحرك كائنات دقيقة لا ترى بالمجهر على الوحل، أو تخترق اليم؛ وبعد أن تتفتح منها أجيال متعاقبة، تكتسب قدرات جديدة، وتتخذ لها أطرافاً أكبر، ومن ثم تظهر مجاميع لا حصر لها من النبات، وممالك حية تتنفس من ذوات الزعانف والأرجل والأجنحة(127)".  
 وهكذا تطورت الحياة من الكائنات البحرية إلى البرمائية في الطين، ثم إلى الأنواع التي لا تحصى في البحر والبر والجو. ونقل الشاعر عن بوفون وهلفتيوس آراءهما في خصائص تشريح الإنسان دليلاً على أن الإنسان مشى في الماضي على أربع، وأنه لم يكمل بعد تكيفه لوضعه المنتصب. وقد ارتقى نوع من القرود باستعماله قوائم الأمامية أيادي، وتطویره الإبهام قوة موازنة مفيدة للأصابع. وفي كل مراحل التطور صراع بين الحيوانات على الطعام والأزواج، وبين النباتات على التربة، والرطوبة، والضوء، والهواء. وفي هذا الصراع (في رأى إرزمس داروين) حدث الارتقاء بتطور الأعضاء نتيجة محاولات لتلبية الحاجات الجديدة (لا بالانتقاء الطبيعي لتغيرات مصادفة تساعد على البقاء كما سبقول تشارلز داروين)؛ والنباتات تنمو بجهودها للحصول على الهواء والضياء. وقد سبق هذا الطبيب في كتابه "زونوميا" لامارك بقوله: "من أن كل الحيوانات تمر بتغييرات تحدث جزئياً بجهودها الخاصة، استجابة للذة والألم، وكثير من هذه الأشكال أو الميول المكتسبة تتحد إلى ذرايعها(128)". ولسان الماشية الخشن لشد أوراق العشب، ومنقار الطائر لالتقاط الحب. وأضاف الطبيب إلى هذا كله نظرية التلوين الوقائي: "هناك أعضاء طورت لأغراض وقائية، تغير شكل الجسم ولونه للاستخفاء أو القتال"(129). ثم اختتم كلامه بلمحة جلييلة اشتملت دهوراً طويلة.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

"فإذا تأملنا الحقب الصغيرة من الأزمنة التي حدث فيها الكثير من التغييرات سألقة الذكر، أياكون من الجراء المسرفة أن نتصور في الزمن السحيق الذي انقضى منذ بدأت الأرض، ربما قبل بدء تاريخ الإنسان بملايين السنين- أن جميع الحيوانات ذوات الدم الحار نشأت من لقاح خبيط حي واحد، وهبته العلة العظمى الأولى ميزة حيوانية، والقدرة على



اكتساب أعضاء جديدة، تلازمها ميول جديدة، وتوجهها الانفعالات، والأحاسيس والإرادات، والارتباطات، فتملك بذلك قوة مواصلة التحسن بنشاطها الفطري الخاص، وتوريث تلك التحسينات لذراريها إلى آخر الدهر" (130)؟ كتب تشارلز داروين يقول "عجيب كيف سبق جدي... نظرات لامارك والأسس الخاطئة لأرائه، في كتابه زونوميا" (131). ولعل الجد لا يرضى بالتسليم بأنه كان سائراً على الطريق الخطأ. وهو على أية حال بسط نظرية لم تمت بعد، وبطريقته اللطيفة أسهم بضربة في الدفاع عن فكرة التطور.

ج - علم النفس

ومضى البحث العلمي قدماً من المعادن إلى النباتات إلى الحيوانات إلى الإنسان. وراحت رابطة متزايدة من الدارسين تتفحص جسم الإنسان وقد تسلحت بالمجهر وحفزتها حاجات الأطباء، فوجدت أعضاء ووظائفه شبيهة شبيهاً لا خلاف عليه بأعضاء الحيوانات الراقية ووظائفها. ولكن بدا أنه لا يزال هناك انفصال في سلسلة الكائنات. وأجمع الناس كلهم تقريباً على أن ذهن الإنسان يختلف عن ذهن الحيوان في النوع وفي الدرجة معاً. وفي 1749 اقتحم قسيس إنجليزي، تحول إلى احترام الطب، يدعى ديفد هارتلي، هذه الفجوة بتأسيسه علم النفس الفسيولوجي. وكان يجمع النباتات طوال ستة عشر عاماً (1730-46) ثم نشر في 1749 كتابه "ملاحظات حول الإنسان": ولما كان يطمع في إيجاد مبدأ يحكم العلاقات بين الأفكار كما اقترح نيوتن مبدأ الأجسام، فقد طبق ترابط الأفكار على تفسير العاطفة، والعقل، والحركة، والحس الخلقى،

صفحة رقم : 12458

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

لا على تفسير الخيال والذاكرة فحسب كما فعل هوبز ولوك من قبل قصور الإحساس على أنه في بدايته تموج في جزئيات عصب يثيره جسم خارجي، ثم لى أنه انتقال هذا التموج على هذا العصب إلى المخ، على نحو "انتشار الأصوات الطليق على صفحة الماء" (132). وقال إن المخ كتلة من الخويطات العصبية تموجاتها هي متلازمات الذكريات، يثير خويط أو أكثر منها تموج وافد مرتبط به في الخبرة الماضية؛ وهذا التموج هو الملازم الفسيولوجي للفكرة. فلكل حالة عقلية ملازم بدني، ولكل عملية بدنية مرافق عقلي أو عصبي؛ وترابط الأفكار هو الجانب العقلي لترابط التموجات العصبية الذي يحدثه تجاورها أو تعاقبها في خبرة ماضية. على أن الصورة الفسيولوجية التي رسمها هارتلي كانت بالطبع شديدة التبسيط، ولم تمس قط لغز الوعي، ولكنها شاركت في إقناع أقلية صغيرة من الإنجليز بفكرة فناء عقولهم. تناول قسيس آخر يدعى إتيين بونو دكوندياك مشكلات الذهن من جانب سيكولوجي خاص. وقد ولد في جريوبل (1714)، وتعلم في مدرسة لاهوتية لليسوعيين بباريس، ورسم قسيساً. فلما سمح له بالاختلاف إلى صالوني مدام دتانسان ومدام حيوفران، التقى بروسو وديدرو، وفقد حماسه الدينية، وهجر كل وظائفه الكهنوتية، وكرس نفسه للعبة الأفكار. فدرس المذاهب التاريخية للفلسفة ورفضها في كتابه "رسالة في المذاهب" (1749) الذي نطق بروح "الفلاسفة" فقال إن كل هذه الصروح المتعالية من أنصاف الحقيقة إنما هي تفرعات كثيرة كلها أو هام انتشرت من معرفتنا المبتورة للكون؛ وفحص جزء من التجربة بالاستقراء خير من التذليل على الكل بالاستنباط. وقد حذا كوندياك في كتابه "مقال في أصل المعارف البشرية" (1746) حذو لوك في تحليله للعمليات العقلية، ولكنه في أنجح كتبه "مقال في الأحاسيس قبل رأياً أكثر تطرفاً- هو أن "التأمل" الذي تبين فيه لوك مصدراً ثانياً للأفكار،

هو مجموعة أحاسيس، هي المصدر الوحيد لكل الحالات العقلية. إن هناك عالماً خارجياً، لأن أهم حواسنا وهي اللمس تلقى مقاومة؛ ومع ذلك فإن كل ما تعرفه هو أحاسيسنا والأفكار التي تولدها.

صفحة رقم : 12459

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

وقد وضح كوندياك هذه الدعوى بمقارنة مشهورة ربما نقلها عن بوفون، ولكنه نسب الفضل فيها إلى "مصدر وحيه" المتوفاة، وهي الأنسة فيران التي أوصت له بميراث طوقت به عنقه. فصور لنا تمثالا من الرخام "نظم باطنه على غرارنا، لكن يحركه عقل مجرد من جميع الأفكار" (133). وهو لا يملك غير حاسة واحدة هي حاسة الشم، وفي استطاعته التمييز بين اللذة والألم. ثم عمد إلى أن يبين كيف يمكن أن تستقى جميع ألوان التفكير من أحاسيس هذا التمثال. فالحكم، والتأمل، والرغبات، والانفعالات، الخ ليست غير أحاسيس تغيرت على أشكاله مختلفة (134). فالانتباه يولد مع الإحساس الأول، ويأتي الحكم مع الثاني، مما يولد المقارنة مع الأول. والتذكر إحساس ماض أحياء إحساس حاضر أو تذكر آخر. والخيال ذكرى تتصور أو تربط. والرغبة في الشيء أو النفور منه هي التذكر النشط لإحساس لذيق أو كريبه. والتأمل هو تناوب الذكريات والرغبات. والإرادة رغبة قوية يرافقها فرض بأن الهدف ممكن بلوغه. والشخصية، أو الأنا، أو التنفس، لا وجود لها أول الأمر؛ فهي تتخذ لها شكلا بوصفها جماع ذكريات الفرد ورغباته (135). وهكذا، من حاسة الشم وحدها-أو من أي حاسة أخرى غيرها- يمكن أن تستنبط جميع عمليات الذهن تقريباً. فإذا أضفنا أربع حواس أخرى، كون التمثال له ذهنًا معقدًا.

كل هذا كان جهداً ضخماً طريفاً، أثار ضجة كبرى بين رجال الفكر في باريس. ولكن النقاد لم يعسر عليهم أن يثبتوا أن طريقة كوندياك كان فيها من الاستنباط والفروض ما في غيرها من مذاهب الفلسفة، وأنه تجاهل مشكلة الوعي تجاهلاً تاماً؛ وأنه لم يبين لنا كيف نشأت الحساسة الأصلية. فالتمثال الحساس وإن اقتصر حواسه على الشم، ليس بتمثال، إلا أن يكون ذلك الوجه الذي قال ترجنيف في وصفه إنه يقف في كبرياء كأنه أثر لذكراه أقيم بالاكنتاب العام. وفي 1767 عين كوندياك مدرساً خاصاً للطفل الذي أصبح فيما بعد دوق بارما. فأنفق السنين التسع التالية في إيطاليا وألف لتلميذه سبعة عشر مجلداً نشرت في 1769-73 باسم "خطط دراسية". وهي رفيعة المستوى،

صفحة رقم : 12460

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

ولكن المجلدين اللذين تناولا التاريخ جديران بتحية خاصة لأنهما اشتملا على التاريخ الأفكار والعادات، والمذاهب الاقتصادية، والأخلاق، والفنون، والعلوم، والملاهي، والطرق-وهذا في مجموعة يؤلف سجلا للحضارة أو في مما

سجله فولتير في كتابه "مقالة عن الأعراف". وفي 1780، بناء على طلب الأمير أجناسي بوتوكي، وضع كتاباً في "المنطق" لمدارس لتوانا. وكان هذا أيضاً كتاباً فذاً في بابه. وفي تلك السنة مات مؤلفه. ودام تأثير كوندياك قرناً، فتجلى عام 1870 في كتاب تين "في الذكاء" وكانت سيكولوجية كوندياك أساساً في النظام التعليمي الذي وضعه المؤتمر الوطني الذي حكم فرنسا من 1792 إلى 1795. وقد اعترف له بفضل السبق مشرحتون مثل فيك-دازير، وكيميائيون مثل لافوازييه، وفلكيون مثل لابلاس، وأحيائيون مثل لامارك، وأطباء عقليون مثل بينيل، وسيكولوجيون مثل بونيه وكاباني. وقد وصف بيير جان جورج كاباتي الدماغ في 1796 بأنه "عضو خاص وظيفته الهامة أن ينتج الفكر كما أن للمعدة وظيفة خاصة هي مواصلة عملية الهضم، والكبد وظيفته هي ترشيح الصفراء" (136). وقد تجاهل "الفلاسفة" الذين أحاطوا بكوندياك تصريحاته بالإيمان بالله، وحرية الإرادة، والروح الخالدة غير المادية، وزعموا أن فلسفة طبيعية، نصف مادية، مؤمنة بمذهب اللذة، كانت النتيجة لرده المعرفة كلها إلى الإحساس، والبواعث كلها إلى اللذة والألم. وقد خلص روسو وهلفتيوس إلى أنه ما دام ذهن الإنسان عند مولده عبارة عن قدرة على الاستقبال لا أكثر، إذن ففي استطاعته التعليم أن يصوغ الذكاء والخلق دون نظر إلى الفروق الوراثية في القدرة العقلية. هذا كان الأساس السيكولوجي لكثير من الفلسفات السياسية المتطرفة. ولم يأت الانتقاض على السيكولوجية المادية في فرنسا إلا بعد أن قلم نابليون أظافر الثورة ووقع اتفاقية 1801 مع الكنيسة (الكونكوردا). وقد بكر هذا الانتقاض في ألمانيا، حيث كان التقليد المضاد للمذهب الحسي (وهو التقليد الموروث عن لايبنتس) لا يزال قوياً وهاجم رجال كيوهان نيكولاوس تيتنز الأستاذ بجامعة روستوك، مدرسة كوندياك زاعماً أن

صفحة رقم : 12461

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> علم الحيوان

اتباعها مجرد منظرين لا علماء. فكل هذا الحديث عن "التموجات" و"الساكنات العصبية" إنما هو محض افتراض؛ فهل رأى أحد هذه الأشياء؟ وزعم تيتنز أن السيكولوجية العلمية تستهدف الملاحظة المباشرة للعمليات الفعلية، وتجعل الاستنباط أدواتها الرئيسية، فتبنى بذلك سيكولوجية على أساس استقرائي بحق. وستجد بعد قليل أن "قوانين الترابط" التي صاغها هوبز، ولوك، وهارتلي، لا تتفق وخبرتنا الفعلية؛ وأن الخيال كثيراً ما يحيى أو يربط الأفكار في ترتيب يختلف تمام الاختلاف عن الترتيب الذي أعطاه إياه الإحساس، وأن حلقات في سلسلة الترابط تسقط أحياناً على نحو غريب جداً. ويبدو أن الرغبة هي الحقيقة المحايثة (الباطنة) للكائن الحي، وأنها لا تتفق غالباً مع القوانين الميكانيكا. والذهن قوة نشيطة مشكلة، لا "صفحة بيضاء"، يخط الإحساس عليها إرادته. وهكذا هياً المسرح لإيمانويل كانت.

صفحة رقم : 12462

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> تأثير العلم على الحضارة

## 10- تأثير العلم على الحضارة

إذا كان هذا الفصل قد طال أكثر من العادة رغم ما يشوبه من نقص فليس السبب أننا اعتبرنا العلماء وعلمهم منتمين إلى التاريخ فحسب، بل إن تطور الأفكار أيضاً هو موضع اهتمامنا الأساسي، وأن الأفكار لعبت دوراً في القرن الثامن عشر لا يفوقه أهمية غير طبيعة الإنسان نفسه. وإذا كانت منجزات العلم في تلك الحقبة الثورية لا تبلغ في إدهاشها مبلغ نظائرها في القرن الذي سبقها من جاليليو إلى ديكارت إلى نيوتن وليننتس، فإنها تغلغلت تغللاً أقوى في كل منحي تقريباً من مناحي التاريخ الأوربي. فيفضل فولتير وعشرات المفسرين الأقل منه شأنًا نشرت نتائج البحث في الطبقتين الوسطى والعليا، وشاركت العلوم الجديدة -علوم الكيمياء، والجيولوجيا، والحيوان- في التأثير البيئي، العميق رغم بطئه، الذي أثرت به المعرفة المتسعة على الذهن المثقف، وكانت النتائج بغير نهاية. والعجيب أن التأثير العلم كان أقله، وآخره، على التكنولوجيا. ذلك أن طرائق البشر في الزرع والحصاد، وفي التعدين والصناعة، وفي البناء والنقل،

صفحة رقم : 12463

### قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> التقدم العلمي -> تأثير العلم على الحضارة

كلها تكونت خلال قرون من التجربة والخطأ، ولم تتقبل التقاليد والجمود التحسينات التي اقترحتها التجارب المعملية إلا على مضض. ولم يفلح العلم في التعجيل بالثورة الصناعية إلا في نهاية هذا العصر. وحتى مع هذا البطء فإن المراحل الأولى لتلك الثورة دانت دينياً كبيراً للأبحاث الكيميائية على الأصباغ؛ فقد أرسى برتولليه (1788) استعمال الكلورين في تبييض المنسوجات، وأدخل جيمس هتن ونيكولا ليلان تصنيع الصودا وملح النشادر. وشاركت دراسة بوبل وماريوت للغازات، ودراسة بلاك للحرارة، في تطوير الآلة البخارية-الذي كان أكبر الفضل فيه على أية حال للميكانيكيين المهتمين بالأمر آنئذ. ويتقدم القرن نمت علاقة أوثق بين الرجال العمليين الذين ينشدون الإنتاج، والعلماء الذين ينشدون الحقيقة. وأوفدت أكاديمية باريس للعلوم باحثين إلى الحقول، والمصانع، والورش، وأصدرت عشرين مجلداً في "أوصاف الفنون والصناعات" (1761-81). ولقاء هذا بدأت الصناعات الوليدة تلجأ إلى العلم طلباً للمعلومات والتجارب؛ وهكذا اختزل كولومب جهد العوارض إلى صيغ يعتمد عليها، وحفرت مشكلات الآلة البخارية العلم إلى أبحاث جديدة في العلاقة بين القوة والحرارة. وقد قدر لهذه العلاقات في القرن التاسع عشر أن تغير العالم الاقتصادي والفيزيائي.

أما الأثر الأكبر للعلم فكان بالطبع على الفلسفة، ذلك أن الفلسفة، وهي البحث عن الحكمة، لا بد أن تقوم على العلم، وهو البحث عن المعرفة. وقد بدا في كل خطوة أن العلم يزيد العالم تعقيداً واتساعاً، وكان لا بد من تكوين منظرية جديدة. ولم يكن بالتكيف اليسير ذلك الذي كان على العقل البشري أن يتكيفه بعد أن اكتشف أن الإنسان ليس مركز الكون، بل ذرة ولحظة في اتساعات الفضاء والزمان غير المحدودة والمحيرة؛ ولم يتم ذلك التكيف إلى الآن. وباستجابة متعالية، قديمة قدم كوبرنيك، كاد الإنسان يغلبه الغرور بعظمة كشفه عن ضالته، وحجبت خيلاء العلم تواضع الفلسفة، وتخيل الناس عوالم مثالية جديدة بلغة العلم، وقدمت فكرة التقدم دينياً جديداً للنفس الحديثة.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; تأثير العلم على الحضارة

وبدا أن تأثير العلم على الدين-أو على الأصح على المسيحية-مमित. إن الناس كانوا سيمضون ولا ريب في تكوين، أو تحبيذ، مفاهيم عن العالم تمنح الأمل والعزاء، والمغزى والكرامة، للنفوس المعذبة القصيرة الأجل؛ ولكن كيف تستطيع ملحمة المسيحية عن الخليفة، والخطيئة، والفداء الإلهي، أن تثبت في منظور اختزل هذه الأرض إلى ذرة وسط مليون من النجوم؟ وما هو الإنسان حتى يذكره إله كون كهذا ويعنى به؟ وكيف يستطيع شعر سفر التكوين أن يثبت لكشوف الجيولوجيا؟ وما الرأي في الأديان العشرة أو تزيد، التي تدين بها أقطار كشفت عنها الجغرافيا؟ -أهي منحطة انحطاطاً لا ريب فيه عن المسيحية من حيث عقائدها ونواميسها ونتائجها الأخلاقية؟ وكيف يمكن التوفيق بين معجزات المسيح، فضلاً عن المعجزات التي ينسبها الكثيرون للقديسين والشيطان، وبين ما يبدو من سيادة ناموس الكون؟ وكيف يمكن أن تكون نفس الإنسان، أو عقله، خالداً إذا كان معتمداً هذا الاعتماد على الأعصاب وغيرها من الأنسجة الواضح أن مصيرها الفناء؟ وما الذي لا مناص من حدوثه للين الذي يتحدها على هذا النحو علم ينمو يوماً بعد يوم في رقعته ومنجزاته ومكانته؟ وما الذي لا مناص من حدوثه لحضارة قائمة على ناموس أخلاقي قائم على ذلك الدين؟

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; التقدم العلمي -&gt; تأثير العلم على الحضارة

وبدا أن تأثير العلم على الدين-أو على الأصح على المسيحية-مमित. إن الناس كانوا سيمضون ولا ريب في تكوين، أو تحبيذ، مفاهيم عن العالم تمنح الأمل والعزاء، والمغزى والكرامة، للنفوس المعذبة القصيرة الأجل؛ ولكن كيف تستطيع ملحمة المسيحية عن الخليفة، والخطيئة، والفداء الإلهي، أن تثبت في منظور اختزل هذه الأرض إلى ذرة وسط مليون من النجوم؟ وما هو الإنسان حتى يذكره إله كون كهذا ويعنى به؟ وكيف يستطيع شعر سفر التكوين أن يثبت لكشوف الجيولوجيا؟ وما الرأي في الأديان العشرة أو تزيد، التي تدين بها أقطار كشفت عنها الجغرافيا؟ -أهي منحطة انحطاطاً لا ريب فيه عن المسيحية من حيث عقائدها ونواميسها ونتائجها الأخلاقية؟ وكيف يمكن التوفيق بين معجزات المسيح، فضلاً عن المعجزات التي ينسبها الكثيرون للقديسين والشيطان، وبين ما يبدو من سيادة ناموس الكون؟ وكيف يمكن أن تكون نفس الإنسان، أو عقله، خالداً إذا كان معتمداً هذا الاعتماد على الأعصاب وغيرها من الأنسجة الواضح أن مصيرها الفناء؟ وما الذي لا مناص من حدوثه للين الذي يتحدها على هذا النحو علم ينمو يوماً بعد يوم في رقعته ومنجزاته ومكانته؟ وما الذي لا مناص من حدوثه لحضارة قائمة على ناموس أخلاقي قائم على ذلك الدين؟

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> التشريح والفسولوجيا

## الفصل السابع عشر

الطب

1789-1715

### 1- التشريح والفسولوجيا

ثم هناك أثر العلم في لطب. فقد ارتبط فن التطبيب بتحسين الميكروسكوب والترميز، وظهور الكيمياء والأحياء، وأهم من ذلك كله المعرفة المتقدمة بتشريح وفسولوجيا الإنسان والحيوان. وكان معظم الأبحاث في التشريح والفسولوجيا من عمل الأطباء أنفسهم.

وكان جوفاني باتيستا مورجاني أنموذجاً من الأطباء الكثيرين الذين جعلوا من الطب علماً باحتفاظهم بسجلات أكلينية للحالات التي جاءتهم للعلاج. ففحص سبعمائة من هذه الحالات خلال الفترة التي عمل فيها بإخلاص ممارساً للطب وأستاذاً له في بادوا. وفي عامه الثمانين (1761) روى ملاحظاته في سبعين رسالة أرست أساس التشريح الباثولوجي: "في مواطن العلل وأسبابها كما بحثها التشريح" هنا ساق أوصافاً عملية لانسداد القلب، والضمور الأصفر للكبد، وعمل الكلى، وربط بين العلامات الأكلينية للالتهاب الرئوي وتصلب الرئتين، وأضاف إضافات هامة لمبحث القلب يقول السر وليم أوزلر "ما زال الجزء الخاص بالتمدد الوعائي للأورطي من أفضل ما كتب في هذا الباب". "وهل من وصف أدق من وصفه للذبحة الصدرية؟" (1) وحصر موطن دواء الآن بوضوح أكثر من أي وقت مضى، في تغيرات مرضية تعرف أعضاء بعينها. وأعجبت المستشفيات بعمل مورجاني، فزودته ومعاونيه دون معارضة من الكنيسة أو الدولة بجنت الموتى من جميع طبقات المجتمع، حتى النبلاء ورجال الكنيسة؛ وأعرب أفراد كثيرون حياً في النهوض بالعلم، عن رغبتهم في أن يفحص مورجاني بعد موتهم (2). وقد أجرى التجارب على الحيوانات، دون أن يلقي هنا أيضاً أي احتجاج من الكنيسة.

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> التشريح والفسولوجيا

وواصل التدريس حتى بلغ التسعين. وفي 1764، حين كان في الثانية والثمانين، روى أنه "ينعم بعافية ابن الخمسين، ولا يزال يعمل دون استعانة بنظارات." (3) وقد لقبه طلابه في فخر برئيس المشرحين في أوربا كلها. وفي 1931 أقامت له بلده "فورلى" نصبا تذكاريًا في الميدان الذي يحمل اسمه. وأصبح تلميذه أنطونيو سكاريا أستاذًا للتشريح في مودينا وهو بعد في العشرين. فلما رقي لكرسي التشريح في بافيا حين بلغ السادسة والثلاثين (1783) شارك سبالانتساني وفولتا في دفع تلك الجامعة إلى مكانة مرموقة بين جامعات أوربا. واكسبه الشهرة الدولية دراساته التشريحية على الأذن والأنف، والأقدام، والأعصاب، وظل كتابه "ملاحظات على أمراض العيون الرئيسية" (1801) عشرات السنين الكتاب الجامعي العمدة في الرمد. أما فيليكس فيك دازير، الذي كان يصغر سكاريا بسنة واحدة فقط، فقد درس التشريح المقارن للطيور، وذوات الأربع، والإنسان. وأظهرت نتائجه تشابهاً غريباً مفصلاً في بنية الأطراف في البشر والحيوانات، وأسهمت في وضع الإنسان في مكانه البيولوجي. وقد مات في السادسة والأربعين (1794) قبل أن يتم عملاً أوصل تشريح الدماغ إلى ذروته في القرن الثامن عشر.

وفي بريطانيا العظمى أضاف الأخوان هنتر، والمولدان في إسكتلندا، مزيداً من البهاء على حركة التنوير الاسكتلندية بعملهما في التشريح والجراحة. فأحدثت محاضرات وليم ثورة في تدريس التشريح في لندن، حيث تعطلت هذه الدراسة طويلاً من جراء القيد المفروض على توافر الجثث. وقد ذاع صيته لكشفه الخطير (1758) للوظيفة الماصة للأوعية اللمفاوية، ولتأليفه كتاباً من عيون يسمى "تشريح الرحم الحامل" (1774)، ولطبعه الناري، الذي علله بأنه، وهو المشرح، قد أُلّف "خضوع الجثث له خضوعاً سلبياً" (4) ومات في 1783 وقد بلغ الخامسة والسنتين إثر إعياء أصابه في إحدى محاضراته. وقد أوصى بمجموعته التشريحية الكبرى لجلاسجوا، حيث ما زال محتفظاً بها في متحف هنتر.

صفحة رقم : 12467

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> التشريح والفسولوجيا

أما أخوة جون هنتر فالقد ولد بعده بعشر سنوات، ومات بعده بعشر أيضاً. وحين بلغ الحادية والعشرين (1749) كان قد حصل من العلم ما أهله للاضطلاع بصف ولیم في التشريح العملي. وبينما كان يعمل مع أخيه، حل مشكلة سقوط الخصيتين عند الجنين، وتتبع دورة المشيمة وتثبيات الأعصاب الأنفية والشمية، واكتشف القنوات الدمعية، وقام بدور رائد في عض وظائف القناة اللمفاوية. وفي السابعة والعشرين دخل أكسفورد، فلما وجد اللاتينية واليونانية أشد موافاة من جنث الموتى، ترك لكلية والتحق بالجيش جراحاً. وتعلم الكثير في أثناء الخدمة العاملة في الخارج عن جراحة البارود، فخلّف بعد موته رسالة قيمة في الموضوع. وقد مارس الجراحة وعلمها عند رجوعه إلى إنجلترا، وواصل أبحاثه في التشريح والفسولوجيا. وفي 1767 أصيب بحادث مزق له "أربطة أخيل" (التي تربط عضلات سمانة الساق بالعقب). ومن مشاهداته عن نفسه أنثذ، ومن تجاربه على الكلاب، توصل إلى جراحة ناجحة للأقدام المشوهة وغيرها من التشوهات التي تصيب الأربطة فيما تصيب. وحدث أنه حقن نفسه بالزهري عن غير قصد، فأرجا علاجه ريثما

يدرس المرض من خبرته الشخصية(5)، على أنه أخطأ في اعتباره الزهري والسيلان مرضا واحدا. وأثبت بالتجربة أن الهضم لا يحدث في الأفاعي والسحالي أثناء اسباتها. وجمع لأبحاثه في بيته ببرمتن معرضا غريبا للوحوش، فيه الديوك البرية، والحجل، وضافدع البر، والسمك، والأوز، والقنافظ، وديدان القز، والنحل، والدبابير الكبيرة والصغيرة، ونسر، وفهدان، وعجل. وكاد يفقد حياته في صراعه مع العجل ومحاولته القبض على الفهدين الهاريين. وقد شرح نيفا وخمسائة نوع من الحيوان. ودرس آثار مختلف السموم، واعترف في 1780 بأنه "سمم بضعة آلاف من الحيوان". وفي 1785 جلس إلى زينولدز ليرسمه، ولكنه كان كثير الحركة والتلمل أول الأمر. وأوشك السر جوشوا أن يعدل عن تصويره، حين أخذت هنتر سنة من أحلام اليقظة عميقة ساكنة مكنت المصور من تخطيط اللوحة المعروضة الأنفي كلية الجراحين الملكية. وكان جون كأخيه صاحب

صفحة رقم : 12468

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> التشريح والفسولوجيا

طبع نزع عات. وقال حين وجد نفسه عرضة للذبحة الصدرية "أن حياتي في يد أي وغد يطيب له أن يضايقتني ويغيضني"(6) وحدث أن أحد زملائه ناقضه، فاستشاط غضبا، ولم يلبث أن فارق الحياة بعد دقائق (1793)، ودفن في دير وستمنستر بجوار رفات بن جونسن. وقد حصل اتحاد الجراحين، بفضل منحة من الحكومة، على مجموعته المحتوية على ثلاثة عشر ألف عينة، وأصبحت المجموعة في 1836 متحف اللندني. و "الخطاب الهنتري" الذي يلقي في ذكراه واقعة سنوية في عالم الطب الإنجليزي.

أما الفسيولوجيا فإن أعظم أعلامها في هذه الحقبة هو ألبرشت فون هاللر وقد التقيا به شاعراً في شبابه، وفي سنوات اللاحقة وضع نفسه على رأس علماء الفسيولوجيا بكتابه "أصول فسيولوجية جسم الإنسان" الذي صدر في ثمانية مجلدات بين عامي 1757 و1766. ولم تقتصر هذه الأسفار على تسجيل ما توافر من علم بتشريح الإنسان وفسيولوجيته، بل شملت كذلك كشوفه عن دور الصفراء في هضم الدهون، وعن قابلية ألياف العضلات للتهيج أو التقلص مستقلة عن الأعصاب، لا بل عقب فصلها عن الجسد. وخلص دييرو من هذه التجارب وأمثالها إلى أنه "إذا كانت الحياة باقية في أعضاء فصلت عن الجسد، فأين هي النفس إذن؟ وما الذي يحدث لوحدثها؟... ولعدم قابليتها للانقسام"(7) وزعم بناء على هذه الشواهد أن جميع العمليات الفسيولوجية ميكانيكية. وخالفه هاللر، ففي رأيه أن قابلية النسيج العضوي للتهيج دليل مبدأ حيوي لا يوجد في المواد غير العضوية ولا يتفق والفلسفة الميكانيكية. وأظهر المزيد من دراسات هاللر أن "بنية عظام ذوات الأربع في جوهرها واحد هي وبنية الطيور" وأن "العظام في الإنسان لا تختلف في أي جزء من أجزاء بنيتها عن عظام ذوات الأربع"(8) وفي 1755 قام بأول ملاحظة مدونة لمرض التصلب السنبلي، أي تراكم الدهن في جدران الأوعية الدموية. يقول السر وليم فوستر "حين نفتح صفحات هاللر نشعر أننا انتقلنا إلى العصور الحديثة"(9).

صفحة رقم : 12469



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> التشريح والفسولوجيا

وأيدت أبحاث أخرى الرأي الميكانيكي. فتيبن رورت هويت (1751) أن الأفعال المنعكسة لا تحتاج لأن يشارك فيها غير قطاع صغير من الحبل الشوكي. وبدا أن عمل برستلي، ولا فوزيه، ولا بلاس، ولا جرانج، يختزل النفس إلى عمليات كيميائية شبيهة بالاحتراق. وأثبت تجارب ريامور (1752) أن الهضم ينشأ عن الفعل الكيميائي للعصارات المعدية، وأثبت سبالانتساني (1782) أن هذا الفعل - فعل العصارات الهضمية - على الطعام يمكن أن يستمر حتى خارج المعدة، واكتشف جون هنتر أن هذه العصارات تبدأ بعد الموت في هضم جدار المعدة ذاته. وكان سبالانتساني من أساطين فسيولوجية القرن الثامن عشر وقد رأينا تجاربه على التولد "الذاتي أو التلقائي"، ولم يكن اهتمامه بعملية الهضم يعرف حدودا. فقد اكتشف الوظيفة الهضمية للعاب. وأجرى التجارب على نفسه بالقيء المصطنع، وبابتلاع الأكياس والأنابيب، التي استعادها بصبر من برازه. وكان أول من بين أن النقص الانقباضي للقلب يرسل الدم في أصغر الشعيرات. وبين أن العرق ليس شبيها بالتنفس، ولكنه يستطيع إلى حد ما أن يحل محل الشهيق. وأصبح حجة في الإخصاب رغم أنه رئيس دير. وقد وجد أنه إذا غطيت أعضاء الذكورة في ضفدع بقماش مغموس في الشمع ظلت أنتاجه دون إخصاب بعد الجماع ولكن حين جمع سائل الذكر من القماش ووضعه ملتحما ببيض الأنثى أصبحت مخصبة. وحصل الإخصاب الصناعي في الثدييات بحقنه مني كلب في رحم كلبة (10). وقد قدر القرن العشرون في نهاية المطاف مدى تجاربه التي لم يعترها كلال، وأدرك مغزاها، واعترف به كاهناً من الصفوة المختارة في كهنوت العلم.

صفحة رقم : 12470

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> دهاء المرض

2- دهاء المرض

ولكن، هل هزم نمو المعرفة سعة حيلة المرض؟ كلا. لقد قدر فولتير متوسط عمر الإنسان في عصره باثنتين وعشرين سنة (11) وكان من

صفحة رقم : 12471

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> دهاء المرض

أثر الأحياء الفقيرة المزدهمة في المدن النامية ارتفاع نسبة الوفيات في الأطفال، حتى بلغت أحياناً خمسين في المائة (12). وفي لندن كان ثمانية وخمسون في المائة من جميع الأطفال يموتون قبل أن يبلغوا الخامسة (13) وشاعت على نطاق واسع عادة ترك الأطفال حديثي الولادة. وفي السنوات الثمان بين عامي 1771 و 1777 أدخل قرابة 32,000 طفل إلى المستشفى اللقطاء بباريس- بمعدل تسعة وثمانين يوماً، ومن هؤلاء الرضع مات 25,476 (أي ثمانون في المائة) قبل أن يتموا ربيعهم الأول. وأعان على زيارة وفيات الأطفال في القرن الثامن عشر انتشار الرضاعة الجافة- أي إحلال البزازة محل ثدي الأم أو المرضع وقد قدر السر هانز سلون نسبة الوفيات في الرضاعة الصناعية بثلاثة أضعاف نسبتها في أطفال الرضاعة الطبيعي. وراجت الطريقة الجديدة على الأخص بين طبقات الراقية في فرنسا، إلى ن أشاع كتاب روسو "أميل" (1762) موضة الرضاعة من الثدي. واستمر الإجهاض ومنع الحمل. واستعمل القراب من القماش- الذي أوصى به فالبيو في 1564 للوقاية من عدوى الأمراض التناسلية - في القرن الثامن عشر لمنع الحمل (14). وقد ورد في كتاب الدكتور جان استروك "في الأمراض التناسلية" (1736) ذكر الزناة الذين "استعملوا حيناً أكياس من نسيج رقيق من قطعة واحدة على شكل قراب. تسمى بالإنجليزية (Condom) (15)" وأصدرت امرأة تدعى المسز فلبس في 1776 إعلانات يدوية في لندن أذاعت أن في حانوتها كمية وافرة من "أسباب الأمان التي تكفل صحة زبائننا" (16). ولكن الأمراض التناسلية اقتضت الضحايا من كل طبقة رغم هذه "الآلات" كما كانت تسمى... وقد كتب اللورد تشسترفلد إلى ولده محذراً منها "ففي الحب قد يضع الرجل قلبه ويحفظ بكرامته... أما إذا ضيع أنفه فإنه يضيع معه سمعته" (17). ويصعب علينا نحن الذين نعيش بعد جنر- أن نتصور أي لعنة ابتلى بها الجدرى البشر قبل أن يهدي هذا الطبيب العالم الغربي إلى التطعيم ولقد حسب فولتير أن "من بين مائة شخص يولدون، يصاب ستون على الأقل بالجدرى، ومن هؤلاء الستين يموت عشرون... وعشرون

صفحة رقم : 12472

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> دهاء المرض

آخرون يحتفظون بندوب كريمة لهذا المرض القاسي تلازمهم مدى الحياة" (18) وبين عامي 1712 و 1715 مات بالجدرى ثلاثة من ورثة العرش الفرنسي. وقد ذهب الأمير دلين إلى أن 200.000 من نزلاء أديرة النساء والرجال لجئوا إليها هرباً من ذل التشوه الذي أصابهم به الجدرى (19). واستفحل المرض حتى بلغ درجة الوباء في باريس في 1719، وفي السويد في 1749-65، وفي فيينا في 1763 و 1767، وفي تسكانيا في 1764، وفي لندن في 1766 و 1770.

وكانت الأوبئة الآن، بصفة عامة، أخف وطأة منها في القرون السابقة، ولكنها ظلت أحد الأخطار التي تهدد الحياة. وكانت أشد هولاً في الريف منها في المدن، رغم ما في هذه من أحياء فقيرة مزدهمة، لأن الفلاحين كانوا أعجز من أن يدفخوا ثمن الرعاية الطبية. وقد قتلت أوبئة التيفوس، وحمى التيفود، والجدرى، ثمانين ألف شخص في برتني في سنة واحدة (سنة 1741) (21). وفي 1709 قضى الطاعون الدملي على 300.000 شخص في بروسيا، وعاد ظهوره بشكل أخف في أوكرانيا في 1737، وفي موسكو في 1789 وكانت الحمى القرمزية، والملاريا (mal aria أي الهواء الفاسد) والدوزنتاريا أمراضاً شائعة، لا سيما بين الطبقات الدنيا، حيث أعانها على الانتشار الافتقار إلى حفظ الصحة للعامة والصحة الشخصية. وأصيبت باريس، وديبلن، وأبردين، وتورجاو، وبرن، بأوبئة من حمى النفاس المعدية. أما الأنفلونزة، التي سماها الفرنسيون La grippe (الالتصاق) فقد بلغت مرحلة الوباء في فترات مختلفة في إيطاليا، والسويد، وألمانيا. وكانت بين الحين والحين تقضي إلى شلل الأطفال، كما حدث للصبى الذي أصبح فيما بعد السر ولتر سكوت. وأشرف الالتهاب الرئوي، والدفتريا، والحمرة، أحياناً على مستوى الأوبئة. وكان السعال الديكي،

الذي يبدو الآن قليل الشأن، واسع الانتشار وخطراً، لا سيما في شمالي أوروبا، ففي السويد مات به أربعون ألف طفل بين عامي 1749 و1764. ووفدت الحمى الصفراء من أمريكا، وانتشرت حتى أصبحت وباء في لشبونة عام 1723. وإلى هذه العلل وعشرات غيرها أضافت نساء الطبقات

صفحة رقم : 12473

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> دهاء المرض

العليا مرضاً سموه "the vapors" وهو مزيج مضطرب من الإرهاق العصبي، والوهم، والأرق، والسأم، يتفاقم أحياناً حتى يبلغ درجة الهستيريا. ولمقاومة هذه الأعداء العامة اتخذت الحكومات بعض التدابير لحفظ الصحة. ولكن القمامة كانت لا تزال في أكثر الحالات تفرغ في الشوارع. وظهرت المراحيض في باريس في مطلع القرن، ولكن في بعض البيوت فقط، ولم تكن توجد إطلاقاً في غير باريس من أوروبا. وكانت الحمامات ترفاً يختص به الأغنياء. ولعل الحمامات العامة كانت أقل عدداً منها أيام النهضة الأوروبية. وأحرز حفظ الصحة في الجيوش والبحريات تقدماً أكثر منه في المدن. ونهض السر جون برنجل بالطب الحربي (1774)، وأحدث الاسكتلندي جيمس لند ثورة في حفظ الصحة البحرية (1757). وخلال بعثة أنسن سنة 1740 كان الأسقربوط أحياناً يعجز نحو خمسة وسبعين في المائة من الملاحين. وقرر لند في رسالة خطيرة عن هذا المرض (1754) أن عصير البرتقال أو الليمون تداوي به الهولنديون منه في 1565 واستعمله السر رتشارد هوكنز في 1593، وقد أدخل هذا الدواء الواقي بنفوذ لند إلى البحرية البريطانية (1757). ولم تكن في رحلة كوك الثانية التي امتدت أكثر من ثلاث سنين (1772-75)، إصابات مميتة بالأسقربوط غير إصابة واحدة. وفي 1795 تقرر استعمال العصير أو الفواكه الحمضية إجبارياً في البحرية البريطانية (ومن هنا إطلاق كلمة limey على الجندي أو البحار البريطاني)، وبعد هذا أختفى مرض الأسقربوط البحري. وكان من معالم إنسانية القرن الثامن عشر البارزة، أن يضع فكتور ريكيتي، مركز ميرابوا، مبدأ (1756) مؤداه أن صحة الشعب مسئولية تقع على عاتق الدولة. وقد اقترح يوهان بيتر فرانك نظاماً كاملاً للخدمة الصحية العامة في كتابه "نظام كامل للرقابة الطبية العامة" (1777-78)، وكان قد بدأ حياته طفلاً فقيراً ملقى على عتبة بيت. وهذه المجلدات الأربعة -هذه الذكرى النبيلة للولاء للإنسانية امتد طول العمر" (21)- وصفت

صفحة رقم : 12474

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> دهاء المرض

التدابير التي ينبغي لأي مجتمع مدني أن يتخذها للتخلص من النفايات، وللحفاظ على نقاء الماء والطعام، ولصيانة الصحة في المدارس والمصانع، ولحماية صحة النساء في الصناعة. وزاد الطبيب على هذا أن أوصى بفرص

الضرائب على العزاب، وبذل النصيحة للأزواج لحفظ صحتهم، وطالب بتعليم الأطفال مبادئ الصحة. وكان نابليون أحد الذين قدروا أفكار فرانك، فرجاه أن يأتي ويخدم في باريس، ولكن فرانك بقي في فيينا. وأما المستشفيات فقد تخلفت كثيراً عن واجب الاهتمام المنظم بالمرض. فقد ازداد عددها. ولكن جودتها هبطت. وضاعت إنجلترا على الأخص من مستشفياتها في القرن الثامن عشر، ولكن كلها كان يعتمد على التبرعات الخاصة دون منحة من الدولة (22). وفي باريس تلقى أكبر مستشفياتها المسمى الأوتيل ديو 251,178 مريضاً في السنوات الإحدى عشرة بين 1737 و 1748، مات منهم 61.091. وقد أفضى التهافت على "منزل الله" هذا كما سموه - إلى حشد ثلاثة أشخاص أو أربعة أو خمسة أو حتى ستة في فراش واحد، "فكان المحتضرون والناقهون يرقدون جنباً إلى جنب... وكان الهواء ملوثاً بالإفرازات المنبعثة من هذا العدد العديدي من الأجساد المريضة" (23). وكان من بين الأعمال الخيرة الكثيرة التي قام بها لويس السادس عشر في 1781 أمره بأن "يخصص سرير مستقل لكل من 2.500 مريض، وأن ينام خمسمائة مريض على أسرة مزدوجة يفصلها حاجز"، وأن تخصص حجرات للناقهين (24). ومع ذلك لم يكن بالمستشفى بعد سبع سنوات من الأسرة المنفردة سوى 486، واحتوى 1.220 سريراً أربعة مرضى أو أكثر، وورقد ثمانمائة مريض على القش (25). وفي فرانكفورت -على -المين وغيرها من المدن كان الهواء في المستشفيات من الوخم بحيث "رفض الأطباء الخدمة في المستشفيات باعتبارها معادلة لحكم بالإعدام" (26).

صفحة رقم : 12475

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> العلاج

### 3- العلاج

واجترأ بعض الأطباء على تفويض مواردهم بنشر المعرفة بالطب الوقائي. من ذلك أن الدكتور جون آربنتوت اللندني زعم في "مقال عن طبيعة الأمراض"، (1731) أن نظام التغذية يفعل كل ما في وسع الطب أن يفعله. وقد تنبأ بأمراض المستقبل في رسالة تسمى "ثمن صيانة الصحة" (1744). وتحسن تعليم طلاب الطب تحسيناً بطيئاً، مع احتفاظ الجامعات الإيطالية (بادوا، وبولينا، وبافيا، وروما) بمكان الصدارة، وفيينا، وباريس، ومونبلييه، بالمكان التالي؛ ولكن حتى في هذه الجامعات لم يكن هناك أكثر من أربعة أساتذة أو خمسة. وكان كل مدرس يجمع المصروفات الجامعية للمقرر الذي يدرسه، ويصدر تذاكر دخول، أحياناً على ظهر ورق اللعب (27) وبدأت بعض لمستشفيات الآن تعلم الطب الأكلينيكي. وكانت الممارسة القانونية للطب أو التوليد تتطلب دبلوماً من معهد معتمد. وكما أن نظرية جيورج شتال عن النار باعتبارها "فلوجستونا" تسلطت على الكيمياء في القرن السابق للافوازييه، فكذلك تسلطت فكرته عن "حيوية المادة animism" على الطب. فقد رفض نظرية ديكارت إلى الجسم على أنه جهاز ميكانيكي، وصور النفس على أنها أصل لا مادي للحياة يشكل الجسم بوصفه أدواته. وبناء عليه، رأى أن الطبيعة، في صورة قوة الحياة هذه، هي العامل الأهم في شفاء العلل، وما المرض إلا جهد من "الروح الحية anima" لاسترداد الصحة، والفعالية، والأنسجام الطبيعي للأعضاء المضطربة؛ وارتقاع درجة الحرارة وسرعة النبض وسلتان تلجأ إليهما الطبيعة للتغلب على المرض، والطبيب الحكيم من يعتمد أول ما يعتمد على عمليات التخلص الذاتي من السموم، ويكره استعمال العقاقير. ولكن شتال ترك سؤالا بغير جواب، وهو ما السبب في الاضطراب. ومن الأجوبة جواب قدمه ماركوس أنطونيوس بليكتس، الذي بعث في 1762 رأى أناسيوس كيرشر في أن المرض راجع إلى عدوى بكائن دقيق. فقال إن لكل مرض كائناً مغيراً خاصاً به، له فترة حضانة محدودة.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; الطب -&gt; العلاج

على أن هذه البصيرة الممتازة بنظرية الجراثيم لم تترك طابعاً على طب القرن الثامن عشر العلاجي، وكان لا بد من بعثها مرة ثانية في القرن التاسع عشر.

واقترحت بعض طرق التشخيص الجديدة، فدعا ستيفن هيلز إلى قياس ضغط الدم، وادخل ليوبولد أوينبروجر النقر على الصدر وسيلة لتبين السائل في القفص الصدري. وطور اسكتلنديان، هما جون مارتن وجيمس كري، استعمال الترومتر الأكلينيكي.

وتنافست العقاقير، والجراحة، والشعوذة، على مال المريض. وظل الفصد الدواء الذي يصلح لكل الأدوية، وقد قدر طبيب في 1754 أن أربعين ألف شخص يموتون كل عام في فرنسا من جراء الإفراط في الحمامة (28). وفي أخريات القرن تصاعدت الاحتجاجات على هذا الدواء ووجدت لها صوتاً فعالاً في كتاب ولشتين "تعليقات على الفصد" وتكاثرت العقاقير. وقد نيزت فارماكوبيا لندن الرسمية الصادرة في 1746 الوصفات المؤلفة من نسيج العنكبوت، وقرون الثور الوحشي، ولين العذراء، ولكنها احتفظت بالترياق، وعيون السرطان، وقمل الصوف والأفاعي، واللآلئ، زعما منها أنها تؤلف مزائج شافية. وقد أعطت فارماكوبيا عام 1721 صفة رسمية لصبغ الأفيون الكافوري (paregoric) وعرق الذهب المقيئ (الايبيك)، ومقيئ الطرطير، وروح النشادر الطيار، وغيرها من العقاقير الجديدة؛ وأضافت طبعة 1746 الفالريانا، وروح النترات الطيب، و"البلسم" (صبغة الجاوي)؛ واعتمدت طبعة 1788 الاونيك، والعشبة، والقشيرة، والمانزيا، وصبغة الأفيون... وبدأ استعمال زيت الخروع في أوربا الحديثة حوالي 1764، والزرنيخ حوالي 1786، وادخل اللحاح (الكولشيوم) علاجاً للنقرس في 1763 وتعلم غلام من شرويشير يدعى وليم وذرنج من جدة عجوز أن كف الثعلب (الديجيتال) مفيد للاستسقاء. وقد ظفر بمكان مرموق في تاريخ الطب باكتشافه فائدته في أمراض القلب (1783). وكان كثير من مشاهير الأطباء يصنعون عقاقيرهم وبيعونها، ويتقاضون الأتعاب على تذاكرهم

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; الطب -&gt; العلاج

الطبية لا على عيادتهم لمرضاهم. وأثرى أفراد من "الأدوية المملوكة لأصحابها"- المركبة من وصفات سرية مسجلة. وهكذا ابتلعت إنجلترا أطناناً من "إكسير ستوتن" و"زيوت بتن البريطانية" و"حبوب هوبر للنساء" و"أقراص الدود" لتشنج.

وكان دجاجة الطب ومشعوذوه عنصرًا محببًا في المسرح الطبي. من ذلك أن "الكونت" اليساندر ودي كالبيسترو، واسمه الحقيقي جوزيبي بلساموا، كان يبيع إكسيراً يطيل العمر للحمقى الأغنياء في أقطار عديدة. وزعم الشفالييه

تيلر، وهو مسلح بأبرة السد (الكركتة)، إنه يشفي أي مرض من العيون، وقد استمع إليه جيبون وهاندل والأمل يراودهما. وأقنعت جوانا ستيفنز البرلمان بأن يدفع لها خمسة آلاف جنيه لقاء الكشف عن سر علاجها الشافي من الحصى، فلما نشرت وصفتها (1739) اتضح أنها مركب من قشر البيض، والحلزون، والحبوب، والصابون، وفي كل حالة من الحالات التي زعمت أنها شفتها وجد الحصى في المثانة بعد موت المريض.

وأما أشهر دجاجة القرن الثامن عشر فهو فرانتر أنطون مزيمير Mesmer وقد بعثت رسالته التي نال عليها درجة الدكتوراه من فيينا (1766) الدعوى القديمة القائلة بتأثيرات النجوم على الإنسان، ففسرها بأنها أمواج مغناطيسية وحاول حيناً أن يشفي الأمراض بتمرير المغناطيس على الأعضاء المريضة، ثم أقنع عن هذا العلاج بعد أن قابل قسيساً بدا أنه يشفي بمجرد وضع يديه على المريض، ولكنه أعلن أن قوة سحرية تسكنه، وأن في إمكانه نقلها للغير بحفز من المال. وافتتح مكتباً في فيينا، حيث عالج المرضى بلمسهم - كما كان يفعل الملوك مع مرضى الداء الخنازيري، وكما يفعل دعاة الشفاء بالإيمان اليوم. وأعلن البوليس إنه مشعوذ، وأمره بأن يبرح فيينا في ظرف ثمان وأربعين ساعة. فرحل إلى باريس (1778) وبدأ من جديد بنشر "مذكرة عن كشف المغناطيسية الحيوانية" (1779)، وأقبل إليه المرضى لينومهم mesmerize فكان يلمسهم بعصاه السحرية، أو يحملق في عيونهم

صفحة رقم : 12478

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> العلاج

حتى يخضعهم لإيحائه إخضاعاً أشبه بالتنويم؛ وكان قبح صورته معيناً رهيباً في عملية التنويم هذه. وأقام أحواضاً مغناطيسية تحوي مزيجاً قوامه سلفيد الهيدروجين؛ ومزودة بنتوءات حديدية يمسها المرضى وأيديهم متشابكة؛ ولكي يجعل مزيمير الشفاء مؤكداً كان يلمس كلا منهم بدوره. وكان بين مرضاه المركيز دلافامبيت ودوقة بوربون، وأميرة لامبال، وغيرهم من الشخصيات البارزة في البلاط. وعرض عليه لويس السادس عشر عشرة آلاف فرنك أن يكشف سره وأسس معهداً مغناطيسياً مباحاً للجميع، فرفض. وقد كسب خلال سنة أشهر 350.000 فرنك (29) وفي 1784 عينت أكاديمية العلوم لجنة من أعضائها لافوازييه وفرانكلن لبحث طرق مزيمير. وقد سلم تقريرها ببعض دعاواه وعلاجاته الشافية (لا سيما للأمراض العصبية الصغيرة)، ولكنه رفض نظرية المغناطيسية الحيوانية التي قال بها. ثم أدانته حكومة الثورة الفرنسية باعتباره نصاباً، وصادرت ثروته المغرية ونفته من فرنسا. وقد مات بسويسرا في 1815.

وفي لندن افتتح جيمس جراهم (1780) "معبد للصحة" على مبادئ مزيمير مع تحسينات أدخلها عليه. فزوده بسرير عرس سحري للعروسين ضمن له كفالة النسل الجميل لهما؛ وكان يتقاضى مائة جنيه أجراً عنه لليلة (30). وكانت مساعدته "ربة الصحة" في إجراءاته هي إيما ليون، التي قدر لها حين أصبحت ليدي هاملتن أن تتوم اللورد نلسن ذاته.

واستغرق الجمهور ورجال الطب القرن الثامن عشر بطوله تقريباً لتقبل التطعيم الرقائفي لوناً مشروعاً من ألوان الطب العلاجي بعد أن أختلط عليهم الأمر لكثرة أذعياء الطب وعلاجاته المعجزة. وكان قدماء الصينيين قد مارسوا نقل الفيروس الذي أضعفت قوته من إنسان مصاب بالجدرى إلى آخر لتحصينه ضد الجدرى (31). ولهذا الغرض نفسه كانت النسوة الشركسيات يخزن الجسم بأبر مست بسوائل الجدرى. وفي 1714 وصفت رسالة من الدكتور ايمانويل تيموني، قرأت على جمعية لندن الملكية، "الحصول على الجدرى بالحز أو التطعيم، كما مورس منذ زمن طويل

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; الطب -&gt; العلاج

في الأستانة(32). كتبت ليدي ماري ورتلي مونتاجيو من الأستانة في أول أبريل 1717: "أن الجدري، ذلك المرض الشديد الفتك والانتشار بيننا (نحن البريطانيين) قد جعله اختراع التطعيم سليم العاقبة تماما... وفي كل عام تجرى العملية لألوف الناس... وليس هناك حالة واحدة لشخص مات منها. وقد تصدق أنني مطمئنة جداً لسلامة التجربة إذا علمت أنني أنوي تطبيقها على ولدي الصغير الحبيب(33). وقد طعم الصبي البالغ من العمر ست سنوات في مارس 1718 بيد الدكتور تشارلز ميتلاند، وهو طبيب إنجليزي كان يومها في تركيا.

وفي 1721 انتشر وباء جدري في لندن وفتك بأهلها لا سيما الأطفال. وكانت ليدي ماري قد عادت من تركيا، فكفلت الكتور ميتلاند، الذي عاد هو أيضا إلى وطنه، بأن يطعم أبنيتها البالغة من العمر أربعة أعوام. ودعا ثلاثة من أبرز الأطباء ليروا أن الفتاة (التي أصبحت فيما بعد ليدي بيوت) لم تزعجها النتائج إزعاجا يذكر. فأعجبوا بما رأوا، وسمح أحدهم بتطعيم أبنه. ونشرت ليدي ماري الفكرة في البلاط. ووافقت الأميرة كارولين على تجربة التطعيم على ستة مجرمين حكم عليهم بالإعدام، فارتضوا على وعد بأن يفرج عنهم إن ظلوا أحياء؛ وعانى أحدهم من إصابة خفيفة بالمرض، أما الباقون فلم يبد عليهم أي أذى، وأفرج عن الستة جميعاً. وفي 1722 أمرت الأميرة بأجراء العملية على الأطفال الأيتام في أبرشية- سانت جيمس، فتكللت بالنجاح التام، وفي أبريل أمرت بأجرائها على اثنتين من بناتها. وانتشر قبول التطعيم في الأوساط الأرستقراطية البريطانية، ولكن موت شخصين مطعمين في بيتهما عطل الحركة وقوى المعارضة لها. وشكا أحد النقاد من أن "تجربة لم تمارسها غير قلة من النساء الجاهلات... تسود فجأة، وبعد خبرة ضئيلة، على أمة من أكثر أمم الأرض أدبا وتهذيبا حتى وجدت طريقها إلى القصر الملكي(34). وأحست ليدي ماري بهذه الطعنة، فنشرت دون توقيع "بيانا واضحا عن التطعيم بالجدري بقلم تاجر تركي" وشجب معظم الأطباء الإنجليز التطعيم لما فيه من خطر،

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; الطب -&gt; العلاج

ولكن في 1760 أدخل روبرت ودانيال ستن التطعيم بالتق، وقررا أن لم يمت من بين 30.000 مطعم غير 1.200- أي أربعة في المائة. وظل قسيس إنجليزي يدعى إدوارد ماسي حتى عام 1772 يعظ ضد "عادة التطعيم الخطرة المدنية"، ويدافع بقوة عن الرأي اللاهوت القديم، الذي يرى أن الأمراض ترسلها العناية الإلهية عقاباً على الخطيئة(35). وربما أمكن صياغة هذا القول من جديد ككثير من التعاليم الدينية القديمة صياغة علمانية، وهي أن المرض كثيراً ما يكون عقاباً على الجهل والإهمال).

وتبنت الفكرة دول أخرى. ففي أمريكا طعم الدكتور زابديل بويلستن أبنه (1721) خلال وباء الجدري السادس الذي تفشى في بوسطن، وأجرى 246 تطعيماً آخر رغم معارضة هائلة هددهت بشنقه. ودافع عنه أكثر بينامين فرانكلين

وبنيامين رش تأييدهما الفعال لحركة التطعيم في فيلادلفيا. وفي فرنسا ضرب الوصي على العرش، فيليب أورليان، بشجاعته المعهودة، المثل لغيره بتطعيم ولديه. وعارضت كلية الطب بجامعة باريس التطعيم حتى 1763. ولكن فولتير امتدح حملة ليدي ماري في "رسائله حول الإنجليز"، ولاحظ انتشار التطعيم بين الشراكسة، وعزاه إلى القيمة المالية للجمال: "إن الشراكسة قوم فقراء، ولكن لهم بنات جميلات، هن إذن أهم سلعة في تجارتهم الخارجية، فهن اللاتي يزودن بالحسان حريم السلطان وصوفي فارس وغيرهم ممن يتيح لهم ثراؤهم شراء هذه السلع الثمينة والاحتفاظ بها." (37) وأذاع طبيب إيطالي يدعى أنجيلو جاتي تجربة التطعيم في فرنسا وأذاعها تيودور ترونشان في سويسرا. وتطعمت كاترين الكبرى والغراندوق بولس الروسي بناء على إلحاح فولتير (1768)، وفي ذلك العام طعم بان انجهوز ثلاثة أعضاء من الأسرة الإمبراطورية في فينينا. كل هذه التجارب التي استعملت مصل الجدري من الإنسان، كان فيها الكثير مما يبعث على الشكوى، لأن نسبة الوفيات من التطعيم وإن

صفحة رقم : 12481

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> العلاج

هبطت إلى أربعة في المائة كانت لا تزال مرتفعة ارتفاعاً مؤذياً. ولاحظ جراح إنجليزي يدعى إدوارد جنر أن اللبانات اللاتي أصبن بجدري البقر (وهو مرض خفيف نسبياً) نادراً ما يصبن بالجدري الذي يفتك بالمرضى في غالب الأحيان. وحوالي 1778 خطرت له فكرة نقل المناعة ضد الجدري بالتطعيم بلقاح مصنوع من بقرة مصابة بالجدري (vacca باللاتينية هي البقرة). وكان هذا التطعيم قد تم من قبل على يد مزارع من دورست يدعى بنيامين جستي، في 1774-89، دون أن تلفت اهتمام أهل الطب وفي مايو 1796 أجرى جنر عملية التطعيم بتلقيح جيمس فيلبس بصديد جدري البقر. وفي يوليو لقح الصبي ذاته بفيروس الجدري ولم يصب الصبي بالجدري، فاستنتج جنر أن لقح البقر يعطي حصانة ضد الجدري. وفي 1798 نشر كتابه الخطير "تحقيق في سبب ونتائج لقاح الفاريولا"، (والفاريولا كان الاسم الطبي للجدري)، الذي روى فيه قصة ثلاث وعشرين حالة كانت كلها ناجحة، وبلغ الاقتناع بالتجارب التي أعقبت هذا مبلغاً حمل البرلمان في 1802 و1807 على منح جنر ثلاثين ألف جنيه ليوسع عمله ويحسن طريقته، وبعدها تناقصت سريعاً الإصابات بالجدري ذلك المرض الذي ظل قرونًا سوطاً من أسواط العذاب الكبرى التي أشرعت على حياة البشر، حتى اقتصر حدوثه اليوم في أوربا وأمريكا في جميع الحالات تقريباً على عدوى الأشخاص الذين لم يطعموا من وفود الفيروس من أقطار لا يمارس فيها التطعيم.

صفحة رقم : 12482

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الأطباء المتخصصون



#### 4- الأطباء المتخصصون

كان فن التطبيب يتعقد بنمو علم الطب تعقداً أنبت فروع الطب المتخصصة. ولم تكن أمراض النساء بعد ميداناً للدرس قائماً بذاته، أما التولد فكان الآن مهارة متميزة، وانتقل أكثر فأكثر إلى أيدي الرجال. وظل حياء النساء يؤثر المولدات المدربات أينما تيسرن، ولكن العديد من الأمهات في البيوت المالكة ضربن المثل في قبولهن الرجال مولدين لهن. وكان وليم سمبلي رائداً في إنجلترا بدراساته في نظام المخاض واستعمال الملقط-

صفحة رقم : 12483

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الأطباء المتخصصون

وهي دراسات جمعها بعد خبرة ثلاثين عاماً في كتابه القيم "فن التولد" (1752). وأحرز الرمد تقدماً ذا بال بجراحات السد (الكتركته) التي أجراها وليم تشلسدين (1728) وجاك دافيل، وقد أبتكر ثانيهما (1752) العلاج الحديث للسد بانتزاع العدسة. وفي 1760 صنعت أول نظارة ذات بعدين لبنيامين فرانكلن وبناء على اقتراحه فيما يبدو. وسنلقي بديرو يدرس سيكولوجية المكفوفين ويقترح إمكان تعليمهم القراءة باللمس، ولعل روسو (على ما يقال) اقترح بالتفاهم معه الطباعة البارزة للمكفوفين (38). وتقدم طب الأذان بفضل استعمال القسطرة لتنظيف قناة يوستاكوس (1724). وبفضل أول جراحة ناجحة للالتهاب الحلمي (1736)، وكشف سائل مرن في مناهة الأذن (1742). وقد انقطع جياكومو روديجر بيربرا الأسباني، الذي شغف حباً بفتاة صماء بكماء، لوضع لغة إشارات تستخدم يداً واحدة فقط، وحسن ألابيه شارل ميشيل دلبيه طريقة الكلام الصامت بأيدوية تستعمل كلتا اليدين، وكرس حياته لتعليم تلاميذه لإعاشتهم. وأصبح علاج العقول أكثر إنسانية باضمحلال النظرة اللاهوتية القديمة التي دان بها بوسويه وويسلي والتي زعمت أن الجنون مس شيطاني سمح به الله عقاباً على الخطيئة الموروثة أو المكتسبة. فقد كان نزل النار نثروم (برج الحمقى) بفيينا يعرضون على المتفرجين لقاء رسم دخول شأن الحيوانات في معرض الوحوش. وكان مستشفى بيت لحم للمجاذيب (Bedlam) من أماكن الفرجة في لندن، يستطيع الجمهور فيه لقاء أجر أن يتقرس في المخبولين وهم موتقون بسلسلة وطوق حديدي إلى الحائط. وكان المجانين في الأوتيل ديو بباريس يعاملون بقسوة أو إهمال على أيدي خدم مبخوسى الأجر مرهقين بالعمل. وأسوأ من هذا كانت المستشفيات الخاصة لمرضى العقول، التي كان في الإمكان إقناعها بقبول حبس أشخاص يسلمهم إليها أقرباؤهم المعادون لهم (39). واستعملت شتى

صفحة رقم : 12484

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الأطباء المتخصصون

العقاقير أو الحيل لعلاج الضحايا أو تهدئتهم كالأفيون، أو الكافور، أو البلاذونا (ست الحسن)، أو الفصد، أو الحقن الشرجية، أو لزقة الخردل على الرأس. وذهب بعض المتخصصين إلى أن "دوشا" فجائياً من الماء البارد يخفف من السوداء (المنخوليا)، وأوصى غيرهم بالزواج علاجاً للجنون. أما أول خطوة حديثة نحو علاج أرشد للجنون فقد اتخذها كويكاريو بنسلفانيا الذين أسسوا مستشفيات يعالج فيها الجنون على أنه مرض. وفي عام 1774 أسس الغراندوق ليوبولد الأول أمير تسكانيا في فلورنسه الأوسيدالي بونيفانتسيو، حيث بدأ، بإشراف فنتشنتسو كياروجي، تناول المشكلة تناولاً علمياً. وفي 1788 عينت الحكومة الفرنسية لجنة لإصلاح رعاية المجانين، وكان رئيس اللجنة، فليب بينيل قد بدأ حياته تلميذاً للاهوت، ثم انتقل إلى الفلسفة، وتشرب المبادئ الإنسانية التي نادى بها فولتير، وديدور، وروسو. وفي 1791 نشر كتابه "رسالة طبية فلسفية في الغربة العقلية" وهو واحد من معالم الطب الحديث، وفي 1792 عين مديراً طبياً للبيسيتر، وكان من أكبر مستشفيات الأمراض العقلية في فرنسا. وبعد عامين رقي لمستشفى أكبر هو سالبترير وبعد أن وجه النداءات الكثيرة لحكومة الثورة، سمح له بأن يحطم سلاسل مرضاه، وأن يطلقهم من زناناتهم ويعطيهم الهواء النقي وضوء الشمس، والرياضة، والأعمال العقلية المتدرجة. وكان هذا واحداً من الانتصارات الكثيرة التي حققتها النزعة الإنسانية العلمانية في أشد القرون إمعاناً في اللا أدوية.

صفحة رقم : 12485

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الجراحات

5- الجراحات

كانت الجراحة أهم تقدم أحرزه طب القرن الثامن عشر باستثناء تطور التطعيم إلى التلقيح. وقد عمرت الرابطة القديمة بين الجراحة وفن الحلاق الصحي حتى عام 1745 في إنجلترا، أما في فرنسا فقد أنهاها لويس الرابع عشر. (وما زال شعار هذا الحلاق وهو العمود المخطط بالأحمر والأبيض رمزاً للضمادة الملوثة بالدم يذكرنا بماضيه الجراحي).

صفحة رقم : 12486

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الجراحات

وفي 1724 صدق لويس الخامس عشر على إنشاء خمسة كراسي للجراحة في كلية سان كورم بباريس. واحتجت كلية الطب بجامعة باريس على رفع الجراحة إلى مثل هذا المقام الكريم، وزحف الأطباء وهم يرفلون في أروابهم الجامعية الحمراء ويتقدمهم حامل صولجان ومناد-على سان كورم حيث كانت تلقى محاضرة في الجراحة، فلما وجدوا الباب مغلقا حاولوا فتحه عنوة وتصايحوا بالشتائم والسباب، ناعتين الجراحين بأنهم حلاقون محدثوا نعمة، ولكن الجمع الذي احتشد انقلب على الأطباء وطردهم من المكان. وفي 1731 حصل جورج اريشال وفرنسوا دلابيرونى على براءة ملكية بتأسيس "أكاديمية الجراحة"، وفي 1743 أصدر الملك أمرا حرر جراحي فرنسا من ارتباطهم بطائفة الحلاقين، واشترط الحصول على درجة من الكلية لممارسة الجراحة. ومن يومها استطاع الجراح أن يواجه الطبيب في غير خجل ولا أحجام.

وحدث تطور مماثل لهذا في إنجلترا. ففي 1745 فصل الجراحين رسميا عن الحلاقين، وتقرر اعتبار ممارسة الجراحة في لندن أو بقربها دون امتحان وإجازة تمنحها لجنة من كبار الجراحين جريمة يعاقب عليها القانون. على أن "كلية الجراحين الملكية" لم يصدر بها ترخيص رسمي إلا سنة 1800. أما في ألمانيا فقد كانت الجراحة عموما قبل فردريك الأكبر في أيدي الحلاقين والجلادين، والمتجولين من الممارسين غير المرخصين، الذين يجبرون العظام ويزيلون السد (الكتركته)، ويربطون الفتق، ويستأصلون الحصى. وكان الجراح في الجيش -وهو مفخرة بروسيا- يسمى "فيلدشيرر"، أي حلاق الميدان، لأن من وظائفه الحلاقة للضباط ولكن في 1724 فتحت في برلين كلية للطب والجراحة.

وكانت كثرة جراحي القرن الثامن عشر العظام من الفرنسيون. واخترع لوي بتي "المرقأة" (ضاغطة الشرايين) وأدخل تحسينات على عمليات البتر والعنق وقد أجرى ديدرو في كتابه "حلم دالامبير" على لسان الطبيب الشهير تيوفيل دبوردي دبور دي وصفا لجراحة على المخ يجريها لاببيرونى. وقد

صفحة رقم : 12487

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الجراحات

أسس جان أندريه فيثيل الجنفي جراحة العظام (1780). وفي إنجلترا طور وليم تشزلدن الجراحة الجانبية للحصى (1727) إلى مرتبة لم تكد تجاوزها بعده (40)، وفاخر بأنه أجرى جراحة لاستخراج حصى في الربع وخمسين ثانية. وأصبحت الجراحة الانجليزية علما حين أسسها جون هنتر على أساس من التشريح والفسولوجيا السليمين. وقد أجرى تجارب على الحيوان ليجد بدائل لجراحات كثيرا ما تؤدى بحياة الإنسان. ففي 1786، بعد أن اكتشف وهو يجرب على وعل أن في استطاعة الأوعية الدموية الفرعية أن توصل دورتها إذا أوقف المرور من وعاء دموي رئيسي، أنقذ حياة رجل يشكو وروما شربانيا في الساق يربط الشريان الذي يعلو الورم والاعتماد على أجزاء الجسم المحيطة به في امتصاص محتويات الورم. وقد أنقذت هذه الجراحة عددا لا حصر له من الأطراف والأنفس. كذلك يحتل اسم جون هنتر مكانا مرموقا في تطوير طب الأسنان. فقد كان هذا الفن في إنجلترا في القرن السابع عشر متروكا أكثره لخالعي الأسنان، الذين كانوا يصيرون معلنين عن قدومهم ويعرضون على الجمهور حبالا من الأسنان كأنها شعار النبالة. وفي 1728 أعلن بيير فوشار في كتابه "جراح الأسنان" أن طب الأسنان فرع من الجراحة. ولكن هنتر كان أول منطبق الطرق العلمية على دراسة الأسنان. وقد أدخل تصنيفها إلى أنياب، وضواحك، وطواحن، وقواطع، وابتكر آلات لتقويم انطباق الأسنان. وكان أول من أوصى بإزالة لب الضرس تماما قبل حشوه. وقد لخص أراءه في كتابه "التاريخ الطبيعى لأسنان الإنسان" (1721).

وكان أكثر الجراحات الصغيرة يجري دون مخدر. وقد استعمل القدماء من قبل شتى الأشربة المنومة - مثل "السلوى"، والأفيون، وقاتل الدجاج، واللقاح، والشوكران، إلخ، وفي سفر التكوين أن الله ذاته أوقع على آدم "سباتا"

قبل أن يأخذ منه ضلعاً. وقد وصف ديوسكوريدس في القرن الأول الميلادي نبيذ اللقاح في العمليات الجراحية(41). واستعملت الهند القنب الهندي *cannabis indica* (الحشيش)، وذكر أوريغانوس في

صفحة رقم : 12488

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الجراحات

القرن الثاني أشربه التنويم الجراحي، كما ذكرها القديس هيلاري-وموطنه بوآنتيه-في القرن الرابع. واستمر استعمال أكثر المنومات القديمة في العصور الوسطى، فكانت مدرسة سالرنو الشهيرة تحبذ استعمال "إسفنجة تخدير". أما في أوروبا الحديثة، فإن المخدر المفضل كان السكر. ولم يكتشف السر همفري ديفي الخواص المخدرة لأول أكسيد النيتروجين (الغاز المضحك) إلا في 1799. واكتشف الدكتور كروفورد لونج الطبيب بدانيالز فيل في جورجيا خواص الأثير المخدرة في 1839.

صفحة رقم : 12489

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الأطباء

6- الأطباء

كان من أثر ازدياد الثروة، ونمو الطبقات الوسطى عدداً واثراً، وتقدم علم الطب والتعليم، أن ارتفع مقام الأطباء ودخلهم إلى درجة لم يعهدها من قبل وقد أثلج هذا صدر لامتري، وكان هو نفسه طبيباً، فقال "إن كل شيء يخلي السبيل أمام الفن العظيم، فن الطبيب الشافي... فالطبيب هو الفيلسوف الوحيد الذي يستحق تقدير وطنه... فمجرد رؤيته تعيد إلينا هدوءنا... وتبعث الأمل الجديد"(42). أما فولتير فكان نقاداً للأدوية-"أن الحمية خير من الدواء" ومعظم الأطباء في رأيه مشعوذين "في كل مائة طبيب ثمانية وتسعون مشعوذين" ولكنه أضاف: "أن الرجال العاكفين على رد العافية لغيرهم من الناس بممارستهم المهارة والإنسانية معاً هم أولاً عظماء هذه الأرض، لا بل أن نصيباً من صفات الله، لأن عملية المحافظة والتجديد تكاد تبلغ في سموها عملية الخلق"(43). وقد أتى ديدرو على كلية الطب بجامعة باريس(44). الجامعة التي نغضت كلية لاهوتها عليه حياته، فقال: "ليس هناك كتب أطالها بسرور أكثر من كتب الطب، ولا رجال يمتعنا حديثهم من حديث الأطباء- ولكن حين أكون معافى "فقط"(45). وقد جعل الدكتور دبورديه الشخصية المحبوبة في قصة "حلم دالامبير" وسلط الهجاء على مهنة الطب كالعادة، كما ترى في مسرحياته جلوني وصور شودوفيكي، وقصة سموليت "فرديناند كونت فانوم". وكاريكانورات توماس رولاندسن اللذيذة.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; الطب -&gt; الأطباء

وقد رفعت الأتعاب والدخول الأعلى من مقام الأطباء الاجتماعي. وكان أكثرهم في إنجلترا يتقاضى جنيها نظير الكشوف على مريض. وبلغ إيراد بعضهم سنة ألف جنيه في العام. وقد أصبح السر هانز سلون، أول من رقي للبابوية من الأطباء رئيساً للجمعية الملكية، وخلع جوزف الثاني إمبراطور النمسا على جوزف فون كوارين لقب البارون. ولقي الأطباء الترحيب في خيرة أندية لندن وصالونات باريس، وخلعوا عنهم الروب الأسود (السواتن) الكابي، وتزبوا بأحدث أزياء الطبقة الوسطى الراقية فكانوا في إنجلترا يبدون في سترة من الساتان أو الحرير المطرز الأحمر، وسراويل للركبة، وأحذية ذات مشابك، وعصا ذات مقبض ذهبي، وسيف أحياناً، أما في فرنسا فكانوا يضارعون كبار رجال الكنيسة في فخامة زيهم.

وبعض هؤلاء الأطباء يطالبنا بتتويه خاص. منهم سيمون أندرية تيسو الذي اشتهر في لوزان بتزعمه الدعوة للتطعيم، وبكونه حجة في الصراع وقد جاهد لا ليشفي المرضى فحسب، بل ليحفظ الصحة على الأصحاء، وطبع كتابه "نصيحة للشعب في الصحة" (1760) عشر طبعات في ست سنوات، وترجم إلى كل لغة كبرى في أوروبا. ومنهم ليوبولد أونبروجر الذي كان قطبا بين عظام الأطباء الذين شرفت بهم فيينا في عهد ماريا تريزا، وكان محبوباً لتواضعه وأمانته، ومحبه للناس، "مثل سام لخبر ما في الخلق الألماني القديم من صادق القيمة والجادبية" (46). ولم يكن الدكتور جوزف إجناس جيوتان محبوباً إلى هذا الحد، وكان أحد نواب مجلس طبقات الأمة في 1789، وحيد عقوبة الإعدام، واقترح استعمال آلة لقطع الرؤوس (الجيلوتين) لنقادي ضربات الجلادين الخاطئة.

أما تيودور ترونشان فكان أشهر الأطباء في سويسرا. وكان تلميذاً أثيراً لدى بويرهافي في ليدن، ومارس الطب عشرين سنة في أمستردام، وتزوج حفيدة جان دويت، وعاد إلى مسقط رأسه في جنيف، وأدخل فيها التطعيم (1749) بادئاً بنفسه وأطفاله. وفي 1756

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; تقدم العلم -&gt; الطب -&gt; الأطباء

دعاه دوق أورليان إلى باريس ليطعم ولده الدوق شارتر وابنته التي كانت يومها المدموازيل دمانيانسييه. وعجبت باريس لهذه الشجاعة، ولكن حين خرج المطعمان من هذه العملية دون أن ينالهم أذى، تقاطر صفوة الناس على مسكن ترونشان في البالية-رويال وكلهم شوق للتحصن من مرض ظل طويلاً بنسبة عالية من الوفيات في فرنسا. وقد أعطى نجاحه وزناً لأرائه في موضوعات أخرى. فسبق روسو في حضن الأمهات على إرضاع أطفالهن. ونصح مرضاه بالإقلاع من الدواء والإكثار من الرياضة في الهواء الطلق، وبأكل الأطعمة البسيطة، والإكثار من السباحة،

وبالإتسار في الماء البارد، وبخلع باروكاتهم، وطواقهم، وستائر أسرتهم، وبالتبكير في النوم والاستيقاظ. وحفل البلاط في فرساي حين أمر تفتح نوافذ القصر - التي ظلت مغلقة دائماً - بعض ساعات النهار على الأقل، حتى في الشتاء. وأصبحت أفكاره من موزات العصر، فكانت النساء من عليه القوم يتمشين في ساعات الصباح الباكرة، مرتديات الثياب القصار للتهوية، وسرعان ما سميت هذه الثياب "ترونشين" (47).  
و حين استقر فولتير المقام في جنيف وضع نفسه في رعاية ترونشانز يقول "إنه رجل طوله ستة أقدام، حكيم كأسكو لابيوس، وسيم كأبولو." (48) ولم يبادل ترونشان هذا الثناء، ولكن ربما كان كلاهما مخطئاً كما قال فولتير عن نفسه وعن هالزر. أما مدام ديبينيه التي قطعت الرحلة الطويلة من باريس إلى جنيف طلباً للعلاج من ترونشان فقد رسمت لنا صورة كلها المديح والإطراء "قالت:  
سأنفق يومين أو ثلاثة في بيت فولتير مع السيد ترونشان. والحق أنني في كل يوم أكتشف في ترونشان صفات جديدة توحى باحترام وإجلال له لا حد لهما. فليس هناك ما يضارع حبه للخير، وتجرده من الأنانية، ومحبة لزوجته ورعايته لها. وأصارك بعد أن عرفتها بأنها أشد نساء الأرض عيوساً وتغلاً (49).  
ولكن من ذا الذي يصدق حديث امرأة عن أخرى؟

صفحة رقم : 12492

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> تقدم العلم -> الطب -> الأطباء

هذا ولم يكن القرن الذي نحن بصددده فلذا في تاريخ الطب، فلم يزل جو الطب يخيم عليه ظلمات السرية، والشعوذة، والنظريات التي كان ينبغي أن تتوارى خجلاً منذ زمن نتيجة للخبرة، إلا أن تقدم التشريح والفسولوجيا أرسيا الطب فوق أساس أسلم من ذي قبل، وكان تعليم الطب أشمل وأيسر، ومزاولة المهنة دون ترخيص في طريقها إلى الزوال، والتخصصات تزيد المعرفة وتحسن رعاية المرضى؛ وقد أطلقت الجراحة من عقالها، وأخذت العلاجات المعجزة تفقد سمعتها، وانتصارات الطب تقوم بدورها الهادئ في ذلك الصراع الأساسي بين الدين والعقل، وهو صراع راح يحتل مكان الصدارة في حياة الذهن..

صفحة رقم : 12493

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> النشوة الفلسفية

الكتاب الخامس

## الهجوم على المسيحية

1774 - 1730

### الفصل الثامن عشر

#### الملحدون

1751-1730

#### 1- النشوة الفلسفية

لنبدأ بتحديد مصطلحاتنا. سوف نعني بلفظة فيلسوف كل إنسان يحاول أن يصل إلى آراء مسببة مقنعة عقلانية في أي موضوع مهما يكن، إذا نظر إليه في أبعاده العريضة. وفي تحديد أكثر، سنطلق هذا المصطلح في الفصول التالية على أولئك الذين يسعون إلى نظرة عقلانية إلى أصل الكون وطبيعته ومغزاه ودلالته ومصيره، والحياة أو الإنسان. ويجدر ألا نفهم الفلسفة على أنها ضد الدين أو أنها تتعارض معه، وينبغي أن نفتح في النظرة الواسعة للحياة البشرية مجالاً للدين. ولكن لما كان كثير من فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر معادين للمسيحية كما عرفوها، فإن لفظة الفيلسوف اتخذت مفهوماً معادياً للمسيحية. وفي استعمالنا لهذا المصطلح الفرنسي فإنه سيتضمن هذا المفهوم عادة. وسنطلق على لامترى وفولتير وديدرو ودالمبيرث وجريم وهلفشيوس ودي هولباخ فلاسفة، ولكننا لن نعد روسو فيلسوفاً بهذا المعنى -على الرغم من أنه يجدر بنا أن نسميه فيلسوفاً، لأنه زودنا بحجة عقلانية دفاعاً عن الوجدان والإيمان. كما ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الفيلسوف قد يعارض الديانات القائمة من حوله، ومع ذلك، مثل فولتير،

صفحة رقم : 12494

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> النشوة الفلسفية

يتمسك إلى النهاية بالإيمان بالله. إن الجدل الذي هاج مشاعر الطبقات المفكرة في نصف القرن الذي سبق الثورة الفرنسية لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة، بل كان بالدرجة الأولى بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكي المسيحي كما وجد في فرنسا آنذاك، إنه الغيظ المكثوم في قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جراء ما لطخت به الديانة سجلها من الوقوف في وجه التقدم والمعرفة والاضطهادات والمذابح. وبلغ رد الفعل أقصى مداه، ولكن كذلك كان الاسفاف في مذبحة سانت برثلميو (1572) ومقتل هنري الرابع (1610) واضطهاد الهيجونوت بعد إلغاء مرسوم ناننت (1685).

ولم يكن ثمة مثل هذا العدد الكبير من الفلاسفة قط من قبل، وأمع هلفشيوس إلى "تذوق عصرنا للفلسفة وحبها لها" (2) وكتب دالمبير:

أطلق قرننا على نفسه قرن الفلسفة بغير منازع. فمن أصول العلوم الدنيوية الدنسة إلى أسس الوحي، ومن الميثافزيقا إلى مسائل الذوق، ومن الموسيقى إلى الأخلاق، ومن حقوق الأمراء والملوك إلى حقوق الشعوب. كل شيء كان موضع دراسة وتحليل ومثار نقاش وخلاف. وليس فينا من ينكر أن الفلسفة أحرزت بيننا تقدماً. إن العلوم الطبيعية تقدم لنا في كل يوم ذخراً جديداً... وأتخذت كل ميادين المعرفة تقريباً أشكالاً جديدة (3).

وكان الفلاسفة الفرنسيون نتاجاً جديداً. فكانوا قبل كل شيء واضحين ولم يكونوا جماعة منعزلة عن العالم تكسوهم المهابة والقداسة، يتحدثون إلى أنفسهم أو إلى نظراتهم أحاديث غامضة لا يفهمها إلا فئة معينة من الناس. وكانوا أدباء عرفوا كيف تتألق الأفكار والآراء في الألفاظ. ولما ظهرهم نحو الميثافزيقا باعتبارها ضالة ميئوساً منها، ونحو طرائق الفلسفة باعتبارها غروراً كاذباً عريضاً. ولم يكتبوا أبحاثاً مطولة معقدة جهدوا فيها في استنباط العالم من فكرة واحدة، ولكنهم كتبوا نسبياً موضوعات قصيرة، ومحاورات مسلية وقصصاً متبلة ببعض الفحش، وهجاء قتالاً من فرط السخرية، أو حكمة معبرة بطريقة بارعة توهم بالتناقض في سطر يحطم تحطيماً. وساق هؤلاء الفلاسفة حديثهم متناغماً مع رجال الصالونات وسيداتها، وفي كثير من الأحوال وجهوا كتبهم ومؤلفاتهم إلى شهيرات النساء، وكان لزاماً أن

صفحة رقم : 12495

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> النشوة الفلسفية

تكون مثل هذه الكتب واضحة جلية يسهل إدراك مراميها، وقد تضيء على الإلحاد سحراً وفتنة. ومن ثم أصبحت الفلسفة قوة اجتماعية انتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة. وأسهمت في الصراع بين الدول، وكانت جزءاً من الأبناء. ولما كانت كل أوروبا المتعلمة تتطلع إلى فرنسا لمعرفة النظرات والآراء، فإن مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى إنجلترا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا والسويد وروسيا، وأصبحت أحداثاً في دنيا أوروبا. وفاخر فرديريك الأكبر وكترين قيصرة روسيا بأن يكونا من بين الفلاسفة، وربما لم يقلقهما تنبؤ الطبقة المحافظة الفرنسية بأن المفكرين الأحرار الفرنسيين كانوا يقوضون أساس أخلاق فرنسا ووحدها وسلطانها وقوتها.

وكان لجوتنبرج أثره البارز: فإن الطباعة عملت على نشر العلوم والتاريخ ونقد الأسفار المقدسة وروائع الوثنيين، وأصبح الفلاسفة الآن أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عدداً وأكثر استعداداً من ذي قبل، ولم يستكفوا أن يهبطوا من أبراجهم العاجية ليعملوا على تبسيط المعرفة. ولم يكن هذا لأنهم وثقوا كثيراً في "الرجل العادي" كما عرفوه في



ذاك العصر، ولكنهم وثقوا في أن نشر "الحقيقة" قد يعمل على تحسين سلوك البشر وتوفير مزيد من السعادة لهم. وأعتبر المبير أن "فن تعليم الإنسان وتثويره أنبل مهمة وهبة في متناول البشر" (4)، وأصبح "التجاسر على المعرفة" شعاره الاستنارة الذي حققه عصر العقل وفاز به. ذلك أن الإيمان الذي آذن بإنبلاج فجره فرنسيس سيكون قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح أساس الفكر المتحرر وأداته - أي أن الفكر تحرر بهذا من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وبرز العقل متألقاً في عظمة وحي جديد، وطالب بالسيادة والسيطرة في كل مجال وميدان، وعرض إصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب والاقتصاد والحكومة بمفهومه المشرق. وأقر الفلاسفة بضعف العقل، مثله في ذلك مثل أي شيء بشري، وأدركوا أنه من الميسور تضليله بأي منطق فاسد أو تفسير خاطئ للخبرة. وما كان لهم أن ينتظروا شوبنهاور لينبئهم بأن العقل عادة خادم للرغبة وأداة للإرادة. إن هيوم الذي هيمن على عصر العقل هذا في بريطانيا كان

صفحة رقم : 12496

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> النشوة الفلسفية

أقوى ناقد واجهه العقل، وربما باستثناء كانت. وأعترف فولتير من أن لآخر بحدود العقل. وأتفق ديدرو مع روسو في أن الوجدان أساسي أكثر من العقل. وأعترف كل فلاسفة القرن الثامن عشر تقريباً بأن غالبية الناس حتى في أعظم الأمم حضارة ومدينة مرهقون بالحاجيات الاقتصادية والكدح في سبيل العيش إلى درجة لا يجدون معها فسحة من الوقت لتنمية العقل، وأن جماهير البشر تتحرك وتتأثر بالأهواء والعواطف والحزازات أكثر من تأثرها بالعقل، ومع هذا ظل الأمل معقوداً على انتشار العقل وإمكان تحريره من الأناثية الضيقة والتعاليم المغرضة. وهكذا برغم فترات النشأوم التي مر بها الفلاسفة فقد سادت بينهم روح التفاؤل، ولم يكن الناس قط من قبل واثقين بقدرتهم، أن لم يكن على إعادة بناء أنفسهم، فعلى الأقل على إعادة بناء المجتمع. وبرغم كوارث السنين السبع، وفقدان كندا والهند واستيلاء إنجلترا عليهما، فقد سيطرت على ذهن فرنسا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حماسة وحيوية بدا أنهما ستعيدان إلى فرنسا العجوز المتوجعة قوتها وشبابها من جديد. ولم يحدث قط منذ أيام السفسطانيين الإغريق أن انتشرت مثل هذه الآراء والأفكار الكثيرة، أو أظهرت روح البحث والتحقيق والحوار والجدل المنعشة، فلا عجب أن يحس ديكلوس حوله "بشيء من احتمال العقل بميل إلى التطور والنمو في كل مكان" (5) وبما أن باريس كانت آنذاك عاصمة الفكر في أوروبا، فإن حركة التنوير أصبحت حركة واسعة النطاق مثل حركة النهضة الأوربية وحركة الإصلاح الديني، والحق أن حركة التنوير هذه بدت وكأنها ذروة الحركات السابقة. وكانت النهضة قد ذهبت إلى ما وراء المسيحية لتكتشف الذهن الوثني، كما أن الإصلاح الديني كان قد كسر قيود السيادة المذهبية، وعلى الرغم منه تقريباً أطلق العنان لعمل العقل، وباتت مقدمتا العصر الحديث هاتين تكمل الواحدة الأخرى، وأصبح الآن في مقدور الإنسان في نهاية المطاف أن يحرر نفسه من معتقدات العصور الوسطى ومن أساطير الشرق. كما يقف على قدميه حراً طليقاً. حراً في أن يشك؛ وفي أن يحقق ويدقق. حراً في أن يفكر

صفحة رقم : 12497

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> النشوة الفلسفية

ويجمع ألوان المعرفة وينشرها. حراً في أن يقيم ديناً جديداً حول مذبح العقل لخدمة البشر، وكان ثملاً كريماً شريفاً.

صفحة رقم : 12498

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> خليفة الثورة

2- خليفة الثورة

ولكن كيف حدث كل هذا؟ ولماذا أنقلب كل هؤلاء الفلاسفة وبخاصة في فرنسا على المسيحية التي كانت فوق كل شيء قد مزجت الأمل بأهوالها ورعبها، والصدقات بجرائرها، والجمال بآثامها وخطاياها؟  
إن الثورة التي قام بها الربوبيون في إنجلترا استطاعت أن تعبر عن نفسها مع تسامح نسبي حتى من جانب الكنيسة الرسمية، وربما كان هذا هو السبب في خمود لهيبتها وفضلاً عن ذلك كانت الكنيسة الإنجليزية خاضعة للدولة فلم تعد تزعم زعماً فعالاً أنها -أي الكنيسة- سلطة منافسة مستقلة. أما الكنيسة في فرنسا فكانت هيئة قوية تملك نصيباً كبيراً من الثروة الوطنية وأرض الوطن، وهي مع ذلك مرتبطة بولاء أسمى مكانة بسلطة أجنبية. ويبدو أنها كانت تستنزف مزيداً من الثروة من أيدي العلمانيين إلى أيدي رجال الكنيسة عن طريق الوصية والتوريث، كما رفضت أن تدفع أية ضرائب أكثر من "المنح أو الهبات الاختيارية" واحتفظت بالآلاف الفلاحين في أراضيها في استرقاق فعلي، واحتفظت بالرهبان فيما بدا أنه خمول عقيم. وكم أفادت الكنيسة من الوثائق الزائفة والمعجزات الكاذبة. وسيطرت على كل المدارس والجامعات تقريباً، وعن طريقها أشربت أذهان الشباب بالسخافات المخدرة المناهية للعقل، وأستتكرت، على أنه هرطقة، كل تعليم يتعارض مع تعليمها واستغلت الدولة في فرض رقابتها على حركة الكلام والصحافة، وبذلت الكنيسة غاية الجهد في خنق التنمية الفكرية في فرنسا. وحرصت لويس الرابع عشر على اضطهاد الهيجونوت غير الإنساني. والتخريب الخالي من الرحمة لبورت رويال، وارتكبت الكنيسة إثمها في الحملات الوحشية التي شنتها ضد الألبيجنسيين وإقرار المذابح الوحشية مثل مذبحه سانت برثلميو، وأشعلت نار الحروب الدينية التي دمرت فرنسا تقريباً. وفي وسط كل هذه الجرائم ضد الروح الإنسانية ادعت الكنيسة، وحملت

صفحة رقم : 12499

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> خليفة الثورة

الملايين من ذوي العقول الساذجة على الاعتقاد بأنها فوق العقل وفوق الريبة والمساءلة، وأنها ورثت وحياً إلهياً، وأنها ممثل الله على الأرض الملهم المعصوم من الخطأ. وأن جرائمها كانت، بإرادة الله مثل حسناتها. وقدمت الكنيسة ردوداً كثيرة على هذه الاتهامات. وسوف نعرض لها في الوقت المناسب. وفي الوقت نفسه أثارت هذه الاتهامات المتزايدة حفيظة آلاف الناس ودفعتهم إلى الاحتجاج، وأخيراً إلى العداوة المريرة. وتضاعف عدد المتشككين إلى حد أنهم لم يعودوا يخشون رجال الدين وأحرجوهم علناً بالأسئلة العويصة. وحين دعا الأب تورنمين غير المؤمنين حوالي 1730 إلى كلية "الويس الأكبر"، يقال "إن غرفته اكتظت بالمفكرين الأحرار والربوبيين وأنصار المذهب المادي، وما استطاع الأب الجليل أن يحول أحداً عن رأيه" (6). وجزع رجال الدين من كثرة عدد الفرنسيين والفرنسيات الذين فارقوا الحياة رافضين تناول الأسرار المقدسة للكنيسة. وهددت مدام دي بري بأن تأمر خدمها بإلتقاء راعي الكنيسة من النافذة حين ألح عليها في قبول مسحها بالزيت المقدس (7). وشكا أحد القساوسة من أنه "في اللحظة التي يظهرون فيها أمام الناس يجبرون على الدخول في مناقشة، فنحن مطلوب منا، وعلى سبيل المثال، أن نثبت فائدة الصلاة للإنسان الذي لا يؤمن بالله، وضرورة الصيام لإنسان أنكر طوال حياته خلود النفس، والمناقشة مزعجة إلى أقصى حد، على حين أن أولئك الذين يسخرون ويهزءون يقفون إلى جانبنا" (8). وذكر باربييه في 1751 "قد نرى في هذه البلاد ثورة تؤيد البروتستانتية" (9) وكان مخطئاً. فإن طرد الهيجونوت لم يترك طريقاً وسطاً بين الكاثوليكية وعدم الإيمان بصحة الكتب المقدسة. إن الفكر الفرنسي المتحرر تخطى الإصلاح الديني وقفز طفرة واحدة من عصر النهضة الأوروبية إلى عصر الأستارة، وهكذا في فرنسا فإن الذهن الفرنسي لم ينعطف بثورته نحو الجانسينيين أو إلى الفئة القليلة الباقية من البروتستانت، بل أنعطف إلى مونتاني وديكارث وجاسندي وبيل ومونتسكيو، ولما رجع المفكرون الأحرار الفرنسيون إلى ديكارت رفضوا كل آرائه تقريباً اللهم إلا "شكله المنهجي"

صفحة رقم : 12500

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> خليفة الثورة

وتفسيره الآلي للعالم الموضوعي. وكان بيل موضع إجلال وتقدير باعتباره أدق العقلايين المتأملين، فقد ولدت شكوكه مزيداً من آلاف الشكوك. وكان "قاموسه" معيناً لا ينضب من الدروع التي يتسلح بها أعداء الكنيسة ضدها. وكان ما حدث في إنجلترا مثلاً حافزاً مشجعاً للمفكرين الأحرار في فرنسا. وبدأ أولاً أن دعوة فرنسيس بيكون إلى العلم الإستقرائي تبشر بثمار أكثر بكثير مما يبشر استنباط ديكارت السحري لله والخلود من وجود ديكارت. ثم كانت مادية هوبز الفظة التي لم تكف قط عن إثارة ديدرو. وهناك أيضاً نيوتن الذي بدا أنه هبط بالإله إلى مجرد ضاغط زرار في آلة العالم، ولم يكن الفرنسيون قد عرفوا بعد أن نيوتن أكثر إنتاجاً في اللاهوت منه في العلوم. ولا ننس الربوبيين الإنجليز الذين أمدوا فولتير بالشجاعة والقوة الدافعة. وأخيراً جاء لوك، لأن المتشككين الفرنسيين رأوا أن صرح الدين ينهار أمام القول بأن كل الأفكار مستمدة من الإحساس. وإذا كان الإحساس نتاج قوى خارجية فإن الذهن نتاج الخبرة، وليس هبة خالدة من لدن اله لا يراه أحد. وإذا كانت الخبرة تخلق الشخصية، فإن الشخصية يمكن تغييرها بتغيير طرق التعليم ومادته، وإصلاح النظم الاجتماعية، ومن هاتين القضيتين خلص رجال مثل ديدرو وهلفشيوس ودي هولياخ إلى نتائج ثورية. وتساءل فولتير مستحضرأ لوك في ذهنه "هل يمكن أن يكون ثمة شيء أعظم من أن نثير العالم بأسره سياسياً واجتماعياً ببضع حجج ومناظرات" (10). (مات فولتير قبل 1789). واستمع مرة أخرى إلى ما كتبه المركز دارجستون اليقظ في 1753 .

"قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدين في فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التي لم تكتسب أكثر من نحو مائة فيلسوف في باريس، بدلاً من إرجاعه إلى الكراهية التي أضمرها الفرنسيون لرجال الدين إلى أقصى الحدود".  
ثم يضيف دارجنسون بعد التنبيه بالثورة، مما أسلفنا ذكره:  
ستكون الثورة شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن الإصلاح الديني- وهو

صفحة رقم : 12501

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> خليفة الثورة

خليط مشوش من الخرافة والحرية جاءنا من ألمانيا في القرن السادس عشر. ولما كانت أمتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين، فإنهما سيسيران إلى حيث ينبغي لهما أن يسيرا: سيتردان رجال الدين، ويلغيان مهنة القساوسة، ويتخلصان من كل الرحى وكل الأسرار الغامضة... فلا يتحدث المرء في مصلحة رجال الدين ولا يساندهم في دوائر المجتمع وإلا كان موضع سخرية واستهزاء، وأعتبر جاسوساً لمحاكم التفتيش. ويشير القساوسة إلى أنه في هذا العام نقص عدد أعضاء الجماعات الدينية بمقدار الثلث، وهجر الناس الكلية اليسوعية، وانسحب 120 راهباً من هؤلاء الرهبان الذين ساءت سمعتهم إلى حد كبير (11).  
وكان ثمة تأثيرات فكرية أخرى أضعفت عقيدة العصور الوسطى الدينية. وأنضم الفلاسفة إلى أصحاب المذهب الحافظ (الأرثوذكسي) في رفض سبينوزا، لأن هذا اليهودي الكبير دمج بأنه ملحد، وكان من الخطر التحدث عنه دون اتهامه، كما حرص هيوم وفولتير على أن يفعلوا. ولكنهم كانوا يقرعون سبينوزا سرا، وكانت "رسالته اللاهوتية السياسية" تثير نقد الأسفار المقدسة. وشرح كونت بولانفيلبير سبينوزا بحجة تفنيده. إن هيوم الذي تأثر بفرنسا هو نفسه، كان يؤثر فيها كذلك، وكان البناؤون الأحرار (الماسونيون) يؤسسون لهم مراكز في فرنسا، حيث كانوا يمارسون سرا هراطقتهم الربوبية. وكانت الكشوف الجغرافية والتاريخ والدراسة المقارنة للأديان تضيف نارا إلى البوتقة التي يجري فيها اختبار المسيحية بما لم يعهد له مثيل قط من قبل. وكان كل علم من العلوم في نموه وتقدمه يزيد من درجة احترام العقل، ومن الإيمان بقانون كوني، ومن عدم الإيمان بالمعجزات، وبالذات بأعظمها شيوعاً وانتشاراً، ألا وهي تحويل خمسين ألف كاهن يومياً الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه.  
وعملت القوى الاجتماعية على انحلال العقيدة. وكان كل ازدياد في الثروة يعجل في التسابق على اللذة والمتعة، كما كان يجعل القيود على الأخلاق المسيحية أكثر إزعاجاً يوماً بعد يوم، في باريس التي أحتفظ فيها أكثر الملوك مسيحية بمجموعة من الخليلات، والتي احتلت فيها مدام دي بمبادور مكان السيدة

صفحة رقم : 12502

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> خليفة الثورة

مريم العذراء. بل أن الانحلال الخلقي في ذلك العصر تحول إلى اتهام للمسيحية، فكيف يتأتى، بعد سبعة عشر قرناً من سيطرة المسيحية، ألا تكون أخلاق أوروبا أحسن حالاً من متوحشي أمريكا أو "الوثنيين في الصين؟". وكانت كل طبقة، عدا الفلاحين، تضم أقلية متشككة، واستاءت البيروقراطية الحكومية من استقلال الكنيسة وإعفاءها من الضرائب. والرباط الوثيق القديم بين الكنيسة و"ساعدها" الدنيوي العلماني وهو الدولة" بدأت تنقسم عراه. وكان هناك مفكرون أحرار، مثل مالشرب في مصلحة الرقابة، وكان يحمي بكل قواه ديدرو ودائرة المعارف. وأوثق صلة بالملك كانت مدام دي بمبادور التي كانت تكره اليسوعيين، والتي اعتبرها فولتير (واحداً منا). ورأت الأرستقراطية في الكنيسة دعماً لمركز أسرة البوربون التي كانت قد أطاحت بحكم هذه الأرستقراطية، ومن ثم لم تكن هذه الطبقة تعارض إضعاف رجال الدين، بل لقد هلك كثير من النبلاء وسروا بامتهان فولتير وعدم توقيره للكنيسة والنيل منها، وأبدى أفراد الطبقة الوسطى العليا ارتياحهم ورضاهم عن المفكرين الذين كانوا يحاربون رجل الدين. لأن هذه الطبقة لم تغفر للكنيسة استنكار الفائدة (الربا) وإيثارها ملاك الأرض على رجال المال، فلو أن هؤلاء الأساقفة المتعجرفين أذيقوا المذلة والهوان لصعدت البرجوازية إلى مراقي الشهرة والقوة والسلطان ومن ثم فإن رجال المال، من أمثال بولينبير وهلفشيوس ودي هولباخ فتحوا أبوابهم وخزائنهم، بل حتى في بعض الحالات قلوبهم، للحرب ضد الكنيسة. وكان المحامون منذ زمن غير قصير يحقدون على رجال الدين ويحسدونهم، وكم تطلعوا إلى اليوم الذي يحكمون فيه الدولة. كما كانوا بالفعل يحكمون البرلمانات. وذهب أحد تقارير الشرطة في 1747 إلى أنه لا يكاد يوجد موظف في برلمان باريس لا يحتفظ بكتاب أو مخطوط منافع للدين في بيته(12). وعجت مقاهي باريس بالاحاد. وكان هجاء رجال الدين والسخرية منهم متعة ظرفاء المدن الذين أشاروا إلى الله بأنه "السيد وجود" وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين انتشاراً واسعاً حتى في الأقاليم، ووزع بعض الباعة المتجولين لقاء ربح وفير، ومن باب إلى باب، منشورات عنوانها "أشهر الدجالين

صفحة رقم : 12503

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> خليفة الثورة

الثلاثة" @=0% المخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس (وهو بهذا يقصد الأنبياء، مما لا تفره عليه). @. ألم ينتقل إلى رجال الدين أنفسهم عدوى الشك الديني، بل هنا وهناك في كل مكان، عدوى الإلحاد الصريح غير المقنع؟ وإليك على سبيل المثال.

صفحة رقم : 12504

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

كان جان راعي أبرشية أتريني في شمبانيا. وكان في كل عام يمنح الفقراء كل ما تبقى بعد تسديد نفقات حياته المعتدلة البعيدة عن الإسراف والتبذير. وبعد ثلاثين عاماً من حياة هادئة مثالية في وظيفة الراعي، قضي نحبه وهو في الخامسة والخمسين، موصياً بكل ما يملك لأهالي الأبرشية، تاركاً نسخ من مخطوطة عنوانها "عهدي الجديد" وجهت إحداهما إلى شعب الأبرشية، توسل فيها إليهم على المظروف الذي وضعت فيه المخطوطة، أن يغفروا له أنه خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه بينهم. وواضح أنه فقد الإيمان بالدين قبل أن يرسموه كاهناً" إنني لم أتقصد عملاً يتعارض مع مشاعري بشكل صريح طمعاً في المال، بل أنني امتثلت في هذا لأبوي (13) ونشر فولتير أجزاء من "العهد الجديد" 1762 وأصدر ديديروا ودي هولباخ خلاصة له في 1772 تحت عنوان "رجاحة عقل الكاهن مسلييه" ولم يطبع النص الكامل حتى 1861-1864 ونفدت طبعته منذ عهد بعيد. ويندر الحصول عليه. وفي كل الحملة ضد المسيحية من بيل إلى الثورة، لم يعد هجوم متطرف قاس لا يرحم مثل هجوم كاهن القرية هذا. ويبدو أنه بدأ شكوكه بدراسة الكتاب المقدس. وأظهرت نتيجة هذه الدراسة أن الكنيسة كانت حكيمة إلى حد ما في إبعاد الكتاب المقدس عن العامة. وكان يجدر بها أن تحتفظ به بعيداً عن تناول رجال الدين أيضاً. ووجد الأب يوحنا صعوبات كثيرة في الكتاب المقدس. لماذا أختلف نسب السيد المسيح في إنجيل متى اختلافاً كبيراً في إنجيل لوقا. إذا كان كلاهما

صفحة رقم : 12505

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

منزلاً من عند الله؟ لماذا لم تنته سلسلتنا النسب هاتان بيوسف إذا كان سيعفي سريعاً من إنجاب يسوع، لماذا يمتدح أين الله بأنه داود الذي كان زانياً بكل معنى الكلمة؟ وهل تنطبق نبوءات العهد القديم على المسيح، أم أن هذه التطبيقات مجرد للقوة اللاهوتية؟ وهل كانت معجزات العهد الجديد حيلاً أو خداعات ورعة، أم كانت عمليات طبيعية أسى فهمها؟ وهل نصدق هذه لحكايات أم نتبع العقل؟ وصوت جان إلى جانب العقل وأيده:  
"لن أضحي بعقلي، لأن عقلي وحده يمكنني من التمييز بين الخير والشر وبين الحق والضلال... لن أتخلى عن الخبرة لأنها مرشد وهاد أفضل بكثير من الخيال، أو من سلطان المرشدين الذين أرادوا أن يزودوني به. لن أرتاب في حواسي. ولست أتجاهل أنها يمكن أحياناً تؤدي إلى الخطأ. ولكنني من جهة أخرى أدرك أنها لن تضللني دائماً... إن حواسي تكفي لتصحيح الأحكام والقرارات المتسرعة التي ملت إلى اتخاذها(14).  
ولم يجد جان في العقل مسوغاً للإيمان بالإرادة الحرة أو خلود النفس، ورأى أنه "يجدر بنا أن نكون شاكرين أن تهباً لنا جميعاً نوم أبدي بعد نصب وصخب الحياة الدنيا التي تسبب المشقة أكثر مما تسبب اللذة لغالبيتنا... عودوا جميعاً في سلام إلى المستقر العام الذي جنتم منه، ومروا دون ضجة أو تنمر مثل كل الكائنات التي حولكم"(15). وعلى أولئك الذين دافعوا عن فكرة الجنة، من قبيل العزاء، أجاب "بأن أقلية ضئيلة، على زعمها، حققت هذا الهدف، على حين كان مآل الأغلبية إلى الجحيم. فكيف إذن يمكن أن تكون فكرة الخلود عزاء؟ إن العقيدة التي تخلصني من المخاوف الرهيبة... تبدو مرغوباً فيها أكثر من الشك الذي تركني مؤمناً بالله يتحكم في عطفه فلا يمنحه إلا لذوي الخطوة لديه،

ويهبئ للآخرين السبيل ليكونوا جديرين بالعذاب الأبدى، فكيف يمكن لأي إنسان متحضر أن يؤمن بالله يحكم على المخلوقات بالخلود في الجحيم؟".

صفحة رقم : 12506

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

هل هناك في الطبيعة إنسان بلغ من القسوة حداً يتعمد فيه تعذيب، لا أقول رفاقه من الكائنات، بل أي كائن واع حساس أياً كان؟ فأقروا إذن يا رجال اللاهوت أن إلهكم طبقاً لمبادئكم، شرير أكثر بكثير من أي شرير من بني الإنسان. إن القساوسة ورجال الدين جعلوا من الإله كائناً خبيثاً ماكرأ صارماً إلى حد أن فئة قليلة في هذه الدنيا هي التي لا تود أن يكون الإله موجوداً... وأية أخلاق نتحلى بها إذ كنا نقلد هذا الإله (16).

ورأى فولتير في هذا شيئاً من التطرف، وبذل أقصى الجهد عند نشره "العهد الجديد" (الذي ألفه جان) في أن يُلطف من الحاد الكاهن بالربوبية، ولكن مسلييه كان عنيداً متشدداً. وأستطرد قائلاً أن اله المسيحية هو منشئ كل الشرور، لأنه حيث أنه قادر على كل شيء يتم دون رضاه وموافقته، فإذا وهبنا الحياة فإنه كذلك كتب علينا الموت، وإذا وهبنا الصحة والثروة، فإنه يعوض منهما بالفقر والقحط والمصائب والحروب (17). إن في العالم دلائل كثيرة على تصميم بارع، ولكن هلا توجد فيه علامات كثيرة بنفس القدر على أن العناية الإلهية، إن وجدت، قادرة على إيقاع أشد أذى شيطاني؟

إن كل الكتب زاخرة بأشد المديح والثناء رياء ونفاقاً على العناية الإلهية التي أفرطوا في الثناء على رقابتها اليقظة، ومهما يكن من أمر فإننا إذا تفحصنا كل أجزاء الكرة الأرضية لوجدنا أن الإنسان المتحضر وغير المتحضر على السواء في صراع دائم مع العناية الإلهية. فهو مضطر إلى أن يصد الضربات التي تنزلها به في صورة أعاصير وعواصف وصقيع وبرد وفيضانات وجذب وغيرها من مختلف النازلات التي تجعل كد الإنسان وجده غير ذي جدوى. وفي إيجاز أرى أن البشر جميعاً مشغولون باستمرار في حماية أنفسهم من الحيل الشريرة الخبيثة التي تديرها العناية الإلهية التي يقال إنها ساهرة على توفير السعادة لهم (18). وفوق كل شيء هل وجد إله أعرب وأبعد عن التصديق من هذا؟ أنه لآلاف السنين ظل مختلفاً عن أعين البشر، وأستمع دون استجابة واضحة بريئة

صفحة رقم : 12507

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

لصلوات آلاف الملايين ودعواتهم وثنائهم عليه. والمفروض أنه حكيم بالغ الحكمة، ولكن ملكه يسوده الخلل والاضطراب والخراب. والمفروض أنه خير ولكنه يعاقب شيطان مجرد من الروح الإنسانية. والمفروض أنه عادل

وهو يهين للأشرار سبل الرخاء والازدهار، على حين يتعذب القديسون حتى الموت. إنه منكم دائماً في الخلق والتدمير (19).

وبدلاً من الاعتقاد مثل فولتير بأن الإيمان بالله أمر طبيعي عام، أكد مسلييه أن مثل هذا الإيمان أمر غير طبيعي، وأنه يجب أن يصب في أذهان المراهقين أن:

كل الأطفال ملحدون وليس لديهم فكرة عن الإله... ويؤمن الناس بالله بناء على كلام أولئك الذين لا يعرفون عنه أكثر مما يعرف الأولون، إن مربيائنا هن أول معلمي اللاهوت. إنهن يتحدثن إليهم عن الإله كما يتحدث عن آدميين تحولوا إلى ذئاب... إن قلة قليلة من الناس كانت تتخذ إلهاً لولا ما يبذل من جهد في أن يجعلوا لهم إلهاً (20).

وعلى حين أعلن معظم الملحدون عن إعجابهم بيسوع، نرى مسلييه يشمل السيد المسيح نفسه في هدمه الغاضب الانفعالي للعقيدة الدينية. وقبل كل شيء، أي رجل عاقل يصدق أن الله، لكي يسترضى البشر ويستميلهم... يمكن أن يضحي بابنه البريء الذي لم يرتكب إثماً؟ (21) أما عن يسوع نفسه فيقول:-

إننا نرى فيه... متعصباً مبغضاً للبشر، يعظ البائسين فينصحهم بأن يكونوا فقراء، ويكافحوا الطبيعة ويجمدوها، ويكرهوا اللذة ويلتسموا الآلام والشقاء، ويحتقروا أنفسهم، ويطلب أن يتخلوا عن الأب والأم وكل أوامر الحياة ليتبعوه. أية أخلاق كريمة!... لا بد أن تكون سماوية لأنها غير عملية بالنسبة للإنسان (22).

وينتقل مسلييه إلى مادية كاملة. وليس من الضروري أن نذهب إلى ما وراء المادة لنسأل عن خلقها. ويمكن أن يتخلف لغز المنشأ خطوة إلى الوراء ليفسح مجالاً للسؤال الطبيعي للطفل: "من الذي خلق الله؟" وأنا

صفحة رقم : 12508

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

أقول لكم أن المادة تعمل من نفسها لنفسها... وتركوا الرجال اللاهوت علتهم الأولى وليس للطبيعة من حاجة بهذا لإحداث كل الآثار والنتائج التي تراها (23) وإذا كان لزاماً أن تعيدوا أحداً، فاعيدوا الشمس، كما تفعل شعوب كثيرة، فإن الشمس هي الخالق الحقيقي لحياتنا وللصحة والضوء والدفء والبهجة والسرور. ولكن واحسرتاه! ويأسف مسلييه، لو أن الدين كان واضحاً لكان أقل جاذبية وفتنة لدى الجهال... إن هؤلاء بحاجة إلى الغموض والأسرار والخرافات والمعجزات والأشياء التي لا يمكن تصديقها (24)... إن القساوسة والمشرعين، بابتداع الأديان واختلاف الأسرار... قد أرضوا أذواق الجهال، إنهم بهذه الطريقة يجتذبون المتحمسين والنساء والأميين (25).

وصفوة القول، في رأى مسلييه، أن الدين كان جزءاً من مؤامرة بين الكنيسة والدولة لإرهاب الناس إلى إذعان مريح للحكم المطلق (26). إن الكهنة "حرصوا كل الحرص على أن يجعلوا إلههم مرعباً منقلباً طاغية كثير النزوات والأهواء. وكان لزاماً يكون كذلك من أجلهم حتى يكون في خدمة مصالحهم المتنوعة" (27) وتقع تبعة هذه المؤامرة على رؤوس رجال الدين أكثر منها على الملوك، لأنهم يسيطرون على الأمير منذ طفولته، عن طريق كاهن الاعتراف، ويلقون الخرافات، ويشوهون عقله ويعوقون نموه ويقودونه إلى التعصب الديني والاضطهاد الوحشي (28) وبهذا:

زعزعت الخلاقات الدينية أركان الإمبراطوريات وأدت إلى الثورات ودمرت الملوك وخربت أوروبا بأسرها، ولم يكن من الميسور إخماد هذه النزعات الحقبية حتى في أنهار من الدماء. إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو المتوحشين، في كل مرة يستثيرهم فيها معلومهم إلى تحطيم اخوتهم، وليس ثمة جريمة لم يرتكبها الناس في سبيل إرضاء الرب أو تسكين سورة غضبه (29)... أو إقرار خداع الدجالين لحساب كائن لا يوجد إلا في خيالهم وحدهم (30).



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

إنهم يدافعون عن هذه المؤامرة الضخمة المستمرة بذاتها من جانب الكنيسة والدولة ضد الإنسان والعقل على أساس أن ديانة خارقة للطبيعة، بل قل ديانة إرهاب، أمر لا غنى عنه في مهمة بناء الفرد والأخلاق. ولكن هل حقاً أن نظرية الجنة والنار تجعل الناس على جانب أكبر من الفضيلة، وهل الأمم التي يسودها هذا الزعم تشتهر بالسلوك الحميد والخلق القويم؟ (31) ويكفي لنتحرر من الوهم أن نفتح أعيننا على أخلاق أشد الناس تمسكاً بالدين ونفكر فيها ملياً، وسنرى طغاة متعجرفين، ورجال البلاط، ومغتصبين لا حصر لهم، وحكاماً لا ضمائر لهم، ودجالين وزانين وفاسقين وأباحيين فجرة، وعاهرات ولصوصاً، وأوغاداً من كل صنف، لم يشكوا لحظة في وجود إله محب للانتقام، أو لم يشكو في عذاب الجحيم أو الجنة النعيم (32).

كلا، إن الأفكار اللاهوتية، على الرغم من اعتراف كل الناس تقريباً بها، فإن تأثيرات على سلوكهم ضعيف، فالإله بعيد كل البعد ولكن الإغراء قريب "من ذا الذي ترهبه وتخيفه فكرة الإله؟ نفر قليل من الضعاف البائسين المتبرمين بالحياة، وبعض أفراد انطفأت فيهم بذرة العواطف والشهوات بحكم السن أو العجز والوهن أو تعثر الحظ (33). إن الدولة، لا الكنيسة، هي التي تخلق النظام وتعود المواطنين على طاعة القوانين " إن القيود والضوابط الاجتماعية أقوى من الدين في تقويم سلوك الناس (34) وأحسن العلاقات، مع تعاقب الأيام، هي تلك التي تؤسس على العقل والذكاء. ولكي يتبين الناس مبادئ الأخلاق القويمة فإنهم ليسوا بحاجة إلى اللاهوت أو الوحي أو الآلهة. إنهم ليسوا بحاجة إلا إلى الفطرة السليمة وحسن الإدراك، إنهم ينبغي عليهم أن يتفكروا في أنفسهم ويتأملوا طبيعتهم. ويتدبروا مصالحهم الواضحة، ويأخذوا بعين الاعتبار هدف المجتمع وهدف كل عضو فيه، ومن ثم يدركون بسهولة أن الفضيلة نعمة وأن الرذيلة نقمة على رفاقهم من الكائنات. والناس أشقياء لمجرد أنهم جهلة، وهم جهلة لأن كل شئ يتأمر على

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

الحيلولة بينهم وبين الاستنارة. وهم أشرار لمجرد أن عقلهم لم ينم ولم ينطور بعد بدرجة كافية (35). ويستطيع الفلاسفة أن يبنوا أخلاقاً طبيعية فعالة، لو لم يكرهوا على معتقد تقليدي زائف خشية الكهنة الأقوياء المتسلطين:

إن اللاهوت منذ أقدم العصور هو الذي حدد مسار الفلسفة وبم ساعدها اللاهوت؟ إنه حولها إلى رطانة غير مفهومة... ذات ألفاظ لا معنى لها، أكثر ملاءمة للتعمية منها للتبوير... كيف أضطر ديكارت وماليرانش وليبنتر وكثيرون غيرهم لإبتداع فرضيات ومراوغات ليوقفوا بين كشفهم وبين الأفكار الخيالية والأخطاء الفاضحة التي أضفى عليها الدين صفة القداسة وأية احتياطات لم يلجأ إليها أعظم الفلاسفة لحماية أنفسهم. حتى إلى حد المغامرة بوصفهم بالطيش والحمق، وبأن كلامهم غير مفهوم إذا تعارضت أفكارهم مع مبادئ اللاهوت! وكان القساوسة اليقظون على أتم

استعداد لهمد المبادئ والآراء التي يتعذر التوفيق بينها وبين مصالحهم. وكل ما استطاع الأفراد المستنبرون أن يفعلوه هو أن يتحدثوا ويكتبوا في معان خبيثة وغالباً مطاوعة موصومة بالجبن، حتى يوفقوا بين الباطل والحق توفيقاً مخزياً. كيف أمكن أن يدعى الفلاسفة والحديثون، تحت التهديد بأقصى الاضطهاد والتعذيب، إلى نبذ العقل والخضوع للعقيدة - أي لسيادة رجال الدين وسيطرتهم- وكيف يتأتى لأناس مكبلين بمنثله هذه القيود والأغلال أن يطلقوا العنان لعقيريتهم وموابههم... أو يعجلوا بتقدم الإنسانية(36)؟

وكان لدى بعض الفلاسفة من الشجاعة ما استطاعوا معه أن يتقبلوا الخبرة والعقل هادياً ومرشداً لهم، ويحطموا أغلال الخرافة لوسيبوس وديموقريطس وإبيقور وسترابو- ولكن مناهجهم كانت بسيطة معقولة مجردة من الأعاجيب والمعجزات من أجل عشاق الخيال حتى اضطرت إلى الاستسلام لأفلاطون وسقراط وزينون الخرافية. ومن بين الفلاسفة الحديثين أتبع هويز وسبينوزا وبيلا وغيرهم نهج إبيقور(37).

ورثى مسلييه لما منيت به البشرية من خسارة نتيجة لسيطرة اللاهوت

صفحة رقم : 12511

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

على الفلسفة. ودافع عن حرية الفكر حقاً أساسياً، يمكنه وحده أن يحقق للناس معنى الإنسانية وعظمة النفس(38). إنهم باظهارهم الحقيقة وحدها يمكنهم أن يدركوا أفضل مصالحهم، والعوامل الحقيقية التي تؤدي بهم إلى السعادة. لقد طال العهد بمعلمي الناس وهم يركزون أبصارهم على السماء، فليرجعوا بأبصارهم ثانية إلى الأرض. لقد تعب ذهن البشري من اللاهوت المبهم والخرافات السخيفة، والأسرار العويصة والطقوس الصيبانية. فلينشغل هذا ذهن البشري بعد هذا الإرهاق بالأشياء الطبيعية والأهداف والأشياء الواضحة والحقائق المعقولة والمعرفة النافعة(39).

فليطلقوا حرية الكلام والفكر والصحافة والطباعة وليكن التعليم علمانياً غير مقيد. إذن لأسرع الناس الخطى يوماً بعد يوم إلى اليوتوبيا (المثالية). إن النظام الاجتماعي الراهن جائر، أنه يهيء لأقلية ضئيلة الثراء الخامل وينشر فيها الفساد نتيجة للترف وللبدخ، على حساب الإبقاء على الملايين في فقر مذل وجهل مخز. ونظام الملكية هو أس البلاء، فالتملك لصوصية، وقد كيفوا التعليم والدين والقانون لحماية هذه اللصوصية وإجازتها(40) وإن ثورة للقضاء على مؤامرة الأقلية ضد الأغلبية لها ما يبررها كل التبرير. وصاح مسلييه في غضبته الأخيرة "أين جاك كليمنت (قاتل هنري الثالث) ورافايك (قاتل هنري الرابع) في فرنسا؟ هل بقي على قيد الحياة في أيامنا هذه رجال يطيحون برؤوس هؤلاء الجبابرة البشعيين المنحرفين أعداء الجنس البشري، وبهذا يخلصون الناس من الطغيان(41)؟ فلنوزع الأمة الملكية توزيعاً عادلاً، وليشتغل كل إنسان بعمل مناسب، وليكن الإنتاج قسمة متساوية بينهم، وليتزوج الرجال والنساء وليفتقروا متى شاءوا، ولينشأ أطفالهم معاً في مدارس مشتركة، وعندئذ تكون ثمة نهاية للنزاع في الأسرة ونهاية لحرب الطبقات والفقير. وهنا تكون المسيحية في النهاية حقيقية صادقة(42).

وبعد أن ذكر جان مسلييه كل ما أسلفنا، ختم إنجيله أو عهده الجديد بعبارة يتحدى فيها، كما أدرك هو، كل الذين يمقتونه ويصبون عليه اللعنات:

صفحة رقم : 12512

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> جان مسلييه

دعهم يفكروا أو يحكموا ويقولوا ويفعلوا ما يريدون... لن أعبأ بهم كثيراً... بل إنني اليوم لم أعد أعبأ كثيراً بما يحدث في العالم. إن الأموات الذين أوشك أن ألحق بهم قريباً، لا يعانون الآن شيئاً ولم يعودوا يزعجون أنفسهم. ومن ثم فأنا أضع نهاية لكل هذا. أنا الآن أشبه شئ بالعدم، وبعد قليل سأصبح لا شئ حقاً (43).

هل وجد ثمة عهد أو ميثاق مثل هذا في تاريخ البشرية جمعاء؟ تصور الكاهن المنعزل مجرداً من كل عقيدة ومن كل أمل، وهو يعيش منسياً لا ذكر له في قرية قد ترتعد فيها كل النفوس رعباً ورهباً، إلا نفسه هو، لمجرد الإطلاع على أفكاره الخفية. ولهذا لم يتحدث بمثل هذه الحرية إلا لمخطوطته. وهناك، ودون اكتراث ودون معرفة واسعة بطبيعة الإنسان، صب كل غيظه واستيائه في صراحة بالغة معادية للدين غاية العداء مما لم يعهده حتى عصره نفسه. وهنا كانت حملة فولتير ضد "المنبوذين" وكل مادية لامتري وكل الحاد دي هولباخ، وكل خيال دييرو الجامع المدمر، بل شيوعية بابيف أيضاً. وأصدر فولتير "عهد" جان مسلييه بعد ترده، ونشره دي هولباخ فرحاً مغتبطاً، ومن ثم أختمر في ذهن فرنسا وأسهم في التمهيد لسقوط النظام القديم. ونشوة الابتهاج بالثورة الفرنسية.

صفحة رقم : 12513

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> هل الإنسان آله

4- هل الإنسان آله؟

إن جوليان أجوفروي دي لامتري رد على هذا السؤال بالإيجاب. ولد في سان مالو 1709 لتاجر ميسور. وتلقى تعليماً واسعاً وأعتزم أن يكون شاعراً. وحيد والده الوظيفة الكنسية باعتبارها أقل خطراً، فأرسله إلى إحدى الكليات في بليسي حيث شب الولد جانسنيا متحمساً. ولكن طبيباً صديقاً للوالد رأى (هكذا يقول فرديك الأكبر) أن طبيبياً عادياً يمكن أن يحصل من علاج المرضى على أكثر مما يحصل عليه القسيس الفاضل من عمليات الغفران (44). ومن ثم حول جوليان اهتمامه إلى التشريح والطب وحصل على درجة في الطب من ريمس، وتتلّمذ على بورهاف في ليدن، وكتب عدة أبحاث طبية، وعمل جراحاً في الجيش الفرنسي، ورأى واحداً

صفحة رقم : 12514

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> هل الإنسان آله

في المائة من المجد والعظمة وتسعة وتسعين في المائة من حالات الإسهال (45) في ساحتي القتال في دنتجن وفوننتوي، ولزم هو نفسه الفراش أثر حمى شديدة، فلما شفي زعم أن صفاء ذهنه أو موضوع تفكيره كان يختلف باختلاف درجة الحمى. ومن ثم خلص إلى أن التفكير وظيفة المخ، ونشر هذا كله وما يرتبط به من آراء 1745 تحت عنوان "التاريخ الطبيعي للنفس".

وسار البحث على هذا المنوال: "نحن لا نعرف ما هي النفس. ولا نعرف ما هي المادة، ولكننا نعرف على أية حال أنه لا توجد نفس بلا جسد. ولدراسة النفس تجب دراسة الجسم، ودراسة لجسم ينبغي أن نبحث في قوانين المادة. إن المادة ليست مجرد امتداد، إنها أيضاً قدرة على الحركة، وهي تشتمل على مصدر فعال يتخذ مزيداً من الأشكال في مختلف الأجسام، ولسنا نعرف أن للمادة في ذاتها قوة الإحساس، ولكننا نشهد دليلاً على تلك القوة حتى في أحظ الحيوانات. وأنه لأكثر اتفاقاً مع المنطق أن نعتقد بأن هذه الحساسية تطور من إمكانية من أصل واحد في المادة، من أن تعزوها إلى نفس خفية صبت في الأجسام عن طريق قوة خارقة للطبيعة. وعلى هذا فإن المصدر الفعال "في المادة يتطور في النبات والحيوان حتى إذا كان في الإنسان مكنه من أن يدق قلبه، ومن أن تهضم معدته ومن أن يفكر معه. وهذا هو التاريخ الطبيعي للنفس".

وارتعدت فرائض القسيس في كتيبه لامتري فزعاً لهذه النتيجة، وصاح منذراً متوعداً، وفصل الطبيب الفيلسوف من وظيفة الجراح في الجيش، وكان يمكن أن يهب زملاؤه الأطباء لنجدته، لولا أنه كان قد كتب في نفس الوقت تقريباً كتاباً صغيراً تحت عنوان "سياسة الأطباء" يهجو فيه دسانسهم في تنافسهم على الوظائف التي تدر مالاً وفيراً. وانضموا إلى مهاجمته واستنكار آرائه. ورأى أن عمله في الطب قد أنهار كما انهارت شهرته، ففر إلى ليون، هناك شن هجوماً آخر على مهنة الطب وتحول إلى الفلسفة. وهكذا أصدر لامتري في ليون كتاب (الإنسان الآلة) وهو يقصد بالآلة هنا جسماً ترجع كل أفعاله إلى أسباب وعمليات بدنية أو كيميائية. أما

صفحة رقم : 12515

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> هل الإنسان آله

جسم الحيوان آلة فيتضح له من مائة ظاهرة: فإن جسم الحيوان يظل ينبض ويرتجف، وأن أمعاءه تظل تتمتع (التمتع موجات متعاقبة من تقلص لا إرادي تحدث في جدران الأمعاء فتدفع محتوياتها إلى الأمام) لبعض الوقت بعد الموت. وتنبض العضلات التي تتصل عن الجسم إذا نبهت وهكذا. فالحيوانات عندئذ آلات، وإذا كان الأمر كذلك، فلم لا يكون الإنسان، وعظامه وعضلاته وأوتاره وأعصابه قريبة الشبه إلى حد بعيد بالحيوانات العليا؟ وواضح أن الذهن يعتمد على العمليات الفيزيائية الكيميائية في الجسم والأفيون والقهوة والخمر ومختلف العقاقير لا تؤثر في الجسم وحده. بل إنها يمكن أن تغير مجرى التفكير وطبيعته، ومزاج الإرادة وقوتها. إنك إذا غيرت بعض الأنسجة في مخ فونتنيل جعلت منه شخصاً أعمق أبله (46)، إن مرض الجسم يمكن أن يضعف الذهن. إن النفس تكتسب حيوية ونشاطاً بالجسم، وتكتسب حدة وذكاء كلما قوى الجسم (47)، والغذاء يؤثر في الخلق، وعلى هذا فإن "الإنجليز الذين يأكلون اللحم أحمر مشوي بالدم، غير مطهو طهيًا جيداً مثل لحمنا، يبدو أنهم يشتركون بشكل أو بآخر في الوحشية تبعاً لهذا اللون من الطعام (48) فهل ندش إن إن إذا وعي الفلاسفة دائماً في أذهانهم صحة الجسم حفاظاً على صحة النفس؟" وأن "فيثاغورس وضع قواعد للتغذية كما حرص أفلاطون على تحريم الخمر؟" (49) ويخلص لامتري إلى أنه:

حيث أن كل قدرات النفس تعتمد إلى مثل هذا الحد على التنظيم السليم للمخ وكل أجزاء الجسم... فمن الواضح أن هذه القدرات ليست إلا هذا التنظيم نفسه. وواضح أن النفس آلة مستنيرة... فالنفس لذلك لفظة جوفاء، ليس لدى أي إنسان فكرة عنها، يجدر أن يستخدمها الإنسان المستنير لتعنى فقط ذلك الجزء الذي يفكر فيها(50). وفي كتاب "الإنسان نبات" (1748) توسع لامتري في "سلسلة الوجود" الكبيرة إلى نظرية للتطور. وفقد بعض ثقته حين حاول تخطي الهوة الواضحة بين اللاعضوية والعضوية، وفجأة نسي الآلية (المذهب الآلي) وأنزل إلى

صفحة رقم : 12516

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> هل الإنسان آله

المذهب الحيوي: أفترض بذوراً معينة مكنت المادة من أن تسبب الحياة(51) ووجد من السهل عليه بعد ذلك أن يتبع لوكرييتس "لا بد أن الأجيال الأولى كانت ناقصة غير تامة... وما كان يمكن أن يكون الكمال عمل يوم واحد في الطبيعة، ولا في الفن"(52). وليضيق الهوة بين الحيوان والإنسان يحاول لامتري، على النقيض من ديكارث، أن يبرهن على أن بعض الحيوانات تفكر :-  
لننظر إلى القرود والسمور(حيوان ذو فراء ثمين) والفيل وغيرها في تصرفاتها. وواضح أن هذه الأنشطة لا يمكن تأديتها دون ذكاء، ولم ننكر الذكاء على أن هذه الحيوانات؟ وإذا وهبتم نفساً فقد ضيعت. ومن ذا الذي لا يرى أن الروح الحيوان يجب أن تكون فانية أو باقية، من أي النوعين نفس الإنسان؟(53).  
وليس ثمة فرق كبير بين أبسط إنسان وأذكى حيوان "فالبلهاء" أو المعتوهون... حيوانات لها وجوه بشرية. كما أن القرد الذكي إنسان صغير ذو شكل آخر(54) ويستطرد لامتري فيقول في دعابته المألوفة أن كل مملكة الإنسان ليست إلا مركبات من قرود مختلفة، ووضع البابا نيوتن على رأسها(55) ولم يعد الإنسان يكون قرداً إلا عندما أخترع أصواتاً معينة لتكون تعبيراً مناسباً عن أفكار بعينها. وأصبح إنساناً بفضل اللغة(56).  
وهل أقر لامتري بوجود إله "محركاً أول" لآلة العالم؟ وكان فولتير وديدرو قد دافعا عن هذه الحجة من الحاجة إلى وجود نظام للكون. ورفضها لامتري في احتقار:  
إن كل تفكير يقوم على العلل أو الأسباب النهائية تفكير طائش. إن الطبيعة تمهد الطريق للسيد البرجوازي ليتحدث نثراً دون أن يعرفه. إن الطبيعة عمياء حين تهب الحياة، قدر ما هي بريئة حين تدمرها. وكما أنها دون نظر خلقت عينين تبصران، فإنها كذلك صنعت دون تفكير، آلة تفكر(57).  
ولم يكن لامتري ملحداً صريحاً. إنه تظاهر بالميل إلى نبذ موضوع الإله

صفحة رقم : 12517

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> هل الإنسان آله

على أنه غير هام "فليس يهمننا من أجل راحة البال، إذا كانت المادة أبدية أو أنها خلقت، أو أنه يوجد أو لا يوجد إليه" (58). ولكنه نقل ربما عن صديق وهمي "إن العالم لن يكون سعيداً مطلقاً إلا إذا كان ملحداً"، فعند ذلك لا تكون ثمة مزيد من خلافات لاهوتية ولا اضطهادات من جانب الكنيسة ولا مزيد من الحروب الدينية، ويمكن للإنسان أن يعبر عن غرائزه الطبيعية دون شعور بالإنثم (59) وقنع لامتري بالنسبة لشخصه بالمادية (المذهب المادي) وأختتم كتابه "الإنسان آلة" بعبارة جريئة متحدية: "هذا هو منهجي بل هو الحق، إلا إذا كنت ضللت كثيراً. إنه موجز بسيط. ناقشوه الآن إذا أردتم" (60). ويحتمل أنه من قبيل الدعابة أهدى لامتري بيانه "اللاأدري" (الغنوصي) إلى الشاعر المتدين الورع والعالم الفسيولوجي البرخت فون هوللر الذي رفض الإهداء فزعاً جزواً في خطاب إلى "صحيفة العلماء" عدد مايو 1749.

إن المؤلف المجهول لكتاب "الإنسان آلة" أهدى إلى كتابه الخطير بقدر ما هو شاذ غير مألوف، وإني لأشعر بأني مدين بالفضل لله وللدين ولنفسي، إذ أدلي بهذا التصريح... إنني أعلن هنا أن الكتاب الذي نحن بصددته لا يلتئم مع مشاعري، وأعتبر أن في إهدائه إلى شخصي إساءة بالغة تفوق في قساوتها كل إساءة وجهها المؤلف المجهول إلى كثير من أفاضل الناس. وأرجو أن يتأكد الجمهور أنني لا علاقة لي بهذا المؤلف... وأنني لا أعرفه... وأنه يجدر بي أن اعتبر أي توافق بيننا في الآراء أعظم كارثة محققة يمكن أن تنزل بي (61). وأستمر لامتري يطبع الإهداء في الطبقات اللاحقة من هذا الكتاب. وتناول الناس "الإنسان آلة" بالنقد والتمحيص على نطاق واسع، وأجمعوا على دحضه وتقنيده. وكان من اليسير نقد الأسلوب المضطرب في هذا المجلد الصغير وشجب الثقة بالنفس وتبيان مواضع مجانية الحقيقة. ولم يكن واضحاً على الإطلاق أن النفس والجسم يغلبهما النعاس معاً (62) وبعض الكتاب أكثر إشفاقاً في أحلامهم وأوهامهم منهم في كتاباتهم.

صفحة رقم : 12518

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> هل الإنسان آله

وقد

يستقر جسم مريض في جسم سليم مثل بوب وسكارون، ولن يسلم محبو اللحوم النادرة أنهم لا يزالون في مرحلة الصيد. إن لامتري نفسه الذي كان كثير المزاح نشر نقداً مزعوماً لكتابه، في رسالة غفل من أسم المؤلف تحت عنوان "الإنسان أكثر من آلة" -وربما كان هذا وسيلة لجذب الأنظار إلى كتابه الأول.

ومن ناحية أخرى ربما كان لامتري متأثراً حقاً بالحجج التي تساق ضد المذهب الآلي، ونحن نعلم أنه كان مهتماً بشرح ترميلي (1744) للقوى التجديدية في الماء العذب لبعض الحيوانات المائية البسيطة، مما لم يتفق بسهولة مع النظرية الآلية. وكان جورج سفتال الذي اشتهر برأيه في وجود ناربية في الأجسام، قد قلب في جراءة (1717) الفرضية الفسيولوجية، ذلك انه بدلاً من القول بأن الجسم هو الذي يحدد أفكار النفس واختياراتها، فإن النفس -وهي العنصر المتأصل النشط- هي التي تتحكم في نمو الأعضاء وعملها. وكان تيوفيل دي بوردو -طبيب دالمبير- يعتقد أن العمليات الفسيولوجية، حتى أبسط الهضم غير قابلة لتفسيرات آلية أو كيميائية بحتة (63) وعرض جان بابتيست روبينيه لحيوية كونية وهبت كل المادة الحياة والحساسية. وكان واضحاً أن لامتري يود أن يرتضي هذا الحل لمشكلة المادة بازاء الحياة.

وفي الوقت عينه أنتقل لامتري ليستنتج مذهباً قائماً على اللذة من فلسفته المادية. وفي كتب ثلاثة مستقلة بحث في السعادة، واللذة، وفن الاستمتاع- أعلن أن حب الذات هو أسمى الفضائل، وأن اللذة الحسية هي أعظم الخير، وكره تحقير اللاهوتيين لملاذات الحياة، ونازع في سمو المتعة العقلية المزعومة ورأى أن كل الملاذات حسية حقاً. ومن ثم فإن البسطاء من الناس الذين لا يهتمون بالحياة الفكرية أسعد حالاً من الفلاسفة، ويقول لامتري: لا يندمن أي إنسان على انغماسه في الملاذات الحسية ما دامت لا تتطوي على أي ضرر للغير، ولا يجوز أن يعتبر أي إنسان مسؤولاً ومسؤولية خلقية عن جرائمه لأنها نتاج الوراثة والبيئة اللتين لا سلطان له عليهما، وينبغي ألا

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> هل الإنسان آله

يعالجوه بالعضات بل بالدواء، وبحزم يحمي المجتمع، بل وبشفقة تعترف بحتمية كونية. ومن المرغوب فيه أن نختار لمناصب القضاء أمهر الأطباء(64). وكانت هذه الآراء من علائم انتصار أبيقور (وقد أسىء فهمه) على زينون في فرنسا القرن الثامن عشر: واستسلمت الفلسفة الرواقية في العهد الزاهر للويس الرابع عشر، لدفاع الأبيقورية عن مذهب اللذة في عصر الأستنارة، ولشمولية المادة وإطراح الآلهة. فلا عجب أن يشتد الإقبال على كتب لاتري من جمهور تحرر من أوهام اللاهوت وأرهفته الشكليات التقليدية والقيود الخلقية. ومهما يكن من أمر فإن المجتمع المهذب نفر من لامتري باعتباره مفكراً خارجاً على جماعته كشف عن كثير من معتقدات الطبقة العليا، وهو عاجز عن ضبط النفس، وهاجمه رجال الدين مبعوثاً من عند الشيطان. وأستحث رجال اللاهوت في ليدن الحكومة الهولندية لإبعاده عن البلاد. وفي فبراير 1738 دعاه المفكر الحر فردريك الأكبر للحضور إلى بروسيا ومنحه راتباً، وضمه إلى أكاديمية العلوم في برلين، وأستأنف لامتري ممارسته مهنة الطب وكتب عن الربو وعن الدوزنتاريا أبحاثاً اعتبرها الملك أحسن ما كتب من نوعها. وبعد أن أصطدم فولتير بلامتري في حاشية فردريك، كتب إلى مدام دنييس في 6 نوفمبر 1750 يقول:

هنا رجل مرح جداً، هو لامتري، وأفكاره عبارة عن ألعاب نارياً، على شكل صواريخ من السماء دائماً. وثرثرته مسلية ليضع دقائق، ولكنها مزعجة بعد ذلك إلى حد مؤلم. أنه ألف دون أن يدري كتاباً رديئاً، دأب فيه على تحريم الفضيلة والندم وامتداح الرذائل، وحرص فيه قراءه على الحياة المختلفة والمنافية للأخلاق والحشمة -دون قصد سيئ منه. وفي كتابه هذا ألف من اللمسات المشرقة، ولكن فيه نصف صفحة من العقل. إنها أشبه بومضات برق في الليل.. اللهم حل بيني وبين اتخاذه طبيباً لي، إنه قد يعطيني عقاراً مزعجاً بدلاً من الراوند بكل براءة. ثم يشرع في الضحك والسخرية. وهذا الطبيب العجيب هو قارئ الملك.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> الملحدون -> هل الإنسان آله

وأحسن ما في الموضوع إنه يقرأ له كتاب "تاريخ الكنيسة" إنه يقرأ مئات من الصفحات من الكتاب، وهناك مواضع يكاد يختنق فيها الملك والقارئ من الضحك(65). وكان لامتري قد وصف الموت بأنه خاتمة مسرحية هزلية ساخرة تمثل. وفي 11 نوفمبر 1751، وهو في الثانية والأربعين قدم نفسه مثلاً لهذه المسرحية. ففي مأدبة عشاء أقامها له مريض عالجه من داء عضال، فأتخم ببطيرة من لحم الطير، فانتابته حمى شديدة وقضى نحبه. وهنا قتل المرض طبيبه(66). وكتب الملك بهذه لمناسبة رثاءً جميلاً. وتنفس فولتير الصعداء. وانتقلت أفكار الرجل المتوفى إلى ديدرو ودي هولباخ، ودخلت إلى روح العصر.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> سنوات الضياع والكسل

## الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

1768-1713

1- سنوات الضياع والكسل

1748-1713

ولد ديدرو في 5 أكتوبر 1713 في لانجرز في شميانيا، على مسافة 38 ميلاً من ديجون. وكان أبوه ديديه ديدرو يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص في صنع الآلات الجراحة وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتي سنة خلت. ولم يرث دنيس على أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم، ولكنه لم يكف يوماً عن إجلاله تقديره لأمانة أبيه بالبساطة وإقباله على أعمال البر والخير في هدوء. وينقل عنه دنيس قوله "أي بني، أن العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنني أجد إثارة وراحة أكثر حين أسند رأسي إلى وسادة الدين والقوانين" (1) وهنا في جملة واحدة تردد الصوتان اللذان سمعا في فرنسا القرن الثامن عشر. وكان له أخ أصبح كاهناً وخصماً لدوداً لدنيس. وأخت دخلت الدير. وكاد دنيس نفسه أن يكون كاهناً، ذلك أنه منذ الثامنة حتى الخامسة عشرة من عمره ألتحق بمدرسة يسوعية في لانجرز وفي الثانية عشرة حلق شعر رأسه وارتدى غفارة سوداء (لباس الكاهن في الكنيسة) وعاش حياة الزهد والتشفي، وعقد العزم على أن يكون يسوعياً. وفسر هو هذا فيما بعد، بأنه فيض من حماسته، وأنه كان قد أخطأ "الحافز الأول لحنين جنسي ينمو بين جنبيه فخاله صوت الله" (2). وأبتهج الوالد ديديه لهذا النداء الباطني الجديد لدى



أبنة. ورافقه مغتبطاً إلى باريس (1729) ليلحق، بكلية (لويس الأكبر) اليسوعية هناك ومنها حصل في 1732 على درجة الأستاذية. ولكن كما حدث في حالات كثيرة كان اليسوعيون يفقدون راهباً مبتدئاً بشحذ ذهنه وصقله. واكتشف دنيس أن باريس عبارة عن

صفحة رقم : 12522

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> سنوات الضياع والكسل

مواخير أكثر منها كنائس. فخلع غفارته وتخلي عن ورعه وتقواه، وأنصرف إلى التدريب عند أحد المحامين. وسرعان ما نبذ القانون، وقضى عشرة سنين ينتقل من مهنة إلى مهنة. وعانى آلام الفقر في حجرة فوق السطح، ونفذ صبر والده فمنع عنه النفقة، ولكن والدته كانت تمدّه ببعض المعونة خفية. وأقترض دنيس بعض النقود، وكان أحياناً يسدد ما أقترض. وأعطى دروساً خاصة في الرياضيات، ودبح العظائم للقساوسة، وأشتغل كاتباً عند بائع كتب، وفي نفس الوقت تابع دراسته في الرياضيات واللاتينية واليونانية والإنجليزية، وألم الماماً جيداً بالإيطالية. وكان متمرداً على القانون ولكنه كان تواقاً شديداً التوق إلى المعرفة والحياة. لم يتعلم النظام والانضباط قط، ولكنه تقريباً تعلم كل ما عدا ذلك.

وكان مقلساً خالي الوفاض، ولكنه ممثلي حيوية وقوة، ووقع في شرك الغرام وأعتزم الزواج. وكانت أنطوانيت شامبيون تكبره بثلاث سنين وثمانية أشهر، ولكنها كانت سيدة. وعنفته على شيابه المفاجيء، ولكنه أكد لها أن هذه مقدمة لحياة زوجية آمنة، وأنه سيكون رفيق حياتها المخلص الأمين إلى الأبد. "أن خطابات غرامي الأخيرة موجهة لك، ولتعاقيني السماء باعتباري أشرف الناس وأشدهم خيانة وغدراً إذا سطرت كتاب غرام إلى أحد غيرك" (3). ونقضت أرق خطاباته هذا العهد. واستسلمت والده أنطوانيت لدموع أبنيتها ولفصاحة الخطيب ولسانه الذرب، ووافقت على الزواج شريطة الحصول على موافقة أبيه. وجمع ديدرو ما يكفي من المال لسداد نفقات العربية إلى لانجرز على بعد 180 ميلاً.

ووصل إلى لانجرز، وهناك تأثر والده بتجارب طبع وصلت إلى أبنة لترجمته لتاريخ اليونان عن الإنجليزية. وعرض الوالد أن يقدم العون لأبنة في أي عمل. وكان على دنيس أن يختار، ولا بد أن يقع اختياره على شيء ما. فأعلن الشاب عن تلهفه على الزواج فعنفه أبوه بقسوة على أنه شاب عاق كسول سيء التدبير. ورد الابن رداً وقحاً، وأقسم أن يتزوج سواء وافق أبوه أم لم يوافق، ودون أي عون مادي منه. وسجنه أبوه في دير محلي،

صفحة رقم : 12523

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> سنوات الضياع والكسل

وهرب دنيس وسار على قدميه تسعين ميلاً إلى تروي حتى أستقل عربية هناك. وعاد أدراجه إلى باريس.

ولكن مدام شامبيون كانت مصممة على ألا تتزوج أبنيتها من رجل منفصل عن أبويه محروم من الميراث وكان ديدرو يقيم في حجرة حقيرة لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً، وأنتابه مرض شديد فلما علمت أنطوانيت بذلك أسرعت إليه مصطحبة أمها معها قسراً، وهناك انهارت معارضة الأم. وسهرت مدام شامبيون وأبنيتها على العناية بالفيلسوف المريض، وفي 6 نوفمبر 1743 تزوجت "نانيت من نينو" (كما كان يسمى الواحد منهما الآخر) في منتصف الليل في كنيسة صغيرة أثرت بمثل هذه الزيجات السرية. وأبتهج الزوجان بانجاب طفلة بعد تسعة أشهر، ولكنها لم تعمر لأكثر من ستة أسابيع. وولد لهما ثلاث أطفال آخرين جاوز واحد منهم سن الطفولة. وأثبتت أنطوانيت أنها زوجة مخلصنة ولكن رفيقة غير ملائمة عاجزة عن متابعة تحقيقات أو شطحات زوجها الفكرية، غير راضية في شيء من المزاح، عن دخله الضئيل من الترجمة. وعاد إلى مقاهي الفساد يعيش على قهوة ويلعب الشطرنج. وفي 1746 كان قد أخذ له عشيقته هي مدام بويبييه، ومن أجلها كتب "الأفكار الفلسفية" "الحلي الزانفة" و"رسائل إلى العميان". وكان منذ وقت طويل قد أسلم لفتنة الفلسفة التي تجتذبنا دائماً، لأنها لا تجيب أبداً عن الأسئلة التي لا تكف مطلقاً عن إقائها. ومثل بعض المفكرين الأحرار في هذا القرن، تأثر من هذه الناحية تأثراً عميقاً بقراءة مونتاني وبيبل، ووجد في كل صفحة تقريباً في "المقال" وفي "القاموس" فكرة رائعة تلفت النظر. وأجتذبه كثرة مراجع مونتاني وإشاراته إلى الروائع الوثنية إلى الاستزادة من دراسة الفلاسفة اليونان والرومان وبخاصة ديموقريطس، وأبنيقوز ولوكرييتس. وكان هو نفسه "الفيلسوف الساخر" في عصره، فيلسوفاً مادياً يتدفق حيوية ونشاطاً - ولم تيسر له نفقات زيارة إنجلترا مثل فولتير ومونتسكيو، ولكنه تعلم أن يقرأ الإنجليزية في سهولة

صفحة رقم : 12524

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> سنوات الضياع والكسل

ويسر. ولو ليستمتع بالشعراء والمسرحيين الإنجليز. ولسوف نراه يتجاوز مع عواطف طومسون ويدافع، مثل ليلو عن مأساة حياة الطبقة الوسطى. وتأثر بدعوة فرانسيس بيكون إلى قهر الطبيعة وطريق البحث العلمي المنظم، وأنتقل إلى تمجيد التجربة أداة عظيمة للعقل. وأستمع في سني تكوينه وتشكيله هذه، ومرة أخرى عند إعداد الموسوعة - إلى محاضرات في البيولوجيا والفسولوجيا والطب. وشهد طيلة سنوات ثلاثة مؤتمرات رويل في الكيمياء ودون ملاحظات في 1258 ورقة من القطع الكبير. ودرس التشريح والفيزياء، وتمشى مع رياضيات زمانه، وتابع الأبحاث من بيكون إلى هوبز ولوك والربوبيين الإنجليز. وفي 1745 ترجم كتاباً شافنبري "بحث في الفضيلة والجدارة" وأضاف تأملات من عنده، وأستمر طوال التقلبات يؤمن بأن الخير والحقيقة والجميل كلها مؤتلفة تقريباً، وأن قانوناً أخلاقياً مؤسساً على العقل، لا على الدين، يفيد النظام الاجتماعي بدرجة كافية. وأصدر في 1746، مدفوعاً بكل هذه الحوافز وبخياله الواسع الخصب، كتابه "أفكار فلسفية" دون أن يذكر أسم المؤلف. وكان متطرفاً إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى لامتري، بلغياً إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى فولتير. وربما كان لكليهما بعض الفضل فيه. وبدأ بدفاع عن "الانفعالات" وهنا حاول الفكر الجريء، متفقاً في ذلك مع صديقه روسو، أن يبرهن على أنه لا ضير من "أن تقول الفلسفة كلمة في صالح خصوم العقل، مذ كانت الانفعالات وحدها هي التي ترتفع بالنفس إلى الأشياء العظيمة، ولن يبلغ شيء ذروة السمو في الأخلاق أو الأعمال بدون الانفعالات، فقد ترجع الفنون القهقرى إلى طفولتها، وتتقلص الفضيلة إلى أتفه الأعمال بدونها(4). ولكن الانفعالات بدون نظام تكون مدمرة. ويجدر أن يكون هناك بعض التنسيق بينها، ولا بد من إيجاد طريقة ليكبح الواحد جماح الآخر. ومن هنا نحتاج إلى العقل، وينبغي أن يكون أعظم هاد ومرشد لنا، وهنا كانت محاولة مبكرة في عصر التنوير للتوفيق بين العقل والوجدان، بين فولتير وروسو.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> سنوات الضياع والكسل

وكان ديدرو، مثل فولتير، في أولى مراحل تطوره ونموه، ربوبياً. أن شواهد تصميم العالم وتكوينه ترغم على الإيمان برب ذكي بارع. ويمكن أن يفسر المذهب الآلي المادة والحركة، ولكنه لا يستطيع تفسير الحياة والفكر. أن ملحد المستقبل تحدى الملحدين أن يفسروا عجائب حياة الحشرات التي كشفت عنها حديثاً أبحاث ربومير وبونيه: هل رأيتكم في تفكير أي إنسان وأعماله، ذكاءاً ونظاماً وحكمة واتساقاً أكثر من تركيب الحشرة؟ أليست بصمات الإله واضحة في عين البعوضة الصغيرة وضوح موهبة التفكير في أعمال نيوتن العظيم؟... فكروا فقط في أي لم أبرز لكم إلا جناح الفراشة وعين البعوضة. على حين كان يمكن أن أسحقكم بثقل الكون(5).

ومهما يكن من أمر فإن ديدرو نبذ في ازدياد الإله الذي جاء به الكتاب المقدس حيث بدا له هذا الرب جباراً قاسياً غاية الجبروت والقسوة، واتهم الكنيسة التي نشرت هذا المفهوم بأنها منبع الجهل والتعصب والاضطهاد. وهل ثمة شيء أشد حمقاً وسخفاً من أن يجعل إلهاً يموت على الصليب ليهدئ من غضب الله على رجل وامرأة ماتا منذ أربعة آلاف سنة. ثم كما يقول بعض رجال اللاهوت "إذا لعنت وعذبت ألف نفس مقابل خلاص نفس واحدة، أليس الشيطان هو الراجح في هذه القضية، دون أن يسلم الرب ابنه إلى الموت؟ ولم يعترف ديدرو بأي وحي إلهي سوى الطبيعة نفسها. وناشد قراءه أن يرتفعوا إلى مفهوم جديد بالكون الذي كشف عنه العلم. وطالب "بتكبير الإله وتحريره"(6).

وأمر برلمان باريس بإحراق الكتاب بمعرفة المدعي العام بتهمة "تقديمه إلى الأذهان الفلقة المضطربة الجريئة أشد الأفكار سخفاً وأجراماً، والتي من شأنها إفساد الطبيعة البشرية، وبوضعه كل الأديان في مستوى واحد تقريباً، في ارتياب مصطنع، حتى ينتهي إلى عدم الاعتراف بها جميعاً(7) ولما كان إحراق الكتاب الصغير (7 يوليو 1746) بمثابة إعلان عنه، فوجد له عدداً غير متوقع من القراء، وترجم إلى

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> سنوات الضياع والكسل

الألمانية والإيطالية، ولما تهامس الناس بأن ديدرو هو مؤلفه، أرتفع إلى مرتبة تداني فولتير. وتسلم من الناشر 50 جنيهاً ذهباً. أعطاها لعشيقته التي كانت في حاجة إلى ملابس جديدة.

ولما تزايدت مطالب مدام دي بويسييه، ألف ديدرو كتاباً آخر (1747) سمع به كاهن الأبرشية، فتقدم بالرجاء إلى الشرطة لتحمي المسيحية من هجوم ثانٍ. ففاجأ رجال الشرطة المؤلف في داره وصادروا مخطوطة الكتاب، أو كما يروي بعضهم، فنعوا بوعده منه بعدم نشره. وعلى أية حال لم يظهر كتاب "نزهة الشكاك" حتى 1830 ولم يزد هذا الكتاب في شهرة المؤلف ولكن فيه تنقيح عن مشاعره. لجأ إلى حيلة الفيلسوف الأثرية لديه في المراوغة، إلا وهي الحوار، فهياً لربوبي وقائل بوحدة الوجود (الله والطبيعة شيء واحد، الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية) وملحد، بأن يشرحوا وجهات نظرهم في الألوهية. ويكرر الربوبي في حماسة الحجة المأخوذة من تصميم

الكون، ولم يكن ديدرو مقتنعاً بعد بأن تكيف الوسائل مع الغايات في الكائنات هو تكييف رائع ممتاز يمكن تفسيره بعملية عمياء من تطور اتفاقي جاء مصادفة. أما الملحد فيصير على أن المادة والحركة والفيزياء والكيمياء تفسير للكون أفضل من إله لا يفعل إلا أن يؤجل مشكلة الأصل أو المنشأ. أما القائل بوحدة الوجود، وكانت له الكلمة الأخيرة والقول الفصل، فيعتقد أن الذهن والمادة أديان معاً، وأنهما يؤلفان الكون، وأن هذه الوحدة الكونية هي الله. وربما كان ديدرو يقرأ سبينوزا.

وكان عام 1748 مثيراً ومجهداً. وكانت أنطوانيت قد وضعت طفلاً وكانت مدام دي بويسييه تطالب بتعويض عن الزنى والفجور، ومن المحتمل أن ديدرو، رغبة في الحصول على المال بسرعة، كتب آنذاك قصة فاجرة "الحلى الزائفة" وبناء على ما أوردته أبنته (مدام دي فامديل مستقبلاً في كتابها: مذكرات من تاريخ حياة وأعمال ديدرو) - ولا ينبغي الأخذ بما جاء به قبل التأكد من صحته - فإن ديدرو ذكر لعشيقته أن كتابة قصة مسألة سهلة نسبياً، ولكنها تحدثه في ذلك فراهن على تأليف قصة ناجحة في

صفحة رقم : 12527

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> سنوات الضياع والكسل

أسبوعين، وواضح أنه كان يقلد كربيون Crebillon الأصغر في "الأريكة" 1740 حيث أخذت أريكة تتذكر من جديد عدد العاشقين الذين كانت تنن تحتهم. وتخيل ديدرو خاتماً سحرياً عند أحد السلاطين إذا وجهه إلى الحلبي الزائفة عند المرأة، وجعلها وعشيقها يعترفان بكل ما قاسى الأثنان وعانيا من الغرام. ووجه الخاتم السحري إلى ثلاثين سيده، وما كاد يفتر عنصر التشويق والامتناع في المجلدين كليهما. وخط المؤلف البذاءة بشيء من الملاحظات المثيرة عن الموسيقى والأدب والمسرح -وأضاف حتماً رأى فيه السلطان طفلاً يسمى "التجربة" أخذ ينمو ويكبر ويقوى حتى دمر معبداً قديماً اسمه "الفريضة" وحقق الكتاب غرضه على الرغم من إقحام الفلسفة فيه، حيث أمكن أن يدر مالاً، ودفع الناشر لورنت دوراندا لديدرو مبلغ 1200 جنيه في المخطوطة وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن يباع إلا خلسة فقد عاد بربح وفير. وخرجت ست طبعات بالفرنسية في 1748 وظهرت عشر طبعات في فرنسا بين عامي 1920-1960 والواقع أن هذا أوسع كتب ديدرو انتشاراً وأكثر عدد طبعات (8).

وبدل ديدرو من طبعه وحالته النفسية حين كتب رسائل علمية. وقد أحسن التقدير كتابه: مذكرات في موضوعات مختلفة في الرياضيات" (1748) الذي ضم أبحاثه علمية أصيلة في الصوت والجهد ومقاومة الهواء، "وتصميماً لأرغن جديد" يمكن أن يعزف عليه أي إنسان. وأثنت "مجلة الرجل المهذب" "وصحيفة العلماء" على بعض المقالات، بل إن صحيفة اليسوعيين "دي تريفو" امتدحتها، ودعت إلى مزيد من مثل هذه الأبحاث من رجل بارع قدير مثل مسيو ديدرو الذي نلاحظ أن أسلوبه رشيق واضح غير متكلف بقدر ما هو مبدع (9). وظل ديدرو طوال حياته ينطلق بشكل غير متواصل إلى العلوم الطبيعية. ولكن ازداد ميله إلى مسائل علم النفس والفلسفة. وكاد يكون في كل مجال تقريباً أكثر المفكرين أصالة في زمانه.

صفحة رقم : 12528

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الأعمى والأصم والأبكم

2- الأعمى والأصم والأبكم

1751-1749

لفت نظر ديدرو بوجه خاص مسألة كان قد أثارها وليم مولينكس الأيرلندي 1692: هل يستطيع إنسان ولد أعمى كان قد تعلم التمييز بين مكعب وجسم كروي باللمس. أن يفرق في الحال إذا عاد إليه بصره، بين هذين الجسمين، أو هل يقتضي الأمر قبل هذا التفريق بعض الخبرة في العلاقات بين الأشكال ملموسة ونفس الأشكال مرئية؟ وجاء الجواب الثاني من مولينكس وصديقه لوك. وفي 1728 قام وليم شولدن بتجربة ناجحة على صبي في الرابعة عشرة من عمره، كان ضريباً عند الولادة، وكان لزاماً أن يتدرب الصبي قبل أن يتمكن من التمييز بين الأشكال بالنظر وحده. ولاحظ ديدرو أيضاً بعناية مثيرة حياة نيقولا سوندرسن الذي فقد بصره في عامه الأول، ولم يسترده قط، ولكنه ابتدع لنفسه كتابة رياضية خاصة على طريقة بريل، ومن ثم أكتسب قدرة إلى درجة عين معها أستاذاً للرياضيات في كمبردج.

وفي أوائل 1749 دعا ريومور مجموعة مختارة من الناس ليُشاهدوا ماذا يحدث عند إزالة الضمادات عن عيني امرأة أجريت لها عملية لعلاجها من عمى خلقي. وأستاء ديدرو وجرحت كبرياءه لأنه لم يدع هو والفلاسفة الآخرون إلى هذه المناسبة. وباستهتاره المعهود قال إن ريومور كان قد رتب أن ترفع الضمادات أمام "بعض عيون لا قيمة ولا شأن لها(10)" وطبقاً لما روته ابنة ديدرو أساعت هذه العبارة إلى مدام دييري دي سانت مور التي كانت تفتخر بعينها والتي كانت العشيقة الحالية لمدير المكتبة الحالي، أو كبير مراقبي المطبوعات الكونت دارجنسون (مارك بيير، الأخ الأصغر للمركز رينيه لويس).

وفي 9 يونيو نشر دوراند كتاب ديدرو "رسالة عن العميان لخدمة المبصرين" وكانت على شكل رسالة موجهة إلى مدام بويسييه. وبدأت بوصف زيارة قام بها ديدرو وبعض الأصدقاء لزراع كروم أعمى. وأذهلهم روح النظام عند الرجل المكفوف البصر إلى حد الذي تعتمد عليه فيه زوجته

صفحة رقم : 12529

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الأعمى والأصم والأبكم

بالليل في إعادة كل شيء إلى مكانه بعد فساد النظام أثناء النهار. وكانت حواسه الباقية أحد أقوى من حواس الناس العاديين "وهناك بالنسبة له فروق بسيطة لا تكاد تذكر من نعومة الأجسام، وهي فروق لا تقل دقة عن الفروق بين أصداء الأصوات، ولا خوف من أن يحسب خطأ أن سيدة أخرى هي زوجته، إلا إذا كان في المبادلة كسباً له(11) ولم يكن يدرك كيف يعرف الإنسان الوجه دون أن يلمسه. وانحصرت روح الجمال عنده في الأشياء الملموسة وفي رخامة

الصوت والمنفعة ولا يجد عاراً في العري لأنه يجد أن في الثياب حماية من الجو لا إخفاء الجسم عن أعين الآخرين. وأعتبر السرقة جريمة كبرى لأنه يقف حيالها عاجزاً لا حول له ولا قوة. وخلص ديدرو إلى أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله، بل من خبرتنا الحسية. بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها، وهي أيضاً مثل فكرتنا عن الأخلاق، نسبية متنوعة. ووجود الله مشكوك فيه لأن البرهان من أصل الوجود فقد كثيراً من قوته. حقاً هناك شواهد وبراهين على التصميم والتركيب في كثير من الكائنات والأعضاء مثلما هو في الذبابة والعين، ولكن ليس ثمة شواهد على التصميم في الكون باعتباره كلاً، لأن بعض الأجزاء عوائق - إن لم تكن أعداء فتاكة- لأجزاء أخرى، وكل تركيب تقريباً محكوم عليه أن يلتهمه تركيب عضوي آخر وتبدو العين مثلاً رائعاً لتطابق الوسائل مع الغايات، ولكن فيها عيوب وشوائب جسيمة (كما يوضح هلمهولتز هذا تفصيلاً فيما بعد) وثمة عفوية أو تلقائية خلاقة في الطبيعة، ولكنها نصف عمياء. وتؤدي إلى كثير من الخلل والاضطراب والتبديد والضياح. ورغم ديدرو أنه أقتبس من كتاب "حياة دكتور نيقولاً سوندرسون وخلقته لمؤلفه ولیم أنشليف (وواضح أنه لم يوجد قط)، فأجرى على لسان الأستاذ الأعمى قوله "لماذا تحدثني عن هذا المشهد الجميل الذي لم يصنع من أجلي قط؟... إذا أردت مني أن أؤمن بالله فينبغي أن تجعلني ألمسه (12) وفي سيرة الحياة الوهمية هذه رفض

صفحة رقم : 12530

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الأعمى والأصم والأبكم

سوندرسون الإيمان بالله وعزاً نظام الكون إلى انتقاء طبيعي للأعضاء والتركيبات العضوية عن طريق بقاء الأصلح. كل تركيبات معيبة ناقصة من المادة اختفت. ولم يبق منها إلا ما انطوى تركيبه على تعارض غير ذي أهمية، والتي يمكن أن تستمر وتبقى بوسائلها ولكن النتائج الضخمة الغربية تظهر من حين إلى حين... ما هو العالم؟ إنه مركب خاضع لثورات تشير كل منها إلى نزعة ملحّة إلى التدمير، تسلسل سريع للكائنات يعقب بعضها بعضاً. ويدفع بعضها بعضاً ثم تختفي (13) ويختتم ديدرو بمذهب اللا أدريّة: "واحسرتاه يا سيدتي، إننا إذ نضع المعرفة الإنسانية في ميزان مونتاني فلن نبعد عن شعاره، لماذا نكتسب المعرفة؟ إننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة المادة، وعن طبيعة الذهن والفكر، لا نعرف إلا أقل من ذلك. بل لا نعرف شيئاً إطلاقاً (14).

وجملة القول إن رسالة العميان من أعظم وأروع ما كتب في عصر الاستنارة في فرنسا. إنه كتاب جميل ساحر من حيث السرد والقصص، كما أنه يتميز بدقة الملاحظة والتبصر البارح العطوف بوصفه بحثاً في علم النفس، كما يتميز بخيال مثير بوصفه بحثاً في الفلسفة، وهو مرهق قرب انتهاء صفحاته الستين ولكنه يضم بعض ما يجافي الحشمة مما لا يكاد يلبق برسالة مفروض إنها موجهة إلى سيده، ولكن ربما كانت مدام دي بويسييه متعودة على خلط ديدرو بين بذاءة السوق وسعة الإطلاع والمعرفة. وشمل البحث، لحسن الحظ، اقتراحاً مفصلاً لما عرف فيما بعد باسم طريقة لويس بريل (15).

وأرسل فولتير الذي كان آنذاك في باريس (1749) إلى ديدرو وتقريباً حماسياً للبحث، قال فيه: "قرأت في سرور بالغ كتابك الذي يذكر الشيء الكثير ويوحى بشيء أكثر. وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير، بقدر ما أحتقر أولئك الأغبياء الذين ينقصون من قدر ما لا يفهمون...

صفحة رقم : 12531

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الأعمى والأصم والأبكم

ولكنني أعترف لك أنني لست من رأي سندرسن الذي ينكر وجود إله، لأنه ولد أعمى. وربما كنت مخطئاً، ولكن لو أنني في مكانه لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبني إضافات كثيرة تكمل البصر. أود من كل قلبي أن أتحدث إليك. وليس يهمني أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته، أو أنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية. وقبل مغادرتي لونغويل أرجو أن تشرفني بتناول عشاء فلسفي معي، في داري بصحبة بعض الحكماء. ورد عليه ديدرو في 11 يونية:

سيدي الأستاذ العزيز: إن اللحظة التي تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة... إن رأي سندرسن ليس رأيي ولا هو رأيك... إنا أومن بالله، ولكنني أنسجم كثيراً مع الملحدين، ومن المهم جداً ألا نخلط بين الشوكران (نبات يستخرج منه شراب سام) و البقدونس. ولكن ليس يهمني مطلقاً أن تؤمن بالله أو لا تؤمن به. وقال مونتاني إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها... (16). وقبل ظهور أية نتيجة لهذه المراسلات قبض على ديدرو. ذلك أن الحكومة ثار غضبها لنقد صلح إكس لاشابل المنزل علناً. وأودعت السجن نفراً من النقاد، ورأت أن الوقت قد حان لكبح جماح ديدرو وإيقافه عند حده ولسنا ندرى إذا كان الإلحاد في رسالة العميان هو الذي أثار احتجاج رجال الدين، أو أن مدام دبيري دي سانت مور وقد ساءت أحوالها أشارت ديدرو إلى العيون التي لا قيمة لها قد حفزت عشيقها (كبير مراقبي المطبوعات) إلى اتخاذ إجراء. وعلى أية حال فإن الكونت دارجنسون أرسل أمراً مختوماً (23 يوليو 1749) إلى ماركيز دي شاتيليه محافظ قلعة فنسان "استقبلوا في القلعة المدعو ديدرو، وأودعوه في السجن لحين صدور أوامر أخرى مني" (71) وفي الصباح الباكر في اليوم التالي طرد رجال الشرطة باب ديدرو، وفتشوا مسكنه ووجدوا نسختين أو ثلاثاً غير مجلدة من رسالة العميان، وعدة صناديق مملوءة بمادة الموسوعة الشهيرة التي كان يعدها

صفحة رقم : 12532

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الأعمى والأصم والأبكم

ديدرو، وحملوها إلى القلعة (في ضواحي باريس) حيث وضع وحيداً في زنزانه في القلعة الكنيسية، وسمح له بالاحتفاظ بكتاب كان في حبيبه عند اعتقاله "الفردوس المفقود" وتهيأ له فسحة من الوقت لقراءته بعناية. وكتب عليه حواشي وتعليقات بغير الطريقة التقليدية. واستخدم صفحاته الخالية في تدوين بعض الأفكار وموضوعات أقل ورعاً وتدينياً، وتوصل إلى صنع الحبر من كشط الأردواز من الجدران وطحنه وخلطه بالنبذ، واستخدم عوداً من الخلال قلماً. وفي نفس الوقت هرعت زوجته التي عاشت مكتئبة مع طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات إلى رئيس الشرطة برييه، وتوسلت إليه أن يطلق سراح زوجها، وأنكرت علمها بكتاباته "وكل ما أعرفه أن كتاباته شبيهة بسلوكه. أنه يعتز بالشرف أكثر ألف مرة مما يعتز بالحياة، وإن مؤلفاته لتعكس الفضائل التي يتمسك بها" (18). وإذا كانت أنطونيت لا تعلم شيئاً عن مدام بوبسييه، فإن الشرطة كانت تعلم، وكان أشد فعالية وتأثيراً من ذلك الالتماس الذي تقدم به الرجال الذين عهدوا إلى ديدرو وتحرير الموسوعة، حيث أكدوا لكونت دارجنسون أن المشروع لا يمكن أن يخطو خطوة بدون السجن. وفي 31 يوليو استدعى برييه ديدرو وحقق معه وأنكر ديدرو أنه مؤلف "رسالة العميان" وكتاب "الأفكار" وكتاب "الحلى الزائفة" وأدرك رئيس الشرطة أنه يكذب، وأعادته إلى السجن.

وفي شهر أغسطس، كتبت مدام دي شاتيليه- قبل وفاتها بشهر واحد والمفروض أن هذا بإيعاز من فولتير، من لوفيل إلى قريبتها محافظ فنسان، ترجوه على الأقل أن يخفف من الشدة التي يعامل بها ديدرو. وحوالي 10 أغسطس عرض بربيه أن يسمح للسجين بالتمتع بالحرية والتيسيرات في قاعة السجن الكبرى مع الترخيص له باستقبال الزوار وتلقي الكتب، إذا قدم اعترافاً صادقاً. وفي 13 أغسطس وجه الفيلسوف المعاقب إلى بربيه الوثيقة الآتية:-

صفحة رقم : 12533

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الأعمى والأصم والأبكم

أعترف لك بأن الكتب الثلاثة أن هي إلا نزوات غواية أملاها ذهن تملص مني، ولكني أستطيع... أن أعد تحت كلمة الشرف (وأنا فعلا رجل شريف) بأنها ستكون الأخيرة... وستكون الوحيدة... أما بالنسبة لهؤلاء الذين اشتركوا في نشر الكتب وطبعها، فلن أخفي عنكم شيئاً يتعلق بهم، وسأفضي إليك بأسماء الناشرين والطابعين (19).

وفي 20 أغسطس أطلق سراحه من الزنزانة. ووضعوه في غرفة مريحة، وسمح له باستقبال الزائرين والنتزه في حدائق القلعة، وفي يوم 21 وقع تعهداً بالألا يغادر المبنى أو منطقته دون ترخيص رسمي. وجاءت إليه زوجته لتواسيه وتؤنبه وتلومه، وبعث من جديد حبه القديم لها. وزاره دالمبير ورسو ومام دي بوبسييه وجاء إليه ملتزموا الموسوعة ببعض المخطوطات وأستأنف عمله في تحريرها. ومنذ علم أن أخاه أبلغ أباه نبأ اعتقاله فإنه كتب إلى الوالد "السكاكيني" المتألم، وأدعى أن اعتقاله كان بناء على مكيدة إحدى السيدات، وطلب منه معونة مالية. وفي 3 سبتمبر أرسل الوالد رداً يكشف عن الجانب الإنساني في الصراع بين الدين والفلاسفة:

يا بني: تسلمت خطابيك اللذين بعثت بهما إلي مؤخراً، تتبنيني بخبر اعتقالك وسببه، ولم أتمالك نفسي من القول بأنه لا بد بالتأكيد أن هناك أسباباً أخرى غير التي ذكرتها في أحد الخطابين... وحيث أنه لا يحدث شيء إلا بإذن الله، فإني لست أدري أيهما أفضل لتقويم خلقك: إخلاء سبيلك أو إطالة مدة بقائك في السجن لمدة شهر لتتفكر جيداً وملياً في نفسك. ولا تنس أن الله إذا كان قد أنعم عليك بالمواهب، فإنه منحك إياها لا لتستخدمها في العمل على أضعاف مبادئ عقيدتنا المقدسة، لقد قدمت دليلاً كافياً على حبي لك. هيأت لك فرصة التعلم على أمل أن تفيد منه أعظم فائدة، لا أن تورثني أشد الهم والغم والكمد حين علمت بما لحق بك من خزي وعار... سامحني يا بني. ولسوف أصفح عنك. أنا أعلم أنه ليس ثمة إنسان بمنجاة عن الافتراء ونشويه السمعة، وأنهم قد ينسبون

صفحة رقم : 12534

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الأعمى والأصم والأبكم

إليك أعمالاً لم تشترك فيها... ولن يكون لك اعتبار أو قيمة في نظري إلا إذا صدقتني القول دون لبس أو موارد، بأنك كما أبلغوني من باريس بأنك تزوجت وأن لك طفلين. فأن كان الزواج شرعياً وأن الأمر قد انتهى فأنا راض، وأمل ألا



تضمن على شقيقتك بالشعور بالفرح لتتسنتهما، وعلي بالسعادة لرؤيتهما أمام عيني... إنك تسألني مالا. ماذا! إن رجلا مثلك يعمل في مشروعات ضخمة... هل يمكن أن يكون في حاجة إلى مال؟ ولقد قضيت شهراً في مكان لا تكلفك الإقامة فيه شيئاً؟... تذكر أمك المسكينة... إنها في تأنيبها لك، كم من مرة قالت إنك أعمى... قدم لي الدليل على عكس ذلك. ومرة أخرى، وقبل كل شيء، كن صادقاً ومخلصاً في الوفاء بوعودك... ستجد مرفقاً بهذا حواله بمائة وخمسين جنيهاً... تتفقها كما تريد... وإني لأنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي تخفف فيه من آلامي وهمومي حين أعلم بنبا إطلاق سراحك... وسأقدم الشكر لله حالما أعلم ذلك مع الحب الذي أكنه لك...  
(والدك الحبيب ديدرو)(20)

ولسنا ندري ماذا كان رد دنيس. وربما وجد مشقة في مجازاة هذه الرسالة في نبلها. وفي 3 نوفمبر 1749 أفرج عنه بعد قضاء ثلاثة شهور ونصف شهر في السجن. وقصد داره سعيداً مبتهجاً بالعودة إلى زوجته وصغارها، ونسي مدام دي بويسييه لفترة من الوقت؛ ولكن في 30 يونيو 1750 مات ابنه البالغ من العمر أربع سنوات، إثر حمى شديدة، وأنجب طفلاً ثالثاً بعد ذلك مباشرة. ولكنه أذى أذى بالغاً عند تعميده، حيث أوقعه أحد الخدم على الأرض في الكنيسة، وما لبث أن فارق الحياة قبل انقضاء عام واحد على مولده، وهكذا ولد له ثلاثة ومات ثلاثتهم (وعاد ديدرو إلى أمسياته في مقهى بروكوب. وحوالي 1750 قدمه روسو إلى فردريك مليخيور جريم، وهناك بدأ ثلوث من الصداقة كان له بعض الأهمية

صفحة رقم : 12535

قصة الحضارة - < عصر فولتير - < الهجوم على المسيحية - < ديدرو والموسوعة - < الأعمى والأصم والأبكم

في عالم الأدب. وتلك هي السنة التي غادر فيها فولتير فرنسا إلى برلين وكتب فيها روسو الذي نال به الجائزة عن (المدنية مرض) وأصدر ديدرو نشرة تمهيدية عن الموسوعة:  
وبينما كان ديدرو يعمل في المجلد الأول من مشروع الموسوعة أستطرد إلى تحقيق في علم النفس نشر نتائجه (1751) في "رسالة عن الصم والبكم لخدمة أولئك الذين يسمعون ويتكلمون". ولم يكن ديدرو قد نسي قلعة فنان بعد، ومن ثم تجنب الهرطقة، وتسلم من الرقيب (مالشرب الطيب الرحيم آنذاك) "إذناً ضمناً" بنشر الكتاب في فرنسا دون ذكر اسمه، ودون خوف من المحاكمة أو المقاضاة. واقترح ديدرو أن يوجه أسئلة إلى أحد الصم والبكم، ويلاحظ الإيماءات التي يجيب بها الأصم الأبكم على هذه الأسئلة، وبذلك يلقي الضوء على منشأ اللغة عن طريق الإشارات والإيماءات. أن الممثل القدير (وكان ديدرو آنذاك منشغلاً بوضع كتابه "تتاقض الممثل" ينقل أحياناً عن طريق إيماءة أو تعبير بالوجه فكرة أو إحساس بشكل أعظم تأثيراً منه عن طريق الألفاظ. ومن الجائز أن الألفاظ الأولى (في اللغة) كانت عبارة عن إيماءات صوتية أو معيرة توضح فكرة في الذهن، وليس للفظة التي يختارها الشاعر دلالة أو معنى عقلي فحسب، ولكن لها كذلك مفهوماً رمزياً متضمناً وفارقاً دقيقاً لا يكاد يذكر، ولها تضمينات بصرية (قارن مثلاً بين يرى ويتقرس أو يحدق النظر أو نعمات توافقية في الصوت، قارن بين يقول وينذر، Say, murmur ومن ثم فأن الشعر الحقيقي تتعذر ترجمته).

والحديث- كما هو معهود في ديدرو مضطرب يعوزه الترتيب والنظام ولكنه ز اخر بالجوانب الموحية. "قد تكون فكرتي أن أحلل الإنسان إذا جاز التعبير، وأدرس ماذا يستمد من كل حاسة من حواسه". (بني كوندياك مؤخرأ في 1754، رسالته عن الأحاسيس حول هذه الفكرة) أو قارن مرة أخرى بين الشعر والرسم، أن الشاعر يستطيع أن يسرد

صفحة رقم : 12536

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الأعمى والأصم والأبكم

الأحداث على حين يبرز الرسام لحظة واحدة، وصورته عبارة عن إشارة تحاول أن تعبر في وقت واحد عن الماضي والحاضر والمستقبل. وهنا كانت بذرة في كتاب ليسنج "لاوكون" (1766). ولكن في هذه الأثناء كان المجلد الأول من الموسوعة معداً للنشر.

صفحة رقم : 12537

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

3- تاريخ كتاب

1746-1765

قال الناقد الكاثوليكي برونيتير "إن الموسوعة أعظم عمل في عصرها، والهدف الذي كان يصبو إليه كل شيء سبقها، ومصدر كل شيء جاء بعدها، ومن ثم فإنها المركز الحقيقي لأي تاريخ للأفكار في القرن الثامن عشر" (21). وقال ديدرو إن محاولة إخراج موسوعة إنما تنسب فقط إلى قرن فلسفي (22). إن عمل بيكون وديكارت وهويجز ولوك وباركلي وسبينوزا وبيل وليبيتز في الفلسفة، والنهوض بالعلوم على أيدي كوبرنيكس وفيساليوس وكبلر وجاليليو وهوجينز ونيوتن، وارتباد الأرض بفضل الملاحين والبعثات التبشيرية والسياح، وإعادة الكشف عن الماضي على أيدي الباحثين والمؤرخين، كل هذه المعرفة المتركمة انتظرت لتتنسق في موسوعة تكون في متناول الجميع وخدمتهم. وبدأ في أول الأمر أن "موسوعة تشامبرز" أو "القاموس العالمي للفنون والعلوم" (1728) قد يسد هذه الحاجة. وفي 1743 اقترح ناشر في باريس هو أندريه فرنسوا لي بريتون ترجمته إلى الفرنسية مع تعديلات وإضافات تقي بحاجة فرنسا. ونما المشروع ليظهر في عشر مجلدات ولمواجهة النفقات أشرك لي بريتون معه في هذه المهمة ثلاثة ناشرين آخرين هم برياسون ودافيد ودوران. واستخدموا الأب دي جوا دي مالف محرراً. وحصلوا على إذن ملكي بالطبع، وأصدروا في 1745 نشرة مؤقتة. ورأى الناشرين أو رأى المحرر دي جوا دي مالف الاستعانة بديدرو ودالمبير. وفي 1747 انسحب دي جوا دي مالف. وفي 16 أكتوبر عين الناشر ديديرو رئيساً

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

للتحرير مقابل راتب قدره 144 جنيهاً في الشهر. وطلبوا إلى الدامبير أن يكون مسئولاً عن مقالات الرياضيات. وكلما تقدم العمل ازداد ديدرو سخطاً على نص تشامبرز ويمكن أن تقدر هذا السخط والاستياء إذا عرفنا أن ديدرو خصص للتشريح 56 عموداً على حين أفرد له تشامبرز عموداً واحداً، وللزراعة 14 عموداً، على حين أوردها تشامبرز في ستة وثلاثين سطراً. وأخيراً أوصى بتنحية قاموس تشامبرز جانباً وإعداد موسوعة جديدة تماماً، (وربما أقترح مالف هذا فوراً). ووافق الناشر وأستحث ديدرو (ولم يكن قد أتضح بعد أنه المؤلف الزنديق لرسالة العميان) المستشار الجاد المتدين دي أجسو حتى يشمل الترخيص الملكي المشروع الموسع (أبريل 1748). ولكن كيف كان يمكن تمويل المشروع؟ قدر لي بريتون أنه قد يكلف مليون جنيه. والواقع أنه تكلف مليوناً وأربعمائة ألف حتى ولو كان من المشكوك فيه كثيراً أن يكون عدد المشتركين كافياً إلى حد يدفعون معه بالموسوعة إلى المطبعة. وكان ديدرو وقد أعد بالفعل كثيراً من المقالات وحصل على عدد آخر منها من أجل المجلدات الأولى حين أوقف اعتقاله في فنسان سير العمل. وعندما أطلق سراحه تفرغ تماماً للمضي في المشروع. وفي نوفمبر 1750 أخرج الناشر ثمانية آلاف نسخة من نشرة تمهيدية دبجها يراع ديدرو. (وفي 1950 أعادت الحكومة الفرنسية طبع هذه النشرة تذكراً وطنياً لهذا الحادث). وأعلنت هذه النشرة إن فريقاً من الأدباء والخبراء والمتخصصين أتجه رأيهم إلى جمع المادة الموجودة في العلوم والفنون في صعيد واحد مرتبة ترتيباً أبجدياً، مزودة بمراجع قد يسهل على العلماء والباحثين والطلاب استخدامها. وقالت النشرة إن لفظة الموسوعة أو دائرة المعارف تدل على العلاقات المتبادلة بين العلوم وهي تعني حرفياً التنقيف أو التعليم مجموعاً في صعيد واحد. وقال ديدرو إن المعرفة لم تتم على أوسع نطاق فحسب ولكن الحاجة إلى نشرها مهمة كذلك،

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

حيث لا جدوى منها إلا إذا أفاد منها الجميع. وجاء في النشرة أن هذا كله سوف تضمنه ثمانية مجلدات للنصوص ومجلدات للوحات والرسوم، وحدد الاشتراك بمائتين وثمانين جنيهاً للمجموعة تدفع على تسعة أقساط. ويجب تسديد المبلغ كله على مدى عامين. وتبدو لنا الآن هذه النشرة وكأنها أحد الإعلانات بأن عصر العلم قد بدأ. وأن عقيدة جديدة قد ظهرت لخالص الجنس البشري. وكانت الاستجابة للنشرة مشجعة، وبخاصة لدى الطبقة الوسطى العليا. وتبين بعد وفاة مدام جيوفرين أنها وزوجها أسهما في نفقات الموسوعة بمبلغ 500 ألف جنيه(23).

وبهذه الموسوعة في فرنسا وقاموس جونسون في إنجلترا (1755) أعلن الأدب الأوربي استقلاله عن الأرستقراطيين والإهداءات الذليلة، واتجه إلى الجمهور العريض الذي عرض هذا الأدب أن يكون عينه التي تبصر وصوته الذي يعبر. وكانت الموسوعة أشهر تجربة لتبسيط المعرفة ونشرها (24).  
وظهر المجلد الأول في 28 يونيو 1751 محتويًا على 914 صفحة من القطع الكبيرة من ذات النهرين. وكانت صورة الصفحة الأولى من رسم شارل كوشان، وكانت رمزاً صادقاً للقرن الثامن عشر، فقد أبرزت البشرية تتلمس طريقها إلى المعرفة تمثلها امرأة جميلة في ثوب رقيق شفاف. وكان العنوان مثيراً: الموسوعة أو قاموس موضوع بعد دراسة وترو لمختلف العلوم والفنون والمواد ألفه فريق من رجال الأدب رتبته وحرره ديدرو وتعهده قسم الرياضيات فيه دالمبير، ونشر بتصديق من الملك وترخيص منه وأهدى المجلد من باب الحكمة إلى السيد الكونت دارجنسون وزير الحربية. ولم يكن موسوعة بالمعنى الحالي عندنا، فإنها لم تر أن تشمل سير حياة أو تاريخاً. ولكن الغريب في الأمر أنها تضمنت بعض سير الحياة تحت عنوان محل الميلاد للشخص. ومن جهة أخرى كانت بشكل جزئي قاموساً عرض لتعريف بعض المصطلحات وإيراد المترادفات وبعض قواعد الأجرومية.

صفحة رقم : 12540

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

وأبرز ما في المجلد الأول وأجدره بالذكر هو "مقال تمهيدي" ووقع الاختيار على دالمبير لكتابته لأنه كان معروفاً بأنه من رجال العلم المرموقين وبأنه كذلك من البارعين الأفذاذ في النثر الفرنسي، وعلى الرغم من هذه المزايا كان دالمبير يحيا حياة رواقية بانسة فقيرة في باريس. وحين وصف فولتير المشهد الرائع من لي دليس أجاب دالمبير: "أنت تكتب إلي من مخدعك حيث تشرف على عشرة فراسخ من البحيرات وأنا أurd عليك من جحري الذي لا يشهد إلا رقعة من السماء لا تتجاوز ثلاث أذرع" (25). وكان لا أدرياً، ولكنه لم ينضم إلى نقد علني للكنيسة. وفي مقالة التمهيدي حاول أن يفحص حجج معارضي الكنيسة:  
"إن طبيعة الإنسان سر لا يمكن سبر أغواره إذا استنار الإنسان بالعقل وحده. ويمكن أن نقول مثل هذا عن وجودنا في الحاضر والمستقبل، وعن جوهر "الكائن" الذي ندين له بهذا الوجود، وعن نوع العبادة التي يتطلبها منا. ومن ثم فإننا أحوج ما نكون إلى ديانة منزلة تهدينا سواء السبيل في مختلف الموضوعات" (26).  
وأعترز لفولتير عن هذه الاحترامات: "أن مثل هذه العبارات هي أسلوب توثيقي، وما هي إلا طريق وصول أو جواز مرور إلى الحقائق التي ننشد تدعيمها... أن الزمن سيعلم الناس كيف يميزون بين ما فكرنا فيه وما قلناه" (27).  
ونهج المقال التمهيدي نهج اقتراح لفرانسييس بيكون، فصنفت المعارف وفق الموهبة العقلية التي تنتج عنها: فوضع التاريخ تحت بند "الذاكرة" والعلوم في باب "الفلسفة" واللاهوت تحت بند "العقل" والأدب والفن في باب "الخيال" وكان ديدرو ودالمبير فخورين كل الفخر بهذا التقسيم وجعلاً منه ورقة مطوية وضعها بعد المقال أو خريطة للمعرفة أثارت أشد الإعجاب. وكان أقوى أثر في الموسوعة بعد أثر بيكون هو أثر لوك. "أنا مدينون للأحاسيس بكل أفكارنا". هذا هو ما جاء في المقال. ومن

صفحة رقم : 12541

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

هذا البيان راود الأمل المحررين على مدى المجلدات الثمانية أن يستنتجوا فلسفة كاملة ديناً طبيعياً يهبط بالإله إلى مجرد دفعة ابتدائية أولى وإن يستنتجوا علم نفس طبيعياً يجعل الذهن وظيفة من وظائف الجسم، ومبادئ أخلاق طبيعية تحدد الفضيلة على أساس واجبات الإنسان نحو الإنسان لا نحو الله- وتضمن "المقال التمهيدي" هذا البرنامج في حرص وحذر.

ومن هذه المبادئ الأولى أنقل دالمبير إلى استعراض تاريخ العلم والفلسفة وأمتدح الأقدمين، وأستنكر العصور الوسطى وأنتقص من قدرها، وهلل لعصر النهضة وأبتهج به: لن نكون منصفين إذا لم نعتزف بفضل إيطاليا علينا، فمنها تلقينا العلوم التي أنتجت فيما بعد ثماراً وفيرة في كل أوروباً. ونحن مدينون لها فوق كل شيء بالفنون الجميلة والذوق الذي زودتنا منه بعدد كبير من نماذج لا تبارى أو تتعذر محاكاتها(28).

وجاء أبطال الفكر الحديث ليتوجوا بأكاليل الغار:

يجدر أن يوضع على رأس قائمة الشخصيات اللامعة مستشاراً إنجلترا الخالد فرانسيس بيكون الذي تستحق أعماله بحق أن ندرسها حتى أكثر من أن نمتدحها. أننا حين نتأمل وندرس آراء ونظرات هذا الرجل العظيم الحكيم الواسعة الأفق، والموضوعات الكثيرة التي أسترخصها في ذهنه، وجرأة أسلوبه التي جمعت في كل موضوع بين أروع الصور والانطباعات الذهنية وبين أعظم الدقة والأحكام. فإننا نميل إلى اعتباره أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأشملهم وأوسعهم بحثاً(29).

وأنقل دالمبير لبييرز كيف أن عبقرية ديكارت العميقة الخصبة في الرياضيات قد عوقها في الفلسفة الاضطهاد الديني: إن ديكارت على الأقل تجاسر فبين للأذهان اليقظة كيف تتحرر من نير السكولاسية والرأي والسيطرة- وصفوة القول من التحيز والتحامل

صفحة رقم : 12542

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

والوحشية. وبهذه الثورة التي نجني نحن ثمارها اليوم أدى ديكارت للفلسفة خدمة قد تكون أجل وأشق مما تدين به لخلفائه البارزين المشهورين. وقد نعتبره زعيم عصاية تعاهدت، وكان لها من الشجاعة ما قادت به ثورة ضد سلطة استبدادية. وأرسى بفضل تصميمه الأكيد المشجع الملهم أساس حكومة أعدل وأفضل ما كان يمكن أن يعيش ليراها قائمة، وإذ انتهى به التفكير إلى إيضاح كل شيء فإنه على الأقل بدأ بالشك في كل شيء. إن الأسلحة التي يجب استخدامها لمحاربته ليست على الرغم من ذلك أسلحته لأننا نصوبها إليه.

وبعد أن تحدث دالمبير عن نيوتن ولوك وليبينتز ختم حديثه بالإعراب عن إيمانه بالنتائج الطيبة للمعرفة التي تزكو وتتمو وتنتشر: "إن قرننا ليعتقد بأنه قد كتب عليه إن يغير القوانين في جميع المجالات(30). ونشجع دالمبير بحرارة هذا الأمل فجعل من مقاله التمهيدي هذا تحفة من روائع النثر الفرنسي في القرن الثامن عشر. وشارك بيرون ومونتسكيو في الثناء على مقدمة الموسوعة في لغتنا فلسفة ومنطقاً وإشراقاً وأحكاماً ودقة(31).

ولم يكن المجلد الأول ضد الدين بشكل سافر. وكانت المقالات عن العقيدة والطقوس المسيحية تقليدية تقريباً. وأبرزت عدة مقالات بعض الصعوبات، ولكنها أختتمت كلها عادة باحترام مهيب للكنيسة. وكثيراً ما وجدت هرطقات مغلفة

وهجمات عارضة على الخرافة والتعصب، ولكنها مستترة في مقالات واضح أنها كانت تعالج موضوعات برينة مثل "حمل سكيزيا" أو النسر. من ذلك أن ما كتب عن حمل سكيزيا توسعوا فيه حتى صار بحثاً عن شواهد تركت الإيمان بالمعجزات في حالة يرثى لها. كما أن مادة "النسر" بعد مناقشة سذاجة الناس وسرعة تصديقهم انتهت بتهكم صريح: "سعيد هذا الشعب الذي تطالبه ديانتته ألا يؤمن إلا بالأشياء الحقيقية

صفحة رقم : 12543

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

المقدسة السامية الرفيعة الشأن، وألا يقتدى إلا بصالح الأعمال. ومثل هذه الديانة هي ديانتتنا وهي التي فيها لا يتبع الفيلسوف إلا عقله حتى يصل إلى مذبحنا(32) وفي شيء من المكر والدهاء كانوا يهاجمون الخرافات والأساطير هنا وهناك. وانبتقت روح من الإنسانية العقلانية. وعلى الرغم من كل شيء أستقبل اليسوعيون هذا المجد استقبالاً ودياً. وأعرض جويوم فرنسوا برتبيه المحرر العالم المثقف لصحيفة تريفو في رقة وأدب على توكيد المقال التمهيدي على الفلاسفة المهترطين، وأشار إلى بعض الأخطاء والانتحالات، وطالب بتشديد الرقابة على المجلدات التي ستصدر فيما بعد، ولكنه أتى على الموسوعة مشروعاً عظيماً ضخماً جداً يمكن لمحرريه بحق بعد إنجازهم أن يطبقوا على أنفسهم قول هوراس "لقد أقمتم نصباً أبقي من النحاس". ثم أضاف برتبيه "ليس هناك من هو أكثر منا ميلاً إلى تبين الخفايا الدقيقة في الموسوعة ولسوف نعرضها برفق في مقتطفاتنا القادمة(33).

وثمة كاهن آخر لم يكن مترقفاً متساهلاً إلى مثل هذا الحد، وهو جان فرنسوا بوير أسقف ميربوا سابقاً الذي شكاه المحررين إلى الملك بأنهم خدعوا الرقباء، فأرسله الملك لويس إلى مالشرب الذي كان قد أصبح كبير مراقبي المطبوعات، فوعد مالشرب بفحص المجلدات التالية بشكل أدق، ولكنه أثناء توليه مناصب حكومية استخدم كل نفوذه لحماية الفلاسفة. وكان من حسن حظ الثائرين أن هذا المسيحي جويو دي مالشرب الذي كان قد أصبح متشككاً حين قرأ كتابات بيل والذي كان قد ألف كتاب "حرية الصحافة" هو الذي كان رقيب المطبوعات من 1750-1763 وهي أخرج فترة في حياة فولتير وديدرو وهلفشيوس وروسو. وكتب مالشرب "في القرن كان يستطيع فيه كل مواطن أن يتحدث إلى الأمة عن طريق الكتاب فإن هؤلاء الذين أوتوا المقدر على تعليم الناس وتثقيفهم أو موهبة التأثير فيهم- وفي إيجاز رجال الأدب- وسط شعب مشتت يقومون بالدور الذي

صفحة رقم : 12544

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

كان يقوم به خطباء رومه وأثينا في شعب ملتف حولهم". وشجع مالشرب الحركة الفكرية بمنح "ترخيص ضمنية" للمطبوعات التي لا يمكن أن تحصل في ظل النظام القائم على ترخيص ملكي أو تنال استحسان السلطات. ذلك أنه كان من رأيه أن الإنسان الذي لم يقرأ إلا الكتب التي صدرت بموافقة صريحة من الحكومة... يكون متخلفاً عن معاصريه بنحو قرن من الزمان تقريباً(35).

وانتهت هذه الفترة السعيدة في حياة الموسوعة بحادث من أغرب الحوادث في تاريخ عصر الاستنارة، ذلك أنه في 18 نوفمبر 1751 تقدم جان مارتن دي براد للحصول على درجة جامعية من السوربون، وعرض على رجال اللاهوت رسالة ظاهرها البراءة والخلو من أية شائبة "من ذا الذي نفخ الله في وجهه روح الحياة؟" وبينما النعاس يغلب على أعضاء هيئة الامتحان عرض الراهب الشاب في لغة لاتينية ممتازة تضاربات زمنية في الكتاب المقدس، وهبط بمعجزات المسيح إلى مستوى معجزات أسكو لابيوس، وإستبدل بالوحي لاهوتاً طبيعياً متحرراً. وقبلت جامعة السوربون الرسالة ومنحت دي براد الدرجة. وأتهم الجانسونيون الذين كانوا يسيطرون على برلمان باريس الجامعة، وراحت الشائعات بأن لديدرو بدأ في الرسالة، وسحبت الجامعة الدرجة وأمرت بالبقاء القبض على الراهب. وهرب دي براد إلى بروسيا حيث أواه فولتير حتى خلف لامتري قارئاً لفردريك الأكبر. وصعق الأبناء الحراس على الديانة التقليدية إذا رأوا أن دي براد هذا نفسه كان قد كتب مقالة "اليقين" في المجلد الثاني من الموسوعة الذي صدر في يناير 1752. وكان في هذه المقالة أيضاً لمحات من ديدرو، وتعلت الصيحات ضد الموسوعة حتى أن برتنيه الذي أطرى هذا المجلد لما فيه من إسهامات كثيرة في المعرفة، وجه اللوم إلى المحررين على قطعة ذكر فيها أن معظم الناس ينظرون إلى الأدب بعين الإجلال والإكبار مثلما ينظرون إلى الدين "أي إلى شيء لا يستطيعون أن يعرفوه أو يمارسوه أو يحبوه".

صفحة رقم : 12545

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

وقال اليسوعيون أن مثل هذا الكلام يجب لفت نظر المؤلفين والمحررين إليه حتى لا يعودوا يثبتون شيئاً من هذا القبيل في الموسوعة مستقبلاً(36). وفي 31 يناير أتهم كريستوف دي بومونت مطران باريس الموسوعة بأنها هجوم مكرر على العقيدة الدينية. وفي 7 فبراير صدر قرار من مجلس الدولة يحظر بيع الموسوعة أو نشرها. وفي نفس اليوم كتب مركز دارجنستون في صحيفته "صدر في هذا الصباح قرار من المجلس لم يكن متوقفاً بقضي بمنع تداول الموسوعة أو نشرها بسبب مزاعم مروعة: منها الكفر بالله والتمرد على سلطة الملك. وفساد الأخلاق... وقيل في هذا الصدد أن مؤلفي الموسوعة ينبغي إعدامهم في أقرب وقت(37).

ولم تصل الأمور إلى هذا الحد من سوء، فلم يعتقل ديدرو، ولكن الحكومة صادرت كل المادة التي كان قد جمعها، وكتب فولتير من بوتدام يستحث ديدرو على نقل المشروع إلى برلين حيث يمكن النهوض به تحت حماية فردريك، ولكن ديدرو وقف عاجزاً بدون المادة التي صودرت. أما لي بريتون فكان يأمل أن تعدل الحكومة من قرار الحظر بعد سكون العاصفة، وأيد مالشرب ومركز دارجنسون ومدام دي بمبادور النداء الذي تقدم به لي بريتون إلى المجلس. وفي ربيع عام 1752 وافق المجلس على نشر المجلدات الأخرى "بترخيص ضمني" وأشارت دي بمبادور على دالمبير وديدرو باستئناف العمل "مع تحفظ ضروري فيما يتعلق بما يمس الدين والسلطة الحاكمة"(38). ورغبة في تهدئة خواطر رجال الدين وافق مالشرب على أن يراجع المجلدات التالية ثلاثة من رجال اللاهوت يختارهم الأسقف السابق بوير.

وصدر المجلدان الثالث والرابع فيما بين عامي 1753-1756، بعد خضوعهما لرقابة صارمة. وزاد الغضب من انتشار الموسوعة، كما أصبحت رمز الأفكار الحرة، وزاد عد المشتركين إلى 3100 في المجلد الثالث، و4200 في المجلد الرابع.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

وأجتاز دالمبير المحنة وقد اهترت أعصابه بعض الشيء ومن ثم فإنه ضمناً لسلامته الشخصية اشترط ألا يكون مسؤولاً بعد الآن إلا عن مقالات الرياضيات، ومهما يكن من أمر فإن ديدرو ظل يناضل الرقابة. وفي 12 أكتوبر 1752 نشر ظاهرياً في برلين وباسم دي براد "مواصلة الدفاع عن الراهب دي براد"، وتحدث فيه غاضباً، مشيراً إلى أن أحد الأساقفة شجب مؤخراً رسالة السوربون: "لست أعلم شيئاً أكثر مجافاة للباقة وأشد خطراً على الدين من هذه الخطب الغامضة التي تهاجم العقل والتي يلقيها بعض رجال اللاهوت. وقد يقول المرء لدى سماعها أن الناس لا يستطيعون الدخول في المسيحية إلا كما يدخل قطيع من الحيوان إلى حظيرة، وأن على المرء أن يتخلى عن الإدراك السليم وحصافة الرأي ليعتق ديننا أو يستمسك به. وأكرر القول بأن إقرار هذه المبادئ معناه الهبوط بالإنسان إلى مستوى الحيوان، ووضع الزيف والحقيقة على قدم المساواة" (39).

وتابع في المجلد الثالث هجماته غير المباشرة على المسيحية، وغلفه بالجهر بالإيمان بالعقيدة القويمة. وأبرزت مقالته "التوفيت الزمني المقدس" مرة أخرى تناقضات التوراة. وألقت ظلالاً من الشك في نصوص الأسفار المقدسة. وأكدت مقالته عن "الكلدانيين" على إنجازاتهم في الفلك، ولكنها رثت لخضوعهم للكهننة "أنه لمما يزري بالعقل ولا يشرفه تقييده في الأغلال كما فعل الكلدانيون. ولد الإنسان ليفكر لنفسه" وعددت مقالته عن "الفوضى" الاعتراضات على فكرة الخلق وأسهب زعماء أنها تدحض وتنفذ. القول في حجج أبدية المادة. واشتملت على بعض النقاط الخلافية التي تثير الجدل مقالاته الممتازة في التجارة والمنافسة وأسلوب التأليف والتركيب (في الرسم) "والكوميديين" أي الممثلين، وأوضح ديدرو أنه لم يكن رساماً ولا خبيراً باللوحات والرسوم ولكنه أضطر إلى الكتابة في الموضوع لأن "الهاوي المنتج" الذي عهد إليه بالكتابة عن أسلوب التأليف في الرسم، كان قد قدم موضوعاً تافهاً غير جدير بالنشر. وعبرت مقالة ديدرو عن بعض

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

أفكار أبهجت فيما بعد "صالوناته" فكانت مقالته عن "الممثلين" استمراراً لحملة فولتير دفاعاً عن حقوقهم المدنية. وحظي المجلد الثالث بثناء كبير خفف منه نقد اليسوعيين وليلى فرينون في مجلة "السنة الأدبية" ورفع المشتركون الجدد من قيمة العمل ومكانته: وبدأ ديكلوس ينهض بقسط من الجهد في إخراج المجلد الرابع، وفولتير وترجو يشاركان في المجلد الخامس. وفي أثناء السنوات الأربع الأولى من المشروع كان فولتير مشغولاً أو متورطاً في ألمانيا -أما الآن في عام 1755 فقد أستقر به المقام في جنيف وأرسل منها المقالات عن "الأناقة" و"الفصاحة"



و "الذكاء" وكلها تقيض أناقة وفصاحة وذكاء وكتب ديدرو نفسه للمجلد السادس مقالاً تحت عنوان "الموسوعة" عده بعض العلماء والباحثين أحسن ما كتب في المجموعة كلها. وكانت بالفعل من أطول المقالات حيث بلغ عدد كلماتها 34 ألف كلمة، تحدث فيه عن الصعوبات التي واجهت العمل لا من حيث القوى التي كانت تهدف إلى هدم المشروع فحسب بل كذلك من حيث ضآلة الاعتمادات المالية غير الكافية لدفع أجور المؤلفين ونفقات الطبع، والعلل الطبيعية التي انتابت الكتاب حيث أقعدهم المرض أو ضيق الوقت. وأقر العيوب الكثيرة التي أصابت المجلدات الخمسة الأولى التي كانت قد أخرجت في عجلة وخوف، ووعد بالعمل على ملاقاتها، وفي شيء من الانفعال كتب قانون الإيمان الخاص به: إن الغاية القصوى من أية موسوعة هو جمع المعرفة المتناثرة هنا وهناك على الأرض، وشرحها للمعاصرين ونقلها إلى الأقباب، والغرض من ذلك هو ألا تكون جهود القرون الماضية غير ذات نفع للأجيال القادمة وأن يكون خلفاؤها وقد أصبحوا أكثر ثقافة وأغزر علماء، في نفس الوقت أسعد وأكثر تمسكاً بالفضيلة، وألا تفارق الحياة دون أن نحظى ببناء الجنس البشري وتقديره.

ورأى ديدرو في الموسوعة لطمعة للأقباب، ووثق أنهم سيدافعون عنه ويبرئونه، وتصور ثورة عارمة عطلت مؤقتاً تقدم العلوم وعمل فنون

صفحة رقم : 12548

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

الصناعة، وغمرت من جديد بالظلام جزءاً من العالم. وراوده أكبر الأمل في "اتراف مثل هذا الجيل بفضل أولئك الرجال الذين أوجسوا خيفة من هذا الخراب وتوقعوه فجمعوا شتات المعرفة التي تراكت عبر القرون وحفظوها في حرز أمين" وقال "إن الأقباب بالنسبة للفيلسوف هي بمثابة الدار الآخرة بالنسبة لرجل الدين(40). وخلق المجلد السابع الذي ظهر في خريف 1757 أزمة أخرى أسوأ مما سبقها. وذلك أن كسنى وترجو كتباً أبحاثاً مستقيضة مشهورة في شرح سياسة عدم التدخل الحكومي في الشؤون الاقتصادية، (مذهب الفيزيوقراطيين في حرية التجارة والصناعة ظهر في فرنسا في القرن الثامن عشر) كما أن لويس دي جوكور، الذي كثيراً ما أسهم الآن في الكتابة في الموسوعة، كتب مقالة موجزة مهينة تحت عنوان "فرنسا" بلغت كلماتها تسعمائة كلمة ولم ترو معظمها شيئاً من تاريخ فرنسا، بل عدت شوائبها وأخطائها: الإفراط الخطير في عدم المساواة في توزيع الثروة، فقر الفلاحين، وتضخم باريس وتناقص السكان في الأقاليم. وفي مقال عن "الحكومة" كتب جوكور "أن الخير كل الخير للشعب في حريته... وبدون الحرية تنتفى السعادة في الدول" وفي هذا المجلد كتب فولتير مقالة عن الفسوق والزنى، وتفاخر بأنها علمية، ولكن مقالة "المقاومة" -على الأقل المقالة التي أثارته أشد مقاومة- هي المقاتلة عن جنيف التي التقيا بها في محيطها السويسري. ونسي دالمبير ما أخذ به نفسه من حيطة وحذر وتصميمه على الاقتصاد على الرياضيات وأثار على نفسه سخط جنيف وباريس كلتيهما حين صور رجال الدين الكلفنيين بأنهم يرفضون ألوهية المسيح.

ورأى جريم على الغدر أن هذه المقالة زلة فظيعة تعوزها اللباقة، وقال إنها تسبب احتياجاً وبلبلية. وأستكر أحد اليسوعيين المجلد في عظة ألقاها أمام الملك في فرساي. وكتب دالمبير إلى فولتير يقول "إنهم يجزمون بأنني أمتدح قساوسة جنيف في أسلوب يضر بالكنيسة الكاثوليكية"(41). وفي 5 يناير

صفحة رقم : 12549

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

1757 بذلت محاولة لقتل الملك. فكان رد الملك عليها أنه أحبا قانوناً قديماً يعاقب بالإعدام مؤلفي وناشري وبائعي الكتب التي تهجم الديانة أو تزعج الدولة، وزج بعدد من الكتاب في السجن، ولم يعدم أحد ولكن دالمبير المرهف الحس تولاه الفرع بشكل واضح، وقطع علاقته بالموسوعة نفوراً من الهياج والصخب (1 يناير 1758). وفقد بعض الوقت قدرته على رؤية الأشياء في أوضاعها الصحيحة، وأتهم مدام بمبادور بمحابات "أعداء الفلاسفة" وتأييدهم، وطلب إلى مالشرب أن يكبح جماح زعيمهم فريرون. وألح عليه فولتير في عدم الاستقالة، فأجاب دالمبير في 20 يناير "أنت لا تدرك الوضع الذي نحن عليه، وصورة غضب السلطات علينا... أنا أشك في مواصلة ديدرو العمل بدوني... فإذا فعل هذا فإنه يمهّد السبيل لسلسلة من المحاكمات والبلايا لمدة عشر سنوات" (43) وكان رعبه قد ازداد في السبعة أو الثمانية أيام التالية "إذا كان الأعداء ينشرون مثل هذه الأشياء اليوم بإذن صريح من قبل هذه المراجع المسئولة، فلن يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هذا يعني إثارة الهياج ضد المجلد السابع، وإلقاءنا في أتون المحرقة بالنسبة للمجلد الثامن" (43) وأذعن فولتير لرأي دالمبير، ونصح ديدرو بالتخلي عن الموسوعة، حيث أنه إذا أستمّر العمل فيها بأية حال، فستكون خاضعة لرقابة تقضي على قيمة العمل باعتباره أداة للحد من سيطرة الكنيسة على الأذهان في فرنسا (44) وأبى ترجو ومارمونتيل وديكلوس وموريللي أن يكتبوا أية مقالات أخرى، وفترت همة ديدرو نفسه لفترة من الزمن، وكتب يقول "لا يكاد يمر يوم إلا وتحديثي نفسي بالذهاب إلى مسقط رأسي في شمبانيا لأعيش منزوياً في هدوء" (45) ولكنه لن يلقي سلاحه ولن يستسلم. وفي فبراير 1758 كتب إلى فولتير "أن التخلي عن العمل معناه أن ننقض العهد ونتكص على أعقابنا ونفعل ما يريده منا هؤلاء الأوغاد الذين يضطهدوننا. أه لو علمت كم ابتهجوا وفرحوا عندما علموا باعتزال دالمبير العمل، وكم من مناورات قاموا بها للحيلولة دون رجوعه إليه!

صفحة رقم : 12550

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

وفي اجتماع أساقفة فرنسا 1758 قدموا إلى الملك منحة اختبارية كبيرة بشكل غير عادي، وتقدموا إليه برجاء إلغاء "الترخيص الضمني" الذي يجيز نشر الموسوعة في فرنسا. وفي 1768 شرع أبراهام دي شوميكس في إصدار سلسلة من النشرات تحت عنوان "أحكام شرعية ضد الموسوعة" وأثار نشر كتاب هلفشيوس "أسس الروح" (27 يوليو 1758) مزيداً من الاحتجاجات، وتورطت الموسوعة في هذه العاصفة حيث انتشرت الشائعات القوية بأن ديدرو تربطه بهلفشيوس علاقات وثيقة. وزاد الطين بلة أن روسو الذي كان يكتب للموسوعة مقالات في الموسيقى، رفض أن يسهم في التحرير الآن. وروجت رسالته إلى دالمبير عن العروض المسرحية نبأ انشاقه على الفلاسفة. وبدأ أن معسكر الموسوعيين قد تمزق. وفي 23 يناير 1759 حذر وكيل الملك أمير دي فليري برلمان باريس من أن هناك مشروعاً أعد وجماعة تكونت لنشر المذهب المادي، والقضاء على الدين ونشر روح الاستقلال، والعمل على إفساد الأخلاق (46) وأخيراً في 8 مارس، صدر من مجلس الدولة أمر بتحريم الموسوعة تحريماً تاماً، فلا يطبع أي مجلد جديد، ويمنع بيع أو تداول المجلدات الموجودة. وأوضح القرار أن الفوائد التي تجني من هذا العمل من حيث تقدم

الفنون والعلوم لا يمكن بحال من الأحوال أن تعوض عن الأضرار البالغة المتعذر إصلاحها التي تنشأ بالنسبة للعقيدة الدينية والأخلاق(47).

ولم يتهدد هذا المرسوم سلامة أشخاص الفلاسفة فحسب، بل تهدد كذلك قدرة الناشرين على الوفاء بديونهم. وكان كثير من المشتركين قد دفعوا قيمة اشتراكهم في المجلدات التالية، فكيف يتيسر رد ما دفع مقدماً؟ فمعظم هذه الأموال أنفق على المجلدات السبعة الأولى، وعلى الإعداد لإخراج المجلد الثامن الذي كان معداً للتوزيع حيث صدر المرسوم الملكي. وحرص دييرو الناشرين على ألا يستسلموا، لعل هذا المرسوم يجري أيضاً تعديله أو العدول عنه في الوقت المناسب، وإلا طبعت المجلدات الباقية في الخارج.

صفحة رقم : 12551

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> دييرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

وبناء على طلب الناشرين لزم دييرو داره وواصل العمل في المجلد التاسع. وفي الوقت نفسه بذل مالشرب وآخرون غيره أقصى الجهد في تسكين غضب الحكومة. وهنأفي صيف 1759 ظهرت في باريس نشرة سرية غفل الاسم، تحت عنوان مذكرة إلى "فرانسوا شوميكس" وهي قطعة مملّة عنيفة في موقف واحد، تهاجم في أذع الإهانة والسباب، لا الحكومة والبرلمان واليسوعيين والجانسينيين ودهم، بل هاجمت المسيح وأمه كذلك. وقال دييرو "إن العمل منسوب إلينا بما يشبه الإجماع"(48). وقصد إلى مالشرب وإلى مدير الشرطة وإلى المحامي العام للبرلمان وأقسم أنه لا علاقة له بتفجير الإلحاد في الشوارع على هذا النحو، وصدقته أصدقائه، ولكنهم نصحوه بمغادرة باريس فأبى الهروب، محتجاً فإن في الهروب اعترافاً بالذنب. وحذره مالشرب من أن الشرطة ستهاجم منزله وتصادر أوراقه، ومن ثم ينبغي إخفاؤها. فتساءل الناشر الحائر المنزعج "ولكن أين أخفيها؟" وكيف يتسنى له في ساعات قلائل أن يوفق إلى مكان يخفي فيه كل هذه المادة التي جمعها؟ فقال مالشرب "أرسلها إلي أنا، لن يأتي أحد ليفتش عنها هنا"(49). وفي الوقت نفسه عثر رجال الشرطة على طابعي النشرة المخزية، وانتهوا إلى أن دييرو لم يكن له صلة بها، لم يصدر أمر بمصادرة أوراقه، وتتفس الصعداء ولكنه أشرف على الإصابة بانتهيار عصبي، وصحبه صديقه الغني دي هولباخ لقضاء عطلة في بعض الأماكن القريبة من باريس. وكتب دييرو "حملت معي إلى كل مكان قصدناه خطي مضطربة متعثرة ونفساً مكتئبة"(50). وعاد دييرو إلى باريس، ووقع مع الناشرين عقداً جديداً لإعداد تسعة مجلدات إضافية من الموسوعة لقاء مبلغ 25 ألف جنيه. وعرض دالمبير أن يستأنف مسئوليته عن مقالات الرياضيات، ووجه دييرو إليه اللوم على تخليه عن العمل في وقت المحنة حين حمل عليه العدو، ولكنه قبل إسهامه

صفحة رقم : 12552

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> دييرو والموسوعة -> تاريخ كتاب

في الموسوعة، وكذلك انضم إليهم فولتير. وكان ديديرو يأمل أن يكمل المجلد السابع عشر والأخير في 1760. ولكنه في سبتمبر 1761. كتب يقول "انتهت المراجعة المزعجة، حيث قضيت فيها خمسة وعشرين يوماً متصلة بمعدل عشر ساعات في اليوم" (51) وظل لعشرة أيام آخر حبيساً في داره لمراجعة اللوحات والرسوم. وتم طبع المجلدات من الثامن إلى السابع عشر في تعاقب سريع في باريس، ولكنها موسومة بعلامة تشعير بأنها نشرت في نيوشاتل، وتغاضى سارتين مدير عام الشرطة الجديد عن هذه الخدعة أو التضليل (52) ومهد الطريق لهذا طرد اليسوعيين من باريس 1762 وفي سبتمبر 1762 عرضت كثيرين قيصرية روسيا استكمال الموسوعة تحت حماية الحكومة في سان بطرسبرج، وجاء مثل هذا العرض من فردريك الأكبر عن طريق فولتير. وربما استحدثت هذه الاقتراحات الرجال الرسميين في فرنسا على إجازة الطبع في باريس. وظهر المجلد الأخير من النصوص في 1765، وأضيف أحد عشر مجلداً للوحات والرسوم فيما بين عامي 1765 و1772 وصدر ملحق من خمسة مجلدات، مجلدان لفهرس الموسوعة فيما بين عامي 1776-1780 وطلب إلى ديديرو تحريرها ولكنه كان منهوفاً مرهقاً فرفض، فإن أهم مشروع نشر في هذا القرن استنزف قواه، ولكنه خلد ذكره بالقدر الذي تسمح به تقلبات المدنية.

صفحة رقم : 12553

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديديرو والموسوعة -> الموسوعة نفسها

4- الموسوعة نفسها

إن كل محتويات الموسوعة تقريباً نسختها الثورة الفكرية التي ساعدت على إذكاء نارها، ولكنها تسترعي انتباهنا لمجرد أنها أحداث في تاريخ الأفكار، وأسلحة أستخدامها الفلاسفة في صراعهم مع المسيحية الوحيدة التي عرفوها، وقل إن كان الهجوم مباشراً كما رأينا وكانت مقالتنا "المسيح والمسيحية" وكلتاها بقلم ديديرو، فويميئين تقليديتين في جوهرهما. وأمتدح المقالة الثانية أحد الرهبان الإيطاليين. وكتب نفر من الكهنة مقالات للموسوعة، ومن ذلك أن الراهب يفون كتب مقالة بعنوان "الملحدون" ولم تؤيد الموسوعة الإلحاد بل الربوبية. ومهما يكن من أمر فإن المراجع المفترضة كانت في بعض الأحيان مضللة، ملحقة بمقالة تقليدية رشيده. وكثيراً ما أشارت إلى مقالات أخرى تثير الشكوك. من ذلك أن المقالة المثالية عن "الله" أشارت إلى مقالة "البرهان" التي أوردت قواعد للبرهنة فيها تشويه للمعجزات والأساطير. وفي بعض الأحيان شرحت أقل العناصر اعتدالاً ومعقولية في العقيدة المسيحية في قبول ظاهر، ولكن بطريقة تستدعي الارتباب والجدل. ورفضت المبادئ الصينية أو الإسلامية المماثلة للنظريات المسيحية باعتبارها غير عقلانية. وارتفعت الصيحات بأن مقالة "الكهنة" غير ودية، ويحتمل أن دي هولباخ هو الذي دجها، لأن الفلاسفة كانوا يفتنون رجال الدين بوصفهم أعداء الفكر الحر ومشجعين على الاضطهاد وزعم المؤلف أنه إنما كان يكتب عن رجال الدين الوثنيين: "إن الخرافة ضاعفت من مراسم وطقوس الشيع المختلفة، ومن هنا شكل القائمون عليها طائفة مستقلة، وأعتقد الناس أن هؤلاء الأشخاص مخلصون للمعبود كل الإخلاص. ومن هنا كان للكهنة نصيب في إجلال الناس لله. وبدت المناصب العادية التي يشغلونها أدنى مستوى منهم، وأعتقد العامة أنهم مرغومون على أن يقدموا لهؤلاء الكهنة ما يعولهم... وكانهم ودائع ينفذون وصية الله، ووسطاء بين الآلهة والناس. وعمد الكهنة، لكي يثبتوا سلطانهم ويؤكدوا سيطرتهم، إلى تصوير الآلهة بأنهم قساة حقودون محبوبون للانقسام لا يستشعرون الرحمة. وأدخلوا

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الموسوعة نفسها

لمراسم والطقوس والشعائر والأسرار التي يمكن أن تبعث فضاعتها في نفوس الناس الاكتئاب الرهيب الملائم كل الملائمة لدنيا التعصب. ثم تدفق الدم البشري الغزير فوق المذابح. وظن الناس، وقد ملأهم الخوف بالجين وأعمتهم الخرافة، أنه لن يكون أي ثمن يدفعونه غالباً في سبيل الحظوة برضا الأرباب. وأسلمت الأمهات أطفالهن الصغار دون أن يذرفن دمعاً واحدة، إلى النيران الملتهبة، وسقط آلاف الضحايا تحت سكين القربان المقدس... وكان من الميسور على الرجال الذين كانوا موضع الإجلال والاحترام إلى هذا الحد، أن يبقوا طويلاً داخل حدود الخضوع الضروري للنظام الاجتماعي. فإن الكهنة الذين أسكرتهم السلطة كثيراً ما نازعوا الملوك حقوقهم. وأمسك التعصب والخرافة بالسيف مسلطاً على رؤوس الملوك واهتزت العروش حين رغب الملوك في كبح جماح أو معاقبة الرجال المقدسين الذين كانت مصالحهم متشابكة مع مصالح الآلهة... كان الحد من سلطانهم يعني تقويض أركان الديانة" (54). وبصفة عامة اتخذت الحرب ضد العقيدة القديمة شكل الثناء على المعتقدات الجديدة في العلوم والفلسفة ومناهجها. وكان الفلاسفة يحلمون بإحلال العلوم محل الدين والفلاسفة محل الكهنة على الأقل بين الطبقات المتعلمة، وحظيت العلوم بتفسيرات وشروح مسهية، مثال ذلك أن سنة وخمسين عموداً خصصت "للتشريح"، وتحت بند "الجيولوجيا" كتبت مقالات مطولة عن المياه المعدنية والمعادن والطبقات وأنهار الجليد والاحافير والمناجم والزلازل والبراكين والأحجار الكريمة. وكان لزاماً أن توضع الفلسفة في النظرة الجديدة إليها على أساس من العلوم تماماً. وينبغي ألا تبنى "نظماً" ويجب أن تتجنب الميثاقين كما يجب ألا تتحدث بلغة الأساقفة عن منشأ العالم ومصيره، وشنت مقالة "المدرسة" هجوماً مباشراً على الفلاسفة السكولاسيين (المدرسيين) على اعتبار أنهم تخلوا عن البحث عن المعرفة، واستسلموا للاهوت. وضيعوا أنفسهم، وهم آمنون في المنطق الواهي مثل خيوط العنكبوت، وسط غيوم الميثاقين. وديج ديدرو سلسلة من المقالات الممتازة في تاريخ الفلسفة، استندت

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الموسوعة نفسها

كثيراً على كتاب جوهان جاكوب بروكر "تاريخ النقد الفلسفي" (1742-1744) ولكنها كشفت عن بحث أصيل في الفكر الفرنسي، وشرحت المقالات التي كتبت عن مدرسة إلبا أبيقور المذهب المادي. وأفرطت بعض المقالات في إطراء برونو وهوبز. وياتت الفلسفة عند ديدرو ديانة. "والعقل للفيلسوف هو بمثابة البركة والنعمة الإلهية للمسيح" (55). وصاح "فلنسارح لنجعل الفلسفة شعبية" (56). وفي مقالة "الموسوعة" كتب كما يكتب الرسل أو الحواريون "اليوم حين تتقدم الفلسفة إلى الأمام بخطى جبارة، وتخضع لسلطانها كل الأشياء التي تهمها، وحين يكون صوتها عالياً مدوياً، وتشرع في طرح نير السلطة والتقاليد وتمسك بقوانين العقل... "وهنا كانت العقيدة الجريئة

الجديدة مع ثقة فنية شابة قليلاً ما توجد ثانية. وربما كان يفكر في حاميته الإمبراطورية في روسيا، وأضاف مثل أفلاطون " وحدوا بين حاكم (كترين الثانية) وبين فيلسوف من هذا الطراز (ديدرو) ومن ثم تجدون ملكاً بلغ درجة الكمال(57).

وإذا حل مثل هذا الفيلسوف محل كاهن اعتراف مرشد وموجه للملك، فلا بد أن ينصح أول ما ينصح بإطلاق الحرية، وبخاصة حرية الكلام والصحافة "إن أهدأ لم يتلق من الطبيعة حق التحكم في الآخرين" (58) وفي هذا تعريض شديد بحقوق الملك الإلهية أما بالنسبة للثورة: "إن السلطة التي يتم الاستيلاء عليها عن طريق العنف ليست إلا اغتصاباً، لا تدوم إلا بقدر تفوق قوة من سيطر على قوة من أدعوا له. فإذا توافر لهؤلاء الآخرين قسط كبير من القوة وتخلصوا من نير من تسلط عليهم من قبل فإنهم يفعلون بحكم الحق والعدل مثل ما فعل هذا الذي كان قد تحكم فيهم وفرض عليهم سلطانه من قبل. إن نفس القانون الذي فرض السيادة هو الذي يحطمها ويبطلها، وهو قانون الأقوى،... ومن ثم فإن السلطة الحقيقية الشرعية لها بالضرورة حدود وقيود... إن الأمير (الملك) يتلقى من رعاياه السيادة التي يمارسها عليهم. وهذه السيادة محدودة بقوانين الطبيعة وقوانين الدولة... إن الدولة لا تتبع الأمير، بل إن الأمير هو الذي يتبع الدولة وينتسب إليها(59).

ولم تكن الموسوعة اشتراكية ولا ديمقراطية، بل إنها قبلت الملكية،

صفحة رقم : 12556

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الموسوعة نفسها

ونبذت نظرية المساواة التي شرحها روسو بقوة 1755. ودافعت مقالة جوكور "المساواة الطبيعية" عن المساواة أمام القانون، ولكنها استطرقت تقول "إني أدرك تمام الإدراك ضرورة تباين الأحوال والدرجات والمقامات والطبقات والامتيازات والتبعية التي يجب أن تسود في كل الحكومات" (60) وأعتبر ديدرو أن الملكية الخاصة أساس لا غنى عنه للمدنية(61) على أن مقالة "الإنسان" على أية حال كانت لها وقفة مع الشيوعية: "إن الربح الصافي للمجتمع إذا وزع توزيعاً عادلاً بالتساوي قد يكون مفضلاً على ربح أكبر إذا لم يوزع على قدم المساواة، ومن ثم تكون نتيجته تقسيم الشعب إلى طبقات" وعند التحدث عن الملاجئ قيل "قد يكون السعي إلى منع الفقر والبؤس ذا قيمة أكبر من مضاعفة الملاجئ لإبواء البؤساء"(62).

إن الملك الفيلسوف قد يفحص من وقت لآخر شؤون الإقطاع ويلغي الامتيازات الإقطاعية التي لم تعد تتكافأ مع خدمات السادة الإقطاعيين للفلاحين أو الدولة(63). وقد يجد بديلاً إنسانياً للعمل الإجباري، أي نظام السخرة، ويحرم تجارة الرقيق، ويضع حداً، كلما اتسع سلطانه، للحروب بين الأسرات المتنافسة والصراعات التي يملئها الجشع، ويسعى إلى تطهير المحاكم من الفساد، ويوقف بيع الوظائف، ويخفف من وطأة قانون العقوبات وعلى الأقل يضع حداً للتعذيب القضائي. وعليه، بدلاً من العمل على استدامة الخرافة وانتشارها، أن يبذل أقصى جهوده في أن يدفع إلى الأمام هذا العصر الذهبي الذي يمكن أن يتحالف فيه فن الحكم وسياسة الدولة مع العلم في حرب متصلة ضد الجهل والمرض والفقر.

وكانت الأفكار الاقتصادية في الموسوعة في جملتها هي أفكار الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها معظم الفلاسفة. وهي على الأغلب آراء الفيزيوقراطيين التي سيطرت بزعامة كني وميرابو الأب على النظرية الاقتصادية في فرنسا في أواسط القرن الثامن عشر. فقد ساد الاعتقاد بأن حرية العمل والمشروعات -ومن ثم التجارة الحرة والمنافسة الحرة- أمر حيوي بالنسبة للأحرار من الناس، ولذلك كانت النقابات وهي عوائق لهذه كلها، غير مرغوب فيها ولا يتقبلها أحد. وقد لهذه الأفكار أن تبرز على مسرح التاريخ في وزارة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الموسوعة نفسها

ترجو 1774 ونبهت الموسوعة الأذهان إلى التكنولوجيا الصناعية وأولتها عناية متحمسة، وهي التكنولوجيا التي بدأت تغير وجه الاقتصاد في إنجلترا وفرنسا. وأعتقد ديدرو أن الفنون الميكانيكية يجب إكبارها والرفع من شأنها باعتبارها تطبيقاً للعلوم، والتطبيق بالتأكيد ذو قيمة كبيرة مثل النظرية تماماً. "ما هذا الحمق في قدراتنا وتقديرنا! إننا نخص الناس على أن يشغلوا أنفسهم بما يفيد وينفع، ثم نحترق الرجال النافعين" (64). وكان يأمل في أن تكون الموسوعة مستودعاً جامعاً مانعاً للتكنولوجيا حتى إذا وقعت بالفنون الميكانيكية كارثة دمرتها أمكن بناء هذه الفنون من جديد بفضل مجموعة باقية من مجلدات الموسوعة. وكتب هو نفسه مقالات مطولة بذل فيها جهداً كبيراً عن الصلب والزراعة والإبر والبرونز وآلة النقب والقمصان والجوارب والأحذية والخبز. وأعجب بعبقريته المخترعين وبمهارة الحرفيين. وقصد بنفسه أو أرسل مساعديه إلى المزارع والحوانيت والمصانع لدراسة العمليات والمنتجات الجديدة، وأشرف على حفر الرسوم والنقوش التي قارب عددها ألفاً والتي جعلت من مجلدات اللوحات الأحد عشر إحدى العجائب من نوعها في ذلك العصر. وكانت الحكومة فخورة بأن يشمل هذه المجلدات الأحد عشر الإذن الملكي بطبعها ونشرها. وقد ضمت خمساً وخمسين لوحة عن صناعة النسيج وإحدى عشرة لوحة عن سك العملة وعشراً عن الصناعات الحربية، وخمساً عن البارود، وثلاثاً عن صناعة الدبابيس. وكانت هذه اللوحات الثلاث الأخيرة مصدرراً لمقالة آدم سميث الشهيرة عن توزيع العمل إلى "18 عملية متميزة" في إنتاج الدبوس (65). قال ديدرو: "من أجل الحصول على هذه المعلومات كنا نقصد إلى أقدر الحرفيين في باريس وفي سائر أنحاء المملكة، وحرصنا على أن نوجه إليهم الأسئلة ونكتب ما يملون علينا. ونحصل منهم على المصطلحات المستخدمة في حرفهم. وفي مقابلات طويلة كثيرة مع مجموعة واحدة من العمال كنا نستكمل ما قد يكون الآخرون قد شرحوه بشكل ناقص أو غامض أو أحياناً غير دقيق. وأرسلنا إلى الحوانيت حفارين ورسامين رسموا الآلات والأدوات دون أن يحذفوا شيئاً يمكن أن يجعلها واضحة تمام الوضوح أمام الأعين" (66).

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الموسوعة نفسها

وفي 1773، عندما طلب سلطان تركيا إلى بارون دي توت أن يصنع المدافع لحصون الدردنيل أستخدم البارون مقالة "المدافع" في الموسوعة مرشداً دائماً بيترشيد بما جاء فيها (67). وبعد أن فرغ ديدرو من إعداد النص كاملاً، أصيب بنكسة زلزلت كيانه وحطمت روحه، ذلك أنه وهو يراجع إحدى المقالات أكتشف أجزاء كثيرة من أوراق التجارب التي كان قد صححها وأعتدها حذفت أو سقطت عند الطبع. وأظهرت مراجعة بعض المقالات الأخرى أن حذفاً مماثلاً جرى في المجلدات من التاسع عشر، وجرى الحذف والتعديل عادة في أجزاء ربما أثارت مرة أخرى رجال الدين أو البرلمان. وجرى الحذف دون اعتبار للمنطق أو

السياق في الجزء الباقي من المقالة. وأُعترف لي بريتون بأنه عمد إلى هذه العملية الجراحية (الحذف) لينفذ الموسوعة مما قد تتعرض له من محن، وينفذ نفسه من الإفلاس. وروى جريم نتيجة هذا العمل "لقد جن جنون ديدرو عند اكتشاف هذا التصرف، ولن يغيب عن ذاكرتي مطلقاً هذا الذي حدث له وظل لعدة سنين يصرخ في وجه لي بريتون "لقد كنت تخدعني بشكل مخز ودنيء... وضيعت جهود عشرين من أفضل الرجال، الذين خصصوا كل وقتهم وقدراتهم ومواهبهم ونشاطهم حياً في الحق وجرياً وراء الحقيقة، يحدهم مجرد الأمل في وصول آرائهم إلى جمهور الناس، ولا يريدون منها إلا أيسر الجزاء بثمن غال... ولسوف يذكرونك منذ الآن رجلاً أقترب جريمة الخيانة، وتصرف تصرفاً وقحاً كريهاً، مما لا يقارن به أي شيء حدث في هذا العالم" (68). ولم يغفر ديدرو لبريتون هذه الزلة قط".

إننا لو ألقينا نظرة فاحصة إلى هذا العمل، سواء من حيث تاريخه أو محتوياته: لأدركنا أنه المشروع البارز الرائع في عصر الاستنارة في فرنسا، ومنذ كان ديدرو فيه رئيساً لا غنى عنه، كانت مكانته تجيء بعد فولتير وروسو في الصورة العامة الشاملة للحياة الفكرية في فرنسا في القرن الثامن عشر. وكانت مثابرتة على تحرير الموسوعة عملية متشعبة الأطراف مضمّنية. إنه أثبت المراجع المتعارضة وصحح الأخطاء وقرأ تجارب الطبع، وطاف

صفحة رقم : 12559

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الموسوعة نفسها

بأرجاء باريس يبحث عن الكتاب ويستحثهم. وديح بقلمه مئات المقالات في حالة عدم العثور على الكتاب أو عجزهم عن الكتابة. وكان المرجع الأخير إذا قصر الآخرون، ومن ثم نجده يكتب في الفلسفة والفن والمسيحية، والأصالة العاصرة (نوع من الحيات الضخمة الماحقة) والجمال وأوراق اللعب ومصانع الجعة والخبز المقدس. وسبقت مقالته عن "التعصب أو عدم التسامح" رسالة فولتير في نفس الموضوع، وربما أوحى ببعض الأفكار الواردة فيها. وزخر الكثير من مقالاته بالأخطاء، وكان بعضها عدائياً غير منصف بشكل مشوش، مثال ذلك مقالته عن اليسوعيين، ولكنه كان في عجلة من الأمر، على حذر يستعد للنضال، كما كانوا يطاردونه، وكان يحارب بكل سلاح في متناول يده. أما وقد خفت حدة المعركة، ففي مقدورنا أن نتبين مواطن الضعف في الموسوعة. ففيها ألف خطأ في إيراد الحقائق، وفيها تكرارات طائشة غير مدروسة وحذف فاضح، وكان فيها انتحالات جوهرية، كما أوضح الباحثون اليسوعيون "وكانت بعض المقالات" لوحة من المسروقات أو الاقتباسات (69). وفي ثلاثة أعداد من صحيفة تريفو أورد برتينييه، استناد إلى مراجع دقيقة ومقتبسات متطابقة أكثر من مائة من الانتحالات في المجلد الأول وكان معظم هذه المسروقات مختصراً غير ذي أهمية، ولكن بعضها امتد إلى ثلاثة أو أربعة أعمدة منقولة بالحرف الواحد.

وكان في الموسوعة شوائب فكرية خطيرة. ومن ذلك أنه كان لدى المؤلفين فكرة بالغة السذاجة عن الطبيعة البشرية، وتقدير متقائل إلى حد بعيد لأمانة العقل وإدراك غامض غابية الغموض لضعف هذا العقل وهشاشته أو سهولة إنقياده، ونظرة عامة متفائلة أكثر مما ينبغي إلى كيفية استخدام الناس للمعرفة التي يزودهم بها العلم. إن الفلاسفة بصفة عامة وديدرو بصفة خاصة، كانت تعوزهم الحاسة التاريخية. إنهم قليلاً ما توقفوا ليبحثوا كيف نشأت ونهضت تلك المعتقدات التي حاربوها، وأية حاجات بشرية، لا ابتداعات كهنوتية أنتجتتها وهيات لها الدوام. وعميت أبصارهم تماماً عن إسهام الديانة الضخم في النظام الاجتماعي وفي الأخلاق وفي الموسيقى والفنون، وفي

صفحة رقم : 12560



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو والموسوعة -> الموسوعة نفسها

تخفيف الفقر والشقاء. إن تحاملهم على الدين شديداً إلى حد أنهم لا يستطيعون مطلقاً إدعاء النزاهة أو عدم التحيز الذي ينبغي أن نعتبره الآن عنصراً أساسياً في الموسوعة الجيدة. وعلى الرغم من أن بعض اليسوعيين مثل برتويه، كانوا في الغالب منصفين في تقديمهم للموسوعة، فإن معظم نقادنا كانوا متحيزين مثل الفلاسفة. وأحس ديدرو إحساساً قوياً بالأخطاء الحقيقية الفعلية في الموسوعة فكتب في 1755: إن الطبعة الأولى من الموسوعة لا يمكن إلا أن تكون جمعاً وتصنيفاً مشوهين ناقصين (70)، وتوقع أن تحل محلها وشيكاً طبعة أخرى مصححة. وحتى مع هذا شق هذا الإنتاج الضخم طريقه إلى الأوساط الفكرية في القارة. وأعيد طبع المجلدات الثمانية والعشرين ثلاث مرات في سويسرا، ومرتين في إيطاليا، ومرة في ألمانيا، ومرة في روسيا، وعادت الطبوعات المنتحلة إلى فرنسا لتنتشر تأثير الأفكار المهرية. وبلغ عدد الطباعات ثلاثاً وأربعين طبعة على مدى خمسة وعشرين عاماً - هو رقم قياسي لمثل هذه المجموعة الغالية الثمن. وكان أفراد الأسرة يجتمعون في المساء ليقرءوا الموسوعة وتألقت مجموعات مثلهذه على دراستها. وأشار توماس جفرسون على جيمس ماديسون بشرائها. والآن وقد ظهر إنجيل العقل ضد الأساطير، وإنجيل المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية، وإنجيل التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل أو التفكير القديم في الموت، فكأنما هبت كلها على أوروبا مثل ريح محملة بلقاح جديد، تبدد كل التقاليد وتثير الفكر وتوقظه، وتدعو آخر الأمر إلى الثورة. إن الموسوعة كانت ثورة قبل "الثورة الفرنسية"

صفحة رقم : 12561

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو وبروتيه -> القائل بوحدة الوجود

الفصل العشرون

ديدرو وبروتيه

1773-1758

إننا نسميه بروتية Proteus لأنه مثل إله البحر عند هوميروس، حاول أن يفلت من أيدي صانديه بالتشكل في مختلف الأشكال(1). أما فولتير فقد أطلق على ديدرو أسم بانثوفيلس، لأنه أولع بكل فروع العلوم والأدب والفلسفة والفن. وكان له بكل هذه المجالات معرفة واسعة، وأسهم في كل واحد منها إسهاماً مثيراً موحياً. وكانت الأفكار هي كل زاده وعتاده. فجمعها وتذوقها وفحصها. ثم سكبها مشوشة تشويشاً مسرفاً حيثما وجد قرطاسياً خالياً أو آذاناً صاغية "إني أضع أفكاري على الورق ولتكن ما تكون"(2) وربما أصبحت أعداء. ولم ينسق قط بينها ولم يهتم قط بترابطها. ويمكن أن نقبس عنه في أي اتجاه تقريباً، ولكن نزعتة المركبة كانت جلية واضحة. وكان أكثر أصالة من فولتير، وربما كان السبب في هذا أنه لم يرتض قط المعايير التقليدية. وقد يطلق لنفسه العنان دون قيود مقبولة. وتتبع كل نظرية أنى قادته، أحياناً إلى أعماقها وأحياناً أخرى إلى حثالتها. وتعرف على كل وجهات النظر إلا وجهات نظر القسيس والقدّيس لأنه لم يكن لديه حقائق أو أشياء يقينية "أني لا أهتم بتشكيل السحب أكثر منى بتبديدها، وتعطيل القرار أو الحكم، لا باتخاذها.. أنا لا أقرر، بلى أتساءل(3) أنا أترك ذهني بهيم إلى حد السرف، وأطلق العنان لمتابعة أية فكرة سليمة كانت أو طائشة، تأتي أو تقفز إلى ذهني أولاً، وأتعبها كما يتعب الشباب الداعر محظية بانسة وهي تبتسم، وتتلاهاً عيناها وتنظر بأزدراء... إن أفكارى هي محظياتي(4).

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> القائل بوحدة الوجود

وكان لديدرو خيال عقلائي، فتخيل الأفكار والفلسفات والشخصيات كما يتخيل الآخرون الأشكال والمشاهد. ومن غيره كان يستطيع في زمانه أن يتصور "أين أخي رامو" المخزي اللا أخلاقي الفاتن. إنه بعد أن يخلق أحد شخوصه يدعه ينمو ويتطور وكأنما يفعل ذلك طواعية واختياراً. ثم يدع هذه الشخصية تقوده، وكأنما المؤلف هو الدمية المتحركة أو الألعبوبة. إنه تخيل نفسه في مكان راهبة شابة كارهة ثم جعلها حقيقة إلى حد أن المتشككين الفرنسيين تولاهم الجزع لمحتنها. أنه جرب الأفكار تجريباً عقلياً، وتمسك بها بعض الوقت، وتخيل نتائجها منطقياً أو عملياً، ثم طرحها جانباً. وما كادت توجد فكرة في هذا العصر إلا دارت بخذه. أنه واقعي لم يكن مجرد موسوعة متحركة، بل كان معملاً منتقلاً. سارت أفكاره معه أينما سار.

وهكذا فإن ديدرو في كتابه "بعض الأفكار في تفسير الطبيعة" الذي نشره في 1754 غفلاً من أسم المؤلف، بترخيص ضمنى من الرقيب الكريم المحسن مالشرب -تلاعب عن الأحذية (القول بأن ثمة مبدأ غائباً واحداً، كالعقل أو المادة. القول بأن الحقيقة كل عضوي واحد). والمادية والآلية والحيوية (المذهب الحيوي الذي يقول بأن الحياة مستمدة من مبدأ حيوي وأنها لا تعتمد اعتماداً كلياً على العمليات الفيزيائية والكيميائية) والتطور. وكان لا يزال متأثراً ببيكون وأخذ عنه العنوان والصيغة الحكيمه ودعوة رجال العلم ليتكاتفوا في العمل على قهر الطبيعة عن طريق التجريب والعقل. وتأثر كذلك بكتاب موبرتيوس "منهج عام للطبيعة" (1751) وكتاب بيفون (التاريخ الطبيعي) (1749). وأتفق مع موبرتيوس على أن كل مادة قد تكون حية، ومع بيفون في أن علم الحياة (البيولوجيا) مستعد الآن للتحدث إلى الفلسفة. ورحب عند المؤلفين كليهما بفرضية التطور الناشئة.

وبدا ديدرو بمخطط ضخم: (إنها الطبيعة هي التي أريد أن أصفها، إن الطبيعة هي الكتاب الوحيد أمام الفيلسوف) (5) وتصور أن الطبيعة قوة

صفحة رقم : 12563

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> القائل بوحدة الوجود

نصف عمياء ونصف ذكية، تؤثر في المادة وتبعث فيها الحياة، وتهبئ للحياة مليون شكل تجريبي، وتدخّل التحسين على هذا العضو. وتتبدّد ذلك العضو، تحي وتميت بشكل مبدع. وفي هذا المعمل الكوني ظهرت وأختقت آلاف الأنواع. (أنه مثل ما هو حادث في مملكتي الحيوان والنبات، ينشأ فرد وينمو ويبقى ثم يهلك ويذول، فهلا يمكن أن تكون كل الأنواع على هذا المنوال؟ إذا لم تعلمنا العقيدة أن الحيوانات تأتي عن يدي الخالق كما نراها، وإذا كان هناك أدنى شك في بدايتها ونهايتها، فهلا يفترض الفيلسوف المستسلم لخواطره أن الحيوانية أخذت عن كل الأبدية كل العناصر الخاصة بها، ثم تبعثرت وأختلطت بكتلة المادة، وحدث أن هذه العناصر أتحدت كلما أمكن حدوث هذا الأتحاد، وأن الجنين الذي تكون من هذه العناصر مرر بتنظيمات وتطورات لا حد لها، أنه أكتسب على التوالي حركة وأفكاراً وتفكيراً وتأملاً ووعياً ومشاعر وأنفعالات ورموزاً وإيماءات وأصواتاً واضحة ولغة وقانوناً وعلومياً وفنوناً، وأن ملايين من السنين أنقضت بين هذه التطورات، وأنه قد لا يزال أمام هذا الكائن تطورات أخرى يمر بها وأضافات أخرى يتلقاها، غير معروفة لنا الآن... وأنه قد يفقد هذه لمواهب والقدرات كما أكتسبها، وأنه قد يختفي إلى الأبد من الطبيعة، لا بل أنه قد يبقى على قيد الحياة في شكل آخر بمواهب وقدرات مختلفة كل الأختلاف عما نراه فيه في هذه اللحظة من الزمان؟ (6)

إن الطبيعة عند ديدرو هي كل شيء وهي إلهه. ولكننا لا نعرف عن جوهرها إلا وفرتها المضطربة والتغير الدائب الذي لا يهدأ فيها. والطبيعة هي المادة الحية. ولكن المادة تحتوي في نفسها على أندفاع الحياة وعلى إمكانية التفكير. وليس الإنسان آلة كما أنه ليس روحاً غير مادية، والجسم والنفس كائن واحد ويفنيان معاً (إن كل شيء يدمر نفسه ثم يهلك

صفحة رقم : 12564

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> القائل بوحدة الوجود

ولا يبقى إلا العالم، ولا يثبت إلا الزمان (7) والطبيعة محايدة ولا تعتمد إلى التفريق بين الخير والشر والكبير والصغير والآثم والقديس. وأنها تعني بالأنواع الفرد. فلينضج الفرد ويتكاثر ثم ليمت ولسوف يفنى كل نوع كذلك. أن الطبيعة حكيمة في عدد لا يحصى من التفاصيل البارعة التي يبدو أنها تكشف عن التخطيط إنها تمنح الكائنات غرائز تمكنها من الحياة ومن تهيئة الحياة لغيرها، ولكن الطبيعة أيضاً عمياء تدمر الفلاسفة والحمقى على حد سواء، بقذيفة واحدة

من النار أو بضربة واحدة من يدها على أديم الأرض، ولن يكون في مقدورنا أن نفهم الطبيعة ولا أن نكشف النقاب عن أغراضها أو معناها إذا كان لها ثمة أغراض أو معنى، لأننا نحن أنفسنا طوال تاريخنا الدموي الجليل من بين أعبائها أو رياضاتها العابرة المتناهية في الصغر.

صفحة رقم : 12565

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> حلم دالمبير

2- حلم دالمبير

تابع ديدرو تأملاته في الطبيعة في واحد من أغرب المؤلفات في الأدب الفرنسي -حلم دالمبير (وأمتاز ديدرو بعرض أفكاره في صورة حلم، ودس "الحلم على صديقه بأن جعل أثنين من مشاهير المعاصرين -جولي دي لسبيناس ودكتور تيوفيل دي بوردو -محدثين في الحوار. وقال ديدرو لخليلته "إني أضع أفكارى على لسان رجل يحلم. وغالباً ما يكون ضرورياً أن نضفي على الحكمة جواً من السخف والحمق حتى نهئ لها مدخلاً" (8) وتحت هذه الأقنعة أطلق العنان لخياله الفلسفي غير مبال بأي خطر شخصي أو أية نتائج اجتماعية، وكان مسروراً غاية السرور بالنتيجة. ووصفه صوفي فوللاند بأنه (أكثر ما كتب حمقاً وعمقاً، فيه خمس أو ست صفحات تجعل من شعر رأسك ينتصب" (9) على أنه أكد لها أنه لم يتضمن كلمة واحدة خاطئة (10). أنه كتبه في عام 1769 وقرأ أجزاء منه على أصدقائه، وفكر في طبعه، والمفروض في الخارج. فأحتجت الأنسة دي لسبيناس لأسباب سوف تتضح فيما بعد. وفي حركة بطولية ألقى بالمخطوطة في النار، وربما كان يعلم أن هناك نسخة أخرى. وعلى أية حال طبع الكتاب في 1830.

صفحة رقم : 12566

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> حلم دالمبير

أنه عمل ثلاثي. وفي "المحادثة" الأولية بين ديدرو ودالمبير يعترض العالم الرياضي على مذهب صديقه المادي الحيوي بأنه ليس مقبولاً أكثر من قبول مفهوم الله عند رجال اللاهوت في القرون الوسطى. يقول ديدرو: "ليس بينك وبين الحيوان إلا فارق واحد في الكائن الحي (درجة التطور العضوي) وكذلك الحال بين الحيوان والنبات". ومن ثم فإن كل شيء في الإنسان يجب أن تكون له بذرته أو نظيره في النباتات". ويسأل دالمبير: وفي المادة أيضاً؟ فيرد ديدرو بالإيجاب، لأنك "كيف تعرف أن الوجدان لا يلتئم مع المادة -أنت الذي لا تعرف جوهر أي شيء لا المادة ولا الوجدان؟ وليس ثمة إلا جوهر واحد في الكون في الإنسان وفي الحيوان" (11).

وبيرز الجزء الثاني من هذه الثلاثية دكتور بوردو والأنسة دي لسبيناس إلى جوار سرير دالمبير وهو نائم بعد أمسية قضاها في الجدل والحوار مع ديدرو (وكانت الأنسة وقد أشتهرت فعلاً بصالونها تقيم مع دالمبير في لون من الحياة الأفلاطونية). وتروى للطبيب أن صديقها رأى فيما يرى النائم حلماً مزعجاً وأنه تحدث في نومه حديثاً غريباً وأنها دونت بعض ملاحظات عن هذا الحديث، مثال ذلك إن دالمبير قال لديدرو "أنتظر قليلاً أيها الفيلسوف. أنا أستطيع أن أدرك بسهولة مجموعة... من الكائنات الصغيرة التي تحس، ولكن الحيوان؟ هل هو كل.. بوعي من وحدته الخاصة به؟ أنا لا أرى هذا(12) ويرى الحالم في منامه أن ديدرو يروغ إذ من السؤال يتخذ موقفاً عفويًا "عندما رأيت المادة الهامدة تصبح في حالة شعور فلا شيء يدهشني بعد ذلك"(13). ويتابع ديدرو: "إذا كانت كل الأنواع الموجودة ستزول فإنها أو أية أشكال أخرى من الحيوان ستنتج على إمتداد الزمن تخمر الأرض والهواء. ويشترك بوردو والأنسة في المناقشة، ولكن تقاطعهما صرخة مفاجئة من الرجل الذي يحلم والذي يتحدث الآن مثل ديدرو. "المماذا أكون أنا الآن كما أنا؟ لأنه لم يكن ثمة مفر من أن أكون كذلك. إذا كان كل شيء في تغير عام متواصل فما الذي لا يمكن إنتاجه هنا أو في أي مكان آخر

صفحة رقم : 12567

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> حلم دالمبير

بمرور ملايين القرون وتقلباتها؟... ومن يدرينا أن الكائن المفكر الذي يحس ويشعر موجود على كوكب زحل؟... هل يمكن أن يكون للكائن المفكر الذي يحس ويشعر في زحل حواس أكثر منا؟ أه إذا كان الأمر كذلك لكان ساكن زحل سيء الحظ لأنه كلما ازدادت الحواس ازدادت الحاجات (14)".  
ويعلق بوردو على ذلك "أنه على حق طبقياً لنظرية لا مارك في التطور العضوي، فإن الأعضاء تولد الحاجات وبالتبادل تولد الحاجات الأعضاء".  
ويصحو دالمبير لحظة ويجد بوردو يقبل لسبيناس فيحتج. ويأمر أنه بالعودة إلى النوم فيمتثل. وينسى الطبيب وصاحبه الصالون ويتتبعان الأفكار التي بدأت في الحلم ويشير بوردو إلى ولادة المخلوقات الإنسانية الغريبة ويتحدى المؤمنين بالتخطيط الألهي أن يفسروها. وتسبح للأنسة لمحة خاطفة بارعة "ربما كان الرجل مجرد صورة مشوهة من المرأة أو المرأة صورة مشوهة من الرجل(15). ويضيف الطبيب إلى هذا على طريقة ديدرو "الفرق الوحيد بينهما أن لأحدهما كيس يتدلى في الخارج وللآخر كيس مثبت في الداخل". ويستيقظ دالمبير ويحتج "أنت تتحدث بكلام بذئ إلى الأنسة لسبيناس" وينهض بوردو لأنه كان على موعد مع مريض آخر، ويتوسل إليه دالمبير أن يبقي ليفسر له: "كيف حدث أنه ظل كما هو بالنسبة لنفسه وللآخرين طوال التقلبات التي عاناها طوال سني حياته على حين أنه ربما لم يعد لديه شيء قط من الجزينات التي كانت عند مولده؟ فيجيب الطبيب "أنها الذاكرة و...بطء التغيرات". وتقدم الأنسة قياساً مثيراً "أن الدير يحتفظ بروحه لأنه يمتلئ بالرواد شيئاً فشيئاً وإذا قدم راهب جديد فإنه يجد مائة راهب قديم يقودونه إلى أن يفكر ويحس مثل ما يفعلون هم أنفسهم(16)".  
ويسيطر بوردو منذ الآن على المناقشة وهو يفرق بين النزعة الرومانتيكية والنزعة التقليدية القديمة حسبما تسيطر الحواس على الذهن الواعي أو يسيطر

صفحة رقم : 12568

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> حلم دالمبير

الذهن الواعي عليها. ويرى أن لسبيناس مثال واضح على الحالة الأولى ويقول لها في رقة "إنك ستوزعين وقتك بين الضحك والدموع ولن تكوني أكثر من طفل" ويذكر تفسيراً فسيولوجياً للأحلام: "النوم حالة لا يعود يوجد فيها تنسيق بين الحواس عن طريق الوعي أو الهدف، ولا يعود يوجد أي عمل مدبر أو نظام وضبط والسيد (النفس الواعية) ستسلم لهوى أتباعه (الحواس)... هل الخيط (الأعصاب) مشدود؟ إذن يرى أصل الشبكة (المخ). وإذا أراد خيط السمع فإنه يسمع. والفعل ورد الفعل (الأحاساس والاستجابة) هما الشيطان الوحيدان اللذان يبقيان بينهما. وهذا نتيجة طبيعية لقانون الاستمرار والعادة. إذا بدأ الفعل بالغاية الشهوانية التي قدرتها الطبيعة للذة الحب، وتكاثر النوع فإن أثره على أصل الحزمة (المجموعة) هو الكشف عن صورة المحبوب. ومن جهة أخرى إذا ظهرت هذه الصورة بادئ ذي بدء لأصل الحزمة فستكون شدة الرغبة الشهوانية وهياج السائل المنوي وتدفعه، هذه كلها ستكون نتيجة رد الفعل... وفي حالة اليقظة تدعن الشبكة للصور التي يطبعها في الذهن شيء خارجي. وفي حالة النوم، فإنه من ممارسته شعوره الخاص، ينبثق كل شيء في نفسه. وليس في الحلم شيء يصرف الانتباه ومن ثم كانت حيويته ونشاطه" (17). وربما أحس بودرو بأن المريض الذي كان قد قرر زيارته قد يشفى بالطبيعة أسرع منه بالدواء، ولذلك نسيه، وأنطلق يشرح الجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر) ويصف "إحترام الذات، والخجل والندم" بأنها صيغيات مبنية على جهل وغرور شخصي ينسب لنفسه مزايا ونقائص في لحظة لا مفر منها (18). وأفتتن ديدرو بالطبيب بوردو ناطقاً بلسانه، حتى أنه في الجزء الثالث "مواصلة المحادثة" أغفل دالمبير. وإذ تحرر الطبيب فإنه أنكر العفة باعتبارها أمراً غير طبيعي، ويقر الأستمناء متفلسماً ضرورياً عن الحويصلات المكتظة أو المحققة "أن الطبيعة لا تجيز شيئاً غير ذي فائدة. فهل أكون ملوماً في

صفحة رقم : 12569

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> حلم دالمبير

مساعدتها إذا أهابت بي لمعونتها في أقل الأعراض شبيهة وريبة؟ ويجدر بنا إلا نستقرها أبداً، بل نمد لها يد المعونة بين الحين والحين" (19). ويختتم الطبيب كلامه بتحبيذ التجارب في مجال الخلط المنتج بين مختلف الأنواع، حيث يمكن أن ينتج هذا الخلط نمطاً من الإنسان الحيوان الذي قد يقع بخدمة الإنسان. وتستيق الأنسة لسبيناس أناتول فرانس والبطارقة، فتتساءل: وهل ينبغي تعميم أنصاف الرجال هؤلاء؟ بوردو (وهو يهيم بالخروج): هل رأيت في حديقة الحيوان، في قفص من زجاج إنسان الغاب (ضرب من القردة العليا الشبيهة بالإنسان يقطن في بورنيو وسومطره) يبدو وكأنه سان جون يلقي المواعظ في الصحراء؟ الأنسة: نعم رأيت.

بوردو (وهو يغادر المكان): قال له الكاردينال دي بولينك، "تكلم وأنا أعمدك" (20). وفي "مبادئ الفسيولوجيا" (1774) صاغ ديدرو نظريته في التطور، متأملاً في الحلقة المفقودة، فهو يقول "من الضروري أن نبدأ بتصنيف الكائنات، ابتداء من الجزئ الخامل غير الفعال (إذا وجد) إلى الجزئ النشط الفعال، إلى الحيوانات الدقيقة التي لا ترى إلا بالمجهر... إلى النباتات، وإلى الحيوان، وإلى الإنسان... يجدر ألا يصدق المرء أن

سلسلة الكائنات قد عوقتها وأعتراض سبيلها تباين الأشكال وتنوعها، فالشكل مجرد قناع خداع. وربما وجدت الحلقة المفقودة في كائن غير معروف، لم يستطع علم التشريح المقارن بعد أن يحدد مكانه الحقيقي(21).

صفحة رقم : 12570

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ديدرو والمسيحية

3- ديدرو والمسيحية

كان ديدرو قد وعد صوفي فوللاند بأنه لن يتعرض للديانة في "حلم المبير" والواقع بطبيعة الحال أن "الثلاثي" أورد فلسفة أستغنت عن الآلهة تماماً. وظل ديدرو في العلن ريوبيياً متمسكاً بأن الله هو "المحرك الرئيسي" فقط،

صفحة رقم : 12571

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ديدرو والمسيحية

منكراً العناية الألهيه والتخطيط والتدبير الألهي. وكان من الناحية النظرية "لا أدرياً" ينكر أي علم أو اهتمام بأي شيء فيما وراء دنيا الحواس ودنيا العلوم، وتحدث أحياناً بشكل غامض عن وعي كوني تعثر وتخبط عبر زمان لا حدود له، وقام بتجارب تنتج الآن أشخاصاً غريبة عقيدة أو يسبب أحداثاً سعيدة -لا يكاد يكون إليها يتقبل الصلوات والدعوات. ويمكن أن يصبح في إحدى نوبات الغضب خصيماً عنيفاً، وأنبأ عن ميغض البشر الذي بث فكرة الإله، إنقاصاً من الحياة، وانتشرت الفكرة، وسرعان ما تشاجر الناس وكره بعضهم بعضاً، وقطع الواحد منهم رقبة الآخر. وكانوا يفعلون نفس الشيء منذ جرى هذا الإسم الكريه على الألسنة. وأضاف ديدرو في إبتهاج مقرون بالحذر "ربما ضحيت بحياتي في سبيل القضاء على فكرة الإله قضاء مبرماً"(22). ومع ذلك فإن نفس العبقرية المهوشة أحست بنظام الكون وعظمته المذهلتين، وكتب إلى الانسة فوللاند: "أن الإلحاد أقرب ما يكون إلى الخرافة، وكلاهما صبياني طائش"، ثم أضاف "لقد جن جنوني لأنني حائر متورط في فلسفة شيطانية لا أملك إلا أن يقرها ذهني وينبذها قلبي"(23) وأقر في سنيه الأخيرة بعد ذلك صعوبة اشتقاق العضوي من غير العضوي أو الفكر من الأحساس"(24).

ولكن ديدرو لم يهدأ قط في حملاته على المسيحية، وثمة فقرة مثيرة من رسالة خاصة تلخص موقفه منها، "من رأيي أن العقيدة المسيحية أسخف وأشنع ما تكون في تعاليمها ومبادئها، كما أنها مستعصية على الفهم، مينا فيزيقية مربة غامضة إلى أبعد الحدود. ومن ثم كانت أكثر تعرضاً للانقسامات والشيع والإنشاقات والهرطقات، وأكثرها أيداءً وأزعاجاً للهدوء العام، وخطراً على الملوك والحكام في تسلسل مراتبها الكهنوتية وأضطهاداتها ونظامها العام، وهي

أشد العقائد فتوراً وكأبة وبعداً عن المدنية، وعبوساً في طقوسها، وأشد صبيانية وأنطوائية وبعداً عن الروح الاجتماعية في أخلاقياتها... وهي متعصبة لا تحتل إلا أقصى(25)".

صفحة رقم : 12572

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> ديدرو والمسيحية

وفي "نزهة المتشكك" (1747) كان ديدرو قد أعترف بخدمات الكنيسة في تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ولكنه بعد ذلك رأى أن المسيحية، على حين تنهي عن الجرائم البسيطة، تبعث على إقتراف الجرائم الكبيرة، "سياتي، أن عاجلاً أو آجلاً، الوقت الذي نرى فيه أن نفس العقيدة التي حالت بين الإنسان وبين سرقة ثلث واحد، تكون سبباً في قتل 100 ألف شخص. تعويض رائع(26)! ومهما يكن من أمر، فإن لأفكارنا الدينية أقل الأثر في أخلاقنا(27)، والناس يرهبون القوانين الحالية أكثر مما يخشون نار جهنم الأجلة والإله الذي لا يرونه. أن القسيس نفسه قلما يعتمد على الدعاء والصلاة للآلهة، اللهم إلا إذا كان المرء لا يعنيه إلا قليلاً(28). وفي 1773 تتبأ ديدرو بأن الإيمان بالله والخضوع للملوك لن يعود لهما وجود في بحر سنوات قلائل في كل مكان(29) ويبدو أن النبوءة تحققت في فرنسا في 1792. ولكن ديدرو تتبأ أيضاً "بأن الإيمان بوجود الله سيبقى"(30). ومثل معظم الذين فقدوا إيمانهم بالمذهب الكاثوليكي، فإن نفس ديدرو الذي ذهب إلى أن المراسم والطقوس الكاثوليكية كئيبة حزينة، ظل حساساً لجمال ووقار الشعائر الكاثوليكية، ودافع عنها ضد النقاد البروتستانت في صالونه 1765، فهو يقول: "أن هؤلاء المتشددون الحمقى لا يدركون مدى تأثير الطقوس المظهيرية على الناس. أنهم لم يشهدوا قط توقيف الصليب في يوم الجمعة الحزينة، وحماسة الجماهير في موكب عيد القربان، وهي حماسة كانت في بعض الأحيان تجرفني أنا نفسي. أني لم أر قط هذا الصف الطويل من القساوسة في ملابسهم الكهنوتية، ومساعدتهم الصغار في ثيابهم البيضاء ينثرون الزهور أمام القربان المقدس، ولم أر هذه الجماهير الحاشدة التي تسبقهم وتعقبهم في صمت ديني رهيب، كما أن كثيراً من الناس ينبطحون على الأرض. ولم أسمع قط هذه التراتيل الوقورة التي ينشدها الكهنة وترددها في حب وإخلاص الجموع الخفيرة من الرجال والنساء والأطفال، إلا أهتر قلبي من الأعماق، وذرفت عيناى الدموع"(31).

صفحة رقم : 12573

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> ديدرو والمسيحية

ولكنه استأنف الهجوم بعد أن مسح عينيه. ففي "مناقشة فيلسوف مع المارشال دي... (1776) تخيل رجلاً متشككاً أسماء كروديلي (معناها بالأيطالية قاس) يتحدث مع إحدى سيدات المجتمع النبيلات، تعتقد أن من ينكر "التنليث المبارك" إنما هو متوحش مصيره إلى المشنقة. وتدهش السيدة إذ تجد أن كروديلي الذي هو ملحد، ليس أيضاً لصاً



ومنغمساً في الشهوات يقول "أظن أنه إذا لم يكن لدي شيء أخشاه أو أمل فيه بعد الموت فأني سأستبيح لنفسي كثيراً من الملذات اليسيرة هنا". ويسأل كروديلي "وما هي هذه الأشياء؟" "أني أعترف بها للكاهن فحسب... ولكن ما لذي يدفع غير المؤمن ليكون طيباً إلا إذا كان مجنوناً؟" أنها تتراجع قليلاً أمام حججه ثم تتخذ خط دفاع آخر: "ينبغي أن يكن لدينا ما نرهب به الأعمال التي تقلت من قبضة القانون القاسية وفضلاً عن ذلك إذا قضيت على الديانة فماذا تضع محلها؟". فيجيب كروديلي "هبي أنه ليس هناك شيء يحل محل الدين، فلسوف يكون دائماً على أية حال ضرر وظلم أقل". إنه يصور المسلمين في ثورة يذبحون فيها المسيحيين، والنصارى يحرقون المسلمين واليهود. الماريشال: هب أن كل ما أعتقدته باطلاً كان حقاً، وأنت هالك. إنه لشيء رهيب مزعج أن تكون هالكا ملعوناً وأن تصلى النار إلى الأبد. كروديلي: يقول لافونتين بأننا سننعم بالراحة، مثل السمك في الماء. الماريشال: نعم، نعم، ولكن لافونتين أصبح وقوراً تقياً جداً آخر الأمر، وأتوقع أن تكون كذلك. كروديلي: أنا لا أستطيع أن أجيب بشيء إذا ضعف مخي. أن أشد الفلاسفة عداوة لرجال الدين كان يحس بمرارة بالغة نحو ما بدا له أنه ضياع لحيوية البشر وطاقتهم في أديار الرهبان والراهبات. وفي إحدى

صفحة رقم : 12574

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ديدرو والمسيحية

صفحاته الغامضة أنحى بأعنف اللوم على الآباء الذين حكموا على بناتهم بالعيش بين جدران الدير وهن كارهات. إن من أروع كتاباته من الناحية الفنية، بعثاً خالياً من جديد لحياة راهبة من هؤلاء. أنه كتب رسالة الراهبة في 1760 نتيجة مزحة كان يأمل جريم وديدرو من ورائها أن يعيدا إلى رفقتها المركزي دي كرو اكسمير من كايين إلى باريس. وحوالي هذه الفترة أثار ديدرو نداء وجهته إلى برلمان باريس لأحلالها من القسم الذي أكرهها والداها عليه (كما تدعي). وتعطف المركز فكتب إلى البرلمان يناصر قضية الراهبة، ولكن دون جدوى. إننا لا نعرف عن هذه الراهبة شيئاً أكثر من هذا، ولكن ديدرو أعاد كتابة تاريخها في تصوير واقعي يخلد ذكراها على مدى القرون. وأفترض أنها هربت من الدير، وأرسل إلى كرواكسمير عدة رسائل -وكانها بقلمها- تصف فيها معاناتها في الدير، وتطلب أن يمد لها يد المساعدة لتبدأ حياة جديدة. وأجاب المركزي، ورد ديدرو، بأسمها، وأستمرت هذه المراسلات أربعة شهور في مائة وخمسين صحيفة. وصور ديدرو سوزان تعاني من رئيسة الدير الغليظة القلب، فهي تضطهدها وتحبسها وتجردها من ملابسها وتعذبها وتحرمها من الطعام، فتشكو إلى أحد الكهنة الذي يهيب لها سبيل الانتقال إلى دير آخر. وهناك كانت رئيسة الدير الجديد مساحقة وشغفتها الراهبة حياً، وتوسلت إليها لمعاونتها. وربما بالغ ديدرو في وصف قساوة الأمهات رئيسات الأديار وشقاء الراهبات وحزنهن. ولكنه جعل كل الكهنة في قصته ودودين محبوبين مطبوعين على حب الخير، وعالج فكرة السحاق في رقة نادر ما ظهرت في مؤلفاته. وتأثر المركزي وقدم إلى باريس. وتكشفت له الخدعة ولكنه تجاوز عنها وكانت هذه القصة الغربية قد أدت إلى دراسة رائعة في علم النفس، كانت متأثرة بقصة ريتشاردسن "كلاريسا" ولم يتعمق أي متشكك قط بمثل هذه القوة في مشاعر القديس، وفاجأ أحد الزوار

صفحة رقم : 12575

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو والمسيحية

الكاتب وهو يدون هذه الرسائل، فوجده كما يروي جريم "حزيناً غاية الحزن... ويزدرف الدمع(32) وأعترف ديدرو بأنه كان يبكي لقصته هذه، فما أسرع ما كانت الدموع تجري في عينيه، مثل روسو. وكان فخوراً، بشكل يمكن الصفح عنه، بقصته الموضوع على هيئة رسائل، وبأحتمال أن تكون صحيحة، وبالعاطفة الدافقة فيها، وبأسلوبها، وقد عني بمراجعتها وتنقيحها، وأوصى بنشرها بعد موته، ورأت هذه القصة الثورة في 1796 في عهد الثورة وفي 1865 أحرقت قصة "الراهبة" علناً بناء على أمر من محكمة السين(33):  
ومع قصة الراهبة، نشر في 1796، كما أحرقت معها في 1865 "جاك المؤمن بالقضاء والقدر وسيد" الذي اعتبره ديدرو أعظم إنتاجه(34)، بداعي التقارب في الزمن. وربما كان الأمر كذلك، ولكنه أيضاً أسخف ما كتب. وأفتتن ديدرو بقصة "ترسترام شاندي" فاتخذ أسلوب ستيرن (قصصي إنجليزي في القرن الثامن عشر 1760-1768) في تأليف قصة قائمة إلى حد كبير على اعتراض السياق، فيقطعه من حين إلى آخر، في نزوة من نزواته، ليتحدث إلى القارئ عن شخوص القصة. وبدأ الكتاب وأختتمه بقطع وأحداث منقولة مباشرة من ستيرن(35). وفاق ستيرن في إزعاج القارئ بين الحين والحين بفحش القول. إن شخصي القصة يعكسان أسلوب سرفنتيز في التباين بين السيد وتابعه في المزاج والفلسفة. فالسيد يرفض فكرة القضاء والقدر على حين يؤمن جاك بها. إن كل شيء يحدث هنا على الأرض مسطور في كتاب هناك(36). إن جاك "يعتقد إن الإنسان يشق طريقه بالضرورة إلى المجد أو إلى الخزي والعار، كما تنطلق الكرة متتبعاً لإندثار الجبل الذي تدرجت عليه. إن رئيس جاك السابق كان قد ملأ رأسه بكل هذه الأفكار التي أستقاها من سبينوزا الذي حفظه عن ظهر قلب(37) وهو رئيس نادر المثال.  
وفي أواسط القصة يتلأأ ديدرو ليروي في حماسة وبراعة قصة

صفحة رقم : 12576

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو والمسيحية

المركيزة دي لا بومراي عشيقه المركيز دي أرسيز. أنها أرتابت في أنه سئماها، فعزمت على أن تكتشف الأمر بالأشارة إلى علاقتها أصبحت عبئاً ثقيلاً، أنه أساء إليها أبلغ أساءة بتصريحه بأنه يود أن يفلت من عشيقه إلى صديقة، فتدبر المركيزة إنتقاماً فريداً في بابيه. وتعثر على بغي جميلة، وتتحمل نفقات أبدال ملابسها وتعلمها الأجرومية وأداب السلوك وتلقنها مبادئ النقوى المثيرة للأعجاب، وتقدمها إلى المركيز على أنها سيدة من نوات الحسب والنسب، ودربتها على أن تثير نزواته وترفض عرضه لأن تكون صديقتة، وأرشدتها إلى الطريقة التي تنتزع بها منه إقتراحاً بالزواج. وبعد بضعة أشهر من الزواج تكشف مدام لا بومراي للمركيز عن ماضي زوجته. ولكن يفسد على المركيزة أنتقامها تطور غريب. ذلك أن المرأة الأثمة التي أعيد تشكيلها وصلح حالها عرفت كيف تحب زوجها المركيز، وأعترفت له خجلة باكية بخدعتها وعرضت أن تخفي من حياته، وفي الوقت نفسه كانت هي زوجة مخلصه ووفية إلى حد أن المركيز أكتشف أن في الزواج سعادة أكبر مما هي في الفجور والزنى. فيغتنق لها تضليلها ويأبى أن تفارقه، ويعيش معها عيشة راضية ممتازة، ويتحطم قلب بومراي من مرارة الهزيمة.

أن هذا الفاصل على أية حال هو أكثر ما يأخذ بالألباب في "جاك المؤمن بالقضاء والقدر" فإنه يتميز بمتانة التركيب، واللمسات الرقيقة للواقعية النفسية (السيكولوجية)، والشعور العميق في تعبير هاديء. وهذه كلها تعوزها القصة على وجه الإجمال. وأُعترف شيللر بأنها درة في فن الأدب. وترجمها إلى الألمانية في 1785.

صفحة رقم : 12577

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ابن أخي رامو

4- ابن أخي رامو

أن "ابن أخي رامو" لا "جاك المؤمن بالقضاء والقدر" هو أعظم كتب ديدرو وأسماء جوته "الكتاب الممتاز الذي ألفه رجل لامع(38)، كتبه في 1761 ومات قبل أن ينشر، لأنه كان أقبح كتبه وأكثرها خزيًا، وفي

صفحة رقم : 12578

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ابن أخي رامو

نفس الوقت أكثرها أصالة. وظاهر أنه رأى أنه غير مستساغ ليقدمه حتى لأصدقائه. وبعد موته تسربت نسخة منه إلى ألمانيا أحدثت هناك دويًا شديدًا. وأرتاع له شيللر وثارَت نفسه، وحمله إلى جوته، وكان آنذاك في قمة الشهرة (1805) فترجمه إلى الألمانية. ودخلت هذه الترجمة إلى فرنسا وأعيدت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية (1821) ونشرت طبعة أخرى 1823 ولكن هذه لم تصل إلى المطبعة إلا بعد أن كانت أبنه ديدرو قد هذبتها وحذفت منها ما لا يليق نشره. ولم تكتشف المخطوطة الأصلية إلا في عام 1891 في كشك للكتب على ضفة نهر السين وهي موجودة الآن في مكتبة بيبربونت موجان في نيويورك.

وأختار ديدرو لساناً ناطقاً بأفكار غريبة شاذة إلى حد كان من العسير معه أن يعبر عنها ديدرو بضمير المتكلم. جان فرنسوا رامو هو أبن أخي الملحن المشهور جان فيليب رامو (الذي توفي 1764) والذي كان لا يزال على قيد الحياة حين كتب الحوار غير القابل للنشر. وعرف ديدرو الموسيقى معرفة جيدة، وتحدث بطلاقة ودون تكلف عن لوكاتلي، برجوليسي وجوميللي، وجالوبي، وليوفنسي، وتارتيني، وهاس، وتتبا بحق أنه في العزف على الكمان سرعان ما سيحل العزف الشاق محل العزف الجميل ويزحزحه من مكانه(39).

وَألف أبن الأخ موسيقى، وأصاب بعض النجاح معلماً للموسيقى. ولكن كان اسمه يقض مضجعه ويقلق باله. وكان يغار أشد الغيرة من عمه ويحقد عليه تقوقه. فتخلّى عن المعركة، وأنغمس في اللهو وأطلق العنان لشهوته ورغباته

بشكل يناقِي الأخلاق، مما وصفه ديدرو في قصته. وأكدت التقارير المعاصرة (40) كثيراً من الصفات الأخرى التي نسبت إليه في الحوار، ولكن التاريخ لم يؤيد ما ذهب إليه ديدرو من أنه كان قواد يتجر بجمال زوجته في سوق الدعارة. وعندما فارقت هذه الزوجة الحياة فقد جان فرانسوا كل احترام للنفس وجعل منه لسانه البذيئ غير العف، الشديد التهكم

صفحة رقم : 12579

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ابن أخي رامو

والسخرية منبوذاً في المجتمع، وطرد من دار مسيو برتان الثري الذي كان لعدة سنوات قد إعتد عليه في تناول العشاء عنده، وصار عليه أن يلتزم الزملاً في مقهى "لا ريجانس" وفي أماكن أخرى تزخر بالأفكار التقدمية التي لا تغنى ولا تسمن من جوع. يقول ديدرو (لاحظ كيف يعكس حياته في كتبه): "فليكن الطقس معتدلاً أو غائماً معتماً، إن من عادتي أن أقصد سيراً على الأقدام في الساعة الخامسة بعد الظهر إلى البالية رويال. وأنا الشخص الذي يمكن أن يقع بصرك عليه وحيداً دائماً، حالماً على مقعد دارجنسون، أبحث بيني وبين نفسي مشاكل السياسة والحب والذوق والفلسفة. وأطلق لذهني العنان.... وإذا أشئت البرد أو هطل المطر، أوى إلى مقهى لا ريجانس، أراقب لعب الشطرنج... وكنت ذات مساء هناك، أتلفت إلى ما حولي، أتكلم قليلاً، وأسمع قليلاً بقدر الإمكان. حين دنا مني شخص من أغرب الأشخاص على الأرض" (41).

وتجيء بعد ذلك شخصية رائعة: رجل أحنى عليه الدهر، وهو يتذكر الخمرة في مرارة وكان فيما مضى كثير المال ناعم البال مع أجمل زوجة في باريس، وأستقبل مرة في دار أنيقة (42)، كما كان متمشياً مع كل ألوان الثقافة في فرنسا. ولكنه الآن يعاني الفقر والخزي والعار، يعيش على ما يفتات به من موائد الذين يستشعرون الأشفاق عليه، وعلى القروض المنسية، لا يرى في الحياة إلا الصراع والهزيمة، ينبذ كل الديانة باعتبارها قرية جميلة ولكنها مرعية، وينظر إلى الأخلاقيات على أنها جبن وخداع، ومع كل هذا يحتفظ بقدر كاف من ماضيه ليغلف تحراً من الوهم فصاحة بارعة مهذبة، ويكسو هذا التحرير رداء عقلاً. ودعابته حادة مبررة: من ذلك قوله "أت السيدة (كذا) وضعت توأمًا، سيكون لكل والد واحد منهما" أو قوله عن أوبرا جديدة "أن فيها بعض قطع جميلة والمؤلم حقاً أن هذه القطع لم توضع لأول مرة" (43). أن مأساته الكبرى هي أنه لا يؤمن بشيء "وسمع بعض كلام روسو عن الطبيعة - كم هي أفضل من المدنية

صفحة رقم : 12580

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ابن أخي رامو

وخير منها، ولكنه يلاحظ أن في الطبيعة يفتك كل نوع بالآخر؟ والخاتمة الرهيبة هي ألتهام كل كائن وهو يرى نفس الأكلتهام والفتك (أكل الكائنات بعضها البعض) في دنيا الأقتصاد، اللهم إلا أن فيها أناساً يستنزف بعضهم دم بعض عن طريق إجراء قانوني مقبول. وهو يرى أن الأخلاق مجرد خدعة يضلل بها ذوو الدهاء من الناس بسطاء العقول منهم، أو يخدع بها السذج من الناس أنفسهم. أنظر إلى تلك المرأة التقية الورة التي تغادر الكنيسة (بعد الصلاة) "أنها أثناء الليل تتدرب في خيالها على مشاهد الفسق والخلاعة وعلى الأوضاع الشهوانية الداعرة عند أريتينو" (44) ويرى ابن الأخ (جان فرانسوا) أن الرجل العاقل لا بد أن يسخر من الوصايا العشر "ويتمتع بكل الخطايا والآثام في حكمة وتبصر". مرحي! بالحكمة والفلسفة! حكمة سليمان: شرب أجور الخمر، ألتهام أطيب الأطعمة، مضاجعة أجمل النساء، النوم على الفراش الوثير، وكل ما عدا هذا تافه لا قيمة له (45)، ماذا بعد هذا يمكن أن يقول الفيلسوف الألماني نييتشه أو الشاعر والكاتب الفرنسي بودليير وأمثالهما؟

ويختتم ديدرو هذا العرض المفزع "للأفكار بأن ينعت ابن الأخ بأنه "بليد شره جبان، روح من الطين" ويجيب رامو على هذا بقوله "أعتقد أنك على حق (46) وتجول بخاطرننا فكرة خبيثة: كيف كان يتسنى لديدرو أن يصور هذه الشخصية بمثل هذه القوة والحيوية، إذا لم تكن تكمن بين جنبيه هو نفسه؟ أنه يحتج على هذه الفكرة، ولكنه يسلم بأنه ليس قديساً: "أنا لا أستنكر لذة الحواس، فإن لي أنا أيضاً ذوقاً يستسيغ أطباق الطعام الشهي والأنبذة الجيدة كما أن لي قلباً وعينين أحب أن يقعا على سيدة جميلة، وأحب أن ألمس بيدي أن رقبتها مستديرة ثابتة، وأن تعصر شفاتها شفاتي، وأن أرشف اللذة والمتعة من عينيها، وأن ألفظ النفس الأخير بين ذراعيها. ولا يزعجني الأنغماس البسيط في الملذات في بعض الأحيان مع أصدقائي، حتى ولو كان صاخباً بعض الشيء. ولكن لا أخفي عليكم أنه

صفحة رقم : 12581

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو وبروتيه -> ابن أخي رامو

يبدو لي أنه يحلو لي أكثر إلى أبعد الحدود، أن أمد يد المساعدة إلى المنكوبين، أو أسدي نصيحة مفيدة، أو أقرأ كتاباً جيداً، أو أتنزه مشياً على الأقدام مع رجل أو امرأة عزيزة لدي أو أقضي مع أولادي بضع ساعات أتولى فيها توجيههم وتثقيفهم، أو أكتب صفحة أو أؤدي واجبات عملي، أو أصب في أذن حبيبتني بضع كلمات حلوة حتى تحيط عنقي بذراعيها وتعانقني.. إن أحد معارفي رجل من ذوي الثراء في قرطاجنة، وكان الأبن الأصغر في بلد جرت العادة فيه أن تؤول كل الممتلكات إلى الأبن الأكبر، وترامت إليه الأنباء في كولمبيا أن أخاه الأكبر، وهو شخص متلاف، قد سلب أبويه اللذين دللاه وتساهلا معه كل ما كانا يملكان، وطردهما من قصرهما. وأن هذين الولدين الطيبين يعيشان الآن في مدينة صغيرة في الأقاليم يعانيان مرارة الفقر، فماذا فعل هذا الأبن الأصغر الذي أساء والده معاملته إلى حد إنه رحل إلى أقصى الأرض يلتمس الرزق؟ إنه أرسل إليهما معونة بتدبير أموره، ليعود ثرياً ميسوراً إلى أبيه وأمه، وأسترد لهما دارهما، وهياً الصداق لأخواته ليتزوجن. أه يا عزيزي رامو، إن هذا الرجل يعتبر تلك الشهور أسعد أيام حياته. إنه حدثني عنها والدموع تغمر عينيه. أما أنا، وأنا أقص عليك هذه القصة، فأني أحس بأن قلبي قد أرهقه الفرح والغبطة والسرور الذي لا أجد كلمات للتعبير عنه (47).

صفحة رقم : 12582

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> علم الأخلاق والسياسة

5- علم الأخلاق والسياسة

كان لديدرو مثلما لنا جميعاً، شخصيتان على الأقل: نفس باطنة تختزن فيها خفية كل دوافع الطبيعة البشرية، كما هو موجود في الحياة البدائية بل حتى حياة الحيوان، ثم نفس ظاهرة للعيان تتقبل على كره منها التعليم والأنضباط والأخلاق، ثمناً يجب أن يدفع مقابل الحماية التي يبسطها النظام الاجتماعي. ولا تزال له أنفس أو شخصيات أخرى: ديدرو الذي لم يكن قد نسي شبابه، وحرياته البوهيمية وحببياته وخلوه من المسئوليات اللهم إلا

صفحة رقم : 12583

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> علم الأخلاق والسياسة

أمام الشرطة، ثم ديدرو رب أسرة، الذي لو تهيأت له سيدة قادرة على فهم كلامه وأفكاره، لأمكن أن يكون هو أيضاً. أحياناً، زوجاً صالحاً وأباً شغوفاً بأبنائه، وحيواناً شبه مستأنس، ورجلاً يقدر بعض التقدير المالي والأخلاق والقانون. إن هذه الشخصية المزدوجة، "دكتور جيكل ومستر هايد"، أنتجت فيما بين عامي 1770-1772. محاورتين توضحان تذبذب آرائه. ففي "حوار بين أب وأبنائه" يقدم صورة جميلة لأبيه وهو يشرح في رفق "خطر أولئك الذين يتعالون على القانون أو يضعون أنفسهم فوقه" ولكنه بعد ذلك بعامين كتب أكثر أعماله تطرفاً. وكان لويس أنطوان بوجنيفيل قد نشر لتوه (1772) كتابه "رحلة حول العالم" عدد فيه خبراته وتجاربه في هايتي وغيرها من جزر المحيط الهادي الجنوبي ووقع بصر ديدرو على بعض أجزاء من هذا الكتاب تبين تفوق الحياة البدائية في بعض النواحي على المدنية. ورغبة من ديدرو في إبراز نواحي التفوق والسمو هذه، كتب في 1772 بما هو معهود فيه من حيوية وخيال وتميز وشغف، "ملحق لرحلة بوجنيفيل"، وهو كتاب لم ير النور إلا في 1796. وأختار ديدرو رجلاً عجوزاً من أهالي تاهيتي أورد بوجنيفيل ذكره، وتخيل أنه يلقي خطاباً يودع فيه أمير البحر لدى الفرنسيين الراحلين عن الجزيرة: "وأنت يا زعيم عصابة اللصوص المطاع الذين يمثلون لأوامرك، إغرب بسفينتك عن شواطئنا. فنحن أبرياء سعداء، وكل ما نستطيع أن تفعل لنا هو أن تفسد علينا سعادتنا. إننا نهج نهج الفكرة النقية، ولكنك تسعى لمحو أساس هذه الفطرة من نفوسنا. وهنا كل الأشياء ملك لكل الناس، أما أنت فتبشر بتفريق غريب بين ما هو "ملك لك" وما هو "ملك لي" وكل بناتنا وزوجاتنا كانت لنا جميعاً على الشيوخ، ولكنكم شاركتمونا هذه الميزة ودفعتم بهن إلى لوثات من الجنون، ولم يكن لهن بها عهد من قبل.. وتناحرتنم وقتل بعضكم بعضاً من أجلهن، وعدن مضرجات بدمانكم... نحن أحرار، ولكن تأمل كيف أنكم نقشتم

صفحة رقم : 12584

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> علم الأخلاق والسياسة

على أرضنا عنوان عبوديتنا في المستقبل.. إنكم كتبتم على هذا النصل المعدني "هذا البلد بلدنا"... ولكن لماذا فعلتم هذا؟ هل لأنكم حططتم رحالكم هنا؟ وهل إذا رسا احد أبناء تاهيتي ذات يوم على شواطئكم، ونقش على حجر عندكم "هذا البلد تابع لأهل تاهيتي" فماذا عساكم ترون في مثل هذا العمل؟.. إن هذا التاهيتي الذي تريدون أن تمسكو به وكأنه حيوان ليس أحملاً لكم.. وأي حق لكم عليه ليس له حق مثله عليكم؟ إنكم جنتم إلينا، فهل سطونا عليكم؟ وهل أعملنا السلب والنهب في مراكبكم؟.. كلا. لقد أحترمنا ذاتنا في شخصكم... اتركونا لنا عاداتنا واعرافنا، أنها أحكم وأشرف من عاداتكم وأعرافكم. وليست بنا من حاجة أو رغبة في مقايضة ما تسمونه جهلنا بالمعرفة القيمة لديكم" (48).

ويمضي حكيم تاهيتي فيذكر الأوربيين بما قوبلوا به من ترحيب حار، وكيف أسكنوهم وأطعموهم وأحبوهم. ولم يكن في الجزيرة "وصية سادسة" (كما افترض ديدرو) كما لم يكن ثمة حقد ولا حسد. فلم يفهم نساء الجزيرة ما تحدث به قسيس السفينة عن الخطيئة والعار، وأحطن البحارة بكل الكرم والرعاية. وماذا كانت النتيجة؟ إن مرض الزهري الذي لم يعرفه سكان الجزيرة من قبل، ظهر الآن بين نساءها، ثم انتقل إلى رجالها. ويتوسل الرجل العجوز إلى الزائرين أن يرحلوا إلى غير رجعة.

وأضاف ديدرو "وناقشة بين القسيس وأورو" وهو مواطن من تاهيتي كان قد تعلم الأسبانية، صدرت إليه الأوامر بأيواء القسيس في كوخه. ويعرض أورو على القسيس أن يختار لمشاركته فراشه بين زوجته وإحدى بناته، ويوضح القسيس أن قانونه الأخلاقي يحرم عليه قبول مثل هذا العرض الكريم. ولكن إحدى البنات تمسه بيدها فيصبح رجلاً. ويقضي القسيس الأيام الثلاثة التالية يشرح لأورو الأخلاق المسيحية والليالي الثلاث التالية مضاجعاً البنات واحدة تلو الأخرى، أما الليلة الرابعة، وكأنما أرتبط بكلمة الشرف، فإنه يخصمها لزوجته مضيضة (49) وأمدت محاولات القسيس لتحويل أورو إلى المسيحية ديدرو بصحيفة سارة بهيجة.

صفحة رقم : 12585

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> علم الأخلاق والسياسة

القسيس- ما هو الزواج عندكم؟  
أورو- أتفاق على المشاركة في كوخ واحد، والمشاركة في سرير واحد كلما طاب لنا نفعل ذلك.  
القسيس- وإذا رغبتم عن ذلك.  
أورو- نفترق.  
القسيس- وماذا يحدث للأبناء؟  
فيقول أورو إن هذه ليست مشكلة: تعود السيدة بأبنائها إلى بيت أبيها، وسرعان ما يتزوجها رجل آخر يسعد بقبول أبنائها، لأن الأولاد في المجتمع الزراعي كسب اقتصادي عظيم.  
القسيس- هل يستطيع الوالد أن يضاجع أبنته، والوالدة أبنها، والأخ اخته والزوجة رجل آخر؟  
أورو- ولم لا؟  
القسيس- أظن أنه حتى هنا- مهما يكن من أمر، لا يضاجع الأبن أمه غالباً.

أورو - لا اللهم إلا إذا كان احترام هذا الأبن لأمه شديداً(50).  
ويخرج القسيس من هذا وهو يكاد يحدب كل التحبب طرق معيشة أهل تاهيتي، ويقر بأنه "اغرى بخلع ملبسه الكهنوتية في السفينة ليقتضي بقية أيام حياته بين أبناء الطبيعة هؤلاء.  
وينتهي ديدرو إلى مثل ما أنتهى إليه صديقه القديم روسو، الذي كان يناقش في كتابه "بحث في الفنون والعلوم" (1750) و"بحث في منشأ عدم المساواة" (1755) "هل تريدون لمحة موجزة عن كل تعاستنا وشفاننا تقريباً؟ هاكم هذه اللوحة. لقد وجد إنسان صناعي، ونشبت حرب أهلية أستمره طيلة الحياة. وكان الإنسان الطبيعي في بعض الأحيان هو الأقوى، كما حطمه في أحيان أخرى الإنسان

صفحة رقم : 12586

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> علم الأخلاق والسياسة

الصناعي الأخلاق. وفي كلتا الحالتين يعامل العملاق بقسوة ويضيق عليه الخناق ويعذب، ويسام الخسف.. إنه دائماً تعس منكوب" (51).  
وكان ديدرو بطبيعة الحال لا يعرف إلا القليل عن أهل تاهيتي، وكان بوجينفيل قد وصفهم بأنهم متمسكون بالخرافات والمحرمات، يرهبون أرواحاً شريرة خيالية، يستسلمون للكهننة، ناهيك بالعديد من أنواع الحشرات والأمراض. إن ديدرو الذي كان يضيق ذرعاً بالزواج بواحدة، لم يكن في حاجة إلى أن يدرك لماذا وضعت ضرورات النظام الاجتماعي مثل هذه القيود الكثيرة على الغرائز الجنسية غير المشروعة لدى الجنس البشري، وكان نموذجاً آخر للفكر الفردي الذي يتصور نفسه أحكم وأعقل من عادات البشر وأعرافهم .  
وثمة تناقض طريف بين الفلسفة الأخلاقية عند ديدرو والكاتب وديدرو الإنسان من الناحية النظرية، وفي بعض الأحيان أشرفت آرائه الأخلاقية على الفوضوية، ففي تلك الأوقات وصف الطبيعة البشرية بأنها خيرة في أساسها، وبناء على هذا الفرض أقترح "إن نتبع الطبيعة أي الغريزة، وأحس ديدرو أنه عن طريق الغرائز وحدها يمكن للإنسان أن يحرر نفسه من القيود التي يفرضها الدين والمجتمع بآلاف التقاليد والمحظورات والقوانين. وفي هذا المزاج وصف الأتصال الجنسي بأنه "أعلى مراتب السعادة" (52)، وعرف الجب بأنه "أحتكاك شهواني بين غشائين" و"فقدان شهواني لبضع قطرات من السائل" (53) وأكد لخليلته أن الزنى "خطأ يستحق لوماً أو توبيخاً أقل مما تستحق أفته كذبة" (54). وكان ديدرو فيلسوفاً يتوق إلى أن يحيا حياة الديك الذي يختال عجباً بين الدجاجات.  
ولما عركه الدهر وزادت خبرته بالحياة نقض كل آرائه الأخلاقية. ونذ أنحرف عن روسو إلى فولتير، فإنه نظر إلى الإنسان نظرة تزداد كآبة وقتاً ما، على أنه شرير سئ بالطبيعة. أو بسبب تدهور النظام الاجتماعي على حد سواء.  
"وليس ثمة شيء يوضح أن الطبيعة البشرية كريهة بغیضة؛

صفحة رقم : 12587

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> علم الأخلاق والسياسة



مثل السهولة التي يتقبل بها الناس أسوأ الأعمال حين لا يكون (كما هو الحال في حشد منهم).. هناك من هو مسئول شخصياً عن الشر الذي وقع(55) ويقول جاك المؤمن بالقضاء والقدر: "صدقني نحن لا نشفق على أحد إلا على أنفسنا"(56) ويلغى ديدرو الآن مبالغاته القديمة بمبالغاته الجديدة. فربما "لوى الإنسان الطبيعي عنق أبيه ليضاجع أمه، لولا تنمية عقله بفضل التعليم(57) ولما تضاءلت حاجيات ديدرو الجنسية، أتفق مع أبيقور على أن "ملذات أو مباحج النفس" مرضية بشكل أكثر أطراداً من الملذات الجنسية، أو المادية(58) وهو يتساءل "هل هناك متعة أو لذة مادية فحسب في إقتناء امرأة جميلة؟ وهل هناك ألم مادي فحسب في فقدان بسبب الموت أو التحول عنها؟ أليس التمييز بين المادي والمعنوي قائماً وطيداً مثل التمييز بين الحيوان الدقيق الذي لا يرى إلا بالميكروسكوب والذي يحس، وبين الحيوان الذي يفكر ويتأمل ويعقل(59).

وإذ وصل الآن ديدرو إلى مفهوم البيولوجي للفضيلة- صفة تعمل على البقاء، فقد تسنى له في شيء من الغموض أن يدرك أن أسمى الفضائل هي تلك التي تعمل على بقاء المجموعة، حيث أن التنظيم الاجتماعي هو الوسيلة الرئيسية لبقاء الفرد، وفي قصة "أين أخي رامو" تبين ديدرو ماذا يحدث لمن يحاول تحطيم القيود المفروضة على الفرد من أجل الاحتفاظ بالجماعة أو الإبقاء عليها. ومثل هذا الإنسان يصبح كما مهملاً ومنبوذاً بغير عقيدة أو طعام أو زوجة أو أمل. وبذلك يختتم ديدرو عن تاهيتي بشيء من الاعتدال في بطة: "إننا سوف نندد بالقوانين الوحشية حتى يتم إصلاحها ولكننا في نفس الوقت سنخضع لها. إن من يكون من سلطته أن تنتهك حرمة قانون سئ يعطي لكل إنسان غيره الحق في أنتهاك حرمة القانون الصالح إنه أقل إزعاجاً أن تكون مجنوناً بين المجانين من أن تكون عاقلاً بمفردك"(60).

وعندما أكتملت وبرزت مفاتن الأنوثة في أنجليك أبنه ديدرو، بدأ

صفحة رقم : 12588

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> علم الأخلاق والسياسة

يساوره القلق بشأن أخلاقها، وكان يقظاً حريصاً على عذريتها بأعتبارها ذخراً ثميناً وسلعة رائجة. ولما رأى أنه قد تم زواجها في أمان، حذرهما من لزني، قائلاً إن مجرد الأرتياب في خيانتها لزوجها سيقتل الزوج كمداء، وستقتضى عليه بسبب الخزي والفضيحة(61). وفي نقده للفنون عاب على الفنان بوشيه فساده وفسقه، وأمتدح التواضع وغيره من الفضائل المسيحية كما صورها جريز وشاردان. وبشر ديدرو في رواياته بالفضائل القديمة مثل أي برجوازي راسخ الأركان مزدهر الأحوال. وتسلى ديدرو ببعض قطع من المرح الطائش مثل "ملحق رحلة بوجينفيل" وبعض المرح الصاخب وشطحات الخيال على مائدة العشاء عند دي هولباخ. حتى إذا عاد أدراجه إلى بيته أصر على الأستمسك بكل فضائل الطبقة الوسطى، وحاول أن يمارسها إذا أجز له شيء من الزنى على نطاق ضيق فقط. وكانت أفكاره السياسية مهوشة مثل آرائه في الأخلاق، وسلم هو بهذا في صراحته لمحبتته. ولم يتفق مع فولتير في أن الملك المستتير هو أفضل أداة ممكنة للأصلاح. وأتهم فردريك الأكبر بأنه طاغية، وحاول أن يحول كاترين الكبرى إلى الأفكار الديمقراطية. ووافق على الملكية الدستورية ولكنه أقترح جمعية وطنية ينتخبها الملاك لأن لهم سنداً أو مصلحة في حكومة أقتصادية صالحة(62). (وعندما كتب هذا لم يكن من المتصور أن يكون بديلاً ممكناً للأرسقراطية في حكومة فرنسا إلا الطبقة المتوسطة من الملاك) وحلم ديدرو بمجتمع كريم تتحقق فيه للجميع الحرية والمساواة كلتاهما (وهما العدوان الطبيعيان) ولكنه أرتاب في جدوى أية إصلاحات، حتى يرفع أنتشار التعليم من مستوى تفكير الناس وعقولهم .

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> علم الأخلاق والسياسة

وكانت آرائه الاقتصادية متطرفة من الناحية النظرية، معتدلة عند التطبيق، وحتى في سني الشيخوخة تعلق ديدرو بشيوعية فوضوية، مثلاً أعلى له: "إنني مقتنع بأنه لن يتيسر للجنس البشري أية سعادة حقيقية ألا في دولة أشرابية ليس فيها ملك ولا قاضي ولا قسيس ولا قوانين، ولا يكون فيها هذا لك، وهذا لي، وليس فيها حق تملك، وليس فيها رذائل أو فضائل(65) ولكنه اعترف بأن هذه النظرية "مثالية إلى حد شيطاني"(66) وتعجب ابن أخي رامو قائلاً "أي اقتصاد اجتماعي شيطاني عندنا! فهناك أناس يتوافر لديهم كل شيء إلى حد النخمة، على حين هناك آخرون يتضورون جوعاً ولا يجدون ما يبتلعون به"(67) وأدرك ديدرو في ساعات العسرة أن عدم المساواة في التملك سيبقى ببقاء عدم المساواة أو التكافؤ في القدرات، وطرح فكرة الأشرابية لأنها غير عملية، حيث لم يوجد آنذاك إلا بروليتاريا صغيرة غير منظمة لا تكاد تكون واعية، ولكن راوده الأمل في أن يرتفع مستوى هؤلاء العمال ويتحسن وضعهم وشيكاً. ولما أنهى الأمر إلى الإصلاحات العملية، أيد ديدرو الفيزيوقراطيين ووقف إلى جانب الرأسمالية الناشئة. وأعلن أن حق التملك يجب أن يكون مقدساً مطلقاً، وأستنكر أي اعتداء على هذا الحق من جانب الدولة. وأنضم إلى كني وترجو وفولتير في الدعوة إلى تحرير الصناعة والتجارة من أية قيود حكومية(68). وحبذ الإعانات الحكومية للزراعة بوصفها أكثر فروع الاقتصاد حيوية وأهمية، على حين أنها أيضاً أكثر الفروع وقوعاً تحت رحمة سائر الفروع(69). إن ديدرو مثلنا جميعاً أصبح أكثر محافظة (على القديم) كلما تقدمت به السن وزاد دخله.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو والفن

أن هذا العلاج المتجول للاهوت والأخلاق والسياسة والاقتصاد لا يشكل إلا بعض جوانب يسيرة من ديدرو المتعدد الاهتمامات والأنشطة، فهناك غير هذا كثير. ومن كان يظن أن هذا الرجل الفظ الذي يزدحم رأسه بأفكار كثيرة سيصبح بين عشية وضحاها أعظم ناقد فني في عصره؟. وفي 1759 كان صديقه جريم مشغولاً بشيء من الحرب وبمدام دي ابيناى، فطلب إلى ديدرو أن يقوم مقامه في تغطية أنباء معارض بينالي الرسم والنحت في اللوفر من أجل قراء "كورسبونانس-الرسالة" التي كان يصدرها جريم.

وذكر ديدرو أنباء المعارض فيما بين عامي 1759-1771، وعامي 1775-1781 وكان في بعض الأحيان يسهب في ذلك أيما أسهاب لأنه كان في هذه المذكرات يطلق لقلمه العنان ليعرض لكل مظاهر الحياة البشرية تقريباً. ولم يظهر في مجال النقد الفني شيء يمثل هذه القوة والصراحة وفي التصميم. وجاء بعض هذا النقد في صيغة محادثات مع الرسامين أنفسهم في المعرض أو على شكل رسالة شخصية إلى جريم. كما حدث في 1761: هاك يا صديقي الأفكار التي جالت بخاطري عندما شاهدت اللوحات والرسوم الموجودة في معرض هذا العام. ولقد دونتها دون أن أعني كثيراً بفحصها أو التدقيق فيها وإيضاحها.. وكل ما كان يدور بخلدني هو أن أوفر لك شيئاً من الوقت تستغله أستغللاً أفضل (70).

وأقبل على مهمته الجديدة في أبتهاج متحمس، وشكر لجريم إرغامه أياه على أن ينظر إلى الفن المعروف لا نظرة الجمهور العابرة، أي نظرة سطحية زائفة، بل العزم الأكيد على دراسة كل رسم وكل تمثال، حتى شعر بحق بالبراعة الفنية في العمل المعروف وقيمته وأهميته. ولم يكن ديدرو معداً من الناحية الفنية ولكنه تحدث إلى الفنانين أنفسهم - شاردان لاتور، كوشان، فلكونيه... ودلارس طريقتهم في التأليف والعمل،

صفحة رقم : 12591

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو والفن

وشغل الفرشاة والتلوين: "فتحت قلبي للأثار التي ينتجها جهد الفنان، وأدركت سحر الضؤ والظل وعرفت اللون، وأكتسبت شعور الجسد (71).

وأصبح ديدرو آخر الأمر ناقداً للأسلوب الفني ولكنه أنكر أية معرفة تقنية أو فنية، فإنه عرض أن يقول ماذا يعني عنده كل عمل فني، فعمد بادئ ذي بدء إلى شرح الموضوع أو القصة في شيء من التفصيل، حيث أن بعض قراء جريم لم يكن يتيسر لهم قط رؤية القطع الفنية التي هي موضوع البحث، كما أن نفرأ منهم أشتروا اللوحات على أية حال، بناء على تقرير ديدرو لها. إنه غالباً ما تخيل ثم يعيد كتابة المسرحية الحية التي لم يمثل منها الفنان إلا اللحظة المعبرة المركزة. وحول في بعض الأحيان الفن إلى أدب، ثم تباهي آخر الأمر بقوله: "إن شاردان ولاجرينييه، وجريز وغيرهم... أكدوا لي أنني الأديب الوحيد الذي يمكن لصوره أن تمر على قطعة القماش المعدة للرسم مثلما تعاقبت في رأسك الواحدة بعد الأخرى تقريباً (72).

إن ديدرو أوضح ما يحب وما يكره أو ما يؤثره وما لا يعجبه بصراحة لا خجل فيها. إنه بعد أن أستنكر كل شيء تقريباً في المدنية الفرنسية المعاصرة عاد فدافع عن الرسامين الفرنسيين في حماسة مشربة بحب الوطن. ورمى هوجارت بالكذب والجهالة لأنه قال إن فرنسا ليس فيها رسامون برعوا في استخدام الألوان، ورد على ذلك بقوله "ربما كان شاردان من أبرع من أستخدموا الألوان في كل عصور فن الرسم" (73) وكان قاسياً مع ناتيبه وعاب على بوشيه لوحاته العارية ولكنه أستمتع بها. وبعد أن نقد العيوب في إحدى هذه اللوحات قال "كله يستوي عندي فأحصل عليها كما هي، ولا أظن أنني سأضيع الوقت في الشكوى من أن شعرها فاحم إلى حد بالغ. وأغضبته لوحة تمثل يوسف برفض عروض زوجة بوتيفار "لا يمكن أن أتخيل ماذا كان يريد، وما كنت أنا أتطلب شيئاً خيراً من هذا،

صفحة رقم : 12592

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ديدرو والفن

وغالبا ما أرتضيت أقل منه(74) وأبدي عطفاً نحو الفنانين الذين يرسمون الصور العارية، وبصفة خاصة نحو المثاليين الذين يصونها. وفوق كل هذا "ماذا تفعل في التماثيل بالأزرار والنفثات(75) وأحب صور جريز التي تمثل براءة الفتيات وشارك جريز نزعتة العاطفية وبصفة خاصة قدر لوحاته التي رسمها لزوجته التي كانت عشيقه ديدرو أيام شبابه. وأستساغ المناظر الطبيعية الموحشة في الفن الهولندي والفلمنكي، ووجد شعراً أكثر في شجرة بمفردها تعاني من كر السنين وتعاقب الفصول، منه في واجهة قصر منيف فلا بد أن يكون القصر أطلالاً حتى تثير الأهتمام وتكون اللوحة مشوقة(76) وأستهجن التوكيد القديم الكلاسيكي-التقليدي على العقلانية والنظام والتناسق، وأمتدح الخيال الخلاق وأثره على التفكير التحليلي. ودعا إلى "تأليف مرعبة أو حسية... تنقل الحب أو الرعب إلى أعماق القلب وتذيب الحواس وتظهر النفس، فثمة شيء في هذا الذي لا يمكن أن تحققه أية قواعد(77). وأحتقر فكرة "الفن للفن" فكان يرى أن للفن مهمة أخلاقية هي "تمجيد الفضيلة والتنديد بالرديلة"(78). وكان ديدرو واثقاً من ملاحظاته على معرض 1765 إلى حد أنه أضاف إليها مقالاً عن الرسم "ووجد مثل أفلاطون وأرسطو، إن جوهر الجمال يكمن في علاقته التناسق بين الأجزاء في كل واحد، ولكنه أرتأي أن يضاف إليها أيضاً تناسق بين الشيء وبينته والغرض المقصود منه. ومن الوجهة المثالية عرف الجمال بأنه تكيف كامل مع الوظيفة فالإنسان الذكي الصحيح الجسم لا بد أن يبدو جميلاً، وينبغي على الفن أن يختار في منظر ما، المعالم والقسمات التي تحدد مغزاه، كما ينبغي أن يستبعد العناصر التي لا علاقة لها، وليس ثمة ما يدعو إلى أن يكون الفن تقليداً صاعراً حقيراً للهدف والواقع ومع ذلك يجدر بالفنان أن يدرس الشيء الطبيعي لا النماذج القديمة أو القواعد الشكلية فان تنبير Teniers واحد خير من إثني عشر واتو Watteau خياليين. وأحس ديدرو بشيء من التنافر بين الفن والعقل، وتين له أن

صفحة رقم : 12593

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ديدرو والفن

قواعد بوالو التقليدية الكلاسيكية قد عوقت الشعر الفرنسي أو أصابته بالشلل. وهنا خالف فولتير لينضم إلى روسو في أن الفن يجب أن يكون فوق كل شيء صوت الوجدان ونتاجه. لذلك رفع من شأن اللون على حين أن رينولدز في نفس العقد من السنن كان يطري التصميم. وسلم ديدرو بأن التصميم يعطي الكائنات شكلاً ولكن اللون يعطيها حياة(79). ووجد جوته في هذا المقاتل أشياء كثيرة بدا له أنها خطأ، ولكنه ترجم نبذاً منها ووصفها لشيلر "بأنها عمل رائع، أنها تتحدث بشكل أنفع حتى للشاعر منه للرسام، ولو أنها للرسام كذلك مشعل قوي الضوء يهديه على الطريق"(80).

صفحة رقم : 12594

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو والمسرح

7- ديدرو والمسرح

كتب ديدرو يقول "ترددت عندما كنت شاباً، بين السوربون (الكهوت) والمسرح(81). وفي 1774 كنت قد قضيت نحو ثلاثين عاماً أكتب الموسوعة على غير هوى مني، وكتبت روايتين اثنتين" (83) وأولى إهتمامه اكبر لرواياته منه لقصصه. ولما كان معظم قصصه لم ينشر إلا بعد وفاته فقد كان لرواياته أثر أكبر على شهرته وعلى حياته، كما أنها شكلت ما يقرب من الثورة في تاريخ المسرح الفرنسي. وكان ديدرو قد قرأ في شغف زائد قصص ريتشاردسن. وفي 1761 كتب مقالة "في مدح ريتشاردسن سما فيها إلى التغني بالثناء على الرجل الإنجليزي، لأنه ينفخ في القارئ من روحه وبغرس الفضائل، كما أنه أوتي الشجاعة ليصور حياة الطبقة الوسطى الجديرة بفن جاد وفوق هذا كان ديدرو قد تأثر برواية جورج ليلو "تاجر لندن" (1731) التي كانت قد أبرزت بنجاح عواطف طبقة رجال الأعمال وبلاياهم على المسرح الإنجليزي. وقال أن الرواية "من مستوى رفيع" حتى لو فورنت بسوفوكليس. لماذا لا تكون القلوب الكسيرة جديرة بمسرحية "مأساوية على الرغم من أنها ليست من ذوات الحسب والنسب؟ وعندما لجأ ديدرو إلى تأليف الروايات في الأسلوب الجاد نراه قد أزعج ورع التقاليد الفرنسية باستخدامه لرواياته

صفحة رقم : 12595

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو والمسرح

شخصاً من الطبقة الوسطى وبالكتابة نثراً. وهكذا أرسل إلى المسرح والمطبعة في 1757 "الأبن الطبيعي أو المحرومون من الفضيلة ولم تلق نجاحاً على خشبة المسرح، ومثلت مرتين في الأقاليم (1757) ولم تمثل إلا 1771 في باريس، وواضح أنها مثلت مرة واحدة آنذاك ولكنها كانت حدثاً هاماً وحققت نجاحاً ورواجاً وهي مطبوعة في كتاب. والقصة ممتعة إلى حد كبير فإن دورفال الأبن غير الشرعي المتمسك بالفضيلة الذي يعيش في بجبوحة، يجد فسه قد وقع في غرام روزالي المخطوبة لمضيفة كليرفيل، ويحس دورفال أن الفتاة تبادلته حبه فيعترزم أن ينأى بنفسه حتى لا يحطم زواج صديقه. وعندما كان على وشك مغادرة المكان رأى رجالاً مسلحين يهاجمون كليرفيل، فأشبتك في قتال معهم وأنقذ حياة صديقه وعندما علم بأن والد روزالي التاجر فقد كل ثروته ولم يعد يستطيع أن يقدم لها صداقاً فإنه يعوض الخسارة خفية ومن ثم أصبح التاجر المفلس والد دورفال ووالد روزالي معاً، وتوطن النفس على أن تكون أختاله وتتزوج من كليرفيل، ويتزوج دورفال من أخت صديقه كنستانس وتختتم الرواية وقد غمرت الجميع دموع الفرح. وهذا كان أسهم ديدرو فيما كان النقاد قد أسموه بالفعل "مسرحية الدموع". أن الذي هيا للرواية مكاناً في التاريخ الفرنسي سلسلة من الحوادث نشرت معها، سميت فيما بعد "مناقشات حول الأبن الطبيعي" وجرت تقاليد المسرح الفرنسي على أن المسرحية الجادة (تميزاً لها عن الهزلية) يجب أن تقتصر على أشخاص النبلاء ويجب أن تكتب شعراً. وأوضح ديدرو آنذاك فكرته في أن المسرحية الجادة ينبغي ألا تخشى استخدام

شخص وأعمال رمهن برجوازية ومشاهد من حياة الأسرة وللبيت في شكل واقعي، مع كتابة الرواية نثرًا. ورأى دييرو أن يبين أن عبارة "سيد مهذب من الطبقة الوسطى" ليست التناقض الساخر الذي كان قد أرتاه موليير "ولكنه تطور المجتمع الجديد الذي تصاعدت فيه ثروة البرجوازية ومكانتها وسلطتها، واحتج بأنه

صفحة رقم : 12596

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> دييرو بروتيه -> دييرو والمسرح

يجدر بالكاتب المسرحي إلا يعرض كثيراً من الدراسة للشخصية بل كثيراً من ظروف الحياة الواقعية في الأسرة، في الجيش، في السياسة، في المهن، بل حتى في الصناعة. وحيث كانت الطبقات الوسطى منبع الفضيلة في فرنسا فقد أصر دييرو على أن يكون من وظائف المسرحية الجديدة أن تغرس في الناس حب الفضيلة ومقت الرذيلة "مدمغ الفن المقصود به مجرد الترفيه بأنه ترف الطبقة الخاملة" فلا بد أن يكون لكل فن وظيفة وفائدة اجتماعية. وأي هدف أن يسعى المسرح إلى تحقيقه أفضل من أن يكسو الفضيلة فتنة وسحراً وجلالاً!  
أن الرواية وما صاحبها من بيانات وتصريحات فرقت أهل الفكر في باريس إلى معسكرات متنازعة، وتناول باليسو وغيره من أعداء الفلاسفة آراء دييرو بالتسفيه والتسخيف. أما فريرون فإنه لم ينقد الرواية بأنها تعليمية جافة كنيبة متبلة ببعض المشاعر والفضائل الزائفة فحسب، بل أنه كذلك أوضح في إعداد متواليته من "السنة الأدبية" التي كان يصدرها تشابهاً مريباً بين النصف الأول من "الأبن الطبيعي" وبين كوميديا "التصديق الحق" التي كان جولدوني قد مثلها في البندقية 1750. وأعترف دييرو بقوله: لقد إستحوذت عليها وكأنها خاص بي ولم يكن جولدوني أكثر تدقيقاً فإنه إستحوذ على رواية مولير "البخيل". وما كان يدور بخلد أحد أن هذا غير لائق. ولم يحلم أحد منا بأتهم موليير أو كورني بالسطو والانتحال لأنه أقتبس ضمناً فكرة إحدى الروايات من مؤلف إيطالي أو مسرح أسباني(83).  
وهذا يصدق بطبيعة الحال على رواية كورني "السيد Lecid" ورواية موليير "مأدبة الصخرة" Le Feslin de Pierre (دون جوان).

وبنتشجيع من الأصدقاء وتحدياً للأعداء، ووسط أشد ما يلاقي من عناء في الموسوعة، ألف دييرو ونشر (1758) رواية أخرى أسمها "رب الأسرة" وأضاف موضوعاً أثار الغضب: بحث في الشعر المسرحي، وهو عنوان يذكرنا بالعنوان الذي إستخدمه دريدن لبحث مماثل منذ تسعين

صفحة رقم : 12597

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> دييرو بروتيه -> دييرو والمسرح

عاماً. وأخرجت الرواية في تولوز ومرسيليا في 1760، وعلى "المسرح الفرنسي" في باريس في فبراير 1761، حيث مثلت سبع ليل مما أعتبر نجاحاً متواضعاً. ووافق فولتير على تأجيل عرض مسرحيته Tanerede من أجل

رواية ديبدو هذه، وكتب إلى منافسة الجديد "أيها الأخ العزيز ديبدو، تخلّيت لك عن مكاني عن طيب خاطر وبودي أن أتوجك بأكليل الغار" فرد عليه ديبدو "شكراً لك يا أستاذي العزيز وأني لأعلم كم كنت ترغب في أن يلاقي تلميذك نجاحاً. وقد تأثرت لهذا كثيراً، لك حبي واحترامي إلى آخر لحظة في حياتي" (84) وأعيد تمثيل الرواية من جديد بنجاح في 1769 على المسرح الفرنسي وأصبحت عنصراً هزلياً في إنتصار الفلاسفة.

وموضوع الرواية يتصل إلى حد ما بالسيرة الذاتية، فالوالد تنكير جميل بديديه ديبدو، اللهم إلا في أنه يعظ أكثر كثيراً مما قيل لنا عن الرجل الطبيب ديديه: أما الابن سانت ألبان (وهو صورة قريبة جداً من دنيس ديبدو) فإنه يسعى في الحصول على موافقة أبويه على زواجه من صوفيا، وهي إحدى بنات الطبقة العاملة، ويوافق الولد على أن يراها ويحبها، ولكنه يرفض أن يتزوج ابنه بمثل هذه البنت الفقيرة. وبعد خمسة فصول وبحض الصدفة التي خدمت ألف مسرحية يتبين أن الشابة ابنة أسرة كريمة وبرق قلب الوالد ويجري كل شيء على ما يرام ويمكن أن يغتفر لفريرون قوله أن الرواية مثيرة ميكانيكية سخيفة. وأثار أحد النقاد إلى أن التغني بالفضيلة كان مقصوداً به جريم كان يشارك روسو إحدى البغايا، وكان الآن عشيق مدام ألبينا، وأن ديبدو أطلق على بطلة روايته اسم هذه العشيق صوفي فوللان Volland أما فولتير فإنه على حين إمتح المؤلف على ما في الرواية من "أشياء رقيقة فاضلة" كتب إلى مدام ديفان ستساءل "هل قرأ لك أحد رواية رب الأسرة؟ أليست مضحكة تدعو إلى السخرية؟ أن قرننا، فيما يختص بالعقيدة والإيمان فقيرة إذا قورن بقرن لويس الرابع عشر" (85).

صفحة رقم : 12598

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديبدو بروتيه -> ديبدو والمسرح

ومهما يكن من أمر فإن ديبدو أحس بأن مسرحية القرن السابع عشر في فرنسا كانت على شكل غير طبيعي تماماً في أسلوبها الخطابي الحماسي الطنان الرنان، وفي وحداتها المحكمة المتمتمة في العمل والمكان والزمان، وفي تقليدها الكئيب للروايات الكلاسيكية القديمة لا الواقع الحي، وكانت رواياته وهي عاطفية حسية دون موازنة أو خجل بشائر رد الفعل الرومانتيكي ضد المذهب العقلي والكبت العاطفي في العصر الكلاسيكي، وكان تأثير ديبدو محسوساً أيضاً في الواقعية المتزايدة في إعداد المسرح تبعاً لمختلف الفصول، وفي دقة ملابس الممثلين بالنسبة لعصور التاريخ وفي الحفاظ على الخصائص القومية في النطق. وأشترك ديبدو مع فولتير في الحملة التي شنّها لأخلاء خشبة المسرح من النظارة. وقال جوستاف لانسون إن كل تحسين طرأ على فن الإخراج في المائة والخمسين عاماً الماضية بع من ديبدو" (87) اللهم إلا أن الناظر الآن تميل إلى أن تكون تخيلية أكثر منها واقعية. وكذلك تجاوبت ألمانيا مع ديبدو الذي أطلق عليه سانت بيف أقرب الفرنسيين إلى الألمان. وترجم لسنج رب الأسرة والمقالات المسرحية، وصرح بأنه ليس ثمة ذهن أكثر ميلاً إلى الفلسفة وتأثراً بها إنشغل بالمسرح منذ عهد أرسطو إلا ديبدو (88).

الكوميدي كذلك كان لديبدو رأيه في فن التمثيل المسرحي، وفي مقال طابعه التحدي تحت عنوان "تتاقض حول الممثل الكوميدي" 1778 أعترض على القول بأنه من أجل تحريك شعور جمهور المتفرجين والتأثر فيهم يجب على الممثل ألا يستسلم للعاطفة التي يعبر عنها يجب أن يكون هادئاً رابط الجأش، وهذا بالطبع تسفيه لرأي خوراس الذي نصح الشعراء بقوله "إذا أردتموني أن أبكي فلتجهشوا أولاً بالبكاء". ويرد عليه ديبدو: "يجدر بالممثل أن يضم بين جنبيه مشاهداً أو متفرجاً لا يتأثر وغير متحيز. ويجب أن يكون لديه حسن الإدراك والتمييز، لا الحساسية... وإذا كان الممثل مليئاً حقاً بالشعور والوجدان فكيف يمثل نفس الدور مرتين بنفس الروح ونفس النجاح؟ وإذا كان ممثلاً حماسية ونشاطاً في العرض

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; ديدرو بروتيه -&gt; ديدرو والمسرح

الأول، فلا بد أن يهن ما أشد من قوته أو يصبح جامداً كالصخر في العرض الثالث، أملاً المسرح بأناس يذرفون الدموع، ولكني لا أسمح لأحد منهم بأن يكون على خشبته (ممثلاً) (89). وتلك نصيحة قلما إتبعها ممثلو مسرحيات ديدرو. وكان ثمة تناقض في ديدرو نفسه، ذلك أنه في 1757 كتب يقول إن الشعراء والممثلين يحسون بقوة ولكنهم لا يعكسون إلا القليل من أحاسيسهم (90) ولكنه الآن يناقض نفسه، وربما كان هذا راجعاً إلى أنه شاهد في باريس فيما بين عامي 1763/1770 دافيد جوك Gorrick يثير إنفعالات وأحسيس متباينة في تعاقب سريع، متى أراد. أو أنه كان قد وجد المفارقة في هملت وهو يأمر الممثلين السنيور: "وسط السيل والعاصفة (كما يمكن أن أقول) ودوامة النفعال تذرعووا بشيء من الأعتدال الذي يضيف عليها شيئاً من الهدوء والرفق" (91) ورفض سير هنري أرفنج تحليل ديدرو ولكن ناقداً حديثاً يعتقد أنه "ظل حتى اليوم أهم محاولة لمعالجة مشكلة التمثيل" (92). ويمكن أن يكون الممثلون عاطفين في الحياة ولا يجوز أن يكونوا كذلك على خشبة المسرح. (وربما يؤدي ضبط النفس على المسرح إلى الأنطلاق والتحرر في الحياة، ومن ثم يجب أن يغتفر لهم خطايا كثيرة). وينبغي عليهم أن يدرسوا الأحساس المعين في أسبابه وعلله، ويعبروا عنه بأيماءاتهم وأشاراتهم وكلامهم. ولكن يجب "أن يتذكروا في هدوء وسكون" (93). وتوصل ديدرو إلى إيضاح الفرق في رسالة إلى الأنسة جودان: "أن الممثل الذي لا يتحلى إلا بحسن التقدير والتميز فاتر بارد، أما هذا الذي يتميز بالحيوية والحساسية فهو مجنون" (94). إننا إذا ألقينا بنظرة إلى الوراء في العرض غير المرتب الذي أوردناه لذهن ديدرو المشوش نغفر له إضطرابه وسط هذا العدد الوفير من الأفكار والآراء ومجالات إهتمامه. ولم يكن شيء من الإنسانيات غريباً عليه أو بعيداً عنه، اللهم إلا الدين، بل إنه حتى بالنسبة لهذا، فإن ديدرو لم يخل من الشعور الديني. وكان من خصائص ديدرو أن يبدأ بالرياضيات والفيزياء

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; ديدرو بروتيه -&gt; ديدرو والمسرح

وينتهي بالمسرحية والموسيقى. ولم يكن في مقدوره أن يكون من جهابذة العلوم، لأنه لم يكن يطيق صبراً على البحث والتجربة، ومن ثم قفز مبتهجاً إلى التعليمات. على أنها كانت كثيراً ما تنير العقل. وعرف من الموسيقى الشيء الكثير حتى أنه كتب عن طريقة إستعمال المفاتيح، ورسالة عن علم الإيقاع، وألف أعظم الروايات أثراً وأحسن القصص في عصره، ويتفرق في قصة القصيرة على كل معاصريه فيما عدا فولتير. ولكنه برز فولتير نفسه في أنه أضفى على القصة القصيرة من تركيز الفكر والعمل ما حدد لها شكلها حتى يومنا هذا. وحيث أضمن ديدرو على الحديث والنقاش وتدريب على إرتياد المنتديات (الصالونات) فإنه طور الحوار إلى درجة من الأشرار والحيوية، نادراً ما سمع بها قبله أو بعده. وكتب في الفلسفة، ولكنه لم يكتب لغة غامضة للأبراج العاجية، وإنما كتب مناقشة حية في موضوعات حية بين أناس إندفعوا إلى معترك الحياة أة إلى خضم العالم راضين طائعين.



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو

8- ديدرو

وراء هذا الذهن المتغير الأشكال والألوان، كان ثمة إنسان تجمل بفضائل كثيرة، كما أنه يبرأ من كل الأخطاء تقريباً، مما لعب كل منها دوره على مسرح حياته، وعند ما رسم فانلو لوحة لديدرو، أحتج هذا على أن الوجه في الصورة لم يظهر من صاحبه إلا جزءاً سريع الزوال، فلم يبرز إلا مجرد تعبير واحد عن حالة نفسية واحدة أو مزاج واحد وقال: إن لي مائة من التعبيرات المتباينة في كل يوم، تبعاً لحالتي النفسية أو مزاجي في كل لحظة: كنت هادئاً حزيناً حالماً رقيقاً عنيفاً منفعلاً متلهفاً. أن العلامات الخارجية الظاهرة لحالات ذهني الكثيرة المتباينة كانت تلاحق بعضها بعضاً بسرعة على وجهي إلى حد أن عين المصور وقعت على شخص مختلف من لحظة إلى أخرى ولم تقع على الشخص الحقيقي قط" (95).

ومهما يكن من أمر فإن هذه الوجوه الكثيرة اندمجت شيئاً فشيئاً في قالب مركب، وتركت له التقاطيع والقسمات المعقدة التي نراها في اللوحة التي رسمها له جريز Greuze مثل قيصر أضناه الألتحام العنيف مع جيش من الأفكار والأعداء، كما أرهفته محاولاته التعبير بأدق عبارة وأجلى بيان عن قبوله أو رفضه أي عن قوله نعم أو لا. وكان له حاجبان عاليان يطلان على رأس نصف أصلع وأذنان كبيرتان وأنف كبير منحن، ولسان ناطق وذقن متجدد، وعينان سمروان، ثقيلتان حزينتان، وكأنما تستذكران من الأخطاء ما لا يجوز تذكره، أو تتأكد من عدم قابلية الخرافة للتخريب، أو تلاحظان ارتفاع معدل السذاجة، وكان أمام الناس عادة يضع شعراً مستعاراً، وقد يخلعه إذا نسي نفسه في نشوة الحديث، وقد يلعب به أو يضعه على حجرة، وكان مستغرقاً في الحياة، ولم يكن لديه فسحة من الوقت للتظاهر.

ولم يدع لأبي إنسان في تقدير أخلاقه. وسلم "بأنني قد يغلبني التأثير لحظة ولا ألبث إلا قليلاً حتى أعود سيرتي الأولى، الإنسان الصريح الوديع

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو

امنصف المتسامح الأمين المحسن الذي يأسر الناس بحسن صنيعه. أستم من فضلك في قصيدة المديح لأنها لم تكمل بعد. إنني لم أذكر شيئاً بعد عن ذكائي". وساوره الشك في أن يوجد على ظهر البسيطة إنسان أكثر منه أمانة. وكان واثقاً من أنه حتى "أعمدة الكنيسة" تستطيع أن تعتمد على كلمته. وكتب إلى خليليته: "أية نفوس جميلة نفسك ونفسه" وهنا أدخل جريم في هذا الثالوث. وغمرته نشوة الفرح والأبتهاج وهو يتحدث عن مؤلفاته ورواياته واثقاً من خلودها. وأعتقد أن أخلاقه قويمه. والحق أنه أحتفظ بسيدة واحدة في وقت واحد. وتحدث عن نفسه على "أنه" الفيلسوف. "وسلم بوجود شبه بينه وبين سقراط وتساءل: "ماذا يهمني إذا كنت أدين بمناقبي ومآثري للطبيعة أو للخبرة ما دامت ثابتة وطيدة ولن يفسدها الغرور" (96)؟

والواقع أن ديدرو تحلى بعظم الفضائل التي نسبها لنفسه، لقد كان أميناً بمعنى صريح، ولو أنه أقرتف كثيراً من الكذب في شبابه. ولم يكن يتكلف أو يتظاهر، وكان وديعاً ربيعاً، اللهم إلا في الحديث، حيث كثيراً ما كان متهوراً، وفي بعض الأحيان خشناً جافاً إلى حد كانت تضطر معه مدام جيوفرين إلى تنبيهه إلى التزام النظام واللياقة. إنه يقيناً كان شجاعاً لأنه أستم رياضاً حين تخلى عنه الكثير من أصدقائه، بل حتى نصحه فولتير بأن يكف. وكان منصفاً اللهم إلا مع التقوى ومع روسو، وقد ندرت فيما بعد أنه لم يكن يستسيغ كثيراً حساسية جان جاك روسو. وكان كريماً بلا منازع مستعداً لمعونة من يلجأون إليه، أكثر ثناء وأطراء للناس منه لنفسه. وقضى أياماً كثيرة في القيام بأعمال جريم في صحيفة كورسبندانس، "وصياغة محاولات أصدقائه الأدبية في الشكل الملائم. وساعد نفراً كبيراً من الفقراء بمنح قدمها إليهم من دخله المتواضع. وإذا عرض عليه أحد الصحفيين المحتاجين قطعة هجاء في ديدرو نفسه طالباً إليه أن يراجعها معللاً ذلك بأنه إنما يسعى وراء القوت أجابه ديدرو إلى طلبه وراجعها ونقحها. بل اقترح

صفحة رقم : 12603

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ديدرو

عليه إهداءها إلى دوق أورليان الحالي الذي يوليني شرف كراهيته لي" وهذا ما حدث فعلاً وأرسل الدوق للصحفي الناشيء خمسة وعشرين جنيهاً (97). وكان متساهلاً في نقده للكتب واللوحات والرسوم (فيما خلا رسوم بوشيه) قائلاً أنه يؤثر الإشارة إلى الأعمال الجيدة على السخرية من الأعمال الرديئة" (98) وكان أكثر الفلاسفة أنساً ووداً. وأيد روسو حتى 1758، وجريم حتى النهاية تقديراً من ديدرو لخلقها هو نفسه. وقالت مدام أينياني أنهم تحدثوا عنه "بأعظم الأجلال والأحترام" وأعجبوا بعبقريته، ولكن خلقه كان مثار حماسة خاصة بينهم. ويقول جريم إنه أكمل من عرف من البشر (99). وكانت أخطاؤه في نظر مثل الأصدقاء أخطاء طفل صريح إلى حد السذاجة. وأعتبروا أنه أعمق من فولتير.

ومن المحقق أنه كان أكثر ثراء في الأفكار من فولتير، لأنه لم يكن ثمة قيود ولا ضوابط في بنيانه، وكان أكثر خيالاً وأقل عقلانية. وكان أكثر تهوراً وطيشاً، ولم يكن ناضجاً قط. يقول فولتير "أن ديدرو أتون شديد الحرارة إلى درجة يحترق معها كل ما يخبز فيه" (100). ومع ذلك خرجت منه أشياء كثيرة لم يكتمل نضجها ولا خبزها، وكان شديد الحساسية مثل روسو رقيق العاطفة مثله، كما كان مثله مستعداً لبيكي على جمال الطبيعة ومآسي الحياة وأعلن رأيه في الدين وربما عبر هذا الرأي عن نفسه: أن في ذرف الدموع بالنسبة للنفس الحساسة الرقيقة لذة وبهجة (101). ورأه زواره أحياناً بذرف الدمع-أو في سورة غضب- على كتاب، وبما كانت صداقته مع روسو قائمة على التماثيل في المشاعر ونفس قوة الوجدان، ونفس حب الطبيعة ونفس المفهم الرومانتيكي للعبقرية على أنها غريزة وأنفعال وخيال، ونفس التحمس لقصص رتشاردسن. وتلهف على تحذير كلاريا من Loelace وعندما قرأ عن الملوك القساء كان من اليسير عليه أن يتخيل أنه يستخدم خنجراً في سهولة عجيبة (102) أن فولتير + روسو = ديدرو. ولم يغفر أي من هذين الرجلين له أنه جمع بينهما كليهما، على حين بقي هو فريداً مع نفسه.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> ديدرو

وعبرت عاداته عن تناقص صفاته، فإنه أحب الطعام إلى حد الشره والأصابة بالحصى. ولكنه كان يقظاً لكل النتاج الثقافي في زمانه. وكره الترحال ولم يحبذ (103) ولكنه عبر قارة أوروبا ليقيم إلى كاترين الثانية قيصرية روسيا شكره وتقديره، وأنهمرت دموعه لشعر الجميل، وأنغمس في البذاءة الفاحشة، وأحتقر المال وتحدث عن الفقر صديقاً ملهماً للفلاسفة، ولكن عندما مات ولده قصد إلى لانجرز (1759)، وسر بحصوله على ثلث البركة. ومن ثم دخله في 1760 نحو أربعة آلاف سنوياً. فقال عند ذلك "أنا في حاجة إلى مسكن مريح، إلى فراش وثير وإلى سيدة معطرة، ومن ثم أستطيع بسهولة أن أصبر على بلايا دولتنا المتمدنة. أو هنا كبح جماح فولتير في ديدرو، وجماح روسو فيه وسخر منه.

وشغلت زوجته بالأمومة المثبطة للمهمة وبأعمال البيت غير العطرة إلى حد لم يستطع معه أن تلقى أدناً صاغية إلى أفكار زوجها وأرائه المتكاثرة. وجار مثل ملتون بطلب الطلاق على أساس عدم التكافؤ العقلي، ولما لم يجيزوا له الطلاق لجأ إلى ما لا يزال الفرنسيون يلجأون إليه ألا وهو إتخاذ خليله - وصفوة القول كانت هناك الأنسة بابوتي Babuti التي أصبحت فيما بعد جريز Greuze ثم مدام بوسيهه Puisieux التي لازمته عشر سنين. وفي 1755 وجد ضالته المنشودة في سيدة شابة وفرت له لمدة عشر عاماً الحب والأخلاص وحسن التقاهم. وتلك هي لويز هنريت فوللان Volland، وعاد فأطلق عليها أسم صوفي Sophie (لأنها بدت في عينيه روح الحكمة) وكانت عندما التقيا لأول مرة في الثامنة والثلاثين من عمرها غير متزوجة ريانة ممثلة الجسم قصيرة البصر، ووصفها بأنها تضع منظاراً على وجه "جاف" تقريباً. وكثيراً ما عنفها بين الحين والحين لأنها كانت تتافسه في حب القراء، لكنها جمعت الكتب بدلاً من العشاق. وقرأت كثيراً حتى في السياسة والفلسفة، ووجد ديدرو أن ساقها غليظتان أكثر مما ينبغي، ولكنه كان

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> ديدرو

شاكراً لها حسن أصغائها إليه، مولعاً بعقلها وقلبها. وكتب يوماً إلى جريم يقول "آه يا عزيزتي جريم، أية سيدة هذه! كم هي لطيفة جميلة أمينة رقيقة حساسة. ولسنا نعرف أكثر مما تأتي به هي من عادات وأخلاقيات ومشاعر فيما لا يحصى من الأشياء العامة. أن لها حكمها على الأشياء، ووجهات نظرها وأراؤها وأفكارها وطريقة تفكيرها الخاصة بها، كل أولئك قائم على العقل والحق وحسن الإدراك. ولا ينتهيها عن شيء من ذلك الرأي العام أو السلطات أو أي شيء آخر" (104) ولا يمكن أن يكون كل هذا هيماً وغراماً، أما جوهر الموضوع فإن دكتور ترونشبين رأى فيها روح نسر تسكن بيتاً من السحاب (105) أي أنها أحببت الثياب الفاخرة والتحليق في سماء الفكر والعقل.

وكتب إليها ديدرو طيلة عشرين عاماً أرق رسائله التي سنظل من ذخائر القرن الثامن عشر الأدبية. وقد أستطاع أن يكتب إليها في كل شيء بصراحة ويرسل إليها قصصه الداعرة وآخر تأملاته وأفكاره. فكتب لها كما لو كان يحدث إليها "إذا كنت بجوارك وذراعي يطوق ظهر مقعدك" (106). وفي علاقته بها تحقق مما لم يتحقق من مثله قط من قبل: تحقق من الدور الذي يمكن أن يلعبه الوجدان والعاطفة في الحياة. وكاد أن يكون من العسير عليه إلا أن يؤمن بالجبرية (القضاء والقدر) وبدا بعيداً عن التصديق أن تبادلها المزدوج للأخلاص والحب والأفكار نتيجة فيزيوكيميائية لسديم بدائي. وأستطاع وهو في مثل هذه الحالة النفسية أحياناً أن يتحدث حتى عن الله. وإنه ليروي لصوفيا كيف أنه بينما كان يسير في الريف يوماً مع جريم التقط سنبله من القمح وأستغرق في التفكير في سر فسأله جريم "ماذا تفعل؟! فأجاب "استمع" "ولكن من الذي يكلمك؟" فرد عليه "الله" (107).

وبعد اثني عشرة سنة من أتصاله بصوفيا فوللان فترحبه لها. وأصبحت رسائله إليها موجزة، كما أصبح توكيد الإخلاص أكثر تكلفاً. وفي 1769 وهو في السابعة والخمسين، خلف صديقه المتوفي داميلاً عشيقاً لمدام دي مو، وكانت في الرابعة والخمسين، وبعد عام واحد أزاح ديدرو عن مكانه عاشق شاب، على أن دنيس (أي ديدرو) ظل في الوقت نفسه يؤكد لصوفيا حبه الأبدي.

صفحة رقم : 12606

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتييه -> ديدرو

وفي كل شطحات قلبه وذهنه أحتملت زوجته أنطوانيت بكل الصدق والإخلاص، ولم تكف عن لومه وتوبيخه. وألتمست السلوى والعزاء في الدين ولعب الورق ولم ينقطع الشجار بينهما يوماً تقريباً، ولم يضيق الزمن الهوة بين الرجل الذي تدور برأسه ألف فكرة والمرأة التي تعبد رباً واحداً ولم يتوقف أصدقاؤه قط لتحيتها عندما كانوا يأتون لزيارته. ولما أكتشفت علاقته بصوفي ثارت ثائرتها التي بدت له فرصة غير ملائمة للأفتراق عنها تماماً. ولفترة من الوقت ظل يتناول طعامه في مكتبه، وكتب إلى جريم يقول "إنهال بدأت تحس بنتائج هذا الفرق البسيط. إن نفاذ نفودها وهو ما أراه وشيكاً، وسيدي حتماً إلى الصلح وعودة الأمور إلى مجاريها (108). وإبتابها المرض فرق قلبه لها وتولى رعايتها متذمراً، وتجاوبت معه في رقة ظن منها أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة. ومهما يكن من أمر فإنه في رسالة بعث بها إلى صوفي وصف مرض زوجته أنطوانيت مازحاً. وعندما فكر صديقه سوارد في الزواج نصحه ديدرو أن يلقي بنفسه في لجة اليم بدلاً من الزواج. (وكان زواج سوارد من أسعد الزيجات في عصر الشقاء هذا).

وكان من الجائز أن يولي ديدرو الفرار من داره لئلا أنه أحب وسائل الراحة في بيته، وشغف حياً بأبنته الجمسلة. وكانت أنطوانيت (173) في الثالثة والأربعين حين وضعت طفلها الرابع. وشبت ماري أنجليك وأكتملت لها كل مفاتن الأنوثة، فركز ديدرو كل إهتمامه عليها وتعلق بها، فشاركها في ألعابها. وأنا لنتصور الرجل الذي أثقلت الفلسفة رأسه يلعب فشاركها في ألعابها. وأنا لنتصور الرجل الذي أثقلت الفلسفة رأسه يلعب مع أبنته الصغيرة الغمضية والحجلة والطفل المعصوب العينين "كنت شغوفاً بأبنتي الصغيرة إلى حد الجنون. أية شخصية محبة هي: أو أية سيدة أستطيع أن أخلق منها إذا سمحت لي أمها بذلك". وعنى بتلقينها كل الفضائل المسيحية. ولما قاربت سن البلوغ زودها بتوجيهات لتصون نفسها من ذئاب باريس. وماذا كانت تعني عروضهم؟ "إنها تعني يا أنسة رضاء لي، هلا جللت نفسك بالفضيحة والعار، وفقدت مركزك الاجتماعي

صفحة رقم : 12607

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> ديدرو

وتواريت عن أنظار المجتمع، وحبست نفسك في أحد الأديار وجعلت أباك وأمك يموتان حزناً وجزعاً(109)؟  
ومن ثم فإنه مثل أي أب فرنسي أذخر مالا ليدفع لها الصداق، وأتصل بمختلف الأسرات ليجد لها زوجاً في الوقت المناسب، وأستقر رأيه على أختيار زوج أبنته ورفضته أمها أنطوانيت، ولكن وافقت عليه الأنسة ماري وزفت إليه (1772)، وبكى ديدرو لفراقها، ولكن أغرورقت عينها أكثر بدموع الفرح عندما رأى سعادتها الزوجية، وعاون الزوجان الصغيرين بسخاء قائلاً "أليس من الأفضل أن أعاونهم في الوقت الشدة أكثر من أن أنتظر إلى الوقت الذي لا يعودان يحتاجان إلى فيه". وأصبح زوج الأبنة هذا من المحافظين الحذرين الحريصين.  
ولما نضج في ديدرو الأحساس بالأبوة بدأ يحسن فهم أبيه، وينظر بين الأجلال والتقدير للقانون الأخلاقي الذي ساعد رجلاً على تنشئة أسرة طيبة، ولكن قدراً كبيراً من البوهيمية ظل يلازمه. وعلى الرغم من أنه حب عريته وملابسه وأخفائه القديمة، وأولع بتد أصابع قدميه أمام النار ويلزم البيت، فإنه كان يحرم نفسه من هذه المتعة بين الحين والحين، مثلما قضي مرة شهراً مع دي هولباخ في جرانفال Grandval وظل يرتاد المقاهي، وكان شخصية مألوفة في بعض الصالونات، وأحبته مدام جيوفرين على الرغم من خشونته في الحديث. وفي نوبات عطف الأمومة أرسلت إليه مكتباً جديداً وطاقماً من الكراسي المريحة المصنوعة من الجلد وساعة حائط ضخمة من الذهب والبرونز ومبذلاً فاخراً- "روب دي شامير" وقدم لها الشكر وتخلي عن أثائه القديم وهو حزين ولكنه عبر عن عمق الأسف لردائه الذي نبذه!"  
لم لم أحتفظ به أنه قد صنع من أجلي، ولا يصلح إلا لي ولا أصلح إلا له، والتأم مع كل ثنية في جسمي دون أن يزعجني، وكان رداء جميلاً مليحاً على حين أن الرداء الجديد جامد يابس

صفحة رقم : 12608

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتية -> ديدرو

وكانه يجعل مني تكتالاً لعرض الأزياء (مانيكان). وكانت طبيعته الطيبة الودودة تسارع إلى تلبية كل نداء وتأدية كل خدمة، فإذا علا التراب أحد الكتب أمكن استخدام أحد جوانب الرداء منفضة. وإذا كان الحبر على قلبي سميماً لا يتدفق كان جانب الرداء على أهبة الاستعداد. وإنك لترى من خلال الخطوط السوداء الطويلة كم من الخدمات أدى هذا الرداء. إن هذه الخطوط والأشرطة السوداء هي التي أنبأت عن الأديب وعن الكاتب وعن المجد الكادح، أما الآن فيبدو على أنني ثري خامل الذكر، لا يعرفني أحد وكنت صاحب السلطان المطلق على ردائي القديم أما الآن فقد أصبحت عبداً أسيراً للرداء الجديد"(110).

وأعتبر ديدرو أن صداقاته هي أكبر سلوى وأعظم إلهام له في حياته. وكان ارتباطه بجريم أوثق وأبقى من سائر محبيه. وفي 1772 بعد أن كان الواحد منهما قد عرف الآخر لمدة اثنتين وعشرين عاماً كتب إليه "عزيزي صديقي الوحيد، لقد كنت دائماً وستكون دائماً صديقي العزيز الوحيد(111) ومع ذلك أساء فتور جريم وتظاهره بعدم الأكتراث في بعض الأحيان إساءة بالغة إلى ديدرو. إن جريم الألماني أستغل طيبة قلب ديدرو وكثيراً ما أنابه عنه في تحرير صحيفته "كورسبندانس" وحل محله لا في كتابة أخبار المعارض فحسب؟، بل في عرض أحدث الكتب كذلك. وفي بعض الأحيان أستغل أثناء الليل حتى آخر لحظة حددها جريم لإنجاز العمل(112) وعرض جريم على ديدرو أجراً

فرفض أن يؤجر. ومن المؤلف أن نروي أنه في 1773 سمع ستانلاس بونياسكي ملك بولنده أن ديدرو كان يعد العدة لزيارة سانت بطرسبرج، وفكر في دعوته للتوقف لعدة أيام في وارسو، فما كان من جريم إلا أن نصح الملك بأنه لا غناء في التعرف على الفيلسوف "إن ديدرو بدلاً من أستغلال وقته في اقتسام مجد العبقريّة مع فولتير يضيعه في كتابة شذرات لصحيفة كورسبنداس أو يضيعه سدى مع كل من يجد في نفسه الجرأة ليسأله. وأستطيع أن أوكد لجلالتكم أنه سيموت مغموراً غير معروف" (113).

صفحة رقم : 12609

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ديدرو

وربما كانت أسعد ساعات ديدرو (عدا الوقت الذي كان يقضيه مع أبنته أنجليك) هي تلك التي كان يقف فيها خطيباً في أمسيات دي هولباخ أو مدام جيوفرين للعشاء، وينطلق في الحديث بفصاحة في أي موضوع وهو لا يكون في أفضل حالاته في الاجتماعات التي يغلب عليها الأدب والتهديب والتي يكون فيها الظرف هو المطلوب لا الأفكار. وكم أنزعجت مدام جيوفرين نفسها من تمسّاته، وكانت نصائحها له بالأعتدال والتزام آداب اللياقة قدر شطحاته هو، ولكن على مائدة البارون التي أجمع إليها كما أكدوا لهيوم، سبعة عشر ملحداً أطلق ديدرو لنفسه العنان ومن ثم (كما أجمع كلهم تقريباً) لا يكون في أحاديث باريس الممتعة ما هو أكثر أمتناعاً وسحراً من حديث ديدرو ويقول مارمونتيل "إن الذي عرف ديدرو من كتاباته وحدها لا يعرفه إطلاقاً... لقد نعمت منه بمتعة فكرية أعظم (114) أما هنري مستر الذي كثيراً ما نسمعه فإنه يصفه في مقارنة ملائمة "إني عندما أسترجع ديدرو في ذاكرتي وأرى شدة تنوع أفكاره وغازرة علمه المذهلة وتحليقه وشطحاته السريعة وحرارته وأضطراب خياله المنهور وكل ما في حديثه من فتنه سحر وتشويش، أتجاسر فأشبهه شخصية بالطبيعة نفسها تماماً، كما تعود أن يتصورها، غنية خصبة تكثر فيها الجراثيم من كل جنس، ودبابة عنيفة بسيطة فخكة، قيمة مهيبه ولكن على غير مبدأ أو قاعدة، ودون سيد ذي سلطان ودون إله (115).

وأستمع إلى تقرير مباشر عن حديث ديدرو عن نفسه "بدأ أنى شاذ غريب عليهم، ملهم سماوي. إن جريم نفسه لم ينتهياً له من البصر ما يراني به ولا من السمع ما يستمع إلي به، ودهشوا جميعاً وأحسست أنا نفسي بين جنبي بشيء من الرضا لا أستطيع التعبير عنه، إنه كان أشبه بنار تضطرم في أعماقي تلفح صدري، أنتشرت بينهم وألهبتهم. كانت أمسية من الحماسة كنت أنا مضرماً" (116). وكانت شهرته المعاصرة أعظم بين من عرفوه منها بين أولئك الذين

صفحة رقم : 12610

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> ديدرو بروتيه -> ديدرو

أو فقط أعماله المنشورة، وأهمها دائرة المعارف ورواياته وأحسنها التمسك بالدين وذاك المؤمن بالقضاء والقدر، وحلم المبير وأبن أخي رامو، ولملا تكن قد طبعت عند وفاته. ومل أجل هذا السبب من ناحية ولتطرف آرائه وأفكاره في الدين والجنس أخفق ولم يحاول قط اللحاق بالأكاديمية ومهما يكن من أمر فإنه في نظر أصدقائه كان الفيلسوف زعيم زعيم جماعة الثائرين المتمردين. إن روسو حتى بعد أن كرهه بأعتباره عدواً خفياً كتب في أعتراقاته "سيبدو دييرو لعدة قرون قادمة فذاً أعجوبة، وينظر الناس من بعيد إلى هذا الرأس العالمي بمزيج من الإعجاب والدهشة كما ننظر نحن الآن إلى رأس أفلاطون وأرسطو(117).

وأفتتن جيته وشيللر ولسنج بكتابات دييرو وشارك ستندال وبلزاك ودلا كروا في الإعجاب به وأعتبره كومت أسمى عبقرية في ذلك العصر المثير(118) وأسماه ميشيليه "برومثيوس الحقيقي (في الأساطير اليونانية هو الشيطان المعبود الذي سرق النار من السماء وعلمها لأهل الأرض). وقال إن المرء ليستطيع أن ينهل من كتابات دييرو لمدة سنة ومع ذلك تتبقى ذخائر لا حصر لها(119) وهلا أستمعنا إلى مدام جيوفرين التي عرفتة حق المعرفة، ولكنها لم تقرأ كتبه، أنها كتبت تقول "أنه رجل طيب ورجل أمين ولكنه عنيد متشبت برأيه (ولو كان خطأ) غير مترن إلى حد أنه يرى ويسمع الأشياء على ما هي عليه ومثله كمثل رجل يحلم ثم هو يؤمن بأنه أحلامه صادقة(120).

كان دييرو طيباً وسيناً، أميناً وخائناً، عنيداً ونزاعاً إلى الحق، قليل التوازن وخلقاً مبدعاً بشكل بارع، كما كان حالماً ومناظلاً ومتنبئاً، يبدو أن مكانته في التاريخ تعلو وتسمو كلما أبتعد زمانه، حتى إن بعضهم اليوم ليعتقد أنه أعظم شخصية أمتاعاً وإثارة في فرنسا في القرن الثامن عشر(121) ولتقف الآن عند هذا الحد حتى نلتقي به مرة أخرى وجهاً ووجهاً مع أمبراطورة ثم في لقاء الفلاسفة مع الموت.

صفحة رقم : 12611

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

الفصل الحادي والعشرين

اتساع نطاق الحملة

1774 - 1758

1 - هلفشيوس

## أ- تطوره

إنحدرت الأسرة من أصل سويسري ألماني سئل هؤلاء الأقوام الأشداء الممتلئين نشاطاً الذين تزهو وتزدهر بهم اليوم برن وزيورخ. واتخذ أحد الأعضاء في نيوشاتل اسم Schweitzer ومعناه سويسري. وحمل آخر إنتقل إلى الأراضي الواطنة اسم Helvetius ومعناه أيضاً سويسري، وانتقل هذا الفرع الثاني إلى باريس حوالي 1680، وهنا أصبح جان كلود أدريان هلفشيوس طبيباً للملكة ماري لوكزنسكا. من أولاده العشرين يعيننا هنا كلود أدريان الذي ولد 26 يناير 1715 والذي نشأ وترعرع في كنف الطب الذي ترك بعض بصمات على فلسفته وبعد أن تلقى تعليمه على يد الجزويت في كلية لويس العظيم تتلمذ على يد جباة الضرائب. وسرعان ما أترى. وفي سن الثالثة والعشرين بلغ دخوله نحو 360 ألف جنيه في السنة (1) وكان وسيماً وراقصاً ومبارزاً بارعاً كان محبوباً لدى رجل الحاشية ونسائها، وعين سديراً للشؤون الداخلية للملكة. ولم يكن مستعداً بأية حال ليكون فيلسوفاً، اللهم إلا أنه كان يحذق تأليف الكتب. ولكنه في 1738 التقى بفولتير فروع عقله وشهرته وراوده حلم الكتابة والتأليف. فهلا يكون امتيازاً غريباً أو غير مألوف أن يكون رأسالياً وفيلسوفاً في وقت معاً؟ وقضى بعض الوقت بورودو ضيفاً على منتسكيو،

صفحة رقم : 12612

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

ثم في برجندي مع بيفون. وعمل تأثير هذين الرجلين على تشكيل هلفشيوس، وأصبح صديقاً وثيق الصلة بمليونير آخر هو البارون دي هولباخ الذي كان الزعيم المادي في هذا العصر. وفي أمسيات العشاء لدى البارون وفي صالون مدام دي جرافيني التقى بديدور وجريم وروسو وديكلوس وجالياني ومارمونتيل وترجو. ومن ثم تحولت إتجاهاته. وفي 1751 اتخذ قرارين خطيرين، فتخلى عن منصبه الوفير الكسب وهو منصب الملتزم العام للضرائب، ولجأ إلى ضيعة إقطاعية في Vore-au Perche وتفرغ لتأليف كتاب يهز العالم وفي العام نفسه وهو في السادسة والثلاثين تزوج من أن كاترين دي أوتريكورت؛ وهي كونتيسة من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت آنذاك في الثانية والثلاثين من العمر وهي من أجمل السيدات وأكثرهن كياسة وعقلاً في فرنسا وأخذها على الفور إلى بلدته فوريه حتى لا تفسدها باريس على حد قول جريم. وهناك أو في باريس دخل فونتيل وكان يناهز مائة عام إلى حجرة ملايس الكونتيسة الجميلة وهي تكاد تكون عارمة عارية تماماً، فصرخ وهو يرتد من من الحجرة فرحاً: أه يا سيدي لو أني كنت في سن الثمانين فقط(2).

واحتفظ الزوجان السعيان كذلك بدار في باريس. وهنا جذب إليها كرم هلفشيوس ومفاتيح زوجته كثيراً من قادة الفكر مثل ديدرو ودي هولباخ وفونتيل وبيون ودالمبير وبيفوت وترجو وحالباني وموريلي وكوندرسيه وهيو. ويقول مارمونتيل: كم أصبحت هذه الدار ملائمة مريحة لرجال الأدب(3) وحاول هلفشيوس في حفلات العشاء أن يوجه



المناقشة إلى الموضوعات التي فكر في أن يكتب فيها، ويثير النقد لأفكاره وأبدى أنه يصغي كل الإصغاء لما يقال من نقد، وشكا موريليه من أن هلفشيوس يؤلف كتابه شركة بينهم(4). وظل هلفشيوس يعمل في إعداد الكتاب سبع سنين دأباً، حتى خرج

صفحة رقم : 12613

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

الكتاب المرموق في 15 يوليو 1758 بعنوان "الذكاء" ولشد ما كانت دهشة الأصدقاء الذين رأوا المخطوطة حين ظهر الكتاب متمتعاً بالترخيص الملكي الثمين بالنشر. ذلك أن ما لشرب كان قد عهد إلى جان بيير ترسييه بمراجعة الكتاب تمهيداً لنشره (عمل الرقابة على المصنفات)، فقرر ترسييه "من رأيي أنه ليس في الكتاب ما يحول دون نشره(5) ولكن المحامي العام في برلمان باريس دفع الكتاب في 6 أغسطس بأنه محشو بالهرطقة والكفر، وألغى مجلس الدولة في 10 أغسطس الترخيص بالطبع، وسرعان ما عزل ترسييه عن مناصبه المربجة. ودفع يهاجم المسيحية قائلاً: بأي لون من الإلحاد والكفر يتهمونني؟ أنا أنكر في أي جزء من الكتاب التثليث أو ألوهية المسيح أو خلود الروح أو بعث الموتى أو أية ناحية أخرى من نواحي العقيدة البابوية، ومن ثم فإني لم أهاجم الديانة بأي شكل من الأشكال(6). وخشي فولتير أن يرسل هلفشيوس إلى الباستيل فنصحته بالرحيل، ولكن هلفشيوس كان مستريحاً في ذلك إلى حد لا يضحى معه من أجل الكتاب، فأصدر تراجعاً في في صيغة الرسالة إلى قسيس، فأعلنت الحكومة بأن هذا غير كافٍ فنشر هو اعتذار يقول جريم "أنه مذل إلى حد لا يدهش معه المرء أن يرى رجلاً يؤثر أن يلجأ إلى الهونتوت (قبائل السود في جنوب أفريقية) على أن يضع اسمه على مثل هذه الاعترافات(7)" وقصدت مدام هلفشيوس إلى فرساي لتشفع لزوجها ورضيت الحكومة بأن يأوي إلى ضيعة امدة عامين، وربما أصبحت العقوبة أشد من ذلك لولا أن الملك تذكر أن والد هلفشيوس أنقذ حياته ذات مرة حين كان طبيباً للملكة. وفي 3 يناير اتهم البابا كايمنت الثالث عشر الكتاب بأنه مخز فاسق لا يلتزم قواعد الدين، وفي فبراير أحرق علناً بأمر البرلمان. ولقد رأينا كيف أن هذه "الضجة حول مسألة تافهة كما سماها فولتير قد أسهمت مع مقالة دالمبير جنيف في تضيق الخناق على موسوعة ديدور. وبكل هذا الإعلان الواسع النطاق عن كتاب "الذكاء" تهاقت الناس على قراءته أكثر مما أقبلوا على أي كتاب

صفحة رقم : 12614

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

لعب دوراً في الحملة على المسيحية، وظهرت منه عشرون طبعة بالفرنسية على مدى ستة أشهر. وسرعان ما ترجم إلى الإنجليزية والألمانية واليوم لا يعرف عنه شيئاً إلا القليل من العلماء والباحثين ويكاد يكون من المتعذر الحصول على نسخة منه.

ولم ينشر هلفشوبوس شيئاً بعد ذلك، ولكنه استمر يكتب. وصرح ثانية وتوسع متروياً غاضباً في شرح وجهات نظره في رسالة "عن الإنسان" وهي التي هاجم فيها رجال الدين بوصفهم باعة متجولين يتجرون في الرجاء والخوف وينشرون الجهل ويقتلون الفكر. وفي هذين الكتابين نجد كل مثله العليا في هذا العصر الطموح، الحرية والمساواة والأخوة: حرية الكلام والصحافة والاجتماع والعبارة، والمساواة بين الجنسين كليهما، وبين كل الطبقات في فرص التعليم وأمام القانون، وتأييد يكاد يكون اشتراكياً لدولة الخير العام حماية وتعويضاً للفقراء السذج ضد الأغنياء الأذكياء". وكل هذه الآراء والمثل العليا يتوجها إيمان شبيه بالإيماء الديني في إمكان بلوغ الجنس البشري مرتبة الكمال المطلق. وهنا أيضاً إذا أصغينا جيداً لسمعنا صوت الثورة.

ب - فلسفته

ومثل كل الفلاسفة تقريباً يبدأ هلفشوبوس بلوك. فكل الأفكار مستمدة من الإحساس، وبلي ذلك من خبرة الفرد. فكل الحالات العقلية عبارة عن مجموعات متضامنة من الأحاسيس يشعر بها الإنسان حالياً أو تنبعث من جديد من الماضي عن طريق الذاكرة، أو يتصورها مستقبلاً عن طريق الخيال. أما إصدار الحكم أو اتخاذ القرار فهو الإحساس بالفوارق بين الأحاسيس. أما العقل فهو مجموعة من الأحكام أو القرارات. وليس الذهن والنفس شيئاً واحداً هو تجمع أو تعاقب للحالات العقلية. أما النفس فهي حساسة الكائن الحي أي القدرة على استقبال

صفحة رقم : 12615

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشوبوس

الأحاسيس وكل الإحساس مادي. وكل النفس قوة في المادة. أن كل ظواهر الطب والتاريخ الطبيعي تثبت بوضوح أن هذه القوة.. تبدأ بتكوين أعضاء الجسم، وتبقى ما بقيت ثم تنقضي هذه النفس بانحلال هذه الأعضاء وفنائها(8). وللحيوانات أنفس. ويسموا الإنسان على الحيوان بفضل نموه واستواء قامته حيث تتحول قوائمه الأمامية تدريجياً إلى أيد قادرة على الإمساك بالأشياء ومعالجتها. وحيث بدأ هلفشوبوس بجزون لوك فإنه يتابع المسيرة مع هوزر. فكل عمل رغبة تستجيب لأحاسيس حالبة أو ميتعنة. والرغبة هي تذكر اللذة التي اقترنت بأحاسيس معينة، والأفعال رغبة ملحة، وتختلف في شدتها تبعاً للألم أو اللذة المتذكرة والمتوقعة. والانفعالات تؤدي بنا غالباً إلى الخطأ، لأنها تركز انتباهنا على ناحية معينة من شيء أو موقف بعينه ولا تهيب لنا المجال لتدبيره من جميع جوانبه(9). والذكاء بهذا المعنى هو تأخر رد الفعل ليهيب إدراكاً أوسع واستجابة أوفى. وعلى الرغم من ذلك فالانفعالات بالنسبة للخلق هي الحركة بالنسبة للمادة. وهي تزودنا بالدافع حتى الدافع إلى المعرفة. فالإنجاز العقل لأي شخص يختلف تبعاً لحدة انفعالاته فالإنسان العبقري إنسان ذو انفعالات قوية والإنسان الغبي مجرد منها(10). والانفعال الأساسي هو حب القوة والسيطرة، وهو أساسي لأنه يزيد في قدرتنا على تحقيق رغباتنا.

وعند هذا الحد استحق عمل هلفشيوس ما وصفه به فولتير من أنه "عجة بيض" أي خليط من الأفكار التي كانت سائدة منذ عهد طويل في دنيا الفلسفة، ولكنه انطلق الآن إلى أكثر آرائه ومساائله امتيازاً. فحيث أن كل الأفكار تتبع من خبرات الفرد وتجاربه فإن التباين بين أفكار الأفراد والأمم وخلقتها يعتمد على الفوارق بين بيئة الفرد أو الأمة. ولدى كل الناس عند مولدهم استعداد متساوٍ للفهم والحكم وليس، وهناك تفوق فطري أو طبيعي في الذهن. لقد وهب الجميع قوة وقدرة على الانتباه كافييتين

صفحة رقم : 12616

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

للارتفاع بهم إلى مرتبة الرجال اللامعين المرموقين إذا كانت البيئة والتعليم والظروف ملائمة لهم. وعدم المساواة في القدرة والأهلية هو دائماً نتيجة الاختلاف في الموقف الذي تصادف أن وضعوا فيه (11).  
"وفي اللحظة التي يخرج فيها الطفل من بطن أمه... يدخل إلى الحياة دون أفكار ودون انفعالات. وكل ما يحس به هو الجوع. إننا في المهد (أي عن طريق الوراثة) لا نتلقى انفعالات الزهو والكبرياء والجشع والطمع والرغبة في حسن التقدير والمجد والعظمة. إن هذه الانفعالات المثيرة للشقاق والشغب التي تتولد بين البلدان والمدن تقتض مضامياً وجود تقاليد وقوانين قائمة بالفعل بين الناس... ومثل هذه الانفعالات لا تكون معروفة لدى من تحمله ساعة مولده عاصفة إلى صحراء مقفرة يغذيه ذئب مثل روميوس. وحب المجد والعظمة شيء مكتسب، ومن ثم فهو نتيجة درس وتعليم (13)".

وحتى العبقورية نفسها نتاج البيئة، أي الخبرة بالإضافة إلى الظروف ويضيف العبقري الخطوة الأخيرة إلى خطوات اكتشفت واتخذت قبله. وهذه الخطوة الأخيرة تكون تبعاً للظروف. وكل فكرة جديدة هي نعمة من نعم الصداقة، أي سلسلة من النتائج والآثار لا ندرك لها سبب (13).  
"ومن أين يأتي عدم المساواة التامة في الفهم والذكاء؟" السبب في هذا هو أن أي إنسان لا يدرك على وجه الدقة نفس الأشياء، وليس على وجه الدقة في نفس الموقف، ولم يتلق نفس التعليم، كما أن الصدفة أو الحظ الذي يسمو على تعليمنا لا يؤدي بكل الناس إلى كنوز غنية بقدر سواء. وإنما من أجل هذا ننسب إلى التعليم بكل ما في هذه الكلمة من معنى، مع أخذ فكرة المصادفة والحظ في اعتبارنا. ننسب عدم المساواة في الفهم والذكاء (14).  
ومن الجائز أن هذا التحليل النفسي وهو سخي بصفة خاصة من أحد أصحاب الملايين، مشتق أو نابع من وضع سياسي. فالمحافظون يؤكدون

صفحة رقم : 12617

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

فوارق الوراثة وتأثيرها، والحاجة إلى الحرص والحذر في تغيير النظم المتأصلة في عدم المساواة الطبيعية والمحلية في القدرة والخلق. أما دعاة الإصلاح فيؤكدون على الفوارق البيئية وتأثيرها، مما يجعل عدم المساواة في القدرة والقوة الثروة يبدو راجعاً إلى المصادفة والحظ، إلى مفارقات المولد وميزات الظروف أكثر من إلى جدارة فطرية. ومن ثم يمكن خفض عدم المساواة بالمساواة في التعليم وتحسين البيئة. ويطبق هلفشيوس نظريته في المساواة الطبيعية على الأجناس والأفراد. فكان يمكن أن تصل كل الأجناس إلى نمو متساو إذا تساوت الفرص البيئية لديها. وينتج عن هذا أن الغرور القومي أو الاعتزاز بالجنس مثل الغرور الفردي أو اعتزاز الفرد بنفسه، ليس له في الواقع أي مبرر. أن الحرية التي يفاخر بها الإنجليز... ليست جزاء لشجاعتهم بقدر ما هي نعمة الحظ- "أعنى القنال الإنجليزي والبحار التي تحميمهم (الحرية الداخلية إذا تساوت الأشياء الأخرى تتفاوت عكسياً مثل الخطر الخارجي)".

وواضح على هذه الأسس أن طريق التقدم يتبع تحسين التعليم والمجتمع والحكومة. "إن التعليم قادر على التأثير في كل شيء". ألا يدرّب التعليم الدب على الرقص(15)؟ أن كل التقدم، حتى في الأخلاق يتوقف على انتشار المعرفة وتدريب الذكاء. اقض على الجهل وبذلك تقضي على كل بذور الشر(16) ومن أجل الاقتراب من هذا الهدف يجدر أن يعاد بنا نظام التعليم في فرنسا كما ينبغي أن يحرر من ربة الكنيسة ويعهد به إلى الدولة، كما يجب أن يكون في متناول كل الأفراد من الجنسين كليهما وفي كل الأعمار. ويجدر أن يحلّ تدريس العلوم والتقنيات محلّ تعليم اللاتينية والإغريقية، ويجب أن يكون ثمة تركيز جديد على بناء الأجسام الصحيحة "والعقول السليمة المتمسكة بالفضيلة(17)".

وعلى الرغم من أن هلفشيوس لم ينكر أية تعاليم مسيحية نراه هنا يدخل في دعوى مثيرة بقصد تقليص نفوذ الكنيسة في فرنسا. أنه يهاجم الكنيسة من

صفحة رقم : 12618

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

وجهة نظر اجتماعية لا لاهوتية، أنه يشجب وجهة النظر الكاثوليكية في تمجيد العزوبة والفقر، ولكنه يطرب وبيتهج لأن قلة ضئيلة من المسيحيين هم الذين ينظرون إلى هذه الأفكار بعين الجد. "أن ميلاً خفياً إلى الشك وعدم التصديق يقاوم هذه الأثر الخبيث المؤذي للمبادئ الدينية(18) أنه يتهم سيطرة الكاثوليك على التعليم لا بأنه تعوق النقد الفني والعلمي في الأمة بتجاهل العلوم والاستخفاف بها فحسب، بل بأنها كذلك تمكن رجال الدين من تشكيل ذهن الطفل لإخضاعه للسيطرة الكهنوتية(19).

"إن رغبة رجال الدين في كل العصور انصرفت إلى القوة والنفوذ والثراء. وبأية وسيلة يمكن إشباع هذه الرغبة؟ ببيع الرجا (في التعليم) والخوف (من الجحيم). إن الكهنة وهم تجار جملة في هذه السلع كانوا يحسون ويدركون أن هذا البيع سيكون مؤكداً رباحاً(20).... وتتوقف قوة الكاهن وسلطانه على الخرافات، وعلى تصديق الناس في غياب وحمق لهم. وليس اتعليمهم قيمة لديه. وكلما قلت المعرفة عندهم ازدادوا امتثالاً لأوامره(21).... إن أول هدف للكهنة في كل ديانة هو خلق حب الاستطلاع عن الناس، والحيلولة دون فحص أية تعاليم ومبادئ يكون سخفها ملموساً محسوساً إلى حد لا يمكن إخفاؤه(22)... لقد ولد الإنسان جاهلاً، ولكنه لم يولد مغفلاً أبه، وليس إلا بالجهد والمشقة ليكون كذلك، ولا بد لذلك وليكون قادراً على إطفاء هذا النور الطبيعي في داخله من استخدام كثير من الخدع والحيل والأساليب، ومن ثم يكسب التوجيه والتربية في ذهنه أخطاء فوق أخطاء(23) وليس ثمة شيء تعجزه قوة الكهنوت بمساعدة الخرافة عن تنفيذ، لأنها تسلب الحكام والقضاة سلطانهم وسيادتهم، والملوك سلطتهم الشرعية، وبذلك تخضع الناس وتحرز السيطرة عليهم. وغالباً ما تكون هذه أعلى من سيادة القوانين، ومن ثم تفسد في النهاية المبادئ الأخلاقية نفسها(24).

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

ويضيف هلفشيوس ثمانية فصول عن التسامح. "أنه التعصب أم عدم التسامح الديني هو ربيب الطمع الكهنوتي وسرعة التصديق الغبي الأحمق(25)...وإذا أنا صدقت مربيتي أو معلمي! إن كل ديانة أخرى باطلة زائفة، وديانتي وحدها هي الصحيحة الحقّة. ولكن هل يعترف العالم كله بهذا؟ لا، فإن الأرض لا تزال تئن تحت وطأة المعابد الكثيرة الموقوفة على الخطأ(26). وماذا يعلمنا تاريخ الأديان؟ أنها أضاعت في كل مكان مشعل التعصب وملأت السهول بالجثث وخضبت الحقول بالدماء وأحرقت المدن وأقامت إمبراطوريات مهلهلة(27). أليس الأتراك، ودينهم دين جهاد وحرب، أكثر تسامحاً منا؟ إننا نشهد الكنائس في القسطنطينية ولكننا لا نرى مساجد في باريس(28). إن التسامح يخضع الكاهن للأمير ولكن التعصب يخضع الكاهن للأمير(29). ويميل هلفشيوس إلى القول باستثناء واحد في جانب التعصب، حيث يقول: "هناك سبب واحد يمكن أن يكون فيه التعصب ضاراً بالشعب، حيث يكون التسامح مع عقيدة تتسم بالتعصب مثل الكاثوليكية. فإن مثل هذه العقيدة التي تصبح أقوى ما تكون في دولة ما سوف تسفك دماء حمايتها الأغبياء. لا تسمحوا للكاثوليك المتملقين أن يستغلوا البروتستنت. إن القساوسة الذين يعتبرون التعصب في بروسيا أمراً بغيضاً وخرقاً للقانون الطبيعي والسماعي ينظرون إلى التسامح في فرنسا على أنه جريمة وهرطقة. وماذا يجعل الإنسان مختلفاً عن غيره في مختلف الأقطار؟ ليس إلا ضعفه في بروسيا وقوته في فرنسا. وإذا تأملنا في سلوك المسيحيين الكاثوليك، لوجدنا أنهم في البداية حين يكونون ضعافاً يبدون وكأنهم حملان وديعة حتى إذا أصبحوا أقوياء كانوا وحوشاً ضارية(30). وأدلى هلفشيوس من حين إلى حين بكلمة طيبة عن المسيحية، وبخاصة عن البروتستنتية ولم يكن ملحداً ولكنه كره تصوير الأصفار المقدسة للإله

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

طاعية... يعاقب على الهنات الهيئات بالعذاب المقيم(31). وراوده الأمل في ديانة عالمية تقيم تحت رقابة الدولة "أخلاقيات طبيعية" متحررة من الثواب والعقاب بعد الموت(32). ووضع العقل الإنساني فوق كل دعاوى الإنسان للوحي الإلهي. فإن الرجل الأمين سوف يمتثل دائماً لعقله مؤثراً إياه على الوحي. لأنه سيقول بينه وبين نفسه عن يقين بالغ بأن الله هو منشئ العقل البشري أكثر من أنه مؤلف كتاب بعينه(33). ولكن أليست المعتقدات الخارقة والوازع الديني ضرورية لفاعلية القانون الأخلاقي؟ يقول هلفشيوس. كلا "ليس على الدين ولكن على التشريع أو القانون وحده تتوقف رذائل الناس وفضائلهم وقوتهم وهنأعتهم... إن كل جريمة لا يعاقب عليها القانون تقترف كل يوم فأى دليل أقوى من هذا على عقم الدين وعدم جدواه؟..."

ومن أين ينشأ الأمن الحالي في باريس؟ هل ينشأ من تقوى أهلها وتبتلهم؟ كلا إنما ينشأ من نظام الشرطة ويقتطعهم... وفي أية فترة أصبحت القسطنطينية وكر الرذائل؟ في نفس اللحظة التي قامت فيها المسيحية هناك... إن أشد الملوك تمسكاً بالمسيحية لم يكونوا أعظم الحكام. إن قليلاً منهم تحلوا بفضائل تيتس أو تراجان أو أنطونيوس وأي أمير تقي ورع يمكن أن يقارن بهؤلاء؟(34).

ومن هنا بدا لهلفشيوس أن مهمة الفلسفة أن تبتكر وتنتشر أخلاقيات مستقلة عن العقيدة الدينية. ومن وجهة النظر هذه كتب ما أسماه أحد الباحثين "أعظم اختبار على الأخلاق الاجتماعية خطه يراع أي فيلسوف(35) أنه عقد العزم على ألا ينتقص من قدر الطبيعة البشرية أو يجعلها بل يأخذها كما وجدها بكل ما فيها من أنانية، ويحاول أن يبني عليها أخلاقاً طبيعية. إن الإنسان ليس خيراً أو شراً بالطبيعة. إنه مخلوق حاول أن يحافظ على ذاته في عالم يحاول كل كائن آخر فيه أن يفتك به إن عاجلاً أو آجلاً(36). إن الصورة التي كان قد رسمها روسو حديثاً للمجتمع البدائي بدت لهلفشيوس خيالاً تافهاً

صفحة رقم : 12621

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

غير ذي قيمة. وكان هوبر أقرب إلى الحقيقة حين وصف "حالة الطبيعة" بأنها صراع كل فرد ضد المجتمع. إن لفظتي الخير والشر في تطبيقها على الناس ليس لهما معنى إلا في مجتمع، وكل الطبيعة فضيلة اجتماعية وهي نتاج التدريب أو التعليم الاجتماعي على الغابات والأغراض الاجتماعية. "إن الأمير الذي يثق في استقامة الخلق الفري المتأصل في النفوس شقي تعس. إن روسو يفترض وجود هذه الاستقامة، ولكن الخبرة تنكر وجودها. وكل من يتأمل في هذا سينتهي إلى أن الطفل يقتل الذباب ويضرب كلبه ويخنق عصفوره أي أن غب الطفل كل رذائل الرجل. إن الرجل وهو في أوج سلطانه، (متحرراً من كل القيود والضوابط الاجتماعية) غالباً ما يكون جائراً ظالماً. والطفل القوي مثله تماماً: فإنه إذا لم يكبح جماحه وجود رفاقه مثل الرجل في أوج سلطانه يستحيل لنفسه حلوى رفيقه وأدوات لعبه ويستولي عليها(37).

ومن الواضح عندئذ أنه ليس هناك حاسة أخلاقية فطرية، فكل الأحكام على الخطأ والصواب تنمو عن طريق خبرة الفرد نتيجة لتعاليم أسرته وجماعته وحكومته وكنيسته، وفرضها عليه قسراً. فإذا تحرر الفرد من هذا القسر. كما هو الحال في الحكم المطلق أو الحرب أو الزحام فإنه يميل إلى العودة إلى مخالفة القانون والتمرد عليه، وإلى عدم التمسك بالمبادئ الأخلاقية. وهنا "لا تكون الأخلاق في معظم الأمم آنئذ إلا مجرد مجموعة من تعاليم وقواعد سلوكية يملئها ويفرضها الأقوياء ليضمنوا سيطرتهم وسيادتهم، مع الاستمرار في ظلمهم وطغيانهم، مع الإفلات من أي عقاب" ولكن الأخلاق بمعناها الصحيح هي "معرفة الوسائل التي يبندعها الناس ليعيشوا معاً وجنباً إلى جنب في أسعد حال... وإذا كان من بيدهم الأمر والسلطة لا يعارضون تقدم المعرفة بهذه الوسائل فإنها تهض وتتقدم كلما اكتسب الناس معرفة جديدة"(39).

وهلفشيوس يعتقد صراحة مذهب المتعة (اللذة أو السعادة). وهي الخير الرئيسي أو الأوحد في الحياة: فالسعادة هي هدف الحياة هنا على الأرض، والسعادة هي استمرار اللذة ودوامها، وكل اللذة حسية أو فسيولوجية

صفحة رقم : 12622

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

أساساً (40) "إن نشاط الذهن واكتساب المعرفة، هما أعظم اللذات إشباعاً على الدوام (41) ولكنهما ماديان أيضاً بصفة جوهرية. والزهد أو التقشف ضرب من الحمق. واللذة الجنسية مشروعة تماماً إذا لم تؤذ أحداً. وليست الفضيلة هي الامتثال لشرائع الله بل هي السلوك الذي يوفر أعظم اللذة لأكبر عدد من الناس. وهنا وبشكل واضح هلفشيوس الأخلاق النفعية التي جاء بها بالفعل هنتشنسون (1725) والتي شرحها بنتام فيما بعد (1789). "ولكي تكون فاضلاً يجب أن تجمع بين نبل النفس والعقل المستنير. وهذا الذي يجمع بين هاتين النعمتين إنما يتجه إلى المنفعة العامة. وهذه المنفعة هي قاعدة كل الفضائل الإنسانية وأساس كل التشريع... وكل القوانين يجب أن تتبع مبدأ أو قاعدة واحدة وهي نفع الناس جميعاً أي أكبر عدد من الناس في ظل الحكومة نفسها... فهذا المبدأ يتضمن كل الأخلاقيات وكل التشريع (42).

وعلى الرغم من ذلك فإن كل الأفعال في رأي هلفشيوس مهما كانت أخلاقية وفاضلة أنانية. وقد لا تكون الأفعال بالضرورة أنانية، فكثير منها يتسم بالغيرة (حب الغير) بمعنى أنه مقصود به نفع الآخرين وفي بعض الأحيان تكلف فاعليها تمناً غالباً. ولكن حتى مثل هذه الأفعال أنانية بمعنى أن الدافع إليها هو إرضاء الذات. أننا غيريون (نحب الغير) إننا بالفطرة أو بالتعليم والمران يمكن أن نجد لذة كبيرة في إدخال السرور على الآخرين وإسعادهم. وهكذا قد تضحي الأم من أجل طفلها أو البطل من أجل وطنه. إننا إذ نفعل الخير لغيرنا فذلك يرجع إلى أننا عن قصد أو عن غير قصد نتذكر في لذة وسرور ما قوبلت به مثل هذه الأفعال في الماضي من حب أو تقدير اجتماعي. وبهذه الطريقة قد تصبح الأفعال الغيرية عادة لدينا، وقد نشعر بالإزعاج أو الخوف إذ لم نقم بها. وقد يبدو النسك أو التبتل الديني عملاً فاضلاً إلى درجة عالية، ولكنه "مجرد استثمار طويل الأجل في سندات السماء" أي مجرد محاولة طويلة الأمد لضمان حسن الجزاء في السماء

صفحة رقم : 12623

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

"فإذا فرض ناسك أو راهب على نفسه قانون الصمت ووجد نفسه بالسوط في كل ليلة وعاش على الحبوب والماء وافترش الأرض على القش فإنه يظن أنه بفضل النحول والهزال سيحظى بمنزلة رفيعة في الجنة (43). وإذا لم يحكم المجتمع المحلي على أي تصرف أو فعل وحشي قاس بالإدانة ويستنكره فإن هؤلاء الرجال المقدسين سيرتكونه دون خجل أو لجوء إلى القانون، مثال ذلك إحراقهم المهرطيين (44). إن الصداقة نفسها ضرب من الأنانية: فهي تبادل خدمات حتى ولو كانت مجرد تأييد، وحيثما انقطع مثل هذا التبادل تقطعت أو اصر هذه الصداقة، وليس ثمة شيء استثنائي أو غير مألوف أكثر من الصداقة التي لا تدوم طويلاً (45)، وجوهر الحقيقة إننا دائماً نحن الذين نحب أنفسنا في غيرنا (36).

وحين هبط لاروشفوكول بالمثل بمختلف الدوافع إلى حب الذات فإنه شعر بالأسى باعتبار أن حب الذات هذا رذيلة. ولكن هلفشيوس ارتضاه على اعتباره فضيلة، على أنه سهى للمحافظة على الذات. وعلى أية حال فتلك حقيقة عامة من حقائق الحياة "فالغضب أو الشعور بالضيق من الأفعال القائمة على حب الذات وهو مثل الشكوى من زخات المطر في الربيع أو من حر الصيف... أو صقيع الشتاء" (47). ومن منطلق عمومية حب الذات تماماً يقترح هلفشيوس

إقامة أخلاقيات "علمية". فالتعليم والتشريع يمكن أن يشكلوا الأخلاق والعادات إلى حد الإزعاج والشعور بالقلق والضيق بالأفعال أو التصرفات غير الاجتماعية، والشعور باللذة والسرور في الفضيلة-أي في الأفعال التي تقيد الجماعة وتسدي إليها خيراً. ويجدر بالفيلسوف أن يدرس السلوك الإنساني والحاجة الاجتماعية بقصد اكتشاف أي شكل من أشكال السلوك أكثر نفعاً وخيراً لأكثر عدد من الناس، ويحاول مع المعلمين والمشرعين التماس المغريات والمحاذير التي يمكن مع الاستعانة بحب الذات أن تشجع السلوك الاجتماعي، وأية فوائد تعود على الجنس البشري من مثل هذا الاتفاق بين

صفحة رقم : 12624

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

الفلاسفة والملوك؟" إن فضائل الشعب وسعادته لا تتبع من قدسية عقيدتهم الدينية وبقاوتها بل من حكمة قوانينهم(48). وهكذا تحول هلفشيوس في قمة فلسفته إلى دراسة التشريع والحكومة. أنه من الناحية السياسية أشد الفلاسفة تطرفاً. أنه لا يشارك فولتير إيمانه "بالحكم المطلق المستنير" فإن مثل هؤلاء الحكام قد ينزعون إلى إخماد أية آراء غير آرائهم هم أنفسهم، التي قد تكون خاطئة ضارة. ويقتبس قول فردريك الأكبر لأكاديمية برلين "ليس ثمة ما هو أفضل من حكومة استبدادية يرأسها أمير عادل إنساني عطوف متمسك بالفضيلة، وليس ثمة شيء أسوأ من حكم الملوك العاديين البسطاء"(49). والملكية المحددة السلطة أو الدستورية مثل إنجلترا صالحة طيبة، والأحسن منها اتحاد من جمهوريات ديمقراطية تعاهدت على العمل المشترك ضد أي ظالم(50). والأرستقراطية جائرة نظرياً حيث أن المقدره العليا نتاج الصدفة، ولكن الديمقراطية الكاملة غير مرغوب فيها، ما دام الفقراء غير متعلمين لا يملكون شيئاً. ومن ثم فإن المشرع الحكيم يسعى إلى نشر التعليم وحسن توزيع الملكية. إن هذا "المليونير" الخبير بشؤون المال يرثي لتركيز الثروة وتيسير هذا التركيز عن طريق الاقتصاد القائم على المال:"إن هذا الشقاء الذي يخيم على كل الناس والأمم تقريباً إنما ينشأ من قصور قوانينهم والتوزيع البعيد كل البعد عن المساواة لثرواتهم. وفي معظم الممالك توجد طبقتان فقط من المواطنين: واحدة في ميسس الحاجة إلى الضروريات والأخرى تبذر تبذيراً(51).. وإذا كان فساد السلطة في الشعب أبرز ما يكون في عصور الترف والبخس فما ذلك إلا لأن ثروة الأمة في تلك العصور كانت مركزة في أيدي أقل نفر من الناس(52). إن الاستعاضة بالمال أو النقود عن الأرض رمزاً للسلطة والقوة ونقطة ارتكاز لهما، ينشأ عنها سباق على الثروة، فيه تفويض للاستقرار الاجتماعي وتصفيد الصراع الطبقي، كما يؤدي إلى تضخم مدمر. "وفي الأمة التي

صفحة رقم : 12625

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس



تزداد تدريجاً ثروتها ومالها وبخاصة العملة الورقية - وترتفع أسعار الحاجيات وأجور العمال باستمرار.. وكلما أصبح العمل غالي التكلفة في أمة غنية فإنها لابد تستورد من الأمم الأخرى أكثر مما تصدر إليها. وإذا ظلت كل العوامل الأخرى على حالها.. فإن أموال الأمة الغنية سوف تنتقل أو تتسرب دون أن يشعر بها أحد إلى الأمة الأفقر التي ستدمر نفسها بدورها وبنفس الطريقة إذا أصبحت غنية (53).

وهل ثمة مهرب من تركيز الثروة أو التزاحم على المال؟ "يجدر بالإنسان أن يضاعف عدد الملاك عن طريق توزيع جديد للأرض.. فإذا زادت أرض أحد الناس عن قدر معين من الأفدنة فيجب أن تفرض عليها ضرائب تفوق قيمة إيجارها. ومثل إعادة توزيع الأرض هذه قد تكون مستحيلة تقريباً في اقتصاد يقوم على المال، ولكن إذا أمكن تداركها بحكمة فمن المستطاع تنفيذها بتغييرات دائمة غير محسوسة (54).

فلنعتمد إلى إنقاص ثروة الناس وزيادة آخرين ونهيب للفقر حالة من اليسر والرخاء حتى يتمكنوا بسبع أو ثمان ساعات من العمل في اليوم أن يوفروا لأنفسهم ولذويهم وسائل العيش ويسدوا حاجتهم، ومن ثم يصبح الشعب سعيداً بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية (55).

ج - تأثير هلفشيوس

وهنا في كتابين لرجل واحد نجد كل الأفكار التي صنعت الثروة الفرنسية وكل الأفكار التي تعالج في صدور الأمم وتحركها اليوم. فلا عجب أن وضعت الفئات الفرنسية المتعلمة المثقفة في الربع الثالث من القرن الثامن عشر هلفشيوس في منزلة سواء تقريباً مع فولتير وروسو وديدرو، ورحبت بكتابه الأول وهللت له مما كاد لا يحظى به كتاب غيره في ذلك العصر. وقال برونييتيز "إن أي كتاب غيره لم يحدث مثل هذه الضجة في زمانه، ولم ينشر في الخارج أفكاراً أكثر أخذت تشق طريقها إلى العالم بأسره (56).

صفحة رقم : 12626

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

وذكر بريسو في 1775 "لقي منهج هلفشيوس وآراؤه أعظم رواج وشعبية". وشكا تروجو على حين كان يعارض هذا المنهج من أن الناس امتدحوا وأثنوا عليه في شيء من الشدة والعنف: وقال آخر "إن هذا الكتاب كان يوجد على كل منضدة (57)". وأطرى كل النقاد وضوح أسلوبه وقوة حكمه وتصويراته البارعة والروح الإنسانية البارزة في رجل يدافع عن إعادة توزيع الثروة على حين أنه ثري أوتي كل شيء.

ومهما يكن من شيء فإن الفلاسفة أنفسهم انتقدوا "منهج هلفشيوس" باعتباره قائماً على مفاهيم خاطئة. ودافع فولتير عن دعاوى الوراثة. فكل الناس عند الميلاد ليسوا متساويين في التفوق الذهني والخلقي الكامن ورأى أن العقوبات مولودة لا مصنوعة (58). واتفق ديدرو مع فولتير فيما ذهب إليه. وفي تقنيده لكتاب هلفشيوس بعنوان "الإنسان" (كتب في 1775، ولكن لم ينشر إلا بعد مائة عام من تأليفه)، دفع ديدرو بأن الأحاسيس تنتقل بأشكال مختلفة الأفراد بفعل الفوارق الموروثة في تركيب المخ وبنيتته (59) "لا يولد الإنسان غفلاً أو خالياً من كل شيء، حقاً أنه حقاً أنه يولد بدون أفكار أو انفعالات موجهة، ولكنه منذ اللحظة الأولى يوهب استعداد أو ميلاً إلى التصوير والمقارنة والاحتفاظ ببعض الأفكار في تلذذ واستمتاع أكثر من غيرها. وميلاً ونزعات مسيطرة تنتج عنها فيما بعد الانفعالات الواقعية" (60).

وهنا نجد ديدرو، الذي كان قد بدأ بجون لوك بتحول إلى ليبنيز ويمد يده إلى كانت. أن تأثير البيئة والتعليم في نظر ديدرو، محدود دائماً بالوراثة "إننا لا نستطيع أن نعطي ما رفضته الطبيعة، وربما نقضي على ما تهبه الطبيعة.. إن

التعليم يعمل على تحسين ما تهبه لنا" (61) واستاء من الهبوط بالمناهج الفكرية إلى لذة حسية، واشترك في الاحتجاج العام على فكرة هلفشيوس التي تقول بأن كل الغيرة (حب الغير) أنانية غير محسوسة أو محتجبة.

صفحة رقم : 12627

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

وكانت مدام دي ديفان واحدة من نفر القليل الذين اتفقوا مع هلفشيوس في هذه النقطة. وقالت "إن هذا الرجل كشف الغطاء عن سر كل إنسان" (62) أما آدم سميث الذي كان يتبع صديقه هيوم فإنه أصر على أن الغيرة مؤسسة على مشاعر عطف فطرية مثل الأنانية سواء بسواء، ولكنه في كتابه "ثروة الأمم" أسس نظريته الاقتصادية على شمولية حب الذات. وفي نشوة الثورة أثار هلفشيوس اشمزاز مدام رولان. "لقد شعرت أنني مدفوعة بكرم لم يعترف هو به قط... وواجهت نظرياته بالأبطال العظام الذين خلدتهم التاريخ (63). ولا يمكن حل هذه المسائل بسهولة في فقرة من الفقرات، ويبدو واضحاً أن الاختلافات في التكوين الوراثي أو الخلقي تؤثر تأثيراً جوهرياً في عمل البيئة والتعليم. وكيف إذن نفسر بأي شكل آخر الخلق والنمو المتبادلين كل التباين في الأخوة على الرغم من التشابه في النشأ والأصل والفرص؟ ومع ذلك فإن هلفشيوس كان على حق؟ في نطاق الحدود التي فرضتها البيئة، فيمكن أن تحدث تغييرات جسيمة في سلوك الأفراد والجماعات بفعل الاختلافات فب البيئة والتعليم والتشريع، إلا كيف نفسر انتقال الإنسان من الهمجية إلى المدنية؟ وربما يجدر بنا أن نسلم لهلفشيوس بأنه ليس ثمة إنسان يعمل واعياً بطريقة أشد إيلاًماً من بديلنها. ولكن بعض الغرائز الاجتماعية-حب الأم، حب العيش مع أبناء جنسه، حب الاستحسان-على الرغم من أنها لا تقدر على منافسة غرائز النزعة الفردية في كمال القوة، فإنها أي الغرائز الاجتماعية قوية إلى حد تستطيع معه توليد أفعال اجتماعية قبل أي ترجيح واع للذة أو الألم أو النتيجة. فكل منا ذات أو "أنا" ولكن بعض الذوات أو "الأنا" تتسع لتشمل أسرتنا أو جماعتنا أو وطننا أو الجنس البشري بأسره. وعلى هذا الأساس تكون أوسع "أنا" هي الأفضل. وعلى أية حال فإن كثيراً من الناس تأثروا وتحركوا للتفكير والعمل بفضل آراء هلفشيوس. ومن الجائز أنه تحت تأثير هلفشيوس بدأ لاشالوتيه

صفحة رقم : 12628

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

حملته لإبدال مدارس كهنة القرى وكليات الجزويت بطرق تعليمية تشرف عليها الدولة. وترجع المدارس العامة في أمريكا إلى مقترحات كوندرسيه الذي سمى نفسه تلميذ هلفشيوس ومريده (64) وأكد بكاريا Beccaria إن كتابات هلفشيوس هي التي أوحى بكتابة دفاعه التاريخي عن إصلاح قانون العقوبات والسياسة. وصرح بنتام بأنه "مدين

لكتاب هلفشيوس "الذكاء" بكثير من أفكاره "بما في ذلك مبدأ المنفعة بالتماس أعظم السعادة لأكبر عدد من الناس في الأخلاق وفي التعليم(65). وشهد "الميثاق الوطني" في 1792 بتقدير تأثير هلفشيوس في الثروة، بأن منح بنات هلفشيوس لقب "بنات الأمة". وبنى وليم جودون Goduin بحثه في العدل السياسي (1793) على تعاليم هلفشيوس. أما زوجته ماري ولستونكرافت فقد وجهها إلى حد ما إلى تأليف كتابها المؤذن بعهد جديد "حقوق المرأة"، دعوى هلفشيوس بأن الفوارق بين الجنسين ترجع إلى حد كبير إلى التفاوت في التعليم وفي الفرص(66). وقابل كثير من معاصري هلفشيوس بين نظريته في شمولية الأنانية وبين كرم خلقه وحياته الموسومة بالخير والإحسان. وكتبت عنه مارمونتيل: "ليس ثمة رجل أفضل منه، فهو متحرر كريم جواد دون تظاهر أو تصنع، محسن من صميم قلبه(67) ووصف جريم الذي نادراً ما كان مسرفاً في مدحه، هلفشيوس بأنه "رجل مهذب وديع حقاً، منصف متسامح، ليس سريع الغضب أبداً، زوج صالح ووالد عطوف، وصديق وفي وإنسان طيب(68). وكان يصدق على شخصه ذلك الذي جاء في مؤلفه "الذكاء" "من أجل أن نحب الناس يجدر أن نتوقع القليل منهم... إن كل إنسان مادامت أهواؤه وانفعالاته لا تغشى عقله سيكون أكثر تسامحاً كلما ازداد استنارة... فإذا كان الرجل العظيم هو دائماً أكثر تسامحاً... وإذا كان يقابل أخطاء الآخرين ببلسم الإشفاق الشافي ويتمهل في الكشف عن هذه الأخطاء، فما ذلك إلا لأن سمو عقله لا يجيز له أن

صفحة رقم : 12629

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> هلفشيوس

يطنب في رذائل أفراد بعينهم وحمقاتهم، بل يحوم حول رذائل وحماقات الجنس البشري بصفة عامة(69). إنه في فوري وفي باريس عاش مع زوجته وأطفاله أنشودة الإخلاص والسعادة. وفي عام 1764 تجول في إنجلترا وألمانيا. وقابل هيوم وجييون وفرديريك الأكبر. وفي عام 1770 أسهم في تكاليف التمثال الذي أقامه بيجال لفولتير. وفي 1771 فارق الحياة على فراشه مع دي هولباخ وغيره من الأصدقاء. ووفاء لذكراه رفضت أرملته كل من طلب يدها للزواج، بما فيهم بنيامين فرنكلين. وعمرت بعد وفاة زوجها تسعاً وعشرين سنة. ومرت بعهد الثورة في سلام وأمان وقضت نحبها في عام 1800، في سن الواحد والثمانين.

صفحة رقم : 12630

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> فلاسفة مساعدون

2- فلاسفة مساعدون

في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر أنظم حشد كبير من الفلاسفة الأقل شأنًا إلى الهجوم على المسيحية. و عملوا بكل الجد والحماسة اللتين تميز بهما المسيحيون الأوائل في نشر الإنجيل والدين الجديد، أو المسيحيون الأسبان في طرد العرب من بلادهم، ودبجوا فيضاً من المقالات والرسائل. ولما نضب معينهم عمدوا إلى ترجمة كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب المناهضة للدين، من لوكر بيشيس إلى هوبز وابتدعوا تقويماً جديداً للقديسين والشهداء، وضموا إلى قائمة القديسين جوليان المرتد والهوا بومبوناتزي وبرونو وكامبانللا وفانيني وبيل وغيرهم من ضحايا الاضطهاد وأدانوا بني إسرائيل لا لأنهم تقاضوا فوائد على القروض بل لأنهم أنجبوا المسيحية. وأنزلوا "يهوه" عن عرشه باعتباره أقوى رمز للقسوة والوحشية، وإلهاً للحرب، وأول من عمد إلى الإبادة الجماعية. وسخروا من الخطيئة الأولى ومن "الأب" الذي كان عليه أن ينزل إلى الأرض مثل ابنه ويضرب بالسياط ويصلب ليهدئ من غضبه وهو الأب "الذي أثار امرأة

صفحة رقم : 12631

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> فلاسفة مساعدون

فضوله للفاكهة (التفاح) أو المعرفة. ودمغوا الحروب الصليبية بأنها حملة لاغتصاب الأرض واحتكار التجارة، واحتقروا العصور الوسطى باعتبارها عصوراً مظلمة، ونظروا بازدراء إلى الكاتدرائية القوطية على أنها وحشية بشعة. ولحظ عليه دالمبير "قдрاً من التسامي بالأفكار وقلقاً واهتياجاً وفوراناً عاماً في الأذهان اكتسح منه بشيء من العنف كل ما وقف في طريقه" (70).

وكان هناك جاك أندريه نجبون Noigeon الذي وصفه سانت بييف بأنه "شماسي" متعصب للإلحاد (71) أنه عاش وعمل مع دي هولباخ مترجماً وقوراً، ونشر معاً على مدى عشر سنين ثلاثين كتاباً صغيراً أو كبيراً أصلاً أو مستورداً، وكلها ضد المسيحية. وقال ديبدو "إنها قتابل تتساقط كالمطر في بيت الرب (72). كمل كان هناك نيقولا بولانجيه، وهو أيضاً أحد أصدقاء دي هولباخ. واشترك في هذه الحملة على المسيحية حتى وفاته (1759) وخلف وراءه مخطوطة عنوانها "إمطة اللثام عن عهد قديم" احتفظ بها دي هولباخ حتى عام 1765 حين أصبح شوازيل على رأس الوزارة وكان صديقاً لجماعة الفلاسفة. وعندئذ دفع بها إلى المطبعة مع مقدمة مثيرة بقلم ديبدو. ويقول بولانجيه: "أن الديانة نشأت من خلال مخاوف الإنسان البدائي من الفيضانات وغيرها من الكوارث الواضح أنها خارقة للطبيعة ونظمها (أي الديانة)، أقامها قسيسون وملوك في مؤامرة لتبرير الطغيان في سبيل فرض جانر لعقيدة تقليدية، ولن يجد الجنس البشري مطلقاً مهرباً من هذه المؤامرة الشريرة إلا باتباع نور العقل تحدياً للقساوسة والملوك (73).

وأهم من هذا كان أندريه موريليه. وهو نتاج آخر لليسوعيين وراهب آخر تدرج في مراتب المتمردين. ولد في 1727 وعاش طويلاً حتى وصفته مدام نكر بأنه "دب" وعلى الرغم من ذلك أوتي من الصراحة والإخلاص والاستقامة بالإضافة إلى ألف من الصفات الحسنة وقدر كاف من الدين

صفحة رقم : 12632

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> فلاسفة مساعدون

ما يجعله يرتاب في وجود إله. ويصرح أحياناً بذلك إلى أصدقائه اعتماداً منه على حكمتهم في أنهم لن يفضحوا سذاجته وسرعة تصديقه(74). وكتب تحت إشراف ديديرو بعض المقالات لدائرة المعارف. وعلى مائدة العشاء لدى هولباخ كانت سخريته لاذعة حتى أن فولتير أسماه "الأب الموقر السيد عضهم انهشهم" ولكن قال عنه مارمونتيل "أنه كان لديه أفكار عميقة... وكان قويم الخلق كما كان ثابت الجنان"(75). وفي 1762 نشر "كثيلاً عن أعضاء محاكم التفتيش" عبارة عن مختارات من "إدارة محاكم التفتيش" لنقولا أميريكو قد عمل في حماسة وغيره محققاً وعضواً هاماً في محاكم التفتيش من 1356 إلى 1399. وكان الفرنسيون قد نسوا تقريباً محاكم التفتيش الأسبانية ولكن موريليه أعادها إلى ذاكرتهم بمجرد اقتباس إجراءات هذا النظام وعقوباته في أوج عظمته. ومنح المالشرب موريليه ترخيصاً حكومياً لطبع الكتاب قائلاً أن قانون العقوبات الفرنسي كان لا يزال من الوجهة العملية مطابقاً لقانون محاكم التفتيش(76). وكاد موريليه إلا يصدق هذا، ولكن في السنة التي رأى فيها الكتاب طريقه إلى المطبعة وجد برلمان تولوز يقضي على جان كالا Calas في آلة التعذيب.

وذكر جريم الرزين الرصين عادة عن راهب آخر هو جوبوم رينال Raynal في صحيفته "كورسبندانس" عن 1772 "منذ صدور كتاب مونتسكيو روح القوانين ربما يظهر في أدبنا كتاب أجدر بالانتقال إلى أبعاد الأعقاب والأجيال القادمة أو الرفع من شأن تقدم الاستتارة لدينا من كتاب رينال "التاريخ الفلسفي والسياسي للمستعمرات والتجارة الأوروبية في جزر الهند الشرقية والغربية"(77) وربما كان جريم يتخذ بصفة خاصة موقفاً ودياً من المؤلف لأن رينال هو الذي أفتتح في 1753 وأوصى في 1755 بصحيفة الكورسبندانس الأدبية لجريم، وعليها عاش جريم. وأكثر منهذا فإن ديديرو صديق جريم قد عاون في إعداد كتاب رينال الخالد الذي لا يفتح ولا يقرأ في أيامنا هذه أو يبدو أن رأى جريم أكده ما نال

صفحة رقم : 12633

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> فلاسفة مساعدون

الكتاب سالف الذكر "التاريخ الفلسفي والسياسي" على الفور من شعبية فبيعت منه أربعون طبعة قبل 1789 عدا طباعات لا تحصى مسروقة أو مترجمة وحظي الكتاب بتقدير فوانكلين وجيبون وروبرتسون. وأوحى هذه الكتاب إلى توسان لوفترتير Toussain L, Boaverturn بجملته المخلصة لتحرير العبيد (1791)، وذهب ناقد واسع الإطلاع إلى أنه كان لهذا الكتاب تأثير على الثورة الفرنسية أعظم حتى من تأثير كتاب روسو "العقد الاجتماعي"(78).

ودخل رينال باريس قسيساً فقيراً. وتكشف أسطورة عن طبيعة المرح والأبتهاج عند المتمردين، فتنسب نجاته من الموت جوعاً إلى أن الراهب بريفوست كان قد تلقى عشرين سو (عملة فرنسية قديمة قيمتها خمسة سنتيمات) ليقوم قديماً على روح أحد الموتى، وأن بريفوست أعطى الراهب دي لا بورت 15 سو ليقوم القديس بدلاً منه، وأن هذا الراهب الأخير نفخ رينال ثمانية ليقوم القديس بدلاً منه(79). وابتهج رينال بالأكل على موائد هلفشيوس ودي هولباخ، وأثبت أنه جليس أنيس. ويبدو أنه حظي بمعونة كثير من المؤلفين فضلاً عن ديديرو في جميع مادة كتابه، بل حتى في تأليف بعض فصوله. أن روسو الذي تشاجر وتنازع مع كل الناس بلا استثناء وجد رينال مسالماً غير مشككس، وقدم له الشكر في "اعترافاته" على وفائه بحق الصداقة وتقديره للمساعدة المالية(80).

ولا بد أن رينال قد جمع مالا بطريقة ما، حيث قيل إنه رشا الرقيب للحصول على ترخيص بإصدار كتابه (81). أنه قضى عشرين عاماً يعمل جاهداً في إعداده، وفصل القول تفصيلاً في جشع الأوربيين وخيانتهم وعنفهم في معاملة السكان الأصليين في جزر الهند الشرقية، واستنكر هذا كله وحذر الرجل الأبيض من الانتقام الرهيب الذي قد تعمد إليه الأجناس الملونة إذا عادت إليها السلطة (82). وكان الكتاب أول اتهام فرنسي للاستغلال الاستعماري، كما كان من أوائل الكتب التي أكدت على أهمية التجارة في تحديد التاريخ الحديث، وأسهم بطريقة عابرة في إضفاء المثالية على المواطنين

صفحة رقم : 12634

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> فلاسفة مساعدون

الهنود وإعجاب المتحررين الأوربيين بحضارة الصين. وزخرت المجلدات المسهبة بالموضوعات والأفكار الرئيسية في عصر الاستنارة: مقت الخرافة وحرقة الكهانة وبغض تسلط الدولة والكنيسة على الحياة والفكر. وأيد رينال فكرة أن الكتلثة كانت خداعاً أو دجلاً جمع في الحكام والكهنة قواهم ليدعم كل فريق منهم الآخر عن طريق الأساطير والخرافات والمعجزات والدعاية والظلم والمذابح. وأهاب بحكام أوربا أن يحلوا أنفسهم من أي ارتباط بالكنيسة، ويسمحوا بحرية الكلام والنشر، ويمهدوا الطريق للحكومة الديمقراطية. ولم تتج البروتستنتية منه، حيث قال أنها كذلك ارتكبت جريمة التعصب. ووصف تعصب البيوريتانيين في إنجلترا الجديدة واضطهاد السحرة في سالم Salem (مدينة في ماساتشوست).

وعلى الرغم من الوقت الطويل الذي قضاه رينال في إعداد كتابه، فإنه قضى عليه بالأهمال في زوايا النسيان نتيجة لما ورد فيه من أخطاء. إنه لم يتحرر الحقائق فأعتبر الأساطير تاريخاً، وأهمل تواريخ الأحداث، ولم يورد أسماء المراجع الموثوقة، وشوش المادة وأفسدها، واستخدم دييرو (أو سمح لدييرو أن يشغل نفسه في كتابة الخطب المسرفة والنداءات العاطفية مما لا يكاد يليق بمؤلف في التاريخ ولكن هذه لم تكن عصور تجرد أو نزاهة، فالكتاب كان سلاحاً، ولا يجوز إضعاف قوته بعرض الجوانب المتعارضة فإن الحرب كانت حرباً وصرعاً. وهكذا قدرت الحكومة الفرنسية فأصدر برلمان باريس أمراً بإحراق الكتاب، كما صدر الأمر إلى رينال بمغادرة فرنسا، فهرب إلى الأراضي الواطنة، ولكنه رأى ضماناً للأمن والسلامة أن يعود في عام 1784 في عهد أكثر ملوك البوربون اعتدالاً. وكان رينال من الفلاسفة للقلائل الذين شهدوا الثورة الفرنسية وعمرها بعدها، ورأى عنف الثورة واستخدامها لكل وسائل التعصب وعدم التسامح القديمة. وفي 31 مايو 1791 وهو سن الثامنة والسبعين وجه إلى الجمعية التأسيسية رسالة يحذر بها من التطرف، فكتب يقول "لقد تجرأت لأمد طويل

صفحة رقم : 12635

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> فلاسفة مساعدون

على تنبيه الملوك إلى واجباتهم، فسمحوا لي اليوم أن أنبه الشعب إلى أخطائه" فأشار إلى أن طغيان الأهالي قد يكون قاسياً وجائراً قدر طغيان الملوك وجورهم. ودافع عن حق رجال الدين في التبشير بعقيدتهم، مادام معارضوهم يتركون أحراراً في التعبير عن آرائهم. واحتج على القوانين التي تفرض دين دولة ما وعلى إعتداء الجماهير على القساوسة. وأغرى روبسبير بالسماح للرجل العجوز بتفادي المقصلة، ولكن الحكومة صادرت ممتلكات رينال ومات فقيراً معدماً (1769) وسط انتصارات الثورة وإرهابها.

صفحة رقم : 12636

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

3- دي هولباخ

أ - الملحد اللطيف

كان أحب جماعة الفلاسفة إلى باريس ألماني ولد (1733) في اديشيم في أمارة سبيير Speyer الأسقفية (في بافاريا) وعمد باسم بول هنريخ ديتريش غون هولباخ، ونشأ كاثوليكياً. وجمع جده ثروة من إدخال عرق الذهب من هولند إلى فرساي. وفي ليدن درس بول العلوم وتعلم اللغة الإنجليزية. وبعد صلح أكس لاشبيل (1748) استقر به المقام في باريس وأصبح من رعايا فرنسا وتزوج من أسرة من خبراء المال، وحصل على النبالة باستثماره 110.000 جنيه بفائدة 5% في شركة سكرتيري الملك. وسماه المحيطون به "البارون" لأنه كان يمتلك في وستاليا ضيعة تدر عليه ستين ألف جنيه سنوياً. وبلغت جملة دخله السنوي مائتي ألف جنيه. ويقول موريليه أنها ثروة لم يستغلها أحد استغلالاً أشرف ولا أنفع منه للعلم والفن (83) وكان يرعى موريفو وغيره من الكتاب أحسن رعاية (مثل دور ما سيناس بالنسبة لهم، وهو راعي هوراس وفرجيل في القرن الأول ق.م) وجمع مكتبة ضخمة ولوحات ورسومات وعينات ونماذج للتاريخ الطبيعي. وأصبحت داره كما وصفها أحد الظرفاء "مقهى أوروبا" وجعلت منه

صفحة رقم : 12637

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

ولائم العشاء عنده وصالونه في باريس أو في داره الريفية "جراند فال" على حد تعبير هوراس وولبول "قهرمان الفلسفة" وأعدت مدام دي هولباخ كل يوم خميس ويوم أحد المائدة لأثني عشر ضيفاً. ولم يكونوا هم أنفسهم دائماً في كل مرة، ولكنهم كانوا على الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية: ديدرو، هلفشيوس، دالمبير، بولانجيه، ومريليه، سانت لامبرت، مارمونتيل، وأحياناً بيفون، ترجو، وكني، كذلك جاء روسو ولكنه كان يرتاح للأحادي الذي يتدفق من حوله، وهناك كان ديدرو في ذروة الحماسة والعنف، أما الراهب جالباني فقد ابتعد عن الفلسفة حيث أفسد النظرية بالدعابة والسخرية. وكان عقد هذا الكنيس - كما كان البارون يسمى هذه الاجتماعات - يلتئم في الساعة القانية يتجادبون أطراف الحديث ويأكلون ويتحدثون حتى الساعة السابعة أو الثامنة. وتلك كانت الأيام التي كانت فيها المناقشة أدباً غير مسطور وليس ثمة فوضى المقاطعة أو توافه الأمور. ولم يكن هناك موضوعات محظورة الخوض فيها، أو كما قال مورييه "هذا هو المكان الذي تستمع فيه إلى أكثر المناقشة حرية وحيوية وتنويراً وتنقيفاً بالنسبة للفلسفة والدين والحكومة، ولم يكن للهزل أو المزاح الخفيف مجال هناك"... وهناك فوق كل شيء أثار ديدرو عقولنا وألهب نفوسنا (84) وذكر ديدرو نفسه للأنسة فوللان أنهم تحدثوا في الفن والشعر وفلسفة الحب وفكرة الخلود، كما تحدثوا عن الإنسان والآلهة والفضاء والزمن وعن الموت والحياة (85). وقال مارمونتيل "إذا كان الطقس جميلاً استبدلنا بولائم العشاء أحياناً نزاهات فلسفية سيراً على الأقدام على ضفاف السين، وكانت وجبة الطعام آنذاك أكلة سمك ضخمة، وكنا نذهب كل منا بدوره إلى أشهر الأماكن بهذا السمك، وعاد إلى سان كلو، وكنا نقصد مبكرين في أحد القوارب لنستشق نسيم النهر ونعود في المساء عن طريق غابة بولونيا (87). وبلغ صالون دي هولباخ من الشهرة حداً استخدم معه بعض زوار

صفحة رقم : 12638

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

باريس من الأجناب نفوذهم للحصول على دعوة ليحضرها هذه اللقاءات. ومن ثم جاء في أوقات مختلفة هيوم وستيرن وجاريك وهوراس وولبول وفرانكلين وبريستلي وأدم سميث وبكاريبا. زقد أزعجهم في بعض الأحيان وجود هذا العديد من الملحنين هناك. وكم من مرة سمعنا ديدرو يقول (لروميلي) أنه حين كان هيوم يشك في الوجود الفعلي للملحنين كان البارون يؤكد له "أنك تجلس إلى المائدة مع سبعة عشر (88)". وروى جيبون أن فلاسفة باريس "سخرُوا من تشكك هيوم الموسوم بالحذر، وبشروا بتعاليم ومعتقدات الملحنين مع نفس التعصب الأعمى لدى الدوجماتيين (الدوجماتية أي الجزمية) تؤكد الرأي بغطرسة دون مبرر وتمحيص كافيين وصب اللعنات على المؤمنين في تسخيف وازدراء (89)". كذلك روى بريستلي أن "كل الفلاسفة الذين تعرفت بهم في باريس كانوا لا يؤمنون بالمسيحية بل صرحوا بأنهم ملحدون (90)" ومهما يكن من أمر فإن مورييه لحظ "أن عدداً كبيراً منا كانوا ملحنين ولم يخجلوا من ذلك. ودافعنا بشدة عن أنفسنا ضد الملحنين، على الرغم من أننا أحببناهم لحسن رفقتهم وصحبتهم". (91) ورأى وولبول أن "وكر الفلاسفة" لدى دي هولباخ يؤدي ذوقه الإنجليزي. وما كان أشد امتعاضه حين رأى رينال يعرف عن تجارة إنجلترا ومستعمراتها أكثر مما يعرف هو إلى حد أنه ادعى الصمم. أما بيان هيوم فكان فيه مجاملة بالغة، أن رجال الأدب هنا (في باريس) مقبولون يرتاح المرء إلى معاشرتهم، وكلهم رجال ذوو شهرة واسعة يعيشون في انسجام تام (أو يكاد يكون تاماً) بينهم جميعاً، ولا تشوب أخلاقهم شائبة، وقد يكون مبعث أعظم الرضا عندك ألا يكون بينهم ربوبي واحد. (92) والأرجح أن هذا التصريح يدعو إلى الحيرة والارتباك.



ولكن اتفق رأي الجميع على أن البارون وقرينته كانا مضيئين مثاليين وشخصيتين محببتين إلى النفوس. وعلى حد تعبير جريم: عاشت مدام دي هولباخ لزوجها فقط، فكانت إذا فرغت من الترحيب بضيوف

صفحة رقم : 12639

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

زوجها وتقديم ما لذ وطاب لهم أوت إلى ركن منعزل وانصرفت إلى شغل الأبرة، دون أن تشترك في مناقشاتهم(93)، وماتت في عام 1754 في ريعان شبابها وظل دي هولباخ لبعض الوقت يعاني يأساً تاماً(94) وبعد عامين تزوج من أختها التي أثبتت أنها مخلصه قدر إخلاص أختها. وكان متواضعاً في سلوكه وعاداته وديعاً في مناقشته، لا تعلم شماله ما فعلت يمينه من بر وإحسان(95)، حتى لم يكذ أحد يرتاب في أنه كتب مثل هذا الدفاع القوي عن الإلحاد في كتابه "نهج الطبيعة" فكتبت مدام جيوفرين منافسته في عقد الندوات وإقامة المآدب في صالونها: "لم أر قط رجلاً في غاية البساطة مثله"(96)، أما روسو الذي درج على كراهية كل جماعة الفلاسفة تقريباً فإنه احتفظ بإعجابه بشخصية دي هولباخ وخلقها إلى حد أنه اتخذها نموذجاً لفولمار الفاضل الذي يعتنق مذهب اللادرية في رواية "هلواز الجديدة". وكتب جريم الذي حلل كل إنسان فيما عدا روسو في موضوعية رصينة:

"كان طبيعياً أن يؤمن البارون دي هولباخ بامبراطورية العقل، فقد كان هواه، (ونحن دائماً نحكم على غيرنا بمقدار عواطفنا) أن يضع الفضيلة والمبادئ القويمة في المقام الأول وكان من العسير عليه أن يضم الكراهية لأي من الناس، ومع ذلك كان لا يستطيع دون جهد جهيد أن يخفي مقتنه الصريح لرجال الدين... فكلما تحدث عنهم تخلى عنه خلقه الرضي بطبيعته"(97).

ومن هنا ساند دي هولباخ "دائرة المعارف" أكبر مساندة وأسهم فيها بماله ومقالاته. وطمان ديدرو وشجعه حتى حين تخلى دالمبير وفولتير عن المشروع، وكانت مقالاته في معظمها عن العلوم الطبيعية، فإنه من من الجائز أن البارون كان في هذا الحقل أوسع الفلاسفة إطلاعاً. وكتب جريم في 1789. "لم ألق قط برجل أكثر منه علماً وإطلاعاً، ولم أر قط رجلاً أقل منه اهتماماً بالتظاهر بالعلم في أعين الناس"(98). وترجم عن الألمانية كثيراً من الرسائل العلمية بمساعدة نيجيون، ومن أجل هذا عين عضواً في أكاديميتي برلين وبطرسبورج، زلم يحاول قط أن يلتحق قط بالأكاديمية الفرنسية.

صفحة رقم : 12640

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

وافتنن دي هولباخ بالعلم وتوقع من ورائه نهوضاً سريعاً بحياة الإنسان، ومن ثم فإن البارون نظر نظرة عدائية بالغة العداء إلى الكنيسة التي بدا أن سيطرتها على التعليم تسد الطريق أمام المعرفة العلمية، فانتهاز كل فرصة لمهاجمة

رجال الدين فكتب مقالتي "آباء الكنيسة" و "الحكومة الدينية" لدائرة المعارف. فمنذ 1766 فصاعداً نظم مع نيجبون مصنعاً حقيقياً لإخراج الأدب المعادي للكنيسة. ثم ظهر في تعاقب سريع "قائمة القديسين"، و"الوقفة المقدسة" و"آباء الكنيسة بغير قناع" و "القساوة الدينية وتحطيم الجحيم" وهنا جاء البشير بأنباء سارة- القضاء على الجحيم. وفي 1761 صدر عن هذا الذي أطلق عليه بعضهم معمل الإلحاد كتاب عنوانه "المسيحية في خطر" كتبه أساساً دي هولباخ، ولكنه نسب في صحيفة العنوان إلى بولانجيه الراحل. وبسبب بيع هذا الكتاب اتهم ووصم بالعار أحد الباعة الجائلين وعوقب بالتجديف في السفن الشراعية لمدة خمس سنين. ولقي مثل هذا الجزاء لمدة تسع سنين غلام اشترى هذا الكتاب ليبيعه ثانية(99). وكان الكتاب هجوماً مباشراً على التحالف بين الكنيسة والدولة كما إنه استبق حقاً وصف ماركس للديانة بأنها "أفيون الشعوب".

"إن الديانة هي فن تخدير الناس بالحماسة (وفي القرن الثامن عشر كانت هذه اللفظة تعني الغيرة الدينية) لتحول بينهم وبين مناهضة المساوي والمظالم التي يعانونها من حكاهم. ولم يعد فن الحكم إلا مجرد الإفادة من أخطاء وخمول الذهن والنفس، وهي ما عرفت فيه الأمم بفعل الخرافة... وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرض على الناس أن يعانون ويحتملوا في صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرئية، وفرض عليهم أن يأملوا في السعادة في الحياة الآخرة إذا وافقوا على أن يكونوا بانسين في هذه الحياة الدنيا"(100).

ورأى دي هولباخ في اتحاد الكنيسة والدولة السيئة الجوهرية أو الشر الأساسي في فرنسا. "أنني بوصفي مواطناً أهاجم الديانة لأنها تبدو لي ضارة

صفحة رقم : 12641

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

بسعادة الدولة معادية للعقل البشري ومناقضة للفضيلة الحقة أو الخلق القويم"(101).  
"إن المسيحي يلقن، بدلاً من الفضيلة والأخلاق القويمية، الخرافات الخارقة القائمة على المعجزات والمبادئ والتعاليم البعيدة عن التصديق لديانة تتنافى تماماً مع العقل السليم. إن هذا المسيحي منذ أول لحظة في دراسته يتعلم ألا يثق فيما تشهد به حواسه وأن يخضع عقله..... ويعتمد اعتماداً أعمى على ما يقرره أستاذه. إن أولئك الذين حرروا أنفسهم من هذه الأفكار يجدون أنهم عاجزون لا حول لهم ولا قوة أمام الأخطاء التي رضعوها مع ألبان أمهاتهم"(102).  
ودفع دي هولباخ بأن بناء الفضيلة والأخلاق على المعتقدات الدينية عمل فيه مجازفة ومخاطرة، لأن هذه المعتقدات عرضة للتغيير وقد يدمر انهيارها القانون الأخلاقي القائم على أساسها أو المتفق معها.  
"إن كل من يكتشف ضعف أو زيف البيانات التي قامت عليها ديانته... لا بد يميل إلى الاعتقاد بأن الفضيلة والأخلاق وهمية مثل الدين الذي قامت عليه. وهذا يوضح كيف أن لفضتي "كافر وخليع" أصبحتا مترادفتين، ولن يكون ثمة ضرر من تعليم أخلاق طبيعية بدلاً من أخلاق لاهوتية، وبدلاً من تحريم الزنى والجرائم والرذائل لأن الله والدين حرماها، يجدر بنا القول بأن كل إفراط يؤدي الإنسان ويحول دون صيانتته والإبقاء عليه ويجعله جديراً بالازدراء في أعين المجتمع... وهو كذلك إفراط يحرمه العقل وتحرمه الطبيعة التي تريد للإنسان أن يعمل من أجل سعادته الدائمة"(103).

وأنه لمن العسير أن نفهم كيف أن رجلاً نعم بمثل هذا الثراء يجد فسحة من الوقت ليؤلف مثل هذا العدد الكبير من الكتب أو يبحث على تأليفها. وفي 1767 أخرج "اللاهوت السهل الحمل Theologie Portative سخر فيه سخرية بالغة من المبادئ السخيفة، وأجمل كل اللاهوت في رغبة الكنيسة في التسلط والسيطرة. وفي 1768 نشر "العدوى المقدسة أو التاريخ

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

الطبيعي للخرافة" متظاهراً بترجمته عن "جان ترنشارد الإنجليزي". وفي نفس العام أصدر "رسائل إلى أوجيني" أو الصيانة ضد الآراء المسبقة (دون تمحيص) والمزعم أنه بقلم فيلسوف أبيقوري في سكو Sceaux. وفي 1769 صدر "بحث في الآراء المسبقة" من تأليف مسيو دي مارساي Marsais يوضح أن العلاج الوحيد لمساوي الدين هو نشر التعليم والفلسفة. وفي 1770 نشر البارون النشيط تحفته الرائعة، وهو أقوى كتاب فذ صدر في الحملة ضد المسيحية.

ب - منهج الطبيعة

كان المزعم أن كتاب منهج الطبيعة أو قانون العالم المادي والعالم المعنوي طبع في لندن. ولكنه طبع في الواقع في أمستردام في مجلدين كبيرين يحمل اسم مسيو ميرابو Mirabaud وكأنه المؤلف. وهذا الرجل الذي كان قد فارق الحياة منذ عشر سنوات كان سكرتير الأكاديمية الفرنسية. وجاء في المقدمة عرض لتاريخ حياته ومؤلفاته ولم يصدق أحد أن الرجل الطيب المثالي ميرابود ألف مثل هذا الكتاب المخزي. وفي 1770 بعد أن قررت جمعية رجال الدين أن تجمع كل أربع سنوات منحة مالية للملك وأهابت به أن يمنع تداول المؤلفات المعادية للمسيحية، والتي انتشرت كثيراً في فرنسا. فأصدر لويس الخامس عشر أوامره إلى النائب العام أن يتخذ الإجراءات فوراً. وشجب برلمان باريس سبعة كتب من بينها كتاب دي هولباخ "فضح أسرار المسيحية ومنهج الطبيعة"، باعتبارها بعيدة عن التقوى، مليئة بالتخريف، محرضة على الفتنة، نزاعة إلى القضاء على كل فكرة عن الألوهية، وإلى إثارة الشعب للتمرد على ديانته وحكومته، والقضاء على كل مبادئ الأمن العام والأخلاق، وصرف الناس عن واجب الطاعة والإذعان لمليكمهم. وكان ينبغي إحراق الكتب واعتقال مؤلفيها وعقابهم عقاباً صارماً. ويقول موريليه أن كثيراً

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

من الناس عرفوا أن دي هولباخ هو المؤلف وأنهم كتموا السر لمدة عشرين عاماً. وظلت الندوة تعقد الاجتماعات. وعدت مدام دي هولباخ إلى بعضها كانون برجييه الذي كان لتوه قد تلقى معاشاً من رجال الكنيسة لمقالاته الرائعة

التي كتبها دفاعاً عن الكنيسة الكاثوليكية. وارتاب كثيراً من الناس في أن ديدرو كتب بعض أجزاء من الكتاب ولكنه في جملته كان حسن الترتيب وحسن الأسلوب مما يستبعد أن يكون بقلم ديدرو، ولكنه ربما أسهم فيه بالمناجاة المتألفة البليغة للطبيعة في آخر الكتاب. وعلى أية حال لم يشعر ديدرو بالأمن والطمأنينة في باريس ورأى من الحكمة أن يزور لانجرز.

ووصل كتاب "منهج الطبيعة" مهرباً من هولندا، وتهاقت على شرائه جمهور كبير يشمل كما روى فولتير العلماء والباحثين والجهال والسيدات (104). وسر به ديدرو فقال "إن ما أحب هو فلسفة واضحة محددة صريحة مثل تلك الموجودة في كتاب منهج الطبيعة، والمؤلف ليس ملحداً في أي من الصفحات، وهو ربوبي في بعضها، وفلسفته تجري على نسق واحد" (105). وهذا يختلف عن ديدرو كل الاختلاف. أن ما أحبه في الحقيقة هو أن دي هولباخ كان ملحداً في كل صفحات الكتاب. ومع ذلك فإن الكتاب كان مشرباً بروح تقارب التقاني الشديد أو الإخلاص الديني في سعادة المبشر. أن دي هولباخ رأى عالماً يسوده البؤس والشقاء. حيث يحكمه الملوك والقساوسة ومن ثم خلص إلى أن الناس سيكونون أسعد حالاً لو انهم ولوا ظهورهم لرجال الدين والملوك واتبعوا رجال العلم والفلسفة. وإن العبارات الأولى في الكتاب لتتبع عن روحه وفكرته الرئيسية:

"إن مصدر شقاء الإنسان وبؤسه هو جهله بالطبيعة. إن إصراره على التمسك بالأراء الخاطئة العمياء التي تلقنها في طفولته... وما نتج عن ذلك من تحيز وهوى ظللا عقله وأفسدا ذهنه.. يبدو أنهما قضييا عليه بالاستمرار على الخطأ... أنه يستمد أسلوب تفكيره من الآخرين تحت مسؤوليتهم،

صفحة رقم : 12644

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

ثقة منه بهم، وهم أنفسهم مخطئون، أو أن لهم مصلحة في تظليله وخداعه. وإزالة هذه الغشاوة وإخراجه من هذه المتاهة فإن الأمر يتطلب بدأً حانية وحباً شديداً... كما يقتضي أعظم الشجاعة التي لا يعترىها خوف ولا وجل وتصميماً أكيداً لا يكل ولا يمل.... ومن ثم يكون أهم واجب علينا أن نفتش عن الوسائل التي نقضي بها على الأوهام التي تظللنا وتخدعنا. وينبغي أن نفتش عن العلاج لهذه المساوي في الطبيعة نفسها. ففي وفرة مواردها وحدها يمكن أن نتوقع في تعقل وجود الترياق الشافي من كل الشرور التي جلبتها علينا حماستنا الطاغية الموجهة أسوأ توجيه. لقد حان الوقت للبحث عن هذا العلاج ومواجهة هذه المساوي بشجاعة وفحص أسسها وتدقيق النظر في مقوماتها. أن العقل بخبرته الهائلة المخلصة ينبغي أن يقتلع من الجذور هذه الأهواء التي كان الجنس البشري هو الفريسة الوحيدة لها لأمد طويل. ولنحاول أن نغرس في الإنسان الشجاعة واحترام عقله مع حب لا يفتر للحقيقة، بهدف أن يلتمس المشورة والرأي من خبرته، فلا يعود العوبة لخيال توجهه السلطات توجيهاً مظللاً. ويتعلم أن يبني أخلاقياته على الطبيعة وعلى حاجياته وعلى المنفعة الحقيقية للمجتمع، ويتجرأ على أن يحب ذاته، ويصبح كاهناً فاضلاً عقلاً. وفي هذه الحالة لا بد أن يكون سعيداً (106).

وبعد أن انتهى دي هولباخ من بيان برنامجه على هذه النحو تقدم في ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والاعتبارات والأفكار الخارقة للطبيعة. ويحبذ الطبيعة بكل ما فيها من جمال وقسوة وتقبيد وإمكانات، وليختزل كل الحقيقة والواقع إلى مادة وحركة، ويبني على هذا الأساس المادي منهجاً للفضيلة والأخلاق يأمل أن يكون في مقدوره أن يحول المتوحشين إلى مواطنين، ويشكل الخلق الفردي والنظام الاجتماعي ويضفي سعادة معقولة على حياة مقرر لها الموت المحتوم.

إنه يبدأ ويختتم بالطبيعة، ولكنه ينكر أية محاولات لتشخيصها أو تجسيدها.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; اتساع نطاق الحملة -&gt; دي هولباخ

إنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذي ينتج من اجتماع المادة في مجموعاتها المختلفة. وهذا هو الاسم المحبب لدى دي هولباخ للكون، فهو يعرف المادة في حرص وحذر بأنها بصفة عامة، كل ما يؤثر على حواسنا بأي شكل كان "كل شيء في الكون في حركة دائبة. وجوهر المادة هو أن تعمل، وإذا تأملناها في يقظة تامة لاكتشفنا أنه ليس ثمة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلق، وكل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو للحظة واحدة على نفس الحالة، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر وتتاقص وتتفرق باستمرار... إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمام لمسات الهواء(107)".

إن هذا الكل لا يقدم لمجال تأملنا وتفكيرنا "إلا مجرد تعاقب ضخمت متصل غير متقطع لأسباب ونتائج"(108). وكلما ازدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها. وقد يكون من العسير أن ندرك كيف "أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة" ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفي خارج عن الكون المادي. ومن العسير معرفة كيف يمكن أن تحس المادة أو تشعر ولكن سائر خواص المادة مثل "الجاذبية والمغناطيسية والمرونة والكهربائية، ليست، أقل صعوبة في إدراكها وفهمها من الشعور أو الإحساس"(109).

وإنسان كذلك "كائن مادي صرف خاضع لنفس القوانين التي تحكم سائر العالم. وكيف يتسنى لجسم مادي وذهن غير مادي أن يتفاعل كل منهما مع الآخر؟ أن "الروح" هي مجرد تنظيم الجسم ونشاطه ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل. أن القول بأن الروح ستحس وتفكر وتنعم وتعاني بعد فناء الجسم مثل الزعم بأن الساعة التي تتهشم إلى ألف قطعة تستمر في دقاتها ساعة بعد ساعة!... وتبين مرور الوقت(110). إن مفهوم الذهن والجسم على أنهما وجودان غير ماديين عوق معالجتنا للأمراض

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; اتساع نطاق الحملة -&gt; دي هولباخ

العقلية. وإذا اعتبرنا الذهن وظيفة من وظائف الجسم فإننا بذلك نمكن علم الطب من شفاء الكثير من الاضطرابات العقلية بالقضاء على أسبابها الجثمانية. ومن حيث أن الذهن وظيفة من وظائف الجسم فإنه أي الذهن خاضع للقاعدة الكونية، قاعدة الأسباب والنتائج الطبيعية. والفصل الحادي عشر من كتاب "منهج الطبيعة أفصح وأبلغ دفاعاً عن مذهب الحتمية (الإيمان بالقضاء والقدر) في مجال الفلسفة الفرنسية بأسرها.

"إن حياة الإنسان قضت عليه الطبيعة برسنة على سطح الأرض دون أن يكون لديه القدرة على الانحراف عنه قيد أنملة. أنه ولد دون رضاه. أن كيانه أو تنظيمه لا يتوقف البتة على نفسه. إن الأفكار التي تخالجه تأتي قسراً لا طوعاً،

وعاداته وافقته تحت سيطرة الذين يحملونه على التخلي عنها. ويتعدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع نتيجة أسباب وعلل مرئية أو خفية ليس له سلطان عليها ولا تحكم فيها، وهي بالضرورة تنظم أسلوب وجوده وتصنع تفكيره بصيغة معينة، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله، فهو طيب أو رديء، سعيد أو تعس، عاقل أو أحمق، ومتعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل في أي من هذه الحالات المختلفة(113)".

ويبدو أن هذه الحتمية تنطوي على الجبرية وعلى النقيض من معظم الفلاسفة يرتضي دي هولباخ هذا التضمين... إن حالة الكون في أية لحظة تحددها حالته في اللحظة السابقة، وهذه حددتها سابقتها، وهكذا دو اليك في الماضي،

صفحة رقم : 12647

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

ومن ثم فإن أية لحظة في تاريخ الكون تعتبر محددة لأية لحظة في المستقبل. أن شئت أن الإخضاع الواضح للإنسان المتميز بكل العبقرية أو القديس بأي مفهوم أو بكل التضرع والصلوات - لغاز بدائي، لا يفت في عضد دي هولباخ فإنه يتقبل مصيره في كبرياء أبيقورية:

"إن الإنسان من عمل الطبيعة، وهو يوجد في الطبيعة، خاضع لقوانينها، ولا يملك تخليص نفسه من هذه القوانين، ولا يمكنه أن يخطو فيما ورائها خطوة واحدة حتى في فكره. ولذلك فإنه بدلاً من البحث خارج العالم... عن كائنات توفر له السعادة التي تنكرها عليه الطبيعة يحمل به أن يدرس هذه الطبيعة ويعرف قوانينها ويتأمل في قواها ويراعي القواعد الثابتة التي تعمل بمقتضاها. فليطبق الإنسان كل ما يتصل إليه على هناعته هو ويخضع في صمت لما تفرضه عليه من الحماية أو الوصاية التي ليس في مقدور أحد تبديلها أو تغييرها، ويرتضي مبتهجاً أن يتجاهل الأسباب والعلل التي يحول بينه وبينها حجاب كثيف لا يمكن اختراقه، ويستسلم دون تدمير لقوانين الضرورة الكونية التي يستحيل عليه إدراكها إطلاقاً. ولا تحرره أبداً من تلك القوانين التي فرضت عليه بحكم ماهيته أو جوهره(114)".

وهل تبرر لنا هذه "الجبرية" (أي الأيمان بالقضاء والقدر) أن نخلص إلى أنه لا فائدة ترجى من وراء محاولتنا تقادي الشرور أو السينات والأعمال المخزية أو المرض، وأن تكف عن بذل أي جهود، أو عن الطموح أو التطلع وأن ندع الأمور تجري في أعنتها؟ ويجب دي هولباخ بأنه حتى هنا ليس لنا الخيرة من أمرنا، فإن الوراثة والبيئة هما اللتان قررنا بالفعل أن نستسلم للدعة وعدم المبالاة، أو أن نستجيب في جد ونشاط لمتطلبات الحياة وتحدياتها، ويسبق دي هولباخ إلى الاعتراض على أن هذه الجبرية - وهي تبدو كأنها تتغاضى عن الجريمة وتغفرها - قد تزيد منها. أن الجبرية لا توجي بعدم معاقبة الجريمة بل إنها على النقيض من ذلك ستؤدي بالشرع والمعلم والرأي العام أن يصنعوا بمقتضى القوانين أو الأخلاق عوائق

صفحة رقم : 12648

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

أفضل في سبيل ارتكاب الجرائم، ويوفروا الدوافع والمغريات بالسلوك الاجتماعي القويم، وهذه العوائق والدوافع والمغريات ستنتضم إلى العوامل البيئية التي تشكل سلوك الإنسان. ولكن الجبرية لا تسوغ لنا اعتبار الجرائم وكل السلوك غير الاجتماعي اختلال توازن عقلياً يرجع إلى الوراثة والظروف. ولذلك يجدر بنا أن نعالج مثل هذا السلوك كما نعالج المرض، وأن ننحلي عن التعذيب والعقوبات البالغة الصرامة لأنها تزيد الهوة بين الفرد والمجتمع، وتعود الناس على عنف والقسوة، أكثر مما تصرفهم عن ارتكاب الجرائم.

وليس في هذه الفلسفة بطبيعة الحال مكان للإله. إن مقت دي هولباخ الشديد لمذهب التوحيد (الإيمان بالله الواحد) وحده، بل لمذهب الربوبية ومذهب وحدة الوجود كذلك دعا معاصريه إلى أن يطلقوا عليه "العدو الشخصي لله سبحانه وتعالى" (115). وإذا عدنا إلى الوراثة إلى البداية فإننا نجد دائماً إن الجهل والخوف خلقا الآلهة وزينهم الخيال أو الحماسة أو الخداع أو شوهوم وعيدهم الضعف، وأبقت عليهم السذاجة أحياء، وأجلهم واحترامهم العرف والعادة، وناصرهم الطغيان.... ليخدم أغراضه (116) ويثير ضدهم كل الحجج القديمة، ويتحمس بعنف كما فعل هلفشيوس ضد مفهوم الأسفار المقدسة عن الإله (117) ولا يوحى إليه النظام والتناسق الرائع للكون بأي "عقل أسمى" فإن هذا النظام وهذا التناسق يرجعان إلى أسباب طبيعية تعمل بطريقة ميكانيكية، ولا يتطلب المر أن نعزوها إلى أي إله يمكن أن يكون هو اذق على الفهم والتوضيح أكثر من العالم. والنظام والاختلال مثل الخير والشر والجمال والقبح كلها مفاهيم ذاتية (غير موضوعية) مستمدة من اللذة أو الألم الذي توفره لنا مدركاتنا الحسية. ولكن الإنسان ليس "مقياس كل شيء" وليس إشباع رغباته أو رضاؤه معياراً موضوعياً يمكن تطبيقه على الكون. إن الطبيعة تسيّر قدماً دون اعتبار لما نراه نحن من أصغر نقطة في الفضاء حسناً أو سيئاً، قبيحاً أو جميلاً. ومن وجهة نظر الكل

صفحة رقم : 12649

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

"ليس هناك ما يمكن أن يكون سيئاً حقاً، فإن الحشرة تأوي إلى ملجأ آمن في أطلال القصر الذي يسحق الناس عند سقوطه" (118) وينبغي أن نتعلم أن نعتبر الطبيعة في سموها وكوارثها محايدة بقدر سواء حياداً يتسم برباط الجأش: "إن كل ما قيل في سياق هذا الكتاب يثبت بوضوح أم كل شيء قريب متناسب مع الطبيعة، حيث لا تعمل فيها كل الكائنات إلا أن نتبع القوانين التي فرضت عليها كل حسب درجته أو طبيعته. إن الطبيعة توزع بنفس اليد ما يسمى نظاماً وما يسمى اختلالاً، وما يسمى لذة وما يسمى ألماً، وقصارى القول أنها بمقتضى ضرورة تنشر الخير والشر. ولذلك يجدر بالإنسان ألا ليمتدح سخاءها أو يصب عليها جام غضبه وحقده، أو يتصور أن صخبه وضججه أو تضرعاته وابتهالاته يمكن أن تغني عنه من شيء أو تكبح جماح قوة الطبيعة الهائلة أو سلطانها العظيم وهي تعمل دوماً وفق قوانين ثابتة... فإذا عانى الإنسان شيئاً فلا يجوز له أن يلتمس علاجاً في الأوهام التي يصدرها له خياله المستقيم، بل يستمد من مخازن الطبيعة العلاجات التي تقدمها للشرور والمساوى التي تبثليه بها، ويفتش بين أحضانها عن المنتجات التي أنتجتها الطبيعة نفسها (119).

ويقترح هولباخ من تقديم الإله ثانياً في شكل "الطبيعة"، وبعد أن يأخذ على نفسه ألا يشخصها أو يجسدها نراه يميل إلى تأليها، ويتحدث عن قدرتها وإرادتها وخطتها وسخائها، ويرى فيها أفضل هاد ومرشد للإنسان، ويجيز لديرود (?) أن يكتب لها مناجاة عزيزة وكأنها الفقرة الختامية لكتاب ضخم "أيتها الطبيعة، يا سيدة كل الكائنات!! إن بنائك الفاتنات الجديرات بالتوقير والعبادة- الفضيلة والعقل والحقيقة- يبقيان إلى الأبد معبوداتنا الوحيدات. إن إليك تتجه كل تسابيح الجنس البشري وينصب عليك ثناؤه، وإليك يقدم كل ولائه وإجلاله، وهكذا. ومثل هذه التقوى الموسومة بمذهب وحدة الوجود (القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وأن

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر الذات الإلهية). هذه التقوى لا تكاد تتسق مع نظرة دي هولباخ إلى الطبيعة على أنها تنزل الخير والشر دون تمييز، "إن الرياح والعواصف والزوابع والبراكين والحروب والطاعون والمرض كلها ضرورية لمسيرتها الأبدية (وليس في كل مكان) مثل حرارة الشمس الصحية المفيدة(120) وهكذا يذكرنا بباله كلفن الضنين بالجنة المسرف في عذاب النار".

إن دي هولباخ في حالته النفسية المميزة ينكر لا مجرد فكرة الله، بل نفس لفضته إن لفضتي الإله ويخلق... ينبغي أن تختفيا من لغة أولئك الذين يريدون التحدث بلغة مفهومة. إن هاتين لفظتان مجردتان ابتدعهما الجهل، إنهما مبتدعتان لإرضاء من تعوزهم الخبرة، الخاملين والجنباء إلى الحد الذي لا يدرسون معه الطبيعة وأساليبها(121). وأنه ليرفض البروبية التي تتسجم مع الخرافة(122) وتصنع من الإلحاد ديناً حقيقياً.

"إن صديق الجنس البشري لا يمكن أن يكون صديقاً للإله الذي كان في كل الأوقات سوطاً مسلطاً على الأرض. إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المظلمة التي تجعل الدنيا مقراً للخداع. إن من يقدر الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل. إنه يعلم أن سعادة الجنس البشري تقتضي بشكل لا رجعة فيه، تفويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه، لكي يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائماً للسلام - هيكل مقدساً للفضيلة... فإذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يبث الشجاعة في الكائنات التي اعتادت أن ترتعد فرائصها جيناً، فإن له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة. وعلى الرغم من ذلك فإنه يحكم على جهوده بأنها عقبة إذا استطاع أن يجعل إنساناً واحداً سعيداً أو يهدئ من اضطرابات ذهن مستقيم واحد، وأقل ما يقال أنه سوف يفيد من تحرير ذهنه هو من إرهاب الخرافة المزعج... ومن أنه وطئ تحت قدميه الأوهام التي تقض مضاجع المنكودي الحظ وتعذبهم. وإذا نجا على هذا النحو من خطر العاصفة استطاع

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

أن يتأمل في هدوء من قمة صخرته في تلك الأعاصير المروعة التي أثارها الخرافة، ويمد يد العون إلى أولئك الذين يتقبلونها(123).



ولكن هل ينسجم الإلحاد مع الأخلاق الشعبية العامة؟ وهل يمكن ضبط الدوافع القوية الأنانية لدى عامة الناس بقانون أخلاقي مجرد من الإخلاص للدين ومن تأييده؟ أن دي هولباخ واجه هذه المشكلة في كتابه "منهج الطبيعة" ثم عاد إليها في 1776 في كتاب ذي ثلاث مجلدات "الأخلاق العامة" وأنه يرتاب بادئ ذي بدء في أن الديانة سعت إلى الفضيلة والأخلاق القويمة.

"على الرغم من الجحيم المروعة البغيضة حتى في مجرد وصفها، فأى حشد من المجرمين المتهمين يملأ مدننا... وهل اللصوص أو القتلة المعاقبون ملحدون أو متشككون؟ إن هؤلاء البائسين يؤمنون بالله. وهل يتحدث أكثر الآباء تمسكاً بالدين وهو ينصح ابنه عن إله محب للانتقام؟ إن انهيار صحته من أثر الزنى وضياح ثروته في الميسر، وازدراء المجتمع له - هي الدوافع التي دعت الولد إلى النصيح"(124).

وحتى مع افتراض أن الدين في بعض الأحيان يساعد الأخلاق، فهل يتوازن هذا مع الضرر الذي يلحقه الدين بالإنسان؟

في مقال إنسان جبان واحد تكبح فكرة الجحيم جماعه هناك آلاف من الناس لا تؤثر فيهم هذه الفكرة مطلقاً، وهناك ملايين منهم تجعلهم هذه الفكرة غير عقلانيين، يعوزهم التفكير السليم، وتحولهم إلى أدوات اضطهاد وتعذيب وحشيين، وتحولهم إلى خبثاء أشرار... ومتعصبين. كما أن هناك ملايين تقصد عقولهم وتصرفهم عن واجبهم نحو المجتمع(125).

صفحة رقم : 12652

قصة الحضارة - < عصر فولتير - < الهجوم على المسيحية - < اتساع نطاق الحملة - < دي هولباخ

وتأمل في النفاق الذي يفرضه الضبط الاجتماعي للدين على المتشككين. أولئك الذين يريدون أن يكونوا فكرة عن القيود التي فرضها اللاهوت على عقول وتفكير الفلاسفة الذين ولدوا في ظل "الديانة المسيحية" فليقرؤوا الرومانسيات "القصص الخيالية" الميثافيزيقية التي كتبها ليننتز وديكارث ومالبرانش وكودورث وغيرهم ويفحصوا في هدوء النظم والترتيبات البارعة ولكن الحماسية المسماة "التناسق المقرر مقدماً للأسباب العرضية(126)".

وفوق ذلك فإن المسيحية بتركيزها فكر الإنسان على الخلاص الفردي في الدار الآخرة، أماتت الشعور الإنساني والاجتماعي في مثل هذا الفرد، وتكرت الناس غير شاعرين ببؤس رفاقهم، وبالجزور والإجحاف اللذين يتعرضون لهما من قبل الجماعات والحكومات الظالمة.

ويرفض دي هولباخ الفكرة المسيحية الفولتيرية التي تقول بأن الإنسان يولد ولديه حلقة الصواب والخطأ. إن الضمير ليس صوت الله بل صوت رجل الشرطة، إنه رواسب وتراكم آلاف من التحذيرات والأوامر والتأنيبات تلقاها الفرد منذ نشأته "ويمكن تعريف الضمير بأنه معرفتنا بأثار أفعالنا على رفاقنا ثم إنعكاسها أو رد فعلها على أنفسنا(127). ويمكن لأن يكون هذا الضمير موجهاً أو مرشداً زائفاً، فلربما تشكل هذا الضمير نتيجة تعليم منحرف أو خبرة أسيء فهمها، أو تفكير خاطئ، أو رأي عام فاسد. وليس ثمة رذيلة أو جريمة لا يمكن إظهارها في ثوب الفضيلة عن طريق التعليم أو القدوة السيئة ومن ثم فإن الزنى مهما يكن من أس تحريم الدين له عمل يبعث على الفخر. والتملق الذليل مستساغ في البلاط و اغتصاب النساء والسلب والنهب بين الجنود مكافآت مشروعة للمخاطرة بالحياة وتقطيع الأوصال. "أنا لنرى رجالاً أغنياء لا يعانون من وخز الضمير لما جمعوا من ثروة على حساب مواطنيهم" و "وطنيين متحمسين متعصبين لوطنهم أعمت ضمائرهم الأفكار الزائفة الباطلة فأغرتهم بإبادة من يحالفونهم في الرأي دون شعور بالندم أو تائب الضمير" وخير ما نأمل فيه ضمير تشكل عن طريق تعليم

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

أفضل، واكتساب عادة التطلع إلى آثار على غيرنا وعلى أنفسنا، وعن طريق رأي عام أسلم وأصح يتردد أي فرد عاقل في الإساءة إليه(128).

ويتفق دي هولباخ مع المسيحية في أن الإنسان بطبيعته نزاع إلى "الإثم" أي إلى السلوك الضار بالجماعة، ولكنه يرفض فكرة أن هذه الطبيعة النزاعة للإثم "موروثة خطيئة أبائنا الأولين، باعتبارها فكرة سخيفة. ويقبل الأناية باعتبارها جوهرية في سلوك البشر، ويرى مثل هلفشيوس أن يبني عليها قانونه الأخلاقي، بأن يجعل السلوك الاجتماعي مفيداً للفرد.

"فالأخلاق تصبح علماً عقيماً إذا لم تثبت للإنسان بما لا يقبل الجدل أن مصلحته تكمن في تمسكه بالفضيلة(129)

ويمكن أن يتحقق لنا شيء من تعليم يوضح اعتماد مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة. ويمكن بث درجة معقولة من الغيرية- حب الغيرة" باستثارة الرغبة الطبيعية في كسب الاستحسان الاجتماعي العام والتفوق والامتياز والمكافآت. وهكذا يصوغ دي هولباخ علم الأخلاق عنه قانوناً للطبيعة: "عش لنفسك ولرفيقك فإني (أي الطبيعة) أقر ملذاتك ما دامت لا تؤذي ولا تؤذي الآخرين الذين جعلتهم ضروريين من أجل سعادتك..وكن عادلاً لأن العدل يعزز الجنس البشري ويدعمه. وكن طيباً لأن طبيبتك ستجذب كل قلب إليك، وكن منسهماً حيث أنك تعيش بين كائنات ضعيفة مثلك. وكن متواضعاً لأن كبرياءك تجرح حب الذات عند كل كم حولك. وأعف عن الإساءة والأذى وأحسن إلى من أساء إليك..حتى تكسب صداقته. وكن معتدلاً مقتصداً في شهواتك عفيفاً فإن الانغماس في الشهوات والإسراف والإفراط سوف يدمرك ويقضي عليك ويجعلك مدعاة للاحتقار(130).

إن الحكومة إذا أولت عناية أكبر وأكثر جدية لصحة الشعب وحمانيته وتعليمه فقد تخف معدلات الجريمة إلى حد كبير(131). وإذا كان الإنسان يخسر كثيراً في عدم الالتزام بالسلوك الاجتماعي السليم فإنه لن يكون على

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

استعداد للمغامرة بمثل هذه الخسارة في مثل هذا السبيل. وإذا تدرب التلاميذ على التأمل والتعقل بدلاً من غرس الخوف فيهم وإرهابهم بالمعتقدات غير العقلانية التي سرعان ما تفقد قوتها، فإن أخلاق الرجال لا بد أن تتحسن بتزايد قدرتهم على تطبيق خبرتهم على أفعالهم وتصرفاتهم حيث يتنبأون على ضوء الماضي بما سيكون في المستقبل لأعمالهم الراهنة من نتائج.

وعلى المدى الطويل يكون العقل والذكاء أسمى فضيلة، ومثل هذه الفضيلة هي السبيل الأمثل للسعادة.

وفي "منهج الطبيعة" و "المنهج الاجتماعي" (3 مجلدات، 1772)، و "السياسة الطبيعية" (1772، مجلدان) و "روح الشعب" (1776) عالج المليونير الذي لا يكل ولا يمل مشاكل المجتمع والحكومة. وفي هذه الكتب تنتقل الهجمات من الكنيسة إلى الدولة. ويتفق دي هولباخ مع لوك وماركس في أن العمل هو مصدر الثروة ولكنه مثل لوك يبرر الملكية الخاصة على أنها حق للإنسان نتاجاً لعمله وحده. إنه نبيل وقد يتخلص من الأرستقراطية الوراثية. وقد دعى نفر من الناس حقاً في الثروة ومراتب الشرف فحسب، ولو أن حق المولد واللقب لا بد بالضرورة أن يوهن عزيمة الطبقات الأخرى من المواطنين أو يثبط همهم. إن الذين لا يملكون إلا عراقية الحسب والنسب أو كرم المحتد ليس لهم الحق في الثراء والشرف... ولا يمكن أن نعتبر النبالة إلا مجرد سوء استعمال أو تعسف مصطنع لا يصلح إلا ليداري خمول... وعجز طبقة بعينها على حساب الأضرار بالمجموع... (132) وهل أعمال النبلاء القدامى والوثائق القديمة المحفوظة في قصور العصور الوسطى تعطي لورثتها الحق في تولي أرفع المناصب في الكنيسة والدولة وفي دور القضاء أو في الجيش دون اعتبار لما ينبغي أن يتحلى به هؤلاء الورثة من قدرات ومواهب لازمة لحسن القيام بهذه المهام (133)؟

صفحة رقم : 12655

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

أما بالنسبة لرجال الدين فلنتركهم يدبرون أمورهم بأنفسهم، ويجدر أن تفصل الكنيسة والدولة كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال. ويجب أن تعامل الجماعات الدينية على أنها هيئات متطوعة تتمتع بالتسامح ولكن لا تحظى بأي دعم أو تأييد من الدولة. وينبغي على كل حكومة ملتزمة بجانب الحكمة والعقل أن تسد الطريق أمام ديانة أو مذهب للجوء إلى التعصب أو الاضطهاد (134).

ودي هولباخ رجل دخل من الأرض وغير الأرض، وهو ينتقد أصحاب الدخول الخاملين من أفراد الطبقة الوسطى. وبوصفه باروناً فإنه يحتقر رجال الأعمال. "ليس ثمة مخلوق حي أشد خطراً من رجال الأعمال الذي يفتش عن فريسته (135). أن جشع التجارة يحل الآن محل طموح الأسرة سبباً للحروب: "إن الدول مستعدة لإقناء بعضها من أجل أكوام من الرجال. إن أمماً بأسرها أصبحت نسخاً طبق الأصل لرجال الأعمال الجشعين الذين يزينون لهم الأمل في الثروة التي يجنون هم أنفسهم ثمارها، ومن هنا يتناقض عدد سكان البلاد وتفرض عليهم أبهظ الضرائب ويعانون الفقر والعوز لإشباع فهم فئة قليلة. ويسدد طعنة عابرة إلى بريطانيا التي التهمت الهند وكندا. "هناك شعب يبدو أنه في نشوة جشعة أعد مشروعاً متطرفاً لاغتصاب تجارة العالم وتملك البحار - وهو مشروع جانز جنوني يؤدي تنفيذه إلى نوع من الخرافات يصيب الأمة التي تسير وراء هذا الخبل... وسيأتي اليوم الذي يقذف الهنود هؤلاء الأوربيين من شواطئهم حين يتعلمون منهم فن الحرب (136).

ويميل دي هولباخ إلى الأخذ بسياسة الفيزوقراطيين عدم التدخل (حرية التجارة والصناعة). "لا يجوز للحكومة أن تعمل للتأخر شيئاً إلا أن تتركه وشأنه، وليس ثمة تعليمات أو تنظيمات يمكن أن توجهه في مشروعات أفضل من مصلحته هو... وليس على الدولة إلا أن تحمي التجارة. إن الأمم التجارة التي تهيب لرعاياها أكبر قدر من حرية التجارة لا بد أن تثق

صفحة رقم : 12656

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

في أنها ستفوق غيرها من الأمم سريعاً(137). ولكنه عندئذ كذلك ينصح الحكومات بالحيولة دون تركيز خطير للثروة. ويقتبس عن طبيب خاطر عبارة سانت جيروم الرشيقة اللادعة "الرجل الغني إما وغد أو وريث أحد الأوغاد(138)". في كل الأمم تقريباً لا يملك ثلاثة أرباع الرعايا شيئاً... وإذا استنزف نفر قليل من الناس الممتلكات والثروة في الدولة، لأصبحوا سادة هذه الدولة المتحكمين فيها. ويبدو أن الحكومات أهملت هذه الحقيقة إهمالاً تاماً(139)... وإذا توقف إرادة الشعب أو القانون عن حفظ التوازن حتى بين مختلف أعضاء المجتمع، فإن خمول بعض الناس مع الاستعانة بالقوة والخدع والإغراء ينجح (أي الخمرل) في الاستيلاء على ثمار جهود الآخرين وعملهم(140). وفي رأي دي هولباخ أن كل الملوك يتحالفون مع الأقلية البارعة الذكية لاستغلال أغلبية الشعب. ويبدو أنه كان يفكر في لويس الخامس عشر. "إننا لا نرى على وجه هذه البسيطة إلا ملوكاً جائرين ظالمين، أو هنهم البذخ والترف وأفسدهم الرياء والملق، كما لوث الفجور والفسق أخلاقهم، ودفعهم الدنس والرجس إلى الشر والخبث، لا يتحلون بأية مواهب أو قدرات أو بكارم الأخلاق، عاجزين عن بذل أي جهد لخير الدولة التي يحكمونها. ومن ثم فإنهم لا يهتمون إلا قليلاً بمصلحة شعوبهم، مستهترون بواجباتهم التي غالباً ما يجهلون في الواقع. إنهم إنما تتملكهم الرغبة في تحقيق أطماعهم التي لا حد لها، ولذلك يشغلون أنفسهم بحروب عقيمة فيها فناء السكان، ولا يشغلون أذهانهم أبداً بهؤلاء الرعايا، وهم أهم من أجل سعادة أمتهم(141). وواضح أن تفكير دي هولباخ اتجه إلى الحكومة الفرنسية، فأندفع ينتقد بشدة تكليف رجال المال بمهمة جمع الضرائب، أي تعيينهم ملتزمين عامين. ويهجو هؤلاء الملتزمين: "إن الحاكم المستبد الطاغية يلجأ إلى

صفحة رقم : 12657

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

طائفة من المواطنين الذين يهيئون له وسائل تحقيق جشعه في مقابل منحهم الحق في انتزاع أموال الآخرين دون عقاب... أنه بسبب غفلته وعماه لا يدرك أن الضرائب المفروضة على رعاياه تتضاعف وإن المبالغ التي تذهب إلى جيوب هؤلاء المبتزين وتزيد ثرائهم تضيع عليه هو نفسه، وأن جمهور العامة الدليل الخاضع قد يرثي في غمار الحيرة ليثمن حرباً على الأمة... إن هؤلاء اللصوص (الملتزمون العامون) إذ تزداد ثرواتهم يثيرون حقد النبلاء وحسد مواطنيهم... وتصبح الثروة هي الدافع الوحيد... والظمأ إلى الذهب يتملك كل القلوب(142). "إن الأرستقراطي الرخي البال يتحدث أحياناً كما يتحدث أشد الشبان القلقين المغمورين غضباً"، هل ينبغي على الأمم أن تعمل دون كلل ولا ملل لإرضاء غرور حفنة من مصاصي الدماء، وتوفير أسباب البذخ والترف لهم وإشباع نهمهم(143)؟". أنه في هذه الحالة النفسية يردد صدى كلمات صديقه السابق روسو في كتابه (العقد الاجتماعي): "أن الإنسان شرير لا لأنه ولد كذلك بل لأنهم صيروه شريراً. أن العظماء وذوي السيطرة والقوة يستحقون الفقراء المعوزين والبؤساء دون عقاب. إن هؤلاء يغامرون بحياتهم في سبيل الثأر مما لحق بهم من أذى وشر. إنهم يهاجمون جهوراً أو سراً البلد الذي هو بالنسبة لهم زوجة أب تعطي لبعض أبنائها كل شيء وتحريم الآخرين من أي شيء... والإنسان في كل مكان تقريباً عبد رقيق. ويتبع هذا بالضرورة أن يكون حقيراً أنانياً مرئياً منافقاً بلا شرف،

وباختصار يتصف بكل رذائل الدولة التي هو فرد فيها. أن هذا الإنسان في كل مكان مخدوع مضلل يشجع على الجهل، محروم من استخدام عقله، فلا بد أن يكون بطبيعة الحال في كل مكان غيبياً غير متعقل شريراً، وهو في كل مكان يرى امتداح الرذيلة والجريمة وتكريمها. ويستخلص من هذا أن الرذيلة حسنة، وأن الفضيلة تضحية لا غناء.. وإذا كانت الحكومات مستنيرة مشغولة جداً بتربية الشعوب

صفحة رقم : 12658

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

وتعليمها ومصالحتها وإذا كانت القوانين عادلة، فلن يكون من الضروري التماس أحلام وأوهام مالية في حياة أخرى يثبت دائماً أنها ناقصة غير وافية أمام انفعالات الإنسان الحانقة وحاجاته الحقيقية(144). وكيف يتسنى إيقاف هذا الاستغلال؟ إن أول خطوة في هذا السبيل هي إلغاء الحكم الاستبدادي المطلق. "إن الحكم المطلق لا بد أن يفسد بالضرورة قلب من يتولاه وعقله(145).. ويجب دائماً أن تخضع سلطة الملوك لممثلي الشعب، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة الممثلين، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة ناخبهم(146)" وهنا مناداة بدعوة مجلس الطبقات المشنوم 1789. "ومن حيث أن أية حكومة تستمد سلطتها من رضا المحكومين" فإن أي مجتمع يمكنه في أي وقت أن يسحب هذه السلطات إذا لم تعد الحومة تمثل الإرادة العامة(147)". وهنا يتمثل صوت روسو والثورة. ولكن الثورة، بثمن غال أحياناً، تهدم الماضي وتقضي عليه لكي تقيم من جديد تحت شعار آخر وبصيغة أخرى: "لا يمكن شفاء جراح الأمة عن طريق الاضطرابات العنيفة والصراعات وقتل الملوك والجرائم العقيمة. إن هذه العلاجات العنيفة هي دائماً أشد قسوة من المساوئ المقصود القضاء عليها أو التخلص منها. أن صوت العقل ليس مثيراً للفتنة وليس متعطشاً للدماء. ويمكن أن تكون الإصلاحات التي يهدف إليها متأنية ولكنها لذلك تتوخى خير تخطيط(148).

إن الناس بعيدون عن الكمال وليس في مقدورهم أن يصنعوا دولاً بالغة حد الكمال. واليوتوبيا (المدينة الفاضلة) ضرب من الأوهام "تتعارض مع طبيعة الكائن" بآلته الواهنة المعرضة للخلل وخياله المتوقد الذي لا يصغي دائماً لهدى العقل... أن الوصول بالسياسة إلى مرتبة الكمال لن يكون إلا الثمرة البطيئة لخبرة قرون(149). وليس التقدم خطأ مستقيماً بل هو خط طويل ونحن نحتاج إلى أجيال كثيرة من التعليم والخبرة لتبيين أسباب العلل أو الأمراض الاجتماعية ووسائل البرء منها. والديمقراطية مثل أعلى

صفحة رقم : 12659

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

وهي ممكنة في الدول الصغيرة وحدها، مع ازدياد وعي الشعب وعقله وذكائه. وقد لا يكون من الحكمة إقامة ديمقراطية في فرنسا في عهد لويس السادس عشر. وقد يستخدم هذه الملك الجديد الطيب ذو المقاصد الحسنة أناساً ذوي قدرات ومواهب عظيمة لإصلاح الدولة. وهكذا يرتضي دي هولباخ، آخر الأمر ملكية دستورية ويهدي كتابه الأخير روح الشعب "إلى لويس" الملك العادل الإنساني العادل للإنساني المحب للخير أبي الشعب وحامي الفقراء(150) وتعليق الفيلسوف العجوز بهذا الأمل المستميت.

د- دي هولباخ ونقاده

إن "منهج الطبيعة" هو أشمل وأكمل وأصرح عرض للمادية والإلحاد في تاريخ الفلسفة بأسره. أن تردد فولتير وتناقضه ودقته التي لا نهاية لها، وحماسة ديدور الغامضة وكتابات المتعاضة، ورفض روسو المشوش المربك لما يكتبه جان جاك روسو نفسه، كل أولئك حل محله هنا تماسك دقيق واتساق شديد بين الأفكار، وتعبير قوي في أسلوب عميق أحياناً، مشرق أحياناً، فصيح غالباً، ولكنه دائماً أسلوب مباشر واضح. ومع ذلك فقد أدرك أن سبعمائة صحيفة من هذا النوع قد لا يستوعبها عامة الفقراء. وتلهم دي هولباخ على أن يقبل على قراءة الكتاب أكبر عدد من الناس، ومن ثم فإنه شرح آراءه. ووجهات نظره مرة أخرى في شكل أبسط في حسن الإدراك، أو "أفكار في مواجهة الأفكار الخارقة للطبيعة" (1772). وقلما تميز كاتب بمثل هذه المثابرة والجد في نشر مثل هذه الآراء غير المألوفة التي يريد أن يقنع الناس بها.

وأنه لما يدل على سعة انتشار آراء دي هولباخ رد فعل "منهج الطبيعة" على فرديريك الأكبر، إن هذا الملك الذي كان يخطب ود الفلاسفة، والذي مجدوه وامتدحوه على أنه راعيهم ومثلهم الأعلى، أنقلب عليهم حين رأى أحد قادتهم يهاجم الملكية المطلقة والمسيحية بقدر سواء. لقد كان من

صفحة رقم : 12660

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

مصلحة أضعاف الوحدة الداخلية بين الدول الكاثوليكية نتيجة للحملة ضد الكنيسة، ولكن أثار استيائه وربما أثار مخاوفه أن يبلغ التمرد حداً يتجاسر معه الآن على تحقير الملوك والنيل من الإله. أن نفس القلم الذي دبح يوماً ضد المكيافيلية، يكتب الآن تنفيذ منهج الطبيعة، أن هذا الرجل دي هولباخ قد ركب متن الشطط: يقول فرديريك "إذا تحدث إنسان إلى عامة الناس علانية فيجدر به أن يأخذ في اعتباره رقة الأذان الخرافية، ويجد به ألا يصعق أحداً، وينبغي عليه أن يتريث حتى تبلغ الاستتارة حداً يسمح له بالجهر بأفكاره(151).

وواضح أنه بناء على إحياء فرديريك، ولكن من الجائز أكثر من ذلك أنه نتيجة الخوف من أن تؤدي شدة تطرف دي هولباخ إلى انفضاض الناس من حول الفلاسفة، اللهم إلا الملحدين والثوريين، نجد فولتير وكأنما هو قائد جيش يؤنب ضابطاً (ملازماً أول) وقحاً- خصص في مقاله "عن الله" في "قاموسه الفلسفي" عدة صفحات ينتقد فيها رائعة دي هولباخ، فهو يقول في بداية كلامه:

"أن المؤلف أفاد من أن الجميع يقبلون على آرائه: العلماء والجهلة والنساء على حد سواء. إن لأسلوبه مزايا نفتقدتها عند سبينوزا. وهو في الغالب واضح وأحياناً فصيح، على الرغم من أنه مثل الباقيين قد يؤخذ عليه التكرار والأسلوب

الخطابي والتناقض الذاتي. أما من حيث عمق التفكير فالغالب أنه لا يوثق به الفيزياء وفي الأخلاق كليهما. وهنا تكمن مصلحة الجنس البشري ومن ثم يجدر أن نتبين هل نظريته صحيحة ومفيدة".  
ولا يوافق فولتير على أن النظام الذي ننسبه إلى الكون، والخلل الذنن أننا قد نجد فيه، هما أفكار أو أهواء ذاتية. وحاول أن يبرهن على أن النظام بارز إلى أبعد الحدود وأن الخلل أحياناً واضح إلى حد مؤلم:  
"ماذا! أليس الطفل الذي يولد أعمى أو بلا رجلين أو غير سوي بشع إلى حد بعيد يتعارض مع طبيعة الجنس البشري؟ أليس الإطراء المعتاد في

صفحة رقم : 12661

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

الطبيعة هو الذي يصنع النظام والشذوذ هو الذي يشكل الخلل؟ أليست فوضى صارخة وخللاً رهيباً أن تعدد الطبيعة إلى تجويع طفل وتخلق له مريئاً محدوداً؟ إن الإخراج بكل أنواعه ضروري، ولكن قنوات الإفراز كثيراً ما تكون بلا فتحات، مما يتطلب العلاج، ويبقى منشأ الخلل عرضة للكشف عنه ولكن الخلل حقيقة واقعة".  
ومن حيث كون المادة لديها قوة توليد الحياة والذهن فإن فولتير على الرغم من أنه كان يوماً ميالاً إلى الأخذ بوجهة النظر هذه، أثر "لا أدريّة" متواضعة على افتراضات دي هولباخ الواقعة:  
"إن الخبرة (وهو هنا ينقل من كتاب منهج الطبيعة) تثبت أن المادة التي نعتبرها جامدة ميتة، تدعي الفعل والحياة والعقل إذا اتحدت وتجمعت بطريقة معينة" وتلك هي المشكلة بعينها، كيف تنشأ جرثومة حية؟ أن المؤلف والقارئ كليهما يجهلان هذا على حد سواء، ومن ثم ألا يكون منهج الطبيعة وكل المناهج الفلسفية في العالم بأسره مجرد أحلام؟ يقول دي هولباخ: "من الضروري أن نعرف المبدأ الحيوي الأساسي، وأحسب أن التعريف متعذر". أليس هذا التعريف ميسوراً جداً... أليس تنظيم الحياة بالشعور؟ ولكن من المستحيل إثبات أن هاتين الخاصيتين تنشئان فقط من المادة وهي في حركة. وإذا كان من المستحيل إثبات هذا ففيم توكيده؟... أن كثيراً من القراء يشعرون بالسخط والاستياء لاتخاذها هذا الأسلوب الحاسم في الوقت الذي لم يتم فيه تفسير أي شيء... فإذا تجاسر على توكيد أنه لا يوجد إله أو أن المادة تعمل بنفسها بمقتضى ضرورة أبدية، فيجدر أن تشرح هذا وتقيم عليه الدليل، مثل قضية من قضايا إقليدس وإلا أقمت منهجك على "ربما" أي مجرد الاحتمال. وأي أساس هذا المعتقد على أعظم جانب من الأهمية للجنس البشري. وكان دي هولباخ قد أيد التوالد التلقائي بإشارته إلى تجارب اليسوعي الإنجليزي نيدهام (1748) الذي أعتقد بأنه كان قد أنتج كائنات جديدة

صفحة رقم : 12662

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

من مادة ليس فيها حياة. وكان فولتير يقظاً لآخر تطورات العلم، فأشار إلى تجارب سبيلانزاني (1765) الذي أوضح خطأ إجراءات نيدهام وما انتهى إليه من نتائج. ولم يكن دي هولباخ قد رأى في الطبيعة أي تصحيح أو تخطيط، ولكن فولتير يرى الكثير، ويحاول أن يبرهن على أن نمو العقل وتطوره في الإنسان يدل على عقل في الكون أو فيما وراءه، ويعود آخر الأمر إلى قضيته المشهورة "إذا لم يوجد إله فمن الضروري أن نصطنعه، وأنه بدون إيمان بكائن أسمى في عقله وعدله، فإن الحياة بكل ما فيها من أسرار وبؤس وشفاء تكون غير محتملة، وينضم إلى دي هولباخ في ازدراء الخرافة، ولكنه يدافع عن الدين باعتباره مجرد عبادة بسيطة لإله. ويجتزم في رفق فيقول: "إنني ميال إلى القول بأنك وقعت في خطأ جسيم ولكني بنفس القدر مقتنع بأنك صادق أمين في أنك مخدوع خداعاً ذاتياً. يمكن أن تجد أناساً فضلاء دون وجود إله. ولو أنك من سوء الحظ قلت "سرعان ما تجعله الرذيلة الإنسان سعيداً حتى يحب الرذيلة". وتلك قضية مزعجة كان يجدر بأصدقائك أن يفتعوك بمحوها. أنك في كل مكان آخر توحى بالاستقامة والأمانة. إن هذا الصراع الفلسفي سيكون فقط بينك وبين نفر قليل من الفلاسفة منتشرين في أوروبا. ومن يسمع عنه سائر العالم شيئاً. إن الناس لا يقرئوننا... أنت مخطئ. ولكننا نقدر ونجل عبقريتك وفصائلك (152)".

ولسنا ندري إذا كان فولتير راضياً كل الرضا عن هذا التنفيذ من كل قلبه. وأنا لنلاحظ ملاحظته البسيطة العابرة عندما سمع أن فرديريك كان قد كتب كذلك ضد "منهج الطبيعة" "إن الله كان في صفة اثنان على الأقل من أبعد الناس عن التمسك بالخرافات في أوروبا. مما لا يد أن يكون قد أتج صدره كثيراً (153) وطلب إلى الدوق دي ريشيليو أن يحيط لويس الخامس عشر علماً بأن المغترب العنيد في فرني كان قد كتب رداً على الكتاب الجريء المشهور الذي كان حديث الناس في باريس.

صفحة رقم : 12663

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

ونشر أصدقاء دي هولباخ نقد فولتير وسيلة للإعلان عن أفكار البارون وأتخذ شباب المتمردين المادية سمة للبسالة والشجاعة في الحرب ضد الكاثوليكية ودخلت فلسفة دي هولباخ إلى روح الثورة الفرنسية قبل روبسبير وبعده. وكان يؤثر روسو. وإنا لنسمع أصداء كتاب "منهج الطبيعة" في كامبي ديمولان وماراه ودانتون (154) قال فاجيه "إن دي هولباخ أكثر من فولتير وأكثر من ديرو، هو أبو الفلسفة والهجوم العنيف على الدين في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر (155) وفي عهد حكومة الإدارة أرسل أحد الوزراء نسخاً من أحد كتب دي هولباخ إلى رؤساء المصالح والهيئات في محافظته للحيلولة دون بعث الكاثوليكية من جديد (156). وأنا لنحس تأثير دي هولباخ في إنجلترا في مادية بريستلي (1777) ونبع كتاب جودوين "بحث في العدالة السياسية" من دي هولباخ وهلفشيوس وروسو بهذا الترتيب في التأثير (157). وبدأ الإلحاد المتحمس عند شللي صهر جودوين، بقراءة "منهج الطبيعة" الذي شرع في ترجمته كوسيلة لإشراك أساتذة أكسفورد في الحملة ضد الدين (158). أما في ألمانيا فإن مادية دي هولباخ وتشكك هيوم هما اللذان أيقظا كانت من "سباته العقائدي" وربما ورث ماركس بطرق غير مباشر تعاليمه المادية عن دي هولباخ.

وقبل أن يكون أن يكتب البارون بزم طويل كان بيركلي قد أذى المادية أكبر إيذاء. فالذهن هو الحقيقة الواقعة الوحيدة المعروفة مباشرة. والمادة (منذ عرفها دي هولباخ بأنها كل ما يؤثر في حواسنا) معروفة بطريق مباشر، عن طريق الذهن. ويبدو أنه غير معقول أن نهبط بالمعروف مباشرة إلى ما هو معروف بطريق غير مباشر. وليست المادة واضحة لدينا كما تعودنا أن تكون. إن الذرة تحيرنا كما يحيرنا الذهن سواء بسواء. فكلاهما يحلل إلى أشكال من الطاقة لا يتيسر لنا فهمها، وأنه لمن العسير الآن، كما كان عسيراً في أيام لوك وفولتير، أن نتصور كيف يمكن أن يصبح المادة فكرة أقل وعياً بكثير. أن التفسير الميكانيكي للحياة أثبت أنه مجد في الفسيولوجيا،



صفحة رقم : 12664

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> اتساع نطاق الحملة -> دي هولباخ

ولكن يبقى الاحتمال قائماً. وهو أن الأعضاء (المادة) يمكن أن تكون نتاجاً وأدوات للـرغبة (الذهن) مثل عضلات اللاعب الرياضي. إن الميكانيكية (الآلية) والحتمية بل حتى القانون الطبيعي "قد تكون تيسيرات وإيضاحات عاجلة لا تقبل الجدل من الناحية المنطقية، لأنها أدوات اصطنعها ذهن لتناول الظواهر والأحداث والأشياء تناولاً نلائماً، وأصبحت هذه الأدوات عناصر لا مفر منها في الفكر العلمي، ولكنها غير مرضية إذا طبقت على الذهن الذي شكلها. إننا لا نعرف أن العالم منطقي.

صفحة رقم : 12665

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير والله

الفصل الثاني والعشرون

فولتير والمسيحية

1778 - 1734

1 - فولتير والله

قد ندرس فيما بعد الأنشطة والآراء والاهتمامات غير الدينية في تلك النار المدمرة التي يقال لها فولتير، والتي تتأجج بين الحين والحين في فرني Ferne ونكتفي هنا في تلخيص آرائه في الدين وحربه ضد المسيحية. ولن نذكر هنا شيئاً لم يذكره مرة من قبل. كما أنه لم يقل عن المسيحية شيئاً لم يسبق قوله. وكل ما في الأمر أنه تكلم انطلقت كلماته مثل اللهب سرى في أوروبا، وأصبحت قوة شكلت عصره وعصرنا.

وكان طبيعياً أن يرتاب في العقيدة المسيحية، لأن الدين قصد به تهدئة الفكر لا إثارتها. وكان فولتير هو الفكر مجسداً فهو قلق مضطرب يهدأ ولا يسكن. ورأيناه في سيرة حياته ينضم إلى ذوي العقول المتشككة في The Tempole يغذي شكوكه بين الروبيين في إنجلترا ساعياً وراء العلم في سيري، متبادلاً رسائل الإلحاد مع فردريك في ألمانيا. ومع ذلك فإنه حتى بلغ السادسة بعد الخمسين احتفظ بإلحاده أو كفره مظهراً عارضاً أو لعبة أو تسلية خاصة. ولم يشن على الكنيسة الحرب علانية. بل على النقيض من ذلك دافع علناً وتكراراً عن أساسيات العقيدة المسيحية: إله عادل وإرادة حرة والخلود. وإذا لم نعد كذوباً (وغالبا ما كان كذلك) فإنه احتفظ حتى وفاته بإيمانه بالله وبقيمة الدين. ويمكن أن نقبس عنه لأي غرض تقريباً، لأنه مثل أي حي، نما وتغير وضمحل. ومن هنا

صفحة رقم : 12666

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير والله

احتفظ في سن الخمسين بما اعتق من آراء في سن العشرين، أو في سن السبعين، بآرائه حين كان في الخمسين؟ إن فولتير ناقض نفسه إلى أبعد الحدود، لأنه عمر طويلاً وكتب كثيراً، فكانت آراؤه من فيض رؤيته كلما تقدمت به السنون (1).

وفي سيري حوالي 1734 حاول أن يصوغ أفكاره حول الأشياء الأولى والأخيرة في "رسالة في الميتافيزيقا" وقيل أن يجعل بالي المقارنة مأوفة لدى الإنجليز بعدة سنين ذكر فولتير لأنه من المنطق التسلسم بذهن ذي عاقل في الكون مثلما هو منطقي افتراض أن الساعاتي قد صنع الساعة. ففي كلتا الحالتين رأى دليلاً على التصميم والتخطيط في تهيئة وسائل معينة لغايات بعينها. ولكن كما أن الساعة ولو أنها من تصميم العقل تعمل وفق قوانين ثابتة، فكذلك الكون وليس ثمة معجزات. ولكنه إلى حد ما لم يستطع أن يطرح جانباً الشعور بأن الإرادة الإنسانية، بطريقة خفيفة ودرجة بسيطة حرة. على الرغم من أنه عرف تماماً أن الاختيار الحر المطلق حين يتصرف في عالم ميكانيكي لا بد أن يفسد آليته أو طبيعته تريب أجزاءه. والذهن شكل من أشكال المادة وظيفته من وظائفها. ويقول فولتير متبعاً في ذلك لوك "ينبغي أن نقرر أنه من اليسير جداً على الله أن يضيف إلى المادة فكراً (2) وقدرة المادة على التفكير ليست معجزة أكبر من إمكان تأثير الذهن غير المادي على الجس المادي. والنفس ليست إلا حياة الجسم وتقنى بفنائه، وليس ثمة وحي مقدس سوى الطبيعة نفسها، وهذا كاف، وهو معين لا ينضب. وقد يكون ثمة بعض النفع في الدين ولكن الرجال الأريب لا يحتاج إليه تعزيزاً لفضيلة. وغالباً ما استخدمه رجال على مدى التاريخ لإرباك أذهان الناس، على حين ابتز الملوك أموالهم. وينبغي تعريف الفضيلة على أساس الخير الاجتماعي لا على أساس طاعة الله، ويجب ألا نتوقف على الثواب والعقاب بعد الموت.

وقرأ فولتير في هذه الصفحات المس والسبعين على مدام ي شاتيليه

صفحة رقم : 12667

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير والله

التي يبدو واضحاً إنها تشجعه على نشرها. ويبدو أنه أقرها على ذلك وطرح المخطوطة جانباً، فلم تنتشر قط طيلة حياته. وفوق هذا أصبح مقتنعاً بأن أية يتأفزيقا وأية محاولة لتفسير أصل العالم والإنسان وطبيعتهما ومصيرهما عن طريق العقل ستكون إلى الأبد فوق أفة البشر. قرأ الفلاسفة ولكن لم ترقه مناهجهم، وذهب إلى أن "الأقدمين قالوا كل شيء في الميتا فيزيقا وفي الأخلاق، وأنا دائماً نعارضهم أو نكرهم. وكل الب الديثة من هذا النوع هي مجرد تكرار معاد(3)" ولا بد أنه تأثر بمنهج سبينوزا لأنه أجهد نفسه في دحضه وتفنيده. وعلى الرغم من تنصله وإنكاره لم يستطع أن يتغلب على ولعه بالخوض في المسائل العيصة المستعصية. وبين الحين والحين فيما بين عامي 1734-1756 أخذ ينقب في الميتافيزيqa واللاهوت. وظل حتى آخر حياته يؤسس إيمانه بالله على حجة التخطيط أو التبير منذ البداية، ولو أنه عمد إلى تسفيه الترف في الغائية (الاعتقاد بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة). "قد لا أومن بأن الأنوف قد صنعت لتكون جسراً مريحاً للنظارات، ولكني مقتنع بأنها صنعت لنشم بها(4)". "واليس من أشبع السخف والحماقات أن نؤكد أن العي لم تصنع لتبصر والإذن لتسمع والمعدة لتعضم؟(5) وعندما طرق مؤلف شاب الباب ( Les Delices 1757) وقدم نفسه إلى فولتير على أنه "لحد شاب مستعد لخدمته، أجب فولتير لي الشرف أن أستخدم ربوبياً، وعلى الرغم من تعارض آرائنا سأقدم لك طعام العشاء الليلة، وأقدم لك العمل غداً، سأستفيد من ذراع وعضلاتك لا من رأسك وهناك(6) أنه سمى نفسه ربوبياً ولكنه كان مؤمناً، أي أن إلهه لم يكن قوة غير مجسمة تماثل الطبيعة بشكل أو بآخر، ولكنه عقل واع يصمم العالم ويحكمه. وبعد 1750 بصفة عامة أطلق على نفسه أنه مؤمن بوجود إله(7) وفي القاموس الفلسفي في مقال "الإيمان بوجود الله

صفحة رقم : 12668

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير والله

"كتب على أساس يمكن أن يبرر وصف وندرسه بأنه رجل شديد التمسك بالدين:  
"إن المؤمن الموحد بالهرجل مقتنع كل الاقتناع بوجود كائن أسمى فاضل قوي معاً، خلق كل الموجودات يعاقب على الخطايا دون قسمة، ويثبت على صالح الأعمال في رفق وحنان. إن المؤمن لا يعرف كيف يعاقب الله وكيف يثبت، وكيف يعفو، ويعفو لأنه لم تبلغ به الجرأة حدأ يحد مع نفسه بأنه يدرك كيف يتصرف الله، ولكنه يعلم أن الله يفعل وإن الله عادل. إن العقبات التي تواء العناية الإلهي لا تززع إيمانه لأنها مجرد عقبات ضخمة وليست اختبارات إنه يخضع نفسه لتلك العناية الإلهية، ولو لأنه لم يدرك منها إلا بعض آثارها وبعض المظاهر. إنه يحكم على الأشياء التي لا يراها بالأشياء التي يراها. ومن ثم فإنه يرى أن هذه العناية الإلهية تحيط بكل مكان وبكل زمان. وقد اتحد في هذا المبدأ مع سائر الكون. فإنه لا ينظم إلى أي من الشيع أو الطوائف التي تناقض نفسها. إن ديانتها هي أقدم الديانات وأوسعها انتشاراً، لأن العبادة البسيطة لله سبقت كل الأساليب والطرق في العالم... أنه يؤمن بأن الديانة لا تقوم على آراء الميتا فيزيقا المبهمة التي يصعب سبر غورها، ولا على الزخارف العقيمة، بل تقوم على العبادة والتقدیس والعدالة. إن عمل الخير عبادته والخضوع لله مذهبه... إنه يسخر من لوريتو ومكة ولكنه يغيب الملهوف ويدافع عن المظلوم(8).

فهل كان فولتير مخلصاً في هذه الاعترافات؟ إن بعض الباحثين ينسبها إلى الحيطة والحذر، أو إلى الرغبة في التحول إلى الإلحاد طوة خطوة، (9) أو إلى أمل في أن يقلل غرس الإيمان الديني في خدمة من السرقة والاختلاس. وهناك في كتاب فولتير قطع يبدو أنها تبرر هذا التفسير (إذا كان لديك قريبة واحدة لتحكمها، فينبغي أن يكون لها دين) (10). وإن أكثر الملاحظات اقتباساً عنه يبدو أنها تهبط بالديانة إلى مجرد منفعة عامة، ولكن سياق الكلام يلقى على هذا البيت ضوء أكثر إشراقاً وإيضاحاً. أنه يوجد في

صفحة رقم : 12669

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير والله

رسالة إلى مؤلف الدالين الثلاثة "إذا لم يكن الإله موجوداً فيجب أن نبندعه، ولكن الطبيعة بأسرها تصبح فينا أنه موحود فعلاً. (11)" والقصيدة كلها دعوة إلى الإيمان. إن فولتير يعود إلى قضية الإيمان بوجود إله واحد المرة بعد المرة، وكأنما يردد شكوكه. وفي السنوات العشرة الأخيرة من حياته كتب ضد الإلحاد قدر ما كتب ضد التقليدية في نفس الوقت شن حرباً ضد المفهوم المألوف للرب بأنه إله الانتقام الذي قدر على معظم الناس الحلود في عذاب الجحيم: "سيكون الجنس البشري تعساً بانساً إلى أبعد حد إذا أُلّف ارتكاب الفظائع قدر ما يألف التصديق بها (12) وإذا كان الرب قد خلق الإنسان على صورته فقد جازيناه على ذلك خير الجزاء (13) بتصويره على صورتنا. ولا شيء يوضح مفهوم الإنسان عن نفسه أكثر من فكرته عن الله".

وحاول فولتير جاهداً أن يوفق بين إيمانه بإله واحد وبين وود الشر. وفي محاولاته لتبرير العدل الإلهي لوجود الشر اقترب ممن تقاؤل لبينتز (الذي عمد إلى تسفيته في كانديد) إن الشر من وجهة نظر الجزء قد يكون خيراً، وعلى الأقل ليس شراً في منظور الكل. إن هذا ليس أحسن عالم يمكن تصوره بل أكثر ما يتحمل وجوده. (14) وكتب فولتير إلى فرديريك 1738 يقول "إذا حسب كل شيء وقدر أحسن تقدير فإن في هذه الحياة متع لا تعد ولا تصي أكثر ما فيها من مرارة. (15)" ولكن هذا كتفي السنوات صحته وعافيته في اواسط عمره. ولم يؤمن بأن الإنسان شرير بالطبيعة بل على النقيض من ذلك اعتقد أن في الإنسان إحساساً فطرياً بالعدالة وشعوراً طيباً بالود نحو الآخرين (16) وهنا فوارق وتناقضات لا حصر لها في الأفكار الأخلاقية لدى الجنس البشري وفي عاداته. ولكن الشعوب تستنكر قتل الوالدين وقتل الإخوة والأخوات (17).

وفي بوتسدام 1752 نظم قصيدة "القانون الطبيعي" (نشرت في 1756) التي لخصت ديانته الطبيعية. "وحيث اتخذت القصيدة شكل رسالة إلى فرديريك

صفحة رقم : 12670

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير والله

الثاني المتشكك فإنه من الصعب أن تكون محاولة لإرضاء الأتقياء، ولكنها تقترب من التقوى العقيدة القومية أكثر من أي شيء آخر طبعه فولتير. إنها تؤكد الإيمان بالله الخالق فحسب ولكنها كذلك تصف الإحساس الخلقي عن الإنسان بأنه من غرس الرب (18). إنه هما يتحدث كمل يتحدث روسو ويستيق حماساً كانت للسلطان المطلق للظمير. أنه يحدد ديانتها في سطر واحد: "أعبد الله وكن عادلاً وأحب وطنك". (19) ويعرض تنوع العقيدة الدينية ويرثي للكرهية والتعصب ويدعو إلى تسامح متبادل بين مختلف المذاهب والشيع، ويختتم بدعاء كان يمكن أن يقره أي قديس. وفي 23 يناير 1759 أمر برلمان باريس بإحراق القصيدة علناً. ويحتمل أن يكون هذا بسبب أن بعض أبياتها استنكر الجاسنية.

وقد تخلص إلى القول بأنه حتى عام 1751- إلى أن يبلغ فولتير السابعة والخمسين تورع عم أي هجوم مباشر صريح على المسيحية أو الكنيسة الكاثوليكية. فماذا أثاره حفزه لشن الحرب في نفس الوقت الذي جنح فيه معظم الثائرين إلى السلم؟ أنه كان وقت صدور دائرة المعارف، والتفسيرات الدينية التقليدية لزلزال لشبونة، والإعدام الوحشي لكل من جان كالا Calas وشيفالييه دي لابر De La Barre.

صفحة رقم : 12671

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير ودائرة المعارف

2- فولتير ودائرة المعارف

كان فولتير في بوتسدام حين نشر المجلد الأول من دائرة المعارف (1751). ولا بد أنه قرأ وهو مغتبط أشد الاغتياب السطور التي كتبها دالمبير تقديراً لفولتير وثناء عليه في "تشهير" حيث قال "قد أوفي هذه العبقرية الفذة حقها من الإجلال والمدح مما لقيه كثيراً من مواطنيه ومن الأجانب ومن أعدائه، ومما ستضيف إليه الأجيال المقبلة ثيراً حين يعود غير قادر على الاستمتاع بالإطراء والثناء". ورد فولتير على هذه التحية في رسالة مؤرخة 5 سبتمبر 1752 إلى دالمبير قال فيها "إنك وديدرو تقومان بعمل

صفحة رقم : 12672

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير ودائرة المعارف

سيكون فيه فخار فرنسا ومجدها، وعار وخزي لهؤلاء الذين سضطهدونكما أو يقفون في طريقكما. أنا لا أعترف من بين الفلاسفة البلغاء الأبك وبة" وعاهد نفس على مساندته تأييده، ولم يضيع أي فرصة لجذب الأنظار إلى الشروع باعتباره "عملاً ضخماً خالداً يتهم قصر الحياة الإنسانية ويبدد به(20)".

ومهما يكن من أمر انشغال فولتير بأعمال الكبير-قرن لويس الرابع عشر، ورسالة في الاعتراف والعادات، وتورطه مع هرشك وموبرتوي وفردريك فإنه وجد فسحة من الوقت ليرسل إلى دالمبير (1753) بمقالات موجزة: "مجرد مادة يمكنك تبويبها كيف تشاء وضمها إلى الصرح الخالد الذي تقيمه. إنني أمذك ببعض لبنات تضعها في أية زاوية في البناء"(21). وتوسل إلى الأصدقاء ذوي النفوذ أن يعملوا على حماية المحررين. وفي 1755 كتب إلى دالمبير "ما دام في عرق ينبض بالحياة سأكون في خدمة مؤلفي الموسوعة اللامعين، وإنني لأعتبره شرفاً كبيراً لي أن أسهم ولو بقدر ضئيل في أعظم وأجمل أثر باق للأمم للأدب"(22) وارفق بهذه الرسالة مقالات عن النار والقوة والفسوق والعبقريّة الفرنسية والذوق الفرنسي. وأطلع على المجلدات الخمسة الأولى مدققاً فاحصاً، فوجد أجزاء كثيرة جديرة بالثناء، كما حز رثي لبعض الأجزاء الأخرى، وطلب إلى المحررين أن يطالبوا كل الكتاب بالوضوح والإيجاز، وحذر دالمبير (الذي ظنه خطأ رئيس التحرير) بقوله "إن معاويك ضعاف فهناك جنود غير صالحين في جيش القائد العظيم. ويؤسفني أن أجد في مقال "الجيم" أن الكاتب يعلن أن الجحيم واردة في شريعة موسى، وأقسم لك الآن بكل الشياطين أن هذا غير صحيح(23).

وسرعان ما بعث بعدة مقالات صغيرة وبيث ضخم في التاريخ. وحرص قسيساً عالماً من لوزان هو أنطوان نوى دي بوليه Noe de Polies على أن يكتب لدائرة المعارف مقالات عن "المايين والسحر والسحرة وعن المخلص

صفحة رقم : 12673

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير ودائرة المعارف

المنتظر"، وكلها تعج بالهرطقة في هدوء وقد رأينا كيف أن فولتير كان مسئولاً إلى حد ما عن مقال دالمبير عن نيف 1757، وخفف من هذه العاصفة التي ثارت بسبب هذه المقالات بدوة الكاهن المخدوع إلى العشاء. وحين أوشكت الكارثة أن تنزل بمشروع دائرة المعارف وتهدد بتوقفها عن الظهور، كتب إلى دييرو: "أي دييرو الشجاع ودالمبير الجسور: امضيا في طريقكما..هاجما الوغاد، واقضيا على تخرساتهم الجوفاء وسفستهم الحقيرة وأكاذيبهم التاريخية تناقضاتهم وسخافاتهم التي لا حصر لها... لا تدعوا رجال الفر أرقاء مستعبدين لمن لا يتحلون بشيء من الفكر والذكاء. إن الجيل القادم سيكون مديناً لكما بالعقل والحرية"(24).

ولم يجب دييرو على هذه الرسالة، وأصر دالمبير على الانسحاب من المشروع. أما فولتير فخانته شجاعته وساءه صمت دييرو، ومن ثم قرر أن يفض يديه من العمل. وفي 6 أو 7 فبراير كتب ثانية إلى دييرو يطلب إليه إعاد المقالات التي لم تنشر، فأجاب دييرو بأن الخطوط عند دالمبير ولكن إذا كرر فولتير طلب إعادتها إليه فآته لن ينسى هذه الإساءة. وفي 26 فبراير كتب فولتير إلى دارجنال يقول: "إنني أحب دييرو واحترمه ولكني غاضب". ولكنه كتب إليه مرة أخرى في 12 مارس: "إذا التقيت بهذا الرجل اليب دييرو، فأبلغ هذا العبد المسكين أنني أغفر له قدر ما أشفق عليه من كل قلبي"(25) وفي مايو أرسل دالمبير المقالات المطلوبة إلى فولتير. ولك دالمبير استأنف العمل في دائرة المعارف في شهر يونية، فأرسل فولتير المقالات إليه ثانية، ولكنه طلب عدم ذكر اسمه إذا نشرت. واقترح نقل المشروع إلى بلد آخر لا يتعرض فيه لعنت الرقابة فعلاً أو توجساً. ورأى دييرو أن هذا الاقتراح غير عملي. وفقد فولتير ثقته في قيمة موسوعة ضخمة باهظة التكاليف وسيلة لنشر الفكر المتحرر. وفي 16 يونية 1758

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير ودائرة المعارف

أبلغ دييرو أن مشاغله الأخرى قد تجعل من المتعذر عليه أن يسهم في الموسوعة فضلاً عن أن تآزم الأمور بين المحرري والحكومة والكنيسة "قد يضطر الإنسان إلى الكذب، وأنا لنلقبى الاضطهاد والتعذيب إذا لم نمض في الكذب" (26) إن الضجة التي أحدثها كتاب هلفشيوس "الذكاء" (في يولييه) أزعجت الثائر العجوز، فكتب رداً على ذلك الكتاب. وفي 16 نوفمبر أبلغ دييرو أنه ابتاع داراً في فرني واعتزم أن يقيم هناك ويحيا حياة ريفية هادئة. فهل كان يخدع نفسه، أو أنه كان يدبر استئناف القتال بوسائل أخرى؟

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> لاهوت الزلازل

### 3- لاهوت الزلازل

بينما كانت الموسوعة تكبو وتقيق وتختفي وتتبعث من جديد ارتعدت فرائص الفلسفة الوريبة نتيجة لولوال لشبونة ففي الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح أول نوفمبر 1755 يوم عيد كل القديسين-هزت الأرض كتفيتها في البرتغال وشمال أفريقيا. وفي ست دقائق تهدمت ثلاثون كنيسة وألف منزل، ومات خمسة عشر ألف رجل، وأصيب مثلهم باصابات خطيرة، في واحدة من أجمل العواصم في العالم. ولم يكن ثمة شيء جديد لم يسبق له ثيل في هذه المذبحة الرهيبة التي حدث فيها الموت بالجملة. ولكن كانت هناك بعض ملابسات وظروف محيطية حيرت رجال اللاهوت، وأقلقت بالهم. لماذا اختار هذا اللغز المحير مثل هذه المدينة الكاثوليكية، ومثل هذا الاحتفال المقدس، في مثل هذه الساعة التي اجتمع فيها كل المواطنين الاتقياء تقريباً لحضور القداس؟ ولماذا أبقى وسط هذا الدمار الشامل على دارسيا ستيو دي كارفالو ميللو مركزيز بومبال فيما بعد-الوزير الأمر الناهي الذي كان ألد أعداء اليسوعيين في أوربا بأسرها؟

وأوضح مالاجريدا أحد اليسوعيين البرتغاليين أن الزلازل وما أعقبه من أمواج عاتية مدمرة كانا عقاباً من الله على الرذيلة التي استشرت في

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> لاهوت الزلازل

لشبيونة (27). ولكن هل كان الأثمنون هم وحدهم الذين ذهبوا للصلاة في الكنائس في هذا الصباح الرهيب؟ ولماذا هلك كثير من القساوسة المتبطلين والراهبات المتقنيات في الإخلاص للدين في الزلزال والحريق؟ وربما هلك المسلمون للكارثة باعتبارها غنقماً إلهياً من محاكم التفتيش في البرتغال، ولكن الزلزال دمر المسجد الكبير الذي يحمل اسم المنصور في الرباط. وعزا بعض الكهنة البروتستنت في لندن هذه الكارثة لاستنكار السماء لجرائم الكاثوليك ضد الإنسانية. ولكن في 19 نوفمبر من نفس العام دمر الزلزال خمسة عشر ألف منزل في بوسطن مساشوست موطن الحجاج والبيوريتانيين. وأعلن وليم ووربرتون أن مذبحاً لشبيونة "أبرزت عظمة الله في أبيه صورها (28) وألقى جون ويزلي موعظة عن أسباب الزلازل علاجها قال فيها "إن الخطيئة هي السبب المعنوي للزلازل مهما كان سببها الطبيعي... إن الزلزل هي نتيجة اللعنة التي صبها على الأرض خطيئة آدم وحواء الأولى (29)". واستشاط فولتير غضباً لهذه التفسيرات، ولكنه هو نفسه لم يجد شيئاً يوفق بين الحادث وبين إيمانه بأنه عادل "أين الآن قول لبينتز "أحسن العوالم الممكنة" أو قول بوب "كل ما هو موجود هو حسن"؟ (30) ونظم فولتير كرد فعل غاضب لتفانله السابق أعظم قصيدة له "كارثة لشبيونة" اختيار للحقيقة المقررة "كل شيء حسن" وهنا نغتم الفرصة لنقطف نموذجاً من فكرة شعره:

"أه أيتها المخلوقات الفاتنة التعسة. أيها الأرض المخزنة، أيها الجمع الرهيب من البشر. أيها المستقر الخالد للبلايا العقيمة الفاجعة، أيها الحكماء الحمقى الذين ينادون بأعلى صوت كل شيء حسن، تعالوا وتأملوا كل هذه الخرائب الأطلال الرهيبة. وهذا الحطام وأشلاء ورماد الجثث بني جنسكم، وأنظروا إلى النساء والأطفال الذين حصدهم الموت بالجملة، إلى الأعضاء المتناثرة تحت الأعمدة المحطمة. لقد التهمت الأرض مائة ألف حالفهم النحس، لقد سالت دماؤهم وتمزقت أوصالهم، واندفعوا وهم أحياء

صفحة رقم : 12677

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> لاهوت الزلازل

تحت السقوف التي انهارت عليهم، فأنها دون أية مساعدة أيامهم التي تبعث على الأسى في عذاب كربه. هل تواجهون صيحاتهم الضعيفة التي تؤذن بالفناء، والدخان المتصاعد في هذا المنظر البشع بقولكم هذا رى وفق قوانين أبدية طبقاً لمشيئة الله المطلقة الخيرة؟ وهل تقولون نأماً هذه الأكذاس من الضحايا لقد انتقم الله منهم إن موتهم جزاء جرائمهم؟".

ولكن أية جريمة وأي خطأ ارتكب هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال وسالت دماؤهم وهم في أحضان امهاتهم؟ وهل كانت ردائل لندن أو باريس أقل من ردائل لشبيونة؟ ومع ذلك دمرت لشبيونة وباريس ترقص؟ ألم يكن في مقدور الله العليم الخبير أن يصنع عالماً ليس فيه هذا الشقاء الذي لا معنى له؟ إني اجهل إلهي ولكني احب الجنس البشري. إن الشاعر يتأمل في عالم الحياة فيرى في كل مكان وعلى ألف صورة متباينة تنازعا على البقاء يلقي فيه كل كائن حقه إن عاجلاً أو آجلاً. إن هذه الخلاصة المريرة لعلم الحياة (للبيولوجيا) تتطلب أن نورد النص:



"إن الصقر الضاري ينقض على فريسته المخلوطة الفؤاد ويتلذذ مبتهجا بالتهام أوصالها الدامية، وكل شيء يبدو في نظره على مايرام، ولكن سرعان ما يأتي نسر كاسر يلتهم بمنقاره الحاد الصقر بدور، ثم يعاغل الإنسان هذا النسر المتكبر بطلقة تصيب منه مقتلاً. ويتوسد الإنسان التراب على أرض المعركة ينزف الدم وقد أثنخته الضربات سط كومة من الموتى. وهناك يكون غداء رهيباً للطيور النهمة. وهكذا تنن الدنيا بكل من فيها حيث ولدت كلها لتشقى وتعاني، ويكون مصيرها الوت الكتبادل. وفي هذه الفوضى القاتلة تبنى على تعاسة البعض سعادة المجموع، أية سعادة هذه؟ أيها المخلوق الفاني الضعيف البائس، أنك تصبح في نعمة حزينة "إن كل شيء حسن على ما يرام" إن الكون يقدم الكذبة، وقلبك يفند مائة مرة خطأ ذهنك. إن العناصر والحيوان والإنسان كلها في صراع. فلنعترف بأن الشر ملأ الأرض واستشرى فيها.

صفحة رقم : 12678

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> لاهوت الزلازل

كيف يتفق هذا الصراع الكوني الشامل وهذا الموت المنزل المؤلم مع الإيمان بأله خير طيب؟ إن الله موجود، ولكنه لغز محير. إنه يبعث بابنه ليخلص الجنس البشري، ولكن الأرض والإنسان بقيا على ما هما عليه على الرغم من توضيحته. ماذا يمكن أن يقول أوسع العقول مدى في هذا؟ لا شيء فإن كتاب القدر محجوب عن أبصارنا. فالإنسان وهو الغريب الأجنبي بالنسبة لنفسه، مجهول لدي الإنسان. من أنا؟ وأين أكون؟ إلى أين أنا ذاهب؟ ومن أين أتيت؟ إن الذرات تتعذب على هذه الكومة من الطين، ويحصدها الموت ويلعب بها القدر. ومع ذلك فإنها الذرات المفكرة التي قاست اعينها ورصدت ما في السماوات بهدي من الفكر. إننا خترق بأذهاننا وعقولنا هذا الكون اللاهائي، ولكننا لا نستطيع للحظة واحدة أن نرى أو نعرف أنفسنا".

وتلك بطبيعة الحال هي النعمة التي ضرب عليها بسكال قبل مائة عام في نثر أروع من شعر فولتير. وكان فولتير قد نبذ يوماً بسكال واستهجنه، ولكنه الآن يردد تشاؤمه. وعلى أساس هذا التشاؤم نفسه خلص بسكال إلى قوله: فلنركن إلى العقيدة المسيحية ونتعلق بالأمل. وختم فولتير قصيدته في الأصل ببنتين كئيبتين رواقيتين: "إذا يجب علينا أن نفعل أيها الفانون؟ يجب علينا أن نقاسي ونخضع في صمت ونعبد ونموت". واحتج أصدقائه بأن هذه الخاتمة البائسة غير محتملة فغير السطر الأخير إلى أخضعوا واعبدوا وأملوا وموتوا ولم يشعر أحد بالرضا فاستسلم وأضاف 29 بيتاً، وأسلم نفسه للعناية الإلهية ومناً بأن "الله وحده على حق".

وعلى الرغم من ذلك فإن القصيدة لم تذهل المتدينين فقط، بل أذهلت الفلاسفة كذلك. فإن مثل هذه النعمة الكئيبة الجوعة يبدو أنها أخرجت الفلاسفة وأرسل روسو إلى فولتير رسالة ويلة بليغة يوضح فيها إن كل ما تعاني الإنسانية من علل وشرور، إن هو إلا نتيجة لأخطاء البشر، وأن زلزال لشبونة هو عقاب عادل للإنسان لتخليه عن الحياة الطبيعية

صفحة رقم : 12679

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> لاهوت الزلازل

وإقامته في المدن، ولو أن الناس التزموا الحياة البسيطة في القرى المتفرقة في دور متواضعة فلربما كانت الضحايا قليلة نسبياً، وينبغي أن نؤمن بأن الله طيب خير، هذا كما قال جان جاك هو البديل الوحيد للتشاؤم القاتل، وأن نستمر مع ليبنتز، على الإيمان بأنه حيث إن الله خلق هذا العالم، فلا بد أن يكون كل شيء فيه على المدى الطويل وبالمنظرة البعيدة حقاً وصدقاً. وحصل أحد أصحاب المطابع على هذه الرسالة، ونشرها فلقبت أكبر الترحيب على أوسع نطاق، رداً بارعاً على قصيدة فولتير، ولزم فولتير الصمت لمدة أطول مما كان مألوفاً. ولما عاد للخوض ثانية في موضوع التفاؤل خرج الناس بأروع أعماله وهو كتاب ظل حديث العالم لمدة جيل، وهو الآن أعظم وأبقى أثر ورمز لفولتير.

صفحة رقم : 12680

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> كانديد

4- كانديد

نشر هذا الكتاب في اوائل عام 1759 تحت اسم Candide أو التفاؤل، مع الأيهام بأنه مترجم عن الألمانية عن كتاب دكتور رالف، مع اضافات وجدت في جيب الدكتور عند وفاته في ميندن Minden. وأمر المجلس الكبير بإحراق الكتاب فور صدوره تقريباً (5 مارس) وأنكر فولتير بطبيعة الحال أنه مؤلف. وكتب إلى قسيس صديق له في جنيف "لابد أن الناس فقدوا عقولهم لينسبوا إلى هذه المجموعة من الهراء. إن عندي والله الحمد والشكر ما شغلني خيراً منه (31) ولكن فرنسا أجمعت على أنه ما كان في مقدور أحد غير فولتير أن يكتب "كانديد". فهنا كان النشر البسيط بشكل خداع الذي يتدفق برفق والذي يتميز بمرح خفيف وتهكم لاذع شيطاني مما يستطيع هو وحده أن يكتبه. وهنا وهناك في الكتاب قليل من الفحش والبذاءة وقليل من الأدب الداعر، وفي كل مكان عبارات هازلة غاضب مهلكة تتم على عدم التوقير. فإذا كان الأسلوب هو الرجل فلا بد أن يكون هذا فولتير.

صفحة رقم : 12681

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> كانديد

أنه يبدأ بريئاً، ولكنه سرعان ما ينم على العين النافذة البراقة:

"في إقليم وستفاليا في قصر أنبل البارونات تندرختن-ترونخ Thunder-ten-Tronckh، عاش شاب حبه الطبيعية أحلى مزاج وأكرم خلق... وكان شديد الرأي صائب الحكم، إلى جاب ما تحلى به من بساطة بعيدة عن التكلف كل البعد، ولهذا السبب فيما أعتقد سمي "كانديد". أن الخدام القدامى في القصر أرتابو فب أن يكون ابن أخت البارتن من رجل طيب شريف من الجيران رفضت تلك الأنسة أن تتو من لأنه لم يكن يستطيع أن يصل بنسبه إلى أكثر من واحد وسبعين شريفاً. وكان غير أهل للزواج، ولكنه واف بالمراد في الفراش، وكان يتولى تربي الولد الوسيم غير الشرعي وتعليمه الأستاذ بانجلوس Pangloss (الكثير الكلام) الذي يستطيع أن يثبت إلى حد الإعجاب أنه ليس ثمة نتيجة دون علة أو سبب، وأنه في أحسن هذه العوالم الممكنة، فإن قصر البارون هو أفخم القصور، وأن ميلادي أحسن بارونة يمكن وجودها (على الرغم من أنها تزن 350 رطلاً) وقال أنه يمكن إقامة الدليل على أنه لا يمكن أن تكون الأشياء على غير ما عليه لأن كالأشياء خلقت لبعض الغييات، فلا بد أنها بالضرورة خلقت لأحسن الغييات. لآظ مثلاً أن الأنف شكلت للنظارة ولهذا تلبس النظارات، وواضح أن الأرجل صممت للجوارب ولهذا تلبس الجوارب... أن هؤلاء الذين يؤكدون أن كل شيء صحيح حق، يخطئون التعبير، وجدير بهم أن يقولوا أن كل شيء هو أفضل شيء".

أن كانديد "أنصت في أنتباه شديد وأمن ضمناً" لأن الأنسة كونيجوند ابنة البارون كان واضحاً أنها أحسن وأجمل مخلوقة يمكن وجودها. وتجذبه إلى حبه ويقع في شرك غرورها، ويوسع البارون ضرباً ويطرده من القصر.

ويجوب كانديد الأفاق، ويأسره ضباط التجنيد، ويرغمونه على اللحاق بالجيش البلغاري (هنا يعود فولتير بذاكرته إلى الجيش البروسي) "وهنا جعلوه ينعطف يمينا ويساراً وينزع بندقيته ثم يعيدها ويصوبها ويطلق

صفحة رقم : 12682

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> كانديد

النار ويسير. وجلده ثلاثين ضربة بالعصا" أنه يشهد المعركة ثم يتخلى عنها، ويلتقي بالأستاذ بانجوس الذي كاد أن يفقد آخر جزء في انفه، وعا قريب سيفقد إحدى عينيه وإحدى أذنيه لأفراطه من البغي الجميلة "باكت" التي أصابها داء عضال عن طريق العدوى من أحد الأخوة الفرنسيين سكان العلماء كوردلييه، وكان قد انتقل إليه هذا المرض عن طريق العدوى من كونتيسة عجوز كانت قد أصيبت به من أحد قواد الفرسان الذي نقله عن مركيزة نسبه إلى أحد الغلمان كان ق أصيب به بالعدوى من أحد اليسوعيين. وكان المرض قد انتقل إلى هذا الأخير من أحد رفاقكستوفر كولمبس(32).

وتحطمت سفينة كانديد وبانجلوس بالقرب من لشبونة، ووصلا إلى الشاطئ ساعة حدوث الزلزال، وكتب لهما البقاء على قيد الحياة، ولكن محكمة التفتيش قبض عليهما بتهمة الهرطقة، ويعدم بانجلوس شنقاً. أما كانديد فيتمكن من الهرب بمعونة كونيجوند التي كان الجنود قد اختطفوها ثم بيعت لأحد اليهود، ثم بيعت مؤخرأ لأحد رؤساء محكمة التفتيش. وتمكن كانديد وكونيجوند من الهرب بمساعدة سيدة عجوز أخرست شكواهما بقولها أنها كانت على وش أن يلتهمها الأتراك الذين كانوا يتضورون جوعاً في حصار أزور. وكانت قد قعت أسيرة في أيديهم، ولكن برحمة من القدر نصف الأعمى بدأوا بقطع ردف كل امرأة يمكن العثور عليها. وانتهى الحصار قبل المضي فيا لتجربة. وتختتم السيدة العجوز كلامها بقولها "كفا الآن عن النوح والتوجع لبؤسكما وتعاستكما، وابتهجا لأنكما تستطيعان الجلوس على رديكما كلهما".

ويعبران المحيط الأطلسي على أمل أن تكون الدنيا الجديدة أقل قساوة من القديمة. وفي بونس أيرس يستولي قائد الموقع على كونيجوند ويختص بها نفسه ويأمر بابعاد كانديد، فيدخل المستعمرة اليسوعية في باراجواي ويجد هناك شقيق كونيجوند الذي يهاجمه لمجرد تجاسره على التفكير بالزواج

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; فولتير والمسيحية -&gt; كانديد

منها، فبرديه كانديد قتيلاً، ويستأنف تجواله وحيداً بائساً، حتى يصل فجأة في وادٍ منعزل في بيرفو إلى "الدرادو" حيث يكثر الذهب إلى درجة لا يقدر فيها أحد قيمته. وهي أرض لا يوجد فيها مال ولا سجون ولا محامون ولا كهنة ولا أي صراع اقتصادي. ويعمر أهلها السعداء لمائتي عام، وليس لهم ديانة إلا عبادة بسيطة لإله واحد. ويحمل كانديد بعض الذهب ويغادر المكان، ولا يزال قلبه يهفو إلى كونيجوند. ويبحر عائداً إلى أوروبا ويصل إلى بور سموث ليجد من فوره أن أمير البحرين Byng قد أعدم رمياً بالرصاص لأنه خسر معركة. ويقول مارتن صديق كانديد الجديد أنهم يعتبرون من الحكمة في هذه البلاد أن يقتلوا أحد أمراء البحر بين الحين والحين ليستحثوا هم الآخرين ويشجعونهم(33). وعلم كانديد أن كوبيجوند في البندقية فيستقل السفينة إلى إيطاليا ويكتب ويحس بالضيق والحزن حين يسمع عما تعانيه البغايا. ويستمتع إلى غناء أصحاب الزوارق في فينيسيا ويخلص إلى أنه قد وجد بعض أناس سعداء. ولكن مارتن ينتهر بقوله "أنت لا تراهم في بيوتهم بين زوجاته أطفالهم. أن للأزواج ما يشغل بالهم ويحزنهم، لأصحاب الجنود لانت (الزوارق) ما يقلقهم كذلك. حقاً أن صاحب الزورق في الجملة أسعد حظاً من الدوج، ولكني أعتقد أن الفرق بينهما طفيف لا يستحق التفكير فيخه(34).

إن كونيجوند ليست في البندقية. إنها في الأستانة ويهرع إليها كانديد ليجد أنها بانت الآن أمة عزواً شوهاء. ومع ذلك يحررها ويترجها. ويلحق بانجلوس الذي لم تقض عليه محكمة التفتيش تماماً بتلميذه، ويستأنف دفاعه عن التفاؤل، ويلتقون برجل سعيد تقريباً فيرحب بهم ويقدم لهم فاكهة وجوزاً من غرس البيت. ويسأله كانديد "لا بد أن لك ضيعة كبيرة" فيجيب الرجل التركي ليس عندي إلا 20 فداناً أفلحها مع أولادي. وإن عملنا ليباعد بيننا وبين ثلاث مساوي جسيمة: والسأم والرذيلة والحاجة(35). ويقرر كانديد أن يحذو حذو هذا الرجل التركي "ويعمد

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; فولتير والمسيحية -&gt; كانديد

هو وكويجوند وأصدقائهما إلى فلاح قطعة من الأرض يزرعون فيها غذاءهم وتقوم المرأة ذات الردف الواحد وبغي صلح شأنها صديقها الأخ الراهب بمهام كثيرة. إنهم يجدون في العمل ويلقون في عملهم نصباً، ويأكلون، ويتولاهم بعض الضجر لكنهم إلى حد ما راضون قانعون. ويحاول بانجلوس أن يثبت أن هذا أفضل العوالم الممكنة، حيث أن معاناتهم أدت بهم إلى هذا الهدوء والسلام. فيجيب كانديد بأن هذا كلام جميل ولكن علينا أن نزرع جننتنا. وتنتهي القصة القصيرة.

وكان فولتير قد حاول تضمين صفة المغامرة والحب شيئاً من الهجاء اللاذع لما إليه ليبنتر من تبرير العدالة الإلهية في وجود الشر، ولتقاؤل بوب، ومساوي الدين، وحوادث العشق والغرام في الأدبار، والصراع الطبقي والفساد السياسي، والحيل الشرعية والرشاوى القضائية، ووحشية قتلون العقوبات، وجور الاسترقاق، وما تجره الرب من خراب

ودمار. وكانت قصة كانديد قد ألفت حين كانت حرب السنين السبع دائرة سجلاً بين النصر والخراب والدمار والموت. وأطلق فلويرت على تحفة فولتير خلاصة أعماله (36). ولم تخل كانديد من عيب معظم الهجاء وهو المبالغة السخيفة، ولكن فولتير كان يعلم تمام العلم أن قليلاً من الرجال يواجهون هذه السلسلة المريرة من الكوارث مثلما واجهها كانديد. ولا بد أنه عرف كذلك أنه على الرغم من أنه حسن أن يزرع الإنسان حديقته وأن يتقن المرء عمله الفردي المباشر، فإنه من الخير كذلك ألا تقتصر أرباحه على ما يعود عليه من حقله. أنه أفلح حديقته في فرني على أحسن وج. ولكنه ملأ أوربا صراخاً واحتجاجاً على إعدام كالاس.

صفحة رقم : 12685

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

5- ضمير أوربا

كان جان كالاس أحد أفراد جماعة صغيرة من الهيجونوت-البروتستانت الكلفنيين تركت في تولوز بعد قرن من الاضطهاد ومصادرة الأملاك والتحول الجبري إلى الكاثوليكية. ولم يستبعد القانون الفرنسي البروتستانت من الوظائف

صفحة رقم : 12686

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

العامه فحسب، بل أعلن كذلك أنه لا يسوغ لهم أن يشتغلوا محامين أو أطباء أو صيادلة أو قابلات أو باعة كتب أو صانعين أو بقالين. وإذا لم يكن قد سبق تعميدهم فليس لهم أية حقوق مدنية أياً كانت. وإذا لم يكن قد تم زواجهن على يد قسيس كاثوليكي كان زواجهن باطلاً، وكانما يعيشون مع خليات لا حليات، وأعتبر ابناؤهم غير شرعيين (37) والخدمات والقداسات البروتستانتية محظرة. وكان الرجال الذين يحضرونها يعاقبون بإرسالهم للتجديف مدى الحياة. أما النساء فكان عقابهن السجن مدى الحياة. وعقاب الكهنة الذين يقيمون مثل هذه القداسات الإعدام. ولم تكن هذه القوانين مطبقة تطبيقاً صارماً في باريس أو قريباً منها، وتفاوتت صرامة هذه التوانين تبعاً للبعد العاصمة. وكانت الاحقاد الدينية حادة بصفة خاصة في جنوب فرنسا. وكان الصراع بين الكاثوليك والهيجونوت عنيفاً لا هوادة ولا رحمة فيه. وكانت الفضائع التي ارتبها الطرفان لا تزال حية في الأذهان. وكان الكاثوليك المنتصرون قد قتلوا في تولوز في 562 ثلاثة آلاف من الهيجونوت، كما حكم برلمان تولوز على مائتين آخرين بالتعذيب حتى الموت (38)، وأحيا كاثوليك تولوز في كل عام ذكرى هذه الذبحة في احتفالات شاكرة ومواكب دينية مهيبه. وطافت نقابات المهنيين

ومختلف طبقات النبلاء ورجال الدين وجماعات "النادمين البيض والسود والرماديين" بشوارع المدينة في هيبة جلاء حاملين مخلفات رهيبية: جمجمة رئيس أساقفة تولوز الأول، قطعة من ثوب العذراء، وعظام أطفال قتلوا بمناسبة أسطورة هيرود "قتل الأبرياء". وكان من سوء حظ كالاس أن تكون السنة القادمة هي ذكرى مرور مائتي عام على أحدث 1562.

إن برلمان تولوز الذي كان قوياً مسيطراً في لنجدوك كما كان برلمان باريس في وسط فرنسا، كان يتحكم فيه الجانسونيون-أي أنه برلمان كاثوليكي مع نزعة قوية إلى صرامة الكلفنية وزمها وكأبتها. ولم يدخر وسعاً في إثبات أنه أشد تمسكاً بالكتلكة من اليسوعيين أنفسهم. وفي 2 مارس

صفحة رقم : 12687

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

1761 حكم بالإعدام على الراعي الهيجونوتي روشيت لإقامته قداساً بروتستانتيًا، كما حكم بالإعدام على ثلاثة رجال من كومت دي فوا حاولوا تخليص روشيت ن أيدي الشرطة (39). وفي 22 مارس أمر بتعذيب وإعدام صاحب متجر بتهمة قتله إنناً له عرض أن يعتنق المذهب الكاثوليكي.

وإنصافاً للمتعبين ينبغي القول بأن نظم العقيدة المسيحية عند الكلفنيين وضعت أساساً لاعتقادهم بأنه من المرخص للوالد أن يقتل الابن العاق. وفي الأوقات التي كان القانون لا يزال فيها ضعيفاً، والسرة فيها هي المصدر الرئيس أو الحيد تقريباً للنظام والانضباط، منحت معظم المجتمعات الأبناء حق إعدام أبنائهم أو الإبقاء عليهم. ولا بد أن شيئاً ومن هذا القانون الأبوي كان يعتمل فذ ذهن كلفن حين كتب "إن الرب يأمر بقتل الأبناء العاقين لأبائهم (40). وأشار كلفن إلى سفر التثنية (الإصحاح 21: الآيات 17-21) وإلى إنجيل متي (الإصحاح 15: الآيات 4-6) إن هذه الآيات على أية حال تبيح للأباء أن يتهموا الابن المعاند أمام شيوخ مدينته، الذين يمكنهم حينئذ أن يحكموا بإعدامه (برجمونه بالحجارة حتى يموت). ولكن الكاثوليك المهتاجين في جنوب فرنسا ارتابوا في قدرة الهيجونوت على اللجوء إلى شيوخ المدينة ومن ثم يأخذون تطبيق هذا القانون القديم على عاتقهم هم أنفسهم.

ويجدر بنا أن ننظر من خلال هذه الخلفية الكنيية القائمة إلى قضية جان كالاس. أنه كان تاجر ملابس كتانية. وكان له مخزن في الشارع الرئيسي في تولوز حيث أقام لمدة الأربعين عاماً. وكان له ولزوجته أربعة أبناء وبناتان واحتفظوا طيلة ثلاثين عاماً بمرية كاثوليكية لأولادهم، هي جين فنييز حتى بعد أن حولت أحد الأبناء وهو لويس إلى الكتلكة. وأقام لويس آنذاك في شارع آخر تلميذاً صناعياً يتقاضى من أبيه راتباً بانتظام. واشتغل الابن

صفحة رقم : 12688

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

الأصغر، دونات، تلميذاً صناعياً في نيم وعاش الابنان الآخران، بيير ومارك أنطوان مع والديهما. وكان مارك أنطوان، وهو أكبرهما سناً، قد درس القانون، ولكنه حين هياً للاشتغال به وجد أن كل الأبواب موصدة إلا أمام الكاثوليك. وحاول أن يخفي مذهبه البروتستانتي، وأن يحصل على شهادة بأنه كاثوليكي ولكن كشف أمره. وما كان له إلا أن يختار بين أمرين أحلاهما مر: إما أن يتخلى عن مذهبه البروتستانتي أو يضيع دراسة القانون هباء. واستبد به التفكير وعراه الاكتئاب، وانغمس في لعب الميسر والشراب وكان يحب أن يعيد على مسامع الناس مناجاة هملت للانتحار(41).

وفي 13 أكتوبر 161 اجتمعت أسرة في دارها فوق المخزن، وكان جويير لافاييس، وهو أحد أصدقاء مارك أنطوان، قد حضر لتوّه من بورجو وقبل دعوة الوالد لتناول العشاء. ونزل مارك أنطوان إلى المتجر وتساءل بيير ولافاييس عن السبب في عدم عوته، فنزلاً يستطلعان الأمر فوجدها مندلياً من قضيب كان قد وضعه بين عضادتي الباب، فأنزلاه وناديا على الوالد واستديا طبيباً وحاول الجميع إنقاذه ولكن الطبيب أكد وفاته. وهنا ارتكب الواد أجسيم. لقد عرف إن هناك قانوناً نافذ المفعول يقضي بأن يجز المنتحر عارياً في الشوارع المدينة؟ وأن يرحمه الأهالي بالطين والحجارة ثم يشنق وتصادر أملاكه للدولة. وتوسل الوالد إلى أسرته وحاول إقناعها بالقول بأن الفاة طبيعية(42) في نفس الوقت كانت صيحات بيير واستدعاء الطبيب قد أدت إلى احتشاد جمع من الناس أمام باب الحانوت. وجاء الضابط واستمع إلى القصة التي رويت له، رأى الحبل وشاهد الأثر الذي تركه في عنق الرجل الميت. وأمر الأسرة ولافاييس وجين فنينين بالشخص إلى دار البلدية. وهناك احتجزوا في زنانات مستقل. وفي اليوم التالي سئل كل منهم فأقروا جميعاً أن الوفاة غير طبيعية أكدوا أنه إنتحار، ولكن مدير الشرطة أبي أن يصدقهم، اتهمهم بقتل مار أنطوان حتى

صفحة رقم : 12689

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

يحولوا بينه وبين الارتداء إلى الكتكئة. وأقر الاتهام الأهالي وكثير من أعضاء برلمان تولوز، وأعمت حمى الانتقام الناس.

قد يكون من الصعب الآن أن يصدق أحدنا أن يعهد والد إلى قتل ابنه ليحول دون تغيير مذهبه البني، وقد يكون مرجع ذلك إلى أننا نفكر تفكيراً تغلب عليه النزعة الفردية. وبعد قرنين من الزمان تدهورت فيهما العقيدة الدينية. وفكر أهل تولوز مجتمعين كجمهور، والجماهير قد تشعروا ولكن لا تفكر، واشتدت صورة الغضب حمى الانتقام نتيجة احتفال أقامه "النادمون البيض" في كنيستهم، وعلقوا فوق نعش خال هيكلاً عظيماً يحمل في إحدى يديه نقشاً يدل على "تجنب الهرطقة" وفي الأخرى سعفاً يرمز إلى الاستشهاد، وتحت هذا الاسم "مارك" أنطوان كالاس اقترضوا أن الشباب لم ينتحروا فدفنوا الجثة باحتفال مهيب في كنيسة سان ستيفن. وعبئاً احتج بعض رجال الدين على أن هذا استباق للحكم في قضية القتل(43).

وجرت محاكمة آل كالاس أمام الاثني عشر قاضياً في محكمة تولوز البلدية. وصدرت مذكرة تحذير تتلى في ثلاثة أيام أحد متواليه في كل كنيسة تدعو للأدلاء بالشهادة كل من يعرف شيئاً عن ظروف الوفاة. وتقدم للشهادة عدة أشخاص وشهد أحد الحلاقين بأنه سمع في تلك الليلة المشؤمة صراخاً من بيت أسرة كالاس: أه بالهي أنهم شفقوني "وادعى آخرون أنهم سمعوا مثل هذه الصيحات. وفي 10 نوفمبر 1761 إدانت محكمة تولوز البلدية جان كالاس وزوجته وأبنة بيير، وأصدرت حكماً بإعدامهم شنقاً، وحكمت على لافاييس بالتجديف في المراكب الشرعية، كما حكمت على جين فنيير بالسجن لمدة خمسة أعوام. وكانت المربية الكاثوليكية قد أقسمت اليمين على براءة مخدمها البروتستانتي.

واستؤنف الحكم أمام برلمان تولوز الذي عين هيئة من ثلاثة عشر قاضياً استمعوا إلى ثلاثة وستين شاهداً آخرين. واستند كل الشهود إلى الشائعات واستمرت المحاكمة ثلاثة أشهر احتجزت فيها أسرة كالاس ولافايس منفردين

صفحة رقم : 12690

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

وأدان الحكم النهائي الوالد فقط. ولم يستطع أحد أن يوضح كيف تسنى لرجل في الرابعة والستين أن يتغلب دون مساعدة على ابنه الناضج المكتمل النمو ويشنقه. وأملت المحكمة أن يعترف كالاس تحت ضغط التعذيب، ولكم من مرة نصحوه بالاعتراف، وكم من مرة أكد أن مارك أنطوان انتحر. وبعد راحة مدتها نصف ساعة خضع للتعذيب الشديد الاستثنائي حيث صبوا في حلقة نحو "جاولنين" من الماء ولكنه أصر على أنه بريء. ثم صبوا في حلقة عنوه جالونين آخرين حتى انتفخ جسمه إلى ضعف حجه الطبيعي، ولكنه ظل مصراً على براءته فسمح له بالتلصص من الماء، فأخذه إلى ميدان عام أمام الكاتدرائية ووضع على صليب وبإحدى عشرة ضربة من قضيب حديدي هشم الجلود أطرافه في موضعين وأعلن الرجل براءته، وهو يهيب بيسوع المسيح لنجده، وبعد ساعتين من الألام المبرحة شنق ثم شيّدوا جثمانه إلى خازوق وأحرق (10 مارس 1762)(44).

واطلق سراح المسجونين الآخرين، ولكن الدولة صادرت ممتلكات كارس. وأسرت الأرملة وبيير إلى مأوى في في مونتوبان وأرسلت البنات إلى ديرين مختلفين. ولما رأى دونات أنه مهد بالخطر في نيم هرب إلى جنيف. وإذ سمع فولتير بالمأساة دعا دونات إلى ملاقاته في لي دليس في 22 مارس وكتب فولتير إلى داميلافيل "سألت ونات إذا كان أبوه وأمّه من ذوي الطبع الحاد، فأجاب أنهما لم يضرّبا أحد من أبنائهما قط، وأنه ليس ثمة آباء أشدّ منهما حناناً وتسامحاً(45). واستشار فولتير تاريخين من جنيف كانا قد أقاما مع كالاس في تولوز، فأكد صدق أقال دونات. وكتب إلى بعض الأصدقاء في لنجدوك فأجاب الكاثوليك والبروتستانت جميعهم بأن جريمة الأسرة كانت فوق أي شك معقول(46) وأنصل فولتير بالأرملة فبعثت إليه برد واضح فيه صدقها وإخلاصها كل الوضوح، إلى حد أنه حفزه إلى العمل والتصرف. فأهاب بالكردينال دي بريس، ودارجنثال ودوقة دي أنفيل ومركيزة دي يقوللا والدوق دي فيبلار والدوق دي ريشيليو ليتوسلوا

صفحة رقم : 12691

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

إلى وزير الملك شوازيل وسانت فلورنتين ليأمر بإعادة النظر في المحاكمة. ألحق دونات بأسرته وأحضر بيير كالاس إلى جنيف وأقنع مدام كالاس بالإقامة في باريس حتى يكون من الميسور سؤالها والرجوع إليها. واستخدم محامين ليثيروا عليه بما يجب إتخاذه من إجراءات فنية قانونية في القضية. ونشر كتيباً تحت عنوان "الوثائق



الأصلية في وفاة السيد الاس(47)، واتبعه بنشرات أخرى. أهاب بسائر الكتاب أن يسخروا أقلامهم لإيقاظ ضمير أوروبا وإثارة الشعور فيها. وكتب إلى داميلافيل "أحتج ودع الآخرين يحتجون على قضية أسرة كالاس، أرفعوا عقيرتكم بالاحتجاج على التعصب(48)" كما كتب إلى دامبير "أرفع صوتك في كل مكان، استحلفك بالله من أجل آل كالاس ضد التعصب. إنهم فقدوا اعتبارهم نتيجة اتهامهم بهذا الجرم الشائن. وهذا هو سبب شقائهم وتعاستهم، وحث على التبرع بالأموال لسد نفقات هذه الحملة التي تحمل الجزء الأكبر منها حتى هذه اللحظة. وأنهالت عليه التبرعات من كل جانب، ومن ملكة إنجلترا إمبراطورة روسيا وملك بولندا. ووافق محام لامع ن باريس على إعداد القضية لرفعها إلى مجلس الدولة دون أن يتقاضى أجراً. وقصدت بنات كالاس إلى باريس للحاق بوالدتهن. وحصلت أحدهن على رسالة من راهبة كاثوليكية تستدر العطف على آل كالاس(50) وفي 7 مارس 1763 أستقبل وزراء الملك الأم وبناتها. واجتمع الرأي على ضرورة طر القضية من جديد. وصدر الأمر بإحضار كل الوثائق والمستندات المتعلقة بالموضوع من تولوز.

ولكن قضاة تولوز لجأوا إلى مائة حيلة للأطباء في جميع الوقائع وإحالتها. وفي أثناء ذلك الصيف كتب فولتير ونشر بحثه الهام "رسالة عن التسامح" ورغبة منه في إبعاد إقبال الناس عليها وأفتنانهم بها كتبها بأسلوب يتسم باعتدال يثير الدهشة والعجب. أنه أخفى أنه المؤلف، وتحدث حديث رجل مسيحي تقي متمسك بالدين مؤمن بالخلود، وامتدح أساقفة فرنسا على أنهم سادة مهذبون ويفكرون ويعملون بشكل نبيل يتناسب مع شرف محتدهم(51).

صفحة رقم : 12692

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوروبا

وزعم أو تظاهر بأنه يرتضي المبدأ الذي يقول بأنه "لا خلاص بغير الكنيسة"(52). ولم تكن الرسالة موجة إلى الفلاسفة بل إلى رجال الدين الكاثوليك أنفسهم، ومع ذلك لم تخل من الجرأة والتهور لأنه كثيراً ما نسي قراءه. وبدأ فولتير رسالته بالحديث عن محاكمة كالاس وإعدامه وعرض تاريخ التسامح وبالغ في الكلام عنه في حالة اليونان ورومة. واستبق جيبون في محاولة إقامة الدليل على أن اضطهاد المسيحيين للهرطقة فاق بما لا يقاس اضطهاد الرومان للمسيحيين حيث كان الهراطقة "يشنقون أو يغرقون أو تحطم أجسامهم في عجلة التعذيب أو يحرقون بسبب حب الله(53)" ودافع عن الإصلاح الديني باعتباره ثورة لها ما يبررها ضد بيع البابوية لصكوك الغفران، وهي البابوية التي حط من قدرها حوادث غرام البابا الإسكندر السادس وحوادث القتل التي أرتكبها قيصر بورحيا ابن البابا. وأبدى دهشته وشدة استيائه عندما اطلع على محاولة حديثة لتبرير مذبحه سانت برتلميو وسلم بأن البروتستانت كانوا كذلك غير متسامحين وعلى الرغم من ذلك أوصى بإباحة العبادة البروتستانتية في فرنسا وعودة الهيجونوت المنفيين إليها.

أنهم لا يطالبون إلامية القانون الطبيعي لهم، وإقرار صحة زواجهم، والأطمئنان على احوال أبنائهم وحقهم في الوراثة عن آبائهم، وتحرير

صفحة رقم : 12693

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

أشخاصهم، ولا يطالبون بكنائس عامة ولا بأي حق في الوظائف البلدية ولا في المناصب الرفيعة(55). وعلى الرغم من هذا التحديد البارع عرف فولتير التسامح بقوله:  
"هلي إذن أن اقترح أن يكون كا إنسان حراً في اتباع ما يملبه عليه عقله هو، ويؤمن بما يوحي به إليه عقله المستنير أو المخدوع أيا كان؟ وحقاً شريطة ألا يعكر صفو النظام العام... وإذا كنت تصر على القول بأن عدم الإيمان باليانة الساندة ريمة فإنك بذلك تتهم المسيحيين الأولين أباعك الأقدين وتبرر عمل من تلومهم على أضطهادهم وتعذيبهم... وعباً كان ينبغي أن يكون للحكومة الحق في معاقبة الناس عاى أخطائهم فمن الضروري أن تتخذ هذه الأخطاء شكل الجرائم. ولن تتذ الأخطاء شكل الجرائم إلا إذا ازعجت المجتمع وعكرت صفوه. وهي تقلق بال المجتمع إذا ولدت التعصب. ومن ثم يجدر بالناس أن يتفادوا التعصب ليكونوا جديرين بالتسامح"(56). أو المخدوع أو وختم فولتير حديثه بالتوجه إلى الإله "أنك لم تخلق لنا القلوب ليكره بعضنا بعضاً، ولا الأيدي ليقتل الواحد من الآخر. فلنسلم بأن الواحد منا قد يعين الآخر على احتمال عبء الحياة المؤلمة الزائلة. نرجو الايستخدم الناس هذه الفروق الطفيفة في الملابس التي تستر أجسامنا الضعيفة، وفي الطرق التي نعبر بها عن أفكارنا وفي عاداتنا السخيفة وقوانيننا اقصرة... وباختصار هذه الاختلافات البسيطة الموجودة بين الذرات المسماة بالناس... ونقول نرجو ألا يستخدمها الناس علامات على الكراهية والاضطهاد المتبادلين ونرجوا أن يتذكر الناس جميعاً أنهم أخوة(57).  
ولسنا دري أي تعصب أسهم به هذا النداء في مرسوم التسامح الذي أصدره لويس السادس عشر في 1787. وهل وصل إلى أسماع وزراء لويس الخامس عشر وحرك مشاعرهم. وعلى أية حال وبعد معوقات جمة

صفحة رقم : 12694

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

امتنح الله بها قلوب آل كالاس أعلم مجلس الملك في 9 مارس 1765 أن اتهام جان كالاس باطل نطق ببراءته وحصل شوازيل من الملك على منحه قدرها ثلاثون ألفاً من الجنيهات تعويضاً للأرملة أبنائها عن فقد ممتلكاتهم. ولما وصلت أنباء هذا الحكم إلى فرني بي فولتير فرحاً.  
وفي الوقت نفسه (19 مارس 1764) أمرت المحكمة البلدية Mazamet في جنوب وسط فرنسا بإعدام بييربول سيرفن Sirven زوجته بتهمة قتل أبنتهما للحيلولة بينها وبين التحول إلى الكاثوليكية. وقضى الحكم بأن تشهد البناتان الباقيتان على قيد الحياة إعدام الديهما(58) وكان ينبغي أن يتم هذا الإجراء بصورة رمزية لأن الأسرة كانت قد هربت إلى جنيف (1 إيريل) وكانت قد بلغت فولتير بقصتها.  
وكان سيرف بروتستانتيماً يقيم في كاستر Castre على بعد نحو أربعين ميلاً إلى الشرق من تولوز. وفي 6 مارس 1760 اختفت الأبنة الصغرى اليزابث وعبثاً حاول والداها البحث عنها. واستدعاهما أسقف كاستر وأبلغهما أنه كان قد أرسل الفتاة إلى أحد الأديار، بعد أن أفضت إليه برغبتها في أن تصبح كاثوليكية. وسمح القانون الفرنسي الذي سن في عهد لويس الرابع عشر للسلطات الكاثوليكية بانتزاع الولد فوق سن السابعة من بين أحضان والديه، ولو بالقوة عند الاقتضاء، إذا طلب التحول إلى المذهب الكاثوليكي. واستبدت الأوهام باليزابث في الدير وتحذت إلى الملائكة ومزقت ملابسها عن جسمها وتوسلت أن تُضرب بالسياط. وباتت الراهبات في حيرة من أمر أليزابث، وكيف يتصرفن معها، فأبلغن الأسقف بخبرها، فأمر بإعادتها إلى والديها.

وفي يولية 1761 أنتلت الأسرة إلى سانت أبي St. Abby على بعد 50 ميلاً من كاستر. وهناك في إحدى ليالي ديسمبر غادرت اليزابث غرفتها ولم تعد. وفي 3 يناير وجد جثمانها في بئر. ولم يكن أهالي سانت أبي مبالين إلى اتهام أسرة سيرفن بقتلها ومثل 45 شاهداً أمام المحكمة المحلية. فعبروا

صفحة رقم : 12695

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

جميعاً بلا استثناء عن رأيهم في أن الفتاة إنتحرت أو أنها سقطت في البئر بمحض الصدفة . فأرسل المدعي المحلي ترنكييه Trinquier مذكرة بالحادث إلى المدعي العام في تولوز فأصدر إليه تعليماته بمواصلة السير في القضية مع إفتراض أن سيرفن مذنب: وبدا هذا غير جائز لأن سيرفن كان متغيباً عن البلدة ليلة اختفاء اليزابث. كما كانت زوجته عجوزاً واهنة. وكانت إحدى البنات حبلى. وكاد يكون من غير المعقول أن تكون إحدى هاتيك السيدات قد دفعت بالبنات إلى البئر دون أن يسمع لها صراخ. ومع ذلك فإن ترنكييه أصدر في 20 يناير أمراً بالقبض على سيرفن. وعلم سيرفن أنه قبل ذلك بنحو شهرين كانت محكمة تولوز قد أصدرت حكماً بإعدام جان كالاس بتهمة مماثلة بناء على: أدلة مشتبه فيها غير قاطعة. وإذا استسلم للأعتقال والتحقيق والمحاكمة فإن قضيته ستعرض فب النهاية على برلمان تولوز، ولما لم يكن يثق في هذه المحاكم فإنه حمل زوجته وبناته في أواسط الشتاء عبر فرنسا وفوق جبال السفن Sevennes إلى نيف على أمل أن يهب المدافع عن كالاس لمعاونته. وكان فولتير لا يزال منهمكاً في حملته من أجل كالاس فرأى من سداد الرأي ألا يشغل الذهن الفرنسي بقضيتين في وقت معاً. وأسهم في الأخذ بيد الأسرة التي كانت أملاكها قد صوردت، ولكن عندما أقحمتها سلطات تولوز فقي الموضوع استجابة لطلب وثائق مستندات قضية كالاس، استأنف فولتير الهجوم بالبده في شن حملة من أجل سيرفن، وعاود الكرة في طلب المعونة والتبرعات التي جاءت من فردريك الثاني ملك بروسيا وكريستيان السابع ملك الدنمرك وكترين الثانية قيصرية روسيا وستاسلاس بونيا توسكي ملك بولندا. ورفضت محكمة مازامي طلب نسخة من أوراق التحقيق.

ويجدد بنا ألا نسهب في إيراد فاصيل الصراع في هذه القضية فقد ظلت منظورة حتى نقض برلمان تولوز آخر الأمر في 1771 حكم محكمة أول

صفحة رقم : 12696

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

درجة وقضى ببراءة أسرة سيرفن وأعاد إليها أملاكها. وقال فولتير :  
"لقد استغرق صدور الحكم بإعدام هذا الرجل ساعتين واستغرق النطق ببراءته تسع سنوات(59).

وروع فولتير حين علم وسط هذا الجهد الكبير والشغل الشاغل أنه هو نفسه متورط في قضية برزت فجأة في آبفيل على شاطئ المانش. ذلك أنه في ليلة 8-9 أغسطس شوه صليب خشبي (تمثال يمثل المسيح مصلوباً) على جسر بونت نيف على نهر السوم كما لطخ صليب آخر في مقبرة سانت كاترين بالأوساخ والأقذار. وفرع رجال الدين والهالي حين ما اكتشفوا تدنيس المقدسات على هذا النحو وقصد أسقف أميان إلى آبفيل وقاد وهو حافي القدمين موكباً اشترك فيه كل السكان تقريباً يلتمسون المغفرة من الرب. وقرئ في كل الكنائس تحذير ينذر بتوقيع العقوبة الصارمة على كل من كان في مقدوره أن يلقي شيئاً من الضوء على هذا السر لم يتقدم للأدلاء بما يعلم. واتمعت القاضي دوفال إلى 77 شاهداً وذكر بعضهم أنهم لاحظوا ثلاثة شبان بموكب عيد الجسد دون أن يركعوا أو يخلعوا قبعاتهم. وزعم آخرون إن عصابة من شبان آبفيل، من بينهم ابن دوفال، درجوا على السخريّة من الموكب والاحتفالات الدينية والتغني بأغان ماجنة (60). وفي 26 أغسطس صدرت مذكرات إلى جبار أثالوند وشيفالييه جان فرنسوا ليفيردي لآبار شاب في السابعة عشرة يعرفهالتاريخ باسم موازيل فقط. وهرب أثالوند إلى بروسيا. وقبض على موازل Moissel ودي لآبار. وحصل موازل على عفو جزئي باعترافه بأنه هو والآخرون ارتكبوا هذه الأعمال المزعومة. واتهم دي لآبار بأنه بصق على صور القديسين وبأنه أنشد ابتهاجاً بدينياً اسمه "لامادلين" وبأنه أعار القاموس الفلسفي "ورسالة إلى فراشه" لفولتير، وزعم أنه رأى أثالوند يضرب الصليب فوق القنطرة ويطبخ الصليب بالأقذار في المقبرة.

صفحة رقم : 12697

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

وكان لآبار حفيد قائد أخنى عليه الدهر واعترف بأنه مهرطق. وروى أحد الشهود أن لآبار عندما سئل لماذا لم يخلع قبعته أمام موكب عيد القربان أجاب بأنه "اعتبر القربان قطعة من الشمع ول يستطع أن يفهم كيف يقدم أي إنسان على عبادة إله من العجين. وأقر لآبار بأنه ربما قال شيئاً من هذا القبيل وأضاف إنه قد سمع شباناً آخرين يبدون شيئاً من مثل هذه المشاعر والآراء وإنه لا ضير عليه من مثلها. كذلك وفتشت مكتبته فوجد فيها قاموس فولتير وكتاب هلفشيوس "الذكاء" وكتب أخرى تهاجم الدين وفي أول الأمر نفى علمه بانتهاك أثالوند للحرمة المقدس فلما علم باعتراف موازل عاد فأكد صحته. وكانت الجريمة النهائية التي اتهم بها دي لآبار هي التجديف على الله والقربان المقدس والعذراء المقدسة والدين والوصايا الإلهية وتعاليم الكنيسة والتغني بأغنيتين مملوئتين بالتجديف اللعين البغيض ووضع علامات التقديس والإجلال على بعض الكتب السيئة السمعة وانتهاك حرمة علامة الصليب وسر تقديس النبيذ والبركات التي تمنحها الكنيسة والتي يقرها المسيحيون (61).

وفي 28 فبراير 1866 أصدرت محكمة آبفيل حكماً. وهو يقضي بتعذيب لآباروتا للموند عند اعتقالهما حتى يبوحا بأسماء شركائهما. كما يقضي عليهما بالتفكير علناً أمام الكنيسة الرئيسية في المدينة ويقطع لسانيهما من الجذور ضرب عنقيهما ثم إحراق جثتيهما حتى رمادا. كما يجب إلقاء القاموس فولتير الفلسفي في نفس النار. واستؤنفت الحكم أمام برلمان باريس. وطالب بعض الأعضاء بتخفيفه. فرد العضو باسكييه بأن الأمر يحتاج إلى إنذار وعقوبة رادعة لاستئصال شأفه الكفر الذي يهدد الاستقرار الاجتماعي والأخلاقي، وحاول التذليل على أن المجرم الحقيقي هو فولتير، ولكن حيث أنه لا سبيل أمام البرلمان للوصول إلى أس البلاء فيجب أن ينال تلميذه جزاءه بدلاً منه. وصوت عضوان على إبدال الحكم وتخفيفه وصوت خمسة عشر عضواً على تنفيذ برمته. وفي أول يولية 1766 نفذ

صفحة رقم : 12698

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

الحكم باستثناء قطع اللسان. ولقي لآبار مصيره دون توريط أحد من أصدقائه. وفصل الجلاذ الرأس عن الجسد بضربة مسددة تسديداً محكماً مما نال إعجاب الجمهور واستخدامه (62).  
وصعق فولتير لصرامة العقوبة وأحس بأنها وحشية خليقة بمحكمة التفتيش الإسبانية في أسوأ أحوالها، وكتب أسقف أنسي Anncey إلى المحكمة الفرنسية يطلب تطبيق العقوبات الواردة في إلغاء مرسوم ناننت على يد فولتير الذي كتب إلى دامبير يقول إن هذا الأسقف الوغد لا يزال يقسم أنه سيراني أحرق غفي هذه الدار الدنيا أو في الدار الأخرة... وتجنباً للاحتراق فاني أرقد في مقدار من الماء المقدس (63). وخشية إستدعائه للمثول أمام برلمان ديجون إنتهز الفرصة لتجربة المياه المعدنية في رول بسويسرا. ثم عاد إلى فرني ليستأنف جهوده من أجل سيرفن.  
واقترح آنذاك على دامبير وديرو أن يبرحا هم وسائر الفلاسفة فرنسا تحت جنح الليل: وقيموا في كليفر تحت حمائي فرديريك الأكبر. ولم يتحمسا كما لم يتحمس فرديريك لهذه الخطة. وأقر الملك بأن عقوبة دي لآبار كانت متطرفة في صرامتها أما هو فكان يرى من جانبه الحكم على الشاب بقراءة "خلاصة اللاهوت" لتوماس أكويناس، فهذا في نظره مصير أسوأ من الموت، ثم استنرد فرديريك ليزود فولتير بشيء من النصيحة:  
"إن ما حدث في أبفيل مأساة ولكن ألم يخطئ أولئك الذين عوقبوا؟ هل لنا أن نهاج باشرة الحزازات والاحقاد التي غرسها الزمن في أذهان المم؟ وهل يجوز لنا إذا أردنا أن ننعم بحرية الفكر أن ننقر الديانة السائدة. أن الإنسان الذي لا يهدف إلى تعكير الصفو وأثاره القلق نادراً ما يضطه. وتذكر قول فونتيل "إذا كانت يدي مملوءة بالحفائق فينبغي علي أن أفكر لأكثر من مرة قبل أن أفتحها(64)".  
أما فيما يتعلق بمستعمرة الفلاسفة المقترحة في ليفز فإن فرديريك عرض أن يبسط عليهم حمايته شريط أن يحافظوا على السلام ويحترموا عقيدة الشعب.

صفحة رقم : 12699

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

وأضاف "أن الرجل لا ينبغي له أن يتنور... وإذا كان الفلاسفة أن يشلوا حكوم فإن الناس بعد 150 عاماً سيصطنعون خرافات جديدة، فيصلون لأصنام صغيرة أة للأجداث التي دفنت رفات عظماء الرجال، أو يتضرعون إلى الشمس أو يعمدون إلى شيء من مثل هذا الهراء. إن الخرافة وطن ضعف في ذهن الإنسان وجزء لا يتجزأ منه ولا ينفصل عنه، إن هذا الضعف كان موجوداً وسيظل موجوداً دائماً (65).  
وتابع فولتير حملته وأخرج "موجز عن الموت شيفاليه دي لآبار. وأرسل إلى أصدقائه الملكيين يطلب إليهم التوسط لدى لويس الخامس عشر ليرد إلى الشاب الميت اعتباره بشكل أو بآخره. ولما أخفقت هذه المساعي أرسل إلى لويس السادس عشر (1775) رسالة عنوانها "صرخة الدم البرئ". ولم ينقض الحكم على لآبار قط ولكن رضيت نفس فولتير حين رأى تروجو يعيد النظر في قانون العقوبات الذي أجاز إعدام شاب نتيجة أخطاء يبدو أنها تستحق عقوبة أقل من ضرب العنق. وتابع فولتير بنشاط يستحق التنويه به في مثل سنة، قيادة هذه الحملة الصليبية حتى آخر ياته ضد إفراط الكنيسة والدولة.

وفي 1764 ظفر بإطلاق سراح لود شومونت الذي كان قد حكم عليه بالجديف في السفن الشراعية لحضوره صلاة بروتستانتية. ولما أطاحوا برأس كونت توملس دي لالي (1766 في باريس) القائد الفرنسي الذي هزم أمام الإنجليز في الهند بتهمة الخيانة والجبن فإن فولتير تلبية لنداء ابن لالي، كتب مجلداً من 300 صحيفة تح عنوان شذرات تاريخية عن الهند يبرئ فيه الكونت، واستحث مدام دي باري لتتوسط لدي لويس الخامس عشر وألغى الحكم 778 قبل وفاة فولتير بزمان قصير. إن هذه الجود الشاقة أرهقت المناضل الذي بلغ الثمانين، ولكنها جعلت منه بطل فرنسا المتحررة. وأورد ديدور في كتابه (ابن أخي رامو) أن فولتير بلغ الذروة في كتابه محمد، ولكنني كنت أفضل أن أدافع عن كالاس.(66)

صفحة رقم : 12700

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> ضمير أوربا

وقال بوماريه وهو قسيس بروتستانت في جنيف لفولتير يبدو كأنك تهاجم المسيحية ولكنك تؤدي عمل الرجل المسيحي(67) وأسهم فردريك على-الرغم من كل حرصه وحذره في تقدير وإجلال الرجل الذي جعل من نفسه "ضمير أوربا"، حيث يقول كم هو جميل أن يسمع فيلسوف صوته لكل الناس من ميكنه. وأن يجبر الجنس البشري الذي يتكلم هذا الفيلسوف باسمه القضاة على إعادة النظر في الأحكام الأثر وإذا لم يكن ثمة شيء آخر يتحدث بفضل فولتير، فإن هذا وحده كان ليحظى بمكان بين من أحسنوا إلى الجنس البشري وأدوا له أجل الخدمات(68).

صفحة رقم : 12701

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

6- اقضوا على الرجس

في غمرة هذا الصراع انقلبت مناهضة فولتير للمسيحية إلى بغض استمر عشر سنين من حياته (175-1769) وكان قد بدأ باحتقار شبابي للمعجزات والأسرار والأساطير التي واجهت الناس، ثم انتقل إلى تشكك ساخر في المبادئ المسيحية مثل التثليث وتجسي المسيح (اتحاد الألوهية والناسوتية فيه) وآلام المسيح وموته (تكفيراً عن خطايا البشر)، عما اعترف توماس أكويناس صراحة بأنه ليس في متناول العقل، أو أنه يشق على الفهم. ولكن الات التمرد والثورة هذه طبيعية في ذهن شيط يحس بالنمو في العروق وربما ر فولتير بهذه الحالات حتى أصبح رجلاً يتغاضى كما يتغاضى العالم تغاضياً عن المعتقدات العزيزة على جماهير الناس المفيدة بوصفها عاملاً مساعداً على النظام

الاجتماعي والانضباط الخلقي. وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر كان رجال الدين الفرنسيون متسامحين نسبياً، وأسهموا في تقديم الاستنارة ولكن اتساع نطاق الكفر والترحيب الذي قوبلت به دائرة المعارف أزعجا رجال الكنيسة وانتهزوا فرصة ادخل الملك من رعب بمحاولة داميين Damiens قتله (1757) ليخرجوا من الدولة بمرسوم (1759) ينص على أن مهاجمة الكنيسة جريمة عقوبتها الإعدام. ورأى الفلاسفة فذ هذا إعلاناً للحرب، وأحسوا بأنهم ليسوا منذ الآن في حاجة إلى أن يدخروا أية مشاعر أو أية تقاليد في شن ما بدا لهم أنه حماقة

صفحة رقم : 12702

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

قائلة. ورأوا خلف جمال الديانة وشعرها دعاية تسخر الفن وتصادره، وخلف مساندة المسيحية للفضيلة والأخلاق القومية ألف مهرطق يحرقون وهم مشدودون إلى الخازوق، كما رأوا أهل مدينة ألبى Aibi (في جنوب فرنسا) يسحقون في حرب صليبية طاحنة، ورأوا أسبانيا والبرتغال تجللهما الكآبة والقتال بسبب محاكم التفتيش، وفرنسا ممزقة منعزلة بما فيها من أساطير متنافسة، ورأوا متقبل الروح البشرية في لك مكان خاضعاً للتجديد أو البعث المتكرر للخرافة ولأساليب الكهنة والاضطهاد والتعذيب، وعليهم أن يكافحوا نكسة العصور الوسطى في أواخر سني ياتهم. وثمة ثلاثة أحداث جعلت من عام 1762 نقطة تحول في هذا الصراع المتعذر كبح جماحه. فبدأ إعدام كالا في مارس وكأنه إعلان انتكاس فرنسا إلى العصور الوسطى ومحاكم التفتيش. إن السلطة المدنية هي التي تولت المحاكمة والتعذيب والقتل، ولكن وراء خلفية من التعصب شعبي عام ولدته التعاليم والطقوس والكرهية الدينية. وفي مايو زودكتاب روسو "إميل القرن الثامن عشر" بإعلان قسيس سافوي لعقيدة الإيمان، وهو ولو أن مؤلفه خصيم للفلاسفة جرد المسيحية من كل شيء تقريباً فيما عدا الإيمان بالله وبأخلاق المسيح. وبدأ أن إحراق الكتاب في 11 يونيو في باريس و19 يونيو في جنيف وحد بي الكاثوليكية والكلمنية في مؤامرة ضد العقل البشري. وكان واضحاً أن استنكار برلمان باريس لليسوعيين في أغسطس نصر الفلاسفة، كما كان أيضاً نصراً للجانسينيين الذي سيروا على برلمانات باريس وتزلوز وروان، إن تصرفات البرلمانات في قضيتي كالا ولا بار لتوضح أن الجانسينيين كانوا أعداء أداء لحرية الفكر، قدر عداوة غيرهم في تاريخ فرنسا بأسره. وفي نفس الوقت نجد أن العداة بين البرلمانات والحاشية الملكية ونمو سلطان شوايل في الحكوم (1758-1770).؟ وهو من مشايخي فولتير-مهذا للفلاسفة الفرصة للمضي في النضال مع التعرض لخطر أقل مما هو مألوف من جانب رقباء الدولو والشرطة، ومن ثم أعدت الساحة لذروة الهجوم على المسيحية.

صفحة رقم : 12703

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

والآن يطلق فولتير النذير ويصيح بأعلى صوته غاضباً في "إقضوا على الرجس". وكان قد بدأ باستخدام هذه العبارة في 1759، واستخدامها منذ تلك اللحظة مرة في عدة صيغ مختلفة، كما استخدمها أحياناً بمثابة توقيع (69). لقد اكتسب فولتير ابن الثمانية والستين عاماً حيوية جديدة ونشاطاً جديداً حين شبه نفسه بكاتو سنكس القنصل حين ختم خطابه أمام مجلس السانتو الروماني بصيحته "حذار من قرطاجة" وكتب فولتير يقول "إني مصاب بالمغص، وأنا أعانك كثيراً، ولكن تخف آلامي حين أهاجم الخزي والعار" (70). وفي حماسة شابة وثقة بالغة المدى نصب نفسه ونفراً من معاونين المترددين لشن الحملة على أقوى نظام في تاريخ البشرية.

وماذا كان يقصد بالرس؟ كان يريد القضاء على الخراف والتعصب والظلامية (النزعة إلى تعويق التقدم انتشار المعرفة) والاضطهاد؟ أو أنه أخذ على عاتقه هدم الكنيسة الكاثوليكية، أو كل مذاهب المسيحية، أو الدين أي دين؟ أغلب الظن ألا يكون هذا الأخير لأننا نراه مرة بعد أخرى وسط الحملة يعلن إيمانه بالتوحيد، وفي بعض الأحيان في لغة عامرة بتقوى فولتير. وفي القاموس الفلسفي عرف الديانة بطريق غير مباشرة بقوله "إن كل شيء تقريباً يتجاوز عبادة كائن أسمي وإخضاع القلب لأوامره الأبدية هو خرافة" (71) وقد يبدو أن هذا يرفض كل أشكال السحبية فيما عدا مذهب الموحدين إن فولتير نبذ تقريباً كل المبادئ المميزة في المسيحية التقليدية-الخطيئة الأولى، التثبيث التجسيد، تكفير المسيح عن خطايا البشر، والقربان، وسفه "التضحية" من الله على الصليب أمن الكاهن في القديس، ومن ثم نبذ معظم أشكال البروتستنتية أيضاً، وأعتبر الكلفنية عائقاً في سبيل التقدم ونشر المعرفة، مثل الكاثوليكية. وصعق كهنة جنيف حين قال بأن كلفن مرأوغ فطيع ورأى أن في مقدوره أن يعيش راضياً قانعاً في ظل الكنيس الرسمية كما كان قد رآها في إنجلترا. وكتب إلى دامبير: "أمل أن تقضي على الرجس، تلك هي النقطة الهامة. ويجدر أن نهبط بها

صفحة رقم : 12704

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

إلى ما هي عليه في إنجلترا. وستصل إلى هذه الغاية إذا أردت أو تلك هي أجل خدمة يمكن أن يديها للجنس البشري" (72) وقد نخلص من هذا إلى أنه قصد بالرجس الدين عامة، بل الدين الذي قصد به شر الخرافة والأساطير والتحكم في التعليم والسيطرة عليه، ومناهضة الانقراض على الرقابة، والأعراض على الاضطهاد. وتلك هي المسيحية التي رآها فولتير في التاريخ وفي فرنسا.

وهكذا احرق كل الجسور من خلفه، ودعا كل أفراد صيته للحرب. "وكان المطلوب لدك الحصون خمسة أو ستة من الفلاسفة يفهم الواحد منهم الآخر... لقد غرس دامبير وديدرو وآل بولينجاروك وهيوم وأمثالهم بذور الحقيقة" (73) ولكن بشكل مشنتت تعوزه الخطة المتناسكة، وعليهم الآن أن يتحدوا، وسيكون هو على رأسهم، وتلك قضية يسلم هو بها، ويشير عليهم بخطة العمل فيقول: "أضرب أخف يدك... إني أمل أن يستطيع كل من الإخوة أن يسدد بعض السهام إلى هذا المسخ دون أن يعلم أنه يد صوبتها إليه" (74) وإني لأرجو أن يتسلل الإخوان إلى الأكاديميات ومراكز النفوذ إلى الوزارة إذا أمكن، إنهم ليسوا في حاجة إلى تحويل الجماهير بل إلى تحويل الرجال ذوي السلطة الذين يمكنهم أن يأخذوا بزمام المبادرة. إن بطرس الأكبر غير روح روسيا ووجهها" وكذلك حاول فولتير إدخال فردريك في هذه الزمرة (5 يناير 1767) "مولاي إنك على حق تماماً أن المير القوي الشجاع يستطيع بالمال والجنود والقوانين أن يحكم الناس دون عون من الدين الذي ما أقيم إلا ليضلهم ويخدعهم. إن جلالنكم تؤدون إلى الجنس البشري أجل خدمة خالدة باقتلاع جذور الخرافة المخزية، ولا أقول من الرعاع غير الجديرين بالتتوير، الذين يتبعون أول ناعق، وهم أهل للخضوع لأي سلطان، ولكن أقول بين الناس المخلصين الأمناء، بين الذين يفكرون والذين يريدون أن يعملوا فكرهم..



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

وعليك أن تختبر عقولهم..ولست آسف على شيء حين تدهمني المنون إلا على أنني لن أتمكن من معانتك في هذه المهمة النبيلة"(75).

وسخر فردريك من سداجة هذا الشيخ الهرم، ولكن فولتير أصر وثابر، مما كان اه كما سنرى فيما بعد، بعض الأثر على وزراء فرنسا والبرتغال وأسبانيا.

ورحب باهون أقل شأنًا وكتب نصائح رسولية إلى بورد في ليون، وسرفان في جرينوبل، وبيير روسو في بويون، وأودبير في مرسيليا، ورييوت في مونتوبان، ومركيز دار جنس في شارنت، وإلى الراهب أودرا في تولوز. وأطلق على هؤلاء جميعاً وغيرهم اسم "الإخوة"، وأرسل إليهم بالمادة والنداءات يستحثهم ويحفزهم حتى لا يغلب عليهم النعاس. "شنوا الحرب أيها الإخوة جميعاً ببراعة على الرجس. إن كل ما يهمني هو نشر الإيمان والحقيقة والنهوض بالفلسفة، والقضاء على الخزي والعار. اشربوا معي نخب أفلاطون (ديدرو) وأمحو الرجس. إني أعانقكم أيها الإخوة جميعاً.. إن صحتي تدعو إلى الإشفاق.. امحو الرجس. إني احتضن أوتي في كنفوشويس.. في لوكر يشس، في شيشرون، في سقراط، في ماركس أوربليوس، في جوليان، وفي شيوخنا الإجلاء جميعاً. إني أمنح بركتي للإخوة جميعاً. صلوا ارقبوا أيها الإخوة، اقضوا على الرجس"(76).

وبانت الكتب الآن أسلحة بات الأدب حرباً. ولم تقتصر الأمور على دخول ديدرو ودالمبير وهلفشيوس ورينال وموريلليه وكثير وغيرهم بأقلامهم في المعرلة. ولكن فولتير الذي كان يحتضر دائماً أصبح مستودعاً حقيقياً للذائف ضد رجال الدين، وأخرج على مدى عشر سنين نحو ثلاثين كتاباً. ولم يكن يؤمن بفعالية المجلدات الضخمة فهو يقول: "أي أذي ينجم عن كتاب (الموسوعة مثلاً) يكلف مائة كروان.. إن عشرين مجلداً من القطع الكبير لن يفجروا ثورة أبداً. إنها المجلدات الصغيرة السهلة الحمل القليلة

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

الثلث (من ذات الثلاثين سو) هي التي يخشى جانبها. ولو كان الإنجيل غالي الثمن (ثمنه 1200 سسترس عملة رومانية قديمة) لما قامت الديانة المسيحية(77).

ومن ثم لم يخرج مجرد تواريخ وروايات، بل نشرات وحكايات وعظات وتوجيهات وتعاليم دينية مفرغة في قالب أسئلة وأجوبة، وخطباً لاذعة ومحاورات ورسائل ونقداً موجزاً للكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة، مما يسهل تداوله وانتشاره ويصيب الرجس بجراح، وكان فردريك قد كتب إليه منذ زمن طويل:

"أني لأتصور أنه مكان ما في فرنسا نخبة منتقاة من ذوي العبقرية الرفيعة المتساوية، ممن يكتبون معاً وينشرون كتاباتهم تحت أسم فولتير... فإذا كان هذا الافتراض صحيحاً فلسوف أصبح مؤمناً بالتثليث وابدأ في رؤية ضوء النهار في هذا السر الذي أمن به المسيحيون حتى الآن دون أن يفهموه(78).  
ولكن فولتير لم يكن يكتب الآن تحت أسم فولتير، بل استخدم أكثر من مائة من مختلف الأسماء المستعارة، بل أحياناً، في مرح شيطاني، نسب هجماته العنيفة إلى رئيس أساقفة كنتربري، أو رئيس أساقفة باريس، أو إلى قسيس أو كاهن أو راهب، ورغبة في أبعاد كلاب السماء عن طريقهخص نفسه بإحدى قذائفه. وكان يعرف أصحاب مطابع باريس وأمستردام ولاهاي ولندن وبرلين، فاستخدمهم في حملته. وعن طريق داملافيل وغيره، وكان يزور باعة الكتب مجاناً بهذه النشرات، وكانوا يبيعونها بأثمان رخيصة. وهم بذلك يغامرون. وأشدت العود ونما الغرس.  
ونشر آنذاك في 1762 "عظة الخمسين" التي كان قد ألفها قبل ذلك بعشر سنين على الأقل، وقرأها على فريدريك الأكبر في بوتسدام، وكانت أول هجوم مبار على المسيحية. وبدأت بداية بريئة كل البراءة: "اجتمع كل يوم أحد في المدينة تجارية أهلة بالسكان، خمسون شخصاً متعلماً تقياً

صفحة رقم : 12707

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

متعللاً (الكويكرز في لندن) فأدوا الصلاة ألقى أحدهم بحثاً "ثم تناولوا طعامهم، وأخذوا قديراً من الفقراء، وتناول كل منهم الرياسة، وأم الصلوات" وألقى الموعدة وهذه إحدى الصلوات وإحدى العظات: "يا إلهنا، يا رب السموات ورب النجوم، احفظنا بمنأى عن الخرافة. وإذا أسأنا إليك بتضحيات لا تليق بك فامح اللهم هذه الأسرار المخزية، وإذا انتقضنا من قدرك بهذه الخرافات الحمقاء، فلتهلك الخرافات إلى الأبد... فليعش الناس ويموتوا في عبادة إله واحد، إله لم يكن ليولد أو ليفنى(79)".

وحاولت العظ التبدليل على أن الرب الذي ورد ذكره في التوراة رب فخور حقود غضوب قاس قاتل، لا يمكن لإنسان عاقل أن يعبده، وأن داود كان وغداً منغمساً في الشهوات سفاحاً. فكيف يتسنى لأحد أن يصدق بأن هذا الكتاب تنزيل من عند الله؟ وكيف تسنى أن يأتي من الأنجيل اللاهوت المسيحي الذي لا يصدق، والعمل الفذ السهل اليومي الذي يحول الرقاقة إلى جسد المسيح ودمه والبقايا التي لا تصى، وبيع الغفران والعداوات والبغضاء والحريق في الحروب الدينية؟

"لقد قيل لنا إن الناس بحاجة إلى الأسرار ومن الواجب خداعهم وتضليلهم. أيها الأخوة، هل يجروء أحد على العدوان على الإنسانية بهذا الشكل؟ ألم يخلص أبائنا (المصلحون) الناس من إحالة الخبز والخبز والخبز إلى جسد المسيح ودمه، ومن الاعتراف المهموس به، ومن صكوك الغفران، ومن الرقي والتعاويد ومن المعجزات الزائفة والتماثيل السخيفة؟ ألم يتعود الناس الآن الاستغناء عن هذه الخرافات؟ يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنخطو بعض طوات أبعد من ذلك. فالناس ليسوا ضعاف العقول كما هو مزنون، أنهم يستطيعون في سهولة ويسر أن يقرأوا عبادة حكيمة بسيطة لإله واحد... أننا لا نعمل على سلب رجال الدين ما فرلهم سخاء أتباعهم، بل أن كل ما نريده-حيث أن معظمهم يسخرون من الأباطيل التي يعلمونها-هو أن ينضموا إلينا في التبشير بالحقيقة... وأي خير عميم لا يحصى يمكن أن يتأتى بسبب هذا التغيير الميمون(80)!

صفحة رقم : 12708

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

أن هذا يرهقنا اليوم ل الإرهاق، ولكنه كان مادة ثورية في فرنسا القرن الثامن عشر. فلا عجب إذن أن يصدره فولتير على زعم أن لامتري كان فد دججه من قبل، ولامتري في عداد الأموات الأمنين. وفي سنة 1763 تحول المناضل إلى الدراما (المسرحيات)، قصة قصيرة تافهة تحت عنوان "أبيض وأسود"، وكتيب "أشئلة وأجوبة عن الرجل المين" يسر فيه "ديانته الطبيعية" ولكن عام 1764 كان عاماً بارزاً، فقد شغل فيه فولتير أصحاب المطابع "بأنجيل العقل" و"أخبار الديانة" (وهو طبيعة منقحة من كتاب جان مسلييه الملتهب) (العهد الجديد) ثم أحد أهم منشوراته وهو موجز القاموس الفلسفي (السهل الحمل) ولم يكن المجلد الضخم ذا الثمانمائة أربع وعشرين صفحة ذات نهريين الموجود الآن، أو الخمسة أو الثمانية مجلدات التي تملؤها "مجموعة أعماله" بل كان كتاباً صغيراً يسهل الإمساك به أو إخفاؤه. إن إجاز مقالاته وبساطة أسلوبه ووضوحه، كل أولئك جعله في متناول مليون قارئ في كثير من البلاد.

وهذا إنتاج ضخم جدير بالتنويه لرجل واحد. وربما كان به ألف من الأخطاء، ولكن المادة التي معت فيه، والمعلومات التي تناولت كل فروع المعرفة تقريباً، جعلت الكتاب واحدة من العجزات في تاريخ الأدب. وأي جد ومثابرة وأي هذر وأي إصرار وعناد هذا الكتاب: أن فولتير منكم في القيل والقال، أن لديه ما يقوله في كل شيء تقريباً، ولديه دائماً شيء لا يفقد أهميته وتشويقه أبداً تقريباً. وهنا ثير من العبث والتغاهاة والسفاسف أو السطحية، وهناك بعض ملاحظات حمقاء (إن عقل أوربا أحرز تقدماً في المائة سنة الأخيرة أكثر مما أحرز العالم كله من قبل منذ أيام براهيم وزرادشت) (81). ولكن لن يتسنى لأحد أن يلتزم جانب العقل والحكمة في ألف صحيفة، ولم يكن أي إنسان بارعاً متألقاً دائماً وهو يكتب هذا القدر الكبير من الصفحات. أنه أورد فيه دراسة أصول الألفاظ وتاريخها، لأن فولتير مثل كل قارئ محب للاستطلاع، وكانت تجذب

صفحة رقم : 12709

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

نظره المحن التي قاستها الألفاظ والكلمات في ترحالها عبر الزمان. وهنا في مقال "سوء استدام الكلمات" ثم في مقال "المعجزات" نجد قاعدة فولتير الشهيرة "حدد ألفاظك". وقصد بالكتاب أساساً أن يكون مصنعاً لإخراج الحجج ضد المسيحية كما عرفها فولتير، وهنا نجد مرة أخرى الأشياء التي لا يمكن تصديقها في الكتاب المقدس وما فيه من سخافات وحماقات ومخازل في مقال "المتناقضات" وحده، بل في كل صحيفة تقريباً. من خول الكنيسة سلطة الحكم بأن أربعة فقط من الخمسين إنجيلاً التي دونت في القرن الذي تلا موت المسيح، هي وحدها- أي الأناجيل الأربعة معتمدة موحى بها من عند الله؟ وأوى سهو فاضح أن نأن يتحدث الكتاب عن مولد المسيح من مريم العذراء ثم يتعقب نسبه إلى داود الوغد عن طريق يوسف المزعم الخاكل. ولماذا نبذت المسيحية شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها؟ وهل كان بولص الذي نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة من الجلد) سلطة أو مرجعاً أقوى من المسيح؟

والم يرق القاموس الفلسفي للآباء الروحانيين في مدينة جنيف. وفي 24 سبتمبر 1763 أمر مجلس الخمسة والعشرين النائب العام بإحراق أية نسخة يجدها منه. وفي 1765 أصدر برلمان باريس أمراً شبيهاً بهذا، وقد رأينا مصير الكتاب في آبفيل (1766) وأكد فولتير لسلطات جنيف أن القاموس من عمل مجموعة من الكتاب مجهولة تماماً لديه. وفي الوقت نفسه أعد مقالات إضافية لتلحق بالطبعات الأربعة الأخرى التي طبعت سراً قبل نهاية 1765 كما أدخل مادة جديدة إلى الطبقات الخمس الإضافية التي ظهرت قبل وفاته 1778. ورتب المور مع باعة كتب جنيف المستترين ليدهم مجاناً بأكثر عدد ممكن من النسخ يمكن توزيعه، ومع الباعة على أن يتركوا نسخاً من هذا القاموس في الدور الخاصة (82).

وتابع فولتير الرب بلا هوادة في 1765-1767. وفي 1764 كان

صفحة رقم : 12710

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

قد ترك نهائياً داره في لي دليس في مدينة جنيف التي باتت غير ملائمة لهرطقاته وضاقته بها ذرعاً، وكان لمدة نحو ثلاث سنوات لم يكذب مكانه في فرني، وكان في كل شهر تقريباً يرسل إلى إحدى المطابع نشرة جديدة ضد "العار" وزعم كتيب Questions de Zopata (مارس 1767) أنه مجموعة أسئلة طرحها أمام لجنة من اللاهوت في جامعة سالامانكا 1629. وأعلن زاباتا عن شكوكه في "نجم بيت لحم" وفي الإحصاء المزعوم "لكل الأرض" الذي أجراه أغسطس، وفي قتل الأبرياء "وإغراء الشيطان ليسوع فوق جبل يستطيع الإنسان منه أن يرى كل ممالك الأرض. وأين كان يقع هذا النمل العجيب؟ ولم لم يف المسيح بوعده في الحضور على متن سحابة في قوة ومجد عيم، ليؤسس "مملكة الله" قبل أن يفرض هذا الجيل؟ (83) ما الذي عوقه؟ هل كان الضباب كثيفاً إلى حدبير؟ (84) ماذا أفعل مع أولئك الذين يتجرأون على الشك؟.. هل أجأ من أجل تثيرهم وتهذيبهم، تعذيبهم العادي وغير العادي؟ أو ألا يكون من الأفضل أن اتجنب هذه المتاهات، وأخص على الفضيلة بساطة فقط؟ (85) والخاتمة.

"حيث أن زاباتا لم يتلق جواباً، فإنه لجأ إلى التبشير بالله بكل بساطة وأعلن إلى الناس أنه "أي الرب" هو والد الجميع، وأنه هو الذي يثيب ويعاقب وهو الغفور. واستخلص الحقيقة من الأكاذيب، وفصل الديانة عن التعصب. وعلم الفضيلة ومارسها، وكان وديعاً عطوفاً متواضعاً وأحرق في بلد الوليد (في أسبانيا) في عام البركة 1631 (86)".

وفي مايو 1767 عاد فولتير إلى الهجوم في نشاط أكبر في كتاب من مائة وخمسين صفحة "اختبار هام للورد بولنجبروك". وهنا وضع حججه على لسان الرجل الإنجليزي المتوفى. ولكنه كان من المحتمل أن يرتضي بولنجبروك هذا العبء الثقيل. وفي نفس العام نشر فولتير "السادج"، وهي قصة لطيفة تقع في مائة صفحة عن أمريكي فاضل بشكل لا يصدق

صفحة رقم : 12711

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

احضروه إلى فرنسا من أمريكا، حيرته العادات الأوربية والاهوت المسيحي. وفي 1769 خرج كتيب "صيحة الأمم" وهو نداء إلى أوربا الكاثوليكية لتخلع نيران سلطان الباباوات المزعوم على الملوك والدول. وتابع الحملة نفس العام بكتاب جاد مدروس ولكنه مثير هو "تاريخ البرلمان" متهماً هذه الهيئة بأنها مؤامرة من جانب الجانسينيين الرجعيين. وفي 1770-1772 أصدر تسعة مجلدات تحت عنوان أسئلة عن الموعظة" وهي خليط من مقالات تشكل موسوعة رجل واحد. وهو أشد عداً للكاثوليكية وأقسى في هجومه عليها من موجز القاموس الذي أسلفنا ذكره. إن فولتير أخفى منشوراته عادة تحت أسماء أو عنوانات خداعة مضللة: "محاضرات" في تفسير العهد القديم، رسالة إلى الرومان، عظات الأب الجليل جاك روست، محاضرات وعظات الكاهن بورن، نصائح لأرباب الأسر. وساورت جمهور فرنسا المتعلم الظنون بأن فولتير هو الملف، لأنه لم يكن يستطيع أن خفي أسلوبه، ولكن لم يثبت أحد ذلك، وباتت هذه اللعبة المثيرة ديث باريس وجنيف، وتردد صداها في لندن وأمستردام وبرلين، بل وفي فيينا، ولم يحدث في التاريخ أن لعب كاتب لعبة النمضية (أو الاخفاء) مع اعداء أقوياء مثل هؤلاء، وبمثل هذا النجاح. وحاول مائة من الخصوم أن يردوا عليه ولكنه قارهم بالحجة بالحجة جميعاً، وحارب في قسوة، وأحياناً في خشونة وغلظة، كما كما أحياناً مجحفاً غير منصف، وتلك هي الحرب. وكان مستمتعاً فرحاً بها، وحمى وطيس المعركة فنسي أن يموت. والحق أن نقاؤلاً غريباً غلب على فولتير، الذي بدأ بعد "زلزال لسبونة" و"كانديد" وكأنه ينصح بالاستسلام لشروط الحياة التي لا سبيل لقهرها أو التغلب عليها، وراوده حلم فلسفة منتصرة على كنيسة متغلغلة في حاجيات الناس. وإذا كان اثنا عشر من صيادي السمك الأميين قد أقاموا السجينة، فلم يستطيع اثنا عشر فيلسوفاً أن يقضوا على تعاليمها وعلى محاكم

صفحة رقم : 12712

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> اقضوا على الرجس

التفتيش فيها. وكتب إلى أحد الأخوة "عش سعيداً واقض على الرجس" وأكد أنهم سيقضون عليه(87). ألم يكن إلى جانب ملك وإمبراطورة وعشيقة ملكية. وكثير من الشخصيات اللامعة؟ أنه تملق الحاشية وتودد إليها علناً أو سراً بمهاجمة برلمان باريس، ونعم يعطب مدام دي بمبادور ومام دي باري فيما بعد، بل إنه كان يأمل في إغضاء لويس الخامس عشر عنه. وكتب إلى دالمبير في 177 "فلنيارك هذه الثورة السعيدة التي نشأت في عقول كل المخلصين والأمناء من الرجال في الخمسة عشر أو العشرين عاماً الأخيرة، فإنها فاقت كل ما كنت أؤمل فيه"(88) ألم ينتبأ بها؟ ألم يكتب إلى هلفشيوس في 1760 (إن هذا القرن بدأ يشهد انتصار العقل)(89).

صفحة رقم : 12713

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> الدين والعقل

إن فولتير لم يكن من السذاجة بحيث يتصور أن الدين اخترعه القساوسة والكهان، بل على النقيض من ذلك كتب في القاموس الفلسفي: (إن فكرة الإله مستمدة من الشعور، وذلك المنطق الطبيعي الذي يتكشف بتقدم العمر، حتى في أغلظ البشر قلباً. وشوهدت أكثر آثار الطبيعة ادهاشاً وفرة المحصول والجذب والأمحال والجو المعتدل والعواصف، المزايا والبلايا-كما كان الإحساس بيد سيد خارق للطبيعة... إن الملوك القدامى استخدموا في زمانهم هذه الأفكار ليدعموا سلطانهم(90). وأفردت كل جماعة إحدى القوى الخارقة لتكون إلهاً حارساً لها، وأضفت عليه حالة من التقديس وعبدته وقدمت له القوانين، على أمل أن يتولى حمايتها من سطو الجماعات الأخرى وألتهتها، وأوجدت هذه المعتقدات الكهنة، ولكن التفاسير والتأويلات والطقوس كانت من عمل الكهنة. وبمرور الزمن لعب الكهنة على الخوف الناس واستغلوه ليبسطوا سلطانهم وقوتهم. واقتروا كل ضروب الخداع واللؤم، حتى إلى حد إعدام (الهرطيقين) وقتل جماعات بأسرها، والقضاء على الأمم تقريباً. وانتهى فولتير إلى القول: "القد

صفحة رقم : 12714

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> الدين والعقل

كرهت الكهنة، وأنا الآن أبغضهم، وسأظل أبغضهم إلى يوم الحساب(91)".  
 أن فولتير وجد كثيراً مما يمكن قبوله في الديانات غير المسيحية، وبخاصة في الكونفوشيه (وهي ليست ديانة)، ولكن لم يسره إلا النزر اليسير في اللاهوت المسيحي. "أن لدي مائتي مجلد في هذا الموضوع، الأدهى من ذلك أنني قرأتها وكأني أقوم بجولة في مستشفى للأمراض العقلية(92)". ولم يضيف إلا القليل لما سبق أن ظهر من نقد للكتاب المقدس. وإنما كانت مهمته أن ينشر هذا النقد على نطاق واسع. ولا يزال أثر هذا علينا واضحاً. وفي جراءة وإندفاع أكثر ممن جاءوا بعده، أكد مراراً سخر طوفان نوح وعبور البحر الأحمر، وذبح الأبرياء وغير ذلك. ولم يكل ولم يمل قط من شجب قصة "الخطيئة الأولى" ونظرتها. وأقتبس في سخط وغضب قول سانت أوغسطين "أن المذهب الكاثوليكي يعلمنا أن كل الناس يولدون مذنبين إلى حد أن الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون أن ينفخ فيهم المسيح روحاً جديدة أفضل(93)". (يقال إن مثل هؤلاء الأطفال يذهبون إلى مكان جميل بجوار الجحيم اسمه الأعراف)!!

أما بالنسبة للسيد المسيح فإن فولتير كان مذبذباً. وأنتقل من الورع الطبيعي في الطفولة إلى عدم التوقير الذي يغلب في الشباب، إلى حد قبول قصة ماري مع الجندي الروماني، وفكر في وقت ما أن يسوع متعصب مخدوع "أحمق". ولما نصح وتعلم كيف يبدي إعجابه بتعاليم يسوع الأخلاقية وقال: "سيكون خلاصنا بفضل ممارسة هذه المبادئ الأخلاقية، لا نتيجة إيماننا بأن المسيح هو الله". وسخر كثيراً من "التثليث" في كتابه الملحد والحكيم. ويسأل الملحد "هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة وشخصاً واحدة وإرادة واحدة، أو أن له طبيعتين وشخصيتين إرادتين، أم أن له إرادة واحدة وطبيعة واحدة وشخصيتين، أو إرادتين وشخصيتين وطبيعة واحدة؟" ولكن الحكيم يأمره أن ينسى هذه الألغاز ويكون مسيحياً طيباً(95). ويشير فولتير إلى أن المسيح، بخلاف القديس بولص والمسيحيين اللاحقين، ظل مخلصاً

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; فولتير والمسيحية -&gt; الدين والعقل

لليهودية على الرغم من نقده للفرنسيين: "أن هذا الإله الخالد، بعد أن جعل نفسه يهودياً، يتمسك بالديانة اليهودية طيلة حياته ويؤدي شعائرها ويتردد على المعبد لليهودي ولا ينطق بشيء يخالف الشريعة اليهودية. وكل التلاميذ يهود يؤدون الشعائر اليهودية. يقينا إنه ليس هو الذي أسس الديانة المسيحية... أن يسوع المسيح لم يبشر بأية خصيصة واحدة من خصائص المسيحية(96)".

أن يسوع في رأي فولتير، قبل معتقد كثير من اليهود الأتقياء قبله، بأن العالم كما عرفوا يسير إلى نهايته، وسرعان ما تحل محله "مملكة الرب" أي الحكم المباشر لله على الأرض. (والنقد الحديث يقبل وجهه النظر هذه). وتجاوز فولتير في سنواته الأخيرة، أكثر فأكثر، مع قصة المسيح وبدأ يسمسه "أخي" "مولاي(97)" وصور نفسه وكأنما أنتقل في حلم إلى صحراء مغطا بأكوام من العظام، فهنا أشلاء 300 ألف من اليهود المذبوحين، وهناك أربعة تلال من المسيحيين شنقوا بسبب الخلافات الميثافيزيقية، وأكوام من ذهب وفضة تعلوها صولجانات وتيجان الأساقفة والملوك المنحلين، ثم حمله ملاكه المرشد إلى واد أخضر حيث أقام الحكماء العظام، وهناك رأي نوما وبمبليوس وفيثاغورس وزردشت وطاليس وسقراط... وأخيراً "تقدمت مع دليلي إلى أيكة أعلى من تلك التي أخذ فيها الحكماء القدامى إلى راحة بهيجة، ورأيت رجلاً يتسم بالبسطة وحسن المنظر، بدا لي أنه في الخامسة والثلاثين من العمر، كانت قدماه ويده منتفختين داميتين، وكان مطعوناً في جنبه وكان لحمه ممزقاً بضربات من سقوط. ولم يكن ثمة للمقارنة بين آلام هذا الحكيم وآلام سقراط".

وسأله فولتير عن سبب موته، فأجابه يسوع "للكهنة والقضاة". هل قصد أن يؤسس ديناً جديداً؟ كلا. هل كان مسؤولاً عن هذا الأذى من العظام وهذه المقادير الضخمة من الذهب الملكي أو الكهنوتي؟ كلا. لقد عشت وصحبي في أشد الفقر "إن من تتألف الديانة الحقّة؟" ألم أقل

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; فولتير والمسيحية -&gt; الدين والعقل

لكم من قيل؟ أحب الله وأحب جيرائك كما تحب نفسك "فقال فولتير " إذا كان الأمر كذلك فأنت مولاي الوحيد، ورسماً لي علامة نزلت على قلبي برداً وسلاماً. وأختفى الطيف وتركني وقد إرتاح ضميري وشاع في نفسي السلام والطمأنينية(98).

ولك ننتلك كانت حالة نفسية لاحقة. فإن فولتير في سني حربه ضد المسيحية رأى في تاريخها شقاء بالغا للجنس البشري. أن صوفية بوض وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك في صحتها وأساطير الشهداء والمعجزات وبراعة الكهنة في التخطيط والتدبير، وتضافرت كلها مع السذاجة المتعلقة بأهداب الأمل عن الفقراء لخلق الكنيسة المسيحية، ثم أن آباء الكنيسة صاغوا العقيدة بفصاحة تكفل إرضاء عقول الطبقة الوسطى. وخبا شيئاً فشيئاً نور الثقافة

الكلاسيكية بأنتشار الخيلة الصيبانية والاحتياالات والخذع الورعة، حتى يم الظلام لعدة قرون على عقل أوربا. وزحف المتأملون من الناس والخاملون منهم، كما زحف المتقاعدون عن مواجهة تحديات الحياة ومسؤولياتها، إلى الديار، وأصاب بعضهم بعضاً بعدوى أحلام المنساء والشياطين والآلهة. واجتمعت مجالس العلماء والمتفقيين لتنتظر أي الحماقات والسخافات تصلح لتكون جزءاً من العقيدة المعصومة. وبانت الكنيسة، بعد أن أسست قوتها وسلطانها على فكرة إشباع رغبة الناس في الأساطير والخرافات التي تبعث على السلوى والعزاء، نقول بانت الكنيسة بعد ذلك أقوى من الدولة التي تؤسس سلكتها على القوات النظامية. وأصبحت قوة السيف تعتمد على قوة الكلمة وتل الباباوات عروش الملوك، وأطوا الأمم من واجب الولاء للملوك.

ومن رأى فولتير أن الإصلاح البروتنتانتي كان مجرد خطوة متعثرة نحو العقل وامتدح الثورة ضد الرهبان الذين يعيشون على الصدقات في الأديار، وضد بانعي صكوك الغفران، وضد رجال الدين الساعين إلى جمع الثروة، الذين "استنزفوا في بعض الحالات دخل إقليم بأسره" وفي شمال أوربا

صفحة رقم : 12717

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> الدين والعقل

اختار الناس ديناً أرخص وأقل تكلفة(99)". ولكن أثاره توكيد اللوثريين والكلفنيين على القضاء والقدر(100). تخيل حاكماً أو ملكاً يحكم على ثلثي رعاياه بالخلود في النار! أو تأمل في مختلف التأويلات المسيحية للقرآن المقدس، فالكاثوليك يصرحون بأنهم يأكلون الرب لا الخبز، وللوثريون يلتهمون الرب والخبز كليهما، والكفنيون يأكلون الخبز، لا الرب. وإذا روى لنا أحد شيئاً من مثل هذا الأسفاف والجنون بين الهوتنتوت والكفار لقلنا إنه يخدعنا ويلعب على عقولنا(101)". لقد ولى تقدم العقل لمثل هذه الخلافات ظهره، وتركها بعيداً إلى الوراء "وإذا قدر للوثروكلفن أن يعود إلى الحياة الدنيا فلن يثيرا ضجة أكثر مما فعل أتباع جون دنز سكوتس وتومات أكويناس(102)".

وإذا أستمروا البروتستانت على التبشير بمثل هذا اللاهوت فسوف تتخلى عنهم الطبقات المتعلمة، على حين تؤثر الجماهير مذهب رومه المعطر النابض بالحياة. وبالفعل كان فولتير يظن "أن الكلفنية واللوثرية معرضان للخطر في ألمانيا، فإن تلك البلاد مملوءة بالأسقفيات العظيمة والأديان المسيطرة والشرايع والمذاهب الكثيرة، وكلها ملائمة لعمل أية ردة"(103).

إذن هل يجدر بالناس المتعلقين أن يتخلوا عن الدين تماماً؟ كلا، فإن ديننا يدعو إلى الله وإلى لفضيلة دون أية تعاليم أو مبادئ أخرى، لا بد أن يكون ذا نفع حقيقي للجنس البشري...وفي سنيه الأولى كان فولتير يظن "أن أولئك الذين يحتاجون إلى مساعدة الدين ليكونوا طبيبين صالحين، هم أحق بالثناء والأشفاق" وأن أي مجتمع يمكن أن يعيش بالأخلاق الطبيعية غير معتمدة على المعتقدات الخارقة(104)". ولكن لما اتسعت خبرته بالأهواء البشرية بدأ يسلم بأنه ليس ثمة قانون أخلاقي يمكن أن يقاوم بنجاح القوة البدائية في الغرائز الفردية، إلا إذا دعمه أيما شعبي عام بأن هذا القانون الخلاقي صادر عن إله بصير، إله يثبت ويعاقب، وهو الذي يتولى السهر عليه. وبعد أن اتفق مع لوك عن أنه ليست هناك أفكار فطرية، عاد فانحاز

صفحة رقم : 12718



## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> الدين والعقل

إلى رأي ليبنتز في أن الحس الخلقي فطري، وعرفه بأنه شعور بالعدل أودعه الله فينا "أن القوانين تراقب الجرائم المعروفة ولكن الين يراقب الجرائم الخفية(105)". وفي كتاب "الملحد والحكيم" يقول الحكيم: سأفرض (لا قدر الله) أن كل الإنجليز ملحدون، وأذهب إلى أن هناك بعض مواطنين مسالمين، هادئين بطبيعتهم أثرياء إلى حد يمكن أن يكونوا معه أمناء يلتزمون الشرف. ويراعون قواعد السلوك إلى حد أنهم يسعون جهدهم ليعيشوا معاً في المجتمع...ولكن الملحد الفقير المعوز سيكون غيباً إذا هو لم يقتل أو يسرق ليحصل على المال. فهل تتقصد إذن كل عرى المجتمع وروابطه وتطغى كل الجرائم الخفية على العالم وتنتشر مثل الجراد فوق الأرض، ولو أنها في أول الأمر تكون ضئيلة لا تدرى...من ذا الذي يكبح جماح الملوك العظام؟ أن الملك الملحد أشد خطراً من الكاهن المتعصب...وتقاوم الإلحاد في إيطاليا في القرن الخامس عشر. فماذا كانت النتيجة؟ وكان من الأمور الشائعة أن تسمم إنساناً وكأنك تدعوه إلى العشاء. إذن يكون الإيمان بأله يثيب على صالح الأعمال ويعاقب على الشرور، ويغترق مادون ذلك من الأخطاء البسيطة، من أنفع الأشياء للإنسان(106)".

واتجه فولتير آخر المر إلى أن يرى بعض المعنى في نظرية الجحيم:

"إلى أولئك الفلاسفة الذين ينكرون الجحيم في كتاباتهم أسوق الحديث: أيها السادة، أن لانقضي أيامنا مع شيشرون أتيكوس وماركوس أوريليوس أبيقور...ولامع الفاضل المبالغ في التدقيق والشك، سبينوزا الذي ردرغم كدحه تحت وطأة الفقر والعوز-إلى أطفال المتقاعد الكبير دي ويت، راتباً قدره 300 فلورين، كان قد منحه آياه رجل الدولة العظيم، الذي قد يذكر أن الهولنديين قد حطموا قلبه. وصفوة القول، أيها السادة، أن الناس ليسوا جميعاً فلاسفة. أننا مضطرون إلى عقد الاتصالات والقيام بمختلف الأعمال، والاختلاط في غمار الحياة بالأوغاد الذين لا يفكرون إلا قليلاً، أو أنهم لا يفكرون أبداً، وبعدد لا يحصى من

صفحة رقم : 12719

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> الدين والعقل

الناس الذين لاهم لهم إلا الوحشية والسكر والسلب والنهب، ويمكنكم إذا أردتم أن تعظوهم بأن نفس الإنسان فانية. أما أن فسوف أصرخ في أذانهم بأنهم إذا سلبوني فسيكونون مذنبين لا محالة"(107).

ونختتم بأن في مقدور الشيطان أن يقتبس من فولتير ما يحقق أغراضه أي ما يؤيد الشيطان نفسه. وبعد المناداة بديانة متحررة من الخرافات(108)، وأنهى المتشكك الكبير أسوأ الخرافات، إنه قد طالب بديانة تقتصر على غرس الفضائل والأخلاق القويمة(109). أما الآن فهو يسلم بأن الناس العاديين لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن ارتكاب الجرائم إلا عن طريق دين فيه جنة ونار أو نعيم وجحيم، وللكنيسة أن تقول إنه تاب وأناب.

وفي سن الثانية والسبعين أعاد فولتير صياغة معتقده تحت العنوان المهدب "الفيلسوف الاهل" (176) إنه في البداية يعترف بأنه لا يعرف ما هي المادة وما هو الذهن، ولا يعرف كيف يفكر ولا يعرف كيف يحرك فكره ذراعه(110)، إنه يسأل نفسه سؤالاً من الواضح أنه يدر بخلده من قبل: أمن الضرورة لي أن أعرف؟ ولكنه يضيف "أنا لا أستطيع أن أجرد نفسي من الرغبة في التعليم والمعرفة. أن حب الاستطلاع الذي يبعث على الحيرة والارتباك عندي، لا يشبع ولا يقف عند حد مطلقاً"(111) وهو الآن مقتنع بأن الإرادة غير حرة: "أن الجهول الذي يرى هذا لم يفكر دائماً هكذا، ولكنه في النهاية مضطر إلى الاستسلام"(112). هل يوجد هناك إله؟ نعم، وهو العقل وراء "النظام والفن المذهل

والتوانين الميكانيكية والهندسية التي تكتم الكون (113). ولكن هذا العقل الأسمى معروف لدينا فقط بوجوده لا بطبيعته. "أيها الإنسان الفاني البائس. إذا كنت لا أدرك عقلي، وإذا كنت لا أعرف ماذا ينفخ في الحياة، فكيف تكون لي أية دراي بهذا العقل الذي يجلب عن الوصف والذي من الواضح أنه يتحكم في الكون؟... ولكننا من صنعه وتديبره" (114). ويميل فولتير إلى الاعتقاد بأنه لم يكن ثمة خلق في وقت معين، وأن الدنيا

صفحة رقم : 12720

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> الدين والعقل

قد وجدت دائما، "تتبع دائما من هذه العلة البدائية الأساسية، كما ينبعث الضوء عن الشمس" وأن الطبيعة كانت تتبع فيها الحياة دائما (115). ولا يزال يؤمن بأن هناك تدبيراً مقصوداً في كون، أي "العناية الإلهية" التي توجيه الجميع، ولكنها تسمح للجزء بما في ذلك كل إنسان بمفرده - أن التدبير أمر نفسه (116). وينتهي إلى القول "إن قلت لي إنني لم أعلمك شيئاً، فتذكر أنني إبتدرك بأنني جاهل (117). وبدأ الفيلسوف المتحير يحسد أولئك الذين لم يفكروا ق، ولكنهم آمنوا، وراودهم الأمل فحسب. ومع ذلك رجع إلى رأي سقرا وهو أن الحياة بدون تفكير غير جديرة بالإنسان... وعبر عن تردد بين هذه الآراء في الحياة في كتاب "تاريخ برهمي طيب" (1761):

(اتفق لي أن التقيت في رحلاتي ببرهمي عجوز، وكان الرجل ذا عقل راجح وعلم واسع وثراء عريض. وقال لي الرجل ذات يوم: وددت لو أنني لم أولد قط، فسألت: ولم هذا، فقال: لأنني كنت أدرس طيلة تلك السنوات الأربعين، ووجدت أنني قد ضيعت وقتاً طويلاً. وأني لا أعرف شيئاً على الرغم من أنني أعلم الآخرين.. أنا موجود في الزمن دون أن أعرف ما هو الزمن، أنا موضوع، كما يقال حكماً، في التخزم بين عالمين لا نهائيين، ومع ذلك ليس عندي أية فكرة عن الأبدية أو الخلود. وأنا مكون من مادة فيما أظن، ولكنني لم أستطع قط أن اقنع نفسي بهذا الذي ينتج التفكير... ولا أدري لماذا أنا موجود، ومع ذلك فأنا مكب كل يوم على حل اللغ، ويجب أن أراود جواباً، ولكنني لا أستطيع أن أقول شيئاً مرضياً في هذا الموضوع. إنني أتكلم كثيراً، وعندما انتهى من الكلام أظن متحيراً مرتبكاً شاعراً بالخل مما قلت..)

وأهممتني كثيراً الحالة التي رأيت عليها هذا الرجل حقاً. وفي اليوم نفسه كان لي حديث مع سيدة عجوز هي جارته. وسألته أكانت يوماً قد شعرت بعدم السعادة لأنها لم تعرف كيف صنعت نفسها.

صفحة رقم : 12721

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> الدين والعقل

ولم تفهم سؤالي. أنها لم تفكر ولو لبرهة في حياتها، وفي هذه الموضوعات التي عذب البرهمي الطيب نفسه بالتفكير فيها. وأمنت من أعماق قلبها بتحول إلهها فشنو Vishnu وكانت ترى أنها أسعد النساء شريطة أن يتاح لها الحصول على شيء من الماء المقدس من نهر الكنج لتغتسل به. وأثارتني سعادة هذه المخلوقات المسكينة، فعدت إلى فيلسوفي وابتدته بقولي: ألا تخجل من بؤسك وتعاستك، على حين أنه على بعد 50 يارد من يوجد مخلوق ألي (أوتوماتيكي) لا يفر في شيء ويعيش هانئاً راضياً فرد عليّ بقوله "أنت على حق. لقد قلت في نفسي إني سأكون سعيداً لو أني كنت جاهلاً مثل جيران العجائز. ومع ذلك فتلك سعادة لا أربح فيها. وكان أثر رد البرهمي في نفسي أعظم من أي شيء مضى. وخلصت إلى أننا على الرغم من أننا قد نضفي على السعادة قيمة عظيمة، فإننا لا نزال نقدر قيمة أعظم. ولكن بعد تأمل ناضج... لا أزال أرى هناك قدراً كبيراً من الجنون في إثارة العقل على السعادة(118).

صفحة رقم : 12722

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير متعصب

8- فولتير متعصب

وفي حالة نفسية مماثلة لهذه كان بسكال قد اختار أن يخضع تفكيره الذي غلب عليه المنطق للكنيسة الكاثوليكية باعتبارها تنظيمياً كان قد وجده بعد طول التجربة مزيجاً من التعليم والطقوس تساعد على الفضيلة والأخلاق القومية وتخفف من لوعة التساؤل والحزن. ولم يذهب فولتير في سن السبعينات بعيداً إلى هذا الحد، ولكنه سار مضطرباً لذهن في هذا الإتاه. وبدأ بان وطن النفس على قبول فكرة أن الدين، أي دين، أمر مرغوب فيه بصفة عامة. وحين سأله بزول (29 ديسمبر 1764) ألا ترى أن تكون هناك عبادة عامة؟ أجاب فولتير "نعم، من كل قلبي. فلنجتمع أربع

صفحة رقم : 12723

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير متعصب

مرات في كل عام في معبد كبير، تصدح فيه الموسيقى، لنقدم الشكر لله على كل نعمائه. فهناك شمس واحدة، وهناك إله واحد. ولتكن لنا ديانة واحدة (ومن ثم يكون بنو البشر إخوة)(119). أن الشمس كما يقولون مهدت له نصف الطريق إلى الله. وفي مايو 774 وهو في سن الثمانين، صحا من نومه قبل الفجر، وصعد مع أحد أصدقائه ليشهد مشرق الشمس من تل قريب. وربما كان يقرأ روسو. وبلغ القمة وقد نال منه التعب، وأربكه جلال الشمس المنتصرة

وعظمتها، فرجع وصاح: يا الله العلي العظيم، اني أؤمن! لكن ثابت نفس فولتير إليه فقال وهو ينض على قدميه أما بالنسبة للسيد الابن والسيدة أمه، فتلك مسألة أخرى(120).  
وذهب شيئاً فشيئاً إلى أبعد من ذلك فارتضى وجود رجال دين يعلمون الناس الفضيلة ويقومون الصلوات لله(121).  
واعترف بأن الأساقفة في فرنسا وإنجلترا أسهموا في إقرار النظام الاجتماعي، ولكن الكاردينالات كانوا باهضي النفقة ويجب الاستغناء عنهم. وكان ينظر بعين الإجلال الإكبار إلى راعي الأبرشية البسيط الذي حفظ سجل القرية وساعد الفقراء وأصلح بين الأسرات المتنازعة، فهؤلاء الكهنة رعاة الأبرشيات يجب أن يكون احترامهم أكبر وأن تزداد مخصصاتهم، وألا يستغلهم رؤساء الكنيسة(122). وفي ساعات التجلي كان الائب العجوز يريد زيادة الاجتماعات الدينية لتكون مرة في كل شهر، بل حتى في كل أسبوع(123). ويجب أن يكون هناك صلوات وتكبير لله، وعبادات ودروس في الأخلاق، ولكن لا قربان ولا ذبائح ولا توسلات، ولتكن العظات قصيرة. وإذا كان لا بد من صور وثمانيل دينية فلنكن لتخليد ذكرى أبطال الإنسانية، لا ذكر القديسين المشكوك في أمرهم، مثل هنري الرابع (لا خليلاته).  
وينبغي ألا يكون هناك تعاليم خارقة الطبيعة، اللهم إلا وجود إله عادل. ويجدر أن تخضع هيئة الكنيسة للدولة. وأن تتولى الحكومة تدريب رجال الدين ودفع أجورهم.

صفحة رقم : 12724

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير متعصب

ويمكن أن تبقى الأديار والراهبات على أن تكون ملاجئ للعج والمرضى. ومثل كثير من المتشككين نظر فولتير بعين الإكبار والإجلال إلى الراهبات اللاتي خرجن من اديارهن لمساعدة المرضى والفقراء منذ رأي "أخوات البر والإحسان" في مستشفيات باريس. وكان قد كتب في رسالة العادات والأعراف: ليس في العالم كله ما يضارع التضحية بالجمال والشباب وغالباً بكرم المحتد وعراقة الأصل، تلك التضحية التي يقدمها الجنس اللطيف عن طيب خاطر لتخفيف من ويلات الإنسانية في المستشفيات. إن الأمم التي انفصلت عن العقيدة الكاثوليكية قلدت بشكل منقوص، اعمال البر والإحسان الجليلة هذه(124).  
وكما يعرف العالم بأسره سيدفولتير بالقرب من قصره في فرني كنيسة صغيرة نقش على مدخلها باعتزاز عبارة "يارب إنك عبدك فولتير" وادعى أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هذه الأرض. أما الكنائس الأخرى فهي مخصصة للقديسين(125).

وطلب إلى روما أن تزوده ببعض المخالفات المقدسة ليضعها في كنيسته، فأرسل البابا ثوبا من وبر الجل للقديس فرانسيس أوف أسيس، ووضع فولتير على المذبح تمثالاً بالحجم الطبيعي من المعدن المذهب للمسيح لا وهو مصلوب بل باعتباره حكيماً. وهناك ابتداء من 1760 فصاعداً، ضر فولتير القداس في كل يوم أحد، وكان يقوم هو نفسه بعملية البخور باعتباره سيد القرية. وفي عيد الفصح 1768 تناول العشاء الرباني (126) وكان يرسل خدمه إلى الكنيسة بانتظام ودفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة(127).  
وربما قصد بجزء كبير من هذه التقوى والورع أن يكون قدوة حسنة لأهل قريته، ويشجعهم على إيمان قد يحد من جرئهم ويصون ممتلكاته. وكان واثقاً أن الحاشية الملكية في فرساي سوف يتزأمي إليها أبناء سلوكه المثالي، وربما راوده الأمل في أن قد يبسر مهمته في شن الحملات من أجل كالاس وآل سيرفن ودي لا بار، ويشفع في عودته إلى باريس. والحق أن

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير متعصب

الملك والملكة قد سرهما ما سمعا من أنباء إصلاحه. ووافق الكاهن دي لاباتري على أن يتناول فولتير الأسرار المقدسة، ولكنه عندما رأى هزال المبلغ أبدى ملاحظة فحواها أن فولتير نسي أن يدفن نفسه، فأجاب فولتير بأنحاء واحترام "بعدك يا سيدي". (128) وفي 31 مارس سنة 1769 استدعى موثقاً ووقع أما عدة شهود وثيقة تؤكد رغبته في الموت على العقيدة الكاثوليكية (129). وسخر منه الأخوة في باريس، وتقبل هو سخرتهم بصدر رحب. وبعد 1768 اعتاد كما هو الحال في الأديار، أن تقرأ عليه بعض الكتب التعبدية أثناء تناول الطعام. وكان لهذا الغرض يؤثر "عظائم ماسيون" لأنه استطاع أن يقدر قيمة الأدب حتى ولو بقلم كاهن. وكان قد أشترك في الحملة ضد اليسوعيين، ولكن في 1770 انضم إلى رابطة علمانية للأخوة الكبوشيين، وحصل من رئيس هذه الطائفة على لقب "الأب الدنيوي لطائفة الكبوشية في جكس"، وهي القرية التي كان فيها سيداً إقطاعياً. وكان فخوراً جداً بهذا التشريف، وكتب عنه عدة رسائل وقع على بعضها باسم "الأخ فولتير الكبوشي". وحياه فردريك قديساً جديداً في الكنيسة، ولكنه أبلغه أن السلطات الكنسية في رومة كانت قد أحرقت في نفس العام بعض أعمال الكبوشيين الحقة (130). وليس من اليسير أن نتبين أن تووده إلى الكنيسة كان مخلصاً أو أنه كان ترضيه لقصر فرساي، أو أنه كان بدافع الخوف من الحيلولة دون دفن رفاته في الأرض المخصصة لهذا الغرض، وهي شمل كل مقابر فرنسا. وربما لعبت هذه العوامل الثلاثة دوراً في الكوميديا المقدسة.

وفي تلك الأعوام الأخيرة 1770-1778 وقف قلمه على تنفيذ الإلحاد لا مهاجمة المسيحية. وأضاف إلى مقال "الله" في القاموس الفلسفي فقرتين دحض فيهما "نظام الطبيعة" لدى هولباخ. وفي 1772 دبح مقالاً رائعاً تحت عنوان "يجب أن نؤيد" وفيه دافع عن "الله والتسامح". واعترف لمدام تكرر والدوقة دي شوازيل، والأمير البروسي فردريك وليم، وبخوفه

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير متعصب

على حركة التسامح الديني من أن يهزمها تأييد الإلحاد والدفاع عنه، وأسف لأن نقده لدى هولباخ قد تضامن "الأخوة" ولكنه أصر في عناد "لأشك عندي في أن المؤلف وثلاثة من مؤيدي هذا الكتاب سيكونون من الد أعدائنا لأنهم تحدثوا بأفكار ي. وقد أعلنت لهم أنني سأتكلم طالما كان في عرق ينبض أو طالما ترددت أنفاسي دون أن أخشى المتعصبين للإلحاد ولا المتعصبين للخرافة (31). ورد أنصار دي هولباخ على هذا بقولهم على هذا بقولهم ان السيد الثرى يشتغل بالسياسة مع فرساي ويستخدم الله ليحافظ على النظام بين خدمه وفلاحيه في فرنى. وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته، نظر إليه الرجال الذي هتف لهم يوماً، وحفزهم وشجعهم على الانضمام إلى الحملة ضد "الرجس" باعتبارهم أخوة، نظروا إليه وكأنه قائد مضيق. أن ديدرو ما أحبه قط، وما ألف تبادل الرسائل معه، وكره منه زعمه الواضح بأن دالمبير هو رأس الموسوعة المفكر وروحها المدبر. لقد استحسّن دفاع فولتير عن آل كالوس. ولكن أفلتت منه عبارة تتم على الحقد يقول فيها " أن هذا الرجل لا يعدو أن يكون الثاني في كل الأحوال

(132) " أن فولتير لم يشارك ديدرو سياسته الثورية ولا حبه لمسرحية البرجوازية العاطفية، أن البرجوازية حين تصبح أرستقراطية لاتسيغ فناعة البرجوازية. ولم يقم ديدرو ولا دى هولباخ بحج الاخلاص والولاء إلى فرني. وعلق جيبم في صرامة غير معهودة على نقد فولتير لهوبز وسبينوزا بقوله: " أن الفيلسوف الجاهل لمس بصعوبة سطح هذه الموضوعات ولم يتعمق في فهمها" (133). إن الملحدين في باريس، وقد زاد عددهم وإعتزازهم بأنفسهم، ولوا الآن ظهورهم لفولتير وانصرفوا عنه. وفي أوائل 1765 ، وحتى وسط المعركة ضد "الرجس" نبذه أحداهم في إحتقار قائلاً "إنه منعصب إنه ربوبي(134)".

وبدأ الشيخ الجليل الواهن حوالي 1770، بعد أن تخلى عنه الجانبان وقاوموه، بدأ يفقد ثقته في إمكانات الفوز، وأطلق على نفسه "المدمر"

صفحة رقم : 12727

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير متعصب

الكبير " الذي لم بين شيئاً. (135) وخشى من أن دينه الجديد - وهو دين "الله والتسامح" لن يتأتى إلا إذا قبل الحطام نصيحة القديس بطرس "أعملوا من أجل السلام الدائم" أي أنه لن يأتي أبداً. أنه أرتاب طويلاً في وهن الفلسفة وانعدام الفتنة والجاذبية في العقل. إن أي فيلسوف لم يؤثر في عادات الناس حتى في الشارع الذي يقطنه، وأسلم الجماهير للخرافة أو الأساطير. وراوده الأمل في أن يحظى بنحو أربعين حكيماً في فرنسا وبالفتنات المتعلمة في الطبقة الوسطى، ولكن هذا الأمل نفسه بدأ يزوى ويذبل حين أدنت شمس حياته بمغيب. وكل الحلم الذي كان يراوده وهو يستعد في سن الرابعة والثمانين ليرى باريس قبل أن يموت، هو حلم "تنوير الشباب شيئاً فشيئاً". فربما يعود إليه في غمرة الترحيب الشديد به هناك، إيمانه بالإنسان وأمله فيه.

وهل كان فولتير فيلسوفاً؟ نعم. أنه كان كذلك على الرغم من أنه لم يصطنع مذهباً. وأنه تردد وتذبذب في كل شيء وغالباً مابقى فوق سطح الأشياء ولم يتعمق فيها. ولم يكن فيلسوفاً إذا كانت هذه الكلمة تعنى صانع مذهب قائم على فكر موحد متماسك عن العالم والإنسان، إنه انصرف عن المذاهب بأعتبارها هجمات وقحة على "المطلق غير المحدود" ولكنه كان فيلسوفاً إذا كان المقصود بالفلسفة انشغال الذهن بشكل جدي بالمشاكل الأساسية للطبيعة والاخلاق والحكومة والحياة والقضاء والقدر. ولم يعتبر فولتير عميقاً، وربما كان السبب في هذا أنه كان غير متأكد، وكان واضحاً وقل أن كانت أفكاره أصيلة. ولكن كل الأفكار الأصيلة تقريباً في الفلسفة سخرية. وأنعدام الأصالة علامة الحكمة. يقيناً كان الشكل الذي صاغ فيه أفكاره أصيلاً. وفولتير بلانزاع ألمع كاتب ظهر، وهل كان الرجل الثاني، لا الرائد الأول، في كل مجال كما اتهمه ديدرو؟ كان الثاني في الفلسفة بعد ديدرو، نعم، وفي المسرحية بعد كورني ورابين ولكنه كان الأول والأفضل في زمانه في فهمه وكتابته للتاريخ وفي رقة شعره، وفي

صفحة رقم : 12728

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> فولتير والمسيحية -> فولتير متعصب

سحر نثره وظرفه، وفي مدى تفكيره وتأثيره. ورفرفت روحه مثل اللهب فوق القارة وفوق القرن. كما أنها تنثر وتهز مليون نفس في كل جيل.

وربما أسرف في كراهيته، ولكن علينا أن نتذكر الاستفزاز والإثارة، ومنتصور أنفسنا عاندين إلى الوراء في عصر كان الناس يحرقون فيه على الخازوق، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بسبب الارتداد عن الديانة التقليدية. وقد نرى المسيحية الآن أفضل مما كانت عليه أو مما رآها هو آنذاك، لأنه ناضل وأصاب بعض النجاح للتخفيف من تعاليمها وحدتها. ويمكن أن نحس بقوة وروعة العهد القديم وجمال العهد الجديد وسموه، لأننا أحرار في أن نفكر فيهما بأعتبارهما من عمل وإيحاء رجال غير معصومين من الخطأ. ويمكن أن نكون شاكرين ومقدرين لآخلاق المسيح لأنه لم يعد يهددنا بالجحيم، أو يصب اللعنة على الناس والمدن التي لاتستمع إليه(137).

ويمكن أن نحس نبيل القديس فرانسيس الأسيسى لأنه لم يعد يطلب منا أن نصدق أن القديس فرانسيس أكسافيير كان يسمع في عدة لغات على حين كان يتحدث بلغة واحدة، ويمكن أن نحس بشعر الطقوس الدينية وبالمسرحية في هذه الطقوس، حيث تركنا الأنتصار العابر للتسامح أحراراً في أن نتعبد أو نمتنع عن العبادة. ويمكن أن نتقبل مائة أسطورة بأعتبارها رموز عميقة أو مجازات منيرة موضحة، لأننا لم نعد يطلب منا أن نتقبل خفيقتها الحرفية. وتعلمنا أن نتعاطف مع ما كنا يوماً نحبه. وكان علينا أن نتخلى عنه، عندما نستعيد أجمل الذكريات لما كنا نحب في شبابنا. ولمن، أكثر من أي رجل واحد آخر، ندين بفضل هذا التحرر العزيز علينا والذي يعتبر فاتحة عصر جديد؟ أننا ندين بهذا الفضل لفولتير.

صفحة رقم : 12729

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> رجال الدين يصدون الهجوم

الفصل الثالث والعشرون

انتصار الفلاسفة

1715 - 1789

1- رجال الدين يصدون الهجوم

كان هناك الكثير مما يقال من أجل المسيحية. مما قاله المدافعون عنها في قوة وحيوية، أحياناً مع سوء تقدير أعمى للعصر، وأحياناً في رقة ووضوح توقعتهما فرنسا من اللاهوت. وهناك من رجال الكنيسة من ظل يصر على أن أي انحراف عن المذهب الكاثوليكي المحدد يجب أن تعاقب عليه الدولة، وأن مذبحه سانت برثلميو عملية مشروعة مثلها في ذلك مثل أية عملية جراحية (1). ولكن هناك من قبلوا التحدي ولأخذه مأخذ الرجال الكرام الشرفاء للأعداء أن يختاروا السلاح، وهو العقل. وكانت لفظة كريمة، فأن الدين إذا ارتضى العقل كان في هذا بداية موته وفنائه. ونشرت فرنسا فيما بين عامي 1705 و1789 نحو تسعمائة كتاب دفاعاً عن المسيحية، منها تسعون في سنة 1770 وحدها (2). أن كتاب ديدور "أفكار فلسفة" وكتاب هلفشيوس "الذكاء"، وكتاب روسو "أميل القرن الثامن عشر"، استلزم كل منها نشر عشرة كتب لتنفيذه والرد عليه. أن الراهب هوتفيل في كتابه "الديانة المسيحية كما تثبتت الأعمال" (1722) أكد (مثل رئيس الأساقفة وبتلي Whately بعد ذلك بقرن من الزمان) أن المعجزات التي تثبت قدسية المسيحية ثابتة بشكل موثوق قدر ثبوت الأحداث المقبولة في التاريخ العلماني. وفي مجلدين اثنين نشر الكاهن

صفحة رقم : 12730

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> رجال الدين يصدون الهجوم

جويون Guyonh كتابه "مهبط الوحي عند الفلاسفة الجدد" (1759-1760) وهو كتاب هجاء ونقد. ونشر الكاهن بلوش Pluche كتابه "مشهد الطبيعة" في ثمانية مجلدات (1739-1746). وظهرت منه ثمانية عشرة طبعة عالية الثمن، عرض فيه عجائب العلم وأدلة التدبير المقصود في الطبيعة ليثبت وجود إله أسمى في العقل والقوة. وإذا وجد العقل البشري بعض الألغاز في المشهد الضخم، فيكن متواضعاً. ولا ينبغي لنا أن ننبت الإله لأننا لا نستطيع فهمه وإدراكه، ولنقدم له في نفس الوقت الشكر على بديع صنعه. أما الأب جوشا Gauchat فإنه في 15 مجلداً بعنوان "رسائل نقدية" (1755-1763) هاجم فرضية التطور عند بيوفون وديدرو وغيرهما ببرهان طائش "إذا كان الناس يوماً أسماكاً... فإن هذا استتبع واحداً من اثنين، إما أنه ليس للإنسان نفس روحية خالدة، أو أن للأسماك مثل هذه النفس، وكلتاهما فرضية تنافي التقوى والدين" (3). ووافق الفلاسفة فرحين مهللين. وأكد الأب سيجورن Sigorgne في كتابه "الفلسفة المسيحية" على لزوم الدين دعامة للأخلاق، فإن القيود العلمانية الخالصة تؤدي إلى شحذ أذهان المجرمين الذين لا يعودون يؤمنون بالله البصير بكل شيء. وفي 1767 نشر الأب شانندن Mayeul Chandon القاموس المضاد للفلسفة، وقد ظهر منه سبع طبقات. أما الأب نونوت Nonotte وهو يسوعي سابق تحلى بسعة الإطلاع والثقافة مثل أعضاء طائفته (4)، فإنه أخرج في 1770 كتابه الضخم "أخطاء فولتير" وقد بيع من هذا الكتاب أربع طبقات في عامه الأول، وست طبقات في ثمانية أعوام. وفي 1857 عد فولتير هذا الكتاب من بين ما تقرأ إما بوفاري. ودافع الأب جويني Guenee عن الكتاب المقدس بروح وذوق وكياسة وتفقه في كتابه "رسائل بعض اليهود" (1776). وهي رسائل توهم بأنهم صادرة من بعض علماء اليهود. وسلم فولتير بأن نقد جويني "لاذع إلى حد بالغ" (5). ووجه المدافعون الكاثوليك وابلأ من النيران في كل شهر

صفحة رقم : 12731



قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> رجال الدين يصدون الهجوم

ضد الفلاسفة في نشرة "الدين المنتقم". وفي 1771 بدعوا يصدرن "موسوعة منهجية"، أوسع حتى من موسوعة ديدرو، تهاجم كل نقاط الضعف في قلعة الشك هذه. وواجه الماديون (أنصار المذهب المادي) خصماً عنيداً في شخص نقلا سلفستر بيزانسون. أن كتابه "الربوبية تفند نفسها" (1765) كان "رد كاهن حقيقي على قسيس سافوي الذي ابتدعه خيال روسو (6)" ومن أجل كتابه "صدق براهين المسيحية" (1767) تلقى رسالة ومدح من البابا. وفي سن الواحدة والخمسين (1769) رفع إلى مرتبة كاهن في كاتدرائية نوتردام في باريس، وأصبح كاهن الاعتراف لينات الملك لويس الخامس عشر. وفي نفس العام نشر كتاب "دفاع عن المسيحية ضد مؤلف فضح المسيحية" وهو ضربة موجعة إلى دي هولباخ. وسرت جمعية رجال الدين بهذا الكتاب فقررت له في 1770 معاشاً سنوياً قدره ألفاً من الجنيهات ليتفرغ للدفاع عن العقيدة. وفي بحر سنة أخرج كتاباً في مجلدين تحت عنوان "اختبار المادية" وهو رد على كتاب دي هولباخ "منهج الطبيعة" وأوضح مرة أخرى أن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا بطريق مباشر، فلم نهبط به إلى شيء آخر معروف لدينا عن طريق الذهن فقط (7). واتهم دي هولباخ بعدة تناقضات: 1- أعلن البارون أنه لا سبيل إلى معرفة الله، ولكنه طبق بعد ذلك على المادة كل صفات الاتناهي والأبدية 2- أنه قبل مذهب الحتمية ومع ذلك حض الناس على إصلاح سلوكهم. 3- نسب الديانة إلى:

(أ) إلى جهل الإنسان البدائي. (ب) وحيل الكهنة ومغالطتهم. (ج) إلى مكر صانعي القانون وبراعتهم. فلنتركه يقرر. وطرح الكاهن نقد العهد القديم جانباً بإيضاحه أن ناسخي كلام الله من البشر كانوا قد استخدموا المجازات والاستعارات الشرقية. ولذلك ينبغي ألا يؤخذ الكتاب المقدس دائماً بحروفه. والعهد الجديد هو جوهر المسيحية، وحياتة المسيح

صفحة رقم : 12732

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> رجال الدين يصدون الهجوم

من المعجزات تثبت قداسة الدين. ومهما يكن من أمر فإن سلطة الكنيسة لا تركز على الكتاب المقدس وحده، بل على التسلسل أو التعاقب الرسولي لأساقفتها، وتقاليدهم التي وضعوها للدين. وفي كتاب اختبار الدين المسيحي (1771) أكد برجيبه الحجة القائلة بأن الإلحاد، على الرغم من الشخصيات الفردية الاستثنائية التي أبرزها بيل، قد يدمر الفضيلة والأخلاق.

وأرق شخصية في المدافعين عن الكاثوليكية من رجال الدين في القرن الثامن عشر في فرنسا هو غليوم فرنسوا برتنيه (8). في سنة 1714 وهو في سن الثانية عشر والتحق بالكلية اليسوعية في بوج، وهناك اشتهر بحدة ذهن لم تنسيء إلى تقواه إساءة ظاهرة. وفي سن السابعة عشرة أبدى لوالديه رغبته في الانضمام إلى "جمعية يسوع" فطلباً إليه أن يفكر في الأمر لمدة عام. ففعل وأصر على رغبته. وفي الفترة التي سبقت تنبئته راهباً في باريس أكب على القراءة والدرس والصلاة حتى إنه نادراً ما خصص للنوم أكثر من خمس ساعات في اليوم. وتقدم ونما بسرعة حتى أنه عين في سن التاسعة عشرة لتدريس العلوم الإنسانية في كلية دي بولوا، وبعد سبع سنين قضاهم هناك، وسنة أخرى في الراهبة، أرسل إلى رن ثم إلى روان أستاذاً للفلسفة. وفي 1745 عينه اليسوعيون محرراً لصحيفتهم "جورنال دي

تريفو " التي كانت تصدر في باريس آنذاك. وأصبحت هذه النشرة الدورية على عهده من أكثر الأصوات احتراماً في فرنسا المتعلمة.

وكتب برتنيه معظم الصحفية بنفسه. وعاش في صومعة صغيرة لم تجر تدفنتها قط، واشتغل كل ساعات النهار، وكان بابه مفتوحاً أمام كل من قصده، وكان ذهنه مفتوحاً لكل موضوع، اللهم إلا العقيدة التي كانت تعمر بها حياته وتغمرها بالدفع. إن لإرهاب La Harpe أحد تلاميذ فولتير، وصف برتنيه بأنه الرجل نال إعجاب والباحثين جميعاً، لغزارة علمه وسعة إطلاعه، كما نال إعجاب أوربا لفضائله الموسومة بالتواضع.(9) وامتاز بسحر الكياسة الفرنسية حتى عند الاختلاف في الرأي. فهاجم

صفحة رقم : 12733

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> رجال الدين يصدون الهجوم

الأفكار لا الشخصيات وامتدح مواهب خصومه أو معارضيه(10). ومع ذلك فإنه دافع عن عدم التسامح الديني. واعتقاداً منه بأن المسيح ابن الله هو الذي أسس الكنيسة الكاثوليكية، رأى أنه من واجب المسيحي أن يحول بكل الوسائل السلمية دون انتشار الخطأ الديني..ويجب حظر الدعاية المعادية للمسيحية في أية أمة مسيحية، لأنها تغرى بالسلوك غير الأخلاقي، وتسيء إلى استقرار الدولة. ورأى أنه من الخطأ أن نخلط بين التعصب للكاثوليكية وبين التحمس للاضطهاد(11)، ولكنه لم يعد بعدم مواصلة الاضطهاد. وفي سنة 1759 رد الاتهام بالتعصب وعدم التسامح إلى الفلاسفة فقال: أيها الكفار، وأنتم تتهمونها بالتعصب الذي لا أثر له لدينا، على حين أن ما تضمرون من كراهية لدينا يبعث فيكم تعصباً لا يمكن تخيل إفراطكم الواضح فيه(12).

ولم يسلم برتنيه بالحقيقة المطلقة للعقل وحتى على الأسس الحسية عند لوك، لا يستطيع العقل أن يصل إلا إلى الحواس، أما فيما وراء هذه الحدود، فهناك حقائق واقعة ينبغي أن تظل إلى الأبد أسراراً خفية في الأذهان المحدودة، من ثم فإن الفيلسوف الحق يحد من بحثه حين لا يمكنه تخطي هذه الحدود بشكل معقول(13). أن السعي لإخضاع الكون أو معتقدات الناس التقليدية والعامة لاختبار عقل فردي، ضرب من الغرور العقلي. والرجل المتواضع يقبل عقيدة بني جلدته إذا لم يستطع فهمها. وذهب برتنيه في بعض الأحيان إلى أن الكفار ينبذون الدين يتدخل في ملذاتهم، وتنبأ بأنه إذا سادت مثل هذه الإباحية، فلا بد أن ينهار القانون الأخلاقي، ويطلق العنان للأهواء، وتختفي المدينة في حماة الأنانية والشهوة والخداع الجريمة. إذا لم توجد الإدارة الحرة، فلا بد وجود للمسئولية الأخلاقية. وحيث أن الحتمية لا تسلم بأي قانون يلزم الضمير، فإن الشخص المذنب الوحيد هو الشخص الذي لا ينجح(14). ومن ثم الفضيلة أو الأخلاق القويمة حينئذ مجرد حساب المنفعة، ولن يكون إحساس بالعدالة ليكبح

صفحة رقم : 12734

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> رجال الدين يصدون الهجوم

جماح الأقلية الذكية الماهرة في سوء استغلال سذاجة الأغلبية، ولن يشعر أي حاكم بأي التزام نحو شعبه، اللهم إلا المبادعة بينهم وبين الثورة بسبب استغلاله لهم.(15)

أن برتنيه كان كما رأينا قد رحب بالمجلد قد رحب بالمجلد الأول من الموسوعة وقرظة، و عرض ما فيه من أخطاء وانتحالات في دقة بالغة تتم على ثقافة واسعة، ومن ثم أظهر أن مقالة للأب ييفون Yvon التي شغلت ثلاثة أعمدة كاملة، أخذت بنصها كلمة من كتاب الأب بوفيه "بحث في الحقائق الأولية"(16). وامتدح مثال "الفلسفة العربية" ولكنه أبدى فزعاً حين وجد أن مقالة الإلحاد قد أوردت الحجج التي تساند الإلحاد على نفس مستوى الإسهاب والقوة الذي أوردت به الحجج ضد الإلحاد، تاركة فكرة وجود الله في شك رهيب. وعندما أصبحت النزعة المعادية للمسيحية أكثر وضوحاً في المجلد الثاني هاجمها في قوة وبراعة. وأوضح إن الموسوعة استمدت سيادة الحكومة من رضا المحكومين، وفي هذا، وفي نظر برتنيه، خطر على الملكية الوراثية. وربما كان له أثر في وقف الموسوعة عن الظهور(17).

وفي عدد إبريل من تريفو عرض لكتاب فولتير "بحث في العادات" فقال: إنه ليحزننا أن نرى مؤلفاً حياً نقدر مواهبه ونعجب بها ولكنه يسيء استغلالها في أكبر الأمور الأساسية. لقد رأى في كتاب فولتير محاولة لهدم الكنسية والدين ليشيد على إطلاهما كياناً فلسفياً، أو معبداً لإباحة الفكر، نزهه للاستقلال عن كل سلطة، والهبوط بالعبادة والأخلاق والفضيلة إلى مجرد فلسفة علمانية بحثة بشرية. واتهم فولتير بتحيز أخزى المؤرخ، حيث عمى عمى يكاد يكود تاماً عن فضائل المسيحية وخدماتها، وصمم طائشاً على أن يلتمس لها الأخطاء في منجزاتها وأعمالها. وقال: إن فولتير ادعى أنه يؤمن بالله، ولكن من آثار كتاباته دعم الإلحاد. وفي نفس العدد من الصحيفة تحول برتنيه إلى كتاب فولتير "العداء-جان دارك" فنفض صبره. وصاح: إن

صفحة رقم : 12735

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> رجال الدين يصدون الهجوم

الجحيم لم يلفظ قط مثل هذا الطاعون الفتاك:... إن الشهوانية تعرض هنا بكل وقاحة أبشع الصور بذاعة ودعارة. إن الفحش والبذاءة تستعيران لغة السوق... إنه أحط الهزل الماجن يلطف الكفر والبعد عن التقوى... إن الرائحة المنبعثة من هذه الأشعار كقبيلة بإفساد ونقل العدوى إلى كل عصر وكل حالة في المجتمع(18).

ولم يسارع فولتير إلى الرد، إنه ما زال يحتفظ بذكرات طيبة لمعلميه اليسوعيين، ولا يزال على جدران مكتبه في فرني صورة الرجل الطيب العطوف المتدين الأب بوري (Poree 19). ولكن عندما أوقفت الحكومة الفرنسية صدور الموسوعة استجاب لتحريض دالمبير وأنبرى لقتال برتنيه. فأتهمه بمناهضة الموسوعة لأنها نافست قاموس تريفو الذي زعم أنه إنتاج يسوعي (كان كذلك بشكل جزئي وبصفة غير رسمية). ودعا مجتمع يسوع إلى فصل محرر تريفو. أي عمل هذا الذي يشتغل به كاهن... أنه يبيع في كل شهر من مخزن للكتب مقتطفات من آراء طائشة مفتراة(20). فرد برتنيه (يوليو 1759) بأن محرري صحيفة تريفو لا علاقة لهم بمحرري قاموس تريفو وأعترف بأن كونه محرراً ليس عملاً جميلاً ولا مناسباً. ولكنه تمسك بحق الكاهن في استخدام صحيفة دورية للإشادة بالكتب القيمة واستهجان المؤلفات الغثثة. وأسف لأن فولتير أنزلق إلى المسائل الشخصية والاتهام بالفساد والرشوة وختم كلامه بالأمل في أن يعود هذا الرجل ذو المواهب العظيمة فيما تبقى له من عمر تفضلت به عليه العناية الإلهية، يعود إلى الديانة المقدسة لا الدين الطبيعي، بل إلى المسيحية الكاثوليكية التي ولد فيها(21). وفي نوفمبر أصدر فولتير (وكان لا شك يتذكر الدفن الوهمي لجون بارتريدج تأليف سويقت)، رسالة مهيبية تحت عنوان "العلاقة بين المرض والاعتراف والموت وشيخ برتنيه اليسوعي" ذاكر أ كيف أن المحرر مات في نوبة من التثاؤب فوق صحيفة تريفو. واعتذر عن أسلوبه في الجدل في خطاب إلى مدام بيناي: لا بد من تسفيه الرجس والمدافعين عنه(22).

صفحة رقم : 12736

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> رجال الدين يصدون الهجوم

وفي 1762 أمرت برلمانات فرنسا بقمع حركة اليسوعيين، وسر برتبيه حين انتهى عمله في تحرير الصحيفة، وأوى إلى دير للترابستين ليحيا حياة الصمت والتأمل، وطلب السماح له بالانضمام إلى هذه الطائفة (التي يقوم مذهبها على دوام الصمت والتقشف والزهد) ولكن رئيس اليسوعيين أبى عليه ذلك، وعينه لويس الخامس عشر معلماً لأبناء الأسرة المالكة. ولما وقع الملك مرسوم طرد اليسوعيين من كل أنحاء فرنسا (1764) هاجر برتبيه إلى ألمانيا. وفي 1776 سمح له بالعودة، فاعتزل كل نشاط، وأقام مع أخيه في بوج. ومات هناك في سن الثامنة والسبعين (1782) وكان رجلاً طيباً.

صفحة رقم : 12737

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> خصوم الفلاسفة

2- خصوم الفلاسفة

حمى وطيس الحرب نبذت أردية الكهنة ونبذت المجاملات، وركز الصحفيون أنظارهم على الفلاسفة، وسخر كل ذكاء باريس وكل مفردات لغتها للشد والجذب والطعان. ولقد رأينا كيف أن فولتير تعرض 1725 لبعض المتاعب لإنقاذ بيير ديفونتين من العقوبة القانونية للواط وهي الإعدام. ولم يغفر له ديفونتين هذا قط. وفي 1735 شرع في إصدار نشرة دورية تحت عنوان "ملاحظات على الكتابة الحديثة" استمرت حتى عام 1743 وعلى صفحاتها نصب نفسه مدافعاً عن البضائع وعن العفة بصفة خاصة. وهاجم، في زراية واحتقار، كل مظاهر انحلال الخلق أو الخروج على التقاليد السليمة، بلغة الأدب في ذلك العصر. ومات ألد أعداء فولتير. ولما مات في 1745 أوصى براهية الجهاد لصديقه فريرون.

كان أيلي كاترين فريرون أقدر خصوم الفلاسفة وأشجعهم وأغزرهم علماء وثقافة. وكان عالماً باحثة إلى حد أنه كتب "تاريخ ماري ستوارت" (1742) وسبعة مجلدات في "تاريخ الإمبراطورية الألمانية" (1771). كما كان شاعراً إلى حد أنه نظم قصيدة "عن معركة فوننتوي" (1745) ولا بد أن فولتير رأى فيها منافسه وقحة لقصيدته باعتباره المؤرخ الملكي. وفي 1745

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; انتصار الفلاسفة -&gt; خصوم الفلاسفة

أصدر نشرة دورية تحت عنوان: "رسائل عن بعض كتاب هذا العصر" وتناول فيها فولتير بالنقد والتجريح أكثر من مرة. وقضى فريريون سني فقره سائفاً لعربة تجرها أربعة جياذ... وزج به في سجن الباستيل ذات مرة لمدة ستة أسابيع لنقده راهباً من ذوي النفوذ. ولكنه حارب لمدة ثلاثين عاماً معركته الجبارة من الماضي. واستاء استياءً واضحاً من فولتير لأنه نصح فرديريك بالعدول عن استخدامه مراسلاً له في باريس (23). وفي 1754 أصدر مجلة جديدة تحت اسم "السنة الأدبية" التي حررها وكتب معظمها، ونشرها مرة كل عشرة أيام حتى 1774.

وأعجب فريريون بتمسك بوسيه بالدين وبالطرق الفخمة والأسلوب الفخم في القرن التاسع عشر، وأحس بأن فهم الفلاسفة للتنظيم الاجتماعي ودعائم الفضيلة والأخلاق وركائز الإيمان فهم سطحي إلى حد معيب. "لم ينجب عصر مثل عصرنا هذا قط مثل هذا العدد الكبير من الكتاب المغوين مثيري الفتن الذي يركزون قواهم في التهجم على مقام إلا له، أنهم يسمون أنفسهم رسل الإنسانية، دون أن يدركوا أنه لا يلائم أي مواطن وأنه يسيء إلى الجنس البشري أبلغ إساءة أن يسلبوهم الآمال الوحيدة التي تهبى لهم بعض التخفيف من متاعب الحياة. أنهم لا يدركون أنهم يقبلون النظام الاجتماعي، ويحرضون الفقراء على الأغنياء والضعفاء على الأقوياء، ويضعون الأسلحة في يد ملايين الناس الذين منعمهم حتى الآن الوازع الأخلاقي والديني من اللجوء إلى العنف، وقد ما يمنعمهم القانون" (24).

وتنبأ فريريون بأن هذا الهجوم على الدين سوف يقوض أركان الدولة، واستبق بجبل واحد تحذيرات ادmondبيرك: "أليس للكفر وهدم الدين أشد سخفاً وخطراً من التعصب للخرافة؟ أبدأ بالتسامح مع عقيدة آباتك. أنكم لا تتحدثون إلا عن التسامح.. أنا لا أنتمي إلى عصابة الروح الجميلة، ولا أنتمي إلى حزب الدين والفضيلة والشرف" (25).

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; انتصار الفلاسفة -&gt; خصوم الفلاسفة

وكان فريريون ناقداً لاذعاً، ولم يدخر وسعاً في تحطيم غرور الفلاسفة الحساس وجرح كبريائهم. وسخر من شدة تعنتهم وتعصبهم لأرائهم، ومن مزارع سيادة فولتير الإقطاعية باعتباره "كونت دي تورناي". ولما ردوا عليه فأسموه "وغداً متعصباً"، أنتقم هو منهم فقال إن ديدور منافق وإن جريم متملق الوجهاء الجانب، وأطلق على جماعة الكفار بأسرهم اسم عصابة "الأوغاد المحتالين والوضعاء الحمقى" (26). وأنهم الموسوعيين بسرقة الرسوم الإيضاحية من كتاب Reaumur عن "النمل". وأنكروا هم هذه التهمة وأيدت أكاديمية العلوم هذا الإنكار، ولكن الحقائق أيدت الاتهام فيما بعد (27). ولم يتصرف فريريون تصرفاً حسناً في "عودة إلى كالاس" إنه ذهب إلى أن الدولة أثبتت أن كالاس مذنب. وكتب أن فولتير لم يكن مدفوعاً في دغاغه عن كالاس بأي شعور إنساني قدر رغبته في لفت أنظار الرأي العام إلى وجوده هو - أي فولتير، وفي أن يجعل الناس يتحدثون عنه (28). وأحبت الأنسة كليرون، وهي كاتبة مسرحية

كبيرة، فولتير وزارته، ودأب فريرون على امتداح منافستها، وأبدى بعض ملاحظات على الحياة الخاصة غير الأخلاقية لممثلة بعينها. واستاء الممثلون من مزاعمه باعتباره تدخلاً غير كريم في أمورهم الشخصية. وحوض دوق ريشليو، وهو الذي يعتقد الزني، لويس الخامس عشر على إعادة فريرون إلى الباستيل ثانية ولكن الملكة حصلت على عفو عنه "من أجل تقواه وبلائه الحسن في مناهضة الفلاسفة (29)". ولما قبض ترجو صديق الفلاسفة على زمام الأمور سحب رخصة مجلة السنة الأدبية (1774) وتعزى فريرون بتناول الطعام الجيد، ومات بسبب أكلة شهية، وطلبت أرملته إلى فولتير أن يتبنى أبنته، ولكن فولتير رأى أن هذا إسراف في الشهامة. ويقدر ما أساءت مجلدات فريرون الثلاثون إلى الفلاسفة، أساءت لفضة واحدة هي اللفظة الأخيرة في عنوان كتاب هجاء جاكوب نقولا مور "مذكرات جديدة لإيضاح تاريخ الكاكواك "Cacouacs". ويقول مورو

صفحة رقم : 12740

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> خصوم الفلاسفة

إن هؤلاء "الكاكواك" جنس يكاد يكون من الحيوانات البشرية تحمل تحت ألسنتها أكياساً من السم، فإذا تكلمت أمتزج السم بالكلمات ولوث كل الهواء المحيط بها. واقتبس المؤلف الحاذق مقتطفات من ديدرو، ودالمبير وفولتير وروسو، وحاول أن يبرهن على أن هؤلاء الرجال كانوا حقاً يسمون أنفسهم الحياة، وأتهمهم بأنهم يرتكبون السيئات والشور "المجرد حبه للشور وفرحهم بارتكابه" (30) وسماههم ملحدين، فوضوي، لا خلاق لهم، أنانيين. ولكن لفضة الكاكواك هي التي ألتهم أشد الإيلام. إن هذا اللفظ أوحى بتنافر النغمات في صوت البط. وتهريج الثرثارين المجانين، وأحياناً (كما قصد بالكلمة) رائحة المراحيض. وكافح فولتير ليرد، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفند الرائحة؟ وتشجع المحافظون وشددوا من ضرباتهم. وفي 1757 كسبوا جندياً جديداً طموحاً نشيطاً. فإن شارل باليسودي مونتيني كان قد زار فولتير في لي دليس (1754) مع تقديم من تبيرو على أنه "تلميذ صنعته مؤلفاتك" (31) وبعد ذلك بعام واحد مثل في نانسي ملهارة (كوميديا) تنتقد روسو بشكل لطيف، وفي باريس رعى وشجع الأميرة الشابة الورعة Robecq التي على الأقل صديقة دي شوازيل. وكان ديدرو الخبير في سوء السلوك قد عاب عليها خلقها في مقدمة كتابه "الابن الطبيعي" وربما نشر باليسو (1757)، استرضاء لها، كتاب "رسائل صغيرة عن كبار الفلاسفة" انتقد فيه ديدرو بشدة، ولكنه امتدح فولتير. وفي 2 مايو 1760 قدم تحت رعاية الأنسة دي روبيك على المسرح الفرنسي الملهارة الرائعة في الموسم وأسمها "الفلاسفة". وكانت هذه بالنسبة لهلفشيوس وديدرو وروسو ما كانت مسرحية أرسطوفان "السحب" بالنسبة لسقراط قبل ذلك بنحو 2183 عاماً. صور فيها الفيلسوف المتحذلق فالير Valere الذي يشرح حب الغير في الأنانية للسيدة المثقفة ذات الاهتمامات الأدبية والفكرية سيد اليز Cidalise. وعرف جمهور المتفرجين

صفحة رقم : 12741

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> خصوم الفلاسفة

لأول مرة أن هذه السيدة تمثيل مدام جيوفرين التي كان صالونها يتردد عليه الفلاسفة. وصور ديدرو وكأنه دور تيديوس. وفي الخادم كرسبين Crispin الذي كان يحبو على أربع عبر المسرح وهو يمزج الخس، رأى الباريسيون صورة ساخرة (كاريكاتورية) لجان جاك روسو الذي كان في 1750 قد استنكر المدينة وأضفى مثالية على "حالة الطبيعة" ومجدها. وكان هجاء جافا غير مصقول، ولكنه مشروع. وأستمع به كل من مشاهده، اللهم إلا الضحايا الذين قصدت المسرحية السخرية منهم. وملأت الأنسة دي رويك المسرح بأصدقائهم وغيرهم من أتباعها، وعدة أفراد من مختلف الرتب الكنسية. وأصرت الأميرة على الرغم من السل الذي كان يهدد كيائها، على تشريف العرض الأول بجمالها المحموم. وفي نهاية المشهد الثاني دعي باليسو إلى مقصورتها، وعانقته على مرأى من الناس، ثم حملوها إلى دارها (32) لأنها كانت تسعل دماً. ومثلت مسرحية الفلاسفة أربع عشرة مرة في تسعة وعشرين يوماً. وفي الوقت نفسه انضم إلى الحملة على الكفار شخصية كبرى. فإن جان جاك لي فرانك مركز دي بومبينان، أحد حكام الأقاليم، كتب قصائد وروايات ممتازة إلى حد فاز معه في الانتخابات للأكاديمية الفرنسية. وفي الخطاب الذي ألقاه بمناسبة قبوله عضواً فيها، قال جان مستكراً: "هذه الفلسفة المضللة الخداعة التي تقول عن نفسها إنها لسان حال الحق، وما هي إلا أداة للاقتراء وتشويه السمعة، إنها تتبجح بالاعتدال والتواضع، ولكن تنتفخ أوداجها زهواً وكبرياء. أن أتباعها الذين يتجرعون ويتعالون ويتيهون عجباً بأقلامهم يرتعدون فرحاً في حطة حياتهم، وليس ثمة شيء يقيني في مبادئهم، وليس ثمة غناء في أخلاقهم، ولا قاعدة للحاضر ولا هدف للمستقبل" (33). وامتدح لويس الخامس عشر هذا الخطاب. وسخر منه فولتير في نشرة من سبع صفحات لا تحمل اسم الكاتب، عنوانها "عندما" لأن كل فقرة

صفحة رقم : 12742

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> خصوم الفلاسفة

فيها بدأت بكلمة "عندما" وعلى سبيل المثال. "عندما يحظى إنسان بشرف الاستقبال في جمعية كريمة من رجال الأدب. فليس من الضروري أن يكون خطاب الاستقبال هجاء لرجال الأدب، لأن في هذا إساءة للجمعية وللجمهور. وعندما لا يكاد الإنسان يكون أديباً إلا بشق النفس، ولا يكون على الأقل فيلسوفاً، فلا يجمل به أن يقول إن أدب أمتنا زائف وفلسفتها عقيمة..." وهكذا في أسلوب غير رائع. ولكن موريليه أتبع هذه النشرة بنشرة أخرى كبيرة تكرر فيها لفظ "إذا" وسرعان ما صدرت بعد ذلك نشرة امتلأت بلفظة "لماذا" ثم أصدر فولتير نشرات متوالية زاخرة بالألفاظ: "من، الذي، نعم، لا لماذا"، وهرب بومبينان من هذه العاصفة إلى بلدته مونتيان، ولم يظهر قط في الأكاديمية ثانية. ولكنه عاد إلى الصراع في 1772 بكتاب اسمه "الدين يثأر من الشكوكية بالشكوكية نفسها" وبسط وجهة نظره في أن المذهب المادي (المادية) لم يترك أي وازع للأخلاق والفضيلة، وإذا لم يكن هناك شيء جانز أو مرخص به، وكل ما نحتاجه هو أن نتملص من الشرطة. وتساعل المرئيز: إذا لم يكن هناك إله فكيف تقنع الناس بأن يرضوا بوضع التبعية والخضوع الذي وضعتهم الجمهورية فيه (34)؟ وقال الكاهن جالياني، الذي جاء من نابلي إلى باريس 1761، وتألّق في الصالونات لمدة ثماني سنوات-الذين أحبوهم- إن دعوة بعضهم إلى "إتباع الطبيعة" نصيحة مجنونة تهبط بالإنسان المتحضر إلى الوحشية والهمجية (35) وإن شواهد التدبير الإلهي المقصود في الكون بارزة جلية (36) وإن التشكك أدى إلى الفراغ العقلي واليأس الروحي: "بسبب تنوير أنفسنا وجدنا فراغاً أكثر مما وجدنا امتلاء... وهذا الفراغ الذي ألح على أنفسنا وعلى خيالنا هو السبب الحقيقي في كآبتنا (37).. وبعد كل مل قيل وما عمل فالتشكك هو أعظم محاولة تبذلها روح الإنسان

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> خصوم الفلاسفة

ضد غرائزه وفطرته وأدواقه... إن الناس في حاجة إلى التيقن... أن الغالبية من الناس وبخاصة النساء (وخيالهن ضعف خيالنا) لا يمكن أن يكونوا "لا إداريين"، وإن هؤلاء القادرين على اعتناق مذهب اللادارية (الذين يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها)، لا يستطيعون أن يبقوا على مذهبيهم إلا بسمو شباب نفوسهم وقوتها، فإذا هزمت النفس وولى شبابها يعود بعض الإيمان إلى الظهور ثانية (38)... إن اللادارية يأس له ما يبرره" (39).

و ضد جاليلاني اللامع، وبرجيبه العالم الفقيه وبرتييه الدمث، وفريرون المجد المكافح وبومبينان النبيل ذي اللقب، وبالييسو المرهق، ومورو الثرثار، استخدم الفلاسفة ضد هؤلاء جميعاً كل أسلحة الحرب الفكرية، من العقل والسخرية إلى الرقابة والقذح والذم. وتخلى فولتير عن هدوئه وغامر بأمنه وطمانينته ليرد في شيء من الدعاية أكثر منه بالمحاجة والجدل غالباً، على كل من يهاجم الفلاسفة والعقل، فكتب إلى دييرو "أرسل إلي أسماء هؤلاء الرفاق التعساء، وسأعاملهم بما يستحقون" (40).

وكان من الصعب التعرض لمورو لأنه كان أمين المكتبة، وكان مؤرخ الملكة. وكان من الممكن التشهير ببومبينان بالتفاصيل الصغير، والنبيل من باليسو بالتورية والتلاعب بالألفاظ، وهكذا كتب مارمونتيل قطعة من المتعذر ترجمتها "هذا الرجل كان اسمه ذات يوم بالي، وفي البداية أسموه بالي الغبي، ثم بالي المنحط وبالي الأحمق، وبالي العقيم وبالي البارذ. وتتويجاً لهذا التقرير المطول العنيف وخنماً لهذه المقطوعة الهجائية، وجاءت الكلمة المناسبة على الفور. فأسموه بالي المغفل، وهبوطاً إلى مستواك يجب علينا، أنا واللفظة أن نمزح مرحاً صاحباً، تأمل وفكر إذا استطعت أن تستخدم تلك الآلة ولكن لا تكتب، بل اقرأ "أيها الأحمق". وأجل دييرو الانتقام حتى يسرد فجور باليسو وفسقه في كتابه "أين أخي رامر" (41) وكاد ألا يكون جديراً بفيلسوف، ولكنه تورع عن

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> خصوم الفلاسفة

نشرة، ولم يدفع به إلى المطبعة الفرنسية إلا بعد وفاة فريسته أو غريمه. على أن موريليه أخرج على الفور كتاباً لا يهزأ فيه من باليسو وحده بل كذلك من "حاميته" الأنسة دي روبيك واستصدر أحد أصدقائها في البلاط الملكي أمر بإيداع موريليه سجن الباستيل (11 يونيو 1760) وحصل روسو على أمر بإطلاق سراحه، ولكنه قطع علاقته



بالفلاسفة منذ ذلك الوقت. ولطخ باليسو انتصاره بالانغماس في اللهو والشراب. وفي 1778 انحاز إلى جانب أنصار فولتير، وانضم ثانية إلى الفلاسفة.

ووقعت أشد ضرباتهم على رأس فريرون. ووصفه دييرو في ابن أخي رامو (42) بأنه "واحد من جماعة الأدياء المأجورين المبتدلين الذين عاشوا على مائدة الثرى (المليونير) برتان". وخصص فولتير إحدى مقطوعاته الساخرة لفريرون، حيث يقول "بالأمس القريب، في أحد الأدوية لدغ ثعبان جون فريرون، فماذا نظن قد حدث آنذاك؟ لقد مات الثعبان.

ومن أمثلة البذاءة التي أساءت إلى سمعة فولتير والقرن الثامن عشر وصفه لفريرون بأنه "الدودة التي خرجت من إبت ديفونتين" (43). ولكن الهجوم الأكبر ورد في رواية فولتير "المرأة الإسكندرية" التي بدأ تمثيلها على المسرح الفرنسي في 26 يوليو 1760 حيث كانت محاكاة ساخرة لرواية باليسو "الفلاسفة" مع مبالغاة واضحة في أنها نسبت إلى ضحاياه مسئولية هزائم الجيوش الفرنسية في الرحوب وانهيار مالية الدولة. وصور فريرون على أنه كاتب مأجور ميتدل تافه في شارع جرب Grup street (شارع اشتهر بها الاسم سابقاً)، جاء بالرجس والعار في كل فقرة كتبها نظير بستول واحد (عملة أسبانية أوروبية). ومن بين النعوت التي أطلقت عليه في رواية فولتير: وغد، ضفدع الطين (شخص تافه)، كلب، جاسوس، سحلية، ثعبان، موطن النجس والقذارة (44). واتبع فولتير نفس العادة المألوفة فملاً المسرح بأصدقائه أو "بالأخوة" وناقست

صفحة رقم : 12745

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> خصوم الفلاسفة

هذه الرواية رواية باليسو في شعبيتها وإقبال الجمهور على مشاهدتها، ومثلت ست عشرة مرة في خمسة أسابيع. وخرج فريرون من العاصفة سالماً بحضوره العرض الأول مع زوجته الجميلة، وواضح أنه كان أول المصفقين. وتبين فولتير مزاج غريمه. فإذا سأل زائر عن رأيه في قيمة الكتب الجديدة أو مزاياها، أجاب فولتير بقوله "ارجعوا إلى هذا الوغد فريرون... إنه الرجل الوحيد الذي له ذوق. إني مضطر إلى الاعتراف بهذا على الرغم من أنني لا أحبه" (45).

صفحة رقم : 12746

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

3- سقوط اليسوعيين

كشفت الانهيار السريع "الجمعية يسوع" عن روح العصر ومزاجه، ولو أن هذا السقوط نتيجة لتصرف برلمان باريس أكثر منه نتيجة لعمل الفلاسفة. أن مؤسسها أطلق عليها اسم "عصبة (شركة) يسوع" وأقرها البابا بول الثالث 1540 تحت اسم مجتمع يسوع-أي هيئة دينية تتبع قاعدة محددة، تعيش على الصدقات. وقد أصبح هؤلاء "اليسوعيين" كما سماهم النقاد-على مدى قرن من الزمان أقوى جماعة من رجال الدين في كنيسة الكاثوليكية، وما وافى عام 1575 حتى كانوا قد أسسوا في فرنسا وحدها اثنتي عشر كلية، وسرعان ما سيطروا على تعليم الشباب في فرنسا. ولمدة مائتي عام اختار ملوك فرنسا كهنة اعترفهم من بينهم، وحذا سائر الحكام الكاثوليك حذوهم. وبهذه الوسيلة وغيرها من الوسائل بات هؤلاء اليسوعيين أو "جماعة يسوع" أبلغ الأثر في تاريخ أوروبا بأسرها.

ومنذ بداية عهد اليسوعيين في باريس تقريباً كان البرلمان والسوربون يقاومانهم. وفي 1594 اتهمهم برلمان باريس بأنهم كانوا وراء محاولة جان شاتيل الاعتراف على حياة هنري الرابع. وفي 1610 اتهمهم البرلمان بتحريض رافياك على قتل الملك، وأيد البرلمان هذه الاتهامات بالإشارة إلى بحث اليسوعي الأسباني ماريانا الذي دافع فيه عن مشروع قتل الملوك في

صفحة رقم : 12747

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

ظروف معينة. ولكن جماعة يسوع ازدادت عدداً وقوة وسلطاناً وسيطرت على سياسات لويس الرابع عشر الدينية، وأدت به إلى مهاجمة الجانسنيين في بورت رويال، على أنهم كلفيون تحت شعار أنهم كاثوليك. ولا تزال الأقلية المتعلمة تذكر "الرسائل الإقليمية" التي كتبها بسكال 1656، ومع ذلك فإنه في 1749 كانت جماعة يسوع تضم 3350 عضواً في فرنسا من بينهم 1763 كاهناً. وبرزوا بين رجال الدين في فرنسا بوصفهم أحسن العلماء والباحثين وأبرع اللاهوتيين وأفصح الوعاظ، واتقى المدافعين عن الكنيسة، وأنشطهم وأنجحهم، وأسهموا في كثير من العلوم، وأثروا في تطوير الفنون، وكانوا بإجماع الآراء أفضل المعلمين في أوروبا. وكانوا يتميزون بصرامة أخلاقهم، ومع ذلك لجنوا إلى كل ألوان التحايل للتخفيف من متطلبات الأخلاق المسيحية عند الرجل العادي، وحتى مع هذا لم يتعاضوا قط عن فسق النبلاء والملوك وفجورهم، وبفضل إعدادهم أو تربيته الشاقة ومثابرتهم الصابرة، جعلوا من أنفسهم قوة تسيطر على سياسات الملوك وعقول الناس. وبدا في بعض الأحيان أن أوروبا بأسرها قد تدعن لصلابة إرادتهم المتحدة المتميزة بالنظام والانضباط.

أن قوة اليسوعيين هي تقريباً التي قضت عليهم. وبدا واضحاً كل الوضوح لدى الملوك أن تأييد اليسوعيين لسلطة البابا المطلقة في مسائل الإيمان والأخلاق وغيرها، إذا لم يوضع له حد سيجعل من كل الحكام المدنيين أتباعاً للباباوات، ويعيد سلطان روما الإمبراطورية. أنهم ولو أنهم كانوا أقرب الجماعات إلى أذان الملوك، دافعوا عن حق الشعب في خلع الملك. أنهم ولو أنهم كانوا متحريين نسبياً في اللاهوت والأخلاق، وسعوا إلى التوفيق بين العلم والكنيسة، فأنهم شجعوا روع الناس بتأييدهم دعوى مرجريت ماري الاكوك بأن المسيح كشف لها عن "قلبه المقدس" الذي يتحرق حباً للبشر. إنهم أنشئوا وبنوا عقول ديكارت ومولير وفولتير

صفحة رقم : 12748

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

وديدرو، لمجرد أن يروا هؤلاء الرجال اللامعين ينقلون عليهم وعلى نظام التعليم اليسوعي. وأتتهم منهج المدارس اليسوعية بتعلقه الشديد وحرصه البالغ على اللغة اللاتينية، إلى حد أنه عوق نمو المعرفة باستبعاد كل شيء اللهم إلا الأفكار التقليدية. إنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغي على الذاكرة، وعلى الطاعة العمياء السلبية. ومن ثم فإن قيمة الدراسة فقدت كثيراً بسبب حاجة العصر إلى قدر أكبر من الاستفادة بالعلوم، وإلى نظرة أكثر واقعية إلى الحياة البشرية. وعلى ذلك فإن دالمبير في مقاله عن "الكلية" في الموسوعة رثى للسنوات الست التي قضتها الطلبة في المدارس اليسوعية في دراسة لغة ميتة، وأوصى بمزيد من الاهتمام باللغتين الإنجليزية والإيطالية والتاريخ والعلوم والفلسفة الحديثة. وأهاب بالحكومة أن تسيطر على التعليم، وتدخل منهجاً جديداً للدراسة في مدارس جديدة. وفي 1762 نشر روسو كتابه "إميل" أعلن فيه ثورة على التعليم. ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة كانوا عاملاً أقل شأنًا في سقوط اليسوعيين في فرنسا. إن نوعاً من الهدنة المتبادلة خيم على العداء المتبادل، ذلك أن الكفار احترمو علم اليسوعيين وخلقهم، وهؤلاء من جانبهم كانوا يأملون بالأناة والصبر في معالجة الأمور في أن يعيدوا هؤلاء المنتسكين الخطائين إلى حظيرة الدين القويم. ووجد فولتير أنه من العسير عليه أن يشن الحرب على معلميه السابقين. وكان قد أرسل روايته "هنرياد" إلى الأب بوري راجياً أن يصح ما قد يكون فيها من فقرات تسيء إلى الدين (46). وفي كتابه "معبد الذوق" كان قد امتدح في اليسوعيين تقديرهم لقيمة الأدب وكثرة استخدامهم للرياضيات في تعليم الشباب. وتجاوبت معه صحيفة تريفو بنشر تقرير لرواية هنرياد، وكتابي "شارل الثاني" و "فلسفة نيوتن". وانتهى هذا الاتفاق شبه الودي حين لحق فولتير بفرديريك في بوتسدام، فتخلّى عنه زعماء اليسوعيين عند ذلك باعتباره نفساً ضائعة. ولكن

صفحة رقم : 12749

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

في أواخر 1757 حاول بعضهم التوفيق بين فولتير وجماعة يسوع (47). وفي فرني (في 1758 وما بعدها) احتفظ فولتير بعلاقات ودية مع اليسوعيين المحليين واستمتع نفر منهم بكرم وفادته. وكان في نفس الوقت قد هاجم الكنيسة في مائة صحيفة في كتابه "رسالة في العادات والأعراف". كما كان يكتب مقالاً ضد المسيحية للقاموس الفلسفي. وعندما سمع بنياً مهاجمة رئيس الوزراء كارفالو لليسوعيين في البرتغال (1757) وإحراق مالاجريدا اليسوعي (1764) شجب اتهامات كارفالو بأنها غير عادلة وإعدامه بأنه قسوة غاشمة (48). ولكنه طوال تلك السنوات كان هو نفسه في حرب مع كنيسة، وكانت كتابات "إخوته" ديدرو ودالمبير وموريليه تسهم في إضعاف اليسوعيين في فرنسا. وربما أسهمت المحافل الماسونية، المخصصة بصفة عامة لمذهب البيوبية في عملية تقويض أركان اليسوعيين وإضعافهم. ولكن أقوى التأثيرات في المأساة كانت شخصية متعلقة بصراعات طبقية. ولم تستطع مدام دي بمبادور أن تنسى أن اليسوعيين قاموا كل خطوة في سبيل تسنمها مراقي العظمة السلطان، وأنكروا الغفران للملك مادام يحتفظ بها، ورفضوا أن ينظروا بعين الجد إلى عودتهما المفاجئة إلى التقوى والتمسك بأهداب الدين. وأعلن الكاردينال برنيس وكان لأمد طويل ذا حظوة لدى المركزية، أن قمع حركة اليسوعيين في فرنسا يرجع أساساً إلى امتناع كهنة الاعتراف اليسوعيين عن منح الغفران لمدام دي بمبادور على الرغم من توكيداتها بأن علاقاتها بلويس الخامس عشر

لم تعد جسدية(49). وردد الملك صدى استيائها: لماذا كان هؤلاء الكهنة متساهلين مع الآخرين، قساة متشددين مع المرأة التي أضاعت جوانب حياته المرهقة الموحشة؟ لماذا كانت تزداد ثروتهم المشتركة على حين كان هو يكافح من أجل الحصول على الاعتمادات اللازمة لجيشه وبحريته في حرب مشؤومة تنذر بكارثة، ومن أجل ملابس عشيقته وأجور تدريبها وإعدادها في "منتدى

صفحة رقم : 12750

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

الطباء". وكان داميين قد حاولوا قتل الملك، ولم يكن لليسوعيين علاقة ظاهرة بهذه المحلولة ولكن كان لداميين كاهن اعتراف يسوعي. ألم يدافع أحد اليسوعيين المتوفين عن فكرة قتل الملك؟ وبدأ الملك يصغي إلى شوازيل وإلى بعض شبه أنصار فولتير في وزارته، ممن قالوا بأن الوقت قد حان لتخليص الدولة من ربة وصاية الكنيسة، وإقامة نظام اجتماعي أخلاقي مستقل عن رجل الدين النزاعيين إلى تعويق انتشار المعرفة، وعن لا هوت العصور الوسطى. وإذا كانت دولة البرتغال الصغيرة الغارقة في الخرافة قد تجاسرت على طرد اليسوعيين فلم لا تقدم فرنسا المستتيرة على مثل هذا؟

وتأثر اليسوعيين بهذه العداوات المختلفة وأشدت الارتياح في أنهم ربطوا بلين فرنسا والنمسا في حرب السنين السبع، ومن ثم فأنهم تعرضوا لكرهية مفاجئة بشكل غريب. وبعد هزيمة الفرنسيين على يد فردريك في روسباخ، وبعد أن وصلت أقدار فرنسا إلى الحضيض وأصبح منظر الجنود المقعدين المشلولين مألوفاً في باريس، بات اليسوعيين هدفاً للنكات والشائعات والافتراءات المشوهة للسمعة حتى إلى حد الاتهام باللوواط(50). واتهموا بالانهماك في متاع الدنيا وبالهرطقة وجمع الثروة وبأنهم عملاء لدولة أجنبية. وأنتقد كثير من رجال الدين غير المنتسبين إلى طوائف لاهوتهم بأنه متحرر مما ينبغي، وإفناءهم في قضايا الضمير والسلوك والأخلاق بأنه مفسدة للأخلاق، وسياستهم بأنها تقوم على ارتداء فرنسا في أحضان روما. وفي 1759 كتب دالمبير إلى فولتير "إن الأخ يرتبته والمتواطين معه لا يجرؤن على الظهور في الشوارع في هذه الأيام خشية أن يلقي الشعب بالبرتقال البرتغالي على رؤوسهم"(51). وكان برلمان باريس أعظم القوى التي انقلبت على اليسوعيين عداً، وكانت هذه الجماعة تتألف من محامين وقضاة يندثرون في أردية كثيبة رهيبة مثل الملابس الكهنوتية، وينتمون إلى طبقة "نبلاء الرداء".

صفحة رقم : 12751

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

إن هذه الأرستقراطية الثانية المنظمة تنظيمياً جيداً، الذرية اللسان كانت ترقى مدارج السلطة والسطوة بسرعة، وكانت متلهفة على تحدي سلطان رجال الدين. وفوق هذا كانت غالبية برلمان باريس من الجانسنيين. وعلى الرغم من كل

القمع عاناه الجانسنيون فإن هذا المذهب المتشدد، وهو نتاج تشدد القديس بولص في مسيحية المسيح وهي أيسر وأخف، اجتذب قطاعات كبيرة من الطبقة الوسطى في فرنسا، وعلى الأخص تلك العقول القانونية التي أحست منطقة، ورأت فيه وقفة قوية ضد اليسوعيين. واتضح الآن بما لا يدع مجالاً للشك أن اليسوعيين هم الذين ألحوا على لويس الرابع عشر لتعقب الجانسنيين إلى حد تدمير بورت رويال تدميراً تاماً، وإكراههم الشديد على قبول المرسوم البابوي البغيض الذي جعل من الجانسنية هرطقة أنكى من الإلحاد. فهل تحين الفرصة للرد على هذا الإيذاء بمثله والانتقام لمثل هذا الاضطهاد!

مهيأ اليسوعيين لبرلمان باريس هذه الفرصة. إنهم لعدة أجيال مضت قد اشتغلوا بالتجارة والصناعة، وسيلة لتمويل معاهدهم اللاهوتية وكلياتهم وبعثاتهم التبشيرية وسياستهم. إنهم في روما احتكروا كثيراً من نواحي الإنتاج والحرف والصناعات. وفي أنجرز بفرنسا أسسوا مصنعاً لتكرير السكر (52)، واحتفظوا بمراكز تجارية في كثير من الأراضي الأجنبية مثل جوا. وكانوا من أغنى المقاولين في مستعمرات أسبانيا والبرتغال في أمريكا (53). وجارت المشروعات الخاصة بالشكوى من هذه المنافسة. حتى أن الكاثوليك الأفاضل تعجبوا كيف أن طائفة نذرت نفسها للتشف مثل اليسوعيين تجمع مثل هذه الثروة. وكان من أنشط رجال الأعمال عندهم الأب انطوان دي لا فالنت Valette الرئيس الأعلى لليسوعيين في جزر الأنتيل الذي أدار باسم الجماعة مزارع واسعة في جزر الهند الغربية واستخدم ألقافاً من مبالغ ضخمة من مصارف مرسلها، ولسداد هذا القرض

صفحة رقم : 12752

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

أرسل فرنسا سفناً محملة بالبضائع التي تقدر قيمتها بمليون فرنك (5 ملايين من الدولارات)، ولكن البوراج الإنجليزية استولت عليها سنة 1755 في مقدمات حرب السنين السبع. وأملأ في تعويض هذه الخسائر اقترضت فالت مبالغ أكبر، ولكنه أخفق وأعلن إفلاسه، وهو مدين بمبلغ 2.400.000 فرنك. وطالب الدائنون بالدفع، وطلبوا إلى جماعة اليسوعيين الاعتراف بمسئوليتها عن ديون لا فالت. ورفض زعماء اليسوعيين زاعمين أنه تصرف بصفة فردية، لا باسم الطائفة، وأقام أصحاب المصارف دعوى على الجماعة فنصحهم الأب فري Fery الخبير السياسي لها في فرنسا بعرض الأمر على البرلمان. وتم هذا في مارس 1761، وتعلق مصير الطائفة بأيدي أقوى أعدائها. وفي الوقت نفسه أرسل أحد اليسوعيين رسالة سرية إلى الملك يوصي فيها بطرد شوازيل من الوزارة بوصفه عدواً للجماعة والدين، ودافع شوازيل عن نفسه بنجاح.

وانتهز البرلمان الفرصة ليقوم بفحص دستور الجماعة وقوانينها ومستنداتها التي تكشف عن تنظيم الجماعة وأنشطتها. وفي 8 مايو أصدر حكماً في مصلحة الشاكين، وأمر الجاعة بتسوية كل ديون لا فالت. فشرع اليسوعيين في عمل بعض التسويات مع الدائنين الأصليين (55). ولكن في 8 يوليو قدم الراهب Terray إلى البرلمان تقريراً عن "المذهب الخلفي والعملي لجماعة اليسوعيين". وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان في 6 أغسطس قراراتين قضى أحدهما بإحراق عدد كبير من مطبوعات اليسوعيين في القرنين السابقين لأنها تعلم مبادئ "بغیضة تدعو إلى سفك الدماء" وتهدد أمن المواطنين والملوك، كما حرم الانضمام إلى عضوية الجماعة بعد الآن في فرنسا. كما قضى بأنه حتى أول إبريل 1762، يجب إغلاق كل مدارس اليسوعيين، اللهم إلا تلك التي تحصل على ترخيص من البرلمان باستمرار الدراسة فيها. أما القرار الثاني فأباح تقديم الشكاوى ضد سوء استخدام السلطة في الجماعة أو بواسطتها. وفي 29 أغسطس أوقف الملك تنفيذ هذين القرارين، ووافق

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

البرلمان على تعطيلها مؤقتاً حتى أول إبريل. وحاول الملك المنزعج الوصول إلى تسوية وسط. وفي يناير 1762 أرسل إلى كليمنت الثالث عشر وإلى لورنزو رتشي رئيس اليسوعيين اقتراحاً بأن تقوض منذ الآن فصاعد كل سلطاته في فرنسا إلى خمسة من القساوسة الإقليميين يقسمون اليمين على طاعة القانون الفرنسي، ومواد قانون 1682 التي أخلت الكنيسة الفرنسية في الواقع من الخضوع للبابا. وفوق ذلك يجب أن تكون المدارس اليسوعية خاضعة لتفتيش البرلمانات. ولكن البابا وريتشي رفضا الاقتراح في شيء من التحدي "فليبق اليسوعيون كما هم أو لا يبقون مطلقاً" (56). ولمصلحة جماعة اليسوعيين أهاب كليمنت رجال الدين الفرنسيين مباشرة. وفي هذا خرق للقانون الفرنسي. ورفض رجال الدين الفرنسيون رسالة البابا وأحيلت إلى الملك الذي أعادها إلى البابا. ودخلت البرلمانات الإقليمية الآن حلبة النزاع وأضافت بعض التقارير التي تلقفتها مزيداً من الاتهامات الموجهة إلى اليسوعيين. وتأثر برلمان رن Rennes في بريناتتي بالتقرير الذي قدمه النائب العام لويس رينيه دي لاشالوتيه في 1761-1762 عن "نظام اليسوعيين" الذي اتهم فيه الجماعة بالهرطقة والوثنية والأعمال غير المشروعة والدعوة إلى قتل الملوك، وأكد أنه لزام على كل يسوعي أن يقسم يمين الطاعة المطلقة للبابا ورئيس الطائفة الذي كان يقيم في روما. وأنه بناء على ذلك تكون الجماعة بمقتضى دستورها خطراً يهدد فرنسا ومليكها، ومن ثم ألح التقرير على أن يكون تعليم الأطفال حقاً مطلقاً للدولة لا مرأى فيه. وفي 15 فبراير 1762 أمر برلمان روان كل اليسوعيين في نورمندي بإخلاء دورهم وكلياتهم وعزل كل المديرين الأجانب، وقبول القانون الفرنسي. وصدرت قرارات مماثلة من البرلمانات في رن، اكس أن بروفانس، بو، برينان، تولوز، وبوردو. وفي أول إبريل أمر برلمان باريس بتنفيذ قراراته ونقل إدارة المدارس اليسوعية في دائرة اختصاصه إلى مديرين آخرين.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

وحاول رجال الدين الذين لا ينتمون إلى طوائف على الرغم من أنهم من الناحية التقليدية يحقدون على اليسوعيين، نقول حاولوا إنقاذهم، ووجهت جمعية من الأساقفة الفرنسيين في أول مايو نداء إلى الملك من أجل هذه الطائفة: التي هي نظام مفيد للدولة... وهم جماعة من المتمسكين بالدين الجديرين بالثناء، لنزاهة أخلاقهم وشدة انضباطهم، واتساع نطاق نشاطهم وعملهم وسعة إطلاعهم وعملهم، والخدمات التي لا تحصى التي قدموها للكنيسة... إن كل شيء يا صاحب الجلالة بناشدك العطف على اليسوعيين.

إن الدين يرى فيهم المدافعين عنه، وترى فيهم الكنيسة خدامها، كما يرى فيهم المسيحيون حراساً على ضمائرهم، إن عدداً كبيراً ممن كانوا تلاميذهم يتشفعون لديك من أجل معلمهم القدامى. وإن كل شباب مملكتك يدعون ويصلون من أجل أولئك اليسوعيين الذين يشكلون عقولهم وقلوبهم. نرجو يا مولاي أن تعير أذنًا صاغية إلى توسلاتنا التي أجمعنا على تقديمها إلى جلالكم (57).

وأضافت الملكة وبناتها والدوفين وغيرهم من حزب المتدينين في الحاشية تضرعاتهم من أجل اليسوعيين. ولكن شوازيل وبمبادور نصحا الملك آنذاك قطعاً بالإذعان للبرلمان وإغلاق المدارس اليسوعية. وذكر لويس بأن عليه أن يفرض ضرائب جديدة، وأن هذا يتطلب موافقة البرلمان. وعلى حين كان الملك متردداً بين هذه النصائح المتضاربة، اتخذ البرلمان خطوات حاسمة. وفي 6 أغسطس 1762 أعلن أن جماعة يسوع لا تلتزم مع قوانين فرنسا، وأن الأيمان التي أقسمها الأعضاء، طغت على ولائهم للملك، وأن خضوع الجماعة لسلطة أجنبية جعل منها هيئة أجنبية داخل دولة مفروض أنها ذات سيادة. وبناء على ذلك أصدر البرلمان أمراً بحل الجماعة في فرنسا، وبتخلي كل الجزويت في بحر ثمانية أيام عن كل ممتلكاتهم في فرنسا، فأعلن أنها صودرت لجانب الملك. وأخر الملك تنفيذ هذا القرار تنفيذاً كاملاً لمدة ثمانية شهور. ورفض

صفحة رقم : 12755

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

برلماناً بيزانسون ودواي الامتثال لهذه القرارات، على حين أطل ثلاثة برلمانات ديجون وجرينوبل ومنتز الجدل والمناقشة كسباً للوقت. ولكن برلمان باريس أصر. وأخيراً في نوفمبر 1764 أمر لويس بوقف نشاط جماعة اليسوعيين وفقاً تماماً في فرنسا. وبلغت قيمة الممتلكات المصادرة نحو 58 مليوناً من الفرنكات (58)، وربما ساعد هذا على موافقة الملك على حل هذه الطائفة. وخصص معاش ضئيل لليسوعيين السابقين، وسمح لهم بالبقاء في فرنسا لبعض الوقت. ولكن في 1767 قرر البرلمان وجوب مغادرة كل اليسوعيين السابقين أرض فرنسا. وتبرأ قليل منهم من الطائفة وبقوا في فرنسا.

وكان رحيلهم موافقاً للنبلاء والطبقة الوسطى والمتقنين ورجال الأدب والجانسنيين، ولكن لم يرق في أعين بقية الأهالي. واستنكر كريستوف دي بومونت رئيس أساقفة تصرفات البرلمان بشدة، وعبرت مجموعة رجال الدين الفرنسيين (1765) بالإجماع عن حزنها وأسفها لحل الجماعة ودعت إلى إعادتها. وأعلن البابا كليمنت الثالث عشر في مرسومه الرسولي براءة اليسوعيين، فأحرق المدعي العام المرسوم في شوارع عدة مدن، على أساس إن البابوات ليس لهم حق مشروع في التدخل في شؤون فرنسا (59). ورحب الفلاسفة في أول الأمر بطرد اليسوعيين باعتباره انتصاراً مشجعاً للفكر الحر. وأورد دالمبير في سرور تعليق جان أستروس العالم الباحث في الأسفار المقدسة، والذي قال فيه "إن الموسوعة، لا الجانسنيين، هي التي قضت على اليسوعيين (60). وزادت الآن بسرعة مطبوعات الفكر الحر. وفي عقد السنين التي تلت عملية الطرد، قارب دي هولباخ ومعاونه حد الإلحاد.

وهما يكن من أمر فثمة تفكير ثان، وهو أن الفلاسفة أدركوا أن الانتصار يرجع إليهم أقل مما يرجع إلى الجانسنيين والبرلمانات، وأن الفكر الحر ترك ليواجه عدواً أشد تعصباً من اليسوعيين بكثير (61). وعبر دالمبير في كتابه "تاريخ القضاء على اليسوعيين" عن ابتهاج يسير بمصيرهم:

صفحة رقم : 12756

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

يقيناً أن العدد الأكبر منهم، الذين لم يكن لهم صوت في إدارة الأمور كان يجدر ألا يتحملوا وزر أخطاء رؤسائهم، إذا كان هذا التفريق بين هؤلاء جانزراً من الوجهة العملية. وهناك آلاف من الأبرياء خلطنا مع الأسف بينهم وبين عشرين شخصاً مذنبين... إن القضاء على جماعة يسوع سيعود بأكبر النفع على العقل، شريطة ألا يرقى تعصب الجانسنيين إلى مستوى تعصب اليسوعيين.

وإذا كان لنا أن نختار بين هاتين الطائفتين، فإننا نؤثر جماعة يسوع التي هي أقل طغياناً وجوراً. فإن الجزويت الذين يخدمون الناس ويتكيفون معهم، شريطة ألا يعلن المرء عداؤه لهم أجازوا للمرء أن يفكر كيفما يشاء. أما الجانسنيون فإنهم يفرضون على كل الناس أن يفكروا كما يفكرون هم. وإذا قدر لهم أن يسودوا لفرضوا على الناس تحكماً شديداً في الأذهان والكلام والأخلاق (62).

وكأنما أراد برلمان باريس الذي سيطر عليه الجانسنيون أن يضرب أمثلة توضح وجهة النظر هذه فأصدر في نفس عام 1762 الذي أمر فيه بحل جماعة يسوع أمراً بإحراق كتاب روسو "إميل القرن الثامن عشر"، وهو كتاب لا يتعارض مع الدين نسبياً. وفي تلك السنة أعدم برلمان تولوز الذي تحكم فيه كذلك، جان كالاس، وأحرق برلمان باريس في 1765 قاموس فولتير الفلسفي. وبعد ذلك بعام واحد ثبت حكم التعذيب والإعدام الصادر على الشاب شيفالبيه دي لا بار من محكمة أبفيل.

وفي 25 سبتمبر 1762 كان دالمبير قد كتب إلى فولتير: "هل تعلم ماذا سمعت عنك بالأمس؟ سمعت أنك بدأت تترثي لحال اليسوعيين، وأنت واقع تحت إغراء الكتابة في مصلحتهم" (63) لقد كان في قلب فولتير دائماً رصيد من شفقة والعطف، والآن وقد بدا أن المعركة ضد جماعة يسوع قد كسبت تماماً فإنه كان يسمع أصواتاً من اللوم والعتاب من معلميه الذين قضوا نحيبهم. وأخذ إلى داره في فرني أحد اليسوعيين السابقين،

صفحة رقم : 12757

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

هو الأب آدم الذي تسلم صدقاته، وغلبه دائماً في الشطرنج. وأحذر فولتير شالوتيه بقوله "احترس حتى لا يوقع الجانسنيون يوماً من الضرر والأذى قدر ما أحدث اليسوعيون... وماذا يفيدني أن أتخلص من الثعالب إذا أسلمتني للذئب" (64). أنه خشي أن يعمد الجانسنيون مثل البيوريتانيين في القرن السابع عشر في إنجلترا إلى إغلاق المسارح، والمسرح كل هوى نفسه الأثير لديه تقريباً، ومن ثم كتب إلى دالمبير "كلن اليسوعيون ضروريين، وكانوا ضرباً من التسلية، وكنا نسخر منهم، أما الآن فسوف يسحقنا المتحذلقون" (65). وكان على استعداد للصفح عن اليسوعيين لمجرد أنهم أحبوا الآداب القديمة والمسرحية (66).

وشاركه صديقه وعدوه فرديريك الأكبر في هذه المشاعر. وسأل الأمير دي لين 1764: "لماذا قضوا على مستودع نفائس أثينا وروما، معلمي الإنسانيات وربما الإنسانية الممتازين، وهم اليسوعيون؟ أن التعليم سيعاني من القضاء عليهم... ولكن حيث أن الأخوة الملوك الأكثر كثلكة ومسيحية وإخلاصاً وإيماناً ورسولية قد طردوهم، فإني وأنا الأكثر هرطقة سأجمع أكبر عدد منهم وأحافظ عليهم" (67).

وعندما أنذر دالمبير بأنه سوف يأسف لهذا الود والطف وذكره بأن اليسوعيين كانوا يعارضون غزوه لسيليزيا أنب الملك الفيلسوف بقوله:

"لا تنزعج من أجل سلامتي. أني ليس لدي ما أخشاه من اليسوعيين، إنهم يستطيعون تعليم شباب البلاد وهم أقدر على ذلك من غيرهم حقاً إنهم كانوا يعارضونني أثناء الحرب، ولكنك بصفتك فيلسوفاً يجدر بك ألا تلوم أحداً لكونه عطوفاً



رحيماً مشرباً بالروح الإنسانية تجاه أي فرد من الجنس البشري مهما كان من أمر دينه أو الجماعة التي ينتمي إليها. حاول أن تكون فيلسوفاً أكثر منك ميتافيزيقياً" (68). وعندما حل البابا كليمنت الرابع عشر جماعة يسوع بأسرها 1773 أبى فرديريك السماح بنشر المرسوم البابوي في مملكته. وظل اليسوعيون يحتفظون بممتلكاتهم وأعمالهم في بروسيا وسيليزيا.

صفحة رقم : 12758

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> سقوط اليسوعيين

ولم تعكر كاترين الثانية صفو اليسوعيين الذين وجدتهم في الجزء الذي استولت عليه من بولندا 1772، وبسطت حمايتها على اليسوعيين الذين دخلوا إلى روسيا فيما بعد. وثابروا وصبروا في جد متواصل حتى عودتهم (1814).

صفحة رقم : 12759

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> التعليم والتقدم

4- التعليم والتقدم

ولكن من ذا الذي يتولى الآن تعليم شباب فرنسا بعد أن ذهب اليسوعيون؟ هنا حدثت فوضى، ولكن حدثت كذلك ثورة وانقلاب في عالم التربية والتعليم. إن شالوتيه وهو بعد متحمس لاتهامه لليسوعيين، وانتهاز الفرصة وقدم لفرنسا رسالة عن التعليم القومي (1763) هلل لها الفلاسفة مرحبين بها. والآن كانت دعواه تقوم على أساس أنه لا يجدر بالمدارس الفرنسية أن تنتقل من أخوة دينية (طائفة) إلى أخرى-على سبيل المثال من طائفة "الأخوة المسيحيين" إلى "طائفة الأوراتوريين". أنه لم يكن ملحداً، إنه على الأقل رحب بتدعيم الدين للفضيلة والأخلاق القويمة، إنه يود تلقينها وإحلالها المحل اللائق بها، ولكنه لا يرضى بسيطرة رجال الدين على التعليم. وسلم بأن كثيرين منهم كانوا معلمين ممتازين لا ينافسهم أحد في صبرهم وجلدهم وإخلاصهم، ولكنه احتج بأن تحكمهم في فصول الدراسة بغلق الأذهان أن عاجلاً أو آجلاً دون الفكر الأصيل، يغرس في نفوس التلاميذ والولاء لدولة أجنبية، ويجب أن تلقن مبادئ الأخلاق مستقلة عن أي مذهب ديني "يجب أن يكون لقوانين الأخلاق الأسبقية على كل القوانين سماوية كانت أو بشرية، وينبغي أن تستمر ولو لم تعلن هذه القوانين الأخيرة مطلقاً" (69). إن شالوتيه كذلك رغب في غرس المبادئ ولكن كذلك أراد تلقين المثل العليا الوطنية (70) "إني

أطالب للأمة بتعليم يعتمد على الدولة وحدها(71)". ويجب أن يكون المعلمون علمانيين، وإذا كانوا كهنة فيجدر ألا يكونوا من المنتمين لطائفة دينية. ويجب أن يكون الغرض من التعليم هو إعداد الفرد

صفحة رقم : 12760

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> التعليم والتقدم

لا السماء بل الحياة، ولا للطاعة العمياء بل للخدمة الممتازة في مجالات المهن والإدارة وفنون الصناعة، ويجب أن تكون الفرنسية لا اللاتينية لغة التعليم، ويجب أن يخصص للغة اللاتينية وقت أقل وللإنجليزية والألمانية زمن أكبر. ويجب أن يشتمل المنهج على قدر كبير من العلوم. ومن أدنى المراحل حتى الأطفال بين سن الخامسة والعاشر يمكن استيعاب مبادئ الجغرافيا والفيزياء والتاريخ الطبيعي. كذلك التاريخ ينبغي أن يكون له مكان أكبر في التعليم المدرسي. "ولكن الذي يعوز في العادة من يكتبون التاريخ ومن يقرئون التاريخ على حد سواء هو الذهن الفلسفي" (72). وهنا قلد شالوتيه فولتير إكليل الغار وشهد له بالسبق في هذا المضمار. وفي المراحل المتأخرة يجب أن يكون ثمة تعليم الفن وتربية الذوق. ويجب توفير الوسائل لتعليم الإناث، ولكن ليس من الضروري تعليم الفقراء، فإن لبن الزراع لن يتعلم في المدرسة خيراً مما قد يتعلم في الحقل، وإن تعليمه شيئاً غير هذا سيجعله غير راضٍ عن طبقته.

وصعق هلفشيوس وترجو وكوندورسيه لهذا الرأي الأخير، ولكن فولتير استحسنه وكتب إلى شالوتيه "أشكرك على تحريم التعليم على العمال. وأنا الذي أزرع الأرض احتاج إلى عمال يدويين لا إلى رجال دين حليقي الرؤوس، أرسل إليّ أخوة جهلة حقاً ليقودوا مركباتي أو يهيئوها للاستخدام" (73). وكتب إلى داميلافيل الذي كان قد اقترح التعليم للجميع "أشك في أن أولئك الذين يكسبون قوتهم باستخدام عضلاتهم يكون لديهم فسحة من الوقت ليتعلموا، وسيموتون جوعاً قبل أن يصبحوا فلاسفة... وليس العامل البدوي هو الذي يجب أن نعلمه بل البرجوازي ساكن المدينة" (74). وفي مواضع أخرى تنازل فأيد تعليم الجميع التعليم الابتدائي، ولكنه كان يأمل في تقيد التعليم الثانوي إلى حد يسمح بترك فئة كبيرة من العمال اليدويين ليقوموا بالأعمال البدنية في المجتمع (75). إن أول مهمة للتعليم في رأي فولتير هي وضع حد للتعليم الكنسي الذي رأى أنه مسئول عن الخرافات التي امتلأت بها عقول الجماهير وعن تعصب الناس.

صفحة رقم : 12761

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> التعليم والتقدم

وبناء على طلب كاترين الثانية 1773 رسم ديدرو "خطة جامعة لحكومة روسيا". واستنكر مثل شالوتيه المنهج التقليدي في عبارات نسمعها نحن اليوم:

"لا يزال يدرس في كلية الآداب لغتان ميتين لا يستخدمهما إلا نفر قليل من المواطنين، وهاتان اللغتان تدرسان لمدة ست أو سبع سنوات دون أن يحفظا. وتحت اسم البلاغة يدرس فن الكلام قبل فن التفكير، وتحت اسم المنطق يملأ الرأس بتفاصيل دقيقة من أرسطو... وتحت اسم الميتافيزيقيا تبحث نقاط تافهة معقدة تضع أساس التشكك والتعصب كليهما. وهناك تحت اسم الفيزياء نزاع لا حد له حول المادة ونظام العالم دون كلمة واحد عن التاريخ الطبيعي (الجيولوجيا والميولوجيا). أو عن الكيمياء وعن حركات الأجسام وجاذبيتها. وهناك تجارب قليلة جداً. ولا تزال الدراسة التشرحية قليلة وليس هناك جغرافيا(76).

ونادى ديدرو بسيطرة الدولة على التعليم وبمعلمين مدنيين، ومزيد من العلوم. فينبغي لأن يكون التعليم عملياً يخرج الزراعيين والفنيين المتخصصين والأفراد العلميين والمديرين. ويجب ألا تدرس اللغة اللاتينية إلا بعد سن السابعة عشرة، ويمكن حذفها كلية إذا لم يتطلع الطالب إلى استخدامها. ولكن لا يمكن أن يكون الإنسان أديباً دون معرفة باليونانية واللاتينية(77). وحيث أن العبقرية قد تظهر في أية طبقة فينبغي أن تكون المدارس مفتوحة أمام الجميع دون أجر، ويجب أن يقدم الطعام للفقراء ويزودوا بالكتب بالمجان(78).

وإذ هوجمت الحكومة الفرنسية على هذا النحو فأنها جاهدت لتقادي توقف التعليم نتيجة كطرد اليسوعيين، وخصصت الممتلكات المصادرة من الطائفة إلى حد كبير لإعادة تنظيم المدارس الخمسمائة في فرنسا. وجعلت هذه المدارس جزء من جامعة باريس. وحولت كلية لويس الأكبر إلى مدرسة للمعلمين لتدريب المدرسين، وحددت الرواتب على أساس بدا معقولاً.

صفحة رقم : 12762

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> التعليم والتقدم

وأعفى المدرسون من الضرائب البلدية ووعدهم بمعاش تقاعد عند انتهاء الخدمة. وقبل البنكتيون والأورتوريون والأخوة المسيحيون الانخراط في سلك المعلمين، ولكن الفلاسفة شنوا حملة أحدثت أثراً يذكر. وظل المذهب الكاثوليكي جزءاً هاماً في المنهج ولكن العلوم والفلسفة الحديثة بدأت تحتل مكان أرسطو والاسكولاسيين (الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى)، وحاول بعض المدرسين المدنيين أن ينقلوا أفكار الفلاسفة(79). وأنشئت المعامل في الكليات مع أساتذة للفيزياء التجريبية، وفتحت المدارس الفنية والحربية في باريس والأقاليم. وكانت ثمة تحذيرات كثيرة بأن خطة الدراسة الجديدة ستعمل على تحسين العقول لا الأخلاق. وقد تضعف الفضيلة والانضباط وتؤدي إلى الثورة(80).

ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة بنوا آمالهم للمستقبل على إصلاح التعليم. إنهم بصفة عامة اعتقدوا بأن الإنسان خير طيب بالطبيعة، وأن بعض انحرافات زائفة أو شريرة كهنوتية أو سياسية هي التي أفسدته، وكل ما ينبغي عليه أن يفعله هو أن يطهر نفسه من الخداع والبدع ويعود إلى "الطبيعة" التي لم يحددها أحد بعد تحديداً مرضياً. وهذا كما سنرى كان لب الموضوع عند روسو. وقد لحظنا إيمان هلفشيوس "بأن التعليم يمكن أن يغير كل شيء"(81). وحتى فولتير المتشكك نفسه ذهب في بعض الحالات إلى أننا جنس من القردة يمكن أن يتعلم أن يتصرف عقلاً أو غير عقلاً(82). وأصبح الإيمان بإمكانات التقدم لا حدود لها عن طريق تحسين التعليم والتوسع فيه أحد التعاليم الهامة في الديانة الجديدة. إن السماء واليوتوبيا هما اللونان المتنافسان للذات يحومان حول بئر المصير والقدر فإذا هبط أحدهما صعد الآخر، والأمل يرفع الواحد منهما أو الآخر إلى أعلى كل بدوره. وربما إذا صعد كلا الدولين خالياً وهنت المدنية وبدأت تقنى.

وفي 11 ديسمبر 1750 صاغ ترجو العقيدة الجديدة في محاضرة في السوربون بعنوان "الخطوات المتعاقبة إلى الأمام في الذهن البشري":

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> التعليم والتقدم

"إن الجنس البشري إذا تأملناه من القدم يبدو لعين الفيلسوف كالأطراف، له مثل الكائن الفرد مرحلة طفولته وتقدمه... فتصبح آداب السلوك أكثر رقة وتهذيباً والذهن أكثر تنوراً، وتتقارب بعضها من بعض الأمم التي كانت آنذاك منعزلة، وترتبط التجارة والعلاقات السياسية أركان الكرة الأرضية بعضها ببعض، ويستمر الجنس البشري بأسره فيما بين تقلبات الهدوء والعاصفة وتقلبات الأيام حلوها ومرها في مسيرته قدماً، ولو بخطى وثيدة نحو كمال يقرب منه يوماً (83). ووافق فولتير على هذا متردداً، فهو يقول:

"قد نؤمن بأن العقل والصناعة سوف تتقدمان أكثر فأكثر، وتحسن الفنون الناقصة. وأنه من بين الشرور والمساوئ التي تنتاب بني الإنسان ستختفي شيئاً فشيئاً الحزازات بين من يحكمون الأمم، ولو أن تلك الحزازات ليست أقل الكوارث، وأن الفلسفة بانتشارها على أوسع نطاق سيكون فيها عزاء لأرواح البشر عن المصائب التي يتعرضون لها في كل العصور (84)".

ورحب الفيلسوف المحتضر بتولي تروجو زمام السلطة في 1774 لأنه ليس لديه ثقة بالجماهير. وتعلقت آماله باستنارة الملوك. إننا لا نستطيع تعليم الرعاع والغوغاء كما كان يسمى عامة الناس-لأنهم منهوكون بالكد والكدر قبل أن يتعلموا التفكير. ولكن في مقدورنا أن نعلم قلة تقترب من الذروة فيعلمون الحاكم أو الملك. أن حلم "المستبدين المستنيرين" هذا باعتبارهم قادة مسيرة الجنس البشري، كان رسالة الملكية "المحفوفة بالمخاطر التي بنى عليها معظم الفلاسفة رؤيتهم للتقدم، وكان لديهم هواجس كثيرة تنذر بالثورة، ولكنهم أوجسوا منها خيفة أكثر مما رغبوا فيها. ووثقوا أن العقل قد يكسب الطبقة الحاكمة إلى جانبه، وأن الوزراء والحكام قد يستمعون إلى صوت الفلاسفة وينفذون الإصلاحات التي تحول دون الثورة، وتسير بالجنس البشري على طريق السعادة ومن ثم رحبوا بإصلاحات فردريك الثاني، واغتفروا أثم كاترين الثانية. ولو أنهم عاشوا لابتهجوا

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> التعليم والتقدم

بجوزيف الثاني في النمسا. وما ثقتنا في الحكومة إلا أنها ذاك الأمل ينبعث من جديد؟

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> الأخلاقيات الجديدة

## 5- الأخلاقيات الجديدة

بقيت مشكلة معلقة مرهقة. بكتب البقاء لدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعي بالأمال والمخاوف الخارقة للطبيعة (الجنة والنار)؟ هل يمكن الاحتفاظ بأخلاق شعبية عامة دون إيمان شعبي عام في أصل للقانون الأخلاقي، وإيمان باله بصير بكل شيء، إله يثيب ويعاقب؟ إن الفلاسفة (فيما خلا فولتير) زعموا أن هذه الدوافع ليست مطلوبة للأخلاق. ومع التسليم بأن هذا قد يصدق بالنسبة للقلّة المثقفة، فهل يصدق بالنسبة للباقيين؟ وهل كانت أخلاق القلّة المثقفة صدى أخلاقياً للإيمان الذي فقده، وللتربية الدينية التي تلقوها؟ وقامر الفلاسفة بفعالية الأخلاق الطبيعية. وكانت الشكوك تخامر فولتير فيها، ولكن ديدرو ود المبير وهلفشيوش ودي هولباخ ومايلي، وترجو، وغيرهم دافعوا عن أخلاق يمكن أن تكون مستقلة عن اللاهوت، أخلاق قوية إلى حد الصمود أمام تقلبات العقيدة أو الإيمان. وكان بيل قد مهد الطريق بمحاولة التذليل على أن الملحد قد يكون على خلق مثل المؤمنين تماماً، ولكنه كان قد عرف الأخلاق بأنها عادة الانسجام مع العقل، وافترض أن الإنسان حيوان عقلائي، كما أنه قد ترك العقل دون تعريف. وهل يكون المجتمع أو الفرد حكماً على ما هو معقول؟ وإذا اختلف المجتمع والفرد، فماذا غير القوة يكون لها القول الفصل بينهما؟ وهل يكون النظام الاجتماعي مجرد صراع بين تنفيذ القانون والتملص منه؟ وهل تحصى الفضيلة أو الأخلاق القويمة فرص الكشف فحسب؟ أن ف. ف. توسان F. V. Toussin كان قد شرح الأخلاق الطبيعية في كتابه "العادات والأعراف" (1748)، وكان أيضاً قد عرف الفضيلة بأنها "الدقة والأمانة في الوفاء بالالتزامات التي يفرضها العقل" (85)، ولكن كم من الناس يستطيعون التفكير، أو كم من الناس فكر بالفعل إذا كان هذا في مقدرته؟ ألم يتشكل

صفحة رقم : 12766

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> الأخلاقيات الجديدة

الخلق (الذي يحدد الفعل) قبل أن بنمو العقل؟ ألم يكن العقل مطية أقوى الرغبات؟ تلك كانت بعض المشاكل التي واجهت الأخلاق الطبيعية.

وقبل معظم الفلاسفة شمولية حب الذات مصدراً أساسياً لكل الأفعال الإرادية أو الواعية، ولكنهم آمنوا بأن التعليم والتشريع والعقل قد تعمل كلها على تحويل حب الذات إلى تعاون متبادل ونظام اجتماعي. إن دالمبير بنى في ثقة الأخلاق الطبيعية على:

"حقيقة واحدة لا تقبل الجدل هي حاجة الناس بعضهم إلى بعض، والالتزامات المتبادلة التي تفرضها تلك الحاجة وإذ نسلم بهذا إلى حد كبير، فإن كل القوانين الأخلاقية تستتبعه في تسلسل منتظم لا مناص منه ولا يمكن تفسيره. ولكل المشاكل المتعلقة بالأخلاق حل فوري في قلب كل منا، وهو حل قد تروغ منه أو تتحايل عليه أحياناً أهواؤنا

وعواطفنا، ولكنها لا تقضي عليه مطلقاً. وحل كل مسألة بعينها يؤدي... إلى جذر الأساسي وهذا بطبيعة الحال هو مصلحتنا الذاتية وهي المبدأ الأساسي في كل الالتزامات الأخلاقية (86).  
وتبين لبعض الفلاسفة أن هذا يتطلب هيمنة العقل بصفة عامة في الناس عموماً-أي مصلحة ذاتية "مستتيرة" إلى حد كاف لتري اختيار النفس (الاختيار الذاتي) في صورة كبيرة إلى حد يسمح بالتوفيق بين أنانية الفرد وخير الجماعة. ولم يشارك فولتير في هذه الثقة في ذكاء الأنانية وبدا له التعقل عملية استثنائية، ولأثر أن يؤسس الأخلاق على وجود غيرية (حب الغير) مستقلة عن حب الذات، واستمد هذه الغيرية من شعور بالعدالة بثه الله في الناس. واتهمه الأخوة بأنه يسلم القضية للدين.  
ومذ افترض الفلاسفة شمولية حب الذات فإنهم بصفة عامة خلصوا إلى أن السعادة هي الخير الأسمى، وأن كل اللذات مجازة مسموح بها إذا كانت لا تؤذي الجماعة أو الفرد نفسه.  
وجرياً على أساليب الكنيسة دبح جريم ودي هولباخ ومابلي وسانت

صفحة رقم : 12767

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> الأخلاقيات الجديدة

لامبير كتيبات تفسر الأخلاقيات الجديدة. ووجه سانت لامبير كتيبه "التعاليم الشاملة" إلى الأطفال في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة:

س- ما هو الإنسان؟

ج- كائن له شعور وعقل.

س- إذا كان هذا الكائن على ما تصف، فماذا يجب عليه أن يفعل؟

ج- يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم.

س- أليس هذا هو حب الذات؟

ج- أنه النتيجة اللازمة له.

س- هل يوجد حب الذات في كل الناس بقدر سواء؟

ج- نعم، لأن كل الناس يهدفون إلى حفظ الذات وإلى تحقيق السعادة.

س- ماذا تفهم من السعادة؟

ج- حالة مستمرة نجد فيها لذة أكثر مما نعاني ألماً.

س- ماذا يجب علينا أن نفعل لنبلغ هذه الغاية (الحالة)؟

ج- يجب أن نهذب عقولنا ونفعل ما يملئنا علينا العقل.

س- ما هو العقل؟

ج- معرفة الحقائق التي تقضي إلى سعادتنا ورفاهيتنا.

س- إلا يفودنا حب الذات دائماً إلى كشف تلك الحقائق والعمل بمقتضاها؟

ج- كلا، فليس كل الناس يعرفون كيف يمارسون حب الذات.

س- ماذا تعني بهذا؟

ج- أعني أن بعض الناس يمارسون ممارسة حقة وبعضهم يمارسونه ممارسة خاطئة.

س- من هم هؤلاء الذين يمارسون حب الذات ممارسة صائبة؟

صفحة رقم : 12768

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> الأخلاقيات الجديدة

ج- هم الذين يحاولون أن يعرف بعضهم بعضاً ولا يفصلون سعادتهم عن سعادة الآخرين(87).

وركز الفلاسفة في أخلاقهم العملية على ذكرياتهم عن الأخلاقيات المسيحية. فأحلوا محل عبادة الله مريم والقديسين- هي العباد التي عاونت بطريق غير مباشرة للجنس البشري. أن الراهب سان بيبير اقترح لفظة جديدة لفضيلة قديمة-



البر والإحسان التي نترجمها ترجمة ضعيفة -وقصد بها العون الجاد المتبادل والتعاون مع الآخرين في أعمال الخير والبر المشتركة. ومع هذا أكد الفلاسفة كذلك على الإنسانية، أي التحلي بالروح الإنسانية وحب الخير العام، ولهذه جذورها وأصولها في تانية الوصايا التي أعلنها السيد المسيح. ولا بد أن رينال حين دمع قسوة الأوربيين مع السود والهنود (في الشرق والغرب) بأنها عمل غير إنساني، وعرف أن أسقفاً أسبانياً هو لاس كاساس قد سبقه إلى هذا الاتهام في عام 1539. وكلن التحمس الجديد لمساعدة الفقراء والمساكين والمرضى والمظلومين كان يرجع أساساً إلى الفلاسفة. وفوق كل شيء إلى فولتير. أن إصلاح القانون في فرنسا يرجع إلى حملاته المتواصلة. وأشتهر رجال الدين الفرنسيون بالصدقات ولكنهم آنذاك مارسوا رؤية الأخلاق العملية في المسيحية يبشر بها الفلاسفة ويدعون إليها بنجاح يذكر. ونمت الأخلاقيات أكثر استقلالاً وانفصالاً عن الدين، وفي مجالات الروح الإنسانية والعطف والتسامح وحب البشر والعمل على تعزيز السعادة الإنسانية والسلام انتقل الأمر من أساس لاهوتي إلى علماني أو دنيوي، وأثرت على المجتمع بشكل لم يعهد له مثيل من قبل.

وحين واجه الفلاسفة المشكلات الأخلاقية التي ولدتها الحرب، تحاشوا التهدة على حين كانوا ينصحون بالسلام، وأقر فولتير الحروب الدفاعية ولكنه دلل على أن الحروب عملية سلب ونهب، وأنها تؤدي إلى ضعف وفقير المنتصر والمنهزم على حد سواء، وأنها تجلب الغنى والثراء إلى نفر قليل

صفحة رقم : 12769

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> الأخلاقيات الجديدة

من الأمراء ومقاولي الحرب والعشيقات الملكات، واحتج على غزو فردريك لسيليزيا، وربما كان يعيه في ذاكرته حين شرح في مقال غاضب عن "الحرب" في القاموس الفلسفي يرتضي كيف الضمير الملكي العدوان: "إن أجد علماء الأنساب يثبت لأحد الأمراء أنه ينحدر مباشرة من سلالة كونت عقد أبواه ميثاقاً عائلياً منذ ثلاثة أو أربعة قرون مع بيت لم تبق منه حتى الذكرى، وكان لهذا البيت بعض الحقوق المزعومة في الإقليم... إن الأمير ومجلسه يلمسون حقه على الفور. وهذا الإقليم الذي يبعد عنه لا بعدة مئات من الفراسخ، يحتج عبثاً بأنه لا يعرفه (أي الأمير) وأنه لا يرغب في أن يكون تحت حكمه وأنه لكي يسن القوانين لشعب هذا الإقليم يجب على الأقل الحصول علة موافقتهم ورضاهم. إن الأمير يحشد على الفور عدداً كبيراً من الرجال الذين لن يخسروا شيئاً، ويزودهم بالملايس الزرقاء الخشنة... ويأمرهم بالالتفاف يمناً ويسرة ويتقدم إلى ساحة المجد".

وعلى الرغم من ذلك نصح فولتاير كاترين الثانية بامتنشاق الحسام لطرد الأتراك من أوربا، وكتب مرثية وطنية للضباط الذين ماتوا من أجل فرنسا في 1741، وبارك انتصار الجيش الفرنسي في فوننتوي.

ونبذ الفلاسفة القومية والوطنية على أساس أن هذه الأحاسيس والعواطف تعمل على تضيق مفهوم الإنسانية والالتزامات الخلقية، وأنها جعلت من السهل على الملوك أن يقودوا شعوبهم إلى الحرب. وشجبت مقالة "الوطنية" في القاموس الفلسفي "الوطنية" باعتبارها أنانية ضيقة الأفق. إن فولتير توسل إلى الفرنسيين أن يخفوا من بتفاخرهم بسمو اللغة والأدب والفن والحرب، وذكرهم بأخطائهم وجرائمهم ونقائصهم (88). وكان مونتسكيو وفولتير وديدرو وكالمبير في فرنسا كما كان لسنج وكانت وهردر وجيته وشيلر في ألمانيا، أوربيين طبيين ثم بعد ذلك فرنسيين أو ألمان. وكما أن ديانة واحدة ولغة واحدة كانتا قد أنشأتا "العالمية" في غرب أوربا في العصور الوسطى، فكذلك نمت العالمية في القارة نتيجة لانتشار اللغة والثقافة الفرنسيين.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> الأخلاقيات الجديدة

وتحدث روسو في 1755 عن تلك "الأدهان العالمية التي تهمل الحواجز التي أقيمت لتفصل بين الأمم بعضها عن بعض، والذين مثل الذات العلية التي خلقتهم يحتضنون الجنس البشري بأسره في نطاق النزعة إلى عمل البر والخير(89). وفي مكان آخر كتب في مبالغة ملحوظة "لم يعد هناك فرنسي ولا ألماني... هناك فقط أوربيون"(90) ولم يصدق هذا على النبلاء ورجال الفكر، ولكن في هذه الطبقات امتدت الروح العالمية من باريس إلى نابلي وبطرسبرج. وحتى في زمن الحرب اختلط الأدب بإضرابهم ممن هم في طبيقتهم عبر الحدود، فقد رحب المجتمع الباريسي بهيوم وهوراس وولبول وجيبون وأدم سميث، بينما كانت فرنسا مشتبكة في جرب مع إنجلترا. وأحس الأمير دي ليلن أنه في وطنه وعشيرته في كل عاصمة أوربية تقريباً. والجنود أنفسهم كان لديهم شيء من هذه النزعة العالمية. قال فرديناند دوق بنزويك "أنه لمل يشرف كل ضابط ألماني أن يخدم تحت لواء فرنسا"(91) وكانت في الجيش الفرنسي كتيبة بأكملها "الكتيبة الملكية الألمانية" مكونة من الألمان. ووضعت الثورة الفرنسية حداً لهذه النزعة العالمية في التوافق الشديد في العادات والعقول، وتضاءلت هيمنة فرنسا، وازدادت الروح القومية. وهكذا نجد الثورة الفكرية التي كانت إلى حد ما نتيجة رد فعل أخلاقي ضد قساوات الآلهة والكهنة قد انتقلت من نبد اللاهوت القديم إلى أخلاق قائمة على أخوة عالمية اشتقت من أجمل جوانب العقيدة التي طرحت جانباً. ولكن المشكلة هي هل يمكن لقانون أخلاقي لا يسانده ويدعمه الدين أن يحتفظ بنظام اجتماعي؟ وهي مشكلة باقية دون حل، وهي لا تزال تواجهنا. أننا نعيش هذه التجربة الحرجة الدقيقة.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> تراجع الديانة

6- تراجع الديانة

وفي الوقت نفسه، حتى الآن، بدا الفلاسفة وكأنهم كسبوا المعركة ضد المسيحية. أن المؤرخ النزيه إلى حد الإعجاب هنري مارتن وصف شعب فرنسا في 1762 بأنه جيل ليس لديه أي إيمان بالمسيحية"(92). وفي 1770 قال المحامي العام سيجويه Siguier في تقرير له:

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> تراجع الديانة

"سعى الفلاسفة بإحدى اليدين أن يشلوا العرش، وباليد الأخرى أن يقلبوا المذابح (أن يهدموا الكنائس). وكان غرضهم أن يثيروا الرأي العام ضج النظم المدنية والدينية. وهذا الانقلاب على حد قولهم قد بدأ بالفعل. فإن التاريخ والشعر والقصاص بل حتى القواميس قد تسربت إليها عدوى التسمم بالتشكك وعدم التصديق. ولا تكاد كتاباتهم تنشر قبل أن تظغى على الأقاليم مثل السيل الجارف، وامتدت العدوى إلى المصانع والأكوخ" (93).  
وكانما كان إيضاحاً لهذا التقرير أن يجمع سليفان ماريشال في 1771 "قاموس الملحد" الذي توسع فيه بتضمينه ابيلابوكاشيو والأسقف بيركلي (94). وفي 1775 أعلن رئيس أساقفة تولوز أن "الإلحاد الرهيب البشع أصبح الرأي السائد" (95). وذهبت مدام دي ديفان إلى أن الإيمان بالمعجزات المسيحية أصبح خامداً مثله في ذلك مثل التصديق بالأساطير اليونانية (96)، وبقي الشيطان ضرباً من لغو الكلام، والجحيم أضحوكة (97). وأزعج علم الفلك الجديد رب اللاهوت في الفضاء وكانما يتراجع عن الفضاء مع ارتياد الكواكب في زماننا هذا. وفي 1756 تحدث توكفيل عن ضعف الثقة في الإيمان الديني الذي انتاب الناس في أواخر القرن الثامن عشر (98).  
لقد بولغ في كل هذه التصريحات والبيانات، وربما قيلت وباريس والطبقات العليا والمتقفة مائلة في أذهان ناشريها. إن حكم لكي Lecky أكثر تميزاً وتحديداً حيث يقول: إن الكتب والنشرات المعادية للمسيحية عبرت عن الآراء وأثبتت المطالب عند جمهور الطبقات المتعلمة. وتغاضى كل موظفي الإدارة في مصالح الحكومة جميعاً عن انتشارها وتداولها، أو أقل أنهم رحبوا بهذا وذلك (99). وظل عامة الفرنسيين متعلقين بعقيدة العصور الوسطى سلوى وعزاء لحياتهم الكادحة المرهقة، فلم يقبلوا المعجزات القديمة فحسب بل الجديدة كذلك ووجد الباعة المتجولون سوقاً رانجة للتماثيل الصغيرة التي تمثل معجزات العذراء (100). وكانت التماثيل والمخلفات تحمل في المواكب بغية تفادي الكوارث العامة أو وضع حد لها وزوالها. وازدحمت الكنائس حتى

صفحة رقم : 12773

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> تراجع الديانة

في باريس أيام الأعياد الكبرى في السنة الدينية، ودوت أجراس الكنائس بالترانيم في المدينة تدعو الناس إليها. وكانت "الأخوات" الدينية تضم أعضاء كثيرين وبخاصة في مدن الأقاليم. وأكد سيرفان لدى لمبير حين كتب إليه من جرينوبل (1767): "قد تدهش أيها الأخ لتقدم الفلسفة في هذه المناطق الهمجية غير المتمدينة". وفي ديجون كان هناك ستون مجموعة من الموسوعة، ولكن تلك كانت حالات استثنائية، وبقيت البرجوازية الإقليمية في جملتها مخلصاً للكنيسة.

وفي باريس وصلت الحركة الجديدة إلى كل طبقة. وكان العمال يزداد عداؤهم للكنيسة، وكانت المقاهي قد طردت الرب منذ زمن بعيد.

وروى أحد النبلاء كيف أن حلاقه قال له وهو يصف شعره "أنت ترى يا سيدي أنني شخص مسكين تافه، ولكني مع ذلك لم يعد لي دين مثل أي إنسان آخر" (101). وواصل نساء الطبقة الكادحة عبادتهن القديمة واستخدمن مسابحن في شغف زائد. أما السيدات العصرييات الأنيقات فقد اتبعن أسلوب الفلاسفة على أية حال، واستغنين عن الدين إلى حد

كبير، وأرسلت كل منهن تقريباً في طلب القسيس حتى تأكدن من دنو الأجل. وكانت معظم الصالونات الكبرى تتبع الفلاسفة. واحتقرت مدام دي ديفان هؤلاء الرجال، ولكن مدام جيوفرين رحبت بهم في أمسياتها، حتى اكتظت بهم ماندتها. وتكاثروا حول الأنسة لسبيناس وتصدر جريم صالون مدام ابينايا، ووصف هوراس وولبول الجو الفكري للصالونات في 1765 فقال:

"هناك إله وهناك ملك يجب القضاء عليهما. والرجال والنساء جادون في تدميرهما. أنهم يظنونني دنساً لأن لدي بقية من إيمان(102)... والفلاسفة لا يطاقون، وهم سطحيون متغطرسون متعصبون، إنهم لا ينقطعون عن التبشير والدعوة، وهم يجهرون بالإلحاد، وقد لا تصدق مبلغ صراحتهم، فلا تعجب إذن إذا عدت أنا يسوعياً(103).

صفحة رقم : 12774

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> تراجع الديانة

وعلى الرغم من ذلك اختارت الأكاديمية لعضويتها تسعة من الفلاسفة في الانتخابات الأربعة عشر التي جرت فيما بين عامي 1760 وفي 1772، وجعلت دالمبير سكرتيرها الدائم. والتهمة النبلاء في ابتهاج مشوب بالعداء للدين كل ما قدمته لهم العقول القوية. وقال لاموث لانجون "كان الإلحاد سانداً إلى حد بالغ في المجتمع الراقي، وكان الإيمان بالله دعوة إلى حماقة والسخف وانتشر الكفر والبعد عن الدين بين الأرستقراطية بعد 1771(105). وكانت دوقة دانفيل ودوقات دي شوازيل وجرامونت ومونتسيون ونسي روبيبات. وارتبط رجال من ذوي المناصب الرفيعة في الحكومة مثل شوازيل وروهان وموريباس وبوفو وشوفيلين بأوصر الود والصداقة مع دالمبير وترجو وكوندورسيه. وفي الوقت نفسه أوضح الفلاسفة لفرنسا أن النظام الإقطاعي جاوز عمر الفائدة المرجوة منه، وأن الامتيازات الوراثية جور متحجر طال عليه الزمن، وأن صانع الأحذية الطيب خير من لورد ميذر لا يصلح لأي عمل، وأن كل السلطة مستمدة من الشعب.

وسرت العدوى حتى إلى رجال الدين. وفي 1769 قاس تشامفورت درجة تززع الإيمان لدى رجال الدين تبعاً لتسلسل مراتبهم الكنيسة: "يجب أن يؤمن القسيس قليلاً، أما وكيل الكنيسة فيبتسم لأية قضية تثار ضد الدين، ويسخر الأسقف دون تحفظ، ويضيف الكاردينال ملاحظة بارعة أو نكتة ساخرة من عنده(106). وعدد ديدرو ودي هولباخ مجموعة كهنة متشككين من بين أصدقائهم. وكان القسوسة تورني وفوشيه، وموري، ودي بولوني "من بين أكثر من يرددون آراء الفلاسفة"(107). وأنا لنسمع عن "جماعة القساوسة ذوي العقول الناضجة" وبعض هؤلاء الكهنة الأذكاء كانوا ربربيون، كما كان بعضهم ملحدين-عاد مسلييه إلى الحياة. إن المركيز دي شاستلوكس أبلغ بريستلي حين كان يتناول العشاء مع ترجو 1774 "إن السيدين الجالسين أمامه هما أسقف أكس ورئيس أساقفة

صفحة رقم : 12775

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> تراجع الديانة

تولوز، ولكنهما ليسا أكثر إيماناً منك ومني، وأكدت له أنني مؤمن. وأبلغني مسيولي روى الفيلسوف أنني أنا الوحيد المدرك الواعي الذي عرف أنه مسيحي" (108).

وكان الإلحاد بعض الأصدقاء حتى في الأديار. وتجنباً للفضيحة والعامية كان دوم كولينيون يسمح لعشيقته بأن تكونا معه على المائدة حين يكون الضيوف الآخرون من الأصدقاء الموثوق بهم. ولكل يكن يسمح لطائفة الرسولين أن تتدخل في ملذاته، ولكنه اعتبر الديانة نظاماً جديراً بالإعجاب للحفاظ على الأخلاق عند العامة (110). وتحدث دييرو (1769) عن يوم قضاه مع راهبين: "قرأ أحدهما المسودة الأولى لرسالة حديثة قوية جداً عن الإلحاد، زاهر بالأفكار الجديدة الجريئة. وعلمت في شيء من الدهشة أن هذه هي النظرية السائدة في أديارهم. وبالنسبة للبقية كان هذان الراهبان نموذجاً فذاً للأديار. وكانا يتحليان بالتفكير والمرح والانبهاج وحسن النية والمعرفة (110).

ويروي لنا مؤرخ كاثوليكي غيور أنه في أواخر القرن الثامن عشر كان قد حل شعور بالاحتقار، مبالغ فيه، ولكنه عام شامل، في كل مكان، محل التبجيل الذي كانت الأديار الكبرى قد بنته في العالم الكاثوليكي (111).

إن ازدياد التسامح نتج أساساً من تدهور الإيمان الديني. فمن السهل أن نكون متسامحين إذا كنا غير مكترئين. إن نجاح فولتير في قضيتي كالاس وسيرفنس حرك عدداً من حكام الأقاليم إلى مطالبة الحكومة المركزية بتخفيف القوانين ضد البروتستانت، وتم هذا بالفعل ولم تلغ قوانين الهرطقة ولكنها كانت تطبق بشيء من الاعتدال. وترك الهيجونوت في سلام كما كان فولتير قد اقترح، وأبدى برلمان تولوز ندمه، بتطبيق مبدأ التسامح إلى حد أزعج الملك (112). وأصدر بعض الأساقفة مثل فيتر جيمس أسقف سواسون 1757 رسالة كهنوتية يدعو فيها كل المسيحيين إلى اعتبار الناس أخوة (113).

صفحة رقم : 12776

قصة الحضارة - عصر فولتير - الهجوم على المسيحية - انتصار الفلاسفة - تراجع الديانة

وأضفى فولتير على الفلاسفة شرف هذا الانتصار، فكتب إلى دالمبير 1764 "أن الفلاسفة وحدهم هم الذين إلى حد ما هذبوا سلوك الناس، وإنه لولاهم لشهدنا مذبحتين أو ثلاثاً من مثل مذبحه سانت برتلمي في كل قرن (114). وينبغي أن نلاحظ مرة أخرى أن الفلاسفة أنفسهم كانوا أحياناً متعصبين، أن دالمبير ومارمونتيل حرصاً ما لشرب على كبح جماح فيرون (1757) (115)، وطلب إليه دالمبير أن يقيم الدعوة القضائية على بعض نقاد الموسوعة (1757)، وحثته مدام هلفشيوس على إسكات صحيفة كانت قد عرضت بكتاب زوجها "الذكاء" 1768. وفي بعض المناسبات توسل فولتير إلى السلطات لإيقاف حملات التشهير بجماعة الفلاسفة والطعن فيهم والسخرية منهم (116). وبقدر ما كان التشهير حقيقياً - أي افتراء مؤذياً - فقد كان لتوسلاته ما يبررها.

وكان ثمة عوامل أخرى غير الفلسفة لنشر التسامح، فإن الإصلاح الديني على الرغم من أنه أقر التعصب، خلق فرقاً وشيخاً كثيرة. كان بعضها قوياً إلى حد الدفاع عن نفسه، إلى درجة أن التعصب نادراً ما تجاوز حد الكلام. وكان على هذه الشيع والفرق أن تتجادل وتقرع الحجة بالحجة، وقبلت اختبار العقل كارهة، ورفعت من شأنه. إن ذكرى الحروب "الدينية" في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وما نتج عنها من خسائر اقتصادية، حولت كثيراً من الزعماء الاقتصاديين والقادة السياسيين إلى التسامح. ووجدت بعض مراكز التجارة مثل همبرج وأمستردام ولندن، أنه من الضروري أن تصبر على مختلف المذاهب والعقائد التي يعتنقها زبائنهم الذين يتعاملون معهم. إن ازدياد قوة الدولة القومية جعلها أكثر استقلالاً عن الوحدة الدينية باعتبارها وسيلة للاحتفاظ بالنظام الاجتماعي، وانتشار التعرف على مختلف المدنيات والثقافات أضعف ثقة كل عقيدة في احتكارها للإله، وفوق كل ذلك جعل تقدم العلوم من العسير على العقيدة الدينية أن تصل إلى القساة والهمجية مثل محاكمات محكمة التفتيش أو إعدام

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> تراجع الديانة

السحرة. وتقبل الفلاسفة بسرور معظم هذه التأثيرات في دعاباتهم من أجل التسامح واستدعوا بحق أن بعض الفضل في الانتصار، وكان مقياس نجاحهم أنه بينما في النصف الأول من القرن الثامن عشر كان دعاة الهيجونوت لا يزالون يعلقون على أعواد المشانق في فرنسا، حدث في 1776 أو 1778 أن دعا ملك كاثوليكي سويسرياً بروتستانتياً لإنقاذ الدولة.

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> الخلاصة

#### 7- الخلاصة

هكذا انتهى كما بدأنا، إذ نرى أن الفلاسفة واللاهوتيين-لا المحاربين والدبلوماسيين-هم الذين كانوا يحاربون معركة القرن الثامن عشر الحاسمة. وأنا كنا على حق في تسمية هذه الحقبة "عصر فولتير". قال كوندورسيه "إن الفلاسفة من مختلف الأمم، إذ اعتنقوا في تأملاتهم المصلحة العامة لبني البشر كونوا كنيية قوية متحدة ضد أي وصف للخطأ أو أي لون من الظلم والطغيان(117)، وكانت على أية حال كنيية متحدة. وسنرى روسو يتخلى عن الحياة والسلطان، وكان يحاول التوفيق بين الفلسفة والدين. ولكنه كان حقاً صراعاً من أجل النفس الإنسانية. ونتائج بارزة بيننا اليوم. وفي هذا الوقت ترك فولتير فرني لانتصاره في باريس (1778). إن الحركة التي كان قد قادها أصبح لها الغلبة في السيطرة في مجال الفكر في أوروبا ووصفها فريرون عدوها اللدود بأنها "مرض العصر وحماقته(118)". وهرب اليسوعيون وولي الجانسينيون الأدبار، وتغيرت كل نغمة المجتمع الفرنسي. ونهج كل كاتب في فرنسا تقريباً نهج الفلاسفة، وسعى إلى كسب رضاهم. وباتت الفلسفة تحت مئات العنوانات والآف الشفاه، "إن عبارة مديح من فولتير أو دييرو أو دالمبير كانت أثنى وأعظم قيمة من نيل الحظوة عند أي أمير ومن عطفه(119). ووقعت الصالونات والأكاديمية الفرنسية، بل حتى وزراء الملك نفسه، أحياناً، تحت تأثير الفلاسفة. واحتال الزوار الأجانب على الدخول إلى الصالونات طمعاً في لقاء مشاهير الفلاسفة والاستماع إلى حديثهم، حتى إذا عادوا إلى بلادهم نشروا الأفكار الجديدة. وهاهو ذا هيوم، على الرغم من أنه استبق فولتير في كثير من

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; انتصار الفلاسفة -&gt; الخلاصة

أرائه، نراه ينظر إليه على أنه استاذ معلم. وبعث روبرتسون إلى فرني بكتابه القيم "شارل الخامس" وكان تشستر فيلد وهوراس وولبول وجاريك من بين المرسلين الكثيرين لفولتير في إنجلترا. وأسهم سمولت وفرانكلين وغيرهما في إعداد ترجمة إنجليزية لمؤلفات فولتير في سبعة وثلاثين مجلداً لنشرها في إنجلترا (1762). وفي أمريكا تأثر مؤسسو الجمهورية الجديدة تأثراً عميقاً بكتابات الفلاسفة. أما في ألمانيا فيمكنك أن تستمع إلى ملاحظات جوته إلى اكرمان في 1820 و1831:

"ليس لديك فكرة عن مبلغ تأثير فولتير ومعاصريه عليّ في شبابي، وكيف تسلطوا على ذهن العالم المتحضر بأسره... إنه يبدو لي أنه شيء رائع عجب حقاً أن ترى أي رجال هؤلاء الذين ظهروا في ميدان الأدب في فرنسا في القرن الأخير. وكم تتولاني الدهشة لمجرد النظر في هذا. إنها حركة التحول في أدب عمره قرن من الزمان، والذي كان أخذاً في النمو منذ عهد لويس الرابع عشر حتى أبع الأن وأثمر وأتى أكله. (120)

وشارك الملوك والملكات في التهليل والتصفيق لفولتير، وتاهوا عجباً بأنهم في عداد أتباعه. وكان فرديريك الأكبر من أوائل من أدركوا أهميته. والآن في عام 1767 عبد ثلاثين عاما من التعرف عليه في كل معايب شخصيته وكل توقد ذهنه، هلل فرديريك للانتصار في الحملة ضد الرجس والعار. وقوضت أركان صرح الخرافة من أساسها. "وستدون كل الأمم في حولياتها أن فولتير كان هو الذي أحدث هذا الانقلاب الجاري الآن في الروح الإنسانية في القرن الثامن عشر" (121). وشاركت كاترين الثانية قيصرية روسيا وجوستاف الثالث ملك السويد في هذا التملق. ومما لا نزاع فيه أن الإمبراطور جوزيف الثاني كان مديناً بفضل روح إصلاحاته للفلاسفة، ولو أنه يعلن عن نفسه بمثل هذه الصراحة. وتسلم المعجبون مقاليد السلطة في ميلان وبارما ونابلي ومدريد، وكلها بلدان كاثوليكية. وفي 1767 لخص جريم الموقف بقوله: (إني ليسرني أن أشهد جمهورية مترامية الأطراف

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; الهجوم على المسيحية -&gt; انتصار الفلاسفة -&gt; الخلاصة

من ذوي العقول المثقفة تتكون في أوروبا. إن الاستتارة تنتشر في كل مكان) (122).

إن فولتير نفسه وقد قهر في نفسه التشاؤم الذي يصاحب كبار السن، نراه يردد نغمة الانتصار: (إن العقول الراجحة المشكلة تشكياً حسناً كثيرة الآن، وهي تنصدر الأمم وتؤثر في سلوك الجماهير. وأن التعصب الذي طغى في الأرض لينحسر سنة بعد سنة جوراً كريمة. وإذا لم تعد الديانة الآن تثير الحروب الأهلية فأننا مدينون بهذا للفلسفة وحدها. وبدأ الناس ينظرون إلى الصراعات الدينية وكأنها عرض في مسرح العرائس في السوق. إن العقل الذي يبسط سلطانه وحكمه، ينسف في كل لحظة أي جور بغيض مؤذ قائم على الخداع والاحتيال من جهة، وعلى الغباء من جهة أخرى) (123).

ولنوف الرجل حقه. أننا قد بعد معرفتنا بتطرفات الثورة وإسرافها وبرد الفعل الذي تلاها، بأن الفلاسفة (باستثناء فولتير) كانت لديهم ثقة متفائلة في الطبيعة البشرية، وأنهم انتقصوا الآن من قوة الغرائز التي تولدت في آلاف السنين من عدم الشعور بالأمن ومن الوحشية والهمجية، وأنهم بالغوا في قوة التعليم لتنمية العقل ضابطاً متحكماً إلى حد كاف في هذا الغرائز، وأنهم عموا عن مطالب الخيال والعاطفة، وصمت أذانهم عن صيحات المقهورين التماساً لعزاء الإيمان، ولم يقيموا كبير وزن للتقاليد والنظم التي أنتجتها قرون من التجربة والخطأ، وأقاموا وزناً كبيراً للعقل الفردي الذي هو في أحسن الظروف نتاج لحياة قصيرة ضيقة محدودة. وإذا كانت هذه تقديرات خاطئة خطيرة فإنها لم تتأصل في مجرد زهو أو غرور فكري، ولكن تأصلت كذلك في طموح واسع الأفاق في إصلاح البشر وتحسن أحوالهم. إننا مدينون لفلاسفة القرن الثامن عشر - وربما للفلاسفة الأكثر عمقاً في القرن السابع عشر - بالحرية النسبية التي ننعّم بها في الفكر والكلام والعقائد، كما أننا مدينون لهم بالفضل في تضاعف عدد المدارس والمكتبات

صفحة رقم : 12781

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> الهجوم على المسيحية -> انتصار الفلاسفة -> الخلاصة

والجامعات، وفي مئات من الإصلاحات الإنسانية في القانون والحكومة، وفي معالجة الجريمة والعلل والأدواء والأمراض العقلية. ونحن مدينون لهم ولإتباع روسو بفضل الاستئثار العظيم للذهن التي أنتجت أدب القرن التاسع عشر وعلومه وفلسفته، وفن الحكم وإدارة شؤون الدولة فيه. وبسببهم استطاعت دياناتنا أن تتحرر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكنيسية واللاهوت الذي يبتهج بالتعذيب، كما يمكنها أن تولي ظهورها لمعوقات التقدم والاضطهاد، وتبين الحاجة إلى عطف متبادل من مختلف نواحي جهلنا وآمالنا. وبسبب هؤلاء فإننا هنا الآن نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل، ولو مع شيء من اللوم. إننا إذا توقفنا عن تمجيد فولتير وتكريمه سنكون غير جديرين بالحرية.

صفحة رقم : 12782

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

خاتمة في الفردوس

(شخصاً الحوار البابا بندكت الرابع عشر وفولتير)



(المشهد: مكان في ذاكرة البشر الشاكرة)

بندكت: إني سعيد برويتك هنا يا سيدي، فعلى الرغم من أنك أذيت كثيراً الكنيسة التي قدر لي أن أكون على رأسها طيلة ثمانية عشر عاماً، فقد أحسنت صنعاً بشن الحملة على آثام الكنيسة وأخطائها والمظالم التي أخزتنا جميعاً في عصرك.

فولتير: أنت الآن كما كنت في حياتك أرق الباباوات حاشية وأكثرهم صفحاً. وإذا كان كل خادم من خدم الله مثلك لتحققت من أن آثام الكنيسة هي خاصية طبيعية في الإنسان، وليقبت أجل وأحترم هذا النظام العظيم. وإنك لتذكر أنني لمدة خمسين عاماً احترمت اليسوعيين.

بندكت: أذكر ذلك، ولكنك اشتركت في الهجوم عليهم في نفس الوقت الذي كانوا قد خفضوا فيه من دساتيرهم السياسية، وكانوا يقفون فيه بشجاعة ضد فسق الملك ومجونه وإباحيته.

فولتير: كان جديراً بي أن أعرف أكثر من أن أقف إلى جانب الجانسينيين في تلك القضية.

بندكت: حسناً أنت ترى الآن أنك أيضاً قد تخطئ مثل البابا. والآن وقد وجدتك معتدل المزاج، دعني أحدثك لماذا بقيت أنا مخلصاً للكنيسة التي تخليت أنت عنها.

فولتير: أن هذا يشوقني كثيراً.

بندكت: أخشى أن أرهقك لأنني سأطيل الحديث، ولكن تذكر كم ألفت أنت من مجلدات.

صفحة رقم : 12783

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

فولتير: كثيراً ما ناققت نفس لزيارة روما، وكم كان يسعدني أن نتحدث إليّ.

بندكت: وكثيراً ما رغبت في التحدث إليك. ويجدر بي أن اعترف بأني تمتعت بذكائك وبراعتك، ولكن تألق ذكائك هو الذي ضللك. من العسير أن تكون مثلاً بارعاً ومحافظاً، إنه لا يروق العقول النشيطة كثيراً أن تقف إلى جانب التقاليد والسلطة، وهناك ما يغريها بالنقد. حيث يمكن أن تشعر بلذة النزعة الفردية والإبداع والجدّة، ولكن في الفلسفة يكاد يتعذر أن يكون الإنسان أصيلاً إلا إذا كان مخطئاً. وإني لأتحدث إليك، لا بصفتي كاهناً أو رجل لاهوت، ولكن بصفتي فيلسوفاً يتحدث إلى فيلسوف.

فولتير: أشكرك، لقد كان هناك كثير من الشك في كوني فيلسوفاً.

بندكت: لقد كنت حصيماً، فلم تصطنع منهجاً جديداً. ولكنك ارتكبت خطأ فاحشاً أساسياً.

فولتير: ما هو؟

بندكت: ظننت أنه من الميسور لذهن واحد على مدى حياة واحدة أن يكتسب هذا القدر من المعرفة وعمق التفكير، مما يجعله صالحاً لينصب نفسه حكماً على حكمة الجنس البشري كله-على تقاليد ونظم شكلتها خبرة الناس وتجربتهم عبر القرون. فالتقاليد بالنسبة للجماعة هي بمثابة الذاكرة للفرد. وكما أن أي خلل في الذاكرة قد يؤدي إلى الجنون، فإن أية مخالفة مفاجئة للتقاليد قد تنزلق بالأمة بأسرها إلى هاوية الجنون، مثل فرنسا في الثورة.

فولتير: أن فرنسا لم تصب بالجنون، ولكنها ركزت في عقد من السنين على تراكم من استياء وغيظ أثناء قرون من الظلم الجور، فضلاً عن ذلك فإن "الجنس" الذي نتحدث عنه ليس "ذهناً"،

صفحة رقم : 12784

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

بل هو مجموعة وتسلسل لأفراد غير معصومين من الخطأ، وليست حكمة الجنس إلا مجموعة مركبة من أخطاء الأفراد وحسن تبصرهم، وماذا حدد أي العناصر من هذا الحطام من الأفكار سينتقل إلى الأقباب والذراري ويسترعي انتباه الزمن؟

بندكت: إن نجاح الأفكار في تجارب الجماعات والأمم هو الذي حدد البقاء لبعض الأفكار وفناء الباقي. فولتير: لست متأكد، فربما كان التحيز متسربلاً ثياب السلطة هو الذي حدد في كثير من الحالات أي أفكار يجب الاحتفاظ به، وربما منعت الرقابة ألفاً من الأفكار الطيبة من الدخول إلى تقاليد الجنس البشري. بندكت: أظن أن خلفائي فكروا في الرقابة وسيلة لمنع انتشار الأفكار التي قد تقوض الأساس الأخلاقي للنظام الاجتماعي، والمعتقدات المؤثرة التي تساعد الناس على احتمال أعباء الحياة وأني لأسلم بأن مراقبين قد ارتكبوا أخطاء جسيمة مثل ما حدث مع جاليليو-ولو أني أرى أنا كنا أكثر اعتدالاً معه مما سول أتباعك لكثير من الناس أن يعتقدوا.

فولتير: قد تكون تقاليد إذن خاطئة ظالمة وتكون حجر عثرة في سبيل تقدم التقاهم. وكيف يتقدم الإنسان إذا حرم مناقشة التقاليد؟

بندكت: ربما كان علينا أن نناقش التقدم أيضاً. ولكن فلنطرح هذه المسألة جانباً الآن مؤقتاً. أعتقد أنه يجدر بنا أن نناقش التقاليد والنظم مع حرصنا على ألا نهدم أكثر مما نبني، ومع الحذر من أن الحجر الذي نزعزعه من مكانه لا يكون ضرورياً لتدعيم ما نريد الإبقاء عليه. على أن نعي دائماً حقيقة متواضعة، تلك هي أن خبرة الأجيال قد تكون أفضل وأحكم من العقل فرد عابر. فولتير: ومع ذلك فالعقل أجل نعمة أنعم الله بها علينا.

صفحة رقم : 12785

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

بندكت: لا، الحب هو أكبر نعمة. أنا لا أريد الانتقاص من قيمة العقل ولكن يجب أن يكون خادم الحب لا خادم الغرور والزهو.

فولتير: أنا غالباً ما سلمت بهشاشة العقل وسهولة انقياده. أنا أعلم نزوعه إلى إثبات كل ما توحى به رغباتنا. أن صديقي البعيد ديدرو كتب في مكان ما أن حقائق الشعور أكثر ثباتاً من حقائق العرض المنطقي(1). إن المتشكك الحقيقي لا بد أن يرتاب في العقل أيضاً. وربما بالغت أنا في العقل لأن ذلك الرجل المجنون روسو بالغ في الوجدان. وفي رأيي أن إخضاع العقل للوجدان أشد خطراً من إخضاع الوجدان للعقل.

بندكت: إن الإنسان، مل إنسان، محتاج إليهما كليهما في تفاعلهما. ولكني الآن أتساءل هل لك أن تصاحبني إلى خطوة أبعد؟ ألا تتفق معي في أن أنصع معرفة مباشرة هي معرفتنا أننا موجودون وأنا نفكر؟

فولتير: حسناً؟

بندكت: إذن نحن نعرف الفكر بطريق مباشر أكثر مما نعرف أي شيء آخر.

فولتير: عجيب! أعتقد أننا نعرف الأشياء قبل أن تتحول إلى أنفسنا وننتبين أنا نفكر.

بندكت: ولكن اعترف أنك حين تنظر إلى نفسك تدرك حقيقة مختلفة تمام الاختلاف عن المادة التي تميل أحياناً إلى أن تختزل إليها كل شيء.

فولتير: أنا أشك في هذا، ولكن استمر.

بندكت: واعترف أيضاً بأن ما تراه حين تنظره في داخل نفسك هو بعض من واقع الاختيار ومن حرية الإرادة.

فولتير: أنت تتطلق بسرعة. أيها الأب، لقد اعتقدت يوماً بأنني نعمت

صفحة رقم : 12786

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

بدرجة معتدلة من الحرية، ولكن المنطق أرغمني على قبول القضاء والقدر.

بندكت: أي أنك أخضعت ما أدركت مباشرة لما انتهيت إليه مت عملية تكبير طويلة مزعومة.

فولتير: أنا لم استطع أن أدحض آراء صانع العدسات الصغير العنيد سبينوا. هل قرأت له؟

بندكت: بالطبع قرأت. إن البابا ليس مقيداً بقائمة معينة من الكتب المهذبة.

فولتير: أنت تعرف أننا اعتبرناه ملحداً.

بندكت: يجدر بنا ألا نخلع النعوت والألقاب بعضنا على بعض. أنه كان محبباً إلى نفسي، ولكنه كان مكتئباً إلى حد لا يطاق. أنه رأى الله بطريقة شاملة إلى حد لم يترك مجالاً للشخصية الإنسانية. أنه كان متديناً مثل أوغسطين، وقديماً عظيماً مثله.

فولتير: إنني أحبك يا بندكت. أنك أرحم به مني.

بندكت: فلنتابع حديثنا، أسألك أن توافق على أن الفكر والوعي والإحساس بالشخصية عي أعظم الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر.

فولتير: حسناً. هذا مسلم به.

بندكت: وعلى هذا أشعر بأنني نحق في رفض المادية الإلحاد والجبرية. فكل منا روح والديانة تبنى على هذه الحقيقة.

فولتير: فلنسلم بكل هذا، فكيف نجيز تلك المجموعة الضخمة من السخافات التي أضيفت إلى مذهب الكنيسة قرناً بعد قرن؟

بندكت: أنا أعلم أن هناك سخافات كثيرة وأشياء كثيرة لا تصدق، ولكن الناس كانوا يتصايحون من أجلها، وفي كثير من الأحيان نجد الكنيسة في تقبلها لهذه الأعاجيب، كانت تخضع للمطلب العام

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; خاتمة في الفردوس

الواسع الانتشار، وإذا أنت انتزعت من الناس المعتقدات التي نجيز لهم اعتناقها، فأنهم سيعتقون أساطير وخرافات لا ضابط ولا حصر لها. أن الديانة المنظمة لن تخترع خرافة، بل تحول دونها. اقض على أية ديانة منظمة فسيحل محلها هذه المتاهة من الخرافات المخلة التي تنشأ ضعفاً على أبالة في المسيحية وتزيد في جراحها. ومع ذلك ففي العلم أشياء لا تصدق أكثر منها في الديانة. هناك شيء أبعد على التصديق من الاعتقاد بأن حالة بعض سديم بدائي هي التي حددت وفرضت كل سطر في رواياتك؟

فولتير: وما بالك بحكايات القديسين عبر القابليين للاحتراق حين يلقي بهم في النار، وحكاية القديس الذي ضرب عنقه ومشى ورقبته في يده، وحكاية مريم التي رفعت إلى السماء-أنا لم أهضم هذه الحكايات كلها. بندكت: أن معدتك كانت ضعيفة دائماً. إن الناس لا يجدون فيها شيئاً عسيراً لأن هذه الحكايات جزء من عقيدة تساند حياتهم ويجدون فيها بعض العزاء. وهذا هو السبب في أنهم لن يعيروك أدناً صاغية طويلاً، حيث أن أنفاس حياتهم لا تتوقف على الإصغاء إليك-وهكذا ففي الصراع بين الإيمان والكفر، فإن الإيمان يكسب المعركة دائماً. أنظر كيف تكسب الكتلة غرب ألمانيا، وتستعيد فرنسا الكافرة، وتسود أمريكا اللاتينية، ويشند عودها في أمريكا الشمالية، حتى في أرض الحجيج والبيوريتانيين. فولتير: أنا أرى أحياناً، أيها الأب أن ديانتم تستعيد مكانتها، لا عن طريق صدق عقيدتكم، ولا عن طريق الجاذبية في أساطيركم، ولا بفضل استخدامكم البارع للمسرحية والفن، ولكن

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; خاتمة في الفردوس

بفضل تشجيعكم الدقيق بشكل شيطاني للإخصاب بين الناس عندكم. وأعتقد أن معدل النكاثر هو العدو رقم 1 للفلسفة، نحن نتناسل في القاعدة ونموت في القمة. وخصوبة السداجة تهزم حدة الذكاء. بندكت: أنت تخطئ إذا اعتقدت أن معدل النكاثر هو سر نجاحنا. فإن شيئاً أعمق من هذا بكثير موجود ضمناً. هل أخبرك لماذا يعود كل الأذكيا في كل أنحاء العالم إلى حظيرة الدين؟ فولتير: لأنهم تعبوا من التفكير.

بندكت: لا، ليس هذا تماماً، إنهم اكتشفوا أن فلسفتكم ليس لها جواب إلا الجهل والبأس. ويدرك العقلاء أن كل المحاولات فيما أسماه أختكم "الأخلاق الطبيعية" أخفقت. وقد نتفق أنت وأنا على أن الإنسان ولد وفيه غرائز تميل إلى النزعة الفردية تكونت في آلاف السنين من الظروف والأحوال البدائية، وأن غرائزه الاجتماعية ضعيفة نسبياً، وأن شريعة قوية من الأخلاق والقوانين مطلوبة لترويض هذا الفوضوي بالطبيعة، وتحويله إلى مواطن عادي مسالم. إن علماء اللاهوت عندنا أسماوا هذه الغرائز التي تنسم بالنزعة الفردية "الخطيئة الأصلية الأولى" الموروثة عن "آبائنا الأولين"، أي أولئك الناس المرهقين الذين لا يخضعون لقانون، المعرضين دائماً للخطر، الصيادين الذين كان

لزاماً عليهم أنت يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد للقتال والقتل من أجل الطعام أو الرفاق، وأن يكونوا مولعين بالاكْتساب والمشاركة، وأن يكونوا قساة إلى حد العنف، لأن أي نظام اجتماعي ساد بينهم، كان لابد أن يظل ضعيفاً، ولكن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم في الأمن على حياتهم وممتلكاتهم.

صفحة رقم : 12789

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

فولتير: أنت لا تتحدث كما يتحدث البابا؟  
بندكت: قلت لك أنه ينبغي علينا أن نتحدث كما يتحدث الفلاسفة. فالبابا أيضاً يمكن أن يكون فيلسوفاً، ولكن عليه أن يعبر عن نتائج الفلسفة لا بلغة مفهومة للناس فحسب، بل بلغة خلفة بالتأثير على عواطفهم وسلوكهم. نحن مقتنعون- والعالم كله يعود إلينا لأنه يعلم بأنه ليس ثمة قانون أخلاقي من وضع الإنسان بشكل صريح معترف به، يمكن أن يؤثر بدرجة كافية حتى يضبط ويتحكم في الدوافع غير الاجتماعية في الرجل الطبيعي. إن الناس عندنا محكومون في حياتهم الأخلاقية-ولو أن هذا لا يلتئم مع الجسد-بقانون أخلاق تعلموه وهم أطفال في طور التشكيل، باعتباره جزءاً من دينهم، واعتباره من عند الله لا من عنديات الإنسان. أنت تريد أن تحتفظ بالأخلاق وتنبذ اللاهوت، ولكن اللاهوت هو الذي جعل الأخلاقيات تستقر في أعناق النفس. ويجب أن نأخذ القانون الأخلاقي على أنه جزء لا يتجزأ من الإيمان الديني الذي هو أئمن ما يمتلك الإنسان، لأنه عن طريق هذا الإيمان وحده نكتسب الحياة معنى ومنزلة سامية تعزز وجودنا وتضفي عليه شرفاً ونبلاً.  
فولتير: وعلى هذا ابتدع موسى أحاديثه مه الله.  
بندكت: إن الذهن الناضج لا يوجه مثل هذا السؤال.  
فولتير: أنت على حق تماماً.  
بندكت: إني أغفر لك تهكمك الفطير غير الناضج. إن حمورابي وليكورغوس (مشرع إسبرطة في القرن التاسع ق.م) ونوما وبومبليوس كانوا بالتأكيد على حق في أن يضعوا للأخلاق أساساً دينياً حتى لا تنهار تحت الضربات المتواصلة من أقوى غرائزنا، وأنت نفسك قبلت هذا حين تحدثت عن إله يثيب ويعاقب؛ إنك

صفحة رقم : 12790

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

أردت أن يتمسك خدمك بالدين، ولكنك ظننت أن أصدقائك يمكن أن يعيشوا بلا دين.  
فولتير: ما زلت أرى أن الفلاسفة يمكن أن يستغنوا عن الدين.

بندكت: كم أنت ساذج! هل الأطفال أهل للفلسفة؟ هل يستطيع الأطفال أن يفكروا ويتأملوا؟ إن المجتمع مؤسس على الأخلاقيات، وهذه مؤسسة على الشخصية، والشخصية تتكون زمن الطفولة والشباب. قبل أن يكون العقل موجهاً ومرشداً بزم طويل. وينبغي أن نغرس الفضيلة في الفرد حين يكون صغيراً مطوعاً غرض الأهاب، حيث تكون الفضيلة والأخلاقيات قوية إلى حد يسمح بمقاومة نزاعه المشربة بروح الفردية. بل حتى تفكيره الفردي. أخشى أن تكون قد بدأت تفكر بسرعة. والعقل عمل فردي أساسي، وإذا لم تحكمه وتضبطه الأخلاق فإنه يمكن أن يمزق مجتمعاً إرباً.

فولتير: إن بعض أحسن الرجال في عصري وجدوا أن العقل فضيلة وأخلاقيات كافية.  
بندكت: كان هذا قبل أن يتغلب العقل القائم على النزعة الفردية والزمن على آثار الديانة. إن نفرأ قليلاً من الناس مثل سبينوزا وبيبل ودي هولباخ وهلفشيوس قد يكونون قد عاشوا حياة طيبة بعد تخليهم عن دين آبائهم، ولكن من يدرينا أن فضائلهم لم تكن نتيجة تعليمهم الديني؟

فولتير: كان هناك المئات من الناس المعاصرين لي، ممن كانوا خليعين محتقرين على الرغم من تعليمهم الديني وعقيدتهم الكاثوليكية، مثل الكاردينال دييوا ولويس الخامس عشر.  
بندكت: الذين كتبت عنهم مديحاً يثير الأشمزاز.

صفحة رقم : 12791

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

فولتير: وا حسرتاه! نعم، كنت مثل بعض رهبانكم، استخدمت بعض حيل وخذع تقية لأصل إلى ما شعرت بأنه غايات طيبة.

بندكت: مهما يكن من أمر، فليس ثمة شك في أن هناك آفاً من الناس ممن يستمسكون بالعقيد القويمة، حتى وممن يواظبون على كل الطقوس، يمكن أن يكونوا آثمين خطائين ومجرمين عريقين في الإجرام. إن الدين ليس علاجاً معصوماً من الخطأ للجريمة، إنه ليس إلا مجرد عون في المهمة الشاقة، مهمة تمدين الإنسان. وأنا لنعتقد أن الناس بدون الدين يمكن أن يكونوا أسوأ بكثير مما هم.

فولتير: ولكن تلك الفكرة رهيبية، فكرة الجحيم، حولت الإله إلى غول بشع أشد قسوة من أي مستبد غاشم في التاريخ.  
بندكت: أنت تمقت هذه الفكرة، ولكنك إذا عرفت الناس معرفة أكثر وأفضل، لأدركت أنه يجب إرهابهم بالمخاوف العقاب. إن رأس الحكمة مخافة الله. وعندما فقد أتباعك هذا الخوف بدعوا بتدهورون ويفسدون. إنك كنت محتشماً معتدلاً نسبياً في فسقك وفجورك، وكان ثمة شيء جميل في علاقاتك الطويلة بمدام دي شاتيليه، ولكن علاقاتك مع ابنة أختك كانت شائنة مخزية. ولم تجد شيئاً يستحق اللوم في سلوك صديقك الفاجر الداعر الدوق دي ريشيليو.

فولتير: وكيف كان يمكن أن ألومه؟ إذن لتعرضت قروصي للخطر.  
بندكت: أنت لم يمتد بك زمنك لترى كيف أن الإلحاد قارب أن يجعل من الإنسان أحقر حيوان. هل قرأت المركز دي ساد؟ أنه في نشو الثورة الفرنسية نشر ثلاث قصص (2) أوضح فيها أنه لو لم يكن

صفحة رقم : 12792

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

هناك إله لكان كل شيء مباحاً اللهم إذا كشف وكلاء القانون أمره. وأشار إلى أن الكثير من الأشرار الخبثاء تزدهر أحوالهم في الدنيا، وكثيراً من الطيبين الفضلاء يعانون ويشقون، وعلى ذلك فإنه إذا لم يكن هناك جنة أو نار، فليس ثمة معنى في أن نكون طيبين لنسئ إلى ملذاتنا. وانتهى إلى أنه إذا لم تكن تلك الإرادة حرة فليس هناك مسئولية أخلاقية، وليس هناك خير أو شر، بل هناك فقط ضعفاء وأقوياء والخير هو الضعيف، والضعف هو الشر، حتى ولو كان لما يجد القوي لذة في استغلال الضعيف ما يبررها. وحاول أن يثبت أن القسوة أمر طبيعي وأنها غالباً ما تكون سارة مرضية. وهكذا أقر كل ضروب اللذة، بما في ذلك أخط ألوان الانحراف وأبغضه، حتى بدا في آخر الأمر أن الخير الأعظم يكمن في إيقاع الألم وتلقيه، أسلوباً من أساليب اللذة الجنسية. فولتير: كان لزاماً أن يضرب هذا الرجل بالسوط حتى يموت. بندكت: نعم إذا استعطت الإمساك به. أما إذا لم تستطع؟ فكر في الجرائم التي لا تحصى والتي ترتكب في كل يوم، والتي لا تكتشف والتي تفلت دون عقاب مطلقاً، إنه من الضروري أن يكون هناك قانون أخلاقي يمنع الناس من الإضرار حتى لو أحسوا أنهم في مأمن من كشف أمرهم. فهل يكون عجباً أن "عصر فولتير" أبعد العصور عن الأخلاق وأكثرها فساداً في التاريخ..؟ أنا لن أذكر شيئاً عن "عادتك" ولكن فكر في الملك "ومنتدى غزلانه" وفي الأدب الداعر الفاجر الذي كان يطبع بكميات كبيرة ويتداول على أوسع نطاق، ويتلفه الناس حتى النساء على شرائه. إن هذا الزاد الطائش، والإثارة الجنسية تصبحان طوفاناً فاجراً في أزمان الكفر وأرضه.

صفحة رقم : 12793

## قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

فولتير: يجب أن تعلم يا صاحب القداسة أن الغريزة الجنسي قوية جداً حتى عند بعض الباباوات، وأنها لا بد أن تجد متنفساً على الرغم من أي قانون. بندكت: وبسبب قوة تلك الغريزة فإنها تحتاج إلى ضوابط وقيود خاصة، لا إلى تشجيع قطعاً. وهذا هو ما دعانا إلى محاولة حصرها في حدود الزواج المنظم، وعملنا كل ما في وسعنا لجعل الزواج المبكر حيز الإمكان. إنكم في مجتمعاتكم الحديثة تجعلون الزواج متعذراً للجميع اللهم إلا الطائشين المسرفين، أي ما بعد الوصول إلى مرحلة النضج الجنسي بزم طويل. ومع ذلك تجعلون كبح جماح الغريزة الجنسية أمراً شاقاً عسيراً بالنسبة لهم بإثارة خيالهم الجنسي وشهوتهم الجنسية في كل لحظة بالأدب والمسرح، بدعوى حرية الصحافة والمسرح. فولتير إن شبابنا لا يضارون كثيراً بحريتهم. بندكت: أظنك مخطئاً. إن الرجل الذي تعود على الاختلاط الجنسي غير المشروع قبل الزواج نادراً يكون زوجاً أميناً مخلصاً، والمرأة التي تقرط في عرضها قبل الزواج لن تكون زوجة أمينة إلا من قبيل الاستثناء، وهكذا نساق إلى إباحة الطلاق بشروط يسيرة. إننا نجعل من الزواج سرّاً مقدساً رهيباً وهداً بطول الصبر والأمانة مدى الحياة، ولكنكم تجعلون منه عقد عمل يحق لأي من الطرفين أن يفسخه، أثر شجار عابر تطلعاً إلى رفيق أصغر سناً أو أكثر ثراءً. إن كل بيت مفتحة الآن أبوابه كلها، الأمر الذي يدعو إلى الانفصال ويشجع عليه. ووقع نظام الزواج في حالة من فوضى التقارب المؤقت التجريبي، مما يشكل كارثة للنساء ويقوض أركان النظام الأخلاقي.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; خاتمة في الفردوس

فولتير: ولكن الزواج بوحدة فقط أمر غير طبيعي وغير محتمل، أيها الأب العزيز. بندكت: وإن أي كبت للغريزة أمر غير طبيعي، ومع ذلك يستحيل قيام المجتمع دون الكثير من هذه القيود، وأعتقد أن الرجل أو المرأة مع رفيق (زوج) واحد و عدة أطفال أسعد من رجل أو امرأة مع عدة رفاق وطفل واحد. وكيف ينعم رجل بالسعادة وقد طلق زوجته التي فقدت جمالها في الحمل وفي تربية أبنائه، حين أثاره وجه جديد وقوام رشيق؟ فولتير: ولكن بتحريمك الطلاق يجب أن تتسامح مع الزنى المنتشر انتشاراً واسعاً في الأقطار الكاثوليكية. بندكت: نعم نحن ضعفاء مجرمون. نحن ضعفاء بسبب الفكر والتخلي عن الإيمان، وربما كان الزنى أفضل من الطلاق، لأنه يهيئ في الظاهر بيتاً متحداً آمناً للأبناء، وينطوي على ارتباك وتشويش أقل للأسرة. ولكني أشعر بالخلج لأننا لم نجد حلاً أفضل.

فولتير: أنت رجل مؤمن مخلص أيها الأب، إنني لأنتازل عن كل ما أملك إذا قدر لي أن أشاركك إيمانك وطيبة نفسك. بندكت: ومع ذلك فمن الصعب إقناعك. وإنني ليتولاني اليأس أحياناً من كسب الرجال الأذكيا اللامعين أمثالك، من تحرك أعلامهم مليوناً من الأنفس وتوجهها نحو الشر أو الخير. ولكن بعض أتباعك يفتحون أعينهم على الحقيقة المرة الرهيبة. فإن فقايع التقدم انفجرت في قرن شهد مزيداً من قتل الرجال والنساء بالجملة. ومزيداً من اجتياح المدن وتخريبها، ومن تحجر القلوب وفسادها، أكثر من أي قرن آخر في التاريخ. إن التقدم في المعرفة والعلم ووسائل الراحة والقوة ليس تقدماً في الوسائل،

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; خاتمة في الفردوس

وإذا لم يكن ثمة تحسين في الغايات والأغراض أو الرغبات فلن يكون التقدم إلا وهماً وخداعاً. إن العقل يعمل على تحسين الوسائل ولكن الغايات تحدها الغرائز التي تنتشل قبل المولد وتتكون قبل نمو العقل.

فولتير: أنا ما زلت اثق في ذكاء الإنسان، أننا سنحسن الغايات والوسائل معاً إذا صرنا أكثر اطمئناناً وأمناً على حياتنا. بندكت: هل ستصبح أكثر أمناً اطمئناناً؟ هل ينخفض معدل الجريمة العنيفة؟ هل الحرب أقل فظاعة وبشاعة من ذي قبل؟ أنك تتعلق بأمل كاذب في أن قوة التدمير في أسلحتكم سوف تعوقكم وتعوق أعداءكم عن الحرب. ولكن هله التقدم المتكافئ من السهم إلى القنبلة سيعوق الأمم عن تحدي بعضها بعضاً حتى الموت؟

فولتير: إن تعليم الجنس البشري سيسغرق عدة قرون.



بندكت: في نفس الوقت أنظر إلى الخراب الروحي الذي نشرته دعايتكم. وربما كان هذا كارثة أفضح من أي خراب في المدن. أليس الإلحاد مقدمة لتشاؤم أعمق من أي تشاؤم عرفه المؤمنون؟ وأنت أيها الفتى الذائع الصيت، ألم تفكر كثيراً في الانتحار؟

فولتير: نعم، وحاولت أن أؤمن بالله، ولكنني أعتزف لك أن الله لم يعد شيئاً في حياتي، وفي دخيلة نفسي شعرت أيضاً بفرغ في موضع إيمان طفولتي، ولكن يحتمل أن يكون هذا هو إحساس أفراد وأجيال في فترة انتقال فقط. ولكن حفدة هؤلاء المتشائمين سيمرحون ويسرحون في حرية حياتهم، وتتهياً لهم سعادة أكثر من المسيحيين المساكين الذين أظلمت حياتهم بالخوف من الجحيم.

بندكت: إن هذا الخوف لم يلعب إلا دوراً صغيراً في الحياة الغالبية العظمى من المؤمنين. إن ما أتلج صدورهم هو إحساسهم بأن سكرات

صفحة رقم : 12796

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

الموت لم تكن عبئاً غير ذي معنى. بل مقدمة لحياة أكبر تصحح وتشقى فغيها كل المظالم والقساوات الدنيوية، وسيكونون متمتعين بالسعادة والسلام مع من كانوا يحبونهم ثم فقدوهم.

فولتير: نعم كان في هذا راحة تامة، مهما تكن خداعة. أنا لم أحس بها لأني أكاد لا أعرف والدتي، ولم أرَ والدي إلا نادراً، وليس لي أولاد معروفون.

بندكت: أنت لم تكن رجلاً كاملاً، ولم تكن فلسفتك كاملة. هل عرفت يوماً حياة الفقراء؟

فولتير: عرفت من الخارج فقط، ولكنني حاولت أن أكون منصفاً وعوناً للفقراء الذين عاشوا في ضياعي.

بندكت: لقد كنت سيداً فاضلاً، وفطنت إلى أن الإيمان والعقيدة التي اعتنقها هؤلاء الذين استخدمتهم في شبابك والتي لهم فيها عزاء وسلوى، يجب أن تتجدد عن طريق التعليم الديني والقيادة ولكن في نفس الوقت كان إنجيلك المدمر الذي لا أمل فيه بينما وراء القبر يسود فرنسا بأسرها. هل أجبت يوماً على سؤال دي موسيه (3)؟ بعد أن علمت أنت أ أتباعك الفقراء أن الجنة الوحيد التي يمكنهم الوصول إليها يجب أن يخلقوها هم أنفسهم على الأرض أو في الدنيا. وبعد أن ذبحوا حكاهم، ويظهر حكام جدد، ويبقى الفقر بالإضافة إلى خلل وفساد وعدم استقرار أكبر من ذي قبل، فماذا إذن تستطيع أن تقدم من عزاء للفقراء المغلوبين على أمرهم؟

فولتير: أنا لم أحبذ قتل حكاهم، وارتبت في أن يكون الجدد أقرب شياً بالقدمى، ولكن أسوأ سلوكاً.

بندكت: لن أقول إن الثورة ليس لها ما يبررها مطلقاً، ولكننا تعلمنا من التجارب والخبرات التي تراكمت ونقلتها إلينا الأجيال، أنه

صفحة رقم : 12797

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

بعد كل انقلاب، سيكون هناك ثمانية سادة وأناس، وأغنياء وفقراء نسبياً. نحن ولدنا جميعاً غير متساوين، وكل اختراع جديد وكل تعقيد جديد يضاف إلى الحياة أو الفكر يزيد في الهوة بين البسطاء والدهاة البارعين، وبين الضعفاء والأقوياء. إن أولئك الثوريين المؤمنين تحدثوا عن الحرية والمساواة والإخاء ولكن هذه الأرقام لا تتماشى مع بعضها البعض. لأنك إذا أقررت الحرية سمحت للتفاوتات وعدم المساواة الطبيعية أن تتضاعف إلى تفاوتات وفوارق مصنعة. فإذا حلت دون هذه التفاوتات كان عليك أن تقيد الحرية، وهكذا تصبح مثلك العليا في الحرية ستاراً للاستبداد وفي غمرة هذا يصبح الإخاء مجرد كلمة.

فولتير: نعم هو كذلك.  
بندكت: حسناً إذن، ومن منا يقدم عزاء أكبر للغالبية التي لا مفر من أن تكون مغلوبة على أمرها؟ هل تظن أنك تحسن صنفاً أو تؤدي خدمة للكادحين في فرنسا وإيطاليا إذا أقنعتهم بأن أضرحتهم القائمة على جانب الطريق وصلبانهم وصورهم الدينية وتقدماتهم النقية مجرد شعائر سخيفة لا معنى لها، وأن صلواتهم موجهة إلى سماء خالية، وهل يمكن أن تكون ثمة مأساة أشد من أنه يجب على الناس أن يؤمنوا بأنه ليس في الحياة شيء إلا تنازع البقاء وليس فيها شيء أكيد على وجه اليقين إلا الموت؟

فولتير: أنا أشاركك شعورك أيها الأب. لقد أثر في نفسي وأزعجتني رسالة تلقيتها من مدام دي تلموند. أنا أذكرها جيداً، وجاء فيها "أرى يا سيدي ألا يكتب فيلسوف مطلقاً إلا ليحاول أن يجعل الجنس البشري أقل شراً وأقل شقاء مما هو عليه. وأنت الآن تعمل على النقيض من ذلك تماماً. أنت دائماً تكتب ضد الدين، وهو وحده القادر على كبح جماح البشر وتقديم السلوى والعزاء

صفحة رقم : 12798

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

إذا ألم الخطب(4)، ولكن لي إيماني كذلك بأن الحق سيكون على مدى الأيام نعمة حتى للفقراء.  
بندكت: لن يكون الحق حقاً إلا إذا بقي صادقاً عبر الأجيال. إن الأجيال السابقة تكذبك والأجيال القادمة ستلومك، بل أن المنتصرين في صراع الحياة سيلومونك على انتزاعك الآمال من صدور المساكين وهي الآمال التي حملتهم على قبول المكانة المتواضعة في مجتمع منقسم إلى طبقات، وهو تقسيم لا مناص منه.  
فولتير: أنا لا أستسلم لخداع الفقراء والمساكين خداعاً مزدوجاً على هذا النحو.

بندكت: نحن لا نخدعهم. أننا نعلمهم الإيمان والأمل والبر والإحسان، وتلك كلها نعم حقيقية في حياة البشر. أنكم سخرتم كثيراً من التثليث، ولكن هل كان لديكم يوماً أي فكرة عن الراحة النفسية التي أحس بها ملايين الملايين من الأنفس لمجرد التكفير في أن الله نفسه قد نزل إلى هذه الأرض ليشاركهم آلامهم ومعاناتهم، ويكفر عن خطاياهم؟ وسخرتم من ولادة العذراء، ولكن هل في كل الأدب شيء محبب أو مؤثر أكثر رمزاً لبساطة النساء واعتدالهن ورمزاً لحب الأم؟

فولتير: أنها قصة جميلة، ولو أنك كنت قرأت كل مجلداتي التسعة والتسعين لوجدت أنني أعترف بقيمة هذه الأساطير التي تبعث في النفوس السلوى والعزاء.

بندكت: نحن لا نسلم بأنها أساطير، أنها من بين أعرق الحقائق. إن آثارها من بين أكثر الحقائق يقيناً في التاريخ. أنا لن أتحدث عن الفن والموسيقى اللتين خلقتهما، وهما من أغنى تراث الإنسان...  
فولتير: كان الفن ممتازاً. ولكن أغنيتكم الجريجورية كانت عبثاً كريهاً كئيباً.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; خاتمة في الفردوس

بندكت: لو أنك كنت أكثر عمقاً لقدرت قيمة طقوسنا وأسرارنا المقدسة. إن احتفالات تجمع بين المصلين في مسرحية حية وأخوة تشجع على الوحدة، وأسرارنا المقدسة هي حقاً اسم على مسمى من أمارات أو علامات ظاهرية على نعمة وبركة باطنة داخلية، وأنها لراحة نفسية للأباء أن يروا طفلهم في التعميد والتثبيت مقبولاً في جماعة العقيد العريقة وفي ميراثها. وهكذا توحد الأجيال في أسرة لا يحددها الزمان، ولا يعود الفرد فيها يحس أنه وحيد. وأنه لمن أجل النعم للمخطئ أن يعترف بخطاياهم ويتلقى الغفران. وأنتم تقولون إن هذا لا يعدو أن يكون مجرد سماح له بارتكاب الذنب ثانية، ونحن نقول بأن هذا يشجعه على أن يبدأ حياة أفضل غير مثقلة بوزر الإثم. ألا يكافح أطباؤكم النفسيون من أجل إيجاد بديل عن الاعتراف للكاهن؟ ألا يخلقون مصابين بالأمراض العصبية قدر ما يعالجون ويشفون؟ أليس جميلاً إنه في سر القربان المقدس يقوى الإنسان الضعيف ويتأثر باتحاده مع الله؟ هل رأيت شيئاً أجمل من ذهاب الأطفال لأول عشاء رباني لهم؟

فولتير: لا يزال يزعني ويضايقني فكرة أكل الله، أنها بقايا عادات وحشية. بندكت: أنك تخلط مرة ثانية بين الإشارة الظاهرية الخارجية والبركة الباطنية. ليس ثمة شيء ضحل مثل التحريف، إنك تحكم على كل شيء من سطحه، وتظن أنه عميق. وقد ضلل هذا التحريف كل الحياة الحديثة. وفي الدين مر العقل الناضج بثلاث مراحل: الإيمان والكفر والفهم. فولتير: قد تكون على حق. ولكن هذا لا يبرر نفاق أسافتك الأثمين الخطائين، أو اضطهاد الفكر الصادق المستقيم.

## قصة الحضارة -&gt; عصر فولتير -&gt; خاتمة في الفردوس

بندكت: نعم. كنا مذنبين. إن العقيدة طيبة لا غبار عليها، ولكن القائمين عليها رجال ونساء عرضة للخطأ والإثم. فولتير: ولكن إذا كان القائمون عليها عرضة للخطأ، فلماذا يزعمون أنهم معصومون منه؟ بندكت: إن الكنيسة تدعي العصمة فقط لأحكامها الرسمية الأساسية الموقرة جداً، ويجب الكف عن الجدل في موضع ما، إذا أريد للذهن أو المجتمع أن يعيش في هدوء وسلام. فولتير: وهكذا نعود ثانية إلى الرقابة الخائفة والتعصب الوحشي الذميمة اللذين كانا مصدر الأذى والهلاك في حياتي، ومبعث الخزي والعار في تاريخ الكنيسة. ويمكنني أن أرى أبواب محاكم التفتيش مفتوحة من جديد. بندكت: أرجو ألا يكون الأمر كما تقول. إن هذا كان يسبب ضعف البابوية، إن محاكم التفتيش كانت قاسية. إن خلفائي كافحوا لوقفها.

فولتير: البابوات أيضاً مذنبين. أنهم نظروا برباطة جأش إلى قتل مئات اليهود أثناء الحروب الصليبية، وتأمروا مع دولة فرنسا على قتل الالبيجنسيين (طائفة دينية ازدهرت في جنوب فرنسا فيما بين 1020-1250م وأخيراً قضي عليها بتهمة الزندقة). لماذا نعود إلى عقيدة استطاعت على الرغم من كل سحرها وفتنتها أن تولد مثل هذه الوحشية ومازالت تتغاضى عنها؟  
بندكت: أننا شاركنا في عادات عصرنا وسلوكه. ونحن نشارك الآن في تحسين الأخلاق. انظر إلى قساوستنا، أليسوا، مجموعة ممتازة من الناس في تعليمهم وتبئلتهم وسلوكهم؟  
فولتير: هكذا يقولون لي. ولكن ربما كان هذا بسبب المنافسة. ومن يدري ماذا سيكونون عليه، حين يهيب لهم أنصارهم ذور الأصل

صفحة رقم : 12801

قصة الحضارة -> عصر فولتير -> خاتمة في الفردوس

العريق والتفوق السياسي؟ إن المسيحيين في القرون الثلاثة الأولى من حقبتنا اشتهروا بسمو الخلق لكنك تعلم كيف أصبحوا حين تسلموا مقاليد الأمور. إنهم قتلوا من أجل الخلاف الديني أناساً أكثر مائة مرة مما قتل أباطرة الرومان. بندكت: إن قوماً كانوا آنذاك بادئين في التعليم، فلنأمل أن نفعل أفضل مما فعلوه في المستقبل.  
فولتير: لقد أحسنت الكنيسة صنعاً في بعض الأحيان. ففي النهضة الإيطالية أظهر بعض خلفائك تسامحاً لطيفاً نحو الكفر. ولم يحاول غير المؤمنين أن يجرموا المساكين من عقيدتهم التي توفر لهم العزاء والسلوى. أنا من جانبي لا أريد أن أدمر عقيدة الفقراء المساكين، وأؤكد لك أن هؤلاء المساكين لا يطالعون كتبتي.  
بندكت: بارك الله في المساكين الفقراء.  
فولتير: في نفس الوقت، ينبغي أن تغفر لي ولأمثالي إذا واصلنا مساعينا لتتوير أقلية كبيرة العدد إلى حدٍ كافٍ، مصممة على تحول دون تسلط الكنيسة مرة ثانية على أفكار المتعلمين. وسيكون التاريخ غير ذي قيمة لنا إذا لم يعلمنا أن نكون يقظين حذرين ضد التعصب الطبيعي في ديانة تقليدية تستغل القوة. إنني أجدك وأقدرك أعظم تقدير، أيها الأب بندكت، ولكن يجب أن أبقى كما أنا فولتير.  
بندكت: ليغفر الله لك.  
فولتير: المغفرة دعاء الجميع.

صفحة رقم : 12802

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> أيها القارئ العزيز

تاريخ الحضارة في فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا

من 1756 وفي بقية أوربا من 1715 إلى 1789

أيها القارئ العزيز

هذا هو المجلد الأخير في قصة الحضارة التي كرسنا لها نفسينا عام 1929، والتي كانت شغلنا اليومي الشاغل وسلوى حياتينا منذ ذلك التاريخ. لقد كان هدفنا أن نؤلف "تاريخاً متكاملًا" أي أن نكتشف ونسجل ألوان النشاط الاقتصادي، والسياسي، والروحي، والخلقي الثقافي، لكل حضارة، في كل عصر، بوصف هذه الألوان عناصر وثيقة الترابط في واحد يسمى الحياة، ثم نضفي على القصة صيغة إنسانية بدراسات للأبطال في كل فصل من فصول هذه المسرحية المتصلة الحلقات ومع أننا نسلم بأهمية الحكم والسياسة، فقد سقنا التاريخ السياسي لكل حقبة ودولة كما تساق خلفية رويت من قبل غير مرة، دون أن يكون لب القصة أو روحها، وتركز جل اهتمامنا على تاريخ العقل. ومن ثم كان أكثر اعتمادنا في شؤون الاقتصاد والسياسة على المصادر الثانوية، بعكس ما انتهجناه في تناولنا للدين، والفلسفة، والعلم، والأدب، والموسيقى، والفن، فقد حاولنا الرجوع فيها إلى الأصول والمنابع: حاولنا أن نرى كل دين وهو يعمل في منبته، وأن ندرس أخطر الفلسفات في مؤلفاتها الكبرى، وأن نزور الفن في موقعه الأصلي أو الجديد، وأن نتذوق روائع الأدب العالمي، في لغاتها الأصلية في كثير من الأحيان، وأن نستمع إلى الألحان الموسيقية العظمية مراراً وتكراراً، ولو باقتطاعها من جوها المعجز. وتحقيقاً لهذه الأهداف طفنا بالعالم مرتين، وبأوربا مرات لا تحصى من 1911 إلى 1966. وسيدرك القارئ العطوف أنه يستحيل علينا في الأجل الواحد الذي كتب لنا أن نرجع بالمثل إلى المصادر الأصلية في الاقتصاد والسياسة، خلال قرون التاريخ الستين، وحضاراته العشرين

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> أيها القارئ العزيز

ولم نجد مندوحة عن الرضى بالحدود والقيود، والتسليم بما فينا من عجز وقصور. ويؤسفنا أننا سمحنا لافتتاننا بكل جزء في ملحمة الإنسان بأن يوقفنا في رضى كثير، حتى ألفينا نفسينا في خاتمة المطاف منهوكي القوى حين بلغنا الثورة الفرنسية. ونحن نعلم أن هذا الحدث لم يبه التاريخ، ولكنه نهينا. وما من شك في أن طريقتنا المتكاملة الشاملة أفضت بنا إلى إقبال معظم هذه المجلدات بالطول المفرط. ولو أننا كتبنا تاريخاً ممزقاً- كقصة أمة؛ أو فترة أو موضوع واحد- فلربما وفرنا على القارئ وقته وعتاده، غير أن تصوير جميع الجوانب في قصة واحدة، عن عدة أمم، في فترة معينة، تطلب حيزاً للتفاصيل التي لم يكن منها بد لنفج الحياة في الأحداث والشخصيات. وسيشعر كل قارئ من جانبه بأن الكتاب مسرف في الطول، وأن تناوله لأتمته أو لتخصه مسرف في القصر.

فقد يرغب قراء الإنجليزية أو الفرنسية في أن يقصروا قراءتهم الأولى لهذا المجلد على الفصول 1-8، 13-15 و20-38، ويرجئوا الباقي إلى حين، وقد يختار قراء لغات أخرى فصولهم على هذه الشاكلة. غير أننا نأمل أن يسير بعض الأبطال الشوط كله معنا، فيحاولوا أن يروا أوروبا بوصفها كلاً في تلك السنين الثلاث والثلاثين المفعمة بالأحداث، والممتدة من حرب السنين السبع إلى الثورة الفرنسية، على أننا لن نفتقر هذه الأسباب مرة أخرى، ولكن لو استطعنا أن نفلت من حاصد الأرواح سنة أخرى أو سنتين، فإننا نرجو أن نقدم للقارئ مقالاً ملخصاً في "عظمت التاريخ".  
ول وإيريل ديورانت  
لوس أنجليس  
أول مايو 1967

صفحة رقم : 12804

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الاعترافات

الكتاب الأول

مقدمة

الفصل الأول

## 1- الاعترافات

كيف حدث أن رجلاً ولد فقيراً، وفقد أمه عند مولده، ثم هجره أبوه بعد قليل وابتلي بمرض أليم مذل، وترك يضرب في الأفاق اثنتي عشر عاماً بين مدن غربية ومذاهب دينية متناحرة، مرفوضاً من المجتمع والحضارة، رافضاً فولتير، وديدرو، والمسوعة، وعمر العقل، رجلاً طورد من مكان إلى آخر باعتباره تائراً خطراً، واتهم بالإجرام والجنون، وشهد في شهور حياته الأخيرة تأليه خصمه الألد-نقول كيف حدث أن رجلاً كهذا، بعد موته؛ انتصر على فولتير، وأحيا الدين، وقلب التعليم رأساً على عقب، ورفع أخلاقيات فرنسا، وألهم الحركة الرومانية، والثورة الفرنسية، وأثر في فلسفة كانت وشوبنهاور، وتمثيلات شيلر، وروايات جوته، وشعر وردزورث وبيرون وشيلي، واشتراكية ماركس، وأخلاق تولستوي وأتيح له-على الجملة- من التأثير على الأجيال التالية ما فاق تأثير أي كاتب أو مفكر آخر في ذلك القرن الثامن عشر؛ القرن الذي فاق في تأثير الكتاب تأثيرهم في أي عهد سبقه؟ هنا تواجهنا هذه

صفحة رقم : 12805

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; مقدمة -&gt; روسو جواب الأفاق -&gt; الاعترافات

المشكلة إن كان لها أن تواجهنا في أي موضع: ما الدور الذي لعبته العبقريّة في التاريخ، ما دور الإنسان إزاء المجتمع والدولة؟

كانت أوروباً آنذ مهياًة لإنجيل بيوى الوجدان مكاناً فوق الفكر فلقد سئمت قيود التقاليد والأعراف، والآداب، والقوانين. وسمعت ما يكفي عن العقل، والجدل العقلي، والفلسفة، وبدا أن كل هذه الفوضى، فوضى العقول التي أطلق حبلها على غاربها، قد جردت الدنيا من المعنى، وعطلت النفوس من الخيال والرجاء، وكان الرجال والنساء بينهم وبين أنفسهم تواقين للعودة إلى حظيرة الإيمان. لقد ملت باريس، ملت الضجيج والعزلة، وسجن حياة المدينة وتزاحمها المجنون، وهفت الآن إلى حلم حياة الريف الأكثر هوناً، الحياة التي قد يجلب نظامها الرتيب البسيط للبدن صحة وللعقل سلاماً، والتي يرى فيها الإنسان من جديد نساء تزينهن الحشمة والحفر، والتي تلتقي فيها القرية كلها في كنيسة الأبرشية في هدنة أسبوعية. قم ما بال هذا "التقدم" الذي يزهون به، و"تحرير العقل" هذا الذي يفاخرون به-هل أحلا شيئاً محل ما دمراه؟ هل أعطيا الإنسان صورة للعالم ومصير الإنسان أكثر وضوحاً للإفهام أو إلهاماً للنفوس؟ هل حسنا حظوظ الفقراء، أو أتيا بالعزاء والسلوى للمحزونين على فقد الأجزاء أو للمتألمين المكروبين؟ سأل روسو هذه الأسئلة،

وأضفى الشكل والإحساس على هذه الشكوك، فأصغت إليه أوروباً بأسرها بعد أن أخدم صوته. وبينما كان فولتير يعيد على المسرح في الأكاديمية (1778)، وبينما كان روسو الموبخ المزدرى يختبئ في ظلام حجرة من حجرات باريس، بدأ عصر روسو.

ولقد ألف أشهر ترجمة ذاتية في أخريات أيامه، وهي كتابه "الاعترافات". ذلك أنه هو الرجل الحساس لكل نقد الظنون الذي خال جريم، وديدرو، وغيرهما يأترون به ليشوهوا سمعته في صالونات باريس وفي "مذكرات" مدام دينيه. هذا الرجل بدأ عام 1768، بإلحاح من أحد الناشرين، كتابة قصته هو لبروي سيرته وخلقه. وكل التراجم الذاتية بالطبع غرور في غرور، غير أن روسو-الذي أدانته الكنيسة، وحمته من حماية

صفحة رقم : 12806

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الاعترافات

القانون ثلاث دول، وهجره أخلص أصدقائه كان له الحق في الدفاع عن نفسه، بل في الدفاع المستفيض: وحين قرأ فقرات من هذا الدفاع على بعض المحافظ في باريس حصل خصومه على أمر من الحكومة يحظر إي قراءة علنية أخرى لمخطوطته. فلما فت في عضده، تركها عند موته مشفوعة برجاء للأجيال التالية قال فيه: "إليك هذه اللوحة الإنسانية الوحيدة-المنقولة بالضبط عن الطبيعة بكل صدق-الموجودة الآن أو التي ستوجد إطلاقاً في أغلب الظن. وأيما كنتم، يا من نصبكم قدي وثقتي حكماً على هذا السجل، فإني أستحلفكم بحق ما أصابني من خطوب ومحن وبحق ما تشعرون به من أخوة البشر، وباسم الإنسانية جمعاء، ألا تدمروا عملاً نافعاً فريداً في بابه، قد يصلح بحثاً مقارناً من الدرجة الأولى لدراسة الإنسان. وألا تنتزعوا من شرف ذكري هذا الأثر الصادق الوحيد لخلق، الأثر الذي لم ينل من خصومي مسخاً وتشويهاً(1)".

والكتاب، بمحاسنه ومآخذ، نتاج ما فطر عليه مؤلفه من شدة الحساسية، وقوة الذاتية، ورهافة العاطفة. يقول روسو "إن قلبي الحساس كان أس بلائي كله". (2) ولكن هذا القلب أضفى ألفة حارة على أسلوبه، وحناناً على ذكرياته، وفي كثير من الأحيان سماحة على أحكامه، وكلها تذيب نفورنا ونحن نمضي في قراءة الكتاب. ففيه يغدو كل تجريد واقعاً شخصياً مجسداً، وكل سطر شعوراً نابضاً بالحياة فهذا الكتاب أشبه بالنبع الذي تتدفق منه نهر الاعترافات المستبطن، النبع الذي روى أدب القرن التاسع عشر، لا لأنه لم يكن له ضريب سابق من كتب الاعترافات، ولكن حتى القديس أوغسطين لم يستطع أن يضارع هذه التعرية للذات، أو يدعي دعوها في الأمانة والصدق. والكتاب يستهل بدقة من البلاغة التي تتحدى المقلدين:

"إنني مقبل على مغامرة لم يسبق لها نظير، ولن يكون لتنفيذها مقلد، أريد أن أظهر إخواني في الإنسانية على إنسان في كل صدق الطبيعة، وهذا

صفحة رقم : 12807

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الاعترافات



الإنسان هو أنا نفسي. أنا مجرداً من كل شيء. إنني أعرف قلبي، وأنا عليم بالناس. ولم أخلق كأي حي من الأحياء. وإذا لم أكن خيراً منهم، فإنني على الأقل مختلف عنهم. أما أن الطبيعة أحسنت أو أساءت بتحطيم القالب الذي صببت فيه، فذلك شيء لا يستطيع الحكم عليه إنسان إلا بعد أن يقرأني".

"وأياً كان موعد الساعة التي سينفخ فيها في صور يوم الحشر، فسوف أتى وكتابي هذا في يميني لأمثل أمام الديان الأعظم وسوف أقول بصوت عالٍ: كذلك سلكت، وكذلك فكرت، وكذلك كنت، لقد تحدثت إلى الأبرار والأشرار بنفس الصراحة، وما أخفيت شيئاً فيه سوء، ولا أضفت شيئاً فيه خير. وقد أظهرت نفسي كما أنا: حقيراً خسيساً حين كنت كذلك، وخيراً سمحاً نبيلاً حين كنت كذلك، لقد أمطت اللثام عن أعماق نفسي(3).

وتتردد دعواه في توخي الصدق الكامل في الكتاب مراراً وتكراراً. ولكن روسو يسلم بأن تذكره لأشياء انقضت عليها خمسون عاماً كثيراً ما يكون تذكراً مبتوراً لا يمكن الركون إليه، وللجزء الأول في جملته جو من الصراحة يشيع الطمأنينة في القارئ. أما الجزء الثاني فتشوهه الشكاوى المملة من الاضطهاد والتأمر. وأياً كان الكتاب، فهو من أعظم ما نعرف من الدراسات السيكولوجية كشفاً عن النفس، وهو قصة روح حساسة شاعرة خاضت صراعاً أليماً مع قرن واقعي قاس. وعلى أية حال، فإن كتاب الاعترافات، لو لم يكن ترجمة ذاتية، لكان من إحدى الروايات العظيمة في العالم"(4).

صفحة رقم : 12808

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> الفتى الشريد

2- الفتى الشريد

1712 - 1731

"ولدت بجنيف في 1712، ابناً لإسحاق روسو وسوزان برنار، المواطنين". والكلمة الأخيرة كانت تعني الكثير، لأن ألفا وستمائة فقد من بين سكان جنيف العشرين ألفاً كانوا يملكون اسم المواطن، وسيشارك هذا العامل في تاريخ جان-جاك. وكانت أسرته فرنسية الأصل، ولكنها وولدت في جنيف منذ 1529. وكان جده قسيساً كلفنياً، وقد ظل الحفيد في صميمه كلفنياً طوال تطويفه الديني كله. أما أبوه فكان من أقطاب صناعة الساعات، رجلاً خصب الخيال لا يستقر له قرار، أتاه زواجه (1704) بصداد قدره عشرة آلاف فلورين. وبعد أن أنجب غلاماً ترك زوجته (1705) ورحل إلى الأستانة حيث مكث ست سنوات ثم عاد لأسباب مجهولة، "وكنت الثمرة الحزينة لهذه العودة"(8) وماتت الأم بحمي النفاس بعد أسبوع من مولد جان جاك "جنئت إلى العالم أحمل إمارات قليلة جداً على الحياة، بحيث لم يكن هناك كبير أمل في الإبقاء علي". وكفلته خالة له وأنقذته، وهو عمل "أغتره لك دون تحفظ" على حد قوله. وكانت الخالة يجيد الغناء والترتيل، ولعلها بثت فيع ذلك الشغف بالموسيقى الذي لازمه طفلة حياته. وكان طفلاً عبقرياً، تعلم القراءة في زمن وجيز، ولما كان أبوه إسحاق مولعاً بالقصص الرومانسية، فقد راح الوالد والولد يقرآن الروايات المختلفة في

مكتبه أمه الصغيرة. ونشئ جان-جاك على مزيج من القصص الغرامية الفرنسية، وترجم بلوتارخ، والفضائل الكلفينية، وجعله هذا المزيج قلقاً مهزوزاً. قد وصف نفسه وصفاً دقيقاً بأنه "أبي هس في وقت معاً، في خلقي أنوثة وهو مع ذلك خلق عاتٍ لا يقهر، دأب على وضعي في موضع التناقض مع نفسي لأنه متذبذب بين الضعف والشجاعة، وبين الترف العفة(9)".  
وفي 1722 تشاجر أبوه مع رجل يدعى الكابتن جوتيه، فأسال الدم

صفحة رقم : 12809

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الفتى الشريد

من أنفه، فاستدعاه القاضي المحلي ولكنه هرب من المدينة اتقاء السجن، واتخذ مقره مدينة نيون على ثلاثة عشر ميلاً من جنيف. وبعد سنوات تزوج ثانية. وكفل فرانسوا وجان-جاك خالهما جابريل برنار. وألحق فرانسوا بصانع ساعات، فهرب، واختفى من التاريخ. وأما جان-جاك وابن خاله أبراهام برنار فقد أرسلوا إلى مدرسة داخلية يديرها القس لامبرسييه في قرية بوسيه القريبة "هنا كان علينا أن نتعلم اللاتينية، وكل اللغو التافه الذي أطلق عليه اسم التعليم". (10) وكان التعليم المسيحي الكلفني جزءاً من صميم المنهج. وأحب معلميه، ولا سيما أخت القسيس، الأنسة لامبرسييه، وكانت في الثلاثين، وجان-جاك في الحادية عشرة، فوقع في غرامها على طريقته العجيبة. كان إذا ساطته عقاباً على سوء الأدب، أبهجه أن يتعذب على يديها، "فإن شيئاً من الشهوانية اختلط بالألم والخزي، مما خلف في الرغبة في تكرار العقوبة أكثر من الخوف". (11) فلما عاد إلى الذنب وضح التذاه بالعقاب وضوحاً صممت معه على ألا تعود إلى ضربه بالسوط. وقد ظل عنصر مازوكي يلزم تكوينه العشقي إلى النهاية.  
"وهكذا قضيت سن المراهقة، ببنية متقدة، دون أن أعرف أو حتى أشتهي أي إشباع آخر لرغباتي المشبوبة غير ما أوحى به إليّ الأنسة لامبرسييه في براءة، وحين بلغت مبلغ الرجال لم يخف هذا الميل الصيواني بل اتحد مع الميل الآخر. ولقد ظلت هذه الحماسة وما صاحبها من شدة حياء فطري تحول دائماً بيني وبين الاجترار مع النساء، وهكذا كنت أقضي أيامي أتحرق في صمت شوقاً لم أهيم بهن دون أن أجرؤ على البوح برغباتي..  
"وهانذا قد خطوت أول خطوة وأشقها في تيه اعترافاتي الحالك الأليم. ذلك أننا لا نستشعر في البوح بذنب ينطوي على الإجماع فعلاً ذلك النفور الشديد الذي نستشعره في البوح بذنب لا يثير غير السخرية"(12).

صفحة رقم : 12810

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الفتى الشريد

ويجوز أن روسو، في حياته اللاحقة، وجد عنصر لذة في شعوره بالمقاومة والصد من العالم، ومن أعدائه، ومن أصدقائه.

وبعد اللذة التي وجدها في عقوبات الأنسة لامبرسييه وجد متعة في المنظر الطبيعي الرائع الذي أحاط به، "كان في الريف من الفتنة... ما حبب إليّ الحياة الريفية حياً لم يستطع الزمن أن يطفئه". (13) ولعل هذين العامين الذين أنفقهما في بوسيه كانا أسعد سني عمره رغم ما تكشفه له من ظلم في هذه الدنيا. فقد عوقب مرة على ذنب لم يجنبه، فاستجاب بسخط لم يفارقه قط، وبعدها "تعلم أن يراني، ويتمرد، ويكذب، وبدأت كل الرذائل المألوفة في حياتنا تقسد براءتنا السعيدة". (14)

ولم يجاوز قط هذه المرحلة من التعليم المدرسي أو الكلاسيكي وربما كان افتقاره إلى التوازن، وصواب الحكم، وضبط النفس، وإخضاعه العقل والوجدان ربما كان هذا كله راجعاً لإنهاء تعليمه المدرسي في فترة مبكرة. ففي 1724؛ حين بلغ الثانية عشرة، أعيد هو وابن خالته إلى بيت أسرة برنار. وزار أباه في نيون، وهناك هام بفتاة تدعى فورسون، فصدته عنها، ثم بأخرى تدعى جوتون "أبت أن تسمح له بشيء من التجاوز معها، في حين أباحت لنفسها أشد الحريات معي". (15) وبعد عام من التردد والتذبذب ألحق صبيبا بحفار في جنيف. وكان يحب الرسم، وقد تعلم الحفر على ظروف الساعات، ولكن معلمه كان يضربه بقسوة على ذنوب صغيرة، "فدفعني إلى رذائل كنت أحتقرها بفطرتي، كالكذب، والكسل، والسرقه". وأقلب الصبي الذي كان من قبل سعيداً إلى غلام منطو مكتئب كاره لعشرة الناس.

ووجد السلوى في الإدمان على قراءة الكتب التي استعارها من مكتبة قريبة، وفي الرحلات الريفية يقوم بها في الأحاد. وحدث مرتين أنه تباطأ في الحقول حتى وجد أبواب المدينة مغلقة إذ حاول العودة، فأنفق الليل في العراء، ومضى إلى عمله نصف مشدوه، وكان جزاؤه علقه ساخنة.

صفحة رقم : 12811

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> الفتى الشريد

وفي رحلة الثالثة من هذه الرحلات حملته ذكرى هذا الضرب على أن يقرر ألا يعود إطلاقاً فمضى قدماً إلى كورنفيون في سافوي الكاثوليكية، على ستة أميال من بلدته، وهو لم يبلغ بعد السادسة عشرة (15 مارس 1728) لا نقود معه ولا ثياب سوى ما يحمله على ظهره.

هناك طرق باب قسيس القرية الكاثوليكية الأب بنوا ديونفير، ولعله سمع أن هذا الكاهن الشيخ تواق لهداية الجنيبيين الشريدين، فهو يقدم لهم الطعام الطيب عملاً بالنظرية القائلة أن المعدة الممتلئة تعين على التفكير المستقيم. وقد قدم لجان جاك غذاءً طيباً، وقال له "اذهب إلى أنسي، حيث تجد سيدة سالحة خيرة يتيح لها كرم الملك أن تحول النفوس عن تلك الخطايا التي أقلعت عنها لحسن الحظ" (16). وبضيف روسو أن هذه السيدة هي "مدام دفاران، التي اهتدت إلى الكتلكة مؤخراً، والتي رتب القساوسة أن يبعثوا إليها بأولئك التعساء المستعدين لبيع عقيدته، وكانت إلى حد ما مضطرة إلى أن تشارك هؤلاء معاشاً قدره ألفا فرنك أنعم بها عليها ملك سردانيا". ورأى الفتى الشريد أن شطراً من ذلك المعاش قد يستأهل تغيير العقيدة. وبعد ثلاثة أيام، في أنسي، مثل أمام مدام فرانسوا لويز دلاتور، بارونة فاران. كانت في التاسعة والعشرين، امرأة حلوة، كيسية، دمتة، سمحة جذابة الملابس، "ما رأيت وجهاً أجل ولا جيداً أبدع، ولا ذراعين مليحتين أروع تكويناً" (17). وكانت في مجموعها أبلغ حجة تناصر الكاثوليكية رآها روسو على الإطلاق. ولدت يفي في أسرة طبية، وتزوجت وهي صغيرة جداً من المسيو (البارون فيما بعد) دفاران اللوزاني وبعد سنوات من التنافر الأليم تركته، وعبرت البحيرة إلى سافوي، ونالت حماية الملك فكتور أمادو، وكان يومها في إفيان. وبعد أن

نزلت أنسي، قبلت اعتناق الكاثوليكية، معتقدة أنها لو أدت شعائرها الدينية على الوجه الصحيح لغفر الله لها غرامياتها التي تقع فيها بين الحين والحين،

صفحة رقم : 12812

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> الفتى الشريد

ثم إنها لم تستطع أن تصدق أن يسوع الرقيق القلب سيقدف بالرجال-فما بالك بامرأة جميلة-في النار الأبدية(18). وكان يطيب لجان-جاك أن يمكث معها لولا أنها كانت مشغولة. فنفتحته ببعض المال، وأمرته بأن يمضي إلى تورين ويتلقى التعليم في "نزل الروح المقدس" وقد استقبل هناك في 12 إبريل 1728، وفي 21 إبريل عمد في المذهب الكاثوليكي الروماني. وحين استعاد ذكرى هذه الواقعة بعد أربعة وثلاثين عاماً-وقبل عودته إلى البروتستانتية بثمانى سنوات-كتب يصف في رعب تجربته في النزل، بما في ذلك محاولة للاعتداء على عفته من زميل مغربي حديث الاهتداء؛ وقد خيل إليه أن موقفه من اعتناق الكاثوليكية كان موقف النفور، والخزي، والتسوية الطويل. ولكن الظاهر أنه تكيف مع الظروف التي وجدها في النزل لأنه مكث هناك دون إكراه أكثر من شهرين بعد أن قبل في كنيسة روما(19).

ثم ترك النزل في يوليو، مسلحاً بسنة وعشرين فرنكاً. وبعد أن أنفق أياماً في مشاهدة معالم المدينة وجد عملاً في متجر جذبته إليه جمال السيدة الواقعة خلف منضدته. ووقع في غرامها للتو والساعة، وما لبث أن جفا أمامها وبذل لها عهداً بالوفاء مدى الحياة. وابتسمت مدام بازيل، ولكنه لم تسمح له بأن يتجاوز يدها، ثم أن زوجها كان وشيك الوصول في أية لحظة. يقول روسو "إن عدم توفيقى مع النساء نشأ دائماً عن إفراطي في حبهن"(20) ولكن كان في فطرته أن يجد في التأمل لذة أعظم مما يجد في الإشباع وقد فرج عن ضيقه بتلك "التكلمة الخطرة التي تخدع الطبيعة وتتخذ الفتيان، الذين على شاكلتي مزاجاً، من اضطرابات كثيرة، ولكن على حساب صحتهم، وقوتهم، وأحياناً حياتهم"(21). ولعل هذه العادة، التي تفاقمت حماها نتيجة النواهي المرهبة، لعبت دوراً خفياً في زيادة نزقه، وأهامه الرومانسية، وشعوره بالقلق في المجتمع، وحبه للوحدة. وهنا نجد "الاعترافات" تتوخى صراحة لم يسبق لها نظير.

صفحة رقم : 12813

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> الفتى الشريد

"كانت أفكارى في شغل شاغل بالفتيات والنساء ولكن بطريقتي الخاصة. وقد أبقت هذه الأفكار حواسي في نشاط دائم مؤذٍ... وبلغ في التهيج مبلغاً جعلني ألهب رغباتي بأشد المناورات إسرافاً بعد أن عجزت عن إشباعها. فكنت ألتمس الأزقة المظلمة والأركان المنزوية، حيث أستطيع أن أتعرف عن بعد أمام أشخاص من الجنس اللطيف في الوضع الذي اشتبهت أن أكون عليه بقربهن. أو لم يكن ما رأيته منى هو عورتى-فذلك مل لم يخطر لي ببال، إنما كان العضو

المثير للضحك (الأرداف). ولا يمكنني وصف اللذة الحمقاء التي استشعرها في تعريتها أما أعينهن. ولم تكن بين هذا وبين المعاملة المشتهاة (وهي الجلد) غير خطوة واحدة؛ ولست أشك أن امرأة حازمة كانت في مرورها مانحتي هذه المتعة لو إنني جرؤت على التماذي في فعلتي.

"وذاذ يوم ذهبت لأقف في مؤخرة حوش به بئر تستقي منه فتيات البيت... وعرضت عليهن مشهداً يثير الضحك أكثر مما يثير الغواية. أما أحكمهن فتظاهرن بأنهن لا يرين شيئاً؛ وبدأ بعضهن يضحكن، وأحس غيرهن بالإهانة فصحن مستغياتاً".

ولكن واحدة منهن لم تتقدم للأسف لتجلده-وبدلاً من ذلك حضر حارس يحمل سيفاً ثقيلاً وله شارب رهيب، ومن خلفه أربعة عجانز أو خمس مسلحات بالمكانس. أما روسو فنجا بأن قال في تعليل مسلكه أنه "شاب غريب من أسرة كريمة إلتاث عقله" ولكن ماله قد يمكنه ف المستقبل من مكافأتهم على غفرانهم فعلته، "وتأثر الرجل المرعب" وخلي سبيله، الأمر الذي أسخط العجانز غاية السخط(22).

وكان خلال ذلك قد وجد وظيفة تابع يرتدي زي الخدم في بيت مدام دفرسلي، وهي سيدة تورينية لها لا نصيب من الثقافة. هناك اقترف جريمة أنقلت ضميره طوال عمره. ذلك أنه سرق شريطاً من أشرطة المدام الزاهية الألوان، فلما أتهم بهذه السرقة ادعى أن خامة أخرى أعطته

صفحة رقم : 12814

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الفتى الشريد

الشريط. ووبخته الخادمة ماريون-البرينة تماماً من السرقة توبيخاً انطوى على نبوءة، فقالت له "إيه يا روسو، ظننتك ذا طبيعة خيرة. أنك تجعلني غاية في التعاسة، ولكنني لا أرضى أن أكون في موقفك(23)". وطرده كلاهما، ويضيف روسو في اعترافاته:

لست أدري ما أصاب ضحية افترائي هذا، ولكن كان الاحتمال ضعيفاً جداً في أن تجد لها وظيفة حسنة بعد ذلك، لأنها عانت من تهمة مؤذية لسمعتها من جميع الوجوه... ولقد الذكرى الأليمة لهذا العمل.. تنتقل ضميري إلى اليوم، وفي وسعي أن أكون صادقاً أن رغبتني في التخفيف من ألم هذه الذكرى شاركت كثيراً في تصميمي على كتابة اعترافاتي(24).

وقد تركت تلك الشهور الستة التي عمل فيها خادماً بصمتها على خلقه، فهو لم يصل قط إلى احترام نفسه رغم كل وعيه بعقريته: شجعه قسيس شاب لقيه وهو يخدم مدام دفرسلي على الاعتقاد بأن في استطاعته التغلب على أخطائه إذا حاول مخلصاً القرب من أخلاقيات المسيح. وقال السيد جيم هذا إن أي دين صالح مادام يشيع السلوك المسيحي؛ ومن ثم فقد أوما إلى أن جان-جاك يكون هنا بالاً إن هو عاد إلى مسقط رأسه ومذهبه الأصلي. وقد استقرت هذه الآراء "الرجل من أفضل عرفت من الرجال" طويلاً في ذاكرة روسو، وأوحت إليه بصفحات مشهورة في كتابه "إميل". وبعد عام التقى في مدرسة سان-لازار اللاهوتية، بقس آخر هو إذ الأبييه جاتييه، رجل له "قلب يبيض رقة وحناناً" فاته الترفي بأنه كان سبباً في حمل عذراء في أبرشيته. يقول روسو معقياً "لقد كانت هذه الفعلة فضيحة رهيبية في أسقفية شديدة التزم، لا يصح فيها أبداً للقساوسة (الخاضعين لتنظيم حسن) أن يكون لهم أبناء-إلا من نساء متزوجات(25)". ومن "هذين القسيسين الفاضلين ألفت شخصية قسيس سافوا".

صفحة رقم : 12815

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الفتى الشريد

وفي مطلع صيف عام 1729، عاود روسو-الذي بلغ الآن السابعة عشرة-الحنين إلى حياة الترحل، ثم أنه علل نفسه بأنه قد يجد بمعونة مدام ديفران وظيفة أقل إذلالاً لكبريائه. فأنطلق بصحبة غلام جنيفي مرح يدعى باكل سيراً من تورين، واخترقاً ممر جبل سنييس في الأب إلى شامبري وأنسي. وقد صور قلمه الرومانسي تلك الانفعالات التي جاشت بها نفسه وهو يدنو من مسكن مدام ديفران تصويراً رائعاً "فقد ارتعشت ساقاي من تحتي وغامت عيني، فلم أبصر ولم أسمع ولم أذكر أحداً، واضطرت مراراً إلى الوقوف لألتقط أنفاسي وأملك أحاسيسي المشدوهة(26)". ولا شك في أنه كان غير واثق من أنها سترحب بمقدمه. فكيف يستطيع أن يفسر لها كل ما طرأ على حياته من صروف وتقلبات منذ تركها؟ على أن "نظرتها الأولى بددت جميع مخاوفي. ووثب قلبي لسماع صوتها. وألقين نفسي عند قدميها، وفي نشوة من الفرح العارم ضغطت شفتاي على يدها(27)": ولم يسوءها هيامه بها، فخصصت له حجرة في بيتها، وحين بدأ البعض يتقولون كان جوابها "فليقولوا ما شاعوا، ولكني مادامت العناية قد ردت إلي، فأني عازمة على ألا أتخلي عنه".

صفحة رقم : 12816

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ماما

3- ماما

1740 - 1729

وتعلق بها تعلقاً شديداً، كأني فتى يتعلق بامرأة الثلاثين كان يلثم سراً الفراش الذي تنام عليه، والكرسي الذي تجلس عليه "بل الأرض ذاتها حين يخطر إلى أنها مشت عليها(28)".  
(هنا يخيل ألينا أن المبالغة طغت على التاريخ)  
وكان شيد الغيرة من كل من يناقسونه على الاستنثار بوقتها. وتركته يخرخر كالههر السعيد، وكانت تدعوه تارة بالقط الصغير، وتارة بالطفل، وشيئاً فشيئاً أرتضى أن يدعوها "ماما" واستخدمته في كتابة رسائلها وإمساك حساباتها، وجمع الأعشاب لها، ومعاونتها في تجاربها الكيميائية. وأعطته كتباً ليقراً-الاسبكتاتور، ويوفندرف، وسانت افرمون، وملحمة فولتير الهنرياده. وكانت هي نفسها تحب أن تتصفح "قاموس بويل التاريخي النقدي" وكانت لا تسمح للاهوتها بأن يضايقها، ولعل استمتاعها بصحبة الأب جرو، ناظر مدرسة اللاهوت المحلية، مرجعه أنه كان يساعدها على

إحكام عقد مشدها "وبينما كان مشغولاً بهذا كانت تجري في أرجاء الغرفة، هنا أو هنا كما تدعو الدواعي. وكان الأب، ناظر المدرسة، يتبعها متندراً تجره الأربطة من خلفها، وهو لا يفتأ يردد "أرجوك أن تقفي ساكنة يا سيدتي". وكان هذا كله مشهداً مسلياً حقاً(29)".

وربما كان هذا القسيس المرح هو الذي أشار بأن جان-جاك قد يستوعب من التعليم قدراً يؤهله لأن يكون قسيس قرية، ذلك على الرغم من كل أمارات الغباوة البادية عليه. ووافقت مدام ديفاران وهي مغتبطة بالعثور له على مهنة يرتزق منها. وعليه ففي خريف 1729 دخل

صفحة رقم : 12817

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ماما

روسو مدرسة سان-لازار اللاهوتية ليحضر للقسوسة. وكان قد ألف الكاثوليكية الآن بل شغف بها(30)؛ أحب فيها طقوسها المهيبة، ومواكبها، وموسيقاها، وبخورها، وأجراسها التي خالها تعلن على الملأ كل يوم أن الله في سمائه، وأن العالم بخير أو سوف يكون بخير، أضف إلى ذلك أن مذهباً يستهوي مدام ديفاران ويغفر لها خطاياها لا يمكن أن يكون سيئاً. غير أن التعليم المدرسي الذي حصله من قبل كان من الضالة بحيث اقتضى الأمر أن يفرض عليه منهج مركز في اللاتينية. ولكنه لم يستطع صبراً على تصارييف أسمائها وصفاتها وأفعالها، وبعد خمسة أشهر من الجهد والعرق رده معلموه إلى مدام ديفاران بتقرير يقول أنه "غلام لا بأس بتقواه" ولكنه لا يصلح كاهناً. وحاولت مساعدته من جديد. ودعاها ما لاحظته من ميله للموسيقى إلى تقديمه إلى نيكولوز لومينتر، عازف الأرغن في كاتدرائية أنسي وذهب جان-جاك ليعيش معه طوال شتاء 1729-30، وعزاه أنه لا يبعد عن ماما سوى عشرين خطوة. وراح يرتل في فرقة الترتيل ويعزف على الفلوت، وأحب الترانيم الكاثوليكية، ووجد الغذاء الطيب، وكان سعيداً. ولم يعكر عليه صفو العيش مع المسيو لومينتر غير إسراف هذا العازف في الشراب. وذات يوم تشاجر رئيس فرقة الترتيل الصغير مع رؤسائه، فجمع كراسات موسيقاه في صندوق، ورحل عن أنسي. وامرت مدام ديفاران روسو أن يصحبه حتى ليون. هناك سقط لومينتر على الطريق مغشياً عليه بفعل (البطاح) أي هذيان الحمى الذي يصيب مدمني الخمر. واستغاث جان-جاك بالمارة وقد أصابه الرعب، وأعطاهم العنوان الذي كان مدرس الموسيقى يبحث عنه، ثم فر راجعاً إلى أنسي وماما. "أن تعلقني بها بكل ما فيه من حساسية وصدق اقتلع من قلبي كل مخطط يمكن تصوره وكل حماقات الطموح. فلم أر سعادة في غير العيش بقربها، وما كنت لأخطو خطوة دون أن أشعر أن المسافة بيننا قد بعدت(31)". ولكن علينا أن نذكر أنه لم يتجاوز يومها الثامنة عشرة.

صفحة رقم : 12818

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ماما

فلما وصل إلى أنسي وجد أن المدام قد رحلت إلى باريس ولا أحد يعرف متى تعود. وأحس أنه وحيد مهجور، فراح ينفق اليوم تلو اليوم هائماً على وجهه في الريف، يتأسى بالمنظر إلى ألوان الربيع المشرقة وسماع زقزقة الطيور-هذه الطيور العاشقة بلا ريب. وكان أحب الأشياء إليه أن يستيقظ مبكراً ويرقب الشمس تطلع ظافرة فوق الأفق. ورأى في إحدى جولاته تلك أنستين راكبتين، تحثان جواديهما المترددين على خوض غدير أمامهما. وفي نوبة من نوبات البطولة أمسك بعنان أحد الجوادين وعبره الماء والآخر يتبعه. وكان على وشك المضي إلى حال سبيله لولا أن الفتاتين أصرتا على أن يصحبهما إلى كوخ يجفف فيه حذاءه وجواربه، فوثب على ظهر أحد الجوادين خلف الأنسة ج. تلبية لدعوتهما "فلما اضطرتت إلى الإمساك بها لأستقر في مكاني راح قلبي يدق وكانت دقائقه من العنف بحيث أحست بها" (32) في تلك اللحظة بدأ يكبر في هيامه بدمام دفار ان. وأنفق الشباب الثلاثة يومهم في رحلة خلوية معاً، وتجراً روسو فقبل يد إحدى الفتاتين ثم تركناه، فقفل إلى أنسي لا يكاد يعبأ بغياب ماما عنها. وقد حاول العثور على الأنستين ثانية، ولكن دون جدوى.

وما لبث أن عاد يضرب في الأرض من جديد، واصطحب هذه المرة خادمة مدام دفار ان إلى فريبورج. وإذا اخترق جنيف "ألفيتيني متأثراً بالغ التأثير حتى لم أكد أقوى على المضي في طريقي... فقد رفعت صورة الحرية (الجمهورية) روعي إلى الذرى" (33). ومن فيبورج مشى إلى لوزان. ولم يعرف التاريخ كاتباً شديداً بالمشي مثله. فمن جنيف إلى تورين إلى أنسي إلى لوزان إلى نوشاتل إلى برن إلى شامبري إلى ليون عرف الطريق واستمتع شاكراً بالمناظر والروائح والأصوات. "يطيب لي أن أمشي على سجيّتي، وأن أفق حيث أشتهي، فحياة المشي ضرورية لي. والسفر على الأقدام، في ريف جميل، وجو بديع،

صفحة رقم : 12819

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ماما

وبهدف لطيف أختم به رحلتي-هذا أنسب ما يروقني من ضروب العيش" (34). ذلك أنه لعدم شعوره بالاطمئنان في حضرة الرجال الذين أصابوا حظاً من التعليم، وبالجمل والعي في خضرة النساء الجميلات، كان يسعد إذا انفرد بالغابات والحقول، والماء، والسماء، فجعل من الطبيعة مستودع سره ونجواه وأفضى إليها بغرامياته وأحلامه في حديث صامت. وخيل إليه أن حالات الطبيعة المتقلبة تمتزج أحياناً في تناغم صوفي مع حالته النفسية. ولم يكن أول من أشعر الناس بجمال الطبيعة، إلا أنه كان أشد رسلها تحمساً لها وتأثيراً فيهم فنصف شعر الطبيعة منذ روسو هو جزء من تراثه، لقد شعر هالزر من قبل بجلال جبال الألب ووصفه، ولكن روسو جعل من سفوح سويسرا على طوال الساحل الشمالي لبحيرة جنيف ملكه الخاص، وأورث الأجيال عبير كرومها المدرجة. فلما أراد اختيار موقع لبنيته يسكنه شخصيتي جولي وفولمار أسكنهما هنا، في كلارنس بين فيفيه ومونترو، في فردوس أرضي امتزجت فيه الجبال والخضرة والماء والشمس والتلوج. وانتقل إلى نوشاتل حين لم يصب نجاحاً في لوزان "هنا... بفضل تدريسي للموسيقى اكتسبت بعض الإلمام بها دون وعي مني." (35)

وفي بلدة قريبة تدعى بودري التقى بحبر يوناني يلتبس بعض المال لترميم كنيسة القبر المقدس في أورشليم، فرافقه روسو مترجماً له، ولكنه تركه في سوليو ومشى خارجاً من سويسرا داخلاً فرنسا. وفي أثناء سيره دخل كوخاً وسأل صاحبه أيستطيع شراء طعام، فقدم له الفلاح خبز الشعير واللبن، وقال إن هذا كل ما يملك، ولكنه حين رأى أن جان-جاك ليس جابي ضرائب فتح باباً مسحوراً نزل منه ثم عاد بخبز قمح، وبيض، ونبيد. وعرض روسو أن يدفع ثمن



طعامه، ولكن الفلاح أبى أن يقبله، وعلل سلوكه بأنه مضطر إلى إخفاء خير الطعام مخافة أن يفرض عليه المزيد من الضرائب. إن ما قاله لي..خلف في ذهني أثراً لا يمحي،

صفحة رقم : 12820

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ماما

وبذر بذور تلك الكراهية التي لا تطفأ والتي نمت منذ ذلك الحين في قلبي، الكراهية لما يقاسيه هؤلاء التعساء من عنت، والسخط الشديد على ظالمهم.(36) وفي ليون أنفق أياماً بغير مأوى، يفترش المقاعد في الحدائق العامة أو ينام على الأرض، واستخدم حيناً في نسخ الموسيقى. فلما سمع أن مدام دفاران. تسكن شامبري (على أربعة وخمسين ميلاً إلى الشرق)، انطلق لينضم إليها من جديد. ووجدت له وظيفة سكرتير لملاحظ الأقاليم (1732-34) وكان خلال ذلك يعيش تحت سقفاها، لا ينقص من سعادته بعض الشيء غير ما كشف من أن مدير أعمالها كلود أنية هو أيضاً يعشقها. ويتضح ما طرأ على غرامه من فتور من هذه الفقرة الفريدة في اعترافاته:

"لم أستطع أن أعلم، دون ألم، أنها تعيش في مودة أوثق مع شخص غيري...ومع ذلك فبدلاً من أن أشعر بأي كراهية للشخص الذي تفوق عليّ على هذا النحو وجدت الود الذي أكنه لها يمتد فعلاً إليه، فلقد تمنيت لها السعادة فوق كل شيء وإذ كان معنياً بخطتها التي توصلت بها للسعادة، فقد رضيت له السعادة هو أيضاً واعتنق خلال ذلك أفكار خليلته تماماً وشعر بصداقة مخلصه لي...وهكذا عشنا في وحدة أسعدتنا جميعاً، وحدة لا يقوى على فصم عراها غير الموت. ومما يدل على سمو خلق هذه المرأة الودود أن كل الذين أحبوا أحبوا بعضهم بعضاً، فحتى الغيرة والتنافس أذعنا للعاطفة التي ألهمتهم إياها وما رأيت قط واحد ممن أحاطوا بها بضمير أقل حقد للآخرين. فليتوقف القارئ هنيهة عند هذا المديح، وإذا استطاع أن يتذكر أي امرأة أخرى تستحقه فليرتبط بها إن أراد لنفسه السعادة(37). أما الخطوة التالية في هذه الرواية الغرامية المتعددة الأطراف فكانت هي

صفحة رقم : 12821

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ماما

أيضاً نقيضاً لكل قواعد الزنا. ذلك أن مدام دفاران حين أدركت أن جارة لها تدعى المدام دمانتون تتطلع إلى أن تكون أول من يعلم جان-جاك فنون الغرام، عرضت نفسها عليه خلية دون أن يكون في هذا الوضع إضراراً بخدماها المماثلة لأنية، إما لأنها أبت أن تسلّم بالتفوق لجارتها وإما لأنها أرادت أن تحمس الفتى من ذراعين أقل حناناً من ذراعيها وأنفق جان-جاك ثمانية أيام يدير الأمر في رأسه، فقد كان من أثر طول ألفته بها أن أفكاره كانت بنوية أكثر

منها شهوانية. يقول "لقد أحببتها حباً منعني من أن اشتبهها(38)" وكان آنذ يعني من الأمراض التي قدر لها أن تطارده حتى النهاية، وهي التهاب المثانة وضيق مجرى البول. وأخيراً، وبكل الحياء المنتظر منه، ارتضى العمل باقتراحها. يقول:

"وأخيراً جاء اليوم الذي كنت أخشاه أكثر مما أتوق إليه... فلقد كان قلبي يحبذ غرامياتي دون أن يشتهي الجائزة. ولكنني حصلت عليها رغم ذلك. ورأيتني لأول مرة بين ذراعي امرأة، وامرأة أعبدها. أكنت سعيداً؟ لا لقد ذقت اللذة، ولكنني لا أدري أي حزن طاع سمم هذه التعويذة فلقد شعرت كأني أقترف سفاح المحارم. وبينما كنت أضمها بين ذراعي في نشوة الفرح أغرقت صدرها مرتين أو ثلاثاً بدموعي. أما هي فلم تكن بالحزينة ولا بالفرح، بل كانت هادئة وهي تعانقتي وتقبلي ولم تستشعر أي انتشاء، ولا أحست بالندم قط، لأنها لم تكن شهوانية على الإطلاق، ولم تكن تبحث عن اللذة بتاتاً(39).

وقد عزاروسو إلى سم الفلسفة مناورات هذه السيدة وهو يستحضر ذكرى هذا الحدث البارز فيما بعد. قال: "أكرر أن كل مشاعرها كانت نتيجة خطئها لا نتيجة شهواتها. فلقد كانت كريمة المولد، نقية القلب، نبيلة السلوك، وكانت رغباتها سوية فاضلة، وذوقها رقيقاً مرهفاً. وبدا أنها خلقت لذلك الطهر الرائع طهر الآداب-الذي أحبته على الدوام ولكنها لم تمارسه قط، لأنها بدلاً من أن تصغي إلى أوامر قلبها اتبعت عقلها الذي ضللها... ومن

صفحة رقم : 12822

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ماما

سوء حظها أنها كانت تعتر بالفلسفة، وكان من أثر المبادئ الخلقية التي استخلصتها من هذه الفلسفة إفساد الفضيلة التي أشار بها قلبها(40).

ومات أنه في 1734. واستقال روسو من وظيفته في خدمة ملاحظ الإقليم، وتولى أعمال المدام وقد وجدها في حال خطيرة من الخلل تشرف على الإفلاس فحصل على بعض المال بتدريس الموسيقى، وفي 1737 آلت إليه ثلاثة آلاف فرنك استحققت له من ميراث أمه، فأنفق بعضها على الكتب، وأعطى الباقي لمدام دفارن. ثم لزم الفراش، فمرضته ماما بحنان. ولما لم يكن لبيبها حديقة فقد استأجرت (1736) كوخاً في ضاحية يسمى الشارميت هناك "سارت حياتي سيراً هادئاً غاية الهدوء" ومع أنه "لم يكن يحب قط أن يصلي في قاعة" فإن الخلاء خارج الكوخ حفزه لشكر الله على جمال الطبيعة وعلى مدام دفارن، وللب البركة الإلهية على رباطهما. وكان يومها شديد التعلق باللاهوت الكاثوليكي مع شائبة حزينة من الجانسية "فكثيراً ما عذبني خوف الجحيم(41)".

وكان يقلقه اكتئاب هو ضرب من الوهم كان رائجاً في ذلك العهد. وقد خيل إليه أن هناك ورماً في غشاء قريب من قلبه، فقصد مونبلييه في مركبة البريد: وفي الطريق هدأ من اكتابه بما زعم أنه تحقيق لوصل بمدام دلارناج (1738) وكانت أملاً لفتاة في الخامسة عشرة. فلما عاد إلى شامبري وجد أن مدام دفارن تجرب علاجاً مماثلاً، وأنها اتخذت عشيقاً جديداً لها من صانع باروكات شاب يدعى جان فنتسنريد. واحتج روسو؛ فقالت له إنه يسلك كالأطفال، وأكدت له أن في حبها متسعاً لاثنين باسم جان. ولكنه أبى أن "يحظ من كرامتها على هذا النحو"، فاقترح عليها أن يعود إلى وضعه القديم. فزعمت أنها موافقة، ولكن استياءها من تخليه عنها بهذه السرعة أصاب محبتها له بالفتور. وأعتكف في شامريت وأقبل على دراسة الفلسفة.

ولول مرة (حوالي 1738) وعى بنسائم "التنوير" الهابة من باريس وسيريه. فقرأ بعض أعمال نيوتن، وليننتز، وبوب، وقلب في مناهات

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ماما

قاموس بيل. ثم عاد إلى درس اللاتينية، وأحرز في ذلك بجهده وحده تقدماً أكثر مما أحرز من قبل على يد معلميه ووفق إلى أن يقرأ شذرات من فرجل، وهوراس، وتاسيتوس، وترجمة لاتينية لمحاورات أفلاطون. وطلع عليه لايبويبر، وبسكال، وفنيلون، وبريفوست، وفولتير، وكانهم رؤيا أدارت رأسه "لم بفتنا شيء مما كتبه فولتير"؛ والواقع أن كتب فولتير هي التي "أوحت إليّ بالرغبة في أن أتأق في الكتابة، وحملتني على محاولة تقليد تلوينات ذلك الكتاب الذي فتنت به أية فتنة (42)" وعلى غير وعي منه فقد اللاهوت القديم الذي كان من قبل إطار أفكاره، شكله وصرامته، فوجد نفسه يفكر دون رعب في عشرات الهرطقات التي كانت تبدو له في شبابه فاضحة شائنة. وحل محل إله الكتاب المقدس إيمان حار يوشك أن يكون مشوباً هو الإيمان بوحدة الوجود. هناك إله، نعم، والحياة بدونها لا معنى لها ولا يطبقها الإنسان، ولكنه ليس ذلك الإله الخارجي، المنتقم، الذي تصوره الناس القساة الجبناء؛ إنما هو روح الطبيعة، والطبيعة في صميمها جميلة، والطبيعة البشرية في أساسها خيرة. وعلى هذا الإيمان، وعلى بسكال، سيقم روسو فلسفته.

وفي 1740 وجدت له مدام ديفاران وظيفة معلم خاص لولدي المسيو بونو دمايليه، رئيس بلدية ليون وافترق عنها دون لوم ولا عتاب من أحد الطرفين، وأعدت له ثياب الرحلة، وخاطت لها بعض الملابس بيديها اللتين كانتا فتنة له يوماً ما.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ليون والبندقية وباريس

4- ليون والبندقية وباريس

1749 - 1740

كانت أسرة مابليه حافزاً جديداً لروسو. وكان رئيس البلدية أكبر أخوة ثلاثة نابيين، أحدهم جابريل بونو دمايليه الذي اقترب من الشيوعية، والآخر هو الأبيه إيتين بونو دكونديك، الذي أوشك أن يكون مادياً. وقد التقى روسو بثلاثتهم وبالطبع وقع في غرام مدام دمايليه، ولكنها كانت من السماح بحيث لم تعر الأمر أهمية. واضطر جان-جاك أن

ينصرف إلى مهمته، وهي تعليم ولديها. فأعد للسيد دمابليه بياناً بأفكاره التربوية، وكانت في بعضها تتفق والمبادئ التحررية التي ستعرض عرضاً رومانسياً ممتازاً في كتابه "إميل" بعد اثنين وعشرين عاماً، وفي بعضها تناقض رفضه اللاحق لـ"الحضارة"، لأنها اعترفت بقيمة الفنون والعلوم في تطوير النوع الإنساني. وكان يلتقي مراراً برجال كالأستاذ بورد عضو أكاديمية ليون (وكان صديقاً لفولتير)، فنشرب قديراً أكبر من "التنوير"، وتعلم أن يهزأ بالجهل والخرافة الشائعين بين الجماهير. ولكنه ظل طوال حياته مراقباً. فذات يوم رأى شابة عارية تماماً إذ اختلس النظر إليها وهي تستحم في الحمامات العامة، وتوقف قلبه عن النبض، فلما خلا إلى نفسه في حجرته وجه إليها خطاباً جريئاً غفلاً من التوقيع قال فيه:

"لا أكاد أجرؤ يا أنسة بالظروف التي أدين لها بسعادة رؤيتي إياك وعذاب حبي لك. فقد فتنني فيك ما هو أكثر من ذلك الجسد النحيل اللطيف الذي لا ينتقص العري من جماله، وذلك القوام الأنيق، وتلك الخطوط الرشيقية... ما هو أكثر من نضارة الزئبق المنثور على شخصك بهذا السخاء الكثير... أنها حمرة الخجل الناعمة التي رأيتها تكسو جبينك حين أسفرت عن وجودي لعينيك بعد أن جردتم بخبث شديد-بغناء بيتين من الشعر(43). وكان الآن وقد شب إلى السن التي تغريه بعشق الصبايا، فكادت كل

صفحة رقم : 12825

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ليون والبندقية وباريس

فتاة حسنة الطلعة تنثير أشواقه وأحلامه، ولكنه تعلق على الأخص بسوزان سير. "مرة-وا أسفاه، مرة واحدة فقط في حياتي؟ لمس فمي فمها. إيه أيتها الذكرى؟ هل أفقدك في القبر؟" وبدأ يفكر في الزواج منها، ولكنه اعترف لها قائلاً "ليس لدي ما أقدمه لك سوى قلبي(44)" ولما لم يكن قلبه عملة قانونية، فإن سوزان قبلت يد غيره، وانكأ روسو إلى أحلامه من جديد.

إنه لم يخلق ليكون عاشقاً ناجحاً ولا معلماً كفاً.

"كان لدي من المعرفة القدر اللازم تقريباً لمدرس خاص...ويدا أن رقة طبيعي الفطرية تهينني لهذا العمل، لولا أن تعجل الأمور اختلط بهذا الطبع فإذا سارت الأمور رخاء ورأيت أن الجهود التي لم أضن بها أثمرت كنت ملاكاً، أما إذا أخفقت فقد كنت أنقلب شيطاناً. فإذا لم يفهمني تلميذاي تعجلت الشرح، وإذا أظهرت أي أمارات على الطبع المشاكس كان ذلك يستفزني استقزازاً يكاد يحملني على قتلها...وصممت على تركهما بعد أن اقتنعت بأنني لن أنجح أبداً في تعليمهما التعليم الصحيح. وتبين المسيو دمابليه هذا بالوضوح الذي تبينته به وأن كنت ميالاً إلى الاعتقاد بأنه ما كان ليطردي قط لولا أنني أعفيتها من هذا العناء".

وهكذا استقل مركبة البريد قافلاً إلى شامبري بعد أن استقال وهو حزين، أو طرد طرداً كريماً. والتمس العزاء من جديد بين ذراعي ماما. فاستقبلته هي في تल्प وأفسحت له مكاناً على مائدتها مع عشيقها. ولكنه لم يكن سعيداً في هذا الموقف، فأغرق نفسه في الكتب والموسيقى، وابتكر طريقة للتدوين الموسيقي تستخدم الأرقام بدلاً من الرموز. ولما عزم على الذهاب إلى باريس وعرض اختراعه على أكاديمية العلوم أتى الجميع على قراره. وفي يوليو 1742 عاد إلى ليون ملتسماً خطابات تقديم إلى الأعيان في العاصمة. وأعطاه آل مابليه خطابات إلى فوننتيل

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; مقدمة -&gt; روسو جواب الأفاق -&gt; ليون والبندقية وباريس

والكونت دكايلوس وقدمه بورد إلى الدوق درشليو. ومن ليون استقل المركبة العامة إلى باريس تداعب رأسه أحلام المجد.

وكانت فرنسا آنذاك مشتبكة في حرب الوراثة النمساوية (1740-48) ولكن الحرب كانت تدور رحاها على أرض أجنبية، وعليه فقد سارت باريس سيرتها الأولى وواصلت حياة المرح البههي والاضطراب الفكري، حياة المسارح الناطقة بمسرحيات راسين، والصالونات المتألقة بالهرطقات والسخريات، والأساقفة الذين يقرؤون فولتير، والشحاذين الذين ينافسون البيغايا، الباعة الجوالين الذين ينادون على بضائعهم، والصناع الذين يبذلون العرق في سبيل لقمة العيش إلى هذه الدوامة أقبل جان-جاك روسو، وهو في الثلاثين من عمره، في أغسطس 1742، وفي كيسه من المال خمسة عشر جنيهاً. واستأجر حجرة في فندق سان-كنتان بشارع الكوردلييه قرب السوربون-"شارع حقير وفندق تعس، وحجرة بائسة(46)" وفي 22 أغسطس قدم إلى الأكاديمية "مشروعاً عن علامات جديدة للتدوين الموسيقي". ورفض العلماء مشروعه في مجاملة لطيفة. وشرح له رامو رأيهم قائلاً "أن علامتك حسنة جداً... ولكن عليها اعتراضاً، هو أنها تحتاج إلى إعمال الذهن، وهو أمر لا يمكن دائماً أن يرافقه سرعة التنفيذ. أما موضوع علامتنا فيصور للعين دون تزامن مع هذه العملة" واعترف روسو بأن الاعتراض لا يمكن التغلب عليه(47).

وأناحت له خطابات التقديم التي أخذها معه ذلك الاتصال بفونتيل الذي كان هو في عامه الخامس والثمانين أحرص على طاقته من أن يأخذ روسو مأخذ الجد، والاتصال بماريفو الذي قرأ مخطوطة مسرحية روسو الهزلية "نارسيس" واقترح أن يدخل عليها تحسينات، وذلك رغم انشغاله بنجاحه روائياً وكاتباً مسرحياً وقابل الوافد الجديد ديدرو، الذي لم يكن بعد قد نشر أي مؤلف يؤبه به، وكان يومها يصغر جان-جاك بعام واحد.

"كان ولوعاً بالموسيقى، يعرفها نظرياً... وقد حدثني ببعض

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; مقدمة -&gt; روسو جواب الأفاق -&gt; ليون والبندقية وباريس

مشروعاته الأدبية... وسرعان ما وثق هذا بيننا صلة دامت خمسة عشر عاماً، وأغلب ظني أنها كانت ستدوم إلى اليوم لولا أننا لسوء الحظ... أبناء حرفة واحدة"(48).

وكان يصاحب ديدرو إلى المسرح أو يلاعبه الشطرنج، والتقى روسو في تلك اللعبة بفيليدرو وغيره من مهرة لاعبيها، و"لم يكن عندي شك في أنني في النهاية سأتفوق عليهم جميعاً"(49). ووجد سبيله إلى بيت مدام دوبان وصالونها، وكانت ابنة المصرفي صموئيل برنار، وعقد صداقة مع ابن زوجها كلود دوبان دفرانكوي وخلال ذلك أوشكت نقوده على النضوب.

وبدأ يبحث من حوله عن عمل يستكمل به جهود أصدقائه في إطعامه. فعرضت عليه بنفوذ مدام بز نفال وظيفة سكرتير للسفارة الفرنسية في البندقية. وبعد أن قطع رحلة طويلة محفوفة بالخطر بسبب الحرب، وصل إليها في ربيع 1743 وقدم نفسه إلى السفير الكونت دمونتاجو. ويؤكد لنا روسو أن هذا الكونت كان أمياً تقريباً، وكان على السكرتير أن يفك شفرة الوثائق وأن يحررها، وكان يقدم رسائل الحكومة الفرنسية إلى مجلس شيوخ البندقية بشخصه لأنه لم ينسَ الإيطالية التي كان قد تعلمها في تورين وكان فخوراً بمنصبه الجديد، وشكا من أن مركباً تجارياً زاره لم يطلق المدافع تحية له مع أن هذه "التحية نالها من هم أقل شأنًا". (50) وتشاجر الرئيس والمرعوس على أيهما يظفر بالرسوم التي تدفع نظير استخراج السكرتير لجوازات السفر إلى فرنسا. وقد صلحت حال روسو بفضل نصيبه من هذه الرسوم، فتناول الطعام الطيب على غير العادة، واختلف إلى المسرح والأوبرا، ووقع في غرام الموسيقى الإيطالية والفتيات الإيطالية.

وذات يوم زار موسماً تسمى لابدوانا "لكيلا أبدو شديد البلاهة أمام رفاقي" وطلب إليها أن تغني فغنت، فنقدها دوكاتيه وهم بالانصراف، ولكنه رفضت أن تأخذ قطعة النقود دون أن تكون قد بذلت في نيلها

صفحة رقم : 12828

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> ليون والبندقية وباريس

جهداً فأرضاهما، وعاد إلى مسكنه "مقتنعاً كل الاقتناع بأنني سأترجع عواقب هذه الفعلة، فكان أول شيء فعلته أنني استدعيت جراح الملك ألتمس منه الدواء "ولكن الطبيب" أقنعني بأن في خلقتي ما يجعلني لا أقبل العدوى بسهولة" (51) وبعد فترة أقام له أصدقاؤه حفلة يثاب فيها بجائزة هي الغانية الجميلة زوليتا فدعته إلى حجرتها وخلعت ثيابها. "وفجأة، بدلاً من أن اضطررم بنار الشهوة أحسست ببرودة قاتلة تسري في عروقي، وباشمئزاز ينفذ إلى أعماقي، فجلست وانخرطت بالبكاء كالأطفال". وقد علل عجزه هذا فيما بعد بأن أحد ثديي المرأة كان مشوهاً. أما زوليتا فقد انقلبت عليه هازئة وقالت له "دع النساء وشأنهن، وانصرف إلى درس الرياضة" (52).

وأوقف المسيو دمونتاجو صرف راتب روسو لأن راتبه هو كان متأخراً. فعادا إلى الشجار، ورفت السكرتير (1744) وشكا روسو إلى أصحابه في باريس وأرسل استفسار إلى السفير فأجاب "يجب أن أبلغكم كم كنا مخدوعين في السيد روسو. ذلك أن حدة طبعه ووقاحته الناجمين عن شدة اعتداده بنفسه، وعن جنونه، هما اللذان أفضيا به إلى الحال الذي وجدناه عليه. لذلك طردته كما يطرد خادم سيئ" (53) وقفل جان - جاك إلى باريس (11 أكتوبر) وطرح على الموظفين المختصين في الحكومة وجهة نظره في النزاع فلم ينصفوه. فلجأ إلى مدام ديز نفال، ولكنها رفضت أن تستقبله. فأرسل إليها خطاباً عنيفاً نستطيع أن نحس فيه لفحات الثورة الفرنسية البعيدة:

"كنت مخطئاً يا سيدتي، فقد ظننتك منصفة فإذا بك "نبيلة" فقط، وكان يجب عليّ أن أذكر هذا وأن أدرك أنه لا يليق بي وأنا رجل غريب أنتمي إلى طبقة العامة - أن أشكر أحد السادة. ولو أن قدرتي رمانية ثانية في قبضة سفير بهذا الخلق لكابدت آلامي دون شكوى. فإذا كان مفتقراً إلى الإحساس بالكرامة، ينقصه سمو النفس، فذلك لأن النبالة في غنى عن هذا كله، وإذا افتقرن بكل ما هو حقير دنيء في بلد من أشد بلاد الله

صفحة رقم : 12829

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ليون والبنديقية وباريس

فساداً، فذلك لأن أجداده خلقوا له من الشرف ما يكفيهِ؛ وإذا عاش الأوغاد، أو كان هو نفسه وغداً، وإذا أكل على خادم أجره، إذن يا سيدتي فلن أخلص إلا إلى هذا الرأي، وهو أن من حسن حظ المرء ألا يكون وليد أفعاله هو. فهو لاء الأجداد-من كانوا؟ أشخاص لا شهرة لهم، ولا مال، نظراني، كان لهم موهبة من نوع ما، وبنوا لأنفسهم سمعة، ولكن الطبيعة تبذر بذرة الخير والشر، أعطتهم نسلًا حقيراً (54)".

ثم أضاف روسو في "الاعترافات":

"لقد خلفت عدالة شكواي وعدم جدواها في ذهني بذور السخط على نظمنا الاجتماعية الحمقاء التي تضحي فيها دائماً رفاهية الشعب والعدل الحقيقي في سبيل مظهر للنظام ما أنزل الله به من سلطان، لا ثمرة له إلا أنه يضيف موافقة السلطة العامة إلى ظلم الضعفاء وبغي الأقوياء (55)".

ولما عاد مونتاجو إلى باريس أرسل روسو "بعض المال تسوية لحسابي... وتسلمت من أعطاني وسددت كل ديوني، وعدت يا مولاي كما خلقتني. "واستقر ثانية في فندق سان-كنتان وارترق بنسخ مدونات الموسيقى. ولما سمع النبيل الذي كان يحمل أنند لقب دوق أوليان بفقره أعطاه كراسات موسيقى لينسخها مشفوعة بخمسين جنيهاً ذهبياً، فاحتجز روسو منها خمسة ورد الباقي لأنه يزيد على حقه (56).

وكان ما يكسبه أقل كثيراً مما يتيح له أن يعول زوجة، ولكنه رأى أن في استطاعته أن يعول خليفة إذا أحكم التدبير وكان من بين من يؤكلونه في فندق سان-كنتان صاحبة الفندق، وبعض الأباء الدينيين المفلسين، وشابة تخدم الفندق غسالة أو خياطة. وكان في هذه المرأة، واسمها تريبز لفاسير، ما في جان-جك من إجحام وتردد، ووعي بالفقر وأن لم تكن فخورة بفقرها مثله. وكان يدافع عنها إذا عاكسها الأباء. وانتهى بها الأمر إلى أن ترى فيه حاميتها، وسرعان ما وجد الواحد منهما سبيله إلى حضن صاحبه (1746) وبدأت أصرحها بأنني لن أتخلى عنها ولن أتزوجها (57)".

واعترفت بأنها ليست عذراء، ولكنها أكدت له أنها لم تأثم غير مرة واحدة،

صفحة رقم : 12830

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ليون والبنديقية وباريس

وكان ذلك منذ أمد بعيد. فصيح عنها صفاً جميلاً، مؤكداً لها أن عذراء العشرين مخلوق نادر الوجود في باريس على أي حال.

وكانت مخلوقة بسيطة لا سحر فيها ولا دلال، لا تستطيع الكلام في الفلسفة أو السياسة كنساء الصالونات، ولكنها تعرف كيف تطهو، وتدبر شؤون البيت وتحتمل في صبر نزواته وعاداته الغريبة. وكان يتكلم عنها عادة باعتبارها "مدبرة البيت" أما هي فتقول عنه "رجلي" وندر أن اصطحبها في زيارته لأصدقائه، لأنها ظلت على الدوام مراة ذهنية، كما ظل هو على الدوام مراهاً خلقياً.

"حاولت أول الأمر أن أصلح عقلها، ولكن جهودي أدراج الرياح. ذلك أن عقلها بقي على ما فطرته الطبيعة، فهو لا يقبل التثقيف. ولا يجلني أن اعترف أنها لم تعرف قط كيف تقرأ جيداً، وإن كانت تكتب كتابة لا بأس بها.. ولم تستطع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب، أو تميز بين عدد وآخر رغم ما بذلت من عناء في محاولة تعليمها. وهي لا تعرف كيف تعد النقود، ولا تحسب ثمن أي شيء فإذا تكلمت كانت الكلمة التي تخطر لها هي في أحيان كثيرة عكس الكلمة

التي تقصدها. وقد صنفت فيما مضى قاموساً بعباراتها لأروح به عن المسيو دلكسمبورج، وكثيراً ما ذاع أمر أغلاطها بين أخص أصحابي(85)".

فلما حملت "أرتيك أشد ارتباك" فماذا هو صانع بالأطفال؟ وأكد له بعض أصحابه أنه من المؤلف إرسال الأطفال غير المرغوب فيهم إلى الملجأ لقطاع. فلما ولد الطفل فعل هذا رغم احتجاجات تريز، ولكن بتعاون أمها (1747) وخلال الأعوام الثانية التالية ولد له أربعة أطفال تصرف فيهم على هذا النحو. وقد ألمع بعض الشكك إلى أن روسو لم يرزق أطفالاً، وأنه اخترع هذه القصة ليخفي عجزه الجنسي، ولكن كثرة دفاعه عن تنصله هذا من المسؤولية تجعل هذه النظرية بعيدة الاحتمال. وقد أعتترف سراً بتصرفه في هذا الأمر لديدرو، وجريم، ومدام ديبنيه(59)؛ واعترف به ضمناً في كتابهم "إميل"؛ واستشاط غضباً على فولتير لأنه أذاع خبره، ثم أقر به صراحة في كتابه "الاعترافات" وأعرب عن ندمه. إنه لم يخلق للحياة العائلة، لأنه كان حزمة مرهفة من

صفحة رقم : 12831

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ليون والبندقية وباريس

الأعصاب، وجواباً شريداً في الجسد والروح. وكان يعوزه ذلك الاهتمام بالأطفال الذي يجعل الأب صاحباً رزيناً، ولم تكتمل رجولته قط.

في نحو هذه الفترة أسعده الحظ بأن يجد وظيفة مريحة. فقد اشتغل سكرتيراً لمدام دويان، ثم لابن أخيها. وحين أصبح دويان دفرانكوي أميناً عاماً للصندوق رقى روسو صرافاً براتب ألف فرنك في السنة. واتخذ الآن الضفيرة الذهبية، والجوارب الجوارب البيض، والباروكة، والسيف، كلها شارات حاكا بها الأدباء ثياب الطبقة الأرستقراطية ليجدوا طريقهم إلى بيوت النبلاء(60). وفي وسعنا أن نتصور ضيقه بشخصيته المنقسمة على ذاتها. وقد أستقبل في عدة صالونات وصنع أصدقاء جدد، منهم رينال، ومارمونييل، ودوكلو، ومدام دينيه، ثم فريدرش ملشيور جريم، الذي ارتبط به ارتباطاً حميماً جداً ومؤذياً جداً. وأختلف إلى حفلات العشاء المثيرة في بيت البارون دولباخ حيث كان دييدرو يقتل الآلهة بسلاح سماه خصومه فك حمار. في وكر الملحنين ذاك ذاب وتلاشى جل كتلكة جان-جاك.

وألّف الموسيقى خلال ذلك. وكان قد بدأ في 1743 مزيجاً من الأوبرا والباليه سماه "ربات الفنون الرشيقات" يحي به غراميات أناكربون، وأوفيد، وناسو، وأخرجت الأوبرا في 1745 محدثة بعض الضجة في بيت جابي الضرائب لايولفير، وقد سخر منها رامو وزعم إنها محاكاة لإنتحالات من الملحنين الإيطاليين، ولكن الدوق رشلير أعجب بها وعهد إلى روسو بتتقيح أوبرا وباليه تسمى "أعياد رامير" أعدها رامو وفولتير على سبيل التجربة. وفي 11 ديسمبر 1745 كتب روسو أول رسالة لأمير أدباء فرنسا:

"لقد ظللت خمسة عشرة عاماً أكد وأكده لأجعل نفسي جديراً باحترامك وبالعطف الذي تحبو به شباب الأدباء الذين تكتشف فيهم الموهبة. ولكني بفضل كتابتي موسيقى إحدى الأوبرات أجدني قد انقلبت موسيقياً. وأياً كان النجاح الذي تحققه جهودي الضعيفة فإنها ستكون في نظري جهوداً

صفحة رقم : 12832



قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> ليون والبندقية وباريس

رائعة لو كسبت لي شرف معرفتك إياي، والإعراب عن الإعجاب والاحترام العميق اللذين يشرفني أن يكنهما لك خادمك المتواضع المطيع جداً(61)".  
وأجاب فولتير: "سيدي، إنك تجمع في شخصك موهبتين وجدتا على الدوام منفصلتين على الدوام، فهذان مبرران طبيان بحملاني على تقديرك ومحبتك".  
وبهذين الخطابين من خطابات الحب بدأت خصومتها الشهيرة.

صفحة رقم : 12833

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

5- هل الحضارة مرض؟

في عام 1749 سجن ديدرو في فانسين عقاباً له على فقرات مهينة في كتابه "رسائل عن المكفوفين" وكتب روسو إلى مدام دبوبادور يلتمس الإفراج عن صديقه أو الإذن له بأن يشاركه سجنه. وخلال ذلك الصيف قام غير مرة برحلة دائرية طولها عشرة أميال بين باريس وفانسين ليزور ديدرو. وفي واحدة منها أخذ نسخة من مجلة الماركيز دفراني ليقرأ أثناء سيره. وهكذا وقع على الإعلان عن جائزة أكاديمية ديجون لأفضل مقال يجيب عن هذا السؤال "هل أعان إحياء العلوم والآداب والفنون على إفساد الأخلاق أم على تطهيرها؟" وأغراه الإعلان بدخول المسابقة، فهو الآن في السابعة والثلاثين، وقد أن الأوان ليحقق لنفسه الشهرة. ولكن هل بلغ من الإحاطة بالعلم أو الفن أو التاريخ مبلغاً يكفي لمناقشة مثل هذه الموضوعات دون أن يفضح ما تعلمه من قصور؟ وقد وصف في خطاب كتبه إلى مالزيرب في 12 مايو 1762 بحماسة العاطفية المتميزة تلك الرؤيا التي تراعت له أثناء هذه المسيرة. قال:  
"وفجأة أحسست أن مئات الأضواء المتألئة تخطف بصري. وتراحمت حشود من الخواطر النابضة بالحياة في ذهني بقوة واختلاط جعلاني اضطرب اضطراباً لا يوصف وأحسست برأسي يدوم في دوار كأنني مخمور، وضاق

صفحة رقم : 12834

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

صدري بخفقان عنيف. فلما عجزت عن السير لصعوبة التنفس ارتيمت على شجرة على الطريق وقضيت نصف ساعة في حال من الانفعال الشديد حتى أنني حين قمت وجدت مقدمة صدريتي كلها مبللة بالدموع. أوه، لو أتيت لي أن أكتب ولو ربع ما رأيت وأحسست تحت تلك الشجرة، فبأي وضوح كنت أميط اللثام عن كل تناقضات نظامنا الاجتماعي! بأي بساطة كنت أبين أن الإنسان بفطرته خير، وأن نظمنا هي التي جعلته شريراً (62)".

وهذه العبارة الأخيرة ستكون نشيد حياته المتردد، وتلك الدموع التي تدفقت على صدريته كانت منبعاً من المنابع العليا التي انبثقت منها الحركة الرومانسية في فرنسا وألمانيا. لقد كان في وسعه الآن أن يكسب قلبه في هجوم على كل تكلف باريس وتصنعها، وفساد أخلاقها، وزيف سلوكها المصقول، وإباحية أدبها، وشهوانية فنها، وتعالى طبقتها، وسفه أغنيائها الغليظ الذي تموله إبتزازاتهم من الفقراء، وجفاف الروح لحلول العلم محل الدين، والمنطق محل الوجدان. إنه بإعلانه الحرب على هذا الانحلال يستطيع أن يبرر بساطة ثقافته، وعاداته الريفية، وقلقه وضيقة في المجتمع، ونفوره من حيث القيل والقال، ومن الفكاهة التي تجردت من الاحترام، ويبرر احتقائه المتحدي بإيمانه الديني وسط إلحاد أصحابه. لقد عاد في أعماق نفسه كلفنياً كما كان، وذكر بشيء من الحنين تلك العفة التي لفتها في صباه. إنه بدخوله مسابقة ديجون سيرفع وطنه جنيف فوق باريس، وسيشرح لنفسه ولغيره لم كان سعيداً في ليشارميت، وشقياً غاية الشقاء في سالونات باريس.

فلما وصل إلى فانسين كاشف دييرو منيته في دخول المسابقة. فهل دييرو للفكرة، وأشار عليه بأن يهاجم حضارة جيلهما بكل ما في وسعه من قوة. فلن يجرؤ متسابق آخر على اتخاذ هذا الموقف، وسيكون موقف روسو فريداً في بابه عاد جان-جاك إلى مسكنه وهو يتحرق شوقاً

صفحة رقم : 12835

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

لهدم الآداب والعلوم التي كان دييرو يستعد للإشادة بها في "الموسوعة" أو القاموس العقلاني للعلوم والآداب والحرف: (1751 وما يليها) وكتبت "المقال" بطريقة فريدة جداً... فكرست له ساعات الليل التي جفاني فيها النوم، وكنت أتأمل في فراشي وجفاني مغمضتان، وأدير في ذهني المرة بعد المرة عباراتي بعناية واهتمام لا يصدقان. وحالما فرغت من المقال دفعته لدييرو فرضي عنه، وأشار ببعض تصويبات يجب في رأيه إجراؤها... وأرسلت المقال دون أن أخبر بأمره أحداً غيره، اللهم إلا جريم فيما أذكر (65)". أما أكاديمية ديجون فقد توجت مقاله بالجائزة الأولى (23 أغسطس 1740) -وهي ميدالية ذهبية وثلاثمائة فرنك، واتخذ دييرو الإجراءات بما عهد به من حماسة، لنشر المقال الذي سمي "مقالاً في الآداب والفنون والعلوم" وسرعان ما كتب إلى المؤلف يبلغه النبأ إن مقالك ساحر إلى حد فاق كل تصور، فلم يكن لهذا النجاح ضريب على الإطلاق (66)، وكأني بباريس وقد أدركت أنه هاهنا، في قلب حركة التنوير تماماً، قام رجل يتحدى عصر العقل، ويتحداه بصوت سيصغي إليه العالم. أما المقال فقد بدا في استهلاله مشيداً بانتصارات عصره:

"أنه لمشهد جليل جميل أن نرى الإنسان يرفع نفسه-إن جاز هذا التعبير-من العدم بجهوده هو؛ فيبدد بنور العقل كل السحب الكثيفة التي اكتتفتها بالطبعة فما فوق نفسه، وخلق بالفكر إلى أجواء الفضاء،

صفحة رقم : 12836

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

واشتمل بخطى عملاقة آفاق الكون الشاسعة كأنه الشمس؛ وأجل من ذلك وأعجب أنه انكفاً إلى نفسه ليدرس الإنسان ويصل إلى معرفة فطرته وواجباته وهدفه بكل هذه المعجزات رأيناها تجدد خلال الأجيال القليلة الأخيرة (67). ولا بد أن فولتير جاد بابتسامته الرضى عن فرحة هذا الاستهلال، فهاهنا تلميذ جديد لجماعة "الفلاسفة"؛ والرفاق الطيبين الذين سيقضون على الخرافة "والعار"؛ ثم ألم يكن لوشنقار الفتى هذا مساهماً في الموسوعة فعلاً؟ ولكن ما إن جاءت الصفحة التالية حتى اتخذت المناقشة وجهة مؤسفة. فقال روسو إن تقدم المعرفة هذا كله جعل الحكومات أعظم سطوة، فسحقت حرية الفرد واستبدلت الفضائل البسيطة والكلام الصريح لعهد أكثر خشونة وبدائية، نفاق اللباقة الاجتماعية.

"لقد أقصيت من بين الناس الصداقة المخلصة، والاحترام الحقيقي، والثقة الكاملة وتستررت الغيرة والريبة، والخوف، وبرودة العاطفة، والتحفز والكرامية، والغش، دائماً وراء ذلك القناع الواحد الخداع، قناع التأدب، والصراحة والكياسة اللتين يتباهى بها الناس، ذلك القناع الذي ندين به لنور عصرنا وقيادته. فلتطالب الآداب والفنون والعلوم بنصيبها الذي أسهمت به في هذا العمل المفيد" (68).

ويكاد فساد الفضائل والأخلاق نتيجة لتقدم المعرفة والفن أن يكون قانوناً من قوانين التاريخ "لقد غدت مصر أم الفلسفة والفنون الجميلة، وسرعان ما غزاها الغزاة" (69) أما اليونان التي كان يسكنها الأبطال يوماً ما فقد قهرت آسيا مرتين، وكانت "الآداب" يومها في المهد، ولم تكن فضائل إسبارطة قد حلت محلها مثلاً إغريقياً أعلى تلك الثقافة الأثينية المهذبة، وسفسطة السفطانيين، وتماتل بر اكستيليس الشهوانية؛ فلما بلغت تلك "الحضارة" أوجها، أطاح بها فليب المقدوني بضربة واحدة، ثم قبلت نير روما في استكانة. أما روما فقد غزت عالم البحر المتوسط كله يوم كانت أمة من الفلاحين

صفحة رقم : 12837

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

والجند، متمرسه بنظام صارم، فلما أسلمت نفسها للذات الأبيقورية، وأشدت ببداءات أوفيد وكاتلوس، ومارتيا، باتت مرتعاً للرديلة "وهزواً بين الأمم، وهدفاً لاحتقار الشعوب حتى الهمج منها (70). وحين عادت روما إلى الحياة في حركة النهضة الأوروبية، عادت الفنون والآداب تتخر في عافية المحكومين والحاكمين، وخلفت إيطاليا أوهي من أن تثبت للهجوم. فأخضع شارل الثامن ملك فرنسا توسكانيا ونابلي دون أن يمتشق حساماً تقريباً، وعزت حاشيته كلها هذا النجاح غير المتوقع إلى انصراف أمراء إيطاليا ونبلاتها باهتمام أعظم إلى تنقيف عقولهم دون الاهتمامات النشيطة والأعمال العسكرية (71)."

والآداب ذاته عنصر من عناصر الفناء:

"يحكى أن الخليفة عمر حين سئل في أمر مكتبة الإسكندرية وما يفعله بها أجاب: "وأما الكتب التي ذكرت فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامه" وقد

ساق أدباؤنا هذا الأسلوب في التفكير على أنه بلغ غاية السخف، ولكن لو أن البابا جريجوري الأكبر كان في مكان عمر، والإنجيل في مكان القرآن، لأحرقت المكتبة رغم ذلك، ولربما عد هذا أروع عمل قام به في حياته" (72).  
أنظر إلى تأثير الفلسفة الممزق لبعض "محبى الحكمة" هؤلاء يخبروننا بأنه ليس هناك شيء اسمه المادة، وغيرهم يؤكدون لنا أنه لا وجود لشيء إلا للمادة وليس إله آخر غير الكون ذاته؛ وطريق ثالث يعلن أن الفضيلة والرزيلة ليستا سوى أسمين، وأنه لا اعتبار لشيء إلا للقوة والمهارة فهؤلاء الفلاسفة "يقوضون أسس إيماننا ويحطمون الفضيلة. إنهم يسخرون من الكلمات القديمة التي نستعملها مثل "الوطنية" و"الدين" ويكرسون مواهبهم لهدم وتشويه كل ما نقدسها غاية التقديس(73)". ومثل هذا الهراء ما كان ليعمر في العصور القديمة بعد موت صاحبه، أما الآن فيفضل الطباعة "ستبقى إلى الأبد تأملات هوبز وسبينوزا المؤذية. إذن فاختراع الطباعة كان من أفدح

صفحة رقم : 12838

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

الكوارث في تاريخ الإنسانية، ومن السهل أن نرى أن الملوك في المستقبل سيحرصون على إقصاء هذا الفن الرهيب عن ممالكهم حرصهم من قبل على تشجيعه" (74).  
ولنلاحظ ما أوتيت الشعوب التي لم تعرف قط الفلسفة أو العلم أو الأدب من قوة وتفوق؛ الفرس في عصر كورشن أو الألمان كما وصفن تاسيتوس، أو "في زماننا هذا الأم البسيطة (سويسرا) التي لم تقوَ حتى الشدائد والكوارث على قهر بسالتها المشهورة، والتي لم يستطع أي مثال أن يفسد أمانتها" وأضاف الجنيفي الفخور إلى هذه الشعوب "تلك الأمم السعيدة التي لم تعرف حتى أسماء الكثير من الرذائل التي يصعب القضاء عليها، متوحشي أمريكا الذين لم يتردد مونتين في تفضيل طريقة حكمهم البسيطة الفطرية، لا على قوانين أفلاطون فحسب، بل على أكمل الرؤى التي تستطيع الفلسفة أن تستشرها" (75).  
إذن فاي نتيجة ينبغي أن نخلص إليها؟ هي أن "الترف والإسراف، والرق، كانت في جميع الأجيال سوط عذاب سلط على جهود كبرياننا للخروج من حالة الجهالة السعيدة تلك التي وضعنا فيها حكمة العناية الإلهية. فليتعلم البشر ولو مرة أن الطبيعة كانت تحميمهم من العلم، تماماً كما تخطف الأم سلاحاً خطراً من يدي ولدها" (76).  
والجواب عن سؤال الأكاديمية العالمية هو أن العلم إذا تجرد من الفضيلة كان فحاً، وإن التقدم الحقيقي الوحيد هو التقدم الخلقى، وإن رقي العلم قد أفسد أخلاق البشر أكثر مما طهرها، وإن الحضارة ليست ارتقاء الإنسان إلى وضع أسمى، بل سقوطه من بساطة ريفية كانت فردوس البراءة والسعادة.  
وقبيل ختام المقال كبح روسو جماح قلمه وألقى ببصره في شيء من الخوف على أشلاء العلم، والفن، والأدب، والفلسفة، التي خلفها في إثره وتذكر أن صديقه ديدرو يعد موسوعة كرسها لتقدم العلم. فاكتشف فجأة أن بعض الفلاسفة ككيكن وديكارت كانوا "معلمين عظاماً" ورأى أن النماذج الحية من هذه السلالة ينبغي أن يرحب بهم حكام الدول مشيرين لهم. ألم يعين

صفحة رقم : 12839

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

شيشيرون قنصلاً لروما، وأعظم الفلاسفة المحدثين قاضياً لقضاة إنجلترا (77)؟ ولعل ديدرو حشر تلك السطور في المقال، ولكن جان-جاك كان صاحب الكلمة الأخيرة:  
"أما نحن البشر العاديين الذين لم تنشأ السماء أن تحبونا مواهب عظيمة فلنظل في جهالتنا. ولنترك لغيرنا مهمة تعليم الناس واجباتهم، ولننصرف إلى القيام بواجباتنا. أيتها الفضيلة أيتها المعرفة السامية للعقول البسيطة أليست مبادئك منقوشة على كل قلب؟ وهل نحن في حاجة، لكي نتعلم نواميسك إلى أكثر من.. الإصغاء لصوت الضمير؟ هذه هي الفلسفة الصادقة التي يجب أن نتعلم الفناعة بها(78)".

ولم تدر باريس أنأخذ هذا المقال مأخذ الجد، أم تقسره على أنه محاولة مأكرة في المبالغة والمفارقة كتبها المؤلف بخبث. وقال بعضهم (فيما روى روسو) (79) أنه لم يصدق كلمة واحدة مما كتب. أما ديدرو الذي آمن بالعلم وضاق بقيود العرف والأخلاق فيبدو أنه أستحسن مبالغات روسو باعتبارها عقاباً افتقر إليه المجتمع الباريسي، وأما حاشية الملك فقد حبذت المقال باعتباره توبيخاً للفلاسفة السفهاء الهدامين كانوا يستحقونه منذ أمد بعيد. (80) ولا بد أن نفوساً حساسة كثيرة ضاقت كهذا الكاتب البليغ بما في باريس من ثرثرة حمقاء وبريق كاذب. وقد عبر روسو عن مشكلة تظهر في كل مجتمع متقدم، فهل ثمرات التكنولوجيا تستأهل ما في الحياة المصنعة من عجلة، وتوترات، ومناظر، وضجيج، وروائح؟ وهل التوتر يقوض الأخلاق؟ وهل من الحكمة أن نمضي وراء العلم إلى خراب شامل، ووراء الفلسفة إلى اليأس من كل رجاء مشدد للعزائم؟  
وانبرى العديد من النقاد للدفاع عن الحضارة منهم بورد عضو أكاديمية ليون، ولاكا عضو أكاديمية روان، وفورميه عضو أكاديمية برلين، ولا ننس ستانسلاس لسكفنسكي، الطبيب القلب ملك بولندا السابق ودوق اللورين اللاحق. وأشار الأدباء إلى أن هذا الهجاء لم يزد على أن توسع

صفحة رقم : 12840

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

في الشكوك التي أعرب عنها مونتيني في مقاله "عن أكلة لحوم البشر" وسمع غيرهم فيه بصوت بسكال يرتد من العلم إلى الدين، وبالطبع كان منات من "اللاهوتيين والقسيسين" قد أدانوا الحضارة منذ زمن بعيد باعتبارها مرضاً أو خطيئة. وكان في وسع اللاهوتيين أن يزعموا أن "براءة" الحالة الطبيعية وسعادتها التي قال بها روسو، والتي سقط منها الإنسان، ليست إلا قصة جنة عدن معادة، فحلت "الحضارة" محل "الخطيئة الأصلية" علة في سقوط الإنسان، وفي كلتا الحالتين قضت الرغبة في المعرفة على سعادة الإنسان. أما المفكرون المعتزون بعلمهم مثل فولتير عجبوا لرجل في السابعة والثلاثين يكتب هذه المرثية الصيبانية ليهاجم منجزات العلم، ونعمة السلوك المهذب، وإلهامات الفن، وإما الفنانون أمثال بوشيه فلعلهم كانوا يتلون ألماً تحت سوط روسو، ولكن فنانيين آخرين مثل شاردان ولاتور كان في وسعهم أن يرموه بالتعميم العشوائي، وأما الجنود فقد سخروا من إشادة هذا الموسيقار الرقيق بالصفات العسكرية وبالتأهب الدائم للحرب.

واعترض جريم، صديق روسو، على أي رجوع إلى "الطبقية" فقال متعجباً "يالله من هراء شيطاني! ثم سأل سؤالاً شائكاً، ما الطبقة(81)؟" فلقد لاحظ بيل أنه لا تكاد توجد كلمة تستعمل استعمالاً أكثر غموضاً من كلمة... الطبيعة... وليس من المؤكد "أنه لأن شيئاً ما مصدره الطبيعة فهو إذن خير وصواب: فنحن نرى في النوع البشري أشياء سيئة جداً مع أنه لا يتطرق إلينا شك في أنها من عمل الطبيعة". (82) ولا ريب أن مفهوم روسو عن

الطبيعة البدائية كان تصويراً رومانسياً للطبيعة في حالتها المثالية. فالطبيعة (أي الحياة دون تنظيم وحماية اجتماعيين) "حمرأ في الناب والمخلب" وناموسها الأساسي هو : أقتل وإقتلت. والطبيعة التي أحبها جان-جاك؛ كما يتجلى حبه في قيفيه أو كلارنس كان ضرباً متحضراً من الطبيعة، روضها وهذبها الإنسان. والحق أنه لم يرد أن يترد إلى الأحوال البدائية بكل ما انطوت عليه من قذارة، وخطر، وعنف بدني، إنما أراد أن يعود إلى الأسرة الأبوية التي تفلح الأرض وتعيش على ثمارها، وهفت

صفحة رقم : 12841

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> هل الحضارة مرض

نفسه إلى التحرر من قواعد المجتمع المهذب وقبوده من الأسلوب الكلاسيكي، أسلوب الاعتدال والعقل. وقد أبغض باريس وحن إلى شارميت وقبيل ختام حياته، في كتابه "أحلام جوال وحيد" صور هذه الفكرة القاصرة تصويراً مثالياً فقال:

ولدت أكثر الناس ثقة بالناس، ولم تخذل هذه الثقة ولو مرة واحدة طوال أربعين سنة. فلما وقعت فجأة بين صنف آخر من الأشخاص والأشياء انزلت إلى منات الفخاخ. وافتتحت أنه ليس في مظهر الابتسامات المتكلفة التي أغدقت على غير الغش والكذب، فانتقلت بسرعة من النقيض إلى النقيض.... وأصبحت أشمئز من الناس... وأنا لم أعتد قد اعتياداً حقيقياً على المجتمع الحضري الذي كل ما فيه هم وإكراه والتزام، والذي يجعلني استقلالي الفطري عاجزاً فيه على الدوام عن ألوان الخضوع التي لا مندوحة عنها لكل من يريد العيش بين الناس(83). وفي "الاعتراقات" سلم في شجاعة بأن هذا "المقال" الأول (كان مفترقاً الافتقار كله إلى المنطق والنظام وإن زخر بالقوة والحرارة؛ فهو أضعف ما كتبت إطلاقاً من حيث الحجة، وأخلاه من الإيقاع والأنسجام(84)). ومع ذلك فقد رد على نقاده بقوة، وأكد مفارقاته من جديد. ومجاملة لستانسلاس استثنى شيئاً واحداً: فقال أنه بعد الرواية قرر ألا تحرق المكتبات أو تغلق الجامعات والأكاديميات "لأننا لن نجني من وراء هذا إلا إغراق أوروبا مرة أخرى في دياجير الهمجية(85)"; و"حين يفسد البشر فإن من الخير لهم أن يكونوا متعلمين عن أن يكونوا جهلة"(86). ولكنه لم يعدل عن أي فقرة من اتهامه للمجتمع الباريسي. ودليلاً على انسحابه منه أقلع عن لبس السيف والصفيرة الذهبية والجوارب البيضاء، وارتدى ما يرتديه رجال الطبقة الوسطى من رداء بسيط وباروكة أصغر. قال مارمونتيل "وهكذا منذ تلك اللحظة اختار الدور الذي سيلعبه، والقناع الذي سيلبسه". فإن كان هذا قناعاً فإنه أحسن لبسه، وأصر عليه إصراراً شديداً، حتى لقد أصبح جزءاً من صميم الرجل وغير وجه التاريخ.

صفحة رقم : 12842

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> باريس وجنيف

1754 - 1750

في ديسمبر 1750 اشتد على روسو مرض المئانة حتى ألزمه الفراش ستة أسابيع وزادته هذه المحنة نزوعاً إلى الاكتئاب والعزلة، وأرسل إليه معارفه الأغنياء أطباءهم ليعودوه، ولكن تطبيب ذلك الزمان لم يؤهلهم لمساعدته "فكلما امتثلت لأوامرهم ازددت شحوباً ونحولاً وهزالاً. ولم يوح لي خيالي... على هذا الجانب من القبر، بغير الألام المتصلة كابدتها من الرمل والحصاة وحصر البول، وكان كل ما يخفف من الألام غيري من المرضى كنفيع الشعير، والحمامات والفصد يضاعف من عذابي" (88).

وفي مطلع عام 1751 أنجبت له تريز طفلاً ثالثاً تبع أخويه إلى ملجأ اللقطاء. وقد علل هذا في فترة لاحقة بأنه كان أفقر من أن يربي أطفالاً، وأنه لو وكلهم إلى آل لقاسير لكان في ذلك بوارهم، وأنهم كانوا سيعبثون عبثاً منكرأ في عمله كاتباً وموسيقياً وأكرهه المرض على الاستقالة من وظيفته صرافاً لديوان دفرانكوي التخلي عن دخله منها، وراح منذ الآن يكسب معظم قوته بنسخ كراسات الموسيقى بواقع عشرة سنوات للصفحة. ولم يتلق روسو أي دخل من بيع "المقال" سواء كان سبب إهمال ديدرو أو شح الناشرين وتبين أن موسيقاه أكسب له من فلسفته. وفي 18 أكتوبر 1752، وبفضل نفوذ دوكلو، مثلت أوبريت روسو "عراف القرية" أمام الملك والبلاط في فونتبلو، ولقيت من النجاح ما أتاح لها عرضاً ثانياً بعد أسبوع وظفرت حفلة للجمهور في باريس (أول مارس 1753) باستحسان أشمل، ووجد المؤلف المعتكف نفسه مرة أخرى رجلاً يشار إليه بالبنان. وكان هذا "الفاصل" الصغير، الذي ألف روسو كلماته وموسيقاه، أشبه بالحن المصاحب "المقال": فالراعية كوليت، التي أحزنتها مغازلات كولان لفتيات المدينة، يرشدها عراف القرية إلى استمالتة ثانية بمغازلة غيره من الرجال، فيغار عليها كولان ويعود

صفحة رقم : 12843

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> باريس وجنيف

إليها، ثم ينشدان معاً أغاني راقصة تشيد بحياة الريف وتذم حياة المدينة. وحضر روسو الحفلة الافتتاحية وكاد يرضى عن المجتمع بعد الخصام.

"غير مسموح بالتصفيق أمام الملك، وعليه فقد كان كل شيء مسموعاً، وهذا يخدم المؤلف والتمثيلية. وسمعت من حولي همس النساء اللاتي يدون في حسن الملائكة. وكانت الواحدة تقول للأخرى في صوت خافت: "هذا رائع، هذا خلاب، ليس هناك لحن واحد لا ينفذ إلى الفؤاد" وقد أثار دموعي سروري بأنني أشعر هذا العدد الكبير من الأشخاص اللطفاء بهذه العاطفة، ولم أستطع أن أمسكها في اللحن الثنائي الأول حين لاحظت أنني لم أكن الوحيد الذي يبكي". (89)

في ذلك المساء بعث إليه الدوق دومون كلمة يطلب إليه الحضور إلى القصر في الساعة الحادية عشرة من صباح الغد ليقيم إلى الملك، وأضاف الرسول أن من المتوقع أن يفتح الملك المؤلف معاشاً. ولكن مئانة روسو أفسدت الخطة. يقول:

"أصدق أحد أن ليله هذا النهار الرائع كانت ليلة عذاب وحيرة؟ فقد كان أول خاطر لي إنني بعد أن أقدم للملك سأضطر إلى الانسحاب غير مرة وكانت هذه الضرورة قد سببت لي معاناة شديدة في المسرح: وقد تعذبني في الغد وأنا في البهو أو في حجرة الملك، بين جميع العظماء، منتظراً خروج جلالته. لقد كانت عنتي هي السبب الأهم في الحيلولة بيني وبين الاختلاط بالجماعات الراقية والاستمتاع بحديث الحسان... ولا يستطيع غير من خبر هذا الموقف أن يحكم بالفزع الذي يوحي به التعرض لخطر ه(90).

وعليه فقد أرسل كلمة يعتذر من الحضور. وبعد يومين وبخه ديرو على تضييعه فرصة كهذه تتيح رزقاً أنسب له ولتريز" وتحدث عن المعاش بحرارة أكثر مما كنت أتوقع في موضوع كهذا من فيلسوف... مع أنني شكرت له تمنياته الطيبة، فإنني لم أستطع أن أسيع مبادئه، الأمر الذي أثار بيننا نقاشاً حامياً هو أول ما وقع بيننا من نزاع(91). على أنه لم يحرم كل

صفحة رقم : 12844

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> باريس وجنيف

ربح من وراء تمثيلته. فقد أعجبت به مدام ديونبادو إعجاباً حملها على أن تمثل هي نفسها دور كولين في عرضها الثاني في البلاط، وأرسلت له خمسين جنبياً ذهبياً، وأرسل له لويس مائة(91) وراح الملك نفسه، "بأنكر صوت في مملكته يتغنى بلحن كولين الحزين" "لقد فقدت خادمي" وكان هذا إرهاباً بظهور جلوك.

وكان روسو خلال ذلك يعد مقالات عن الموسيقى للموسوعة "وقد كتبتها في عجلة شديدة، وكتابة سيئة لهذا السبب، في الشهور الثلاثة التي أتاحتها لي ديرو. وقسا رامو في نقد هذه المقالات في كتيب سماه "أخطاء حول الموسيقى في الموسوعة" (1755) وعدل روسو في المقالات، وجعلها أساساً لـ"قاموس الموسيقى" (1767) واعتبره معاصروه، باستثناء رامو، موسيقياً من أعلى طراز(93) وينبغي أن نعده الآن مؤلفاً مجيداً في فرع صغير من فروع الموسيقى، ولكنه كان ولا شك أكثر من كتب عن الموسيقى طرافة وإمتاعاً في ذلك الجيل.

ولما عزت فرقة من مغني الأوبرا الإيطالية باريس في 1752 تفجر الجدل حول مزايا كل من الموسيقى الفرنسية والإيطالية. وقفز روسو إلى المعركة بـ"رسالة في الموسيقى الفرنسية" (1753) يقول جريم إنه "يثبت فيها استحالة تلحين الموسيقى في ألفاظ فرنسية، وأن اللغة الفرنسية لا تصلح إطلاقاً للموسيقى، وإنه لم يكن قط للفرنسيين ولن يكون لهم أبداً موسيقى(94)". وكان روسو بكلية في صف إتساق الألحان (الميلوديا). كتب في روايته "أحلام جوال وحيد" يقول "غنيبا أغنية قديمة كانت أفضل كثير من النشاز الحديث(95)" وأي جيل لم يسمع تلك الشكوى؟ وفي مقاله "الأوبرا" الذي تضمنه قاموسه الموسيقي أعطانا إلماعاً لفاجنر، فعرف الأوبرا بأنها "مشهد درامي غنائي يحاول الجمع من جديد بين جميع مفاتن الفنون الجميلة في تمثيل حركة عاطفية مشبوبة... ومقومات الأوبرا هي القصيدة الشعرية، والموسيقى، والزخرفة: فالشعر يتحدث إلى الروح،

صفحة رقم : 12845



قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> باريس وجنيف

والموسيقى إلى الأذن، والصورة إلى العين...والدرامات اليونانية كان يمكن أن تسمى أوبرات(96)".  
وحوالي تلك الفترة (1752) رسم موريس كنتان دلاتور صورة لروسو بالباستيل(97)، التقط فيها ملامح جان-جاك مبنسماً، وسيمياً، أنيقاً، وقد أنكر دييرو الصورة لأنها لا تتفق والحقيقة(98). ووصف مارمونتيل روسو كما رآه في تلك السنوات في حفلات عشاء دولباخ فقال "كان قد ربح لتوه الجائزة...في ديجون...فيه تأدب يشوبه الإحجام، قد...يبلغ من للتواضع مبلغاً يقرب من التذلل. ترى عدم الثقة واضحة من خلال تحفظه المشوب بالخوف، وكانت عيناه المطرقتان ترقبان كل شيء بنظرة ملؤها الارتياح الحزين. وقل أن شارك في حديث، وندر أن كشف لنا عن دخيلة نفسه(99)".

وغدا مركز روسو بعد تنديده بالعلم والفلسفة بهذا العنف حرجاً بين جماعة الفلاسفة الذين سيطروا على الصالونات. وكان مقاله قد ألزمه بالدفاع عن الدين. وتروي مدام دينيه أنه في عشاء دعت إليه مدام كينو، وجدت المضيفة أن الحديث عن الدين أصبح نابياً، فرجت ضيوفها "أن يحترموا على الأقل الدين الطبيعي" وبادر بالرد المركزي دسان-لامبير، الذي كان مؤخراً مزاحماً لفولتير على حب دوشاتليه، وسيكون عما قليل مزاحماً لروسو على حب مدام دوديتو فقال "أنه لا يستحق من الاحترام أكثر من أي دين آخر". وتواصل مدام دينيه كلامها فتقول: "فلما سمع روسو هذا الرد غضب وتمتم بكلام أضحك الجماعة عليه". قال: "إذا كان من الجين أن يسمح الإنسان لآخر أن يغتاب صديقاً فإن من الإجماع أن يسمح لأحد بأن يتحدث عن إلهه الذي هو حاضر، وأنا أومن بالله يا سادة... واتجهت إلى سان لامبير وقلت له "إنك يا سيدي وأنت شاعر، ستوافقني على أن وجود كائن خالد، كلي السلطان، عظيم الذكاء، هو البذرة لأروع ضروب الحماسة". فأجاب "أعترف بأنه جميل أن نرى هذا الإله يوجه وجهه إلى الأرض،... ولكنها بذرة

صفحة رقم : 12846

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> باريس وجنيف

الحماقات"، وقاطعه روسو قائلاً "سيدي، سأبرح الحجرة إن زدت كلمة واحدة". والواقع أنه كان قد قام عن كرسيه وكان يفكر جدياً في الهروب لولا أن أعلن عن قدوم الأمير(100).

ونسي الجميع موضوع الجدل. وفي رواية وردت في مذكرات مدام دينيه، أن روسو قال لها أن هؤلاء الكفرة يستحقون النار الأبدية(101).

وجدد روسو الحرب على الحضارة في مقدمة مسرحيته الهزلية "نارسيس"، التي مثلتها فرقة الكوميدي فرانسيز في 18 ديسمبر 1752 "أن الميل إلى الآداب يكون دائماً إيذاناً في الشعب ببداية فساد سرعان ما يجعل به هذا الميل. ولا ينبعث هذا الميل في أمة إلا من منبعين خبيثين...التبطل، وشهوة الامتياز(102)". ومع ذلك استمر حتى عام 1754 يختلف إلى "مجمع" دولباخ المؤلف من أحرار الفكر. هناك استمع مارمونتيل، وجريم، وسان-لامبير، وغيرهم إلى الأبيه بتي يقرأ مأساة من تأليفه، فوجدوها عملاً تافهاً يدعو للثناء، ولكنهم أطروها إطرأً جميلاً، وكان الأديب قد ثمل بالخمير إلى حد أعماه عن إدراك ما في ثنائهم من تهكم، فانفتحت أوداجه رضى وغبطة، أما روسو الذي غاظه نفاق أصحابه فقد انتقض على الأب بقريع لا هوادة فيه، فقال له "أن تمثيليتك لا قيمة لها...وكل هؤلاء السادة يسخرون منك، فانصرف وعد لتكون قسيساً في قريتك(103)". ووبخ دولباخ روسو على فظاظته، فانصرف غاضباً وانقطع عن الجماعة عاماً.

لقد دمر رفاقه كتلكته، ولكنهم لم يدمروا إيمانه بمقومات المسيحية. وعادت بروتستانتية صباه تطفو في الوقت الذي تغوص فيه كتلكته. فتصور جنيف صباه كاملة مبرأة من العيوب، وخيل إليه أنه سيكون فيها أكثر راحة واطمئناناً من في بلد أجنبي روجه كياريس. ولو عاد إلى جنيف لاكتسب من جديد لقباً يبعث على الفخر، هو لقب المواطن، ومعه الامتيازات الخاصة التي ينطوي عليها هذا اللقب. وعليه ففي يونيو سنة 1754 استقل مركبة البريد إلى شامبري وهناك وجد مدام ديفاران

صفحة رقم : 12847

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> باريس وجنيف

فقيرة تسعة، ففتح لها كيس نقوده، ثم واصل رحلته إلى جنيف. هناك رحب به القوم ابناً ضالاً قد تاب إلى رشده. ويبدو أنه وقع إقراراً يؤكد فيه من جديد عقيدته الكلفنية (104)؛ وأغتبط رجال الدين الجنيفيون باستعادتهم "موسوعياً" إلى حظيرة إيمانهم الإنجيلي ورد إليه اعتباره مواطناً، وراح بعدها يوقع في فخر "جان-جاك روسو، المواطن": قال: "تأثرت تأثراً بالغاً بما لقيت من عطف... المجلس (المدني) والمجمع (الكنسي) وعظيم احترام القضاة، والوزراء، والمواطنين، وحفاوتهم بي... حتى إنني أقلعت عن فكرة العودة إلى باريس إلا لفظ إدارة البيت، والعتور على مل للسيد لفاسير وزوجته، أو تدبير أمر معاشهما، ثم العودة مع تريز إلى جنيف لأستقر فيها ما بقي لي من عمر (105)". واستطاع الآن أن يندوق جمال البحيرة وشواطئها تذوقاً أكمل مما فعل في صباه "لقد احتفظت بذكرى حية... لطرف البحيرة الأبعد، وكتبت له وصفاً بعد سنوات في هلويز الجديدة". ودخل الفلاحون السويسريون في حلم الفردوس الريف الذي سيصفه في تلك الرواية: فهم ملاك لمزارعهم لا يخضعون لضريبة رؤوس أو سخرة، يشغلون أنفسهم بالحرف المنزلية في الشتاء، ويقفون في قناعة بمنأى عن ضجيج العالم وصراعه. وكانت ذكرى دويلات المدن السويسرية عالقة بذهنه وهو يصف مثله السياسي الأعلى في كتاب "العقد الاجتماعي". وفي أكتوبر 1754 قصد باريس على وعد بالعودة منها سريعاً. ووصل فولتير إلى جنيف بعد رحيل روسو عنها بشهرين، واستقر به المقام في فيلا ديليس. واستأنف جان-جاك في باريس صداقته لديدرو وجريم، دون أن تبلغ من الثقة ما بلغته من قبل. ولما نمت إليه نيا موت مدام دولباخ كتب إلى البارون خطاب تعزية رقيقاً؛ وتصلح الرجلان، وعاد روسو يؤاكل الزنادقة، وظل ثلاثة أعوام آخر يبدو من جميع

صفحة رقم : 12848

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> باريس وجنيف

الوجوه واحداً من جماعة الفلاسفة، ولم يبحث كثيراً في عقيدته الكلفنية الجديدة. واستغرقه الآن الإشراف على طبع "مقاله" الثاني الذي قدر له أن يهز الدنيا أكثر مما هزه سابقه.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> جرائم الحضارة

#### 7- جرائم الحضارة

في نوفمبر 1753 أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى، أما السؤال الجديد فكان "ما الأصل من عدم المساواة بين البشر، وهل يقره قانون الطبيعة؟" يقول روسو "استرعى انتباهي هذا السؤال الخطير، وأدهشني أن الأكاديمية اجترأت على طرحه للنقاش، ولكن ما دامت قد أظهرت شجاعتها... فقد عكفت فوراً على مناقشته (106)". وأختار لبحثه هذا العنوان "مقال في أصل وأسس عدم المساواة بين البشر". وفي شامبري في 12 يونيو 1754 أهدى هذا المقال الثاني "إلى جمهورية جنيف" وأضاف خطاباً موجهاً إلى "ساداتها الحاكمين" الرفيعة الشرف والمجد، يعرب عن بعض الآراء الفذة في السياسة:

"في بحوثي عن خير القواعد التي يمكن أن يرسبها الإدراك السليم عن تكوين الحكومة أدهشني أن أجدها كلها تحققت فعلاً في حكومتكم، بحيث أنني لو لم أولد بين أسوار مدينتكم لرأيت له لزاماً عليّ أن أقدم هذه الصور عن المجتمع الإنساني إلى ذلك الشعب الذي يبدو أنه انفرد دون سائر الشعوب بحيازته لأعظم مزاياهم، ووفر لنفسه أفضل وقاية من مساوئها (107)".

ثم هنا جنيف بعبارات تصدق تماماً على سويسرا اليوم:  
"بلد انصرف عن شهوة الغزو الهمجية لانتقاره السعيد للقوة، وأمن بفضل موقعه الأسعد حظاً من خوف الوقوع غنيمه في يد غيره من الدول: مدينة حرة تتوسط عدة أمم، لا مصلحة لواحدة منها في العدوان عليها، ومصلحة كل منها في منع غيرها من هذا العدوان (108)".

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> جرائم الحضارة

وبارك معبود الثورة الفرنسية المستقبل تلك القيود المفروضة على الديمقراطية في جنيف، حيث لا حق في التصويت إلا لثمانية في المائة من السكان:

"لكي نتقي خدمة المصالح الخاصة والمشروعات الطائشة وجميع البدع الخطرة التي انتهت بالقضاء على الاثنين، ينبغي ألا تطلق الحرية لكل رجل في اقتراح القوانين الجديدة على هواه، بل يقصر هذا الحق على القضاة دون

غيرهم...فقدم القوانين هو أهم عامل في إضفاء القدسية والاحترام عليها، والناس سرعان ما يتعلمون الاستهانة بالقوانين التي يرونها تبدل وتغير كل يوم، ولو اعتادت الدول أن تهمل تقاليدنا القديمة بحجة التحسين والإصلاح، لجلبت من الشرور ما هو أسوأ مما تحاول أن تقضي عليه(109)".

أكان هذا مجرد ذريعة يلتمس بها العودة إلى المواطنة الجنيقية؟

أما وقد تحقق لروسو هذا الهدف فإنه قدم مقاله لأكاديمية ديجون. ولم يمنح الجائزة، ولكن حين نشر المقال في يونيو 1755، سره أن يصبح من جديد الحديث المثير لصالونات باريس. ذلك أنه لم يترك مفارقة إلا تناولها ليثير الجدل حولها. فهو لم ينكر عدم المساواة "الطبيعي" أو الإلزامي، ويلم بأن هناك أفراداً هم بحكم مولدهم أصح أو أقوى من غيرهم في البدن أو الخلق أو الذهن. ولكنه زعم أن كل ضروب عدم المساواة الأخرى-الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والخلقية، غير طبيعية، نشأت حين ترك البشر "الحالة الطبيعية"، وأقاموا الملكية الخاصة وأسسوا دولاً تحمي الثروة والامتياز.

"فالإنسان بطبيعته طيب(110)", وأكثر ما يجعله شريراً تلك النظم الاجتماعية التي تقيد أو تفسد ميوله للسلوك الطبيعي. وقد صور روسو حالة فطرية مثالية كان الناس فيها أقوياء الأطراف، خفاف الأقدام،

صفحة رقم : 12851

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> جرائم الحضارة

حديدي البصر ، يعيشون حياة الحركة والعمل ، حياة كان الفكر فيها دائماً أداة للعمل وتابعا له ، لا بديل مضغفاً عنه . ثم قارن بين هذه الصحة الفطرية وبين الأمراض المتكاثرة التي تنجم في الحضارة عن الثروة والأعمال التي تتطلب القعود الكثير :

"أن أغلب عللنا من صنعنا، وكان يسيراً علينا أن نتجنبها، كلها تقريباً، بالترام أسلوب الحياة البسيط، المماثل ، المنعزل، الذي قررته الطبيعة. فإذا كانت الطبيعة. قد قضت بأن يكون الإنسان سليماً صحيحاً، فأني أجرو على الزعم بأن حالة التكبير والتأمل حالة تناقض الطبيعة، وأن (l'homme Qui M(dite est un aminal d(rar)).

وحيث ن فكر في بنية المتوحشين القوية-على الأقل أولئك الذين لم ندمرهم بمشروباتنا الروحية-وفي أنهم لا يكادون يعانون من أي علل غير الجروح والشيخوخة، يغرينا هذا بالاعتقاد بأننا نتبعنا لتاريخ المجتمع المدني؛ إنما نحن نروي تاريخ أمراض البشر(112)".

ويسلم روسو بأن هذه الحالة المثالية "الحالة الطبيعية... ربما لم توجد قط؛ وأغلب الظن أنها لن توجد أبداً(113)". فهو لا يعرضها بوصفها حقيقة واقعة من حقائق التاريخ بل مقياساً للمقارنة. وهذا ما عناه بهذا الاقتراح المفزع "فلنبدأ إذن بتحية الحقائق جانباً لأنها لا تمس السؤال. والتحقيقات التي يصح أن نخوض فيها... يجب ألا تعالج على أنها حقائق تاريخية، بل حجج مشروطة وفرضية(114)": على أننا قد نكون فكرياً عن حياة الإنسان قيل قيام النظام الاجتماعي، بملاحظة حال الدول الحديثة السلوك، لأن "الدول اليوم ما زالت في حالة طبيعية(115)". فكل منها ذات سيادة فردية، لا تعرف فعلاً أي قانون إلا قوانين المكر والقوة، ويجوز أن نفرض أن الإنسان الذي سبق تكوين المجتمعات كان يحيا في حالة مشابهة من السيادة الفردية، وعدم الأمان، والفوضى

صفحة رقم : 12852

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> جرائم الحضارة

الجماعية، والعنف بين الحين والحين. ولم يكن مثل روسو الأعلى هو هذه الحياة المتخيلة التي سبقت المجتمعات (لأن المجتمع قد يكون قديماً قدم الإنسان)، بل مرحلة لاحقة من التطور عاش فيها الإنسان في أسر أبوية النظام وجماعات قبلية، ولم ينشئوا بعد نظام الملكية الخاصة "إن أقدم المجتمعات قاطبة، والمجتمع الطبيعي الوحيد، هو الأسرة(116)".

ذلك كان العصر الذي بلغت فيه سعادة البشر أقصاها. حقاً أنه لم يخل من عيوب، وآلام، وعقوبات، ولكنه خلا من القوانين، اللهم إلا السلطة الأبوية والنظام الأسري؛ "لقد كانت هذه الحالة في جملتها أفضل حالة يستطيع الإنسان ممارستها، فلم يكن ليعدل عنها لولا أن أصابه خطب فادح(117). وهذا الخطب هو إقامة الملكية الفردية، وما نجم عن ذلك من تفرقة اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، ومعظم شروخ الحياة الحديثة.

"أن أول رجل سور قطعة من الأرض ث خطر له أن يقول "هذه ملكي" ووجد الناس من البساطة بحيث يصدقونه؛ هذا الرجل كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المتمدن. لبيت شعري كمنم الجرائم، والحروب، والاعتقالات، كم من الفطائع والكوارث، لم يكن في استطاعة أي إنسان أن ينقذ البشرية منها باقتلاع الأوتاد المحددة للأرض أو ردم القناة المحيطة بها والصياح بإخوانه أن احذروا الاستماع إلى هذا النصاب، إنكم إن نسيتم أن ثمرات الأرض ملك لنا جميعاً، وأن الأرض ذاتها ليست ملكاً "لأحد، كان في ذلك هلاككم(118)".

ومن هذا الاعتصاب الذي سمح به الناس انبعثت لعنات الحضارة: كالانقسامات الطبيعية، والعبودية، ورق الأرض، والحسد، والسرقة، والحرب، والظلم القانوني، والفساد السياسي، والغش التجاري، والاختراعات، والعلم، والأدب، والفن، و"التقدم" -وبكلمة واحدة، الانحطاط. فلحماية الملكية الخاصة نظمت القوة ثم أصبحت هي الدولة، ولتيسير الحكم طور القانون لتعويد الضعفاء الإذعان للأقوياء

صفحة رقم : 12853

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> جرائم الحضارة

بأقل قدر من الإكراه والتكلفة(119). وهكذا نشأ هذا الوضع الذي نرى فيه "القلة المميزة تكتظ بالكماليات، على حين تفتقر الجماهير الجائعة إلى أبسط ضروريات الحياة(120)". يضاف إلى هذه المظالم الأساسية طائفة أخرى متفرعة عنها "كالوسائل المخزية التي يمارسها الناس أحياناً لمنع ولادة البشر، والإجهاض، وقتل الأطفال، وخصي الذكور، والانحرافات الجنسية، وترك الكثيرين من الأطفال الذين يقعون فريسة لإملاق أبويهم في العراق أو قتلهم(121)". هذه الكوارث كلها مفسدة مضعفة، والحيوانات لا تعرفها؛ وهي تجعل "الحضارة" سرطانياً ينهش جسد البشرية. وعلى نقبض هذا الفساد والانحراف المتعدد الأشكال، نجد حياة المتوحشين صحيحة، سليمة، رحيمة. "أينبغي أن نعود إذن إلى الهمجية؟" "يجب أن تلغى المجتمعات إطلاقاً؟ وتبطل عبارة "مُلْكِي" و"مُلْكِك"، ونعود إلى الغابة لنحيا بين السباع؟" لم يعد هذا في وسعنا، فسم الحضارة يسري في دماننا، ولن ننترعه بالهروب إلى الغابات، والقضاء على الملكية الخاصة، والحكومة؛ والقانون، معناه الزج بالناس في فوضى هي شر من الحضارة. "لن يستطيع الإنسان العودة أبداً إلى زمان البراءة والمساواة متى تركه(122)". وقد تبرر الثورة، لأن القوة قد تطيح عدلاً بما أقامته القوة وساندته(123)، ولكن الثورة ليست مستحبة الآن. وخير ما نستطيعه هو أن ندرس الأناجيل من جديد، ونحاول تطهير

دوافعنا الشريرة بممارسة أخلاق المسيحية(124). في استطاعتنا أن نجعل من العطف الفطري على إخواننا البشر أساساً للأخلاق والنظام الاجتماعي. ونستطيع العزم على أن نحيا حياة أقل تعقيداً، نقنع فيها بالضروريات، ونحتقر أسباب البذخ والترّف، ونجذب سباق "التقدم" وحماه. نستطيع أن ننذ ما في الحضارة من ضروب الزيف، والنفاق، والفساد، واحداً بعد الآخر، ونعيد تشكيل أنفسنا على الأمانة الطبيعية، والإخلاص. نستطيع أن نترك ضوضاء مدننا وصخبها، وأحقادها، وفسقها، وجرائمها، ونذهب لنعيش في بساطة الريف ومسئوليات

صفحة رقم : 12854

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> جرائم الحضارة

الأسرة وقناعتها. نستطيع أن نطلق دعاوى الفلسفة ومسالكها المسدودة، ونعود إلى إيمان ديني يشد أزرنا حين نواجه آلام الموت". ونحن نحس اليوم شيئاً من التكلف في هذا السخط البار بعد أن سمعنا هذا كله مائة مرة. فلنا على ثقة من أن الشرور التي وصفها روسو تنجم عن الأنظمة الفاسدة أكثر مما تنجم عن طبيعة البشر؛ وعلى أية حال فالطبيعة البشرية هي التي صنعت الأنظمة. ويوم كتب جان-جاك "مقاله" الثاني كانت الإشادة بذلك "الهمجي اللطيف المعشر، المتدفق العاطفة" قد بلغت ذروتها. ففي 1640 كان ولتر هاموند قد نشر كتيباً "يثبت أن أهل مدغشقر أسعد شعوب الأرض(125)". وبدا أن القصص التي رواها اليسوعيون عن هنود هورون وإيروكوا مصداق للصورة التي رسمها الروائي ديفو لخدام روينسن كروزو اللطيف "فرايدي". أما فولتير فكان يسخر عموماً من أسطورة الجمجي الشريف، ولكن استخدمها بمرح في قصته "السادج" وداعبها يدور في قصته "تذييل الرحلة بوجانفيل" ولكن هلفينيوس هزأ بإشادة روسو بالهمجي مثلاً أعلى(126)، وزعم دوكلور-غم أنه كان صديقاً وقياً لجان-جاك-أن "الهمج هم الذين تستشري بينهم الجريمة، وطفولة أمة ما ليست عصر براءتها(127)". ويمكن القول على الجملة أن المناخ الفكري كان موافقاً لنظرية روسو.

أما ضحايا مطاعن روسو فقد هدعوا ضمائرهم بالزعم أن هذا المقال الثاني متكلف كسابقه. ووصفته مدام دودفان صراحة بأنه دجال(128). وسخر الشكاك من ادعاءاته بسلامه عقيدته المسيحية، وبتفسيره الحرفي لسفر التكوين(129) وبدأ جماعة الفلاسفة يرتابون فيه لأنه يقلب خطتهم الرامية إلى استمالة الحكومة إلى أفكارهم في الإصلاح الاجتماعي، ولم يحذوا استنارة كراهية الفقراء. وسلموا بحقيقة الاستغلال، ولكنهم لم يروا أي مبدأ في إحلال الغوغاء محل القضاة. أما الحكومة فلم تحتج على اتهامات روسو، والراجح أن القصر لم ير في المقال إلا تدريباً على الخطابة. وكان روسو فخور ببلاغته، فأرسل نسخة من المقال إلى فولتير، وترقب

صفحة رقم : 12855

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> جرائم الحضارة

في شوق كلمة ثناء منه. وجواب فولتير درة من درر الأدب والحكمة وآداب السلوك الفرنسية. قال:  
"تلقيت يل سيدي كتابك الجديد الذي يهاجم النوع الإنساني. وأني أشكرك عليه. وأنتك لتسر الناس الذين تخبرهم بحقائق  
تهمهم، ولكنك لن تقوم بذلك اعوجاجهم. إنك ترسم بألوان صادقة جداً فضائع المجتمع الإنساني،... وأن أحداً لم يبذل قط  
مثل هذا الذكاء الكثير ليقنع الناس بأن يكونوا وحوشاً. والمرء حين يقرأ كتابك تتملكه الرغبة في أن يمشي على أربع  
(Marcher ( Quatre Pattes) ولكن بما أنني فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عاماً. فأني لسوء الحظ أشعر أنه  
يستحيل عليّ استئنافها..."

"وإنني متفق معك على أن الآداب والعلوم كانت أحياناً علة الكثير من الشرور... (ولكنني) أقرر أنه لا شيشرون، ولا  
قارو، ولا لوكرينتيوس، ولا فرجيل، ولا هوراس، كان لهم أقل نصيب في تحريمات ومصادرات ماريوس، وصلا،  
وأنطونيوس، وليبيدوس، وأكتافيوس... عليك أن تعترف بأن بترارك وبوكاشيو لم يكونا السبب فيما عانته إيطاليا من  
متاعب داخلية، وأن مزاح مارو لم يكن السبب في مذبحه القديس برتولومي، وأن مسرحية كورنبي "السيد" لم تثر  
حروب الفروند. إن الجرائم الكبرى قد اقترفها رجال مشهورون ولكنهم جهلة، والذي جعل هذه الدنيا، وسوف يجعلها  
على الدوام، وادياً للدموع هو جشع الناس الذي لا يشبع وغرورهم الذي لا يفتر... أن الأدب يغذي الروح، ويقومها،  
ويعزيها، أنه يخلق مجدك في ذات الوقت الذي تهاجمه فيه...  
"لقد أنبأني السد شابوي أن صحتك سيئة للغاية. فعليك ان تحضر وتستردها في جو وطنك، وتستمتع بالحرية، وتشرب  
معي لبن أبقارنا، وتعيش على أعشابنا. وأني يا سيدي بكل، الفلسفة وكل التقدير المشرب بالمحبة، خادمك المتواضع  
جداً المطيع جداً(130).

صفحة رقم : 12856

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> جرائم الحضارة

ورد روسو التحية بمتلها، ووعد بأن يزور فيللا المباحج عن عودته إلى سويسرا(131).ولكن حز في نفسه كثيراً ذلك  
الاستقبال الذي استقبل به مقاله في جنيف التي أهداها إياه بمتل هذا المديح السار. والظاهر أن الأوليجاركية الصغيرة  
المحكمة التي تسلطت على الجمهورية أوجعتها بعض تعليقات ذلك المقال اللاذعة، ولم تسغ تنديد روسو الشامل  
بالملكية، والحكومة، والقانون "الم أحس أن جنيفياً واحداً سر بما حواه المقال من حماسة قلبية(132). وعليه فقد قررت  
أن الوقت لم يحن بعد لعودته إلى جنيف.

صفحة رقم : 12857

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> المحافظ

شهد عام 1755، الذي نشر فيه المقال الثاني، ظهور مقال طويل بقلم روسو في المجلد الخامس من الموسوعة عنوانه، مقال في الاقتصاد السياسي. وهو جدير بالملاحظة لأنه خالف المقالين السابقين عليه في بعض تفاصيله الهامة. ففي هذا المقال نرى الكاتب يبجل المجتمع، والحكومة، والقانون، باعتبارها نتائج طبيعية لفطرة الإنسان وحاجاته، ويصف الملكية الخاصة بأنها عطية اجتماعية وحق أساسي. "من المؤكد أن حق الملكية أقدس حقوق المواطنة، بل أنه من بعض الوجوه أهم من الحرية ذاتها. فالملكية هي الأساس الصحيح للمجتمع المدني، والضمان الحقيقي لتعهدات المواطنين (133) بمعنى أن الناس لن يعملوا فوق ما تتطلب أبسط حاجاتهم ما لم يحتفظوا بالنتائج الفائض لأنفسهم، ليستهلكوه أو ينقلوه لغيرهم كما يشاءون. ويوافق روسو الآن على أن يورث الأبناء ثروتهم لأبنائهم، ويقبل في اغتباط ما يتمخض عنه هذا من انقسامات طبقية. "ما من شيء أضر بالفضيلة والجمهورية من انتقال المراتب والثروات باستمرار بين المواطنين: ومثل هذه التغييرات هي الدليل على وجود مئات من ضروب الخلل والاضطراب، وهي مصدرها في الوقت نفسه، ومن شأنها أن تقلب كل شيء رأساً على عقب وتفسده (134). ولكنه يواصل التنديد بالظلم الاجتماعي وبما في القانون من محاباة طبقية. فكما أن من واجب الدولة أن تحمي الملكية الخاصة ووراثتها القانونية، كذلك

صفحة رقم : 12858

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> المحافظ

ينبغي أن يسهم أعضاء المجتمع ببعض ثروتهم لإعالة الدولة. وينبغي أن تُفرض ضريبة صارمة على جميع الأشخاص بنسبة تصاعديّة مع ثروتهم و"فائض ممتلكاتهم" (135)، وألا تُفرض ضريبة على الضروريات، وأن تُفرض ضريبة مرتفعة على الكماليات، وينبغي أن تمول الدولة نظاماً قومياً للتعليم. "أن الأطفال إذا نشئوا معاً (في مدارس قومية) في حضان المساواة وإذا أُشربوا قوانين الدولة ومبادئ الإدارة العامة. فلن نشك في أنهم سيحبون بعضهم بعضاً كما يفعل الأخوة. ليصبحوا في الوقت المناسب مدافعين وآباء الوطن الذي كانوا أبنائه (136). والوطنية خير من العالمية أو التظاهر الهزيل بالعطف العالمي (137)".

وكما طغت النزعة الفردية على المقالين الأولين، طغت النزعة الاجتماعية على مقال الاقتصاد السياسي. وهنا يصرح روسو لأول مرة ببعيدته الغربية وهب أن في كل مجتمع "إرادة عامة" فوق المجموع العدد لما يحبه الأفراد الذين يؤلفونه وما يكرهون. فالمجتمع، في فلسفة روسو المقطورة، كائن اجتماعي له روحه الخاصة. "أن الدولة هي أيضاً كائن معنوي، يملك الإرادة، وهذه الإرادة العامة التي تنحو دائماً إلى صيانة ورفاهية الدولة كلها وكل جزء فيها، هي مصدر القوانين، وهي التي تشكل لجميع أعضاء الدولة، في علاقاتهم بعضهم ببعض القاعدة التي تفرق بين العدل والظلم (138).

وحول هذا المفهوم يقيم روسو الأخلاق والسياسة التي ستغلب منذ الآن على آرائه في الشؤون العامة. فنرى الناثر الذي اعتبر الفضيلة تعبير الإنسان الحر الطبيعي يعرفها الآن بأنها "ليست سوى مطابقة الإرادات الفردية للإرادة العامة" (139). ونرى الرجل الذي كان ينظر إلى القانون مؤخراً جداً على أنه إنتم من آثام الحضارة، وأنه أداة مريحة لفرض النظام الطبع على الجماهير المستغلة، يصرح الآن بأن القانون وحده هو الذي يدين له الناس بالعدل والحرية، وهذا الجهاز النافع من أجهزة الإرادة الجماعية هو الذي يرسي،



صفحة رقم : 12859

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> المحافظ

في الحق المدني، المساواة الطبيعية بين البشر، أنه الصوت السماوي الذي يملي على كل مواطن مبادئ العقل العام" (140).  
ولعل محرري الموسوعة المطاردين كانوا قد نبهوا روسو إلى التخفيف في هذا المقال من هجومه على الحضارة. وسنجد بعد سبع سنوات، في كتابه "العقد الاجتماعي" يدافع عن الجماعة ضد الفرد، ويقيم فلسفته السياسية على فكرة الإرادة العامة المقدسة السامية. على أنه لم يزل خلال ذلك فردياً وثائراً يبغض باريس، ويؤكد ذاته ضد أصدقائه، ويصنع كل يوم أعداء جدداً.

صفحة رقم : 12860

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الهروب من باريس

9- الهروب من باريس

1756

كان أصدقاؤه الحميمون الآن هم جريم، وديدور، ومدام دينييه. أما جريم فقد ولد في راتزبون عام 1723، فكان بذلك يصغر روسو بأحد عشر عاماً. وقد تعلم في ليزج في العقد الأخير من حياة باخ، وتلقى عن أوهان أوجست إرنشتي أساساً مكيناً في لغتي اليونان والرومان وأدابهما. فلما وفد على باريس في 1749 تعلم الفرنسية بما عرف عن الألمان من إتقان ودقة، وما لبث أن وافى مجلة المركز بمقالاته. وفي 1750 أصبح السكرتير الخاص للكونت فون فريزن. وأغراه حبه للموسيقى بالتعلق بروسو، كما رماه جوع أكثر عمقاً تحت قدمي الأنسة فل المغنية بالأوبرا، فلما أثرت عليه المسيو كاهوزك، يقول روسو أن جريم:

"حز في نفسه حتى أصبحت إمارات خطبه مأساوية فكان ينفق الأيام والليالي في تراخ وتبلى. ويرقد وعيناه مفتوحتان.. لا يتكلم، ولا يأكل، ولا يتحرك.. وكنت والأبيه رينال نرعاه، فالأبيه-وكان أشد مني وأصح يسهر عليه ليلاً، وأنا أراعاه نهاراً، فلا نغيب عنه معاً في وقت واحد" (141).  
واستدعى فون فريزن طبيبياً يعوده، فأبى أن يصف له دواء غير الزمن. وأخيراً ذات صباح، قام جريم، وارتدى ثيابه، واستأنف نظام حياته العادي، دون أن يذكر يومها أو بعدها.. هذا التبدل الشاذ(142).

صفحة رقم : 12861

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الهروب من باريس

وقدم روسو جريم إلى ديدور، وراح ثلاثتهم يحملون بالذهاب معاً إلى إيطاليا. واستوعب جريم في نهم سيل الأفكار المتدفق من معين عقل ديدور وتعلم لغة "الفلاسفة" الخالية من التوقير؛ وألف كتاباً لا أدرياً "في التعليم الديني للأطفال" وأشار على فون فريزن بأن يتخذ ثلاث خليلات في وقت واحد "تذكراً للتالوث الأقدس" (143) وأقلقت روسو تلك الألفة النامية بين جريم، الذي سيصفه سانت بوف بأنه "أكثر الألمان فرنسية"، وبين ديدور "أكثر الفرنسيين ألمانية" (144) وقال روسو شاكياً "إنك تهمني يا جريم، وأنا أغفر لك هذا" وأخذ جريم عند كلمته. فقال لي إنني مصيب... ثم حطم كل قيد، فلم أعد أراه إلا في صحبة أصدقائنا المشتركين(145).  
وفي سنة 1747 كان الأبیه رينال قد بدأ يرسل للمكتتبيين الفرنسيين والأجانب خطاب أبناء نصف شهري سماه "الأبناء الأدبية" يورد فيه الوقائع في جنيا الأدب والعلوم والفلسفة والفنون الفرنسية-وفي 1753 عهد بالمشروع إلى جريم الذي-واصله بمعونة من ديدور وآخرين حتى 1790. وأثناء اضطلاع جريم بالمجلة كان من بين من وافها بمقالاتهم أفراد بلرزون. كملكة السويد لويزا أوريلكا وملك بولنדה السابق ستانسلاس لسكيزنسكي، وكاترين الثانية قيصره روسيا، وأميرة ساكس-جوتا، وأمير وأميرة هيس-دارمشات، ودوقة ساكس-كوبورج ودوق تسكانيا الكبير، والدوق كارل أوجست أمير ساكس-فيمار. أما فردريك الأكبر فقد أحجم عن المشاركة فيها لكثرة عدد من يبادلهم الرسائل في فرنسا وأخيراً وافق على أن يتسلم المجلة، ولكنه لم يدفع لها مالا قط. وقد أذاع جريم العدد الأول من المجلة عقب اضطلاعها بإصدارها (مايو 1753):  
في الصفحات المطلوبة منا لن نضيع وقتاً على النشرات التي تغرق باريس كل يوم...بل سنحاول أن نعطي تقريراً دقيقاً، وتحليلاً منطقياً (Critique Raisonn(e) للكتب التي تستحق أن يتهم بها الجمهور.

صفحة رقم : 12862

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الهروب من باريس

وستكون الدراما جزءاً هاماً من تقريرنا لأنها فرعٌ رائع من فروع الأدب الفرنسي وعلى العموم لن نغفل شيئاً جديراً بفضول غيرنا من الشعوب (146).

وهذه الرسائل الأدبية المشهورة هي الآن سجل رئيسي نفيس لتاريخ فرنسا الفكري في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وقد استطاع جريم أن يكون صريحاً في مقالاته النقدية، لأنها لم تكن معروفة للجمهور الفرنسي أو للمؤلف الذي تتناوله. وكان يتوخى الإنصاف عادة، إلا مع روسو في فترة لاحقة. وقد أصدر الكثير من الأحكام الصائبة، ولكنه أساء الحكم على "كانديد" فزعم أنها لا تثبت للنقد الجاد، على أن هذا الرأي لم يدفق إليه تحامل على فولتير، فقد وصفه بأنه: "أعظم الرجال في أوروبا جاذبية وأكثرهم لطفاً، وأبعدهم صيناً (147)".

ورد فولتير التحية بطريقته الشيطانية فقال: "ما الذي يترأى لهذا البوهيمي أن يبزنا ذكاء وفطنة؟" ورسائل جريم هذه هي التي أذاعت في أرجاء أوروبا أفكار التنوير الفرنسي أكثر من أي كتابات أخرى باستثناء مؤلفات فولتير. ومع ذلك خامرته الشكوك في جماعة الفلاسفة وفي إيمانهم بالتقدم، فقال: "إنما العالم مركب من: شرور لا يحاول إصلاحها غير إنسان معتوه" (149) وفي 1757 كتب يقول:

"يبدو أن القرن الثامن عشر فاق كل القرون في المدائح التي كالمها لنفسه.. ولو تمادى في هذا قليلاً لأفنع خيرة المفكرين أنفسهم بأن دولة الفلسفة، الهادئة المسالمة، أوشكت أن تسود بعد عواصف الجنون الطويلة، وأن ترسي إلى الأبد سلام البشر وهدوؤهم وسعادتهم... ولكن الفيلسوف الصادق، لسوء الحظ، لديه أفكار أقل تعزية ولكنها أصح وأدق.... وهيئات أن أصدق أننا مقربون من عصر العقل، وأكاد أعتقد أن أوروبا تتهددها ثورة مدمرة" (150).

ونلمح هنا أثراً من الكبرياء والغرور اللذين كانا يغيضان أصدقاء جريم أحياناً. فلقد كان هذا المتفرنس، ينفق الساعات في

صفحة رقم : 12863

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الآفاق -> الهروب من باريس

التزين، وذر المساحيق على وجهه وشعره، والإسراف في التعطر إسرافاً لقب من أجله بدب المسك (151). وهو يبدو في رسائله ينير التحيات بمنة ويسرة بيد تتوقع الرد عليها. وقد اشترط فردريك للاشتراك في الرسائل أن "يعفيني جريم من تحياته" (152). ومثل هذا التملق كان بالطبع من أسلوب الرسائل في ظل "النظام القديم".

واسترعى جريم انتباه باريس، وهو الوجع البارد المتزن عادة، بإشرافه على الموت هيماً بالأنسة فل، وبدخوله في مبارزة من أجل مدام ديبنيه. وكانت هذه الأخيرة-لويز فلورانس تارديو ديسكلافيل-ابنة بارون من فالنسين مات في خدمة الملك عام 1737. وبعد ثمانية أعوام حين بلغت لويز العشرين، تزوجت من دنيس-جوزف لاليف ديبنيه وكان ابن جاب غني. وذهبا للعيش في قصر ريفي جميل يدعى الشاتو دلاشيفريت، على تسعة أميال من باريس، بقرب غابة مونمورنسي. وفاضت حياتها سعادة، فتساءلت "أيستطيع قلبي أن يتحمل هذه السعادة؟ وكتبت إلى ابنة عم لها تقول "كان يعزف على البيان القيثاري، وأنا جالسة على مسند كرسيه ويسراي على كتفه، ويمناي تقلب الأوراق، فلم يفته قط أن يقبلها في كل مرة تمر أمام شفتيه (153).

ولم تكن جميلة، بل صغيرة الجسم أنيقة على نحو ساحر، بديعة التكوين Yres Bien Faint (كما تتبنا) (154)؛ وستفتن عيناها السوداوان النجالوان فولتير بعد حين. ولكن "الإحساس دائماً بنفس الشيء يصبح بعد قليل تماماً كالإحساس بلا شيء" (155)، فلم يمض غير عام حتى كف ديبنيه عن ملاحظة هاتين العينين. لقد كان قبل الزواج فاسقاً عربيداً فعاد الآن كما كان، يسرف في الشراب، ويسرف في القمار، وينفق المال الطائل على الأختين فريير، اللتين أسكنهما كوخاً على مقربة من لاشيفريت وولدت له زوجته خلال ذلك طفلين. وفي 1748 عاد من رحلة في الإقليم، وضاجع امرأته، فنقل إليها عدوى الزهري. وحصلت على انفصال شرعي عن زوجها بعد أن اعتلت صحتها وتحطمت

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; مقدمة -&gt; روسو جواب الأفاق -&gt; الهروب من باريس

روحها. ووافق على تسوية سخية؛ وورثت هي ثروة عمها، فاحتفظت بلاشيفريت، وحاولت أن تنسى تعاستها في الحذب على طفلها ورعاية صديقاتها. فلما أصيبت إحداهن -وهي مدام دجوللي- بالجذري إصابة مميتة ذهبت لويز لتمرزها، ومكثت معها إلى النهاية، معرضة نفسها لعدوى قد تؤدي بها أو تشوهها مدى الحياة. وأجمعت صديقاتها على أن يحسن بها أن تتخذ عشيقاً. وجاء عشيق (1746) وهو دوبان دفرانكوي، الرجل الذي وظف روسو عنده. وقد بدأ بالموسيقى، وانتهى بالزهرري، ولم يلبث أن شفي من هذا الداء في حين ظلت هي تعاني منه (156). وانضم إلى زوجها في اقتسام الأنستين دفيربير. وقال لها دوكلو في صراحة جافية "أن فرانكوي وزوجك يقتسمان الأختين فيما بينهما (157)". فأصيبت بحمى وهذيان داماً ثلاثين ساعة. وحاول دوكلو الحلول محل دوبان، ولكنها طردته. ثم كانت مأساة أخرى حين أعطتها مدام دجوللي وهي على فراش الموت حزمة أوراق تقضح غرامياتها وألحت عليها في أن تحرقها، ففعلت. واتهمها المسبو دجوللي بأنها أحرقت عن عمد شهادات مدبونييتها هي له. وأنكرت التهمة ولكن القرائن كانت ضدها، إذ كان معروفاً أنها كانت تعين زوجها بالمال رغم انفصالها عنه. في هذه الأزمة دخل جريم الدراما، وكان روسو قد قدمه إلى لويز في 1751، وكثيراً ما اشترك ثلاثتهم في عزف الموسيقى أو الغناء معاً. وذات مساء في حفلة أقامها الكونت فون فريزن أعرب أحد الضيوف عن اعتقاده بأن مدام ديبينييه مذنبية. ودافع عنها جريم، واحتد النقاش إلى حد المساس بالشرف، وتبارز صاحب الاتهام والمدافع، فجرح جريم جرحاً طفيفاً. بعد حين وجدت الوثائق المفقودة، وبرئت ساحة السيدة، فشكرت جريم باعتباره "فارسها الهمام" ونمى تقدير الواحد منهما لصاحبه فاكتمل جيداً من أبقى وأثبت ما شهدته ذلك العصر القلب. وحين أتلف الحزن صحة البارون دولباخ لموت زوجته، وسافر جريم

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; مقدمة -&gt; روسو جواب الأفاق -&gt; الهروب من باريس

للعناية به في الريف، سألتني لويز "ولكن من سيكون فارسي يا سيدي إن هاجمني أحد في غيابك"؟ فأجاب جريم "هو ما كان من قبل-حياتك الماضية (158)" ولم يكن الجواب قاطعاً مانعاً، ولكنه فاق حدود الثناء. وكان روسو قد التقى بمداد ديبينييه في 1748 في بيت مدام دويان. ودعته إلى لاشيفريت. وفي "مذكراتها" وصف له: "أنه يقدم التحيات والمجاملات، ولكنه ليس مؤدباً، أو على الأقل يعوزه مظهر التأدب. والظاهر أنه جاهل بعبادات المجتمع، ولكن من الواضح أنه مفرط الذكاء. وله بشرة سمراء، وعينان بيضاوان تتوهجان وتضفيان الحيوية على

قسماته.... ويقال أنه عليل، ويتجدد لعذاب يحرص على كتمانها... وهذا في ظني هو الذي يضيف عليه أحياناً....، مظهر الاكتئاب(159)".

أما الصورة التي رسمها لها فلم تكن شديدة التألق:  
"لم يكن حديثها الخاص ممتعاً، وأن لم يعوزه اللطف في حضرة الجنسين... وأسعدني أن أبدي لها بعض المجاملات، وقبلتها قبلاات أخوية صغيرة، ولم تبدو أكثر شهوانية منها هي... لقد كانت غاية في النحول، والشحوب، ولها صدرٌ كظاهر يدها. وكان هذا العيب وحده كافياً للتخفيف من أحر رغباتي(160)".  
وظل سبع سنوات يلقي الترحيب في بيت مدام ديبينيه. فلما رأت مبلغ ضيقه في باريس فكرت في سبل تقديم المعونة له، ولكنها كانت تعلم أنه سيرفض المال. وبينما كانا ذات يوم يسيران في حديقته خلف لاشيفريت، أرته كوخاً يسمى "الأرميتاج (الصومعة)" كان من قبل ملكاً لزوجها. وكان مهجوراً متهدماً، ولكن موقعه على حافة غابو مونمورنسي حمل روسو على أن يقول في انفعال: "يالها من مسكن مبهج يا سيدي! كأن هذا الملجأ أعد لي خصيصاً"(161). ولم تجب السيدة، ولكن حين عودا السير إلى الكوخ في سبتمبر 1755، أدھش روسو أن يجده قد رمم، وأثنت

صفحة رقم : 12866

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> روسو جواب الأفاق -> الهروب من باريس

حجراته الست، ونظفت الأرض المحيطة به ورتبت. وينقل عنها أنها قالت "يا عزيزي، إليك ملجأك، فأنت الذي اخترته، أن الصداقة تقدمه لك. وأرجو أن يزيل هذا فكرتك القاسي، فكرة الانفصال عني" وكانت تعلم أنه فكر من قبل في أن يقيم في سويسرا، ولعلها لم تعرف ما طرأ من فتور على تحمسه لجنيف. و"فاضت دموعي على اليد الكريمة" يد صديقتي، ولكنه تردد في قبول عرضها. فأعرت تريز ومام لفاسير بقبول خطتها، و"أخيراً تغلبت على جميع قراراتي".

وفي أحد القيامة، 1756، ولكي تجمل الهدية بلباقة، جاءت باريس في مركبتها، وأخذت "ديها" كما كانت تدعوه، هو وخليته وحمامته، إلى الأرميتاج. ولم يلبذ تريز فراقها لباريس، أما ورسو، فما أن استنشق هواء الخلاء حتى شعر بأنه أسعد منه في أي وقت منذ أيام فردوسه الريفية مع مدام ديفاران. "في 9 إبريل 1756 بدأت أحياء(162)، ولكن جريم أفسد الفرحة بتحذير لمدام ديبينيه:

"إنك تضرين روسو ضرراً بليغاً بإعطائه الأرميتاج، ولكنك تضرين نفسك ضرراً أبلغ. فستكمل العزلة مهمة تسويد خياله، وسيبدو كل أصدقائه في عينيه ظلمة جاحدين، وأنت أولهم، إن رفضت ولو مرة واحدة أن تمتلئي لأوامره"(163).

وانطلق بعد ذلك جريم، الذي أصبح الآن سكرتيراً للمرشال دستريه، ليلعب دوره في الحرب التي سترسم خريطة العالم من جديد.

صفحة رقم : 12867

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

## الفصل الثاني

### حرب السبع سنين

1763 - 1756

#### 1- كيف تشعل نار الحرب

حين وافت سنة 1756 كانت أوروبا قد عرفت ثمانية أعوام من السلم. غير أن حرب الوراثة النمساوية لم تحسم شيئاً. فقد تركت النمسا قلقة في بوهيميا وإيطاليا، وبروسيا قلقة في سيليزيا، وبريطانيا قلقة في هانوفر، وفرنسا قلقة في الهند، وأمريكا، وعلى الرين. ولم تحقق معاهدة إكس لاشابل (1748) تسوية للأراضي يمكن أن تقارن في ثباتها بالتسوية التي حققتها معاهدة وستفاليا قبل قرن من الزمان. وتزعزع توازن القوى القديم نتيجة لنمو الجيش البروسي والبحرية البريطانية؛ فقد ينطلق ذلك الجيش ليلتهم أقاليم جديدة، ولا تحتاج تلك البحرية إلا إلى الوقت لتقتنص مستعمرات فرنسا: وهولندا، وأسبانيا. وتغذت الروح القومية الصاعدة في إنجلترا على أرباح التجارة وفرصها، وفي بروسيا على الحرب الظاهرة، وفي فرنسا على تفوق ثقافي يشعر شعوراً غير مريح بالاضمحلال العسكري. وكان الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية قد انتهى إلى مأزق، فترقب الطرفان تحولاً في الحظ ليجددا حرب الثلاثين، طمعاً في الاستيلاء على الروح الأوروبية.

وكانت النمسا بادئة بالاستعداد لرمية جديدة للفرد البشري. ذلك أن ماريا تريزا، التي لم تنزل رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة الجميل رغم بلوغها التاسعة والثلاثين، اجتمع لها كل كبرياء أجدادها الهابسبورج، وكل غضب المرأة المهانة؛ فكيف تحيا بعد أن بترت سيليزيا من ملكها الموروث، الملك الذي كفلت كل دول أوروبا العظمى وحدة أراضيه؟ كيف وهي المرأة التي سيئتي بعد حين، حتى فردريك هذا الذي أدلها من قبل، على

صفحة رقم : 12868

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

"بسالتها وكفايتها" ويمتدح الطريقة التي "فطنت بها هذه الحاكمة الأصغر سناً إلى سر الحكم وعدت الروح المسيطرة على مجلسها... حين بدأ أن الأحداث تأتمر بها لتدمرها"(1). وقد جعلت من الصلح هدنة فقط بعد أن هزمت وسلمت سيليزيا ثمناً للسلام. ثم كرست نفسها للنهوض بالحكم: وإصلاح جيوشها المحطمة، واكتساب حلفاء أقوياء. فترددت على المعسكرات التي يتدرب فيها جيشها؛ ولهذا الغرض سافرت إلى براغ في بوهيميا، وإلى أولمتر في مورافيا، وشجعت جنودها بالمكافآت والأوسمة، وأكثر من ذلك بحضرتها، حضرة الملكة والمرأة معاً. ولم يكن هناك داع لأن يقسم قوادها يمين الولاء لها، فالولاء في دمهم وفروسيتهم؛ وأية ذلك أن أمير ليشتنتشتين أنفق 2000.000 إيكو (1.500.000 دولار؟) من ماله الخاص لجند ويجهز لها سلاح المدفعية كاملاً. وأنسأت قرب فيينا كلية حربية لصغار النبلاء، وجلبت لها خيرة معلمي الهندسة، والجغرافيا، والتحصين والتاريخ. يقول فردريك "في عهدنا بلغت العسكرية النمساوية درجة من الكمال لم يعرفها أسلافها قط، وقامت امرأة بتنفيذ خطط جديدة برجل عظيم". (2)

وكانت الدبلوماسية هي الوجه الآخر لخطتها. فأرسلت مبعوثيها إلى كل بلد لتكتسب أصدقاء للنمسا وتثير العداء لفردريك. ولاحظت قوة روسيا الصاعدة، بعد أن نظمتها بطرس الأكبر وأطلعت بشؤونها الآن القيصرية اليزافينا بتروفنا؛ فعملت على أن تصل تعليقات فردريك الساخرة على غراميات القيصرية إلى أذنيها. وكانت ماريا تريزا تتمنى لو جددت تحالفها مع إنجلترا، ولكن ذلك التحالف كدره الصلح المنفصل الذي أبرمته إنجلترا مع بروسيا (1745) والذي أكره النمسا على التخلي عن سيليزيا. وكانت سياسة إنجلترا الخارجية تتجه الآن إلى حماية تجارتها في البحر البلطي من سطوة روسيا، وإحكام قبضتها على هانوفر لتقيها أي خطر يتهدها من بروسيا أو فرنسا. وقد اعتمدت على روسيا في تزويدها بما يلزم بحريتها من أخشاب، واعتمدت على بحريتها في إحراز النصر في الحرب. ومن ثم وقعت إنجلترا في 30 سبتمبر 1755 معاهدة تعهدت فيها روسيا،

صفحة رقم : 12869

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> كيف تشعل نار الحرب

نظير معونات مالية من إنجلترا، بأن تحتفظ بجيش من 55.000 مقاتل في ليفونيا، وعلل الإنجليز أنفسهم بأن هذا الجيش سيعوق فردريك عن أي مغامرات توسعية صوب الغرب.

ولكن كيف تتصرف إنجلترا مع فرنسا؟ لقد ظلت فرنسا عدواً لها مئات السنين، وما أكثر ما أثارت فرنسا أو مولت الأعمال العدائية التي قامت بها اسكتلندا ضد إنجلترا؛ وكم من مرة تاهبت لغزو الجزر البريطانية أو هددت بهذا الغزو. وقد أصبحت فرنسا الآن الدولة الوحيدة التي تتحدى بريطانيا في البحار أو المستعمرات؛ ولو أن بريطانيا ألحقت بفرنسا هزيمة لظفرت بمستعمراتها في أمريكا والهند، ودمرت بحريتها أو شلت حركتها، وعندها لن تكون الإمبراطورية البريطانية آمنة من الخطر فحسب، بل سيداً غير منازع. كذلك كان وليم بت الأب يجادل البرلمان يوماً بعد يوم، بأبلغ ما سمع ذلك المحفل طوال عمره من خطب الخطباء ولكن أيمن أن تهزم فرنسا؟ وقال بت، أجل، وذلك بحلف بين بروسيا وإنجلترا. وأليس خطراً كبيراً أن يسمح لروسيا بأن تزداد قوة على قوة؟ وأجاب بت: لا، فإن لروسيا جيشاً عظيماً سيساعد إنجلترا، بناء على هذه الخطة، على حماية هانوفر، ولكن ليس لها بحرية، ومن ثم لم تقوى على منافسة بريطانيا في البحر، وبدا أن من الأحكم أن يسمح لروسيا البروتستانتية بالحلول محل فرنسا الكاثوليكية، أو النمسا الكاثوليكية، قوة "غالبية في القارة"، إن كان في هذا تمكيناً لبريطانيا من "أن تسود البحار" وتستولي على المستعمرات. وأي انتصارات يحرزها فردريك في أوروبا من شأنها أن تدعم قوة إنجلترا وراء البحار، ومن هنا تقاخر بت بأنه سيكسب أمريكا والهند على ساحات القتال في القارة. فستقدم إنجلترا المال، ويخوض فردريك معارك اليابسة، وتكسب إنجلترا نصف العالم. ووافق البرلمان، وعرضت بريطانيا على بروسيا ميثاقاً للدفاع المشترك.

واضطر فرديريك لقبول هذه الخطة، لأنه تطور الأحداث حجب

صفحة رقم : 12870

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

بهاء انتصاراته. كان يعلم أن فرنسا تحاول التقرب من فرنسا، فلو أن فرنسا والنمسا ومعهما روسيا أيضاً؛ وهو وضع أسوأ- اتحدت ضده لما استطاع أن يقاومها كلها، وفي مازق كهذا لن يقوى على نجاته غير إنجلترا. ولو أبرم الميثاق الذي عرضته عليه إنجلترا لاستطاع أن يطالبها بمنع روسيا من مهاجمته ولو كفت روسيا لجاز ثني النمسا عن الحرب. وهكذا وقع فرديريك في 16 يناير 1756 معاهدة ويستمنستر، التي تعهدت فيها إنجلترا وبروسيا بمعارضة دخول الجيوش الأجنبية إلى ألمانيا، وكان الحلفان يأملان أن تحمي هذه المادة الوحيدة بروسيا من روسيا، وهانوفر من فرنسا.

وشعرت فرنسا، والنمسا، وروسيا جميعاً أن هذه المعاهدة خيانة من حليفتهم. صحيح إنه لم يحدث إنهاء رسمي للحلفين اللذين ربطا إنجلترا بالنمسا، وفرنسا ببروسيا، في حرب الوراثة النمساوية. وصعقت ماريا تريزا كما قالت للسفير البريطاني- حين علمت أن أصدقائها الإنجليز أبرموا ميثاقاً مع "الخصم اللدود المقيم لشخصي ولأسرتي(3)". وشكا لويس الخامس عشر من أن فرديريك خدعه. ورد فرديريك من أن المعاهدة دفاعية بحتة وينبغي ألا تسيء إلى أي قوة لا تنوي الإساءة. أما مدام ديمبادور، التي كانت تختار الوزراء الفرنسيين وتهيمن عليهم، فقد تذكرت أن فرديريك كان قد اتهمها بإيداع المبالغ الطائلة في المصارف البريطانية، وسماها "الأنسة سمكة Cotillon Iv, La Demoiselle Poisson" (الجولة الرابعة- أي رابعة خليلات لويس الخامس عشر). وأما لويس فقد تذكر أن فرديريك سخر من أخلاق ملك فرنسا السوفية. ووقع هذا الخذلان لفرنسا على رأسها في وقت كانت فيه جيوشها مرهقة، وخزائنها خاوية، وبحريتها بادئة فقط بالإفاقة من الإهمال الذي لقيته في وزارة الكاردينال فلوري المسالمة. ففي 1756 كان لفرنسا خمس وأربعون بارجة، وإنجلترا مائة وثلاثون بارجة(4)، وكان تموين البحرية تعوقه الرشوة والسرقة، ونظامها تفسده ترقية غير الأكفاء من ذوي الألقاب ترقية مثيرة للسخط كما يفسده

صفحة رقم : 12871

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

تعدد الهزائم. فإلى من تنتجه فرنسا الآن حليفاً لها؟ إلى روسيا؟ ولكن إنجلترا سبقتها. إلى النمسا؟-ولكن في الحرب الأخيرة خرقت فرنسا تعهداتها بضممان ميراث ماريا تريزا، وانضمت إلى بروسيا لمهاجمتها، وواصلت الهجوم عليها حتى بعد أن عقد فرديريك الصلح معها. لقد كانت النمسا تحت حكم الهابسبورج، وفرنسا تحت حكم البوربون، عدوين قروناً عدة، فكيف يمكن أن تصبحا صديقين هما وشعباهما بعد طول ما ألفا من كراهية متبادلة؟



ومع ذلك كان هذا بالضبط "قلب الأحلاف" الذي اقترحتة حكومة النمسا الآن على فرنسا. وقد ولدت هذه الخطة أول ما ولدت-على قدر ما تستطيع الآن تتبع تاريخها-في ذهن الكونت فنترل أنطون فون كاونتز، أقدر من أنجبته القارة الأوروبية في القرن الثامن عشر من الدبلوماسيين وأتقهم بصيرة وأشدهم إصراراً. وقد قدر لحرب السنين السبع أن تكون صراعاً في السلاح بين فرديريك الأكبر والمارشال داون، وصراعاً في الذكاء بين كاونتز وبت. يقول فرديريك "إن للأمير كاونتز أحكم رأس في أوروبا(5)".

كانت أسرة كاونتز قد طلبت إليه أن يعد نفسه للقوسية لأنه الابن الثاني، أما هو فأصبح في دخيلة نفسه تلميذاً لفولتير(6). ولما كان أبوه سفيراً لدى الفاتيكان وحاكماً لمورافيا، فقد ورث ابنه الدبلوماسية في دمه. وهكذا أصبح وهو في الحادية والثلاثين مبعوث النمسا في تورين. وكانت أول رسالة منه إلى حكومته مبنية منطقياً على ملاحظة للحقائق السياسية بلغت من الدقة مبلغاً حمل الكونت فون أولفلد على أن يقول لماريا تريزا وهو يعرفها: "هاك وزيرك الأول(7)". وفي عامه السابع والثلاثين كان المفوض النمساوي في مؤتمر أكس لاشابل. وهناك دافع عن مصالح ماريا تريزا بإصرار وبراعة جعل الإمبراطورة حتى في هزيمتها تشكر له خدماته وإخلاصه. ولما فاتحها في تاريخ مبكر (1749) بخطة التحالف مع فرنسا، تقبلت بذهن مفتوح فكرة معانقة العدو التقليدي لبيتها. لقد كانت

صفحة رقم : 12872

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

مصممة على هزيمة فرديريك واستعادة سيليزيا، ولكن كاونتز بين لها أن هذا محال بالتحالف مع إنجلترا التي ركزت قوتها في البحار، إنما هو يتطلب التحالف مع فرنسا وروسيا اللتين تركزان قوتيهما في اليابس. وبين شقي الرحي هذين-فرنسا وروسيا من ناحية، والنمسا من ناحية-يمكن أن يسحق فرديريك. وأمرت الإمبراطورة كاونتز بأن يسعى لتحقيق هذا الهدف المنشود.

وفي 1751 بعث سفيراً إلى باريس. وأدهش جماعة النبلاء بدهاء مقدمه الرسمي على المدينة، وأبهج عامة الشعب بإحساناته، ورفه عن الصالونات بثيابه الفاخرة، وتنوع عطره وأسباب تجملته، وخصل شعره المبدرة بعناية(8). قال عنه كارليل "رجل شديد الخيلاء، غريب الأطوار، وقح بعض الشيء(9)". ولكنه وقع في نفس الملك، وخليته، ووزرائهم؛ موقفاً طيباً بفضل إطلاعه على مواطن الأمور وحسن تقديره لشؤون السياسة. وراح يعد أذهانهم بالتدريج للتحالف مع النمسا. فصور لهم إمكان إقناع روسيا، وبولندا، وسكسونيا، بالإسهام في تأديب فرديريك. وتساءل ما لذي جنته فرنسا من وراء تحلفها مع بروسيا-اللهم إلا تضخيم قوة دولة برية تتحدى زعامة فرنسا على القارة، ثم ألم يحنث فرديريك المرة بعد المرة بعهدده حين وجد أن الحنث في صالحه؟

وكان كاويتز يحرز تقدماً طيباً حين استدعته ماريا تريزا إلى فيينا ليكون مستشاراً لها، وحولت له كامل السلطة في الشؤون الداخلية والخارجية (1753) وعارض النبلاء الشيوخ في بلاط فيينا خطته طويلاً، فشرحها ودافع عنها في صير، وأيدهت الإمبراطورة؛ وفي 21 أغسطس 1755 نال اقتراح التحالف مع فرنسا الرسمية للوزارة الإمبراطورية. وصدرت التعليمات للكونت جيورج فون شتارهمبرج، الذي خلف كاونتز سفيراً في باريس، بأن يروج للخطة الكبرى في كل فرصة تتاح له لدى لويس الخامس عشر ومدام ديومبادور. وأرسل كاونتز خطاباً كله إطراء إلى "الخليلة الرسمية" (30 أغسطس 1755) أرفق به مذكرة رجاها أن

صفحة رقم : 12873

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

تسلما للملك سراً. ففعلت. وكانت المذكرة من ماريا تريزا، وهذا نصها.  
"إنني بصفتي إمبراطورة وملكة، أعد بالأبداً شيء على الإطلاق من كل ما سيعرضه الكونت شتارهمبرج باسمي على الملك المسيحي جداً، وبأن يحتفظ دائماً بأعمق السرية في هذا الأمر؛ سواء نجحت المفاوضات أو فشلت. ومن المفهوم بالطبع أن الملك سيعطي إقراراً ووعداً مماثلين".

فيينا، 21 يونيو 1755(10).

وعين لويس الابن دبرنيس والمركيزة ديمبادور للاجتماع سراً بشتارهمبرج في جناحها "بابيول". هناك اقترح السفير باسم الإمبراطورة أن تتخلى فرنسا عن تحالفها مع بروسيا، وأن تتعهد بأن تقدم للنمسا على الأقل معونة مالية في حالة نشوب الحرب. وقال إن فردريك حليف عديم الفائدة، لا يركن إليه. ولمح بأن فردريك، حتى في تلك اللحظة مشغول باتصالات سرية مع الوزارة البريطانية. وتعد النمسا من جانبها بأن تمتنع عن أي عمل عدائي ضد فرنسا إذا دخلت فرنسا في حرب مع إنجلترا، وفي حالة نشوب هذه الحرب تسمح النمسا لفرنسا باحتلال أوستند ونيويورك، وقد تسمح نهائياً بأن تكون الأراضي المنخفضة النمساوية من نصيب فرنسا.

ولاحظ لويس أن هذا الميثاق سيورطه في حرب نمساوية ضد بروسيا، ولكنه لا يلزم النمسا بأن تعين فرنسا على إنجلترا. وكان له عذر في أن يخشى جيش فردريك أكثر من الجيش النمساوي-الذي طالما هزم، والذي كانت قيادته في الحرب الأخيرة غاية في السوء. فأمر لويس أن يرد بأن فرنسا لن تغير تحالفها مع بروسيا ما لم تقدم لها البراهين على اتصالات فردريك بإنجلترا. ولم يستطع كاونتز حتى ذلك التاريخ أن يقدم هذه البراهين، فتوقف سير خطته مؤقتاً. ولكن حين تلقى لويس اعتراف فردريك بمعاهدة ويستمنستر الإنجليزية البروسية، رأى أن تحالفه مع بروسيا مات في الحقيقة والواقع. وربما خطر له، وهو غارق في آثامه، أنه قد

صفحة رقم : 12874

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

يسترضي الله بتوحيد الدول الكاثوليكية-فرنسا، والنمسا، وبولندا، وأسبانيا في مخطط يهيمن به على مصائر أوروبا(11). وعليه ففي أول مايو 1756 أتمت معاهدة فرساي قلب الأحلاف رأساً على عقب. وأعلنت ديباجة المعاهدة أن هدفها الوحيد هو المحافظة على سلام أوروبا وتوازن القوى. فإذا تعرض أحد الطرفين المتعاقدين لتهديد في ممتلكاته الأوروبية من أي دولة غير إنجلترا، ولا تعين فرنسا النمسا على بروسيا ما لم تكن بروسيا هي المعتدية على نحو واضح. وإذا لم ير لويس أي احتمال لأن تعرض بروسيا مكاسبها للخطر بعودتها إلى مهاجمة النمسا، فقد استطاع هو وخليلته أن يوهما نفسيهما بأن الحلف الجديد يعين على السلام في القارة.

ولم يحقق كاونتز إلى الآن كل هدفه في الحصول على المعونة الفرنسية ضد بروسيا. ولكنه تذرع بالصبر، فلعله يستطيع إثارة فردريك ليهاجم النمسا ولم يجد أحد أثناء ذلك صعوبة تذكر في إقناعه القيصرة بالانضمام إلى الحلف الجديد، فقد كانت اليزافينا تتوق إلى إزالة العقبة البروسية من طريق توسع روسيا غرباً. وعرضت أن تهاجم بروسيا

قبل نهاية عام 1756 إن وعدت النمسا بأن تهاجمها هي أيضاً، ووعدت بأنها في هذه الحالة لن تعقد صلحاً مع بروسيا إلا إذا ردت سيليزيا كاملة إلى النمسا. وأبهجها أن تعام بأن فرنسا أبرمت معاهدة فرساي. وأضطر كاونتز إلى كبح حماستها، فهو يعلم أن جيوشها لن تكون مهيأة لخوض حملة كبرى قبل 1757. فتريث حتى 31 ديسمبر 1756، ثم وقع الاتفاقية التي انضمت روسيا بمقتضاها إلى الحلف الفرنسي النمساوي. وخلال ذلك كانت إنجلترا؛ الواثقة من أن تحالفها مع فردريك سيثّل حركة النمسا، قد بدأت فعلاً عملياتها البحرية ضد فرنسا دون أي إعلان للحرب. وراحت السفن الحربية الإنجليزية من يونيو 1755 تستولي على السفن الفرنسية كلما استطاعت. وردت فرنسا بالاستعداد لغزو إنجلترا،

صفحة رقم : 12875

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

وبتجريد أسطول من خمس عشرة سفينة تحت إمرة الدوق دريشليو ليهاجم جزيرة مينورقة التي كان البريطانيون قد استولوا عليها في حرب الوراثة الأسبانية (1709). وتعزيراً للحامية البريطانية الصغيرة في الجزيرة أرسلت بريطانيا عشر سفن يقودها الأميرال جون بينج، وانضمت إليها ثلاث سفن إضافية في جبل طارق. وفي 20 مايو 1756 أشتبك الأسطولان العدوان قرب مينورقة. فهزم الفرنسيون، ولكن الأسطول الإنجليزي أصيب بأضرار حملت بينج على العودة به إلى جبل طارق دون محاولة لإنزال تعزيزات على بر مينورقة. وسلمت الحامية العاجزة، وأصبح لفرنسا الآن موقع استراتيجي في البحر المتوسط. وأشاد القوم بريشليو بطلاً في باريس وفرساي، وأعدم بينج على سطح سفينته في ميناء بوردسموث (14 مارس 1757) بتهمة عدم بذله قصارى جهده للانتصار. وعبئاً تشفع له فولتير وريشليو، وقال فولتير إن هذا هو الأسلوب الذي تتبعه إنجلترا في "تشجيع الآخرين" الذين يتولون القيادات البريطانية. في 17 مايو 1756 أعلنت إنجلترا الحرب على فرنسا، ولكن البداية الرسمية لحرب السنين السبع تركت لفردريك. وكان عليماً بأن فتحه لسيليزيا عرضة لمحاولة استردادها في أي وقت تجد فيه ماريا تريزا موارد وحلفاء جدد. وكانت موارده هو محدودة بشكل خطر، ومملكته أخلاطاً من الأوصال المقطعة؛ فبروسيا الشرقية تفصلها بولندا عن بروسيا، والأقاليم البروسية في ويستفاليا وفرزيا الشرقية تفصلها الدويلات الألمانية المستقلة عن براندنبورج. وكان سكان بروسيا بما فيها هذه الأجزاء المتنافرة وسيليزيا يبلغون نحو أربعة ملايين نسمة عام 1756، وسكان إنجلترا ثمانية ملايين، وسكان فرنسا عشرين مليوناً. وكان شطر كبير من سكان بروسيا في سيليزيا، التي ظل نصفها كاثوليكياً متعاطفاً مع النمسا. وعلى سبعة أميال فقط من برلين كانت حدود سكسونيا المعادية، التي كان أميرها: الناخب، أوغسطس الثالث ملك

صفحة رقم : 12876

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

بولندا الكاثوليكي، ينظر إلى فردريك نظره إلى زنديق وقح جشع. فكيف السبيل إلى البقاء وسط هذا المرجل الذي يغلي بالعداء له؟

ليس إلا بالعقل الراجح، والاقتصاد، والجيش القوي، والقواد الأكفاء، أما عقله فقريع في حدة ذكائه لأي عقل آخر؛ وهو أفضل حكام عصره تعليماً، وقد أثبت جدارته في رسائله وأحاديثه، وجدله مع فولتير. ولكن لسانه كان أحد من أن يسمح العقل بإطلاقه على الناس، ولعل أموره كانت تجري بأيسر مما جرت لو أنه لم يصف اليزافيتا بتروفا، وماريا تريزا، ومدام ديمبادو، بأنهن "ثلاثة كبار عاهرات أوربا(12)"; ومن بواعث العزاء لنا أن نرى أنه حتى عظماء الرجال قد يسلكون مسلك الحمقى بين الحين والحين. أما عن اقتصاد بروسيا، فإن فردريك أخضعه لسيطرة الدولة ولما رآه ضرورات لا غنى عنها لحرب ممكنة في هذه الظروف لم يجرؤ على تغيير الهيكل الإقطاعي للحياة البروسية مخافة أن يخلل التنظيم الإقطاعي لجيشه. فلقد كان الجيش خلاصه ودينه. أنفق على صيانته تسعين في المائة من موارده(13) وسماه "أطلس" الذي حملت كنفاه القويان الدولة(14). وزاده من 100.000 مقاتل خلفه له أبوه حتى بلغ به 150.000 في 1756. ودربه بالعقوبات الصارمة على الطاعة الفورية الصارمة؛ وعلى السير في ثبات صوب الخط المواجه له دون أن يطلق طلقة حتى يصدر إليه الأمر، وعلى تغيير اتجاهه، والمناورة بكتلته كلها، وهو تحت نيران العدو. وكان على رأس الجيش في بداية الحرب خيرة القواد في أوربا بعد فردريك نفسه-شفيارين، وسيدلتز، وجيمس كيث.

ولم يكن أقل من قواده أهمية أولئك الجواسيس الذين بثهم بين أعدائه ولم يترك له جواسيسه شكاً في أن ماريا تريزا تؤلف حوله نطاقاً من القوى المعادية. وفي 1753-1755 حصل جواسيسه في درسدن ووارسو على نسخ من رسائل سرية تبادلتها وزارتان السكسونية والنمساوية، أقتنعه بأن هذين البلاطين يأتمران للهجوم على بروسيا وتقطيع أوصالها إن حالهما الحظ

صفحة رقم : 12877

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

وأن فرنسا تتستر على المؤامرة(15). وفي 23 يونيو 1756 أصدر أمره للقائد البروسي في كونجزبرج بأن يستعد لمقابلة هجوم عليه من روسيا. وأبلغ الحكومة البريطانية بأن "الدى بلاط فيينا ثلاث خطط تشير إليها خطاه الحالية: أن يوطد حكمه الاستبدادي في الإمبراطورية، وأن يقضي على البروتستانتية، وأن يعيد فتح سيليزيا(16)". علم أن سكسونيا تدبر زيادة جيشها من سبعة عشر ألف مقاتل إلى أربعين ألفاً خلال الشتاء(17). وخمن أن الحلفاء يتربصون ربيع 1757 ليزحفوا عليه من ثلاث جهات، فصمم على أن يضرب ضربته قبل أن تكتمل تعبئة قواته. وقد شعر أن فرصته الوحيدة للنجاة من الخطر الذي يهدده هي شل حركة عدو واحد على الأقل من أعدائه قبل أن يستطيعوا توحيد صفوفهم في مقاتلته. ووافق شقيرين، ولكن أحد وزرائه المسمى الكونت فون بوديفيليس رجاه ألا يعطي أعداءه ذريعة لاتهامه بأنه المعتدي. ولقبه فردريك "السيد صاحب السياسة الجبانة(18)" وكان قبل ذلك بزمن طويل، في "ميثاق سياسي" سري (1752) قد نصح خليفته بأن يفتح سكسونيا فيفتحها لبروسيا الوحدة الجغرافية، والموارد الاقتصادية، والقوة السياسية التي لا غنى عنها لمن يريد البقاء(19). ولكنه نحى الفكرة جانباً باعتبارها فكرة لا يقوى على تحقيقها. أما الآن فقد رآها ضرورة حربية فلا بد له من حماية حدوده الغربية بتجريد سكسونيا من السلاح.

وكان حتى في كتابه القريب من المثالية. "المعارض لمكيافلي" (1740) قد وافق على الحرب الهجومية إذا أريد بها الحيلولة دون هجوم داهم من العدو (20). وأخبره ممثل، الوزير الروسي في إنجلترا، أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية القوية في الحفاظ على السلام في القارة، فهي تدرك الضرورة القاهرة التي يواجهها فردريك ولن تعتبره "ملوماً" على الإطلاق إذا هو حاول أن يسبق أعداءه بدلاً من الانتظار حتى ينفذوا فيه نياتهم العدائية (21). وفي يوليو 1756 أوفد مبعوثاً إلى ماريا تريزا يطلب تأكيداً بأن النمسا

صفحة رقم : 12878

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> كيف تشعل نار الحرب

لا تنوي القيام بأي هجوم على بروسيا لا في تلك السنة ولا في السنة التالية. ورأى عضو في الوزارة النمساوية أن الواجب إعطاء هذا التأكيد؛ ولكن كاونتز رفض إرساله؛ فكل ما تود ماريا تريزا أن تقول هو أنه "في الأزمة الراهنة أراه ضرورياً أن أنتخذ تدابير لتأمين نفسي وحلفائي، وليس من شأن هذه التدابير الإضرار بأحد (22)". وأرسل فردريك رسالة ثانية للإمبراطورة يسألها جواباً صريحاً على طلب التأكيد؛ فأجابت بأنها "لم تبرم حلفاً هجومياً، ومع أن موقف أوربا الدقيق يضطرها إلى التسلح، فإنها لا تنوي خرق معاهدة درسن ( التي تعاهدت فيها بمسالمة فردريك)، ولكنها لن تربط نفسها بأي وعد يمنعها من التصرف وفقاً لمقتضيات الظروف (23)". وكان فردريك يتوقع هذا الجواب، وقبل أن يصله قاد جيشه إلى سكسونيا (29 أغسطس 1756). وهكذا بدأت حرب السنين السبع.

صفحة رقم : 12879

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> طريد القانون

2- طريد القانون

1756 - 1757

وبذل فردريك محاولة فائرة ليجند ناخب سكسونيا حليفاً له، فعرض عليه بوهيميا رشوة وكانت ملكاً لماريا تريزا. ولكن أغسطس احتقر هذا التصديق بمال الغير، وأمر قواده بوقف زحف فردريك، ثم فر إلى وارسو. وكانت القوة السكسونية أصغر من أن تقاوم أعظم جيش في أوروبا، فانسحبت إلى القلعة في بيرنا، ودخل فردريك درسن دون مقاومة (9 سبتمبر 1756) وأمر عملاءه للفرور بأن يفتحوا المحفوظات السكسونية ويأتوه بأصول تلك الوثائق التي كشف من قبل عن اشتراك سكسونيا في الخطة المرسومة لتأديب بروسيا وربما لتقطيع أوصالها. ووقفت الملكة الناخبة العجوز بشخصها لتحول دون الوصول إلى المحفوظات، وطالبت فردريك بأن يحترم حقها بعدم العدوان عليها. أما هو فأمر بإزالتها من الطريق، ففرت، ووضع يده على الوثائق.

صفحة رقم : 12880

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> طريد القانون

وأرسلت ماريا تريزا جيشاً من بوهيميا لإزاحة الغازي من مكانه، فالتقى به فردريك وهزمه في لوبوزيتس، على الطريق من براغ إلى درسن (أول أكتوبر) وعاد ليحاصر بيرنا، فسلمت له (15 أكتوبر)، وحشد الأربعة عشر ألف جندي من أسرى السكسونيين في فرقة، وحجته أن هذا أرخص له من إطعامهم وهو أسرى حرب، فلقد كان شره الألمان للطعام أمراً مشهوراً ولا فخر. وأعلن أنه فتح سكسونيا، واستخدم مواردها لتلبية حاجاته. ونشر على الملأ خلال الشتاء الوثائق السكسونية. فزعمت ماريا تريزا أنها مزيفة، واستندت بفرنسا وروسيا وكل المسيحيين الذين يخافون الله واستعدتهم على ذلك الرجل الذي زج بعودانه الصارخ أوروبا في خضم الحرب من جديد. وانفتحت أوروبا عموماً على إدانة فردريك. وأعلنت الإمارات الألمانية الحرب على بروسيا (17 يناير 1757) مخافة أن يحقق بها ما حاق بسكسونيا إذا انتصر فردريك، وجمعت جيشاً إمبراطورياً لقتال ملك بروسيا. ولم يضع كاونتز وقتاً في تذكر لويس الخامس عشر أن فرنسا قد وعدت النمسا بالمعونة إذا تعرضت للخطر. وألحت الدوقينة؛ ابنة ناخب سكسونيا، على حميها في أن ينفذ أباهما. أما مدام ديومبادور، التي عللت نفسها من قبل بأمل الاستمتاع بملكها في سلام، فقد مالت الآن إلى الحرب. وتقديراً لمعونتها أهدتها ماريا تريزا صورة ملكية رصعت بالجواهر وقدرت بمبلغ 77.278 جنيهًا؛ (14) وانقلبت ديومبادور امرأة حربية. أما لويس الذي كان عادة بطيء الحسم، فقد اتخذ قراره بعزيمة لا تنتهي. والتزمت فرنسا الآن بمقتضى معاهدة فرساي الثانية (أول مايو 1757) بتحالف دفاعي هجومي مع النمسا، وتعهدت لها بمعونة سنوية قدرها عشر مليون فلورين، ووافقت على تجهيز جيشين ألمانيين، وعرضت تخصيص قوة فرنسية قوامها 105.000 مقاتل لتدمير بروسيا تدميراً تاماً". ووعدت بالآلا تعقد صلحاً على الإطلاق مع بروسيا حتى ترد سيليزيا إلى النمسا. فإذا ردت حصلت فرنسا على خمس مدن حدود في الأراضي الوطنية

صفحة رقم : 12881

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> طريد القانون

النمساوية، ونقلت ملكية هذه الأراضي الواطئة الجنوبية إلى ولاية عهد أسبانيا البوربوننية لقاء دوقيات أسبانية في إيطاليا. ولعل فرنسا كانت تتخلى على وعي منها عن مستعمراتها للفتح البريطاني بتكريس مواردها كلها تقريباً لانتهاج "بلجيكا". واستطاع كاونتز أن يحس بأنه أحرز نصراً دبلوماسياً عزيزاً.

ولم يجد الآن مشقة في أن يستميل روسيا إلى مديد العون النشط إلى النمسا. وتعهدت روسيا والنمسا بمقتضى اتفاقية سانت بطرس بوج (2 فبراير 1757) بأن تضع كل منها ثمانين ألف جندي في الميدان، وأن تخوض الحرب إلى أن توحد سلبانيا مع النمسا من جديد وتختزل بروسيا إلى دولة صغيرة. ثم اتجه كاونتز إلى السويد فأدخلها الحلف بأن كفل لها في حالة الانتصار كل الشطر البومراني الذي سلم لها في معاهدة وستقاليا. وفرض على السويد أن تقدم 25.000 مقاتل، وعلى النمسا وفرنسا أن تمولا هذا الجيش. وتعهدت بولندا التي كان يحكمها الملك اللاجئ أوغسطس الثالث بتقديم مواردها المتواضعة إلى الحلف الفرنسي والنمساوي، وهكذا تكتلت ضد فردريك كل أوربا باستثناء إنجلترا، وهانوفر، والدنمرك، وهولندا، وسويسرا، وتركيا، وهسي كابل.

ووجدت إنجلترا من الأسباب ما يغريها بترك فردريك لمصيره. ذلك أن جورج الثاني رأى في فرع أن موطنه المحبوب هانوفر الإمارة الناجبة التي قدم منها أبوه ليحكم بريطانيا، وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها في طريق جيش عرمرم، بينما كان فردريك أعجز من أن يقدم لها عوناً ذا بال وبينها وبين هذه الشقة والأعداء يشددون عليه الكثير. وأصبح هذا الإغراء أمراً لا يكاد يقاوم حين عرض كاونتز عدم المساس بهانوفر إذا ظلت بمعزل عن الحرب القارية؛ في تلك اللحظة كان مصير فردريك في خطر. وكان بت، الذي عين وزيراً للخارجية في 19 نوفمبر 1756 ميالاً أول الأمر لترك بروسيا وهانوفر تودان عن نفسيهما دون عون من الخارج، بينما تركز إنجلترا كل مواردها الحربية على

صفحة رقم : 12882

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> طريد القانون

الصراع على المستعمرات، لا عجب إذن أن يبغض جورج الثاني المتعلق بهانوفر ووزيره بت ولكن بت لم يلبث أن غير رأيه. وصرح أن فرنسا المنتصرة على فردريك ستغدو سيدة على أوربا، وعلى إنجلترا أيضاً بعد قليل، فعلى البرلمان إذن أن يوافق على إرسال المال لفردريك والجنود لهانوفر، ولا بد من إكراه فرنسا على استنزاف قوتها في أوربا، بينما تنتزع إنجلترا المستعمرات والأسواق من البحار التي تفتحها.

وعليه ففي يناير 1757، أبرمت بريطانيا حلفاً ثانياً مع بروسيا، تعهدت فيه بالعون المالي لفردريك، وبالجنود لهانوفر. ولكن حدث أن أقيمت فجأة (5 إبريل) وأربكت أهواء السياسة حكمتها، وتعطل إرسال العون لفردريك، وظل عاماً تقريباً يقف وحيداً، ومعه 145.000 مقاتل، أمام جيوش تحدد به من كل صوب، ففي القرب 105.000 مقاتل من فرنسا، 20.000 مقاتل من الدويلات الألمانية، وفي الجنوب 133.000 من النمسا، وفي الشرق 60.000 من روسيا، وفي الشمال 16.000 من السويد. في ذلك اليوم الذي شهد سقوط بت، وسم الإمبراطور فرنسيس الأول-زوج ماريا تريزا، اللطيف الوديع عادة-فردريك رسمياً بأنه خارج على القانون، ودعا كل الرجال الصالحين إلى تعقبه وتصيده لأنه عدو للنوع الإنساني عاص فاجر.

صفحة رقم : 12883

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> من براغ إلى روسباخ

3- من براغ إلى روسباخ

1757

في 10 يناير أرسل فردريك إلى وزاراته في برلين تعليمات سرية: "يجب أن تجري الأمور مجراها دون أدنى تغيير إن قتلت، وإن تعثر حظي فأسرت، فأني أمنع أقل اعتبار لشخصي، أو أدنى التفات لأي شيء قد أكتبه وأنا في الأسر" (25). وكانت لفته عديمة الجدوى، لأن بروسيا كانت ضائعة لا محالة بدون عبقريته الحربية. وكان أمله الوحيد في ملاقاته أعدائه كل على حدة قبل أن يستطيعوا التجمع عليه. ولم يكن الفرنسيون مستعدين للمعركة، وربما

صفحة رقم : 12884

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> من براغ إلى روسباخ

استطاعت الفرق التي ترسلها إنجلترا لهانوفر أعاقته برهة. أما النمساويون فيحشدون في بوهيميا ومورافيا القريبين مخازن هائلة من الأسلحة والمؤن لتجهيز جيوشهما لغزو سيليزيا. وقرر فردريك أن يبدأ بالاستيلاء على هذه المخازن الثمينة، ومقاتلة النمساويين، ثم العودة لملاقاة الفرنسيين. فقاد قوته من سكسونيا، وأمر دوق برنزيك-بيفرن من ألمانيا الشرقية، والمرشال شيفرين من سيليزيا، بالزحف في بوهيميا وملاقاته في التلال المشرفة على براغ من الغرب. وقد تم هذا، استولى فردريك على المخازن، وفي 6 مايو على مقربة من براغ، التقى 64.000 بروسي بجيش نمساوي عدته 61.000 مقاتل تحت إمرة شارل أمير اللورين في فاتحة المعارك الكبرى في هذه الحرب. ولم يكن الفاصل في المعركة هو الكثرة، ولا الاستراتيجية، بل الشجاعة ذلك أن فرق شيفرين زحفت تحت نيران النمساويين مخترفة المستنقعات والماء يغطي خصور الجند ثم أكتافهم. وأدركهم اليأس حيناً وهموا بالفرار، فجمع شملهم شقرين البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً ولف العلم حول بدنه، وركب رأساً في مواجهة العدو، فضرب بخمس رصاصات في وقت واحد، وخر صريعاً، أما رجاله الذين كاد حبهم له يفوق خوفهم من الموت، فقد حملوا على العدو في غضبة مضرية وحولوا الهزيمة نصراً. وكان التقتيل في الجانبين رهيباً، وشملت خسائر فردريك أربعمائة ضابط وخير قائد عنده، في هذه الحرب لم يكن القواد يموتون حتف أنوفهم، وتقهر من بقي من النمساويون وعددهم 46.000 إلى القلعة في براغ، وتهيئوا لمقاومة الحصار.



ولكن فردريك وجد الحصار عسيراً، لأن المرشال ليوبولد فون داون، أكفأ القواد النمساويين، كان قادماً من مورافيا على رأس 64.000 مقاتل آخرين. فسار فردريك شرقاً يقود 32.000 مقاتل بعد أن ترك جزءاً من جيشه ليحاصر القلعة، والتقى بالجحافل الزاحفة

صفحة رقم : 12885

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> من براغ إلى روسباخ

عند كولن (16 يونيو)، وكانت ميزة العدو عليه كبيرة جداً وبراعة داون الحربية في هذه الحالة تفوق براعته. وعصى اثنان من قواد فردريك أو امره فأحدثوا خللاً في الجيش، وفقد فردريك أعصابه وصاح بفرسانه "هل أنتم مخلدون؟" (26). أما المشاة فرفضوا الزحف وقد هالهم التقتيل. وانسحب فردريك من ساحة القتال جزعاً، بعد أن ترك عليها 14.000 بروسي ما بين قتيل وجريح وأسير وعاد بالأحياء وعددهم 18.000 إلى براغ، وأقلع عن الحصار ورجع بما بقي له من جيشه صوب سكسونيا.

وفي لايميريتس أراح جيشه ثلاثة أسابيع. وفي 2 يوليو تلقى هناك نبأ موت أمه صوفيا دوروتيا. وأنهار رجل الحرب الفولاذي، وبكى، واعتزل الناس يوماً، ولعله ساءل نفسه الآن ألم يكن هجومه على سيليزيا قبل سبعة عشر عاماً إغراء أحق زينته له ربة الانتقام. وشاطرته الحزن شقيقته فلهلميني، أميرة بايروت، التي أحبها أكثر من أي مخلوق آخر، ففي 7 يوليو أرسل إليها نداء يائساً بعد أن أوشكت كبرياؤه على النضوب: ما دمت يا شقيقتي العزيزة على الاضطلاع بمهمة السلام العظمى فأرجوك أن تتفضلي بالكتابة إلى المسيو دميرابو... ليعرض على السيدة المقربة (مدام دبومبادور سابقاً كوتيون الرابعة مبلغاً يصل إلى 500.000 كراون ثمناً للصلح... إنني أترك الأمر كله لك... أنت التي أعبدها، والتي هي ذاتي الثانية، وأن كنت أكثر مني كياسة بما لا يقاس(27).

ولكن المحاولة لم تأت بنتيجة. فجريت فلهلميني طريقة أخرى: كتبت إلى فولتير الذي كان يقيم في سويسرا ورجته أن يستعمل نفوذه. ونقل فولتير إلى الكردينال دتانسان، الذي كان قد عارض في الحلف

صفحة رقم : 12886

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> من براغ إلى روسباخ

الفرنسي- النمساوي، وحاول تانسان ولكنه أخفق(28)، فقد كان الحلفاء يشمون ريح النصر وراحت ماريا تريزا تتحدث عن تمزق أوصال ملك فردريك إرباً، فلا يكفي أن ترد لها سيليزيا وجلاتز، بل يجب أن تعطي مجدبورج وهالبرشتات إلى أوغسطس الثالث وتعود بومرانيا إلى السويد ويكافأ ناخب البالاتين بكليفر ورافنسبورج.

وقد بدت آمالها معقولة. ذلك أن "جيش الدوفينة" الفرنسي كان قد دخل ألمانيا، وكان شطر منه بقيادة أمير سوبيز، القائد الأثير لدى بومبادور، في الطريق للانضمام إلى الجيش الإمبراطوري عند إوفورت، وزحف شطر آخر بقيادة المرشال دسترته ليلتقي بقوة هانوفرية يقودها الدوق كمبرلاند، وهو ابن جورج الثاني. وعلى مقربة من قرية هاشتنبيك هزم الفرنسيون هذه القوة هزيمة منكرة (26 يوليو) أكرهت الدوق على أن يبرم في كلوستر-تسيفين (8 سبتمبر) "اتفاقاً" تعهد بمقتضاه أن يمنع جنوده الهانوفرين من أي اشتباك مع فرنسا. وربما بلغ فردريك نبأ هذا التسليم المذل تقريباً في نفس الوقت الذي بلغته فيه الأنباء بأن جيشاً سويدياً نزل أرض بومرانيا، وجيشاً روسياً 100.000 مقاتل بقيادة ستيفان أبراكسين غزا بروسيا الشرقية وسحق قوة من 30.000 بروسي عند جروس-بيجرزدورف (30 يوليو) وكادت الهزائم بالإضافة إلى الكارثة التي أصابته في بوهيميا تقضي على أمل فردريك في قهر أعداء بهذه الكثرة وهذا التعزيز باحتياطات من العتاد والرجال. أما وقد كفر بفضائل المسيحية كما كفر بلاهوتها، فإنه لجأ إلى أخلاقيات الرواقيين وفكر في الانتحار. وظل إلى نهاية الحرب يحمل قنينة سم إذ عقد النية على ألا يضع أيديهم عليه إلا جثة هامة. وفي 24 أغسطس أرسل إلى فلهميني خطاباً يسبح فيه بحمد الموت فيما يشبه الهستريا:

صفحة رقم : 12887

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> من براغ إلى روسباخ

"والآن يا مروجي الأكاذيب المقدسة، أمضوا في سحب الجبناء من أنوفهم...أما أنا فقد انتهى في نظري سحر الحياة واختفت تعويذتها. ولست أرى في الخلق جميعاً غير العوبة في يد القدر، فإن كان هناك حقاً كائن عابس لا يرحم، يسمح لقطيع محتقر من المخلوقات بأن يتكاثر هنا، فهو لا يرى لهم وزناً، وهو ينظر من عليانه إلى مخلوق مثل فالاريس متوجاً، أو مثل سقراط مكبلاً بالأغلال، إلى فضائلنا ورتائلنا، إلى أهوال الحرب والأوبئة الرهيبة التي تدمر الأرض، وكأنها أشياء لا تهمة. لذلك كان ملجأى الوحيد وملاذي الذي لا ملاذ غيره يا شقيقتي العزيزة، إنما هو في حضان الموت". (29)

وردت علة خطابه (15 سبتمبر) بأن أقسمت أن تتنحرت مثله:

يا شقيقتي العزيز، لقد كان يقتلني خطابك، والخطاب الذي بعثت به إلى فولتير. يا ألهمي القدير، أي قرارات رهيبة! أو اه يا أخي العزيز، تقول إنك تحبني، ومع هذا فأنت تغمد خنجرأ في قلبي. إن خطابك جعلني أذرف أنهاراً من الدموع. وأنا الآن خجلة من هذا الضعف...ومصيرك سيكون مصيري. فلن أعيش بعد عثرات حظك وحظ البيت الذي أنتمي إليه. ولك أن تعتبر هذا قراري الذي لن أحيده عنه.

"ولكن بعد هذا العهد دعني أتوسل إليك أن تعود بفكرك إلى ما كان عليه العدو من حال سيئة وأنت مرابط أمام براغ. إنها دولة الحظ الفجائية بصيب الفريقين. لقد كان قيصر مرة عبداً للقرصنة، ثم أصبح سيداً على العالم. وإن عبقرية هائلة كعبقريتك لتجد لها المنافذ حتى حين يبدو أن كل شيء ضاع. إنني أقاسي أكثر ألف مرة مما أستطيع ذكره لك، ومع ذلك لا يفارقني الأمل...على أن أختم الآن، ولكنني سأظل دائماً، مع أعمق الاحترام أختك فلهميني". (30) ولجأت إلى فولتير ليعزز رجاءها، فأمن على حججها في مطلع أكتوبر في أول خطاب كتبه لفردريك منذ 1753. وقال:

صفحة رقم : 12888

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> من براغ إلى روسباخ

"إن المقاتلين من أمثال كاتو وأوتو، الذين ترى جلالكم أن موتهم كان شرفاً لهم، ما كان في استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً آخر غير القتال أو الموت". يجب أن تذكر كم من بلاطيرى غزوك لسكسونيا انتهاكاً للقانون الدولي... وأن أخلاقنا ومركزك في غير حاجة إطلاقاً لهذه الفعلة (الانتحار) وحياتك ضرورية وأن تعلم كم هي غالية في نظر أسرة كثيرة العدد... وأحوال أوروبا لا تستقر طويلاً على أساس واحد، والواجب على رجل مثلك أن يتماسك استعداداً للأحداث... ولو أن بسالتك أفضت بك إلى ذلك التطرف البطولي لما استحسنا الناس فأنصارك سيدينونها، وخصوصك سينتصرون(31)"

وأجاب فردريك نثراً وشعراً وقال:

"أما أنا المهدد بالغرق، فعليّ وأنا أتصدى للعاصفة أن أفكر، وأحيا وأموت ملكاً(32)".

وبين قصائد الشعر (التي نظمها دائماً بالفرنسية) راح يبحث عن الجيش الفرنسي، وتاقت نفسه الآن إلى معركة تحسم له مشكلة الحياة أو الموت. وحين كان في لبيزج، في 15 أكتوبر أرسل في طلب يوهان كرسنوف جوتشيد (الذي كنا يقرض الشعر بالألمانية) وحاول إقناعه بأن الشعر الألماني ضرب من المحال. ففيه فرقعات كثيرة جداً وحتى في اسم الأستاذ هناك خمسة في صف واحد، فكيف تحدث اتساقاً في الأصوات من لغة كهذه؟ واحتج جوتشيد. وكان على فردريك أن يعد لزحف جديد، ولكن بعد عشرة أيام حين عاد إلى لبيزج، استقبل الشاعر الشيخ ثانية، ووجد متسعاً من وقته ليستمع إلى قصيدة غنائية بالألمانية من نظم جوتشيد، وأهداه علبة نشوق ذهبية عربون الرضى وهو يودعه. وخلال ذلك الفاصل الأدبي جاءت أنباء أسوأ: فقوة من الكروات يقودها الكونت هاديك تزحف على برلين، والشائعات تزحف بأن الكتائب السويدية والفرنسية تزحف لتطبيق على العاصمة البروسية. وكان

صفحة رقم : 12889

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> من براغ إلى روسباخ

فردريك قد ترك فيها حامية ولكنها أصغر كثيراً من أن تصد هذا السيل العارم: ولو سقطت برلين لوقع في يد العدو أهم مصدر لإمداداته من السلاح، والبارود، والملابس، وهرع بجيشه لينقذ المدينة وأسرته. وخلال زحفه أنبئ بأن ليس هناك قوات فرنسية ولا سويدية تزحف على برلين، وأن هاديك توقف في ضواحي العاصمة وأقصى فدية قدرها 27.000 جنيه من برلين، ثم رحل بجنده الكروات راضياً (16 أكتوبر). وجاءه نبأ سرى عنه، هو أن الروس بقيادة أبراكسين انسحبوا من بروسيا الشرقية إلى بولندا بعد أن نال منهم المرض والجوع.

وأنته رسائل لم تشرح صدره، تقول إن الجيش الفرنسي بقيادة سوبيز دخل سكسونيا، ونهب المدن الغربية، وأنظم إلى الجيش الإمبراطوري الذي يقوده دوق ساكس-هيلدبورجهاوزن. وعاد الملك المرهق أدراجه، وقاد جنده إلى قرب روسباخ، على نحو ثلاثين ميلاً غربي لبيزج.

هناك التقى جيشه المتعب الذي تقلص إلى 21.000 مقاتل في خاتمة المطاف وجهاً لوجه بجيوش فرنسا والرايش وعدتها 41.000 مقاتل. ورغم هذا أشار سوبيز بعدم المجازفة بخوض المعركة، وقال أنه خبير منها المضي في تجنب الالتحاق بفردريك وإرهاقه بمسيرات عقيمة حتى يكرهه تفوق الحلفاء عدداً وعدة على التسليم. وكان سوبيز عليماً

بانهبيار النظام في صفوف جيشه، وافتقار جنود الرايش ومعظمهم من البروتستنت إلى الحماسة في مقاتلة فردريك(33). غير أن هيلبور جهاوزن ألح في طلب القتال، فأذعن سوبيز. وقاد القائد الألماني جيشه على منعطف طويل ليهاجم البروسيين على مسيرتهم. فما كان من فردريك وهو يرقب العدو من سطح بيت في روسباخ إلا أن أمر فرسانه بقيادة سيدلتر أن يقوموا بحركة مضادة على ميمنة العدو. وحمل الفرسان البوسيون، وعدتهم 3.800 مقاتل تحجبهم التلال وهم يسرون بسرعة متربة، على وجود الحلفاء من تحتهم وهزمهم قبل أن يستطيعوا إعادة تشكيل صفوفهم

صفحة رقم : 12890

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> من براغ إلى روسباخ

وأقبل الفرنسيون بعد الأوان، فمزقتهم المدفعية البروسية أشد تمزق، وما مضت تسعون دقيقة حتى انتهت معركة روسباخ الفاصلة (5 نوفمبر 1757). وتفقر الحلفاء في فوضى تاركين 7.700 قتيل في ساحة القتال، أما البروسيون فلم يفقدوا غير 550 رجلاً، وأمر فردريك بالرفق بالأسرى: ودعا الضباط المأسورين إلى مائدته: وفي كياسة وظرف فرنسيين اعتذر عن قلة الطعام قائلاً

.Maia, Messieurs, Je ne Vous Attendais Pas Si Tot, en si Grdand Nombre  
"ولكني أيها السادة لم أتوقع مجيئكم بهذه السرعة، وبهذه الكثرة"(34).

وتعجب العسكريون من جميع الأطراف من ذلك البون الشاسع في الخسائر، ومن براعة القيادة التي أتاحت هذه النتيجة: وحتى فرنسا اعترفت بإعجابها، ولم يستطيع الشعب الفرنسي الذي كان حليفاً لروسيا حتى الأمس القريب أن ينظر بعد إلى فردريك نظرته إلى عدو لهم: ألم يكن يجيد الحديث والكتابة الفرنسية؟ دهشت جماعة الفلاسفة لانتصاراته وأشادوا به مكافحاً عن حرية الفكر أمام الظلامية الدينية التي يحاربونها في وطنهم(35) واستجاب فردريك لعواطف الفرنسيين النبيلة فقال: (لم أعتبر الفرنسيين)(36) ولكنه كتب سرّاً بالفرنسية-قصيدة أعرب فيها عن اغتباطه بأن ركل الفرنسيون في (إستهم) وهي كلمة ترفق كارليل فترجمها (معقدة الشرف)(37). واغتبطت إنجلترا معه. وجددت إيمانها بحليفها. واحتفلت لندن بعيد ميلاده بالصواريخ في شوارعها، وأشاد المثوديون الأتقياء بهذا الزنديق منقذاً للمذهب الحق الوحيد. وكان بت قد أعيد ليرأس الحكومة (29 يوليو 1757)، فغداً منذ الآن النصير الثابت الوفي للملك البروسي. وقال فردريك (لقد أنفقت إنجلترا وقتاً طويلاً لتجنب رجلاً عظيماً كفتناً لهذا الصراع، ولكن ها هو قد جاء في النهاية(38))، وندد بت باتفاقية كلوستر-تسيفين لأنها ليست إلا جبناً وخيانة-وذلك رغم

صفحة رقم : 12891

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> من براغ إلى روسباخ

أن ابن الملك وقعها، ثم أقنع البرلمان بأن يرسل جيشاً أفضل لحماية هانوفر ومعونة فردريك (أكتوبر)، وبينما كان المبلغ الذي أقره البرلمان من قبل لجيش كمبرلاند (جيش المراقبة) لا يزيد عن 164.000 جنيه، وافق الآن 1.200.000 جنيه لتمويل (جيش عمليات)، واتفق بت وفردريك على أن يختار لقيادة هذه القوة الجديدة صهر فردريك وتلميذه الحربي، الدوق فرديناند البرنزويكي، البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، الرجل الوسيم، المثقف، الشجاع، الذي قال عنه بيرني أنه يجيد العزف على الكمان إجادة كان يمكن أن يجمع من ورائها ثروة طائلة (39). هاهنا أداة صالحة صلاحية رفيعة لمصاحبة ناي فردريك.

صفحة رقم : 12892

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

4- الثعلب يكره على الدفاع

1760 - 1757

لم يتح لفردريك متسع من الوقت للابتهاج، فما زال جيش فرنسي بقيادة ريشليو واضعاً يده على جزء كبير من هانوفر. وفي اليوم الذي وقعت فيه معركة روسباخ ضرب 43.000 نمساوي الحصار على شفايدنتر، أهم معقل ومستودع للبروسيين من سيليزيا وكان فردريك قد ترك بها 41.000 رجل ولكن عددهم تناقص إلى 28.000 نتيجة الهروب أو الموت وكان على رأسهم قائد غير كفء هو دوق برنزويك-بيفرن، الذي تجاهل أمر الملك بمهاجمة المحاصرين، وفي 11 نوفمبر سلم الحصن، وسلم للنمساويين 7.000 أسير، و 330.000 طالر، ومؤناً تكفي لإعاشة 88.000 رجل مدى شهرين. وواصل المنتصرون السير إلى برزلاو، بعد أن زاد، عددهم إلى 83.000 بفضل انضمامهم إلى قوات يقودها الأمير شارل والمارشال داون؛ وفي 22 نوفمبر قهروا قوة صغيرة من البروسيين، وسقطت برزلاو ورد معظم سيليزيا الآن إلى ماريا تريزا الظافرة. وحق لفردريك أن يشعر أن انتصاره في روسباخ قد بطل مفعوله.

صفحة رقم : 12893

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

ولكن ذلك الانتصار كان قد جدد شجاعته، فلم يعد يتحدث عن الانتحار. كذلك كان جيشه قد أفاق من مسيراته ومعاركة، وبدا ساخطاً على الغارات التي دنس بها الجنود الفرنسيون الكنائس الكاثوليكية في سكسونيا وناشد فرديريك رجاله أن يعينوه على استرداد سيليزيا. فساروا 170 ميلاً في اثني عشر يوماً قارسة البرد، مخترقين أرضاً وعرة. وانظم إليهم في الطريق فلول القوات البروسية التي هزمت في شفايدنتز وبرزلاو. وفي 3 ديسمبر لمح فرديريك ومعه 43 ألف مقاتلاً نمساوياً من 72.000 مقاتل يعسكر قرب لويتن على الطريق إلى برزلاو. في ذلك المساء خطب فرديريك في كبار ضباطه سبق به خطب نابليون الحربية الرنانة، قال:

"أيها السادة أنكم لا تجهلون أي نكبات حلت بنا هنا بينما كنا مشتبكين مع الجيوش الفرنسية والإمبراطورية. فلقد ضاعت شفايدنتز... وضاعت برزلاو ومعهما كل مستودعاتنا الحربية، وضاع أكثر سيليزيا. ولولا تفتي التي لا حد لها بشجاعتكم وولائكم وحبكم لوطنكم، لما أفقت من عوامل ضيقي وارتياكي... فليس بينكم رجل لم يبرز بعمل ممتاز من أعمال البطولة لذلك أعلل نفسي بأنكم في الفرصة القادمة لن تضنوا بأي تضحية يطالبكم بها الوطن. والفرصة سانحة الآن. وإنني لأشعر أنني لم أحقق شيئاً لو تركت سيليزيا في قبضة النمسا. فدعوني إذن أخبركم إنني أنوي مهاجمة جيش الأمير شارل-وهو ثلاثة أضعاف جيشنا-إنما لقيته، متحدياً في ذلك جميع فواعد فن الحرب. فليست العبارة بكثرة جنده أو قوة موقعه، فأنا أمل بفضل بسالة جنودنا، وتنفيذ حططنا بعناية-أن نذلل هذا كله. ولا مندوحة لي عن اتخاذ هذه الخطوة، وإلا دفنا تحت مدافعه. كذلك أرى الموقف، وكذلك سأصرف. فأبلغوا تصميمي إلى جميع ضباط الجيش، وأعدوا الجنود للعمل الذي لا بد آت، وأخبروهم أنني أشعر بأن لدي من الأسباب ما يبرر مطالبتي إياهم بتنفيذ الأوامر بكل دقة. أما أنتم، فهل يخطر ببال- وأنا أذكر

صفحة رقم : 12894

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

أنكم بروسيون-أنكم ستصرفون تصرفاً غير نبيل، ولكن إذا كان بينكم رجل يخاف أن يشاطرنى جميع المخاطر (وهنا تفرس فرديريك في كل وجه بدوره) ففي استطاعته أن يسرح هذا المساء، دون أدنى لوم مني.... كنت عليماً بأن أحداً منكم لن يتركني. وعليه فأنا معتمد كل الاعتماد على معونتك الصادقة، وعلى النصر الأكيد. فإن مت قبل أن أجزيك على إخلاصكم فلا بد أن الوطن فاعل. عودوا الآن إلى معسكركم وانقلوا إلى جنودكم ما سمعتموه مني.

وسأجرد فرقة الفرسان التي لا تلقي بنفسها فور سماع الأوامر على العدو بمجرد انتهاء المعركة، وأحيلها إلى فرقة حامية. أما كتيبة المشاة، حتى أن بدأت تتردد، أيّاً كان الخطر الذي تواجهه، فإنها ستفقد رايتها، وسيوفها، والنوط الذهبي من ستراتھا.

"الآن طابت ليلتكم أيها السادة. عما قليل سنكون قد هزمتنا العدو، وإلا فلن يرى بعضنا البعض بعد اليوم"(40). وكان النمساويون إلى الآن يتحاشون الالتحام في معركة مع فرديريك متبعين بذلك سياسة فاببوس الروماني، وترددوا في وضع جنودهم وقوادهم أمام انضباط الجيش البروسي وعبقرية فرديريك التكتيكية، أما الآن بعد أن شجعهم كثرة جيوشهم وانتصاراتهم الأخيرة، فقد قرروا مواجهة الملك في المعركة مخالفين في ذلك نصيحة المرشال داوون. وعليه ففي 5 ديسمبر 1757 زحفت هذه البيادق في لعبة المناقسة بين الأسر المالكة-43.000 مقابل 73.000-على سيوف بعضهم بعض ومدافعهم في أعظم معارك هذه الحرب. يقول نابليون: "كانت تلك المعركة آية من الآيات وهي وحدها تبوئ فرديريك مكاناً في الطليعة بين القواد"(41) وقد استهلها بمحاولة الوصول إلى التلال تمكيناً لمدفعيته من إطلاق

نيرانها فوق رؤوس مشاته لتصيب صفوف العدو. ووزع جنوده بنظام منحرف استعمله قديماً أبامينونداس الطبيبي، بحيث تتحرك طوابير منفصلة بزواوية 45 درجة تقريباً

صفحة رقم : 12895

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

لتضرب العدو من الجنب فتشيع الخلل في خط دفاعه. وتظاهر فردريك بأنه يواجه أقوى ضغوطه إلى اليمين النمساوية، فأضعف الأمير شارل مسيرته تعزيزاً لليمين، وهنا صب فردريك خيرة رجاله فوق الميسرة التي تناقصت، فدمرها، ثم انقلب ليهاجم الجناح الأيمن في جيشه، بينما هبط الفرسان البروسيون على الجناح ذاته من مخبئهم في التلال. وانتصر النظام على الفوضى، فسلم النمساويون أو لادوا بالفرار، وأسر منهم 20.000-وهو صيد لم يسبق له نظير في (تاريخ الحرب(42))، وترك 3.000 آخرون قتلى، ووقعت 116 قطعة من قطع المدفعية في أيدي البروسيين. كذلك كانت خسائر البروسيين كبيرة-1.141 قتلى، و 5.118 جرحى، و 85 أسرى. فلما انتهت المذبحة شكر فردريك قواده قائلاً: (هذا اليوم سيذيع اسمكم واسم أمتكم إلى آخر الدهر(43)).

وواصل المنتصر انتصاره في عزيمة صادقة ليسترد سيليزيا. فلم يمض يوم على المعركة حتى حاصر جيشه الحامية النمساوية في برزلاو. وأقام قائدها شبريشر اللافتات في أرجاء المدينة ينذر فيها بالموت الناجز كل من يهمس بكلمة تسليم، ولكن لم يبق اثنا عشر يوماً حتى سلم (18 ديسمبر) واستولى فردريك هناك على 17.000 أسير وعلى مخازن حربية ثمينة. وما لبثت سيليزيا أن عادت كلها إلى قبضة البروسيين باستثناء شفايدنتز ذات الحامية الكبيرة الحصون المنيعه. وأعتكف الأمير شارل في ضيعته بالنمسا بعد أن وجد نفسه ذليلاً أمام لوم داون الصامت، ونصح رئيس وغيره من الزعماء الفرنسيين لويس الخامس عشر بعقد الصلح ولكن دبلوماسياً تغلبت عليهم، وأحلت الدوق دشوازيل وزيراً للشؤون الخارجية محل برنيس (1758)، بيد أن فرنسا فقدت حماسها للحرب إذ خامرها الشعور بأنها تحارب دفاعاً عن النمسا بينما تضحي بمستعمراتها. أما ريشليو فلم يبد حماساً تذكر، ولا رغبة صادقة في مواصلة الإفادة من ميزته في هانوفر، بحيث استدعي من قيادة الجيش (فبراير 1758) وعين بدلاً منه الكونت دكليرمون، وهو رئيس دير صرح له البابا بأن

صفحة رقم : 12896

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

يحتفظ بدخل منصبه الديني وهو يلعب دور القائد(44). وأخلى الفرنسيون هانوفر أمام خطى الزحف المصممة التي تقدم بها الدوق فريناند البرنزويكي، فسلموا له مبدن في مارس، وما لبثت وستفاليا كلها أن حررت من قبضة الفرنسيين الذين بغضوا الشعب فيهم هنا أيضاً بأعمال النهب والتدمير(45). وزحف فريناند غرباً وهزم قوة كليرمون

الرئيسية بقوة لا تزيد على نصف رجال العدو في كريفيد على الريف (23 يونيو)، وسلم كليرمون موقعه للدوق  
دكونتا، وانظم سوبيز إلى الجيش المهزوم بإمداد فرنسية جديدة وقلول من مقاتلي معركة روسباخ، وأمام هذه القوة  
المتحدة تقهقر فرديناند إلى مونستر وبادربورن.  
وتشجعت إنجلترا بموسم الانتصارات هذا، فأمرت (11 إبريل) معاهدة ثلاثة مع فردريك، ووعده فيها بمعونة قدرها  
670.000 جنيه قبيل أكتوبر، وتعهدت بعدم إبرام صلح منفرد (46). وفرض فردريك أثناء ذلك ضرائب على  
سكسونيا وغيرها من الأقاليم التي فتحها، مسوياً في ذلك بينهما وبين بروسيا التي أرهقت بالضرائب: وأصدر عملات  
مغشوشة، واستأجر (كفولتير) المالين اليهود ليعقدوا له صفقات رابحة بالعملة الأجنبية (47). فما حل ربيع 1758  
حتى كان قد أعاد بناء جيشه فأبلغه 145.000 مقاتل. وفي إبريل هاجم شفايدنتز واستردها، وتحرك صوب الجنوب  
على رأس 70.000 مقاتل إلى أولموتز في موافيا متحاشياً الالتقاء بالجيش النمساوي الرئيسي (الذي نظم من جديد  
تحت قيادة داون) وعلل نفسه بالزحف على فيينا ذاتها إذا استطاع الاستيلاء على هذا الحصن النمساوي.  
ولكن في نحو هذا الوقت ذاته اكتسح 50.000 روسي يقودهم كونت فيرمور بروسيا الشرقية وهاجموا كوسترين،  
التي لا تبعد عن برلين شرقاً سوى خمسين ميلاً، وترك فردريك حصار أولموتز وهرع إلى الشمال على رأس  
15.000 مقاتل. وفي الطريق نمى إليه نبأ مرض

صفحة رقم : 12897

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

فلهميني الذي بلغ مرحلة التأزم، فتوقف في جروسباو ليرسل لها رسالة قلقة قال فيها "يا أعز أهلي، يا أقرب إلى قلبي  
في هذه الدنيا-لأجل كل ما هو غال عزيز لديك، احتفظي بحياتك، ودعيني أتعزى بذرف الدموع على صدرك" (48).  
وبعد أن واصل السير أياماً وليالي انظم إلى قوة بروسية يقودها الكونت تسودونا قرب كوسترين. وفي 25 أغسطس  
1758، وبقوة قوامها 36.000 رجل التقى بجيش فيرمور وعدته 42.000 روسي عند تسورندورف. واستحال عليه  
هنا استعمال تكتيكة المفضل، وهو الهجوم على الجناح، بسبب الأرض المليئة بالمنافع، وتبين أن فيرمور لا يقل عن  
فردريك براعة في القيادة وقائل الروس ببسالة وإصرار ندر أن عرفها البروسيون في النمساويين أو الفرنسيين  
وكسب سيدلنتز وفرسانه ما أمكن أن يقع لهم من أمجاد يوم تتنافس فيه العدوان في التقتيل. وتقهر الروس في نظام  
حسن تاركين 21.000 بين قتيل وجريح وأسير؛ وخسر البروسيون 12.500 بين قتيل وجريح و1.000 أسير.  
ولكن منذ الذي يستطيع مواصلة القتال على كل هذه الجبهات في وقت واحد؟ بينما كان فردريك في الشمال قاد داون  
جيشه إلى نقطة اتصل فيها بالفرق الإمبراطورية، وشرع الآن في حصار درسدن التي كان فردريك قد ترك فيها  
حامية بقيادة الأمير هنري. وزحفت قوة من 16.000 سويدي مخترفة بومرانيا، وانضمت إلى الروس في تدمير شطر  
كبير من إمارة برندنبورج، وربما استطاعت معهم تهديد برلين ثانية. ودخل جيش جديد من 30.000 نمساوي  
ومجري، يقودهم الجنرال هارش، سيليزيا واتجه إلى برزلاو. بسبعة اثنين وعشرين ميلاً في اليوم مخترقاً بروسيا  
إلى سكسونيا، وبعد أن أعاد تنظيم جنوده الذين ثببت همتهم وأخذوا الآن يتمردون، فوصل إلى صهره المحاصر في  
القوت المناسب لثني داون عن الهجوم وبعد أن أراح رجاله أسبوعين، انطلق ليطرد هارش من سيليزيا وعند  
هوكيرش بسيليزيا سد عليه داون الطريق. فضرب فردريك خيامه قرب العدو، وانتظر

صفحة رقم : 12898



## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

أربعة أيام وصول المون من درسن. وفجأة، في الخامسة من صباح 14 أكتوبر 1758، هاجم جناح البوسيين الأيمن، وكان فردريك قد اطمأن على أنه سيتجنب المبادأة. وتخفت حركة النمساويين وراء ضباب كثيف، وأخذ البروسيون على غرة وهم نيام فعلاً، فلم يتسع الوقت لتكوين الخطوط التكتيكية التي رسمها فردريك. وعرض فردريك نفسه للخطر في تهور وهو يحاول استعادة النظام، فوفق في ذلك، ولكن بعد أن فات أوان إصلاح الموقف. وبعد خمس ساعات من قتال اشتبك فيه 37.000 بندق مع 90.000، أعطى الإشارة للتقهقر، تاركاً 9.450 رجلاً على ساحة المعركة مقابل 7.590 خسرهم النمساويون.

وعاد يفكر في الانتحار. فأمام قائد كفاء كداون يقود النمساويين، وأمام قائد كفاء كسالتيوكوف يحشد جيشاً روسياً جديداً، وأمام قواته المضمحلة عدداً، ونوعاً ونظاماً، في الوقت الذي يستطيع فيه أعداؤه تعويض أي خسارة، أمام هذا كله وضح أن لا أمل في انتصار البروسيين إلا بمعجزة، وفردريك لا يؤمن بالمعجزات، ففي غداة هوكشيرش اطلع قارئه ديات على "دفاع عن الانتحار" كان قد كتبه، وقال له "في استطاعتي أن أختم المأساة حين أشاء" (49). في ذلك اليوم (15 أكتوبر 1758) ماتت فلهميني تاركة تعليمات بأن توضع خطابات أخيها على صدرها في قبرها (50). وناشد فردريك فولتير أن يكتب شيئاً في ذكراها، فاستجاب فولتير، ولكن قصيدته "للنفس الباسلة النقية" (51) لم تستطع أن ترقى إلى مستوى الحرارة والبساطة اللتين نجدهما في رثاء الملك الذي ضمنه "تاريخ حرب السنين السبع" قال:

"إن طيبة قلبها، وأريحيتها وسماحتها، ونبل روحها وسموها، وحلاوة طبعها، جمعت فيها مواهب العقل اللامعة مع أساس من الفضيلة المكيئة. وكان يربط الملك (وقد استعمل فردريك لفظ الغائب) بهذه الشقيقة الفاضلة أرق صداقة وأثبتها وقد تكونت هذه الروابط في بواكير صباهما، ثم وثق بينهما اشتراكهما في تربية واحدة وعواطف واحدة، وأصبحت هذه العواطف لا تقبل الانقسام بفضل وفائهما المتبادل في كل امتحان بينتليان به" (52).

صفحة رقم : 12899

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

وأتى الربيع بمزيد من الجيوش الفرنسية في ساحة القتال. ففي 13 إبريل 1759 في بيرجن (قرب فرانكفورت على المين) أذقت قوة يقودها دبرولي بكفاية فرديناند البرنزويكي طعم الهزيمة. ولكن فرديناند كفر عن هزيمته في مندن، فهناك (أول أغسطس) بجيش قوامه 43.000 ألماني، وإنجليزي، واسكتلندي هزم 60.000 فرنسي يقودهم برولي وكننار هزيمة منكرة؛ وبخسارة قليلة جداً نسبياً، بحيث استطاع أن يرسل 12.000 جندي إلى فردريك ليعوض عما حل بجيش الملك من ضعف إثر حملة مشؤومة في الشرق.

ذلك أنه في 23 يوليو قهر جيش ستاليكوف المؤلف من 50.000 روسي وكرواتي وقوقازي، عند تسوليشاو جيشاً بروسياً قوامه 26.000 مقاتل كان فردريك قد تركهم لحراسة مداخل البلاد من بولندا إلى برلين، ولم يقف الآن شيء في طريق سيل روسي عزم قد يتدفق على العاصمة البروسية. ولم يكن أمام الملك من سبيل إلا الاعتماد على صهره ليدافع عن درسدن أما داون، بينما سار هو بنفسه للقاء الروس، ووصلته التعزيزات في الطريق، فاستطاع أن يحشد

48.000 مقاتل، ولكن 18.000 نمساوي يقودهم الجنرال لاودون كانوا أثناء ذلك قد انضموا إلى الروس، فبلغ مجموع جيش ستاليكوف 68.000. وفي 12 أغسطس 1759 التحم هذان الجيشان- اللذان كانا أضخم كتلتين من اللحم البشري القابل للاستهلاك منذ المذابح التي تبارى فيها الأعداء في حرب الوراثة الأسبانية-وخاضا عند كونرزدوف (على ستين ميلاً شرقي برلين) أقسى معارك هذه الحرب وأفجعها على فردريك. فبعد قتال دام اثنتي عشرة ساعة لاح أن الحظ في جانبه، وهنا هجم رجال لاودون الاحتياطيون وعددهم 18.000-على البروسيين المنهوكي القوى وطاردهم في هزيمة نكراء. واقتحم فردريك كل خطر ليلم شعث جنوده، وقادهم بشخصه ثلاث مرات في الهجوم، وضربت بالنار ثلاثة جياذ من تحته، وأوقفت عليه ذهبية صغيرة في جيبه رصاصه كان يمكن أن تؤدي بحياته. ولم يكن سعيداً بفكرة الهروب، فصاح "هلا أصابتي طلقة لعينة؟" (53) وتوسل إليه جنوده أن ينجو بنفسه،

صفحة رقم : 12900

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

ولم يلبثوا أن ضربوا له المثل بأنفسهم فنأشدهم قائلاً: "يا أبنائي لا تتركوني الآن، أنا ملككم، وأبوكم!" ولكن ما من حضن قان قادراً على إقناعهم بالتقدم مرة أخرى. فلقد حارب الكثيرون منهم ست ساعات تحت شمس محرقة، دون وقت أو فرصة يتناولون فيها قحماً من الماء. فلأدوا بالفرار وأخيراً لحق هو بهم، مخلفاً وراءه 20.000 ما بين أسير، وجريح، وقتيل مقابل خسارة للأعداء قدرها 15.700. وبين الذين جرحوا جروحاً مميتة إيفالد فون كلايست، أعظم شعراء العصر الألماني.

وحالما وجد فردريك مكاناً يستريح فيه أرسل إلى الأمير هنري رسالة يقول فيها "لم يبق لي في هذه اللحظة سوى 3.000 من جيش بلغ 48.000 مقاتل، ولم أعد السيد المسيطر على قواتي.. أنها لكارثة فادحة، ولن أعيش بعدها". وأبلغ قواده أنه يوصي بالقيادة للأمير هنري. ثم ارتدى على بعض القش واستغرق في النوم. وفي الغد وجد أن 23.000 من الهاربين من المعركة عادوا إلى فرقهم خجلين من هروبهم، مستعدين للعودة إلى خدمته إن لم يكن لشيء فلأنهم يتوقون إلى الطعام. ونسي فردريك أن يقتل نفسه، وبدلاً من هذا أعاد تنظيم هؤلاء وغيرهم من الجنود المساكين في جيش جديد بلغ رجاله 32.000، وأتخذ له موقعاً على الطريق من كونرزدورف إلى برلين، متوقفاً أن يبذل آخر محاولة لحماية عاصمته. ولكن سالتيكوف لم يأت. فرجاله أيضاً يجب أن يطعموا، لأنهم كانوا في أرض العدو ووجدوا الحصول على الطعام محفوفاً بالخطر، وخط المواصلات مع بولندا طويل وغير مأمون. ورأى سالتيكوف أن قد أن الأوان ليأخذ النمساويون دورهم في قتال فردريك. ومن ثم أصدر أمره بالتقهقر. ووافق داون على أن الخطوة التالية يجب أن تكون خطوته وأحس بأن هذا هو وقت الاستيلاء على درسدن. وكان الأمير هنري قد سحب قوة من المدينة لتتجد فردريك، ولم يترك سوى 30.000 مقاتل لحراسة القلعة، ولكن التحصينات القوية كانت قد أقيمت لصد الهجوم. وكان القائد الجديد

صفحة رقم : 12901

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

في درسدن، وهو كورت فون شمتاو، خادماً وفيماً للملك، ولكنه حين تلقى كلمة من فردريك ذاته، بعد كونرزدورف، بأن كل شيء قد ضاع، ينس من المقاومة المجدية. وكان جيش إمبراطوري عدته 15.000 مقاتل قادمًا على درسدن من الغرب، وداون ماض بهمة في قذف المدينة بالمدافع من الشرق. وعليه ففي 4 سبتمبر سلم شمتاو، وفي 5 سبتمبر جاءت رسالة من فردريك تأمره بالمقاومة لأن المدد في الطريق إليه. وأحال داون، ومعه 72.000 مقاتل، درسدن مقرأً شتويًا لجيشه الآن. ووصل فردريك إلى فرايبورج القريبة منها وعسكر في الشتاء بنصف هذا العدد. وكان شتاء 1760-1759 قارس البرد جداً. فظل الثلج يكسو الأرض إلى الרכب أسابيع عديدة. ولم يجد غير الضباط مأوى في البيوت؛ أما عامة جنود فردريك فسكنوا أكشاكاً مؤقتة، وراحوا يحتضنون النيران ليتدفنوا، ويكدون في قطع الخشب وجلبه وقوداً لها، ولا يكادون يصيبون من الطعام غير الخبز وكانوا ينامون متلاصقين طلباً للدفاء، واقتضى المرض المعسكين من الأرواح ما كان يعدل ما اقتضته المعركة من قبل، ففي ستة عشر يوماً فقد جيش داون على هذا النحو أربعة آلاف رجل (54). وفي 19 نوفمبر كتب فردريك إلى فولتير يقول: "لوطالت هذه الحرب لارتدت أوربا إلى دياجير الجهل، ولأصبح معاصروننا أشبه بالوحوش الضارية" (55). وأشرفت فرنسا على الإفلاس على عظم ثرائها عن بروسيا في المال والرجال ومع ذلك جهز شوازيل أسطولاً ليغزو إنجلترا، ولكن الإنجليز دمروه في خليج كويبيرون (20 نوفمبر 1759) وضوعفت الضرائب بكل ما أوتيت الحكومات ورجال المال من براعة. وفي 4 مارس 1759 كانت المركزية دمبادور قد وفقت في تعيين إثيين دسلوويت مراقباً عاماً للمالية. فاقترح اختزال المعاشات، وفرض الضرائب على ضياع النبلاء، وتحويل فضيلته نقوداً، وحتى فرض ضريبة على الملتزمين العامين بجمع الضرائب. وشكا الأغنياء من أنهم يحالون إلى مجرد "ظل" لما كانوا عليه من قبل، ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة Silhouette دليلاً على شكل اختزل إلى أبسط صورة.

صفحة رقم : 12902

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الثعلب يكره الدفاع

وفي 6 أكتوبر أوقفت الحكومة الفرنسية دفع التزاماتها. وفي 5 نوفمبر صهر لويس الخامس عشر أطباقه الفضية ليكون الأسوة الحسنة لشعبه، ولكن حين اقترح سلوويت أن يستغني الملك عن المبالغ التي تخصص عادة لقماره وألعابه، وافق لويس ولكن في ألم واضح جداً، مما حمل شوازيل على الاعتراض على الفكرة. وفي 21 نوفمبر أقبل سيلوويت. وأحس الملك كما أحس الفرنسيون جميعاً أنه شبع حرباً، وكان على استعداد للاستماع إلى مقترحات الصلح. وكان فولتير قد جس نبض فردريك في أمر الصلح في يونيو، فأجاب فردريك (2 يوليو): "أني أحب الصلح بقدر ما تتمنى، ولكن أريده حسناً، متيناً شريفاً" وفي 22 سبتمبر أضاف في رسالة أخرى لفولتير هناك شرطان للصلح لن أحيدهما أبداً: أولاً: أن يبرم مشاركة مع حلفائي الأوفياء.. ثانياً: أن يكون صلحاً شريفاً مجيداً (56). ونقل فولتير هذه الردود الأبية (التي كتب أحدها بعد هزيمة كونرزدورف الساحقة) إلى شوازيل الذي لم يجد فيها ما يعين على المفاوضات. ثم هناك الحليف الوفي بت، المشهور بالتهام المستعمرات الفرنسية فكيف يبرم الصلح قبل أن يبني الإمبراطورية البريطانية؟

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> بناء الإمبراطورية البريطانية

#### 5- بناء الإمبراطورية البريطانية

إن أهم طور من أطوار حرب السنين السبع لم يقاثل فيه الخصوم في أوروبا، ففي أوروبا لم يحدث غير تغييرات صغيرة في خريطة القوة. ولكنهم اقتتلوا على الأطلنطي، وفي أمريكا الشمالية، وفي الهند. في تلك المناطق كانت نتائج الحرب هائلة طويلة البقاء.

كانت أول خطوة تكوين الإمبراطورية البريطانية قد اتخذت في القرن السابع عشر، وذلك بانتقال التفوق البحري من أيدي الهولنديين إلى أيدي الإنجليز. أما الثانية فحددها معاهدة أوترخت (1713) التي منحت إنجلترا احتكار توريد العبيد الأفارقة للمستعمرات الأسبانية والإنجليزية

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> بناء الإمبراطورية البريطانية

في أمريكا. وكان العبيد ينتجون الأرز والتبغ والسكر، وكان جزء من السكر يحول إلى شراب الروم، وشاركت تجارة الروم في إثراء تجارة إنجلترا (القديمة والجديدة) ومولت أرباح التجارة التوسع في الأسطول البريطاني. فما حلت سنة 58(57) حتى كان للإنجليز 156 سفينة حربية، ولم يكن لفرنسا غير 5.777 ومن ثم كانت الخطوة الثالثة في بناء الإمبراطورية هي إضعاف القوة الفرنسية في البحار. وقطع هذه العملة انتصار ريشيليو في منيورقة، ولكنها استؤنفت بتدمير أسطول فرنسي أما لاجورس، بالبرتغال (13 إبريل 1759)، وأسطول آخر في خليج كوببيرون. ونتيجة لذلك هبطت تجارة فرنسا مع مستعمراتها من ثلاثين مليوناً من الجنيهات في 1755 إلى أربعة ملايين في 1760.

أما وقد تمت السيادة على الأطلنطي، فقد انفتح الطريق أمام البريطانيين ليفتحوا أمريكا الفرنسية، ولم تقتصر هذه على حوض نهر سانت لورنس وإقليم البحيرات العظمى، بل شملت حوض المسيسيبي من البحيرات إلى خليج المكسيك، لا بل أن وادي نهر أوهايو كان في قبضة الفرنسيين. وسيطرت القلاع الفرنسية على شيكاغو، وديترويت، وبتسبرج- التي كان تغيير اسمها من فوردوكين رمزاً لنتائج الحرب. وكانت الممتلكات الفرنسية تقف عقبة أما توسع المستعمرات الإنجليزية في أمريكا نحو الغرب. ولو لم تنتصر إنجلترا في حرب السنين السبع لانقسمت أمريكا الشمالية إلى إنجلترا جديدة في الشرق، وفرنسا جديدة في الوسط، وأسبانيا جديدة في الغرب، ولتكررت نسخة من انقسامات أوروبا وصراعاتها في أمريكا. وقد حذر بنيامين فرانكلين المسالم المستعمرين الإنجليز من أنهم لن يكونوا آمنين في ممتلكاتهم، ولا أحراراً في نموهم، مل لم يوقف الفرنسيين في توسعهم الأمريكي، وقد دخل جورج واشنطن التاريخ بمحاولته الاستيلاء على فور دوكين.

كانت كندا ولويزيانا مدخلي أمريكا الفرنسية، وأقربهما إلى إنجلترا

صفحة رقم : 12905

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> بناء الإمبراطورية البريطانية

وفرنسا هي كندا فعن طريق السنت لورنس كانت تصل المؤن والجنود إلى "المستوطنين"؛ وكانت تحرس ذلك الباب قلعة لوبيجورج الفرنسية على رأس جزيرة بريتون عند مصب النهر العظيم. وفي 2 يونيو 1758 حاصر لوبيجورج أسطول إنجليزي صغير من اثنين وأربعين سفينة تحمل 18.000 جندي يقودهم الأميرال إدوارد بوسكاون. ودافع عن الحصن عشر سفن و 6.200 مقاتل، وأعترض الأسطول البريطاني التعزيزات المرسله من فرنسا. وقاتلت الحامية ببسالة، ولكن سرعان ما حطمت المواقع البريطانية وسائل دفاعها. وكان تسليم الحصن (26 يوليو 1758) بداية الفتح البريطاني لكندا.

ولم تفلح استراتيجية المركز ديمونكالم وبطولته في تعطيل سير العملية إلا قليلاً. فبعد أن أوفدته فرنسا (1756) ليقود الجنود النظاميين في كندا، ظفر بالنجاح تلو النجاح إلى أن أحبطه ما تشفى في الإدارة الفرنسية-الكندية من فساد وخلل، وما تبين من عجز فرنسا عن موافاته بالمدد. وفي 1757 حاصر قلعة وليم هنري واستولى عليها؛ وهي تقع على رأس بحيرة جورج. وفي 1758 هزم 15.000 من جنود بريطانيا والمستعمرات عند نيكوند ورجا بقوة قوامها 3.800 مقاتل. ولكنه التقى بقريعه حين دافع عن كوبيك بقوة قوامها 15.000 رجل ضد القائد الإنجليزي جيمس وولف الذي لم يكن تحت قيادته أكثر من 9.000 جندي. وتقدم وولف بنفسه جنوده في تسلق المرتفعات إلى سهول ابراهام. وجرح مونكالم جرحاً مميتاً وهو يدير الدفاع، وجرح وولف جرحاً مميتاً على ساحة النصر (12-13 سبتمبر 1759). وفي 18 سبتمبر 1760 سلم فودربي-كافانيال، حاكم كندا الفرنسي، وبسطت بريطانيا سلطانها على هذا الإقليم الكبير.

وبعد أن وجه الإنجليز مراكبهم صوب الجنود هاجموا الجزر الفرنسية في البحر الكاريبي. فاستولوا على جودلوب في 1759، وعلى المارتنيك في 1762، ووقعت كل الممتلكات الفرنسية في جزر الهند الغربية-

صفحة رقم : 12906

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> بناء الإمبراطورية البريطانية

باستثناء سان-دومنج. في قبضة بريطانيا. وطلباً للمزيد من مكاسب النصر أرسل بت الأساطيل إلى أفريقيا للاستيلاء على محطات النخاسة الفرنسية على الساحل الغربي، فاستولت عليها، وانهارت تجارة الرقيق الفرنسية، وضمحل ثغرها الرئيسي في فرنسا وهو ناننت. وارتفع ثمن العبيد في جزر الهند الغربية، وحقق تجار الرقيق البريطانيون

ثروات جديدة لتلبية الطلب على العبيد(58). وينبغي أن نضيف هنا إن الإنجليز لم يكونوا أكثر قسوة في هذه العملية الإمبريالية من الأسبان أو الفرنسيين، إنما كانوا أكفأ منهم وفي إنجلترا بدأت حركة مقاومة الرق تتخذ شكلاً فعالاً. وفي غضون ذلك كانت روح المغامرة البريطانية-الحربية والبحرية، والتجارية-مشغولة بالتهام الهند-فقد أقامت شركة الهند الشرقية الإنجليزية معاقل لها في مدراس (1639)، وبمباي (1668) وبوندتشييري، جنوبي مدراس (1683)، وفي شندرناجور شمال كلكتا كل مراكز القوة هذه اتسعت في الوقت الذي اضمحل فيه حكم المغول في الهند، واستعمل كل فريق الرشوة والقوة العسكرية لمد منطقة نفوذه وكانت فرنسا وإنجلترا قد اشتبكتا معاً في الهند إبان حرب الوراثة النمساوية (1740-48) ولم يفعل صلح إكس لاشابل أكثر من قطع الصراع فترة، والآن جددته حرب السنين السبع. ففي مارس 1757 استطاع أسطول إنجليزي يقوده الأميرال تشارلز وطسن، ويعاونه جنود شركة الهند الشرقية بقيادة غلام من شرويشير يدعى روبرت كلايف أن ينتزع شندرناجور من الفرنسيين، وفي 23 يونيو، وبقوة لا تزيد على 3.200 جندي، هزم كلايف 50.000 هندوكي وفرنسي عند بلاسي (على ثمانين ميلاً شمال كلكتا) في معركة أكدت السيادة البريطانية على شمال شرقي الهند. وفي أغسطس 1758 طرد أسطول إنجليزي بقيادة الأميرال جورج بوكوك من المياه الهندية الأسطول الفرنسي الذي كان يحمي الممتلكات الفرنسية على طول الساحل. وبعد ذلك بفضل ما امتاز به البريطانيون على الفرنسيين من القدرة

صفحة رقم : 12907

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> بناء الإمبراطورية البريطانية

على جلب الرجال والمؤمن، لم يكن انتصار إنجلترا إلا مسألة شهور. ففي 1759 أحبط وصول المؤمن والإمداد البريطانية بحراً الحصار الفرنسي الذي فرضه على مدراس الكونت دلاللي. وهزم الفرنسيون هزيمة فاصلة في انديوش في 22 يناير 1760، وسلمت بوندتشييري للبريطانيين في 16 يناير 1761 وقد ردت هذه المحطة الأمامية، وهي آخر المحطات الفرنسية إلى فرنسا 1763 ولكن كان مفهوماً للجميع أن بقاء السيادة للفرنسية رهن برضاء بريطانيا.

وظلت الهند وكندا حتى عصرنا هذا معقلين، في الشرق والغرب، لإمبراطورية بنيت بالمال والشجاعة، والقسوة والذكاء، في توافق تام مع أخلاقيات القرن الثامن عشر الدولية. ونحن ندرك الآن في استعراضنا للماضي بعد هذه الفترة الطويلة أن تلك الإمبراطورية كانت نتاجاً طبيعياً للطبيعة البشرية والأحوال المادية. وأن البديل لها لم يكن استقلال الشعوب العاجزة بل إمبراطورية نظيرها تؤسسها فرنسا. ويمكن القول إنه في المدى الطويل، برغم رجال من أمثال كلايف وهيستنجز وكبلنج، فإن حكم نصف العالم بواسطة البحرية البريطانية-إي الحفاظ على النظام حفاظاً إنسانياً وحسماً نسبياً وسط الفوضى المهتدة أبدأ كان نعم لا نقمة على البشر.

صفحة رقم : 12908

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الإعياء

1760 - 1762

ترى ماذا كان الثعلب البروسي المطارد يفعل في شتاء 1759-60 القارس؟ كان يجمع المال ويزيف العملة، يجند الرجال ويدربهم، ويقرض الشعر ويبيعه على الناس. ففي يناير أصدر ناشر باريصي لص "أعمال فيلسوف صان-سوسي" وطبع في اغتباط تلك القصائد المستهترّة التي كان فولتير قد حملها معه من بوتسدام عام 1753 والتي بسببها أوقفت رحلته بأمر فرديريك وحبس في فرانكفورد-على المين. وقدر الناشر أن تلك القصائد ستضحك الرعوس غير المتوجة، ولكنها ستجعل الباروكات الملكية ترتعد غضباً، بما فيها باروكات جورج الثاني حليف فرديريك. وأكد فرديريك أن المطبوع المسروق

صفحة رقم : 12909

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الإعياء

شوهته إضافات مدسوسة خبيثة، وأمر صديقه المركزي دارجانس (مدير الفنون الجميلة في أكاديمية برلين) بأن يصدر للفور "طبعة صحيحة" منقاة بعناية. فما لبثت الطبعة أن صدرت في مارس، واستطاع فرديريك أن يفرغ للحرب من جديد. وفي 24 فبراير كتب إلى فولتير يقول:

لقد نشر الحديد والموت بيننا الخراب الرهيب والمحزن أننا لم نبلغ بعد نهاية المأساة. ومن السهل أن تتصور أثر هذه الصدمات القاسية في نفسي. وأنا ألوز بالرواقية ما استطعت. لقد عدوت عجوزاً، وحطماً، أشيب الشعر مجعد البشرة؛ وأنا أفقد أسناني ومرحي(59).

وكانت الحشود الهائلة من الجند تساق للفصل في أي الحكام سيضني أكثر الرجال. كان سالتيكوف عائداً من بروسيا في إبريل على رأس 100.000 مقاتل، وكان للاودون 50.000 نمساوي في سيليزيا مقابل 34.000 يقودهم الأمير هنري؛ وكان داون في درسدن بمقاتليه المائة ألف يأمل أن يشق له طريقاً وسط رجال فرديريك البالغ عددهم 40.000 والمعسكرين الآن قرب مايسن؛ وكان الفرنسيون وعدتهم 125.000 ينتظرون للزحف على 70.000 يقودهم فرديناند، وبلغت جملة المقاتلين الموجهين إلى برلين 375.000 رجل. وفي 21 مارس 1760 جددت النمسا وروسيا تحالفهما وأضافتا مادة سرية تعطي بروسيا لروسيا بمجرد رد سيليزيا إلى النمسا(60).

وكان لاودون البادئ بإراقة دماء عام 1760، إذ سحق 13.000 بروسيا عند لانديشوت (23 يوليو). وفي 10 يوليو شرع فرديريك في حصار درسدن بمدفعية ثقيلة، فدمر الجزء الأكبر من أجمل مدينة في ألمانيا، ولكن القصف لم يجده شيئاً، فلما نمت إليه أن لاودون يقترب من برزلاو ألقع عن الحصار، وسير رجاله مائة ميل في خمسة أيام والتقى بجيش لاودون في ليبيرج (15 أغسطس 1760) وكبده خسارة 10.000 رجل، ثم دخل برزلاو. ولكن في 9 أكتوبر

استولى جيش قوازي يقوده فرمور على برلين، ونهب مستودعاتها الحربية، وفرض عليها فدية مقدارها مليوناً طالر - وهذا يساوي نصف المعونة المالية التي كان فردريك يتلقاها سنوياً من بريطانيا. وخف لنجدة عاصمته، ففر

صفحة رقم : 12910

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> الإعياء

الروس حال سماعهم بقدمه، وقفل فردريك إلى سكسونيا، وفي طريقه كتب إلى فولتير (30 أكتوبر) يقول "إنك محظوظ بإتباعك نصيحة كانديد والاكتفاء بزرع حديقتك وما كل إنسان يتاح له أن يفعل ما تفعل. فعلى الثور أن يحرق الأرض، وعلى الليل أن يغني، وعلى الدرفيل أن يسبح، وعلى أن أقاتل" (61).  
وعند تورجاو على نهر الألب (3 نوفمبر) التقى رجاله وعددهم 44.000 بجيش نمساوي قوامه 50.000؛ وأرسل فردريك نصف جيشه بقيادة يوهان تسيين ليطوق العدو ويهاجمه في المؤخرة؛ ولكن المناورة أخفقت لأن فصيلة للعدو عطلت تسيين في الطريق. وقاد فردريك كتائبه بشخصه إلى وطيس المعركة؛ هنا أيضاً أطلقت النار على ثلاثة جياد من تحته وأصابته قذيفة في صدره، ولكنها كانت قد فقدت مفعولها، وصرع على الأرض فاقد الوعي ولكن سرعان ما أفاق فقال: "حادث تافه" ثم عاد إلى المعركة. وكان انتصاره غالي الثمن، فقد ارتد النمساويون بعد أن فقدوا 11.260 رجلاً ولكن فردريك ترك 13.120 بروسياً على أرض المعركة، وانسحب إلى برزلاو التي أصبحت الآن أهم مركز لإمداداته. وكان داوون لا يزال محتفظاً بدرسدن منتظراً في صبر موت فردريك. ثم منح الشتاء الأحياء مهلة ثانية.  
وكانت سنة 1761 سنة دبلوماسية أكثر منها سنة حرب. ففي إنجلترا كان موت جورج الثاني (5 أكتوبر 1760) الذي كان عميق الاهتمام بهانوفر، وارتقاء جورج الثالث العرش، وكان اهتمامه بها الأقل بكثير، بمثابة تصديق ملكي على كراهية الشعب لحرب تكلف المالية الإنجليزية عبئاً باهظاً. وجرب شوازيل أن تجس فرنسا نبض إنجلترا لعقد صلح منفرد، ولكن بت رفض، وظل على وفائه المطلق لفردريك، ولكن القوة البريطانية في هانوفر خُفض عددها، واضطر فردينايد إلى التحلي برنزويك وفولفنبوتل للفرنسيين. واتجه شوازيل إلى أسبانيا، وعقد معها "ميثاقاً عائلياً" بيت الملكين البوربونيين؛ أغراها فيه بالانضمام إلى الحلف المعادي لبروسيا، وتضافرت التطورات الحربية مع هذه النكسات الدبلوماسية لدفع فردريك مرة

صفحة رقم : 12911

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> الإعياء

أخرى إلى شفا الهزيمة النكراء. فقد استطاع لاودون بجيش من 72.000 مقاتل أن ينضم إلى 50.000 مقاتل روسي، فعزلوا فردريك عن بروسيا عزلاً تاماً، ووضعوا الخطط للاستيلاء على برلين والاحتفاظ بها. وفي أول سبتمبر 1761 عاد النمساويون للاستيلاء على شفايدنتز مستودعاتها. وفي 5 أكتوبر استقال بت، مؤثراً الاستقالة على خيانة



فردريك بعد أن غلبته على أمره مطالبة الشعب بالصلح. ورأى خلفه إيرل بيبوت أن قضية فردريك ميثوس منها، وأن المفاوضات للصلح وسيلة لدعم مركز جورج الثالث ضد البرلمان. فألح على فردريك في أن يسلم بالهزيمة ولو إلى حد التنازل عن جزء من سيليزيا للنمسا. وتردد فردريك، وقبض عنه بيبوت المزيد من العون المالي ودعت أوروبا كلها تقريباً، بما فيها الكثير من البروسيين، فردريك إلى بذل التنازلات. وكان جنوده قد فقدوا كل أمل في النصر، وأنذروا ضباطهم بأنهم لن يهاجموا العدو مرة أخرى، وأنهم يستسلمون إذا هوجموا (62). وما أختتم عام 1761 حتى وجد فردريك نفسه يقف وحيداً أمام أكثر من عشرة أعداء. واعترف بأن لا خلاص إلا بمعجزة. وقد أنقذته معجزة. ففي 5 يناير 1762، (63) ماتت القيصرية اليزافيتا التي تمقت فردريك، وخلفها بطرس الثالث الذي كان يعجب به مثلاً أعلى للفاتح والملك. فلما سمع فردريك النبأ أمر أن يكسى جميع الأسرى الروس ويعطوا نعالاً ويطعموا ويطلق سراحهم. وفي 23 فبراير أعلن بطرس نهاية الحرب مع بروسيا. وفي 5 مايو وقع معاهدة صلح وضعها فردريك بنفسه بناء على طلبه. وفي 22 مايو حذت السويد حذو روسيا. وفي يونيو دخل بطرس الحرب من جديد، ولكن حليفاً لروسيا، وارتدى حلة عسكرية بروسية وتطوع للخدمة "تحت قيادة مولاي الملك". فكان هذا من أعجب الانقلابات في التاريخ. ولقد أذفا صدر فردريك، ورفع روح جيشه، ولكنه وافق أعداءه بعض الشيء على أن بطرس رجل مختل العقل، وأفرغ أن يسمع برغبة بطرس في مهاجمة الدنمرك ليستعيد هولشتاين. فبذل فردريك قصارى

صفحة رقم : 12912

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الإغيا

جهده ليثنيه، ولكن بطرس أصر، وأخيراً في رواية فردريك -"أضررت لالتزام الصمت، وترك هذا الملك المسكين إلى هذا الاعتداد بالنفس الذي دمره" (64). أما بيبوت، الذي انقلب الآن عدواً نشيطاً لفردريك، فقد طلب إلى بطرس أن يترك العشرين ألف روسي الموجودين في الجيش النمساوي حيث هم. وأرسل بطرس نسخة من الخطاب إلى فردريك، وأصدر أمره للجنود الروسية بالانضمام إلى فردريك والخدمة في صفوفه، وعرض بيبوت على النمسا صلحاً منفرداً، واعدأ إياها بتأييد التخلي لها عن أقاليم بروسية، ولكن اونتر رفض، وندد فردريك ببيوت لأنه وغد (65). وسره أن يسمع بأن فرنسا أنهت معونتها المالي للنمسا، وأن الترك يهاجمون النمساويين في المجر (مايو 1762). وفي 28 يونيو عزل بطرس بانقلاب أجلس على العرش كاترين الثانية "إمبراطورة الأقاليم الروسية كلها"، وفي 6 يوليو اعتقل بطرس، وأصدرت كاترين الأمر لكزرنيكيف، الذي تولى قيادة الروس تحت فردريك، بأن يعود بهم إلى أرض الوطن فوراً. وكان فردريك يتجهز لهجوم على داون. فطلب إلى كزرنيكيف أن يخفي نبأ تعليمات القيصرية ثلاثة أيام. وهزم فردريك داون في بوركرزدورف (21 يوليو) دون أن يستخدم هؤلاء الروس الاحتياطيين. وسحب كزرنيكيف الآن جنوده، ولم تعد روسيا تشارك بأي دور في الحرب. أما وقد خف الخطر عن الملك في الشمال، فإنه ساق النمساويين أمامهم، واستولى من جديد على شفايدنتز وفي 29 أكتوبر هزم الأمير هنري، بجيش من 24.000 مقاتل، 39.000 نمساوي وجندي إمبراطوري عند فرايبرج بسكسونيا. وكانت هذه هي العملية الحربية الكبرى الوحيدة التي انتصر فيها البروسيون دون أن يكون تحت قيادة فردريك. وكانت أيضاً آخر المعارك الهامة في حرب السنين السبع.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> الصلح

## 7- الصلح

لقد أدرك الإعياء غرب أوروبا كلها، وأولها بروسيا، التي جند فيها الصبية ذوو الأربعة عشر ربيعاً، ودمرت المزارع، وأفلس التجار من جراء خنق التجارة، أما النمسا فكانت تملك من الرجال أكثر مما تملك من المال، وقد فقدت المعونة الروسية القيمة. وأما أسبانيا فقدت هافانا، ومانبلا لاستيلاء الإنجليز عليهما، فضلاً عن تدمير بحريتها كلها تقريباً. وأما فرنسا فقد أفلست، وضاعت مستعمراتها، وأوشكت تجارتها أن تختفي من البحار. وأما إنجلترا فقد احتاجت إلى السلام لتدعم مغانمها.

وفي 5 سبتمبر 1762 أوفد بيوت دوق بدفورد إلى باريس ليفاوض شوازيل في تسوية للصراع. فإذا نزلت فرنسا عن كندا والهند فإن إنجلترا سترد جواديلوب المارتنيك، وفرنسا أن تحتفظ، بموافقة بريطانيا، بإقليمي فردريك الغربيين، وهما فيزل وجلدرلاند (66). وندد بت بهذه المقترحات ببلاغة ملتبهة، ولكن الرأي العام أيد بيوت، وفي 5 نوفمبر وقعت إنجلترا والبرتغال مع فرنسا وأسبانيا صلح فوننتبلو. ونزلت فرنسا عن كندا، والهند، ومينورقة، وردت إنجلترا لفرنسا وأسبانيا فتوحها في البحر الكاريبي. ووعدت فرنسا بأن تلتزم الحياد مع بروسيا والنمسا، وأن تسحب جيوشها من الأراضي البروسية في غرب ألمانيا. وأكد هذه الترتيبات صلح آخر يسمى صلح باريس (10 فبراير 1763)، ولكنه ترك لفرنسا حقوق صيدها قرب نيوفوندلند، وبعض المحطات التجارية في الهند، ونزلت أسبانيا عن فلوريدا لإنجلترا، ولكنها أخذت لويزيانا من فرنسا. وكانت هذه الترتيبات، من الناحية القانونية انتهاكاً لتعهد بريطانيا بالألا تبرم صلحاً منفرداً، ولكنها من الناحية العملية كانت نعمة لفردريك. لأنها أعتته من جميع خصومه إلا اثنين، النمسا والرايش، وكان على ثقة الآن بأن في استطاعته أن يثبت لهذين العدوين الذين ثبّطت همتهم.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السابع -> الصلح

وراضت ماريا تريزا نفسها على الصلح مع أبغض أعدائها إلى قلبها. فقد تخلى عنها جميع حلفائها الكبار، وكان 100.000 تركي يزحفون على المجر، فأوفدت مبعوثاً لفردريك يعرض عليه الهدنة، فقبلها، وفي هويرتوزبرج (قرب ليبزج)، في 5-15 فبراير 1763، وقعت بروسيا، والنمسا، وسكسونيا، والأمراء الألمان، المعاهدة التي أنهت حرب السنين السابع. وبعد كل ما أريق من دماء ودقاتيات، وروبلا، وطائرات وكرونات، وفرنكات، وجنيهات، أعيد "الوضع السابق للحرب" في القارة. واحتفظ فردريك بسيليزيا، وجلاتز، وفيزل، وجلدرلاند، وأخلا سكسونيا، ووعده بأن يؤيد ترشيح جوزيف ابن ماريا تريزا ملكاً على الرومان، وإذن إمبراطوراً مستقبلاً. وعند التوقيع النهائي هنا فردريك مساعدوه على "أسعد أيام حياتك"، فأجاب بأن أسعد أيام حياته سيكون آخرها (67).

ماذا كانت نتائج الحرب؟ على النمسا فقد سيليزيا نهائياً مع دين حرب قدره 100.000.000 ايكو. وقضي على هيبة الحكام النمساويين باعتبارهم الأوصياء التقليديين للقب الإمبراطوري، وقد عامل فردريك ماريًا تريزا معاملته لحاكمة لإمبراطورية نمساوية-مجرية، لا رومانية مقدسة، وترك أمراء الإمبراطورية الألمان الآن وشأنهم، وسرعان ما سيخضعون لزعامه بروسيا في الرايش، قد اضمحل سلطان آل هابسبورج وصعد سلطان آل هونتسولرن، وأصبح الطريق ممهداً لبسمارك. وبدأت النزعتان الوطنية والقومية تفكران تفكير ألمانيا الموحدة بدلاً من تفكير الدولة المعترزة باستقلالها عن غيرها من الدويلات. وحفز الأدب الألماني فأنجب شتورم ودرانج، ثم صعد إلى جوته وشيلر. أما السويد ففقدت 25.000 رجل، ولم تغنم غير الديون. وأما روسيا ففقدت 120.000 رجل بين المعارك، والشدائد، والأمراض، ولكنها ستعوضهم عما قليل، ولقد فتحت عهداً جديداً في تاريخها الحديث بزحف جيوشها في الغرب، وأصبح تقسم بولندا الآن أمراً لا مناص منه، وأما فرنسا فلم تجن غير الخسائر الفادحة في مستعمراتها وتجاريتها، وحالة

صفحة رقم : 12915

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الصلح

قريبة من الإفلاس دفعتها خطوة أخرى إلى الانهيار. وأما إنجلترا فكانت النتائج بالنسبة لها أعظم حتى مما قدر زعمائها، السيطرة على البحار، والسيطرة على عالم المستعمرات، وتأسيس إمبراطورية عظيمة، وبداية 182 سنة من السيادة في العالم. وأما بروسيا فخرت خراب أراضيها وتدمير ثلاثة عشر ألف منزل فيها، وإحراق مائة مدينة وقرية سويت بالتراب، واقتلاع آلاف الأسر من مواطنها، ومات 18.000 بروسي (حسب تقدير فردريك) (68) في المعارك أو المعسكرات أو الأسر، ومات حتى أكثر من هؤلاء لنقص الدواء أو الطعام، وفي بعض المناطق لم يبق غير النساء والشيوخ ليزرعوا الحقول، وهبط السكان من 4.500.000 في 1756، إلى 4.000.000 في 1763. وغدا فردريك الآن بطل ألمانيا بأسرها (عدا سكسونيا!) فدخل برلين دخول الظافر بعد غياب ستة أعوام. وتوهجت المدينة بالأضواء ترحيباً به، وأسادت به منقداً لها، وذلك رغم عوزها وفجيعة كل أسرة فيها. ولانت روح هذا المحارب القديم التي قدت من فولاذ فهتف "عاش شعبي العزيز طويلاً! عاش أبنائي طويلاً" (69). لقد كان في قدرته أن يتواضع؛ وفي الساعة التي تملقه فيها الجميع لم ينس الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها قائداً مع أنه أعظم القواد الذين أنجبه العصر الحديث باستثناء نابليون. ولم يغيب عن بصره آلاف الشبان البروسيين الذين بذلوا دماءهم ثمناً لسليزيا. ولقد بذل هو أيضاً الثمن، فشاخ قبل أوانه وهو بعد في الحادية والخمسين، واحدودب ظهره، وهزل وجهه وجسمه، وسقطت أسنانه، وشاب أحد مفرقيه، واضطربت أحشاؤه بالمغص، والإسهال، والبواسير (70) وقال معقياً "إن أصلح مكان له الآن هو ملجأ للعجائز ذوي العلل المزمنة" وقد عمر ثلاثة وعشرين عاماً أحر، وحاول أن يكفر عن أثامه بحكم يتسم بالسلام والنظام.

أما أهم نتائج حرب السنين السبع من الناحية السياسية فهي ظهور الإمبراطورية البريطانية، وانبعاث بروسيا دولة من الطراز الأول، أما من الناحية الاقتصادية فهي التقدم صوب الرأسمالية الصناعية: فقد كانت

صفحة رقم : 12916

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> مقدمة -> حرب السنين السبع -> الصلح

تلك الجيوش العملاقة أسواقاً رائعة للاستهلاك الجماعي للسلع المنتجة بمقادير كبيرة، فأى زبون أفضل من ذلك الذي يعد بتدمير السلع المشتراة من أقرب فرصة وطلب غيرها؟ وأما من الناحية الخلقية فإن الحرب أعانت على التشاؤم، والكليية؛ والفوضى الخلقية، فالحياة رخصت، والموت قريب، والعذاب هو القاعدة، والنهب مباح، واللذة تقتنص حيثما وجدت ولو لحظة. قال جريم في وسفاليا عام 1757 "لولا هذه الحملة لما أدركت قط إلى أي مدى بعيد يمكن أن تبلغ أهوال الفقر وظلم الإنسان"، (72) ولم تكن الحرب إلا في بدايتها. وقد أعان العذاب الدين كما عوقه. فإذا كانت قلة من الناس تحولت إلى الكفر لواقعية الشر الصارخة، فإن الكثرة دفعت إلى التقوى لحاجتها إلى الإيمان بانتصار الخير في النهاية. واما قليل ستكون عودة إلى الدين في فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا وقد أنقذت البروتستانتية في إنجلترا من الدمار، ولو أن فردريك خسر الحرب لحل بروسيا في أغلب الظن ما حل ببوهيميا بعد عام 1620، فأكرهت على العودة إلى الذهب والقوة الكاثوليكين؛ أن انتصار الخيال على الواقع ثروة من نزوات التاريخ.

صفحة رقم : 12917

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> رحيل الخليفة

الكتاب الثاني

فرنسا قبل الطوفان

1774 - 1757

الفصل الثالث

## 1- رحيل الخليفة

كانت مدام ديومبادور إحدى ضحايا الحرب. فقد ظل سحر شخصيتها حيناً يسترق لب الملك بينما الأمة تنوح، ولكن بعد أن حاول داميان اغتياله (5 يناير 1757) أرسل إليها لويس الخامس عشر كلمة يأمرها فيها بالرحيل فوراً وكأنه شعر فجأة بوجود الله. ولكنه ارتكب غلطة إنسانية حين أتى ليودعها، ووجدها تحزم حقائبها هادئة حزينة، فغلبه بعض ما بقي له من رقة وحنان، وطلب إليها أن تبقى (1). وسرعان ما ردت إليه كل امتيازاتها وسلطاتها السابقة، فكانت تفاوض الدبلوماسيين والسفراء، وترفع الوزراء والقواد وتخفصهم. وكان مارك بيبير دفواييه، كونت دارجنسون، قد قاومها في كل خطوة، وحاولت أن تسترضيه قصدًا فأفلحت الآن في أن تحل الابيه دبرنيس محله وزيراً للشؤون الخارجية، ثم شوازيل (1758). واحتفظت بحنانها لأقربائها وللملك فقط، وواجهت غير هؤلاء بقلب من حديد في هيكل مريض، وزجت ببعض خصومها في الباستيل وتركتهم فيه سنوات (2). وفي غضون ذلك راحت تدخر لغدها، وزينت قصورها وأمرت بتشييد ضريح ضخم لها تحت ميدان فاندوم.

صفحة رقم : 12918

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; رحيل الخليفة

وقد حملت في نظر الشعب، وفي البرلمان، وفي القصر، أكثر التبعة على هزائم فرنسا في الحرب، ولكنها لم تتل أي ثناء على انتصاراتها. فاعتبرت مسئولة عن الحلف البغيض مع النمسا، وأن لم تكن سوى عامل صغير من عوامل ذلك التزاوج، وأدينت بسبب الكارثة التي حاقت بالجيش في روسباخ حيث قاد الفرنسيين رجلها سوبيز، ولم يعرف نقادها-أو رأوه غير ذي صلة بالموضوع-أن سوبيز أشار بعدم خوض المعركة. وأنه أكره عليها بتهور القائد الألماني. ولو أن الأمر كان بيد سوبيز، ولو اتبعت خطته التي أشار بها-وهي تدويخ فردريك بالمسيرات وبهروب الجند من جيشه-ولو أن القيصرية اليزافيتا لم تمت في هذا الطرف غير المواتي ولم تترك بروسيا لفتى من عباد فردريك-لو أن هذا حدث فربما انهارت مقاومة بروسيا، ونالت فرنسا الأراضي الواطئة النمساوية، وحملت بومبادور فوق بحر من الدماء لتتهافت لها الأمة. ولكنها أخفقت في استرضاء إله الصدفة العظيم.

وأبغضها البرلمان لأنها شجعت الملك على أن يتجاهلهم، وأبغضها الأكليروس لأنها صديقة لفولتير ولكتاب الموسوعة، وقال كرسstof ديومون، رئيس أساقفة باريس، أنه "يتمنى أن يراها تحرق بالنار (3)". وحين عانت الجماهير الباريسية من غلاء الخبز صاحت "أن تلك البغي التي تحكم المملكة تجر عليها الخراب". وارتفع صوت من الغوغاء في اليون دلاتورنل يقول "لو وقعت في أيدينا هنا لما تخلف منها ما يكفي لإحالتها إلى رفاة (4)". ولم تجرؤ على الظهور في شوارع باريس، وكان الأعداء يحيطون بها في فيرساي. وكتبت للمركيزة دفوننتاي تقول "أنني وحيدة تماماً في وسط هذا الحشد من صغار النبلاء، الذين يبغضونني والذين أحقرهم. أما النساء فحديثهن يصيبني بصداق أليم. فغرورهن، وخيلاؤهن، وسفالتهن، وخياناتهن، تجعلني لا أطيقهن (5)".

فلما استطالت الحرب، ورأت فرنسا كندا والهند تختطفان منها، وضيق فرديناند البرنزويكي الخناق على الجيش الفرنسي، وظهر الجنود العائدون،

صفحة رقم : 12919

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> رحيل الخليفة

جرحى أو مشوهين، في شوارع باريس، وضح للملك أنه ارتكب خطأ محزناً بالإصغاء لكاونتز وبومبادور، وفي 1761 التمس العزاء في أحضان خليفة جديدة هي الأنسة رومان، التي ولدت له الولد الذي سيصبح الابيه ديوربون. وأرجفت الشائعات أن بومبادور ثارت لنفسها بقبول شوازيل عشيقاً لها(6)، ولكنها كانت أضعف، وشوازيل كان أذكى، من أن يسمح بهذا الغرام؛ لقد أسلمت لشوازيل قوتها لا حبها، ولعلها فاهت الآن بهذه النبوءة اليانسة "بعدي الطوفان(7)".

كانت على الدوام واهنة الجسد، بصفت الدم حتى في شبابها، ومع أننا لسنا واثقين من أنها كانت تشكو السل، فأنا نعلم أن سعالها ازداد ازدياداً مؤلماً وهي تقترب من الأربعين، واستحال الصوت المرئم الذي كان يوماً ما يأسر قلب الملك وحاشيته صوتاً مبجوحاً متوتراً، وأفزع هزها أصدقائها. وفي فبراير 1764 لزمتم فراشها بحمي مرتفعة والتهاب دموي في الرئتين. وفي إبريل ساءت حالتها حتى إنها استدعت موثقاً لتكتب وصيتها الأخيرة. فتركت فيها هبات لأقربائها، وأصدقائها، وخدمها، وأضافت "إن كنت قد نسيت أياً من أقربائي في هذه الوصية فأني أرجو أخي أن يدبر معاشهم". وأوصت للويس الخامس عشر بقصرها الباريسي، الذي يشغله الآن رئيس جمهورية فرنسا باسم قصر الإليزيه. وكان الملك ينفق الساعات الكثيرة بجوار فراشها، وندر أن ترك حجرتها في أيامها الأخيرة، وكتب الدوفين (ولي العهد) الذي كان عدوها دائماً إلى أسقف فردان يقول "إنها تموت بشجاعة يندر أن توجد بين الرجال أو النساء ورثاها مملوءتان ماء أو صديداً، وقلبها محتقن أو متضخم. إنه موت قاس مؤلم إلى حد لا يطاق(8)". وكانت حتى لهذه المعركة الأخيرة، ترتدي الثياب الفاخرة وتحمر خديها الجافين. وظلت تملك حتى النهاية تقريباً. وأحاط أفراد الحاشية بأريكتها، وراحت توزع الأنعامات، وتعين الأشخاص في المناصب الكبرى، وكان الملك ينفذ الكثير من توصياتها. وأخيراً سلمت بالهزيمة. ففي 14 إبريل تلقت شاكرا القربان الأخير

صفحة رقم : 12920

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> رحيل الخليفة

الذي حاول التخفيف من الموت بالرجاء. وحاولت الآن، وهي التي ظلت طويلاً صديقة للفلاسفة، أن تستعيد أيمن طفولتها. فصلت كما يصلي الطفل:

"أستودع الله روحي، متوسلة إليه أن يرحمها، وأن يغفر لي آثامي، وأن يمنحني نعمة الند عليها والموت جديدة بمراحمه، راجية أن أرضي عدله ببهاء الدم الثمين، دم يسوع المسيح مخلصي، وبشفاعة العذراء مريم وجميع القديسين في الفردوس(9)".

وهمست في أذن القسيس الذي كان يبرح الحجره وهي تعالج سكرات الموت: "انتظر لحظة" سنبرح البيت معاً(10). وماتت في 15 إبريل 1764 مختنقة باحتقان في رئتيها، وكانت في عامها الثاني والأربعين. وليس صحيحاً أن لويس تقبل موتها في غير مبالاة، فهو إنما أخفى حزنه فقط(11) قال الدوفين: "أن الملك في كرب شديد وإن تمالك نفسه أمامنا وأمام جميع الناس"(12). ففي 17 إبريل، حين حمل جثمان المرأة التي ظلت نصف حياته طوال عشرين عاماً، من قصر فرساي في يوم قارس البرد شديد المطر خرج إلى الشرفة ليطل عليه وهي تبرح القصر وقال لتابعه شامبلوست "ستلقى المركيزة جواً رديئاً جداً" ولم تكن هذه ملاحظة عابثة فقد روى شامبلوست أن في عيني الملك دموعاً تترقرق، وأن لويس أضاف قائلاً في حزن "هذه هي التعزية الوحيدة التي أستطيع تقديمها لها(13)". ودفنت بناء على رغبته جنباً إلى جنب مع طفلتها الكسندرين، وفي كنيسة الكبوشيين التي اختفت الآن في ميدان فاندوم.

واعتبط البلاط لتحرره من سلطانها، أما الشعب الذي لم يحس بسحرها فقد لعن إسرافها الشديد، ولم يلبث أن نسيها؛ وأما الفنانون والكتاب الذين ساعدتهم فقد حزنوا لفقد صديقة منعمة متفهمة. على أن دييرو كان قاسياً في حديثه عنها إذ قال: "إذن ماذا بقي من هذه المرأة التي كلفتنا هذا الثمن الغالي من المال والرجال، وتركنا دون شرف ولا همة، وقلبت نظام أوربا السياسي بأسره؟ حفنة من التراب" وأما فولتير فقد كتب من فرنیه يقول:

صفحة رقم : 12921

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> رحيل الخليفة

"يحزنني جداً موت مدام ديومبادور. كنت مديناً لها بالفضل، وأنا أبكيها عرفاناً بصنيعها، ويبدو من السخف أنه في الوقت الذي يظل فيه على قيد الحياة كاتب عجوز لا يكاد يقوى على المشي، تموت امرأة حسناء في عنفوان مجدها وهي بعد في الأربعين. ولو أنها استطاعت أن تعيش كما أعيش في هدوء، فربما كانت اليوم حية... لقد أوتيت إنصافاً في عقلها وقلبها... إنها نهاية حلم..."(14)".

صفحة رقم : 12922

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> انتعاش فرنسا

لم تفق فرنسا عن حرب السنين السبع إفاقة كاملة حتى جاء نابليون. ذلك أن الضرائب الثقيلة كانت قد ثببت الزراعة أيام لويس الرابع عشر، وظلت تنبسطها أيام لويس الخامس عشر، فتركت آلاف الأفدنة التي كانت تزرع في القرن السابع عشر بوراً في 1760 وأخذت تتحول إلى براري قاحلة (15). واستنزفت الماشية والأغنام، وشحت المخصبات، وجفت التربة. وتشبث الفلاحون بطرق الفلاحة القديمة الرديئة، لأن الضرائب كانت تزداد مع كل تحسين يزيد من ثروتهم. وافترق كثير من الفلاحون إلى الدفاء في بيوتهم في الشتاء إلا أن يلتمسوه من الماشية التي تسكن معهم. وأتلفت نوبات شاذة من الصقيع في 1760 و 1767 المحاصيل والكروم خلال نموها. وكان محصول سيئ واحد كفيلاً بأن يقرب قرية من المجاعة، ومن الخوف من الذئاب الجائعة الرابضة حولها. ومع ذلك بدأ الانتعاش الاقتصادي بمجرد توقيع الصلح. كانت الحكومة عاجزة فاسدة، لكن إجراءات كثيرة اتخذت لإعانة الفلاحين. فوزع نظار الزراعة الملكيون البذار وشقوا الطرق، ونشرت الجمعيات الزراعية المعلومات الزراعية، وأقامت المسابقات، ومنحت الجوائز (16). واستجاب الكثير من السادة الإقطاعيين لحفز جماعة الفيزوقراطيين فاهتموا بتحسين وسائل الزراعة ومنتجاتها. وازداد عدد الملاك من الفلاحين. ففي عام 1774 كان هناك 6% فقط من السكان الفرنسيين يرزحون تحت نير القنينة (17). ولكن كل زيادة في الإنتاج كانت تجلب معها زيادة في

صفحة رقم : 12923

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> انتعاش فرنسا

السكان، فالأرض غنية، ولكن متوسط ملكية الفلاح صغيرة، وهكذا ظل الفقر جاثماً على الصدور. ومن أصلاّب الفلاحين جاء الفائض البشري الذي زود الصناعات في المدن النامية بالرجال. وكانت الصناعة باستثناءات قليلة لا تزال في المرحلة البيئية واليدوية. وسيطرت منظمات رأسمالية واسعة النطاق على صناعة المعادن، والتعدين، وصناعة الصابون، والمنسوجات. وكان بمرسلييا عام 1760 خمسة وثلاثون مصنعاً للصابون تستخدم ألف عامل (18). وكانت ليون معتمدة في رخائها على السوق المتنقلة لنتاج أنوالها. وقد أدخلت آلات التمشيط الإنجليزية حوالي عام 1750، وحوالي عام 1770 بدأ دولاب الغزل الذي يدير ثمانية وأربعون مغزلاً في وقت واحد يحل محل عجلة الغزل في فرنسا. وكان الفرنسيون أسرع في الاختراع منهم في التطبيق؛ فقد أعوزهم رأس المال الذي استطاعت إنجلترا بفضل ثرائها من التجارة أن تستخدمه في تميل التحسينات الميكانيكية في الصناعة. وكانت الآلة البخارية قد عرفت في فرنسا منذ 1681 (19). واستعملها جوزف كونيو عام 1769 لتشغيل أول سيارة معروفة؛ وبعد عام استعملت هذه السيارة لنقل الأحمال الثقيلة بسرعة أربعة أميال في الساعة، ولكن الآلة أفادت زمامها فهدمت جداراً، وكان يجب يقفها كل خمس عشرة دقيقة لتزويدها بالماء (20). وكانت وسيلة النقل، غير هذه الاستثناءات الغربية، هي الحصان، أو عربة الجدر، أو عربة الركوب، أو المركب، وكانت الطرق أو الترعرع تفضل نظائرها في إنجلترا كثيراً، ولكن الفنادق كانت أسوأ. وقد أسست خدمة بريدية منظمة عام 1760؛ ولم تكن سرية تماماً، فقد أمر لويس الخامس عشر مديري البريد بأن يفتحوا الخطابات ويبلغوا الحكومة بأي محتوى مريب فيها (21). وتعطلت التجارة الداخلية من جراء المكوس، والتجارة الخارجية نتيجة للحرب وضياح المستعمرات. وأفلست شركة الهند وحلت (1770). ولكن التجارة مع الدول الأوروبية زادت زيادة كبيرة



## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; انتعاش فرنسا

خلال القرن. فارتفعت من 176.600.000 جنيه في 1716 إلى 804.300.000 جنيه في 1787، غير أن بعض هذه الزيادة لم تكن إلا انعكاساً للتضخم، وازدهرت التجارة مع جزر الهند الغربية والفرنسية في السكر والعبيد. وكان للتضخم التدريجي، الراجع بعضه إلى تزييف العملة، وبعضه إلى إنتاج العالم المتزايد من الذهب والفضة، أثر مشجع للمغامرة الصناعية والتجارية فمان رجل الأعمال يستطيع عادة أن يتوقع بيع ناتجه بسعر أعلى مما اشترى به عرق العمال ومواد الصناعة. وهكذا تضخمت ثروات الطبقة الوسطى، في حين بذلت الطبقات الدنيا ما وسعها من جهد لتقرب بين دخولها وبين الأسعار. على أن هذا التضخم الذي مكن الحكومة من غش دائئها هبط بقيمة دخلها، فارتفعت الضرائب بنزول قيمة الجنيه، وأصبح الملك معتمداً على كبار الصيارفة أمثال إخوان باري، لا سيم باري-دوفرنيه، الذي أبهج بومبادور كثيراً بشعورته المالية حتى استطاع خلال الحرب أن يرفع الوزراء والقواد ويخفضهم. وكان أهم تطور اقتصادي في فرنسا القرن الثامن عشر معظم الثروة من ملاك الأرض إلى المسيطرين على الصناعة، أو التجارة، أو المال، ولاحظ فولتير في 1755 "نضراً إلى مغامرات التجارة المتزايدة. نقصت ثروة كبار القوم عن ذي قبل، وزادت الثروة في الطبقة الوسطى. وأسفر هذا عن تقريب الفجوة بين الطبقتين" (22) واستطاع رجال أعمال مثل لابولنيير أن يشيدوا قصوراً يحسدوهم عليها الأشراف، وأن يزينوا موائدهم بأعظم الشعراء والفلاسفة في المملكة، وغدت البرجوازية راعية الآداب والفنون. وعزت الأرستقراطية نفسها بالتنسب بامتيازاتها والظهور بمظهرها الرفيع. وأصرت على نبيل المولد شرطاً للانخراط في وظائف ضباط الجيش أو الأساقفة، وتباهت بشعارات نبالتها وأنسائها المتكاثرة؛ وكافحت-عبثاً في كثير من الأحيان-لتنقضي أفراد الطبقة العامة الأكفاء أو النابهين عن الوظائف الإدارية العليا وعن البلاط. وطالب البرجوازي الغني بأن يفتح مجال الترقى للموهبة أياً كان نسب صاحبها، فلما أغفل مطلبه راودته فكرة الثورة.

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; انتعاش فرنسا

وإذا استثنينا من حرب الطبقات جانب الفلاحين، فإن جميع الجوانب المشاركة فيها اتخذت لها شكلاً مرئياً في ضجيج باريس وفخامتها. فنصف ثروة فرنسا انسابت إلى عاصمتها، ونصف فقر فرنسا تقيح فيها، وقال روسو إن باريس "ربما كانت المدينة الوحيدة في العالم التي تعظم فيها فوارق الثروات، والتي يسكن فيها الثراء الصارخ والفقر المدقع جنباً إلى جنب" (23). وكان ستون من الفقراء المعانين جزءاً من الحرس الرسمي المرافق لجثمان ابن الدوفين البكر في 1761 (24). وحوالي عام 1770 كانت باريس تحوي 600.000 نفس من بين سكان فرنسا البالغين 22.000.000 (25). وتؤوي أكثر أهل أوربا نشاطاً، وأوسعهم إطلاعا، وأشدهم فجوراً. وفيها أفضل الشوارع رصفاً، وأفخم الطرق المشجرة والمنتزهات، وأزحم حركات المرور، أجمل الحوانيت، وأفخر القصور، وأظلم الأكواخ، وطائفة من أبداع الكنائس في العالم. وقد تعجب منها جولدوني الذي وفد عليها من البندقية في 1762 فقال في وصفها:

"يالها من حشود! وأي تجمع للناس من جميع الأوصاف!.. وأي منظر مدهش استرعى حواسي وذهني وأن أدنو من التويلري! رأيت اتساع رقعة تلك الحديقة الهائلة، التي لا نظير لها في الدنيا، والتي لم تستطع عيناى أن تقيسا طولها.. ثم نهراً جليلاً، وكباري عديدة مريحة، وأرصفة شاسعة، وحشوداً من العربات، وزحاماً من الناس لا آخر له" (26).

وكانت مئات المتاجر تغري الأغنياء والمفلسين، ومئات الباعة يسرحون ببضائعهم في الشوارع، ومئات المطاعم (وقد ظهرت الكلمة Restaurants أول ما ظهرت في 1765) تعد بتعويض الجياح Restore عن جوعهم، ومئات التجار يجمعون التحف القديمة أو يزيفونها أو يبيعونها، ومئات الحلاقين يقصون ويبدرون الشعور أو الباروكات حتى لطبقة الحرفيين. وفي الأزقة الضيقة كان الفنانون والحرفيون ينتجون الصور، والأثاث، والثياب، والحلي البهجة لأثرياء القوم. وهنا كانت عشرات المطابع تطبع الكتب، متعرضة أحياناً لخطر شديد، وفي 1774 قدرت تجارة الكتب في باريس بمبلغ

صفحة رقم : 12926

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> انتعاش فرنسا

45.000.000 جنيه-وهو أربعة أمثال تجارة لندن فيها. (27) قال جاريك: "إن لندن تصلح للإنجليز، أما باريس فتصلح لكل إنسان" (28) وقال فولتير: في 1768 "لدينا أكثر من ثلاثين ألف شخص في باريس يهيمون بالفن". (29) هناك كانت عاصمة العالم الثقافية دون منازع.

صفحة رقم : 12927

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الفيزوقراطيون

3- الفيزوقراطيون

في شقة بفرساي تحت مسكن لمدام دبومبادور وعينها الراعية، تكونت تلك النظرية الاقتصادية التي قدر لها أن تحرك الثورة وتصوغها، وتشكل رأسمالية القرن التاسع عشر.

وكان الاقتصاد الفرنسي يكافح منذ زمن طويل ليثب عن الطرق برغم ما قيد به من أقطمة اللوائح والنظم-التي وضعتها طوائف الحرفيين وكولبير، ومن خرافة كخرافة الملك ميداس، خرافة "المركنتلية" التي خالت الذهب هو الثورة. فسعيًا إلى زيادة الصادرات، والتقليل من الواردات وأخذ "الفرق الذي في صالح الدولة فضة وذهباً لدعم القوة

السياسية والحربية، كانت فرنسا وإنجلترا قد أخضعتا اقتصاديهما القوميين لشرك من القواعد والقيود أعانت على التنظيم الاقتصادي ولكنها عطلت الإنتاج بتعطيلها الابتكار والمغامرة والمنافسة. كل هذا كما قال رجال مثل جورنييه وكزنييه، وميرابو الأب، ودوبون دنمور، وطورجوماق كلاً المناقضة للطبيعة، فالإنسان بطبيعته محب للاقتناء، والتنافس، فإذا حررت طبيعته من الأغلال التي لا داعي لها أدهش العالم بمقدار ما ينتج، وتتوعد، وجودته، يقول الفيزوقراطيين "إن فلنترك الطبيعة (وهي بالإغريقية Physis) تحكم (Kratein) ولنترك الناس يخترعون، ويصنعون، ويتجرون وفق غرائزهم الطبيعية"، أو كما قال جورنييه فيما روى "تركهم يفعلون Laissez Faire ما يرونه هم أصوب ما يكون". وكانت هذه العبارة قديمة فعلاً، فحوالي عام 1664، حين سأل كولبير رجل الأعمال لجاندر "ما الذي يجب أن نفعله نحن (أي الحكومة) لمساعدتك؟ أجابه "Nous Laissezfaire" اتركونا نفعله... اتركونا وشأننا." (30)

صفحة رقم : 12928

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الفيزوقراطيون

وكان صوت جان-كلود فانسان دجورنييه أول صوت واضح للفيزوقراطيين في فرنسا. ولا شك في أنه كان يعلم بالاحتجاجات التي قدمها بوجلبير وفوبان للويس الرابع عشر على القيود الخائفة التي فرضت على الزراعة في ظل النظام الإقطاعي. وقد أعجب بكتاب السرجوسيا تشايلد "ملاحظات موجزة عن التجارة والفائدة" (1668) إعجاباً حملاً على ترجمته إلى الفرنسية (1754)، وأغلب الظن أنه قرأ كتاب ريتشارد كانتلون "مقال عن طبيعة التجارة" (حوالي 1734) في طبعته الفرنسية (1755). ويؤرخ البعض من هذا الكتاب مولد الاقتصاد بوصفه "علماً" أي تحليلاً منطقياً لمصادر الثروة، وإنتاجها، وتوزيعها. قال كانتون "أن الأرض هي المصدر أو المادة التي تؤخذ منها الثروة، ولكن الجهد البشري هو الشكل الذي ينتج الثروة"، ولم يعرف الثروة بأنها الذهب أو النقود، بل "صيانة الحياة، ووسائل الراحة وأسبابها" (31) وكان هذا التعريف في حد ذاته ثورة في النظرية الاقتصادية. وكان جورنييه تاجراً ميسوراً يعمل أول الأمر (1729-1744) في قادس. وبعد أن اشتغل في معاملات تجارية واسعة النطاق في إنجلترا، وألمانيا، والأقاليم المتحدة، استقر في باريس، وعين "ناظر للتجارة" (1751). وفي رحلاته التفتيشية في أرجاء فرنسا لاحظ بشخصه القيود التي فرضتها اللوائح النقابية والحكومية على المشروعات الحرة والتبادل الاقتصادي، ولم يخلف لنا صيغة وكتوبة لأرائه، ولكن لخصها بعد موته (1756) تلميذه طورجو. وقد حث على التخفيف من النظم واللوائح الاقتصادية القائمة، إن لم يكن إلغائها. فكل إنسان يعرف خيراً مما تعرف الحكومة الإجراء الذي يلائم عمله خير ملائمة، فإذا كان حراً في السعي إلى مصلحته ازداد إنتاج السلع ونمت الثروة (32). "هناك قوانين فريدة أزلية، مؤسسة على الطبيعة وحدها، بمقتضاها توازن جميع القيم الموجودة في التجارة بعضها بعضاً وتثبت نفسها عند سعر مقرر، تماماً كما تنظم الأجسام المتروكة لتقلها نفسها فوق وزنها النوعي (33)".

صفحة رقم : 12929

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الفزيوقراطيون

أي أن القيم والأسعار تحددها العلاقات بين العرض والطلب، وهي علاقات تحددها بدورها طبيعة الإنسان. وخلص جورنيه إلى أن الدولة يجب أن ألا تتدخل في الاقتصاد إلا لتحمي الحياة، والحرية، والملكية، ولتشجيع الإنتاج كما وكيفاً بأسباب التشريف والمكافآت. وقد قبل مسيو ترودين رئيس مجلس التجارة هذه المبادئ، وخلع عليها طوج قوة بلاغته واستقامته المعترف بها.

أما فرانسوا كزنيه فقد أتبع خطأ فزيوقراطياً اختلافاً طفيفاً. فهو لم ينسَ قط اهتمامه بالأرض لأنه مالك للأرض، ولو أنه أعد ليكون طبيباً، وقد جمع لنفسه ثروة بحذقه في الطب والجراحة، وارتقى حتى أصبح طبيباً لمدام دبومبادو وللملك (1749). وقد جمع في مسكنه بفرساي لفيماً من الزنادقة-دوكلو، وديدرو، وبوفون، وهلفنيوس، وطورجو... هناك كانوا يناقشون كل شيء في غير ترحح إلا شخص الملك، الذي كانوا يحلمون بأن يجعلوا منه "حاكماً مطلقاً مستتيراً" يكون أداة للإصلاح السلمي، وشعر كزنيه الغارق إلى أذنيه في عصر العقل، أن قد أن أوان استخدام العقل في الاقتصاد. ومع أنه كان دجماً طبقياً شديد الإعداد بنفسه في كتبه، فإنه كان في شخصه إنساناً رقيقاً يتميز بالنزاهة في محيط لا يقيم للأخلاق وزناً.

وفي 1750 التقى بجورنيه، وسرعان ما فاق اهتمامه بالاقتصاد اهتمامه بالطب. وقد شارك بمقالات في موسوعة ديدرو تحت أسماء مستوردة بعناية. وقد عزا في مقاله "المزارع" هجر الزراعة لها إلى الضرائب المرتفعة والتجنيد الإجباري. ولاحظ مقاله "الغلال" (1757) أن المزارع الصغيرة تعجز عن الإفادة من أكثر الوسائل إنتاجاً، حذب المزارع الكبيرة التي يديرها "المقاومون" -وهذا سبق للشركات الزراعية العملاقة في عصرنا. وقال إن على الحكومة أن تحسن الطرق، والأنهار، والقنوات، وأن تلغي كل المكوس على النقل، وتحرر حاصلات الزراعة من جميع قيود التجارة.

صفحة رقم : 12930

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الفزيوقراطيون

وفي عام 1758 نشر كزنيه "جدولاً اقتصادياً" أصبح البيان الرسمي الأساسي للفزيوقراطيين. ومع أنه طبع في المطبعة الحكومية بقصر فرساي بإشراف الملك، فإنه أدان الترف باعتبارها استعمالاً مبدداً للثروة كان يمكن استخدامه في إنتاج مزيد من الثروة. وقد قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات: "طبقة منتجة من الزراعة، والمعدنيين، وصيادي الأسماك، وطبقة قابلة للتوجيه (Disponibles) من الأشخاص الذين يُستخدمون في الوظائف العسكرية أو الإدارية، وطبقة غير مثمرة Classe St(rile) من مهرة الصناع الذين يحولون حاصلات الأرض إلى أشياء نافعة، والتجار الذين يوصلون الحاصلات إلى المستهلك. وإذا كانت الضرائب المفروضة على الطبقة الثانية أو الثالثة تقع في النهاية (في رأي كزنيه) على ملاك الأرض، كانت أكثر الضرائب تمثيلاً مع العلم وأنسبها هي ضريبة واحدة (Impot Unique) تُفرض على صافي الربح السنوي لكل قطعة من الأرض. ويجب أن تُجمع الضرائب مباشرة بواسطة الدولة، ولا تُجمع أبداً بواسطة الماليين من الأهالي (الملتزمون العموميون)، ويجب أن تكون الحكومة ملكية مطلقة وراثية.

وتبدو مقترحات كزنيه اليوم وقد أفسدها الغرض من قدر العمل، والصناعة، والتجارة، والفن، ولكن بعض معاصريه رأوا فيها إلهاماً منيراً. وفي رأي أكثر أتباعه حيوية وهو فكتور ريكيتي، مركز ديميرابو، أن "الجدول الاقتصادي" نافس الكتابة والوقود في كونه من أجل ابتكارات التاريخ. وقد أجاز هذا المركز عصر فولتير من أوله لآخره بالضبط، لأنه ولد في 1715 ومات في 1789. ورث ثروة طيبة، وعاش عيشة الأمراء، وكتب كما يكتب

الديمقراطيون، وعنون أول كتاب له "صديق الناس"، أو مقال في السكان (1756) واستحق بذلك الاسم الذي اتخذته "صديق الإنسانية". وبعد أن نشر رائعته تأثر بكزنيه، فراجع بناء على ذلك كتابه وزاده، إلى بحث من ستة مجلدات طبع أربعين طبعة وشارك في إعداد فكر فرنسا لثورة 1789.

صفحة رقم : 12931

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الفزيوقراطيون

ولم يقلق تكاثر البشر المركزي كما سيقلق مالنوس في 1798. فقد آمن بأن الأمة تعظم بكثرة سكانها، وأن هذا يسيره "توالد الناس كما تتوالد الفئران في جرن إذا توفرت لها أسباب الحياة(34)" وهو ما زلنا نراه إلى الآن. وخلص إلى وجوب تشجيع منتجي الطعام بكل الوسائل. وذهب إلى ان التفرقة في توزيع الثروة تثبط إنتاج الطعام، لأن ضياع الأغنياء تشغل الأرض التي كان في الإمكان أن تصبح مزارع خصبة. وقالت مقدمة ميرابو للملك أن الفلاحين: "هم أكثر الطبقات إنتاجاً، الذين لا يرون من تحتهم غير مرضعتهم ومرضعتك-الأرض الأم، والذين يرزحون أبداً تحت ثقل أشق الأعمال والذين يباركونك كل يوم، ولا يسألونك شيئاً غير السلام والحماية. وفضل عرقهم، بل ودمهم ذاته (وهو ما لا تعرفه!) تشبع مطامع ذلك الحشد من البشر غير النافعين الذين لا يفتنون يقولون لك أن عظمة الملك في قيمة وعدد...النعمة التي يقسمها على أفراد حاشيته. لقد رأيت مساعد جابٍ للضرائب يقطع يد امرأة فقيرة تشبثت بقدرها لتمنع استيلاءه عليها وفاء للدين. وكانت آخر ما في بيتها من أنية. فماذا كنت تقول في هذا أيها الملك العظيم(35)؟".

وقد هاجم المركزي الثائر في كتابه "نظرية الضرائب" (1761) الملتزمين العموميين بجباية الضرائب لأنهم طفيليون يغتالون أوقات الأمة. وحرص المليون الغاضبون لويس الخامس عشر على أن يحبسه في الشاتو دفانسين (16 ديسمبر 1760) ولكن كزنيه أقنع مدام دبومبادور بأن تتشفع له، وأطلق لويس سراح المركزي (25 ديسمبر) ولكنه أمره بأن يلزم ضيعته في لوبنيون. وأحال ميرابو الضرورة إلى فضيلة، فدرس الزراعة دراسة عملية مباشرة. وفي 1763 أصدر كتاب "الفلسفة الريفية" الذي قيل فيه إنه "أشمل بحث في الاقتصاد قبل آدم سميث(36)"، ووصفه جريم بأنه "الأسفار الموسوية للمذهب الفيزوقراطي(37)". وبلغت جملة مؤلفات

صفحة رقم : 12932

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الفزيوقراطيون

هذا المركزي، الذي كان نسيج وحده، أربعين كتاباً حتى عام وفاته- وذلك رغم المتاعب التي سببها له ابنه الذي زجه في السجن حين أعيته الحيل عسى أن يكون في ذلك سلامة لكليهما. وكان كابنه ذاك عنيفاً فاسقاً، تزوج للمال، واتهم

امراته بالزنا، وتركها تعود إلى أبوها، واتخذ له خلية. وقد ندد بأوامر الاعتقال الملكية باعتبارها ضرباً من الظلم لا يطاق، وبعد ذلك حمل الوزارة على أن تصدر خمسين أمراً منها لتعينه على تأديب أسرته (38). وليس من اليسير علينا أن ندرك اليوم ذلك الهيجان الذي أثارته مطبوعات الفيزوقراطيين، والحماسة التي اصطبغت بها حملاتهم. وتطلع تلاميذ كزنيه إليه كأنه سقراط الاقتصاد: وعرضوا عليه كتاباتهم قبل طبعها، وفي كثير من الحالات كان يشارك في كتبهم. وفي 1767 أصدر لومرسييه دلا ريفيير، الذي حكم المارتنيك فترة، كتاباً عده آدم سميث أوضح شرح للمذهب وأفضله ترابطاً (39) واسمه "النظام الطبيعي الأساسي للمجتمعات السياسية" يقول فيه أن في العلاقات الاقتصادية قوانين تقابل تلك التي وجدها نيوتن في الكون، والعلل الاقتصادية منشؤها إغفال تلك القوانين أو انتهاكها:

"أتريدون لمجتمع ما أن يبلغ الغاية من الثراء، والسكان، والقوة؟ اتركوا مصالحه إذن للحرية، وليكن هذا قانوناً عاماً، فبفضل هذه الحرية (التي هي العنصر الأساسي للصناعة) وبفض الرغبة في التمتع-التي تحفزها المنافسة وتبهرها الخبرة والقدرة-تضنون أن يسعى كل إنسان على الدوام لأقصى مصلحة مستطاعة له، ومن ثم يسهم بكل ما في مصلحته للخاصة من قدرة في الخير العام، سواء للحاكم ولك فرد في المجتمع (40). وقد لخص ببيير صموئيل ديون هذه الدعوة في كتابه "الفيزوقراطية" (1768) الذي خلع على المذهب اسمه التاريخي. كذلك نشر ديون النظرية في دوريتين كان نفوذهما محسوساً من السويد إلى توسكانيا. وقد عمل مفتشاً

صفحة رقم : 12933

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الفيزوقراطيون

عاماً للصناعات تحت رئاسة تورجو. وسقط بسقوطه (1776). وعاون على المفاوضات مع إنجلترا على عقد المعاهدة التي اعترفت باستقلال أمريكا (1783) وانتخب عضواً بمجلس الأعيان (1787) والجمعية التأسيسية (1789). وتميزاً له في هذه الجمعية عن عضو آخر يدعى ديون، سمي ديون دنمور، نسبة للمدينة التي مثلها. وقد عرض اليعاقبة فتعرض للخطر حين تقلدوا زمام الأمور، وفي 1799 نفى نفسه إلى أمريكا، ثم عاد إلى فرنسا عام 1802، ولكن في 1815 أختار الولايات المتحدة وطناً نهائياً له، وهناك أسس أسرة من أشهر الأسر الأمريكية. وبدا في ظاهر الأمر أن مذهب الفيزوقراطيين يناصر الإقطاع لأن السادة الإقطاعيين كانوا إلى ذلك الحين يملكون أو يتقاضون الرسوم الإقطاعية من ثلث أرض فرنسا على الأقل. ولكنهم -وهم الذين لم يكونوا يدفون أي ضرائب تقريباً قبل 1756- هالهم فكرة تحميل ملاك الأرض جميع الضرائب، كذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا إلغاء المكوس الإقطاعية على نقل البضائع داخل أملاكهم. أما الطبقات الوسطى، التي كانت إلى تشريعات جديدة، فقد ساءها زعم الفيزوقراطيين أنها شطر عقيم غير منتج من الأمة ومع أن جماعة الفلاسفة كانوا في الغالب يوافقون الفيزوقراطيين على الاعتماد على الملك أداة للإصلاح إلا أنهم لم يستطيعوا موافقتهم على مصالح الكنيسة (41). وقد ذهب ديفد هيوم؛ الذي زار كزنيه في 1763، إلى أن الفيزوقراطيين أكرم ما يوجد اليوم من الجماعات تعلقاً بالأوهام وخيلاء منذ تدمير الصوريون. وسخر منهم فولتير (1768) في قصيدته اللاذعة المسماة "الرجل ذو الأربعين أيكوه" (41). وفي 1770 أصدر فرديناند وجالياني، وهو إيطالي من المترددين على "مجمع" الملحدون الذين كان يجمعهم دولباخ في بيته كتاباً اسمه "حوار حول تجارة الغلال" ترجمه ديديرو إلى الفرنسية في السنة نفسها. وقال فولتير أن أفلاطون موليير لا بد قد شاركا في كتابة هذا المؤلف في الاقتصاد الذي كان "علماً يقبض الصدر". وقد هزأ جالياني بخفة روح باريسية بزعم الفيزوقراطيين أن الأرض وحدها مصدر الثروة. وقال أن تحرير تجارة الغلال عن جميع

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; الفيزوقراطيون

اللوائح والنظم معناه خراب بيوت مزارعي فرنسا، وقد يجر إلى المجاعة في أرض الوطن في الوقت الذي يصدر فيه التجار الأذكى الغلال إلى الدول الأخرى. وهذا ما حدث بالضبط في 1768، و1775.

ويروى أن لويس الخامس عشر سأل كزنيه ماذا يصنع إن كان ملكاً فأجاب "لا شيء". "فمن يحكم إذن؟" "القوانين" - وكان الفيزوقراطي يقصد بذلك "القوانين" الملازمة لطبيعة الإنسان والتي تتحكم في العرض والطلب ووافق الملك على أن يجربها. ففي 17 سبتمبر 1754 ألغت وزارته جميع المكوس والقيود المفروضة على بيع الغلال-القمح، والجاودار، والذرة ونقلها داخل المملكة. وفي 1764 شملت هذه الحرية تصدير الغلال إلا إذا بلغت ثمناً مقررأ. وهبط سعر الخبز حيناً نتيجة تركه لعملية العرض والطلب، ولكن محصولاً رديئاً في 1765 رفع سعره فوق السعر العادي بكثير جداً. وبلغ نقص الغلال مرحلة المجاعة في 1768-69، فكان الفلاحون ينبشون عن الطعام في زرائب الخنازير، ويأكلون العشب والحشيش. وفي أ البشرية تعد 2.800 نسمة راح 2.200 يستجدون الخبز. وشكا أفراد الشعب من أن المضاربين يصدرون الغلال بينما هم يواجهون المجاعة. واتهم الناقدون الحكومة بأنها تتكسب من عمليات هؤلاء المحتكرين في "ميثاق المجاعة" وامتد رنين هذه النقمة المرة التي تعزف على ميثاق المجاعة. هذا الذي وقع عام 1761، خلال السنوات التالية ليتهم حتى لويس السادس عشر الرحيم بالكسب من خلال الخبز. وكان بعض الموظفين مذنبين فيما يبدو، أما لويس الخامس عشر فلم يذنب. فلقد كلف بعض التجار بشراء الغلال في السنين الطيبة، وخبزها، ثم عرضها في السوق في السنين العجاف، ولكن حين بيعت هذه الغلال ارتفعت أسعارها ارتفاعاً أعجز فقراء الشعب عن الشراء. واتخذت الحكومة تدابير متأخرة لعلاج الحالة، فاستوردت القمح وزعته على أفقر الأقاليم. وطالب الشعب برد هيمنة الدولة على تجارة الغلال، وشارك البرلمان في هذه المطالبة. في هذه الأزمة نشر فولتير قصيدته المسماة الإنسان ذو الأربعين

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; الفيزوقراطيون

ايكو. وأذعنت الحكومة، وفي 23 ديسمبر 1770 ألغيت المراسيم التي أباحت حرية الاتجار في الغلال. على أن أفكار الفيزوقراطيين شقت طريقها رغم هذه النكسة، سواء في فرنسا أو خارجها. وكان مرسوماً قد صدر في 1758 وقرر حرية التجارة في الصوف ومنتجاته. وزار آدم سميث كزنية في 1765، وراعه منه "تواضعه وبساطته" ورسخ ميله إلى الحرية الاقتصادية. وكان رأيه "أن أكبر غلطة لهذا النظام...في اعتباره طبقة الصناع؛ ورجال الصناعة والتجارة طبقة عميقة غير منتجة على الإطلاق"، ولكنه خلص إلى "أن النظام، بكل ما فيه من عيوب، ربما كان أقرب ما نشر إلى الآن من الحقيقة حول موضوع الاقتصاد السياسي" (57). وقد انسجمت أفكار الفيزوقراطيين مع رغبة إنجلترا-التي أصبحت الآن أعظم الأمم المصدرة في خفض رسوم التصدير والاستيراد. ووجد هذا المذهب القائل بأن الثروة تنمو نمواً أسرع في ظل التحرر من القيود الحكومية على الإنتاج والتوزيع، أذناً

صاغية في السويد تحت حكم شارل الثالث. وكان حب جفرسون للحكومة التي تمارس أقل قدر من الحكم، من بعض النواحي، صدى للمبادئ الفيزوقراطية. وقد أقر هنري جورج بتأثير الفيزوقراطيين على دعوته لضريبة واحدة تفرض على العقار. واستهوت فلسفة حرية المشاريع والتجارة طبقة رجال الأعمال الأمريكيين، وأعطت دفعة جديدة للتطور السريع الذي حظيت به الصناعة والثروة في الولايات المتحدة. وفي فرنسا أتاح الفيزوقراطيون أساساً نظرياً لتحرير الطبقات الوسطى من العقبات الإقطاعية والقانونية التي عرقلت التجارة الداخلية والتقدم السياسي، وقبل أن يموت كزنيه (16 ديسمبر 1774) كان عزاء له أن يرى أحد أصدقائه يعين مراقباً للمالية ولو أفسح له في الأجل خمسة عشر عاماً أحر لشهد انتصار الكثير من الأفكار الفيزوقراطية في الثورة الفرنسية.

صفحة رقم : 12936

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> ظهور طوجو

4- ظهور طوجو

1774 - 1727

أكان طوجو فيزوقراطياً؟ إن خلفيته الفنية المنوعة تمنع كل تخصيص يلصق به، فلقد ولد في أسرة عريقة "من أصل طبيب" Une Bonne Race كما قال لويس الخامس عشر شغل أفرادها المناصب الهامة أجيالاً عديدة بكل كفاية. وكان أبوه مستشاراً للدولة وسر تجار باريس، وهو أرفع منصب إداري في باريس، وأخوه الكبير أميناً للالتامسات والمطالب في برلمان باريس وعضواً بارزاً فيه. وكانت النية توجيه طوجو (أن روبير-جاك)، وهو الابن الأصغر إلى وظيفة القسوسية.

واجتاز بتفوق جميع الامتحانات في كلية لوي-لجران، وفي مدرسة سان-سوليبس اللاهوتية؛ وفي الصوربون، وأصبح "الأبيه دبروكور" وهو بعد في التاسعة عشرة. وتعلم قراءة اللاتينية، واليونانية، والعربية، والأسبانية، والإيطالية، والألمانية، والإنجليزية، والكلام بثلاثة من هذه اللغات على الأقل بطلاقة. وفي 1749 انتخب رئيساً للصوربون، وبوصفه هذا ألقى محاضرات أثارت اثنتان منها ضجة خارج نطاق اللاهوت.

ففي يوليو 1750 ألقى محاضرة على الصوربون باللاتينية في "الفوائد التي أفاد بها توطين المسيحية الجنس البشري"، وقال إنه أنفذت العالم القديم من سلطان الخرافة، وصانته الكثير من الآداب والفنون والعلوم، وقدمت للبشر المفهوم المحرر لقانون العدالة يسمو فوق كل ألوان التعصب والأنانية البشرية. "أفيسطيع الإنسان أن يطمع في هذا من أي مصدر آخر غير الدين؟... إن الدين المسيحي دون غيره.... هو الذي أخرج إلى النور حقوق الإنسان" (47). وفي هذه التقوى تسمع صدى الفلسفة؛ وواضح أن الرئيس الشاب كان قد قرأ مونتسكيو وفولتير، وتأثر لاهوته بعض الشيء بما قرأ.

وفي ديسمبر 1750 ألقى محاضرة في الصوربون عنوانها "جدول فلسفي بالتقدم المطرد للعقل البشري". وكان هذا التعبير عن ديانة التقدم الجديدة



قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> ظهور طورجو

إنجازاً رائعاً من فتي في الثالثة والعشرين. وقد سبق كونت-وربما هذا حذو فيكو فقسّم تاريخ العقل البشري إلى ثلاث مراحل: مرحلة لاهوتية، وأخرى ميتافيزيقية، وثالثة علمية. قال:-  
 "قبل أن يفهم الناس العلاقة العلية بين الظواهر الطبيعية، كان طبيعياً جداً أن يفترضوا أنها صادرة عن كائنات عاقلة، غير مرئية، شبيهة بهم... فلما أدرك الفلاسفة سخف هذه الخرافات عن الأرباب دون أن يكتسبوا بعد بصراً بالتاريخ الطبيعي، حاولوا تفسير أسباب الظواهر بعبارة تجريدية مثل الظواهر والقوى. ولم توضع الفروض-التي أمكن تطويرها بالرياضيات وإثباتها بالتجربة؛ بملاحظة التفاعل الميكانيكي المتبادل للأجسام-إلا في فترة متأخرة"(48).  
 وقال الشاب الألمعي إن الحيوانات لا تعرف التقدم، فهي تظل كما هي جيلاً بعد جيل، أما الإنسان فيفضل تعلمه تجميع المعرفة وتوصيلها يستطيع تحسين الأدوات التي يستخدمها في التعامل مع بيئته وفي إثراء حياته. مادام هذا التجميع والتوصيل للمعرفة والتكنولوجيا مستمراً فلا مندوحة عن التقدم وإن عطلته أحياناً الكوارث الطبيعية أو تقلبات الدول. وليس التقدم متماثلاً، ولا هو عام، فبعض الأمم يتقدم وبعضها يتقهقر، وقد يركد الفن في حين يتحرك العلم قدماً، ولكن الحركة في جملتها حركة إلى الأمام. وفضلاً عن هذه الآراء، تنبأ طورجو بالثورة الأمريكية فقال "إن المستعمرات أشبه بالفاكهة التي تنسبث بالشجرة إلى أن تتضج، وحين تغدو مستكفية بذاتها تفعل ما فعلته قرطاجة، وما ستفعله أمريكا يوماً ما(49)".  
 وقد خطط طورجو لكتابة تاريخ الحضارة وهو بعد الصوروبون مستوحياً في ذلك فكرة التقدم. ولم يبقَ من مشروعه هذا سوى مذكرات خطها لبعض فصول الكتاب، ومنها يتبين أنه قص أن يضمّن تاريخ اللغة، والدين، والعلم، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، كما يضمّن قيام الدول وسقوطها(50). فلما ورث عن أبيه دخلاً كافياً قرر أواخر عام 1750 أن يترك الوظيفة الكنسية وألح عليه زميل من الآباء الدينيين في

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> ظهور طورجو

البقاء واعدأ إياه بالترقي السريع، ولكن طورجو أجاب على ما روى دبون دنمو "لا أستطيع أن أفرض على نفسي ليس قناع طوال حياتي(51)".  
 ولم يكن قد رسم إلا لوظيفة كهنوتية صغيرة، لذلك كان حراً في الاشتغال بالسياسة. وفي يناير 1752 أصبح نائباً عاماً مناوباً، وفي ديسمبر أصبح مستشاراً في البرلمان، وفي 1753 اشترى منصب "أمين اللتماسات والمطالب"، الذي اشتهر فيه بالاجتهاد والعدل. وفي 1755-56 رافق جورنيه في جولات تفتيشية في الأقاليم، وتعلم الاقتصاد الآن بالاتصال المباشر مع الزراع والتجار، والصناع، وعن طريق جورنيه التقى بكزنيه وعن طريق كزنيه التقى بميرابو

الأب، ودبون دنمور، وأدم سميث. ولم ينخرط قط في زمرة المدرسة الفيزوقراطية، ولكن ماله وقلمه كانا أهم سند لمجلة دبون المسماة التقاويم. وفي غضون هذا (1751) استطاع بفضل ذكائه وسلوكه المهذب أن يلقي الترحيب في صالونات مدام جوفران ومام دجرافيته، ومام دوديفان والأنسة دلسيناس. وهناك التقى بالامبير، وهلفتيوس؛ ودولباخ، وجريم، ومن بين الثمرات المبكرة لهذا الاتصال كتاب (1753) من رسالتين "في التسامح". وكتب لموسوعة ديدرو مقالات في الوجود، والاشتقاق اللغوي، والمهرجانات، والأسواق، ولكن حين أدانت الحكومة مشروع الموسوعة كف عم موافاتها بمقالاته. وخلال جولاته في سويسرا وفرنسا زار فولتير (1760) وبدأ صداقة معه دامت حتى وفاة فولتير. وكتب حكيم فرنيه إلى الامبير يقول: (قل أن رأيت طوال حياتي رجلاً ألطف منه أو أوسع إطلاعاً (52)). وادعى جماعة الفلاسفة أنه واحد منهم، وراوده الأمل في أن يؤثروا على الملك عن طريقه. وفي 1766 كتب لطالبيين صينيين على وشك العودة إلى الصين مجملًا للاقتصاد من مائة صفحة عنوانه "تأملات في نشوء الثروة وتوزيعها". فلما نشر في مجلة "التقاويم" (1769-70) أشاد به الناس شرحاً من أكثر

صفحة رقم : 12939

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> ظهور طورجو

شروح النظرية الفيزوقراطية إحصائياً وقوة. قال تورجو أن الأرض مصدر الثروة الوحيد، وكل الطبقات فيما عدا زراع الأرض يعيشون على الفائض الذي ينتجه الزراع فضلاً عن حاجاتهم؛ وهذا الفائض يؤلف "صندوق أجور" تدفع منه أجور طبقة مهرة الصناع. ثم يسوق صيغة مبكرة لما أصبح فيما بعد يطلق عليه "قانون الجور الحديدي" يقول:

"إن أجر العامل يحدده مستوى معيشتته بالمنافسة بين العمال. والعامل المجرد الذي لا يملك غير ذراعيه وجده، لا يملك شيئاً إلا بقدر ما يوفق في بيع كده لغيره، وصاحب العمل ينقده أقل ما يستطيع من أجر، وبما أنه يستطيع الاختيار بين العديد من العمال، فإنه يفضل أقلهم أجراً. ومن ثم يضطر العمال إلى خفض سعرهم في المنافسة فيما بينهم، وفي كل أنواع العمل لا بد أن يحدث هذا، وهو يحدث فعلاً، وهو أن أجر العامل يحدده ما هو ضروري لإعاشته" (53).

ويسترسل تورجو مؤكداً أهمية رأس المال. فلا بد أن يوفر شخص ما، بمدخراته، أدوات الإنتاج ومواده قبل أن يتسنى له استخدام العامل، ولا بد له من إعاشة العامل قبل أن يرد بيع الناتج له رأس ماله. وإذا لم يكن هناك ضمان على الإطلاق لنجاح مشروع ما، فيجب السماح بربح ليوافق خطر فقد رأس المال. "فحركة رأس المال هذه انطلاقاً ورجوعاً هي قوام دورة النقود، تلك الدورة النافعة المثمرة التي تشيع الحياة في جميع جهود المجتمع، والتي شبيهت بكل حق بدورة الدم في الجسم الحيواني" (54). ويجب عدم التدخل في هذه الدورة، وأن يسمح للأرباح والفائدة، كما يسمح للأجور، بأن تصل إلى مستواها الطبيعي حسب العرض والطلب، ويجب أن يعفى من الضرائب أصحاب رؤوس الأموال، وأرباب المصانع، والتجار، والعمال؛ فلا تُفرض إلا على ملاك الأرض الذين يستردون ما دفعوه بتقاضي ثمن أعلى لمحاصيلهم. وينبغي أن لا يفرض إي رسم على نقل أو بيع أي سلعة من سلع الاستهلاك. في هذه "التأملات" أرسى تورجو الأساس النظري لرأسمالية القرن التاسع عشر قبل التنظيم الفعال للعمل. فهذا الرجل الذي كان من أرحم وأنبل

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; ظهور طورجو

رجال زمانه لم يستطيع أن يتطلع إلى مستقبل للعمال أفضل من أجور الكفاف. ومع ذلك أصبح هذا الرجل خادماً للشعب متقانياً في عمله. ففي أغسطس 1761 عُين ناظراً ملكياً لمديرية ليموج، وهي من أفقر أقاليم فرنسا، وقد قدر أن 48% إلى 50% من دخل الأرض فيها يضيع ضرائب للدولة وعشوراً للكنيسة. وكان في فلاحى الإقليم كآبة في نبلائه فظاظة. كتب إلى فولتير يقول: "من سوء حظي أن أكون ناظراً ملكياً. وأقول من سوء حظي لأن السعادة في هذا الزمان الممتلئ بالتناحر واللوم لا تتوافر إلا في حياة الفلسفة بين الكتب والأصدقاء". ورد عليه فولتير قائلاً: "ستكسب أهل ليموج وجيوبهم؛ في اعتقادي أن الناظر الملكي هو الشخص الوحيد الذي يمكنه إفادة الناس. إلا يستطيع إصلاح الطرق، وزرع الحقول، وتصريف المستنقعات، وتشجيع الصناعات؟".

وقد فعل طورجو هذا كله. فكافح بهمة طوال ثلاثة عشر عاماً، اكتسب فيها محبة الشعب وكرهية النبلاء. فالتمس مراراً، ودون جدوى، من مجلس الدولة أن يخفض معدل الضريبة، وحسن توزيع الضرائب، ورفع المظالم، ونظم خدمة موظفي الحكومة، وحرر تجارة الغلال، وشق 450 ميلاً من الطرق؛ وكانت هذه الطرق جزءاً من برنامج إنشاء الطرق الذي ينظم البلاد كلها (والذي بدأتها الحكومة الفرنسية في 1732) والذي ندين له بالفضل في هذه الطرق الجميلة ذات الأشجار الوارفة الغلال التي تنتشر اليوم في ربوع فرنسا. وكانت الطرق قيل طورجو تشق بالسخرة، فألغى السخرة في ليموج، ودفع أجر العمال من ضريبة عامة على الكافة. وأقنع الفلاحين بأن يزرعوا البطاطس غذاء للإنسان لا للحيوان فقط. وقد ظفر بإعجاب الناس جميعاً لما اتخذ من تدابير فعالة لإغاثة الشعب في فترات المجاعة التي امتدت بين سنتي 1768 و1772.

وفي عشرين يوليو 1774 دعاه الملك الجديد للانضمام إلى الحكومة المركزية واغتبطت فرنسا كلها وتطلعت إليه منقداً مرجواً للدولة المتداعية.

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; الشيوعيون

## 5- الشيوعيون

بينما كان الفيزوقراطيون يرسون الأساس النظري للرأسمالية، كان موريللي ومابلي، ولانجيه، بشرحون الاشتراكية والشيوعية. فقد عزت الطبقات المتعلمة نفسها بمتع هذه الأرض بعد أن تخلت عن آمالها في السماء: فتجاهل الأغنياء منهم المحظورات الدينية، وأطلقوا العنان لرغباتهم في الثروة والقوة والنساء والخمر والفن؛ ووجد العامة عزاء في عالم مثالي تقسم فيه خيرات الأرض بالقسط بين البسطاء والموهوبين، وبين الضعفاء والأقوياء.

ولم تقم في القرن الثامن عشر حركة اشتراكية، ولا جماعة محددة مثل جماعة المسوين في إنجلترا كروميل، أو يسوعي برجوازي الشبوعيين. واقتصر الأمر على أفراد متفرقين أضافوا أصواتهم إلى صيحة متصاعدة ستصبح في "جراكوس" بابوف عاملاً في الثورة الفرنسية. ونذكر القراء بأن الكاهن الشكوكي جان ميزلييه طالب في كتابه "الميثاق" الذي أصدره عام 1733 بمجتمع شيعي يقسم فيه الناتج القومي بالتساوي بين الناس ويتزاج فيه الرجال والنساء وينفصلون كما يشاءون، ثم ألمع إلى أنه مما يعين في هذا الباب أن يقتل بعض الملوك (55). وبعده سبعة أعوام من طبع هذه الدعوة ندد روسو في "مقاله" الثاني (1755) بالملكية الخاصة لأنها أس جميع شرور الحضارة، ولكنه حتى في صيحته أنكر أي برنامج اشتراكي. وما وافى عام 1762 حتى كان أبطال كتبه أفراداً ينعمون بالثروة. وفي نفس العام الذي صدر فيه كتاب روسو "مقال في أصل عدم المساواة" ظهر كتاب عنوانه "ناموس الطبيعة" لراديكالي مغمور لا نكاد نعرف عنه شيئاً غير اسمه الأخير، إذا استثنينا كتبه، وهو موريللي Morelly. ولا نخلط بينه وبين أندريه موريلليه Morellet الذي التقينا به مشاركاً في تحرير الموسوعة. وقد بدأ موريللي بإيقاظ الإفهام بكتابه "رسالة في فضائل ملك عظيم" (1751) الذي صور ملكاً شيعياً. وفي 1753 أضفى على حلمه الشاعرية بقصيدته "غرق الجز الطافية، أو الملحمة الملكية". وهنا نرى الملك الطيب، ربما بعد أن قرأ الكاتب مقال روسو الأول، يعود بشعبه

صفحة رقم : 12942

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الشبوعيون

إلى حياة بسيطة فطرية. وكان خير عرض للمثال الشيعي وأكمله كتاب موريللي "ناموس الطبيعة" (1755-60) وقد نسبه الكثيرون إلى ديرو، وصرح المركيز دارجانسون بأنه يفوق كتاب مونتسكو "روح الشرائع" (1748). وقد ذهب موريللي، كما ذهب روسو، إلى أن الإنسان خير بطبعه وإلى أن غرائزه الاجتماعية تحمله على السلوك الطيب، وأن القوانين أفسدته بتقرير الملكية الخاصة وحمايتها. وامتدح المسيحية لميلها إلى الشيعية، وأسف لأن الكنيسة أقرت الملكية، فإقامة الملكية الخاصة أورثت البشر "الغرور، والحمق، والكبرياء، والجشع، واللؤم، والنفاق، والشر. وكل شيء شرير ينتهي إلى هذا العنصر الخفي المؤذي، وأعني به شهوة التملك" (56). ثم ينتهي السفسطانيون إلى أن طبيعة البشر تجعل الشيعية ضرباً من المحال، في حين إن الذي حدث في نتابع الواقعي للأحداث هو أن انتهاك الشيعية هو الذي أفسد الفضائل الفطرية للإنسان. ولولا الجشع والأنانية، والمزاحمات، والأحقاد التي ولدتها الملكية الخاصة لعاش الناس معاً في أخوة مسالمة متعاونة.

ولا بد للبدء في إعادة البناء من إزالة العوائق من طريق التعايش الحر في الأخلاق والسياسة "فتعطى كامل الحرية للعقلاء من الناس في مهاجمة الأخطاء والأهوال التي تدعم نزعة التملك" وينبغي أن يؤخذ الأطفال من آبائهم وهم في السادسة وينشئوا تنشئة مشتركة بواسطة الدول حتى يبلغوا السادسة عشرة، وعندها يعادون إلى ذويهم بعد أن تكون المدارس قد دربتهم على التفكير بلغة الصالح العام لا التملك الشخصي. وينبغي ألا يسمح بالملكية الخاصة إلا في أخص خصائص الحاجات الشخصية "فتجمع كل النواتج في مخازن عامة لتوزع على كل المواطنين لسد حاجات الحياة" (57). ويجب أن يعمل كل قادر على العمل، فيساعد في المزارع من الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين. ويجب ألا يكون هناك طبقة عاطلة، ولكن لكل فرد الحرية في أن يعتز في الأربعين على أن تدير الدولة رعايته في شيخوخته. وتنقسم الأمة إلى مدن حدائق لها مركز للبيع والشراء وميدان عام. ويحكم

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; الشيوعيون

كل جماعة مجلس من الآباء الذين تزيد أعمارهم على الخمسين، وتنتخب هذه المجال مجلس شيوخ أعلى يحكمها كلها وينسق فيما بينها.

ولعل موريللي بخس قدر النزعة الفردية الفطرية في البشر؛ وقوة غريزة الاقتناء، ومقاومة التعطش للحرية والاستبداد اللانزاه للإبقاء على حالة من مساواة غير طبيعية ومع ذلك كان تأثيره كبيراً. فصرح بابيف بأنه تشرب شيوعيته من كتاب موريللي "ناموس الطبعة" والراجح أن شارل فوربييه استمد من نفس المصدر خطة المستعمرات التعاونية (الكتائبية) (Phalansteries 1808) التي أفضت بدورها إلى تجارب شيوعية من أمثال مزرعة بروك (1841). وفي "ناموس" موريللي نلتقي بذلك المبدأ الشهير الذي انحدر ليلهم الثورة الروسية وينكبيها، ونعني به "من كل حسب قدرتها، ولكل حسب حاجاته". (58)

أما جماعة الفلاسفة فقد رفضوا بوجه عام نظام موريللي باعتباره غير عملي، وقبلوا الملكية الخاصة نتيجة لا مناص منها للطبيعة البشرية. ولكن في 1763 وجد موريللي حليفاً قوياً في سيمون-هنري لانجيه، وهو محام هاجم القانون والملكية جميعاً. فبعد أن شطب اسم لانجيه من جدول المحامين نشر (1777-92) "حوليات سياسية" وهي مجلة أطلق فيها وإبلاً من النيران على الشرور الاجتماعية. فالقانون في رأيه قد أصبح أداة لتحليل وصيانة المقتنيات التي كسبت أصلاً بالقهر أو الغش:

"إن القوانين يُقصد بها أولاً تأمين الملكية. وبما أنه يمكن الآن أن يؤخذ من الغني أكثر مما يؤخذ من الفقير، فمن الواضح أنها ضمان يعطى للأغنياء ضد الفقراء. وقد يعسر علينا أن نصدق- وإن كان هذا يمكن بيانه بجلاء- أن القوانين من بعض نواحيها مؤامرة على الكثرة العظمى من البشر (59).

ويترتب على ذلك أن حرباً طبقية لا مندوحة عنها تستعر بين أصحاب الملكية أو رأس المال، وبين العمال الذين لا بد لهم من بيع كدحهم لأرباب العمل

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; الشيوعيون

الملاك، منافسين في ذلك بعضهم بعضاً وقد أحتقر لانجيه دعاوى الفيزوقراطيين بأن تحرير الاقتصاد من سيطرة الدولة سيجلب الرخاء تلقائياً، لأنه على النقيض من ذلك يجعل بتركز الثروة، فترتفع الأسعار، وتتخلف الأجور. وسيطرة الأغنياء على الأسعار من شأنها الإبقاء على عبودية الأجير حتى بعد "إلغاء" الرق قانوناً، "فكل ما جنوه (أي العبيد السابقون) هو العذاب الدائم من خوف الموت جوعاً، وهو خطب أعفي منه على الأقل أسلافهم ممن تردوا في هذا الدرك الأسفل للإنسانية" (60). فقد كان العبيد يسكنون ويطعمون على مدار السنة، أما في الاقتصاد غير المقيد فإن رب العمل حر في أن يقذف بالعمال في مهاوي التسول إذا لم يستطع جني الربح من ورائهم، ثم يجعل التسول جريمة. وفي رأي لانجيه أنه لا دواء لهذا كله إلا الثورة الشيوعية. على أنه لم يوصي بها لجيله، لأنها ستقضي على الأرجح إلى الفوضى لا إلى العدالة؛ ولكنه أحس بأن الأحوال المواتية لثورة كهذه آخذة في التشكل السريع؛ يقول:

"لم يحدث قط أن كان الفقر أعم ولا أشد فتكاً بالطبقة التي تبلى به، ولعل أوربا لم تكن في يوم من الأيام أقرب منها اليوم إلى الانقلاب التام وسط هذا الرخاء الظاهر... وقد بلغنا بالضبط، بطريق عكسي تماماً، تلك النقطة التي بلغتها إيطاليا حين أغرقتها حرب العبيد (التي قادها سبارتاكوس) في حمام من الدم، وحملت النيران والتقتيل إلى أبواب عاصمة الدنيا ذاتها" (60).

وقد نشبت الثورة وهو حي بعد رغم نصيحته وقذفت به إلى الجولتين (1794).  
وأما الأبيه جابيل بونودمايلي نو فقد احتفظ برأسه لأنه مات قبل الثورة بأربع سنوات وكان سليل أسرة كريمة في جرينوبل، وأحد أخوته جان بونو دمايلي الذي عاش روسو معه في 1740، والأخر كوندياك الذي أثار ضجة بأبحاثه السيكولوجية. ثم قريب مشهور آخر هو الكردينال دنتسان، حاول أن يجعل من جابرييل قسيساً، ولكنه لم يجاوز مراتب الكهانة الصغرى،

صفحة رقم : 12945

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الشيوعيون

واختلف إلى صالون مدام تنسان في باريس، ثم استسلم لإغراء الفلسفة. وفي 1748 تشاجر مع الكردينال، وأنصرف إلى الدرس في خلوته، وبعدها كانت أهم أحداث حياته هي كتبه، وكلها ذاع صيته في الماضي.  
وقد أفاد من الأعوام السبعة التي قضاها في باريس ولمرساي علماً بالسياسة، والعلاقات الدولية؛ والطبيعة البشرية. وأسفر هذا كله عن مزيج فذ جمع بين التطلعات الاشتراكية والشكوك المتشائمة. وقد أصر مايلي على أن المعايير الخلقية التي تطبق على الأفراد يجب أن تطبق على سياسة الدول (وهو عكس ما قال به مكيافلي)، ولكنه أدرك أن هذا يتطلب نظاماً من القانون الدولي يمكن فرضه. وكان كفوكتير وموريللي موحداً بغير المسيحية، ولكنه آمن بأن لا سبيل إلى صيانة الفضيلة إلا بديانة قوامها العقاب والثواب فوق الطبيعيين، لأن أكثر الناس "قضي عليهم بطفولة العقل الدائمة" (62). وقد أثر أخلاقيات الرواقيين على أخلاقيات المسيح، والجمهوريات الإغريقية على الملكيات الحديثة. واتفق مع موريللي على أن رذائل البشر مبعثها الملكية لا الطبيعة؛ فهي "أس جميع البلايا التي نكب بها المجتمع" (63). "وقد تربعت شهوة الغني على عرش متضخم في قلب الإنسان، فخنقت كل ما فيه من حب العدل والإنصاف" (64)، وكلما ازدادت التفرقة بين حظوظ البشر تأججت هذه الشهوة. فالحسد، والطمع، والفوارق الطبقيّة، تسم ما في طبيعة البشر من مودة فطرية. فيستكثر الأغنياء من أسباب الترف والبدخ، ويتردى الفقراء في مهاوي الذل والهوان. فأى خير في الحرية السياسية ما دامت العبودية الاقتصادية قائمة؟ "إن الحرية التي يحسب كل أوربي أنه يستمتع بها ليست سوى حرّيته في أن يترك عبوديته لسيد ويسلم نفسه إلى سيد آخر" (65).  
وكم يكون البشر أسعد وأهنأ إذا اختفت ألفاظ "هذا ملكي" "وذلك ملكك". وزعم مايلي أن الهنود الحمر كانوا أهنأ بالاً في ظل شيوعية اليسوعيين في برجواي من فرنسيي جيله، وأن السويديين والسويسريين في ذلك الجيل، الذين تخلوا عن الجري وراء المجد والثراء قانعين برخاء معتدل، هم أسعد حالاً من الإنجليز الذين يغزون المستعمرات والتجارة. وذهب إلى

صفحة رقم : 12946

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الشيوعيون

أن الأخلاق في السويد تحظى بمقام أعظم من الشهرة، وأن القناعة أثنى في نظر القوم من الثراء الطائل (66). أن الذين يملكون الحرية الحقيقية هم أولئك الذين لا تهفو نفوسهم بالغنى. ولن تتوافر السعادة في مجتمع كذلك الذي يدعو إليه الفيزيوقراطيون، لأن الناس ستنثروهم على الدوام الرغبة في أن يتساوا في مقتنياتهم مع من يفوقونهم ثراء. وهكذا خلص ما يلي إلى أن الشيوعية هي النظام الاجتماعي والوحيد الذي يدعم الفضيلة والسعادة. "أقيموا اشتراكية السلع، وعندها لن يكون أيسر من إقرار المساواة بين أحوال العيش، وإرساء رفاهية الإنسان على هذا الأساس المزجوج." (67) ولكن كيف السبيل إلى إقامة شيوعية كهذه والناس على مثل هذا الفساد؟ هنا يرفع الشكوكي في مابلي رأسه، وسيلم في قنوط بأنه ليس في قدرة أي قوة بشرية اليوم أن تعيد إقرار المساواة دون أن تحدث من ضروب الخلل والاضطراب ما يفوق تلك التي تحاول تقاديتها (68). فالديمقراطية رائعة نظرياً، أما عملياً فهي تقشَل بسبب جهل الجماهير وحبها للاقتناء (69). قصارى ما نستطيعه هو أن نعرض الشيوعية مثلاً أعلى ينبغي أن تسعى إليه الحضارة شيئاً فشيئاً في حذر، وتغير ببطء عادات الإنسان الحديث من التنافس إلى التعاون. ويجب ألا يكون هدفنا الاستكثار من الثروة، ولا حتى الاستكثار من السعادة، بل إنماء الفضيلة، فالفضيلة وحدها هي مجلبة السعادة. وأول خطوة في سبيل الحصول على حكومة أفضل هي دعوة مجلس طبقات الأمة، الذي ينبغي أن يضع دستوراً يخول السلطة العليا لجمعية تشريعية (وهذا ما تم في 1789-91). وينبغي تحديد مساحة الأطيان التي يمتلكها الفرد، وتقسيم الضياع الواسعة للاستكثار من ملكية الفلاحين للأرض، ووضع القيود الصارمة على إرث الثروة، وإلغاء "الفنون عديمة الجدوى" كالصوير والنحت.

وقد تبنت الثورة الفرنسية كثيراً من هذه المقترحات. ونشرت مجموعة أعمال مابلي في 1789، ثم في 1792، ثم 1793، ورتب كاتب نشر عقب الثورة هلفتيوس، ومابلي، وروسو، وفولتير، وفرانكلن، بهذا الترتيب بوصفهم أكبر ملهمي ذلك الحدث، وقديسي الدين الجديد الحقيقيين (70).

صفحة رقم : 12947

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الملك

6- الملك

أما لويس الخامس عشر فقد ابتسم سخرية من هؤلاء الشيوعيين-على قدر علمه بهم-لأنهم قوم حالمون لا وزن لهم، وراح يتنقل في ود من فراش إلى فراش. وأما البلاط فواصل قماره المستهتر وزهوه المسرف، من ذلك أن أمير سوبيز أنفق 200.000 جنيه على توفير أسباب اللهو للملك في يوم واحد، وكان كل انتقال لجلالته إلى أحد مقاره الريفية يكلف دافعي الضرائب 100.000 جنيه. وكان خمسون من كبار القوم يملكون "أوتيلات" أي قصوراً في فيرساي أو باريس؛ وكان عشرة آلاف خادم يبذلون العرق في كبرياء وفخر لتلبية حاجات النبلاء؛ والأخبار، والخيليات والأسرة المالكة وإشباع غرورهم. وكان للويس نفسه ثلاثة آلاف جواد و217 مركبة، و150 غلام يرتدون حلاً من المخمل والذهب، وثلاثون طبيباً يقصدونه وينظفون أمعائه ويسمونهم. وقد أنفق البيت المالكي في سنة واحدة

(سنة 1751) 68.000.000 جنيه-هو ما يقرب ربع إيراد الحكومة(71). وشكا الشعب ولكن أكثر شكاوهم كانت غفلاً من التوقيع، وفي كل عام كشفت عشرات النشرات والملصقات، وأغاني الهجو، عن كراهية الملك. وقد جاء في أحد الكتيبات "إذا كنت يا لويس مرة موضع حينا فما ذلك إلا لأن رذائلك كانت لا تزال مجهولة لنا. وفي هذه المملكة، التي نضبت من أهلها بسببك، وأسلمت نهبها للمشعوذين الذين يحكمون معك، إن بقي فرنسيون، فإنما يبقون ليكرهوك(72)".

فكيف انقلب لويس المحبوب ملكاً محتقراً مهاناً؟ أننا لو صرفنا النظر عن إسراره، وإهماله، وفواحشه، لن نجد في ذاته بالسوء الذي صور به التاريخ الحقود. كان في بنيته رجلاً وسيماً، طويلاً، قوياً، قادراً على الصيد طوال المساء واللهو مع النساء في الليل. أفسده معلموه، فأفهمه فيلرو أن فرنسا كلها ملكه بالوراثة والحق الإلهي. وقد خفف من كبرياء الملكية وشهوتهما الظل الذي خلفه لويس الرابع عشر وتقاليده، إذ ألح على الملك الحدث إلحاح الهاجس، وأورثه الجبن، إحساسه بالعجز عن الارتفاع

صفحة رقم : 12948

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الملك

إلى ذلك المستوى الجليل من الفخامة وقوة الإرادة؛ فأصبح عاجزاً عن البت في الأمور، وترك مهمة اتخاذ القرارات لوزرائه مغتبطاً. وأتاحت له قراءاته وهو غلام، وذاكرته القوية، بعض الإلمام بالتاريخ، واكتسب مع الوقت معرفة لا يستهان بها بالشؤون الأوربية؛ واحتفظ سنوات كثيرة بمراسلاته الدبلوماسية السرية. كان ذكياً في تراخ وفتور، يحكم حكماً شديداً ولا رحمة فيه على أخلاق من أحاط به من الرجال والنساء؛ في وسعه أن يجاري خير العقول في بلاطه حديثاً ونكته، ولكن يبدو أنه قبل حتى أسخف العقائد اللاهوتية التي تبتئها فيه فلوري وهرصي. وبات الدين عنده أشبه بالحمى المتقطعة إذ راح يتذبذب بين التقوى والفجور. فكان يعاني من خوف الموت والجحيم، ولكنه يقامر على غفران خطايه وهو في النزاع الأخير. وقد أوقف اضطهاد الجانسينيين، وإذ نستحضر تاريخ تلك الحقبة نتبين أن جماعة الفلاسفة استمتعوا في حكمه بين الحين والحين بقدر كبير من التسامح.

كان يقسو أحياناً، ولكنه في الأكثر رحيم. تعلمت بومبادور ودورباري أن تحباه من أجل شخصه كما أحبته من أجل السلطة التي منحها إياها. وكانت برودة عاطفته وتحفظه جزءاً من حياته وانعدام ثقته بنفسه، ولكن وراء ذلك التحفظ عناصر من الحنان والرفقة أعرب عنها خاصة في محبته لبناته، وقد أحببته أباً منحهن كل شيء إلا القدوة الحسنة. وكان في سلوكه عموماً تُلطف وكياسة ولكنه كان قاسي الفؤاد أحياناً، ويتكلم في هدوء مفرط على أمراض أفراد حاشيته أو موتهم الوشيك. وقد نسي تماماً أن يسلك مسلك الرجل المهذب وهو يقيل فجأة دار جانسون، وموريا، وشوازيل؛ ولكن هذا أيضاً ربما كان نتيجة عدم ثقته بنفسه. فقد شق عليه أن يقول لا لإنسان في وجهه. ومع ذلك كان قادراً على أن يواجه الخطر بشجاعة كما كان يفعل في الصيد أو في فوننتوا.

وكان على ظهوره بمظهر الوقار أمام الناس لطيفاً حلو العشرة بين أخصائه، يعد لهم القهوة بيديه الكريمتين. وقد راعى قواعد السلوك المعقدة التي أرساها لويس الرابع عشر للملكية ولكنه أنكر الشكلية التي فرضتها

صفحة رقم : 12949



## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> الملك

على حياته. وكثيراً ما كان يستيقظ قبل تقليد "الاستيقاظ" المقرر رسمياً ويوقد ناره بنفسه لكي لا يوقظ خدمه، ويغلب عليه أن يلبث في فراشه حتى الحادية عشرة. أما في الليل، فإنه بعد أن يحتفل رسمياً بذهابه إلى فراشه، قد يتسلل ليلهو بمحظيته أو حتى لينتقد مدينة فرساي متكرراً وكان يلوذ بالصيد من مراسم البلاط المتكلفة، وفي الأيام التي لا يهرب فيها للصيد كانت بطانته تقول "أن الملك لا يعمل اليوم شيئاً(73)". وكان يعرف عن كلاب صيده أكثر مما يعرف عن وزرائه؛ إذ رأى أن في قدرة وزرائه أن يعنوا بشؤون الدولة خيراً منه، فلما نبه إلى أن فرنسا في طريقها إلى الإفلاس الثورة؛ عزي نفسه بهذه الفكرة "استسير الأمور على هذه الوتيرة حتى ينتهي أجلي".

أما من الناحية الجنسية فقد كان وحشاً فاسقاً. ولقد تغتفر له اتخاذ المحظية التي اتخذها حين ضاقت الملكة ذرعاً بفحولته، وقد نفهم اقتناؤه ببومبادور؛ وحساسيته لجمال المرأة وظرفها وحيويتها المشرقة، ولكن قل في تاريخ الملوك ما أشبه حقارة تنقله بين الفتيات اللاتي أعددهن لفراشه في البارك أو سير واحدة تلو أخرى. وكان مجيء دوياري بالقياس إلى هذا رجوعاً إلى الحالة السوية.

صفحة رقم : 12950

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> دوياري

7- دوياري

بدأت حياتها في قرية من قرى شمانيا تدعى فوكولير حوالي 1743 باسم ماري-جان بيكي، ابنة الأنسة آن بيكي، التي تبدو أنها لم تمط اللثام قط عن شخصية أبي الفتاة. ومثل هذه الخفايا كانت مألوفة بين الطبقات الدنيا. وفي 1748 انتقلت أن إلى باريس وأصبحت طاهية للمسيو دومونسيه الذي رتب إلحاق جان، وهي في السابعة، تلميذة داخلية بدير سانت-أن للراهبات. هناك مكثت الفتاة الجميلة تسع سنوات، يلوح أنها لم تعوزها فيها السعادة؛ وقد احتفظت بذكريات حلوة عن هذا الدير المنظم، وتلقت فيه تعليماً في القراءة والكتابة والتطريز، واحتفظت طوال حياتها يتدين بسيط ولا يتشكك، وبإجلال الراهبات والقساوسة، وكان إيواؤها للقساوسة المطاردين في الثورة من العوامل التي أفضت بها إلى الجيلوتين(75).

صفحة رقم : 12951

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> دوباري

فلما خرجت من مدرسة الدير اتخذت اسم صديق أمها الجديد، المسيو رانسون، لقباً لها أرسلت إلى حلاق للتعلم فنه، ولكن هذا الفن اشتمل على الإغواء، وجان-الجميلة جمالاً لا يقاوم لم تعرف كيف تقاوم. ونقلتها أمها وصيفة لمدام ولاجارد، ولكن ضيوف هذه السيدة غالوا في الاهتمام بجان، فما لبثت أن طردت. واجتذبت دكان القبعات الذي التحقت به بائعة عدداً غير عادي من الزبائن الذكور. فأصبحت خليعة اختص بها سلسلة من الفجرة. وفي 1763 تلقاها جان دوباري؛ وهو مقامر كان يجلب النساء للفاسقين من البلاء. وخدمت هذا القوادمتخدة اسم جان دفوبرنيه الأنيق-خمس سنوات مضيئة في حفلاته، وأضافت شيئاً من التهذيب الصقل لمفاتها. ثم رأى دوباري أنه هو أيضاً، كمدام بواسون، قد اكتشف "طبقةً شهياً للملك".

وبيان ذلك أن الملك الطيب ستانلاس مات عام 1766 في اللورين فأصبح بذلك إقليمياً من إقليم فرنسا، وانهارت صحة ابنته ماري (ملكة فرنسا النقية المتواضعة) انهياراً سريعاً بعد موته لأن حبهما المتبادل كان سندا لها في حياة العبودية الطويلة التي عاشتها مع زوج خائن العهود الزوجية، في بيئة غريبة. وفي 24 يونيو 1768 لفظت أنفاسها الأخيرة فبكاها الجميع حتى الملك. وقد علل بناته بالأمل في أنه لن يتخذ المزيد من الخليلات. ولكن في شهر يوليو رأى جان التي كانت سائرة بالصدفة على غير هدى في قصر فرساي في براءة كبراءة لابومبادور وهي راكبة في أرض الصيد. "سينار" قبل أربع وعشرين سنة. وراعه فيها جمالها الشهواني ومرحها وطبعها اللعوب. فها هنا امرأة تستطيع أن توفر له اللهو من جديد وتدفي قلبه البارد الحزين، فأرسل إليها تابعه لبيل. ولم يتردد (الكونت) دوباري في التفريط فيها لقاء مقابل ملكي. ورغبة في تهدئة المظاهر أصر لويس أن تتزوج الفتاة. فزوجها الكونت بسرعة لأخيه جيوم، الكونت دوباري الحقيقي، المفقّر، بعد أم استقدمه لهذا الغرض من لفنيك بغسقونية. وحيته تحية الوداع

صفحة رقم : 12952

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> دوباري

عقب حفل الزفاف مباشرة (أول سبتمبر 1768)، ولم تقع عليه عينها بعد ذلك قط. وكوفئ جيوم بمعاش قدره 5.000 جنيه، فاتخذ له خليعة واصطحبها إلى لفنيك حيث عاشها خمسة وعشرين عاماً، ثم تزوجها حين علم أن زوجته أهدمت بالجلوتين. ولحقت جان، التي اتخذت الآن اسم الكونتس دوباري، بالملك سراً في كومبيين، ثم علانية في فونتيلو. وسأل الدوق رشيليو لويس ماذا يرى في هذه اللعبة الجديدة، فأجاب جلالته "لا أكثر من أنها تتسني أنني سأبلغ الستين بعد قليل. (76)" وريعت بطانته. فقد كان في استطاعتهم أن يفهموا في غير غباء حاجة الملك إلى خليعة، أما أن يأخذ امرأة عرفها العديدون منهم مومساً، ثم يرفعها إلى مقام يعلو على المراكز والدوقات!! وكان شوازيل قد منى نفسه بأن يقدم أخته للملك (خليعة تحمل لقباً)، فراحت هذه النبيلة المرفوضة تحرض أباها-الذي كان الحذر من طبعه-على العداء الصريح لهذه الدعية الجميلة، ولم تغتفر له دوباري فعلته قط. وسرعان ما تقلبت الخليعة الجديدة في الذهب والجواهر، وخلع عليها الملك معاشاً قدره 130.000 فرنك بالإضافة إلى راتب سنوي قدره 150.000 فرنك، تفرض على مدينة باريس وولاية برجندية. وهرع الجواهريون إلى تزويدها بالخواتم والعقود والأساور والتيجان وغيرها من أسباب الزينة المتألقة التي اقتضوا الملك ثمنها لها 2.000.000 فرنك

في أربع سنوات. وبلغت جملة ما تكلفته الخزانة في تلك السنوات الأربع 6.000.375 جنياً (77). وسمع أهل باريس بجمالها المتألق، وحنوا لأن بومبادور جديدة أقبلت لتبتلع ضرائبهم. وفي 22 إبريل 1769 قدمت رسمياً في البلاط، وطلعت على أفرادها في شعلة متوهجة من الحلي والجواهر وهي تنكئ على ذراع ريشليو. وأعجب الرجال بمفاتتها، أما النساء فاستقبلنها بما يجرؤن عليه من فتور. واحتملت هذه الإهانات في هدوء، وأرضت بعض الحاشية بتواضع سلوكها والضحك الرخيم الذي كانت تشرح به صدر الملك. ولم تبد أي ضغينة حتى لأعدائها (باستثناء شوازيل)، واكتسبت الرضى باستمالة

صفحة رقم : 12953

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> دوياري

جلالته لإصدار قرارات عفواً أكثر مما كان يصدر من قبل. وشيناً فشيناً جمعت حولها رجالاً ونساء من النبلاء الذين تشفّعوا بها عند الملك وقد حرصت على رعاية أقاربها كما فعلت بومبادور من قبل، فاشترت أملاكاً ولقباً لأمها، وحصلت على معاشها لخالتها وأبناء خالتها، ثم دفعت ديون جان دوياري، وخلفت عليه مالا كثيراً، وأشرت له فيلا أنيقة في لبل-جرودان. وظفرت لنفسها من الملك بالساتو لوفسيين الذي كان أمير لامبال وأميرتها يشغلانه، على حافة الحديقة الملكية في مارلي. واستخدمت أعظم معماري الجيل، جاك-انج جابرييل، ليعيد بناء القصر على هواها، وصانع الأثاث المدقق بيير جوتير ليزخرفه بأثاث وتحف فنية بلغ ثمنها 756.000 جنيه. وكانت تعوزها خلفية التعليم والاختلاط التي جعلت من بومبادور راعية مختارة ذواقة للأدب والفلسفة والفن. بيد أنها جمعت عدداً كبيراً من الكتب الأنيقة التجليد، من هومر إلى كتب الفحش، ومن تأملات بسكال الورعة إلى رسوم فراجونار البذيئة. وفي 1773 أرسلت تحيتها وصورتها إلى فولتير مع قلبه على كل وجنة وأجاب بأبيات فيها ذكاء شعره المعهود:

"ماذا! أقبلتان في ختام حياتي! تتفضلين بأن ترسلينه لي! قبلتان! إن واحدة تكفي وزيادة، أي إيجيريا المعبودة، لأنني ساموت فرحاً في القبلة الأولى(78)".

وطلبت إلى لويس الخامس عشر أن يسمح لفولتير بالعودة إلى باريس فرفض، وكان عليها أن تقنع بشراء تشكيلة من الساعات من فرنيه وفي 1778. حين أتى الإقطاعي العجوز إلى باريس ليموت، كانت من بين الكثيرين الذين سعدوا سلم بينه في شارع بون لتقدم له احترامها. وقد فتن بزيارتها، وختمها بالنهوض من فراشه ليصحبها إلى الباب. وفي نزولها التقت بجاك بيير بريسو، رجل الثورة المستقبل، وكان يرجو أن يقدم إلى فولتير مخطوطة في القانون الجنائي، وحاول الدخول إليه بالأمس ففشل، وكان يعيد الكرة الآن، فقادته عوداً إلى باب فولتير

صفحة رقم : 12954

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> دوياري

ورثت له أن يدخل. وقد استعاد في مذكراته "ابتناسمتها المفعمة دفناً ولطفاً(79)".  
لقد كانت طيبة القلب سمحة النفس ما في ذلك ريب. احتملت دون رد عداء الأسرة المالكة ورفض ماري انطوانيت  
التحدث إليها. وكان شوازيل دون غيره هو الذي لم تستطع الصفع عنه لأنه لم ين عن محاولة طردها من البلاط.  
وسرعان ما وضح أن واحداً منهما لا بد أن يرحل.

صفحة رقم : 12955

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> شوازيل

8- شوازيل

كان سليل أسرة لورينية عريقة، وأصبح في مطلع حياته الكونت دستانفيل، وقد ظفر بالتشريف لبلانه في حرب  
الوراثة النمساوية. وفي 1750 حين كان في الحادية والثلاثين استعاد لأسرته ثراءها بزواجه من وارثة غنية.  
وسرعان ما ظفر بمكان مرموق في البلاط بفضل ذهنه الوقاد وذكائه المرح، ولكنه عطل رقيه بمعارضته لبومبادور.  
وفي 1752 نقل ولاءه فأكتسب عرفانها بصنيعه حين أفضى لها سر مؤامرة دبرت لطردها. فحصلت له على وظيفة  
سفير في روما ثم فيينا. وفي 1758 دعي إلى باريس ليحل محل برنيس وزيراً للخارجية، ورفقي دوقاً ونبيلاً من نبلاء  
فرنسا. وفي 1761 نقل وزارته هذه لأخيه سيزار، ولكنه واصل توجيه السياسة الخارجية، أما هو فاتخذ لنفسه  
وزارتي الحربية والبحرية. وتعاطم سلطانه حتى كان يتغلب أحياناً على الملك ويخيفه(80). وقد أعاد بناء الجيش،  
والبحرية، وقلل من المضاربة والفساد في الحربية وفي تموين الجيش، وأعاد النظام إلى صفوف الجيش، وأحل ذوي  
الكفايات من غير حملة الألقاب محل حملتها ممن شاخوا في سلاح الضباط. وطور المستعمرات الفرنسية في جزر  
الهند الغربية، وأضاف كورسيكا إلى ممتلكات التاج الفرنسي، وتعاطف مع جماعة الفلاسفة، ودافع عن الموسوعة،  
وأيد طرد اليسوعيين (1764) وأغضى عن إعادة تنظيم الهيجونوت في فرنسا. وقد حمى أمن فولتير في فرنیه، وأيد  
حملته دفاعاً عن أسرة كالاس، وظفر من ديدرو بمدح قال فيه "أي شوازيل العظيم، إنك لتسهر على مقدرات  
الوطن(81)".

صفحة رقم : 12956

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> شوازيل

ويمكن القول على الجملة إن سياسته أنقذت فرنسا إلى حد معتدل من الكارثة التي جرها إليها الحلف النمساوي المنكوس. فخفض الإعانات المالية التي كانت تدفعها عادة إلى السويد، وسويسرا، والدنمرك، وبعض الأمراء الألمان. وشجع الجهود التي بذلها شارل الثالث ليدخل أسبانيا إلى حظيرة القرن الثامن عشر، وحاول أن يعزز قوة فرنسا وأسبانيا بميثاق الأسرة (1761) الذي أبرمه الملكان البوربونيان. وقد تعثرت الخطة، ولكن شوازيل فاوض إنجلترا على صلح بشروط تفضل كثيراً ما كان الموقف العسكري يبرره. وقد تنبأ بثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا، ودعم مركز فرنسا في سان دومينغ والمارتينيك، وجواديلوب، وغيانا الفرنسية، أملاً في إرساء سلطان استعماري جديد يعوض فرنسا عن فقد كندا. وقد تبنى النابليونان هذه السياسة في 1803 و1863.

ويجب أن نضع مقابل هذه المنجزات إخفاقه في وقف التغلغل الروسي في بولندا وإصراره على قيادة فرنسا وأسبانيا في أعمال عدائية مجددة مع إنجلترا. وكان لويس قد سأم الحرب فاستمع بذهن مفتوح لأولئك الذين يعملون على إسقاط شوازيل. وقد فتن الوزير الأريب الكثيرين بمجاملته للبلاط، واستضافته المسرفة للأصدقاء، وسعة حيلته وجهاده في خدمة فرنسا، ولكنه قوى المنافسات فأحاله عداوات بنقده الصريح وحديثه المستهتر. وأتاحت معارضته لدوباري معارضة لا هودة فيها لأعدائه سبيلاً إلى أذن الملك. وأيد ريشليو-الذي لا يكمل-دوباري. وكان ابن أخيه الدوق ديجون يتحرق شوقاً للحلول محل شوازيل رئيساً للحكومة. ونزلت الأسرة المالكة التي أنكرت نشاط شوازيل ضد الشيوعيين إلى استعمال الخليفة المزدرأة أداة لعزل الوزير العديم التقوى.

وطلب إليه لويس غير مرة أن يتجنب الحرب مع إنجلترا ومع دوباري. ولكن شوازيل واصل الإثتار على الحرب خفية، وازدراء الخليفة جهراً. وأخيراً استجمعت كل قواها ضده وفي 24 ديسمبر 1770 أرسل الملك المغيظ رسالة مقتضبة إلى شوازيل جاء فيها "يا لبن عمي، إن عدم رضائي

صفحة رقم : 12957

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> شوازيل

عن خدماتك يضطرنني إلى نفيك إلى شانتلوب حيث يتعين عليك أن ترحل في ظرف أربع وعشرين ساعة". وتحدى أكثر الحاشية غيظ الملك بالإعراب عن عطفهم على الوزير المقال بعد أن صدمه هذا الطرد الفجائي لرجل أدى لفرنسا خدمات جليلة. وركب نبلاء كثيرون إلى شانتلوب ليواسوا شوازيل في منفاه. وكان منفي مريحاً لأن ضيعة الدوق كانت تحوي قصرأ من أبداع القصور، وحدائق خاصة من أرحب الحدائق في فرنسا؛ ثم إنه كان يقع في تورين غير بعيد من باريس. هنالك عاش شوازيل حياة الأبهة والأناقة، لأن دوباري أقنعت الملك بأن يرسل إليه 300.000 جنيه فوراً ونعهداً بستين ألفاً كل عام. وحزن جماعة الفلاسفة لسقوطه، وبكى الطاعمون على مائدة دولباخ قاتلين: "لقد ضاع كل شيء" وقال ديدرو في وصفهم إنهم غرقوا في دموعهم.

صفحة رقم : 12958

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> تمرد البرلمانات

## 9- تمرد البرلمانات

جاءت بعد شوازيل "حكومة ثلاثية" كان ديجون وزير الخارجية فيها ورينيه نيكولا دمويو مستشاراً، والأبيه جوزيف ماري تريه مراقباً مالياً. وأعطى تريه لدوباري كل ما طلبته من مال، ولكنه فيما عدا ذلك خفض المصروفات تخفيضاً بطولياً. فأوقف استهلاك الديون، وخفض نسبة الفائدة على الديون الحكومية، ووضع الجديد من الضرائب، والفروض، والرسوم وضاعف الرسم الحكومي على النقل الداخلي. وبلغت جملة ما وفره 36.000.000 جنيه، وأضاف 15.000.000 إلى الدخل. والواقع أنه إنما أجل الانهيار المالي بتقليصة مؤقتة ولكن الكثيرين عانوا من تخلف الحكومة في إيفاء ديونها، وضموا أصواتهم لأصوات السخط الذي لم يهدأ. وما لبث العجز أن عاد إلى التقايم حتى بلغ 40.000.000 جنيه في آخر سنوات الحكم (1774). وكان هذا الذي يبدو اليوم ديناً أهلياً متواضعاً لأمة تتمتع بالاستقرار المالي مبرراً إضافياً لقلق أولئك الذين أقرضوا الحكومة مالا، والذين سمعوا الآن، بعداء أقل الصيحات المتصاعدة بطلب التغيير.

وكانت أزمة الذروة في العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر هي

صفحة رقم : 12959

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> تمرد البرلمانات

كفاح وزرائه للحفاظ على سلطة الملك المطلقة ضد تمرد البرلمانات. وهذه البرلمانات (كما رأينا) لم تكن هيئات نيابية أو تشريعية كالبرلمان البريطاني بل غرفاً قضائية تقوم بعمل محاكم الاستئناف في ثلاث عشرة مدينة فرنسية. زد على ذلك أنها ادعت كما ادعى البرلمان الإنجليزي ضد تشارلز الأول بأنها تدافع عن "القانون الأساسي" أو التقاليد المقررة لأقاليمهم ضد الاستبدادية الملكية، وإذ كان الوصي فليب دورليان قد أكد حقه في "الاعتراض" أو الاحتجاج على المراسم الملكية أو الوزارية، فإنهم تقدموا خطوة أخرى فطالبوا بالألا يصبح أي من هذه المراسم قانوناً ما لم يوافقوا عليه ويسجلوه.

ولو كانت البرلمانات قد انتخبها الشعب، أو انتخبها أقلية متعلمة مالكة (كما في بريطانيا) لكان ممكناً أن تكون أداة انتقال إلى الديمقراطية، ولقد كانت إلى حد ما قريباً صحياً على الحكومة المركزية. ومن ثم فإن الشعب بصفة عامة أيدها في كفاحها ضد الملك. على أنها كانت من أشد القوى محافظة في فرنسا، لأن أعضاءها كلهم تقريباً كانوا من أثرياء المحامين. وأصبح هؤلاء المحامون، بوصفهم "نبلاء الرداء" منغلقيين بانغلاق نبلاء السيف، "وقرر البرلمان تلو البرلمان قصر المناصب الجديدة التي تحمل النبالة... على الأسر النبيلة فعلاً (83)". وكان برلمان باريس أكثرها غلواً في المحافظة، وباري الأكليروس في معارضة حرية الفكر أو النشر؛ وحرم كتب جماعة الفلاسفة بل أحرقتها أحياناً. وكان قد انحاز إلى الجانسنية التي أدخلت لاهوتاً كلفنياً في الكنيسة الكاثوليكية. وقد لاحظ فولتير أن برلمان تولوز الجانسنية عذب وقتل جان كالاس، وإن برلمان باريس صدق على إعدام لابار، في حين نقضت وزارة شوازيل الحكم على كالاس وحمت الموسوعيين.

وزاد كرسنوف دبومون، رئيس أساقفة باريس، الصراع حدة بين الجانسنيين والكاثوليك التقليديين إذ أصدر أمره إلى الكهنة الخاضعين له بالألا يناولوا القربان إلا للأشخاص الذين اعترفوا على يد كاهن غير جانسنية.

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; تمرد البرلمانات

ومنع برلمان باريس الكهنة من إطاعة هذا الأمر مؤيداً من أكثرية الشعب، واتهم رئيس الأساقفة بأنه يثير انشقاقاً في الكنيسة، واستولى على بعض أملاكه غير الكنسية وأعتبر مجلس الدولة الملكي هذه الأجزاء مصادرة غير قانونية، وأمر البرلمان بالانسحاب من الخلافات الدينية. فأبى، لا بل وضع "اعتراضات كبرى" (4 مايو 1753) كانت إلى حد ما إرهاباً بالثورة: فقد قال الأعضاء أنهم يعلنون ولائهم للملك ولكن "إذا كانت الرعية دين بالطاعة للملوك، فإن هؤلاء يدينون بالطاعة للقوانين (84)". والمعنى الذي تضمنه هذا القول هو أن البرلمان بوصفه حارساً للقانون ومفسراً له، سيقوم بوظيفة المحكمة العليا فوق الملك. وفي 9 مايو أصدر مجلس الدولة أوامر ملكية مخنوقة بنفي معظم أعضاء برلمان باريس من العاصمة. وهبت برلمانات الأقاليم وأهل باريس لمناصرة المنفيين. ولحظ المركز دارجنسون في ديسمبر أن "الباريسيين في حالة انفعال مكثوم (85)". وأمرت الحكومة جنودها بخفر الشوارع وحماية بيت رئيس الأساقفة لخشيتها من فنتنة شعبية. وفي مارس 1754 كتب دارجنسون يقول "كل الاستعدادات تجري لحرب أهلية (86)". ووضع الكردينال دلا روشفوكو حلاً وسطاً ينقذ ماء الوجه؛ فطلبت الحكومة إلى المنفيين أن يعودوا (7 سبتمبر)، ولكنها أمرت البرلمان والأكليروس أن يكفوا عن النزاع. ولكن أحداً لم يطع الأمر، وواصل رئيس أساقفة باريس حملته الجانسية، وواصلها بعنف حمل لويس على نفيه إلى كونفانس (3 ديسمبر): وأعلن البرلمان أن المرسوم البابوي الصادر ضد الجانسينيين ليس قانوناً من قوانين الإيمان، وأمر الكهنة بتجاهله. وتذبذبت الحكومة، وأخيراً أمرت البرلمان بقبول المرسوم البابوي (13 ديسمبر 1756) نظراً لحاجتها إلى سلفة من الأكليروس نعينها على خوض حرب السنين السبع.

وأدار الجدل العنيف رؤوساً كثيرة. ففي 5 يناير 1757 هاجم روبير-فرانسوا داميان الملك في أحد شوارع فرساي؛ وطعنه بمطواة كبيرة،

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; تمرد البرلمانات

ثم لزم مكانه ينتظر القبض عليه. وقال لويس لحراسه المهملين "تحفظوا عليه ولكن لا يؤذوه أحد (87)". واتضح أن الجرح غير ذي بال، وقال المهاجم "لم يكن في نيتي قتلك الملك، ولو شئت لقتلته. وإنما فعلت ما فعلت ليمس الله قلب الملك ويؤثر فيه ليعيد الأمور إلى سيرتها الأولى (88)". وفي رسالة أرسلها من سجنه إلى الملك أعاد القول بأن "رئيس أساقفة باريس هو سبب كل هذه الضجة حول الأسرار المقدسة، لأنه أمسكها بمن يريد تناولها (89)". وقال

أنه قد أثاره ما سمعه في البرلمان من خطب، "ولو أنني لم أدخل قط داراً للعدالة... لما وصلت إلى هذا المكان قط(90)". وقد هاجته هذه الخطب هياجاً حمله على أن يرسل في طلب طبيب ليقصده، ولكن لم يأتي طبيب، ولو أنه قصد (كما قال) لما هاجم الملك(91). وحاكمته غرفة البرلمان الكبرى، وأدانتها، وحكمت عليه، ثم حكمت على أبيه، وأمه، وأخته، بالنفي المؤبد. وعانى داميان ألوان التعذيب التي نص عليها القانون عقاباً لقتله الملوك: فمزق لحمه بكماشات محمية، ورث عليه الرصاص المغلي، ومزقت أوصاله جياذ أربعة (28 مارس 1757). ودفعت نبيلات النساء المال نظير تمكنهن من مشاهدة هذه العملية من مواقع مواتية. أما الملك فأعرب عن اشمئزازه من ضروب التعذيب هذه وأرسل المعاشات للأسرة المنفية.

وأسفر العدوان عن بعض العطف على الملك، وشارك اليهود والبروتستانت في الصلاة من أجل سرعة شفائه، ولكن حين علم الناس أن الجرح لم يكن أكثر من "شكة دبوس" في عبارة فولنير (Pique d'(pingle) ارتد تيار التأييد الشعبي إلى ناحية البرلمان. وبدأ الناس يتنافسون في موضوع الحكومة النيابية وما يقابلها من الملكية المطلقة. كتب دارجنسون يقول "إنهم يرون في هذه البرلمانات علاجاً للأصواب التي يعانون منها... أن الثورة تضطرم تحت الرماد". وفي يونيو 1763 عاد برلمان باريس يؤكد أن "مراجعة البرلمان للقوانين هي أحد القوانين التي لا يمكن انتهاكها دون انتهاك لذلك القانون الذي أوجد الملوك أنفسهم(92)". ومضى برلمان تولوز شوطاً أبعد، فأعلن أن القانون يقتضي "رضاء الأمة الحر الطليق(93)"

صفحة رقم : 12962

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> تمرد البرلمانات

ولكنه عني بلفظ "الأمة" في البرلمانات. وفي 23 يوليو 1763 قدمت هيئة قضائية هامة تدعى محكمة المعوقات يرأسها مالزيرب الشجاع الأمين إلى الملك تقريراً عن فقر الشعب وعن العجز والفساد في إدارة مالية في الدولة؛ ورجته الهيئة "أن يصغي للشعب نفسه عن طريق مندوبيه في اجتماع لمجلس طبقات المملكة(94)". وهذه أول مطالبة صريحة بمجلس الشعب الذي لم يدع منذ 1614.

وفي الصراع الخطر الذي تمخض عن طرد اليسوعيين من فرنسا (1764)(95). اتخذ برلمان باريس موقف الهجوم وفرض رأيه على الملك. وفي يونيو ونوفمبر أرسل برلمان رين، وهو دار القضاء العالي بيريتي، إلى لويس اعتراضات شديدة اللهجة على الضرائب التي فرضها الدوق ديجون الذي كان آنذاك حاكماً على الإقليم. فلما لم يتلق جواباً يرضيه أوقف جلساته، واستقال معظم أعضائه (مايو 1765)، ونشر نائبه العام، لوي رينيه دلاشالوتيه، هجوماً على الحكومة المركزية فقبض عليه وعلى ابنه وثلاثة مستشارين واتهموا بالتحريض على الفتنة. وأمر الملك برلمان رين بمحاكمتهم، فرفض، وأيدت الرفض جميع برلمانات فرنسا يظاها في ذلك الرأي العام. وفي 3 مارس 1766 ظهر لويس أمام برلمان باريس وحذره من الإغضاء عن الفتنة. وأعلن تصميمه على الحكم ملكاً مطلق السلطان.

"في شخصي وحدي تستقر سلطة السيادة، ولي وحدي السلطة التشريعية غير مشروطة ولا مجزأة. وكل النظام العام ينبثق مني. وشعبي وأنا واحد، وحقوق الأمة ومصالحها، الأمة التي يجرؤ البعض على جعلها هيئة منفصلة عن الملك، هي بالضرورة متحدة مع حقوقي ومصالحي، مستقرة في يدي دون غيري(96)".

وأضاف أن الأيمان التي أقسمها لم يقسمها للأمة: كما أكد البرلمان، بل لله وحده. وواصل برلمان باريس دفاعه عن برلمان رين، ولكنه في 20 مارس قبل النظرية التالية رسمياً، باعتبارها "مبادئ أساسية



## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; تمرد البرلمانات

لا مناص منها" وهي "أن السيادة للملك وحده، ولا يُسأل إلا أمام الله... والسلطة التشريعية مستقرة كلها في شخص الملك(97)". وحث شوازيل وغيره الملك على بذل تنازلات متجاوبة فأفرج عن لاشالويته وزملائه المسجونين، ولكنهم نُفوا إلى سانت قرب لاروشيل. ودعي ديجون من بريتي، وأنظم إلى أعداء شوازيل. واستأنف برلمان رين جلساته (يوليو 1769).

ودخل فولتير الصراع بإصداره "تاريخ برلمان باريس بقلم الأبييه بج" عام 1769. وقد أنكر أنه مؤلف الكتاب، وكتب خطاباً ينقده لأنه "آية في الأغلاط والسخف، وجريمة ضد اللغة(98)". ومع ذلك فالكتاب بقلمه. ومع أنه كتبه على عجل فقد دل على ما بذل فيه من بحث تاريخي لا يُستهان به. غير أن النزاهة تعوزه، فهو اتهام طويل للبرلمان باعتباره مؤسسة رجعية قاومت في كل مناسبة التدابير التقدمية- كإنشاء الأكاديمية الفرنسية، والتطعيم ضد الجدري، والإدارة الحرة للقضاء. واتهم فولتير البرلمانات بالتشريع الطبقي، والخرافة، والتعصب الديني. فلقد أدانت أقدم الطابعين في فرنسا، وهلت لمذبحة يوم القديس برتلميو، وحكمت بحرق المرشال دانكر كما تحرق الساحرات. وقال فولتير أنها أنشئت لوظائف قضائية بحتة، وليس لها سلطة التشريع، ولو اتخذت هذه السلطة لأحلت محل أوتقراطية الملك وأليجارية المحامين الأغنياء المتحصنة ضد أي رقابة شعبية. وكان فولتير قد كتب هذه المذكرة المسهية خلال سطوة شوازيل الذي شجعت ميوله الليبرالية الاعتقاد بأن التقدم ميسور أشد ما يكون يسراً علي يد وزير مستنير في ظل ملك مستنير. أما دييرو فلم يوافق فولتير، وقال أن البرلمانات مهما كانت رجعية النزعة فإن مطالبتها بحق الإشراف على التشريع ضابط مرغوب فيه على الاستبداد الملكي(99). وجاءت عودة ديجون إلى باريس بأزمة جديدة. فقد أتهم برلمان رين الدوق بارتكاب عمل محظور، وأدعن لمحاكمة برلمان باريس له على هذه

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; حياة الدولة -&gt; تمرد البرلمانات

التهم، فلما وضح أن الحكم سيصدر بأنه مذنب لجأت مدام دوباري إلى الملك ليتدخل. وأيدها في ذلك المستشار موبو، وفي 27 يوليو 1770 أعلن لويس أن الجلسات نقشي أسراراً للدولة. وعلى ذلك يجب إنهاؤها ثم ألغى شكاوى الفريقيين المتبادلة، وأعلن براءة كل من ديجون و لاشالويته، وأمر جميع أطراف النزاع بالكف عن إثارة الشعور العام. وتحدى البرلمان هذه الأوامر باعتبارها تدخلاً تعسفياً في سير العدالة المشروعة، وأعلن أن الشهادة أضرت ضرراً بليغاً بشرف ديجون، وأوصى بوقفه عن ممارسة جميع وظائفه بصفته نبياً حتى تثبت براءته بالطريقة القانونية الواجبة. وفي 6 سبتمبر أصدر البرلمان قراراً (Art(t) كان فيه اختبار بقوة الملك: "أن تعدد أعمال سلطة مطلقة تمارس في كل مكان ضد روح ونص القوانين التأسيسية للملكية هو برهان دامغ: على أن هناك نية مبيتة لتغيير شكل الحكومة، وإلحاح الأعمال الشاذة لسلطة تعسفية محل سلطان القوانين المتعادل على الدوام(100)".

ثم أجل البرلمان جلساته حتى 3 ديسمبر. وأستغل موبو هذه المهلة ليعد دفاعاً متصلباً عن السلطة الملكية. ففي 27 نوفمبر أصدر بتوقيع الملك مرسوماً سلم بحق الاعتراض ولكنه حرم أي رفض لمرسوم يجدد بعد سماع الاعتراضات. ورد البرلمان بأن التمس من الملك أن يسلم مشيري العرش الأشراف لانتقام القوانين (101). وفي 7 ديسمبر دعا لويس البرلمان إلى فرساي، وفي جلسة رسمية لـ(سرير العدالة) أمر الأعضاء بأن يوافقوا على مرسوم 27 نوفمبر ويسجلوه. فلما عاد القضاة إلى باريس قرروا الكف عن أداء جميع وظائف البرلمان حتى يسحب مرسوم نوفمبر. وأمرهم لويس باستئناف جلساتهم، فتجاهلوا الأمر. وحاول شوازيل إقرار السلام في ربوع الوطن لخوض حرب أنجح خارجه، فأقاله لويس، وهيمن موبو الآن على مجلس الدولة بينما راحت دوباري تحوم حول الملك، وأرته لوحة فاندريك التي رسمها لتشارلز

صفحة رقم : 12965

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> تمرد البرلمانات

الأول ملك إنجلترا؛ وحذرت من مصير كمصيره قائلة "إن برلمانك أيضاً سيضرب عنقك" (102). وفي 3 يناير 1771 أمر لويس ثانية بقبول مرسوم نوفمبر. ورد البرلمان بأن المرسوم ينتهك قوانين فرنسا الأساسية. وفي 20 يناير فيما بين الساعة الواحدة والرابعة صباحاً سلم جنود الملك المسلحون لكل قاض "إدارة ملكية" تخيره بين الطاعة أو النفي من باريس. وأكدت الكثرة الساحقة حبهم للملك، ولكنه ظلوا على عنادهم. وعليه ففي اليومين التاليين نفي 165 عضواً في برلمان باريس إلى أنحاء شتى في فرنسا. وهتف الشعب لهم وهم يبرحون قصر العدالة. وتحرك الآن موبو ليحل منظمة قضائية جديدة محل البرلمانات. فأنشأ في باريس بمرسوم ملكي محكمة عليا تتألف من مجلس الدولة وبعض الفقهاء اللينيين؛ وأنشأ في آراس، وبلوا، وشالون؛ وكليرمون-فران، وليون وبواتييه، "مجالس عليا" لتكون محاكم استئناف للأقاليم. وأصلحت بعض المفاصد القضائية، وأوقف بيع الوظائف، وتقرر أن يكون التقاضي من الآن بالمجان. وهلل فولتير للإصلاح، وتنبأ في تهور "إنني واثق تمام الثقة أن المستنشر سيحقق نصراً كاملاً، وأن الشعب سيحب هذا الانتصار" (103). ولكن الشعب لم يستطع أن يتقبل في رضى هدم مؤسسة عريقة القدم كالبرلمانات فما من شيء يكثر الناس من إدانته ويعمق حبه له كالماضي. واحتقرت معظم الجماهير المحاكم الجديدة لأنها أدوات إضافية تستعين بها الأوتوقراطية الملكية. وحزن ديرو على نهاية البرلمانات وإن لم يكن مخدوعاً فيها، فقال إن ذلك "خاتمة الحكم الدستوري. ففي لحظة واحدة قفزنا من الحالة الملكية إلى أشد حالات الاستبداد" (104). وأعرب أحد عشر نبياً من نبلاء المملكة، بل بعض أعضاء الأسرة المالكة، عن عدم موافقتهم على المحاولة التي يبذلها موبو لاستبدال البرلمانات. ولم ينشب بين الشعب هياج واضح، ولكن كلمات الحرية، والقوانين، والشرعية، التي ترددت كثيراً في البرلمان مؤخراً أخذت تتداولها الألسن. واصطبغت الهجائيات الموجهة للملك الفاسق بعنصر جديد من الجرأة والمرارة، ودعت الملصقات الدوق أورليان لتزعم الثورة.

صفحة رقم : 12966

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> تمرد البرلمانات

وتورطت البرلمانات كارهة تقريباً، وبرغم نزعتها المحافظة، في خميرة من الأفكار الثورية. وكان مقالاً روسو، وشيوعية موريللي، ومقترحات مابلي والاجتماعات السري لجماعة الماسون الأحرار، وفضح الموسوعة للمفاسد المتفشية في الحكومة والكنيسة، وسيل النشرات المتداولة في أرجاء العاصمة والأقاليم كلها كانت تعارض معارضة عنيفة دعوى السلطة المطلقة والحق الإلهي التي يدعيها ملك حامل عرييد. وهكذا أخذ الرأي العام ( M. Tout Le Monde) يتحرك بوصفه قوة في التاريخ.

كان أنقل النقد إلى عام 1750 يقع على الكنيسة، ولكنه بعد ذلك راح يقع بازدياد على الدولة بعد أن حفزه حظر الموسوعة. كتب هوراس ولبول من باريس في أكتوبر 1765:

"لم يعد للضحك سوق هنا.. يا للقوم الطيبين، إن وقتهم لا يتسع للضحك، فواجبهم الأول هو هدم الله والملك؛ ويشارك الرجال والنساء، والعظماء والحقراء في هذا الهدم من كل قلوبهم.. أتعلم من هم "الفلاسفة" أو ما مدلول اللفظ هنا؟ أولاً هو يشمل كل إنسان، ثانياً يعني الرجال الذين يهدف الكثيرون منهم، بعد أن أقسموا على خوض الحرب على الملكية، إلى هدم الدين كله وأكثر من هؤلاء إلى القضاء على سلطة الملك" (105).

وفي هذا الحكم مغالاة بالطبع، فمعظم جماعة الفلاسفة (باستثناء بيدرو على الأخص) كانوا أنصار للملكية يتجنبون الثورة. وهاجموا النبلاء وكل الامتيازات الوراثية؛ وانتقدوا عشرات المفاسد وطالبوا بإصلاحها؛ ولكنهم كانوا يرتعدون فرقا من فكرة إعطاء السلطة كلها للشعب (106). ومع ذلك كتب جريم في "رسائله" في يناير 1768 يقول: "إن السأم العام من المسيحية، الذي يتضح في جميع الأجزاء، لا سيما في الدول الكاثوليكية؛ والقلق الذي يهيج عقل الناس بشكل غامض ويدفعهم إلى مهاجمة المفاسد الدينية والسياسية كل هذا ظاهرة يتسم بها قرننا، كما اتسم القرن السادس عشر بروح الإصلاح، وهو ينذر بثورة داهمة لا مفر منها" (107).

صفحة رقم : 12967

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> رحيل الملك

10- رحيل الملك

لم يؤت لويس الخامس عشر كما لم يؤت من قبله لويس الرابع عشر فن الموت في الوقت المناسب. لقد كان عليماً بأن فرنسا تترقب زواله، ولكنه لم يطق التفكير في الموت. كتب السفير النمساوي "أن الملك يبدي الملاحظات بين الحين والحين عن سنه، وصحته والحساب العسير الذي لا بد أن يقدمه يوماً ما للخالق الأعظم" (108). وقد يتأثر لويس تأثراً عابراً باعتكاف ابنته لويزماري في دير كرملية تكفيراً عن ذنوب أبيها فيما زعموا؛ وقيل إنها كانت تدعك أرض الحجار وتغسل الملابس. فلما ذهب لزيارتها وبخته على عيشته وتوسلت إليه أن يطرد دوباري ويتزوج الأميرة دلامبال ويصلح ما فسد بينه وبين الله.

وقد مات عدة أصدقاء له في أخريات عهده، وقع اثنان منهم صريعين تحت قدميه بهبوط في القلب (109). ومع ذلك بدا أنه يجد لذة رهيبية في تذكير الشيوخ من حاشيته بقرب موتهم. قال مرة لأحد قواده. "إنك تشيخ يا سوفريه، فأين تريد أن تدفن؟" فأجاب سوفريه "عند قدمي جلالتك يا مولاي". وقيل أن هذا الجواب "جعل الملك واجماً كثير التفكير (110)". وقالت مدام دؤوسيه أنه "لم يُخلق رجل أكثر منه اكتئاباً وغماً (111)".

وكان موت الملك انتقاماً طال انتظاره، انتقمه على غير عمد جنس النساء الذي هام به وحط من كرامته، فحين لم تكف حتى دوباري لإشباع شهوته، جاء إلى فراشه بفتاة يبلغ من حداثتها أنها لم تكد تبلغ سن الزواج. وكانت تحمل جراثيم الجدري، فنقلت عدواه إلى الملك. وفي 29 إبريل 1774 بدأ هذا المرض يهاجمه. وأصررت بناته الثلاث على ملازمته وتمريضه مع أنهم لم يسبق لهم التحصين ضد الجدري (وقد أصيب بالمرض جميعهن ولكنهن شفين) وكن يتركنه في الليل فتحل دوباري محلهن. غير أن الملك صرفها برفق حين رغب في تناول الأسرار المقدسة في 5 مايو قائلاً: "أعلم الآن أنني مريض مرضاً خطيراً. أن فضيحة متر يجب ألا تتكرر."

صفحة رقم : 12968

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> حياة الدولة -> رحيل الملك

أني أدين بنفسي لله ولشعبي. وإذن يجب أن نفترق. فذهبي إلى قصر الدوق ديجون الريفي في روبيل وانتظري أوامر جديدة. وصدقيني إنني سأظل على الدوام أحتفظ لك بشعور المحبة العميقة(112)". وفي 7 مايو صرح الملك في حفل رسمي أمام البلاط بأنه نادم على ما فرط منه من فضائح أمام رعاياه، ولكنه أصر على أنه لا يدين بأي مؤاخذة على سلوكه إلا لله وحده(113). وأخيراً رحب بالموت. فقال لابنته لم أشعر في حياتي بمثل هذه السعادة(114). ولفظ أنفاسه في 10 مايو 1774 وهو في الرابعة والسنتين، بعد أن حكم تسعة وخمسين عاماً. وحمل جثمانه الذي لوث الهواء على عجل إلى المدافن الملكية في سان دنيس دون أبهة وسط تهكم الجميع الذي اصطف على الطريق. واعتببت فرنسا مرة أخرى بموت ملكها كما اعتببت من قبل عام 1715.

صفحة رقم : 12969

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الفضيلة والكياسة

الفصل الرابع

فن الحياة

يقول تاليران "لا يعرف لذة العيش من لم يعيش حوالي سنة 1780". بالطبع شريطة أن يكون من أبناء الطبقات العليا، وأن تكون مجرداً من أي ميول للفضيلة. وتعريف الفضيلة صعب، فكل عصر يكتف تعريفه وفق طبعه وأثامه. وقد ظل الفرنسيون في القرون الطوال يخفون من وطأة الاقتصار على الزوجة الواحدة بالزنا، كما تخفف منها أمريكا اليوم بالطلاق. والرأي الغالي (الفرنسي) يجد الزنا المعتدل أقل إضراراً بالأسرة-أو بالأبناء على الأقل من الطلاق. على أية حال ازدهر الزنا في فرنسا القرن الثامن عشر، وكان الناس يغضون عنه عموماً. وأية ذلك أن ديدرو حين أراد في موسوعته أن يفرق بين "الارتباط" و"التعلق" ضرب هذا المثال: "أن الرجل يرتبط بزوجته، ولكنه يتعلق بخليته(2)". ويقول معاصر لذلك الجيل "أن خمسة عشر نبياً من بين العشرين الذين تراهم في البلاط يعاشرون نساء لم يتزوجهن(3)". وكانت الظفر بخليته أمراً لا غنى عنه للمركز الاجتماعي كحيازة المال سواء بسواء. أما الحب فكان شهوانياً في غير موارد: صورته بوشيه في صورة وردية، وخلق عليه فرجونار الأناقة والرشاقة، أما بوفون فقال في صراحة وحشية "ليس في الحب شيء طيب إلا الجسد(4)".

### قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الفضيلة والكياسة

على أن الحب الأنبل كان يظهر هنا وهناك، حتى في "كريبون" الابن(5)، ومن جماعة الفلاسفة جرؤ هلفتيوس على الهيام بزوجته، وظل دالامبير وفيلاً لجولي دليسيناس طوال تلميحات لحنها الذي أمتعها. وقد أضطلع جان-جاك روسو في هذا الجيل بإصلاح للأخلاق يدعو إليه رجل واحد. وهل نشيد كذلك بفضل روايات صموئيل رتشاردسن؟ وتحلت بعض النساء بالفضيلة على سبيل الموضة(6) Fashion، ولكن بعضهن تقبلن في عرفان دعوة بعثت من مرفدها، دعوة العفة قبل الزواج، والوفاء بعده، منقذة لهن من هوان استخدامهن معايير لكل زير نساء، على أية حال لم يعد الاقتصار على الزوجة الواحدة شارة تحجل حاملها. فقد اكتشف الفاسقون من جديد بعد أن تزوجوا مباحج قديمة في الحياة الأسرية، وأنه خير للرجل أن يسبر أغوار الوحدة، من أن يظل طوال حياته يعبث بسطح التعدد والتنوع. واستقرت نسوة كثيرات بدأت حياتهن بنزق وطيش كأنهن سطوح لا عمق فيها-حين أنجن، وأرضع بعضهن أطفالهن حتى قبل أن يحثهن على ذلك روسو، وكثيراً ما كان هؤلاء الأطفال يردون هذا الصنيع بعد أن ترعرعوا في ظل محبة الأم، باهتمام البنين بوالديهم. ومن أمثلة ذلك أن المرشالة دلكنسبورج أصبحت زوجة مثالية بعد شبابها المغامر، وأخلصت لزوجها وهي ترعى روسو في حنان كأنها أمه. وحين مات الكونت دموريا (1781) بعد أن خدم لويس الخامس عشر والسادس عشر وعانى الأم النفي الطويل فيما بين فترتي وزارته، ذكرت زوجته أنهما "أنفقا معاً خمسين عاماً دون أن يفترقا يوماً واحداً"(7). ونحن نسمع الكثير جداً-والمؤلفان قد تكلموا كثيراً جداً عن النساء اللاتي أفلحن في دخول التاريخ بفضل حننهن بعهد الزوج، ولا نسمع إلا القليل جداً عن أولئك النسوة اللاتي امتنعن عن الخيانة حتى ولو خانهن رجالهن. مثال ذلك أن الأنسة كروزا، التي خطبت وهي في الثانية عشرة للرجل الذي أصبح فيما بعد الدوق دشوازيل، احتملت في صبر هيامه بأخته الطموح، ورافقتة في منفاه؛ فأشاد بقداستها حتى ولبول "المرقع". ولم تفتقر محبة الدوقة درشليو لزوجها طول خياناته الزوجية، وكانت شاكرة لأن القدر سمح لها بأن تموت بين ذراعيه(8).

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; الفضيلة والكياسة

وظلت الانحرافات، والمطبوعات الفاجرة، والبغاء على ما عهدنا. كان القانون الفرنسي ينص على الإعدام عقاباً للواط، وحدث فعلاً أن لوطيين أحرقا في ميدان جريف عام 1750 (9). ولكن القانون كان عادة يتجاهل اللواط الاختياري بين البالغين (10). وكانت الأخلاق الاقتصادية على حالها اليوم، وليلاحظ القارئ الفقرة الواردة في كتاب روسو "إميل" (11). (1762) عن غش الطعام والخمور. وكانت الأخلاق السياسية على حالها اليوم، كان هناك الكثيرون من خدام الشعب المخلصين (مالزيرب، وطورجو، ونكير)، ولكن كثيرون أيضاً ممن وصلوا إلى مناصبهم بالمال أو الاتصالات، وأثروا في المنصب متجاوزين في ذلك نص القانون. وعاش كثيراً من النبلاء العاطلين عيشة الترف على دماء فلاحهم، ولكن بر الحكومة الأفراد بالناس كان كثيراً.

وكان فرنسيو القرن الثامن عشر في جملتهم شعباً لطيفاً رغم ناموس من الأخلاق الجنسية انتهك المعايير المسيحية بصراحة. فأنظر كم من الناس خفوا لنجدة روسو وتعزيتته رغم صعوبة إدخال البهجة على نفسه؛ وكثيراً ما كان هؤلاء القوم الكرام ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية التي سبها. وكانت الشهامة قد اضمحلت في علاقة الرجل بالنساء، ولكنها ظلت حية في معاملة الضباط الفرنسيين لأسرى الحرب الذين من طبقتهم. كتب سموليت الخصم النزق في رحلة له بفرنسا عام 1764 يقول: "إني أخص الضباط الفرنسيين بالاحترام لشهامتهم وبسالتهم، ولاسيما للروح الإنسانية السمحة التي يعاملون بها أعداءهم، حتى وسط أهوال الحرب (12)". وقد صور جويبا قسوة الجنود الفرنسيين على العامة الأسباب في حروب نابليون، ولكنه كان في أغلب الظن مبالغاً. وما من شك في أن الفرنسيين كانوا يستطيعون أن يكونوا غاية في القسوة، ربما لأنهم تعلموا القسوة من الحرب وقانون العقوبات، كانوا صخابين يميلون للمشاجرات على نحو ما يفعل طلاب الكليات الذين يهاجمون خصومهم بالمدى، وللمشاعبات في الشوارع بديلاً عن الانتخابات، فيهم عنف ونهور، يندفعون إلى الخير أو الشر دون أن يضيعوا وقتاً في التروي. وفيهم شوفينية (غلو في الوطنية) لا يستطيعون أن يفقهوا لم كان سائر

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; الفضيلة والكياسة

البشر من الهمجية بحيث يتحدثون بلغة غير فرنسية. وقد أبت مدام دنيس أن تتعلم الكلمة الإنجليزية "الخبز" -لم لا يستطيعون كلهم أن يقولوا Pain؟ (13) ولعلمهم أحبوا مجد وطنهم أكثر مما أحبه أي شعب آخر. وعمّا قليل سيموتون بالألوف المؤلفة وهم يهتفون "يحى الإمبراطور".

وقد بز الفرنسيون بالطبع غيرهم من الشعوب في آداب السلوك. صحيح إن تقاليد الأدب التي أرسيت في عهد لويس الرابع عشر لوئها النفاق، والكليبية، والسطحية، ولكنها ظلت في جوهرها حية، وأضفت على الحياة بين الطبقات المتعلمة كياسة لا قدرة لأي مجتمع أن يضار عها اليوم. قال كازانوفا "إن في الفرنسيين أدباً جملاً وتلطفاً كثيراً يجذب إليهم المرء للتو" ولكنه أضاف أنه لم يستطع قط أن يثق بهم(14).

وقد تفوقوا على غيرهم من الشعوب في النظافة، فأصبحت في المرأة الفرنسية إحدى الفضائل الأساسية التي تمارسها حتى الموت. وكان من حسن الأدب نظافة الملابس وأناقته. وكان رجال الحاشية ونساؤها يخرجون أحياناً على أصول الذوق السليم بالإسراف في اللبس الفاخر أو الغلو في تصفيف شعورهم. وأرسل الرجال شعورهم في ضفائر، وهي عادة استهجنتها المرشال دساكس لخطرها في الحرب لأنها تمكن العدو من صاحب الشعر؛ ثم يبديرون الشعر بنفس العناية التي يبدير بها نساؤهم شعورهن. وغالت النساء في رفع شعورهن حتى خشين الرقص مخافة أن يلتقطن النار من الثريات. وقد قدر زائر فرنسي أن ذقن إحدى السيدات الفرنسيات يقع تماماً في منتصف المسافة تماماً بين قدميها وقمة شعرها(15). وجنى الحلاقون الأموال الطائلة بكثرة تغيير موضات الشعر. ولم تمتد النظافة إلى شعر المرأة، لأن تصفيفه كان يستغرق الساعات، واحتفظت جميع النساء-إلا أشدهن غلواً في التبرج-بنفس التسريحة أياماً دون أن يمسه مشط. وحملت بعض السيدات مكاشط من العاج، أو الفضة، أو الذهب، يحككن بها رؤوسهن في رشاقة ساحرة. وكان ماكياج الوجه معقداً تعقيده اليوم. كتب ليوبولد موتسارت إلى

صفحة رقم : 12973

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الفضيلة والكياسة

زوجته من باريس في 1763 يقول: "تسألين هل النساء الباريسيات جميلات. ولكن كيف السبيل إلى معرفة هذا إذا كن مزوقات كعرائس نورمبرج، ممسوخات بهذه الحيلة المنفرة نسخاً تعجز معه عينا الألماني الساذج عن التعرف على امرأة ذات جمال طبيعي إذا رآها(16)؟" وكان النساء يحملن مساحيق الزينة معهن، ويحملن بشرتهن من جديد علانية من غير حياء شأنهن اليوم. وقد حمزت مدام دموناكو وجهها قبل أن تتركب لتقطع الجيلوتين رأسها. وكانت جثث الموتى تجمل، وتبدر، وتحمر؛ كما في زماننا. أما ثياب النساء فكانت مزيجاً متحدداً من الإغراءات والمعوقات: فيه فتحات النحور الواطئة، والصدارات المخرمة، والجواهر التي تخطف الأبصار، والتنانير الكبيرة الفضفاضة، والأحذية العالية الكعوب المصنوعة عادة من التيل أو الحرير. وانتقد بوفون وروسو وغيرهما لبس المشدات، ولكنها ظلت ضربة لازب حتى أطاحت بها الثورة.

وكان تنوع الحياة الاجتماعية ومرحها من مفاتن باريس. فكانت مقاهي بروكوب، ولا ريجانس، وجرادو، تستقبل رجال الفكر والثوار، والأثرياء، من الرجال الباحثين عن اللهو، والنساء الباحثات عن الرجال. أما نجوم الأدب، والموسيقي، والفن، فكانوا يسطعون في الصالونات. وأبهج أقطاب النبالة أو الثروة فرساي وباريس بالمآدب والاستقبالات والمراقص. وكانت الفنون بين عليية القوم تشتمل على الأكل والحديث. وكان المطبخ الفرنسي مثار حسد أوربا. وكان الحديث الفرنسي الذكي الطريف قد بلغ الآن من الصقل مبلغاً استنزف فيه كل المواضيع، فقام الضجر على الإشراف، وضمحل فن الحديث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ فرفعت الخطابة من حرارته فوق ما ينبغي، وسبق المتكلمون السامعين، وابتذلت النكتة الذكية نتيجة إسرافها ولدغاتها المستهترة. وقد ذكر فولتير-الذي كان هو ذاته قادراً على اللدغ-باريس بأن النكتة إذا خلت من اللياقة كانت الفجاجة بعينها(17)، وذهب لاشولتيه إلى أن "الولع بالتطرف...أقصى العلم والثقافة الصحيحة عن الصالونات(18)".

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; الفضيلة والكياسة

وكان الناس يتمشون الهويانا في الحدائق العممة-التي لقيت النظافة والتشذيب وحفلت بالتماثيل-أو يتبعون أطفالهم أو كلابهم، والفتيان الطائشون المرحون بطاردون الصبايا البارعون في التراجع عديم الجدوى. وأغلب الظن أن حدائق التويلري كانت يومها أبدع منها الآن فلنستمع إلى وصف مدام فيجيه-لويرون:

"كانت دار الأوبرا قريبة في تلك الأيام؛ على حافة الباليه-رويال. وكان التمثيل في الصيف ينتهي في الثامنة والنصف؛ فيخرج عليه القوم حتى قبل النهاية للتمشي في أرجاء الحديقة. وراج بين النساء أن يحملن طاقات زهر كبيرة كانت هي والبودرة المعطرة التي في شعرهن تملأ الجو عبيراً بكل معنى الكلمة. وأنا أعلم أن هذه الاجتماعات كانت قبل الثورة تمضي حتى الثانية صباحاً ثم كانت هناك حفلات موسيقية على ضوء القمر في الهواء الطلق....وكان يحتشد في المكان جمع كبير على الدوام(19)".

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; الموسيقى

## 2- الموسيقى

اتخذت فرنسا من الموسيقى جزءاً من "مرحها الباريسي" فهي لم تعبأ بمنافسة ألمانيا في القداسات والكورالات الجادة، وقد تجاهلت مونتسارت تقريباً حين وفد على باريس، ولكنها نسيت التعصب لوطنيتها حين افتتنت أذنانها بالألحان الإيطالية. وجعلت من موسيقاها "مهرجانات ترفيه"، وتخصصت في ألوان تناسب الرقص أو تذكر به كالكورانت، والسرينده، والجيج، والجافوت، والمنوبت. وكانت المرأة المحور الذي تدور حوله الموسيقى كما دارت أخلاقها، وعادتها، وفنونها، وكثيراً ما اتخذت أسماء تذكر بصورتها كالساحرة، والساذجة، وميمي وكاروين دستير.

وأحب القوم الأوبرا التهرجية في فرنسا، كما أحبوها في إيطاليا، أكثر من الأوبرا الجادة قبل أن يأتي جلوك (1773). وكانت فرقة سميث نفسها الأوبرا كوميك قد استقرت في باريس عام 1714؛ وفي 1762



## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الموسيقى

اتحدت مع فرقة الكوميدي الإيطالية. وفي 1780 انتقلت هذه الأوبرا كوميدي الموسعة إلى مقر دائم لها في صالة فافار. أما صاحب الفضل في ازدهارها فهو فرانسوا أندريه فيليدور، الذي جاب أوربا بطلاً من أبطال الشطرنج، وألف خمساً وعشرين أوبراً، كلها تقريباً هزلية، مثل "سانشوبانسا"، "وتوم جونس" ولكن فيها ذوق سليم وفن رفيع. وقد نسيت الآن أوبراته، ولكن "دفاع فيليدور" و"تراث فيليدور" ما زال يذكران بوصفهما نقلتين كلاسيكيتين في لعبة الشطرنج وكان الباليه فاصلاً محبباً يتخلل الأوبرا الفرنسية؛ هنا وجدت الرشاقة الفرنسية مجالاً آخر؛ وغدت الحركة شعراً، وقد كتب جان جورج نوفير، أستاذ الأوبرا في دار أوبرا باريس، رسالة كانت يوماً ما مشهورة عن ألحان الرقص -"رسائل في الرقص والباليه" (1760)، وقد مهدت الطريق لإصلاحات جلوك بدعوتها إلى الرجوع للمثل الإغريقية في الرقص، بما فيها من طبيعة الحركة، وبساطة اللباس، وتأكيد على الدلالة الدرامية لا الأشكال التجريدية أو براعات العازفين.

وأصبحت الحفلات الموسيقية العامة الآن جزءاً من الحياة في جميع مدن فرنسا الكبرى. ففي باريس ضربت "الفرقة الموسيقية الروحية" (التي أنشئت بالتوبلري في 1725) مثلاً ربيعاً في الموسيقى الآلية. وبينما كانت الأوبرا كونيك تمثل مسرحية برجوليزي "لاسيرفا يادورنا" كانت فرقة الكونسير تعزف ترنيمه "ستابات ماتر" (وهي ترنيمه لاتينية عن حزن مريم على المسيح المصلوب) التي أحسن الجمهور استقبالها فطلت تتكرر سنوياً حتى عام 1800(20). وكانت لفرقة الكونسير الفضل في تحديد هاندل، وهيدن، وموتسارت، وجوملي، ويتشيني، والباخين، إلى الجماهير الفرنسية، وإتاحة فرصة الظهور لكبار عازفي ذلك العهد.

وقد أجمع هؤلاء العازفون الزائرون على أمر واحد، هو تخلف فرنسا في الموسيقى عن ألمانيا والنمسا وإيطاليا، وشاطرهم جماعة الفلاسفة هذا الحكم. فكتب جريم (وهو ألماني) "من الأسف أن القوم في هذا البلد

صفحة رقم : 12977

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الموسيقى

لا يفهمون من الموسيقى غير القليل جداً(21)". وكان يستثني الأنسة فل، التي تغني بحنجرة بدیعة. ووافق جريم روسو وديدرو على طلب "الرجوع إلى الطبيعة" في الأوبرا، وترجم ثلاثته الحزب الإيطالي في "حرب المهرجين" تلك التي كانت قد بدأت بتقديم أوبرا تهرجية مثلتها فرقة إيطالية في باريس. وقد سبقت الإشارة إلى هذا الجدل الذي نشب بين المذهبين الموسيقيين الفرنسي والإيطالي، ولم يكن قد انتهى بعد، فمزال ديدرو يخوض حرب المهرجين في قصته "ابن أخي رمو"، وفي "حديث ثالث حول الابن الطبيعي" (1757) وطالب بمنقذ يخلص الأوبرا الفرنسية من الخطب الطنانة والأساليب المفتعلة "ألا فليقدم ذلك الذي عليه أن يعرض المأساة الصحيحة، والملهاة الصحيحة؛ عن المسرح الغائي؛ وضرب مثلاً لنص صالح "إفجينا في أوليس" لبوربيديس(22). ترى هل سمع هذا النداء جلوك، الذي كان يومها في فينا؛ أما فولتير فقد كرره في 1761 متنبئاً:

"أننا نأمل أن يظهر عبقرى أوتي من القوة ما يحول بين الأمة عن هذه الآفة (آفة التصنع والتكلف) ويضفي على الإخراج المسرحي... الكرامة والروح الخلقية التي يفتقر إليها الآن... أن سيل الذوق الفاسد متدفق؛ وهو يغرق على غير

وعى منا ذكرى ما كان يوماً ما مجد هذه الأمة. ولكنني أكرر ثانية: يجب إرساء الأوبرا على أساس مختلف؛ حتى لا تعود مستأهلة لذلك الاحتقار الذي تنتظر به إليها كل أمم أوربا(23)".  
وفي 1773 وصل جلوك إلى باريس، وفي 19 إبريل 1774 قاد هناك أول أداء فرنسي "لافجينيا في أوليس". ولكن هذه القصة يجب إرجاؤها إلى حينها المناسب.

صفحة رقم : 12978

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> المسرح

3- المسرح

لم تنتج فرنسا في هذه الفترة تمثيلات تتحدى النسيان-ربما باستثناء بعض التمثيلات التي بعث بها فولتير من ليدليس أو فرنيه. ولكن فرنسا منحت

صفحة رقم : 12979

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> المسرح

الدراما كل تشجيع سواء في العرض أو الاستحسان. ففي 1773 أقام فكتور لوي في بوردو أجمل مسرح في المملكة، له رواق فخم من الأعمدة الكونية، ودريزين كلاسيكي، وزخارف منحوتة. أما الكوميدي-فرانسيز، التي أقر جاريك بأنها خير الفرق التمثيلية في أوربا، فقد أنزلت "التياتر-فرانسيز" الذي شيد عام 1683 في شارع فوس، بسان-جرمان-دي-بريه: ثلاثة صفوف من الشرفات في مستطيل ضيق فرض الإلقاء الخطابي وقرر الأسلوب الخطاب للتمثيل في فرنسا. وعرضت مئات الأسر مسرحيات خاصة، من فولتير في فرنيه إلى الملكة في تريان-حيث لعبت ماري أنطوانيت دور كولين في مسرحية روسو "قسيس القرية" وحيث كان "أكثر من عشر نساء من علية القوم يمثلن ويغنين خيراً من أي ممثلات ومغنيات في الملهى"(24) ونبتت في كل مكان في فرنسا "مسارح صغيرة". من ذلك أن ديراً برناردياً، قابلاً في غابات باريس بنى مسرحاً لرهبانه "دون علم من المتعصبين وأصحاب العقول الضيقة" (كما قال أحدهم).

ولمع نجوم الكوميدي-فرانسيز فوق ربوع فرنسا رغم منافسة الفرق الهاوية. وقد رأينا كيف أقبل أهل جنيف وفرنيه ليروا الممثل لوكان يمثل لفولتير في شاتلين. أما اسمه الحقيقي فهو هنري-لوي كان Cain، (قابيل) ولكن هذا كان لقباً ملعوناً غيره وله العذر في تغييره. كذلك لم يجلب له وجهه الحظ، وقد استقرت الأنسة كليرون فترة حتى تأنس إليه ولو

كان ذلك في تمثيلته، وكان فولتير قد أكتشف مقدرته في حفلة تمثيل للهواة، وعلمه، ووجد له مكاناً في التياتر - فرانسيه. وفي 14 سبتمبر 1750 استهل لوكان حياته المسرحية بدور تيطس في مسرحية فولتير "بروتس"، وظل طوال جيل بعد ذلك يمثل دور البطل في مسرحيات فولتير. وأحبه الشيخ الغضوب إلى النهاية. على أن أحب من اعتلى مسرح فولتير إلى القلوب كانت الأنسة كليرون (بعد أن توفيت أدريين لكوفير) وكان اسمها قانوناً كليرون-جوزيف إيبوليت ليريس دلاتور. ولدت عام 1723 دون زواج شرعي بين أبيها.

صفحة رقم : 12980

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> المسرح

ولم يتوقع أهلها أن تعيش، ولكنها عمرت إلى الثمانين-وما هذا العمر المديد بالشيء الذي تغبط عليه دائماً بطلات المسرح. ولم يرَ أهلها أنها تستحق عناء التعليم، ولكنها تسللت إلى التياتر-فرانسيه، وسحرتها المناظر والخطب المسرحية، ولم تتغلب قط تماماً على الميل للخطابة حتى وهي في نشوة الحب. وأعلنت أنها ستحترف التمثيل، فهددتها أمها بأنها ستكسر ذراعيها ورجليها إن هي مضت في إنفاذ هذه النية الأثمة، (26) ولكنها أصرت، وانضمت إلى فرقة تمثيلية متنقلة. وسرعان ما تخلقت بأخلاق مهنتها. "إنني بفضل موهبتي، وجمال، وسهولة الاتصال بي رأيت عدداً هائلاً من الرجال يركعون تحت قدمي، بحيث استحال عليّ وقد أوتيت قلباً رقيقاً بطبعه... أن أمتنع عن الحب" (27). فلما عادت إلى باريس فتتت المسيو دلا بولنبيير، وقد استمتع بها ثم استخدم نفوذه ليحصل لها على مكان في دار الأوبرا. وبعد أربعة شهور استطاعت دوقه شاتورو، خليفة الملك آنذاك: أن تدخلها فرقة الكوميدي فرانسيز. وطلبت إليها الفرقة أن تختار الدور الذي ستمثله أول مرة، متوقعة منها أن تجري على السنة المعهودة، فتختار دوراً صغيراً، ولكنها اقترحت أن تمثل دور فيدر، وعارضت الفرقة، ولكنها تركتها تنفذ مشيئتها، وتكلفت مغامرتها بالنصر. وبعدها غدت نجم الأدوار المأساوية التي لم ينافسها فيها غير الأنسة دومنيل. وذاعت شهرتها بالفسق المقترن بشهوة الاقتناء. كانت ترفه عن لفيف من النبلاء؛ وتتقاضى منهم أجراً طيباً، وتجمع مكاسبها، ثم تعطي كثيراً منها لعشيقها المفضل الشفاليه دجوكور، الذي كان يحرر مقالات في الاقتصاد للموسوعة. كذلك دفعت ثمناً لملاطفة مارمونتل، الذي سنلتقي به عما قليل مؤلفاً لكتاب "الحكايات الخلقية". تأمل جانب المرأة في هذا الحب في خطابها له: "أمكن أنك لم تعرف أي معاناة سببتها لي (على غير عمد منك، ولكنني كابدتها رغم ذلك)، وأن هذه المعاناة ألزمتني الفرائش ستة أسابيع وأنا في خطر كبير؟ لا أستطيع أن أصدق أنك كنت عليماً بهذا، وإلا لما ذهبت في صحبة بينما الناس جميعاً يعرفون ما كنت فيه(28)". ومع ذلك ظلت هي ومارمونتل صديقين حميمين ثلاثين عاماً.

صفحة رقم : 12981

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> المسرح

وهو الذي حملتها انتقاداته مقترحاته على أن تحدث في التمثيل حدثاً، ذلك أنها كانت إلى عام 1748 تجري على أسلوب ممثلي التياتل-فرانسيه في الحديث المفتعل العاطفي، والإيماءات الفخمة، والانفعالات المرتعدة، أما مارمونتيل فقد وجد هذا أمراً غير طبيعي يمجج الذوق. وكانت كليرون قد قرأت كثيراً وسط غرامياتها، وأصبحت من أفضل نسا جبلها تعليماً، وأدخلتها شهرتها ورجاحة عقلها حظيرة المجتمع المتقف، وأدركت أن أفرغ الطبول هو أعلاها صوتاً. وفي عام 1752 أكرهتها إصابة بالزهرى على اعتزال المسرح حيناً. فلما أبلت قبلت عقداً بإحياء خمس وثلاثين حفلة في بوردو. روت أنها في أول ليلة مثلت فيها هناك لعبت دور فيدر بالأسلوب التقليدي. "بكل الضحيج والعجيج والحماسة التي كانت يومها تلقى الاستحسان في باريس" وصفق لها الجمهور استحساناً. ولكن في الليلة التالية لعبت دور أجرين في مسرحية راسين برينتا نيكوس بصوت هادئ وبحركات محسوبة، وكظمت الانفعالات حتى المشهد الأخير. وضج النظارة بالهتاف. فلما عادت إلى باريس كسبت جمهورها القديم لأسلوبها الجديد. وحبذ دييرو هذا الأسلوب بحرارة. وكانت في ذهنه حين كتب "مفارقة الممثل" وموادها أن الممثل القدير هادئ متمالك نفسه في داخله حتى في أكثر لحظات أدواره انفعالاً، ثم تساءل أي تمثيل كان أروع من تمثيل كليرون(29). "وكانت تحب أن تصدم المعجبين بها فتروي لهم أنها تراجع ذهنها في فواتيرها الشهرية وهي تلقي على الجمهور من الأشجان ما يستدر دموعهم(30). ولم يرحب فولتير بالأسلوب الجديد، ولكنه أيدها تأييداً فعالاً كما أيدها هي في إصلاح ملابس المسرح وأثاثه. وكانت جميع الممثلات إلى ذلك الحين يلعبن أدوارهن من أي أمة أو عصر مرتديات زي باريس القرن الثامن عشر، في تتورات بأطواق موسعة وشعر مبدر، ولكن كليرون فاجأت جمهورها باتخاذ زي زمان المسرحية لجسمها وشعرها، فلما لعبت دور إيدامي في تمثيلية فولتير "يتيمة الصين" كانت الثياب والأثاث صينية.

صفحة رقم : 12982

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> المسرح

وفي 1763 ذهبت كليرون إلى جنيف لتستشير الدكتور ترونشان. وطلب إليها فولتير أن تمكث معه في فيلا دلبس. "إن مدام دننس مريضة، وكذلك أنا. وسيحضر مسيو ترونشان إلى مستشفىنا ليعودنا نحن الثلاثة(31)" وأنت وأعجب بها الحكيم العجوز إعجاباً حملاً على إغرائها بزيارة أطول لفرنيه، وأقنعها بأن تشاركه في حفلات عديدة بمسرحه ويظهره رسم قديم وهو في السبعين من عمره راعياً أمامها في اعتراف حار بالحب. واعتزلت المسرح في 1766 وكانت صحتها قد اعتلت وهي بعد في الثالثة والأربعين، بل لم تعد قادرة على التحكم في حديثها، وهامت حياً بفتى نبيل أنيق كما فعلت لوكوفير وباعت كل ممتلكاتها تقريباً لتتقده من دائنيه ورد لها صنيعها ببذل حبه، ومالها لغيرها من النساء. ثم تلقت وهي في التاسعة والأربعين دعوة من كرستان فريدرش كارل الكسندر، حاكم أنزياخ وبابرويت البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً للعيش معه في أنزياخ ناصحة وخليلة. فذهبت (1773) وظلت محتقظة بسلطانها عليه ثلاثة عشر عاماً. وكان قد تشرب في فرنسا بعض مثل التنوير، ويتشجع منها أجرى عدة إصلاحات في إمارته، فألغى التعذيب وأقر الحرية الدينية. وكانت آخر مآثرها أن أفتته بأن ينام كل ليلة مع زوجته. وبمضي الوقت أصاب الملل كليرون فتاقت إلى باريس فكان الأمير يصحبها إليها بين الحين والحين. وفي إحدى هذه الرحلات أخذت خليفة جديدة، وترك كليرون في باريس بعد أن أجرى عليها معاشاً طيباً وكانت الآن في الثالثة والستين.

ولقيت الترحيب في الصالونات، حتى من مدام نكير الفاضلة، وأعطت الدروس في الإلقاء للفتاة التي أصبحت فيما بعد مدام دستال. واتخذت عشاقاً جديداً منهم الرجل الذي تزوج بعد ذلك مدام دستال ذاتها التي سرها التخلص منه. وقد رتب للممثلة العجوز معاشاً مريحاً، ولكن الثورة اختزلت معاشها فعاشت في ضنك حتى زاد نابليون معاشها في

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; المسرح

1801. وفي ذلك العام عرض عليها رجل يدعى المواطن دوبواربيه غراماً أخيراً. فثبطت عزيمته بخطاب مؤلم يلخص مأساة الكثير من الممثلات العجائز. قالت "لعل ذاكرتك ما زالت تتخيلني مشرقة، فتية، محاطة بكل مظاهر سمعتي الماضية. ولكن عليك أن تراجع أفكارك. فأنا لا أكاد أبصر، وسمعي ثقيل ولم يعد لي أسنان، ووجهي كله غضون، وجلدي جف بالجهد ليكسو هيكلي الضعيف(32)". ومع ذلك أتى وعزى أحدهما الآخر باسترجاع ذكرى شبابهما. ثم ماتت عام 1803 إثر سقوطها من فراشها.

وكانت قد خلفت ورائها منذ سنين طويلة الدراما المأساوية الكلاسيكية التي أشاد فولتير، أعظم كتابها في القرن الثامن عشر، بكليرون معبرة عنها لا ضريب لها. فقد أتخم جمهور باريس، وكثرتهم من الطبقة الوسطى، بالخطب المسجوعة يلقيها الأمراء، والأميرات، والملوك، وبدت تلك البحور "الإسكندرية" بحور كوريني وراسين التي تمشي مختالة على ست أقدام (أي تقاعيل)-بدت الآن رمزاً للحياة الأرستقراطية، ولكن أليس في التاريخ سوى النبلاء؟ بلى بالطبع. ورجل كموليير أبرز هؤلاء من قبل، ولكن في الملهاة، أفليس هناك مأس من المحن العميقة والمشاعر النبيلة في بيوت وقلوب البشر الذين تجردوا من الألقاب؟ ورأى ديديرو أن قد أن أوان درامات البرجوازيين، وقال أنه إذا كان النبلاء قد تجنبوا العاطفية، واشترطوا إلباس المشاعر قناعاً مهيباً، فإن على الدراما الجديدة أن تطلق الوجدان من عقاله وألا تخجل من إثارة أشجان الجمهور وإدراج دموعه. وهكذا كتب هو وغيره من بعده "مسرحيات باكية".

يضاف إلى هذا أن العديد من كتاب المسرحيات الجدد لم يكتفوا بتصوير حياة الطبقة الوسطى والإشادة بها، بل هاجموا النبلاء، والكهنة، وحتى الحكومة آخر الأمر-هاجموا فسادها، وضرائها، وبذخها، وإسرافها، ولم يقتصروا على التنديد بالاستبداد والتعصب (فقد أجاد فولتير هذا التنديد من قبل) بل امتدحوا الجمهوريات والديمقراطية، ولقيت تلك الفقرات أشد الاستحسان من النظارة(33) وشارك المسرح الفرنسي عشرات القوى الأخرى في الإعداد للثورة.

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; مارمونتيل

كتب هوراس ولبول من باريس في 1765 يقول "إن المؤلفين في كل مكان" وأنهم "أسوأ من كتاباتهم، ولست أقصد بهذا ثناء على الكتاب أو ما يكتبون(34)" ولا ريب في أن ذلك العصر لم يكن ليضارع في الأدب عصر فولتير وراسين؛ ولا عصر هوجو وفلوبير وبلزك، ففي هذه الفترة القصيرة بين 1757 و1774 ليس لدينا من الكتاب

الجديرين بالذكر سوى روسو ومارمونتيل، والجمرات الحية من نار فولتير، وغلين ديديرو الدفين غير المنشور. ذلك أن الرجال والنساء أسلموا أنفسهم بقوة للحديث حتى كلت قرائحهم قبل أن يعتادوا الكتابة. وانقضى زمان العقل الأرستقراطي، واستأثرت الفلسفة والاقتصاد والسياسة بالجو، وتغلب المضمون الآن على الشكل. لا بل إن الشعر نزع إلى الدعاية. فقد قلدت قصيدة سان-لامبير "الفصول" (1769) جيمس طومسن، ولكنها نددت بالتعصب والترف تنديداً في غير أوانه، وتمثلت الشتاء كما تمثله الملك لير -عواصف ثلجية تقصف حول أكوخ الفقراء. ويدين جان-فرنسوا مرمونتيل في صعود نجمه لدهائه، وللنساء، ولفولتير. ولد في 1723ز وقد كتب في شيخوخته "مذكرات أب" (1804) وهي تعطينا صورة رقيقة لطفولته وشبابه. ومع أنه اعتنق الشكوكية وكاد يعبد فولتير، إلا أنه لم يذكر إلا بالخير أهله الأتقياء الذين ربوه، واليسوعيين العطوفين المخلصين الذين علموه. وقد أحبهم حباً جماً حمله على أن ينذر نفسه لله، وتطلع إلى الانضمام إلى رهبنتهم، وعلم في مدارسهم بكليرمون وتولوز. ولكنه كالكثيرين من أفراس اليسوعيين، طار بعيداً على أجنحة التنوير، وفقد على الأقل عذريته الفكرية. وفي 1743 قدم أبياتاً من شعره على فولتير فاستمتع بقراءتها أيما استمتاع، وأرسل إلى مرمونتيل مجموعة من أعماله صححها بيده. واحتفظ الشاعر الشاب بها ميراثاً مقدساً. وأقلع عن كل تكبير في احتراف القسوسة، وبعد عامين حصل له فولتير على وظيفة في باريس، وعلى إذن بدخول التياتر فرانسيسه مجاناً، لا بل

صفحة رقم : 12985

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> مرمونتيل

إن فولتير، بما في قلبه قلب الأب المحروم من البنين من طيبة مستتيرة باع قصائد مرمونتيل وبعث إليه بحصيلة البيع. وفي 1747 قبلت تمثيلية مرمونتيل "دنيس الجبار" (ديونيسيوس)-التي أهداها إلى فولتير، وأخرجت على المسرح؛ وحققت نجاحاً لم يحلم به "فقد أصبح مشهور وغنياً في يوم واحد". (35) وسرعان ما أصبح سبباً صغيراً من سباع الصالونات، فطعم على موائدها، ودفع الثمن ذكاء وظرفاً، ووجد سبباً إلى فراش كليرون. وأنته تمثيلته الثانية "أريستومين" بمزيد من المال، والأصدقاء، والخيليات. وفي ندوات مدام دنتسان النقي بفوننتيل، ومونتسكيو، وهافتيوس، وماريفو، وعلى مائدة البارن دولياخ سمع ديديرو، وروسو، وجريم. وشق طريقه صعداً في المجتمع تحذوه يد النساء المرشدة. وأدخل إلى البلاط بعد أن مدح لويس الخامس عشر بأبيات ذكية. وافتتنت بومبادور بوجهه المليح وشبابه المتفتح، فأقنعت أخاها بأن يستخدمه سكرتيراً، وفي 1758 عينته محرراً للجريدة الرسمية "مركير دفرانس" وكتب نصوصاً لرامو، ومقالات للموسوعة. وأعجبت به مدام جوفران إعجاباً حملها على أن تقدم له مسكناً مريحاً في بيتها، حيث عاش عشر سنوات ضيقاً بالأجر.

وقد كتب لصحيفة المركير (1753-60) سلسلة من "الحكايات الأخلاقية" رفعت تلك الدورية إلى مقام الأب. ومن إحدى هذه الحكايات تكون فكرة عنها كلها. فسلیمان الثاني، بعد أن مل المباهج التركية، يطلب ثلاث حسان أورييات. أما الأولى فتقاوم شهراً، ثم تستسلم أسبوعاً ثم تنحى جانباً. وأما الثانية فتعني غناء رخيماً، ولكن حديثها منوم. وأما الثالثة-روكسالانا-فلا تكنفي بالمقاومة، بل تسب السلطان لأنه داعر مجرم ويصيح السلطان "أنسيت من أنا ومن أنت؟" وتجيب روكسالانا "أنت أقوى؛ وأنا جميلة؛ فنحن إذن صنوان". وهي ليست بارعة الجمال، ولكن لها أنفاً أخنس (مرتفع الأريبة)، وهو يغلب السلطان على أمره. فيحاول بكل الحيل أن يكسر مقاومتها ولكنه يخفق. ويهدد بقتلها، فتقترح أن تعفيه

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; مارمونتيل

من هذا العناء بالانتحار . وسبها فتسببه سباً أذع . ولكنها تخبره أيضاً أنه جميل، وأنه لا يحتاج إلا لإرشادها لك يصبح في روعة الفرنسيين . فيغتاظ ويبتهج . وأخيراً يتزوجها ويجعل منها ملكة . وفي أثناء حفل الزفاف يسأل نفسه "أممکن أن يطيح أنف أخص صغیر بقوانين إمبراطورية؟" (36) والعبرة عند مارمونتيل: إن صغار الأشياء هي التي تحدث جلائل الأحداث، ولو عرفنا تلك التوافه الخفية لراجعنا التاريخ مراجعة كاملة .

وسارت الأمور كلها تقريباً رياء مع مارمونتيل إلى أن نشر (1767) قصة سماها "ببليز" وكانت قصة ممتازة؛ ولكنها دافعت عن التسامح الديني، وتشككت في "حق السيف في أن يبید الهرطقة، والإلحاد، وعدم التقوى، وأن يضع العالم كله تحت نير الدين والحق" (37) . وأدانت الصوريون الكتاب لاحتوائه على تعليم يستحق الشجب . ومثل مارمونتيل أما عميد الصوريون واحتج عليه قائلاً "قل لي يا سيدي، ألسنت تدين الآن روح العصر لا روعي (38)،" وظهرت روح العصر في جرائده، في اعتدال العقوبة . ولو نشر قصته تلك قبل عشر سنوات لزوج به في الباستيل ولصودر كتابه؛ أما الآن فالذي حدث هو أن القصة راجت رواجاً كبيراً؛ وظلت تحمل "إذن الملك وامتيازه" واكتفت الحكومة بالتوصية بأن يلزم الصمت حول الموضوع (39)، على أن مدام جوفران انزعجت كثيراً حين لم يقتصر الأمر في قرار الصوريون بمصادرة الرواية على قراءته في الكنائس، بل تجاوزه إلى تعليقه على باب بيتها . فاقتزحت على مارمونتيل في لطف أن يبحث عن مسكن آخر .

ووقع واقفاً كالعادة . ففي 1771 عين مؤرخاً رسمياً ملكياً براتب حسن، وفي 1783 أصبح السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية، وفي 1786 عين أستاذاً للتاريخ في الليسيه . وفي 1792 حين كان في التاسعة والستين وقد قزرتة انحرافات الثورة، اعتكف في أفرو؛ ثم في لأبلو فيل؛ وهناك كتب "مذكراته" التي أعتقر فيها حتى للصوريون إساءاتها . وقضى سنواته الأخيرة في فقر لا يشكو ولا يتذمر، شاكرًا لأنه عاش حياة غنية ممتعة . ومات في آخر يوم في عام 1799 .

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; حياة الفن

كان الملك ذواقاً في الفن، وكذلك كان نبلاء بلاطه ونبيلاته، والمليونيرات الذين كانوا الآن يتحرقون شوقاً للهيمنة على الدولة. وكان حدثاً هاماً في لتاريخ الفرنسي أن تبدأ مصانع سيفر، التي أسستها مدام دبومبادرو من قبل، إنتاج الخزف الصيني القاسي العجينة عام 1769؛ ومع أن الألمان في درسدن ومايسن قد فعلوا هذا قبل سنتين عاماً، فإن منتجات سيفر سرعان ما كسبت سوقاً أوروبية. ولم يرَ كبار الفنانين أمثال بوشيه، وكافيري، وباجو، وبيجال، وفالكونيه، وكلودين، ما يغض من قدرهم في رسم التصميمات لصيني سيفر. واستمر خزافو سيفر، وسان كلو، وشانتيي، وفانسين، في إنتاج القاشاني والصيني الطري العجينة في رسوم غاية في الإتقان. وتضافرت مهارات الخزافين، وصناع المشغولات المعدنية والأثاث الخشبي وقطع النسيج المرسومة، لتجميل الحجرات الملكية وغرف النبلاء وأقطاب المال. وكانت الساعات الجدارية، كتلك التي صممها بوازو وصيها جرتير بالبرونز (40) إحدى حليات العصر المميز. وأبدع بيير جونتير وجاك كافيري في صناعة "الأورمولو" ومعناه الحرفي "الذهب المطحون"، وهو في حقيقته سبيكة أهم مكوناتها النحاس الأحمر والزنك، تنقش وترصع بالجواهر ويكف بها الأثاث. وألف كبار صناع الأثاث نقابة قوية تعتر بنفسها، اشترط على أعضائها أن يختموا إنتاجهم بأسمانهم علامة على مسئوليتهم عنه. وكان خيرهم في فرنسا واداً من ألمانيا: جال فرانسوا أوين وتلميذه جان-هنري ريزنر، وسخر هذان مهارتهما في صنع مكتب فخم للملك لويس الخامس عشر (1769)، وهو تحفة روكوكية معرّبة من رسوم ونقوش وتطعيم وتذهيب دفع الملك 63.000 ليرة ثمناً لها.

صفحة رقم : 12988

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

وقد استمتع بها نابليون الأول ونابليون الثالث، وسلمت إلى اللوفر في 1870 وتقدر الآن بخمسين ألفاً من الجنيهات (41).

في هذا العهد الذي علق مثل هذه الأهمية على القيم للمسية، كان النحت يقدر بقدره الكلاسيكي تقريباً، فالشكل ليه، وكانت فرنسا تعلم أن الشكل، لا اللون، هو روح الفن. وهنا أيضاً فاقت النساء الآلهة، لا في عيوب الواقع الطبيعية، بل في المثالي من الأشكال والثياب التي استطاع النحاتون المرفهوا الحس أن يؤلفوا بينها ويصوروها. ولم يزين النحت القصور والكنائس فحسب، بل الحدائق والمنتزهات العامة. وكانت التماثيل التي أقيمت مثلاً في حدائق التويلري من أحب التماثيل إلى الناس في باريس، وقلدت بوردو، وناسي، ورين، ورامس، باريس في التراكوتا (الطين النضيج) والرخام والبرونز.

وأخرج حيوم كوستو الثاني الآن أروع إنتاجه (وكان يصغر العهد بسنة واحدة فق) ففي 1764 عهد إليه فردريك الثاني بنحت تماثيل لفينوس ومارس إله الحرب، وفي 1769 أرسلها كوستو إلى بوتسدام لقصر صانسوسي. كذلك بدأ في 1769 تحت المقبرة الفخمة المشيدة للدوفين والدوفينة (والدي لويس السادس عشر) كاتدرائية صانس، وعكف على هذا العمل بهمة إلى أن مات (1777). ورأى في أخريات عمره أربعة نحّاتين من ألمع من عرفتهم فرنسا إلى يومنا هذا، وهم بيجال وفلاكونيه، وكافيري، وباجو.

أما بيجال فقد قصد روما على نفقته، يعينه على ذلك كوستو، بعد أن أخفق في نيل "الجائزة الكبرى" التي تُدفع لنانها مصروفات تعلمه الفن في روما، فلما عاد إلى باريس شق طريقه إلى أكاديمية النون الجميلة برأئته المسماة "عطارذ يثبت خفية"، هذه الرائحة التي صاح الفنان للعجوز جان-باتست لموان حين رآها "وددت لو كنت راسمها" كذلك أعجب بها لويس الخامس عشر، وأرسلها إلى حليفه فردريك الثاني 1749. وقد وجدت سبيلها بطريقة ما عوداً إلى اللوفر، حيث نستطيع أن نتأمل المهارة الفائقة



## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; حياة الفن

التي أجمع بها الفنان الشاب إلى لهفة الرسول الأولمبي على النهوض والانطلاق. ووافق فن بيغال مزاج مدم دبومبادور، فعهدت إليه بالكثير من المهام. وقد صنع لها تمثالاً نصفياً محفوظاً الآن بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك، وحين هدأ ما بينها وبين الملك من غرام مشبوب واستحال إلى صداقة، نحت لها تمثالاً على هيئة "ربة الصداقة" (1753). (45) وصنع تمثالاً للويس بوصفه مجرد "مواطن" للميدان الملكي برامس، وأتم تمثال بوشاردون "الويس الخامس عشر" للميدان الذي يسمى الآن ميدان الكونكورد. وصور دييرو في البرونز، رجلاً تمزقه الفلسفات المتصارعة. ولكنه أطلق لنفسه عنان التمثيل في المقبرة التي نحتها لرفات المرشال دي دساكس بكنيسة القديس توما بستراسبوج فهو المحارب العاشق يركب إلى الموت كأنه راكب إلى معركة ينتصر فيها.

أما أشهر التماثيل الذي كان حديث الناس في هذا العهد فذلك الذي اختارت صفوة مفكري أوربا بيغال لينحته لفولتير. وقد اقترحت مدام نكير في إحدى أمسياتها في 17 إبريل 1770 ورحب بالاقتراح جميع ضيوفها السبعة عشر (ومنهم دلامبير، موريلليه، ورنال، وجريم، ومارمونتيل) ودعي عامة الناس للمساهمة في النفقة. وأثيرت بعض الاعتراضات، إذ لم يكن من المألوف إقامة التماثيل لأي أحياء سوى الملك، ولم يصنع تمثال لكوريني أو راسين قبل موتها. ورغم ذلك تدفقت التبرعات، حتى من نصف ملوك أوربا، وأرسل فرديريك مانتي جنيه ذهبي لتخليد ذكرى صديقه وخصمه القديم. وأستاذن روسو في المساهمة، فأعرض فولتير ولكن دلامبير أقره بالموافقة. وعرض فريرون وبالابسو، وغيرهم من خصوم جماعة الفلاسفة أن يشاركوا في التحية، ولكن عرضهم رفض. ووضح أن الفلاسفة كانوا أبداً من خصومهم مغفرة وصفحاً. أما فولتير نفسه فقد نبه مدام نكير إلى أنه لا يصلح موضوعاً لتمثال: "لقد بلغت السادسة والسبعين، ولم أكد اتمائل للشفاء من مرض عبث بجسدي وروحي عبثاً منكراً ستة أسابيع. ويقولون إن مسيو بيغال قادم ليصنع تمثالاً يحكي محياي. ولكن هذا يا سيدتي يقتضي أن يكون لي محياً،

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; حياة الفن

ومن العسير التكهن بالموضع الذي كان فيه هذا المحيا. فعيناني غائرتان ثلاث بوصات، وخدائي من الرق البالي المصق لصفاً سيئاً على عظام لا تتركز على شيء، وقد فقدت الأسنان القليلة التي كانت لي. وليس كلامي هذا من قبيل التمتع، ولكنه الصدق الخالص. ولم ينحت قط تمثال لرجل مسكين في حالتي هذه، ولعل مسيو بيغال سيعتقد أنكم تهزؤون به، أما أنا فينبغي أن يكون عندي من حب الذات ما لا أجرؤ معه أبداً على الظهور في حضرته. ول شاء أن يضع حداً لهذه المهمة الغريبة لنصحته بأن يأخذ نموذج، بتغييرات طفيفة، ومن تمثالي الصغير المصنوع من صيني سيفر (34)".

وضاعف بيجال المشكلة باقتراحه أن يصنع تمثالاً عارياً لذلك العفريت الأشهر، ولكنهم ثنوه عن هذا الرأي. وقصد فرنیه في يونيو، وجلس إليه الفيلسوف الخجول ثمانية أيام، في فترات متقطعة، ولكن في تملل شديد يمل على سكرتير ويومئ للإيماءات وينفخ حبات البسلا على أشياء شتى في الهجرة حتى قاربت أعصاب المثل على الانهيار (44). فلما عاد إلى باريس بقالب للتمثال عكف على مهمته شهرين، ثم أعلن النتيجة في 4 سبتمبر، وأقبل نصف الصفوة الممتازة يعجبون ويبتسمون. والتمثال يقوم الآن في دهليز مكتبة المعهد. ولم يكن من مزاحم لبيجال في زعامة النحت في هذه الحقبة غير إيتيين موريس فلاكونيه، ويروي دييرو قصة لطيفة عن خصومتها، ذلك أن فلاكونيه الذي كان يصغر غريمه بعامين تجنب أول الأمر منافسته مباشرة، فكان يصنع التمثال من الصيني، وكان من أبهج هذه التماثيل تمثال "بجماليون" الذي صنعه دورو على تصميم فلاكونيل، وفيه تبدو دهشة النحات الإغريقي إذ ينحني تمثاله "غلاطية" المرمرى للتحدث إليه. واستطاع ذلك التمثال أن يرمز إلى حقيقة أوشك الناس أن ينسوها، وهي أنه ما لم يتحدث إلينا العمل الفني فهو ليس بفن. فلما أطلع بيجال على هذه القطعة من الطين وقد تحولت إلى رمز خالد فاه بالثناء التقليدي يثني به فنان عظيم على آخر: "وددت لو كنت صانعه!" ولكن فلاكونيه لم يرد التحية بمثلها تماماً حين

صفحة رقم : 12991

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

رأى تمثال بيجال "لويس الخامس عشر مواطناً" فقد قال "إني لا أحبك يا مسيو بيجال، وأعتقد أنك تبادلني هذا الشعور. وقد رأيت تمثال "المواطن" الذي صنعه، لقد كان ممكناً خلق هذا العمل، لأنك قمت بهذا فعلاً، ولكني لا أعتقد أن الفن يستطيع أن يجاوزه بخط واحد وهذا لا يمنعنا من أن نظل كما كنا" (45). وقد نغصت عيش فلاكونيه أربعون سنة من المحن قبل أن يظفر بالتقدير التام، فانطوى على نفسه وعاش في بساطة ديوجينية، وأصبح سريع الشجار، وغض من قدر فنه، وأعرب عن احتقاره للشهرة سواء في حياة صاحبها أو بعد موته. وأنته الشهرة آخر الأمر بتمثاله "المستحمة" (1757) وهي مستحمة جميلة يجس حرارة الماء بأصابع قدمها. (46) وأنس إليه الآن مدام دبومبادور، فنحت لها "الحب الداهم" الذي يمثل كيوبيد يهدد بإطلاق سهم فيه عدوى الحب. وأصبح فلاكونيه حيناً في عالم النحت ما كانه بوشيه وفراجونار في عالم التصوير مبدعاً دغدغات فتانة مثل "فيينوس وكيوبد"، "وفيينوس تخلع ثيابها أما باريز". وقد أبدع في تصميم الشمعدانات الزينية، والنوافير الصغيرة، والتمائيل الدقيقة، وحفر الرخام "ساعة ربات الحسن الثلاث" المحفوظة الآن في اللوفر، وأبهج بومبادور بتمثيلها في صورة الموسيقى (47) وفي 1766 قبل دعوة كاترين الثانية له للذهاب إلى روسيا. وقد صنع في سانت بطرسبوج رائعة "بطرس الأكبر على جواد يخطر"، وشارك دييرو وجريم حظوتهما عن الإمبراطورة، وعمل لها بهمة طوال اثني عشر عاماً، ثم تشاجر معها ومع وزرائها، ورحل في نوبة غضب عائداً إلى باريس. وفي 1783 أصيب بالفالج، ولزم حجرته في الأعوام الثمانية الباقية له، وقد زادت نظرته إلى الحياة اكتئاباً. أما جان-جاك كافيري فكان في وسعه أن يكون أكثر بشاشة وانشراحاً لأنه ربي على النجاح في رعاية أبيه جاك، الذي كان من أئمة-صناع البرونز في العهد الأسبق. وقد شق طريقه مبكراً إلى أكاديمية الفنون

صفحة رقم : 12992

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

الجميلة بتمثال عجوز لا تكسوه غير سبله سماه "النهر". وكلفه مسرح الكوميدي-فرانسيي بتزيين قاعاته بتمائيل نصفية للمسرحيين الفرنسيين، فأبهج الناس جميعاً بتمائيله التي صورت كورنيي، ومولير وفولتير، في صور مثالية. أما رائحته فتمثال نصفي للكاتب المسرحي جان دروترو نقله عن حفر في حوزة الأسرة. وهو أشبه بدارتنيان في كهولته شعر مرسل، وعينان متقدتان، وأنف مشاكس، وشوارب كثة، وهو من أبدع التمائيل النصفية في تاريخ النحت. وبدافع الغيرة من مسرح الكوميدي-فرانسيي، كلفت فرقة الأوبرا كافيري بأن ينحت التمائيل لأبطالها هي أيضاً، فصنع التمائيل النصفية للوللي ورامو، ولكن هذه التمائيل اختقت. وبقيت لوحة جميلة "لفتاة صغيرة" (48). ربما كانت من أعضاء فريق باليه الأوبرا، وهي توفيق ساحر جمع بين العينين الخجولتين والصدر الناهد. أما أحب التمائيل لمدام دوباري فهو أوجستن باجو. فبعد أن قضى الفترة المألوفة لتلمذة الفنانين في روما، حقق ثراءً مبكراً بما تلقى من مهام ملكية وتكليفات من خارج فرنسا. وقد صور الخليفة الجديدة في نحو اثنتي عشرة لوحة. ويرتدي التمثال المحفوظ باللووفر رداء كلاسيكياً منقوشاً نقشاً رائعاً. وصور بوفون للجاردان دروا بناءً على طلب الملك (49)، ثم خلد ديكارت، وتورين، وبسكال، ونوسوبه، وأروع أعماله ما زال حياً في الصور البارزة التي حلى بها المقصورات في دار الأوبرا بفرساي. وعمر حتى قام بأعمال اللويس السادس عشر وبكى على إعدام ذلك الملك، وشهد نابليون يبسط سلطانه الشامل على القارة.

ب - العمارة

هل قامت في فرنسا خلال هذه الأعوام الثمانية عشر عمارة خالدة؟ لم يبق إلا القليل فالكنايس كانت أوسع من أن يملئها من بقي من المؤمنين، والقصور أخذت تنثر غيرة الجماهير التي طحنها الجوع. وكان تجدد الاهتمام بالمعمار الروماني نتيجة للحفائر التي أجريت في هر كولانيوم (1738) وبمببي (1748-63) يدعم إحياء الطرز الكلاسيكية الخطوط ذات البساطة

صفحة رقم : 12993

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

والوقار، وواجهة الأعمدة القوصرة، والقبة الفسيحة أحياناً. وكان جاك-فرنسوا بلودنل، الأستاذ بالأكاديمية الملكية للعمارة، نصيراً متحمساً لهذه الأشكال الكلاسيكية، وأصدر خلفه جوليان-دافيد لروا في 1750، رسالة سماها "أجمل آثار الإغريق" زادت من سرعة الانتشاء بهذه الآثار. وقد نشر أن-كلودتبيير، كونت دكايوس، بعد أن ساح كثيراً في إيطاليا اليونان والشرق الأدنى (1752-67)، ثمانية مجلدات خطيرة سماها "مختارات من الآثار المصرية، والأتروسيكية، واليونانية، والرومانية، والغالية" موضحة بعناية ببعض رسومه؛ وتأثرت دنيا الفن الفرنسي كلها حتى

السلوك الفرنسي، تأثراً قوياً بهذا الكتاب فمالت إلى نبذ شطحات الباروك ونزوات الروكوكو رجوعاً إلى خطوط الطرز الكلاسيكية الأكثر نقاء. وهكذا نجد جريم يقول لقرائه 1763:  
"ظلنا سنوات نبحث بحثاً جاداً عن الآثار والأشكال القديمة وأصبح الميل لها عاماً حتى عدا من الأمور المقررة الآن أن يؤدي كل شيء على الطريقة اليونانية ( La Gr(cque من العمارة إلى صنع القبعات، فنساؤنا يصفون شعورهن على الطريقة اليونانية، ووجهائنا يرونه عاراً إن لم يمسكوا علبة صغيرة على الطريقة اليونانية(50).  
أما ديرو، رسول الرومانسية البرجوازية، فقد استسلم فجأة للموجة الجديدة (1765) حين قرأ ترجمة لكتاب وتكلمان "تاريخ الفن القديم" وكتب يقول "يخيل إليّ أننا يجب أن ندرس القديم لكي نتعلم رؤية الطبيعة"(51). وكانت هذه العبارة في حد ذاتها ثورة.  
في 1757 بدأ جاك-جرمان سوفلو بناء كنيسة القديسة جنيفيف، التي نذر لويس الخامس عشر خلال مرضه في متر أن يشيدها للقديسة راعية باريس حالما يتمثل للشفاء. وأرسي الملك بنفسه حجر الأساس، وأصبح بناء هذا الصرح "الحدث المعماري العظيم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر" في فرنسا(52). وقد صممها سوفلو على شكل معبد روماني، برواق من قوسرة منحوتة وأعمدة كورنثية، وأربعة أجنحة تلتقي في صليب يوناني

صفحة رقم : 12994

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

في خورس أوسط تحت قبة ثلاثية. واتسمت كل مرحلة تقريباً من مراحل البناء بالجدل. ومات سوفلو في 1780 بعد أن أرهقته وفنت في عضده الهجمات التي شنت على تصميمه، وخلف البناء ناقصاً. وتبين أن الركايز التي صممها لتحمل القبة أضعف من أن تحملها، فأحل شارل-أنتين كوفلييه محلها من الأعمدة تفوقها جمالاً. وحولت الثورة هذه الرائعة من روائع إحياء الفن القديم من هدفها الديني إلى هدف دنيوي؟ فسمتها من جديد البانتيون تذكراً لرائعة ماركوس أجريبيا في روما، لتكون مثوى لـ "جميع آلهة" النظام الجديد، حتى فولتير، وروسو، ومارا، ولم تعد كنيسة مسيحية، بل غدت مقبرة وثنية؛ وقد رمزت في عمارتها ومصيرها إلى انتصار الوثنية المطرد على المسيحية.  
وأحرز الشكل الكلاسيكي نصراً آخر في كنيسة المادلين (المجدلية) الأولى التي بدئ تشييدها عان 1764، فحلت صفوف الأعمدة والأجنحة المستوية السقوف محل العقود والبواقي، وغطت الخورس قبة. وأطاح نابليون بها كلها قبل أن تنجز لتحل محلها كنيسة المادلين التي تتبوأ مكانها اليوم والتي هي أشد إمعاناً في الكلاسيكية.  
كان هذا الانقلاب إلى الطرز الكلاسيكية الوقورة، بعد إسراف الباروك المتمرد في عهد لويس الرابع عشر وأناقاة الروكوكو اللعوب في عهد لويس الخامس عشر، جزءاً من الانتقال إلى "طراز لويس السادس عشر" في عهد لويس الخامس عشر نفسه-وهو طراز البناء، والأثاث، والزخرفة الذي سيتخذ اسم الملك الذي أطاحت الجبلوتين برأسه. وضبط الفن نفسه فتحول عن المنحنيات الكثيرة والزخارف المسرفة إلى البساطة المقتصدة، ببساطة الخطوط المستقيمة والشكل البنائي. وكان اضمحلال المسيحية قد انتزع من التسامي القوطي المفرط قلبه، ولم يترك للفن ملاذاً غير تحفظ رواقى تجرد من الآلهة وتشبث بالأرض.  
أما أعظم المعماريين الفرنسيين في هذا الجيل فهو جاك-أنج جابرييل، الذي أورثه أسلافه العمارة في عروقه. عهد إليه لويس الخامس عشر

صفحة رقم : 12995

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

(1752) بإعادة بناء قلعة قديمة في كونيبيين، فجعل مدخلها ببوابة إغريقية ذات أعمدة دورية، وكورنيش بدنطيل (مسنن)، ودرابزين خال من الزخرف. ونهج هذا النهج من التصميم في إعادة بناء الجناح الأيمن في قصر فرساي (1770). وأضاف لهذا القصر (1753-70) داراً أنيقة للأوبرا. وبفضل الأعمدة المستوية، والكرانيش الرقيقة النقوش، والدرابزين الجميل، أصبحت هذه الدار من أجمل المباني الداخلية في فرنسا. وحين سئم لويس ما في حياة البلاط من علنية وتكلف، لجأ إلى جاربييل ليبي له "بيتاً صغيراً" تسترته الغابات وأختار جاربييل موقعاً يبعد ميلاً عن القصر، وشاد عليه بطراز النهضة الفرنسية "البيتي تريانون" (1762-68). هنا كانت بومبادور تمنى النفس بالاستمتاع بحياة العزلة والدعة وهناك مرحت دوبراي وقصفت برهة، ثم جعلته ماري أنطوانيت منتجها المفضل كأنها الراعية الملكية في تلك الأيام الخلية السعيدة والشمس ما تزال تشرق على ربوع فرساي.

### ج - جرور

كانت الصورة حلية أثيرة في جو البيوت الأرسقراطية الحميم. فالتماثيل باردة عديمة اللون؛ تسر العين والعقل دون القلب والنفس، أما الصور فتستطيع أن تعكس تقلب الأمزجة والأذواق، وأن تنقل الروح إلى الأماكن الخلوية، أو الأشجار الظليلة، أو المشاهد النائية والجسد باق داخل الجدران. وهكذا نرى كلود-جرورف فرنيه يرسم من السفن التي تمخر عباب البحار الفرنسية عدداً بلغ من كثرته إن لويس الخامس عشر في نكتة مشهورة إنه لا حاجة به لبناء المزيد منها. واستأجرت الحكومة الفرنسية فرنيه ليزور الثغور ويرسم السفن الراسية فيها، ففعل، وجعل فرنسا فخورة بأساطيلها. وحصل ديدرو على إحدى صور فرنية للبحر والأرض، وغلى في تقديرها غلواً حتى لقد توسل إلى إله إرتجله ارتجالاً فقال "أنني أتخلى لك عن كل شيء، فخذة كله، إلا فرنيه(53)". -وهناك أومير روبير، الذي لقب "روبير الأطلال" نعم كله لأنه زود كل صور مناظره الطبيعية تقرباً بالأطلال

صفحة رقم : 12996

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

الرومانية مثل "كويري جار في نيم" ومع ذلك كان القوم "يتهافتون عليه" في صالونات باريس كما تؤكد لنا مدام فيجيه-لوبيرون، رغم شغفه المدمر بالأكل(54). ثم هناك فرنسوا-أوبير درواي، الذي حفظ لنا في تصوير مرهف جمال المركيزة دسور والطفولة البريئة للغلام الذي سيصبح شارل العاشر ولأخته ماري أوليد(55). ولكن لنلقي نظرة أكثر تدقيقاً على جرور وفرجونار.

أما جان-بانيست جرور فقد صنع بفرشاته ما صنعه روسو وديدرو بقلمهما؛ إذ أضفى على ألوانه إشراق العاطفة، وجعل نفسه "إيليز" البرجوازية. فالعاطفة أسعد من التكلف والصل، وليست ضحلة مثلهما، وعلينا أن نغفر لجرور

رؤيته الجوانب السارة من الحياة وتصويرها، وحبه لوثن الأطفال المرح؛ وبراءة البنات الجميلات الهشة، والقناعة المتواضعة لبيوت الطبقة الوسطى. فلولا جرور وشاروان لتوهما أن فرنسا كلها كانت منحطة فاسدة، وأن دوباري كانت نموذجها، وأن فينوس ومارس كان ربيها الوحيدين. أما الحقيقة فيه أن الأشراف هم المنحطون، وأن لويس الخامس عشر هو الفاسد، وأن الأرستقراطية والملكية هما اللذان سقطا في الثورة. أما جماهير الشعب باستثناء رعاا الريف والمدن فقد احتفظت بالفضائل التي تنتقد أمة من الأمم، وقد صورها جرور وحيا ديدور شاردان وجرور، لابوشيه وفرجونار باعتبارهما صوت فرنسا وسلامة روحها.

ويروى عن هذا الفنان في شبابه ما يروى عادة من قصص عن شباب الفنانين: أراد أن يرسم، فمنعه أبوه ظناً منه بأن هذه الرغبة ليست سوى ستار للكسل، وكان الغلام يتسلل من فراشه ليلاً ليرسم الصور، فلما وقع بصر أبيه على صورة منها لانت قناته فأوفده ليدررس على يد مصور في ليون. ولم يطل رضاء جان-بابتيست عما استطاع أن يتعلمه هناك فيم شطر باريس. وعمل فترة في الفقر الذي تمتحن به الموهبة الشابية. وكان محقاً فيما بعد في إبراز الجانب الأفضل في الناس، لأنه وجد كما يجد معظمنا

صفحة رقم : 12997

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

الكثير من العطف مختلطاً بما في الدنيا من عدم مبالاة وانشغال عن الموهبة. وحوالي عام 1754 اشترى جماع للفنون يدعى لاليف دجوللي صورة رسمها جرور تسمى "رب الأسرة" (وقد استعمل ديدرو هذا العنوان ذاته لتمثيله الثانية عام 1758) وشجعه على مواصلة التصوير. ورأى الفنان الذي كان يعلم التصوير للأسرة المالكة صورة بريشة جرور، فرشحه للأكاديمية. ولكن كل مرشح كان ينتظر منه أن يقدم خلال سنة أشهر رسماً لمشهد من مشاهد التاريخ. ولم تكن هذه المشاهد التاريخية مما يوافق مزاج جرور فترك حقه في الترشيح يسقط، وقبل ما عرضه الأبيه جوجنو من تمويل رحلته إلى روما (1755).

وكان قد بلغ الثلاثين، ولايد أنه أحس قبل ذلك بزمن بسحر الأنثى، أو ليس نصف الفن نتاجاً جانبياً لتلك القوى القاهرة؟ وقد خبرها في روما خبرة أورثته تباريح الجوى. ذلك أنه عهد إليه بتعليم الرسم للينتيا، ابنة أحد الأدواق، وكانت في ميعة الصبا، فما الذي يستطيعه إلا أن يقع في غرامها؟ وكان مليح الصورة، له شعر مموج ووجه بشوش متورد وكان زميله في الطلب فرجونار يلقيه "الملاك العاشق" أنظر في اللوفر إلى صورته التي رسمها لنفسه في شيخوخته، ثم تخيله وهو في الثلاثين. ولم يكن مناص من أن تلعب لينتيا حميا الشباب الذي لا يعياً بالمال، دور هلويز أما هذا الأبيلا، باستثناء الجراحة. ولم يستغل ضعفها، وعرضت عليه الزواج: وكان يهفو إليه، ولكنه أدرك أن زواج فنان فقير بوارثة دوق سيقلب بعد قليل مأساة للفتاة. وإذا كان غير واثق من قدرته على السيطرة على نفسه فقد عقد النية على ألا يراها ثانية. فمرضت، وزارها وسرى عنها، ولكنه عاد إلى تصميمه. ويؤكدون أنه ظل ثلاثة أشهر يلزم فراشه بحمى وهذيان متكرر(56). وفي 1756 قفل إلى باريس دون أن يتأثر إطلاقاً بالفن الكلاسيكي أو الإحياء الكلاسيكي الجديد.

يقول "بعد وصولي إلى باريس اتفق أن مررت-ولا أدري أي قدر دفعني إلى هذا-بشارع سان-جاك، حين لحظت الأنسة بابوتي خلف

صفحة رقم : 12998

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

منصدها(57)". وكانت جاربييل بابوتي تعمل في مكتبة، وكان دييرو يشتري كتبها و"يحبها كثيرا" (على حد قوله) قبل ذلك بسنوات. وكانت الآن (1756-57) قد تجاوزت الثلاثين (كما يقول جروز) تخشى أن تظل عانساً: فوجدت جان بابتيست غير ميسور الحال ولكنه حلو. وبعد أن زارها بضع مرات قالت له "يا مسيو جروز، أنتزوجني أن رضيت بك زوجاً؟" وأجاب كما يجب أي فرنسي مهذب "يا أنسة، ألا يكون أي رجل غاية في السعادة إذا أنفق حياته مع امرأة ساحرة مثلك؟" ولم يفكر في الأمر أكثر من هذا. ولكنها تركت الجيران يفهمون أنه خطيبها. ولم يطاوعه قلبه على تكذيبها، فتزوجها وظلا سبعة سنين ينعمان بقسط معقول من السعادة. وكانت ذات جمال مغر، فاستخدمها راضية مودياً في كثير من الأوضاع التي لم تكشف عن شيء وإن ألمعت لكل شيء. وأنجبت له في تلك السنين ثلاثة أطفال عاش منهم اثنان كانا إلهاماً لفنه.

ويعرفه العامل بصور الأطفال التي رسمها. وعلينا ألا نتوقع هنا روعة لوحة فيلاسكوز "دون بلتازار كارلوس" (68). أو لوحة فانديك "جيمس الثاني صيباً" (59)، لا بل إنا أحياناً قد نصطمم بما في بنات جروز من غلو وتهافت في العاطفة، كما تشهد بذلك "صورة عذراء" المحفوظة ببرلين، ولكن لم نرفض ما في صورة "البراءة" (60) من خصل متموجة، وخدود متوردة، وعيون فيها الحزن والثقة، أو ما في لوحة "الفلاحة الصغيرة" (61) من بساطة لم يفسدها التبرج؟ كذلك لا نجد تكلفاً في لوحة "الغلام وكتاب الدرس" (62)، فهي تصور أي غلام مل واجباً يبدو له مقطوع الصلة بالحياة. ومن بين 133 لوحة بقيت من رسوم جروز، اختص البنائي بست وثلاثين. وقد أشتري يوهان جيورج فلي، الحفار الألماني نزيل باريس. ما استطاع شراءه من هذه الصور المثالية للطفولة، ورأها "أثمن من أروع صور هذا العهد" (63) ورد جروز هذه التحية بتصويره السكسوني غير الجذاب مثلاً للفحولة. على أن هؤلاء الفتيات يشوبهن التكلف والصنعة إذ يكبرن في فن جروز. مثال ذلك أن "اللبانة" (64) تبدو في أبهى لباس كأنها تتأهب للذهاب إلى المرقص، وصبية "الجرة المكسورة" (65) لا داعي (إلا داعي

صفحة رقم : 12999

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

الجمال) يدعوها للكشف عن حلمة ثديها وهي في طريقها من البئر. ولكن في صورة لصوفي أرنو(66)، وتبدو القبعة ذات الريش، والوقففة الأنيقة، والشفاة القرمزية، كلها طبيعية. لقد كان جروز أشبه بشاردان صغير فيه مسحة من بوشيه، رجلاً معجباً حقيقة بالفضيلة وبحياة الطبقة الوسطى، ولكنه يكسوها بين الحين والحين إغراءً شهوانياً كان شاردان يتجنبه. وكان في استطاعة جروز إذا نسي أجساد نسائه أن ينشد في صورة أنشودة الحياة العائلية البرجوازية، كما نرى في "عروس القرية" (67) التي ظفرت بأكبر جائزة حين عرضت في آخر أسبوع لصالون 1761، وأصبحت حديث باريس. وأطرها دييرو لما فيها من "عاطفة حلوة" وأشاد بها "مسرح الإيطاليين" إشادة لم يسبق لها نظير، إذ قدمها في "لوحة حية" على المسرح. وقد وجد الخبراء فيها عيوباً من ضوء لم يحسن المصور التصرف فيه، إلى ألوان متنافرة، إلى قصور في الرسم والتنفيد، وضحك الأرستقراطيون على ما فيها من غلو في العاطفة، ولكن جمهور باريس، الذي كان قد عب في الزنا حتى الثمالة،

وأبكتها في هذه السنة بعينها "جولي" روسو، كان في مزاج يدعو للاحترام والنصائح والتحذيرات الخلقية التي كادت تسمع من فم والد العروس إلى زوجها الموعود. وكانت كل عقيلة من عقائل الطبقة الوسطى عليمة بمشاعر تلك الأم وهي تسلم ابنتها لمشاق الزواج ومخاطره، وكل فلاح كان يشعر بأنه ليس غريباً في ذلك الكوخ الذي تنقر فيه دجاجة وأفراخها الغلة على أرضه أو تشرب في اطمئنان من القدر التي تحت قدم الأب. وأشتري مركزى دمارينييه الصورة لفوره، ودفع الملك فيها بعد ذلك 16.650 جنيهاً ليحول دون بيعها بالخارج. وهي اليوم محفوظة بإحدى حجرات اللوفر التي لا تحظى بزوار كثيرين، وقد أتلّفها تغير ألوانها السطحية جداً، وعض الجمهور من قدرها في غمرة تمرد الواقعية والكلبة على العاطفة المتقائلة.

وأحس كل فناني باريس تقريباً بأن جروز حط من شأن الفن لأنه سخره للوعظ من خلال الروايات والقصص بدلاً من كشف الحقيقة والطباع

صفحة رقم : 13000

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

بنفاذ بصيرة وعدم تحيز. ودافع عنه ديبرو قائلاً إنه "أول فنانينا الذي أضاف الخلق على الفن، وهياً صورته لتروي قصة(68)" وبلغ به الأمر حد الدهشة والتعجب من الماسي الرقيقة التي رسمها جروس، فصاح في أسى "الذبيذة! لذبيذة!" حين رأى لوحة "الفتاة الصغيرة تبكي على عصفورها الميت" وكان هو نفسه يدعو لمواضيع الطبقة الوسطى ومشاعرها في الدراما، فأنس في جروز حليفاً عظيم القيمة وأطره حتى فوق إطرانه شاردان. وغلا جروس في تصديقه، فكرر نفسه كأنه رسول الفضيلة والعاطفة، وأرسل إلى مجلات باريس شروحاً طويلة للدروس الأخلاقية في الصور التي كان ينتجها. وأخيراً استتفز ترحيب جمهور الفن به حتى إبان تسلط العاطفة على مزاج العصر. وكان خلال فترة السنوات الأثنتي عشرة كلها منذ قبول ترشيحه للأكاديمية قد أهمل أن يقدم لها الصورة التاريخية التي كانت شرطاً للعضوية الكاملة، وكانت الأكاديمية ترى أن الصورة التي ترسم المشاهد المألوفة التي تصف الحياة البيئية أو اليومية تتطلب من الموهبة الناضجة أقل مما يتطلبه التأليف القادر على التخيل، والتمثيل الكفء لمشهد من المشاهد التاريخية، ومن ثم قبلت مصوري مشاهد الحياة اليومية على أنهم "مقبولون Agr(es) فقط، ولكنهم ليسوا بعد صالحين للدرجات أو الكراسي الأكاديمية. وفي 1767 أعلنت الأكاديمية أن صور جروز سيتوقف عرضها في الصالون البيئالي حتى يقدم لها صورة تاريخية.

وعليه ففي "29 يوليو 1769" قدم جروز صورة لسبتمبوس سفير روس يوبخ ابنه كراكالا لمحاولته اغتياله(69). وأطلع أعضاء الأكاديمية على الصورة، وبعد ساعة أبلغه المدير أنه قبل، ولكنه قال له: "سيدي، لقد قبلت في الأكاديمية مصوراً للمشاهد اليومية. وقد أخذت الأكاديمية في الاعتبار تفوق صورك السابقة، وأغمضت عينها عن الإنتاج الحالي غير الجدير بها ولا بك(70)". وصدّم جروز، فدافع عن لوحته، ولكن أحد الأعضاء بين الأخطاء في الرسم. وأحتكم جروز إلى الجمهور في خطاب

صفحة رقم : 13001



## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

لصحيفة "الأفان كوربيه" (25 سبتمبر 1769)، وأخفق شرحه في إقناع الراسخين في الفن، وحتى ديدرو سلم بعدالة النقد.

وألّمع ديدرو إلى أن قصور اللوحة راجع إلى أن فشل المصور في زواجه شوش ذهنه. وأتهم جابرييل بابوتي بأنها تردت إلى درك المرأة المشاكسة المغرورة، فاستنزفت مال زوجها بإسرافها؛ وأرهفته بمضابقتها؛ وحطمت عزة نفسه بخياناتها المتكررة (71). وقدم جرور نفسه لرئيس الشرطة (11 ديسمبر 1785) شهادة خطية يتهم فيه زوجته باستقبال عشاقها بإصرار في بيته ورغم احتجاجاته. وفي خطاب لاحق اتهمها بسرقة مبالغ كبيرة منه، وبمحاولة "تحطيم رأسي بمبولة (72)". وحصل على انفصال شرعي، وأخذ ابنتها في حضانتها، وترك لها نصف ثروته ومعاشاً سنوياً قدره 1.350 جنيهاً.

وتدهور خلقه إثر هذه اللطمات، فبات يضيق بأبي نقد، وفقد كل تواضع في الإشادة بلوحاته. على أن الجمهور وافقه على اعتزازه بنفسه، فأقبل على مرسمه وأثراه بشراء صورته، والنسخ المطبوعة منها. واستثمر هو مكاسبه غي سندات حكومية، ولكن الثورة أطاحت بقيمة هذه السندات، وألقى جرور مملقاً، في حين انهارت سوق صورته الممثلة للسعادة والسلام البيتين نتيجة "لاستغراق فرنسا في العنف الطبقي، والهيّاج السياسي، ورد فعل الكلاسيكية الجديدة". وأنقذته الحكومة الجديدة إنقاذاً معتدلاً (1792) بمعاش قدره 1.537 جنيهاً، ولكن سرعان ما نفذ هذا المعاش فالتمس سلفة، وجاءت امرأة من الرعاى تدعى إنتيجون لتعيش معه وتعنى بصحته المتدهورة. فلما قضى نحبه (1805) كان العالم كله تقريباً قد نسيه، ولم يرافق جثمانه إلى القبر سوى فنانين اثنين.

د- فراجونار

تغلب جان-أونوريه فراجونار على محن النجاح خيراً من جرور، لأنه كان يفوقه شهوانية وصنعة. وفنه الأنيق هو التمجيد الأخير للمرأة الفرنسية في القرن الثامن عشر.

صفحة رقم : 13002

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

ولد في جراس بإقليم بروفانس (1732): فأضفى على فنه أريج وطنه وعبير أزهاره، فضلاً عن عشق التروبادور الرومانسي، وأضاف إلى هذا كله مرح الباريسييين وتشككهم الفلسفي. وجلب إلى باريس في الخامسة عشرة فطلب إلى بوشيه أن يقبله تلميذاً، وقال له بوشيه بكل ما في وسعه من تلطف إنه لا يقبل غير الطلاب المتقدمين. فذهب فراجونار إلى شاردان ليخدمه. وكان في ساعات فراغه ينسخ الروائع الفنية أينما جدها. وأطلع بوشيه على بعض هذه النسخ فأعجب بها إعجاباً شديداً حمّله على قبوله الآن تلميذاً، وجند خياله الفني في عمل تصميمات لقطع النسيج المرسومة، وتقدم الغلام بسرعة حتى حثه بوشيه على دخول المسابقة لنيل جائزة روما. وقدم فراجونار لوحة تاريخية سماها "يربعام يضحى للأصنام (73)". وكانت إنتاجاً ممتازاً لفتى في العشرين-فيها الأعمدة الرومانية الفخمة، والأرواب المنسابة، ورؤوس الشيوخ الملتحية، أو المعجمة، أو الصلعاء، وكان فراجونار قد تعلم في زمن قليل بحث نرى في

الوجه العجوز من الملامح أكثر من وجه لم تطبعه بعد الرغبة في الإثارة والاستجابة. ومنحته الأكاديمية الجائزة، فدرس ثلاث سنين في مرسم كارل فانلو، ثم انطلق في نشوة إلى روما (1765).

وثبتت همته كثرة الروائع التي وجدها هناك أول الأمر:

"لقد روعتني همة ميكل أنجيلو فجاشت في صدري عاطفة عجزت عن التعبير عنها، وحين رأيت روائع روفائيل تأثرت إلى حد البكاء ووقع القلم من يدي. وفي النهاية رانت عليّ حالة من التراخي لم أقوَ على قهرها. ثم ركزت على درس المصورين الذين أتاحوا لي الأمل في أنني قد أنفسم يوماً ما. وهكذا جذب انتباهي باروتشيو، وبييترو داكورتونا، وسليينا، وتيبوللو (74)".

وبدلاً من أن ينسخ صور قدامى الفنانين راح يرسم التصميمات أو التخطيطات للقصور، والقناطر، والكنائس، والمناظر الطبيعية، والكروم، وأي شيء آخر، ولا غرو فقد ملك الآن في استعمال القلم تلك البراعة التي

صفحة رقم : 13003

قصة الحضارة - روسو والثورة - فرنسا قبل الطوفان - فن الحياة - حياة الفن

ستحوله واحداً من أقدر الرسامين وأكملهم في عصر غني في ذلك الفن الأساسي . وقل من الرسوم ما ألتقط من الحياة الطبيعية أكثر من الأشجار الخضراء في فيلا دستي كما رآها فراجونار في تريفيولي (75). فلما عاد إلى باريس عكف على إرضاء الأكاديمية بلوحة تاريخية، باعتبار هذه اللوحة شرطاً لا غنى عنه في قبول الرسام عضواً بها. ووجد المواضيع التاريخية كما وجدها جروز، لا تناسبه، فقد اجتذبت باريس جميلة بنسائها الساحرات بأقوى مما اجتذبه الماضي. وكان تأثير بوشيه لا يزال حاراً في مزاجه. وبعد تلك كثير قدم لوحة "كبير الكهنة كوربروس يضحى بنفسه لينقذ كالليروبيه"؛ ولا حاجة بنا للوقوف والاستفسار عن كون هذا الكاهن وتلك العذراء، والمهم أن الأكاديمية وجدتهما نابضتين بالحياة مرسومين رسماً جيداً، فمنحت فراجونار عضوية مشاركة. وقال ديدرو في حماسة عارمة "لا أعتقد أن أي فنان آخر في أوروبا كان مستطيعاً تصوير هذه اللوحة (76)". واشترها لويس الخامس عشر لتكون تصميماً لقطعة نسيج مرسومة. ولكن فراجونار نفى يده من المواضيع التاريخية، بل إنه بعد 1767 رفض أن يعرض في الصالون، وقصر إنتاجه كله تقريباً على التكاليف الخاصة حيث يستطيع إطلاق العنان لذوقه من القيود الأكاديمية. ولقد تمرد على تلك "الصلصة البنية" صلصة النهضة الأوروبية، قبل أن يتمرد عليها الرومانسيون الفرنسيون بزمان طويل، وأنطلق في مرح إلى بحار أرحب وأقل تخطيطاً. ولكنها لم تكن خلواً تماماً من التخطيط. فقد فتح فانتو الطريق من قبل بنسائه اللائي كساهد أثواباً مشرقة وهن منطلقات بضمير مطمئن إلى جزيرة فينوس، وكان بوشيه قد نهج هذا النهج بحواس مرحة لعب، وزوج جروز بين الشهوانية والبراءة. أما فراجونار فقد جمع بين هذه كلها: ففي لوحاته الثياب الهفافة ترف في النسيم، والغواني الرقيقات يعرضن اللذات الطليقة من كل قيد، والنبيلات الأنبيقات يسحرن الرجال

صفحة رقم : 13004

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

بخفيف ثوب أو رقة قميص، أو بحركة رشيقة متناغمة أو بسمة تلين الأفئدة، والأطفال السمان المتوردون الشعث، الذين لم يكتشفوا الموت بعد. وقد صور في رسومه ومنماته كل ناحية تقريباً من نواحي الطفولة-وضع يعانقون أمهاتهم، وفنيات يدلن عرائسهن، وصبية يركبون حماراً أو يلعبون مع كلب....

وقد استجاب ميول فرجونار العشيقة الغالية لطلبات رجال الحاشية المكتهلين، والخليلات المتعبات، من الصور التي تشيد بالجسد وتلهبه. فجال بين أرجاء الأساطير الوثنية بحثاً عن ربا امتعت أجسادهن الوردية على فعل الزمن. وكانت فينوس، لا العذراء، هي التي رفعت الآن في صعود ظافر إلى السماوات. وسطاً على نصف شعائر الدين لمهرجانات الغرام: فكانت لوحته "القبلة" (77) صلاة، و"نذر الحب" عهداً مقدساً، و"قربان الوردية" التقدمة الأخيرة. ومن بين صور أربع رسمها فرجونار لقصر مدام دوباري الريفي في لوفسبين كان لإحداها عنوان يصلح لتغطية نصف إنتاج الفن: "الحب الذي يشعل الكون". ثم نبشنا في ملحمة "تحرير أورشليم" بحثاً عن المشهد الذي تعرض فيه الحوريات مفاتنه أمام رينالدو العفيف. وأصبح هذا الفنان "بوشيه" الفراش، إذ أدى النساء نصف عاريات أو عاريات تماماً؛ كما يرى في لوحات "الجمال النائم" أو "القميص المخلوع أو الباخوسية النائمة" (78). فلما أدرك أن العري قد يقشع الأوهام تحول من التصريح إلى التلميح، ورسم أشهر لوحاته "مخاطر الأرجوحة" (79)، ففيها يرى العاشق يتقرس بابتهاج في أسرار ثياب عشيقته الداخلية التي تتكشف وهي تتأرجح لأعلى فأعلى، وتقذف بخفه في الهواء بتحرر لعوب. وأخيراً استطاع فرجونار أن يتقمص جرور، بل وشاردان: فصور النساء المحنثمات، كما في لوحاته "الدراسة" و"المطالعة" (80). و"قبيلات الأم"، وفي صورة "مدموازيل كولومب" أكتشف أن النساء نفوساً. وفي 1769، حين بلغ السابعة والثلاثين، أذعن للزواج، فحين قدمت الأنسة جيرار من جراس لدراسة التصوير في باريس، كان حسبها أن تذكر

صفحة رقم : 13005

## قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

مسقط رأسها حتى تظفر بالقبول في مرسم فرجونار. ولم تكن جميلة، ولكنها كانت امرأة مكتملة النضج، وقرر "فراجو" (كما كان يسمي نفسه) كما قررت مدام بوفاري، أنه لا يمكن أن يكون الاكتفاء بامرأة واحدة مملاً أكثر من الزنا. ووجد متعة جديدة في العمل معها في رسم صور مثل "خطوات الطفل الأولى" وفي التوقيع معها على الصور. فلما ولدت طفلها الأول استأذنته في استدعاء أختها البالغة أربعة عشر عاماً من جراس لتعنيها على الطفل والبيت؛ فوافق وظلت هذه الأسرة سنين تعيش في سلام مزعزع.

تنافس الآن جرور في تصوير الحياة البيئية، ونافس بوشيه في توصيل هدوء المشاهد الريفية إلى أنظار المشاهدين. ورسم بعض الصور الدينية، وصور أصدقاءه. وكان في صداقته أثبت منه في حبه، فلم يفتر قط تعلقه بجرور وروبير ودافيد رغم ما أصابوه من نجاح. وحين نشبت الثورة أهدى صورة وطنية سماها "الأم الطيبة" للأمة. وكادت مدخراته تفقد قيمتها نتيجة للتضخم وتخلف الحكومة في الوفاء بديونها، ولكن دافيد الفنان الأثير لدى العهد الجديد، حصل له على وظيفة شرفية صغيرة. وفي نحو هذه الفترة رسم صورته الذاتية الرائعة المعقدة الآن في اللوفر: الرأس قوي ضخم والشعر أشيب قصير القص، والعينان ما زالتا هادنتين ثقة واطمئناناً. وقد روعه عصر الإرهاب وقززه، ففر إلى وطنه الأول جراس، حيث وجد المأوى في بيت صديقه موبير وقد زين الجدران بلوحات تعرف في جملتها باسم "رواية الحب والشباب" وقد رسمها خصيصاً لمدام دوباري، ولكنها كانت قد رفضتها لأنها لم تعد في ثرائها السابق، وهي اليوم من كنوز فريك جالري بنيويورك.

وذاث يوم من أيام الصيف كان راجعاً من جولة في باريس وقد حمى جسمه وتصبب عرقاً، فوقف عند مقهى وتناول قطعة من الجبلاطي وأصيب للتو تقريباً باحتقان في المخ. ونعم بميته عاجلة (22 أغسطس 1806). وقد أقامت جراس تمثالاً جميلاً لتخليد ذكراه، وتحت قدميه طفل عارٍ ومن خلفه شابة تدوم ثوبها في رقصة مرحة.

صفحة رقم : 13006

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> حياة الفن

أن الفنان لابد أن يدفع ثمناً لرمزه لعصر ما، شهرته تضمحل بزوال رغبات العصر المشبوبة، ولا سبيل إلى عودة هذه الشهرة إلا إذا رفع قدره عاطف البعد، أو رد تحول في التيار موضة قديمة إلى الذوق الحاضر. وقد زكا فراجونار لأن فنه العاري أو الكاسي أبهج زمانه، بتلطيفه وتزيينه للانحلال، ولكن الناموس الصارم الذي خضعت له ثورة تقاثل في سبيل الحياة سائر أقطار أوربا، كان في حاجة إلى أرباب غير فينون تلهمه، فوجدها في أبطال روما الجمهورية، الشديدي المراس. لقد انتهى عصر المرأة وعاد حكم المقاتل؛ وأقبل جيل جديد من الفنانين على النماذج اليونانية-الرومانية، التي أعاد تأليها فنكلمان، واكتسح الطراز الكلاسيكي الجديد الباروك والروكوك في موجة عارمة من الأشكال القديمة.

صفحة رقم : 13007

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

6- الصالونات الكبرى

أ- مدام جوفران

لقد دالت دولة المرأة، ولكن بعد أن بلغت الصالونات ذروتها. وبلغت تلك المؤسسة الفذة أوجها بدمام جوفران، وانحسرت في حمى من الرومانسية بدموازيل دليسييناس. وستنتعش بعد الثورة بالسيدتين دستال وربكاميه، ولكنها لن تدرك أبداً فنتة وخصوبة تلك الفترة التي كان يلتقي فيها مشاهير الساسة في أيام السبت بصالوات مدام دوديفا،

والفنانون في أيام الاثنتين والفلاسفة والشعراء أيام الأربعاء بصالون مدام جوفران، والفلاسفة والعلماء أيام الثلاثاء بصالون مدام هلفتيوس، وأيام الأحد والخميس بصالون البارون دولباخ، وفحول الأدب وأقطاب السياسة أيام الثلاثاء بصالون مدام نكير، وقد يلتقي أي منهم في أي ليلة بصالون جولي دليسييناس. وإلى هذه الصالونات كان هناك الكثير من الصالونات الصغرى: كصالونات السيدات دلكسمبورج ودالافالير، ودفور كالكييه ودتالمون، ودبرولي، ودبوسي، ودكروسول ودشوازيل، ودكامبيس ودميربوا ودبوفوا، دانفيل، وديجون، ودودتو ودماشيه، ودوبان، وديبينيه. ولم يكن الجمال هو الذي زين ربات الصالونات هؤلاء، فقد كان جلهن

صفحة رقم : 13008

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

نساء نصفاً أو أكبر، إنما هو ذلك المركب من الذكاء، واللباقة، والكياسة، والنفوذ والمال غير المتطفل، الذي مكن للمضيئة أن تجمع نساء ذوات فتنة وسحر، ورجالاً ذوي عقول راجحة يستطيعون أن يجعلون اجتماعاً أو مجلس سمر يتألق ظرفاً أو حكمة دون أن يوجوه انفعالاً أو تعصباً. ولم يكن الصالون منها مكاناً للمغازلات ولا للمواضيع العشيقية أو التوريات. (81) فقد يكن لكل رجل فيه خلية ولك امرأة عشيق، ولكن هذا كان يستر بأدب في التبادل المتحضر للمجاملات والأفكار. وكانت الصداقات الأفلاطونية تستطيع أن تجد القبول هناك، كما كان الحال مع دودفان وهوراس وليول، أو مع ليسبينياس ودالامبير. وباقتراب الثورة نزع الصالونات إلى فقدان تساميتها الهادئ وأصبحت مراكز للتمرد.

وذاعت شهرة صالون مدام جوفران لأنها كانت أبرع مروضي السباع بين ربات الصالونات، ولأنها أتاحت للرواد مزيداً من حرية النقاش، ولأنها عرفت كيف تمنع الحرية من تجاوز حدود السلوك المهذب أو الذوق السليم دون أن تبدو مستبدة. وكانت إحدى النساء القليلات اللاتي برزن من الطبقة الوسطى ليحتفظن بصالون مرموق. وكان أبوها، وصيف الدوقية ماري-آن، وقد تزوج بابنة مصري، وأول من رزقا من أطفال في 1699 هي ماري-تريز، التي أصبحت فيما بعد مدام جوفران. ووضعت أمها، وكانت امرأة مثقفة موهوبة في التصوير، الخطط الطموحة لتنشئة ابنتها، ولكنها ماتت عام 1700 وهي تلد صبياً. وأرسل الطفلان ليعيشا مع جدتهما في شارع سانت-أونوريه-موبعد نصف قرن عللت مدام جوفران افتقارها إلى التبحر في الثقافة خطاب أجابت به ما طلبته كاترين الثانية في سيرة ذاتية موجزة لها.

"ولم تحظ جدتي...إلا بنصيب ضئيل من التعليم، ولكن كان لها عقل أوتي من قوة الملاحظة، والذكاء، والسرعة،... بما جعله دائماً بديلاً عن المعرفة. وكانت تتحدث حديثاً لطيفاً جداً عن أمور لا تعرف عنها شيئاً حتى لم تنترك زيادة لمستزيد...وبلغ رضاؤها عن

صفحة رقم : 13009

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

حظها مبلغاً جعلها ترى التعليم نافلة لا تحتاج إليها المرأة". وكانت تقول "لقد وفقتُ توفيقاً لم يجعلني أشعر قط بحاجتي إليه. فإذا كانت حفيدتي حمقاء فستجعلها المعرفة معتدة بذاتها لا يطبقها أحد، وإذا كان له ذكاء وفطنة فسوف تسلك كما سلكت، وسوف تعوض النقص بلياقته ونفاذ بصيرتها، ومن ثم فإنها في طفولتي لم تعلمني غير القراءة، ولكنها جعلتن أقرأ كثيراً، وعلمتني أن أفكر، وأن أجادل، وعلمتني أن أعرف الرجال وجعلتن أعرب عن رأيي فيه، وأخبرتني كيف تحكم هي عليهم... وما كانت تطبق ضروب النظرف التي يعلمها مدرسو الرقص، وكل ما تمنته لي هو أن تكون لي الرشاقة التي تهيئها الطبيعة للمرأة الحسنة الخلقة(82)".

وأحست الجدة أن الدين أهم من التعليم، ومن ثم كان الطفلان اليتيمان يؤخذان لحضور القداس كل يوم. كذلك اهتمت الجدة بزواج ماري، ذلك أن رجل أعمال غنياً يدعى فرانسوا جوفران، في الثامنة والأربعون من عمره، تقدم للزواج من الفتاة ذات الثلاث عشر ربيعاً، ورأت الجدة في ذلك العرض صفقة طيبة، وكان في تربية ماري وتهذيبها المفرط ما منعه من الاعتراض. على أنها أصرت على أن تصحب معها أباها إلى بيت السيد جوفران المريح، والواقع في شارع سان-أوتوريه أيضاً، والذي قدر لها أن تقوم عليه إلى نهاية عمرها. وفي 1715 أنجبت ابنه، وفي 1717 ابناً-مات في العاشرة.

وفي ذلك الشارع العصري ذاته افتتحت مدام دنتسان صالوناً مشهوراً. ودعت إليه مدام جوفران فأعترض زوجها. ذلك أن ماضي مدام دنتسان كان قد أحدث بعض الضجة، وأن ضيوفها الأثريين كانوا من أحرار الفكر أمثال فونتينيل، ومونتسكيو، وماريفو، وبريفوست، وهلفيتيوس، ومارمونتيل. على أن مدام جوفران ذهبت برغم ذلك، فلقد بهرتها هذه العقول الطليقة من كل قيد. فما كان أثقل أولئك التجار الذين يأتون لزيارة

صفحة رقم : 13010

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

زوجها الشيخ بالقياس إلى هؤلاء! وكان الآن قد بلغ الخامسة والستين، وهي لم تزل "امرأة الثلاثين" كما يقول بلزاك. وبدأت هي أيضاً تستضيف الزائرين. فاعترض، ولكنها تغلبت عليه، وأخيراً ارتضى أن يترأس على حفلات عشائها؛ صامتاً عادة ومؤدباً دائماً. فلما مات (1749) في الرابعة والثمانين، لم يكد ضيوفها يلحظون غيابه. واستفسر أحد رواد الصالون حين عادوا من رحلة عما أصاب السيد العجوز الذي كان يجلس في استحياء شديد على قمة المائدة. وأجابت مدام جوفران برفق "أنه كان زوجي، وقد توفي(83)".

كذلك طوت مدام دنتسان رحلة الحياة عام 1749، مما فزع له ضيوفها المعتادون. ويجب أن نذكر ثاني تلك الملاحظات التي أبداها فونتينيل الذي بلغ يومها الثمانية والتسعين: "امرأة طيبة جداً (مع أنه كانت تركيبة من الأثام الحقيقية). ياله من خطب مقلق؟ فأين أتناول غدائي الآن الثلاثاء؟" ولكن أساريه انفجرت وقال: "حسناً، في أيام الثلاثاء يجب أن أتناول الغداء في بيت مدام جوفران(84)". وقد أبهجها أن يحضر، لأنه كان "فيلسوفاً" قبل مونتسكيو وفولتير، يحتفظ بذكريات تمتد إلى مازاران، وقد بقي له من الأجل سبع سنوات؛ وكان في وسعه أن يحتفل المعاكسة دون أن يتأذى منها لأن سمعه ثقيل. وحذا حذوه أكثر مشاهير القوم الذين تألقوا على مائدة دنتسان؛ وسرعان ما جمع غداء أربعاء جوفران، في وقت أو آخر، مونتسكيو، وديدرو، ودولباخ، وجريم، وموريلليه؛ ورنال، وسان-لمبير، والأبيه فرديناندو جالياني؛ النابولي القصير الأريب؛ سكرتير السفير النابولي في باريس.

وعقب موت زوجها، ورغم معارضة ابنتها الساخطة، سمحت مدام جوفران لديدرو، ودالامبير، ومارمونتيل، بأن يقرروا خط النقاش ونبرته في حفلات غدائها أيام الأربعاء. لقد كانت وطنية ومسيحية، ولكنها أعجبت بشجاعة

الفلاسفة وحيويتهم. فلما نظمت "الموسوعة" تبرعت بأكثر من 500.000 جنيه في نفقاتها وأصبح بيتها يعرف بـ"صالون

صفحة رقم : 13011

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

الموسوعة"، وحين هجا باليسو المتمرددين في هزلية "الفلاسفة" (1760) سخر منها في شخصية سيداليز، الجنية عراية "الثلة". وبعدها طلبت إلى سباعها أن يزأروا بأدب أكثر من ذي قبل، وكبحت البلاغة الجامحة بعبارة مجاملة خففت من غلوائهم- "أه، هاهنا شيء طيب(85)!" وأخيراً سحبت دعوتها الدائمة لديدرو، ولكنها أرسلت إليه طقماً من الأثاث الجديد وروباً فخماً فخامة غير مريحة.

واكتشفت أن الفنانين والفلاسفة، ورجال الأعمال، لا ينسجمون إذا اجتمعوا معاً، فالفلاسفة يحبون النقاش والثروة، والساسة يتوقعون التحفظ والتأدب، أما الفنانون فقبيلة صحابة لا يستطيع فهمهم غير الفنانين. وعليه فإن المدام التي كانت جماعة للفن والتقطت شيئاً من حرارة الجماليات من الكون دكايلوس، دعت أقطاب الفن وذواقه الباريسيين إلى حفلات عشاء خاصة في أمسيات الاثنين. ولبى الدعوة بوشيه، ولاتور، وفرنيه، وشاردان، وفانلو، وكوشان، ودرويه، وروبير، وأودريه، وناتيه، وسوفلو، وكايلوس، وبوشاردون، وجروز. وكان مارمونتيل الفيلسوف الوحيد الذي سمح له بحضور هذه الحفلات لأنه كان يسكن في بيت مدام جوفران، ولم تكتفِ المضيفة اللطيفة بالاحتفاء بضيوفها، بل اشترت أعمالهم وجلست إليهم ليصوروها، وأجزلت لهم الأجر، وصورها شاردان خيراً من سائر الفنانين، سيدة بدينة لطيفة في قبعة من الدانتيل(86).

وبعد موت فانلو اشترت صورتين من صوره بأربعة آلاف جنيه ثم باعتها لأمير روسي بخمسين ألف جنيه، وأرسلت الربح لأرملة المصور(87).

واستكمالاً للضيافة كانت مدام جوفران تقيم "حفلات عشاء صغيرة" لصدقاتها. ولكنها لم تدع نساء لحفلات الاثنين، وكانت مدموازيل دليسيبيناس (ربما بوصفها نفس دالامبير الثانية) من النساء القليلات اللاتي حضرن أمسيات الأربعاء. ذلك أن المدام كانت على شيء من حب التملك،

صفحة رقم : 13012

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

ثم أنها وجدت أن حضور الإناث يصرف سباعها عن الفلسفة والفن. وبدا أن سياسة الفصل بين الجنسين التي انتهجتها قد بررها ما كسبته ندواتها من صيت ذائع بالمناقشات الطريفة الهامة. واحتال الأجنب في باريس للظفر بدعوات إلى صالونها، ذلك أن مباحاتهم، بعد عودتهم إلى أرض الوطن، بأنهم اختلفوا إلى صالون مدام جوفران، كانت تشريفاً لا

يفوقه إلا شرف المثل بين يدي الملك. وكان هيوم، وولبول، وفرانكلن، من بين ضيوفها الشاكرين. وحرص السفراء لدى بلاط فرساي-حتى الكونت فون كاونتز الرفيع المقام-على تقديم أنفسهم في ذلك المنزل المشهور في شارع سانت-أوتوريه. وفي 1758 اصطحب الأمير كانتيمير، السفير الروسي، أميرة انهالت تسريست التي حدثت القوم بفضائل ابنتها، ولم تنقضي أربعة أعوام حتى أصبحت هذه الابنة كاترين الثانية، وظلت إمبراطورة الأقاليم الروسية كلها سنين طوال بعد هذا، تبادل ربة الصالون البورجوازية الرسائل الساحرة. وعاد سويدي جميل ذكي ممن اختلفوا إلى بعض ولائم المدام إلى وطنه ليصبح جوستاف الثالث.

وثمة شاب أجمل هو ستانسلاس يونياتوفسكي كان كثير التردد بل كاد يكون من عباد مدام جوفران (التي كانت أحياناً تؤدي عنه ديونه(88))، وما لبث أن اعتاد أن يناديها "ماما"، فلما أصبح ملكاً على بولندا (1764) دعاها إلى زيارة وارسو ضيفاً عليه. فلبت الدعوة مع أنها بلغت الآن الرابعة والستين. وأقامت في طريقها بفيينا فترة، وكتبت تقول "أن القوم يعرفونني هنا خيراً مما يعرفني جيراني على ياردينين من بيتي(89)". وطلت حيناً في القصر الملكي بوارسو (1766) تقوم من الملك مقام الأم والمشيرة. وتبادل الناس الرسائل التي بعثت بها إلى باريس كما تبادلوا الرسائل التي بعثت بها فولتير من فرنیه، وقد كتب جريم يقول: "إن الذين لم يقرأوا رسائل مدام جوفران لم يكونوا أهلاً لمخالطة المجتمع الراقي(90)". فلما قفلت إلى باريس واستأنفت ولائها، ابتهج عشرات من مشاهير القوم، ونظم بيرون ودليل القصائد احتفاءً بعودتها.

وكانت الرحلة شاقة فقد استقلت مركبة اخترقت نصف أوروبا طولاً

صفحة رقم : 13013

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

ثم عادت بها إلى وطنها، ولم تعد مدام جوفران قط بعدها إلى سابق تيقظها ومرحها. وراحت الآن تجدد حرصها على العبادة الكاثوليكية، وهي التي أعربت من قبل عن أفكارها الحياة بعد الموت(91)، وأحالت الدين محبة ويراً بالناس. وقد وصف مارمونيل نقواها الغربية فقال:-

"لكي ترضى السماء دون أن تغضب مجتمعتها، ألقت العكوف على لون من العبادة المستورة. فنذهب إلى القديس سرأ كما يذهب غيرها إلى مؤامرة، ولها شقة في دير.... ومقعد خاص في كنيسة الكبوشيين تتكتم أمرها كما تتكتم النساء العاشقات في تلك الأيام عش غرامهن(92)".

وفي سنة 1776 أعلنت الكنيسة الكاثوليكية يوبيلاً يتلقى في كل من بزورون كنائس معينة في أوقات مقررة الحل والغفران. وفي 11 مارس حضرت مدام جوفران صلاة طويلة في كاتدرائية نوتردام. وعقب وصولها إلى بيتها أصابتها نوبة فالح. وغضب جماعة الفلاسفة لأن مرضها جاء عقب قيامها بالعبادة، وعلق الأبيه موريلليه تعليقاً لاذعاً "لقد أكدت بالقوة صدق القول المأثور الذي كثيراً ما رددته "أن المرء لا يموت إلا بفعل من أفعال العبادة(93)".

وتكلفت ابنتها المركيزة دلافرتيه-يامبو بأمرها المريضة، وحذرت الفلاسفة من زيارتها. ولم تقع عينا المدام ثانية على دالامبير ولا موريلليه، ولكنها رتبت زيادة في المعاشات التي كانت تجريها عليها بعد موتها. وامتد بها الأجل عاماً آخر، مشلولة عاجزة، ولكنها ظلت توزع صدقاتها إلى النهاية.

ب - مدام دو دفان



كان هناك صالون واحد في أوربا يستطيع صالون مدام جوفران شهرة ومريدين وقد سبق أن درسنا سيرة وخلق ماري ديفيشي-شامرون: وكيف وأنها وهي صبيبة أفزعت الراهبات والقساوسة بحرية فكرها، وكيف تزوجت المركز دو دفان، وهجرته، والتمست السلوى لوحدها في صالون (1739 وما بعدها)، بشارع بون أولاً، ثم (1747) بدير سان جوزيف

صفحة رقم : 13014

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

بشارع سان دومنيك. وروغ هذا الموقع الجديد الذي اختارته لصالونها جماعة الفلاسفة الذين كانوا يأتون ليستمتعوا بنبيذها وظرفها، إلا واحداً منهم هو دالامبير، الذي ظل يتردد عليه لأنه كان أقل أفراد هذه القبيلة مشاغبة وعدواناً. أما باقي الرواد فكانوا رجالاً ونساءً من الطبقة الأرستقراطية، يميلون إلى التعالي على مدام جوفران لأنها برجوازية. وحين كف بصر المركيزة وهي في السابعة والخمسين (1754) واصل أصدقائها الاختلاف إلى حفلات عشائها. ولكنها خلال باقي الأسبوع أحست وقع الوحدة في جزع متزايد، إلى أن أقنعت ابنة أخيها بالإقامة معها، والقيام بدور المضيعة المساعدة في أمسياتها.

وكانت جولي دليسناس الابنة غير الشرعية للكونتيسة دالبون وجسبار دفيشي، أخي مدام دو دفان، واعترفت الكونتيسة بها، وربتها مع أطفالها الآخرين، وأتاحت لها تعليماً ممتازاً، وحاولت إقرار شرعيتها، ولكن إحدى بناتها اعترضت فأخفقت المحاولة. وفي 1739 تزوجت هذه الأخت غير الشقيقة من جسبار دفيشي وذهبت لتعيش معه في قصر شامبرون الريفي ببرجنديا. وفي 1748 كانت الكونتيسة بعد أن أوصت بمعايش سنوي قدره ثلاثمائة جنيه لجولي البالغة آنذاك السادسة عشرة. وأخذت مدام دفيشي جولي إلى شامبرون، ولكنها عاملتها على أنها فتاة يتيمة غير شرعية تستخدمها مربية للأطفال. فلما زارت مدام دو دفان شامبرون راعها ما أنسته في الأنسة دليسناس من عقل نير وسلوك مهذب، وكسبت ثقة الفتاة، وعلمت أنها تشقى في وضعها الراهن شقاء حملها على أن تدخل ديراً. واقترحت المركيزة أن تأتي جولي وتعيش معها باريس. واعترضت الأسرة مخافة أن ترتب دو دفان تقرير شرعية جولي فيخول لها هذا حقاً في نصيب من تركة ألبون. ولكن المركيزة وعدت بأنها لن تسيء إلى أقرانها بعمل كهذا. ودخلت جولي أثناء ذلك ديراً (أكتوبر 1752) لا كراهبة مبتدئة بل كتلميذة في القسم الداخلي. وجددت المركيزة اقتراحها. ووافقت جولي بعد عام من التردد. وفي 13 فبراير 1754 أرسلت لها المركيزة رسالة غريبة يجب أن نتذكرها ونحن نحكم على ما تلاها:

'سأقدمك على أنك شابة من إقليم تريدين دخول دير، وسأقول إنني

صفحة رقم : 13015

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

قدمت لك مسكناً حتى تجدي مكاناً مناسباً لك. وستعاملين بأدب، بل بمجاملة، وفي وسعك أن تعتمد علي في أن أحداً لم ينال من كرامتك".

على أن.... هناك نقطة أخرى علي أن أشرحها لك. فأنا لا أطيق أي خداع، ولو كان مكرراً طفيفاً جداً، إن كنت تخطئينه بسلوكك. وأنا بطبعي شكاكة، اشتهبه في كل من أكشف فيهم المكر إلى أن أفقد كل ثقة فيهم. إن لي صديقين حميمين- فورمون ودالامبير، أحبهما حباً جماً، لا للطفهما وصدافتهما بقدر ما أحبهما لصدقهما المطلق. عليك إذن يا مليكتي أن تعترمي العيش معي بغاية الصدق والإخلاص... قد تظنين أنني أعظك، ولكني أؤكد لك أنني لا أفعل هذا أبداً إلا فيما يتصل بالإخلاص. ففي هذا لا تأخذني رحمة بأحد(94).

وفي إبريل 1754 أتت جولي لتسكن مع مدام دوفان، أولاً فوق سقيفة للعربات، ثم في حجرة فوق شقة المركزية في دير سان جوزيف. وقرر لها دوق أورليان معاشاً قدره 692 جنيهاً(95)، وربما بناء على اقتراح المدام. وكانت تعين المضيفة المكفوفة على استقبال ضيوفها وإجلالهم في ندواتها، وأضفت الإشراف على أعمال الندوة بلطف سلوكها وسرعة بديتها ونضارة شبابها وتواضعه. ولم تكن ذات جمال بارع، ولكن عينيها السوداوين المتألفتين وشعرها البني الغزير ألفاً مزيجاً فتاناً. فكاد يقع في غرامها نصف الرجال الذين اختلفوا إلى الندوة، حتى فارس المدام الأمين العجوز شارل-جان فرانسوا اينو، رئيس محكمة العرائض، صاحب الأعوام السبعين، المتوجع أبداً، التمثل أبداً بالكثير من النبيذ. وتقبلت جولي مجاملاتهم بما يجب من عمد الاكتراث، ولك نرغم ذلك فإن التركيز الشديدة الحساسية في عماها لا بد قد شعرت بأن بعض العبادة قد انتقلت من عرشها. وربما دخل في الأمر عنصر جديد: ذلك أن المرأة المسنة كانت قد بدأت تحب الشابة جيداً لا يرضى بشريك له. وكانت كلتاها تلتهب بالعاطفة المشوبة، رغم أن المركزية أوتيت عقلاً من أكثر عقول العصر رجاحة ونفاذاً.

ولم يكن مناص لجولي من أن تحب. أولاً إيرلندياً شاباً لا نعرف عنه

صفحة رقم : 13016

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

غير اسمه تاف. فبعد أن قيل في الصالون كان يختلف إليه كل يوم تقريباً. وسرعان ما تبين للمركيزة أنه لا يأتي لمشاهدتها بل لمشاهدة المدموازيل. وروعاها أن ترى أن جولي قبلت تودده بالرضى. فحذرتها من تعريض نفسها للخطر. وأكرت الفتاة المتكبرة نصيحة الأم. وإذ خافت المركزية أن تفقدها وحرصت على حمايتها من غرام عات لا يرجى دوامه، أمرت جولي بأن تلزم حجراتها إذا جاء جاف. فأطاعت، ولكن المشاجرة أثارت فيها من الانفعال ما حملها على تعاطي الأفيون لتهدئ أعصابها. وقد شاع استعمال الأفيون في القرن الثامن عشر مهدناً، ولكن الأنسة ليسيبيناس ضاعفت جرعاتها مع كل غرام جديد.

وألفت أن تسلو تاف، ولكن غرامها الجديد دخل التاريخ، لأنه أصاب الرجل الذي اصطفته مدام دو دفان لنفسها في حب أموي ولكنه شديد التملك، وكان هذا الرجل، جان لورون دالامبير، في عام 1754 قد بلغ أوج شهرته رياضياً، وفيزيائياً، وفلكياً، وحرراً في تلك "الموسوعة" التي كانت باريس المتقفّة بأسرها. وقد قال فولتير عنه، في لحظة تواضع، إنه "أعظم كتاب في القرن" (96) ومع ذلك لم يؤت شيئاً من فرص فولتير. فقد ولد ولادة غير شرعية، وأكرته أمه مدام دنتسان، ولم يره أباه منذ طفولته. وعاش برجوازيًا بسيطاً في بيت الزجاج روسو. وكان وسيماً، حسن الهنام، جم الأدب، مرحاً أحياناً، في وسعه أن يخوض في أي موضوع مع أي متخصص تقريباً، ولكن في وسعه أيضاً أن يخفي علمه وراء واجهة من القصص، والتقليد الساحر، والنكتة الذكية. وفيما عدا ذلك لم يصلح العالم إلا قليلاً. فقد أثرت استقلاله على الملوك والملكات؛ وحين قامت مدام دودفان بحملة لتدخله الأكاديمية الفرنسية أبي أن يضمن الحصول على صوت اينو بتقريض كتابه "مختصر كرونولوجي لتاريخ فرنسا" (1774) وكان فيه عرق من

الهاء جعل فكاهته لاذعة أحياناً؛ (97) فقد ينفد صبره، ويببب أحياناً عنيفاً في ثورته على خصومه (98)، ولم يعرف قط ما الذي يجب أن يقوله أو يفعله حين ينفرد بالنساء، ومع ذلك فإن حياءه اجتذبهن، وكأنما بتحديه لقوة تأثير مفاتهن.

صفحة رقم : 13017

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

وقد راع مدام دو دفان منه في أول لقائها به (1743) اتساع ذهنه ونسوع تفكيره. وكانت يومها في السادسة والأربعين، وهو في السادسة والعشرين. فتبنته "قطها الوحشي" (99) ولم تكتف بدعوته لصالونها بل دعتة أيضاً إلى تناول الطعام معها على انفراد؛ وأقسمت بأنها على استعداد "للتنام اثنتين وعشرين ساعة من الأربعة والعشرين، ما دمنا ننفق الساعتين الباقيتين معاً" (100) وكان قد انقضى على هذه الصداقة الحميمة أحد عشر عاماً حين دخلت جولي حياتهما.

كان هناك رباط عائلي طبيعي بين الابن الطبيعي والابنة الطبيعية. وقد دون دالامبير هذه الحقيقة وهو يسترجع ذكراها فيما بعد:

"كان كلانا يفتقد الوالدين والأسرة، وإذ عانينا الهجر، وسوء الطالع، والشقاء منذ ولادتنا، بدأ أن الطبيعة بعثت بنا إلى العالم ليجد الواحد منا صاحبه، وليكون له كل ما افتقده، ولنقف معاً كأننا صفصافتان، وأحنتهما العاصفة دون أن تقتلعهما، لأنها في ضعفهما تشابكت أغصانهما" (101).

وأحس بهذا الانجذاب لأول نظرة تقريباً. كتب لها عام 1771 يقول:- "إن الزمن وطول الألفة يبليان كل الأشياء، ولكنهما عاجزان عن أن يمسا حبي لك، وهو حب ألهمتيه قبل سبعة عشر عاماً" (102) ومع ذلك تريت تسع سنوات قبل أن يفصح عن غرامه، وحين فعل ذلك بطريقة غير مباشرة. كتب لها من بونتدام في 1763 يقول: أن له في رفض دعوة فردريك له أن يصبح عميداً لأكاديمية برلين للعلوم "ألف سبب، منه سبب لا يخطر لك أن تحزريه" (103) وتلك زلة في الذكاء تستغرب عن دالامبير، فهل في الوجود امرأة لا تعرف أن رجلاً من الرجال يهواها؟

وأحست مدام دو دفان ذلك الود المتزايد بين ضيفها المقدر وابنة أخيها المحروسة، كذلك لحظت أن جولي تغدو محور النقاش والاهتمام في الصالون. وظلت برهة لا يبدر منها لوم ولا عتاب، ولكنها في رسالة إلى فولتير (1760) أبدت ملاحظات مرة حول دالامبير. وسمحت لصديق أن يقرأ على ضيوفها

صفحة رقم : 13018

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

قبل وصول دالامبير جواب فولتير الذي أشار إلى ملاحظاتها. وإذا دالامبير يدخل بمجرد البدء في القراءة ويسمع الفقرة النمامة، فضحك مع الضاحكين، ولكنه تأذى، وحاولت المركيزة استرضاءه، ولكن الجرح لم تتدمل، فلما زار فرديريك عام 1763 كانت رسائله يومية تقريباً إلى الأنسة ديليسيناس، نادرة إلى المدام. وبعد عودته من باريس ألف أن يزور جولي في شقتها قبل أن يهبط إلى الصالون، وكان طورجو أو شاستلوكس أو مارمونتيل يصحبونه أحياناً في هذه الزيارات الحميمة. وشعرت المضيفة العجوز أن الذين أعانتم وأحبتم يخونونها؟ ونظرت الآن إلى جولي كأنها عدو لها، وكشفت عن شعورها بطرق مثيرة كثيرة-كفتور لهجتها في الحديث معها، ومطالبها التافهة منها، وتذكيرها إياها بين الحين والحين باعتمادها عليها. أما جولي فقد ازداد ضيقها يوماً بعد يوم بهذه "العجوز العمياء الغضوب"، وبالترامها بأن تكون دائماً في متناولها أو على مقربة منها لتلبي حاجة المركيزة في أية ساعة. وزادها مرور الأيام تعاسة على تعاسة، إذ كان لكل يوم لذعته. وقد كتبت في تاريخ لاحق تقول "كل ألم يتغلغل إلى الأعماق، أم اللذة فطائر سريع الفرار" (104) وفي ثورة أخيرة من ثورات غضب المدام اتهمتها بخداعها في بيتها وعلى نفقتها. وردت جولي بأنها لم تعد قادرة على العيش مع من تنظر إليها هذه النظرة. وفي يوم من أوائل مايو 1764 غادرت المنزل بحثاً عن مسكن آخر. أما المركيزة فقد جعلتها قطيعة لا رجعة فيها بإصرارها على أن يختار دالامبير بينها أو بين جولي، فغادرت البيت، ولم يعد إليه قط.

وبدا حيناً أن الصالون القديم قد جرح جرحاً مميماً بهذين البترين. وواصل معظم رواده زيارة المركيزة، ولكن العديد منهم كالمرشالة دلكسمبورج، والدوقة دشايتون، والكونتيسة ديوفليه، وطورجو، وشاستلوكس، بل حتى إينوذهبوا إلى جولي ليعربوا عن تعاطفهم واهتمامهم المستمر بها، وتقلص الصالون فلم يحو غير قدامى الأصدقاء والأوفياء منهم، والوافدين الجدد الذين يسعون إلى التميز والطعام الطيب. وقد وصف المدام هذا التغيير في 1768 فقالت:

صفحة رقم : 13019

قصة الحضارة - روسو والثورة - فرنسا قبل الطوفان - فن الحياة - الصالونات الكبرى

"كان هنا بالأمس اثنا عشر شخصاً، وأعجبت بمختلف أنواع الحديث التافه ودرجاته. كنا جميعاً مقفلين كباراً، كل في بابيه... كنا مملين غاية الإملال. وانصرف الأثنا عشر جميعاً في الساعة الواحدة، ولكن أحداً منهم لم يخلف وراءه أسفاً... أن بون-دفييل صديقي الوحيد، وهو يقتلني ضجراً ثلاثة أرباع الوقت". (105)

إنها لم تكن للحياة أي حب على الإطلاق من انطفاء نور عينيها، أما الآن، وبعد أن انفض عنها أعز أصدقائها، فقد تردت في حالة من القنوط الساخر الذي لا شفاء منه. فلعننت اليوم الذي ولدت فيه كما فعل أيوب "إن عمي وشيخوختي هما أقل ما رزنت به من أحزان... فليس هناك غير خطب واحد... هو أنني ولدت". (106) وسخرت من أحلام الرومانسيين والفلاسفة على السواء-لا من "هلويز، وروسو وقسيسه السافواوي" فحسب، بل من حملة فولتير الطويلة في سبيل "الحقيقة" قالت: "وأنت يا مسيو فولتير"، عاشق الحقيقة المعلن، قل لي بأمانة، هل وجدتها؟ إنك تحارب الأخطاء وتهدمها، ولكن ماذا تحل محلها؟" (107) لقد كانت شكافة، ولكنها أثرت الشكاكين المعتدلين أمثال مونتيني وسانت-إفرمون على الثوار العدوانيين كفولتير وديدرو.

وخالت أنها نفضت يديها من الحياة، ولكن الحياة لم تنفض يديها منها تماماً. فقد بعث صالونها بعثاً متقطعاً خلال وزارة شوازيل، حين تجمع أقطاب الحكم حول المركيزة العجوز، وجاءت صداقة دوقية شوازيل الرقيقة ببعض النور الذي أشرق وسط تلك الأيام الحالكة. وفي 1765 بدأ هوراس ولبول يختلف إلى نواتها، وشعرت نحوه شيئاً فشيئاً بمحبة غدت آخر تشبث مستميت لها بالحياة. ونرجو أن نلقي بها ثانية في ذلك التجسيد الأخير المذهل.

ج - الأنسة ديليسيناس

اختارت جولي لمسكنها الجديد بيتاً ذا طوابق ثلاث عند ملتقى شارع بلشاش بشارع سان-دومينيك، ولم يكن يبعد غير مائة ياردة من بيت المركزية الديري

صفحة رقم : 13020

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

ولم تبلغ معاناتها مبلغ الإملاق، فقد تلقيت بالإضافة إلى عدة معاشات صغيرة، معاشين مقدارهما 2.600 جنيه من "دخل الملك (1758 و1763)، بناء على إلحاح شوازيل فيما يبدو، ثم إن مدام جوفران وهبتها بناء على اقتراح دالامبير راتبين سنويين منفصلين مقدارهما ألفا جنيه وألف كروان. وأعطتها المرشالة دلكسمبورج طقماً كاملاً من الأثاث.

وما إن استقرت جولي في مسكنها الجديد حتى أصيبت بالجذري إصابة شديدة. كتب ديفد هيوم إلى مدام دبوليه يقول "أن الأنسة دليسيبيناس مريضة مرضاً خطراً، ويسرني أن دالامبير نس فلسفته في لحظة كهذه" (108) والواقع أن الفيلسوف كان يمشي مسافة طويلة كل صباح ليقوم على خدمتها إلى جوار فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم يعود إلى حجرته في بيت مدام روسو. وتمثلت جولي للشفاء، ولكنها باتت ضعيفة عصبية باستمرار وغلظت بشرتها وشابتها الندوب. وفي وسعنا أن نتصور ما يعنيه هذا لامرأة لم تجاوز الثانية والثلاثين ولم تتزوج بعد.

وقد شفيقت في الوقت المناسب لتعني بدالامبير الذي لزم فراشه في ربيع 1765 إثر ألم في معدته أشرف به على الهلاك. وراع مارمونتيل أن يراه ساكناً "حجرة صغيرة سيئة الإضاءة، سيئة التهوية، تحوي سريراً ضيقاً جداً كأنه النعش. (109) وعرض صديق آخر هو المالي قاتلية على دالامبير أن يستعمل بيتاً فسيحاً قرب التامبل. وارتضى الفيلسوف الآن في أسف أن يترك المرأة التي أوتته وأطعمته منذ طفولته. وقال دكلو في دهشة "يا لليوم المدهش! لقد فطم دالامبير!" وكانت جولي تقطع الرحلة كل يوم إلى مسكنه الجديد وترد له رعايته الأخيرة لها بإخلاصها الفياض. فلما نقه إلى حد يتيح له التحرك رجته أن يشغل بعض الحجرات في الطابق الأعلى من بيتها، فذهب في خريف 1765، ودفع لها إيجاراً معتدلاً. ولم ينس مدام روسو، فكان يزورها كثيراً، ويقتسم معها بعض إيراده، ولا يكف عن الاعتذار عن انفصالهما "أيتها الحاضنة المسكينة، يا من تحبيني أكثر مما تحبين أبناءك!" (110).

صفحة رقم : 13021

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

وزعمت باريس حيناً أن جولي خليلته. وأيدت المظاهر الزعم. فقد كان دالامبير يتناول طعامه معها، ويكتب لها الرسائل، ويدير لها أعمالها، ويستثمر لها مدخراتها، ويجمع لها إيرادها. وكانا أمام الناس يظهران معاً على الدوام؛ وما دار بخلد مضيف أن يدعو الواحد دون صاحبه. ولكن شيئاً فشيئاً بدأ القوم -حتى المتقولون منهم- يتبينون أن جولي لا هي بالخليلة ولا الزوجة ولا العاشقة لدالامبير، إنما هي مجرد أخت وصديقة. ويلوح أنها لم تدرك قط أن حبه لها كان كاملاً وإن لم يستطع أن يعرب عنه، وتقبلت السيدتان جوفران ونكير -وكلتاها مضرب المثل في الفضيلة- هذه العلاقة بين دالامبير وجولي على أنها حب أفلاطوني. ودعت صاحبة الصالون العجوز كليهما لندوتيهما. وكان امتحاناً قاسياً لعطف الأم الذي أبدته مدام جوفران نحو الأنسة دليسييناس ألا يصدر عنها أي احتجاج حين افتتحت هذه صالوناً خاصاً بها ذلك أن جولي ودالامبير كانا قد صنعا من الأصدقاء عدداً بلغ من الكثرة رجالاً ونساءً، وكلهم تقريباً ذائع الصيت أو رفيع المرتبة. وكان دالامبير يقود الحديث، وجولي تضيف على الندوة كل مفاتن الأثوثة ودفء الضيافة. ولم يقدم فيها غداء أو عشاء، ولكنها اشتهرت بأنها أعظم صالونات باريس حفزاً للعقول، اختلف إليها طورجو، ولموميني دبيري، اللذين سيرقيان سريعاً إلى مكان مرموق في الحكومة؛ ونبلاء مثل شاستلوكس وكوندرو رسبه، وأخبار مثل بوامون وبواجبلان، وشكاكون مثل هيوم وموريليه، ومؤلفون مثل مابلية، وكوندياك، ومارمونيل، وسان-لامبير. حضروا أول الأمر ليروا دالامبير ويستمعوا إليه، ثم لاحظوا بتلك المهارة المتعاطفة التي كانت جولي تستدرج بها كل ضيف في ميدان تفوقه الخاص. ولم يحظر أي موضوع هنا، فكانت تناقش أدق مشكلات الدين أو الفلسفة أو السياسة، ولكن جولي -التي دربتها مدام جوفران على هذا الفن- عرفت كيف تهدئ من ثائرة الثائرين وترد النزاع نقاشاً. وكانت الرغبة في عدم الإساءة إلى المضيئة الرقيقة هي القانون غير المكتوب الذي بعث النظام في هذه الحرية. وفي ختام حكم لويس الخامس عشر كان صالون الأنسة دليسييناس

صفحة رقم : 13022

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

في رأي سانت-بيف "أكثر الصالونات رواجاً، وأحفلها بالزوار المتشوقين إليه، في جيل كثر فيه الألمعيون" (111). ولم يقدم صالون آخر لزواره مثل هذا الإغراء المزدوج، فقد بدأت جولي رغم ندوب وجهها وعدم شرعية نسبها تصبح الحب الثاني لعشرة أو يزيد من الرجال المرموقين. وكان دالامبير في قمة قدراته. يقول جريم: "كان في حديثه كل ما يعلم العقل ويمتعه. فكان يسلم نفسه ببسر ورغبة لأي موضوع يدخل السرور على نفوس أكثر السامعين، مدخلاً فيه معيماً لا يكاد ينضب من الأفكار، والنوادر، والذكريات العجيبة، وما من موضوع أياً كان جفافه أو تفاوته في ذاته لم يملك سر إضفاء المتعة والطلاقة عليه. وكان في كل فكاهاته أصالة رقيقة عميقة. (112) ثم استمع إلى ديفد هيوم يكتب إلى هوراس ولبول: "إن دالامبير رفيق لطيف المعشر كامل الفضائل. وقد دل على ترفعه عن المنفعة الشخصية والطمع الباطل بفرضه عروضاً من قيصرية روسيا وملك بروسيا... وله خمسة معاشات، أولها من ملك بروسيا، وثانيها من ملك فرنسا، والثالث يتلقاه بوصفه عضواً في أكاديمية العلوم، والرابع بوصفه عضواً في الأكاديمية الفرنسية، والخامس من أسرته. ولا تزيد جملتها كلها على ستة آلاف جنيه في العام. وهو يعيش على نصف هذا المبلغ عيشة كريمة، ويهب النصف الآخر للفقراء الذين له بهم صلة. والخلاصة أنني لا أكاد أعرف رجلاً، إلا القليلين، بفضلهم نموذجاً للشخصية الفاضلة الفيلسوفة. (113) أما جولي فكانت نقض دالامبير في كل شيء خلا يسر الحديث ورقته. ولكن بينما كان هذا الموسوعي واحداً من آخر أبطال حركة التنوير، ينشد العقل والصدق في الفكر والعقل، كانت جولي، بعد روسو، أول صوت واضح للحركة الرومانسية في فرنسا، مخلوقاً (في عبارة مارمونيل) "أوتني أنشط تصور، وأحر روح، وأشد الخيالات تأججاً منذ سافو" (114). فلم يفقه أحد من الرومانسيين، في عالم الحقيقة أو القصص لا هلويز روسو، ولا روسو ذاته؛ ولا كلاريسييه رتشاردسن، أو مانون بريفوست في رهافة

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; الصالونات الكبرى

الحس أو حرارة حياتها الباطنة. كان دالامبير موضوعياً، أو حاول أن يكون كذلك، أما جولي فكانت ذاتية إلى حد الاستغراق الأناني في النفس أحياناً. ومع ذلك "كانت تشارك المحزونين المهم، وقد جاهدت جهاداً محموداً لكي ينتخب شاستلوكس ولاهارب عضوين في الأكاديمية، ولكنها حين أحببت نسيت كل شيء، وكل إنسان آخر. نسيت أولاً مدام دودفان، وثانياً دالامبير نفسه".

ذلك أنه في 1766 دخل الصالون نبيل شاب هو المركز خوزيه دمورا إي جونزاجو، ابن السفير الأسباني، وكان في الثانية والعشرين، وجولي في الرابعة والثلاثين وكان قد زوج في الثانية عشرة من فتاة في الحادية عشرة، ماتت عام 1764. وأحست جولي بعد قليل بسحر شبابه، وربما بسحر ثرائه. وسرعان ما نضح تعلق الواحد منهما بصاحبه فتعاقدا على الزواج. فلما سمع أبوه بالأمر أمر بأداء واجبه العسكري في أسبانيا. وذهب مورا، ولكنه لم يلبث أن استقال من وظيفة الضابط. وفي يناير 1771 بدأ يبصق الدم، فذهب إلى بلنسية التماساً للراحة، فلما لم يشف هرع إلى باريس وجولي. وانفقا معاً أياماً سعيدة كثيرة، مما روح عن بلاطها الصغير وأثار في نفس دالامبير ألماً دفيناً. وفي 1772 استدعي السفير إلى أسبانيا، فأصر على أن يصحبه ابنه. ولم يرض الأب ولا الأم بزواجه من جولي، فانفصل فوراً عنهما وبدأ رحلته إلى الشمال ليعود إليها، ولكنه مات بالسل في بوردو في 27 مايو 1774. في ذلك اليوم كتب لها يقول "كنت في طريقي إليك، ولا بد أن أموت، ياله من قضاء بشع!... ولكنك أحببتني، وتفكرتي فيك ما زال يسعدني، إنني أموت في سبيلك!" ونزعوا من أصابعه خاتمين، احتوى أحدهما على خصلة من شعر جولي، ونقش على الآخر هذه الكلمات "كل الأشياء تزول، ولا يبقى غير الحب" وكتب دالامبير الشهم عن مورا يقول "إنني أسف لشخصي على فقد ذلك الرجل الحساس الفاضل الخلق، الرفيع الفكر، أكمل من عرفت من الناس... وسأذكر ما حبيت تلك اللحظات الغالية التي أحببت فيها نفس بهذا الطهر والنبل والقوة والتهديب الاختلاط بنفسي". (116)

ومزق نبأ موت مورا قلب جولي، وزاد الخطب فداحة أنها منحت حبها

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فن الحياة -&gt; الصالونات الكبرى

في الوقت نفسه لرجل آخر. ذلك أنها في سبتمبر 1772 التقت بالكونت جاك-أنطوان دجيبير، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاماً، والذي كان قد أبلى بلاءً حسناً في حرب السنين السبع. أضف إلى ذلك أن كتابه "دراسة شاملة للتكتيك" أشاد به القواد ورجال الفكر رائحة في هذا الميدان، وقد قدر لهذا الكتاب أن يحمل نابليون نسخة منها عليها تعليقات بخط يده خلال حملته جميعاً. و"المقال التمهيدي" للكتاب الذي ندد بجميع الأنظمة الملكية صاغ المبادئ

الأساسية لسنة 1789 قبل اندلاع الثورة بعشرين عاماً. وفي وسعنا أن نحكم على الإعجاب الذي أغرقه الناس على جيبير من موضوع اختيار للنقاش في أحد الصالونات الكبرى: "أيهن تحسد أكثر من غيرها: أم المسيو دجيبير، أم أخته، أم خليلته؟" (117) وكان له بالطبع خليلة-هي جان دمونسوج، آخر وأطول غرام له. وقد حكمت عليه جولي حكماً قاسياً قس لحظة مرارة إذ قالت:-

"إن الاستخفاف، بل القسوة، التي يعامل بها النساء مصدرها قلة اعتباره لهن... فهو يراهن معابثات، مغرورات، ضعيفات، كاذبات، طائشات، واللاتي يحسم فيهن رأيه يراهن متعلقات بالخيال، ومع أنه يضطر إلى الإقرار بوجود خصال حميدة في بعضهن، فهو لا يقدرهن لهذا السبب تقديراً أعلى، بل يرى أن فيهن ردائل أقل، لا فضائل أكثر" (118).

على أنه كان وسيماً، وسلوكه كاملاً، وحديثه يجمع بين الغنى والشعور، وبين العلم والوضوح، قالت مدام دستال "كان حديثه أكثر ما عرفت تنوعاً، وحيوية، وغنى" (119).

ورأت جولي أنها محظوظة بلقاء جيبير لندواتها، وأفتتن الواحد منهما بشهرة صاحبه، فنشأت بينهما علاقة أصبحت من جانبه غزوة عارضة، ومن جانبها غراماً قتالاً. وهذا الغرام الفتاك هو الذي أحل رسائلها إلى جيبير مكاناً مرموقاً في الأدب الفرنسي وبين أكثر وثائق العصر كشافاً. ففيها أكثر حتى مما في "جولي أو هلويز الجديدة" لروسو (1761)، تلقى إرهابات لحركة الرومانسية في فرنسا تعبيرها الحي.

صفحة رقم : 13025

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

وفي أول رسالة باقية إلى جيبير (15 مايو 1773) نراها واقعة في حبات غرامه، ولكن كان يمزقها تأنيب الضمير لانتهاكها ميثاق الوفاء لمورا. فكتبت لجيبير وهو راحل إلى ستراسبوج تقول:  
رباه! بأي سحر، وبأي قدر، استطعت أن تفتني؟ لم لم أمت في سبتمبر؟ كان يمكن أن أموت آنئذ فأعفى... من اللوم الذي ألوم به نفسي الآن.. إنني أشعر بهذا وأأسفاه، إنني ما زلت أستطيع الموت في سبيله، فمل من مصلحة لي أضن ببذلها له... أواه، أنه سيصفح عني! لقد عانيت كثيراً! ولقد أضنى جسدي وروحي طول ما ألم بي من حزن. وطاش عقلي حين تلقيت خطابه. في ذلك الحين رأيتك أول مرة، في ذلك الحين تسلمت نفسي، في ذلك الحين أدخلت عليها السرور، ولست أدري أيهما كان أحلى-أن أشعر بذلك السرور، أو أن أدين به لك. (120)  
وبعد ثمانية أيام سقطت كل أسباب دفاعه: "لو كانت صغيرة جميلة، فاتتة جداً، لما أعياني أن أتبين الكثير من الافتعال في مسلكي معي، ولكن بما أنني لست من هذا كله في شيء، فإنني أجد في مسلكك عطفاً وشفراً أكسباك نصراً على روعي إلى الأبد. (121)

وكانت أحياناً تكتب بكل التحرر الذي كتبت بها هلويز لأبيبار:

"أنت وحدك الذي يستطيع في هذا الكون أن يمتلك كياني ويتربع فيه.. وقلبي، وروحي، لا يمكن أن يملأهما سواك... إن بابي لم يفتح اليوم مرة دون أن يخفق قلبي، ومررت بي لحظات كنت أخشى فيها أن اسمع اسمك، ثم كان يحطم قلبي ألا أسمع. أن كثيراً من المتناقضات، وكثيراً من الانفعالات المصطرعة، صادقة، وتفسرها كلمة واحدة: أحبك. (122)

وزاد الصراع بين الغرامين من الاضطراب العصبي الذي ربما كان مصدره تعطش آمالها إلى تحقيق المرأة لذاتها، واستهدافها المتراد للسل، وكتبت إلى جيبير 6 يوليو 1773 تقول:  
"إن روحك رغم اضطرابها ليست كروحي التي لا تقف مترددة بين



قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

التشنج والاكنتاب. وأنا أتعاطى السم (الأفيون) لأهدئ نفسي. وأنت ترى أنني عاجزة عن أن أهدئ نفسي؛ فأرشدني، وقوني، وسأصدقك، وستكون سندي. (123)

وعاد جيبير إلى باريس في أكتوبر، وقطع علاقاته مع مدام دمونسوج، وباح بحبه لجولي. فقبلته شاكراً، وأسلمت له جسدها في الحجرة المؤدية لمقصورتها في الأوبرا (10 فبراير 1774) (124) وقد زعمت فيما بعد أن هذه الفعلة التي اقترفتها وهي في الثانية والأربعين، كانت أول زلة لها من "الشرف" و"الفضيلة" (125) ولكنها لم تتح على نفسها باللوم:

"أذكر الحال التي وضعتني فيها، والتي اعتقدت أنك تركتني عليها؟ حسناً أود أن أقول لك أنني بعد أن أفقت سريعاً، قمت ثانية (والكلمات كتبتهما بحروف مائلة) ورأيت ذاتي غير هابطة عن مقامي قيد أنملة... وربما تعجب لأن آخر الدوافع التي جذبتني إليك هو الوحيد الذي لا يبكتني عليه ضميري.... فبذلك الاستسلام، بتلك المرتبة النهائية من نكران نفسي وكل مصلحة شخصية لي، أثبت لك أنه ليس هناك غير خطب واحد في الأرض لا طاقة لي باحتماله- وهو أن أغضبك وأفقدك. فذلك الخوف يجعلني أبذل لك حياتي" (126).

"ونعمت حيناً بنشوات السعادة. وكتبت إليه (لأنهما أخفيا عن الناس علاقتهما وسكن الواحد بعيداً عن صاحبه). لقد ظللت أفكر فيك طوال الوقت. وأنا مستغرقة فيك استغراقاً يجعلني أفهم شعور العابد نحو إلهه." (127) أما جيبير فلم يكن بد من أن يمل غراماً يسرف هذا الإسراف في سكب نفسه دون أن يترك لقوته أي تحد. وسرعان ما راح يهتم بالكورتيسة ديوفليه، ويستأنف غرامه بمدام دمونسوج (مايو 1774). وعاتبته جولي، فرد في فتور. ثم نمت إليها في 2 يونيو أن مورا مات في طريقه إليها وهو يبارك اسمها. فتردت في حمى من الندم والحسرة وحاولت أن تسمم نفسها، ولكن جيبير منعها. وراحت خطاباتها إليه يدور أكثرها حول مورو، ومبلغ سمو هذا النبيل الأسباني عن أي رجل عرفته في حياتها. وقلت رؤية جيبير لها وزادت لقاءاته بدمونسوج. وعللت جولي نفسها بالبقاء على الأقل خلية من خلياته، فكانت

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

ترتب له الزيجات، ولكنه رفض عرائسها، وفي أول يونيو 1775 تزوج الأنسة دكورسيل، وكانت فتاة غنية في السابع عشرة. وكتبت له جولي خطابات مفعمة بالحدق والاحقار، مختتمة بتوكيدات الحب الذي لا يموت (128).

وقد استطاعت طوال حمى غرامها كلها أن تخفي طبيعتها عن دالامبير، الذي خيل إليه أن سببها هو غياب مورا ثم موته. فرحب بجيبير في صالونها، وكون صداقة مخلصمة معه، وكان يرسل بشخصه الرسائل المختومة التي تكتبها لعشيقها. ولكن لحظ أنها فقدت اهتمامها به، وأنها كانت أحياناً تستاء من وجوده. والواقع أنها كتبت لجيبير "لولا أنه

يبدو عقوقاً بالغاً مني لقلت أن رحيل دالامبير يعطيني نوعاً من السرور. إن حضوره يتقل روحى. وهو يجعلني قلقة مضطربة النفس، فأنا أشعر أنني غير مستحقة أبدأ لصداقته وطيبة قلبه.. "(129) فلما ماتت كتب إلى "روحها" يقول: "البيت شعري لأي سبب لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أحزره، تغير فجأة ذلك الشعور الذي كان من قبل غايبة في الرقة نحوى... إلى شعور الغربة والنفور؟ ما لذي صنعت مما يسيء إليك؟ لم تشك إليّ إن كان لك مبرر للشكوى؟... أم أنك أيتها العزيزة جولى... قد أسأت إليّ إساءة أجهلها، وكان يحلو لي كثيراً أن اغتفرها لو علمت بها... لقد كنت عشرين مرة على وشك أن ألقى بنفسى بين ذراعيك، وأن أطلب إليك أن تخبريني ما جريرتي، ولكنى خشيت أن تصدني هاتان الذراعان..."

"وظللت تسعة أشهر أترقب اللحظة التي أخبرك فيها بما عانيت وما أحسست، ولكنى وجدتك خلال تلك الشهور أضعف من أن تحتلمي العتب الرقيق الذي كان عليّ أن أكاشفك به، واللحظة الوحيدة التي كان يمكنني فيها أن أكشف لك في غير خفاء عن قلبي المحزون الواهم هي تلك اللحظة الرهيبة، قبل موتك بساعات، حين سألتني الصبح عنك بطريقة مزقت نياط قلبي... ولكن عندها لم يعد فيك قوة لا للتحدث ولا لاستماع إليّ... وهكذا فقدت إلى الأبد لحظة العمر التي كانت ستكون لي أعلى اللحظات-اللحظة التي أخبرك فيها، مرة أخرى، كم أنت عزيزة عليّ، وكم شاطرتك بحبك، وما أعمق

صفحة رقم : 13028

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فن الحياة -> الصالونات الكبرى

رغبتي في أن أنهى آلامي بك، وددت لو بذلت كل ما بقي لي من لحظات عمري لقاء تلك اللحظة الواحدة التي لن نتاح لي أبداً، تلك التي ربما كنت أستعيد بها حنانك إذ أكاشفك بكل ما في قلبي من حنان لك. "(130) وساعد انهيار حلم جولى السل على الفتك بها، ودعي لعياذتها الطبيب بورديو (الذي التقينا به في قصة دييرو "حلم دالامبير")، فصرح بأنه لا أمل في شفائها. ولم تبرح فراشها منذ إبريل 1776. وكان جيبير يذهب لزيارتها كل صباح ومساء. ولم يكن دالامبير يترك العناية بها إلا لينام. وكان الصالون قد توقف، لولا حضور كوندورسيه، وسوار، ومدام جوفران الطيبة، التي كانت هي ذاتها مشرفة على الموت. وفي أيامها الأخيرة أبت جولى أن تسمح لجيبير بزيارتها، لأنها لم تشأ أن تدعه يرى كيف شوهدت التشنجات وجهها؛ ولكنها كانت ترسل العديد من الخطابات، وأكد لها هو أيضاً حبه: "لقد أحببتك من اللحظة الأولى التي التقينا فيها، أنك أعلى عندي من كل شيء في هذه الدنيا." (131) وكان هذا، ووفاء دالامبير الصامت، وقلق أصدقائها عليها، العزاء الوحيد لها في ألامها. وكتبت وصيتها، التي عينت دالامبير منفذاً لها، وعهدت إليه بكل أوراقها وأمتعها الشخصية.

وجاء أخوها المركزي ديفيشي من برجندية، وألح عليها في أن تتصلح مع الكنيسة وكتب إلى الكون دالبون "يسعدني أن أقول لك إنني أقنعته بأن تتناول القربان على الرغم من "الموسوعة" كلها، وفي مواجهتها" (132). وأرسلت كلمة أخيرة إلى جيبير: "يا صديقي، أنني أحبك... وداعاً" وشكرت دالامبير على وفائه الطويل، وتوسلت إليه أن يغفر لها جودها، وماتت في تلك الليلة، في الساعات الباكرة من يوم 23 مايو 1776. ودفنت في اليوم نفسه، في كنيسة سان-سوليبس، "دفن الفقراء" كما رغبت في وصيتها.

صفحة رقم : 13029

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> الإقطاعي الطيب

## الفصل الخامس

فولتير الشيخ

1778 - 1758

### 1- الإقطاعي الطيب

في أكتوبر 1758 اشترى فولتير ضيعة قديمة في فرنيه، في مقاطعة جكس، الواقعة على حدود سويسرا، ولم يلبث أن أضاف إليها أقطاعة تورنيه التي اشتراها لمدى الحياة، وبهذا أصبح الآن من الناحية القانونية سيداً إقطاعياً، وراح يوقع باسم "الكونت دتورنيه" في الشؤون القانونية، وأبرز شعار نبالته على مدخل بيته وعلى أنيته الفضية" (1). كان قد سكن فيلا دليس بجنيف منذ 1755، ولعب دور المليونير الفيلسوف المضيف في لذة وفي استحسان من الناس، ولكن المقال الوارد في موسوعة دالامبير عن جنيف، الذي أماط اللثام عن الهرطقات السرية التي يدين بها قساوستها، عرض فولتير للاتهام بأنه وشى بهم لصديقه، فلم يعد شخصاً مرغوباً فيه على أرض سويسرا، وراح يلتمس من حوله مسكناً آخر. وكانت فرنيه تقع في فرنسا، ولكنها لا تبعد عن جنيف أكثر من ثلاثة أميال، هنالك يستطيع أن يخرج لسانه للقادة الكلفنيين، ولو جدد القادة الكاثوليك في باريس-على 250مياً-حملتهم لاعتقاله، لاستطاع في ظرف ساعة أن يعبر الحدود، وخلال ذلك (1758-1770) كان صديقه الدوق دشوازيل يرأس الوزارة الفرنسية واشترى فرنيه باسم ابنة أخته مدام دنيس، ربما اتقاء المصادرة إذا غيرت ربح السياسة اتجاهها، لم يشترط عليها إلا أن تعترف بع سيداً على الضيعة طوال حياته. وظلت فيلا دليس حتى علم 1764

صفحة رقم : 13030

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> الإقطاعي الطيب

مسكنه الرئيسي، وراح يعدل قس بيته بفرنيه على مهل، وأخيراً انتقل إليه في ذلك العام. وكان البيت الفخم الجديد من الحجر، ومن تصميم فولتير إلى حد كبير، وبه أربع عشرة حجرة نوم. كتب يقول "إنه ليس قصرأ، ولكنه بيت ريفي فسيح، تلحق به أرض تنتج الكثير من الدريس، والقمح، والتبن، والشوفان. ولدي بلوطات في استقامة أشجار الصنوبر تلمس رؤوسها السماء." (2) وأضاف تورنيه إلى أملاكه هذه قصرأ ريفياً قديماً، ومزرعة، ومخزناً للغلال، ومرابط، وحقولاً، وغابات، وضمت مرابطه في جملتها الخيول، والثيران، وخمسين بقرة، ووسعت مخازنه كل حاصلات أرضه وبقي فيها مكان لمعاصر النبيذ، وحيثان الدواجن، وحظيرة للغنم، وامتلات المزرعة بطنين أربعمائة خلية نحل، وجادت الأشجار بأخشاب تدفئ عظام السيد الإقطاعي من رياح الشتاء. واشترى وعرس الشجيرات، وزرع شجيرات أكثر من نباتات صغيرة رباها في مستنبتاته. ومد الحدائق والأفنية حول بيته حتى بلغ محيطها ثلاثة أميال؛ وكانت تحوي أشجار الفاكهة، والكروم، وأنواعاً كثيرة من الأزهار. هذه الأبنية، والنباتات، والحقول، والنظار الثلاثون القائمون عليها كل أولئك كان يشرف عليه بشخصه. هنا أيضاً رضي رضي أنساه أن يموت، شأنه حين دخلا فيلا دليس. فكتب إلى مدام دوفان يقول "أنني مدين بحياتي وصحتي للطريق الذي سلكته. ولو جرؤت لاعتقدت أنني حكيم، لأنني سعيد جداً." (3) وتسلطت مدام دنيس على الخدم والأضياف الثلاثين أو أكثر الذين عاشوا في القصر الريفى متفاوتة الإنصاف. وكانت طيبة القلب، ولكنها حادة الطبع، تحب المال أكثر قليلاً لحبها ما عداه... رمت خالها بالبخل، ولكنه نفى التهمة؛ على أي حال "نقل إليها شيئاً فشيئاً، الجانب الأكبر من ثروته." (4) وكان قد أحبها طفلة، ثم امرأة، وطاب له الآن أن يتخذها قهرمانه له. وكانت تمثل في المسرحيات التي يخرجها، وأجادت التمثيل حتى كان يقارنها بكليرون. وأدار هذا المديح رأسها، فعكفت على كتابة المسرحيات ولقي فولتير عنقاً في ثيها عن عرضها على الناس. ثم أضجرتها حياة الريف

صفحة رقم : 13031

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> الإقطاعي الطيب

وهفت نفسها إلى باريس، وكانت رغبة فولتير في الترويج عنها بعض ما دفعه إلى دعوة هذه السلسلة الطويلة من الضيوف واحتمالها. ولم تكن تحب سكرتيره فاجنيير، ولكنها أغرمت بالأب آدم، اليسوعي الشيخ الذي رحب فولتير في بيته غريماً لطيفاً في لعبة الشطرنج، والذي فاجأه ذات يوم عند قدمي الخادمة بربارة. (5) ومرة، ربما بسبب سماح دنيس للإرهاب بالرحيل مصطحباً إحدى مخطوطات السيد، أغضبت فولتير غضباً حمله على ردها إلى باريس بعد أن رتب لها معاشاً سنوياً قدره عشرون ألف فرنك (6). ولكن بعد ثمانية عشر شهراً، فتوسل إليها أن تعود. وغدت فرنيه كعبة يحج إليها من يستطيعون الرحلة ويستطيعون التنوير. فأما صغار الحكام كدوق فورتمبرج وناخب بالاتين، والإقطاعيون كأمر لبين ودوفي ريشليو وفيلار، والأعيان كتشاولز جيمس فوكس، وملتقطو الأخبار كبيروني وبوزويل، والفاسقون مثل كازانوف، ومئات ممن هم أقل من هؤلاء شأناً. وكان يكذب كذباً مفضوحاً إذا جاءه زوار لم يدعهم، "قولوا له إنني مريض جداً" "قولوا لهم أنني مت"، ولكن أحداً لم يصدق. كتب إلى المركزي ديفليت يقول "اللهم نجني من أصدقائي، أما أعدائي فأنا كليل بهم." (7) وما أن استقر به المقام في فرنيه حتى ظهر بوزويل (24 ديسمبر 1764) وهو ما يزال متأثراً بزيارته لروسو. وبعث فولتير إليه بكلمة يقول إنه ما زال في فراشه ولا يمكن إزعاجه. ولكن هذا لم يجد في ثني الاسكتلندي الملهوف، فأصر على البقاء ولم يبرح مكانه حتى طلع عليه فولتير. وتحادثا ملياً، ثم خلا فولتير إلى المكتبة. وفي الغد كتب بوزويل إلى مدام دنيس من فندق في جنيف يقول:

"يجب أن ألتصق منك يا سيدتي أن تعيريني اهتمامك بأن تحسلي لي على صنيع كبير من المسيو دفولتير. أريد أن أنال شرف العودة إلى فرنيه يوم الأربعاء أو الخميس. فأبواب هذه المدينة الوقور تغلق في ساعة... سخيفة جداً، حتى ليضطر المرء إلى الرحيل بعد العشاء قبل أن يتاح لرب البيت الأشهر أن يطلع بمحياه على ضيوفه..."

صفحة رقم : 13032

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> الإقطاعي الطيب

فهل يسمح لي يا سيدتي بقضاء ليلة واحدة تحت سقف المسيو دفولتير؟ إنني اسكتلندي صلب العود شديد البأس، ولك أن تصعدني إلى أعلى وأبرد عليّة في البيت، بل أنني لن أرفض النوم على مقعدين في حجرة نوم خادمك" (8). وأمر فولتير ابنة أخيه بأن تخبر الاسكتلندي أن يحضر؛ وسيعده له فراش. فحضر في 27 ديسمبر، وتحت إلى فولتير بينما كان هذا يلعب الشطرنج، وفتنه حديث السيد وشتائمه الإنجليزية، ثم "أنزل مكاناً أنيقاً" في "حجرة جميلة" (9) وفي الغد اضطلع بهداية فولتير إلى المسيحية القويمة، وبعد قليل اضطر فولتير وقد أوشك على الإغماء أن يطلب هدية. وبعد يوم ناقش بوزويل ديانة رب البيت مع الأب آدم، الذي قال "أنني أصلي من أجل المسيو دفولتير كل يوم... من المؤسف أنه ليس مسيحياً. فإنه يملك الكثير من الفضائل المسيحية. وله أجمل نفس، وهو إنسان خير، محسن، ولكنه شديد التحامل على الدين المسيحي." (10) وكان فولتير يقدم لضيوفه الطعام، والحكمة، والنكته، والمسرحية، ليرفه عنهم. وبنى قرب بيته مسرحاً صغيراً وصفه جبون حين رآه عام 1763 لانه "أنيق جداً مصمم تصميماً حسناً، يقع إلى جوار كنيسة الصغيرة، التي لا تدانيه إطلاقاً." (11) وسخر الفيلسوف من روسو والقساوسة الجنيفيين الذين أدانوا المسرح باعتباره منبر الشيطان. ولم يكتف بتدريب مدام دنيس بل درب أيضاً خدمه وضيوفه على لعب الأدوار في تمثيلياته وغيرها، وكان هو نفسه يختال على خشبة المسرح في الأدوار الرئيسية، وأقنع الممثلون المحترفون بسهولة بأن يمثلوا لأشهر كاتب في العالم. ووجد الزوار في مظهره فتنة تقرب من فتنة حديثه. فقال أمير لين في وصفه إنه مدثر بروب عليه أزهار، على رأسه باروكة هائلة تعلوها قلنسوة من المخمل الأسود، ويرتدي سترة من القطن الرفيع تصل إلى ركبته، وبنطلوناً قصير أحمر، وجوارب رمادية، وحذاء من القماش الأبيض. (12) وكانت عيناه "لامعتين تمتلنان ناراً" كما يقول فاجنير،

صفحة رقم : 13033

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> الإقطاعي الطيب

وقال هذا السكرتير المخلص إن مولاه "كثيراً ما كان يغسل عينيه بالماء النقي البارد"، و"لا يستعمل النظارات إطلاقاً" (13) وفي أخريات حياته، حين مل حلاقة لحيته، كان ينزع شعرها بملقاط. ويواصل فاجنير حديثه فيقول "كان شديد الولع بالنظافة والنظام، وكان هو ذاته نظيفاً إلى حد الوسوسة." (14) وكثيراً ما كان يستعمل مساحيق

التجميل، والعمود، والمراهم، وكانت حاسة شمه المرهفة تتأذى من الروائح الكريهة. (15) وكان "نحيلاً إلى حد لا يصدق" لا يحمل من لحم إلا ما يكسو عظامه بالجهد. وكتب الدكتور بيرني بعد أن زاره عام 1770 "ليس من اليسير تصور إمكان بقاء الحياة في جسد يكاد يكون جلدًا وعظاماً... وقد ظنني مشتاق لتكوين فكرة عن... إنسان يمشي بعد موته". (16) وقد قال يصف نفسه إنه "يثير السخرية لأنه لم يموت" (17). كان عليلاً نصف عمره. وكان يشكو من بشرة شديدة الحساسية؛ وكثيراً ما شكوا من حكايات متنوعة (18)، ربما من أثر العصبية أو الإفراط في النظافة وكان أحياناً يعاني من تقطر البول -وه التبول البطنيء المؤلم؛ في هذه الناحية كان هو وروسو صنويين وإن أشد تباينهما فيما عداها. وكان يشرب القهوة بإسراف -خمسين مرة في اليوم في رواية فردريك الأكبر؛ (19) وثلاث مرات في رواية فانجنبير (20). وهو يسخر من الأطباء، ويلاحظ أن لويس الخامس عشر عمر بعد أم مات أربعون من أطبائه، ويقول "من سمع بطبيب عمر للمائة؟" (21). ولكنه هو نفسه كان يستعمل الكثير من العقاقير. وقد وافق مرشح موليير لنيل درجة الطب على أن خير دواء في أي داء خطير هو "إعطاء عقار مسهل" (23). وكان يطهر أمعاءه ثلاث مرات في الأسبوع بمحلول القرفة الصيفية، أو بحقنة صابون. ومن رأيه أن خير الأدوية هو الدواء الواقى، وخير وقاية هو تنظيف الأعضاء الداخلية والغطاء الخارجي. (24) وكان يمارس عمله، رغم شيخوخته، وأوصابه، وزواره، بنشاط لا يؤته إلا رجل تخفف من عبء اللحم الفائض. وقد قدر فانجنبير أن مولاه لم يكن ينام "أكثر من خمس ساعات أو ست" (25) في اليوم. وكان يواصل العمل إلى

صفحة رقم : 13034

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> الإقطاعي الطبيب

ساعة متأخرة من الليل، وأحياناً يوقظ الأب دم من فراشه ليعنه على تصيد كلمة يونانية. (26) وكان يؤمن أن العمل دواء ناجح للفلسفة والانتحار. وأنجع من العمل الخلاء، فهو يزرع حديقته بشخصه، وأحياناً يحرث أو يبذر البذر بيديه. (27) وتبينت مدام دو دفان في رسائله اللذة التي استشعرها في رؤية الكرنب الذي غرسه ينمو. وكان يرجو أن يذكره الخلف على الأقل لآلاف الأشجار التي غرسها. وقد أصلح الأراضي البور وجفف المستنقعات. وأنشأ إسبلاً لتربية الخيل وجلب إليه عشر مهرات، ورحب بعرض المركز دفواييه أن يعطيه فحلاً. وكتب يقول "إن حريمي جاهز لا ينقصه غير السلطان... لقد كتب الكثير جداً في السنوات الأخيرة عن السكان حتى إنني أود على الأقل أن أملاً أرضي جكس بالخيال، ما دامت قاصراً عن شرف إكثار نوعي الإنسان" (28). وكتب إلى الفسيولوجي هالتر يقول "أن خير ما يسعدنا عمله على هذه الأرض هو أن نزرعها، وكل ما عدا ذلك من تجارب في الفيزياء بالقياس إليه عبث أطفال. أنعم وأكرم بزراع الأرض، وتباً للإنسان الشقي الذي يكدرها سواء حمل على رأسه تاجاً، أو خوذة، أو قلنسوة كاهن!" (29).

وحين أعوزته الأرض التي تكفي لتشغيل جميع السكان من حوله، نظم في فرنيه وتورنيه حوانيت لصنع الساعات ونسيج الجوارب -التي ربت لها أشجار توته دودة القز. وكان يشغل كل طالب شغل، حتى أصبح عدد من يعملون له ثمانمائة شخص. وشيد مائة بيت لعماله، وأقرضهم المال بفائدة قدرها 4%، وساعدهم على إيجاد أسواق لسلعهم. وما لبث أصحاب التيجان أن أقبلوا على شراء ساعات فرنيه، وليست كرائم السيدات اللاتي أغرتهن خطاباته جوارب زعم أنه نسج بعضها بيده. واشترت كاترين الثانية من ساعات فرنيه ما بلغت قيمته 39.000 جنيه، وعرضت أن تساعده على إيجاد أسواق لها في آسيا. وما مضت ثلاث سنوات حتى كانت الساعات الصغيرة والكبيرة والحلي والمجوهرات المصنوعة في فرنيه تصر في شحنات منتظمة على السفن إلى هولندا، وإيطاليا، وأسبانيا، والبرتغال، ومراكش، والجزائر،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> الإقطاعي الطيب

وتركيا، وروسيا، والصين، وأمريكا. ويفضل الصناعات الجديدة نمت فرنیه من قرية يسكنها أربعون فلاحاً إلى مجتمع قوامه ألف ومائتا نفس خلال مقام فولتير بها. كتب ريشليو يقول "أعطني فرصة موأتية وأنا كفيل ببناء مدينة". (30) وعاش الكاثوليك والبروتستانت في سلام على أرض هذا الزنديق. أما علاقته بـ "موأليه" فكانت علاقات "الإقطاعي الطيب". وكان يعاملهم كلهم بأمانة ومجاملة. يقول الأمير دلين: "كان يكلم فلاحهم وكأنهم سفراء" (31). وأعفاهم من ضرائب الملح والتبغ (1775). (32) وكافح دون طائل ولكن بغير هوادة ليحرر جميع فلاحي إقليم جكس من رق الأرض. وحين هددت المجاعة الإقليم استورد القمح من صقلية وباعه بأقل كثيراً مما كلفه. (33) وبينما كان يواصل حربه عل "العار" -على الخرافة، والظلامية، والاضطهاد- أنفق الكثير من وقته في ممارسة الإدارة. واعتذر عن عدم مغادرة فرنیه ليزور أصدقائه بقوله "علي أن أرشد وأعول ثمانمائة شخص... ولا أستطيع الغياب دون أن أعرض كل شيء للانتكاس إلى حالة الفوضى". (34) وقد أدهش نجاحه 'دارياً كل من شهد نتائجه. قال ناقد من أفسى نقاده " أنه أبدى حكماً واضحاً على الأمور وإدراكاً حسناً جداً". (35) وتعلم القوم الذين حكمهم أن يحبوه، ومرة ألقوا أوراق الغار على مركبته أثناء مروره. (36) وكان أشدهم تعلقاً به الشباب والصغار لأنه فتح لهم قصره كل أحد للقرص والترفيه. (37) وكان يشجعهم على المضي في لهوهم ويغتنب لابتهاجهم. كتبت مدام دجالان تقول "كان في غاية السعادة ولم يحس بأنه بلغ القافية والثمانين" (38). ولقد أحس بهذا، ولكنه كان راضياً. وكتب يقول "إني أصبح شيخاً" (39).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> صولجان القلم

## 2- صولجان القلم

وواصل الكتابة خلال ذلك، فدفع بما لا يصدق كما، وكيف، وتنوعاً، من التواريخ والأبحاث، والدراسات، والقصص، والقصائد، والمقالات، والنبد، والخطابات، والمراجعات النقدية- دفع بهذا كله إلى جمهور دولي يتلهم على كل كلمة تصدر عنه. ففي سنة واحدة- سنة 1768- كتب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> صولجان القلم

"الرجل صاحب الأربعين أيكو" و"أميرة بابل" (وهي من خيرة قصصه)، و"رسالة إلى بوالو"، و"إعلان لإيمان موحد بالله" و"بيرووية (لا أدريّة) التاريخ" ونصين لأوبرا هزلية، وتمثيلية. وكان ينظم كل يوم تقريباً "شعراً قصير الأجل" وهو ضرب من الأجرام المسجوع، قصير، خفيف، رشيق، وهو في هذا المضمار لا يشق له غبار في الأدب بأسره، حتى في التفوق المركب لـ"المختارات اليونانية".

وقد عالجت كتاباته في الدين والفلسفة في غير هذا الموضوع. فلنلق نظرة عاجلة على التمثيليات التي كتبها في فرنیه، وتانكريد، ونانين، والاسكتلندية، وسقراط، وشاول، وإيرين، وهي أقل ذريته خلوداً وإن كانت حديث باريس في حياته. وقد حظيت تانكريد التي مثلت على النياتر فرانسيسه في 3 سبتمبر 1759 باستحسان الجميع حتى فريرون، خصم فولتير اللدود. وقد بلغت الأنسة كليرون دور دبورة، ولو ان في دور تانكريد في هذه المسرحية قمة فنّها. وكانت خشبة المسرح قد أجلي عنها المتخرجون وجملت بديكور فسيح رائع، وكان الموضوع الفروسي الوسط تحولاً محبباً عن المواضيع الكلاسيكية، بل يمكن القول إن تلميذ بوالو كتب هنا تمثيلية رومانسية، وأظهرت "نانين" أن فولتير تأثر برنتشاردسن، شأنه شأن ديدور؛ وقد امتدحها روسو ذاته. أما "سقراط" فاحتوت حكمة عالية "إنه انتصار للعقل أن يعيش في سلام مع أولئك الذين لا عقل لهم." (40)

وقد درس فولتير كوريني وراسين دراسة مستفيضة، وهو الذي أشاد به جيله ضربياً لهما، وتردد طويلاً في أي الاثنين يفضل؛ وانتهى به التردد إلى إيثار راسين. وقد رفع الاثنين بجرأة فوق مقام سوفوكليس ويوربيديس، ورفع موليير في أفضل مسرحياته، فوق تيرينس بيرودته رغم نقائه، وفوق المهرج أرسنوفانيس. (41) وقد تأثر حين نما إليه أن ماري كوريني، حفيده أخي المسرحي، تعيش في ضنك قرب إفريه، فعرض أن يتبناها ويتكفل بتعليمها، وحين علم أنها فتاة متدينة أكد لها أنه سيتيح لها كل فرصة لممارسة عبادتها. فحضرت إليه في ديسمبر 1760، فتبناها، وعلمها أن تكتب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> صولجان القلم

الفرنسية الجيدة، وأصلح من نطقها، وصاحبها إلى القُداس. ورغبة في جمع مهر لها اقترح على الأكاديمية الفرنسية أن تنوط به نشر أعمال كوريني والتعليق عليها فوافقت. وعكف لتوه على قراءة تمثيليات سلفه من جديد وتزويدها بالمقدمات والهوامش، ثم أعلن عن المشروع، وناشد الراغبين أن يكتبوا له لأنه كان خبيراً بشؤون المال والأعمال، واكتتب كل من لويس الخامس عشر، والقيصرة أليزافيتا، وفرديريك ملك بروسيا، بمائتي نسخة، وكل من مدام دبومبادور وشوازيل بخمسين، ووصلته اكتتابات أخرى من تشستر فيلد وغيره من وجوه الأجانب. وكانت النتيجة أن تقدم الخطاب الكثيرون لماري كوريني. وقد تزوجت مرتين، وأصبحت في 1768 أم شارلوت كورداي.



وقد كان فولتير أعظم مؤرخي جيله كما كان أعظم شعرائه ومسرحيينه. ففي 1757 طلبت إليه الإمبراطورة أن يكتب ترجمة لأبيها بطرس الأكبر. ودعت فولتير إلى سانت بطرسبورج ووعدته بأن تغدق عليه أسباب التكريم. فأجاب بأن شيخوخته تحول بينه وبين القيام برحلة كهذه، ولكنه سيكتب التاريخ إذا وافاه وزيرها الكونت شوفالوف بالوثائق التي تبين سيرة بطرس والتغيرات التي أحدثتها إصلاحات هذا القيصر. وكان قد رأى في شبابه بطرس في باريس (1716)؛ وكان يعتبره رجلاً عظيماً، همجياً رغم عظمته وتحاشياً للخوض في أخطائه، قرر ألا يكتب ترجمة بل تاريخاً لروسيا تحت حكمه الجدير بأن يذكر، وهي مهمة أشق بكثير. وقام بأبحاث هامة في الموضوع، وعكف بهمة على هذا العمل من 1757 إلى 1763، ثم نشره في 1759-1763 بعنوان "تاريخ روسيا عهد بطرس الأكبر". وكان ماثرة جليلة بالنسبة لزمانه، وظل خير تناول للموضوع قبل القرن التاسع عشر، ولكن ميشيل الأمين وجده باعناً على السأم، وقد رأته القيصرية أجزاء منه، فأرسلت إلى فولتير "مسات كبيرة" على الحساب، ولكنها سرقت في الطريق، وماتت القيصرية قبل أن يكتمل الكتاب. وبينما كان حرب السبع سنين مستعرة من حوله، قام في فترات متقطعة بتجديد كتابه "التاريخ العام" أو "مقال في الأعراف" مضيفاً إليه (1755-).

صفحة رقم : 13039

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> صولجان القلم

(1763) "خلاصة لعصر لويس الخامس عشر" وكانت عملية شائكة، لأنه لم يزل من الناحية الرسمية مداناً من الحكومة الفرنسية؛ وعلينا أن نعتقر له مروره الحذر بأخطاء الملك الحاكم؛ ولكنه رغم ذلك كان قصة ممتازة فيها بساطة ووضوح، وكاد وهو يروي قصة الأمير تشارلز إدوارد ستيورات (بوتي يرنس تشارلي) أن يناقش الشخصية التي رسمها للملك "شارل الثاني عشر". ووفاء لمفهومه عن التاريخ، الذي يراه أكمل ما يكون إذا سجل تقدم العقل البشري، أضاف مقالاً ختامياً "في تقدم العقل في عصر لويس الخامس عشر" ولا حظ أشياء بدا له أنها علامات تشير إلى النمو:

"إن إلغاء السلطة الزمنية لرهينة برمتها (اليسوعيين) وتأديب الرهينات الأخرى التي أصلحتها هذه السلطة، والفصل بين (اختصاص) القضاة والأساقفة-كل هذا يدل على مبلغ ما بدد من أهواء، وعلى مدى اتساع المعرفة بشؤون الحكم، وعلى درجة استتارة أذهاننا. وقد ألقيت بذار هذه المعرفة في القرن الماضي. وهي تثبت اليوم في كل مكان في القرن الحاضر، حتى في أقصى الأقاليم... فقد أثار العلم البحث الفنون النافعة، وبدأت هذه الفنون فعلاً في إبراء جراح الدولة التي ابتلتها بها حربان طاحنتان. "أن معرفة الطبيعة، ونبذ الخرافات البالية التي قدسها الناس في الماضي كأنها تاريخ، والميتافيزيقيا الصحيحة المبرأة من سخافات المذاهب-تلك هي ثمرات هذا العصر، وقد تحسن العقل الإنساني تحسناً كبيراً.

أما وقد أدى فولتير دينه للتاريخ، فإنه عاد إلى الفلسفة وإلى حملته على الكنيسة الكاثوليكية. وأصدر في تعاقب سريع الكتيبات التي فحصناها من قبل، وكأنها ضرب من المدفعية الخفيفة في الحرب على "العار": "الفيلسوف الجاهل"، "امتحان هام للورد بولنبروك" و"السادج" و"قصة جيني" و"ألف باء العقل" ووسط هذه الأعمال الشاقة واصل أغرب تبادل للرسائل قام به فرد واحد.

فحين زاره كازانوف عام 1760 أراه فولتير مجموعة من نحو خمسين ألف خطاباً تسلمها حتى ذلك العام، وسيجتمع له منها بعد ذلك نحو هذا العدد، ولما

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> صولجان القلم

كان مستلم الخطاب هو الذي يدفع أجرة البريد، فأن فولتير كان ينفق أحياناً مائة جنيهه على البريد الذي يتسلمه في يوم واحد. وكان ألف معجب، وألف عدو، ومائة مؤلف شاب، ومائة هو للفلسفة، يبعثون إليه بالهدايا وباقات الزهور، والشتايم، واللعنات، والأسئلة، والمخطوطات، ولم يكن من غير المؤلف أن يرجوه سائل متلهف أن يبنيه برجوع البريد هل وجد إله، أو هل للإنسان روح خالدة. وأخيراً نشر تحذيراً في "المركز دفرانس" جاء فيه: "نظراً إلى أن عديدين شكوا من عدم تسلمهم ما يفيد وصول طرود أرسلوها إلى فرنیه، أو تورنييه، أو ليدليس، لزم التنبيه إلى أنه بسبب ضخامة عدد تلك الطرود، أصبح من الضروري رفض تسلم كل ما لا يأتي من أشخاص تشرف الملك بمعرفتهم" (43).

وفي طبعة تيودور بسترمان الكاملة تملأ رسائل فولتير ثمانية وتسعين مجلداً. وفي رأي برونتير أنها "أخلد قسم من إنتاجه كله" (44). والحق أننا لا نجد صفحة مملئة في هذا الحشد برمته، لأننا في هذه الرسائل ما زال في إمكاننا أن نسمع ألمع محدث في زمانه يتكلم بكل ألفة الصديق. وما من كاتب من قبل ولا من بعد حشد على قلمه المتدفق كل هذا التأذب، والحيوية، والسحر، والرشاقة الكبيرة. إنها ليست وليمة للذكاء والبلاغة فحسب، بل للصدقة الحارة، والشعور الرقيق، والفكر البتار، ولو قورنت بها رسائل مدام دسفينيه على ما فيها من دواعي البهجة. لبدت ترف رفاً خفيفاً عارضاً على سطح توافه عابرة. لقد كان في زخارف أسلوب رسائله ولا ريب بعض التمسك بالعرف، ولكن يبدو أنه يتعمده حين يكتب إلى دالامبير قائلاً "أعانقك بكل قوتي، ويؤسفي أنه حتم أن يكون العناق على هذا البعد السحيق"، وهو ما رد عليه دالامبير بقوله: "وداعاً يا صديقي العزيز الشهير، إني أعانقك في حنان، وأنا أكثر مني في أي وقت مضى، ملكك بالروح" (45). ثم استمع إلى كلمات فولتير لمدام دو دفان: "وداعاً يا سيدتي... إن أوثق الحقائق التي التمسها هي أن لك نفساً توافقتني، وسأكون شديد التعلق بها طوال الأجل القصير الذي أفسح لي" (46).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> صولجان القلم

وكانت رسائله لمعارفه في باريس موضع تقديرهم، تتداولها الأيدي تداول نفايس الأخبار ودرر الأسلوب. ذلك أن رسائل فولتير هي التي بلغ فيها أسلوبه أروع تألقه. فهذا الأسلوب لم يبلغ قصارى إبداعه في تواريخه، حيث يستحب السرد الناعم المتدفق أكثر من البلاغة أو النكتة، وفي تمثلياته شط إلى حد الخطابة الرنانة الطنانة؛ أما في رسائله فقد استطاع أن يدع سن قلمه الماسي يسطع بالابجرام أو بنير موضوعاً بدقة وإيجاز لا مثيل لهما. وقد جمع بين علم بيل وأناقة فونتينيل، واستعار مسحة تهكم وسخرية من رسائل بسكال الإقليمية، وقد ناقض نفسه خلال سني كتابته السبعين، ولكنه لم يكن قط غامضاً؛ ونحن لا نكاد نصدق أنه كان فيلسوفاً، فهو في غاية الوضوح، يقصد مباشرة إلى هدفه الأهم، إلى النقطة الحيوية في الفكرة. وهو يتوخى القصد في النعوت والتشبيهات مخافة أن يعقد الفكرة، وفي كل جملتين تقريباً ومضة من نور. وقد تتكاثر الومضات أحياناً، وتتراخم نفاحات الذكاء؛ فيتعب القارئ بين الحين والحين

من هذا التألق، وتضيق عليه بعض السهام المريشة من ذهن فولتير السريع الحركة. وقد أدرك أن فرط تألقه هذا خطأ، كوضع الجواهر على العباءة. واعترف في تواضع بأن "اللغة الفرنسية بلغت أوج كمالها في عصر لويس الرابع عشر". (47)

وكان بين مراسليه نصف وجوه ذلك العهد-لا كل جماعة الفلاسفة فحسب، ولا جميع مؤلفي فرنسا وإنجلترا فحسب، بل الكرادلة، والباباوات، والملوك، والملكات، واعتذر له كرستيان السابع عن عدم تنفيذ كل الإصلاحات الفولتيرية في وقت واحد في الدنمرك؛ وأسف ستانسلاس يونياتوفسكي ملك بولندا على أنه سيق على عجل لاعتلاء العرش وهو في طريقه إلى فرنیه؛ وشكره جوستاف الثالث ملك السويد لأنه ألقى بين الحين والحين نظرة عجلي على الشمال البارد، وتوسل "أن يطبل الله في أيامك الغالية القيمة للإنسانية" (48). ومع أن فردريك الأكبر وبخه لأنه قسا على مويرتوي، وأساء أدبه مع الملوك (49)، إلا أنه كتب بعد شهر يقول "الصحة والرفاهية لأشد من عش أو سيعيش من العباقرة على هذه الأرض خبئاً وإغراء"؛ (50) وفي 12 مايو 1760 أضاف:

صفحة رقم : 13042

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> صولجان القلم

"أما أنا فسأذهب إلى هناك (الجحيم) وأخبر فرجيل بأن فرنسياً بزّه في فنه. وسأقول مثل هذا لسوفوكليس ويوربيديس، وسأحدث ثيوسيديديس عن تواريك، وكويبتوس كورتيويس عن كتابك "شارل الثاني عشر"؛ وربما رجمني هؤلاء الموتى الفيورون لأن رجلاً واحداً جمع في شخصه شتى فضائلهم" (51). وفي 19 سبتمبر 1774 وأصل فردريك مدائحه: "إن يكون هناك بديل لك بعد موتك، وسيكون نهاية الآداب الجيدة في فرنسا" (52). (وهذه غلطة بالطبع لأنه ليس للآداب الجيدة نهاية في فرنسا). وأخيراً، في 24 يوليو 1775، أحنى فردريك صولجانه أما قلم فولتير: "وأما أنا فيعزّين أنني عشت في عصر فولتير، وحسبي هذا" (53). وكانت كاترين الكبرى تكتب إلى فولتير كما يكتب رأس متوج إلى آخر-لا بل كما يكتب التلميذ إلى معلمه. فلقد قرأته بشغف ولذة سنة عشر عاماً قبل أن تشق طريقها إلى عرش روسيا، ثم بدأ تراسلها في أكتوبر 1763 بجوابها بضمير المتكلم على رسالة منظومة بعث بها إلى عضو في هيئتها الدبلوماسية (54) ولقبها فولتير سميراميس، وأغمض في لباقة عن جرائمها، وأصبح المدافع عنها أمام فرنسا. ورجته أن يعفيها من مدائحه، ولكنه أفض فيها. وكانت تقدر انحيازها لها، لأنها علمت أن بفضلها ثم بفضل جريم وديرو، نالت "مساندة طيبة من الكتاب" في فرنسا. وأصبحت الفلسفة الفرنسية أداة للدبلوماسية الروسية. وأوصى فولتير كاترين باستعمال المركبات الحربية المدججة بالمناجل على الطريقة الأشورية في حربها مع الترك، واضطرت إلى أن تبين له أن الأتراك غير المتعاونين لن يهاجموا عدوهم بتشكيلات مكثفة تكثيفاً يتيح حصدهم بشكل مريح. (55) ونسي كراهيته للحرب وسط تحمسه لإمكان قيام جيوش كاترين بتحرير بلاد اليونان من سلطان العثمانيين، وناشد "الفرنسيين، والبريطانيين، والإيطاليين" أن يناصروا هذه الحرب الصليبية الجديدة، وحن حين قصرت سميراميس عن تحقيق هدفه. ثم اضطلع بيرون بقضيته تلك.

صفحة رقم : 13043

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> صولجان القلم

وقد عنف الكثيرون من الفرنسيي فولتير على تملقه للملكية، وشعروا أنه حط من قدره باللف حول العروش والتشدد بمديح أصحابها. ولا ريب في أن هذا اللف كان أحياناً يدير رأسه. ولكنه هو أيضاً كان يلعب لعبة دبلوماسية. فهو لم يدع قط العواطف الجمهورية، وقد ذهب غير مرة إلى أن قدراً من التقدم يمكن تحقيقه بفضل الملوك "المستبشرين" أكثر مما يتحقق بسيطرة الجماهير المتقلبة، الجاهلة، التي تتسلط عليها الخرافة. ولم يخض الحرب ضد الدولة بل ضد الكنيسة الكاثوليكية، وكان تأييد الحكام في تلك المعركة عوناً قيماً. وقد رأينا قيمة ذلك التأييد في حملاته الطافرة دفاعاً عن أسرتي كالاس وسيرفانس. وكان أهم في نظره أن يكون فردريك وكاترين في صفه وهو يناضل في سبيل التسامح الديني. كذلك لم ييأس من كسب لويس الخامس عشر، فقد كسب من قبل مدام دبو مبادور وشوازيل؛ ثم خطب ود مدام دوباري. ولم يكن يتورع عن شيء في استراتيجيته، والواقع أنه قبل أن ينتهي العهد استطاع الظفر بنصف حكومة فرنسا، وتكلفت معركة التسامح الديني.

صفحة رقم : 13044

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير السياسي

3- فولتير السياسي

ما الذي أمل أن يحققه في ميدان السياسة والاقتصاد؟ لقد ثبت بصره على هدفين، هدف أعلى وآخر أدنى: الأعلى تحرير الناس من الخرافات اللاهوتية وسلطان الكهنة وهي مهمة عسيرة ولا ريب، وفيما عدا ذلك طلب بعض الإصلاحات، ولكنه لم يطمع في المجتمع المثالي. وكان يبتسم سخرية من "أولئك المشرعين الذين يحكمون الكون... ومن أبراجهم يصدرون الأوامر للملوك" (56). وكان معارضاً للثورة شأن جماعة الفلاسفة كلهم تقريباً، ولعله لو عمر حتى يشهدها لصدمته وربما أعدمته بالجلوتين. أضف إلى هذا أنه كان غنياً غنى فاحشاً، وما من شك في أن ثراءه لون آراءه.

صفحة رقم : 13045

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير السياسي

ففي 1758 نوى أن يستثمر 500.000 فرنك (625.000 دولار؟) في اللورين. (58) وقد كتب إلى فردريك في 17 مارس 1759 يقول "أنني أتلقى ستين ألف جنيه (75.000 دولار؟) من دخلي (السني) من فرنسا... وأنني أعتزف بأنني غني جداً". وكان قد جمع ثروته بفضل "نصائح" من أصدقائه المالبين أمثال الأخوين باري، وبفضل فوزه بجائزة اليانصيب في فرنسا واللورين، وبفضل نصيبه في شركة أبيه، وبفضل شراء سندات الحكومة، والمساهمة في مشروعات تجارية، وإقراض المال للأفراد. وكان يقنع بعائد قدره 6%، وهو عائد معتدل إذا أخذنا في الاعتبار المخاطر والخسائر. وقد ضاع عليه ألف إيكو (3.750 دولار؟) في تفليسة شركة جليبار في قانس (1767)(59). وفي 1768 علق جيبون في معرض الإشارة إلى الثمانين ألف فرنك (100.000 دولار؟) التي أقرضها فولتير للدوق دريشليو: "لقد أفلس الدوق، والضمان عديم القيمة، واختفت النقود". (60) وعند موت فولتير كان قد تسدد ربع السلفة. وكان دخل فولتير من معاشاته أربعة آلاف فرنك في العام. وفي عام 1777 بلغت جملة دخله 206.000 فرنك (257.5000 دولار؟) (61) وقد جعل هذه الثورة بما يتناسب معها من سخاء، ولكنه أحس أنه مطالب بالدفاع عنها دفاعاً ليس بالضرورة مما لا يليق بالفيلسوف.

"لقد رأيت الكثير جداً من الأدباء فقراء محتقرين، بحيث قررت ألا أزيد عددهم. ولا مناص للمراء في فرنسا من أن يكون إما سنداناً أو مطرقة؛ وقد ولدت سنداناً. والميراث الهزيل يتناقص كل يوم، لأن كل شيء في المدى الطويل يزداد ثمنه، وكثيراً ما تفرض الحكومة الضرائب على الدخل والنقود كليهما... فعليك أن تكون مقتصداً إبان شبابك، وستجد نفسك في شيخوختك تملك رأس مال يدهشك، وهذا هو الوقت الذي تشتد فيه حاجتنا للثروة" (62).

وكان قد اعترف في فترة باكراً (عام 1736) في قصيدته "رجل الدنيا" "إنني أحب الترف، بل الحياة الناعمة، وجميع اللذات، وجميع الفنون". وذهب إلى أن طلب الأغنياء لأسباب الترف يداول مالههم بين الصناع المهرة

صفحة رقم : 13046

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير السياسي

والفنانين، ووطن أنه لولا الثروة لما كان هناك فن عظيم. (63) وحين نشر "ميثاق" ميزلييه الملحد-الشيوعي، حذف القسم المعارض للملكية. وقد آمن أنه ما من نظام اقتصادي يستطيع النجاح بغير حافز التملك. "إن روح التملك تضاعف من قوة الإنسان" (64) وكان يأمل أن يرى كل إنسان يملك ملكاً، وبينما كان روسو يبارك القنية في بولندا كتب فولتير يقول "إن بولندا يمكن أن يزداد سكانها وثروتها ثلاث مرات لو لم يكن فلاحوها أقتاناً" (65). على أنه لم يحبذ أن يصبح الفلاحون أغنياء، فمن إذن يوفر للدولة جندها الأقوياء؟ (66).

ولم يشاطر روسو تحمسه للمساواة؛ فهو يعلم أن الناس كلهم يُخلقون غير أحرار ولا متساوين. ورفض فكرة هلفنتسيوس القائلة بأنه لو أُتيح للناس كلهم التعلم والفرص المتكافئة، لأصبح الجميع بعد قليل متساويين في التعليم والقدرات. "يالها من حماقة أن نتصور أن في استطاعة كل إنسان أن يصبح نيوتناً!" (67) فسوف يكون هناك دائماً الأقوياء والضعفاء، والأذكياء والبسطاء، وإن الأغنياء والفقراء.

"يستحيل في دنيانا الكنيية منع الناس الذين يعيشون في مجتمع من أن ينقسموا إلى طائفتين-الأغنياء الأمرين، والفقراء الذين يأتَمرون... ولكل إنسان الحق في أن يكون له رأيه الخاص في مساواته مع غيره، ولكن لا يستتبع هذا أن طباط الكردينال ينبغي أن يأخذ على عاتقه أن يأمر سيده بتجهيز طعامه. على أن للطباخ أن يقول "أنني إنسان كسيدي سواء بسواء، فقد ولدت مثله بالدموع، وسأموت مثله في عذاب... فكلانا يؤدي الوظائف الحيوانية نفسها. وإذا استولى العثمانيون على روما فأصبحت كردينالاً وأصبح سيدي طباطاً، فأنتني سأدخله في خدمتي" وهذه اللغة معقولة ومنصفة جداً، ولكن، إلى أن يستولي السلطان العثماني على روما لا بد للطباخ من أن يؤدي واجبه وإلا انهيار المجتمع الإنساني كله. (68)

ولما كان ابن موثق، ولم يصبح سيداً إقطاعياً إلا مؤخراً، فقد كان له

صفحة رقم : 13047

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير السياسي

في الأرسقراطية آراء مختلطة، وواضح أنه فضل نوعها الإنجليزي(69). وقد قبل النظام الملكي باعتباره الشكل الطبيعي للحكومة "لم يحكم الملوك الأرض كلها تقريباً؟... الجواب الأمين هو: لأن الناس نادراً ما يكونون جديرين بحكم أنفسهم"(70). وقد سخر من حق الملوك الإلهي وأرجعهم هم والدولة إلى الغزو "إن القبيلة تختار زعيماً ليقود حملات السلب والنهب التي تشنها؛ وهي تعود نفسها الطاعة، وهو يعود نفسه إصدار الأوامر لها، وفي اعتقادي أن هذا أصل الملكية"(71). فهل هذا طبيعي؟ أنظر إلى حوش المزرعة:

"إن حوش المزرعة يرينا أكمل تمثيل للملكية. فما من ملك يضارع الديك. ذلك أنه إن مشى شامخاً ضارباً وسط قطيعه فما ذلك لغروره، لأنه إذا زحف العدو فهو لا يكتفي بإصدار الأمر لرعيته أن تخرج وتقتل فداءه... إنما هو يذهب بشخصه، وينظم جنده من خلفه، ويقاوم إلى آخر نسمة. فإذا انتصر فهو الذي يتزعم بمسبحة الشكر... وإذا صح أن النحل تحكمها ملكة يخطب ودها جميع رعاياها، فتلك حكومة أعظم كمالاً حتى من حكومة الديك"(72).

واستطاع لعيشه في برلين ثم في جنيف أن يدرس الملكية و"اللاملكية" في ممارستها الحية. وكان كغيره من جماعة الفلاسفة متحيزاً لأن ملوكاً عدة (فردريك الثاني، وبطرس الثالث، وكاترين الثانية) وبعض الوزراء (شوازيل، وأراندا، وتانوتشي، وبومبال) استمعوا إلى نداءات الإصلاح، أو منحوا المعاشات للفلاسفة. وقد بدا في عصر بلغ فيه الفلاح الروسي منتهى البدائية، وغلبت الأمية على جماهير الشعب في كل بلد، وأعجزها الإرهاب عن التفكير، إن من السخف اقتراح حكم الشعوب، والواقع أن "الديمقراطيات في سويسرا وهولندا كانت أولجركيات. والجماهير هي التي أحبت أساطير الدين ومراسمه القديمة، ووقفت كأنها جيش عرمرم في طريق الحرية والتطور الفكريين. وليس هناك سوى قوة واحدة لها من القدرة ما يمكنها من مقاومة الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، كما قاومت بنجاح الكنائس البروتستانتية في إنجلترا وهولندا وألمانيا وتلك هي الدولة. وبفضل الحكومات الملكية القائمة في فرنسا وألمانيا وروسيا بفضل هذه فقط يستطيع الفلاسفة أن يطعموا في

صفحة رقم : 13048

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير السياسي

الفوز في كفاحهم للخرافة، والتعصب، والاضطهاد، واللاهوت الطفلي. فهم لا يستطيعون توقع التأييد من "البرلمانات" لأنها تتنافس الكنيسة وتبرز الملك في الظلامية، والرقابة، وعدم التسامح. ولكن أنظر ما فعله هنري الملاح للبرتغال، وما فعله هنري الرابع لفرنسا، أو بطرس الأكبر لروسيا أو فردريك الأكبر لروسيا. "ما من عمل

جليل تقريباً عمل في العالم إلا بفضل عبقرية وحزم رجل فرد كافح أهواء الجماهير" (73). ومن ثم كان جماعة الفلاسفة يتمنون تربع الملوك المستبشرين على العروش. كتب فولتير "ميروب" يقول "إن الفضيلة المترتبة على العرش هي أروع أعمال السماء" (74) وسياسة فولتير ينبعث بعضها من ظنه بأن من الناس عدداً كبيراً لا قدرة لهم على هضم التعليم حتى إن قدم لهم. وقد أشار إلى "الشطر المفكر من النوع الإنساني-أي الجزء على مائة ألف منهم" (76)، وكان يخشى من عدم النضج العقلي وسرعة الانفعال العاطفي للناس عموماً "حين تتشارك الجماهير في التفكير يضيع كل شيء" (77). وهكذا ظل حتى سني شيخوخته لا يتعاطف تعاطفاً يذكر مع الديمقراطية. فلما سأله كازانوف "أتود أن ترى الشعب سيد نفسه؟" أجابه "معاذ الله!" (78) وكتب إلى فردريك "حين رجوتك أن تكون الباعث لفنون اليونان الجميلة، لم يبلغ رجائي الحد الذي أطلب إليك فيه إعادة الديمقراطية الأثينية. فأنا لا أحب حكم الرعاع" (79). وقد اتفق وروسو على أن "الديمقراطية لا تناسب غير البلاد الصغيرة"، ولكنه أضاف قيوداً أخرى "وغير تلك التي تتعم بموقع ملائم... والتي يكفل لها موقعها الحرة، والتي في مصلحة جيرانها المحافظة عليها". (وكان يعجب بالجمهوريتين الهولندية-والسويسرية)، ولكن خامرت إعجابه بعض الشكوك: "إن تذكرتم أن الهولنديين أكلوا على السفود قلب الأخوين دي وبيت،

صفحة رقم : 13049

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير السياسي

وإن تذكرتم... إن الجمهوري يوحنا كلفني... بعد أن كتب أننا ينبغي ألا نضهد إنساناً ولو أنكر الثالث، أمر بحرق أسباني خالفة في الرأي حول الثالث فأحرقه حياً على حطب أخضر (بطيء الاحتراق)، خلصتم حقاً إلى أنه ليس في الجمهوريات فضيلة أعظم مما في الملكيات" (81). على أنه بعد كل هذه التصريحات المعارضة للديمقراطية، نجده يؤيد الطبقة الوسطى الجنيقية تأييداً نشيطاً ضد الأشراف (1763) ووطنية جنيف المحرومين من الحقوق المدنية ضد الأرستقراطية والبرجوازية (1766)، ولكن لنرجئ هذه القصة إلى موضعها المناسب. والواقع أن فولتير أخذ يتحول إلى مزيد من الراديكالية فيما يبدو كلما تقدم به العمر. ففي 1768 أصدر قصته "الرجل ذو الأربعين إيكو" فطبع الكتاب عشر طبعات في سنته الأولى، ولكن برلمان باريس أحرقه وزج بالطابع في سفن تشغيل العبيد، ولم يكن مرجع هذه الصراحة تلك السخرية التي سخت بها القصة على جماعة الفيزوقراطيين، بل تصويرها الحي للفلاحين الذين أفقرتهم الضرائب، والرهبان الذين يحيون حياة التبتل والترف على أملاك يفلحها عبيد الأرض. وفي كتيب آخر نشره عام 1768 وسماه الألف باء (وقد حرص فولتير أشد الحرص على إنكاره) أجرى هذه العبارات على لسان "مسيوب". وفي وسعي أن أتكيف بسهولة مع الحكومة الديمقراطية... فكل الملاك على نفس الأرض لهم نفس الحق في حفظ النظام على تلك الأرض. إنني أحب أن أرى رجالاً أحراراً يضعون القوانين التي يعيشون في ظلها... ويطيّب للي أن يرفع بناي، ونجاري، وحدادي، أولئك الذين أعانوني على بناء مسكني، وجاري المزارع، وصديقي الصانع-أن يرفعوا أنفسهم فوق حرفهم، ويعرفوا الصالح العام خيراً مما يعرفه الموظف التركي الشديد الوقاحة. فليس في الديمقراطية ما يدعو عاملاً أو صانعاً إلى الخوف من الإزعاج أو الاحتقار... فإن يكون المرء حراً، بين أنداد لا أكثر، هو الحياة الطبيعية الصادقة للإنسان،

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فولتير الشيخ -&gt; فولتير السياسي

وما عدا ذلك من أساليب الحياة فهو خدع حقيرة، وهزليات رديئة يلعب فيها فرد دور السيد، وآخر دور العبد، فرد دور الطفيلي، وآخر دور القواد". (82)

وفي عام 1769 أو بعده بقليل (وكان في الخامسة والسبعين) في طبعة جديدة للقاموس الفلسفي، ساق فولتير وصفاً مرأاً لألوان الطغيان والفساد الحكومية في فرنسا (83)، وامتدح إنجلترا بالقياس إليها:

"لقد بلغ الدستور الإنجليزي في الواقع. التفوق التي فيها يرد جميع الناس إلى الحقوق الطبيعية التي حرما منها في جميع النظم الملكية تقريباً، وهي: الحرية الكاملة للأشخاص والأموال؛ حرية النشر؛ حرية المحاكمة في جميع الجرائم على يد هيئة محلفين من أعضاء مستقلين؛ حق المحاكمة طبقاً لنص القانون فقط؛ وحق كل إنسان في أن يجهر دون مضايقة بأي دين يختاره ويرفض المناصب التي لا يجوز تقليدها إلا لأتباع الكنيسة الرسمية. هذه... امتيازات لا تقد بقيمة... أن تكون أمنأ مطمئناً وأنت ماض إلى فراشك إلى أنك ستستيقظ وأنت تملك نفس الثروة التي كانت لك حين ذهبت لتنام، وإنك لم تنتزع من أحضان زوجتك وأطفالك في جوف الليل ليزج بك في سجن مظلم أو لتدفن في منفى في الصحراء... وأن يكون لك القدرة على نشر جميع أفكارك... هذه الامتيازات يتمتع بها كل من تطأ قدمه أرض إنجلترا... ولا مفر من أن يعتقد أن الدول التي لا تقوم على هذه المبادئ ستجتأحها الثورات (84).

وتنبأ بالثورة في فرنسا كما تنبأ بها الكثيرون. ففي 2 إبريل 1764 كتب إلى المركز دشرفلان:

"إني لأرى في كل مكان بذور ثورة لا ماص منها، ثورة لن نتاح لي لذة مشاهدتها. فالفرنسيون يصلون متأخرين في كل شيء، ولكنهم يصلون في النهاية ما في ذلك شك. وقد اتسع انتشار التنوير اتساعاً سيعينه على التقجر في أول فرصة، وعندها ستحدث فرقة عنيفة... إن الشباب محظوظون، لأنهم سيرون أشياء عظيمة".

## قصة الحضارة -&gt; روسو والثورة -&gt; فرنسا قبل الطوفان -&gt; فولتير الشيخ -&gt; فولتير السياسي

ومع ذلك حين تذكر أنه يعيش في فرنسا بفضل تسامح ملك أساء إليه بإقامته في بونستام، وحين رأى بومبادور وشوازيل ومالزيرب وطورجو بوجهون الحكومة الفرنسية صوب التسامح الديني والإصلاح السياسي-وربما لأنه تاق إلى الإذن له بالعودة إلى باريس-اتخذ على العموم نغمة أكثر وطنية، واستنكر الثورة العنيفة:

"إذا اشتد شعور الفقراء بفقرهم أعقبت ذلك حروب كحروب حزب الشعب ضد مجلس الشيوخ في روما، وحروب الفلاحين في ألمانيا، وإنجلترا، وفرنسا. وقد انتهت هذه الحروب كلها، إن عاجلاً أو آجلاً، بإخضاع الشعب، لأن الكبار يملكون المال، والمال في الدولة هو صاحب الأمر والنهي في كل شيء" (85).

إذن، فبدلاً من انقلاب من أسفل، حيث القدرة على التدمير لا تتبعها القدرة على التعمير، وحيث تعود الكثرة الساذجة بعد قليل للخضوع مرة أخرى لقلّة مأكرة، أثر فولتير أن يعمل على قيام ثورة غير عنيفة عن طريق انتقال التنوير من المفكرين إلى الحكام، والوزراء، والقضاة، وإلى التجار ورجال الصناعة، وإلى الصناع والفلاحين. "أن العقل يجب إقراره أولاً في أذهان القادة، ثم ينزل شيئاً فشيئاً وفي النهاية يحكم أفراد الشعب، الذين لا يعون وجوده، ولكنهم حين



يرون اعتدال رؤسائهم يتعلمون أن يقلدوهم" (86). ورأى أن التحرير الحقيقي الوحيد، في المدى الطويل، هو التعليم، وأن الحرية الحقيقية الوحيدة هي الذكاء. "كلام استنار الناس تحرروا" (87). وليس هناك ثورات حقيقية غير تلك التي تغير العقل والقلب، ولا ثورا حقيقيون غير الحكيم والقديس.

صفحة رقم : 13052

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> المصلح

4- المصلح

وبدلاً من أن يدعو فولتير لثورة سياسية راديكالية، جاهد في سبيل إصلاح معتدل تدريجي في إطار هيكل المجتمع الفرنسي القائم، وفي نطاق هذه الدائرة المنكرة للذات حقق أكثر مما حققه أي رجل آخر في جيله.

صفحة رقم : 13053

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> المصلح

وكان أهم نداء له هو طلب تنقيح القانون الفرنسي تنقيحاً شاملاً، ولم يكن قد روجع منذ 1670. وفي 1765 قرأ بالإيطالية كتاب الجيل المسمى "رسالة في الجنايات والعقوبات" من تأليف الفقيه الميلاني بيكاريا، الذي كان بدوره قد استلهم جماعة الفلاسفة. وفي 1766 أصدر فولتير كتابه "تعليق على كتاب الجنايات والعقوبات" وفيه اعترف بفضل السبق لبيكاريا، ثم واصل مهاجمة مظالم القانون الفرنسي وفضاعاته إلى عام 1777 حين نشر وهو في الثانية والثمانين كتابه "ثمن العدالة والإنسانية".

وقد طالب، بادئ ذي بدء، بإخضاع القانون الكنسي للقانون المدني، وبكبح سلطان الكهنوت في اشتراط العقوبات التكفيرية المذلة أو فرض التبطل على الناس في عطلات دينية كثيرة؛ وطلب تخفيف العقوبات على انتهاك المقدسات، وإلغاء القانون الذي يهين جسد المنتحر ويصادر ثروته. وأصر على التفرقة بين الخطيئة والجريمة، والقضاء على الفكرة التي تقول إن عقاب الجريمة ينبغي أن يدعي أنه يثأر لإله مهان.

"يجب ألا يكون لأي قانون كنسي قوة إلى أن يحصل على موافقة الحكومة الصريحة عليه... وكل ما يتصل بالزواج لا يفصل فيه غير القضاة، وينبغي أن يقصر القساوسة على وظيفة مباركة الزواج الجليلة... وإفراض المال بالفائدة من اختصاصات القانون المدني وحده... ويجب أن يكون جميع الكهنة، في جميع الحالات أياً كانت، خاضعين لرقابة

الحكومة المطلقة لأنهم رعايا للدولة... ويجب ألا يكون لأي قسيس سلطة حرمان مواطن ولو من أبسط الحقوق بحجة أنه خاطئ... ويجب أن يسهم القضاة، والزراع، والكهنة على السواء في نفقات الدولة" (88).  
وقد شبه قانون فرنسا بمدينة باريس فهو حصيلة بناء تدريجي، ونتاج المصادفات الظروف، وخليط من المتناقضات؛ وقال إن المسافر في فرنسا يغير قوانينه مراراً كما يغير خيول مركبته، (89) فالواجب توحيد قوانين جميع الأقاليم والتنسيق فيما بينها. وينبغي أن يكون كل قانون واضحاً،

صفحة رقم : 13054

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> المصلح

دقيقاً، ومحصناً على قدر الإمكان من التلاعب بحرفيته. ويجب أن يكون جميع المواطنين سواء أمام القانون، وإلغاء عقوبة الإعدام لأنها عقوبة همجية مبددة. فلا شك أن من الهمجية عقاب التزوير، أو السرقة، أو التهريب، أو الحرق المتعمد بالموت. وإذا كانت السرقة تعاقب بالإعدام فلن يكون هناك ما يمنع اللص من القتل، ومن ثم فإن كثيراً من جرائم قطع الطريق في إيطاليا مصحوباً بالاغتيال. "إذا علقتم على مشنقة الدولة (كما حدث في برلين عام 1772) الخادمة التي سرقت دسنة فوط من سيدتها... فإنها لم تستطيع إضافة دسنة من الأطفال إلى مواطنيكم... وشتان بين دسنة فوط وبين حياة إنسان" (90). ومصادرة ثروة إنسان محكوم عليه بالإعدام سرقة صريحة تقتربها الدولة ضد الأبرياء. وإذا كان فولتير يجادل أحياناً من وجهة نظر نفعية فقط فما ذلك إلا لأنه عرف أن حججه هذه ترجح أي نداء إنساني في نظر معظم المشرعين.

على أنه حين تناول موضوع التعليم القضائي أفصحت روحه الإنسانية عن نفسها في قوة وتأکید. ذلك أن القانون الفرنسي أباح للقضاة أن يستخدموا التعذيب وسيلة لاستئصال الاعترافات قبل المحاكمة إذا كانت هناك من المؤشرات المرئية ما يلمع إلى أن المتهم مذنب. وقد حاول فولتير أن يخزي فرنسا بإشارته إلى مرسوم كاترين الثانية الذي ألغى التعذيب في روسيا التي زعم الفرنسيون أنها قطر همجي. "أن الفرنسيين، الذين يعتبرون-ولا أدري لماذا- شعباً عظيم الإنسانية، يدهشهم أن الإنجليز الذين دفعهم تجردهم من الإنسانية إلى انتزاع كندا كلها من أيدينا، قد أقلعوا عن لذة استخدام التعذيب" (91).

واتهم بعض القضاة بأنهم "فتوات" يتصرفون كأنهم مدعون لا قضاة، مفترضين بشكل واضح أن المتهم مذنب حتى تثبت براءته. واحتج على حبس المتهم في سجون قذرة، وأحياناً في أغلال عدة شهور قبل تقديمه للمحاكمة. ولاحظ أن المتهم بجريمة كبرى يمنع من الاتصال بأي إنسان حتى بمحام. وروى مراراً وتكراراً معاملة آل كالاس وسيرفانس مثلاً على التعجل في

صفحة رقم : 13055

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> المصلح

إدانة الأبرياء. وقال أن شهادة شخصين فقط، حتى إذا كانا شاهدي عيان، ينبغي ألا تعتبر بعد اليوم كافية لإدانة رجل بالقتل، وساق أمثلة على شهادة الزور، وألح في إلغاء عقوبة الإعدام ولو للحيلولة دون إعدام بريء واحد في كل ألف متهم. وكان في الإمكان إصدار أحكام الإعدام في فرنسا بأغلبية اثنين من القضاة، وقد حكم على كلاس بالموت بأغلبية ثمانية ضد خمسة. وطالب فولتير بأن يشترط لإصدار حكم الإعدام توافر أغلبية ساحقة، ويفضل أن تكون إجماعاً. "يا لها من فظاعة سخيفة أن يعذب بحياة مواطن وموته بلعبة ستة إلى أربعة، وخمسة إلى ثلاثة، أو أربعة إلى اثنين، أو ثلاثة إلى واحد" (92).

وكانت الإصلاحات التي اقترحها فولتير على الجملة توفيقاً بين ميراثه الثقافي الوسيط وكرهه الكنيسة، وخبرته واستثماراته بوصفه رجل أعمال ومالك أرض، ومشاعره الصادقة شخصاً باراً بالإنسانية، وكانت مطالبه معتدلة، ولكنها كانت في كثير من الحالات ذات أثر فعال. شن حملة لتحقيق حرية النشر، فوسعت هذه الحرية توسيعاً هائلاً. ولو بفضل أعضاء الحكومة فقط قبل أن يموت. وطلب إنهاء الاضطهاد الديني، فأنتهى في فرنسا من الناحية العملية في 1787. واقترح الإذن للبروتستانت ببناء الكنائس ونقل الملكية أو وراثتها، والتمتع بكامل حماية القوانين؛ فتم هذا قبل اندلاع الثورة. وطلب إباحة الزواج قانوناً بين أشخاص من ديانات مختلفة فأبيح. وندد ببيع المناصب، وفرض الضرائب على الضروريات، والقيود على التجارة الداخلية، وبقاء الفنية والوقف؛ وأشار على الدولة بأن تسترد من الكنيسة تنفيذ الوصايا وتعليم الصغار؛ وفي هذه الأمور جميعاً كان لصوته تأثير على الأحداث. وقاد الحملة لإجلاء المتفرجين عن خشية مسرح التياتر-فرانسيه، فتم هذا في 1759. وأوصى بفرض الضرائب على جميع الطبقات، وبنسبة ثروتهم، وكان على هذه التوصية أن تنتظر حتى تنشب الثورة. وطلب تنقيح القانون الفرنسي، فتم هذا في مجموعة قوانين نابليون (1807)؛ وهكذا يسر الفقهاء والفلاسفة لرجل الحرب والسياسة، الذي قرر الهيكل التشريعي لفرنسا حتى يومنا هذا، أن يحقق أعظم مآثره بقاءً على الزمن.

صفحة رقم : 13056

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير الصميم

5- فولتير الصميم

كيف نجم القول في شخصية هذا الرجل المذهل جداً من رجال القرن الثامن عشر؟ لم يعد بنا حاجة للحديث عن عقله فقد أفصح عن نفسه في مائة صفحة من هذه المجلدات. ولم يبارِه أحد في سرعة الخاطر ووضوح الفكر، ولا في حدة النكتة ووفرتها، وقد عرف النكتة الذكية بعناية بالغة فقال:

"إن ما يسمى النكتة الذكية هو أحياناً مقارنة مجللة، وأحياناً كناية رقيقة، أو قد يكون لعباً بالألفاظ-فأنت تستعمل لفظاً بمعنى، علماً أن محدثك سيأخذه (لأول وهلة) بمعنى آخر. أو هو طريقة مأكرة للمقارنة بين أفكار لا يقرن الناس بينها عادة... إنه فن إيجاد صلة بين نقيضين، أو خلاف بين شبيهين؛ إنه فن قول نصف ما تعني وترك الباقي للخيال. ولو أوتيت المزيد منه شخصياً لزدت القول فيه كثيراً" (93).

ولم يؤت إنسان آخر مزيداً من هذه النكتة الذكية، ولعل حظه هو منها كان كما قلنا مفرطاً. فقد كان زمام حبه للدعابة يفلت منه أحياناً، وكثيراً ما غلظت دعابته وأشرفت على التهريج أحياناً.

ولم تترك له سرعة إدرآكاته، وربطاته، ومقارناته، ووقفه تتيح له الاتساق والتماسك، ولم يسمح له تعقب أفكاره السريع دائماً وهو يتناول موضوعاً بالتغلغل فيه إلى أعماقه المتاحة للبشر. ولعله تسرع في الحكم على الجماهير بأنهم رعا؛

وليس في وسعنا أن نتوقع منه التنبؤ بزمن سيكون فيه التعليم للجميع ضرورياً لاقتصاد تقدمي من الناحية التكنولوجية. ومثل يطبق صبراً علم نظريات بوفون الجيولوجية، أو فروض ديدرو البيولوجية. وقد اعترف بقصوره، ولم يخلُ من لحظات تواضع. قال لصديق مرة "إنك تظنني أعير عن نفسي بوضوح كافٍ. ولكنني أشبه بالجداول الصغيرة-فهني صافية شفافة لأنها ليست عميقة"(94) وكتب إلى داكان في 1766:

صفحة رقم : 13057

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير الصميم

"منذ كنت في الثانية عشرة اعتدت أن أتكهن بعدد هائل من الأشياء التي لم أوت الموهبة لفهمها. فأنا عليم بأن أعضائي لم تهيأ لتعمق الرياضة. وقد أثبت أنني لا أميل إلى الموسيقى. أعتمد على تقدير فيلسوف عجوز في من الحماقة... ما يحمله على الاعتقاد بأنه مزارع قدير جداً، ولكن ليس فيه من الحماقة ما يحمله على الاعتقاد بأنه وهب جميع المواهب"(95).

وليس من الإنصاف أن نطلب من رجل كثرت الموضوعات التي عالجهها هذه الكثرة لأن يكون قد استوعب كل المعلومات المتاحة عن كل موضوع قبل أن يجري عليه قلمه. فلم يكن كله عالماً؛ لقد كان مقاتلاً، أديباً جعل الأدب ضرباً من العمل، وسلاحاً للتغيير. ومع ذلك تستطيع أن ترى من مكتبته التي حوت 2.210 مجلداً، وما تركه على الكتب من هوامش، إنه درس في شغف وعناية موضوعات فيها تنوع مذهل، وإنه كان رجلاً واسع العلم جداً بالسياسة، والتاريخ، والفلسفة، واللاهوت، ونقد الكتاب المقدس، وكانت رقعة حبه للاستطلاع واهتماماته شاسعة؛ وكذلك كان غنى أفكاره وقدره ذاكرته على التذكر. ولم يأخذ أي تقليد موروث على أنه قضية مسلمة، بل فحص كل شيء بنفسه. وكان فيه نزوع إلى التشكك لا يتردد في أن يعارض بالفطرة السليمة سخافات العلم وأساطير إيمان العوام سواءً بسواء. وقد وصفه عالم نزيه بأنه "مفكر جمع من المعلومات الدقيقة عن العالم في جميع نواحيه أكثر مما جمعه أي إنسان منذ أرسطو"(96). ولم يوفق عقل واحد في أي بلد آخر في أن ينقل إلى دنيا الأدب ودنيا العمل هذا الحشد الهائل من المواد من مثل هذه الميادين المتنوعة.

ولا بد لنا من أن نصوره أعجب مزيج من عدم الاستقرار العاطفي، والرؤيا والقدرة العقليتين. فقد جعلته أعصابه دائماً متوتراً قلقاً، فما كان في استطاعته الجلوس ساكناً إلا إذا استغرقت الكتابة الأدبية. وحين سألت السيدة ذات الردف الواحد "أيهما أسوأ للمرأة-أن يهتك عرضها قرصان من الزنوج مائة مرة، أو أن يجرح ردفها جرحاً بليغاً... أو أن تقطع إرباً، أو أن تجذف في سفن تشغيل العبيد،... أو أن تقعد ولا تعمل شيئاً؟" أجابته كانديد

صفحة رقم : 13058

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير الصميم

وهي تتعم الفكر "ذلك سؤال كبير" (97). لقد كان فولتير أيام حفلة بالسعادة، ولكنه قل أن عرف سلام العقل أو الجسد. كان عليه أن يكون مشغولاً، نشيطاً، يبيع ويشترى، ويزرع، ويكتب، ويمثل، ويتلو، وكان يخشى الملل أكثر مما يخشى الموت، وفي لحظة سأم دم الحياة لأنها "إما ضجر أو قسدة مخفوقة" (98). ولعلنا نرسم صورة قبيحة لفولتير أن وصفنا طلعتة دون أن نلاحظ عينيه، أو عددنا أخطائه وحماقته دون فضائله وظرفه. لقد كان "البرجوازي المنتحل النبالة" الذي شعر بأن له الحق في لقب الشرف ما لمدينه المماطلين. ولقد بارى أعظم السادة الإقطاعيين كياسة في السلوك والحديث، ولكنه كان قادراً على المساومة في المبالغ التافهة، وانهدل على المشرف على الأجام بأفزع الشتائم بسبب أربعة عشر قدماً مكعباً من الخشب-أصر على قبولها هدية دون ثمن. وأحب المال أساساً لأمنه. وقد اتهمته مدام دنييس بالبخل بعبارات فيها غلو شديد: "إن محبة المال تعذبك... وأنت في صميمك أخط الرجال. وسأخفي ما استطعت ردائل قلبك" (99). ولكنها حين كتبت هذا (1754) كانت تعيش عيشة التذبير في باريس على مال كان عبئاً باهظاً على جيبه، وفي باقي السنين التي قضتها معه كانت تحيا حياة الأبهة والفخخة بفرنیه.

وقبل أن يصيح مليونيراً وبعده كان يسعى لمصادقة الأقوياء اجتماعياً أو سياسياً بتعلق يقرب أحياناً من التذلل. وفي "رسالة إلى الكاردينال دمو" وصف معدن الرذائل ذلك بأنه أعظم من الكاردينال ريشليو (100). وحين كان يسعى لقبوله في الأكاديمية الفرنسية واحتاج إلى تأييد رجال الدين أكد للأب دلاتو الكبير النفوذ أنه يود أن يعيش ويموت في كنف الكنيسة الكاثوليكية المقدسة (101). وأكاذيبه المطبوعة تؤلف كتاباً لو جمعت، والكثير منها لم يطبع، وبعضها كان غير قابل للنشر، وقد ذهب إلى أن هذا الإجراء مبرر في الحرب، وأحس أن حرب السنين السبع لم تكن غير لهو الملوك إذا قيست بحرب الثلاثين عاماً التي خاضها ضد الكنيسة؛ والحكومة التي تستطيع أن تزج برجل في السجن لقوله الصدق ليس في وسعها أن تشكو بحق إذا كذب.

صفحة رقم : 13059

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير الصميم

وفي 19 سبتمبر 1764 عندما حمى وطيس معركته، كتب دالامبير يقول "حالما يبدو أدنى خطر تقضل بإبلاغي لكي أنكر كتاباتي في الصحف العامة بما عهد في من صراحة وبراءة". وقد أنكر كل أعماله تقريباً باستثناء ملحمة "الهنريادة" وقصيدته في معركة فونتنوا. "على المرء أن يظهر الحق للأجيال القادمة بجرأة، ولمعاصريه بحذر. ومن العسير جداً التوفيق بين الواجبين" (102).

وما من شك في أنه كان مغروراً: فالغرور مهماز التقدم، وسر الكتابة والتأليف. وكان فولتير يتحكم في غروره عادة، فكثير ما نقح كتاباته استجابة لما يوجه إليه من مقترحات ونقد بروح طيبة. وكان سخياً في ثنائه على المؤلفين الذين لا ينافسونه كمارمونتيل، ولا هارب، وبومارشيه، ولكنه قد يغدو غيوراً غيراً صبيانية من مزاحميه، كما نرى في "مديح كريببون" (الأب) المفعم بالنقد الخبيث؛ ويرى دييرو أنه "يحمل ضغينة لكل قاعدة تمثال" (103) وقد دفعته غيرته إلى شتم روسو شتماً مقدعاً، فوصفه بأنه "صبي الساعاتي" و"يهودا خائن الفلسفة" و"كلب مسعور يعقر كل إنسان" و"مجنون وليد زواج صدفة بين كلبى ديوجين وإيراستراتوس" (104). وذهب إلى أن النصف الأول من "جولي أو هلويز الجديدة" قد ألف في ماخور، والآخر في مستشفى للمجاذيب، وتنبأ بأن "إميل" سينسى بعد شهر (105). وأحس أن روسو ولى ظهره لتلك الحضارة الفرنسية التي كانت رغم كل ذنوبها وجرائمه في نظر خمر التاريخ ذاته.

وإذا كان فولتير مجرد أعصاب وعظام دون لحم يذكر، كان أرهف حساً حتى من روسو. ولما كان حتماً أن نحس بالأمنا حساساً أحد من إحساسنا بلذاتنا، فإنه كان يأخذ المديح والإطراء قضية مسلمة؛ ولكنه "يصاب باليأس" إذا وجه إليه نقد معاد (106). فلما أوتي من الحكمة والتعقل ما يضبط قلمه؛ فكان يرد على كل معارض مهما صغر شأنه. وقد وصف هيوم بأنه إنسان "لا يغفر أبداً" (؟)، ولا يرى عدواً لا يستحق اهتمامه" (107). وقد حارب خصومه الألداء

كديفونتين وفريرون حرباً لا هوادة فيها؛ ولجأ إلى أسلوب في الهجاء، والسخرية، والشتم، وحتى لوى الحق بمكر(108).

صفحة رقم : 13060

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير الصميم

وكان غله يصدّم أصدقاءه القدامى ويخلق له أعداء جدداً. قال "إني أعرف كيف أكره لأنني أعرف كيف أحب"(109). "إنني بحكم طالعي أميل قليلاً إلى الأذى"(110)؛ وهكذا حرك كل كتائبه بنجاح ليهزم ترشيح دي روس للأكاديمية (1770). وقد لخص الأمر بمزيج من خلق دارتنيان ورايليه:  
"أما عن شخصي الضعيف، فإني أخوض الحرب آخر لحظة ضد الجانسينيين، والمولنيين، والفريرونيين، واليومنيانيين، اليمينيين واليساريين، والوعاظ، وجان-جاك روسو. أتلقى مائة طعنة وأردها مائتين، وأضحك.. حمداً لله! إنني أنظر إلى العالم كله كأنه مهزلة (فارص) تستحيل مأساة أحياناً، يستوي كل شيء آخر النهار، وسيظل كل شيء سواء في نهاية الأيام"(111).

وفي عدائه للسامية حول على شعب بأسره ذلك الغيظ الذي ولدته خصوماته مع بعض أفرادهِ. ومن زاوية تلك الذكريات فسر فولتير تاريخ اليهود، فسجل عليهم أخطاؤهم بتدقيق وتفصيل، وندر أن برأهم لعدم كفاية الأدلة على إدانتها. ولم يستطع أن يفتقر لليهود إنجابهم المسيحية. "حين رأى المسيحيين يلعنون اليهود يخيل إلى أنني أرى أبناء يضرّبون آبائهم"(112). ولم يكذب يتيبين في العهد القديم شيئاً سوى سجل للقتل، والفسق، والاعتبال بالجملة، ورأى في سفر الأمثال "مجموعة من الحكم التافهة، القذرة، والمهلهلة، المجردة من الذوق، أو للاختيار، أو الهدف"، أما نشيد الإنشاد فهو في نظره "قصيدة حماسية سخيفة"(113). على أنه أتى على اليهود لإنكارهم القديم للخلود، ولامتناعهم عن التبشير بعقائدهم، ولتسامحهم النسبي؛ فالصدوقيون أنكروا وجود الملائكة، ولكنهم لم يعانوا من أي اضطهاد بسبب هرطقتهم.

أكانت فضائله ترجح رذائله؛ أجل، حتى ولو لم نضع في الميزان صفاته العقلية مع صفاته الخلقية. فأمام شحه يجب أن نضع سخاءه، وأمام محبته للمال تقبله البشوش للخسائر واستعداده لاقتسام مكاسبه مع غيره. استمع إلى كوليني، الذي لا بد قد عرف عيوبه لأنه عمل سكرتيراً له سنين كثيرة:

صفحة رقم : 13061

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير الصميم

"ما من دعوة أكذب من تهمة البخل التي يرمى بها... فلم يكن للبخل مكان في بيته. وما عرفت رجلاً يستطيع خدمه أن يسرقه بسهولة أكثر لقد كان ضئيلاً بوقته فقط... وكان له من أمر المال المبادئ التي يهتدي بها في أمر الوقت؛ فمن الضروري في رأيه أن تقتصد لكي تسخو فيه" (114).

وتكشف رسائله عن بعض الهبات الكثيرة التي وزعها، دون أن يعلن عن اسمه عادة، لا على أصدقائه ومعارفه فحسب، بل حتى على أشخاص لم يره قط (115). وسمح لباعة الكتب أن يحتفظوا بالبريخ الذي يجنونه من كتبه. وقد رأيناها يسدي العون للأنسة كورنبي؛ وسنراه يساعد الأنسة فاريكور. ورأيناها يعين فوفنارح ومارمونتيل؛ كذلك فعل مع لاهارب، الذي فشل مسرحياً قبل أن يغدو أقوى نقاد فرنسا أثراً، فطلب فولتير أن يعطي نصف معاشه الحكومة البالغ ألفي فرنك للاهارب دون أن ينبئه بحقيقة المعطي (116). كتب مارمونتيل "يعلم الجميع مبلغ العطف الذي كان يحبوا به الشبان الذين يبدون أي موهبة للشعر" (117).

وإذا كان فولتير الواعي بضالة جسيمة، لم يؤت شجاعة بدنية تذكر (إذا ترك الكابيتين بوجار يضربه بالعصا عام 1722) (118)، فإنه أوتي من الشجاعة الأدبية قدراً مذهلاً (فقد هاجم أقوى مؤسسة في التاريخ، وهي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية). وإذا كان عنيفاً في الخصومة، فإنه كان سريع العفو عن خصومه الذين يسعون إلى الصلح معه، "فكان غضبه يزول لأول رجاء" (119). وكان يغدق الحب على كل من طلبه، وكان وفياً لأصدقائه. فلما افترق عن فاجنير بعد عشرة أربعة وعشرين عاماً "بكي كالأطفال" (120). أما عن فضيلته في أمر الجنس فقد كان فوق مستوى جيله مع مدام دوشاتليه، ودون ذلك المستوى مع ابنة أخته. وكان متسامحاً مع الفوضى الجنسية، ولكنه يغضب غضبة مضرية على الظلم. والتعصب، والاضطهاد، والنفاق، وفظاعات قانون العقوبات. وقد عرف الفضيلة بأنها "البر بالبش". أما فيما عدا ذلك فقد كان يسخر من المحظورات، ويستمتع بالخمير، والنساء، والغناء، في قصد فلسفي. وفي أقصوصة سماها "بابابيك"

صفحة رقم : 13062

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير الصميم

رفض الزهد بما هو معهود فيه من تهكم موجه. فترى أومني يسأل البرهمي "أهناك أمل في أن يبلغ في النهاية السماء التاسعة عشرة؟".

ويجيب البرهمي "هذا يتوقف على نوع الحياة التي تحياها. إنني أحاول أن أكون مواطناً صالحاً، وزوجاً صالحاً، وأباً صالحاً، وصديقاً صالحاً، وأحياناً أقرض المال بغير ربا للأغنياء، وأتصدق على الفقراء، وأحفظ السلام بين جيراني".

فيسأل البرهمي "ولكن أقرض المسامير أحياناً في عجزتي؟".

"أبدأ يا أبي المبجل"

ويجيب البرهمي "إذن فأنا أسف، لأنك لم تبلغ السماء التاسعة عشرة، ما في ذلك ريب" (121).

أما فضيلة فولتير المتوجة لفصائله المكفرة عن سيئاته، فهي إنسانيته. لقد حرك ضمير أوروبا بحملاته دفاعاً عن آل كالايس وسيرفانس. وشهر بالحرب باعتبارها "الوهم الكبير". "فالأمة الغالبة لا تقيد إطلاقاً من أسلاب الأمة المغلوبة؛ وهي تدفع ثمن كل شيء، وتعاني حين تنتصر جيوشها قد معاناتها حين تنهزم" (122). وأياً كان الفريق المنتصر، فإن الإنسانية خاسرة على الحالين". وقد ناشد الناس في شتى الظروف والأقطار أن يتذكروا أنهم أخوة؛ واستمع الناس إلى ذلك النداء بشكر وعرفان في مجاهل أفريقيا (123). كذلك لم تصدق عليه التهمة التي وجهها روسو للذين بشروا

بحب البشر ووسعوا هذا الحب توسيعاً لم يترك فيه مكاناً لجبراته؛ فكل الذين عرفوه تذكروا عطفه ومجاملته لأقل الأشخاص المحيطين به شأنًا. كان يحترم كل نفس، عارفاً حساسيتها لأنه يعرف حساسيته (124). وقد واصل كرم ضيافته رغم ما فرض عليها من مطالب باهظة. كتبت مدام دجرافيني "كم تأثرت حين وجت فيك من الطيبة ما لا يقل عما فيك من العظمة، ورأيتك تفعل لكل من يحيطون بك الخير الذي كنت تود أن تفعله للبشرية جمعاء" (125). وكان أحياناً

صفحة رقم : 13063

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> فولتير الشيخ -> فولتير الصميم

نزقاً يتجبر غضباً، ولكن "لا يمكن أن تتصور أبداً مبلغ ما في قلب هذا الرجل من طيبة كما كتب عنه زائر آخر" (126).  
وإذ ذاع صيت العون الذي يسديه للمضطهدين في أوروبا، وانتشرت الأنباء في فرنسا عن بره وإحساناته المستورة، تشكلت صورة جديدة لفولتير في ذهن الجماهير. فلم يعد عدو المسيح، ولا المحارب لدين يحبه الفقراء؛ بل أصبح منقذ آل كالاس، وسيد فرنيه الطيب، والمدافع عن عشرات من ضحايا العقائد المترتبة والقوانين الظالمة. وقال قساوسة جنيف إنهم حائزون في موقفه وإياه في يوم الحساب، فهل إيمانهم يعدل أعمال هذا الزنديق (127). وغفر له المتقفون رجالاً ونساءً زندقته، ومشاجراته، وغروره، لا بل خبثه، ورأوه يتحول من الخصومة إلى السماحة، فنظروا إليه الآن نظرتهم إلى الأب الجليل للآداب الفرنسية، وفخر فرنسا أمام العالم المثقف. ذلك هو الرجل الذي رحبت حتى جماهير العامة بمقدمه حين جاء إلى باريس ليموت.

صفحة رقم : 13064



منتدى حديث المطابع  
موقع الساخر

[www.alsakher.com](http://www.alsakher.com)